صالح أحمد العلي :

23 دراسة - 931 صفحة.

(1) الخراج وكتاب أبي يوسف فيه، مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد، ع 2، 1974، ص 265- 278. (ص2)

(2) امتداد العرب في صدر الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 32، ج 1+2، 1981، ص 3-56. (ص 17).

(3) مفاخرات الكوفة والبصرة، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 42، ج 3، 1992، ص 23-48. (ص 72).

(4) العطاء في الحجاز، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 20، 1970، ص 37-87. (ص 99).

(5) تاريخ العلم عند العرب، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 33، ج 4، 1982، ص 3-40. (ص 151).

(6) الألبسة العربية في القرن الأوّل الهجري، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 13، 1966، ص 41-62 و 418-425. (ص 190).

(7) قضاة بغداد في العصر العباسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 18، 1969، ص 145-208. (ص 220).

(8) تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 17، 1969، ص 50-69. (ص 286).

(9) مفردات اللغة العربية : منابع دراستها وتطورها، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 41، ج 01، 1990، ص 5-46. (ص 307).

(10) رصافة بغداد وأطرافها، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 41، ج 02، 1990، ص 5-59. (ص 350).

(11) أقوال العرب ومؤلفاتهم في الشعوب والبلدان، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 42، ج 03، 1992، ص 5-22. (ص 406).

(12) مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 14، 1967، ص 3-33. (ص 425).

(13) مصادر دراسة تاريخ الكوفة في القرون الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 24، 1974، ص 137-171. (ص 457).

(14) المعالم العمرانية في مكة المكرمة في القرنين الأوّل والثاني :

- (القسم الأوّل) مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 40، ج 1، 1989، ص 5-55. (ص 03).
- (القسم الثاني) مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 40، ج 2، 1989، ص 5-51.
- (القسم الثالث) مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 40، ج 3-4، 1989، ص 5-38.

(15) منطقة الحيرة : دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الأدبية، مجلة كلية الآداب العراقية، عدد 05، 1965، ص 17-44. (ص 137).

(16) مراكز الحركة الفكرية في صدر الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 31، ج 3، 1980، ص 3-33. (ص 166).

(17) سيرة الرسول (ص) ومدوّنوها الأوائل، مجلة آفاق الثقافة والتراث، (دبي)، س 11، ع 43، أكتوبر 2003، ص 51-63. (ص 198).

(18) تاريخ العلماء وفهارس المصنفات في المصادر العربية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 34، ج 1، 1983، ص 3-41. ص 212).

(19) ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 26، 1975، ص 71-107. (ص 252).

(20) السبط الثالث عشر، مجلة آفاق عربية، (بغداد)، عدد 01، 1976، ص 150-160. (ص 290).

(21) التدوين وظهور الكتب المصنّفة في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 31، 1980، ص 03-46. (ص301).

(22) كتب الهند والعلوم عند العرب، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 34، ج 03، 1983، ص 3-37. (ص 346).

(23) متطلبات البحث العلمي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 37، ج 03، 1986، ص 05-62. (ص 383).

الخراج وكتاب أبي يوسف فيه

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة كلية الإمام الأعظم ببغداد
العدد الثاني
1394هـ - 1974م
مطبعة العاني - بغداد

الخراج وكتاب أبي يوسف فيه *

الدكتور صالح احمد العلي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الخراج هو الضريبة التي وضعها المسلمون على الاراضي الزراعية في الاقاليم المفتوحة التي كانت أحوالهـا واوضاعها ، وخاصة في العراق ومصر ، تختلف عما هي عليه في المدينة والحجاز ، حيث ان الزراعة في الاقليمين الاولين كانت القوام الاساسي للمجتمع في حياته المعاشية والاقتصادية ، كما ان الجباية منها هي المورد المالي الرئيسي للدولة .

وكانت الزراعة في هذين الاقليمين قد وصلت درجة كبيرة من التقدم في سعتها وتنوع محاصيلها وأساليب العمل فيها ؛ وكانت الزراعة الحرفة التي يعمل فيها غالبية السكان والمصدر الاكبر للمواد التي يعتمد عليهـا الناس في غذائهم وفي صناعاتهم ، كما كانت من أهم مصادر الثروة لكثير من المثرين ، فضلا عن اعتماد الدولة على الجباية منها للعطاء ونفقات الجند والادارة .

ان هذه الاهمية الكبرى للزراعة قضت على الحكومات في العراق ومصر ، أن تولي عناية خاصة بالزراعة وتنميتها وتنظيم جبايتها ؛ وكانت العناية في العراق أكبر ، لان مناخـه منذ أقـدم الازمنة التاريخية شـبـه صحراوي ، وأمطاره أقل من ان تكفي للزراعة التي أصبحت لذلك تعتمد على الارواء ؛ ولماكانت أراضي العراق ، وخاصة في أواسطه وجنوبيه ، مستوية سهلة رخوة ملحية ، فقد اصبح الارواء المعتمد على الانهار والترع والقنوات يستلزم عناية خاصة ، ويتطلب من الحكومات قـدرة وخـبـرة واسعتين لكي تتمكن من القيام بالمشاريع الكبيرة ، والعناية بها ، والسهر على المحافظة عليها . وكان لابد ايضا من وضع التشـريعات الخاصـة لتنظيم العلاقات بين العاملين في الزراعة مع بعضهم ومع الحكومة . وقد تكونت على ممر العصور طبقة من الموظفين لهم خبرة واسـعة في شؤون الري

والزراعة وتقدير الخراج وجبايته، واعتمد الساسانيون على هؤلاء الموظفين في فرض نظامهم الاستغلالي الذي ارهق الفلاحين .

وقد اعتبر المسلمون أراضي الاقاليم المفتوحة « فيئا » للمسلمين ، أي ملكا للدولة ، فهي التي تقرر الضرائب عليها ، وتجبي مواردها ، وتنظم صرفها ، وقد اهتمت الدولة الاسلامية باعمار البلاد وتنظيم امر الخراج ، فعنيت باستصلاح الاراضي وتنظيم الاراضي وتنظيم الري ؛ وألغت كثيرا من القيود والضرائب الاضافية ، وتركت الارض بعمالها ؛ كما أبقت الكتاب الذين كانوا يقومون بالاشراف على تنظيم جباية الخراج بعد ان ضمنت سيرهم على القواعد التي أقرتها الدولة الاسلامية . وقد أباحت لهم ، استعمال الاساليب الكتابية واللغات التي درجوا على استعمالها، الى ان ولي عبدالملك بن مروان الخلافة فأمر بتعريب الدواوين ، أي انه ألزم هؤلاء الكتاب على استعمال اللغة العربية في معاملاتهم ، ولكنه لم يقصهم عن وظائفهم .

وقد أقرّ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه « خراج المساحة » أي وضع ضريبة ثابتة على الارض القابلة للزراعة تبعا لمساحتها وانتاجيتها ونوع المحاصيل التي تزرع فيها ؛ ولهذا النظام مزايا : فهو يؤمن للدولة موارد ثابتة مستقرة ، كما إنه يشجع الفلاحين على العمل في تحسين انتاجهم وزيادته ؛ اذ مادامت الضريبة التي تأخذها الدولة ثابتة ، فان كل زيادة في الانتاج تؤول الى الفلاح .

ان نجاح نظام « خراج المساحة » يتطلب استقرار الاحوال وثبات نظم الري ، والاراضي المزروعة ، والاسعار ، وتوفر الايدى العاملة في الزراعة ، غير ان كل هذه الاحوال تعرضت الى تبدلات كثيرة بعد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ؛ فقد تعرضت بعض الاراضي للخراب بسبب الملوحة أو قلة التصريف[1] .

---

(١) انظر في ذلك فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٩٢ ـ ١٩٣ ، وانظر عن الملوحة في العراق : Buring Salinity in Iraq

ثم ان عددا غير قليل من عمال الاراضي الخراجية هاجر الى الامصار الاسلامية وانتقلوا الى الاراضي التي استصلحها المسلمون وكانت أراضي عشرية ؟ هذا بالاضافة الى ما تعرضت له الاسعار من تبدلات ؟ وقد أشار أبو يوسف الى هذه التبدلات واثارها حيث قال « نظريات في خراج السواد وفي الوجوه التي يجبى عليها ، وجمعت في ذلك أهل العلم بالخراج وغيرهم ، وناظرتهم فيه ، فكل قد قال بما لا يحل العمل به ، فناظرتهم فيما كان ، وظف عليهم فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى خراج الارض واحتمال ارضهم اذ ذاك لتلك الوظيفة ، حتى قال عمر لحذيفة وعثمان بن حنيف (رض) لعلكما حملتما الارض ما لا تطيق .. فقال عثمان : حملت الارض أمراً هي له مطيقة ولو شئت لاضعفت ، وقال حذيفة ، وضعت أمراً هي له محتملة وما فيها كثير فضل . وان اراضيها كانت تحتمل ذلك الخراج وظف عليها ، اذ كان صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرا بذلك ، ولم يأتنا عن أحد من الناس فيه اختلاف .

فذكروا ان العامر كان من الارضين في ذلك الزمان كثيرا ، وان المعطل منها كان يسيرا ، ووصفوا كثرة العامر الذي لا يعمل ، وقلة العامر الذى يعمل وقالوا لو أخذنا بمثل ذلك الخراج الذى كان حتى يلزم للعامر والمعطل مثل ما يلزم للعامر المعتمل ، ثم نقوم بما هو الساعة غامر ولا نحرثه لضعفنا عن اداء خراج ما لم نعمله وقلة ذات ايدينا ، فأما ما تعطل منذ مائة سنة وأكثر وأقل فليس يمكن عمارته ولا استخراجه فى قريب ، ولمن يعمر ذلك حاجة الى مؤونة ونفقة لا تمكنه ، فهذا عذرنا في ترك عمارة ما قد تعطل » [٢] وقد ولدت هذه التبدلات في الاحوال مشاكل خطيرة ، وسببت للأمويين متاعب كثيرة ؟ فلما ولي العباسيون الخلافةاهتموا بأمر الخراج وعملوا على حل المشاكل الناجمة عنه ؟ وقد بدأ اهتمامهم بذلك منذ اوائل خلافتهم فارسل الخليفة ابو جعفر المنصور حمادا التركي لتعديل

(٢) كتاب الخراج ص ٤٨ ـ ٤٩ طبعة السلفية وهى التى اعتمدنا عليها .

السواد [٣] ، أما المهدي فقد أبدل خراج المساحة بنظام خراج المقاسة الذي يجبى فيه الخراج تبعا لمقدار الانتاج ، وليس لمساحة الارض الزراعة ؛ وبهذا النظام تراعى عند جباية الخراج التطورات والتبديلات التي قد تحدث على الزراعة • وقد أمر الخليفة المهدي أيضا برفع العذاب عن أهل الخراج[٤] وقد تتابعت عناية الخلفاء العاسيين بأمور الخراج ومشاكله ، وان دراسة تاريخ هذه العناية خارجة عن نطاق بحثنا الحالي لسعتها وامتداد زمنها •

وفي أوائل العصر العباسي بدأ تأليف الكتب عن الخراج ؛ وأقدم كتاب ألف عن الخراج هو الكتاب الذى ألفه أبو عبيد الله معاوية بن عبيدالله ابن يسار وزير المهدي ، وقد فقد هذا الكتاب ، غير انه بقي منه مقتطفات نقلهما قدامة بن جعفر من كتابه « الخراج وصناعة الكتاب »[٥] كما نقل منه فقرة أبو الحسن الماوردي فى كتابه « الاحكام السلطانية »[٦] غير أن الوزير أبو عبدالله بالرغم من كفاءته ، كان متهما بتصرفاته وبدينه ، مما دفع المهدي الى عزله وحبسه • ثم ان هذا الوزير كان الاصل كاتبا ولم يكن فقيها ، وكانت لهؤلاء الكتاب ثقافة خاصة ورثوها منذ القديم ، وكانت صلتهم بالفقه الاسلامي غير وثيقة •

وكانت في المجتمع تيارات ثقافية متعددة ومتعارضة ، وكان هذا التعارض مصدر اضطراب أشار اليه ابن المقفع في « رسالة الصحابة » ؛ وقد لاحظ الخلفاء العباسيون الاوائل هذه التيارات المتعددة وادركوا خطر تنوعها وتعارضها ، ففكروا بتوحيد النظم والقوانين والاحكام ؛ ولما كان هؤلاء الخلفاء حريصين على الاهتمام بالاسلام، لذلك لم يكن من المعقول ان يعتمدوا على الكتاب ذوي الثقافة الاعجمية[٧]،

(٣) الجهشياري : كتاب الوزراء ص ١٣٤ طبعة مصطفى السقا ورفقاؤه •
(٤) الجهشياري : ص ١٤٣ •
(٥) كتب الخراج وصنعة الكتاب ص ٩٩ طبعة بن شمش •
(٦) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٨٦ طبعة محمد صبيح •
(٧) انظر عن ثقافة الاعاجم كتاب « في ذم أخلاق الكتاب » للجاحظ وقد

فالتفتوا الى الفقهاء وخاصة من علماء أهل المدينة التي كانت اكبر مراكز العلم في الدولة الاسلامية • ويروى ان الخليفة المهدي سأل مالك بن أنس فقيه أهل المدينة ، تأليف كتاب في الفقه يسير عليه الناس[٨] •

ثم ولي الخلافة هارون الرشيد ، وهو أوسع الخلفاء العباسيين شهرة بين العامة والخاصة في الشرق والغرب ؛ ولهذه الشهرة مرتكزات ليس هناك مكان بحثها ؛ ويكفي ان نشير هنا الى قول الجاحظ انه « اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لاحد من جد وهزل »[٩] • كما ان الخطيب يشير الى مدى ازدهار بغداد في عهده حيث يقول ان بغداد « أكثر ما كانت عمارة واهلا في ايام الرشيد اذ الدنيا قارة المضاجع ، دارة المواضع ، خصيبة المراتع موروده المشارع »[١٠] •

ان هذه العظمة وهذا الازدهار لابد أن يكون من عوامل ومظاهر الامن والاستقرار والاهتمام بتنظيم امور الدولة ،وان تلقى شؤون الزراعة والريف والخراج النصيب الوافي من العناية ؛ ومن الطبيعي ان يلجأ الرشيد في الدراسة والتوجيه الى الفقهاء المتفهمين للروح الاسلامية والمنصرفين الى دراسة الشريعة •

وكان الفقهاء المسلمون الاولون من أهل الامصار ، وهي المدن العربية الاسلامية التي كانت تستقر فيها المقاتلة ويقيم فيها الولاة ؛ بذلك اهتم هؤلاء الفقهاء بصورة خاصة بما واجه أهل الامصار من القضايا ، أما القضايا التي تخص أهل الريف من الفلاحين والزراع فلم يكن لها نفس النصيب من العناية ؛ ومظهر ذلك ان الفصول التي خصصت في معظم كتب الفقه للمساقاة والمزارعة والمخابرة والمحاقلة ، أو للخراج ومقداره واساليب جبايته كانت اقصر بكثير مما خصص للابواب الاخرى • ثم ان الفصول التي

طبعه فنكل ضمن ثلاث رسائل للجاحظ ، ثم أعاد طبعه عبدالسلام هارون ضمن مجموعة رسائل للجاحظ •

(٨) الطبري : ذيل المذيل ص ١٠٦ ــ ١٠٧ •

(٩) تاريخ بغداد ١٤/١١ •

(١٠) تاريخ بغداد ١/١١٩ •

خصصت لهذه المواضيع كانت في الغالب تعالج احوالا سائدة في المدينة التي كانت لها ظروف خاصة من حيث ان كافة أهلها أسلموا منذ الهجرة ، وان الزراعة كانت تتطلب جهدا خاصا فرديا من حيث شحة المياه وقلة الانهار واعتماد الزراعة على مياه الآبار والعيون بالدرجة الاولى ، وكذلك قلة الملكيات الكبيرة وامتلاك عمال الارض مزارعهم فيها ، هذا الى ان معظم الاراضي في المدينة وحولها كانت في اول الاسلام مواتا ، او مزروعة شعيرا ونخيلا زراعة خفيفة ، فشجع الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء على احيائها واعمارها ، واهتم فقهاء المدينة ببحث القضايا المتعلقة بذلك من اقطاع وتحجير واحياء الموات • ثم ان الدولة لم تعتمد في مواردها على ما تجبيه من المزروعات في المدينة والحجاز ففرضت عليها ضرائب خفيفة نسبيا ، وراعت في تقديرها الجهد المبذول في اروائها ، فتنوعت الضرائب تبعا لأساليب الارواء ، وفيما اذا كانت قد سيقت بالسماء (المطر) أو بالساقية أو البعل والعثري •

ان تقدير هارون الرشيد للفقه الاسلامي وحرصه على جعله الاساس الذي يقوم عليه تنظيم الدولة من جهة ، ومكانة فقهاء أهل المدينة وقصورهم في دراسة مشاكل الزراعة والخراج من جهة اخرى ، حمله على اللجوء الى فقيه وثيق الصلة بعلماء المدينة من جهة ، وواسع الاطلاع على احوال العراق من جهة اخرى ، وكان هذا الفقيه هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن خنيس من سعد بن بحير بن معاوية الانصاري • المشهور بكنيته « أبو يوسف » •

ولد ابو يوسف في الكوفة سنة ١١٣ هـ ، وعني بدراسة الفقه والسيرة على شيوخ عصره في الكوفة والمدينة[١١] ، مثل هشام بن عروة ، والاعمش ، ويحيى بن سعيد ويزيد بن ابى زياد وعطاء بن السائب ، وابى اسحاق الشيباني ، وحجاج بن ارطاة ومحمد بن اسحق ، لكنه اختص بملازمة ابي حنيفة ، أعظم فقهاء أهل الكوفة في عصره ، وكان حرصه على العلم ،

(١١) انظر في ذلك الدراسة القيمة لمحمود مطلوب « ابو يوسف » : حياته وآثاره وآراؤه الفقهية بغداد ١٩٧٢م •

واستيعابه وألمعيته مبعث تقدير إستاذه أبي حنيفة كما انه كان يكن لأبي حنيفة التقدير الكبير ، وقد نقل في كتاب الخراج من آراء أبي حنيفة في أربعة عشر موضعا ، ووصفه « الفقيه المقدم » [١٢] غير انه رغم احترامه لاستاذه وتقديره لآرائه لم يكن مقلدا أعمى له ، فقد نقل كثيرا من النصوص والآراء عن غيره ؛ كما انه كانت له اجتهاداته الخاصة في كثير من القضايا الفقهية ، وعالج قضايا لم يعالجها شيخه ، وكان له اتجاه خاص في كثير من القضايا ؛ وقد اشارت المصادر الى عدد من قضاة بغداد وفقهائها ممن كان كل منهم على مذهب أبي يوسف .

ولعل من ابرز ما تميز به ابو يوسف هو اهتمامه بالحديث النبوي وكثرة اعتماده عليه ، ومن مظاهر ذلك انه روى في كتاب « الخراج » عن الرسول صلى الله عليه وسلم ستين حديثا مسندا . وقد حاز باهتمامه في الحديث النبوي تقدير علماء الحديث فقال عنه يحيى بن معين « ما رأيت في اصحاب الرأي اثبت في الحديث ولا أحفظ ولا اصح رواية من ابي يوسف » وقال عمرو بن محمد الناقد « أبو يوسف كان صاحب سنة » ووصفه احمد بن حنبل بانه « كان منصفا في الحديث » [١٣] .

ان أبا يوسف من الفقهاء الاولين البارزين القلائل الذين أشغلوا مناصب في الدولة ، فقد عينه هارون الرشيد قاضيا ، ثم جعله قاضي القضاة ، وهو منصب يتطلب ممن يشغله ان ينظر في القضايا التي يطلب الخليفة منه ابداء الرأي فيها ؛ بجانب أمور أخرى ؛ وقد أظهر من سعة الاطلاع ومرونة الفكر ما أكسبه ثقة الخليفة وأتاح له أن ينظر في عدد غير قليل من القضايا الخاصة للخليفة ، وبذلك كان وثيق الصلة بالحياة العامة وأمور الدولة ، كما ان تخصصه في الفقه كان يقضي عليه معالجة مختلف جوانب الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، ومن المعلوم ان الفقه الاسلامي شامل ، فيدخل

---

(١٢) كتاب الخراج ص ١٩ .

(١٣) انظر في ذلك « مناقب الامام ابي حنيفة وصاحبيه » للذهبي ص ٤٠ ـ ٤١ طبعة .

في ميدانــه العبادات والفرائض ، واحكام الاحوال الشــخصية من زواج وطلاق وميراث ، وكذلك المعاملات التي تدخل فيما نسميه اليــوم احكــام القانون المدني والتجاري ؛ كما يبحث في الجنايات والجراحات التي يدخل بحثها فيما نسميه اليوم القانون الجنائي • ويتناول الفقه ايضا ما يتعلق بمالية الدولة من موارد ومصروفات ، بما في ذلك زكاة المـال وصدقات الماشــية وعشور الزراعات والتجارات ، والضرائب التي على الاراضي المفتوحة ، اى الخراج •

اشارت المصادر الى اسماء بضعة كتب ألفهــا ابو يوسف في الفقــه ، ولكنها فقدت • وقد بقيت من كتبه كتاب « اختلاف أبى حنيفة وابن ابى ليلى » وكتاب « الرد على سير الاوزاعي » وكتاب « الآثــار » ؛ وقد طبعت هذه الكتب • ولكن اشهر كتبه هو كتاب « الخراج » الذى اشتهر به[14] ، وهو بعد كتاب ابى عبدالله بن يسار ، أقدم كتاب فى الخراج ؛ واول كتاب وصلنا في الموضوع ؛ ومنه نسخ مخطوطة فى مختلف مكتبات العالم ، وخاصة فى مكتبات تركية والهند وبعض البلاد العربية والاوربية[15] • وفي مكتبة الاوقاف ببغداد منه مخطوطات ؛ وله شرح بعنوان « فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج » ألفه عبد العزيز بن محمــد الرحبي • وقد طبع كتاب الخراج في بولاق ثم طبع في المطبعة السلفيــة ثلاث مرات (القاهرة ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ ، ١٩٦٢) وترجمه الى الفرنسية فاجان (١٩٢١) والى الانكليزية بن شمش (١٩٦٢) ؛ أما شرح الرحبي فقد طبع القسم الاول منه حديثا بتحقيق الدكتور أحمد عبيد الكبيسي (بغداد ١٩٧٣)•

ألف ابو يوسف كتاب الخراج مجيبا عن اسئلة وجهها اليه الخليفة هارون الرشيد • وقد ذكر نص بعض هذه الاسئلة فى مطلع الفصول التي دبجها ؛ غير انه لم يقتصر فى كتابه على الاجابة عن اسئلة الخليفة ، بــل

---

(١٤) انظر كتاب : « ابي يوسف : حياته وآثاره » لمحمود مطلوب ص ٩٩ ـ ١١٧ •

(١٥) انظر تاريخ الادب العربى لبروكلمان ٢٤٦/٣ الترجمة العربية •

بحث ايضا عـددا من القضايا فضلا عن مقدمة مسـهبة رائعة فى واجبات الخليفة ومسؤولياته •

وعنوان الكتاب « الخراج » لا يعبر عن محتواه ؛ فمع ان الخراج هو الموضوع الرئيسي الذى احتل جزءاً غير صغير من الكتاب • الا ان اسئلة الرشيد لم تقتصر على الخراج وحده ، كما ان الكتاب عالج باسهاب امورا اخرى مثل احكام الاراضي وملكياتها فى السواد والبصرة والحجاز وجزيرة العرب وخراسان ، وكذلك الزكاة والعشور ، واحكام المرتدين ، واحكام أهل الذمة والكنائس والبيع والجزية ، وبيع السمك في الآجام ، وأحكام الدعارة والمتلصصين وأباق العبيد ، ومعاملة أهل الحرب في دولة الاسلام ، والجواسيس والمرتدين وقتال أهل الشرك وأرزاق القضاة • وقد خص العراق والحجاز بالنصيب الاوفى من بحثه في أحكام الاراضي ، غير انه بحث أيضا أحكام اراضي البصرة وخراسان وجزيرة العرب •

ولما كان كثير من الاحكام الفقهية يقوم على أساس تاريخي ؛ فقد سـرد ابو يوسـف فى كتابه تفاصيل وافية عن فتـوح العراق وعن فتح الجزيرة ؛ وفصّل في قصة أهل نجران واحكام الخلفاء فيهم ، كما فصّل في تنظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه العطاء فى الحجاز • وقد قدم فى هذه الفصول التاريخية معلومات وافية تخالف فى بعض تفاصيلها ما تورده كتب التاريخ المتداولة ؛ ومما يزيد فى اهمية رواياته التاريخية انها اقـدم الروايات التي وصلتنا ، وان معظمها مستمد من المؤرخين من اهل الحجاز الذين لم تصلنا كتبهم فى التاريخ •

روى ابو يوسف فى كتاب الخراج ستين حديثا نبويا يتعلق معظمها باحكام الاراضي والضرائب وما يتصل بذلك من النظم ؛ ومن هذه الاحاديث خمس وخمسون مسندة اسنادا كاملا الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، اما الخمسة الباقية فقد ذكر انه روى كلا منها « عن بعض أشياخنا » ثم يسرد بعد ذلك السند الذى نقل عنه هؤلاء الشيوخ دون ان يصرح باسم الشيخ • وهكذا يذكر لكل حديث نبوي سنده الخاص ولا يجمع الاسانيد للحديث

الواحد كما فعل بعض العلماء الاولين كابن اسحق وابن سعد . ولا ريب في ان اهتمامه بضبط الاسانيد هو دليل على مدى التطور والاهتمام بهـا ، كما انه من العوامل التي دفعت علماء الحديث ورجاله الى تقدير ابى يوسف، كما يدفع الى التساؤل عن مدى دقة من يعتبر ابايوسف من اهل الرأى خالصاً.

وذكر ابو يوسف ايضا ثلاثين نصا معظمها مسندا اسنادا كاملا الى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالاضافة الى ثلاثين نصا آخر ورد من كل منها ذكر عمر رضى الله عنه ، ومن الطبيعي ان كثرة تردد اسم الخليفة عمر (رض) ترجع الى سعة الفتوح في زمنه وكثرة التنظيمات التي أقرّها وخاصة فيما يتعلق بالخراج والمالية والادارة . وذكر اربعة نصوص مسندة لابى بكر رضى الله عنه لكنه ذكر الخليفة الاول من ثمانية وعشرين نصاً آخر أورد فيها اسمه لعلاقته ببعض التشريعات . أما الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقد أورد ذكره فى تسعة عشر موضعاً ، وقد أورد للامام علي أحد عشر نصا مسندا بالاضافة الى ثلاثين مكانا اخر ذكر من كل منه اسم الامام علي رضي الله عنه لعلاقته ببعض الاحكام والاعمال .

أما الخلفاء الامويون فقد نقل عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز في ثمانية عشر موضعا معظمها كتب واحكام اصدرها هذا الخليفة الصالح ؛ كما ذكر الخليفة عبدالملك بن مروان مرة واحدة عند الكلام عن التعديل الذى اجراه على الخراج فى الجزيرة . أما الولاة ، فقد ذكر معظم ولاة الخلفاء الراشدين وخاصة فى العراق ، وأورد من العهد الأُموي ذكر ولاة عمر ابن عبدالعزيز (رض) وخاصة عدى بن ارطأة ، وعبدالحميد بن عبدالرحمن وميمون بن مهران كما ذكر الحجاج بن يوسف والي العراق في عهد عبدالملك وابنه الوليد . وفيما عدا هؤلاء لم يذكر أيا من الولاة الامويين ، كما انه لم يذكر أيا من الخلفاء العباسيين وولاتهم .

وقد نقل أبو يوسف في كتاب الخراج عن عدد من فقهاء أهل المدينة ، فقد روى عن الزهري في عشرين موضعا ، وعن ابن جريج في ثمانية مواضع ،

وعن سعيد بن المسيب في سبعة مواضع ؛ أكثرها عن طريق الزهري ؛ كما نقل عن مالك في موضع واحد • أما علماء البصرة فقد نقل عن أنس بن مالك في اثني عشر موضعا أكثرها رواية لاحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما نقل عن الحسن البصري في ٢٩ موضعا • غير أن أكثر نقله عن شيوخ أهل الكوفة • ولابد من الاشارة الى ان هؤلاء الفقهاء لم يكونوا شيوخه ، فلم ينقل عنهم مباشرة بل عن طريق شيوخه • كما ان مسانده ليست اقليمية صرفة ، فكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم او آراء فقهاء المدينة أوردها عن طريق شيوخه الكوفيين وهذه الصلات بين علماء الفقه والحديث تظهر « وحدة العلم »، وضعف اثر الاقليمية والعزلة ، فعلماء الكوفة او البصرة لم يكونوا بمعزل تام عن علماء المدينة وفقهائها ؛ بل كانوا يشاركونهم في بحث المشاكل الفقهية ويرون عنهم ايضا •

نقل ابو يوسف فى كتاب الخراج حوالي اربعمائة نص مسندة اسنادا كاملا صرح فيها باسماء شيوخه الذين نقل عنهم ، كما نقل سبعة وعشرين نصا مسندا ولكنه لم يذكر فيها اسم شيخه الذى اعتمد عليه ، بل اقتصر على القول « بعض أشياخنا » ، كما أورد ثمانية نصوص مسنده لم يذكر الشيخ الذى رواه عنه بل اقتصر على القول « شيخ من اهل الشام » « شيخ من اهل المدينة » « شيخ من أهل قريش » « شيخ من علماء البصرة » « غير واحد من علماء أهل المدينة » « بعض اهل العلم »[١٦] وكثرة مسانده تظهر مدى تأثره باهل الحديث واتباعه لاسلوبهم فى عرض علمهم ،وان النصوص التي لم يذكر فيها اسم شيخه ، هي من القلة نسبيا لدرجة لا تبرر اقصاءه عن جماعة أهل الحديث • ولعل اهتمامه بايراد مسانده كان من المبررات لتقدير علماء الحديث والرجال لابى يوسف •

ويختلف شيوخه في عدد النصوص الذين نقلعنهم فقد نقل نصا واحدا عن كل من ثمانية وخمسين شيخا ، ونصان عن احد عشر شيخا ، وثلاثةنصوص

---

(١٦) انظر مواضعها من الكتاب في فهرس الاسانيد من الطبعة السلفية •

عن ثلاثة شيوخ ، واربعة نصوص عن ستة شيوخ ، وخمسة نصوص عن اربعة شيوخ ، وستة نصوص عن شيخ واحد ، وسبعة نصوص عن ثلاثة شيوخ ، وثمانية نصوص عن شيخ واحد • ونقل اثنى عشر شيخا عشرة نصوص او اكثر من كل واحد •

ان الشيوخ الذين نقل عنهم نصوصا كثيرة هم محمد بن اسحق (٣٢) والاعمش (٢٥) ، والحجاج بن ارطأة (٢٣) وأشعث بن سوار (١٩) والحسن بن عمارة (١٦) والمغيرة (١٦) ، وهشام بن عروة (١٥) وابو حنيفة (١٤) واسماعيل بن ابى خالد (١٣) وسعيد بن ابى عروبة (١٢) وسفيان بن عيينة (١٠) ويحيى بن سعيد (١٠) • ويختلف طول النصوص التي نقلها أبو يوسف عن شيوخه ، فبعضها قصير لايتجاوز السطر ، وبعضها طويل قد يصل الى عدة صفحات : ومن النصوص الطويلة التي نقلها هي :ـ

فتح العراق عن ابن اسحق (١٤١ ـ ١٤٨ ـ وقصة اهل نجران عن ابن اسحق (٧٢ ـ ٧٥) وتنظيم الدواوين من غير واحد من علماء المدينة (٢٤ ـ ٢٦) وفتح العراق عن حصين عن ابن وائل (٢٩ ـ ٣٠) وفتح الشام والجزيرة عن شيخ من أهل الحيرة (٣٩ ـ ٤٢) وحكم ابي عبيدة في الكنائس والبيع والصلبان عن مكحول (١٣٨ ـ ١٤١) ويتضح من هذا ان النصوص المسندة الطويلة تتعلق كلها بالاحداث التاريخية ، والواقع ان هنالك نصوصا تاريخية مسندة غير قليلة اقصر من التي سبقت الاشارة اليها ، ولكن كلا منها لا يقل عن نصف صفحة ؟ وهذه النصوص التاريخية المسندة لا تقل عن ربع الكتاب •

وبجانب النصوص التاريخية والفقهية المسندة ، ففي كتاب الخراج صفحات كثيرة عرض فيها أبو يوسف معلوماته وآرائه ؟ ومن أبرز هذا النمط من العرض هي الفصول التي كتبها عن احوال الاراضي والخراج في العراق ؟ وهو موزع في عدة فصول غير متصلة منها « ما ينبغي ان يعمل به في السواد » (٤٢ ـ ٥٠) القطائع (٥١ ـ ٥٣) « باب في الزيادة والنقصان والضياع » (٨٠ ـ ٨٤ ، ٨٦) المقاسمة (٨٤ ـ ٨٦) « الجزائر من دجلة

والفرات والغروب » (٩١ ـ ٩٣) « القنى والآبار والانهار والشرب » (٩٤ ـ ٩٦ ، ٩٧ ـ ١٠١) والكلأ والمروج (١٠٢ ـ ١٠٣) « في تقبيل السواد واختيار الولاة لهم والتقدم اليهم (١٠٥ ـ ١١٢) والعشور (١٣٢ ـ ١٣٤) • وقد أورد بعض النصوص القصيرة المسندة في هذه الفصول الا ان غالبيتها العظمى سرد للأحوال القائمة ومقترحات بما يجب ان يعمل به • وقد عرض فيه معلومات قيمة جدا انفرد فيها عن أحوال الخراج في العراق ، واستعمل تعابير محلية كانت سائدة في عصره ، ثم بطل استعمالها فيما بعد على ما يظهر ، فبقيت غامضة ليس من السهل تحديد معناها بالضبط • ولعل هذه الفصول أقيم ما في الكتاب لمن يبحث في أمر الخراج وأحكام الاراضي فى العراق •

وفي كتاب الخراج أيضا فصول سرد فيها آراءه ومعلوماته من دون أن يعتمد على النصوص ؛ أو انه أورد في خلال اوفى نهاية سرده لكل فصل نصوصا قليلة نسبيا حول قضايا متعددة ؛ ومن هذه الفصول ما كتبه عن قسمة الغنائم (١٨) والركاز (٢١) والفيء والخراج (٢٤) وكيف فرض عمر لاصحابه (٤٢) وارض البصرة وخراسان (٥٩ ـ ٦٠) وموات الارض (٦٣ ـ ٦٤) والصدقات (٧٧ ـ ٧٩) واسلام قوم من اهل الحرب (٦٢) والمرتدين (٦٧) واهل القرى (٦٨) والتلصص (١٤٩) وقطع اليد (١٥٤) واللصوص (١٨٣) والاباق (١٨٤) وأرزاق القضاة (١٨٦) ومن مر بمسالح المسلمين (١٨٧) وسبي الذرية (٢٠٢ ـ ٢٠٤) • ومن حيث العموم فان العرض الذى يكثر فيه من ايراد النصوص يكثر فى القسم الاول من الكتاب ، أما السرد الذى يقل فيه الاعتماد على النصوص والاستشهاد بها فيكثر فى النصف الثاني من الكتاب •

لقد ذكرنا ان كتاب الخراج لابى يوسف هو من أقدم الكتب التي ألفت فى الخراج وأحكام الاراضي ، وان المعلومات التي فيه ، اوسع عما اوردته كتب الفقه العامة المعروفة ، وقد ألف من بعده عدد من الفقهاء كتبا خاصة في الخراج والاموال ؛ فقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست كتبا

عنوان كل منها « الخراج » ألفها الحسن بن زياد اللؤلؤي ، ويحيى بن آدم ، وجعفر بن مبشر الثقفي ، وداود الظاهري ، كما ذكر كتبا عنوان منها « الاموال » ألفها أبو عبيد القاسم بن سلام ، ومحمد بن مخلد الازدي ، وأحمد بن نصر الداودي ؛ هـذا فيما عـدا الكتب التي ألفها الكتاب عن الخراج • ولم يطبع من هـذه الكتب غـير كتاب الخراج ليحيى بن آدم ، وكتاب الاموال لابن سلام • كما انه لا توجد الا مخطوطة واحدة لكل من كتاب الازدي والداودي •

والواقـع ان كتاب « الخراج » ليحيى بن آدم و « الاموال » لابن سلام حضيا بعناية علماء السلف ، وكانت الكتب التي درسها فقهاء متأخرون بارزون كطرد الزينبي ، وابن تيمية ، وشهدة الابريه ؛ كما نقل عنهمـا عدد من المؤرخين كالبلاذري والطبري والخطيب البغدادي •

فاما يحيى بن آدم فقد اقتصر في كتابه عن الخراج على نقل النصوص ، وتناول بعض أحكام الخراج والاراضي ؛ فهي محدودة في نطاقها ، واما كتاب ابن سلام « الاموال » فهو كتاب غني جدا وواسع ؛ وتناول مواضيع كثيرة هي اكثر مما تطرق اليه ابو يوسف ، كاحكام الفتوح والجزيـة ، والخراج ، والعطاء ، والزكاة والعشور ، والنقود ، وبعض أحكام أهل الذمة • وقد اعتمد ابن سلام على ايراد النصوص وهي كثيرة جدا ، وفيها عـدد غير قليل لم يرد عند ابى يوسف • غير انه لم يعالج عددا من المواضيع التي انفرد ابو يوسف فيمعالجتها ، هذا فضلا عن ان آراءه الخاصة مقتضبة واكثرها تتعلق بامور لغوية ، لذلك تبقى لكتاب ابى يوسف أهمية خاصة لما انفرد به من معلومات عن مواضيع متعددة وبصورة خاصة عن أحوال الخراج في العراق •

لقد ذكرنا ان كتاب الخراج طبع في مطبعة بولاق وفي المطبعة السلفية ، وبين الطبعتين فروق قليلة ، غير ان الـكتاب لا يزال بحاجة الى طبعـة دقيقة تستوعب مقارنة النسخ المتعددة من مخطوطاته •

امتداد العرب في صدر الإسلام

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الثاني والثلاثون - الجزء الأول والثاني

1981 - 1401

امتداد العرب في صدر الاسلام

الدكتور صالح احمد العلي

(رئيس المجمع العلمي العراقي)

(١) العرب في شبه الجزيرة العربية

لم تكن في شبه جزيرة العرب عند ظهور الاسلام دولة واحدة تجمعها وتنظم امورها العامة ، فكان السائد فيها هو النظام القبلي الذي يجمع افرادا مرتبطين برابطة الدم ، وهي رابطة بيولوجية غير قابلة للتوسع او التقلص .

وكان في شبه جزيرة العرب عدد من المدن تقيم في كل منها عدة قبائل أو عشائر ، غير أن معظم هذه المدن كانت تفتقد سلطة مركزية قوية تعمل على صهر الجماعات القبلية أو العشائر التي تسكنها .

وكانت في شبه جزيرة العرب أيضاً عدة أمارات ، مثل آل الجلندي في عمان ، وهوذة بن علي الحنفي في وادي اليمامة ، وعدد من الأذواء الذين يسيطر كل منهم على منطقة يتوقف حجمها أو مدى سلطانه عليها على شخصيته وما تحت تصرفه من قوة أساسها قبيلته ومن ينظم إليه ، ولم يكن بعد زوال إمارتي المناذرة والغساسنة من هذه الامارات من له قوة واسعة ، وكان كل منهم منشغلا بمشاكله الخاصة ومصالحه الآنية دون أن تكون له أفكار عقائدية تجمع اتباعه وتطبعهم بطابع سياسي أو فكري موحّد أو مميّز .

وعند ظهور الاسلام كانت في الجزيرة روابط عامة تربط العرب كافة أبرزها اللغة العربية الفصحى التي كان يُنظم فيها الشعر والتي نزل فيها القرآن الكريم ، وهي لغة كانت عامة ومقدّرة ، بدليل أن القرآن الكريم أكد في ست آيات أنه نزل بها ، فكان غير ذي عوج ، وهو مبين ، وقد عملت عدة عوامل على نشر وتثبيت هذه اللغة العامة الفصحى .

ولاريب في أن اللغة العامة تُعبّر عن أُصول عرقية عامة ، فمن المعلوم أن شبه جزيرة العرب لم تكن مركز جذب ، وأحوالها الداخلية لا تشجع الهجرة إليها ، وقد بقيت الجزيرة مستقلة ولم تخضع لأي من الدول الكبيرة التي سيطرت على عدد من أقاليم الشرق الأوسط ، وأن العناصر الأجنبية التي دخلتها واستقرت فيها ، كالعبيد والتجار ورجال الأعمال ، كان عدد أفرادها قليلاً ، ودورهم أضعف من أن يؤثر في النقاء العام للدم العربي ، وهذا ما تظهره اللغة ، فقد اقتبس العرب وخاصة في مناطق الأطراف التي اتصلت بالأعاجم عدداً من المفردات الأعجمية ، ولكن هذه المفردات قليلة نسبياً ، ولم تبدل لغة العرب المقيمين في المناطق التي عاش فيها هؤلاء الأجانب.

إن الروابط العامة التي تجمع سكان الجزيرة ، وهي اللغة الفصحى المشتركة والدم النقي نسبياً ، رغم عمق جذورها ، لم تكن لها فاعلية ايجابية عميقة في الحياة العامة ، وخاصة في الحياة السياسية ، ولذلك ظلت الجزيرة مفككة سياسياً ، وكانت كل كتلة ، سواء كانت قبيلة أو مدينة أو إمارة أو دولة ، تنظر إلى مصالحها المحلية المحدودة ، فتكون هذه المصالح الرابطة الأساسية للمواطنين فيها ، ولذلك ظلت الروابط ذات الفاعلية السياسية محدودة في نطاقها وفي العناصر القائمة عليها . ومما زاد في تغلغل هذه المشاعر المحدودة أن أهل جزيرة العرب لم يتعرضوا لخطر عام قد يدفعهم للتكتل ، فان الدول الأجنبية التي احتكت بهم ، قصرت نشاطها على محاولة فرض سلطة محدودة وفي مناطق ضيّقة نسبياً ، ولم يحاول أي منها أن يُكوّن خطراً عاماً على كل الجزيرة ؛ غير أن السيطرة القوية الطويلة التي فرضتها الدول المجاورة على أطراف الجزيرة حصرت عرب الجزيرة في داخل جزيرتهم وأدت الى اقتصارهم على

الإكتفاء الذاتي في حياتهم ، رغم ما في هذا من عبء على حياتهم المادية في بلادهم التي لم تكن غنية في إنتاجها .

فبالرغم من وجود العناصر التي تقوم عليها القومية ، وهي الاشتراك في اللغة والاصول العرقية والمصالح المشتركة ، إلا أن هذه العناصر لم تقم بدور إيجابي في توحيد أهل الجزيرة وفي جعلهم يشعرون بالرابطة القومية العامة ، فظلوا مقتصرين على روابطهم المحلية القبلية ، وظلت العصبية القبلية هي القوة الرئيسة الفاعلة في المجتمع .

وقد أكدت الدعوة الاسلامية وخاصة في العهد الملكي على الوحدانية وفكرة البعث وما يتصل بهما من فهم جديد للخالق وللتنظيم الكوني ، وللعلاقة بين الانسان والخالق ، وأكد الاسلام على أهمية السلوك والمسؤولية الفردية في المجتمع [1] ولم يقتصر على جماعة معينة أو على أمة بذاتها ، بل كان دعوة للعالمين كافة ، فدعوته عالمية ، وهدفه إنشاء مجتمع عالمي ، فمُثُله عقائدية أخلاقية ، وأساليبه فكرية ، ونطاقه عالمي .

إن الدعوة الاسلامية كانت قائمة في أساسها على العقائد والأفكار ، وفي نطاقها وغايتها عالمية ، إلا ان معتنقيها من البشر ، والوسط الذي ستنتشر فيه إجتماعي ، وضمان نجاحها يتطلب إختيار أكثر الأوساط ملاءمة لتحقيق نجاحها . والواقع إن الإسلام لم يقف من الروابط القبلية أو القومية الموقف المعادي الذي وقفه من الشرك وما يتصل به ، فان نظرة الاسلام العالمية لم تحجب حقيقة أن الدولة التي يسودها والافراد والمؤمنين به كونوا عبر مختلف عصور التاريخ وفي مختلف الأماكن علاقات منوعة ومتعددة وخاصة في الميادين الإجتماعية والإقتصادية .

وفي القرآن الكريم إشارات واضحة الى الأوساط المحدودة التي أمر الله تعالى الرسول أن ينشر الدعوة الاسلامية بينها في المراحل الاولى ، فقد قال تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » « لتنذر أم القرى وما حولها » « وإنه لذكر لك ولقومك » . والواقع إن كل

(١) تم بحث المبادئ الأساسية للاسلام والآيات التي وردت فيها في كتابي « محاضرات في تاريخ العرب» الجزء الأول .

المسلمين الأولين من العرب ، وأغلبهم كانوا من الشخصيات المحترمة في عشائرها المكيـــة المتعددة .

أكدت الدعوة الاسلامية في العهد المكي على العقائد والأفكار ، إلا ان مقاومة المشركين تعبر عن رد فعل اجتماعي أكثر مما هو عقائدي ، ويتضح من الآيات القرآنية أن الواقفين بوجـــه الدعوة الإسلامية في مكة ، لم يكونوا من رجال الدين ، حيث إن القرآن الكريم لم يشر الى وجود « رجال دين» في مكة وانما ذكر ان الذين قاوموا الدعوة الاسلامية هم الكبراء والسادة الذين كانوا رأس المقاومة ومستقطبيها ، تدفعهم الى ذلك مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية ونفوذهم السياسي [٢] . .

لم ترد في القرآن الكريم كلمة « أُسرة » ولا كلمة « عائلة » ولكن ورد فعل «تعولوا» (النساء ٣) ، كما وردت كلمة « عائل » بمعنى قليل المال « ووجدك عائلاً فأغنى» .

ووردت كلمة العشيرة في ثلاث آيات قرآنية « قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم» «التوبة ٢٤» ، « ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم او إخوانهم أو عشيرتهم ، « المجادلة ٢٢ » « وأنذر عشيرتك الأقربين» (الشعراء ١٤» ووردت كلمة « قبائل » بصفة الجمع في آية واحدة (الحجرات ١٣) ، ووردت كلمة « قبيل » في آيتين (الأسراء ٢ ، الاعراف ٢٧) وصفاً لجماعة الملائكة .

إن الكلمة ذات مدلول التكتل الإجتماعي التي كثر ورودها في القرآن الكريم هي كلمة « قوم » حيث ذكرت في ٣٨٣ آية وكلها بمعنى جماعة اجتماعية تشد أفرادها روابط معينة تميزهم عن غيرهم ، وهي تعبر عن روح التكتل الجماعي ، ولكن القرآن الكريم لم يذكر ما يمكن معرفة حدودها وامتدادها ، ولكنها على أي حال لا يمكن اعتبارها مرادفة للقومية المعاصرة ، لان المشركين من قريش قوم متميزون ، وبعض الجماعات التي لها مع الرسول ميثاق هم أيضاً قوم متميزون .

(٢) انظر كتابي « محاضرات في تاريخ العرب » ٣٥٠/١ فما بعد .

إن أمر الله تعالى الرسول أن ينذر عشيرته الأقربين إنما هو أمر مرحلي في بداية الدعوة غرضه الإفادة من الأثر القوي للرابطة العشائرية في جلب الناس الى الاسلام ؛ والدليل على أنه مرحلي هو أن القرآن الكريم أمر بعد ذلك بنشر الدعوة في أم القرى وما حولها حتى في هذه المراحل الاولى من الدعوة الإسلامية .

لقد ذكرت المصادر أسماء العشرة الأولى من السابقين الى الإسلام ، كما حددت تاريخ إسلام بعضهم ، غير أنه من المؤكد أن ثمار الدعوة الاسلامية في مكة تجلت في المهاجرين ، وهم غالبية من أسلم ، ونقول غالبية وليس كل من أسلم ، ففي القرآن إشارات إلى عدد من المسلمين الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالهجرة ، غير اننا لا نعلم عددهم وعشائرهم بالضبط .

ويتبين من قائمة السابقين الى الاسلام ، وقائمة المهاجرين : —

١— أن غالبيتهم المطلقة من أحرار قريش وليسوا من منبوذيها أو حلفائها أو عبيدها .

٢— أنهم من عشائر متعددة ، وفيهم كثير من بني أمية وأقلهم من بني عبدالمطلب .

٣— أنهم كانوا متمسكين بالاسلام عقائدياً وليس بسبب المصالح الشخصية المادية .

٤— أنهم جميعاً من المقيمين في مكة ، اذ توقف الرسول عن محاولة بث الدعوة خارجها بعدأن لم يلق الإستجابة في الفترة القصيرة التي حاول فيها نشر الدعوة خارج مكة .

وكانت في المدينة عندما هاجر اليها الرسول جماعتان متمايز تان ، هما اليهود والعرب فأما اليهود فقد ذكرهم القرآن الكريم بدينهم « هود » (٣) هادوا (١٠) ، يهود (٩) وأكثر ما ذكرهم باسم بني اسرائيل (٤٣) وهو تعبير يسمهم بالقبلية اكثر مما يسمهم بالقومية ، والكلام عنهم يتناول عقائدهم أو تاريخهم المشترك ، والغالب أنه يقصد ببني اسرائيل القوم الذين عاشوا في الأزمنة القديمة وليس في زمن الرسول .

أما العرب فقد سمّاهم « الأنصار » (٣) وهو تعبير سياسي ديني اسلامي ، وسماهم أيضاً « أهل يثرب » وكلا التعبيرين لا يتصل بالقومية أو الثقافة .

قضى الرسول (ص) طيلة السنوات العشر الأخيرة من حياته في المدينة، ولم يخرج منها الا فترات قصيرة محدودة قاد خلال كل منها حملات لم تستغرق وقتاً طويلاً ، وصرف جهده في توضيح معالم الدين الاسلامي وتثبيته في النفوس ، وفي التنظيم السياسي والاجتماعي للمجتمع الاسلامي الذي كان يضم عشائر مختلفة . وقد اتضحت في هذه الفترة عالمية الدعوة وعمومية مُثُلها الإنسانية ، وانضم إليها عدد من غير العرب ، غير أن عدد هؤلاء المنضمين من غير العرب قليل جداً ، وهم أفراد ليسوا من ذوي المكانة العالية في المجتمع ، وأشهرهم ثلاثة هم سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وكلهم ممن أصابه الرق قبل إسلامه ، لذا بقي تعامله بالدرجة الأولى مع العرب ، سواء في داخل المدينة ، أو في خارجها عندما بدأ التوسع .

وكان كثير من سكان الحجاز بدواً متشبعين بالروح البدوية وتقاليدها التي كثير منها لا ينسجم مع المثل الروحية والأخلاقية الاسلامية ، كما أن ارتباطهم بالدولة غير وثيق ، فقد وقف بعضهم موقفاً معادياً من الدولة الجديدة ، وشن بعضهم غارات عليها واعتدي على أملاك المسلمين ومواشيهم ، واتخذ بعضهم مواقف قلقة غير مستقرة من دولة الاسلام ، فكانوا ينضمون إلى المشركين مرة ، والى المسلمين مرة أخرى ، كالذي فعله عيينة بن حصن الفزاري ؛ ومن حيث العموم لم تكن لاستجابتهم نفس قوة استجابة أهل المدن ، وكان لوقوع ديارهم بعيدة عن مقام الرسول أثر في بطء تشبعهم بروح الإسلام ومُثُله .

وقد أطلق القرآن الكريم تعبير الأعراب على هؤلاء البدو ، وذكرهم في عشر آيات كلها تعيب عقائدهم الضحلة وسلوكهم السياسي القلق « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » (الحجرات ١٤) « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» (التوبة ٩٧) «ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة » (التوبة ١٠) « سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا» (الفتح ١) «قل للمخلّفين من الأعراب ستُدعون إلى قوم أولي بأس شديد »

«وجاء المعذرون من الأعراب» (التوبة ٩٠) وانظر أيضاً التوبة ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٠ ، الأحزاب ٢٠) .

غير أن الانتقاد الموجه الى الموقف العقائدي السياسي القلق للبدو ليس معناه أن الرسول اعتبرهم أعداء ألداء للمسلمين ، كمشركي قريش ، ولذلك قصر موقفه على توجيه غزوات متفرقة غير ثابتة أو عنيفة ضدهم ، واكتفى منهم بإظهارهم الموقف السلمي المؤيد ، أو على الأقل غير المعارض ، فلم يجبرهم على الهجرة إلى المدينة ، ولم يفترض أن يتشبعوا بين عشية وضحاها بروح الاسلام ، وهذا واضح من مدلول الآية القرآنية « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » وقد أدى إسلام هؤلاء الأعراب وبقاؤهم في ديارهم إلى توسع دولة الإسلام لتشمل ديارهم أيضاً ، وبذلك كوّن الأعراب قسماً كبيراً من مواطني الدولة الجديدة ، وساهموا في الاعمال الحربية الكبيرة التي قام بها الرسول (ص) .

وكلمة «الاعراب» المذكورة هي تعبير حضاري سياسي ، والمقصود بها الجماعة الذين يسكنون البادية وتجرى حياتهم على نمط حياة أهل البادية ، وهم مرتبطون سياسياً بدولة الاسلام ولكن سكناهم خارج المدينة ، وعدم تشبعهم بروح الاسلام ، ومبادئهم جعلهم يختلفون عن إخوانهم من نفس عشائرهم الذين أسلموا وهاجروا الى المدينة واستوطنوها ، فالأعراب لا يتميزون بلغة أو لهجة خاصة أو بأصول من العرق والدم والوراثة ، بل بأسلوب الحياة والموقف السياسي الذي كثيراً ما يظهر مبايناً لما في مركز الدولة وقلبها من أوضاع ونظم . والأعراب رغم اشتراكهم في عدد من الخصائص العامة ، إلا انهم لم يكوِّنوا كتلة متماسكة متميزة، بل ظلوا قبائل وعشائر متفرقة في مواطنها ومواقفها إلا ما فرضه عليهم الإسلام من الارتباط به عقائدياً وسياسياً .

إن تحرك الرسول (ص) لزيارة مكة والذي انتهى بصلح الحديبية ، كان أوسع تجمع لنشاط يجري خارج المدينة ، وقد ذكر ابن اسحق فيه أن الرسول(ص)« إستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه . فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج

رسول الله (ص)بمن معه من المهاجرين والانصار ومن معه من العرب[٣] .

ذكر ابن اسحق في هذا النص المهاجرين والأنصار ، والأعراب أهل البوادي والعرب ، ويظهر من الشطر الأول أن العرب والأعراب كانوا يقيمون خارج المدينة ، وأن الذين ساروا مع الرسول هم المهاجرون والأنصار (أي مسلمي المدينة) والعرب ، غير أن دراسة المشاركين بالحديبية ، وكذلك بغزوة خيبر التي اقتصرت على من شارك في الحديبية[٤] ، لا يظهر فيها غير مسلمي المدينة والقبائل التي حولها ، مما قد يدل على أن كلمة (العرب) قد اقحمت في النص دون أن تكون لها دلالة محددة لتمييز جماعة عن غيرهم .

ويذكر إبن إسحق أن مشركي قريش لما أصرّوا على عدم دخول المسلمين مكة قال الرسول (ص) « يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين »[٥] .

إن هذا النص يظهر أن الرسول (ص) كان يريد، بعد تأمين خطر تهديد قريش، أن يركّز على نشر الدعوة بين العرب الذين يدل سياق الكلام على أن المقصود بهم أهل الجزيرة عموماً بصرف النظر عن أوضاعهم أو مستوياتهم الحضارية .

إن نشر الاسلام بين العرب المقيمين في جزيرة العرب ، هو الخطوة الثانية التي كان لا بد من العمل على تنفيذها بعد تحقيق الخطوة الاولى وهو تأمين خطر تهديد قريش ، وهذا لا ريب في أنه تدبير منطقي ومرحلي ، فأما أنه منطقي فلأن العرب كانوا هم سكان جزيرة العرب ، فهم المتصلون بدولة الاسلام والمحيطون بها ، ولمّا تزل الدعوة الإسلامية وثيقة الصلة بهم ، ولا يمكن توسيع نشر الاسلام قبل إتمام نشره في الجزيرة .

---

(٣) سيرة إبن هشام ٣/٢٥٥-٦ .
(٤) الطبقات لإبن سعد ٢ - ١/٧٦ .
(٥) كذلك ٣/٥٢٧

غير أن الاهتمام بنشر الإسلام بين عرب الجزيرة كخطوة ثانية ، لا يعني أن الرسالة الاسلامية كانت إقليمية محدودة أو محلية ضيقة أو أنها كانت ذات هدف وقتي ، وأما أنها كانت إنسانية عالمية فهذا واضح من الآيات الكثيرة التي نزلت حتى ذلك الوقت تؤكد أن الله تعالى أرسل الرسول للناس كافة ورحمة للعالمين ، وأما أن هدفه لم يكن ضيقاً أو قصيراً فيتوضح من الرسائل المتعددة التي وجهها الرسول بعد الحديبية الى حكام الدول والأقاليم في خارج الجزيرة ، وكل هذه الرسائل تعلن الاسلام وتعرف به وتدعو الى اعتناقه .

إن السلم الذي حققه صلح الحديبية مع مشركي قريش ، هيأ للرسول (ص) الفرصة لزيادة توسيع الدولة الاسلامية ، ونشر الاسلام ، والواقع انه حالما عاد الى المدينة بعد إتمام صلح الحديبية توجه الى الشمال وأخضع المستعمرات اليهودية كافة في شمال الحجاز ، بما في ذلك خيبر وفدك ووادي القرى ، ثم انه ثبّت سلطة الدولة على الأعراب ، وضم اليها عدداً من القبائل والعشائر التي لما تكن قد اعتنقت الاسلام ، أو انضمت إلى دولته ، فلما تقدم الرسول (ص) لفتح مكة كان معه عشرة آلاف مقاتل من المسلمين [٦] ، وكلهم طبعاً من العرب ، وهو أكبر جيش شهدته الجزيرة خلال قرن من الزمن على الأقل .

كان فتح مكة حدثاً خطيراً في تاريخ الدولة الاسلامية ، فقد انتهى به ذلك الصراع الدامي المرير الذي استمر سنوات عديدة أخذ فيه معظم وقت الرسول (ص) وجهده ، وبهذا الفتح أُزيلت العقبة الرئيسة بوجه نشر الاسلام وتوسيع دولته ، وزال الشرك من مكة ، وأصبح كل أهلها مسلمين ، ولم ينتقم الرسول من أهل مكة بل أمّنهم وعاملهم باللين والحسنى ، وأغدق الهبات على زعمائهم « ليؤلف قلوبهم » إلى درجة اغاظت بعض الأنصار وحملتهم على الاحتجاج عليه . وظلت مكة حرماً مقدساً وقبلة الصلاة ومركزاً للحج ، وأُبقيت مراسم الحج وشعائره مع تعديلات بسيطة ، وبقيت الوظائف المتعلقة

---

(٦) الطبري ١٦٢٨/١

بالحج ، كالسقاية وعمارة البيت ومفاتيح دار الندوة ، بيد أصحابها ، وعيّن على ادارة مكة شاباً أموياً من أهلها ، وهو عتاب بن أسيد .

وقد قدّر أهل مكة حسن معاملة الرسول لهم ، وأدركوا أن الاسلام يُبقي لمكة مكانتها الدينية وقدسيتها ، ويوفر لهم تأمين وتوسيع مصالحهم المادية ، فأعلنوا إسلامهم وتمسكوا بدولة الاسلام وبقوا عليه ، فلما توفي الرسول (ص) لم يرتدوا بينما ارتدت معظم العرب (٧) .

وكان من أهم نتائج فتح مكة ان علت سمعة الرسول (ص) في الجزيرة العربية وأدركت القبائل قوته وسلطانه ، كما شعرت أن الدين الجديد كان يهدف إزالة الفاسد من نظمهم ولذلك بدأت وفود القبائل تأتيه من مختلف انحاء الجزيرة وأطرافها معترفة برسالته ومعلنة إسلامها وطاعتها . وقد حفظت كتب السيرة والتاريخ أخبار عدد من هذه الوفود وأسماء رجال بعضها وشروط مبايعتهم وما كتب الرسول لهم من كتب (٨).

وقد قبِل الرسول (ص) إسلام هؤلاء الوفود ، واعتبره معبراً عن إسلام قبائلهم ولم يفرض عليهم تبديل أماكن سكناهم ، أو تغيير نظامهم القبلي وتنظيماته بل اكتفى بالسيادة الإسمية وفرض الصدقة ، وكان مقدارها صغيراً ، لا يتجاوز ٢٫٥ ٪ ويبدو أنها كانت تؤخذ من حواشي أموال الاغنياء ، لتصرف على الفقراء من من اهل القبيلة ذاتها ، والراجح ان رؤساء العشائر أنفسهم في معظم القبائل كانوا يقومون بجمع الصدقات وتوزيعها على المعوزين في العشيرة ، وأن قليلاً جداً من هذه الصدقات كانت ترسل إلى المدينة ذاتها .

ومن أهم نتائج هذه السياسة هو انتشار الأمن والسلام في الجزيرة ، وبداية طاعة العرب لسلطة مركزية واسعة وخارجة عن نطاق القبيلة الضيق ، كما أنهم اصبحوا جميعاً ضمن دولة واحدة تعلو فيها كلمة الله ويظلها الاسلام ، وهذه الدولة تجمع العرب

(٧) الطبري ١/١٨٧١

(٨) جمع حميد الله كتب الرسول الى وفوده في كتابه «الوثائق السياسية في عهد الرسول والخلافة الراشدة»

وتوحدهم سياسياً وتجمعهم عقائدياً ، فيرتبطون جميعاً برابطة واحدة هي فوق الروابط القبلية وعصبياتها المحدودة الضيقة .

ولما توفى الرسول (ص) إنتُخب أبو بكر بعد مناقشات قصيرة تمت في المدينة وشارك فيها القاطنون في المدينة ، غير أن بعض القبائل كانت تتصور أن التزاماتها تجاه الاسلام ودولته هي إلتزامات تجاه شخص الرسول (ص) ، فلما توفى (ص) ظنوا أنهم في حل من هذه الالتزامات ، وأرادوا التحلل منها ورفضوا الاعتراف بخلافة ابى بكر ، ونشط عدد من الانفصاليين ومدّعي النبوة ، الامر الذي عرض الدولة الاسلامية الجديدة الى التفكك والى خطر تجدد الحروب الداخلية .

واجه أبو بكر هذه الأخطار ، وأدرك أن تساهله سيؤدي الى تفكيك الدولة والمجتمع الاسلامي ، والى هدم ما بذل الرسول (ص) خلال سنوات طويلة في تكوينه وتثبيته .

وكان أبو بكر يرى أن التزامات القبائل والمسلمين هي لدولة الإسلام وأنها تظل باقية تجاه كل من يرأس تلك الدولة ، باعتباره خليفة الرسول (ص) اي وريثه في المركز السياسي ، لذلك يجب أن تبقى له كافة ما للرسول (ص) من حقوق والتزامات ، وأن واجبه الإستمرار بما قام به الرسول (ص) من الناحية السياسية ، وانه اذا فرّط في أي شيء منها فانه سيفرط في الدين الاسلامي الذي سيكون نطاقه محصوراً ، ويتعرض لتهديدات الانفصاليين الذين يريدون بقاء النظم والأفكار البالية التي عمل الإسلام على إزالتها .

لذلك أصر أبو بكر على وجوب إقرار القبائل واعترافهم بسيادته ، باعتباره خليفة للمسلمين ورئيساً للدولة الاسلامية . وقام من أجل ذلك بتجهيز قوات عسكرية استطاعت أن تتغلب على المنشقين والإنفصاليين أو المرتدين وبذلك أعادت وحدة الدولة ، وثبتت سلطان الخلافة . وركز فكرة سيادة الدولة وسلطانها الأعلى في الجزيرة العربية .

وكانت قد ظهرت في أواخر حياة الرسول حركات محلية إنعزالية قادها بعض الأفراد متبعين اساليب منوعة ، فبعضهم ادعى النبوة ، وبعضهم اقتصر على التمسك

بزعامته السياسية. ولكن كافة هذه الحركات الانعزالية رغم تفرقها تتسم بخصائص متشابهة، فكل منها لا تقر بسلطة الرسول ولا تتعاون معه، كما أن كلاً منها كان أنصاره من العرب، وتعتمد في وجودها ومدى قوتها على شخص رئيسها، ولم يكن لأي منها فكرة واضحة دافعة عن إيجاد نظام شامل لكل العرب، كما أنه لم تجر بينهم أية محاولة للتعاون أو تكوين جبهة موحدة تقف بوجه توسع الدولة الاسلامية في الجزيرة.

لقد نشطت هذه الحركات على أثر وفاة الرسول وازداد عددها بما انضاف إليها من حركات ذات موقف سلبي من الدولة الاسلامية الجديدة، أي انها إنعزالية مفرقة تتسم بالرجعية دون أن يكون لأي منها فكرة جديدة تجمع أنصارها وتحركهم. وقد استطاع الخليفة الأول أبو بكر الصديق من القضاء على كافة هذه الحركات، فثبّت مكانة الخلافة كسلطة عليا لم يعد وجودها موضع نقاش، بصرف النظر عن الخلافات حول أشخاص شاغليها، كما أنها أكملت وثبتت وحدة الجزيرة في دولة واحدة تقوم على فكرة عامة عليا جديدة، وهي الاسلام، وتدفع معتنقيها الى الحركة والتوسع.

وبعد القضاء على حركات الردة أصبحت دولة الاسلام تشمل كل الجزيرة، وصار مواطنوها كلهم تقريباً من العرب، تجمعهم دولة واحدة، ودين واحد ولغة واحدة تعبر عن ثقافة وأصول مشتركتين، وكانت السلطة المركزية تؤكد على هذه الروابط المشتركة وتعمل على جعلها ذات فاعلية.

ولا ريب في أن الدين هو القوة الفاعلة والفكرة الأساسية في الدولة الجديدة، إلا أننا يجب أن نلاحظ أن أحكام الدين ومبادئه واسعة، فهي تشمل الأفكار عن الخالق والكون، وعن علاقة الفرد بالخالق وبالمجتمع، وما يتصل بذلك من جوانب أخلاقية واجتماعية واقتصادية، واذا كان العرب قد عرفوا كثيراً من جزئياتها وألفوها، فان الصورة الكلية الشاملة هي جديدة عليهم، وأن حركات الردة تظهر عدم إقبالهم على تقبلها تلقائياً والواقع أن معظم أهل الجزيرة ظلوا يتسمون بالأعرابية التي أساسها العصبية القبلية والمثل البدوية، وقد تطلب إزالة هذه السمة واحلال الأفكار الدينية في حياتهم وقتاً غير قصير.

لم تقم الدولة الجديدة بعمل إيجابي حازم لاجتثاث التنظيم القبلي والروح القبلية الأعرابية التي عند ازدياد عنفها تناقض وتهدد الرابطة العامة للدولة كما تهدد مثلها الدينية الجديدة، غير أن قيام هذه الدولة وترسخها جعل لها اليد العليا والمكانة الأولى لمنعها، وهكذا ضبطت الروابط القبلية ووجد مناخ جديد لتثبيت وتنمية الرابطة العامة للدولة الجديدة، أي رجحان العوامل الموحدة لهذه الدولة الجديدة. ولاريب في أن أبرز هذه العوامل الموحدة هي اللغة العربية وما يتصل بها من أفكار ونظرات وثقافة وأصول مشتركة.

ونظراً لقدم هذه اللغة، وعمومية استعمالها، وتقدير العرب إياها واعتزازهم بها، هذا بالإضافة إلى أنها أساسية للدين الإسلامي الجديد باعتبارها لغة القرآن الكريم، ولغة الفرائض الاسلامية ولغة الرسول، فقد أصبحت قوة فاعلة في توحيد مجتمع الدولة الجديدة.

إن بروز اللغة كعامل موحد، وتثبت الدولة كمعبر عن المصالح المشتركة أدى الى إنماء الدولة الجديدة عملياً الظواهر التي نسميها اليوم مقومات القومية، فالواقع أن عرب الجزيرة أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين، كما أن دولة الاسلام في هذا الوقت كانت تشمل الجزيرة فحسب، أي أنها أصبحت دولة العرب.

غير أنه لابد من الإشارة إلى أن عدداً من العرب ظلوا حتى في الجزيرة غير مسلمين، كبني الحارث بن كعب في نجران، وربما عدد من النصارى في أماكن اخرى؛ وقد أباح الإسلام بقاء معتنقي الأديان السماوية الأخرى التي اعتنقها عدد من العرب، وخاصة النصرانية، ولكنه لم يقر بقاء الشرك والوثنية. وقد اعتنق بعض غير العرب الإسلام، ولكن عددهم كان قليلا جداً في هذا العهد المبكر.

ولما انتهى أبو بكر من القضاء على أخطار حركات الردة وجه الجيوش الى الأقاليم المجاورة، ومع أن أبا بكر لم يستخدم المرتدين [٩] إلا أن جيوشه ظلت من العرب،

(٩) الطبري ١/٢٠٢٠، ٢٢٢٥، ٢٤٥٨

كما أنه أختار قواده من العرب، ويلاحظ أنه لم يراع في اختيار القواد أسبقيتهم في الإسلام، فكل قواده الكبار تقريباً، وهم خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد، ويزيد بن ابي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وعكرمة بن أبي جهل، هم ممن أسلم بعد الحديبية كما أنهم جميعاً من أهل مكة، وإن كانوا من عشائر متعددة، وان الإنجازات العسكرية العظيمة التي حققها هؤلاء لا تعنى أنهم احتكروا خبرة القيادة العسكرية، بدليل ظهور عدد آخر من عظماء القواد بعدهم بقليل. وقد يكون اختيارهم من أهل مكة لشدّ أهلها بالاسلام بعد أن وقفوا موقف المؤيد ولم يرتدوا، أو قد يكون اختيارهم راجعاً الى إدراك ابي بكر تقدير العرب مكانة أهل مكة فاختار قادته من أهلها، وعلى أي حال فإن هذا الإختيار عزز مكانة أهل مكة في الدولة الجديدة، فلم تعد المكانة الكبرى حكرا للمقيمين في المدينة التي ظلت محتفظة بمركز القيادة لوجود الخلافة والمهاجرين والانصار من الصحابة الأولين فيها. فأبو بكر لم يعتبر السابقة في الاسلام شرطاً أساسياً لإختيار القادة، كما أنه لم يراع العصبية القبلية بدليل أنه اختارهم من قبائل متعددة، وليس فيهم أحد من عشيرته (تيم) غير أنه لم يختر قائداً من القبائل العربية في الجزيرة، وهي التي كونت عظم الجيوش الاسلامية.

(٢) إمتداد الدولة إلى الأقاليم المجاورة للجزيرة

إن الأقاليم المجاورة لجزيرة العرب التي توجهت اليها الجيوش العربية مرتبطة بالجزيرة جغرافياً وبشرياً، فأما العراق فأرضه متصلة بالجزيرة ومناخه كمناخها، واذا كان الإداريون قد اعتبروا حدود العراق الغربية هي حدود الأراضي المزروعة فيه، فان هذا التحديد عمراني إداري قابل للتبدل، والواقع أن المنطقة الصحراوية، أي التي لا تكفي أمطارها للزراعة، تمتد الى أطراف دجلة الجنوبية والوسطى.

أما بلاد الشام فان طبيعة اراضيها تتشابه مع أرض الجزيرة الى أطراف جبال لبنان، وعلى هذا فلم تكن توجد حدود طبيعية تفصل بين هذا الاقليم وبين جزيرة العرب، وبالنظر لثروة هذا الإقليم، فقد استمرت الهجرات الصغيرة والكبيرة اليه

بحيث إن هؤلاء المهاجرين كونوا الغالبية العظمى للسكان ، منذ أقدم الأزمنة ، وثبتوا لغتهم وخصائصهم في ذلك الاقليم .

غير أن الأوضاع الحضارية في بلاد الشام جعلت كثيراً من هؤلاء السكان الذين هم من أهل جزيرة العرب في الأصل ، يستقرون ويعملون في الزراعة والصناعة والتجارة والاعمال التي تنشط عادة في المدن ، ورافق هذا تطورات ثقافية وسعت اختلافاتهم عن أهل الجزيرة ، غير أن هذه الاختلافات لم تكن عرقية أو كبيرة ، يضاف إلى هذا أن الأطراف المتصلة بالصحراء ، حيث الزراعة غير كثيفة والمدن قليلة ، وصلتها بالجزيرة وثيقة ، كانت أحوال أهلها الحضارية أقرب الى أحوال أهل الجزيرة ، ولذلك كوّنوا قبائل كان بعضها يتمتع بسلطان على المناطق التي يقيمون فيها ، ومن هذه القبائل الضجاعم وسليح ، أما عند ظهور الاسلام فقد كانت ابرز هذه القبائل هي لخم وجـذام في فلسطين ، وبلقين وعاملة وبلي وبعض عشائر قضاعـة في أطراف فلسطين ، وغسان في منطقة الجولان ، وكلب في بادية الشام وأطراف دمشق ، وتنوخ بين حماة وحلب ، وتغلب في وادي الفرات والخابور ، واياد التي كانت تقيم بين تكريت وسنجـار ، وبكر التي تسكن في الأطراف الغربيـة من العـراق بفروعها عجل قرب الجيرة ، وشيبان بين الحيرة والابلة .

وكانت تحكم هذين الاقليمين دول أجنبية في أُصولها وثقافاتها ، ففي العراق كان الحكام هم الساسانيون ، وهم فرس زرادشتيون ، أما في بلاد الشام فالحكام هم البيزنطيون المتمسكون بالحضارة الرومانية والثقافة الاغريقية .

لم يحاول الساسانيون تضييق الاختلاف بينهم وبين أهل العراق ، فلم ينشروا بينهم اللغة الفارسية أو الدين الزرادشتي ، أما البيزنطيون فقد اعتنقوا المسيحية التي كان يعتنقها اهل الشام ، غير أن الدولة البيزنطية اهتمت بالأمور المذهبية ولم تعتنق المذهب اليعقوبي المونوفستي الذي اعتنقـه أهل الشام أو المذهب النسطوري الذي اعتنقه أهل الجزيرة ، واذا كان الساسانيون لم يهتموا كثيرا بأمر الاختلاف الديني ،

فان الحكام البيزنطيين اهتموا بالمشكلة وخاصموا السكان لعدم اعتناقهم مذهب اهل القسطنطينية ، ومن حيث العموم فان الخصومة كانت أقوى بين سكان المناطق الصحراوية وبين الحكومة القائمة في كل من هذين الإقليمين .

فلما تقدمت الجيوش العربية الى هذين الإقليمين ، لم يتحمس سكانها للدفاع عن الدول الحاكمة ، وأظهروا ميلاً نحو الجيوش العربية الاسلامية وتأييداً كان أقوى عند القبائل القاطنة في أطرافها حيث أسرع كثير منهم الى الانضمام الى الجيوش العربية الاسلامية والقتال معها منذ المراحل الأولى التي لم تتم فيها انتصارات باهرة أو حاسمة بعد ، ويلاحظ أن الميالين إلى الجيوش الاسلامية العربية ، وكثير منهم قاتل مع العرب في هذه المراحل الاولى كانوا نصارى ، كبني تغلب وعجل مثلا ، وإن كنا لا نستطيع الجزم بمقدار نسبة من اعتنق الإسلام منهم في هذه المرحلة الاولى ، وهذا الموقف يظهر أهمية العامل القومي في الانضمام الى الجيوش .

إن كتاب تاريخ الامم والملوك للطبري فيه اوسع المعلومات والنصوص عن حوادث الفتوح والتوسع العربي ، وقد نقل الطبري هذه المعلومات من مصادر كتبت في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري ، وحافظ على دقة النقل ، فما جاء فيه يعبر عن معلومات الرواة في القرن الثاني ، والراجح ان هؤلاء الرواة كانوا متفهمين للجو السائد عند الفتوح ، فكانت كتاباتهم تُعَبِّر إلى حد كبير عن ذلك الجو .

يظهر من النصوص التي وردت في الطبري ، أن أكثر ما أُطلق على الجيوش التي خرجت من الجزيرة لفتح العراق خاصة هي كلمة « العرب » وليس كلمة « المسلمين » ففي الحوادث التي بين تقدم العرب الى اطراف العراق ، وموقعة نهاوند ، وهي أشد الفترات إزدحاماً بالحوادث تكررت كلمة العرب اكثر من عشرين مرة ، أما كلمة المسلمين فتكررت في اربعة مواضع .

وقد ترددت كلمة العرب مقابل العجم (العرب والعجم) في ستة مواضع [10]

(١٠) الطبري ١/٢٠٤١ ، ٢٠٥٩ ، ٢٠٦٧ ، ٢٠٦٩ ، ٢١٩٤ ، ٢٥٤٧

وذكر أهل فارس في مكانين [١١] ، ومن الطبيعي أن يكون أبرز ما يميز أهل الجزيرة عن الفرس هو العروبة ، فيوضع العرب مقابل العجم ، لأن التباين الجنسي واللغوي والديني والثقافي كان واسعاً بينهما .

ولا ريب في أن سياسة أبي بكر كانت ذات طابع اسلامي ، فهو لم يستعن بأهل الردة حتى بعد عودتهم إلى الإسلام ، ولا يمكن ان نعزو ذلك الى صحة شكه فيهم ؛ لأن ضعف مقاومتهم في ارتدادهم للجيوش الاسلامية ، هو مظهر لسطحية عقائدهم وان توجههم للفتوح لم يكن يتطلب اكثر من طاعة لسلطة مركزية لا تمارس نفوذاً مباشراً كبيراً ، فضلاً عن أنها تأتيهم بالغنائم .

إن معظم النصوص التي توضح اعتماد الجيوش الاولى على « العروبة » بالدرجة الاولى ، صادرة من القواد ، ولعل مما حملهم على التأكيد على رابطة العروبة هو إدراكهم قوتها في الجمع بين العرب وتمييزهم عن الفرس الذين كونوا في العراق طبقة ارستقراطية تدين بالزرادشتية ، وهو دين متشدد ، وبذلك عزلوا أنفسهم عن الناس .

اما العرب فكانوا إما نصارى ، وعقائدهم أقرب الى الاسلام ، أو مشركين فعقائدهم تشبه عقائد أهل مكة قبل اسلامهم ، ويلاحظ أن أهل مكة عند ظهور الاسلام ، لم تكن علاقاتهم سيئة مع بقية العرب ، فهم قوم يهتمون بالتجارة ويعملون على نشر السلم ، فهم مصدر نفع للعرب . ويلاحظ ايضاً ان القواد المسلمين الأولين هم من أهل مكة في الأصل ، وأن الخلفاء أيضاً قريشيون .

وكان المناذرة يسيطرون على الاراضي الواقعة في شرقي جزيرة العرب ، ويمتد سلطانهم ونفوذهم من أطراف العراق الى البحرين ، والى جبلى طي ، وقد عملوا على نشر السلم والأمن في الجزيرة ، ولم يفرضوا سلطاناً دكتاتورياً على أهل الجزيرة أو يعسفوهم ، وكانت مرونتهم في المعاملة عاملا في منع اصطدام العرب بالأقاليم الشرقية ، فلما زالت دولة المناذرة ، توترت علاقة الساسانيين بالعرب في أطراف العراق

(١١) الطبري ١/٢١٧٩ ، ٢١٨٩

وأصبحت المواجهة بينهما مباشرة ، وصاحب ذلك اضطراب الحكم الساساني وازدياد الخلافات على العرش .

فلما تقدم خالد بن الوليد الى العراق اهتم بالعامل القومي لانه الرابطة القوية العريقة التي تربط العرب وتميزهم عن الفرس وغيرهم ، ويلاحظ أن الإسلام لما يكن قد تغلغل في النفوس كافة ، وأن كثيراً من القبائل التي انضمت الى الاسلام مؤخرا لم تتشبع بروح الاسلام .

فلما حاصر خالد بن الوليد قصور الحيرة بدأ باصحاب عدى فقال ويحكم ما أنتم ؟ أعرب ، فما تنقمون من العرب ، أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ، فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال لو كنتم كما تقولون لن تعادونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي ليدلك على ما نقول إنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال صدقت [١٢] وقال عمر بن بقيلة « والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد » [١٣] .

وقد أشارت النصوص الى أن عدداً من العرب غير المسلمين عاونوا الجيوش الاسلامية في المراحل الأولى على مقاتلتها الفرس ، ومن هؤلاء أهل الحيرة الذين ذكرنا أعلاه موقفهم ، وكذلك أهل الأنبار [١٤] .

ومن ابرز من استجاب لنداءات الجيوش العربية هم بنو النمر ، وبنو تغلب ، وهم نصارى ، فقدذكر الطبري ان المثنى حرض أنس بن هلال للانضمام اليه وقال له « يا أنس إنك امرؤ عربي وان لم تكن على ديننا » [١٥] وأن أنساً جاء مسنداً للمثنى في أناس من بني النمر نصارى وجلاّب جلبوا خيلا ، وقدم ابن مردى الظهري التغلبي في أناس من بني تغلب نصارى وجلاّب جلبوا خيلا ، وهو عبدالله بن كليب بن خالد ، فقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم نقاتل مع قومنا [١٦] .

(١٢) الطبري ١/٢٠٤١
(١٣) كذلك ١/١٠٤٤
(١٤) كذلك ١/٢٠٦١
(١٥) كذلك ١/٢١٤٤
(١٦) كذلك ١/٢١٩٠

غير أن المصادر ذكرت أن بعض نصارى العرب قاوموا الجيوش العربية في العراق مثل أهل عين التمر الذين قاتلوا خالداً فانتصر عليهم وأخذ منهم عدداً من الاسرى (١٧) ويذكر الطبري أن بعض عرب الضاحية قاوم خالد بن الوليد في معركتي الوَلَجَة وأُلّيس فأثار عملهم استياء من انضم الى خالد من عرب العراق ، وكان أشد الناس عليهم ، مسلمو بني عجل ، عتيبة بن النهّاس ، وسعيد بن مُرّة ، وفرات بن حيّان ، والمثنى بن لاحق ومذعور بن عدي (١٨) ، واذا لم يكن في هذه الرواية تحيز ضد بكر ، فانها تعبر عن موقف عدد محدود قلق عند أول قدوم جيش خالد حين لم يكن إنتصار العرب واضحاً ، وكان قدوم خالد مفاجئاً ؛ والواقع أن الموقف تبدل بعد ذلك فلم يقف عرب العراق موقفاً معادياً للجيوش العربية ، فاستسلمت الحيرة والأنبار . ولم تذكر المصادر خبراً عن أي عربي حارب مع الفرس في المعارك التالية .

وكان عمر أكثر تقديراً للدور الذي يمكن أن يقوم به العرب في الفتوح ، وتدل أعماله وبعض الأقوال المنسوبة له أنه كان يرى أنهم العماد الأول للمقاتلة والفتوح ، لذلك أباح لمن كان قد مُنِع في خلافة ابي بكر من الاشتراك في الفتوح ، وكان أبو بكر امتنع عن الاستعانة بهم (١٩) ، أي أنه كان يريد الابقاء على وحدة العرب دون أن يتيح المجال لمطالبهم أن تكون سبباً في انشقاقهم ، وأدت هذه السياسة الجديدة إلى سد الثغرة التي كان يمكن أن تقسم العرب وتهدد وحدتهم ، وكان هؤلاء «المرتدون» عند حسن ظن الخليفة عمر فقد أقبلوا ينضمون الى الجيوش الإسلامية بأعداد كبيرة ، وقاتلوا بحمية وحماس حتى غدا بعضهم من أبرز فرسان المسلمين مثل طليحة الذي رأس ردة بني أسَد ، ولم يخلق هؤلاء « المرتدون » أية مشاكل إدارية أو عقائدية للجيش ، وانغمروا بالروح العامة السائدة ، فلم يعد أحد يذكر موقفهم الرديء السابق .

ومن مظاهر اهتمام الخليفة عمر بالعرب أنه منع استرقاق العرب وأمر بتحرير

(١٧) كذلك ١/٢٠٦٢

(١٨) كذلك ١/٢٠٣٠ — ٢٠٣٢

(١٩) كذلك ١/٢١٨٣ ، ٢٢٢٥ ، ٢٤٥٨

المسترقين منهم ، وكان بيت المال يدفع المبالغ المطلوبة لاسترقاقهم [٢٠] وقد أوصى عند وفاته أولياء الأمور من بعده بأن يحسنوا معاملة العرب حيث قال « ولا تَجلُدوا العرب فتُذِلوها ولا تُجَمِروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها » [٢١] كما اوصى الخليفة من بعده بالعرب لأنهم مادة الاسلام [٢٢] وفي مكان آخر « والأعراب الذين هم أصل العرب ومادة الاسلام [٢٣] .

وعندما وضع ديوان العطاء للمقاتلة ، رتبهم عمر تبعاً لعشائرهم ، وبذلك جعل التنظيم القبلي أساساً لتنظيم ديوان العطاء ، غير أن مقدار العطاء في المدينة تقرر تبعاً للسابقة في الاسلام ، وفي الأمصار الاخرى تبعاً لقدم ومدى المساهمة في الفتوح [٢٤] .

ومنع عمر زواج المقاتلة العرب بنساء الاقاليم التي ضمت حديثاً الى الدولة ، وأمر بابطال كل زيجة من هذا النمط [٢٥] ، ولا ريب في أن هذا المنع يؤدي الى عزل المقاتلة عن أبناء البلاد المستوطنين ، والى تحديد اختلاط العرب ببعضهم فيحتفظوا بثقافتهم الخاصة وروحهم العسكرية كما يؤمن للنساء العربيات المهاجرات مع المقاتلة أزواجهن ، ذلك المجال الذي لا بد ان يضيق اذا فشا الزواج بالأعجميات بين الرجال المقاتلة .

وكان عطاء المقاتلة هو الباب الرئيس في النفقات ، ولما كان المقاتلة — في هذه الفترة المبكرة — هم من العرب ، فان هذه النفقات كانت تصرف عليهم .

ومن الطبيعي ان الخليفة ومستشاريه ، وكبار الولاة والقادة هم من العرب لذلك يمكن القول ، ان العرب اصبحوا هم المهيمنين على الدولة .

(٢٠) الأموال لابي عبيد ١٣٣ — ٤ فتوح البلدان ١٠٤

(٢١) الطبري ١/٢٧٤١

(٢٢) الطبري ١/٧٢٤

(٢٣) كذلك ١/٢٧٧٥ ، وقد وردت في شرح نهج البلاغة « وأهل البادية الذين هم أصل العرب . . » ٣/٩٥

(٢٤) انظر مقالتنا « العطاء في الحجاز » المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي وعن تنظيم العطاء في البصرة : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » .

(٢٥) الأموال لابي عبيد ١٣٩

(٣) العرب في العراق

عندما تم فتح العراق وتشتتت الجيوش الساسانية المندحرة ، واتضحت سيطرة العرب على إقليم العراق ، إهتم عمر بأمر إيجاد قواعد للسكنى الدائمة للمقاتلة العرب ، فأمر بإنشاء أمصار ، ووضع لاختيار مواقعها شروطاً راعى فيها أن تلائم أحوال العرب وحاجة الدولة ، فاشترط أن يكون كل منها على طرف الصحراء متصلا بها لا يفصل بينهما ماء ، وأن يكون مناخها صحراوياً جافاً ، لملاءمة هذا المناخ للابل وللعرب وكانت الامصار التي اتخذها ستة هي المدينة (في الحجاز) وجواثا (في البحرين) والبصرة والكوفة (في العراق) والجابية (في بلاد الشام) والفسطاط (في مصر) ، ثم أُنشئت في خلافة معاوية القيروان في شمالي إفريقية ، وكانت لها نفس السمات والخصائص .[٢٦]

إن ثلاثة من هذه المراكز الستة ، وهي المدينة ، وجواثا ، والجابية ، هي مدن عربية كانت قائمة ومزدهرة منذ القديم ، أما الثلاثة الاخرى ، فهي جديدة وقد أسست لأول مرة في هذا الزمن ، غير أن كلا منها كان بالقرب من مركز حضاري وثقافي قديم ،فالبصرة قرب الأبُلّة وفرات البصرة ، والكوفة قرب الحيرة ، والفُسْطاط قرب هليوبوليس .

كانت هذه الامصار قواعد للاقامة الدائمة للمقاتلة العرب وعيالاتهم ، ومراكز لاقامة الولاة وما يتصل بهم من دواوين ، فهي تتميز عن المدن العربية الأخرى بكون كل منها مركزاً إدارياً لمقاطعات وأقاليم واسعة ، كما تتميز عن المدن الأعجمية بكون أهلها من العرب المسلمين ؛ وقد تأثر تنظيمها وادارتها بهذين العاملين القويين .

وتشترك هذه الأمصار بخصائص مشتركة ، ففي كل مصر جامع واحد واسع جداً يتسع لكافة الرجال من السكان ، والجامع ساحة واسعة محاطة بسياج يحددها ،

(٢٦) في كتابى « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » تفاصيل اوفى عن الموضوع.

ثم أبدل بالسياج حائطاً كالسور ، يتمكن أن يدافع فيه من في الجامع عن أنفسهم عند حصاره .

وفي الطرف المواجه للقبلة منبر يخطب منه الوالي في الصلاة ، أو عندما يريد إعلان الأوامر وتبليغها في الأيام الأخرى عند الحاجة ، وفي هذه الجهة من الجامع ظلة تقوم على أعمدة وسواري من الخشب أو الحجارة ، لتقي المصلين الشمس أو المطر .

والجامع هو البناء العام الرئيس لأهل المصر ، فهو مركز يقيم فيه الناس صلاة الجمعة والصلوات الأخرى ، ويجتمع فيه الوالى بالناس لتبليغ ما يقتضي تبليغه ، ويجلس فيه القاضي للنظر في القضايا المعروضة عليه ، وفي الجامع أيضاً يجتمع الناس ويتحدثون في الأمور الخاصة والعامة ، أو ينشدون الشعر أو يتناقشون في الأمور السياسية والفكرية ، وهو مكان يستريح فيه البعض ، فهو مركز للحياة الدينية والإدارية والإجتماعية والفكرية . وقد اتخذه بعض الولاة في أحوال اضطرارية مركزاً عسكرياً تحصنوا فيه مع جندهم عندما دهمتهم الأخطار .

وفي إحدى جهات الجامع من خارجه ، بنيت للأمير دار يقيم فيها ، وبالقرب منها بيت المال وربما الدواوين . ودار الامارة وبيت المال تقع عادة في جهة القبلة .

وتحيط بالجامع ودار الامارة من كافة الجهات رحبة واسعة جعل سعد بن ابي وقاص في الكوفة عرضها مرمى سهم ، وتتفرع من هذه الرحبة شوارع عريضة يمتد كل منها الى طرف المدينة ، ويتفرع من كل شارع طرق ودروب أضيق وأقصر .

لم تكن في أي من هذه الامصار التريينات التي تكثر في المدن الاغريقية والرومانية كالتماثيل والأقواس والزخارف ، ولم تخصص فيها مناطق للحدائق أو للملاعب ، بل لم يذكر في أي منها ساحة لسباق الخيل أو لتدريب الجند رغم أن أهل هذه المدن مقاتلة يحتاجون الى التدريب .

ولم تخصص فيها ارض لتكون سوقاً ، فكانت البيوع تجري في الساحات المكشوفة أو في بعض البيوت . ويبدو أن الرحبة صارت مكاناً أوسع للبيوع ، فكان لكل امرئ أن يختار بقعة يقيم فيها سلعة ذلك اليوم ، وليس لأحد أن يمنعه ، كما أنه ليس له أن يمنع من يسبقه إلى مكانه في اليوم التالي[٢٧] .

لقد ذكرنا انه بعد استقرار العرب في العراق انشئت فيه قاعدتان لاستيطان المقاتلة العرب ، وهما الكوفة والبصرة. فأما الكوفة فقد تأسست بعد اتمام فتح المدائن واستوطنتها المقاتلة التي شاركت في المعارك الرئيسة الكبرى التي أدت الى دحر الفرس وإقصائهم عن حكم العراق . وكان عدد من سكنها من المقاتلة اربعين ألفاً[٢٨] ، وقد ظل هذا العدد للمسجلين في ديوان العطاء الى زمن الإمام علي[٢٩] ، ثم زاد في زمن معاوية فبلغ ستين الفاً[٣٠] ؛ ثم نقص الى اربعين ألفاً في زمن الحجاج[٣١] .

إن هذه الارقام مقصورة على الرجال المقاتلة ، ولا يدخل فيها العيال والنساء المسجلون ، كما انه لا يدخل فيها من لم يكن في العطاء . فأما العيال فقد كانوا في أول خلافة الامام علي سبعة عشر الفاً (والموالي والعبدان ثمانية آلاف) ؛ ثم اصبح عددهم في زمن زياد ثمانين الفاً ، ونقص العدد في زمن الحجاج الى عشرة آلاف[٣٢] .

ان هذه الارقام لا تشمل النساء ، كما أنها لا تشمل من لم يكن مسجلا في العطاء ، ولا ريب في ان عدد الأخيرين كان يتزايد باستمرار الهجرة الى الكوفة وبتكاثر النسل ، حيث لم يكن يسجل من الاولاد إلا واحد فقط ؛ اما المجموع الكلي لاهل الكوفة

---

(٢٧) فتوح البلدان ٢٧٥ الطبري ٢٤٨٩/١

(٢٨) الطبري ٢٨٠٥/١

(٢٩) الطبري ٣٣٧١/١

(٣٠) فتوح البلدان ٣٥٠

(٣١) الطبري ٩٤٨/٢

(٣٢) مصادرها في الهوامش الثلاثة السابقة

فيذكر سيف بن عمر أنه كان في العهد الأموي يبلغ مائة الف [٣٣] ، ويروي الشعبي ان اليمن كانت تعد في الكوفة اثني عشر الفاً ، وان نزاراً تعد ثمانية آلاف [٣٤] ، غير أنه لم يحدد الزمن الذي كان فيه هذا عدد اهل الكوفة .

ويروي بشر بن عبدالوهاب القرشي أنه كان في الكوفة خمسون ألف دار لربيعة ومضر ، وأربعة وعشرون ألفاً لسائر العرب ، وستة (؟) الف لليمن [٣٥] ولا ريب في أن الرقم الذي ذكره لاهل اليمن لا يتناسب مع كثرتهم في الكوفة ، ولعله ستة وعشرون الفاً ، فيكون عدد أهل الكوفة مائة الف بيت ، وهو ينسجم مع ما رواه سيف بن عمر. فإذا قدرنا لكل بيت خمسة ، فيكون عدد سكانها من العرب حوالي نصف مليون .

أما البصرة فكان عدد سكانها عند تأسيسها قليلا نسبياً ، لان مقاتلتها كانت تعمل في جبهة ثانوية ، غير أنها سرعان ما أزدادت اهميتها عندما اصبحت مسؤولة عن فتح جنوبي وشرقي الهضبة الايرانية ، فهاجرت اليها العرب وخاصة من منطقة شرقي وأواسط جزيرة العرب ، وأصبح عدد مقاتلتها المسجلين في الديوان في أول خلافة الإمام علي ستين ألفاً [٣٦] ، ثم ارتفع عددهم في زمن ولاية زياد الى سبعين الفاً ، وكانت عيالاتهم ثمانين الفاً ، ثم اصبح عددهم في زمن ولاية عبيدالله بن زياد تسعين الفاً ، وعيالاتهم مائة واربعين الفاً [٣٧] . وهذه الأرقام تشمل المسجلين في العطاء ، فإذا حسبنا من لم يكن في العطاء فربما زاد العدد على نصف مليون .

وقد نظمت البصرة والكوفة ، والأمصار العربية الأخرى ، على أسس عشائرية ؛ فكانت كل عشيرة وحدة يسكن أفرادها متقاربين في خطة خاصة ، أي في رقعة معينة من المدينة ، وتسمى الخطة باسم العشيرة ، ولأفراد العشيرة الواحدة حقوق وواجبات

(٣٣) الطبري ٢٦٧٩/١

(٣٤) فتوح البلدان ٢٧٥

(٣٥) ياقوت : معجم البلدان ١٧٤/٣

(٣٦) الطبري ٣٣٧٠/١

(٣٧) الطبري ٤٣٣/٢ فتوح البلدان ٣٥٠ انساب الاشراف ١١٦/٢ البيان والتبيين ١٣٥/٢ .

مشتركة في القانون الجنائي وبعض نواحي القانون المدني . فهم يشتركون مثلاً في وراثة من لا وارث له ممن يموت من أفرادها ، ويشاركون جميعاً في دفع دية القتل الخطأ الذي يرتكبه أحد أفراد العشيرة أو مواليها بصرف النظر عن علاقاتهم بالقاتل أو المقتول .

وكان توزيع العطاء يتم على أسس عشائرية فكان يحسب ما يستحقه أفراد العشيرة من العطاء ، ويسلم مجموع ذلك الى عريف يكون مسؤولا عن توزيعه على أفراد العشيرة تبعاً لسجلات منظمة تدوّن فيها اسماؤهم ومقدار عطاء كل منهم . وقدجعل العريف مسؤولاً عن تبليغ العشيرة أوامر الحكومة ، وجمع الجند عندما يضرب عليهم البعث ، وضبط الأمن والنظام فيها ، وإلا عوقبت العشيرة كلها .

وقد اعاد زياد بن ابي سفيان تنظيم العرافات في البصرة والكوفة ، فجعل كل عرافة تضم ألف مقاتل [٣٨] .

كان هذان المصران المقام « الرسمي » للعرب ، غير أن عدداً منهم امتلك القرى وصار يقيم فيها ، ومن الراجح أن كلا من هؤلاء ، كان يقيم معه أيضاً عدد من أقاربه وربما من عشيرته ، وقد ذكرت المصادر عدداً ممن امتلك القرى وأشارت الى استيطانه فيها. ومن المؤكد ان هذا قد بدأ بصورة واسعة منذ خلافة عثمان ، حيث كان من أسباب نقمة أهل الكوفة عليه .

إن معظم القرى والضياع التي ذكرت المصادر استيطان العرب فيها تقع كلها قرب الكوفة ، ولا ريب في أن أماكن أخرى استوطنها العرب ولم تذكرها المصادر .

وممن ذكرت المصادر تملكهم القرى خبّاب بن الأرت [٣٩] وعمّار بن ياسر [٤٠]

---

(٣٨) « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » ص ٤٩ فما بعد .

(٣٩) ياقوت ١/٥٤٤

(٤٠) كذلك ٣/٧١

وقد امتلكا في استيينا ، وطلحة الذي امتلك الصنين [٤١] ـ والنشاستج [٤٢] ومروان ابن الحكم الذي امتلك نهر مروان ، وكان أجمة [٤٣] والأشعث بن قيس الذي امتلك ظيز ناباد [٤٤] وامتلك عبدالله بن عمر بن الخطاب كويفة إبن عمر قرب بزيقيا [٤٥] وكانت لعمر بن سعد حمام عمر [٤٦] .

وامتلك حَكَمَة بن حذيفة بن بدر سوق حَكَمَة [٤٧] وصلاَبة بن مالك العبدي قرية أبي صلابة على الفرات [٤٨] .

واستوطن هيت اولاد مِدْلاج بن عمرو السُلَمي الذي قام بفتحها [٤٩] .

وفي العهد الاموي كان المختار يمتلك لَقْفا في خطرنية [٥٠] ويذكر المسعودي ان المختار « بنى لنفسه داراً واتخذ بستاناً ، أنفق على ذلك أموالاً عظاماً » [٥١] وامتلك قُدامة بن العَجْلان الازدي ديلمايا من أُستان بهر سير [٥٢] وكانت لعبيد الله ابن الحر ضيعة بالجبة والبداة [٥٣] كما كانت لبني هند بنت اسماء ضيعة بالسواد [٥٤] .

(٤١) كذلك ٣/٤٨٠
(٤٢) كذلك ٤/٧٨٣ ، الطبري ١/٨٥٤ ، ٢٩٠٨
(٤٣) الطبري ١/٢٨٥٥
(٤٤) كذلك ١/٢٨٥٥
(٤٥) تاريخ اليعقوبي ٢/١٨٨ ياقوت ٤/٣٣١
(٤٦) فتوح البلدان ٢٨١
(٤٧) ياقوت ٣/١٩٤
(٤٨) فتوح البلدان ٢٨٣ ياقوت ١/٧٦٠
(٤٩) فتوح البلدان ١٧٨
(٥٠) الطيري ٢/٥٢٠ انساب الأشراف ٥/٢١٤
(٥١) مروج الذهب ٥/١٧١
(٥٢) الطبري ٢/٥٧
(٥٣) الطبري ٢/٧٩٦
(٥٤) الأغاني ١٣/٧٠

وكانت لبني غاضرة بن أسد قرية الغاضرية عند كربلا [٥٥] ويبدو أن الهمدانيين كانت لهم اراضٍ في مختلف انحاء السواد ، فلما ثار عبيدالله بن الحر لم يدع مالا لهمداني الا أخذه في السواد [٥٦] .

وكانت ذات المطامير «لبني الحارث بن كعب ، خمسة وثلاثون رجلاً ، ومن غيرهم ثمانية عشر رجلاً ، ومن مواليهم سبعة عشر رجلاً »[٥٧] وكان في جبُّل نفر من بني تيم اللات بن ثعلبة [٥٨] .

ولا ريب في أن الإقامة الدائمة لكل من هؤلاء كانت في الأماكن التي ذكرناها ، وهذا لا يمنع إقامة عدد من المقاتلة العرب في الريف لمدة مؤقتة ، فيذكر الدينوري أن الامام علياً أراد بعد عودته من صفين دعوة المقاتلة ، فلم يستجب له عدد كبير « فأمر منادياً في الناس لا يتخلفن أحد ، وأمر معقل بن قيس أن يسير في الرساتيق فلا يدع أحداً من جنوده فيها إلا حشره ، فلم ينصرف معقل بن قيس الا بعدما قتل علي[٥٩]».

ويذكر المدائني « كان عامة عمال خالد (القسرى) الدهاقين ، فقتل دهقان منهم بفارس فأمر خالد بنفي العرب وعيالاتهم من السواد ، فقال له ابن نوفل .

أيقتل عامل بدرا بِجَرْدِ ... فتنفون العباد من السواد

لعلك أن ترى عما قليل ... عيالك يسكنون بكل وادي [٦٠]

ومن الصعب الجزم بصحة ما قاله المدائني ، إلا أنه يظهر انتشار العرب في العراق بعد الفتح .

---

(٥٥) مروج الذهب ٤٧/٥ ياقوت ٣٨٨/٣

(٥٦) الطبري ٧٩٦/٢

(٥٧) الطبري ٧٧/٢

(٥٨) الطبري ١٦٣٤/٢

(٥٩) الأخبار الطوال ٢٢٦

(٦٠) أنساب الأشراف ٢٩٢/٨

وفي البصرة إمتلك عدد كبير من العرب أملاكاً واقطاعات في الاراضي التي حول المدينة ، وخاصة في الجانب الغربي من شط العرب [٦١]

وقد اقتضت متطلبات الأمن إقامة حاميات في مدن ومراكز عراقية متعددة ، ولعل أهم هذه الأماكن هي المدائن التي كانت قاعدة ملك الساسانيين ، فلما طردهم سعد بن ابي وقاص إتخذها مقراً له ولجنده إلى أن أنشئت الكوفة فانتقلوا عنها [٦٢] غير أن العرب لم يجبروا جميعاً على الانتقال الى الكوفة فقد خُيِّرَ المسلمون بالمدائن فمن أعجبه المقام فيها ترك فيها كالمسلّحة ، فبقى من الأفناء وأكثرهم من عبس [٦٣] وكان في المدائن في العهد الاموي رجال من أشراف أهل المصر (الكوفة) وبيوتات الناس وبها مقاتلة لا تسعها ، عدة إن كان بأرض جوخي أو بأرض الأنبار [٦٤] ، وكان بها في سنة ٧٦ هـ « ألف فارس أخذ منهم عدي بن عميرة خمسمائة لقتال الخوارج » [٦٥] ومن مسالح أهل الكوفة الراذان ، فكانت ترسل إليها البعوث [٦٦] ويبدو ان هذه المسلّحة كانت ثابتة ، وأنه كان يسمح لرجالها بزيارة الكوفة ، فيروى ابن سعد عن أبي عبيد عن العوام بن حوشب « كان مكتب إبراهيم النخعي بِراذان ، وكان على تلك الناحية حوشب بن يزيد الشيباني ، قال فاستأذنه الجند إلى عيالهم فأذن لهم وأجّلهم أجلا ، وقال من غاب أكثر من الأجل ضربته لكل يوم سوطاً » [٦٧] .

(٦١) انظر تفاصيلها في فتوح البلدان ٣٥٥فما بعد وفي مقالنا عن خطط البصرة المنشور في مجلة سومر ١٩٥٣
(٦٢) الطبري ١/ ٢٤٨١
(٦٣) كذلك ٢٤٨٧/١
(٦٤) كذلك ٩٨٠/٢
(٦٥) كذلك ٨٩٩/٢
(٦٦) الأغاني ٦٢/٢٠
(٦٧) ابن سعد ١٩٥/٦ — ٦

وكانت في الانبار في زمن خلافة الامام علي « مسلحة تكون خمسمائة رجل » عليهم أشرس بن حسان البكري [٦٨] .

كما كانت ببغداد لهشام بن عبدالملك وغيره من الخلفاء خمسمائة فارس رابطة يغيرون على الخوارج اذا خرجوا من ناحيتهم قبل أن يضعف أمرهم [٦٩] .

وفي السنين الأولى من تقدم الجيوش العربية لمطاردة الجيوش الساسانية ، كان لا بد من وضع قوات أمامية لمراقبة القوات الساسانية ومنعها من مباغتة المسلمين بهجوم مقابل ، فلما فتح العرب المدائن ارسلوا قوات الى كسكر بقيادة النعمان بن مُقرّن ، وثانية الى تكريت ، وثالثة الى جلولاء .

وعندما تقدم العرب لمقاتلة الفرس في نهاوند « ساروا من مرج القلعة نحو نهاوند ، حتى إذا انتهوا الى قلعة فيها قوم خلفوا عليها النسير بن ثور في عجل وحنيفة ، فنسبت إليه وافتتحها بعد فتح نهاوند ، ولم يشهد نهاوند عجلي ولا حنفي ، أقاموا مع النسير على القلعة ، فلما جمعوا فى نهاوند والقلاع أشركوا فيها جميعاً لأن بعضهم قوى بعضاً ، ثم وصفوا ما استقروا فيما بين مرج القلعة وبين نهاوند مما مروا به قبل ذلك فيما استقروا من المرج اليها بصفاتها » [٧٠] .

وبعد انتصار العرب في معركة نهاوند الحاسمة فرّق سعد دُستُبَى بين نفر من أهل الكوفة بين عصمة بن عبد الله الضبي ، ومهلهل بن زيد الطائي ،وسماك بن عبيد العبسي ، وسماك بن مخرمة الاسدي ، وسماك بن خرشة الانصاري ، فكان هؤلاء أول من ولي مسالح دستبى التي تقاتل الديلم [٧١]

غير أنه بعد انهيار المقاومة الساسانية كان لا بدمن إعادة تنظيم القوات الإسلامية في العراق فأبقيت القاعدة الرئيسة في الكوفة ، وانشئت قواعد امامية تنطلق منها

(٦٨) الطبري ٢٤٤٥/١
(٦٩) ابن سعد ٧ - ٦٧/٢
(٧٠) الطبري ٢٦٤٨/١
(٧١) كذلك ٢٦٤٩/١

الجيوش الاسلامية وكانت ثغور الكوفة أربعة هي حلوان، وماسبذان ،وقرقيسيا ، والموصل [٧٢] . وقد نزل حلوان قوم من ولد جرير بن عبدالله فأعقابهم بها[٧٢أ]

وكانت الاهواز متصلة بكسكر وكور دجلة والبصرة منذ اقدم الازمنة ، وارضها امتداد جغرافي للاراضي التي في جنوب العراق ، فهي أرض منبسطة منخفضة تقطعها انهار كثيرة وبطائح واسعة ، وتكثر فيها زراعة النخيل وقصب السكر والارز ، وقد أدت هذه الصلة الجغرافية الوثيقة الى تغلغل العرب فيها منذ أقدم الازمنة ، وظهرت فيها في القرن الاول قبل الميلاد دولة ميسان التي ظلت تحكم هذه المنطقة قرابة اربعة قرون ، الى أن قضى عليها الساسانيون ، وكانت الثقافة السائدة في هذه الدولة نفس ما كان سائداً في جنوب العراق ،من لغة وعبادات وثقافة ، وقد انتشرت فيها المسيحية ، وكانت في جنديسابور مدرسة للطب تدرس باللغة التي كانت سائدة في العراق . وكانت القبائل العربية فيها بنو حنظلة الذين اسكنهم سابور ذو الاكتاف في نهر تيرى[٧٢ب] وجود حواجز ولما اتم العرب فتحها كانت صلاتها بمنطقة البصرة خاصة وثيقة، بسبب القرب وعدم تعرقل الانتقال . وقد اتخذها الخوارج ميداناً لحركاتهم ، وكانت للعرب فيها سبعة مراكز ادارية يقيم فيها الولاة وتسك في معظمها النقود ، وبذلك طغوا على الخوز ، وهم فيما يبدو من بقايا العيلاميين استوطنوا في الاطراف المرتفعة الواقعة في الجهات الشمالية ، والشمالية الشرقية .

(٤) إستيطان العرب في أذربيجان

كان من أهم نتائج معركة نهاوند وانهيار المقاومة الساسانية أن انساح العرب في الهضبة الايرانية واتموا فتح أقاليمها ومدنها بسهولة ويسر ، وكان لا بد من اعادة

(٧٢) كذلك ٢٤٩٧/١

(٧٢أ) فتوح البلدان ٣٠١.

(٧٢ب) الطبري ٨٣٩/١، ٢٥٣٥ البيان والتبين ٨٣/٣، رانظر عن صلتهم بالعراق أحسن التقاسيم ٤٠٣ ، ٤١٦ .

تنظيم قواتهم لتأمين السلم والأمن في هذه الهضبة ، ولحماية حدودها الواسعة ، ولذلك قام العرب في خلافة عثمان باحداث تبديلات اخرى ، فجعلت قرقيسيا والموصل تابعة لوالي الشام ومكملة للجزيرة ، واصبحت مغازي اهل الكوفة الري واذربيجان ، وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ، ستة آلاف بأذربيجان ، وأربعة الآف بالري ، وكان بالكوفة آنذاك اربعون الف مقاتل ، وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة الآف كل سنة ، فكان الرجل يصيبه في أربع سنين غزوة[٧٣]

فأما **آذربيجان** فإن الوليد بن عقبة استطاع إعادة السيطرة عليها في خلافة عثمان «وأسكنها ناساً من العرب من أهل العطاء والديوان ، وأمرهم بدعاء الناس إلى الاسلام»[٧٤]

فلما ولي الإمام علي الخلافة ولىّ الأشعث بن قيس آذربيجان « فلما قدمها وجد أكثر أهلها قد أسلموا وقرأوا القرآن ، فأنزل أردبيل جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب ومَصّرها ، وبنى مسجدها » ثم « ان العرب لما نزلت آذربيجان نزعت إليها عشائرها من المصرين والشام ، وغلب كل قوم على ما أمكنهم ، وابتاع بعضهم من العجم الأرضين وألجئت إليهم القرى للخفار ، فصار أهلها مزارعين لهم » [٧٥].

وكانت المراغة قد نزلها مروان بن محمد ابان ولايته ارمينية ، وعسكر قربها ، فاستقر الناس فيها ، والجأ كثير من أهلها اراضيهم الى مروان ، وتألف وكلاؤه الناس فكثروا فيها للتعزز وعمروها ، ثم قبضت مع ما قبض من ضياع بني أمية ، فصارت لبعض بنات الرشيد ، فلما ولي خازم اذربيجان في خلافة الرشيد بنى سورها ومصرها وانزلها جنداً كثيفاً[٧٦] وصارت منزل السلطان باذربيجان[٧٧] .

(٧٣) الطبري ٢٨٠٥/١

(٧٤) فتوح البلدان ٣٢٧

(٧٥) كذلك ٣٢٩

(٧٦) كذلك ٣٢٥

(٧٧) تاريخ الموصل للأزدي ٣٨٣

وفي خلافة ابي جعفر ولي أذربيجان يزيد بن حاتم المهلبي وظل في ولايتها ست عشرة سنة [78] ، « فنقل اليمانية من البصرة اليها ، وكان أول من نقلهم ، وأنزل الروّاد بن المثنى الازدي تبريز إلى البذ ، وأنزل مر بن علي الطائي زيز (....) الهمداني الميانج ، وفرق قبائل اليمن ، فلم يكن بأذربيجان من نزار أحد إلا الصقر بن الليث العتبي وابن عمه البعيث بن حليس » [79] وكان بنو الروّاد قد انتقلوا اليها من الموصل [80] .

وقد نزل بنو الروّاد تبريز وحصنوها بسور فنزلها الناس معه ، اما مرند فقد نزلها حليس ابو البعيث وهو من بني اسد ، ثم حصنها البعيث ثم بنى ابنه محمد فيها حصوناً ، وبنى صدقة في اراضيه قصوراً ، اما إرمية فقد دخلها صدقة بن على بن صدقة مولى الازد وغلب عليها وبنى إخوته بها قصوراً ، « وكانت الميانج وخلباثا منازل الهمدانيين وقد مدّن عبدالله بن جعفر الهمداني محلته بالميانج ، وصير السلطان بها منبرا .

واما كورة برزة فللأود ، وقصبتها لرجل منهم جمع الناس اليها وبنى بها حصنا ، وقد اتُخذ بها سنة ٢٣٩ منبر على كره من الاودي .

واما نويد فكانت قرية لها قصر قديم فتشعث ، فنزلها مُرّ بن عمرو الموصلي الطائي فبنى بها واسكنها ولده ، ثم انهم بنوا بها قصوراً ومدّنوها ، وبنوا سوق جابروان وكبروه ، وافرده السلطان لهم ، فصاروا يتولونه دون اذربيجان .

فاما سراة فان فيها من كندة جماعة ، أخبرني بعضهم انه من ولد من كان مع الأشعث بن قيس الكندي » [81]

وكان الحرشي ولي الموصل سنة ١٨٠ « فعسف اهلها عسفاً شديداً ، وطالبهم بخراج سنين مضت ، فجلا عن البلد كثير من أهله الى اذربيجان : ورحل اهل باسحاق

---

(٧٨) كذلك ٢١٨

(٧٩) تاريخ اليعقوبي ١٠٧/٣

(٨٠) تاريخ الموصل ٩٢

(٨١) فتوح البلدان ٣٢٩ - ٣٣٠ ويذكر الازدي أن برزة للأود (تاريخ الموصل ٣٨٣) .

من بني الحارث بن كعب الى اذربيجان،وخربت وكانت مدينة ؛ واهل القادسية من رستاق الخازر ، واهل قرى غير هذه ، وأخرب سطرنينه ونرستاباد وهاعله وباتلّي وغيرها من القرى ،فلم تعمر الى هــذه الغاية ، ورحل اهلها وبادوا» (٨٢) . وكانت آذربيجان ، أو أكثرها ، في يد اليمانية (٨٣) .

وذكر الأزدي ما يشير الى القبائل اليمانية في آذربيجان ، فقال ان المأمون أرسل زريق بن علي بن صدقة الازدي لحرب بابك « فلما ورد على زريق عهده جمع خيله ورجله ، وكتب الى عشائره بالموصل واعمالها يستنجدهم ، فوافاه منهم خلق كثير ، واجتمع له أمره ، فرحل حتى توسط آذربيجان وجمع إليه من بها من عشائره وأصحاب الجموع ، فبلغ عدة من اجتمع اليه خمسين الف فارس وراجل .

وكان من أصحاب الجموع والوجوه في خراسان محمد بن حميد الهمداني ، وقد نصح زريقاً أن يقيم في الشتاء « بأذربيجان بالقرب من منزله وضياعــه بين أظهر عشائره ، فلم يقبل رأيه ورحل فأقام ببردعة » (٨٤) .

ثم ثار زريق على المــأمون ، فوجه إليــه الخليفة محمد بن حميد « ولما قــدم محمد بن حميد لحرب زريق اجتمع اليه محمد بن السيّد ، وتليد ، وطمثان ، وهمدان ، وطي ، وبنو الحارث بن كعب ، فصار معه منهم خلق كثير (٨٥) .

ثم ان محمد بن حميد « وافاه محمد بن ايوب مولى آل المهلب عن محمد بن يوسف بن عبدالرحمن الطائي ، وستة وعشرون رجلاً ، كل يملك بلداً وجبلاً وناحية ورستاقاً ، وكلّ أصحاب جمعٍ وعزٍّ ورياسة » وطلب منه المأمون أن يسير من اجتمع

---

(٨٢) تاريخ الموصل ٢٨٧

(٨٣) تاريخ الموصل ٣٨٤

(٨٤) كذلك ٣٥٦

(٨٥) كذلك ٣٧٩

من أصحاب الجموع بأذربيجان اليه ، فسيرهم وكان فيهم علي بن مرّ الطائي وبنو حيّان ونظراؤهم من اليمانية »[٨٦].

ثم حمل محمد بن حميد الميرة الى بلد الهمدانيين ليعدها هناك لمحاربة بابك، وفرض على أهل كل ناحية من أهل اذربيجان من اليمانية وغيرهم رجالاً يخفرون عسكره ويحاربون معه[٨٧].

ويلاحظ انه وضع في القلب من جيشه محمد بن يوسف بن عبدالرحمن الطائي وهو المعروف بابي سعيد المطوعي ، وضم اليه ربيعة . ووضع على الميمنة الصفدى ابن أصرم، وضم اليه اليمانية ، ووضع على الميسرة العباس بن عبدالجبار اليقطيني وضم إليه رجالاً من همـــدان والدينور ، وكان عدد الميسرة فيما يقال ستة آلاف ووضع على الساقة أخاه أبا نصر بن حميد[٨٨].

(٥) استيطان العرب في الهضبة الايرانية

لقد ذكرنا أن إنهيار المقاومة الساسانية بعدمعركة نهاوند فتح الهضبة الإيرانية أمام الجيوش العربية ، وكانت للري أهمية خاصة من حيث كونها أحد الثغور الرئيسة في شمالي الهضبة الايرانية. ويلاحظ أن التقدم العربي وقف عندها ، وظلت جرجان خارج الدولة الاسلامية الى خلافة يزيد بن عبدالملك الذي أرسل قوة فتحت جرجان وضمتها الى الدولة الاسلامية ، وبذلك أصبح الطريق الرئيس الى خراسان يسير من الري الى جرجان[٨٩].

وبالنظر لأهمية الري وموقعها العسكري فقد استوطنها العرب ، وكان لها ديوان خاص، فيذكر البلاذري أن الخليفة عثمان كتب الى سعيد بن العاص والى الكوفة «ان

(٨٦) كذلك ٣٨٣– ٤
(٨٧) كذلك ٣٨٥
(٨٨) كذلك ٣٨٧
(٨٩) الطبري ١٣٢٧/٢

يضرب كعب بن عبدة عشرين سوطـاً ويحوّل ديوانه الى الري ، ففعل[٨٩أ] » وفي سنة ٧٧ هـ أمر الحجاج بضرب البعث على ثلاثة ارباع الناس والسير لقتال الخوارج فكان عدد من ضرب عليه البعث من اهل الري ثلاثة آلاف رجل [٩٠] اي ان عدد اهل العطاء من العرب فيها اربعة آلاف رجل .

وقد وصف اليعقوبي أهل الري بأنهم « أخلاط من العجم وعربها قليل » [٩١] .

ويذكر البـلاذري « وبالري أهل بيت يقال لهم بنو الحريش نزلوا بعد بناء المدينة »[٩٢] .

وفي زمن خلافة عثمـان ولي الكوفة سعيد بن العاص فاهتم بأمر الديلم « ومَصّر قزوين فكانت ثغر أهل الكوفة وفيها بنيانهم » [٩٣] وقزوين تقع في الطرف الجنوبي الغربي من بحر قزوين الذي كان منذ العصر الساساني مسلكاً لشعوب تهدد الدولة . وكانت منطقتها جبلية وعرة ، وفيها غابات كثيفة ويسكنها الديلم ، وهم مقاتلة أشداء لم يتعودوا الخضوع للنظام ، وكان المسلمون قد غزوها في خلافة عمر بقيادة البراء بن عازب « فصالحه أهلها ، فرتب البراء معهم خمس مائة رجل من المسلمين معهم طليحة بن خويلد الاسدي ، وأقطعهم أرضاً لا حـَق فيها لأحد »[٩٤] وينقل إبن الفقيه أن سعيد بن العاص غزا أهل حصن قزوين فطلبوا الصلح وأسلموا وأقاموا مكانهم فصارت أرضوهم عشرية كما اشترطوا ، فرتب البراء من عازب طليحة بن خويلـد الأسدي مع خمسمائة فارس على دستبى وقزوين فتناسلوا هناك ، فأولادهم واولاد اولادهم الى اليوم فيها توارثوا الضياع ، وكانت قبالة من السلطان في أيديهم الخمسين

(٨٩أ) أنساب الأشراف ٥ / ٤٢ .
(٩٠) الطبري ٢/٩٩٦
(٩١) البلدان ٢٦٩
(٩٢) فتوح البلدان ٣١٩
(٩٣) كذلك ٣٢٥
(٩٤) كذلك ٣٢١

سنة والأقل والأكثر اذ كانت أرضين وضياعاً لاحق لأحد فيها ، وهم عمروها وأجروا أنهارها ، فسموا تناءها متقبلين لانهم تقبلوا ضياعاتهم من السلطان[٩٥] ولما ولي الامام علي الخلافة وأراد مقاتلة معاوية ، كره فريق من أهل الكوفة مقاتلة معاوية ؛ فوجههم علي الى الديلم لمقاتلهم فكانوا بين اربعة آلاف وخمسة آلاف[٩٦] وكان معظمهم من أصحاب الربيع بين هيثم وهم من أصحاب ابن مسعود[٩٧] وممن أرسلهم الإمام علي الى الديلم بنو باهلة ، فيذكر نصر بن مزاحم « دعا علي باهلة فقال يا معشر باهلة اشهد الله انكم تبغضوني وابغضكم فخذوا عطاءكم واخرجوا الى الديلم ، وكانوا قد كرهوا أن يخرجوا معه الى صفين »[٩٨] .

لم يقتصر سكنى العرب على الثغور الثلاثة الآنفة الذكر التي مصرها العرب وأوطنوها مقاتلة يأخذون العطاء ، وإنما امتد سكناهم الى عدد غير قليل من المدن الأخرى . وقد ذكر اليعقوبي في جغرافيته عدداً من المدن في الهضبة الايرانية وصف أهل كل منها بانهم « أخلاط من العرب والعجم » وهذه المدن التي ذكرها هي السيروان ، والصيمرة ، وحلوان ، والدينور ، ونهاوند ، بالإضافة الى قزوين والري .

لم يذكر اليعقوبي عدد العرب في كل من هذه المدن أو زمن هجرته ودوافع استقراره فيها ؛ ولعل بعضهم كانوا مقاتلة أقاموا كحاميات عسكرية ، غير أن كثيراً منهم استقروا للتجارة وممارسة اعمالها ؛ والمؤمل أن تحتوى كتب تواريخ المدن والاقاليم معلومات عن العرب الذين استوطنوها . غير انه من سوء الحظ لم يبق من هذه الكتب الا بعض تاريخ قم ، وكتابان في تاريخ إصبهان ، وكتاب في تاريخ جرجان ، وبعض كتاب في تاريخ نيسابور ، وكتاب في تاريخ بخارى ، وآخر في تاريخ سمرقند . وفي الكتب الثلاثة الاولى مادة نستطيع أن نكون منها صورة واضحة ، وإن لم تكن كاملة ، عن سكنى العرب المدن التي بحثتها هذه الكتب .

(٩٥) البلدان ٢٨ وانظر أيضاً : التدوين في أخبار قزوين ١١ (مخطوطة الاسكندرية)
(٩٦) فتوح البلدان ٣٢١) .
(٩٧) وقعة صفين ٣٢ وأنظر أيضاً : فتوح البلدان ٣٢١ .
(٩٨) وقعة صفين ١٣٠

فأما **اصفهان** فهي من المدن الكبيرة الغنية القريبة من العراق ، وقد استوطنها عدد من العرب ، ثم جاءتها هجرات تالية لا نعلم زمنها إلا ما ذكره ابن الكلبي وابو اليقظان من ان العنبريين استوطنوها في خلافة مروان عندما وليها الهذيل بن قيس العنبري (٩٩)

وصف اليعقوبي إصبهان بقوله « وأهلها أخلاط من الناس ، وعربها قليل وأكثر أهلها عجم من أشراف الدهاقين ، وبها قوم من العرب انتقلوا اليها من الكوفة والبصرة ثقيف وتميم وبني خُصَفَة وخزاعة وبني حنيفة ومن بني عبدالقيس وغيرهم (١٠٠)

ذكر أبو نعيم في كتابه « أخبار إصفهان » قبائل عدد ممن ترجم لهم ومن سكن اصفهان ، ومعظمها قبائل حجازية الأصل ، وكلهم ممن لهم خطط في الكوفة مما يدل على أنهم من أهل الكوفة ، وهذا يظهر العلاقة الوثيقة بين إصفهان والكوفة .

لقد ذكر أربعة وخمسين من أهل المدينة دون أن يحدد عشائرهم ؛ وحدّد ٨ من الأنصار و ٣ من عبد الأشهل ، كما ذكر عدداً من أهل مكة : ١٥ من قريش و ٥ من بني أمية و ٥ من زهرة ، و ١١ من تيم وواحداً من كل من سهم ومخزوم ونفيل وسامة .

وذكر أيضاً ٢٩ من ثقيف ، و ٦ من خزاعة ، و ٣ من كنانة ، و ٣ من سليم و ٢ من أسلم و ٢ من هذيل ، و ١ من مزينة .

وذكر ١١ من أسد ، و٧٥ من عقيل ، و ٥ من كل من هلال ، وباهلة و ٣ من بجيلة و ٢ من فزارة وواحداً من كل من نمير وفهم .

أما تميم وعشائرها فقد ذكر ١٢ من تميم دون تحديد عشائرها و ٢٥ من ضَبّة و ١٢ من العنبر و ٧ من حنظلة و ٦ من بني سعد بن زيد مناة ، و ٣ من البراجم و ٢ من مجاشع ، وواحداً من كل من نهشل ورياح والحبطات .

---

(٩٩) فتوح البلدان ٣٠٩

(١٠٠) البلدان ٢٧٤

ولم يذكر أحداً منسوباً الى بكر ، ولكنه ذكر ٨ من شيبان و ٤ من ذهل و ٣ من حنيفة و ٢ من كلٍ من عجل وسدوس و ١ من كلٍ من زِمّان وقيس بن ثعلبة ، كما ذكر ٧ من عبدالقيس .

وذكر ٦ من الأزد و ١٨ من الأشقر وواحداً من كل من العتيك وفرقد . أما القبائل اليمانية فذكر ٨ من همدان و ٣ من كندة و ٣ من النخع و ٢ من حضرموت وواحداً من كل من جعفى وحمير وحضرموت ولخم ومذحج .

وذكر في كتابه عدداً من المعالم الخططية في إصفهان منسوبة الى العرب ، ومنها أربعة مساجد منسوبة الى أفراد أسماؤهم عربية ولكن لم يذكر نسبهم أو عشائرهم وهم حفص ، وأيوب بن زياد ، وعمرو بن راشد ، وعبدالله بن كثير . كما ذكر سكة الجارود ، وخطة أُسَيد بن عبدالله الخزاعي

أما قم فهي من أهم المدن التي استوطنها العرب ؛ وقد ذكر اليعقوبي أن أهلها الغالبين عليها قوم من مذحج ثم من الأشعريين ، وبها عجم قدم ، وقوم من الموالي يذكرون أنهم موالي لعبدالله بن العباس بن عبدالمطلب »(١٠٠أ) وقد خصص الحسن بن محمد القمي في كتابه « تاريخ قم » أربعة فصول لمجيء العرب من الكوفة وسكناهم قم في زمن الحجاج وأخبار الاشعريين وأهل اليمن وأخبار العرب المتوطنين بقم عدا الفصول التي خصصها للحوادث التي مرت بقم غير انه من سوء الحظ لم يبق من الكتاب الا الترجمة الفارسية للابواب الخمسة الأولى من الكتاب ، اما الابواب الباقية من العشرين التي يتكون منها الكتاب فمفقودة حتى اليوم ؛ ويدل عنوان الباب السابع على احتوائه على مادة قيمة في موضوع بحثنا ، غير أنه من الابواب المفقودة ؛ وفي الابواب الاولى الباقية في ترجمتها الفارسية ما يؤيد قول اليعقوبي في كثرة الاشعريين في قم .

ويذكر اليعقوبي أن « رستاقي سردقاسان وجرمقاسان فيهما أشراف من الدهاقين ، وقوم من العرب من أهل اليمن من همدان ، وهما الحد بين عمل أصبهان وقم .

(١٠٠) ب البلدان ٢٧٤

ورستاق أردستان . . ورستاق التيمري ، وهما رستاقان يسكنهما قوم من العرب من بني هلال وغيرهم من بطون قيس ، وهو الحد بين عمل أصبهان والكرج [١٠١] .

أما **جرجان** فقد غزاها المسلمون في خلافة عمر ، وعقدوا مع حاكمها مرزبان صول معاهدة ، غير أن المسلمين لم يثبتوا حكمهم فيها ، مما أدى الى أن ينقطع الطريق التجاري القديم المشهور الذي كان يصل بين أواسط آسيا والعراق ويمر بنيسابور وطوس والري .

فلما ولي سليمان بن عبدالملك أرسل سنة ٩٨ حملة بقيادة يزيد بن المهلب فتحت جرجان وضمتها إلى دولة الاسلام ، وكان معه جماعة من الأزد وقريش وغيرها .

يذكر السهمي أن يزيد بن المهلب بعد أن فتح جرجان « بنى سورها واختط بها مساجد نحواً من أربعين مسجداً . . . قبيلة كان معه مسجداً لنفسه ، وتلك المساجد معروفة بجرجان بعضها داخل قصبتها وبعضها في الربض» [١٠٢] ولا ريب في أن بناء المساجد يدل على أن العرب استوطنوها .

عقد السهمي فصلا بعنوان « ذكر تسمية خطط المساجد التي بنيت في أيام بني أمية» [١٠٣] ذكر فيها المساجد التالية : —

(١) مسجد بجيلة على رأس سكة الحجاج مقابل الدباغين ، مربعة على بن زهير !

(٢) مسجد محارب في سكة البريد .

(٣) مسجد قريش في دار عبدالله بن عيسى .

(٤) مسجد حمراء ، وكان يعرف بمسجد إبن أبي رافع في سكة محرز ، وتعرف اليوم بسكة الخلنجيين .

(٥) مسجد بني أسد في سكة محرز ، وهو مسجد إسحاق الوزدولي .

(١٠١) البلدان ٢٧٥

(١٠٢) تاريخ جرجان ٩

(١٠٣) كذلك ١٦ — ١٧

(٦) مسجد العشيرة وكان يعرف بمسجد برجو براه العطار .

(٧) مسجد الموالى في سكة الموالي .

(٨) مسجد خثعم وكان يعرف بمسجد داود بن عبد ربه .

(٩) مسجد همدان في درب همدان ، ويعرف اليوم بدرب همدان .

(١٠) مسجد بني ضبة ، وكان سكن فيه عفان بن سيار قاضي جرجان .

(١١) مسجد الأزد ، وهو مسجد عبدك عبدالكريم الفقيه بباب خان عبدك يدعى اليوم بمسجد أبي الخطاب .

(١٢) مسجد بني عجل ، وهو المسجد الذي بباب الجديد الذي فيه القبر ، وشجرة الزيتون (!) .

(١٣) مسجد تيم بن ثعلبة على طرف من مربعة باب الجديد .

(١٤) مسجد بني قيس بن ثعلبة وكان يعرف بشجاع المحتسب في هذه السكة .

(١٥) مسجد الحضرميين في سكة الحضرميين ، وكان يعرف بخلاد بن محمد .

(١٦) مسجد بني سنان ، وهو مسجد أبي طيبة يعرف اليوم بمسجد عبدالواسع

(١٧) مسجد أفتاء العرب ، ويعرف اليوم بمسجد البصريين .

(١٨) مسجد بني ذهل وهو مسجد البزازين على باب خان ابن المستنير وسط السوق

(١٩) مسجد مراد ، وهو مسجد السراجين الذي جدد سنة **٣٣٩** .

(٢٠) مسجد نخلة في سكة اساكفة .

(٢١) . . . سكة سجن وتحته حوض (!) .

(٢٢) مسجد قضاعة في سكة المرزبان حيث . . . . حسان (!) .

(٢٣) مسجد بني تميم بباب اليهود يعرف ببحر السواق . . .

(٢٤) مسجد عبدالقيس في صف القبتين ، ويعرف بالقحطبيين .

(٢٥) مسجد زفر في مربعة جلاباذ .

وفيما عدا مسجدي زفروسنان (١٠٤) المنسوبين الى أشخاص لم يذكر عشائرهما ، ومسجد نخلة ، وسكة سجن (١٠٥) ، اللذين لا نعرف الى أي العشائر انتسبا فان كافة العشائر التي ذكرت مساجدها في هذا النص من عشائر أهل الكوفة رغم أن بعضها كان من عشائر البصرة أيضاً ، وبعض هذه العشائر يمانية (خثعم ، همدان العشيرة (ربما سعد العشيرة) ، الأزد ، الحضرميين ، مراد ، وبعضها من ربيعة (عجل تيم بن ثعلبة ، قيس بن ثعلبة ، ذهل ، عبدالقيس) وبعضها من مضر (قريش ، محارب ، بجيلة ، أسد (والحمراء) ضَبّة ، تميم ، قضاعة .

ويلاحظ أن بعض هذه المساجد كان قرب السوق ، فمسجد بجيلة مقابل الدباغيين ، ومسجد الأزد بباب خان عبدك ، ومسجد بني ذهل هو مسجد البزازين على باب خان المستنير وسط السوق ، ومسجد مراد في السرّاجين ، ومسجد نخلة في سكة الأساكفة .

غير أن بعض هذه المساجد كانت عند أبواب المدينة ، أي في أطرافها ، كمسجدي بني عجل ، وبني تيم بن ثعلبة ، وهما في باب الجديد ، ومسجد بني تميم بباب اليهود . ويلاحظ أن باب اليهود كان قرب السوق ، وفيه محلة الحناطين (١٠٦) والغزالين والجزارين (١٠٧) .

وقد ذكر مسجد واحد قرب الدواوين ، هو مسجد محارب في سكة البريد .

وقد أصبح كثير من هذه المساجد تسمى بأسماء أشخاص ، مما يدل على تبدل أحوال السكن حولها ، أو الاهتمام بالأفراد ، والواقع أن السهمي ذكرا عدداً من المساجد الأخرى منسوبة الى أشخاص ولكن لم يذكر أن عشيرة سكنت بقربه .

وقد ذكر السهمي « سكة الأنصار ، وهي « وسط السوق » ، وذكر ممن ينزلها أبا

---

(١٠٤) كذلك ٢٥ ، ١٦

(١٠٥) كذلك ٢٠ ، ٢١

(١٠٦) كذلك ٤١١

(١٠٧) كذلك ٣٤

عمرو الأنصاري [108] ولعل الأنصار كونوا عشيرة لها مسجد سقط ذكره من قائمة السهمي .

ومن البلاد التي سكنها العرب **الكرُج** وهي « منازل عيسى بن إدريس بن معقل ابن شيخ بن عمير العجلي أبي دُلَف . . فنزلها العجليون ، فبنوا الحصون والقصور فقصورها تنسب إلى أبي دُلَف واخوته وأهل بيته . . وأهلها قوم من العجم إلاّ من كان من آل عيسى بن إدريس العجلي ومن انضوى إليهم من سائر العرب » [109]

ويقول البلاذري « وكان ادريس بن معقل العجلي تاجراً ، فقدم الجبل في عدة من أهله ، فنزلوا قرية من قرى همدان تدعى مس ، ثم انهم أثروا واتخذوا الضياع ثم أن عيسى بن إدريس نزل الكرج وغلب عليها وبنى حصنها وكان حصناً رثّاً » « واستطاع إبنه أبو دلف القاسم بن عيسى أن يحظى بمكانة عند الخليفة « فكبّر ذلك الحصن ومدّن الكرج ، فقيل كرج أبي دلف ، والكرج اليوم مصر من الأمصار » [110]

ومن الأماكن التي سكنها العرب **ماسبذان** ، وكان كثير بن شهاب قد ولي تلك المنطقة في خلافة يزيد ، واتخذ إقطاعات بالجبل وبنى قصره المعروف بقصر كثير قرب الدينور ؛ ثم اتخذ زهرة بن الحارث ، وهو من نسل كثير ، بماسبذان ضياعاً .

وفي أواخر زمن بني أُمية نزع خشرم بن مالك بن هبيرة الأسدي من الكوفة الى ماسبذان فنزلها [111] .

اما اقليم **فارس** ، وهو الواقع على الشواطئ الشرقية من الخليج العربي مقابل البحرين وعمان ، فان العرب وجهوا اليه حملة من البحرين في خلافة عمر بن الخطاب وكانت في قول ابي مخنف بقيادة عثمان بن أبي العاص الذي « قطع البحر الى فارس فنزل

(١٠٨) كذلك ١٣١
(١٠٩) اليعقوبي : البلدان ٢٧٣
(١١٠) فتوح البلدان ٣١٣
(١١١) كذلك ٣٠٨

توّج ففتحها وبنى بها المساجد، وجعلها داراً للمسلمين ، واسكنها عبدالقيس وغيرهم ، فكان يغير منها على أرّجان ، وهي متاخمة لها . . وقال غير أبي مخنف إن الحكم فتح توج وأنزلها المسلمين من عبدالقيس وغيرهم سنة ١٩هـ (١١٢) »

غير ان الجيوش العربية المتقدمة الى فارس من البحرين لم تنجز أعمالا مهمة فلما ولي عثمان الخلافة أودع لمقاتلة البصرة مهمة فتح اقليم فارس ، فتقدمت قواتهم البرية عن طريق الشرق ، واستطاعت أن تفتح الأقاليم الواقعة جنوبي الهضبة الايرانية ففتحت فارس وسجستان وكرمان .

ويذكر الاصطخري أن عروة بن أديّة الخارجي لما قُتِلَ انتقل أولاده آل حنظلة ابن تميم «من البحرين الى فارس .. فسكنوا إصطخر ونواحيها وملكوا الأموال الكثيرة والقرى النفيسة (١١٣) »

وقد قام محمد بن القاسم الثقفي والي فارس في زمن الحجاج ببناء شيراز حيث مصّرها (١١٣أ) ، ولا بد أنه أسكنها العرب .

وبفسا قلعة تعرف بخرشة بن مسعود من بني تميم ، ثم من بني شقرة ، وكان مع ابن الأشعث ، فتحصن في القلعة ثم أومِنِ فمات بواسط ، له عقب بفسا(١١٣ب) .

يذكر الطبري انه في أوائل الحكم الساساني ازداد سلطان العرب بفارس وإن « عبدالقيس أناخوا على ايرانشهر وسواحل اردشير خرّه واسياف فارس وغلبوا أهلها على مواشيها »(١١٣ج) غير أن سابور ذا الاكتاف جرّد حملة عليهم « واسكن بعض قبائل تغلب وعبدالقيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والأهواز (١١٣د) » .

---

(١١٢) كذلك ٣٨٥ وانظر ياقوت ١/٨٩٠

(١١٣) المسالك ١٤٢

(١١٣ أ) الاصطخرى

(١١٣ب) فتوح البلدان ٣٩٠

(١١٣ج) الطبري ١/٨٣٦

(١١٣ د) الطبري ١/٨٤٥

فاقليم فارس من الأقاليم التي استوطنها العرب منذ الأزمنة السابقة للاسلام وأكثر من انتقل اليها أهل عمان ؛ فممن استقر بها منهم آل عمارة أولاد الجلندي وهم « أقدم ملوك الإسلام بفارس ، وأمنعهم جانباً » [114] ويقول الاصطخري إن آل عمارة « كانت لهم مملكة عريضة وضياع كثيرة وقلاع على سيف البحر بفارس متاخمة لحدود كرمان ، ولهم إلى يومنا هذا منعة وعدّة وبأس وعدد ، لا يستطيع السلطان أن يغيرهم ، وإليهم أرصاد البحر وعشور السفن » [115] .

ولآل عمارة « سيف آل عمارة الذي يعرف بالجلندى » [116] ولهم أيضاً حصن إبن عمارة « وهو حصن منيع على هذا البحر ، وليس بجميع بلاد فارس حصن أمنع منه » [117] ؛ ولهم أيضاً قلعة ابن عمارة « وهي مرصد لآل عمارة في البحر يعشّرون منها المراكب ، وهي قلعة منيعة جداً لا يقدر أحد أن يرتقي اليها بنفسه إلاّ ان يرقى بها شيءٌ من البحر [118] ، وهو يقع على مضيق هرموز ؛ ومن أملاكهم أيضاً قلعة هرمز ، وهي تقابل جزيرة كيش [119] .

وممن سكن فارس من العرب آل الصفار ، وهم من بني الجلندى ، ومنازلهم بسيف الصفار على ساحل البحر العربي [120] ؛ وفي هذا السيف تقع أكثر حصون فارس [121] وكان آل الصفار يسيطرون على رمّ الكاريان الذي كان يمتلكه في أوائل

(١١٤) الاصطخري : مسالك الممالك ١٤١ . وقد درس الدكتور عبدالرحمن عبدالكريم استيطان العرب بفارس في رسالته « عمان في العصور الاسلامية الأولى » وعليه اعتمدت في المعلومات التي أوردها هنا عن فارس .

(١١٥) كذلك ١٤٠

(١١٦) كذلك ١٠٥ — ٦

(١١٧) كذلك ٣٤ — ٥

(١١٨) كذلك ١٠٦ وانظر ياقوت ٧١١/٢ ، ٨٣٨/٣

(١١٩) ياقوت ٩٧٤/٤

(١٢٠) الإصطخري ١٤١ ، ياقوت ٢١٧/٣

(١٢١) الإصطخري ١٠٠

القرن الرابع أحمد بن الحسن ، ثم امتلكه من بعده ابنه حجر بن أحمد [١٢٢] .

ومن الأزد الذين ذكر ابن دريد سكناهم بإقليم فارس بنو قيس بن ثوبان وهم من بني شِهْمِيل بن الأسد بن عمران ، ويقول « إن لهم عدداً بفارس [١٢٣] وكذلك آل الصفاق بن حجر بن بجر [١٢٤] ، وكانوا يقيمون في سيف بني الصفاق [١٢٥] .

وقد ازدادت هجرة أزدعمان الى الأقاليم الواقعة في شرقي الخليج بعد سنة ٢٨٠ هـ حين بعث المعتضد جيشاً للسيطرة على عمان ، فخاف أهلها وهاجر كثير منهم ؛ وكان ممن هاجر سليمان بن عبدالملك بن بلال السليمي الذي هاجر الى هرمز واستقر بها وكوّن إمارة ، وولي إبنه الإمارة من بعده ، فلما مات زالت الامارة فعاد بعض اصحابه الى عمان وبقي بعض [١٢٦] .

وفي خضم هذه الحوادث « هاجر أهل صحار باموالهم وأهليهم الى سيراف والبصرة وهرموز وغيرها من البلاد » [١٢٧] .

وممن سكن فارس منذ الأزمنة السابقة للاسلام آل ابي زهير ، وهم من بني سامة ابن لؤي ، وينسب اليهم سيف بني زهير [١٢٨] ، وقد وصفهم الاصطخري بانهم « ملوك ذلك السيف ولهم منعة وعدد » ، [١٢٩] وكان منهم جعفر بن ابي زهير الذي وفد على الخليفة هارون الرشيد فاعجب به . وكان المظفر بن جعفر في اوائل القرن الرابع «يملك عامة الدستقان ، وله مملكة السيف من حدّ جنّابا الى حد نُجَيْرَم»

(١٢٢) الإصطخري ٩٩ ، ١٤١ المقدسي ٤٤٧ ياقوت ٨٢١/٢

(١٢٣) الأشتقاق ٤٨٤ (طبعة عبدالسلام هارون)

(١٢٤) كذلك ٤٩٩

(١٢٥) ابن الفقيه : البلدان ١١

(١٢٦) كشف الغمة ٣٣٥ أ ؛ تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ٢٣٠/١

(١٢٧) تحفة الأعيان ٢٢٠/١

(١٢٨) ياقوت ٢١٧/٣

(١٢٩) الإصطخري ١٤١ ، ١٠٥ وانظر أيضاً ياقوت ٢١٧/٣ ٢

وكان مسكنه على ساحل البحر بصفارة . وكان « سائر آل ابي زهير من حد نجيرم الى حد بني عمارة ، ومسكن آل ابي زهير كران » [١٣٠] .

اما **كرمان** فان سابور ذا الاكتاف أسكن بعض قبائل تغلب وعبدالقيس وبكر ابن وائل كرمان وتوج والاهواز [١٣٠أ]، و« اسكن من كان من بكر بن وائل كرمان، وهم الذين يدعون بكر ابان [١٣١ب] » .

كان سليمة بن مالك بن فهم قد سيطر على كرمان قبل الإسلام وأنشأ فيها إمارة ، ثم سقطت دولته [١٣١] ولكن اكثر بني سليمة ظلوا بعد سقوط دولتهم « بأرض كرمان ، ولهم بأس وشدة وعدد كثير ، وبعمان الأقل منهم » [١٣٢] .

ولما تقدم العرب لفتح كرمان « هرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ، ولحق بعضهم بمكران ، واتى بعضهم سجستان ، فأقطعت العرب منازلهم وأرضهم فعمروها وأدوا العشر فيها ، وأحتفروا القنى في مواضع منها . . وولى الحجاج الحكم بن نهيك الهجيمي كرمان بعد ان كان ولاّه فارس ، فبنى مسجد أرّجان ودار إمارتها » [١٣٣] .

وكانت تقيم بكرمان حامية عربية عددها «أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة والبصرة» [١٣٤] و « أهل كرمان يزعمون أنهم عرب » [١٣٥] .

وممن أقطع أرضاً بكرمان يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ الحميري ، وقد حصل على إقطاعه من شريك بن الأعور عامل كرمان في زمن معاوية [١٣٦]

---

(١٣٠) ياقوت ٢١٧/٣

(١٣٠أ) الطبري ٨٤٥/١

(١٣٠ب) الطبري ٨٣٩/١

(١٣١) كشف الغمة ٢٦/٢ — ٢٨ تحفة الاعيان ٣٢ أ ، ٣٧ أ

(١٣٢) كشف الغمة ٢٨ تحفة الأعيان ٣٧

(١٣٣) فتوح البلدان ٣٩١

(١٣٤) الطبري ١٠٦٠/٢

(١٣٥) المقدسي ٤٧١

(١٣٦) كذلك ٣٩١

وقد استوطن بعض آل المهلب في مدينة جيرفت ، وهي من أهم مدن كرمان [١٣٧] ومن المـــدن التي استوطنها العرب بكرمان مدينة ماهان التي يسميها المقدسي « مدينة العرب » [١٣٨] .

اما الشيرجان فكان اول من نزلها من العرب محمد بن غزية ، ثم استقدم من أهله قوماً ، وسيطر عليها [١٣٩] .

اما مكران فقد فتحها سنان بن سلمة في خـــلافة معاوية وأسكنها العرب [١٤٠] وفتح أمير بن أحمر اليشكري قوهستان « وهي بلاد أبي بكر الى اليوم » [١٤١] .

(٦) استيطان العرب في خراسان

اما خراسان ، وهي الاقليم الواسع الواقع في الجهات الشمالية الشرقية من الهضبة الايرانية ، فقد اتمت فتحه مقاتلة البصرة بقيادة عبدالله بن عامر في زمن خلافة عثمان بن عفان ؛ وكان العرب ينفذون حملاتهم في الصيف ثم يعودون الى البصرة في الخريف « وكانوا اذا رجعوا خلفوا أربعة آلاف للعقبة ، فكانوا على ذلك حتى كانت الفتنة (النزاع بين علي ومعاوية) [١٤٢] .

غير أن العرب شعروا بعجز هذه السياسة عن تثبيت سلطان العرب في هذا الاقليم البعيد عن القواعد الرئيسة في البصرة والكوفة ؛ وأدركوا ضرورة إنشاء قواعد ثابتة تقيم فيها القوات العربية بصورة دائمة ، لتهيمن على أقاليم المشرق ، وتدافع عن حدودها ، وتوسع رقعة الدولة في الشرق .

---

(١٣٧) ياقوت ٢/١٧٤ — ٥

(١٣٨) احسن التقاسيم ٤٦٢

(١٣٩) الروض المعطار ٣٥١

(١٤٠) جوامع السيرة ٣٤٩

(١٤١) فتوح البلدان ٤٠٢

(١٤٢) الطبري ١/٢٩٠٦ . لقد بحثت في مقالي « استيطان العرب في خراسان » الموضوع بتفصيل اوفى ، وقد اعتمدت على ذلك في كثير مما اورده هنا .

يروي البلاذري أن زياد بن أبي سفيان ولي البصرة سنة ٤٥ ﻫ « فولّى أمير ابن أحمر مرو ، وخليد بن عبدالله الحنفي أبرشهر ، وقيس بن الهيثم مرو الروذ والطالقان والفارياب ، ونافع بن خالد الطاحي من الأزد ، هراة وباد غيس وبوشنج وقادس من أنواران ؛ فكان أمير أول من أسكن العرب مرو »(١٤٣) ؛ إن تخصيص النص لسكن العرب في مرو قد يدل على أنها ، دون غيرها ، كانت أول مكان سكنه العرب ، ويدل السياق على أن هؤلاء المتوطنين أسكنوا مع عيالاتهم .

وفي سنة ٥١ ﻫ ولّى زياد « الربيع بن زياد الحارثي خراسان وحوّل معه من أهل المصرين زهاء خمسين ألفاً بعيالاتهم .. واسكنهم دون النهر »(١٤٤) . ويروي الطبري أن زياداً « بعث الربيـــع بن زياد الحارثي الى خراسان في خمسين ألفاً ، من أهل البصرة خمسة وعشرون ألفاً ، ومن الكوفة خمسة وعشرون ألفاً ، على أهل البصرة الربيع ، وعلى أهل الكوفة عبدالله بن أبي عقيل ، وعلى الجماعة الربيع بن زياد »(١٤٥) غير أن الأخبار المتأخرة عن تنظيم العرب في خراسان تظهر أن أهل الكوفة كانوا وحدة مستقلة لا تزيد على سدس العرب ، كما ان هذا التنظيم كان قائماً على أساس الأخماس المتبع في البصرة ، فضلاً عن أن خراسان ظلت أوثق صلة بالبصرة . وهذا يدل على عدم دقة الطبري في قوله إن نصف الناقلة كانت من أهل الكوفة .

ثم تتابعت هجرات العرب الى خراسان ، فلما وليها سعيد بن عثمان خرج معه أوس بن ثعلبة التيمي ، وطلحة بن عبدالله الخزاعي ، والمهلب بن أبي صفرة ، وربيعة ابن عسل اليربوعي ، واخرج قوماً من بني تميم منهم مالك بن الريب المازني(١٤٦) . ولما ولى سلم بن زياد خراسان شخص معه « خلق كثير من خراسان البصرة واشرافهم ، فقدم سلم بن زياد بكتاب يزيد بن معاوية الى عبيدالله بن زياد بنخبة الفي رجـــل

(١٤٣) فتوح البلدان ٤٠٩ — ١٠
(١٤٤) فتوح ٤١٠
(١٤٥) الطبري ٨١/٢ البلاذري ٤١٠ .
(١٤٦) الطبري ١٧٨/٢

ينتخبهم ، وقال غيره بل نخبة ستة آلاف رجل ، فكان ينتخب الوجوه والفرسان ، ورغب قوم في الجهاد فطلبوا اليه أن يخرجهم »(١٤٧)

وبعد أن قضى أمية بن عبدالله والي خراسان على حركة بكير بن وشاح كتب الى عبدالملك « فضرب عبدالملك بعثاً إلى أمية بخراسان ، فتجاعل الناس ، فأعطى شقيق بن سليل الأسدي جعالته رجلاً من جَرم »(١٤٨)

وفي سنة ٩٥ هـ بعث الحجاج جيشاً من العراق الى خراسان ، فلما وصلوا قام قتيبة « فغزا ، فلما كان بالشاش أو بكشماهن أتاه موت الحجاج في شوال ، فغمه ذلك ، وقفل راجعاً الى مرو »(١٤٩)

وعندما ولي الجنيد خراسان « قدمها مع خمسمائة »(١٥٠)

ولما قتل سورة بن الحر «كتب الخليفة هشام بن عبدالملك الى الجنيد ؛ قد وجهت اليك عشرين الفاً مدداً : عشرة آلاف من أهل البصرة عليهم عمرو بن مسلم ، ومن أهل الكوفة عشرة آلاف عليهم عبد الرحمن بن نعيم ، ومن السلاح ثلاثين ألف رمح ، ومثلها ترسه ، فافرض فلا غاية لك في الفريضة لخمسة عشر الفاً »(١٥١).

إن النصوص التي أوردناها توضح الهجرات الواسعة النطاق ، ولا بد أنه كانت بجانبها هجرات فردية أو محدودة العدد ، تجري باستمرار . ولا ريب في ان عدداً من هؤلاء المهاجرين كان يعود الى العراق او الجزيرة ، كما أنه كان يسقط في ميادين القتال عدد غير قليل ، غير ان المصادر لم تذكر عددهم .

لقد ذكر الرقم الإجمالي لعدد المقاتلة العرب في خراسان مرتين : **الاولى** في زمن الربيع بن زياد الحارثي (٥٤ هـ) عندما نقل خمسين ألفاً(١٥٢) ، والثانية عند مقتل

(١٤٧) الطبري ٣٩٣/٢ تاريخ اليعقوبي ٣٩٣/٢
(١٤٨) الطبري ١٠٢٩/٢
(١٤٩) كذلك ١٢٦٧/٢
(١٤٠) كذلك ١٥٢٨/٢
(١٥١) كذلك ١٥٦٥/٢
(١٥٢) الطبري ٨١/٢ البلاذري .

قتيبة ابن مسلم (٩٦ ﻫ) حيث كان عددهم حوالي أربعين الفاً . واذا افترضنا أن عائلة كل مقاتل مكونة من خمسة ، فان عدد العرب يكون حوالى ربع مليون ولا ريب في أن هذا العدد لا يشمل من لم يكن مسجلاً في الديوان ، ممن كان عددهم قليلاً ، ولكن دورهم في الحياة الاقتصادية والفكرية كبيراً .

يذكر الطبري ان المقاتلة العرب كانت عند مقتل قتيبة كان فيها تسعة آلاف من أهل العالية (الحجاز) ، وسبعة آلاف من بكر ، وعشرة آلاف من تميم ، وأربعة آلاف من عبدالقيس ، وعشرة آلاف من الأزد ، وسبعة آلاف من أهل الكوفة ، بالاضافة الى سبعة آلاف من الموالي [١٥٣] . ويتبين من هذا ان المقاتلة في خراسان كانوا منظمين على الأخماس ، على غرار تنظيمهم في خراسان ، وأن أهل الكوفة كونوا وحدة قائمة بذاتها ، وكذلك الموالي .

وقد تردد ذكر الأخماس ورؤوسها ، فلما قتل سعيد الحرشي سبقرى قال الراجز :

اذا سعيد سار بالأخماس — في رهج يأخذ بالأنفاس

دارت على الترك أمرّ الكأس — وطارت الترك على الأحلاس

ولّوا فراراً عطل القياس [١٥٤]

ولما تقدم اسد بن عبدالله القسري الى غورين قال الشاعر

ندبت من كل خميس الفين — من كل لحاف عريض النصين [١٥٥]

وعندما سار نصر بن سيار الى الشاش لقتال كور صول « كان مع نصر أهل بخارى وسمرقند وأشروسنة ، وهم عشرون ألفاً، فنادى نصر في الأخماس ألاّ يخرجن أحد من بنائه ، واثبتوا على مواضعكم» [١٥٦]

(١٥٣) كذلك ٢/١٢٩٠ – ٩١ فتوح البلدان ٤٢٣
(١٥٤) كذلك ٢/١٤٤٩
(١٥٥) كذلك ٢/١٤٩٣
(١٥٦) كذلك ٢/١٦٩٠

وقد رددت المصادر ذكر مقاتلة من أهل الشام في خراسان ؛ ويرجع أول ذكر لها الى زمن ولاية عبيدالله بن زياد خراسان في سنة ٥٣هـ حيث قدممعه أسلم بن زرعة الكلابي ، فخرج معه من أهل الشام الجعد بن قيس النميري [١٥٧] ؛ ولما ولي سَلْم بن زياد خراسان وجه الحارث بن معاوية الحارثي من الشام الى خراسان [١٥٨] ومع أن هاتين الحالتين فرديتان ، إلا أنهما قد تدلان على وجود حالات أخرى لم تذكرها المصادر .

وأول اشارة واضحة لوجود أهل الشام في خراسان ترجع الى زمن يزيد بن المهلب الذي « أدنى أهل الشام وقوماً من أهل خراسان » [١٥٩] ومنذ ذلك الزمن بدأ يتردد ذكر أهل الشام كوحدة مستقلة ؛ فلما حاصر الترك سَوَرة بن الحر وترددت المقاتلة في التقدم، قال الجنيد «لو لم أكن إلا في بني مُرّة أو من طلع معي من أهل الشام لعبرت » [١٦٠] ؛ ولما هاجم الحارث بن سريج مرو ، قاومه عاصم ، ومع عاصم رجل من بني عبس في خمسمائة من أهل الشام ، وابراهيم بن عاصم العقيلي في مثل ذلك ، ثم ارسلت اليمانية رجلاً من أهل الشام اسمه ابو داؤود في خمسمائة [١٦١] ثم ارسل اسد بن عبدالله قوة مع عبدالرحمن بن نعيم الغامدي في أهل الكوفة واهل الشام في طلب الحارث ، ولكن هذا انتصر عليهم وقتل من أهل الشام عدداً من فرسانهم [١٦٢] .

ويبدو أن أهل الشام احتفظوا بتنظيماتهم الداخلية على غرار ما كان في الشام ، فيذكر الطبري أنه لما اشتبك أسد بن عبدالله القسري مع الترك « كان على التعبية : القاسم بن بخيت المراغي ، فجعل الأزد وبني تميم والجوزجان وشاكريته ميمنة ،

(١٥٧) كذلك ١٦٨/٢

(١٥٨) كذلك ٣٩٢/٢

(١٥٩) كذلك ١٣١٣/٢

(١٦٠) كذلك ١٥٣٣/٢

(١٦١) كذلك ١٥٧٩/٢، ١٥٨٠

(١٦٢) كذلك ١٥٨٣/٢ ، ١٥٨٥

وأضاف اليهم أهل فلسطين عليهم مصعب بن عمرو الخزاعي ، وأهل قنسرين عليهم مغراء بن أحمر وجعل ربيعة ميسرة عليهم يحيى بن حضين ، وضم اليهم أهل حمص وعليهم جعفر بن حنظلة البهراني وأهل الأردن وعليهم سليمان بن عمرو المقري من حمير ، وعلى المقدمة منصور بن مسلم البجيلي ، وأضاف اليهم أهل دمشق عليهم حملة بن نعيم الكلبي ، وأضاف اليهم الحرس والشرطة وغلمان أسد»[١٦٣]

كانت مرو هي المركز الرئيسي للعرب فهي «بيضة خراسان» [١٦٤] وكان عمال خراسان يغزون فاذا دخل الشتاء قفلوا من مغازيهم الى مرو الشاهجان »[١٦٥]

وقد ذكرت المصادر بعض المعالم الخططية البارزة في مرو ، ومنها عدد من قصور ومساجد منسوبة لرجال من العرب ، ولكنها لم تذكر ما يشير الى اية قبيلة عربية استوطنت داخل مرو ، ولكنها ذكرت قرى قرب مرو سكنها بعض العرب ، فكانت بونيه ، وهي على فرسخين من مرو ، قرية لطي [١٦٦] كما ذكرت قرية بأعلى مرو لكندة ، واخرى لبني العنبر [١٦٧] ولخزاعة قرية سفيذنج وبالين [١٦٨] وفنين[١٧٩].
واتخذ العرب مركزا لهم بالبروقان ، قرب بلخ ، ثم نقل اسد القسري مركزهم الى بلخ سنة ١٠٧ هـ [١٧٠] وكان عددهم ٢٥٠٠ ومعظمهم من اهل الشام [١٧١] ويذكر اليعقوبي ان بلخ بها قوم من العرب من الأزد وتميم وغيرهم » [١٧٢]

(١٦٣) كذلك ٢/١٦٠٩ وانظر أيضاً ١٦١٢
(١٦٤) كذلك ٢/١٥٦٨
(١٦٥) كذلك ٢/٣٩٤
(١٦٦) كذلك ٢/١٠٢٦
(١٦٧) كذلك ٢/١٥٧٩
(١٦٨) كذلك ٢/١٩٥٢
(١٦٩) كذلك ٢/١٩٦٤
(١٧٠) كذلك ٢/١٤٩٠
(١٧١) كذلك ٢/١٥٩٠
(١٧٢) البلدان ٢٧٩

ويلاحظ ان المصادر التالية تذكر عــددا من المدن قرب بلخ كان يسكنها العرب فيذكر ياقوت «وخلم على عشرة فراسخ من بلخ وهي بلاد العرب نزلها الاسد وبنو تميم وقيس ايام الفتــوح»[١٧٣] وان سمنجان (وهي عــلى خمسة ايام من خلم) «بها طائفة من عرب تميم»[١٧٤] وفي صحاري الجوزجان «عشرين الف عربي اغنياء يملكون كثيرا من الغنم والجمال»[١٧٥].

ومن مراكز العرب في خراسان هراة التي كانت مركزا اداريا تتبعه عدة مــدن واشارت المصادر الى الجنــد العربي الذي كان يسكنها في زمن ولاية الجنيــد[١٧٦] ولعل سكناهم ترجع الى زمن أقدم. وجدير بنا ان نذكر ان اليعقوبي يذكر ان هراة «بها قوم من العرب»[١٧٧] ويذكر مؤلف حدود العالم ان هراة «يسكنها كثير من العرب»[١٧٨].

ومن المدن التي استوطنها العرب نيسابور، فيذكر اليعقوبي انها «فيها اخلاط من العرب والعجم»[١٧٩] ويقول عن بست، وهي احدى ارباع نيسابور «أهلها من العجم، وأكثرهم يقولون إنهم ناقلة من اليمن من حمير»[١٨٠].

ولما أتم العرب فتح بلاد ما وراء النهر في زمن قتيبة أسكنوا في عدد من المدن أهمها سمرقند، وكان عدد هذه القوة في زمن قتيبة أربعة آلاف[١٨١] غير أن هــذا

---

(١٧٣) ياقوت ١/٤٦٥

(١٧٤) ياقوت ٣/١٤٢

(١٧٥) حدود العالم ١٠٨

(١٧٦) الطبري ٢/١٩٤٨

(١٧٧) البلدان ٢٨٥

(١٧٨) حدود العالم ١٠١

(١٧٩) البلدان ٢٨٠

(١٨٠) البلدان ٢٨١

(١٨١) الطبري ٢/١٢٤٥

العدد لم يبق ثابتاً ، ويقول الاصطخري إنه كان في سمرقند عدة « لقوم من بكر ابن وائل يعرفون بالسباعية [١٨٢] ويقول المقدسي في كلامه عن رساتيق بوز حاجز وباركث وكبو نحكث وذار « وكثير من قرى هـــذه الرساتيق لقوم من بكـــر ابن وائل يعرفون بالسباعية كانت لهم بسمرقند ولايات وكانت لهم بها دور ضيافات واخلاق حسنة [١٨٣] .

ولا بد ان بخارى كان يسكنها عدد من العرب ، إذ ان من ابوابها باب بني اسد وباب بني سعد [١٨٤] .

ان الغالبية المطلقة للعرب الذين بحثنا عنهم اعلاه هم من المقاتلة المدونين فـــي الدواوين ، وهم بعض ؛ وليس كل ، من انتقل واستوطن اقاليم الدولة الاسلامية ، ولا بد ان هجرات فردية او جماعية اخرى جرت الى هذه المناطق وغيرها ، قوامها « مدنيون » أي اناس لم يكونوا من المقاتلة ، حيث نجد في اخبار العصور التالية عددا من المدن والاقاليم التي استوطنها العرب خارج المراكز التي ذكرناها ، وقد قام هؤلاء المهاجرون بدورهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، كما أسهموا بدور كبير في نشر الاسلام واللغة العربية وفي إزدهار الحركة الفكرية .



(١٨٢) الاصطخري ٣٠٧

(١٨٣) احد التقاسيم ٤٦٢

(١٨٤) الاصطخري ٣٠٦

مفاخرات الكوفة والبصرة

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الثاني والأربعون - الجزء الثالث

1413هـ - 1992م

مفاخرات الكوفة والبصرة

تأسست الكوفة والبصرة في زمن متقارب ، وكان الغرض من تأسيسها ايجاد قاعدة لاقامة المقاتلة وعيالاتهم وأن تكون مركزا اداريا يرأسه أمير يمثل الخليفة الذي يوليه ، ويشرف على ادارة المناطق التي فتحها مقاتلة المصر .

والمقاتلة الذين استوطنوهما من عرب الجزيرة الذين احتفظوا بتنظيماتهم القبلية بعد تعديلها بما يناسب الأوضاع الجديدة من تثبيت سلطة الخلافة العليا ، والتوجه العام للفتوح وتثبيت الأمن والنظام ، وقد سكن في كل من الكوفة والبصرة أفراد عشائر واحدة من أهل الحجاز ، وتميم وبكر وعبدالقيس ، وحنيفة ، وكلها عشائر ديارها في الحجاز وفي هضبة نجد .

غير أن الكوفة تفردت عن البصرة بمن سكنها من طي ، وأسد ، وفزارة ، وتغلب ، وبجيلة ، وأزد السراة ، والعشائر اليمانية أما البصرة فتفردت بمن سكنها من أزد عمان ، علماً بأن عدد بني عبدالقيس فيها أكبر من عددهم في الكوفة .

وأدى استقرار العشائر في كل مصر الى تداخلات بينهما طفت على الخلافات القديمة ، وزاد في صهرهما إدراكهما أهمية عملها في توسيع الدولة الجديدة وتثبيتها وتوجيهها .

غير أن الظروف قضت بأن يضطلع أهل كل منهما بواجبات خاصة ، فأهل الكوفة حملوا الواجب الأكبر في مقارعة جيوش الملك الساساني ، فدحروا تلك الجيوش ، وقضوا على ملك الساسانيين ، وبسطوا سلطان الدولة على العراق والأطراف الوسطى والشمالية من الهضبة الايرانية ، وعلى قسم كبير من أراضي الجزيرة الفراتية ، وقد اتموا هذه الأعمال الكبيرة في زمن خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان بن عفان . ويسّر لهم انجاز

ذلك أعدادهم الكبيرة منذ بدء القتال مع الفرس في زمن خلافة ابي بكر أوائل زمن خلافة عمر ، وجلب لهم موارد كبيرة من جباية الأقاليم التي فتحوها والتي كانت تصرف في عطاء المقاتلة . غير أن أعمالهم الحربية تناقصت في زمن خلافة عثمان .

وكانت كثرة سكانها والدور الكبير الملقى على مقاتلتها في الفتوح دافعا لان يصفها عمر «سيدة الأمصار وجمجمة العرب» ، ووصفها بأنها قبة الاسلام ، وقيل انها «كنز الايمان وجمجمة الاسلام وسيف الله ورمحه»[1].

أما مقاتلة البصرة فكان عددهم في البداية أقل من عدد مقاتلة أهل الكوفة ، وكانت جبهتهم ثانوية ، غير أنه سرعان ما ألقى عليهم واجب فتح الأهواز ، ثم التوجه في زمن خلافة عثمان الى فتح أقاليم الهضبة الجنوبية بما فيها فارس وكرمان ومكران ، كما قاموا بفتح خراسان ، وقد تم ذلك بتزايد عدد المقاتلة في البصرة بمن هاجر اليها من مناطق الخليج العربي خاصة.

وكان تمايز جبهات فتوح كل من المصرين ، وادراك مقاتلتهما الواجب المطلوب منهما تحقيقه ، وكثرة الحركات الحربية من أسباب عدم حدوث احتكاك بين أهلهما .

غير ان الاستقرار والتمازج بين أهل كل مصر أوجد تفاهما خاصا بدأ يتغلب تدريجيا على الروابط القبلية ويميز كل مصر .

وقد بدأ أول احتكاك سياسي بين الكوفة والبصرة في معركة الجمل حيث اتخذت عائشة ومن كان معها البصرة قاعدة لهم ، وكان ذلك من اختيار عائشة وليس بدافع كره أهل البصرة لعلي ، وقد دفعت الأحوال أكثرهم لتأييد عائشة ، برغم ان فريقا منهم اعتزل ، وفريقا مال الى علي وقاتل في صفه .

(١) فتوح البدان ١٦٤/١٦٦ .

وقد اعتمد عليّ في القضاء على حركة عائشة ومسانديها على أهل الكوفة الذين انضم عدد منهم اليه بحكم كونه الخليفة المنتخب ، وليس لخصومة أهل البصرة ، غير أن الأحوال دفعت الى خلق خلاف بينهما . ومع أن أصحاب الجمل لم يحضوا بتأييد عام مطلق من أهل البصرة ، وانما وقف فريق منهم على الحياد ، وانضم اليه فريق آخر ، كما أن القتال كان بدافع كره علي ، الا أن الخليفة علياً خطب يهاجم أهل البصرة وكان مما قاله :

« يا أهل البصرة ، يا بقايا ثمود ، ويا جند المرأة ، ويا أتباع البهيمة ، رغا فاتبعتم ، وعقر فانهزمتم ، أما والله اني لا أقول رغبة فيكم ، ولا رهبة منكم ، غير أني سمعت رسول الله (ص) يقول : تفتح أرض يقال لها البصرة، أقوم الارضين قبلة ، قارؤها أقرأ الناس ، وعابدها أعبد الناس ، وعالمها أعلم الناس ، ومتصدقها أعظم الناس صدقة ، وتاجرها أعظم الناس تجارة . منها الى قرية يقال لها الابلّة أربعة فراسخ ، يستشهد عند مسجد جامعها أربعون ألفاً ، الشهيد منهم يومئذ كالشهيد معي يوم بدر »[2] .

ووصفهم أيضاً « دينكم نفاق ، واخلاقكم رقاق ، وماؤكم زعاق »[3]. وذكر أن البصرة « لتغرقن أو لتحرقن الا بيت مالها ومسجدها » .

وقد اتخذ الامام عليّ مقامه في الكوفة بعد معركة الجمل، ومع أنه قاتل معه في صفين عدد من أهل البصرة، وانخزع عنه عدد من أهل الكوفة ، وكونوا اعظم جيشه في الكوفة ، الا ان البلبلة التي حدثت بعد قبوله التحكيم أدت الى انشقاق عدد من أهلها عنه ، كما ان مقاتلته المنشقين من الخوارج، ضعفت فيهم الاندفاع القتال مع عليّ ، واستطاع معاوية أن يبسط سيطرته على مصر

(٢) عيون الاخبار ٢١٦/١ ، ابن الفقيه ١٧ (مخطوطة مشهد) .
(٣) عيون الاخبار ٢١٧/١ ، ابن الفقيه ١٧ (مخطوطة مشهد) .

والحجاز ثم اليمن وأدى ضعف حماسة أهلها في الاستجابة لدعوة علي في قتال معاوية الى استيائه منهم فخطب مقرعاً لهم وقال :

« ما هي الا الكوفة أقبضها وأبسطها ، ان لم تكوني الا أنت أعاصيرك فقبحك الله .. وتفرقكم عن حقكم وبمعصيتكم أما حكم فالحق .. وخيانتكم.. وفسادكم.. أللهم أني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم ، وابدلهم بي شراً مني ، اللهم امت قلوبهم لما يمات المالح في الماء ، أما والله لعددت ان لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم »[٤] .

ولابد أن هذه الحوادث كان لها أثر في غلبة العثمانية على موقف أهل البصرة ، وغلبة العلوية على أهل الكوفة . مما وسّع شقة الخلاف بينهما ، ولكنه لم يؤثر في مجرى الحوادث السياسية ، لأن معاوية عمل على رأب الصدع وجمع «الجماعة» التي انضوى اليها المصران ، وتركزت المعارضة المسلمة في الخوارج ومنهم من أهل الكوفة والبصرة واهل الجزيرة .

وبعد وفاة يزيد حدث تفكك في الوحدة التي عمل زياد وابنه عبيدالله على تثبيتها ، وبعد تطورات سيطر المختار على الكوفة باسم الشيعة ، واضطهد أشراف الكوفة ، وقرب الموالي ، فتزعزعت مكانتهم ولجأوا الى البصرة التي كان يحكمها مصعب بن الزبير باسم أخيه عبدالله ثم تقدم مصعب بجيش قوامه مقاتلة أهل البصرة ، وقضى على المختار وحركته ، وأعاد الوحدة السياسية الى العراق بمصريه البصرة والكوفة .

وشاركت كل من البصرة والكوفة في حوادث سياسية مشتركة أبرزها مقاومة الخوارج ، وتأييد حركة عبدالرحمن بن الاشعث . وتفردت الكوفة

(٤) شرح نهج البلاغة ١/ ١٨٠ .

بموقفها المؤيد لثورات العلويين من دون أن تسهم بدور فعـال في انجاحها ، فبالاضافة الى أنها كانت مقام علي بن ابي طالب ابان خلافته ، فان أهلها عرفوا بتأييدهم للعلويين ، وحب آل البيت واعتمد الحسين على التأييد الذي أظهروه له ، كما قام فيهم المختار باسم آل البيت ، واتخذ زيد بن علي الكوفة مكاناً له في ثورته على الامويين ، كما كانت الكوفة مركز الدعوة العباسية في مراحلها السلمية الاولى عندما كانت تدعو لجعل الخلافة في آل البيت • كما أن الجيوش العباسية بعد أن أفلحت في السيطرة على خراسان وتقدمت لانتزاع الخلافة من الامويين ، اتخذت مركزها في الكوفة ، ومنها أرسلت الجيوش للقضاء على الخلافة الاموية في الجزيرة الفراتية والشـام ومصر ، وفي تصفية الأمويين في واسط ، وكان مقام أبي جعفر المنصور فيها العامـل الأكبر في عدم توسع ثورة محمد النفس الزكية في العراق •

ومع أن كافة ثورات العلويين التي اعتمدت على تأييد أهل الكوفة لم تحض بالنجاح ، الا أن أهل الكوفة ظلوا معروفين بولائهم لآل البيت ، وكان هذا من أسباب نقل الخلفاء العباسيين مقرهم الى الأنبار ثم الى بغداد بعـد أن أسسوها • علما انه لم يتخذ أي من أولاد علي وأحفاده الكوفة مقامـاً له وان الحركة الفكرية في الكوفة ، ونمو علم الحديث فيها يظهر ان السيطرة في هذه الحركة كانت لأهل السنة ممن يتعاطف مع العلويين ولا يتعصبون لهم •

وظل أهل البصرة من حيث العموم منحرفون عن آل البيت ومؤيـدون للعثمـانية ، وقد وصفهـم محمـد بن ابراهـيم الامـام بأنهم « عثمـانية تدين بالكف ، تقول كن عبدالله المقتول ولاتكن عبدالله القاتل »، ولم يعرف عنهم غير انضمامهم الى عبدالرحمن بن الاشعث عندما قدم البصرة ثائـراً، وقد توجهت معارضتهم الى الخوارج الذين قاموا بحركاتهم خارجها ، واسهم البصريون في القضاء عليها ، علما بان مقاتلتهم تابعت اعمالها في القضاء على

الثورات وبالاسهام في الفتوح وخاصة في جنوب الهضبة الايرانية وفي السند ، كما أمدّوا المقاتلة في خراسان بالرجال .

المفاخرة في الفتوح

كان دور كل من أهل الكوفة والبصرة في الفتوح موضوعا في المفاخرات بينهما ، وقد أشار اليه ابن الفقيه في فصله الواسع عنهما ، فذكر مناظرة جرت في حضرة ابي العباس بين ابي بكر الهذلي، وكان بصريا، وابن عياش وكان كوفيا، ومناظرة اخرى بحضرة المأمون بين أحمد بن يوسف ، واحمد بن هاشم ، وأضاف الى ذلك أقوالا كثيرة وصف معالم كل منهما وأقوال في مدحهما وذمهما ، وتناولت أمورا كثيرة من خصائص كل منهما [٥] .

فخر الكوفيون في فتوحهم الاولى ، فقال ابن عياش في حضرة ابي العباس « نحن اعلم بالفتوح ، نحن نفينا كسرى عن البلاد وابرنا جنوده وابحنا ملكه وفتحنا الاقاليم [٦] .

ونقل الهمداني عن مصدر لم يذكر اسمه ، أن اهل الكوفة « قالوا : ولنا فتوح وأيام ، فمن فتوحنا الحيرة وبانقيا والفلوجتين ونستر وبغداد وعين التمر ودومة والأنبار ، وما فتحوا مع خالد بن الوليد في مسيرهم الى الشام ، المصيخ وحصيد وبشر وقراقر وسوى وأراك وتدمر، ثم شاركوا أهل الشام في بصرى ودمشق ، هذا كله في خلافة ابي بكر ، ثم كان من آثارهم في خلافة عمر يوم جسر أبي عبيد ويوم مهران ويوم القادسية ويوم المدائن وجلولاء وحلوان ، هذا كله قبل أن ينزلوا الكوفة ، ثم نزلوها ففتحوا الموصل وأذربيجان وتستر وماسبذان ورامهرمز وجرجان والاينور ؛ ولهم

(٥) ابن الفقيه ١٦٧ ؛ وانظر : الجليس الصالح للمعافي النهرواني ، ٤٤٦ .
(٦) ابن الفقيه ١٦٧ – ٨ .

مع أهل البصرة نهاوند ، ولهم بعض الري وبعض اصبهان ، ولهم طميس ونامية من طبرستان » .[7]

الأحوال الجغرافية :

وقد امتدت المقارنة بين البصرة والكوفة الى الأحوال الجغرافية لكل منهما . وأقدم نص وصل الينا في ذلك عن خصائص البصرة مع الماح الى مقارنتها بالكوفة هو قول الأحنف بن قيس عندما قدم في وفد أهل البصرة الى الخليفة عمر ، حيث قال « إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة ، وانا نزلنا سبخة نشّاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها : ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج ، ومن قبل المغرب الفلاة ، فليس لنا زرع ولا ضرع ، تأتينا منافضا وميرتنا في مثل مريء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة لذلك فتربق ولدها كما يربق العنز ، يخاف بادرة العدو وأفل السبع ، فالا ترفع خسيستنا وتجيز قافلتنا تكن كقوم هلكوا » .

فالحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء ، وكتب الى أبي موسى يأمره أن يحتفر لهم نهراً .[8]

وقد روى الطبري هذا الكلام بصيغة فيها بعض الاختلاف عما رواه البلاذري فقال « إن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الفاسقة من العيون العذاب والجنان والخصاب ، فتأتيهم ثمارهم ولم تخضد، وانا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشّاشة زعقة نشاشة ، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأجاج ، يجري اليها ما جرى في مثل مريء النعامة دارنا فعمة ، ووظيفتنا ضيقة ، وعددنا كثير ، وأشرافنا قليل ، وأهل البلاء فينا

---

(٧) ابن الفقيه ١٦٥ .

(٨) فتوح البلدان ٣٥٥ ، وانظر ابن الفقيه : البلدان ١٨٩ ، ١٦٦ ، ٣٥٥ .

كثير ، ودرهمنا كبير ، وقفيزنا صغير ، وقد وسّع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين ، وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها ، فنظر الى منازلهم التي كانوا بها الى ان صاروا الى الحجر فنفلهموه وأقطعهموه ، وكان سائر ما كان لآل كسرى في أرض البصرة على حال ما كان في أرض الكوفة ينزلونه من أحبوا ويقتسمونه بينهم ، لا يستأثرون به على بدء ولا ثنى ، بعدما يرفعون خمسه الى الوالي ، فكانت قطائع أهل البصرة نصفين نصفها مقسوم ، ونصفها متروك للعسكر وللاجتماع ، وكان أصحاب الألفين ممن شهد القادسية ثم أتى البصرة مع عتبة خمسة الاف ، وكانوا بالكوفة ثلاثين الفا ، فالحق عمر اعدادهم من أهل البصرة من أهل البلاء في الألفين حتى ساواهم بهم ، الحق جميع من شهد الأهواز » .[٩]

ان نص الطبري يفعل في الأحوال السكانية ومعالجة عمر لها وهو يذكر المقارنة مع الكوفة ، في حين يذكر البلاذري المقارنة مع أهل الامصار .

غير أن النصين يتفقان على ما كانت عليه منطقة الكوفة من الأعمار وكثرة الموارد الزراعية ، ووفرة المياه العذبة .

الميــاه

تفردت البصرة بكون المنطقة التي تأسست فيها كانت في حينها منعزلة نسبياً بما يحيطها من البطائح في الشمال ، والصحراء في الغرب ، والبحر في الجنوب، ومنطقة الأحواز بما فيها من سباخ وحمى في الشرق ، وأكثر أرضها ملحية سبخة ، ولم تكن قربها مدن كبيرة كالتي كانت قرب الكوفة أو دمشق أو الفسطاط ، ولم تتوفر فيها عند التأسيس المنتوجات الزراعية والصناعية ،

(٩) الطبري ١ / ٢٥٣٩ ـ ٢٥٤٠ ؛ والمقصود من « أصحاب الألفين » الذين عطاؤهم ألفى درهم في السنة ؛ وانظر عن العطاء واضافة كتابنا « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » .

ولم تكن في منطقتها حركة تجارية واسعة ، ولم تكن اهميتها العسكرية الكبيرة توازي احوالها الاقتصادية المتدنية . والواقع أن القوات الاسلامية التي قاتلت فيها في مطلع أيام الفتوح لم تكن كبيرة كالتي قاتلت في جبهة الكوفة والجبهات الاخرى ، غير أن عبء القتال عليها كان كبيراً ، كما أن عددها سرعان ما تزايد فتطلب معالجته ، وهو ما نبّه عليه الأحنف وأدركه عمر فعمل على معالجته .

قال محمد بن عمير بن عطارد « إن الكوفة قد سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وعمقها ، فهي مرينة جريعة عذبة ثرية ، اذا اتتها الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رصراص الكافور ، واذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السواد وورده وياسمينه وأترجه ، وماؤنا عذب ، وعشبنا خصب » .(١٠)

اما مشكلة الماء فهي ذات جانبين أحدهما أن البصرة تأسست بعيدة عن مجرى شط العرب ، وهو النهر الرئيسي ، والثانية هي ملوحة مائها. وقد عولجت مشكلة البعد بشق نهري الابلّة ومعقل ليوصلاها بشط العرب ، أما الملوحة فظلت مشكلة مستعصية العلاج ، خاصة وان الأمطار فيها قليلة .

وقد أشارت عدة أقوال الى أحوال الماء في البصرة ، فقال الخليفة علي بن ابي طالب «أرضكم أبعد الارض من السماء ، وأبعدها من الماء ، وأسرعها خرابا وغرقا » (١١) .

وقال محمد بن عمير العطاردي لعبدالملك بن مروان ان الكوفة «جاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها» (١٢) .

---

(١٠) عيون الاخبار ١/٢٢٠ .
(١١) عيون الاخبار ١/٢١٧ ، ابن الفقيه : البلدان ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(١٢) عيون الاخبار ١/٢٢٠ ، مروج الذهب ٣/١٥١ .

وكان زياد بن أبي سفيان يقول «مثل الكوفة كمثل اللهات يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، ومثل البصرة كالمثانة يأتيها الماء وقد تغير وفسد» (١٣) ، ولعل ابن عياش اقتبس هذا القول فأجاب به ابا بكر الهذلي عندما فاخره عند أبي العباس السفاح حيث قال «انما البصرة من العراق بمنزلة المثانة من الجسد ، ينتهي اليها الماء بعد تغييره وفساده ، مضغوطة قبل ظهرها بأخشن أحجار الحجاز وأقلها خيرا ، مضغوطة من فوقها ببطيحتها ، وان كانوا يستعذبون ماءهم ، ولولا ذلك ما انتفعوا بالعيش ، ومضغوطة بالبحر الاخضر في أسفلها، وانما أهل البصرة بمنزلة الرسل لنا ، ومحل الكوفة محل اللهوات واللسان من الجسد ، وموضعها في صدور الارضين ينتهي اليها الماء ببرده وعذوبته ويتفرق في بلادنا ، ويجوز بالعذبة الزكية : الفرات ودجلة ، والبصرة من العراق بمثابة المثانة من الجسد (١٤) .

ولاريب في أن وصول المد اليهم أعانهم على الري وميزهم على الكوفة حيث «ان الماء يغدو عليهم اذا غدوا الى ضياعهم فيأخذونه اذا أرادوا ، وان استغنوا عنه حجبوه(١٥) ، غير أن اكثر ما يأتي من البحر ماء مالح « وبحسبك أن السمك في نهرها لايصبر على ملوحة الماء حتى ينتقل ، فاذا كان سمك البحر لايصبر فكيف ينبغي لذوي العقول ان يفخروا به» (١٦) .

وكان أهل البصرة يعانون من نقص الماء العذب للشرب «فلم ينقطع أعناقهم من العطش ، كلا يشربون حروتين الا بالمنجنون والابل ، فان عطب بعير أو انكسرت منجونة أو ابطأ الموكل بذلك تعطلت السقايات . وانما يقيم لهم الماء ساعة في أول النهار وساعة في آخره ، وما أخذ من أهل البصرة يشرب

(١٣) لطائف المعارف ١٦٧ ، عيون الاخبار ١ / ٢٢٠ .
(١٤) ابن الفقيه ١٦٨ .
(١٥) ابن الفقيه ٣٢ (مخطوطة مشهد) .
(١٦) ابن الفقيه ٢٨ (مخطوطة مشهد) .

الماء العذب الا أن يتصدق به عليه ، ومتى كثر عليهم الماء خافوا الغرق وضربوا الفساطيط على المكان الذي يخشونه ، وإن قل عطشوا حتى يمزجوا الماء بالخل من ملوحته ، وان المريض منهم ليقال له ماتشتهي ؟ فيقول الماء العذب ، وهم يسمون ماءنا (الكوفة) الحي ، واذا قدم الغائب وكان طريقه على الماء العذب أخذ منه ليفرقه هدايا على أقاربه وأهله وأخوانه .

ونقل عن ابن عيّاش في مفاخرته لأبي بكر الهذلي أمام ابي العباس السفاح : انما الكوفة مثل اللهاة من البدن ، يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، والبصرة بمنزلة المثانة يأتيها الماء بعد تغيره وفساده[١٧] .

وذكر ابن الفقيه « لم يزل أهل البصرة يشربون الماء المالح حتى وليها عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز فحفر لهم نهراً من البطيحة معهم يسمونه نهر ابن عمر وفيه يقول بشّار في شعر طويل :

لا نشرب الماء إلا قال قائلنا
نعم الأمير فداه السمع والبصر
روّى من العذب هامات مودة
قد كان ازى بهن الملح والكدر

وقد أجمل المسعودي قضية ماء الكوفة والبصرة فقال « ولأهل البصرة وأهل الكوفة ومن شرب من دجلة مناظرات كثيرة في مياههم ومنافعها ومضارها .

منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة فقالوا : ماؤكم كدر زهك زفر، فقال أهل البصرة من أين يأتي ماءنا الكدر وماء البحر صاف وماء البطيحة صاف ، وهما يمتزجان وسط بلادنا ، قال الكوفيون من طباع الماء العذب

(١٧) ابن الفقيه ٢٨ (مخطوطة مشهد) .

الصافي اذا خالط ماء البحر صار جميعا الى الكدورة ، وقد يروق الانسان ماء اربعين ليلة فاذا جعل منه شيئا في قارورة ازبد وتكدر •

وقد افتخر أهل الكوفة بمائهم الذي هو الفرات على ماء دجلة وهو ماء البصرة ، فقالوا ماؤنا أعذب المياه واغذاها ، وهو اصح للاجساد من ماء دجلة ، والفرات خير من النيل ، فأما دجلة فان ماء يقطع شهوة الرجال ويذهب الصهيل الخيل ويذهب بصهيلها ، ولا يذهب بصهيلها الا مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها ، وان لم يتدسم النازلون عليها أصابهم تحول في عظامهم ويبس في جلودهم • وسائر من نزل من العرب على دجلة لا يكاد يسقون خيلهم منها ويسقونها من الآبار والركاء لاختلاط مياهها واختلاف أنواعها إذ ليست بماء واحد لمصب الأنهار اليها كالزابين وغيرهما ، وسبيل المشروب غير المأكول ، لان اختلاف المأكل غير ضار ، واختلاف الأشربة والنبيذ وغيره من الأنبذة اذا شربه الانسان كان ضاراً ، واذا كان فضيلة ماءنا على دجلة فما ظنك بفضيلته على ماء البصرةو هو يختلط بماء البحر ومن الماء المستنقع في اصوله القصب الهروى ، وقد قال الله تعالى « هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج « والفرات أعذب المياه عذوبة ، وانما أشتق الفرات لكل ماء عذب من ماء •

وقد اتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا أخبار الزمان ، وكذلك أتينا على خواص الأرض والمياه فصول السنة وانقسام الأقاليم وما لحق بهذه المعاني في ما سبق من كتبنا على الشرح والايضاح ، وذكر في هذا الكتاب من جميع ذلك ايضا •(١٨)

المنتوجات الزراعية :

ذكر الأحنف أن البصرة تأسست في رقعة ضيقة يحصرها البحر من الشرق والصحراء من الغرب ، وأن أرضها سبخة غير منبتة ولا تكون مراعي للمواشي

(١٨) مروج الذهب ٣/٣٣٠ — ٣٣٢ •

« ليس لنا زرع ولا ضرع » . وانها تستورد حاجاتها من الغذاء وغيره من مسالك ضيقة .

غير أن الضرورات العسكرية قضت بابقاء المدينة حيث تأسست ، ودفعت الى معالجة هذا العيب الخطير الناجم من عدم توفر المنتوجات الزراعية الضرورية لاعالة أهلها ، وقد تم ذلك بعمل جدي واسع في إعمار الأراضي الواقعة على ضفاف شط العرب وفي اطراف البطيحة ، وقد بدأ هذا العمل منذ زمن خلافة عمر بن الخطاب ، وتوسع في زمن خلافة عثمان ومعاوية ، فشقت الأنهار[1] ، وكسحت السباخ[2] ، واستعملت الأسمدة الحيوانية[3] فوفرت للناس ما يحتاجونه من المواد الغذائية ، وقال خالد بن صفوان « نحن منابتنا قصب ، وانهارنا عجب ، وثمارنا رطب ، وأرضنا ذهب » .

وذكرت المفاخرات « رطب البصرة ، ليس في الدنيا اكثر ولا الذمنة »[4] كما ذكرت فيها رطب الآزاد[5] .

اما الكوفة فذكرت من تمورها المشران والذسيان والهيرون والآزاد والعنبر[6] ، كما ذكر رطب المشان[7] وذكر من اعنابها الرازقي والسوناي والخمري[8] .

التجارة :

واشتغل اهل البصرة بالتجارة التي تطورت كثيرا بعد تكون الدولة

(١) انظر : فتوح البلدان ٣٥٦ فما بعد .
(٢) عن كسح في القرن الثالث الهجري انظر : الطبري ٣ /١٧٤٦ فما بعد .
(٣) ابن الفقيه ١٩ ، ٣٦ (المخطوط) ، عيون الاخبار ٢١٧/١ ، البيان والتبيين ٢ / ٩٣ .
(٤) ابن الفقيه ٣٣ (المخطوط) عيون الاخبار ٢٢١/١ .
(٥) ابن الفقيه ١١٦ .
(٦) ابن الفقيه ١٧٥ .
(٧) ابن الفقيه ١٦٦ .
(٨) ابن الفقيه ٣٣ .

الاسلامية ، التي وحدت بلاداً واسعة وأزالت الحواجز المعرقلة ، وارتفع مستوى معيشة السواد الأعظم ، وظهرت مراكز جديدة للاستهلاك ، فكانت دافعاً لانماء الصناعة والعمل والتنقل والنشاط الاقتصادي والتجارة مما كان يقرّه الاسلام وتشجعه الدولة .

وصارت البصرة مركزا لتجارة خراسان وأقاليم جنوب الهضبة الايرانية، وخاصة مع بلاد الحجاز ، ومع العراق ومصر . واشتغل أهلها بالتجارة البحرية .

وقد أنمى كل ذلك الثروة في البلاد ، ولكنها ثروة لاتقوم على منتوجات البصرة ، وانما على المتاجرة مع الأقاليم المنتجة وبذلك تفوقت في هذا الميدان على الكوفة . وقد أشارت بعض نصوص المفاخرات الى ذلك فيروى ان الخليفة علي بن ابي طالب لما قدم البصرة وانتصر في موقعة الجمل خطب الناس وكان مما قاله انه سمع الرسول (ص) يقول انه ستقوم البصرة «وتاجرها أعظم الناس تجارة»[٩] .

وذكروا أن أهل البصرة «أبعد في الارض آثارا ، وأكثر فتوحاً وأبلغ خطيبا ، وأكثر دينا »[١٠] .

ووصف خالد بن صفوان الابلّة فقال «ما رأينا أرضا مثل الأبلّة أقرب مسافة ولا أعذب نطفة ولا أوطأ مطية ، ولا أربح لتاجر ولا أحفى لعابد»[١١] .

ويروى المسعودي أن الأحنف بن قيس قدم الكوفة في زمن ولاية مصعب بن الزبير ، فجعل يفاخر بالبصرة ، فقال له عبدالملك بن عمير « الكوفة اغذى وأمأ وأفسح وأطيب ، فقال رجل والله ما أشبه الكوفة إلا بشابة

(٩) عيون الاخبار ٢١٦/١ .
(١٠) ابن الفقيه ١٩ (المخطوطة) .
(١١) عيون الاخبار ٢٢١/١ .

صبيحة الوجه كريمة الحسب ولا مال لهـا ، فاذا ذكرت حـاجتها فكف عنها طالبها ، وما أشبه البصرة الا بعجوز ذات عوارض موسرة فكف عنها طالبها .

فقال ، الأحنف : أما البصرة فان أسفلها قصب ، وأوسـطها خشـب ، وأعلاها رطب ، نحن أكثر ساجاً وعاجا وديباجا ، ونحن أكثر قندا ونقدا»[١٢].

ويروى أنه قال «نحن أبعد سرية ، وأعظم منكم بحرية ، وأغذى منـكم بريـة »[١٣] .

ويروي هشام بن محمد الكلبي عن ابي عبدالله النخعي أن الحجاج وفد على عبدالملك ومعه أشراف أهل المصرين وتذاكروا عنده البلدان فقال خالد بن صفوان «أصلح الله الامير نحن أوسع منهم (من الكوفة) برية ، وأسرع منهم في السرية ، وأكثر منهم قندا وعاجا وساجا ، ماؤنا صفو ، وخيرنا عفو ، لايخرج من عندنا الا قائد وسائق ونـاعق .

فقال الحجاج أصلح الله أمير المؤمنين اني بالبلدين خبير وقـد وطأتهما جميعا .. أما البصرة فعجوز شمطاء ذفراء بخراء أوتيت من كل حلي وزينـة ، وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلي لها ولا زينة . فقال عبدالملك فضلت الكوفة على البصرة »[١٤] .

ولما تذاكروا عند زياد البصرة والكوفـة قال زيـاد «لو ظلت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها»[١٥] .

---

(١٢) مروج الذهب ٣/ ٣٣٠ ــ ١ .
(١٣) عيون الاخبار ٢/ ٢١٧ ، البيان والتبيين ٢ /٩٣ .
(١٤) عيون الاخبار ١/ ٢٢٠ ، ٣/ ١٥١ ، لطائف المعارف ١/ ٣٥٧ ، ١٠٦ ، ابن الفقيه ١٩٩ .
(١٥) عيون الاخبار ١/ ٢١٦ .

الازدهار المادي والمعاشي :

وقد أشارت المفاخرات الى ثروة أهل البصرة ورخص الأسعار فيها ففي المناظرة أمام ابي العباس السفاح فخر أهل البصرة بأنهم «أكثر أموالا وأولادا، وأطوع للسلطان وأعرف برسوم الاسلام»[١٦] .

وذكر ابن الفقيه عن رخص الأسعار فيالبصرة أن «الجائع يأكل خبز الأرز والصحناة ولا ينفق في الشهر الا درهمين ، وان الغريب يتزوج بشق درهم ، والمحتاج لا عيلة له ما بقيت استه يخرا ويسلح .

وذكر ابن الفقيه أن أهل البصرة « أطيب ثمارا وأكثر أشجارا وأكرم أنهارا »[١٧] .

وذكر خالد بن صفوان عن أهل البصرة «يغدوا قانصا فيجيىء هذا بالشبوط والشيم ، ويجيىء هذا بالطير والظليم ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً وخزاً وديباجاً وبرذوناً هملاجاً وخريدة مغناجاً ، بيوتنا الذهب ونهرنا العجب »[١٨] .

وفي البصرة « جعلوا حب الأرز في الموازين ، واربع حبات ارز حبة شعير »[١٩] .

وأشارت المفاخرات الى بخل أهل البصرة ، فذكر الهمداني في ما نقل من المفاخرة أمام المأمون « وليس في الارض بصري يدخل الكتاب الا وله كرسي يجلس عليه لئلا تأكل الارض ثوبه » .

ومن بخلهم أن صاحب باقلى كان في بعض سككهم فاخرجوه وقالوا

---

(١٦) ابن الفقيه ١٦٧ .
(١٧) عيون الاخبار ٢٢١/١ ، ابن الفقيه ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(١٨) ابن الفقيه ١٩٢ .
(١٩) ابن لافقيه ١٦ (مخطوطة مشهد) .

تعلى صبياننا الاسراف ، ويقتلهم بالجوع لانهم يشترون منك بخبزهم لباقلي.

وأخرجوا غريباً كان نازلا في بعض سككهم ، فقال لهم أي شيء أجرمت اليكم ، قالوا تأكل اللحم في كل يوم [٢٠].

وأوردت المفاخرات نصوصاً متناقضة عن دوام الاعمار في البصرة ، فيروي الهمداني عن كعب الأحبار أنه قال لرجل من أهل البصرة « إذا رأيت نخلها قد أطعم فأخرج منها ، قال فان لم أستطع ذاك ، قال فاذا رأيت اجامها قد اتخذت بساتين قال فاخرج منها ، قال فان لم استطع ذلك ، قال اذا تطاول أهلها في بناء المدن فاخرج قال فان لم استطع ، قال فعليك بضواحيها واياك وسباخها فانه سيكون بسباخها خسف » .

وكان كعب الأحبار يقول لتشبعن ابضع من النوم في مسجد البصرة والقرى حولها عامرة .

وقال ابو غيلان : البصرة يسلط عليهم القتل الأحمر والجوع الاعبر .

وكان ابن عمر يقول : البصرة أسرع أرض الله خراباً وأخبثه ترابا .

وقال قتادة لتخربن البصرة وأهلها كثير ، قيل له وكيف ذلك ؟ قال يظهر منافقوها على مؤمنيها فيخرجون منها رجالا وركبانا .

وكان خالد بن ميمون يقول : البصرة أشد الأرض عذاباً وأسرعه خراباً وشره تراباً ، وذكر ايضا « كان أمير المؤمنين (علي) يقول لنفر من البصرة او لتحرقن إلا بيت مالها ومسجدها ، وقال عبدالله الضبعي سمعت علياً (ع) يقول : ويحك بالبصرة لتفرقن او لتحرقن حتى يرى بيت مالك ومسجدك كجؤجؤ العنية » .

وقال في خطبته بعد الجمل « أرضكم أبعد الأرض من السماء ، وأقربها

---

(٢٠) ابن الفقيه ٢٦ (مخطوطة مشهد) .

من الماء ، وأسرعها خراباً وعزقاً »[٢١] .

غير أن المفاخرات تروي نصوحاً عن دوام الإعمار في البصرة .

فيروي عبدالله بن عمرو بن العاص قال ان البصرة « هي أبطأ الأرض خراباً لأنها أقومها قبلة وهي حياد البيت والمقام والحجر وزمزم ، فهي أبطأها خراباً » .

ويروى عن ابن عمر انه قال انها أبطأ الأرض خراباً [٢٢].

وذكر المسعودي « وقد طعن أيضا أهل الكوفة على البصرة فقالوا : البصرة أسرع الأرض خراباً وأخبثها ترابا ، وأبعدها من السماء ، وأسرعها غرقاً . وقد أجاب أهل البصرة أهل الكوفة عما سألوا عنه وعابوهم به وكذلك من شرب من دجلة ، وعابوا أهل الكوفة وذكروا عيوبها وما يؤثر عن سكانها من الشح على المأكول والمشروب والغدر وقلة الوفاء »[٢٣] .

مراكز الحكم والادارة :

وفخر أهل الكوفة بان مدينتهم كانت مقرا للملوك والأمراء والخلفاء فقال أحمد بن هشام في حضرة المأمون « ومن فضل الكوفة على البصرة ان ملوك العرب والعجم طافوا الآفاق واختاروا البلاد ، فوقع اختيارهم على على الكوفة او ما يقرب منها من ذلك :

الأنبار نزلها دارا بن دارا وجذيمة الابرش .

ومنها بابل نزلها بختنصر ، وبها كان قبله وبعده من الملوك .

ومنها مدائن كسرى نزلها اردشير بابك ومن بعده من ملوك الفرس إلى يزدجرد .

---

(٢١) ابن الفقيه ١٦ ــ ١٧ ، ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(٢٢) ابن الفقيه ١٥ (مخطوطة مشهد) .
(٢٣) مروج الذهب ٣٣٢/٣ .

ومنها الخورنق نزله بهرام جور والنعمان بن الشقيقة وغيرهما من ملوك العرب .

ومنها الحيرة نزلها عمرو بن عدي وولده بعده الى عمر ، وقابوس ابن المنذر ، والنعمان بن المنذر وأياس قبيصة حتى جاء الله بالاسلام .

وانما كانت البصرة منازل نزلها الجند مثل منجشان : صاحب المنجشانية ومن اشهد من السفلة والاتباع(٢٤) .

وذكر ابن الفقيه « ونزل الكوفة من الخلفاء والأئمة علي والحسن ، ومن الملوك والخلفاء معاوية وعبدالملك وابو العباس وابو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد ، وكان بها عمال العراق »(٢٥) .

وقال أحمد بن هشام في مناظرته بحضرة المأمون :

« ولم يزل عمال العراق ينزلون الكوفة يرونها أعذب ماءً وأصفى هواءً وأطيب تراباً .. وما نزلها من امراء العراق أحد الا الحجاج مديدة ، ثم تحول الى واسط ، ومسلمة بن عبدالملك أياماً حين قتل يزيد بن المهلب » .

وأما الكوفة فأكثر الولاة كانوا ينزلونها ويقيمون بها ، ولا يمضون الى البصرة الا لحادثة تحدث او لفتق عدد ، وكان خالد بن عبدالله القسري يسميها الذفراء ، وكذلك يوسف بن عمر .

ولما ولي يزيد بن عمر بن هبيرة العراق لم يخير شيئاً على الكوفة وبنى عند قنطرتها مدينة وسماها الهبيرية ، وهي المعروفة اليوم بقصر ابن هبيرة ، ولم يزل مقيماً بالكوفة حتى جاءت الدولة الهاشمية فتحول الى واسط .

وفي الكوفة ظهرت دولة بني العباس ، وفيها كان وزيرهم وبها عقد ملكهم .

ثم نزل المهدي الكوفة وبنى القصر الابيض بالحيرة ، وهو الذي كان

---

(٢٤) ابن الفقيه ٢٦ ــ ٢٧ (المخطوط) .

(٢٥) ابن الفقيه ١٦٥ .

النعمان بن المنذر ينزله . وبنى بها قصر ابي الخصيب على طرف النجف .

ولا يحتج علينا اهل البصرة ان واحدا من ولاة العراق نزلها الا زيادا وعبيد الله ابنه ، فانها كانت وطنهما ومنشأهما ، ولم يكونا على نتنها وملوحة مائها وشدة حرها وكثرة بقها وكدرورة هوائها ، وفساد طينها يطيلان المقام بها ، بل اكثر مقامهما بالكوفة[٢٦] .

الاعلام البارزون :

وكان البارزون ممن نزل المصرين موضوع فخر ، فيروي ابن الفقيه أن مطر بن خليفة افحم قتادة حين قال « دخل الكوفة سبعون بدريا ، ودخل البصرة عتبة بن غزوان »[١] .

وفخر أهل الكوفة برجال تميزوا بصفات محمودة « ومن أسخياء الكوفة هلال بن عتاب وأسماء بن خارجة وعكرمة بن ربعي الفياض . ومن فتيانها خالد بن عتاب ، وأبو سفيان بن عروة بن المغيرة بن شعبة ، وعمرو بن محمد ابن حمزة » .. ومنهم « أشجع الناس الأشتر ، وأسخاهم خالد بن عتاب ، واحلمهم عكرمة الفياض ، وأعبدهم عمرو بن عتبة » .

غير أن البصريين فخروا بأن منهم أحلم الناس الأحنف بن قيس ، وأحملهم بحمالة إياس بن قتادة ، وأسخاهم طلحة بن عبدالله بن خلف ، واشجعهم عباد بن حصين والحريش ، وأعبدهم عامر بن عبد القيس[٢] .

وفي مناظرة الكوفيين والبصريين أمام ابي العباس السفاح فخر البصريون بأشراف في عشائرهم ، وهم الأحنف بن قيس في تميم ، والحكم بن الجارود في عبدالقيس ، ومالك بن مسبع في بكر ، وقتيبة بن مسلم في قيس ، وفخر الكوفيون بمحمد بن عمير بن عطارد في تميم ، وبكل من النعمان بن مقرن ،

(٢٦) ابن الفقيه ٢٨ (المخطوط) .
(١) ابن الفقيه ١٦٦ .
(٢) ابن الفقيه ١٦٧ .

وحسان بن المنذر الضبي ، وعتاب بن ورفاء ، وشبث بن ربعي ، وعكرمة بن ربعي التميميان ، وبخالد بن معمر ، وشقيق بن ثور ، وسويد بن منجوف ، وحريث بن جابر ، والحضين بن المنذر ، ومحدوج الذهلي ، ويزيد بن رويم والقعقاع بن شور .

وفخر البصريون امام المأمون باربع بيوتات من بيوتات العرب ليس بالكوفة مثلها : بيت بني الجارود ليس في عبدالقيس الكوفة مثلهم ، وبيت بني المهلب ليس في ازد الكوفة مثلهم ، وبيت بني مسلم (الباهلي) ليس في قيس الكوفة مثلهم ، وبيت بني مسمع ليس في بكر الكوفة مثلهم[٣] .

وقابلهم أهل الكوفة بالفخر ببيت النعمان بن المقرن وحذيفة بن اليمان.

وفخر الكوفيون بفرسانهم في الفتوح ، ومنهم أربعة فرسان قبل الاسلام أيضا وهم عمرو بن معدي كرب والعباس بن مرداس السلمي ، وطليحة بن خويلد الاسدي ، وابو محجن الثقفي ، ثم برز منهم في الاسلام مالك بن الحارث الأشتر النخعي ، وسعد بن قيس الهمداني ، وعروة بن زيد الطائي ، وعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي . وابو عبدالله الجدلي[٤]

وفي المناظرة امام المأمون اتهم الكوفيون أهل البصرة بأنهم « فتقوا فتوقا في الاسلام ، وابتدعوا من الضلالة بدعا وبثوا الناحل منارا[٥]، وأوردوا على ذلك حوادث فردية منها شهادة ابن ابي بكرة على المغيرة التي ردها عمر بن الخطاب ، وتكذيبهم حديث كلاب الحوأب ، والاقرار بخيانة بعض ولاة الجباية ، وموقفهم في معركة الجمل ، واقرارهم بنسبة زياد الى أبي سفيان دون امه ، وعقدهم حلفا بين الأزد وبكر بعد موت يزيد مما يخالف قول الرسول (ص) « لا حلف في الاسلام » ، وانهزامهم أمام الخوارج،

(٣) ابن الفقيه ٣٦ (المخطوط) .
(٤) ابن الفقيه ١٧٠ — ١٧١ .
(٥) ابن الفقيه ٢١ (المخطوط) .

واشتهار بعض أفرادهم في الحمق ومنهم جحشويه وهنبقه ، واشتهار تميم بالبخل وبكر بالكذب ، والازد بالموق ، وطعنوا بتصرفات الأحنف ووصفوها بالحمق[٦] .

وأشار ابن شبرمة الى تباين اخلاق أهل كل من المصرين فقال « لنا (أهل الكوفة) أحلام ملوك المدائن وسخاء أهل السواد ، وظرف أهل الحيرة ، ولكم (أهل البصرة) سفه السند ، وبخل الخوز وحمق أهل عمان »[٧] .

المفاخرات في الاسهام الفكري :

كانت السمة العسكرية هي المميزة لأهل كل من الكوفة والبصرة العرب، فكانوا مقاتلة أنيطت بهم واجبات القتال في الفتوح وتوسيع رقعة الدولة وحماية حدودها وتثبيت الأمن فيها ، وقد قدموا بهذه المسميات وتمجيدها من مواطنهم الاصلية في جزيرة العرب ، وظلوا محافظين عليها ومعتزين بها أمداً غير قصير ، وتجلى هذا بفخرهم في انجازاتهم العسكرية وانتصاراتهم في المعارك واشادتهم بمن برز في الفروسية والشجاعة .

غير أن الاسهام في المعارك ، وتقدير الفروسية ، والاهتمام بالحياة العسكرية لم تقض على ما كانوا يعنون به منذ ايام الجاهلية في الشعر ، والتعبير الدقيق عن المحسوسات ومظاهر الحياة المادية التي تدركها حواسهم من المشاهدات والمسموعات خاصة ، فضلا عن اهتمامهم بالكلم الطيب وتناقله مع أخبار آبائهم والبارزين من معاصريهم ، مما يكون مادة الانساب والتاريخ .

وجاء الاسلام حين اعتنقوه وانضموا الى دولته باطار اضافي جديد للحركة الفكرية واذكاءها . وقد شجعت الدولة دراسة القرآن الكريم ، كما نشطت عوامل متعددة دراسة مواضيع متصلة بالدين الاسلامي للواسع

(٦) ابن الفقيه ٢٢ ـ ٢٣ (المخطوط) .
(٧) ابن الفقيه ١٨ (المخطوط) .

النطاق ، غير ان هذا لم يقض على الميادين الفكرية التي كان عرب الجزيرة يعنون بها ، وتابعوا عنايتهم بعد استقرارهم في الامصار ، مما زاد في نشاطها وتوسعها ، وخاصة بعد تناقص المعارك واستقرار حدود الدولة ، وبذلك نمت جوانب متعددة من الحياة الفكرية وخاصة في الشعر واللغة والأدب ، وفي قراءة القرآن وتفسيره ، ثم الحديث والفقه وأخبار الماضين ، كما جرى اهتمام في بعض قضايا العقائد الدينية والسياسية ، وشارك في نشر هذه الدراسات وانماءها اعداد كبيرة من الناس ، وبرز في عدد غير قليل من هذه الجوانب أعلام حفظت المصادر اسماؤهم وذكرت مكانتهم وأشارت الى عملهم واسهاماتهم . وكانت الكوفة والبصرة احد المراكز القليلة للحركة الفكرية في الدولة ، منذ صدر الاسلام ، وقد وضع علماؤها فيها اسس توجيهات البحوث في كثير من المواضيع التي ألفت في تطورها مؤلفات كثيرة ، وجرت فيها دراسات حديثة واسعة .

ان قلة المعلومات التي وردت عن العلم والعلماء في مفاخرات الكوفة والبصرة لا تتناسب مع النمو الكبير للفكر فيهما ، ولعل بعض ذلك راجع الى أن العلماء اهتموا بالعلم وتقدمه دون النظر الى مدى الازدهار ، وان علم كل بلد كان مفتوحا للاخرين وليس حكرا لاحدهما ، فعلم البارزين في أية مدينة لم يقتصر تكوينه على علم تلك المدينة ، وانما شارك فيه علماء المدن الاخرى التي رحل اليها أوامه منها الطلبة ، فالمفاخرة في العلم صارت بين فروعه وليس بين رجاله .

ذكرت مصادر المفاخرات اختلاف التوجيهات السياسية بين الكوفة والبصرة ، فكانت الكوفة معروفة بميلها الى العلويين فذكر ابن الفقيه ان من لم يقر بفضل أمير المؤمنين (علي) «فليست الكوفة له بدار»[8] ، وذكر في

---

(8) ابن الفقيه ١٩٦ .

تعداده مفاخر الكوفة « ليس في الارض بلد جمع أهله على حب بني هاشم الا الكوفة ، وما قتل أحد من بني هاشم أجمع في شرق ولا غرب الا حوله قتلى من أهل الكوفة »[٩] .

وقد عيرهم البصريون بأنهم هم الذين قتلوا علياً وولده وولد ولده ، وأخرجوا الحسن بن علي بعد بيعتهم له حتى قتل ، وأتهم ، غدروا بعلي والحسين[١٠] ، و «غدرهم بعلي والحسن والحسين والولاة»[١١] وبهذا عيرتهم زينب بنت علي وسكينة بنت الحسين[١٢] .

ومما عيّرت به الكوفة ظهور عدد من ذوي الآراء الزائفة من المتنبين ، والمختار بن عبيد الثقفي ، والخناق ، والمغيرة بن سعيد ، وراشد الهجيمي ، وهند الأفاكة[١٣] .

وذكر في المفاخرات عدد ممن أنجبته الكوفة في التقوى والفقه ، ومنهم عبدالله بن مسعود ، وشريح القاضي ، وأويس لقرني ، والربيع بن خيثم ، والأسود بن يزيد ، وعلقمة ، ومسروق ، وهبيرة بن يريم ، وأبو ميسرة ، وسعيد بن جبير ، والحارث الأعور .

أما البصرة فذكرت المفاخرات عددا من رجال الفكر فيها ففي المفاخرة أمام المأمون ذكر علي بن هشام ان «أهل البصرة أبعد في الأرض اشاراً وأكثر فتوحاً وأبلغ خطياً وأكثر أدباً»[١٤] .

وذكر في المفاخرات للبصرة «فضل عثمان وفضل الحسن البصري ، وابن

(٩) ابن الفقيه ٣٠ (مخطوطة مشهد) .
(١٠) ابن الفقيه ١٦٩ .
(١١) ابن الفقيه ١٨٤ (مخطوطة مشهد) .
(١٢) ابن الفقيه ٥٠٤ (مخطوطة مشهد) .
(١٣) ابن الفقيه ٢٠ (مخطوطة مشهد) .
(١٤) ابن الفقيه ١٩ .

سيرين ، ومالك بن دينار ، والخليل بن أحمد »[١٥] .

وذكر أمام المأمون في «النحو والعروض أبو الأسود والخليل» وفي الرواية خالد بن كلثوم ، وابو بكر الهذلي .

ومن خطبائهم صعصعة بن صوحان والقعقاع بن عمرو الأسدي ، ومصقلة ابن رقبة العبدي ، ومحمد بن المفضل السكوني وابنه .

ومن شعرائهم جرير والفرزدق وذو الرمة ويزيد بن الحكم والعجاج بن رؤية ، وابو النجم .

وذكرت في المناظرة الكتاب الذين أصلهم من البصرة وهم صالح بن عبدالرحمن كاتب الحجاج بن يوسف ، والمغيرة بن أبي أوفى كاتب المهلب ، وشيبة بن أعين ، وقحذم مولى ابن بكرة كاتبي يوسف بن عمر ، وهارون بن ياسين كاتب خالد بن عبدالله القسري ، وجبلة بن عبدالرحمن ، والقاسم بن مسلم ، وعبد ربه بن أبي أيوب ، وابن أبي عبيدة ، وعمير بن أبي معن ، والمغيرة بن عطية وأخوه سعيد بن عطية .

أجاب الكوفيون على مفاخرة البصرة فقالوا أن لأصحابهم «الفصاحة في العلم بالقرآن والاعراب به والمعرفة بوجوه القراءات ، حتى ان أكثر القراء يقرأون بقراءتهم» وذكروا أن منهم «الفقهاء والعلماء والأدباء والفصحاءوالنجباء والشجعان والفرسان المذكورون ، والشعراء المعروفون» .

وذكر أن الكوفة من رجالهم حماد الرواية ، والمفضل الضبي وخالد بن كلثوم، وقبيصة بن دؤيب وعبدالملك المعيطي وعبدالله بن عياش الهمداني ، والحجاج بن أرطاة النخعي ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي، وابو مخنف ، والهيثم بن عدي ، والنخار العذري ، وهلال بن كيس الحميري ، وابن لسان الحمي التيمي ، ومحمد بن السائب الكلبي ، وهشام بن محمد ،

---

(١٥) ابن الفقيه ١٦٦ ، ٢١٩ .

والمنتوف ، والشرقي بن القطامي .

وذكروا من خطباء الكوفة صعصعة بن صوحان ، والقعقاع بن عمرو الأسدي ، ومصقلة بن رقبة العبدي ، ومحمد بن المفضل السكوني .

ومن شعراء الكوفة الشماخ ، ومزرد ، ولبيد ، وعمرو بن شاس ، وضابي البرجمي ، والحطم ، وابو محجن الثقفي وأبو ثمال الأسدي ، وأبو زبيد الطائي ، والنجاشي الحارثي ، وأعشى همدان ، وعمرو بن معدي كرب ، وعدي بن حاتم ، وعروة بن زيد الخيل ، وابن مقبل ، والقطامي ، وكعب بن جعيل ، والجحاف بن حكيم ، وغيرهم من الشعراء المجودين .

وذكر ممن أصله من الكوفة من الكتاب زياد بن عبدالرحمن كاتب الحجاج ، ومسعدة وأعون كاتبي خالد العسري ، ويونس بن مروة كاتب يوسف بن عمر ، وعبدالجبار بن مغيث والهيثم بن مسلم كاتب عيسى بن موسى ، وحماد بن موسى كاتب محمد بن سليمان ، ومنهم كتاب الخلفاء العباسيين الذين لم يكتب لهم أحد من أهل البصرة ، فقد أستكتب المنصور يحيى بن زياد بن عبدالرحمن وضمه الى جعفر ابنه وكذلك عمرو بن كيغلغ وابراهيم ومحمد ابنا حبيش ، وعلي بن يقطين وعمرو بن بزيع كاتب المنصور والمهدي ، ويحيى بن سليمان ومنصور بن زياد ومجاشع بن مسعدة ويوسف بن القاسم كتاب الرشيد ، والحسن بن سهل كاتب المأمون على الخراج ، وعمرو بن مسندة كاتبه على الرسائل ، واحمد بن يوسف على الديوان بالجبل وخراسان ، ومحمد بن عمران على ديوان البريد بالافاق ، وثابت بن يحيى[١٦] .

* * *

(١٦) ابن الفقيه ٣٥ ـ ٣٦ .

العطاء في الحجاز
تطور تنظيمه في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد العشرون
1390هـ -1970م

العطاء في الحجاز

تطور تنظيمه في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور صالح أحمد العلي

من ابرز ما تتميز به الامصار الاسلامية في العهود الاولى هو أن معظم سكانها العرب كانوا يتسلمون من الدولة مقداراً مقرراً من المال سنوياً يسمى العطاء الذي كان من اهم ابواب الصرف في الدولة والمعتمد الاساس للناس في معاشها ، لذا كانت له اهمية رئيسة في الحياة الاقتصادية ومعيشة الناس . وبالنظر لهذه الاهمية ولكون الدولة هي التي تقوم بتوزيعه ، فقد كان له أثر في ازدياد اهمية دور الحكومة في معيشة الناس وتنظيمها ، كما انه وفر لها الوسيلة للهيمنة على الناس وحياتهم المعاشية .

ويعتمد العطاء بالدرجة الاولى على الوضع المالي للدولة ومقدار مواردها ، ولما كانت هذه الموارد محدودة وغير ثابتة في زمن الرسول ، لذلك لم يكن مقدار ما يعطى للافراد ثابتاً ، غير ان المبدأ الاساس هو توزيع هذه الموارد على المسلمين ، والمقاتلة خاصة .

ولما ولي أبو بكر الخلافة ازداد عدد المسلمين ، وكثر عدد المقيمين في المدينة بصورة خاصة ، وازدادت موارد الدولة ، فكان لابد ان تبرز مشكلة تنظيم توزيع العطاء .

تذكر الروايات ان أبا بكر « كان يسوي بين الناس في القسم ، الحر والعبد ، والذكر والانثى والصغير والكبير فيه سواء »[1] . ويروى بسند عن عائشة انها قالت « قسم

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ١/ ١٥١ ، ١٣٧ ، ٢١٣ أبو يوسف ، كتاب الخراج ص ١٤ اليعقوبي ٢/١٥١ ، ١٠٤ الشافعي الام ١/١٣٤

أبي اول عام الفيء ، فأعطى الحر عشرة واعطى المملوك عشرة والمرأة وأمتها عشرة ، ثم قسم في العام الثاني فأعطاهم عشرين »[1] ويقول اليعقوبي ان أبا بكر « وجه العلاء الحضرمي في جيش فافتتح الزارة وناحيتها من ارض البحرين ، وبعث الى أبي بكر بالمال فكان اول مال قسمه أبو بكر في الناس بين الاحمر والاسود والحر والعبد ،لكل انسان »[2] .

إن روايتي ابن سعد واليعقوبي لاتتناقضان ، اذتدلان على ان أبا بكر كان يوزع كافة ما يرده ، فأصاب الفرد من ذلك مرة ديناراً (عشرة دراهم) ومرة عشرين درهماً .

وكان أبو بكر يوزع العينيات احياناً ، فيروي ابن سعد ان أبا بكر اشترى مرة في الشتاء قطائف أتي بها من البادية ففرقها في أرامل اهل المدينة[3] .

اما طريقة التوزيع فيروي ابن سعد انه « كان أبو بكر يقسمه على الناس نفراً نفراً ،فيصيب كل مائة انسان كذا وكذا » ويقول ايضاً ان أبا بكر كان يعطي كل ما في بيت المال حتى لايبقى فيه شيء[4] كما يذكر انه لما توفي أبو بكر « دعا عمر بن الخطاب الامناء ودخل بهم بيت مال أبي بكر ، ومعه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما ، ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه ديناراً ولا درهماً ، ووجدوا خيشة للمال ففتحت فوجدوا فيها درهماً فرحموا على أبي بكر »[5] . وكان أبو بكر يأخذ في كل يوم من بيت المال ثلاثة دراهم اجرة[6] .

ويتبين مما تقدم ان أبا بكر وضع اسس تنظيمات مستقرة للعطاء ، وانه وزع كل ما كان يرده من مال بالتساوي على كافة الناس دونما تمييز . ولا ريب ان قلة المال الوارد وقصر مدة خلافة ابي بكر كانا من العوامل التي جعلته يتبع هذه القاعدة خلال مدة خلافته القصيرة ،

---

(١) ابن سعد ٢ ــ ١٣٧/١
(٢) اليعقوبي ١٠١/٢
(٣) ابن سعد ١٠٢/٢
(٤) ابن سعد ٣ ــ ١٥١/١
(٥) ابن سعد ٣ ــ ١٥٢/١
(٦) اليعقوبي ١٥٤/٢

تنظيم العطاء في خلافة عمر بن الخطاب :

ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر ، تمت في خلافته احداث خطيرة ابرزها ان العرب المسلمين استطاعوا فتح اقاليم واسعة غنية ذات موارد مالية كبيرة وثابتة ، وزاد عدد المقاتلة المشتركين في الفتوح ، فكان لابد ان يقوم الخليفة عمر بضبط الموارد وتنظيم توزيعها على الناس وفق اسس تلائم الاحوال الجديدة . فيروى أبو يوسف « لما قدم على عمر بن الخطاب (رضي) جيش العراق من قبل سعد ابن أبي وقاص شاور أصحاب محمد (ص) في تدوين الدواوين ، وقد كان اتبع رأي ابي بكر في التسوية بين الناس فلما جاء فتح العراق شاور الناس في التفضيل[1] » ، ويروى عن ابن أبي نجيح قوله « فلما كان عمر بن الخطاب وجاءت الفتوح فضّل ، وقال لا اجعل من قاتل رسول الله (ص) كمن قاتل معه ، ففرض لأهل السوابق والقدم ، وانزلهم على قدر منازلهم من السوابق »[2] . ويروى عن أبي معشر عن مولى عمرة وغيره انه « لما جاءت عمر بن الخطاب (رض) الفتوح وجاءت الاموال قال ان أبا بكر (رض) رأى في هذا المال رأياً ولي فيه رأي آخر، لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه[3] » . ويروى عن المجالد بن سعيد عن الشعبي « ان عمر لما فتح الله عليه وفتح فارس والروم جمع اناساً من اصحاب رسول الله فقال ما ترون ، فاني ارى أن اجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فانه اعظم للبركة ، قالوا اصنع ما رأيت فانك ان شاء الله موفق »[4] .

أما أبو عبيد القاسم بن سلام فيروى انه « لما افتتح عمر العراق والشام وجبى الخراج جمع اصحاب رسول الله (ص) فقال أني قد رأيت ان افرض العطاء لاهله الذين افتتحوه »[5] .

ويروي أبو يوسف عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمه بن عبد الرحمن بن عوف

---

(١) الخراج ٢٤ (٢) الخراج ٤٢ (٣) الخراج ٤٣

(٤) الخراج ٤٤ (٥) الاموال فقرة ٥٤٩

عن أبي هريرة قال « قدمت من البحرين بخمسمائة ألف درهم ، فأتيت عمر ممسياً ، فقال عمر ايها الناس انه قد جاء مال كثير ، فان شئتم ان نكيل لكم كلنا وان شئتم ان نعد لكم عددنا وان شئتم ان نزن لكم وزنا ، فقال رجل من القوم يا أمير المؤمنين دوّن للناس دواوين ليعطون عليها ، فأشتهى عمر ذلك »[1].

ويروى بسند عن سعيد بن المسيب انه « لما قدم على عمر (رض) بأخماس فارس .. ثم قال احثوا لهم أو نكيل لهم بالصاع ؟ قال ثم اجمع رأيه على ان يحذو لهم حثا لهم ، فقال وهذا قبل ان يدون الدواوين »[2].

ويروي القاسم بن سلام عن عبد الله بن صالح عن موسى بن علي بن رباح عن ابيه ان عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية فقال : ومن اراد ان يسأل عن المال فليأتني فان الله تبارك وتعالى جعلني له خازناً أو قاسماً ، اني باد بأزواج رسول الله (ص) فمعطيهن ثم المهاجرين الاولين[3].

ويروي الواقدي عن عدة رواة ان عمر بن الخطاب أجمع على تدوين الدواوين في المحرم سنة ٢٠ هـ[4].

ويقول اليعقوبي انه في سنة ١٨ « اجرى عمر الاقوات في تلك السنة على عيالات قوم من المسلمين »[5].

يتبين من هذه النصوص ان تنظيم العطاء لم يتم حال تولي عمر الخلافة ، ومن المحتمل ان رواية ابي يوسف عن اشياخه من المدنيين (الخراج ٢٤) تنطبق على كيفية الاعطاء قبل تنظيم الخراج ، اما النصوص الاخرى فأكثرها تتحدث عن تنظيم الخراج بعد توسع الفتوح وازدياد الموارد ، دون تحديد وقته بالضبط . اما رواية الواقدي فتشير صراحة الى

---

(١) الخراج ٤٥ (٢) الخراج ٤٧ (٣) الاموال ٥٤٧

(٤) ابن سعد ٣ - ٢١٣/١ البلاذري : فتوح البلدان ٥٠٤

(٥) التاريخ ١٧٠/٢

انه تم سنة ٢٠ ولكن رواية أبي هريرة (الخراج ٤٥) تدل على انه حدث قبل ذلك ، وتشير رواية ابن سلام (٥٤٧) الى ان الخراج كان قد تقرر في مؤتمر الجابية ولعله قبل ذلك فهي تتسق مع رواية أبي هريرة . واما رواية اليعقوبي فانها تحدد تنظيم العطاء سنة ١٨ هـ .

يروي ابو عبيد عن ابن عمر ان عمر « كان لايعطي اهل مكة عطاء ولا يضرب عليهم بعثاً ويقول هم كذا أو كذا كلمة لا أحب ان أقولها [1] » . غير ان روايات اخرى تشير الى انه كان يعطي كل من يساهم في الفتوح دون اي تمييز .

فيروي القاسم بن سلام بسند عن بريدة ان رسول الله (ص) كان « يوصي من يؤمره على جيش او سرية » وإذا لقيت عدوك من المشركين فأدعهم الى الاسلام وأخبرهم انهم ان فعلوا فان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فان أبوا ان يتحولوا فأخبرهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء الا ان يجاهدوا مع المسلمين » [2] . ويروى عن عبد الله بن صالح عن موسى بن علي بن رباح عن ابيه « ان عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية ، ثم قال فمن اسرع الى الهجرة أسرع به العطاء ومن ابطأ عن الهجرة ابطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل الا مناخ راحلته » [3] . ويروى عن نعيم بن حماد عن بقية بن الوليد عن أبي بكر بن عبد الله بن ابي مريم عن أبيه عن أبي عبيدة بن الجراح « ان رجالا من أهل البادية سألوا عمر ان يرزقهم فقال لا والله لا أرزقكم حتى أرزق اهل الحاضرة ، فمن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة فان يد الله مع الجماعة » [4] . ويروى عن أبي اليمان عن صفوان بن عمر قوله

---

(١) الاموال ٥٦٣ (٢) الاموال ٥٢٢ (٣) الاموال ٥٤٨

(٤) الاموال ٥٥٨

« كتب عمر بن عبد العزيز الى يزيد بن الحصين أن مر للجند بالفريضة ، وعليك بأهل الحاضرة ، وإياك والاعراب فانهم لايحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم » [1] .

وقد علق أبو عبيد القاسم بن سلام على هذه الروايات بقوله « فأما دور الاعطية على المقاتلة واجراء الارزاق على الذرية فلم يبلغنا عن رسول الله (ص) ولا عن أحد من الأئمة بعد انه فعل ذلك الأباهل الحاضرة الذين هم أهل الغناء عن الاسلام ، وقد روى عن عمر شيء كأنه مفسر لهذا القول » [2] وهو يروى عن عبدالرحمن بن مهدي عن عبدالله بن عمر العمري عن زيد بن اسلم عن ابيه قال قال عمر ما من احد من المسلمين الا له في هذا المال حق او منه . وهو يروى عن اسماعيل بن ابراهيم عن ايوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن اوس ابن الحدثان عن الزهري ان العباس وعلي دخلا على عمر يختصمان « فذكر عمر الاموال وقال ، فلم يبق احد من المسلمين الا له حق فيها ، او قال حظ ، الا بعض من تملكون من ارقائكم ، فان عشت ان شاء الله لأوتين كل مسلم حقه ، او قال حظه ، حتى يأتي الراعي بسرو حمير لم يعرق فيه جبينه » [3] .

ويروى ابن سعد عدة روايات عن زيد بن اسلم « سمعت عمر بن الخطاب يقول والله لئن بقيت الى هذا العام المقبل لالحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلا واحداً » [4]

ويروى الواقدي عن ابن السكاي عن ابيه بسند قال« رايت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتاتيه بقديد فلا يغيب عنه امراة بكر ولا ثيب فيعطيهن في ايديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك ايضاً حتى توفي » [5]

ويمكن التوفيق بين الروايات المذكورة آنفاً بان عمر بن الخطاب كان يعطى العطاء

---

(1) الاموال ٥٠٩ (٢) الاموال ٥٦٢

(٣) الاموال ٥٢٠ انظر ايضاً ابن سعد ٣ ــ ٢١٥/١ ، المدونة لمالك ٦/٢

(٤) ابن سعد ٣ ــ ٢١٧/١ (٥) ابن سعد ٣ ــ ٢١٤/١

لكل اهل المدينة ، ولمن يساهم في الفتوح من غيرهم ، وانه كان يفكر في تعميم العطاء على كل اهل الجزيرة ، ولكنه لم ينفذ ما فكر فيه ، فبقيت سجلات الديوان مقصورة على المدينة فقط ، وبموجبها يدفع العطاء حتى لمن لم يجعل مقامه الثابت فيها .

لم يتبع الخليفة عمر بن الخطاب في العطاء مبدأ التسوية الذي سار عليه ابو بكر . وقال «لا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه اهل السوابق والمشاهد في الفرائض »[1]

اتخذ عمر معركة بدر اساساً في توزيع العطاء ، فاعطى من اشترك فيها اعلى العطاء ، وقد اختلفت الروايات في مقدار ما خصص لاهل بدر ، فيروي مصعب بن سعد ان عمر فرض للمهاجرين البدريين ستة آلاف درهم[2] ويروى ابن سعد بسند عن ابن عمر انه فرض لهم اربعة الاف[3] ويروي اليعقوبي ان اهل بدر كانوا في ثلاثة الاف[4] غير ان الاغلبية المطلقة للمصادر تذكر ان عمر فرض لاهل بدر في خمسة الاف[5] ومن الطبيعي ان تعدد هؤلاء الرواة يرجح ان المهاجرين من اهل بدر كانوا في خمسة الاف من العطاء .

اما الانصار من اهل بدر فان مصعب بن سعد يروي انهم كانوا في ستة آلاف[6] ويروي الزهري عن سعيد ابن المسيب انهم كانوا في اربعة آلاف[7] وهذا هو رأي ابي هريرة[8] واليعقوبي[9] ويذكر ابو يوسف انهم كانوا في ثلاثة الاف[10] . ويروي عدد من الرواة ان الانصار من اهل بدر كانوا في خمسة الاف من العطاء[11] . والرواية الاخيرة أرجح اذ تنسجم مع المبدأ الاسلامي في عدم التمييز بين الانصار والمهاجرين .

---

(١) الخراج ٤٣ ، ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٣ عن ابن أبي نجيح وابي معشر

(٢) الاموال ٥٥٢ ؛ ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٩

(٣) ابن سعد ٤ ـ ١/٤٩، ٣ـ١/٢٩١ الاموال ٥٥٢ (٤) التاريخ ٢/١٧٥

(٥) انظر رواية الزهري ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٩، ١١٣ الاموال ٥٥٢ ، ٥٦٩ وابن أبي نجيح في ابن سعد ٤ ـ ١/١١ الاموال ٥٥٣ وانظر ايضاً الطبري ١ / ٢٤١٢ ، ورواية الشعبي وابو معشر في الخراج ٤٣ ـ ٤٤

(٦) ابن سعد ٣ ـ ١/٢٩١ الاموال ٥٥٢

(٧) ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٩ الاموال ٥٥٢ ، ٥٦٩ (٨) ابن سعد ٣ـ١/١١٦

(٩) التاريخ ٢/١٧٥ (١٠) الخراج ٤٥

(١١) هذا هو رأي ابن أبي نجيح : ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٣ ، ٢١٩ وقيس بن أبي حازم الاموال ٥٥٣ وابي معشر الخراج ٤٣

يروى ابو معشر عن مولى عمرة وغيره ان عمر « فرض لمن كان اسلامه كاسلام اهل بدر ولم يشهد بدراً اربعة الاف »[1]. ومن الواضح ان هذا النص غامض ، وأوضح منه رواية ابن سعد ان عمر « فرض لمن كان له اسلام كاسلام اهل بدر ، من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحد ، اربعة الاف لكل منهم »[2] . ويروى الشعبي ان عمر فرض لكل رجل من مهاجرة الحبشة اربعة الاف درهم [3] المقصود بمهاجرة الحبشة هم الذين ظلوا فيها ولم يعودوا الا بعد صلح الحديبية ، اما الذين شهدوا أحداً فلم يذكر احد من الرواة ، غير من ذكرناه اعلاه ، مقدار عطائهم ، ويؤيد هذا قول الطبري ان عمر فرض « لكل رجل اسلم بعد بدر الى الحديبيه اربعة الاف درهم[4] ويذكر ابن سعد رواية تنص على انه فرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل ثلاثة الاف درهم [5] ويروى ايضاً باسند عن يزيد بن حبيب ان عمر بن الخطاب امر عمرو بن العاص ان يفرض لمن بايع تحت الشجرة مائة دينار [6] ولا ريب ان المقصود بمن شهد أحداً في هذا النص ، من اسلم بين بدر وأحد أما من شهد الحديبية فيقصد به من اسلم بعد احد وقبل الحديبية . اما الذين اسلموا بعد فتح مكة فقد وردت عن مقدار ما فرض لهم روايات مختلفة ، فيروى الطبري ان عمر « فرض لمن بعد الحديبية الى ان اقلع ابو بكر عن اهل الردة ثلاثة الاف ثلاثة آلاف ، في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن ابي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية ، كل هولاء ثلاثة الاف » [7] اما ابن سعد فانه يروى ان عمر « فرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم الفين » [8]

ويروى ابو معشر عن مولى عمرة ان عمر « فرض لاهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة فجاء طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان ففرض له ثمانمائة » [9] ويذكر اليعقوبي ان عمر فرض

(١) الخراج ٤٢ (٢) ابن سعد ٣ ـ ٢١٣/١ (٣) الخراج ٤٤
(٤) طبري ٢٤١٢/١ (٥) ابن سعد ٣ ـ ٢١٤/١
(٦) ابن سعد ٤ ـ ٨/٢ الاموال ٥٥٤
(٧) الطبري ٢٤١٢/١ (٨) ابن سعد ٣ ـ ٢١٤/١ (٩) الخراج ٤٣

«في اهل مكة الذين لم يهاجروا في ستمائة وسبعمائة »[١].

ومن الواضح ان روايتي الطبري وابن سعد متقاربتان ومنسجمتا مع ما قبلها ، اما روايتا أبي معشر واليعقوبي منها متقاربتان ولكنها لاتنسجمان مع الروايتين الاوليتين ، ومن المحتمل ان عمر فرض لمن اسلم وساهم في الفتوح الفي درهم ، اما من اسلم ولم يساهم في الفتوح فقد فرض له ثمانمائة .

عطاء الاولاد :

يذكر ابن سعد ان عمر فرض لكل من أبناء البدريين الفي درهم[٢] ويؤيد هذا ابو معشر حيث يروي ان عمر « فرض لابناء المهاجرين والانصار الفين الفين »[٣] ويذكر ابن سعد أيضاً ان عمر فرض لغلمان احداث من ابناء المهاجرين والانصار كفرائض مسلمة الفتح [٤] وقد ذكرنا اعلاه ان ابن سعد يذكر ان عمر فرض لهؤلاء الفي درهم .

وقد افرد الخليفة عمر لبعض الافراد عطاء خاصاً ، فقد فرض لعبد الله بن عمر في ثلاثة الاف [٥] ولعمر بن ابي سلمة في اربعة الاف ، اما أسامة بن زيد فقد ذكرت بعض الروايات انه فرض له في اربعة الاف [٦] وذكرت روايات اخرى انه فرض له في ثلاثة آلاف وخمسمائة [٧] .

وقد فرض عمر للاولاد عند فطامهم ، غير انه سرعان ما عدل عن ذلك واخذ يفرض لهم حال ولادتهم . وتروي المصادر ان هذا التغيير حدث بعد ان مر عمر بامرأة وهي تحاول فطام طفلها قبل الاوان ، الامر الذي كان يسبب اخطاراً للطفل ، فلما سألها عمر عن سبب ذلك قالت « لأن عمر لا يفرض الا لفطيم ، قال وكم له قالت كذا وكذا شهراً ، قال ويحك لا تعجليه ، فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ، فلما سلم قال يابؤساً لعمر كم قتل من اولاد المسلمين ، ثم امر منادياً : ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فانا

(١) التاريخ ٢/١٧٥ (٢) ابن سعد ٣ - ٢١٣/١ (٣) الخراج ٤٣
(٤) ابن سعد ٣ - ٢١٤/١ (٥) ابن سعد ٤ - ١١٢/١
(٦) ابن سعد ٣ - ٢١٤/١ ، ٤ - ٤٩/١ (٧) ابن سعد ٤ - ٤٩/١

نفرض لكل مولود في الاسلام ، وكتب بذلك الى الآفاق : انا نفرض لكل مولود في الاسلام [1]

لقد كان عمر يفرض للمنفوس مائة درهم [2] وقد سار الخلفاء من بعد عمر على هذه القاعدة ، فكانوا يفرضون للاطفال مائة ، فيروي الحسن بن موسى عن زهير عن ابي اسحق « قدم جدّي الخيار على عثمان فقال كم معك من عيالك ياشيخ فقال ان معي فذكر ، فقال اما انت ياشيخ فقد فرضنا لك خمس عشرة ، يعني الفاً وخمسمائة ، ولعيالك مائة مائة » [3]

ويروى يزيد بن هارون عن فضيل بن عطية قال « لما ولدت أتى بي أبي علياً فاخبره ففرض لي في مائة ، ثم اعطى ابي عطاءه » [4] ويروى عبدالرحمن عن سفيان عن ابي الجحاف عن رجل من خثعم انه قال « ولد لي ولد فاتيت علياً فاثبته في مائة » [5]

وفي كتاب الاموال ما يشير الى ان الخليفة عثمان كان يعطي الوليد خمسين فاذا بلغ من العمر سنة جعله في مائة ، فهو يروى عن سعيد بن ابي مريم عن محمد بن هلال المديني عن ابيه عن جدته انها كانت تدخل على عثمان بن عفان ، ففقدها يوماً ، فقال لاهله مالي لا ارى فلانة ، فقالت امرأته يا امير المؤمنين ولدت الليلة غلاماً ، قالت فارسل اليّ بخمسين درهما وشقيقة سنبلانية ، ثم قال هذا عطاء ابنك وكسوته ، فاذا مرت به سنة رفعناه الى مائة » [6]

وفي خلافة معاوية حدث تعديل آخر ، فيروى يحيي بن بكر عن ابن لهيعة عن ابي قبيل انه « كان الناس في زمن عمر بن الخطاب اذا ولد المولود فرض في عشرة [7] ، فاذا بلغ ان يفترض أُلحق به ، فلما كان معاوية افرد المولود وجعل ذلك للفطيم ، فلم يزل كذلك حتى

---

(١) ابن سعد ٣-١/٢١٧ المدونة ٢/٢٦٣ الاموال ٥٨١

(٢) ابن سعد ٣ - ١/٢١٤ المدونة ١/٢٦ الطبري ١/٢٤١٣ الخراج ٢٧ فتوح البلدان ٤٥٢ الاموال ٥٥٩

(٣) ابن سعد ٦/٢١٩ الاموال ٥٨٣

(٤) ابن سعد ٦/٢١٢

(٥) الاموال ٥٨٠

(٦) الاموال ٥٨٢

(٧) يقصد عشرة دنانير وهي تعادل مائة درهم .

قطع عمر بن عبد العزيز بن مروان ذلك كله الا لمن شاء » [١]

ويروى ازهر السمان عن ابن عون ان « ذكر عند محمد ان عمر بن عبد العزيز اقرع بين الفطيم ، فانكره وقال ما ارى هذا الا من الاستقسام بالازلام » [٢]

ويروى القاسم ابن سلام بسند عن سليمان بن حبيب « ان عمر الخطاب فرض لعيال المقاتلة ولذريتهم العشرات ، قال فامضى عثمان ومن بعده من الولاة ذلك وجعلوها موروثة يرثها ورثة الميت منهم ممن ليس في العطاء والعشرة ، حتى كان عمر بن عبد العزيز ، قال سليمان بن حبيب : فسألني عمر عن ذلك فاخبرته ، فانكر الوراثة وتركهم عموماً من عيال من ليس في الديوان من المسلمين ، وقال اقطع الوراثة وأعم الفريضة ، قال سليمان : فقلت مهلاً يا أمير المؤمنين ، فاني أخاف ان يسن بك من بعدك في قطع الوراثة ولا يستن بك في عموم الفريضة ، قال صدقت أتركهم » [٣] .

يتبين من هذه النصوص الثلاثة :

١ — ان عمر بن الخطاب كان يفرض للمولود مائة درهم ، فاذا بلغ ألحقه بالعطاء .

٢ — ان معاوية ابطل الفرض للوليد ، وجعله للفطيم .

٣ — ان عمر بن عبد العزيز أبطل ما كان معمولاً به ، وصار يفرض لمن يشاء ، وانه كان يختار بين الفطيم بالقرعة ، بعد أن كانت وراثية ، ويستدل من النصين الثاني والثالث انه لم يكن يفرض لكل الاولاد ، بل يقتصر الفرض على بعضهم ، وربما كان يقتصر على ولد واحد يرث أباه ، ولا بد ان اختيار الولد كان يجري على أسس مقننة الى أن ابطلها عمر بن عبد العزيز فجعل الاختيار بالقرعة ، ولما كانت التقاليد الاجتماعيـة تجعل للابن الاكبر مكانة خاصة ، فالراجح انه هو الذي كان يرث الفريضة ، وان عمر بن عبد العزيز ابطل ذلك وجعل يختار بالقرعة بين الاولاد ، ويدل النص الثالث على ان التعديل الذي ادخله عمر بن

---

(١) الاموال ٥٩٧ (٢) الاموال ٥٨٧ (٣) الاموال ٥٩٦

عبد العزيز في الاقتراع لم يمس مبدأ الوراثة الذي ظل معمولاً به ولكن اصبح يشمل كل من تسهم القرعة بعد ان كان مقصوراً على الابن الاكبر فحسب . ان هذا الاستنتاج لايناقضه النصان الاولان اللذان لم يشيرا الى ان الفرض كان يشمل كافة الاولاد .

عطاء النساء :

في المصادر نصوص متعددة ومتباينة عن عطاء زوجات الرسول (ص)، وتكاد الروايات تتفق على ان عمر فرض لعائشة اثني عشر الف درهم ، ولكن الرواة يختلفون في مقدار مافرضه لبقية الزوجات ، فيروي يزيد بن هارون بسند عن أبي هريرة ان عمر أعطى كل واحدة منهن اثني عشر الف درهم [1] . ويروي اليعقوبي انه أعطى كلاً من ام حبيبة وحفصة اثني عشر الف درهم [2] . ويروي الشعبي ان عمر اعطى بقية زوجات النبي عشرة آلاف [3] . ويروي الزهري ان عمر فرض لكل من صفية وجويرية ستة آلاف [4] .

اما اليعقوبي فيقول انه فرض لصفية وجويرية خمسة آلاف [5] والراجح ان عمر أعطى عائشة اثني عشر ألفاً ، وأعطى بقية زوجات النبي عشرة آلاف بدون ان يفرد احداهن بعطاء اكثر أو أقل ، إذ ليس للإفراد مبرر فيما عدا حالة عائشة بالنظر لمكانتها الخاصة ومكانة أبيها .

اما بقية النساء فيروى ابن سعد عن مصعب بن سعد ان عمر فرض لكل من المهاجرات الاول : اسماء بنت عميس ، واسماء بنت أبي بكر ، وام عبد الله بن مسعود الف درهم [6] . وفي رواية اخرى له ان عمر فرض لصفية بنت عبد المطلب ستة آلاف درهم ولكل من أسماء بنت عميس وأم كلثوم بنت عقبة وأم عبد الله بن مسعود الف درهم ، وانه فضل النساء المهاجرات فجعل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم [7] .

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٦ الخراج ٤٥ (٢) التاريخ ٢/١٧٥

(٣) الخراج ٤٤ الاموال ٥٤٩، ٥٥٠ الطبري ١/٢٤١٣ وانظر أيضاً رواية ابي معشر في الخراج ٤٢

(٤) ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٣، ٢١٩ الاموال ٥٥٢ ، ٥٩٧ (٥) التاريخ ٢/١٧٥

(٦) ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٩ الاموال ٥٥٢، ٥٩٦ (٧) ابن سعد ٣ ـ ١/٢١٤

ويذكر الطبري ان عمر « جعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة ، ونساء من بعدهم الى الحديبية في اربعمائة أربعمائة ، ونســـاء من بعد ذلك الى الايام ثلاثمائة ثلاثمائة »[1].

والارجح فيما يبدو ان المهاجرات فضلن على غيرهن ، فكان يعطي كلا منهن الفاً ، أما بقية النساء من أهل بدر فكن في خمسمائة ، ومن بعدهم الى الحديبية اربعمائة ، ونساء من بعد ذلك الى الايام ثلاثمائة ، كما ذكر الطبري .

تنظيم توزيع العطاء :

يتبين مما اوردناه آنفاً ان تقدير العطاء كان على أساس فردي، اي انه كان يقدر لكل فرد مقدار معين من العطاء يتناسب مع وضع هذا الفرد في الاسلام. اما توزيعه فلم يكن من السهل ان يتم على الاساس الفردي ، لذا كان يجري على اساس العشائر ، اي يحسب ما يستحقه افراد كل عشيرة ويعطى مجموع الاستحقاق الى العريف الذي يوزعه الى افراد العشيرة[2] .

وقد تطلب تنظيم توزيع العطاء تثبيت عدد الافراد في كل عشيرة، وتثبيت عدد العشائر، وترتيب الاسبقية فيهم عند العطاء ، ومن الطبيعي ان يحافظ عمر على التقسيم الطبيعي لسكان المدينة بعد الاسلام ، فيميز فيهم قسمين رئيسين : قريش والانصار ، اما بقية افراد القبائل الحجازية فليست لدينا معلومات عن وضعهم في تنظيمات عمر .

فأما عشائر قريش فان الواقدي يذكر انه « لما دون عمر بن الخطاب الديوان كان اول من بدأ به في المدعى بني هاشم ، ثم كان اول بني هاشم يدعى العباس بن عبد المطلب في ولاية عمر وعثمان »[3]

ولعل اوسع تفصيل عن تنظيم عشائر قريش في العطاء هو ما ذكره الشافعي في كتاب

---

(١) الطبري ١/٢٤١٣

(٢) انظر عن توزيع العطاء في البصرة كتابي « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » ص٤٧ فما بعدها حيث اوردت ما توفر من نصوص عنها ، والراجح ان الاساليب المتبعة في العراق كانت تطبق في الحجاز الذي ليست لدينا عن تنظيم توزيعه فيه نصوص وافية

(٣) ابن سعد ٤ ق ١/ ٢١

(الام) حيث قال «اخبرنا غير واحد من اهل العلم والصدق من اهل المدينة ومكة من قبائل قريش وغيرهم ، وكان بعضهم احسن اقتصاصاً للحديث من بعض ، وقد زاد بعضهم على بعض في الحديث: ان عمر لما دوّن الديوان قال ابدأ ببني هاشم ، ثم قال حضرت رسول الله(ص) يعطيهم وبني المطلب ، فاذا كانت السن في الهاشمي قدمه على المطلبي ، واذا كانت في المطلبي قدمه على الهاشمي ، فوضع الديوان على ذلك واعطاهم عطاء القبيلة الواحدة .

ثم استوت له بنو عبد شمس ونوفل في جذم النسب ، فقال عبد شمس اخوة النبي (ص) لابيه وأمه دون نوفل ، فقدّمهم ، ثم دعا بني نوفل يتلونهم .

ثم استوت له عبد العزى وعبد الدار ، فقال في بني أسد بن عبدالعزى اصهار النبي(ص) وفيهم انهم من المطيبين ،وقال بعضهم وهم من حلف الفضول ،وفيهم كان النبي(ص) وقد قيل ذكر سابقة ،فقدمهم على بني عبد الدار، ثم دعا بني عبد الدار يتلونهم .

ثم انفردت له زهرة فدعاها تتلو عبد الدار .

ثم استوت له بنو تيم ومخزوم ، فقال في بني تيم انهم من حلف الفضول والمطيبين وفيهما كان النبي (ص) وقيل ذكر سابقة ، وقيل ذكر صهراً ، فقدمهم على مخزوم ، ثم دعا بني مخزوم يتلونهم .

ثم استوت له سهم وجمح وعدي بن كعب ، فقيل له ابدأ بعدي فقال بل اقر نفسي حيث كنت ، فان الاسلام دخل وامرنا وامر بني سهم واحد ، ولكن انظروا بني سهم وجمح فقيل قدّم بني جمح ،ثم دعا بني سهم فقال وكان ديوان عدي وسهم مختلطاً كالدعوة الواحدة ...

ثم دعا بني عامر بن لؤي .. فقدم معاوية بعد بني الحرث بن فهر ففصل بهم بين بني عبد مناف واسد بن عبد العزى .

وشجر بين بني سهم وعدي شيء في زمان المهدي فافترقوا ، فأمر المهدي ببني عدي فقدموا على سهم وجمح »[1]

( ) الام ٤/٨٢

وفي المصادر اشارات متفرقة الى تنظيم عطاء بعض عشائر قريش في المدينة . فيروى ابن سعد انه « هاجر كثير وزبيد وعبد الرحمن بنو الصلت الى المدينة فسكنوها وحالفوا بني جمح بن عمرو من قريش ، فلم يزل ديوانهم ودعوتهم معهم حتى كان زمان المهدي امير المؤمنين فأخرجهم من بني جمح وادخلهم في حلفاء العباس بن عبد المطلب فدعوتهم اليوم معهم وعيالهم بعد في بني جمح »[1].

وينقل ابن حجر رواية عن كعب بن عدي التنوخي انه قال « كنت شريكاً لعمر بن الخطاب فلما فرض الديوان فرض لي في بني عدي بن كعب . . وكان ولده بمصر يأخذون العطاء في بني عدي بن كعب حتى نقلهم امير مصر في زمن يزيد بن عبد الملك الى ديوان قضاعة »[2]

ويروى الزبير بن بكار « كتب ابراهيم بن هشام الى هشام بن عبدالملك : إن رأى امير المؤمنين اذا فرغ من دعوة اعمامه بني عبد مناف ان يبدأ بدعوة اخواله بني مخزوم، فكتب ان رضي بذلك آل الزبير فافعل ، فلما فرغ من اعطاء بني عبد مناف نادى مناديه بني مخزوم فناداه عثمان بن عمرو وقال . . فأمر مناديه فنادى بني اسد بن عبد العزي ثم مضى على الدعوة »[3]

اما الانصار فان الواقدي يذكر ان عمر بن الخطاب لما دون الدواوين نظم ديوان قريش « حتى انتهى الى الانصار ، فقالوا بمن نبدأ فقال عمر ابدأوا برهط سعد بن معاذ الاشهلي ثم الأقرب فالأقرب لسعد بن معاذ[4] » ويتبين من هذا ان ديوان الانصار كان يبدأ ببني عبد الأشهل ، ومما يؤيد ان بني عبد الاشهل كانوا وحدة عشائرية في العطاء ما يذكره

---

(١) ابن سعد ٥/٧ (٢) الاصابة ٣/٢٨٢ ــ ٣ (رقم ٧٤٢٢)

(٣) اغاني ١٦ ــ ٧٧ (٤) ابن سعد ٣ــ١/٢١٣

ابن سعد ان « بنو حريس بن عدي دعوتهم ودارهم في بني عبد الاشهل ، وقد انقرضوا في اول الاسلام فلم يبق منهم أحد » [1] ، ويذكر ايضاً عند الكلام عن يحيي ومريم أولاد ثابت بن وديعة ، وهم من بني عمرو بن عوف « وأمهما وهبة بنت سليمان بن رافع بن سهل ابن عدي .. بن غسان من ساكني راتج حلفاء بني زعوراء بن جشم أخي بني عبد الأشهل بن جشم ، ودعوتهم في بني عبد الاشهل » [2] .

ويذكر ابن سعد ان « بني جشم وزيد ابناء الحارث بن الخزرج ، وكان يقال لهما التوأمان ودعوتهما واحدة في الديوان ، وهم اصحاب المسجد الذي بالسنح ، وهم اصحاب السنح خاصة » [3]

ويذكر ايضاً ان « النعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج ، وثعلبة بن دعد هو الذي يسمى قوقل ، وكان له عز ، وكان يقول للخائف اذا جاءه : قوقل حيث شئت فانك آمن ، فسمي بنوغنم وبنوسالم بذلك كلها قواقلة ، وكذلك هم في الديوان يدعون بني قوقل » [4] .

اما عن عشائر الاوس فلدينا اشارة في ابن سعد يذكر فيها ان « بني عمرو بن عامر من ولد القطيون وهم حلفاء للاوس من الانصار ، ودعوتهم في الديوان في بني امية بن زيد ، وبنو أمية بن زيد آخر دعوى الاوس » [5]

وكان للعشائر عرفاء يوزعون على افرادها العطاء ، ويذكر ابن شبة عن طلحة البصري « كان من قدم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه ، ومن لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت فيمن نزل الصفة فوافقت رجلين كان يجري علينا كل يوم مدين من تمر رسول الله » [6]

---

(1) ابن سعد ٣ – ٢ / ٢٠
(2) ابن سعد ٤ – ٢ / ٨٧
(3) ابن سعد ٣ – ٢ / ٨٥
(4) ابن سعد ٣ – ٢ / ٩٥
(5) ابن سعد ٥ / ٢٠٧
(6) السمهودي : وفاء الوفا ١ / ٣٢٣

تطور العطاء في خلافتي عثمان وعلي

وفي زمن عثمان ازدادت الفتوحات الاسلامية وتوسعت رقعة الدولة الاسلامية ،وكثرت الواردات ، فزاد عثمان العطاء على الناس . فيروى سيف عن عاصم بن سليمان عن الشعبي أن « اول خليفـــة زاد الناس في أعطياتهم مائة عثمان ، فجرت ، وكان عمر يجعل لكل نفس منفوسة من اهل الفيء في رمضان درهما في كل يوم ، وفرض لازواج رسول الله (ص) درهمين درهمين ، فقيل له لو وضعت لهم طعـاماً فجمعتهم عليه ، فقال اشبع الناس في بيوتهم ، فاقر عثمان الذي كان صنع عمر ، وزاد فوضع طعام رمضان فقال للمتعبد الذي يتخلف في المسجد وابن السبيل والمعترين بالناس في رمضان »[1]

ويذكر اليعقوبي ان عثمان « كان جواداً وصولاً بالاموال وقدم اقاربه وذوي ارحامه فسوى بين الناس في الاعطية »[2] ، وهـذا النص الصريح بانه سوّى بين الناس في الاعطية لا يشير الى الحد الذي سوى فيه بين الناس، اي هل انه اعطاهم جميعاً أعلى حد من العطاء ام انه سن حداً وسطاً سوّى الناس فيه ، فرفع من كان عطاؤه قليلا وانزل من كان في أعلى العطاء فان كان هذا ما فعـــله فانه قد يفسر سبب استياء بعض المسلمين القدامى ، على عثمان ويفسر ايضاً بعض اسباب رضا اقارب عثمان عنه ، لان اكثرهم ممن كانوا اسلموا بعد الفتح وقد يكون الدليل على هذا ان اليعقوبي قرن تقـــديم الاقارب وذوي الارحام بتسوية الناس في الاعطية .

غير ان هذا النص لا يبين هل ان عثمان الغى القواعـد التي وضعها عمر ، ام انه اوجد قواعد جديدة طبقها على من لم تشملهم قواعد عمر ، اي انه طبقها على الجيل الجديد الذي بدأ يظهر ويزداد عدده في الوقت الذي اخذ ينقرض فيه جيل عمر من القـــدامى ، ثم انه لا يوضح هل ان هذه التسوية كانت قاعدة سار عليها عثمان ام انها كانت اجراء موقتاً اتبعه ثم عاد يتبع قواعد جديدة في المفاضلة، والواقع ان المصادر قلما تورد اخباراً عن اصناف مقادير العطاء في الحجاز .

(1) الطبري ١ / ٢٨٠١ (2) التاريخ ٢ / ٢٠٤

اما في زمن الامام علي فان اليعقوبي يذكر انه «اعطى الناس بالتسوية ولم يفضل احداً واعطى الموالي كما اعطى الصليبة وقيل له في ذلك ، فقال قرأت ما بين الدفتين فلم اجد لولد اسماعيل على ولد إسحق فضل هذا ، واخذ عوداً من الارض بين اصبعيه »[1] ومن المعلوم ان الامام علياً اقام معظم ايام خلافته في الكوفة ، والراجح انه طبق هذه المساواة في الكوفة ، غير اننا لا نعلم هل طبقها على المدينة ايضاً ، ولا بد أن الولايات الخارجة عن سلطان الامام علي لم ترسل ما عليها من المال الى المدينة ، وان حاجات الخليفة الى المال كانت متزايدة في الكوفة ولا تمكنه ان يرسل الى المدينة كل ما تحتاجه من مصروفات يضاف الى ذلك اضطراب تجارة الحجاز مما كان له أثر في الاحوال الاقتصادية وفي العطاء .

تطور العطاء في العهد الاموي :

اما في زمن معاوية فيروى مصعب الزبيري أن عبدالله بن صفوان قال لمعاوية « تخرج العطاء وتفرض المنقطعين فانه قد حدث في قومك نابتة لاديوان لهم ، وقواعد قريش لا تغفل عنهن فانهن قد جلسن على ذيولهن ينتظرن ما يأتيهن منك ، وحلفاؤك من الاحابيش قد عرفت نصرهم وموآزرتهم فاخلطهم نفسك وقومك، قال افعل »[2] يشير هذا النص الى :

(١) أن العطاء كان متوقفاً الى زمن هذا الخطاب الذي لا نعرف تاريخه بالضبط ، وان استجابة معاوية تقضي ان معاوية استمر بعد ذلك بدفع العطاء بانتظام .

(٢) انه قد حدثت في قوم معاوية نابته لا ديوان لهم ، والراجح ان كلمة القوم يقصد بها قريش من اهل مكة ، وان هذه النابتة هي من الجيل الجديد ، وانها لم تكن في العطاء لانه استعمل كلمة (حدث) اي استجد ، ولا نعلم هل قصد في هذا النص جعل العطاء يمتد الى مكة ام انه اراد قصره على من سكن المدينة منهم ، والراجح انه قصره على من سكن المدينة ، لانه لا توجد اشارة او دليل على ان العطاء شمل اهل مكة ، اي ان معاوية تابع

---

(١) التاريخ ٢/ ٢١٣

(٢) نسب قريش ٣٨٩

السياسة التقليدية في ابقاء المدينة مركز الديوان وتوزيع العطاء ، وظلت مكة مهملة من هذه الناحية ، مع العلم بان مكة كانت لها موارد خاصة من التجارة والحج . ولابد ان هذا تطلب اعادة النظر في الديوان وتوسيعه .

(٣) ان معاوية نفذ النصيحة بالاهتمام بقواعد قريش اي نسائها المسنات ، ولما كان النص لايشير صراحة الى انه طلب منه ادخالهن في العطاء فقد يكون المقصود من ذلك ان معاوية كان يعطيهن المنح .

(٤) ان معاوية ادخل الاحابيش في العطاء وساواهم بقريش ، والاحابيش هم كنانة ، غير ان النص لا يوضح هل ان معاوية جعل لهم ديوانا قائماً بذاته ، ام انه عمل على اعادة تنظيمهم في ديوان في المدينة فحسب ، اي هل توسع الديوان فاصبح يشمل اهل البادية .

ويروي البلاذري ان عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب « اعترض على معاوية لخلاف معه على ارض فحكم القاضي لعبدالرحمن فكتب معاوية الى وكيله بانفاذ قرار القاضي وقضى دينه والحقه بشرف العطاء وقال انت مستحق لذلك يا ابن اخي الفاروق والشهيد واعطاه مالا »[1] ويدل هذا النص على ان شرف العطاء كان موجوداً في زمن معاوية ، ولما كان عمر لم يقرر شرف العطاء في الحجاز فلابد ان هذا قد ظهر فيما بعد ، غير ان المصادر لا تذكر تاريخ ظهوره بالضبط ولعله ظهر زمن معاوية وان مقداره كان كما هو في باقي الاقاليم ، اي الفي درهم [2] .

ويروي البلاذري « ان اعرابياً أتى مروان فقال افرض لي فقال قد طوينا الدفتر ، قال الاعرابي اما اني الذي اقول :

اذا مدح الكريم يزيد خيراً وان مدح اللئيم فلا يزيد

وقد كان مدح مروان ثم هجاه ، فقال انت هو ! لابد لك من فرض ، ففرض له [3] .

ويروي البلاذري ان عبدالله بن الزبير لما بلغه مقتل اخيه ، كتب الى عامله على المدينة يأمره ان يفرض لالفي رجل من اهل المدينة وما والاها ليكونوا ردئاً لها ، ففرض الفرض ، ولم يأته مال فبطل ، فسمي ذلك الفرض فرض الريح ؛ قال الواقدي ويقال ان هذا الفرض كان في ولاية ابن حاطب [4] .

---

(١) انساب الاشراف ٤ / ٧٤٩ (مخطوطة القاهرة)

(٢) انظر التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ١٥١ — ١٥٤

(٣) انساب الاشراف ٥ / ١٣٠ (٤) انساب الاشراف ٥ / ٥٣٧

ويتضح من هذا النص انه كان لا يزال في المدينة في عهد ابن الزبير عدد ممن ليسوا في العطاء، وان الفرض الذي فرضه كان لمن في المدينة وما والاها، وكان هدفه الحصول على قوات تعينه على صد الجيوش الاموية، وليس لغرض الفتوح الاسلامية.

وقد يتعلق بهذا الفرض ما رواه الهيثم بن عدي من ان ابن الزبير «اتاه اعرابي فقال له افرض لي، قال ائتبوه، فائتبوه، قال اعطني، فال قاتل اولاً، قال بئست هذا، دمي نقد ودرهمك نسيئة، هذا والله ما لا يكون»[1] ويظهر هذا النص ان ابن الزبير لم يتوفر له المال اللازم، وبذلك يؤيد ما ورد في النص السابق.

وعن زمن عبد الملك بن مروان وردت نصوص تبين انه فرض فرائض جديدة، فيروى ابن عساكر ان انس قال لحفص بن عمر الانصاري «انطلق في اربعين من الانصار حتى أتى بنا عبد الملك بن مروان ففرض لنا فلما رجع رجعنا»[2]

ويروي الواقدي عن معاوية بن عبد الله بن عبيد الله بن ابي رافع عن أبيه ان محمد بن الحنفية «وفد الى عبد الملك فكلمه، فوعده عبد الملك ان يقضي دينه وان يصل رحمه وأمره أن يرفع حوائجه، فرفع محمد دينه وحوائجه وفرائض لولده ولغيرهم من خاصته[3] ومواليه، فأجابه عبد الملك الى ذلك كله وتعسر عليه في الموالي ان يفرض لهم، وألح عليه محمد، ففرض لهم فقصر بهم، فكلمه فرفع في فرائضهم، فلم يبق له حاجة الا قضاها، واستأذنه في الانصراف، فأذن له»[4].

ويروي الاصبهاني ان عبد الملك أمر لاسماعيل بن يسار، بألفي درهم غلة وزاد في عطائه وفرض له[5].

ويتضح من نص الاصبهاني ان العطاء غير الفرض، وان المرء قد يظفر بكليهما، اما نص ابن الحنفية فأبرز ما فيه ان الموالي لا يفرض لها كالصليبية الا في ظروف خاصة، وكل هذه

---

(١) انساب الاشراف ٤ ـ ٢ / ٢٩
(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ٣٨٣
(٣) في النص (من جاهته) وهو خطأ واضح
(٤) ابن سعد ٥ / ٨٣
(٥) الاغاني ٤ / ٤٢٢

النصوص تشير الى انه كان في المدينة عدد ليسوا في العطاء ، ولا بد ان هـذا حدث بعد زمن عمر الذي استوعب نظامه كل الانصار وقريش في المدينة .

وفي زمن سليمان بن عبد الملك جرى للمدينة فرض جديد أورد اليعقوبي عنه تفصيلاً حيث قال « حج سليمان سـنة ٩٧ وقد عزم ان يبايع لابنه أيوب بولاية العهد من بعـده وقسم بين أهل المدينة قسماً ، وفرض لقريش خاصة أربعــة آلاف فريضة ولم يدخل فيها حليفاً ولا مولى ، فأجمع رأي مشيخة قريش ان جعلوها لحلفائهم ومواليهم ، ثم دخلوا عليه فقالوا انك قد فرضت لنا أربعة آلاف فريضة ولا تدخل علينا منها حليفاً ولا مولى فرأينا أن نكافئك ونجعلهــا في حلفائنا وموالينا فنحن أخف عليك مؤنة منهم ، ففرض اربعة آلاف فريضة أخرى »[1] يتبين من هذا النص :

١ — ان عدداً غير قليل من أهل المدينة لم يكونوا في العطاء .

٢ — ان قريشاً تـكوّن في المدينـة كتلة كبيرة العدد وفيهـم على الاقل اربعة آلاف ليسوا في العطاء .

٣ — ان لقريش حلفاء وموالي لايقلون عنهم عدداً ، وان كنا لا نعرف عددهم بالضبط أو أصولهم او تنظيماتهم، ولعل وضع قريش هذا يشبه وضع العشائر الاخرى التي لها أيضاً حلفاء وموالي .

٤ — ان سليمان بن عبد الملك كان يريد إرضاء العرب وحدهم وخاصة قريش .

٥ — ان القريشيين اصروا على اعطاء حلفائهم ومواليهم ، إذ ارتأوا ان وضعهم المالي جيد ، فهم ليسوا بحاجة شديدة اليه .

ويروي حفص بن عمر الحوضي عن يوسف بن الماجشون قوله « ولدت في زمن سليمان بن عبد الملك ، وفرض لي سـليمان حين ولدت ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عرض الديوان فمر باسمي فقال ما اعرفني بهذا الغلام هذا صغير ليس من اهل الفرائض فردني عيلا »[2] .

---

(١) التاريخ ٢/٣٥٨ (٢) ابن سعد ٥/٣٠٧

ويروي الزبير بن بكار أنه فرض سليمان بن عبدالملك للناس في خلافته وعرض الفرض وكان ابن حزم في ذلك محسناً يعلم الله انه كان يأمر الغلمان ان يتطاولوا على خفافهم ليرفعهم. فلما قرأها عذره عند سليمان ، فأمر له سليمان بألف دينار في دينه والف معونة على عياله وبرقيق من البيض والسودان وبكثير من طعام الجار وان يدان من الصدقة بألفي دينار . فقـال :

فما كنت دياناً فقد دنت اذ بدت — صكوك أمير المؤمنين تدور

بوصل الى الارحام قبل سؤالهم — وذلك امر في الكرام كثير [1]

تبين هذه النصوص ان الفرض كان مقصوراً على الكبار دون الصغار ، وانه كان هناك مجال واسع للتلاعب في الفرض للصغار ، بأن يعتبروا كباراً .

اما عن عهد خلافة عمر بن عبد العزيز فلدينا معلومات واسعة نسبياً عن تنظيمات العطاء نظراً الى ان المؤرخين الاولين من الاتقياء اولوه اهتماماً خاصاً لانه من اهل التقوى والصلاح ، ولأنه قضى مدة طويلة في المدينـة اميراً ، ثم صار خليفة وقام باصلاحات ارضت هؤلاء المؤرخين .

ان النصوص التي رويت عن اعمال عمر بن عبد العزيز قليلة نسبياً وهي في قضايا فرعية فهي لا تكفي لتقييم اصلاحات هـذا الخليفة بدقة ولكنها تعطي فكرة عامة عنها وتشير الى خطوطهـا الرئيسه ، ويمكن القول ان هذه الاصلاحات لم تقلب اسس التنظيمات السابقة ، وان الخليفة لم يضع مبادئ جـديدة ، بل قام ببعض التعديلات واكـد على تطبيق بعض الفرعيـات التي تعرضت للاهمال . وقد اوردت النصوص ما يظهر تأييد الناس لهذه الاصلاحات ، وهو تأييد آت من افراد ، ولا نعلم هل ان هذا الرضى كان عاماً شـاملاً لجميع الناس ام ان المؤرخين تعمدوا اختيار النصوص التي تظهر رضى الناس عنهـا واهملوا نقل ما يعبر عن عدم الرضى عن هـذه الاصلاحات ، كما انها

(١) الاغاني ١٣/١٠٠ ـ ١٠١

لا تذكر لنا الاوضاع الاقتصادية والمالية العامة للدولة كيما يمكن معرفة مصادر الاموال التي صرفت لتنفيذ هذه الاصلاحات ومدى أثرها على الاوضاع الاقتصادية العامة .

ان محافظة عمر بن عبد العزيز على المبادىء العامة التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب ومحاولته اعادة تطبيقها على ضوء الظروف السائدة في زمنه هي من مظاهر محاولته احياء سنة عمر بن الخطاب . ولا ريب انه لم يكن بالامكان اعادة تطبيق تنظيمات عمر بن الخطاب حرفياً ، نظراً لتطور الأحوال والظروف على مر الزمن . فاصلاحات عمر بن عبد العزيز هي أصلاحات محافظة اكثر منها رجعية ، وهي تقوم على اعادة تنظيم القواعد القديمة على المجتمع القائم الذي ورث تقاليد قديمة وليس على ان تعيد تطبيق النظام القديم حرفياً ، وهي ليست تبديلاً ثورياً ، اي انها لم تأت بانقلاب اساسي او افكار جديدة في التنظيمات ، فهي إذاً اصلاحات ، واذا كنا نستطيع مقارنتها بتنظيمات عمر بن الخطاب ، فاننا لا نستطيع ان نقدر بالضبط مكانة هذه الاصلاحات بالنسبة للتعديلات والاعمال التي ادخلها الأمويون نظراً لانه ليست لدينا تفاصيل عن كل اعمال الامويين أو عن كل اعمال عمر بن عبد العزيز أو كل التعديلات التي ادخلها .

ان الاعمال التي روت المصادر ان عمر بن عبد العزيز قام بها في العطاء يمكن تصنيفها كما يلي :

١ — القسم: فيروي الواقدي عن عمرو بن عثمان بن هاني قوله « حضرت قسمتين قسمها عمر بن عبد العزيز على جميع الناس كلهم سوّى بينهم »[1] ويروي الواقدي أيضاً عن عبد الحكيم بن عبد الله بن أبي فروة « سمعت ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدة يقول جرى على يدي لقومي في خلافة عمر بن عبد العزيز ثلاثة اعطية وقسمان للناس عامان »[2] ان هاتين الروايتين تتفقان على انه جرى في زمن عمر بن عبد العزيز قسمان عامان للناس ، وتذكر رواية عمرو بن عثمان ان عمر سوّى بين الناس في القسم دون ان تحدد مقدار القسم ،

(١) ابن سعد ٥/٢٥٤ (٢) ابن سعد ٥/٢٥٥

غير ان نصاً آخر يرويه الواقدي عن عمه الهيثم بن واقد يقول فيه « ولدت سنة سبع وتسعين فاستخلف عمر وانا ابن ثلاث سنين فأصبت من قسمه ثلاثة دنانير » [1] وهذا يظهر ان القسم اصاب الاطفال ايضاً ، وان مقداره ثلاثة دنانير ، في حين ان ما يعطى للاطفال عشرة دنانير ، فهذا القسم غير العطاء ولعله اضافة الى العطاء ، ولا نعلم هل ان هذا المقدار هو نفس ما اعطى للكبار ، اي هل ان المساواة كانت بين الكبار والاطفال أم أنها كانت بين اهل العطاء وغيرهم ، فان كانت هذه الفرضية الاخيرة فهل ان عمر ساوى بين الكبار والصغار ام انه فرق بينهم .

٢ ـ العطاء : فقد ذكرنا من قبل قول ابراهيم بن محمد بن طلحة انه جرى على يديه لقومه ثلاثة اعطية [2] ويؤيد هذا رواية الواقدي عن غسان بن عبد الحميد عن ابيه « اخرج عمر بن عبد العزيز ثلاثة اعطية لاهل المدينة في سنتين وخمسة اشهر الا عشرة ليالي [3] » . ان توزيع ثلاثة اعطية بأقل من ثلاث سنين يؤيد روايات متعددة ان العطاء لم يكن ثابت الموعد في العصر الاموي ، واذا افترضنا ان العطاء سنوي ، وهو ما يشير اليه اغلب المصادر ، وان عطائين من الثلاثة اعطية عن السنتين ، فان العطاء الثالث قد يكون دفعه مقدمة للسنة الثالثة ، اي أن العطاء يعطى في بداية السنة لا في آخرها ، او أن العطاء كان يعطى في آخر السنة ولكن العطاء الثالث هو وفاء لعطاء سابق .

٣ ـ الفرض : لقد رويت نصوص تشير الى ان عمر بن عبد العزيز فرض العطاء للناس ، ويذكر بعضها اسماء من فرض لهم العطاء او رد عليه العطاء بعد ما حرم عنه . فيروى الواقدي عن عمرو بن عثمان ومحمد بن هلال : « كتب عمر بن عبد العزيز الى ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ان افرض للناس الا التاجر [4] » ويروى عن شميل بن محمد بن ابي يحيى انه ولد له أولاد وكانوا تجاراً فاراد الوالي ان يدخلهم في العطاء ، فقالوا : « اصلح الله الامير نحن قوم تجار ولا حاجة لنا بالدخول في عمل السلطان [5] » .

---

(١) ابن سعد ٥/٢٥٥ (٢) المصدر نفسه (٣) المصدر نفسه
(٤) ابن سعد ٥ / ٢٩٤ (٥) ابن سعد ٥/٣٠٩

والراجح ان اجراء عمر في عدم ادخال التجار في العطاء يتابع سياسة قديمة ، وهي توضيح ان العطاء لم يشمل التجار ، لانه يتطلب المشاركة في الغزو والحرب مما لم يكن من رغبات التجار ، ويوضح النص الثاني ان التجار انفسهم لم يكونوا راغبين في ذلك لانهم ليسوا محاربين ولان لهم موارد مالية تغنيهم عن العطاء .

ويروى عبدالله بن عمر بن محمد بن ابان بن صالح عن عمه ابان بن محمد قوله « سمعت ابي يقول دخل ابي ، يعني ابان بن صالح بن عمير ، على عمر بن عبد العزيز فقال له أفي ديوان انت ، قال قد كنت اكره ذلك مع غيرك اما معك فلا ابالي ، ففرض له » [1] .

ويروى الاصبهاني عن نصيب انه قال لعمر بن عبد العزيز : « بنيات لي نفضت عليهن سوادي فكسدن ، ارغب بهن عن السودان ويرغب عنهن البيضان ، قال فتريد ماذا ، قال تفرض لهن ففعل » [2] .

ولم يقتصر عمر على فرض عطاء للجدد،بل امر برد العطاء على بعض من حرم منه، فيروى الواقدي عن موسى بن نجيح عن ابراهيم بن يحيى : « ان عمر بن عبد العزيز كتب ان يعطى خارجة بن زيد ما قطع عنه من الديوان فمشى خارجة الى ابي بكر بن حزم فقال اني اكره ان يلزم امير المؤمنين من هذا مقالة ولي نظراء فان امير المؤمنين عمهم بهذا فعلت وان هو خصني به فاني اكره ذلك ، فكتب عمر لا يسع المال ذلك ولو وسع لفعلت »[3]

يبين هذا النص ان عمر بن عبد العزيز لم يرد العطاء لكافة من قطع عنهم ، وذلك لانه كان مقيداً بامكانياته المالية المحدودة لا باحقيتهم في رد العطاء لهم ، وهذا يدل على ان النصوص المروية عن اعمال عمر بن عبد العزيز هي نصوص مختارة تمثل جانباً واحداً من اعماله وليست كافة اعماله . ومما يؤيد ان الامكانيات المالية المحدودة لم تمكن عمر بن عبد العزيز من رد العطاء لكافة من حرم منه ، ما يرويه الواقدي عن خليد بن دعلج : « لما استخلف عمر بن عبد العزيز ارسل الى الحسن وابن سيرين يقول لهما ارد عليكما

(١) ابن سعد ٦/٢٣١ (٢) الاغاني ١/٣٤٧

(٣) ابن سعد ٥/٢٠٦ انظر ايضاً تهذيب ابن عساكر ٥/٢٥

ما حبس عنكما من اعطيتكما ، فقال ابن سيرين ان فعل ذلك باهل البصرة فعلت واما غير ذلك فلا ، فكتب الى عمر ان المال لا يسع ، قال وقبل الحسن » [1] .

ويروى الواقدي عن عبد الملك بن محمد عن عبد الله بن العلاء بن زبر « قلت لعمر بن عبد العزيز يا امير المؤمنين عصيت سنوات اني كنت في العصاة وحرمت عطائي ، قال فرد عليّ عطائي وامر أن يخرج لي ما مضى من السنين » [2] يوضح هـذا النص ان العصاة كانت تحرم من العطاء ، غير انه لا يذكر اي عصيان اشترك فيه عبد الله بن العلاء ، ولو ذكر لأمكننا ان نستنتج نوع العصيان الذي يحرم صاحبه من العطاء وعدد المحرومين . وجدير بالملاحظة ان ثورات اهل الحجاز على الامويين كانت محدودة ابرزها ثورة المدينة على يزيد وتأييدهم ابن الزبير ، ولا بد ان كلا من هاتين الحركتين ادى الى حرمان كثيرين من العطاء اما لمقتلهم او لتمردهم ، ولكن الراجح ان بعضهم قد رد اليه العطاء ، وان كنا لا نعلم تفاصيل ذلك .

٤ ـ مقدار العطاء : فيروى عبد الواحد بن غياث البصري عن جويريه بن اسماء ان أبا بكر بن عمرو بن حزم « كتب الى عمر ان قوماً من الانصار قد بلغوا اسناناً ولم يبلغ عطاؤهم الشرف ، فان رأى امير المؤمنين بالحاقهم في شرف العطاء فليفعل » غير أن عمر اجابه « واما ما ذكرت من امر الرجال الذين بلغوا سناً ولم يبلغ عطاؤهم الشرف فانما الشرف شرف الآخرة والسلام » [3] .

وهذا النص يدل على ان شرف العطاء مرتبط بالسن اي ان التقاليد كانت تقضي باعطائه المسنين وان هذا التقليد لا يتم تطبيقه تلقائياً بل يتطلب موافقة الخليفة ذاته ، وانه كان معطلا قبل تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة لاسباب لا نعرفها ، وان عمر لم يوافق على اعادة تطبيقه ولا نعلم السبب في ذلك ودوافعه او نتائجه ، غير أن عمر بن عبد العزيز لم يبلغ

---

(١) ابن سعد ٥/٢٥٦ (٢) المصدر نفسه

(٣) انساب الاشراف ١٣٩/٧ مصورة القاهرة

شرف العطاء نهائياً ، فيروي الواقدي عن محمد بن هلال عن عمر بن عبد العزيز انه « فرض لرجال القين شرف العطاء » [1] .

لم يبق عمر بن عبدالعزيز شرف العطاء ومقداره على حالها فحسب، بل ابقى الصنوف الاخرى ايضاً ،فيروي الواقدي عن المفضل بن الفضل القيني عن عبدالله بن جابر ان القاسم بن محمد بن مخيمرة قدم على عمر بن عبد العزيز « فسأله قضاء دينه ، فقال عمر : كم دينك ، قال تسعون ديناراً ، قال قد قضيناه عنك من سهم الغارمين ، قال يا امير المؤمنين اغنني عن التجارة ، قال بماذا قال بفريضة ، قال قد فرضت لك في ستين وامرنا لك بمسكن وخادم ، فكان القاسم بن مخيمرة يقول الحمد لله الذي اغناني عن التجارة اني لا اغلق بابي فما يكون في خلفي هم » [2]

٥ ـ رزق الموتى : يروي الواقدي عن سعيد بن مسلم بن بانك « سمعت عمر بن عبدالعزيز وهو خليفة يقول : انه لا يحل لكم ان تأخذوا لموتاكم فارفعوا الينا » [3]

ويروي ايضاً عن ثابت بن قيس « سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقرأ علينا ارفعوا موتاكم فانما هو مالكم نرده عليكم » [4]

ان قضية عطاء الموتى ليست جديدة ويبدو انها كانت موجودة قبله، وقد ابقاها في البداية ثم الغاها ،فيروي مصعب الزبيري عن ابيه عن قدامه بن ابراهيم الجمحي « ماتت عمتي وقد صار عطاؤهـا في بيت المال ، فركبت الى عمر بن عبد العزيز وهو في ضيعته بالرس وهو اذ ذاك والي المدينة ، فاعلمته خبرها فقال لي ماتت وقد صار عطاؤها في بيت المـال ؟ قلت نعم فكتب الى عبدالله بن عبيدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ان يدفع اليّ عطاءهـا ان كانت ماتت بعد وصير عطاؤها في بيت المال ، فدفعـه اليّ ، قال وكان عبدالله بن عبيد الله على بيت المال اذ ذاك » [5]

٦ ـ وقد فصل عمر بن عبدالعزيز بين رزق العامة والخاصة، فيروي عبدالله بن جعفر عن

---

(١) ابن سعد ٥/٢٥٥ (٢) ابن سعد ٥/٢٥٧
(٣) ابن سعد ٥ / ٢٥٥ (٤) كـذلك
(٥) نسب قريش ١٦٤ ، ١٨٢ مخطوطة اكسفورد

ابن المبارك عن معمر انه «كتب عمر بن عبدالعزيز اما بعد فلا تخرجن لاحد من العمال رزقاً في العامة والخاصة، فانه ليس لاحد ان يأخذ رزقاً من مكانين في الخاصة والعامة، ومن كان اخذ من ذلك شيئاً فاقبضه من ثم وارجعه الى مكانه الذي قبض منه والسلام»[1] والراجح ان المقصود برزق الخاصة ما يأخذه المستخدمون في اعمال الدولة ممن يشبه عملهم عمل الموظفين اليوم؛ فكأنه بهذا القرار منع العطاء عن هؤلاء.

٧ ـ عطاء الاطفال: يبدو من النصوص ان عمر بن عبدالعزيز قد عمم العطاء على كافة الاطفال وثبت سن العطاء خمسة عشر، فيروى الواقدي عن سعيد بن مسلم بن بابك «سمعت عمر بن عبد العزيز يقول وهو خليفة اكتبوا لنا كل منفوس نفرض له» ويروى عن ثابت عن قيس «سمعت كتاب عمر بن عبدالعزيز يقرأ علينا إرفعوا كل منفوس نفرض له»[2]

ويروي عبدالله بن نمير الهمداني ومحمد بن عبيد الطنافسي عن عبيدالله عن نافع عن ابن عمر انه «عرضني رسول الله (ص) في القتال يوم احد وانا ابن اربع عشرة سنة فلم يجزني، فلما كان يوم الخندق عرضني وانا ابن خمسة عشرة سنة فاجازني، فقدمت الى عمر ابن عبدالعزيز وهو يومئذ خليفة فحدثته بهذا الحديث، فقال ان هذا الحد بين الكبير والصغير وكتب الى عماله ان يفرضوا لابن خمسة عشرة ويلحقوا مادون ذلك في العيال»[3]

ويروى عن ابي معشر عن نافع انه «كتب عمر بن عبدالعزيز وهو خليفة الى عماله في الآفاق ان لا يفرضوا لابن اربع عشرة سنة في العطاء ويفرضوا لابن خمس عشر في المقاتلة»[4]

اما مقدار عطاء الاطفال فيروي الواقدي عن ابيه «ذهبت بي حاضنتي الى ابي بكر بن حزم فوضع في يدي ديناراً وانا منفوس وولدت سنة المائة، ثم كان قابل فاعطينا ديناراً آخر فكانا دينارين»[5]

اما عن العطاء بعد خلافة عمر بن عبدالعزيز فقد وردت اشارات قليلة، ففي زمن خلافة هشام

(١) ابن سعد ٥ / ٢٧٨ (٢) ابن سعد ٥ / ٢٠٥ (٣) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ١٠٥
(٤) ابن سعد ٥ / ٢٥٨ مسند الشافعي ٣ / ١٢٧ (٥) ابن سعد ٥ /

جاء ذكر خبر لرجل من الانصار من بني حارثة كان مملقاً [1] ليس في ديوان ولا عطاء فقال لهشام بن عبدالملك « يا امير المؤمنين انا امرؤ من الانصار وقد بلغت هذه السن ولست في ديوان فان رأى امير المؤمنين ان يفرض لي فعل ، قال فاقبل عليه هشام فقال والله لا أفرض لك حتى مثل هذه الليلة من السنة المقبلة » [2]

ويروي ابن شبة عن عيسى بن عبدالله عن محمد بن عمر بن علي بن ابي طالب « ان هشاما لما خرج عليه زيد بن علي منع اهل مكة واهل المدينة اعطياتهم سنة ، ولما ولي الوليد بن يزيد كتب الى اهل المدينة .

محرمكم ديوانكم وعطاؤكم	به يكتب الكتاب والكتب تطبع
ضمنت لكم إن لم تصابوا بمهجتي	بان سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاق بكم وزيادة	واعطية تاتي تباعا فتشفع [3]

ويروي الزبير بن بكار عن عمه عن ايوب بن عبايه انه « قدم نصيب على عبد الوحد النصري وهو امير المدينة بفرض من امير المؤمنين يضعه في قومه من بني ضمره فادخلهم عليه ليفرض لهم وفيهم اربعة لم يحتلوا فردهم النصري.. وهو مالك للامر وله فيه سلطان » (ثم فرض لهم بعد أن اقتنع انهم بلغوا الحلم) [4]

العطاء في العصر العباسي :

ولما ولي العباسيون الخلافة ، أولوا اقليم الحجاز عناية خاصة ، فكان الخليفة يولي عليه اخص اقاربه ، واهتموا بامر الحج . وقد بذل الخلفاء العباسيون الاولون جهوداً كبيرة للتقرب من اهل الحجاز وعلمائه ، وقربوهم في بلاطهم ، وولوا عدداً منهم القضاء ببغداد خاصة ، ولابد ان يهتم العباسيون الاولون وهم يسيرون على هذه السياسة ، بامر العطاء في الحجاز فيذكر الزبير بن بكار عن يحيي بن محمد عن ابي منصور عبدالرحمن بن صالح بن دينار مولى الخزاعيين انه « حج امير المؤمنين ابو جعفر المنصور وأعطى أشراف القرشيين ألف دينار

---

(1) اغاني ١١ / ١٩٣ ومن المحتمل ان الكلمة يجب ان تكون (محلقا) والمحلق الذي يمحى اسمه من العطاء ، واصل ذلك ان يوضع على اسمه في الديوان حلقة تشير الى شطب اسمه . انظر البخاري : كتاب الديات الباب ٢٢ وانظر ايضاً مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٤٣ (2) الاغاني ١١ / ١٩٣

(3) الاغاني ٧ / ٢١ ــ ٢ انظر ايضاً الطبري ٢ / ١٧٥٤ مع تقديم وتأخير في الابيات واختلاف في رواية بعض الالفاظ (4) الاغاني ١ / ٣٧٣ ــ ٥

لـكل واحد منهم ولم يترك احداً من اهل المدينة الا اعطاه ، الا انه لم يبلغ بأحد ما بلغ بالاشراف ، فـكان ممن اعطى الالف الدينار هشام بن عروة ، واعطى قواعد قريش صحاف الذهب والفضة وكساهن ، واعطى بالمدينة عطايا لم يعطها احد كان قبله » [1]

أما عن زمن المهدي فقد وردت نصوص فيها معلومات اوفى ، ولعل ذلك راجع الى ان المنصور حرم اهل المدينة ـ او معظمهم ـ لمالأتهم محمد النفس الزكيه ، فلما جاء المهدي اعادها عليهم ، فيروي الزبير بن بكار في ذلك قوله « واما المغيره بن خبيب فـكان لطيفاً بامير المؤمنين المهدي ولاه عطاء اهل المدينة ، وكان يوليه القسوم ، واعطاه الف فريضة يضعها حيث شاء ففرضه مشهورة بالمدينة [2]

ويروي الزبير بن بكار أيضاً عن يونس بن عبدالله بن سالم الخياط حيث قال أنه « لما اعطى امير المؤمنين المهدي المغيره بن خبيب الف فريضة يضعها حيث شاء جاءه أبو عبدالله بن سالم فقال له:

ألف تـــدور على يد لممدح	ما سوق مادحه لديه بكاســـد
الظن مني لو فرضت لواحـــد	في الأعجمين خصصتني بالواحد

قال : فقال له المغيرة : أيهما احب اليك أفرض لك أو لابنك يونس ، قال انا شيخ كبير هامة اليوم أو غـــد ، افرض لابني يونس ، قال ففرض لي في خمسين ديناراً ،قال فلما خرجت الاعطية الثلاثة على يدي أبي بكر بن عبد الله الزبيري في ولاية امير المؤمنين الرشيد قال لي خليفة هرثمة وخليفة ايوب بن ابي سميرة وهما يعرضان اهل ديوان العطاء : انت من هذيل ونراك قد كتبت مع آل الزبير فنردك الى فرائض هذيل ، خمسة عشر ديناراً ، فقال لهما أبو بكر بن عبد الله الزبيري انما جعلتما لتتبعا ولا تبتدعا ، امضياه واعطياه ، فأعطيـاه مئة وخمسين ديناراً » [3] .

---

(١) الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ١/٣٠٣ [رقم ٥٣١]

(٢) الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ١٠٩ ، ٢١٤ انظر ايضاً مصعب الزبيري : نسب قريش ٢٤٢ ؛ الخطيب: تاريخ بغداد ١٣/١٩٤

(٣) جمهرة نسب قريش ١١٠ [٢٢٥] انظر ايضاً الأغاني (١٨/٩٨)

ويروي الزبير ايضاً عن يحيى بن محمد انه قال « قسم أمير المؤمنين المهدي قسماً على يد المغيرة ابن خبيب سنة أربع وستين ومائة ، فأصاب مشيخة بني هاشم اكثرهم خمسة وستون ديناراً واقلهم خمسة واربعون ديناراً ، ومشيخة القريشيين اكثرهم خمسة واربعون ديناراً واقل القريشيين سبعة وعشرون ديناراً ، ومشيخة الانصار اكثرهم سبعة وعشرون ديناراً واقل الانصار سبعة عشر ديناراً ، والعرب اكثر من الموالي ولا ادري كم اعطوا ، ومشيخة الموالي خمسة عشر ديناراً واقل الموالي على الشبر : السداسي ستة دنانير ، والخماسي خمسة دنانير والرباعي اقلهم اربعة دنانير ، وكان عدد الناس الذين اكتتبوا ثمانين الف انسان ، قال وقال المغيرة بن خبيب ، ربما رأيت الانسان الهي وقد قصر به نقيبه وكتبه في غير نظرائه فأعطيه من مالي حتى غرمت مالاً »[1] .

وينقل الزبير ايضاً عن يونس بن عبد الله بن سالم الخياط انه لما خرج هذا القسم جاء ابوه عبد الله بن سالم الى المغيرة بن خبيب فكلمه فقال المغيرة « فعل الله بك وفعل اذ اسلموا يافلان اذهب الى الذي يعطي القسم فقل له يعطه قسمه ، فأعطاه خمسة عشر ديناراً »[2] .

يتبين من هذه النصوص :

١ — ان المهدي اطلق العطاء لأهل المدينة وهذا يدل على ان اهل المدينة لم يكونوا في العطاء عند تولي المهدي الخلافة .

٢ — ان المهدي فرض الف فريضة جديدة لأهل المدينة . ومعنى هذا ان العطاء لم يكن عاماً لاهل المدينة كلهم ، فكان هناك مجال لتقديم فرائض جديدة . ومن البديهي ان الفرائض الجديدة لم تستوعب كافة من ليسوا في العطاء ولكنها مع ذلك كانت ذات اهمية خاصة .

---

(١) جمهرة نسب قريش ١١١ [٢١٦] انظر ايضاً الخطيب ١٣/١٩٤ .

(٢) نسب قريش ١١٢ [٢١٧]

٣ — أن الخليفة كان يخول امير المصر توزيع الفرائض كما يرى وبذلك يتيح له مجالا واسعاً من الحرية الشخصية على ان لايناقض ما تقرره الخطوط العامة لسياسة الدولة ، بل عليه ان يراعي هذه الخطوط في التوزيع .

٤ — قد يكون الفرد في العطاء ولا يكون إبنه في الديوان .

٥ — ان العطاء لايورث ، ولذلك فضل أبو عبد الله بن سالم ان تعطى الفريضة لابنه كي لايحرم منها بعد وفاته .

٦ — ان ترتيب الديوان قد لايطابق ترتيب الانساب ، فقد يكون الفرد مسجلاً في غير ديوان عشيرته .

٧ — ان العطاء يختلف باختلاف العشائر وان فرائض هذيل خمسة عشر ديناراً وفرائض آل الزبير خمسون ديناراً ، غير اننا لا نعلم فرائض العشائر الاخرى ، ولا ما اذا كانت هذه الفرائض عطاء ثابتاً ام منحاً مفردة لاتتكرر .

٨ — ان افراد العشيرة لايتساوون في العطاء ، فالمشيخة تأخذ اكثر من غيرها ، وان الفرق بين الحدين الأعلى والأدنى من العطاء واسع ، ولا نعلم تصنيف كل عشيرة وصنوفها فيما بين الحدين [1] والراجح ان الاكثرية تأخذ اقل العطاء .

٩ — ان بني هاشم يكونون وحدة عطاؤها اعلى الجميع ، يتلوهم عطاء قريش ثم الانصار ثم الموالي .

١٠ — ان الموالي تصنيف خاص لايقوم على الوحدات القبلية ، ولكن النص المار ذكره لايوضح أسسه .

١١ — ان النقيب هو الذي يتولى تصنيف الناس ، وبمقدوره التلاعب في التصنيف .

١٢ — ان عدد من كان في العطاء في المدينة يبلغ ثمانين الفاً .

١٣ — والراجح ان هذا العطاء هو غير الأموال التي كان يعطيها المهدي والتي رويت عنها

---

(١) لدينا معلومات عن اصناف العطاء بين حديه الادنى والاعلى في الامصار الاسلامية الاخرى (انظر كتابي التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ١٥١ — ١٥٥) اما في الحجاز فليست لدينا معلومات عنها .

الاخبار ، منها ما يرويه مصعب الزبيري بقوله « كان عبدالله بن المصعب بن ثابت في صحابة المهدي سنتين حين قدم المهدي المدينة ، وجلس للناس يعطيهم الاموال ، يعطي الرجل من قريش ثلاثمائة دينار ويكسوه سبعة اثواب »[1] .

وكذلك ما يرويه الاصفهاني ان ابن الموالي مدح المهدي، فأمر له بعشرة آلاف درهم وكسوة وامر صاحب الجاري بأن يجري له ولعياله في كل سنة ما يكفيهم والحقهم في شرف العطاء.[2]

اما في زمن الخليفة هارون الرشيد فقد اصاب اهل المدينة ثلاث اعطيات في سنة واحدة ، فيروي مصعب بن عبدالله الزبيري « قدم الرشيد مدينة الرسول (ص) ومعه ابناه محمد الامين وعبدالله المأمون فأعطى فيها العطاء ، وقسم في تلك السنة في رجالهم ونسائهم ثلاثة اعطية ، فكانت الثلاثة الأعطية التي قسمها فيهم الف الف وخمسين الف دينار ، وفرض في تلك السنة لخمسمائة من وجهاء موالي المدينة ، ففرض لبعضهم في الشرف، منهم يحيى بن مسكين وابن عثمان ومفراق مولى بني تميم »[3] .

ويروي الجهشياري « ان الرشيد حج وحج معه يحيى والفضل وجعفر فلما صار بالمدينة جلس ومعه يحيى واعطى العطاء ، ثم جلس محمد من بعده ومعه الفضل بن يحيى فأعطاهم العطاء ، ثم جلس بعده عبد الله ومعه جعفر فأعطاهم العطاء ، فأعطوا في تلك السنة ثلاثة أعطية ، فكان اهل المدينة يسمون ذلك العام عام الثلاثة الاعطية ، ولم يروا مثل ذلك قط الا في ايام البرامكة »[4] .

ويذكر مصعب الزبيري : « وكان ابو بكر بن عبد الله بن مصعب باب قريش ومدرها شرفاً وبياناً وجاهاً وابهة وحدباً عليها وراً بها وحسن اثر عندها ، واستعمله امير المومنين هارون الرشيد على المدينة فاقام عامله عليها اثني عشرة سنة وثلاثة اشهر واحد عشر يوماً ،

---

(١) مصعب الزبيري : نسب قريش ٢٤٢ (٢) الاغاني ٣/٢٩٩

(٣) الطبري ٣/٧٦٣

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ٢٢١ ـ ٢ طبعة مصطفى السقا

وكان امير المؤمنين الرشيد به معجباً واليه مفوضاً ، وكان عنده وجيهاً اثيراً ، وأخرج لاهل المدينة على يديه نصف عطاء وكسوة وقسماً في سنة ١٨١ ﻫ وأخرج على يديه ثلاثة اعطية وكسوة فاخرة في سنة ١٨٦ ﻫ .

قال فاخبرني عمران بن محمد بن مصعب بن ثابت قال ارسلني ابو بكر بن عبدالله اقبض ثلاثة اعطية وقد نزلوا ببيت مال امير المؤمنين الرشيد دار عائشة الصغرى ، فقبضت منها ثلاثة اعطية ، وذلك الف الف دينار ومائتا الف دينار ، كل عطاء اربعمائة الف دينار ، وأخرج على يده في سنة ١٨٨ ﻫ نصف عطاء وكسوة وقسما كثيراً » [1] .

ويروي الزبير بن بكار عن يونس الخياط ان المغيرة بن حبيب فرض ليونس بن عبد الله بن سالم في خمسين ديناراً ، فلما خرجت الاعطية الثلاثة في زمن الرشيد على يدي بكار بن عبد الله قال لي خليفته وخليفة ايوب بن ابي سمير وهما يعرضان اهل ديوان العطاء انت من هذيل وتراك قد صرت من آل الزبير ، فردك الى فرائض هذيل خمسة عشر دينار فقال لهما بكار انما جعلتما لتتبعا ولا تبتدعا امضياه فاعطياه مائة وخمسين دينار [2] .

ان النص الذي نقله الزبير بن بكار عن عمه مصعب الزبيري يبين الامور التالية :

١ ـ ان اهل المدينة اعطوا نصف كسوة وقسماً في سنتي ١٨١ ، ١٨٨ ﻫ .

٢ ـ انهم اعطوا في سنة ١٨٦ ﻫ ثلاثة اعطية ، ولعلها هي التي اشار اليها الجهشياري .

٣ ـ أن مجموع العطاء يبلغ اربعمائة الف دينار ، وان العطاء اصبح يقدر بالدنانير .

٤ ـ غير انه لا يذكر هل ان النصف الثاني من العطاء اعطي فيما بعد ام شطب ولا ما اذا كانت الاعطيات الثلاثة مقابل سنوات حذف فيها العطاء ، ولا يذكر الاحوال في السنوات الاخرى ، وهل اعطي فيها العطاء .

---

(١) الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ١٦٣ [٣٠٥ ـ ٦]

(٢) الاغاني ١٨/١٨٥

٥ ــ ويبين نص الزبير بن بكار ان فرائض هذيل خمسة عشر ديناراً ، وفرائض قريش ١٥٠ ديناراً .

٦ ــ اما نص الجهشياري فيشير الى ان توزيع العطاء كان على يد البرامكة .

هذا ولم يرد في المصادر ذكر للعطاء في الحجاز بعد عهد الرشيد ، مما يدل على توقفه ، الا اننا لا نعلم متى تم هذا التوقف .

عطاء الموالي

لقد بشر الرسول بالاسلام في مكة ، وثبت دعائم دولة الاسلام في المدينة ولم يرتفع الى الرفيق الاعلى الا والاسلام قد عم معظم ارجاء الجزيرة ، فلما ولي ابو بكر الخلافة وقضى على الردة كان الاسلام أودولته سائدين الجزيرة التي اصبحت قاعدة الفتوح واهلها يكونون جيش الاسلام ومادته ، فكان الاسلام في هذه الفترة المبكرة لا يزال مقصوراً على العرب ، حيث اصبح العرب كلهم في الجزيرة تقريباً مسلمين ، كما ان الاسلام لم يكن قد بدأ بالانتشار خارجها ، الى ان بدأت الفتوح واتسعت دولة الاسلام ، فليس من الغرابة ان يحمل العرب اعباء الفتوح وتوسيع الدولة ونشر الدين ، وان يكون العطاء موزعاً بينهم .

غير أن الطبيعة العالمية للاسلام جلبت اليه منذ ايام الرسول وخلافة ابي بكر عدداً من غير العرب الذين كانت الدولة والمجتمع ينظران اليهم كمسلمين ، وبسبب من ذلك ومن مقتضيات الظروف ادخل عدد من غير العرب في العطاء فيما بعد .

فقد ذكرت المصادر عدة روايات ان عمر فرض للموالي الذين اشتركوا في وقعة بدر المقدار الذي فرضه للمهاجرين والانصار [1] .

ويروي ابن سعد ايضاً ان عمر فرض للناس على منازلهم وقراءاتهم للقرآن وجهادهم ، ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً فالحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة في ٢٥ ديناراً لكل رجل وفرض للمحررين معهم [2] وقد اشارت بعض المصادر الى انه فرض للهرمزان

---

(١) ابن سعد ٣ــ١/٢١٣ ، ٢١٩ انظر ايضاً الاموال ٥٥٢ البدء والتاريخ ١٦٨

(٢) ابن سعد ٣ــ١/٢١٠

الفيء[1]، غير أن هذا الفرض الاخير غير اعتيادي وقد املته ظروف خاصة ، ويروي سيف عن عاصم بن سليمان عن عامر الشعبي ، ان عمر كان يجعل لكل نفس منفوسة من اهل الفيء طيلة شهر رمضان درهما في اليوم[2] .

ان ادخال هؤلاء الموالي في العطاء منسجم مع طبيعة الاسلام المالية التي تشبع بها المسلمون الاوائل وعلى رأسهم الخلفاء ، ومما لا شك فيه ان عدد الموالي في هذا الوقت المبكر كان قليلا ، لان الاسلام لا يزال في نطاق الجزيرة واهلها عرب ، وقاعدته المدينة التي نظم عمر العطاء لاهلها .

ولكن تكوين الدولة الاسلامية وتوسعها رافقه تزايد هجرة الاعاجم الى المدينة بسبب الحرية التي اتبعتها الدولة ، وزوال الحواجز المعيقة للهجرة وتوسع الحياة الاقتصادية في الحجاز ، لاشك انه لم يدخل الاعاجم والموالي كافة في العطاء في المدينة ، الا ان الاحوال الخاصة القائمة فيها والتي نرجو ان نوضحها في مقال مستقل ، قضت باستخدام الموالي وادخال بعضهم في العطاء ، بالرغم من نظرة الانتقاص التي كان ينظرها المجتمع العربي اليهم في المدينة[3] .

ففي العهد الاموي يروي ابن سعد ان محمد بن الحنفية زار عبد الملك ، فوعده عبد الملك ان يقضي دينه وان يصل رحمه وامره ان يرفع حوائجه ، فرفع محمد دينه وحوائجه وفرائضه لولده ولغيرهم ومواليه فاجابه عبد الملك الى ذلك ، وتعسر عليه في الموالي ان يفرض لهم ، والح عليه محمد ففرض لهم فقصر بهم فكلمه فرفع فرائضهم فلم يبق له حاجة الا قضاها واستأذنه في الانصراف فاذن له[4] .

يتبين من هذا النص ان عبد الملك وافق بعد تلكؤ ، على ان يفرض للموالي كغيرهم ، ولعل ابن الحنفية لم يلح الا وهو يعلم ان هذا ممكن ، لان عبد الملك لا يعقل ان يوافق

---

(١) ابن سعد ٥/٦٠ (٢) الطبري ١/٢٨٠٤

(٣) انظر كتاب « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » وخاصة ص ٩٩

(٤) ابن سعد ٥/٨٣

على منح موالي ابن الحنفية العطاء دون بقيـــة الموالي .

ويروي الواقـدي انه عندما ثار عبدالله بن الزبير في مكة ، كان والي المدينـة الاموي عمرو الاشدق ارسل عمرو بن الزبير « في اربعـمائة من الجند وقوم من موالي بني اميـة وقوم من غير أهل الديوان » [1] .

ويروى محمد بن مصعب القرقساني عن ابي بكر بن ابي مريم « ان عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والـكسوة والمعونة والعطاء سواء ، غير انه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً [2] .

ان هذا النص يبين ما كان يعطى للناس ، وينص صراحة على ان الموالى والعرب كانوا متساوين في العطاء وفي عدة امور اخرى، ماعدا الفريضة التي كانت للمولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً ، الا ان النص لايذكر مقدار فريضة العرب او فريضة الاصناف الاخرى من الموالي .

ويروى مصعب الزبيري ان الرشيد لما قـدم المدينـــة وقسم في اهلها ثلاثة اعطية « فرض في تلك السنة لخمسمائة من وجوه موالى المدينة ، ففرض لبعضهم في الشرف منهم يحيى بن مسكين وابن عثمان ومخراق مولى بني تميم وكان يقرأ القرآن بالمدينة » [3] .

اما العبيد فان الشافعي يذكر « ان أبا بكر كان يسوي بين الحر والعبد ، ولم يفضل بين احد بسابقة ولا نسب ، ثم قسم عمر فألغى العبيد وفضل بالنسب والسابقة ، ثم قسم علي فألغى العبيد وسوى بين الناس [4] » .

لا ريب ان تسوية أبي بـكر بين الحر والعبد في العطاء ترجع الى قلة مقدار العطاء والى قلة العبيد الذين كان معظمهم ممن ساهموا في بناء دولة الاسلام في المراحل الاولى ، اما عدم ادخال عمر بن الخطاب العبيد في العطاء فيرجع الى انه بعد الفتوح تزايد في المدينـة عدد العبيد الذين لم يساهموا في تـكوين دولة الاسـلام. ويذكر ابن سعد عدة نصوص تؤيد عدم ادخال

(١) انساب الاشراف ١ـ٢/٢٥ (٢) ابن سعد ٥/٢٧٧ (٣) الطبري ٣/٧٩٣

(٤) الام ١/١٣٤

عمر العبيد في العطاء [1] .

غير ان الخليفة عمر بن الخطاب « كان يرزق الاماء والحبل [2] » وقـــد أمر للارقاء « بجريبين جريبين [3] » .

اما اللقطاء، وهم يعتبرون في الاسلام احراراً ، فقد ادخلهم عمر في العطاء ، فيروي ابن سعد ان عمر « كان اذا أتى باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر ما يصلحه ، ثم ينقله من سنة الى سنة ، وكان يوصي بهم ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال [4] » ويروى ايضاً عن سنين أبي جميلة « وجدت منبوذاً على عهد عمر فذكره عريفي له ، فأرسل اليّ فدعاني فقال لي هو حر وولاؤه لك وعلينا رضاعه [5] » ويقول اليعقوبي ان عمر أمر ان تكون نفقات أولاد اللقط ورضاعهم من بيت المال [6] .

البعث :

لقد كان العطاء يدفع للمقاتلة على ان يشاركوا في القتال عند ما تطلب اليهم الدولة ذلك . ومن المعلوم ان اهل المدينة كونوا الجيش الذي قاتل في سبيل الاسلام في زمن الرسول(ص) كما كانوا أساس الجيش الاسلامي الذي قضى على حركات الردة وأمّن سيادة الاسلام على الجزيرة ، وقد ساهم عدد كبير من اهل المدينة في الفتوح الاسلامية في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب وبقية الخلفاء .

غير ان اتساع الفتوح وازدياد عدد عرب الجزيرة المنضمين الى الجيش الاســـلامي دفع الخليفـة عمر بن الخطاب الى تمصير الامصار وجعل كلا منها قاعـدة يقيم فيها دائمياً الجيش الاسلامي الذي يقاتل في الجبهة التي فيها مصره ، وبذلك اصبح واجب القتال ملقى

---

(1) انظر ابن سعد ٣ – ١/٢١٥ ، ٢١٨

(2) ابن سعد ٦/١٠٤ عن عياض الاشعري

(3) ابن سعد ٦/١٠٤

(4) ابن سعد ٣ – ١/٢١١

(5) ابن سعد ٥/٤٥

(6) التاريخ ٢/١٢٠

بالدرجة الأولى على اهل الامصار ، ولم يعد مقصوراً على اهل المدينة الذين كان عليهم تلبية دعوة الدولة عند ما تضرب عليهم البعث ، اي عند ما تطالب منهم تقديم مقاتلة للمشاركة في الحروب . وقد ذكرت المصادر عدداً قليلا من البعوث التي فرضت على اهل المدينة .

١ ـ فيروي اليعقوبي ان الوليد بن عبد الملك ، ضرب البعث على اهل المدينة وكتب الى عمر بن عبد العزيز الذي كان واليه على المدينة « فأخرج منهم الفي رجل [١] » .

ويذكر الطبري في رواية عن مخرمة بن سليمان ان الوليد في سنة ٨٨ هـ « ضرب عليهم بعث الفين ، وانهم تجاعلوا ، فخرج الف وخمسمائة وتخلف خمسمائة ، فغزوا الصائفة مع مسلمة والعباس وهم على الجيش وانهم شتوا بطوانه وافتتحوها » [٢] .

٢ ـ وفي خلافة هشام بن عبد الملك يروي الواقدي عن افلح وخالد بن القاسم انه « صلى هشام بن عبد الملك على سالم بن عبد الله بالبقيع لكثرة الناس ، فلما رأى هشام كثرتهم بالبقيع قال لابراهيم بن هشام المخزومي اضرب على الناس بعث اربعة آلاف فسمى عام الاربعة آلاف ، فكان الناس اذا دخلوا الصائفة خرج اربعة آلاف من المدينة الى السواحل فكانوا هنالك الى انصراف الناس وخروجهم من الصائفة [٣] » .

ويتبين من هذا ان هذا البعث اصبح في زمن هشام سنوياً غير اننا لا نعلم هل استمر ذلك بعده ، كما يتبين منه ان اهل المدينة كانوا يقيمون لحماية السواحل في المؤخرة ، فعبء القتال عليهم اخف منه على اهل الشام .

٣ ـ وفي زمن ولاية عبد الواحد النصري هجم حمزة الخارجي على الحجاز فذهب عبد الواحد « حتى دخل المدينة فدعا بالديوان فضرب على الناس البعث وزادهم في العطاء عشرة عشرة » [٤]

٤ ـ ويروي الطبري بسند عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الاسدي انه قطع على اهل

---

(١) التاريخ ٢/٣٣٩ (٢) الطبري ٢/١١٩٢

(٣) ابن سعد ٥/١٤٨ ـ ٩ انظر ايضاً الطبري ٢/١٤٧٢ السخاوي: التحفة اللطيفة ٢/٢٩[١٢٩٩]

(٤) الطبري ٢/١٩٨٣ الاغاني ٢٠/١٠٠

المدينة بعث الى اليمن فاكتتبت فيه فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فنهاني عن ذلك اشد النهي»[1] غير اننا لا نعلم الزمن الذي ضرب فيه هذا البعث .

الطوى والجعائل والبدائل :

لقد كان على المقاتل ان يذهب الى البعث المقرر عليه الذهاب اليه ، غير انه بامكانه ان يقوم بالطوى وهو على ما ينقل مالك عن أبي لهيعة عن يحيي بن سعيد انه « قال في الطوى لو أن رجلاً قال لرجل خذ بعثي وآخذ بعثك وأزيدك ديناراً أو بعيراً أو شيئاً فلا بأس بذلك، وقال الليث مثله، وعن ابن عباس انه كان يقول لا بأس بالطوى من ماحوز الى ماحوز اذا ضمنه انسان »[2] . ويروي ابن وهب عن عبد الرحمن بن شريح انه قال « كان يكره من الطوى ان يعقد الرجلان الطوى قبل ان يكتبا في البعثين اللذين يتطاوين فيهما ، وذلك أن يقول الرجل قبل الطوى اكتتب في بعث كذا وكذا وانا اكتتب في بعث كذا وكذا ثم يعتقدان الطوى على ذلك ، واما الطوى بعد الكتبة فلم اسمع احداً ينكر ذلك الا الرجل الذي يقف نفسه ينتقل من ماحوز الى ماحوز التماس الزيادة في الجعل »[3] .

ان اعطاء الدولة العطاء للمقاتلة يخولها قانوناً حق ضرب البعث عليهم والزامهم الاشتراك في القتال . غير ان الدولة عملياً كانت لا تشرك كافة المقاتلة من اهل العطاء في البعوث ، بل تقتصر على فرضه على عدد محدود تقدره ، والراجح ان اشتراك المرء في القتال يتم دورياً ، اي يفرض على كل شخص ان يشترك في بعث واحد وليس في كل البعوث ، فاذا حدث بعث آخر ، فانه يشترك في البعث الجديد من لم يذهب في البعث السابق . وبامكان من يفرض عليه البعث ان يتجاعل، اي أن « يعطي رجلا آخر شيئاً ليخرج مكانه او يدفع المقيم الى الغازي شيئاً فيقيم الغازي ويخرج هو »[4]

---

(١) تفسير الطبري ٩/١٠٤ [١٠٢٦٢] تحقيق محمد شاكر

(٢) المدونة ٣/٤٥ (طبعة الساسي)   (٣) المدونة ٣/٤٥

(٤) لسان العرب مادة (جعل) وانظر البخاري كتاب الجهاد باب الجعائل والحملان في سبيل الله ، وانظر ايضاً المدونة ٣ / ٤٥

« وقد يكتب البعث على الغزاة فيخرج من الاربعة والخمسة رجل واحد ويجعل له جعل »[1] فالجعل في هذا التعريف هو المبلغ الذي يدفع لمن يتطوع بتلبية الدعوة ويشترك في البعث مقابل جعل يأخذه من عطاء من لا يشارك في البعث . ويذكر مالك انه « لم يزل الناس يتجاعلون بالمدينة عندنا كانوا يتجاعلون ، يجعل القاعد للخارج .. بهذا مضى امر الناس »[2]

وتكون الجعائل بين اهل الديوان ، اي الذين في العطاء ، وقد جوز مالك لاهل العطاء التجاعل « لانه مباعث مختلفة ، وانما اعطوا اعطياتهم على هذا وما اشبهه ، فاهل الديوان عندي مخالفون لمن سواهم ، قال والذي يؤاجر نفسه في الغزو ، إن ذلك لا يجوز في قول مالك ، واما اهل الديوان فيما بينهم فليست تلك اجارة ، انما تلك جعائل ، لان سد الثغور عليهم ، وبهذا مضى امر الناس »[3]

وقد ذكر الطبري ان ابا جعفر المنصور كتب الى محمد بن خالد والي المدينة بكشف المدينة واعراضها « فامر محمد بن خالد اهل الديوان ان يتجاعلوا لمن يخرج ، فتجاعلوا رباع الفاخري المضحك ، وكان يداين الناس بالف دينار ، فهلكت وتويت »[4]

وبامكان من يضرب عليه البعث الا يذهب الى القتال مع الاحتفاظ بحقه في العطاء وذلك بان يرسل عنه بديلاً من غير اهل العطاء لقاء اجر يدفعه للبديل. وقد ورد ذكر استخدام البدلاء بكثرة في بعض الحروب الداخلية ، فيروي ابو مخنف ان عبدالله بن الزبير لما ثار في الحجاز ارسل الخليفة يزيد عمرو بن سعيد الاشدق الى المدينة ، فجهز عمرو جيشاً ضده « وكان اكثر الجيش بدلاء من العطاء وجلهم يهوون ابن الزبير »[5]

ومن المحتمل ان هؤلاء البدلاء او معظمهم ممن ليس لهم ديوان ، ويسمون الروادف

---

(١) لسان العرب مادة (جعل)

(٢) المدونة ٣ / ٤٤

(٣) المدونة ٣ / ٤٣ – ٤٤

(٤) الطبري ٣ / ١٦٢

(٥) انساب الاشراف ٤ – ٢ / ٣٤

وقد ذكر ابن قتيبة في شرحه البيت التالي :

اذا قربت للسوق خلف بعضها كما خلفت يوم العداد الروادف

« العداد يقول اذا عادهم قوم فجاؤوا للعطاء خلفت الروادف وهم الاتباع الذين يجيئون رادف قوم اي ليس لهم ديوان » [1]

لقد كان العطاء يؤمن لمن يأخذه مورداً يكفي لحياة معاشية طيبة ، الامر الذي كان يدفع الناس الى التشبث بادخالهم فيه ، غير ان بعض الناس كان يرغب عن العطاء اما تعبيراً عن استيائهم من الدولة ، او تحاشياً للالتزامات المفروضة على من يأخذ العطاء ، وقد اشارت المصادر الى عدد ممن رفضوا العطاء او ابوا ان يسجلوا في الديوان ، فيروى ابن سعد بسند عن عروة بن الزبير انه لما قتل عمر محا الزبير بن العوام نفسه من الديوان[2] . ويروى ايضاً ان عبدالله بن مسعود اوصى الزبير وقد كان عثمان حرمه عطاءه سنتين فأتاه الزبير فقال ان عياله احوج اليه من بيت المال فأعطاه عطاؤه عشرين الفاً[3] ويروى كذلك انه « كان لسعيد بن المسيب في بيت المال بضعة وثلاثون الفاً عطاءه فكان يدعى اليها فيأبى ويقول لا حاجة لي فيها حتى يحكم الله بيني وبني مروان »[4]

ولما فرض عبدالواحد النصري العطاء لاهل المدينة على اثر تهديد حمزة الخارجي قال انس بن عياض « كنت فيمن اكتتب ثم محوت اسمي » [5]

ويروي ابن سعد بسند عن ابان بن صالح بن عمير انه دخل على عمر بن عبدالعزيز « فقال له أفي ديوان انت ؟ قال قد كنت اكره ذلك مع غيرك فاما معك فلا ابالي ، ففرض له » [6]

---

(١) ابن قتيبة : المعاني الكبير ١ / ٥٠١

(٢) ابن سعد ٣ ـ ١ / ٧٥ انظر ايضاً تهذيب ابن عساكر ٥ / ٣٦٢

(٣) ابن سعد ٣ ـ ١ / ١١٤ ويذكر ابن سعد رواية اخرى ان المقدار المتجمع من عطاء ابن مسعود كان خمسة عشر الف درهم (٣ ـ ١ / ١١٣

(٤) ابن سعد ٥ / ٩٤

(٥) الطبري ٢ / ١٩٨٣

(٦) ابن سعد ٦/ ٢٣٤

غير ان هذه النماذج لا تمثل موقف كافة المسلمين الذين تروى نصوص مرور كثير منهم بالعطاء واعتمادهم عليه ورغبتهم فيه فيروى « ولاحدهم كان اشد فرحاً بالبلاء من احدكم بالعطاء » (١)

ويروى الطبري ان مسلم بن عقبة هدد اهل الشام في موقعة الحرة وقال لهم « والله ما جزاؤكم عليه الا أن تحرموا العطاء وان تجمروا في اقاصي الثغور » (٢)

ولما ظهر الاستياء على ولاة عثمان جمعهم ثم ردهم على اعمالهم وامرهم بالتضييق على من قبلهم وامرهم بتجمير الناس في البعوث وعزم على تحريم اعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه (٣).

ويبدو ان اكثر الناس تحاشياً من العطاء كانوا التجار وقد ذكرنا من قبل روايات في طلب الخليفة عمر بن عبد العزيز من واليه على المدينة عدم فرض العطاء للتجار ، لان التجارة تستغرق وقت التاجر وتؤمن له مورداً يغنيه عن العطاء ، وذكرنا ان طلب الخليفة هذا لم يكن بدعة جديدة ، بل تأكيداً على ممارسة قديمة دافعها ان العطاء للمقاتلة وان التجار لا تقاتل بل تفضل الاعمال التجارية (٤) . وقد استمر هذا التقليد حتى العصر العباسي ، إذ يروى ان بني سحبل بن محمد بن ابي يحيى « ولد لهم اولاد وكانوا تجاراً ، فلما قدم عبدالصمد ابن علي والياً على المدينة بعث اليهم لولائهم ، فعرض عليهم ما قبله بها فقالوا أصلح الله الامير نحن قوم تجار ولا حاجة لنا بالدخول في عمل السلطان فاعفنا منه فأعفاهم » (٥) .

الرزق :

لقد كانت توزع على اهل المدينة ايضاً مواد غذائية ، تسمى منذ عهد عمر بن الخطاب

---

(١) ابن سعد ٢ ــ ٢ / ١٢ (٢) الطبري ٢ / ٤١٤

(٣) مسكويه تجارب الامم ٤٧٦ (طبعة كايتاني)

(٤) انظر ص ٦٠ ــ ٦١

(٥) ابن سعد ٥ ــ ٣٠٦

الرزق . فيروي ابن سعد « واتخذ عمر دار الرقيق وقال بعضهم الدقيق ، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع به والضيف ينزل بعمر ، ووضع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء الى ماء »[1]

ويروي ايضاً ان « عمر خرج يوماً حتى أتى المنبر ، وقد كان ، اشتكى فنعت له عسل وفي بيت المال عكة »[2] . ويروي البلاذري بسند عن الحسن « ادركت عثمان على ما نقموا منه وما يأتي على الناس يوم الا وهم ينالون فيه خيراً ، ويقال اغدوا على اعطياتكم فيغدون فيأخذونها ويقـال اغدوا على كسوتكم فيأخذونها حتى لربما اعطوا العسل والسمن ، فالاعطيات دارة والعدو مقموع وذات البين صلح »[3] . ويروي الطبري عن الشعبي ان عثمان زاد على الارزاق التي وضعها عمر فوضع طعام رمضان فقال للمتعبد الذي يتخلف في المسجد وابن السبيل والمعترين بالناس في رمضان[4] .

يذكر ابن سعد بسند عن حارثة بن مضرب ان عمر امر بجريب من طعـام فعجن ثم خبز ثم ثرد ، ثم دعا عليه ثلاثين رجلاً فاكلوا منه ، ثم فعـل في العشاء مثل ذلك ثم قال يكفي الرجل جريبان كل شهر ، فرزق الناس جريبين كل شهر المرأة والرجل والمملوك جريبين جريبين في كل شهر »[5] ويوضح هذا النص ان عمر قدر توزيع الحبوب على اساس قابلية الفرد الاستهلاكية منه ، وانه كان يوزعه على الناس بالتساوي .

غير ان المقدار الذي كان يوزع على الناس لم يبق ثابتاً فان عثمان عند ما ولي الخلافة « وسع عليهم في القوت والكسوة »[6]

ويبدو ان مقـدار ما كان يوزع على الناس من الرزق لم يبق ثابتاً ، بل تعرض

---

(1) ابن سعد ٣ / ٢٠٣

(2) ابن سعد ٣ / ١٩٨

(3) انساب الاشراف ٥/ ١٠٠

(4) الطبري ١ / ٢٨٠٤

(5) ابن سعد ٣ ـ ١ / ٢١٩ ـ ٢٠

(6) ابن سعد ٣ ـ ١ / ٢٤٤

لتبدلات غير قليلة يمكن استنتاجها من التبدلات التي حدثت في المكاييل ،فيذكر الجاحظ « والامراء تتحبب الى الرعية بزيادة المكاييل ، ولو كان المذهب في الزيادة في الاوزان كالمذهب في الزيادة في المكاييل ما قصروا ، كما سأل الاحنف عمر بن الخطاب الزيادة في المكاييل ، ولذلك اختلفت اسماء المكاييل كالزيادي والفالج والخالدي حتى صرنا الى هذا الملجم اليوم » [1] ولا بد ان التحبب الذي يشير اليه الجاحظ راجع الى استفادة الرعية من زيادة المكاييل وخاصة في انصبتهم من الرزق الذي توزعه الدولة .

وقد تعرضت المكاييل في الحجاز في العهود الاسلامية الاولى الى تبدلات تشبه ما اشار الجاحظ الى حدوثه في العراق ، وقد اشار الفقهاء والرواة منذ القرن الثاني الهجري الى بعض التبدلات في المكاييل التي لها اهمية اساسية في كثير من الامور الشرعية كتقدير كمية ماء الوضوء وزكاة الفطر ونصاب الزكاة [2] ، فيذكر ابن سعد ان مروان بن الحكم عند توليه المدينة في خلافة معاوية « جمع الصيعان فعاير بينها حتى اخذ أعدلها فأمر ان يكال به فقيل صاع مروان، وليست بصاع مروان انما هي صاع رسول الله ولكن مروان عاير بينها حتى قام الكيل على أعدلها » [3]

وروى الشافعي ان معاوية لما قدم الى المدينة وهو خليفة قرر ان يعدل المكاييل فقال « .. اني ارى مدين من سمراء الشام تعدل صاعاً من تمر فاخذ الناس بذلك » [4] .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٠٦

(٢) انظر في ذلك مقال « اختلاف العراقيين والمدنيين في تقدير الصاع النبوي » للدكتور عبدالحسن الحسيني . المنشور في مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية مجلد ١٦ سنة ١٩٦٢ ص ١٢٩ – ١٨٣ ، وانظر في اختلاف المكاييل الاسلامية : Hinz . Islamischen wegen

ويذكر المقدسي « ان الصاع الذي قدره عمر بمشهد الصحابة وكان يكفر به ايمانه فهو ثمانية ارطال الا ان سعيد بن العاص رده الى خمسة وثلث ، الا ترى الى قول الراجز :

يأويلنا قد ذهب الوليد وجاءنا مجوعاً سعيد ينقص في الصاع ولا يزيد »

(احسن التقاسيم ٩٨ وقد ذكر هذا الرجز ايضاً في البيان والتبيين ٢٠٦) ومع ان هذا التبدل حدث في الكوفة ، الا انه يحتمل حدوثه في الحجاز ايضاً .وانظر ايضاً الاموال ١٥٦٦ – ١٦١١

(٣) ابن سعد ٥ / ٣٠ (٤) مسند الشافعي ١ / ٢٥٢

وواضح من نص ابن سعد ان المكاييل اصبحت متباينة في الحجاز في زمن معاوية لدرجة اضطر معها واليه على المدينة مروان ان يعاير بينها ويأخذ اعدلها .

وفي خلافة عبد الملك بن مروان اعيد النظر في المكاييل واستقر الرأي على مد هشام « وكان هشام بن اسماعيل من وجوه قريش ، ولاه عبدالملك بن مروان المدينة وكان مسوداً في ولايته .. ووقت اهل المدينة بصاع هشام ، يعنون هشام بن اسماعيل »[1] ، « ومدّ هشام مد وثلث بمد النبي أو مد ونصف[2] » .

والراجح أن تبديل المكاييل كان له تأثير في مقدار الرزق المخصص للأفراد ، غير ان المصادر لم توضح لنا العلاقة بين هذه التبديلات والارزاق .

ان النص الذي نقلناه عن ابن سعد (٣ ـ ٢١٩/١ ـ ٢٠) يبين ان عمر وزع الارزاق بالتساوي ، غير ان الواقدي يروي عن أفلح بن حميد انه « فضل عمر بن الخطاب بين الناس في طعام الجار »[3]. فاذا صح ان التفاضل تم منذ زمن عمر ، فلا بد انه حدثت بعده تفاضلات اخرى أثارت استياء الناس فلما جاء عمر بن العزيز قرر التسوية في الرزق الذي يفرضه للناس . فيروي الواقدي عن محمد بن هلال : « سوى عمر بن عبد العزيز بين الناس في طعام الجار ، وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة أرادب ونصف لكل انسان » ويروي عن افلح بن حميد : « انما سوى عمر بن عبدالعزيز بين من فرض له في طعام الجار ، واما من كان له شيء قبل ذلك فانه كان يأخذه » ويروى بسند عن ابراهيم بن يحيى « كان لي في طعام الجار عشرون اردباً ، فلما استخلف عمر اقرت وسوّى بين من فرض له من أهل بيتي »[4] .

غير اننا لا نعلم مراحل وأسباب ونتائج وآثار التطورات التي حدثت على الارزاق من زمن عمر ابن الخطاب الى عهد عمر بن عبدالعزيز ، كما لا نعلم مقدار الرزق الذي قرره عمر بن عبدالعزيز .

لقد كان الرزق يسمى طعام الجار[5] . وترجع هذه التسمية الى ان الحبوب التي كانت

---

(١) مصعب الزبيري : نسب قريش ٣٢٨

(٢) الام ٢ / ١٥٩ ، ويذكر ابن سعد ان صاع النبي مد ونصف بمد هشام (٨ / ٣٦١)

(٣) ابن سعد ٥/٢٥٥ (٤) ابن سعد ٥/٢٥٥ ـ ٦

(٥) ابن سعد ٥/٢٥٥ اغاني ١٣/١٠٤

ترد من مصر تخزن في ميناء الجار قبل توزيعها على اهل المدينة ، ويذكر ابن سعد ان عمر «هو أول من حمل الطعام من مصر في البحر حتى ورد الجار ثم حمل من الجار الى المدينة»[1].

ويقدم اليعقوبي معلومات أوسع تفصيلا حيث يقول« وكتب عمر الى عمرو بن العاص ان يحمل طعاماً في البحر الى المدينة يكفي عامة المسلمين حتى يصير به الى ساحل الجار فحمل طعاماً الى القلزم ثم حمله في البحر في عشرين مركباً ، في المركب ثلاثة آلاف أردب وأقل واكثر حتى وافى الجار ، وبلغ عمر قدومها فخرج ومعه اصحاب رسول الله حتى قدم الجار فنظر السفن ، ثم وكل من قبض ذلك الطعام هنالك ، وبنى قصرين جعل ذلك الطعام فيها ، ثم أمر زيد بن ثابت ان يكتب الناس على منازلهم وامره ان يكتب لهم صكاكاً من قراطيس ثم يختم اسافلها فكان أول من صك وختم اسفل الصكاك »[2].

يتبين من هذا النص :

١ ـ ان المدينة اعتمدت بالدرجة الاولى على منتوجات مصر في الحصول على الرزق .

٢ ـ ان أول شحنة ارسلت من مصر كان مقدارها حوالي ٢٠ × ٣٠٠٠ = ٦٠ الف اردب تقريباً .

٣ ـ ان هذه الشحنة كانت لسد حاجة عامة المسلمين ، واذا افترضنا ان عمر كان يعطي كل فرد اربعة ارادب ، فان عدد من يأخذ الرزق من أهل المدينة كان يبلغ خمسة عشر الفاً .

٤ ـ ان المقر العام لتوزيع الرزق هو الجار حيث بنى قصرين جعل ذلك الطعام فيهما .

٥ ـ ان الرزق كان يعطى بموجب صكاك من قراطيس مختوم اسفلها .

وبما أن كثيراً من اهل المدينة كانوا زراعاً فانهم كانوا يتموّنون من منتوجات مزارعهم ولا يحتاجون الى طعام الرزق للاستهلاك ، لذلك كانوا يبيعون الصكوك المخصصة لهم ، وبذلك كثرت المتاجرة في هذه الصكوك واثارت كثيراً من المناقشات عند الفقهاء ، فيروي مالك عن نافع ان حكيم بن حزام ابتاع طعام امر به عمر بن الخطاب للناس فباع حكيم الطعام قبل ان يستوفيه فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فرده عليه وقال « لاتبع طعاماً ابتعته حتى تستوفيه »[3] ويروى

(١) ابن سعد ٣ ـ ١ / ٢٠٣ (٢) التاريخ ٢ / ١٧٧
(٣) الموطأ ٢ / ٦٣

انه بلغه أن صكوكاً خرجت للناس في زمان مروان بن الحكم من طعام الجار فتبايع الناس تلك الصكوك بينهم قبل ان يستوفوها ، فدخل زيد بن ثابت ورجل من اصحاب النبي (ص) على مروان بن الحكم فقال أتحلّ بيع الربا يا مروان ؟ فقال اعوذ بالله : وما ذلك ؟ فقالا هذه الصكوك تبايعها الناس ثم باعوها قبل ان يستوفوها ، فبعث مروان بن الحكم الحرس يتبعونها ينزعونها من أيدي الناس ويردونها الى اهلها [١]. ويروي ابن حنبل بسند عن سليمان بن يسار ان « صكاك التجار خرجت فاستاذن التجار مروان في بيعها ، فأذن لهم ، فدخل أبو هريرة عليه فقال أذنت في بيع الربا وقد نهى رسول الله (ص) ان يشترى الطعام ثم يباع حتى يستوفى قال سليمان فرأيت مروان بعث الحرس فجعلوا ينتزعون الصكاك من ايدي من لايخرج منهم »[٢]. ويلاحظ ان نص ابن حنبل لايناقض نص مالك ، ولكنه يضيف عليه ما يلي :

١ — صكاك التجار ، ونحن نرجح انها صكاك الجار فهي اقرب الى المعنى المعقول .

٢ — ان الذي دخل على مروان هو أبو هريرة ، بينما يذكر مالك ان الذي دخل على مروان هو زيد بن ثابت ورجل آخر من اصحاب رسول الله (ص) ، ولعله يمكن التوفيق بين النصين بالقول ان هذا الرجل الثاني هو أبو هريرة .

وقد ذكر ابن منظور ما يؤيد ذلك اذ قال « وكانت الارزاق تسمى صكاكاً لأنها كانت تخرج مكتوبة ، ومنه الحديث في النهي عن شراء الصكاك والقطوط وفي حديث أبي هريرة قال لمروان احللت بيع الصكاك ، هي جمع صك وهو الكتاب ، وذلك ان الامراء كانوا يكتبون للناس بأرزاقهم واعطياتهم كتباً فيبيعون ما فيها قبل ان يقبضوها معجلاً ويعطون المشتري الصك ليمضي ويقبضه »[٣].

ويروي مالك عن يحيى بن سعيد انه « سمع جميل بن عبدالرحمن المؤذن يقول لسعيد بن المسيب اني رجل ابتاع من الارزاق التي تعطى الناس بالجار ما شاء الله ثم اريد ان ابيع الطعام

---

(١) الموطأ ٢/٦٣ انظر ايضا المدونة ١٢/٤٩ .

(٢) ابن حنبل ٢/٣٢٩ (٣) لسان العرب ١٢/٣٤٤

المضمون عليّ الى اجل فقال له سعيد اتريد ان توفيهم من تلك الارزاق التي ابتعت ، فقال نعم ، فنهاه عن ذلك»[1] ويروي يحيى عن مالك عن محمد بن عبدالله بن ابي مريم انه «سأل سعيد بن المسيب فقال اني رجل ابتاع الطعام يكون من الصكوك بالجار فربما ابتعت منه بدينار ونصف درهم فاعطى بالنصف طعاماً فقال سعيد لا ولكن اعط انت درهما وخذ بقيته طعاماً »[2]

وذكر مالك عن سالم في بيع صكوك الجار بدينار الا درهما ، يعجل الدينار ويأخذ الدرهم والصك مؤخراً يأخذ الدينار مع الدرهم ، قلت لأبن القاسم لم كرهته ، قال يدخل لانه يدخل الفضة بالذهب الى اجل [3] . قد يفهم من هذا النص ان ثمن الصك كان ديناراً ، وانه يباع بربح درهم اي بعشرة في المائة .

ويبدو ان طعام الجار استمر توزيعه الى العصر العباسي الاول ، فيروي الاصفهاني ان ابن المولى مدح المهدي « فامر له بعشرة آلاف درهم وكسوة ، وامر صاحب الجاري بان يجرى له ولعياله في كل سنة ما يكفيهم والحقهم بشرف العطاء » [4] غير اننا لا نعلم متى توقف لانني لم اجد اشارة له بعد عهد المهدي .

الكسوة :

لقد كانت توزع الكسوة ايضاً على اهل المدينة ، فيروى ان عمر بن الخطاب قسم بروداً في المهاجرين [5] .ويروي محمد بن سلام الجمحي « جاءت عمر حلل من اليمن فاعطى اصحاب رسول الله(ص) وابو ايوب الانصاري غائب فرفع لنفسه حلة واخذ لنفسه حلة »[6] .

والراجح ان اغلب هذه الالبسة كان مما يجبيه عمر من اليمن حيث كان الشرط في

---

(١) الموطأ ٢/٦٣
(٢) الموطأ ٢/٦٢
(٣) المدونة ٨/١١٤
(٤) الأغاني ٣/٢٩٩
(٥) الأغاني ١٦/١٥٣
(٦) تهذيب ابن عساكر ٥ / ٤٠

الكتب التي وجهت اليهم والمعاهدات التي عقدت معهم ان يقدموا البسة ومنسوجات لانها كانت اخف عليهم .

وقد استمر توزيع الالبسة في زمن عثمان ايضاً اذ يروى هدبة بن خالد البصري عن المبارك بن فضالة عن الحسن انه قال « ادركت عثمان وعلي ما نقموا منه وما يأتي على الناس يوم الا وهم ينالون فيه خيراً ويقال اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها ويقال اغدوا على كسوتكم فيأخذونها [1] » ويقول ابن سعد : « وامر عمر فكتب له عيال أهل الموالي فكان يجري عليهم القوت ثم كان عثمان فوسع عليهم في القوت والكسوة [2] » .

اما في العصر الاموي فليست لدينا اشارة الى توزيع الالبسة .

اما في العصر العباسي فلدينا ذكر عن توزيع الالبسة اذ يذكر مصعب الزبيري ، كان عبدالله بن مصعب بن ثابت في صحابة المهدي في المدينة وجلس للناس يعطيهم الاموال يعطي الرجل من قريش ثلاثمائة دينار ويكسوه سبعة أثواب [3] .

ويروي ايضاً عن ابي بكر بن عبدالله بن مصعب انه « وكان امير المؤمنين الرشيد به معجباً واليه مفوضا وكان عنده وجيها اثيراً وأخرج لاهل المدينة على يديه نصف عطاء وكسوة وقسما في سنة ١٨١هـ واخرج على يديه ثلاثة اعطية وكسوة فاخرة في سنة ١٨٦هـ .. واخرج على يديه في سنة ١٨٨ هـ نصف عطاء وكسوة وقسما » [4] . ويروي الاصبهاني عن عمر بن شبة عن عفان بن مسلم عن حماد بن سلمه عن حميد عن سلمان بن عتبة انه « بعث عمر بن عبيدالله بن معمر الى عمر والقاسم بن محمد بالف دينار فاتيت عبدالله بن عمرو وهو يغتسل في مستحم

---

(١) انساب الاشراف ٥/١٠٠
(٢) ابن سعد ٣ . ١ / ٢١٤
(٣) نسب قريش ٢٤٢
(٤) نسب قريش ٢٤٢

له فأخرج يده فصببتها في يده ، فقال وصلت رحما وقد جاءتنا على حاجة ، وأتيت القاسم فأبى ان يقبلها ، فقالت لي امرأته ان كان القاسم ابن عمه فانا ولابنة عمه فاعطيتها ، قال فكان عمر يبعث بهذه الثياب العمرية يقسمها بين أهل المدينة ، فقال ابن عمر جزى الله من اقتنى هذه الثياب بالمدينة خيراً ، قال وقال لي عمر لقد بلغني عن صاحبك شيء كرهته ، قلت وما ذاك ، قال يعطي المهاجرين الفاً ألفاً ويعطي الانصار سبعمائة ، فأخبرته فسوّى بينهم [1] ».

صالح احمد العلي

---

(١) اغاني ١٤ / ١٠٢

تاريخ العلم عند العرب

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الثالث والثلاثون - الجزء الرابع

1403 - 1982

تاريخ العلم عند العرب

الدكتور صالح أحمد العلي
رئيس المجمع

(١) النطاق والأصول

من أبرز الأسس التي نستند اليها في بناء مستقبلنا هو الأخذ بالعلم مع الاحتفاظ بالمقومات السليمة التي أتاحت لنا في الماضي الحياة الرفيعة والبقاء والازدهار والنماء ، واكسبتنا خصائصنا القومية المتميزة .

وقد اقتضت التطورات العظيمة التي حدثت في تقدم العلوم والتقنية في الغرب أن نعتمد في دراسة العلوم والتقنية على ما تم في الغرب ، وتبع هذا إعجاب عام بالمنجزات التي حققها الغرب في هذا الميدان ، وتصوّر البعض أن العلم مقترن بالغرب وحده . ولعل مما أتاح لهذه التصورات مجال الانتشار ، هو أن العلم يختلف عن الآداب من حيث أن معرفته تتطلب دراسة دقيقة ومنظمة ، لأن كل خطوة فيه تبنى على أخرى سابقة لها ؛ ثم إن التعابير المستعملة في الكتب العلمية فنية دقيقة يتطلب تفهمها ممارسة ومراناً خاصاً ، وكتب العلم العربية لم تنشر وتدرس الا قليلا لاستعمالها مفردات خاصة ، ولأنها تعبر عن المعارف في العصر الذي كتبت فيه .

تعريف العلم ونطاقه :

ان كلمة العلم غير واضحة الحدود ، فهي قد تشمل المعرفة إطلاقاً ، وقد تحدّد بالمعرفة المنظمة أو المعرفة التي يعتمد توثيق حقائقها على أساليب

خاصة في البحث ، وهي في كل تعريف من هـــذه التعريفات قـــد تشمل مختلف فروع المعرفة ، بما في ذلك ما يتعلق بالطبيعة وما يتصل بها أو يتوقف عليها ، أو بما يتعلق بالسلوك وما يتصل به ، أو الذوق والفن وما يتميز به ، وهذا الغموض في التحديد كان ظاهراً في دراسات العرب الأقدمين ،كما أنه يظهر الآن في استعمالاتنا المعاصرة حيث نلاحظ أن العلم يطلق على الحقائق المنطوية على ما يتصل بمواد الطبيعة وتفاعلها من كيميـــاء وفيزياء وعلم طبقات الأرض والنبات والحيوان والرياضيات والهندسة ، كما ينطبق كذلك على الأدب والجمال .

والمعرفة تبدأ بملاحظات مدركة وتعليلات متصورة واستنباطات مقدّرة ونقطة الابتداء فيها هي استعمال الفرد حواسه للمشاهدة ، وعقله للادراك والتعبير ، فهي تعتمد على خبرات الفرد المستمدة من محيطه ، أي أنها تعكس محيطه المادي وترفعه الى القدر الذي يبلغه خياله وفكره من مستويات تتباين تبعا لسعة الخيال وعمق التفكير .

غير أن قليلاً من الأفراد يعيش منفرداً معزولاً ، أما الغالبية العظمى فتعيش في مجتمعات يختلف حجمها ومدى استقرارها وخبرات أفرادها ، وكلها تؤثر في تنمية وتوجيه خبرات الفرد ومعرفته ، وهذا التأثير يبدأ منذ المراحل الأولى من عمر الفرد فيما نسميه التربية البيتية والأولية ، ثم يتطور توجهها بعد البلوغ خاصـــة .

تشـــمل الحركة الفكرية في مراحلها الاولى جوانب من المعرفـــة متعددة ومتداخلة وممتدة على ميادين واسعة بصورة سطحية ، وبتزايد مادة المعرفة وتوسعها تتوضح معالم الاختصاص فيها ، ويوضع لكل ميدانِ اختصاصٍ إسمٌ يعبر عن السمة العامة لمادة ذلك العلم الذي قد يؤدي توسعه الى إفراز علوم أخرى منه تبعاً لمدى سعته والمعلومات المتوفرة عنه ودقتها ، وبذلك تتزايد أسماء العلوم ،

وبرافق ذلك ظهور علماء في كل موضوع وتبرز كتب ، وقد يرافق ذلك محاولات لتعريف كل علم وتحديد نطاقه ، وكذلك أحكام في مزايا كل علم وفضائل دراسته أو عيوبه أو العلاقات بين مختلف العلوم .

إن العلم باعتباره معرفةً متداخلٌ وقابل للتوسع ، وكل حقيقة تتصل بحقائق أخرى وبدرجات مختلفة ، فالكيمياء مثلا تبحث في طبيعة المواد وتبدلاتها ، ولكنها تتصل بالفيزياء والرياضيات وبعدد من حقائق علـوم أخرى كالحيوان والنبات وعام طبقات الارض ، وهذا ينطبق على العلوم كافة .

ميادين تاريخ العلم ومتطلبات دراستها :

إن تاريخ العلم ، كالتواريخ الأخـرى ، يدرس تطور العلم في الماضي وما مرّ به من أحوال وتبدلات باعتباره عملية عقليته من إنتاج الفكر البشري على الرغم من صلته الوثيقة بالطبيعة . والواقع ان المـادة التي يعتمد عليها مستمدة مما دُوِّن في الماضي ، غير أن تنظيم نطاقه حديث يرجع الى اواخر القرن التاسع عشر ، وقد شارك عدد كبير من الباحثين والمفكرين في توضيح معالمه وتحديد نطاقه الى أن أصبح يشمل :

١ـ دراسة حياة العلماء ، وخاصة الكبار البارزين منهم وما قدّمه كل منهم الى العلم .

٢ ـ دراسة الأفكار والمعلومات العلمية المدونة من حيث المقدار والنوع ، سواء كانت فكرة واحدة ، أو علماً محدّداً واحداً أو علوماً عدة .

٣ ـ تتبع تطور التفكير العلمي او الاساليب التي استنبطت منها الحقائق والأشكال التي نظمت فيها ، والقواعد التي استخلصت منها ، وبعبارة اخرى تطور الطريقة العلمية التي هي جزء أساسي في كيان العلم وتقدير حقائقه . إذ من المعلوم أن العلم النظري نشأ في أحضان التفكير العام ، ومرّ بكثير من الخلط والتحيزات والتشويشات الى أن استقرت الحقائق وتوضح

التحليل الدقيق القائم على ما نسميه الطريقة العلمية ، فأسلوب التفكير وطريقة اكتشاف الحقائق لها في دراسة العام أهمية لا تقل عن الحقائق.

٤ ــ التطبيقات العملية في الحياة والتقنية .

٥ ــ اثار العلم في المجتمع وتنظيمه واساليب حياته المادية، وعلاقات افراده .

والمعتمد الأساس في دراسة تأريخ العلوم ، باعتباره عمليةً عقلية بشرية ، هو الوثائق المكتوبة التي تدون تلك العملية . ودراسة هذه الوثائق من حيث التثبت من صحتها وضبط نصوص معلوماتها ، هو من صميم عمل المؤرخ ، والتدريب عليها لا يختلف عن التدريب على دراسة الوثائق التاريخية الأخرى. مع ملاحظة أن المفردات اللغوية التي يكثر استعمالها هي المفردات الخاصة بذلك العلم .

ومن الأمور الاساسية في دراسة تاريخ العلوم، فهم المعلومات المدونة في الوثائق المكتوبة وفي الكتب ، ثم تقويمها وتقدير أهميتها في مسيرة تطور ذلك العلم ، وهذا يتطلب في الأقل معرفة عامة في حقائق العام الذي يُدْرَس ، وفي جملته التعابير التي يستعملها والحقائق التي يعرضها ، وتقدير سليم لأهمية هذه الحقائق في توضيح العلم وتأثيرها في مسيرته وتقدمه ، وهذا التقدير بدوره يتطلب فهماً سليماً واسعاً لتطور ذلك العلم أي أنه يتطلب ، بجانب الاختصاص عقلية تاريخية تصوغ احكامها تبعاً للأهمية التاريخية للحقائق ، أي أن يضع الباحث نصب عينيه احوال الماضي ولا يصدر احكامه مقتصراً على التطورات المعاصرة ، وهي بذلك تتطلب معرفة شاملة بالتطورات التاريخية لذلك العلم .

والقسم الأساسي الثالث في دراسة تاريخ العلوم هو تقدير مكانتها في المجتمع ودورها في إنمائه وازدهاره ، أو في جموده وركوده ، إن هذا يتطلب فهماً لأحوال المجتمع ، وتقديراً للعوامل الفاعلة في نموه وازدهاره ، فهو لا يقتصر على مجرد معرفة الحقائق وانما يعتمد أيضاً على نظرة الى المجتمع شاملة وصائبة

أي على فلسفة سليمة تضع الجزئيات ضمن الصورة الشاملة للمجتمع في مسيرته ، وكل هذا يستلزم معرفة التطبيقات العملية للعلم ، أي التقنية وتطورها ودورها في المجتمع ، وحقائق العلم المكتشفة وأساليب البحث العلمي والمثل الأخلاقية التي يحض عليها العلم .

إن تيسير البحث وتنظيمه وتوضيحه ، يتطلب تحديد موضع كل علم في الصورة العامة للفكر وعلاقته بالعلوم الاخرى ، ومن هذا نشأت الحاجة إلى تصنيف العلوم عند دراستها ، وهذا عمل عقلي من إنتاج الإنسان يعتمد على على مدى سَعَة المعرفة بالعلوم والاهتمام بها ، وعلى الجانب الذي ينظر اليه منها ، وعلى رأي المصنفين ، فقد يكون مقصوراً على تصنيفات رئيسية محدودة كتصنيفها العلوم صنفين هما علم الاديان ، وعلم الابدان ، او العلوم القديمة والمحدثة ، او العلوم العقلية والنقلية ، أو علوم الدين والطبيعة ، وقد يتسع التصنيف فيشمل أصنافا جزئية دقيقة في شتى المعارف . والتصنيف مظهر للعناية بالاختصاص وهو يقوم على نظرة الى العلوم شاملة وادراك للعلاقات بينها .

وكثير من حقائق العلم مطبقة في الحياة العملية ، ومستعملة في تيسير المعيشة والحضارة وفي جملة ذلك ميادين الصناعة والزراعة والبناء وغيرها . . وكثيراً ما يمارس الناس هذا التطبيق بكثرة ونجاح من غير إدراك للجانب النظري من العلم ، وهذه الصلة بين الحقائق وتطبيقاتها ذات أهمية أساسية في دراسة العلم وتقدير دوره في الحياة .

غير أنه مهما كانت سعة الصلات بين العلم والطبيعة ومهما كان امتداد التطبيق فإن الدراسات العلمية تظل عملية عقلية تتوقف على الجهد الفكري الذي يبذله العالم الباحث الذي تتوقف مكانته على مدى سعة ملاحظاته المدونة وعمقها .

المدونات المكتوبة اساس دراسة تاريخ العلم

تعتمد دراسة حقائق العلم وأفكاره ونظرياته اول ما تعتمد على المدونات المكتوبة ، فان لم تعتمد هذه المدونات يكن الكلام فيها حدساً وتخميناً معرضاً للزلل ، ومن المعلوم أن الكتابات الرئيسية القديمة ، واعني المسمارية والهيروغليفية والفينيقية والحميرية قد ظهرت منذ أزمنة قديمة في أقاليم الوطن العربي ، وظل استعمالها مقصوراً على هذه البلاد عصوراً قبل أن يمتد انتشارها الى أقاليم أوربا الغربية (اليونان وايطاليا)

تظهر الرُقُم الطينية الكثيرة التي كانت الوسيلة الكبرى لتدوين المعارف والتي اكتشفت حديثاً ، مدى تعدد جوانب المعرفة التي كانت في العراق القديم ، اذ كانت تشمل الآداب والعقائد والمعاملات التجارية ، والقوانين والحسابات ، وكذلك العلوم وفي جملة ذلك الرياضيات والطب ومفرداتها ، وقد ضمت المكتبة الملحقة بقصر الملك الآشوري آشور بانيبال معظم هذه الرُقُم ، جمع بعضها من مختلف المدن العراقية ، وكتب بعضها في عهد الملك المذكور وقد درست محتويات بعض رقم هذه المكتبة والرقم المكتشفة في أماكن أخرى ، ونشر عدد من هذه الدراسات في كتب ،أظهرت بالرغم من كونها غير مستوعبة ، مدى سعة معارف أهل العراق القدماء ، واهتمامهم بالعلم . ونشير من هذه الدراسات الى معجمي كامبل تومسن في النبات ، وفي الكيمياء الآشورية ، وأبحاث نيوجيباور في الرياضيات .

وظلت الرقم الأداة الرئيسة للتدوين في العراق حتى سنة ٣٠٠ ق . م حيث اكتشف آخر رقيم ، ثم انقطع استعمالها ، ولم يحل محلّها ما له صفة الدوام حتى انتشار استعمال الكتابة .

وتوفرت في مصر أيضاً وسائل تدوين سَجّلت معارف المصريين ، وكان المكتشف فيها موضوع دراسات واسعة وقَيِّمة ، وهي تظهر مدى التقدم في

عدد من المعارف ومنها ما يتعلق بالدين والأدب ، والطب والرياضيـات . وما يزال الخلاف قائماً في أيهما سبق في ممارسة النشاط العلمي : العراق أم مصر ، ومن المؤكد أن النشاط في كل من الاقليمين قد بدأ في زمن مبكر جداً ، وأنه توفرت منه وثائق غير قليلة ، دُرِسَ الأقل منها ، وبقي الأكثر ينتظر الدراسة ، ويكشف ما فيها . ويظهر ما تمت دراسته اهتماماً بعدة ميادين علمية ، وتقدماً ملحوظاً في معرفة حقائقها وتفسيرها . والراجح أن هذا الازدهار نما في كل من الإقليمين نمواً مستقلاً وأن تبادل التأثير بينهما كان محدوداً في العهود الأولى خاصة .

وقد استمر إستعمال أوراق البردي في التدوين بمصر ، وامتد إستخدامه إلى عدد من الأقاليم المجاورة ، وظل مستعملاً حتى القرن الخامس الهجري ، أي بعد انتشار الورق . وقد أتاح هذا الاستمرار مجال تيسير تدوين المعارف بمصر ، وكان بعض ما دُوِّن باللغة المصرية القديمة .

أما المخلفات المكتوبة التي وصلت الينا من أقاليم شبه جزيرة العرب فهي قليلة جداً وغير منتظمة التوزيع ، وأكثرها إن لم يكن كلها ، مما كتب على الحجارة ، وهي مقتضبة ، وكثير منها مبتورة ، ومواضيعها محدودة اغلبها شواهد قبور أو تخليد هدايا قدمها أفراد الى المعابد ، أو أعمال الملوك ، فهي لا تقدم معلومات وافية عن الأفكار العلمية التي كانت متداولة عند الناس ولا تكفي وحدها لمعرفة مستوى الحياة الفكرية وتطورها في شبه جزيرة العرب قبل الاسلام .

التقنيات ادلة على تقدم العلم :

تظهر المخلفات الآثارية التي وصلت إلينا عن العراق ومصر وبلاد الشام واليمن ، التقدم الكبير الذي حدث في الزراعة والصناعة والعمران ، وهي مظهر للتقدم التقني الذي تم خلال عصور طويلة يصعب رسم خطوط مسيرته بدقة ، أو معرفة الاشخاص الذين عملوا في تقدمه ، او مدى انتشاره .

ولا بد أن مناطق شبه جزيرة العرب التي تشير المصادر الى انه تتوفر فيها المعادن أو الميـــاه أو كانت مراكز للصناعة والتجارة وهي غير قليلة ، كانت التقنية فيها متقدمة أيضاً ، غير أن المكتشفات الآثارية القليلة في هذه المناطق ، فضلاً عن قلة المعلومات المتعلقة بتاريخ تطورها تجعل من الصعب رسم صورة دقيقة للجوانب العمرانية التي دخلتها التقنية ، أو مدى تقدم تلك التقنية .

ان التقنية هي تطبيق لمبادئ العلم وهي دليل على صحة حقائق العلم ، غير أنها تقتصر على الجانب التطبيقي ، وتتطلب من ممارسيه إتقانه ، ومـــن الطبيعي أن هذا الإتقان في العمل لا يستلزم معرفة النظريات والأفكار التي يقوم عليها التطبيق ، وفي نفس الوقت ان الانغمار في التطبيق لا يمنع من التفكير في القواعد والأفكار التي يقوم عليها هذا التطبيق ، ولما كانت دراستنا للعلم منحصرة في الافكار والآراء والمعلومات المتصلة بالعلم ، فاننا نكتفي بالاشارة الى التقنية واحتمال أثرها في بحث النظريات والأفكار العلمية .

لا ريب في أن قصر الاعتماد في دراسة تاريخ العلم على المدونات المكتوبة ، وعلى ما يمكن استنباطه من الأعمال والمنشآت التي يتطلب انجازها التقنية ، لا يكفي لتقديم صورة كاملة عن النشاط العلمي وتقدم العلوم في الأزمنة القديمة ؛ حيث ان كثيراً من المعرفة العلمية ، بما في ذلك حقائقها واستدلالاتها وعناية الناس بها وتداولهم لها ، كانت تنقل شفاهاً وعن طريق السماع ، وكان معظمها يُنسى بموت اصحابها ، ولا يتيسر للباحثين المحدثين معرفتها . فعدم توفر المدونات المكتوبة عن العلم لا يكفي للجزم بعدم تقدمه في اي مجتمع ، فاذا وجدت ادلة غير مباشرة على وجود العلم في المجتمع ، فان الباحث الحديث مضطر الى الاشارة الى ما تدله الادلة على ذلك ، إذ أن اغفال الاشارة اليه قـــد يؤدي الى الحكم بالجهل على المجتمعات التي لم تخلف مدونات .

اهمية الكتب وحدودها :

ان الكتب هي اوج مظاهر التدوين ، والمعتمدالأساس في دراسة تاريخ العلوم ، وذلك لان الكتاب يتميز بانه يستوعب مادة كبيرة نسبياً من المعلومات والآراء ، لا تتوفر في المدونات الأخرى . غير ان كثرة الكتب وبقاءها لا يتوقف على كثرة العلماء وتعدد الراغبين في التدوين والقادرين عليه فحسب، وانما يعتمد أيضاً على توفر وسائل للتدوين تكون في متناول العلماءويمكن حفظها .

كانت ادوات التدوين الرئيسة المتوفرة في القديم هي الحجارة والطين ، والقماش والخشب ، والجلود واوراق البردي ؛ وكلها غالية الثمن ، صعبة المنال والحفظ ، مما ادى الى قلة عدد الكتب وإلى اعتماد تأليفها على اصحاب السلطة وذوي الثروة .

غير ان هذا تبدل عندما انتشر استعمال الورق بفضل العرب منذ اواسط المائة الثانية للهجرة ؛ فقد وفّر الورق للكتابة مادة رخيصةالثمن ، يسيرة المتناول ، سهلة الحفظ ، وأدى ذلك الى تزايد عدد الكتب وتضخم حجمها ، والى انتشارها وبقاء كثير منها .

غير أن الميزات التي لا تنكر للكتب ينبغي الا تنسينا الثغرات التي فيها ، والأخطار التي تنجم عن قصر الاعتماد عليها في دراسة تاريخ العلم وتطوره، ونذكر منها :

١ـ ان الكتب تسجل بعض النشاط العلمي ولا تستوعب كل المعرفة العلمية ، وهي تغفل مقداراً غير قليل من الحقائق المعروفة والمتداولة بين الناس والتي قد تدرس وتنقل شفاهاً .

٢ـ انها لا تسجل اسماء جميع العلماء الذين شاركوا في نشر العلم وتقدمه لانها قلّ ما تصف الطرق التي كشفت وثبتت فيها الحقائق .

٣ــ انها لا تصف الحماس والنشاط في البحث .

٤ــ إن الكتب قد تثبت أحكاماً متأثرة برأي المؤلف أو بما هو سائد في عصره ، على الأوضاع السائدة في القديم ، وبذلك تشوه الصورة الحقيقية لواقع الاحوال السائدة في زمن معين ، وتغفل تطور هذه الأوضاع ، كما انها قد تبالغ في رفع مكانة افراد ، وتنقص من مكانة آخرين ، لأنها تحكم على الافراد بمقاييسها الخاصة .

٥ــ ان الكتب تبرز أفكاراً معينة تنسجم مع أفكار المؤلف ومعاييره ، وتغفل أفكاراً قد تكون أهم وأروع في أثرها من عصرها ، وفي دقتها وجِدّتها وأهميتها في الكشف عن الحقيقة .

هذه الحقائق يجب أن توضع نصب أعين الباحثين في تاريخ العـــلم الذي يجب ان يكون من اهدافهم فيه إبراز مدى انتشار الحقائق العلمية في كل مجتمع ، ومدى الحماس في دراسة العـــلم ، ومدى الدقة والأمانة العلمية في الكشف عن الحقائق ، أي الخُلُق العلمي ، ومدى صحة هذه الحقائق واثرها في تزايد المعرفة ، أي الأصالة في المعرفة ، بالاضافة الى قيمتها تبعاً لمعايير وحقائق المعرفة الحالية .

(٢) إسهام أهل الجزيرة في نمو العلم عند العرب

لما كان الغرض من بحثنا دراسة احوال العلم وتطوره ابان العهود الأولى التي كانت للعرب السلطة العليا في دولتهم ، وكانت العربية هي اللغة العالمية الوحيدة للعلم ؛ لذلك يجدر ان نبدأ بالبحث اسهام العرب في بناء الصرح العامي .

جزيرة العرب قبل الاسلام :

ان شبه جزيرة العرب ارض واسعة ، مناخها صحراوي قليل الأمطار ، غير انها مُنَوّعة في طبيعة اراضيها ، وثرواتها ، ونشاطات أهلها ؛ ففيها سلاسل جبلية طويلة ، وهضاب واسعة ، ووديان كثيرة بعضها طويلة ، وفيها أيضاً مناطق مستوية تغطى بعضها كثبان الرمال ، الا ان فيها مساحات واسعة أرضها صلبة . وتتوفر في بعض مناطقها مياه باطنية تمدّ الآبار والينابيع بما يكفي لزراعة النخيل والحبوب والخضر وبعض أشجار الفاكهة ؛ وفيها أيضاً مناجم غنية ببعض المعادن ، وخاصة الذهب والفضة . وهذه الأمور كانت من عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية والعمرانية في عدد من مناطقها ، وخاصة في أطرافها الساحلية حيث ظهر منذ أقدم الأزمنة عدد من المدن التي كانت مركز نشاط تجاري ، وفيها عدد من الموانئ لصنع السفن ورسوها .

ظلت شبه جزيرة العرب بمنأى عن أي حكم أجنبي مباشر ، فلم تحكمها أو تسيطر عليها دولة اجنبية تفرض عليها نظمها وحضارتها ؛ ولم تتعرض الا الى قليل جداً من الغزوات الأجنبية لم تتعد اطرافها ولم تفلح في ترسيخ حكمها مدة طويلة . ثم إن الأحوال الجغرافية لجزيرة العرب لم تكن تشجع الهجرات اليها ، فلم يهاجر اليها ليستوطنها من الدخلاء إلا أعداد قليلة نسبياً استقر معظمهم في مناطق اطرافها القريبة من الأقاليم الأعجمية التي تكثر فيها الموانئ للسفن المبحرة الى البلاد النائية .

اتصالاتها :

غير أن جزيرة العرب لم تكن منطقة مغلقة ، أو منعزلة عن العالم ، فان موقعها الجغرافي بين بلاد الهند والشرق الاقصى وافريقية من جهة وبلاد البحر المتوسط من جهة أخرى ، جعل كثيراً من التجارات تمر بها ، لأنها اقصر الطرق ، ودفع عدداً من اهلها الى ممارسة الملاحة وتسيير القوافل والتجارة ، ولا ريب في أن تجارتهم كانت اوسع مع الاقاليم المجاورة ، غير أنها لم تقتصر على هذه الأقاليم ، وانما امتدت الى مناطق أبعد ، والراجح أنهم وحدهم قاموا منذ ازمنة قديمة بالملاحة في البحر العربي والمحيط الهندي ، ووصلت سفنهم الى بلاد افريقية الشرقية ، والى الهند وربما الى الصين ، يؤيد ذلك توفر الاشارات الى التجارة مع الهند ، وعدم وجود اية اشارة أو دليل على وصول السفن الهندية او الافريقية الى بلاد العرب ، وكذلك احتفاظهم حتى المئة الأولى قبل الميلاد بسر معرفة تبدل اتجاه حركة الرياح الموسمية التي كانت لها أهمية أساسية في سير السفن ، علماً بأن معرفة الإغريق لهذا التبدل لا يستلزم قيام السفن الإغريقية بالابحار الى الهند .

وامتد النشاط التجاري العربي في الغرب ، فشمل البلاد الواقعة حول البحر المتوسط حيث وصلت سفن الفينيقيين الى سواحل اسبانية الشرقية ، واقاموا مستوطنة قرطاجنة في تونس ، وتدل شواهد القبور المكتوبة بالمعينية التي وجدت في شمالي إفريقية وجنوبي فرنسه وديلوس على أن تجار اليمن وصلوا الى هذه المناطق .

أما امتداد النشاط العربي التجاري في الهضبة الايرانية ، فيمكن استنتاجه من الاخبار التي تتردد عن وصول جيوش شمر يرعش الى اواسط آسية ، واذا كانت هذه الاخبار لا تسندها معلومات المصادر الاجنبية ، فانها قد تعكس امتداد التجارة اليمنية الى تلك الاقاليم ، ويلاحظ أن الجيوش العربية التي تقدمت في زمن الخليفة عثمان بن عفان لفتح خراسان ، لم تواجه صعوبة في اختيار مسالك الطرق التي تيسر لهم الوصول الى خراسان . ومن المحتمل أن

التجار العرب كانوا يعرفون هذه الطرق ، وأنهم كانوا أدلاء الجيوش العربية الى هذه الاقاليم النائية .

ولا ريب في أن عدداً من هؤلاء التجار العرب كانوا يقيمون دائماً في البلاد التي يتاجرون معها ، غير أن عدداً أكبر كانت اقامتهم مؤقتة وظلوا يحتفظون بمقامهم الدائم في موطنهم الاصلي في جزيرة العرب .

أتاحت التجارة للتجار الاطلاع على المنتوجات والسلع الاجنبية ، وعلى أوضاع الحياة والنظم والمعاملات والقوانين السائدة في المجتمعات التي يتاجرون معها ، مما يساعد على اقتباس مفردات لغوية من أسماء السلع ومصطلحات النظم ، ومعرفة بالمعاملات ، فضلاعن اثرها في زيادة الثروة وتمكين مركز التجار . غير أنه ينبغي تحاشي المبالغة في تقدير سعة اثر التجارة أو عمقها في نظم الحياة الاجتماعية ، أو في نشاط الحركة العقلية والفكرية .

وفي ميدان العقائد والدين عبد أهل الجزيرة عدداً من الآلهة التي كانت تعبد في الأقاليم المجاورة ، مثل الإله بعل ، وعثر ، واللات ، ومناة ، والعُزّى غير أن المعلومات المتوفرة حتى الآن عن اصول هذه الآلهة ، أقل من أن تكفي للبت في أصلها ، أهو من شبه جزيرة العرب ثم انتقل الى الأقاليم المجاورة ، ام هي دخلت الى جزيرة العرب من تلك الأقاليم .

وقد دخل جزيرة العرب بعض الأديان التي ظهرت وانتشرت في الأقاليم المجاورة ، وهي المسيحية واليهودية والمجوسية . وقد ذكر القرآن الكريم الدينين الأولين في عدد كبير من الآيات ، وذكر الأخيرة في آية واحدة ، الأمر الذي يدل على قلة انتشارها . والمعروف ان المسيحية ارسلت بعثات تبشيرية الى عدة مناطق من شبه جزيرة العرب . غير أن نشاط البعثات التبشيرية في شبه جزيرة العرب لا يعني أنه كان لهم دور اجتماعي أو ثقافي كبير في حياة العرب ، إذ أن المسيحية لم تنتشر الا بين عدد محدود من الناس ، ولم تكن عميقة في نفوس معتنقيها ، خاصة وانها قامت على افكار فلسفية يصعب على غير المتبحرين فهمها بله التشبع بها ، فهي لم تثر نشاطاً فكرياً شعبياً عند الناس ،

ولا أثرت في تنمية مُثُل اجتماعية ذات تأثير فعّال في نظم الحياة ، ولذلك تخلى عنهم معظم الداخلين اليها ، ودانوا بالاسلام وتمسكوا به . ولا ريب في أن البعثات التبشيرية عنيت بامور الدين ، ولا يوجد دليل على اهتمامها بالدين .

يتبين مما سبق أن جزيرة العرب لم تكن معزولة عن العالم ، وانما كانت لأهلها رحلات متعددة الى كثير من البلاد الأخرى ، وانها تعرضت لمؤثرات ثقافية أجنبية ، ولكن هذه المؤثرات لم تكن واسعة أو عميقة ، ولذلك حدثت تطوراتها السياسية والاجتماعية والثقافية بتأثير عوامل ومؤثرات داخلية قبل كل شيء آخر .

كانت شبه جزيرة العرب عند ظهور الإسلام مفككة سياسياً ، فلم تكن فيها دولة كبيرة تسيطر عليها أو على أجزاء واسعة منها ؛ وانما كان فيها عــدد من الحكـّام يسيطر بعضهم على أقاليم جغرافية ، كالذي كان في اليمن واليمامة وعُمان ، ويقتصر سلطان بعضهم على القبيلة التي ينتمي اليها ، كما اتخذت بعض المدن نظماً خاصة بها ؛ وكان النظام القبلي سائداً في ارجائها .

لم يصل إلينا من جزيرة العرب الا النزر اليسير من الوثائق المعاصرة ، وهذا لا يكفي لرسم صورة واضحة عن النشاط العلمي ومدى تقدمه فيها . غير ان قلة المعلومات المكتوبة التي وصلت الينا ، لا تعد دليلاً على جهل العرب بالكتابة أو قلة انتشارها بينهم ، كما انها لا تعتبر مظهراً لجهلهم بحقائق العلم وصدوفهم عن المعرفة ؛ فاما الكتابة فان مطالب الحياة كانت تقضي بتعلمها واستعمالها لتدوين وثائق البيوع والمكاتبات والتجارة وتأمين المراسلات بين المتباعدين في السكن ، عدا الاغراض الدنيوية والدينية .

القرآن الكريم ودلالاته على العلم عند العرب :

ان القرآن الكريم ، وهو كتاب الله المنزل الذي يقرؤه المسلمون ويحافظون على حرفيته ، هو الكتاب الواسع الوحيد الذي وصل الينا محتفظاً بدقته وضبطه ؛ وهو نزل مُنَجّماً خلال مدة ثلاث وعشرين سنة يدعو الى الاسلام ويوضح نظمه

ويثبتها في نفوس المسلمين . وتطلبت الدعوة ان يخاطب القرآن الكريم الناس بما يفهمون ، ويشير الى كثير مما كانوا يعرفون ، ويذكر بعض ما كانوا يعتقدون ويتصرفون .

(١) الكتابة :

ومن الظواهر الواضحة في القرآن الكريم كثرة اشاراته الى الكتابة وادواتها وحفظ سجلاتها ، فقد ذكر من أدوات الكتابة : القَلَم (في سورة القلم ١ ، والعلق ٤ ، ولقمان ٢٧ ، وآل عمران ٤٤) والقرطاس . (الانعام ٧ ، ٩١) والرَّق (الطور ٢) والمداد (الكهف ٩ – ١٠) وذكر القرآن الكريم « الكتاب المسطور » (الكوثر ١٢ ، الأحزاب ٦ ، الاسراء ٥٨) والألواح (الاعراف ١٤٥) والسجل الذي يطوي الكتب (الأنبياء ٤) والصُحُف (المدثر ٥٢) والصُحُف الأولى (طه ١٣٣ ، الأعلى ٢) وصُحُف موسى وابراهيم (الأعلى ١٣ ، النجم ٣٩) وأن القرآن الكريم في « صُحُف مُكَرَّمة » (عبس ١٣) «وصُحُف مطهرة » (البينة ٢) .

وذكر القرآن الكتابة بصيغة فعل الامر في ٢٦ آية ، وبالمعنى الشائع في سبع آيات ، ووردت كلمة (كتاب) في ٢٩ آية والذين اوتوا الكتاب في ٣٢ آية ، وبمعنى الكتب المقدسة في الأديان السماوية في ٣٨ آية ؛ علماً بانه ذكر التوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم في آيات عدة ، ووردت كلمة (الكتاب) بمعنى القرآن الكريم في كثير من الآيات وأوجب القرآن الكريم كتابة بعض الوثائق كالدَيْن (البقرة ٢٨٢) وعقد النكاح (البقرة ٢٣٥) ومكاتبة الرقيق عند تحريرهم (النور ٣٣) .

ومن الواضح أن كثرة تردد الكتابة في القرآن الكريم هي دليل على مدى انتشارها ومعرفتهم بها ، خاصة أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين (النحل ١٠٣ ، الشعراء ١٩٥ ، الزمر ٨) أي أنه استعمل المفردات اللغوية المعروفة لديهم . وقد أدرك الرسول (ص) أهمية الكتابة في الحياة ، فحضّ

على نشرها ، ويروى أنه أمر بفك الأسارى المشركين في معركة بدر اذا علموا عدداً من المسلمين الكتابة ، واستعمل الرسول عدداً من المسلمين الذين يعرفون الكتابة لكتابة آيات القرآن الكريم المنزلة ولكتابة الرسائل التي يرسلها الى الملوك والرؤساء والافراد في داخل الجزيرة وخارجها .

ثم ازدادت الحاجة الى الكتابة والتدوين بعد توسع الدولة واستقرارها وذلك لحفظ سجلات العطاء ومراسلات الخليفة والولاة ، وتنظيمات الجباية والخراج . واستخدم كل خليفة ووال كُتّابا لهذا الغرض ، وأماكن خاصة لحفظ السجلات واستقرت نظم الدواوين ، وكانت المكاتبات تُدَوّن بالعربية ، وقد وصلت الينا مقتطفات منها ، غير أن معاملات الجباية والخراج تدون في لغات أخرى هي الفارسية في العراق والاغريقية في الشام ومصر ، وظل ذلك متبعاً الى ان ولي عبدالملك بن مروان الخلافة فأمر بتعريب الدواوين أي كتابتها باللغة العربية وقد تم ذلك حوالي سنة ٧٥ في العراق والشام ، ثم في سنة ٩٠ في خراسان والتزم الكُتّاب بتسيير استعمال اللغة العربية في الدواوين فكان ذلك من عوامل زيادة متانة الوحدة الثقافية في الدولة ، وساعد على نشر اللغة العربية في دواوين الدولة ومعاملاتها الادارية والمالية ودفع الى زيادة العناية بدراسة قواعد اللغة العربية ومفرداتها وكانت الكتابة منذ الازمنة السابقة للاسلام عنصراً أساسياً في كمال الرجال.

(٢) المعارف والمعلومات :

في القرآن الكريم كلمات تدلّ على مدى معرفة العرب ببعض العلوم وأثرها في حياتهم ، ففي ميدان الحساب مثلاً تردد ذكر الأعداد الآحادية والعشرات ، والمئات ، والألوف ، وبعض الكسور ، وبعض التعابير الدالة على التعدد كالبضع والمضاعفة والجمع والنقص والقسمة ، وفيه إشارات كثيرة الى الحساب ، ويوم الحساب ، والى الموازين ، وحفظ السجلات والكتب . ويظهر

تكرار هذه التعابير واستعمالها باشكالها الحقيقية والمجازية مدى انتشارها بين الناس .

وفي القرآن الكريم اشارات الى بعض المظاهر الفلكية وسير الشمس والقمر، والحق أن بعض الفرائض الإسلامية ، كالصلاة والصوم والحج ، لا تتم بدقة بغير معرفة الظواهر الفلكية وسيرها ، لأنها تعتمد على الشهور القمرية التي يتطلب تنسيقها مع السنة الشمسية معرفة بالفلك .

إن إشارتي الى بعض الظواهر العلمية في القرآن ، لا يعني أنني استوعبتها ، وانما قصدت من ذكرها الإشارة الى مصدر معتمد فيه مادة غنية تنتظر الباحثين لدراستها وإظهار دلالاتها على مدى التقدم العلمي وانتشار التفكير العلمي، علماً بأنّ تكوين الدولة وتوسعها استلزم اتباع تنظيمات تتطلب استعمال حقائق العلم.

(٣) أساليب المعرفة وطرقها :

وفي القرآن الكريم حضٌ على استعمال العقل للتفكير ، وأثنى على ممارسيه ، وردّد في آيات كثيرة عدة تعابير لمختلف مظاهر المعرفة ودرجاتها ، ومن هذه التعابير « رأي » (٣٣٢ موضعاً)، و« بصر » (١٤٩)، و« نظر» (٩٩)، و« عرف » (٢٤) .

وترددت فيه كلمة « العقل » (٤٨) مرة ، والفكر (١٩) ، و « اللب » بمعنى العقل (٦) . كما ذكر من أساليب الحوار « الجدل » (٢٩) « والحجاج » (١٩) والمُشاقَة . ووردت كلمة « علم » ومشتقاتها في ٨٠٠ آية ، منهـا ما يتصل بذات الله(٥٨٦) ومنها ما يتصل بالبشر والناس (١٨٤) ، كما ذكر القرآن الكريم « الذين أوتوا العلم » في تسع آيات ، و «الراسخون في العلم » في آيتين ، وأشاد بالعلماء فقال « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر ٢٨) وقال « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة ١١) وذكر الحكمـــة في ست عشرة آية، منها عشر قرنها بالكتاب ، وآية قرنها

بالملك ، وأخرى أنه آتى لقمان الحكمة ، (لقمان ١٢) ،وقال تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يُؤْتَ الحكمةفقد أُوتي خيراً كثيراً » (البقرة ٢٦٩) ، وقد أوحى الى الرسول من الحكمة (الاسراء ٣٩)وطلب اليه « أدْعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (النحل ١٢٥) .

ووصف تعالى ذاته بأنه « عزيزحكيم » (٤٥) ، وعايم حكيم (٣٤)، « وحكيم خبير » (٤) و « عليٌّ حكيم » (٢) كما وصف ذاته في آيات منفردة بأنه « تـَّواب حكيم » ، و « حكيم خبير و « واسع حكيم » .

(٤) الإهتمام بالفرد والاخلاق :

وفي القرآن الكريم اهتمام بالفرد ، واصلاحه وتنمينه ، لوضعه في مكانه الصحيح في المجتمع من حيث انه اللبنة الأولى التي يتكون منها المجتمع ، واعتد الفرد كياناً خاصاً ، فجعله مسؤولاً عن تصرفاته الدينية والاخلاقية والقانونية . وأوجب الإلتزام بقواعد اخلاقية أساسية منها الصدق والأمانة والصبر وحب الخير للمجتمع ، وهي مبادئ أساسية للبحث العلمي السليم .

(٥) الحرية :

ومن الأمور الاساسية التي فرضها الإسلام « الحرية » التي تتصل بالفرد وتصرفاته ، إن المسؤولية الفردية تنبع من الحرية التي يتمتع بها الفرد في ممارسة إرادته ، وانطلاقاً من الحرية تقوم الدعوة الاسلامية على الجدل والاقناع العقلي المستند الى احترام الفرد وتمتعه بالحرية : « وجادِلْهُمْ بالتي هي أحسن»، « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ » .

والحرية في الاسلام واسعة ، لايحدها الا الاضرار بمصلحة الآخرين أو تهديد المجتمع وسلامته ، او المس بأسس العقيدة ، وهي تمتد الى ميادين واسعة كحرية التنقل والعمل والكسب بالطرق المشروعة ، وتشمل دراسةالآراءوالافكار

والمعتقدات وبحثها وتمحيصها للأخذ منها بما يراه المرء صحيحاً او مقنعاًبقناعة ذاتية ، ومن غير فرض أو الزام ، ومن غير الرجوع الى سلطة تفرض ذلك سراً ، فليس في الاسلام طبقة اكليروس أو كهنوت يحتكرون المعرفة ويفرضونها على الناس ، ومن الطبيعي ان تكون مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول الوحي عليه وهو اعرف بالاسلام ومتطلباته ، اما الصحابة فبالرغم من مكانتهم العظيمة وما يحظون به من الاحترام ، كانوا كالشراح والمفتين والمجتهدين ، وليست لآرائهم صفة الالزام . والحرية مستلزم أساس للنهوض بالدراسات وإنمائها ، وتمحيص الحقائق وتنويعها .

(٦) اللغة العربية الفصحى :

ومن ابرز الظواهر التي تميز بها القرآن الكريم نزوله باللغة العربية ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في عدد من الآيات في سورة يوسف ، ٢ والرعد ٣٧ ، وطه ١٣ ، وفصلت ٣ ، والزخرف ٣ ، والشورى ٧ ، والاحقاف ١٢ ، وأن لغته سليمة أصيلة « قرآناً عربياً غير ذي عوج » (الزمر ٢٨) ، وبلسان عربي مبين (النحل ١٠٢ ، الشعراء ١٩٥)،وعروبته الأصيلةالواضحة هي من ادلة أصالته وعدم اقتباسه من الأعاجم « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (النحل ١٠٣) والغرض الرئيس من نزوله بالعربية أن يتفهمه العرب « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (يوسف ٢ ، الزخرف ٤ ، فصلت ٣) وقد جاء فيه أنه « كتاب مبين » في أربعة عشر موضعاً وأنه « البلاغ المبين » في سبع آيات .

تظهر هذه الآيات أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية التي كانت سائدة عند أهل الجزيرة ، وعامة عندهم ، فهي اداة تجمعهم وتشدهم الى بعضهم وتوحدهم فكرياً ، وهي اللغة التي نظم فيها الشعراء من مختلف المناطق ، وعبر فيها البلغاء الأمثال والحكم المختارة والأقوال المنتخبة التي رويت عمن عاش خلال

المائة والخمسين السنة التي سبقت الاسلام .

والقرآن الكريم كتاب هداية ، وأكثر آياته تتعلق بالعقيدة الدينية والنظرة الكونية الشاملة ، بالاضافة الى اهتمامه بالتوجيه السلوكي والاخلاقي للانسان وبمبادئ تتصل بالنظم والعلاقات الاجتماعية والتطورات التاريخية وقد استوعبت مفردات اللغة العربية بوضوح التعبير عن كل ماتقدم ، بالاضافة الى المفردات المتعلقة بمظاهر الكون والفلك ، كالشمس والقمر والنجوم والابراج والسنين والشهور والايام والساعات ، واعداد الحساب بما في ذلك الآحاد والعشرات والمئين والالوف وكسور الآحاد كالنصف والثلث والربع والخمس والسدس ، والعمليات الحسابية كالجمع والقسمة والمضاعفة والانقاص ، ومظاهر المناخ كالهواء والرياح والعواصف والامطار ، والمياه ، والانهار ، والبحار ، والنبات ونموه وبعض المحاصيل النباتية كالنخيل والاعناب والزيتون والرمان ، وبعض الحيوانات ، واسماء اعضائها .

فالقرآن الكريم يظهر بعض معرفة العرب في عدد من الجوانب العلمية ، ويظهر ايضاً كفاية اللغة العربية بالنهوض بأي تقدم علمي ، وذلك بكثرة مفرداتها ومرونتها وقابليتها للاشتقاق ، والواقع ان هذه السمة المميزة مكنتها من استيعاب التطورات الفكرية التالية ، وافادت كثيراً من الأمم في الشرق والغرب في مواجهة التطور العلمي فاستعارت الكلمات العربية للتعبير عن المصطلحات والافكار العلمية التي تبنتها فيما بعد .

اللغة العربية أداة التفكير العلمي ووعاء المعرفة :

إن سيادة اللغة الفصحى العامة لم تمنع وجود اختلافات في لغة القبائل أو المجتمعات أو الاوساط المختلفة ، سواء في نطق حروف الامالة أو تبديل حروف بعض الالفاظ أو استعمال كلمات تناسب البيئة المحلية الطبيعية أو الثقافية للمتكلمين . وهذا التباين الذي نسميه لهجات كان محاياً في مكانه ،

محدوداً في نطاقه، ضعيفاً في أثره . وظلت الفصحى سائدة في العرب ، يعتزون بها ، ويحرصون على استعمالها ، فانتشرت حيثما اقاموا ، وساعد القرآن الكريم على تثبيت مكانتها ، لأنه نزل بها ، فكان على المسلمين من عرب وغيرهم أن يستعملوها في قراءة القرآن الكريم وإداء الفرائض ، ثم عمت بعد تعريب الدواوين ، الاوساط الادارية ، واصبحت تستعمل في سجلات المالية والخراج ، ومالبثت أن أصبحت لغة العلم والتجارة والحياة ، فاستعملها الاعاجم المتصلون بالعرب ، وخاصة من أقام منهم في الامصار العربية .

قامت الدولة الاسلامية الجديدة على العرب ، فمع أن شعارها إعلاء كلمة الله وسيادة الاسلام ، إلا أن المكانة الخاصة المتميزة فيها كانت للعرب الذين ظهر الاسلام فيهم ، ونزل القرآن الكريم بلغتهم ، وكان منهم المسلمون الأولون الذين تشبعوا بآرائه وعقائده ، ومنهم الخلفاء والقادة وكبار الاداريين وكذلك المقاتلة الذين انتصروا في المعارك ووسعوا رقعة الدولة ، وحموا حدودها ، وثبّتوا الأمن والاسقرار فيها ، وظلت جزيرة العرب « معيناً » و « مادة » للاسلام ، تمد المقاتلة بالرجال ، فتعوّض مايفقدون ، وتزيد من قوتهم العسكرية

كان للاسلام وتكوين دولته أثر كبير في ازدهار الحركة الفكرية العربية ، وتركز نشاط هذه الحركة في العهود الاولى في الامصار ، وبصورة خاصة في المدينة والبصرة والكوفة وقام بالدرجة الأولى على العرب ، واهتم بميادين المعرفة التي يعنى بها العرب ، وهي الشعر والأدب وقراءة القرآن وتفسيره والفقه والحديث واللغة . وأسهم عدد من الموالي في الحركة الفكرية ضمن هذا النطاق وفي هذا الميدان . ولاريب في أن هذه الحركة تأثرت في نشاطها ومسارها بالاحوال السائدة في الامصار التي اقيمت في أقاليم ذات حضارة تختلف في كثير من سماتها عن ماكان سائداً في الصحراء ، وتأثرت بأحوال الأقاليم

التي تشرف الامصار على إدارتها والأمن فيها ، مما كان يتطلب تعزيز الصلات الادارية والمالية والبشرية فيها ، إذ كانت الحاميات العربية التي تقيم في تلك الأقاليم تؤخذ من المصر الذي يتبعه ذلك الأقليم .

كانت صلة أهل الامصار في الأزمنة الاولى وثيقة بشبه جزيرة العرب ، وارتباطات كل عربي من أهل الامصار قوية بمن ظلّ من عشيرته مقيماً في الجزيرة ؛ ولكن على مر الايام ازدادت العلاقات بين المقيمين في المصر الواحد الذي انمى بالتدريج « شخصية » متميزة يعززها الاشتراك في مكان الاقامة وفي المصالح والعلاقات التي كثيراً ما اصطدمت بالامصار الأخرى رغم تشابه أصول وعشائر سكانها ، ورافق كل ذلك إضعاف العلاقة بين العرب المقيمين في الامصار وعشائرهم التي ظلت في الجزيرة . غير أن العلاقات رغم ضعفها ظلت قائمة بين القاطنين في الامصار والمقيمين في الجزيرة ، وظل أهل الأمصار يرون أن أصولهم من الجزيرة ، وخصائصهم تتجلى في المقيمين في الجزيرة ، أي أن كثيراً من مشاهم الثقافية كانت في الجزيرة ، وخاصة في اللغة والروابط القبلية والتاريخ .

دراسة لغة اهل الجزيرة : اللغة المعجمية واللغة العامة

ان إيمان العرب بتميز الخصائص الثقافية العربية ، وحرصهم على معرفة هذه الخصائص وتسجيلها ، وادراكهم احتفاظ الصحراء بها ، دفع عدداً من المعنيين منهم الى الاتصال بأهل الصحراء للحصول على المعلومات عنها . وسلك هؤلاء المعنيون سُبلاً متعددة ، فمنهم من كان يتبع الأعراب الوافدين الى الامصار والاستماع اليهم أو مساءلتهم ، ومنهم من كان يرحل الى مواطن القبائل في الصحراء ليستمد من أفرادها المعلومات عن ثقافتهم ومعارفهم وأحوالهم ، وبرز في هذا الميدان عدد من العلماء (انظر تفاصيل أوفى عن ذلك في كتاب « الاعراب الرواة » للدكتور عبدالحميد الشلقاني ، و «تاريخ الأدب العربي» لمصطفى صادق الرافعي ، و « المعجم العربي » للدكتور حسين نصّار) .

كانت أغلب رحلات الرواة الى المناطق الواقعة بين العراق والحجاز ، أي الى قبائل تميم وطيّ وأسد وغطفان وعامر بن صعصعة ، التي عدّوا لغاتها أفصح اللغات (المزهر — للسيوطي) ، وهذه القبائل تقع ديارها على الطريق الرئيسة التي تربط العراق بمكة والمدينة ؛ ويلاحظ أن القرآن الكريم نزل على الرسول (ص) في مكة والمدينة اللتين ليس فيهما إلاّ افراد قليلون من هذه القبائل ، كما ان معظم شعراء المعلقات لم يكونوا من هذه القبائل . ثم إن ديار هذه القبائل شحيحة المياه ، قليلة الواحات والمناجم ، وبعيدة عن سواحل البحار وما فيها من نشاط تجاري وملاحي ، فحرص الرواة على الاعتماد على هذه القبائل حصر للمادة التي جمعوها في نطاق ضيق ، لأنه أخرج ماعند قبائل كثيرة من كيان ثقافي ، ومنهم من كان يسكن أطراف العراق والشام ، مثل تغلب وبكر بن وائل وكلب وإياد ، أو يقيم في البحرين وعمان ، مثل عبدالقيس والأزد ، وكذلك قبائل اليمن وحضرموت واهل المدر في الجزيرة .

وأغفل الرواة دراسة كثير من الكلمات التي استعملها العرب المستقرون في الامصار الجديدة ، وبذلك اقتصرت عنايتهم على البدو دون الحضر ، ولم يعنوا بتدوين التطورات التي حدثت في الامصار بعد الاسلام وأدت الى توسع اللغة وزيادة مفرداتها . وبذلك قرنوا العروبة بالبداوة ، وضيقوا نطاقها واخرجوها عن دائرة التحضر ؛ وهم بهذه النظرة المحدودة فسحوا المجال للقيام بدراسات للكلمات المستعملة من مناطق ومجتمعات عربية أخرى . وقدموا حجة يستند عليها بعض من لهم نيات مريبة في البحث عن أصول كثير من الكلمات العربية في اللغات الأعجمية .

ولاريب في ان دراسة الكتب العلمية التي ألفت منذ اواسط القرن الثاني الهجري تكشف عن معلومات زاخرة بمفرداتها وافكارها مما استعمله العرب ، ولاسيما المتحضرون المعنيون بانماء المعرفة والعلم . وقد ادرك عدد من المحدثين من علماء الغرب والعرب ، اهمية المادة التي اغفلها الرواة . فأعدوا قوائم بالمفردات

المستعملة من الكتب ، وقام بعضهم بشرح معانيها ؛ نذكر على سبيل المثال منها القائمة التي اعدها دي غويه للكلمات « غير المعجمية » التي وردت في تاريخ الطبري ، وفي فتوح البلدان للبلاذري ، والملحق الذي قام باعداده المستشرق دوزي للمعاجم العربية . ولايزال المجال مفتوحاً لأعمال أوسع تستوعب جرد الكلمات الكثيرة في كتب الفقه والطب والعلوم الاخرى ، وسيساعد ذلك على توسيع معلوماتنا عن مدى امتداد المعرفة العلمية عند العرب .

ان المعلومات التي جمعها الرواة ، رغم حدودها ، لاتعبّر عما كان سائداً في زمن تسجيلها (أي في المائة الثانية للهجرة) ، وانما كانت تعبّر أيضاً عن بعض حضارة عرب الجزيرة وثقافتهم عند ظهور الاسلام وقبله ، لأن القبائل التي اعتمدت في نقل المعلومات عنها ، كانت تسكن في مناطق منعزلة ، ولم تكن معرضة لتأثيرات حضارية واسعة .

ويتبين من مفردات اللغة العربية التي جمعها الرواة ودوّنها اصحاب النوادر والامالي والمعاجم ، أن العربية كانت غنية في التعبيرات عما يتصل بالانسان ، وفي جملة ذلك تكوين جسمه واعضائه واجزاء بدنه واحساساته وعواطفه ، وكذلك مايتصل بالحياة المادية لسكان الجزيرة ، من ملبوسات ومأكولات وأثاث ولوازم وأسلحة ؛ كما أنها غنية بكليات وجزئيات مايتعلق بالحيوانات في الصحراء بما في ذلك أسماؤها وأعضاؤها وغذاؤها ولوازمها وهي غنية أيضاً بما يتعلق بالأرض والتضاريس والتربة والنبات وبمظاهر المناخ من رياح وأمطار ، وفي النجوم وكثير من مظاهر الفلك .

واللغة العربية تظهر الطابع الانساني للحضارة العربية أي في الاهتمام بالانسان ، وهو المخلوق الاجتماعي الذي يتسم بالاحساس والشعور وتذوق الجمال ، ويدرك قيمة الأخلاق والسلوك الاجتماعي والحياة الاجتماعية ، كما تظهر ادراكهم لتطورات الزمن

وتشبعهم بالحس التاريخي المعبر عن نفسه بالاهتمام بأخبار الماضي وسننهم وتقاليدهم ، والعناية بالانسان والاعتزاز بالمجيد من أعمال الآباء والأجداد .

وعني الرواة أيضاً بنقل ماكان يُردّدهُ أهل المناطق التي زاروها من شعر نُظمَ بالفصحى وفيه مادة لغوية غنية ، فضلاً عن أن وزنهُ يدل على المستوى الفني والادراك الموسيقي عند العرب .

التدوين والكتب :

كان الرواة يعرضون معلوماتهم شفاهاً لمن يتحدثون معهم أو في حلقات العلم التي كانت تجمع المعنيين ، ولما نشط التدوين وازداد تأليف الكتب ، بدأ هؤلاء الرواة واهل المعرفة في تدوين معلوماتهم فوفروا للناس مادة معتمدة للدراسة وقد سجل ابن النديم في كتابه «الفهرست» اسماء أكثر المؤلفين والكتب العربية حتى سنة ٣٧٧ ، وكانت للكتب التي ألفها المعنيون بثقافة اهل الجزيرة مكانة واضحة من حيث عددها وتنوع مواضيعها ، وتدل عناوين هذه الكتب على أن بعضا كان يختص بموضوع واحد أو مواضيع محددة ، والبعض الآخر كان يحتوي على معلومات عامة من مواضيع متعددة ومنوعة ، وكلها معلومات من ميدان العلوم بالمعنى الذي حددناه .

فأما الكتب المفردة لموضوع واحد فان عناوينها تظهر مدى اختصاصها بالعلوم ، وهي تشمل مايتصل بالانسان والحيوان ، ويبلغ مجموع المؤلفات التي ذكرها ابن النديم فيها تسعين كتاباً ، منها لخلق الانسان (١٩) والخيل (١٩) وخلق الفرس (١٢) والابل (١٤) والغنم (٥) والنحل (٤)والطير (٤) والحشرات (٤) والحيّات (٣) والجراد (٢) وواحد لكل من الهوام ، والبُزاة ، والذُباب ، والبغال .

أما في النبات فقد ذكر ابن النديم أسماء خمسة وعشرين كتاباً منها عنوانه « النبات » (٨) ، و « النبات والشجر » (٦) و « الزرع » (٥) و « النخل » (٤) وكتاب واحد لكل من الكَرْم والعشب .

وفي أحوال الجو ذكر ابن النديم عشرين كتاباً عنوان كل منها « الأنواء » وخمسة عنوان كل منها « الأزمنة » وأربعة عنوانها « الأيام » ، وثلاثة عنوانها « الأوقات » واثنان عن « الشتاء والصيف » ، وعن « الامطار » وواحد عن « الليل والنهار »

ان التأليف في هذه المواضيع يكاد يقتصر على « علمــاء العربية » إذ لم يترجم أو يؤلف فيها غيرهم إلا عدداً قليلاً جداً من الكتب ، كما يتبين مما ذكره ابن النديم من مؤلفات لم يعرف لهم اختصاص بعلوم وذكر ابن النديم من هذه المؤلفات ثلاثة في خلق الانسان ألفها النظّام (٢٠٦) وابن الريوندي (٢١٧) وأبو هاشم (٢٢٢) ، وذكر كتاباً واحداً في الحيوان ألّفه الجاحظ وهو كتاب واسع نقل فيه عن ارسطو ، ولكن أكثر ماأورده مستمد من كتب العرب . وذكر ابن النديم خمسة كتب في البزاة ، احدها لأبي دلف (١٣٠) وأربعة ذكر أنها « للفرس ، وللترك ، وللروم ، وللعرب » (٣٧٧) .

أما في الحشرات فذكر « أجناس الحشرات » لابن البطريق (٣٧٩) و « رسالة في الحشرات » للكندي (٣٢٠) وذكر أيضاً « أجناس الحيات » لناقل الهندي (٣٧٩) و « رسالة في انواع النحل وكرائمه » للكندي (٣٢٠) والكتاب الوحيد في الحيوان الذي ذكره من كتب الاغريق هو كتاب « الحيوان » لارسطو (٣١٢ ، ٣٢٧) .

وذكر ابن النديم أربعة كتب في الجوارح ألفها محمد بن عبدالله البازيار (٣٧٧) وابن المعتز (١٣٠) وأبو دُلَف (٣٧٧) والسَرَخسي (٣٢١) ، كما ذكر للرازي كتابين عنوان أحدهما « السبب في قتل ريح السموم أكثر الحيوان » (٣٥٧) و « العلة في خَلق السِبَاع والهوَام » (٣٥٨) .

وذكر أيضاً كتاب « تسمية اعضاء الانسان اروفس » (٣٥٠) .

أما في النبات فقد ذكر ابن النديم لابن وحشية كتاب الفلاحة (١٩٧) و « الفلاحة الكبير والصغير »(٧٣٢) وأسماء النبات لثاوفرسطوس نقله إبراهيم بن بكوس

(٣١٢) و « الحشائش » لديسقوريدس (٣٥١) وترجمة كتاب الفلاحة للروم لعلي بن محمد بن سعد (١٩٧) و « الفلاحة والعمارة » للأهوازي (١٧١)

المؤلفات :

ان الكتب المؤلفة في خلق الانسان التي ذكرها ابن النديم هي لكل من ابي مالك عمرو بن كركره (٤٩) والنضر بن شميل (ت ٢٠٤) (٥٧) وقطرب (ت ٢٠٦) (٥٨) وابي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) (٥٧) والمفضل بن سلمة (ت ٢٠٨) وابي عبيدة (ت ٢١٠) (٥٩) والأحوص(ت ٢١٣)(٦١) وابي زيد الانصاري (ت ٢١٥)(٦٠) وابي زياد الكلابي (ت ٢١٥) (٥٠) وسعدان بن المبارك ٧٧ ونصر بن يوسف (٧٢) وابن الاعرابي (ت٢٠٣) (٧٦) وأبي مُحَلِّم الشيباني(ت٢٤٧) (٥٢) ومحمدبن حبيب (ت٢٤٥) (١١٩) وابي حاتم السجستاني (ت٢٥٥)(٦٢)وثابت بن ابي ثابت(٧٦) وابن قتيبة (ت٢٧٦) (٨٦)، والحسن بن عبدالله ، والقاسم بن محمد الانبـاري (ت ٣٠٤) (٨١) وابي موسى الحامض (ت ٣٠٥) (٨٧) وأبي اسحق الزجّاج (ت ٣١٠) (٦٦) ومحمد بن احمد الوشاء (ت ٣٢٥) (٩٣) ومحمد بن عثمان الجعد (ت ٩٠) والحرمازي (٥٤) والأخفش (٥٨) وابي ثروان العكلي (٥٢) .

وقد فقدت معظم هذه الكتب ، وبقى منها كتاب الأصمعي ، ولكن عدداً من الكتب المتأخرة نقلت عنهم .

أما في الخيل فان ابن النديم ذكر ممن أفرد فيها كتباً : عمرو بن كركره (٤٩) ومحمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤)(١٠٩) وأبا عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) (٧٥) وأبا عبيدة (ت ٢١٠) (٢٩) والأصمعي (ت ٢١٣) (٦١) وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥) (١١٧) ومحمد بن عبدالله العتبي(ت ٢٢٨)(١٣٥) وابن الاعرابي (ت ٢٣١) (٧٦) وأحمد بن حاتم (ت ٢٣١) (٦١) والتُوَّزي (ت ٢٣٣) (٦٣) وهشام بن ابراهيـم الكرنباني (٧٧) ومحمد بن حبيب (ت ٢٤٥)(١١٩) وابا مُحَلِّم الشيباني (ت ٢٤٥) (٥٢) والعباس بن الفَرَج

الرياشي (ت ٢٥٧) (٦٤) وابن قتيبـــة (ت ٢٧٦) (١٣٥) وأحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠) (١٦٣) .

وألّف في الخيل أيضاً إبراهيـــم بن محمد بن سعدان (٨٧) وأحمـــد بن حاتم ابي نصر (٦١) وابن دريد (٦٧) والأشناني (١٢٧) وابن مهرويه (٨٨) والف في انساب الخيل كل من هشام بن محمد الكلبي (ت ٢٠٦) (١٠٩) وابن الاعرابي (ت ٢٣٣) (٧٦) وذكر ابن النـديم ممـن ألّف كتاباً عنوانه « خَلق الفرس » كل من الأصمعي (٦١) وثابت ابن أبي ثابت(ت٢١٩) (٧٢) وابراهيم بن السري (الزّجّاج)(ت ٣١٠)(٦٦) والقاسم بن محمد الانباري (ت ٣٠٤) (٨١) وقطرب (ت ٢٠٦)(٥٨) والنضر بن شميل (ت ٢٠٤)(٥٨) وابن الوشاء (٩٣) وأبوثروان العكلي (٥٢) وعلي بن عبيدة الريحاني(١٣٣) وقد طبع من هذه الكتب كتاب الاصمعي ، طبعة هفنر سنة ١٨٨٨ ثم الدكتور نوري حمودي في سنة ١٩٦٩ ، وطبع كرنكو كتاب أبي عبيدة سنة ١٣٥٨ ﻫ وطبع ديالا فيدا كتاب ابن الاعرابي سنة ١٩٢٨ . وطبع أحمد زكي پاشا « أنساب الخيل» لابن الكلبي .

أما الابل فذكر ابن النديم ممن أفرد لها كتاباً : النضر بن شميل (ت٢٠٤) (٥٧) وابا عمرو الشيباني (ت ٢٠٦)(٧٢) وابا عبيدة (ت ٢١٠)(٥٩) والأصمعي (ت ٢١٣) (٦١) وأبا زياد الكلابي (ت ٢١٥) (٥٠) وأبا زيد الأنصاري (ت ٢١٥) (٦٠) واحمد بن حاتم (ت ٢٣١)(٦١ و ٦٤)ويعقوب بن السكيت (ت ٢٤٤)(٧٩) وأبا حاتم السجستانى (ت ٢٥٥)(٦٤) والرياشي (ت ٢٥٧) (٦٤) وأبا الشمخ (٥٠) ونصر بن يوسف (٧٢) (٢٠٩) وقد طبـع من هذه الكتب كتاب الاصمعي الذي طبعه هفنر سنة ١٩٠٣ .

أما المؤلفات المفردة للغنم ، فان ابن النديم ذكر كتاب « الغنم » للنَّضْر ابن شُمَيْل (ت ٢٠٤)(٥٧) و « الشاة » لأبي عبيدة (ت ٢١٠)(٥٢) وصفات الغنم وعلاجها واسنانها للأخفش الأوسط (ت ٢١١) (٥٢) و « نعت الغنم »

و « الابل والشاة » و« المعزى » لأبي زيد (ت ٢١٥ هـ)(٦٠) و« الشاء » للاصمعي (ت ٢١٣ هـ) . وقد طبع الكتاب الأخير سنة ١٨٩٦ .

وذكر ابن النديم كتبا عنوانها « الوحوش» ألّف فيها الأصمعي (ت ٢١٣ هـ) (٦١) وثابت ابن أبي ثابت (ت ٢١٥ هـ)(٧٦) وأبو زيد الانصاري (ت ٢١٥ هـ) (٦٠) وسعدان بن المبارك (ت ٢٢٠ هـ)(٧٧) ويعقوب بن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) (٧٩) وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ)(٦٢) والسكري (ت ٢٧٥ هـ)(٨٦) وسليمان ابن الحامض (ت ٣٠٥ هـ)(٨٧) والكرنبائي (٧٧) وبندار الكرخي (٩١) وقد طبع من هذه الكتب كتاب الاصمعي طبعة جايس سنة ١٨٨٨ .

وفي الطير ألّف كل من النضر بن شُمَيْل (ت ٢٠٤ هـ)(٥٨) وأحمد بن حاتم (ت ٢٣١ هـ) (٦١) وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) (٦٤) كما ألّف أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) كتاباً في « الحمام» (٥٩) وقد فقدت هذه الكتب .

وفي الحَشَرات ذكر إبن النديم كتباً مفردة ألّفها أبو خيرة نَهْشَل بن زيد الأعرابي (٥٨) ويعقوب بن السكّيت (ت ٢٤٦ هـ)(٧٩) وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥)(٦٤) وهشام بن ابراهيم الكرنبائي (٧٧) .

وفي النحل ألّف أبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) (٧٥) والأصمعي (ت ٢١٣ هـ) (٦١) ومحمد بن إسحق الأهوازي (١٧١ و ١٩٧) .

وألّف علي بن عُبيدة « صفة النحل والبعوض » (٢٣٣) .

وفي الجراد ألّف المدائني (ت ٢٢٥ هـ) (١١٧) وأحمد بن حاتم (ت ٢٣١ هـ) (٦١) والأخفش الصغير (ت ٣١٥ هـ) (٩١) .

وألّف في الحيّات خلَف الأحمر (٥٥) وأبو عبيدة (٥٩) .

وألّف إبن الأعرابي (ت ٢٣١ هـ) كتاباً في الذُباب (٧٦) وابن قتيبة كتاباً في الهوام (٥٨) .

ذكرنا أن ابن النديم ذكر أسماء عددٍ من المؤلفات التي اختص كل منها بالنبات والشجر فذكر من الكتب التي عنوانها « النبَات » ألّفها إبن الأعرابي (ت ٢٠٣ هـ) (٧٦) ومحمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ)(١١٩) والسجستاني (ت ٢٥٥ هـ)(٦٤) وأبو سعيد السكري (ت ٢٧٥ هـ) (٨٦) وسليمان الحامض (ت ٣٠٢ هـ) (٨٧) والكرنباني (٨٧) وابو حنيفة الدينوري (ت ٨٦ هـ) .

وذكر إبن النديم كتباً عنوانها « النبات والشجر » ألّفها الأصمعي (ت ٢١٤ هـ) (٦١) وأبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥ هـ)(٦٠) وثلاثة كتب بعنوان « الشجر والنبات » ألّف كلاً منها أحمد بن حاتم (ت ٢٣١ هـ) (٦١) وابن السكيت (ت ٢٤٣ هـ) (٧٩) والبُسْتي (١٥٤) .

والكتب التي عنوانها الزرع ألّف فيها أبو عبيدة (ت ٢٠٧ هـ) (٥٩) والسجستاني (ت ٢٥٥ هـ) (٦٤) و « صفة الزرع لابن الاعرابي (ت ٢٠٣ هـ) (٦١) ، و « الزرع والنخل » لأحمد بن حاتم (٦١) و « النبت والبقل » لابن الأعرابي (٧٦) وكتاب « الزرع والنبات والنخل وأنواع الشجر » للمُفَضّل بن سَلَمَة (ت ٢٩٠ هـ) (٨٠) .

ولابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) كتاب النبات والشجر (طبع سنة ١٩٠٩) وكذلك للعجاج البصري (ت ٣٢٧ هـ) « كتاب الشجر والنبات » .

وألّف كتاباً عنوانه « النخلة » إبن الأعرابي (ت ٢٠٣) (٧٦) وأبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ)(٧٥) ، والسِجِستاني (ت ٢٥٥ هـ)(٦٤) وألّف الأصمعي (ت ٢١٣ هـ) « النخل والكرم » (٦١) والسجستاني « الكرم » (٦٤) و « العشب » (٦٤) .

يلاحظ من الجرد الذي عرضناه أن أبرز المؤلفين في هذه المواضيع هم الأصمعي ، وأبو عبيدة ، حيث كتب كل منهم في سبعة مواضيع ، ثم أبو عمرو الشيباني ، وأبو زيد الأنصاري ، وأبو حاتم السجستاني وقد ألّف كل منهم في خمس

مواضيع ، ثم أحمد بن أبي حاتم ، وأبو زياد الكلابي ، وقد ألّف كل منهما في أربعة مواضيع ، ثم ابن حبيب ، والنضر بن شُمَيْل ، وثابت بن أبي ثابت ، والمفضل بن سلمة ، والزجّاج ، وقد الف كل منهما في ثلاثة مواضيع ، وألّف في موضعين كل من ابن قتيبة ، وعمرو بن كركره ، وابن الأنباري والوشّاء ، وسعدان بن المبارك ، وسليمان الحامض ، وقطرب ، والكرنباني وأبو سعيد السكري وابن السكيت والرياشي .

تتسم مؤلفات هؤلاء المؤلفين بطريقة خاصة واسلوب في العرض يختلف عن مؤلفات المتأثرين بالثقافات الاجنبية ، ومن المعلوم أن عدداً من هؤلاء ألّف كتبا في موضوع أو أكثر من المواضيع التي يعني بها أصحاب الثقافة العربية كاللغة والانساب وتاريخ العرب .

مادة علمية في كتب عامة

ولا بد من الاشارة إلى مادة من هذا الموضوع مذكورة في كتب تشمل دراسات أوسع مثل أدب الكاتب ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وغريب المصنف للقاسم ابن سلام .

تضم الكتب المذكورة آنفاً تعابير لغوية ، ومعلومات عن المحسوسات المادية التي تبحثها ، وفيها أيضاً أوصاف لبعض المحسوسات ، والغالب أن هذه الكتب تعرض حقائق حول موضوع واحد ، مجموع بعضها مع بعض بصورة صُدَفيّة ، ودون أن تتبع ترتيباً معيناً ، وقلما يصحبها تحليل أو تعليل أو استنباط لقواعد عامة شاملة .

والمعلومات التي في هذه الكتب يقدمها المؤلف دون ذكر مصادره ، أو معلومات عن أسماء من روى عنهم ومكانتهم الثقافية ومدى تميزهم فيها ، وهو يذكر أحياناً اسم العشيرة التي يعم فيها هذا الاستعمال ، ومن الطبيعي أن المؤلف حصل على معظم معلوماته جواباً على أسئلة وجّهها ، فالمعلومات في الأصل جزء من ثقافة عامة لا شعورية ، ينقلها المؤلف الى الشعور ويدونها لأنه يريدها ،

أي أن المؤلف هو الذي اختار ما يدرسه من المعلومات ، ونظمها تبعاً لما يرتئي ، وهو متأثر بالبيئة الثقافية التي نشأ فيها ، فهي قد تكون بل الراجح ، جزءاً من المعرفة في المجتمع الذي نقلت عنه ، ولكننا لا نعلم مدى سعة معلومات المجتمع الذي استمدت منه ، وعدد المتبحرين فيه ، وتاريخ بدء الادراك الذي تطلب استعمال كلمة خاصة ومدى تطورها . فالمادة التي تقدمها هذه الكتب هي المعرفة العلمية المتراكمة ، وليس تاريخ تطورها . وان دراسة تطور هذه العلوم هو في الحقيقة دراسة تطور تدوين المعلومات عنها .

أما الكتب التي فيها معلومات عامة فأكثرها يحمل عنوان « النــوادر » وذكر ابن النديم منها ثلاثين مؤلفاً . ولبعض الكتب عناوين أخرى مثل « الصفات » او « المعاني » او « الغريب » ، وهذه العناوين تدل على أنها كانت تحتوي على معلومات عامة في نطاقها ، متفردة في معانيها وغير شائعة ولا مألوفة في مراكز العلم الرئيسة ، وهي الكوفة والبصرة وبغداد ، فاختيارها متأثر بنطاق واتجاهات المعرفة في هذه المراكز . وأغلب هذه الكتب تعني بتدوين وضبط المفردات اللغوية ، وتورد معلومات عن معنى هذه المفردات أو ما يتصل بهــا ، وأكثر اهتمامها منصبٌّ على ما يتعلق باللغة وضبط اللفظ ، غير أنها تعنى أيضاً بالمعنى ، فتنظم معلوماتها على أساس معين يساعد على فهم المعنى ، وقــد تشرح الكلمات التي توردها بما يوضح معناها . وفي عددٍ من هذه الكتب معلومات عن ما تهم بــه العلوم ، وخاصة خَلْق الانسان ، والحيوان ، والنبات ، والانواء .

إن أغلب هذه الكتب ألّفها نفس مؤلفي الكتب ذات السمة الاختصاصية ، وكلها ألفت في نفس المدة ، حيث أن مؤلفيها ممن توفوا في القرن الثالث الهجري وخاصة في نصفه الأول .

وصلت الينا أربعة من كتب النوادر هي ما ألّفه أبو مِسْحَل ، وأبو زيد ، وابن

الأعرابي وثَعْلب ، وهي تعني بالشعر واللغة ، وفي نوادر أبي مسحل معلومات عن النَخْل تشبه ما ورد في كتاب النخل » للأصمعي وما ورد في غريب المصنف لابي عبيد ، وقد نشر هفنر هذا الفصل ونسبه للأصمعي ، ثم أعاد لويس شيخو نشره في كتاب البُلْغَة .

اما الكتب التي عنوانها « الصفات » فقد ذكر إبن النديم من مؤلفيها النَضْر ابن شُمَيل (ت ٢٠٤)(٥٧) وقطرب (ت ٢٠٦) (٦٨) والأصمعي (ت ٢١٣) (٦١) ولُغْدة الاصفهاني(ت ٢١٣) (٦١) ويبدو أن مادتها مرتبة تبعاً للمواضيع وأشهر هذه الكتب هو كتاب الصفات للنضر بن شميل الذي يقول إبن النديم إنه « كتاب كبير يحتوي على عدة كتب : الجزء الاول يحتوي على خَلْق الانسان والجود والكَرَم وصفات النساء (؟) ، والجزء الثاني يحتوي على الأخبية والبيوت ، وصفة الجبال والشعاب ، والأمتعة ، والجزء الثالث للابل ، والجزء الرابع يحتوي على الغنم والطير ، والشمس والقمر والليل و النهار ، والألبان و الكماة والآبار والحياض والأرشية والدلاء ، وصفة الخمر ، والجزء الخامس يحتوي على الزرع والكرم والعنب ، واسماء البقول والأشجار ، والرياح والسحاب والامطار ، وكتاب السلاح ، وكتاب خَلْق الفَرَس » (إبن النديم ٥٧ إنباء الرواة ٣–٣٥٢ وفيات الاعيان ٢–٢١٤) .

أما الكتب التي عنوانها « الغريب المُصَنَّف » فإن إبن النديم يذكر إثنين منها أحدهما لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) (٧٥) والثاني لابي عبيد القاسم ابن سلام ت ٢١٠ (٧٨) ، وقد وصلت الينا نسخ مخطوطة من الكتاب الأخير ، وهو مُقَسَّم إلى حوالي ثلاثين قسماً ، يسمى كل منها « كتاب» ، منها كتاب لخلق الانسان ، وللاطعمة ، والأمراض ، والدور والأرضين ، والخيل ، والطير ، والحشرات وهذه الاقسام متباينة في طولها ، فبعضها يبلغ عدة صفحات ، وبعضها مكون من سطر أو أقل .

يقول ابن النديم إن أبا عبيد القاسم بن سلام أخذ كتابه « الغريب المصنف » من كتاب الصفات للنضر بن شميل(٥٧) ، و(انظر انباء الرواة ٣-١٤) ، غير أن هذا القول غير مصيب ، لان مقارنة الكتابين تظهر أن في كتاب أبي عبيد معلومات أوسع وأبواباً أكثر ، علماً بأن أبا عبيد إعتمد على عدد ممن سبقه ، وأشار إليهم في كتابه (انظر مصادر الدراسة اللغوية للدكتور محمد حسن آل ياسين (٢٩١ — ٣٠٢ ، ٢٢٨ — ٩) المعجم العربي الدكتورحسين نصار .

أمّا كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة فهو مكوّن من اثني عشر كتاباً، كل كتاب مقسم على عدة أبواب يبلغ مجموعها ١٨١ باباً ، ومما فيها كتاب الفرس ، والإبل ، والديار ، والرياح والسباع والوحوش ، والهوام . غير أن هذه الكتب غير موجودة في النسخ الباقية التي اعتُمد عليها في طبع الكتاب .

ونشير أخيراً الى كتاب الجراثيم ، ومنه نسخة مخطوطة في الظاهرية (رقم ١٥٩٦) وفي الكتاب فصول عن النفس والجسم، وعن الأزمنة والرياح وأسماء الدهر ، وعن السحاب والمطر ، والجبال والأرضين والفلَوات ، والنخل والكرم والخيل ونعوتها والسلاح واكتمالة ، والنعم والبهائم والوحوش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض . فأبوابه تشبه أبواب كتاب الغريب المصنف لابي عبيد ، وقد طبع هفنر في سنة ١٩٠٨ كتاب «النعَم والبهائم والوحوش» ، كما طبع كتاب «النخل والكرم » ، وأعاد طبعها لويس شيخو في سنة ١٩١٤ .

أثارت نسبة مؤلف الكتاب نقاشاً طويلا دون الوصول الى نتيجة ، ولكن الثابت أنه من مؤلفات القرن الثالث(انظر الدراسات اللغوية في العراق ٣١٣-٣٢١)

ومن الكتب التي عنيت بتدوين اللغة مُصنّفة حسب المواضيع ، هي الكتب التي الفت للكُتّاب ، وهم موظفو الدواوين الذين صاروا بعد تعريب الدواوين يكتبون بالعربية ، فكان عليهم إتقانها ، ومعرفة المعاني الصحيحة لمفرداتها لكي يتجنبوا باستعمالها الأخطاء التي قد تؤدي الى إرباك في الادارة وظلم للناس، ومن

أقدم هذه الكتب هو كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) (٨٦) الذي اعتبره ابن خلدون أحد الأركان الأربعة لأصول الأدب وللكتاب عدة شروح طُبع منها شرح البطليوسي ، وشرح الجواليقي .

ومن الكتب المهمة في هذا الموضوع كتاب « الخراج وصنعة الكتاب » لقدامة بن جعفر ، فيه فصول عن خَلْق الانسان وأعضائه وعن الخيل وشياتها ، بالاضافة الى مايذكره في فصل الخراج عن المزروعات . وفي فصلي خلق الانسان ، والخيل مفردات كثيرة تتصل بالتشريح وعلم الحيوان ، وكان هذا الفصل معتمد عدد من المؤلفين المتأخرين ومنهم عبدالرحمن بن عيسى الهمداني في كتابه « الألفاظ الكتابية » والنويري في « نهاية الأرب » .

★ ★ ★

وفي كتب الفقه معلومات عن الزرع والنبات والحيوان وبعض الظواهر الفلكية ، وهي مذكورة في الفصول التي لها صلة بها ؛ فأما الظواهر الفلكية فانها تذكر في الكلام عن الصلاة ، والصوم ، والحج ؛ وأما مايتصل بالنبات والزرع والحيوان والمياه فمذكورة في الفصول التي تدرس الزكاة والصدقات والخراج ، والسلم والسلف ، والبيوع والتجارات . وفي كتب الفقه المفصلة مثل « المدونة » لمالك ، و « الأم » للشافعي ، و « الخَراج » لأبي يوسف ، و« الاموال » لابن سلام معلومات واسعة ودقيقة عن هذه المنتوجات في صدر الاسلام ، تذكر ضمن نطاق الفقه ، وتظهر مدى أهمية مادة « العلوم » في الحياة اليومية .

يعتبر صاعد الأندلسي ان أبرز مساهمة لعرب الجزيرة هو ماكان لهم من « معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ماأدركوه بفرط العناية وطول التجربة ، لاحتياجهم الى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم » (طبقات الأمم ٤٥) .

ومما يؤيد عناية المؤلفين العرب بتدوين المعلومات عن الأنواء والأزمنة وأحوال الجو ، ان ابن النديم ذكر اسماء عشرين كتاباً عنوان كل منها « الأنواء » ألّفها مؤرج السدوسي (٥٤) وقُطْرُب (ت٢٠٦هـ) (٩٧) وابن كُناسة (ت٢٠٧هـ) (٧٧) والمُفَضّل بن سَلَمَة (ت٢٠٨هـ) (٨٠) والأصمعي (ت٢١٣هـ) (٦١، ٩٧) وابن الأعرابي (ت٢١٣هـ) (٧٦، ٩٧) وأبو الهيثم الرازي (ت٢٣٦هـ) (٨٦) ومحمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ) (٩٧، ١١٩) وأبو محلم (ت٢٤٨هـ) (٥٢، ٩٧) وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) (٩٧) وأبو حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ) (٨٦، ٩٧) والمبرد (ت٢٨٥هـ) (٦٥)، والزّجّاج (ت٣١٠هـ) (٩٧) ووكيع (ت٣١٤هـ) (٩٧ ، ١٢٧) وذكر أيضاً كتباً بهذا العنوان لكل من أحمد بن سليم الرازي (٩٧) وابن عمّار (٩٧) وابن غالب (٩٧) والمُرْثِدي ، وقال إن له « كتاب في نهاية الحسن (١٤٣) ، والوهبي (٩٧) وقد خصّ صاعد كتاب الدينوري بالذكر فقال « ولأبي حنيفة الدينوري احمد بن داود اللغوي كتاب شريف في الأنواء تضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الرياح وتفصيل الأزمان وغير ذلك من هذا الفن (طبقات الأمم ٤٥) ، ووصف ابن النديم كتاب المرثدي بأنه « كبير في غاية الحسن » (١٤٣) .

وذكر ابن النديم أنّ لكل من ابن خرداذبه (١٦٥) وأبي معشر (٣٣٦) كتاباً في الأنواء وأن للمفضّل بن سَلَمة « كتاب الأنواء والبوارج » (٨٠) وللمبرد (ت٢٨٥هـ) « كتاب الأنواء والأزمنة » (٦٥) وذكر البيروني للكلثومي كتاباً في الأنواء « الآثار الباقية » (٣٣٦) وقد ذكر نالينو معظم هذه الكتب في القائمة التي نشرها في كتابه « تاريخ علم الفلك عند العرب» ص ١٢٨-١٣٣

وذكر ابن النديم كتباً بعنوان « الأزمنة » ألفها كل من قُطْرُب (ت١٠٦هـ) (٥٨) والمُبَرِد (ت٢٨٥هـ) (٦٥) وابن دُرُسْتَوَيْه (ت٣٤٧هـ) (٦٩)، وابن

عبّاد المهلبي (١٩٧) وأبو عبيدالله بن المرزبان الذي يذكر ابن النديم أن له « كتاب الأزمنة ، فيه أحوال الفصول الأربعة للصيف والشتاء والاعتدالين ، ووصف الحر والبرد والغيوم والبرق والرياح والامطار والرواد والاستسقاء وغيز ذلك مما يدخل في جملتها من أوصاف الربيع والخريف ، ثم يذكر طرفاً من أمر الفلك والبروج والشمس والقمر ومنازله ونعوت العرب له ، وأسجاعها ، ويذكر النجوم السيارة والثابتة وأحوال الليل والنهار ، وأيام العرب والعجم والشهور والسنين والاعوام والدهر ، وماجاء في كل باب من أبواب هذا الكتاب من اللغة والأخبار والأشعار مشروحاً نحو ألفي ورقة (١٤٧ــ ٨) .

وألّف أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) كتابين عنوان أحدهما «الشتاء والصيف وعنوان الثاني « الحر والبرد والشتاء والقمر والليل والنهار » (٦٤)

وألّف الاصمعي (ت ٢١٣ هـ) كتاباً عنوانه « الاوقات » (٦١)
والف ابن السكيت كتابي « الأيام والليالي » و « الأيام والليالي والشهور » (٧٩) .

والف الزيادي كتابه « اسماء السحاب والرياح » (٦٣)

وألف ابن السراج « الرياح والهواء والنار » (٢٦٨) وذكر كتاب الليل والنهار والأموال لعمر السلمي (٢٠٧) « كتاب الأنواء » و « الاوقات » و « طبائع البلدان وتولد الرياح » و « الاوقات مع اثنا عشرية الكواكب » لأبي معشر (٣٣٦) .

والف سهل بن بشر « الاوقات » و « الأمطار والرياح » (٣٣٣) و « الأمطار الرياح وتغير الاهوية » (٣٣٦) .

ويلاحظ أن كلا من فاليس (٢٢٨) وابن سموية (٣٣٧) وان كندي

« علة انواع السنة » (٣١٩) و « علة الرعد والبرق والرياح والصواعق » (٣٢٠) و « علة البرد المسمى برد العجوز » (٣٠٩)

اما في الاعياد فقد ألف الصاحب بن عباد « الاعياد وفضائل النيروز » (١٥٠) وألف الكسروي « الاعياد والنواريز » (١٦٧) ، وألف عَبّاد بن هارون بن علي بن يحيى « النوروز والمهرجان » (١٦١) .



الألبسة العربية في القرن الأول الهجري

دراسة أولية

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الثالث عشر
1385هـ -1966م

الألبسة العربية في القرن الأول الهجري

دراسة أولية

الدكتور صالح احمد العلي

لدراســـة الألبسة أهمية كبيرة في تاريخ الحضارة عموماً ، فهي من الأدلة على المستوى الذي وصلته الحضارة المادية ، وعلى الطبقات الاجتماعيـــة وتمايزها ، والثروة ومداها ، كما تدل على رقي الصناعات المحلية وازدهار التجارة ، وكذلك على مستوى الاسعار ومستوى المعيشة ؛ وهي تدل على الأذواق وتطورها .

وقد اعتمدت الامبراطورية الاسلامية في أوائل تكوينها على العرب من أهل الحجاز ثم من أهل الجزيرة ، الذين استطاعوا بمدة لا تزيد على الربع قرن من توسيعها حتى أصبحت تشمل الأقاليم الواقعة بين نهر جيحون والمحيط الاطلسي ؛ واصبحت أراضيها الواسعة تضم شعوباً وأناساً متباينين في أســاليب حياتهم ومستويات حضارتهم . ولا يخفى ان هذا التباين والتنوع كان موجوداً حتى عند العرب الذين كانوا نواة الاسلام والكتلة المسيطرة على ادارة الدولة . ذلك ان الجزيرة العربية التي جاء منها العرب لم تكن فيها حضارة واحدة عامة ، بل كانت فيها مجتمعـات متباينة في أساليب حياتها ومستوياتها الاجتماعية ، فمع ان أغلب الجزيرة صحراء يجوبها ويستقر في واحاتها البدو ، إلا أن فيها مناطق زراعية واسعة ،

كما ان فيها مراكز صناعية ، وفيها عدد من المدن ؛ يضاف إلى ذلك أن التكوين الاجتماعي فيها لم يكن واحداً ، فقد كان فيها الاغنياء والمترفون، وفيها متوسطو الحال والفقراء ، كما ان العرب في الجزيرة لم يكونوا منعزلين عن العالم المحيط بهم ؛ فقد تعرضت الأراضي الواقعة في أطرافها إلى اثر الأجانب ، كالفرس في البحرين ، والروم في فلسطين والأردن ، والاحباش والفرس في اليمن . ثم إن التجارة العالمية التي ساهم فيها العرب أدت بهم إلى الاحتكاك والاتصال مع كافة الاقطار المجاورة ، وربما البعيدة أيضاً .

وقد أدى تكوين الامبراطورية الاسلامية إلى ازدياد اتصال العرب بالأقاليم والشعوب الاخرى ، حيث هاجر عدد كبير منهم إلى الاقاليم المفتوحة باعتبارهم جنوداً وقواداً ، أو إداريين ، أو تجاراً ، ومع ان بعضهم استقر في الأقاليم المفتوحة ، إلا أن فريقاً غير قليل منهم كانت هجرته موقتة ، وكان يعود بعد اداء مهمته إلى موطنه الأصلي . ولا يخفى ان الدولة الاسلامية في القرن الأول الهجري اتبعت سياسة الباب المفتوح ، فأباحت تنقل الاشخاص والسلع ، ولم تفرض عليها قيوداً مانعة ، كما لم تفرض على الناس أزياءً خاصة، اللهم الا ما يقال أنها فرضت على أهل الذمة أن يحتفظوا بأزيائهم الخاصة ولا يتزيوا بزي العرب . وقد أدت هذه الحرية الى اقتباس الناس ألبسة لم تكن مألوفة عندهم ، وأخذت السلع تأتي إلى الحجاز ، مثلاً ، من مختلف الاقاليم القريبة والنائية ، كهراة ونيسابور والري ، فضلاً عن العراق وبلاد الشام ومصر . وأخذ بعض الناس يقلدون الأزياء الاعجمية ، فيقول الجاحظ « وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان لا تفصل بين من نزل أبوه بفرغانه وبين أهل فرغانه ، ولا ترى بينهم فرقاً في السبال الصهب والجلود القشره والاقفاء العظيمعة والأكسية الفرغانية وكذلك جميع تلك الارباع لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة (مناقب الأتراك في مجموعة رسائل الجاحظ ١/٦٣ـ٦٤ .)

ويقول مالك ان الخياطة من عمل الموالي (مدونة ٤/٣٩٥) أي من حرف الأعاجم وهو

يشير بذلك الى المدينة في القرن الثاني الهجري ، ولا شـك ان سيطرة الاعاجم على الخياطة جلب معه الاذواق والاساليب الاعجمية أيضاً .

ثم ان الفتوح الاسلامية أدت إلى زيادة موارد العرب ، والى رقي مسـتوى المعيشة ، وازدياد البذخ في الالبسة وخاصة في الامصار الاسلامية ، وربما في المراكز القريبة منها ؛ وقد تجلى هذا البذخ في كمية وأنواع الملبوسات التي استعملها مختلف طبقات الناس .

وفي بداية التاريخ الاسلامي يقف الرسول الأعظم ، وهو أعظم شخصية في الاسلام ؛ اهتم المسلمون بتدوين اعماله واخبـاره ومختلف جوانب حياته ، وكان مما تنـاولوه الالبسة التي كان يستعملها الرسول أو كانت في زمنه ، وقـد خص المحدثون وكتاب السير ألبسته بفصول خاصة . ويبدو مما كتبوه ان الرسول كان يهتم بنظافة ثيابه وبساطتها دون الترف ، فيروي البخاري « ان الرسول (ص) صلى ملتحفاً في ثوب واحد (بخارى : لباس جزيه ٩) ويروي النسائي عن عمر بن أبي سلمة انه رأى رسول الله (ص) يصلي في ثوب واحد في بيت أم سلمة واضعاً طرفيه على عاتقه (النسائي ١/١٢٤ أنظر أيضاً ابن حنبل ٣/١٠/١٥/٤/٢٦) كما يروى عبد الرحمن عمن أخبره انه « رأى النبي (ص) صلى في ثوب واحد متوشحاً بـه »

لقيت الالبسة والثياب اهتماماً من العلماء القدماء وخاصة اهل اللغة واصحاب المعاجم ، فخصص معظم مؤلفي كتب الادب وفقه اللغة فصولاً للثياب وانواعها وانسجتها وزخارفها وتفصيلها . كما ذكر اصحاب المعاجم الالبسة في معـاجمهم ؛ ولعل اعظمهم هو ابن منظور الذي ذكر في معجمه العظيم « لسان العرب » مختلف انواع الالبسة والثياب ، موزعـة حسب امكنتها من الترتيب المعجمي الذي سار عليه واورد عند الكلام عن كل ثوب ولباس ما قاله في تعريفه اللغويون القدماء كالاصمعي وابي عبيد والجوهري وابن سيده ، واشار الى استعمال الرسول له ، معتمداً في ذلك على ابن الاثـير ، وذكر بعض الابيـات التي ورد فيها ؛ ولمعلوماته قيمة كبيرة ، غير ان وصفه نظري ، كما انه لا يشير دائماً الى زمان ومكان

استعمال الثوب الذي يتحدث عنه لذلك فقد اقتصرنا على الثياب التي نصت المصادر الاخرى استعمالها ابان القرن الاول الهجري .

وقد التفت بعض كتاب التراجم والمؤرخين الى الالبسة ، وعنوا بذكر الثياب التي كان يلبسها الرجال الذين تناولهم بالبحث اولئك المؤلفون ويقف ابن سعد في طليعتهم ، حيث انه في كتابه العظيم « الطبقات الكبيره » ذكر الثياب والالبسة التي كان يرتديها كثير من ترجم لهم ، وبذلك مكننا من معرفة كثير من الثياب المستعملة في القرنين الاول والثاني اللذين عنى بتدوين اخبار رجالهما ، ومن تكوين فكرة عن المكان الذى ساد فيه استعمال ذلك الثوب . ولكن بالرغم من كثرة عدد من ترجم لهم ابن سعد ، فان تراجمه كانت اخص بالاتقياء والورعين والبارزين من الصحابة والتابعين واهل الامصار

وفي تاريخ الطبري اشارات الى ثياب بعض الخلفاء ورجال الحكم والادارة ، كما ان في كتاب الاغاني اشارات كثيرة الى ثياب المترفين والارستقراطية والمغنين وبعض البدو ، وهذه المادة تكمل ما في كتاب ابن سعد من نقص .

غير ان هذه المصادر الثلاثة ، بالرغم من المعلومات القيمة التي فيها عن ثياب طبقات مختلفة من اهل القرن الاول ، فان اهتمامهم انصب بالدرجة الاولى على العرب المسلمين من اهل الامصار ، فلم يلتفتوا الى ثياب اهل الذمة والاعاجم ، والبسة الفلاحين من اهل الريف او البدو من اهل الصحراء .

ويتبين مما تقدم اني اعتمدت في مقالي هذا على مصادر مكتوبة يرد فيها ذكر اسم الثوب مجرداً او مع وصف مقتضب للثوب وطريقة استعماله . وهي لا تكفي لتكوين صورة كاملة او واضحة للالبسة . كما لا ادعي اني استوعبت كافة الاشارات الى الالبسة في المصادر العربية ، غير اني ، بالرغم من ذلك ، اعتقد ان المادة التى سأعرضها تقدم اساساً للباحثين في هذا الموضوع الدقيق .

(مساند أبي حنيفة ١/٣٥٠) انظر عن صلاة الرسول في ثوب واحد أبو داود : صلاة ٧٧ ابن حنبل ٣/١٠ .

غير إن تطور مستوى المعيشة بعد زمن النبي أدى إلى اهتمام الناس بالثياب حتى ان مروان بن ابان بن عثمان طلع مرة « وعليه سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ورداء عدني بثمن الفي درهم » (أغاني ١٧/٨٩) ويبدو أن الاكثار من الألبسة لم يقتصر على الارستقراطية بل عم الناس ، حتى ان جابر بن عبد الله « أمهم في قميص ومعه فضل ثيابه يعرفنا سنة النبي » و « انه أمهم في قميص ليس عليه إزار ولا رداء ليعلمنا انه لابأس بالصلاة في ثوب واحد » (مساند أبي حنيفة ١/٣٤٩) ويروي محمد بن المنكدر « صلى جابر في إزار قد عقده من قبل قفاه وثيابه موضوعة على المشجب ، فقال له قائل تصلي في إزار واحد ؟ فقال إنما صنعت هذا ليراني أحمق مثلك وأينا كان له ثوبان على عهد رسول الله « بخاري : كتاب الصلاة باب ٣) ويروي الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة » إن سائلاً سأل رسول الله (ص) عن الصلاة في الثوب الواحد فقال أو لكلكم ثوبان » (البخاري كتاب الجزيه الباب ٩) . ويروى ابن حنبل بعدة مساند « قال أبيّ بن كعب الصلاة في الثوب الواحد سنة كنا نفعله مع رسول الله (ص) ولا يعاب علينا ، فقال ابن مسعود إنما كان ذلك إذا كان في الثياب قلة ، فأما إذا وسع الله فالصلاة في الثوبين أزكى » ابن حنبل (٥/١٤١) .

يذكر ابن منظور صنفين من الألبسة ؛ ما يقطع وما لايقطع » والمقطع من الثوب كل ما يفصل ويخاط من قميص وجباب وسراويلات وغيرها ، وما لايقطع منها كالأردية والأزر والمطارف والرياط التي لم تقطع وانما يتعطف بها مرة ويتلفع بها أخرى ، (لسان ١٠/١٥٥) وهذا القول على أهميته مقتضب ، لأنه لا يشمل كافة الثياب ، ولذلك سنبحثها فيما يلي مراعين تشابهها بقدر الامكان .

أنواع الألبسة

الرداء :

لقد ذكرت المصادر رداءً سنبلانياً كان على الامام علي (سعد ١٣/ ١٨) ورداءً منتناً كان على القاسم بن محمد (سعد ٥/١٤٢) ورداءاً قرقبيـاً مفتولاً كان على محمد النفس الزكية عند ما ثار (طبري ٣ / ١٦٩)

وتذكر كثير من النصوص الاردية مصبوغة أما بالعصفر كالرداء الذي كان يستعمله عروة بن الزبير (سعد ٥/١٣٤) أو ممصراً أو بالزعفران كالرداء الذي لبسه القاسم بن محمد حين اعرس (سعد ٥/١٤٢) وكالرداء الذي كان يلبسه الوليد بن يزيد عند ما دخل عليه .. (أغاني ٢/٢١٠، ٦/٧٩) .

والغالب ان الرداء يلبس مع الإزار ويلبس الازار مع ألبسة أخرى ، وخاصة مع لرداء كما ذكرنا عند الكلام عن الرداء حيث تردد ذكرهما معاً في احاديث عن الرسول « وهو متزر بازار ليس عليه رداء .. عليه رداءه وازاره .. دخل على رسول الله في ازار ورداء .. صلى جابر في ازار ورداء .. ليحرم أحدكم في ازار ورداء ونعلين على بردتين متزراً باحداهما مرتدياً بالاخرى . (أنظر عن مواضع هذا الحديث في كتب الصحاح الستة : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي » ويذكر ابن سعد انه كان للرسول برد يمنه وازار من نسيج عمان « فكان يلبسهما يوم الجمعة ثم يطويان (سعد١ـ١/١٠) ويروي ابن سعد عن رجال قال احدهم : « ربما رأيت علياً يخطبنا وعليه ازار ورداء مرتدياً به غير ملتحف وعمامة فينظر إلى شعر رأسه وبطنه » (سعد ٣ـ١ / ١٧) و « رأيت علياً وهو يخرج من القصر وعليه قطريتان : ازار إلى نصف الساق ورداء مشمر قريب منه » (سعد ٣ـ١/١٨) وقد دخل حماد الراوية على الوليد بن يزيد « فاذا هو على سرير ممهد وعليه ثوبان ازار ورداء يقيئان الزعفران قيئاً » (اغاني ٢/٢١٠ ، ٦/٧٩) .

وقد يلبس الرداء مع القميص فيروى خالد بن اياس « رأيت على سعيد بن المسيب قميصاً الى

نصف ساقيه وكميه طالعة أطراف اصابعه ورداء فوق القميص خمس أذرع وشبراً » (سعد ٥/١٠٣) وكان على محمد النفس الزكية حين ثار « قميص غليظ ورداء قرقبي مفتول » (طبري ٣/١٦٩)

وقد يلبس الرداء مع الازار والقميص فتروي أم كثير انها رأت علياً ومعه مخفقة وعليه رداء سنبلاني وقميص كرابيس وازار كرابيس إلى نصف ساقيه الازار والقميص » (سعد ٣ قسم ١/١٨) . ويروي الكليني ان الامام علي اشترى ثلاثة أثواب « القميص إلى فوق الكعب ، والإزار الى نصف الساق ، والرداء من بين يديه الى ثدييه ومن خلفه إلى إليته » ويروي رجل إن علياً عند ما قتل كان عليه قميص « فشبرت بدنه فاذا هو ثلاثة أشبار وشبرت أسفله فاذا هو اثنا عشر شبراً » (الكافي ٦/٤٥٦ ـ ٧) ويقول الأعمش : « رايت ازار ابي وائل الى نصف ساقيه وقميصه فوق ذلك ورداءه فوق ذلك ومجاهد مثل ذلك » (سعد ٦ / ٦٨) وقد يلبس الرداء مع الثياب فيروي ابن قتيبة عن عبد الله بن جعفر « رأيت رسول الله (ص) عليه ثوبان مصبوغان بالزعفران ورداء وعمامة » (عيون ١ / ٢٩٨) ويروي جرير بن عثمان انه رأى عبد الله بن بسر « مشمراً ورداءه فوق القميص » (ابن سعد ٧ قسم ٢/١٣٢) .

الازار :

الازار من الالبسة التي ورد ذكرها في كثير من احاديث الرسول (أنظر مادة أزار في المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي) كما تردد ذكره في كتب التراجم ، الأمر الذي يدل على شيوعه .

يختلف طول الازار : فكان للنبي « أزار من نسيج عمان طوله أربع أذرع وشبر في ذراعين وشبر » (سعد ١ قسم ١/١٠) وكان « سالم بن عبد الله يأتزر بازار قصير ليس له حاشية (سعد ٥/١٤٦) وكان ازار ابن عمر فوق العرقوبين ودون العضلة (سعد ٤ قسم

١٢٨/١) وكان « ازاره إلى نصف الساق » (ابن حنبل ٣/٩٨) وكان « ازار أبي وائل إلى نصف ساقه » (سعد ٦/٦٨) (وأنظر أيضاً عن الازار إلى نصف الساق حنبل (٤/٦٥، ١٨٠ ؛ ٥/٦٤ ، ٢٧٨) وكان ابن عمر « ازاره إلى نصف قميصه » (سعد ٤ قسم ١٢٩/١) وروي ان الامام علي كان يأتزر فوق السرة (سعد ٣-١/١٧) ويروى عن الرسول أنه قال : « ما أسفل من الكعبين من الازار ففي النار . . و . . ازرة المؤمن إلى نصف الساق ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين (لسان ٥/٧٣-٤) .

ويعتبر اسبال الازار وارخاؤه من الخيلاء ، فقد قال رجل لابن اخي خالد بن الوليد : « يا خالد اتدع ابن اثال يفني أوصال ابن عمك بالشام وانت بمكة مسبل ازارك تجره وتخطر فيه متخايلاً » (اغاني ١٥/١٣) وكان ازار الشعبي مسترخياً (ابن سعد ٦/١٧٧) وتروى عن الرسول احاديث في النهي عن اسبال الازار أو جره خيلاء (أنظر المعجم المفهرس مادة ازار) ويبدو أن القرشيين عرفوا بارخاء الازار فقد قال الاخطل :

مشى قرشية لا شك فيها وأرخى من مآزره الفضولا

(أغاني ٨/٢٩٦) .

ويلبس الازار باشكال مختلفة : فيروي الامام علي « قال لي رسول الله (ص) إذا كان ازارك واسعاً فتوشح به ، وإذا كان ضيقاً فأتزر به » (سعد ٣-١/١٩) وقد لبس عدد من الصحابة الازار محللاً ، فيروي كثير بن زيد : « رأيت سالم بن عبد الله يصلي في قميص واحد محلل الازار (سعد ٥/١٤٦) ويقول الازرق بن قيس : « ما رأيت ابن عمر إلا وهو محلول الازار » (سعد ٤-١/١٢٨) .

ويروي الاصفهاني « أول من عقد من النساء في طرف الازار زناراً وخيط ابريسم ثم تجعله في رأسها فيثبت الازار ولا يتحرك ولا يزول ميتم » (اغاني ٧/٣٠٢) كما يذكر مرور ابن تيزن المغني وقد أتزر بمئزر على صدره وهي أزرة الشطار عندنا » (الاغاني ١/٤٠٨ ، ٦/٣٣٩) .

وقد يلبس الازار مع القميص، فيروي زريق أن الحسين جاء مرة « وعليه قميص قوهي وازار مصبوغ بزعفران » (انساب الاشراف ٤ـ٢/٢٢) وكان « ابن عمر يتزر فوق القميص في السفر » (سعد ٤ـ١/١٢٨) وقد كان « ابن عمر يمشي بين ثوبين كأني انظر إلى عضلة ساقه تحت الازار والقميص فوق الازار » (سعد ٤ـ١/١٢٨) ويروي قدامة أنه رأى علياً يخطب « عليه قميص قهز وازاران قطريان » (سعد ٣ـ١/١٦) ، وكان أبو هريرة يكره أن يأتزر فوق قميصه (سعد ٤ـ٢/٥٩) .

وقد يلبس القميص مع البسة أخرى : فقد روى أبو ظبيان « خرج علينا علي في ازار اصفر وخميصة سوداء (سعد ٣ـ١/٢٠) . وروي الاعمش « رأيت ازار أبي وائل إلى نصف ساقيه ، وقميصه فوق ذلك ورداؤه فوق ذلك ، ومجاهد مثل ذلك » (سعد ٦/٦٨) . ويروي أيوب « أمنا سالم في قميص وجبه وقد اتزر فوقها (سعد ٥/١٤٦) و « لما صار بنو الحسن إلى الربذة دخل محمد بن عبد الله علي بن جعفر وعليه قميص وساج وازار رقيق تحت قميصه » (طبري ٣/١٧٦) . كما قد يلبس مع الملحفة كما سنذكر فيما بعد .

وقد منع عمر بن عبد العزيز دخول الحمام بدون ازار (سعد ٤ـ١/١٢٧) .

وقد ذكرت ازر من عمان (سعد ١ـ١/١٠) وازر قطرية (سعد ٣ـ١/٢٣٧ ، ٧/١٦) وقد يكون الازار اصفراً كازار عمر يوم أصيب (سعد ٣ـ١ / ٢٥٢) ومثل إزار علي (سعد ٣ـ١/ ٢) أوموردا أومصبوغاً بالزعفران مثل إزار الحسين (أنساب ٤ـ٢ / ٢٢٩) وازار الوليد بن يزيد (اغاني ٩/٢٦٣) مثل إزار الشعبي (سعد ٦/١٧٧) أو أحمراً (اغاني ٢/٣١٥) .

القميص :

يعتبر القميص من المقطعات عند البعض ، على ما يروي ابن منظور (لسان ١٠/١٥٥) .

ويعمل القميص من الثوب ، فيروى عن حجاج الصواف انه قال : « أمرني عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة أن اشتري له ثياباً ، فاشتريت له ثياباً فكان فيها ثوب باربعمائة فقطعه قميصاً ثم لمسه بيده فقال ما اخشنه واغلظه » (سعد ٥/٢٤٦) .

وللقميص أكمام فكان « كمي القاسم بن محمد قميصه وجبته تجاوز اصابعه باربع اصابع أو شبر أو نحوه » (سعد ٥/١٤٠) وكان قميص الامام علي « إذا مد كمه بلغ الظفر فاذا ارخاه .. بلغ نصف ساعده ، وقال عبد الله بن نمير بلغ نصف الذراع » (سعد٣ـ١/١٧) أما قميصه السنبلاني فقد جاءه خياط فمد كم القميص فامره أن يقطعه من خلف اصابعه (سعد ٣ـ١/١٨) .

اما طول القميص فيختلف ، فكان : « علي سعيد بن المسيب قميصاً إلى نصف ساقيه : كميه طالعة اطراف اصابعه ورداءً فوق القميص خمس اذرع وشبراً » (سعد ٥/١٠٣) وكان على سالم بن عبد الله » قميص إلى نصف ساقه » (سعد ٥/١٤٦) ، أما عمر بن عبد العزيز فكانت « قمصه وجبابه فيما بين الكعب والشراك » (سعد ٥/٢٩٨) .

وقدتبدلت اساليب لبس القميص فيروي ابن قتيبة « قال معمر رأيت قميص ايوب يكاد يمس الارض فكلمته في ذلك فقال إن الشهرة فيما مضى كانت في تذييل القميص وأنها اليوم في تشميره » (عيون الاخبار ١/٢٩٨) ويروى أن الرسول قال إن المحرم : « لا يلبس القميص ولا العمامة ولا البرنس ولا السراويل ولا الخفين الا لمن لا يجد نعلين » (الأم ٢ / ١٢٥ مسند الشافعي ١ / ١٣٠)

وقد ذكر من الوان القمصان البيضاء والسوداء ، فيروى الطبري ان محمد النفس الزكية جاء عند ثورته « وعليه قميص ابيض محشو وعمامة بيضاء » (طبري ٣ / ٢٢٤) ويروى الاصفهاني ان الفرزدق جاء مرة « وعليه قميص اسود وقد شقه الى سرته » (اغاني ٩ / ٤٠)

وقد تصنع القمصان من الكتان حيث يروى انه « كان لسالم بن عبدالله قميص كتان » (سعد ٥ / ١٤٦) او قد تصنع من الكرابيس : فقد ذكر عطاء « رأيت على علي قميصاً من هـذه الكرابيس غير غسيل » (سعد ٣ ـ ١ / ١٧) . كما ذكر القميص المكفف بالديباج (انظر ديوان الهذليين قطعة رقم ١٣٠)

واشهر القمصان التي تردد ذكرها هي القوهية ثم الرازية ثم الهروية (انظر عن المصادر التي ذكرتها مقالي عن مراكز الانسجة في القرن الاول الهجري : مجلة الابحاث (ج/ ٤ مجلد ١٤ سنة ١٩٦١) .

ويلبس القميص مع الرداء كما ذكرنا من قبل او مع الجبة (سعد ٥ / ١٤٦) وقد تلبس فوق القميص الملحفة (سعد ٥ / ١٣٤) والملاءة (اغاني ٨ / ١٥)

الملحفة :

يقول ابن منظور : « اللحاف والملحف والملحفة اللباس الذي فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه وكل شيء تغطيت به فقد التحفت به . والملحفة عند العرب الملاءة السمط فاذا بطنت ببطانة أو حشيت فهي عند العوام ملحفة (لسان ١٢/٢٢٥) ويقول في مكان آخر « الازار الملحفة » (٥/٧٣) .

وتذكر أغلب النصوص الملحفة المعصفرة ، فقد كان يلبسها خارجة بن زيد (سعد ٥/١٩٤) وعمر بن أبي ربيعة (اغاني ٨/٢٧٨) والقاسم بن محمد (سعد ٥/١٤٢) كما ذكرت ملحفة صفراء لبسها عمر بن الخطاب (سعد ٣/٢٣٧) ومحمد بن الحنفية (سعد ٥/٨٤ أنظر أيضاً اغاني ١/١٠٦) ، كما ذكرت الملحفة الحمراء وقد استعملها علي بن الحسين (سعد ٥/١٦١) ومحمد بن علي (سعد٥/٢٣٦) وابراهيم النخعي (سعد٦/١٩٦ـ١٩٧)

وابراهيم التيمي (سعد ٦/١٩٩) . وقد تكون الملحفة موردة (اغاني ٢/١١١) .

وقد تلبس الملحفة مع القميص فقد روى عن عروة بن الزبير « أنه كان يصلي في قميص وملحفة مشتملاً بها على القميص » (سعد ٥/١٣٤) . أو تلبس مع الازار ، فيروي سلمة بن كهيل « ما رأيت ابراهيم في صيف قط إلا وعليه ملحفة حمراء وازار اصفر » (سعد ٦/١٩٦-٧) .

وقد ورد عن طريقة لبس الملحفه نص : فيروي عيسى بن حفص « رأيت القاسم بن محمد وعدناه في مرضه عليه ملحفة معصفرة قد أخرج نصف نخذه منها (سعد ٥/١٤٢) ويروي موسى بن نافع أن ابن جبير يصلي وعليه ملحفة شقتان ملفقة » (سعد ٦/١٨٦) .

الملاءة :

يذكر ابن منظور أن « الملاءة الريطة وهي الملحفة .. وفي الحديث .. فرأيت السحاب يتمزق كانه الملاءة حين تطوى .. وهي الازار والريطة » (لسان ١ /١٥٥)

لقد ذكرت الملاءة في عدد من النصوص ووصف لونها فمنها : الصفراء فكان « على عثمان ملاءة صفراء » (انساب الاشراف ٥ / ٤)وكان لابراهيم النخعي « ملاءتين صفراوين يخرج فيهما الى المسجد الجامع ويجمع فيهما » (سعد ٦ / ١٩٧) وكانت له ايضاً ملاءة « حمراء يصلي بنا فيها ها هنا » (سعد ٦ / ١٩٧) « وكان سعيد بن المسيب يلبس ملاءة شرقية» (سعد٥/٩٩) وكان على الوليد الثاني « ملاءة مطيبة »(اغاني ١ / ٥٢) .

ويتبين من هذه النصوص ان الملاءة كانت من البسة الرجال في الحجاز والكوفة والشام .

الريطة :

يقول ابن منظور « الريطة الملاءة اذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين وقيل

الريطة كل ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد ، وقيل هو كل ثوب لين دقيق والجمع ريط ورياط قال :

لا مهـل حتى تلحقي بعنس اهـل الرياط البيض والقلنسى

قال الازهري لا تكون الريطة الا بيضاء والرائطة كالريطة ، (لسان ٩ / ١٧٨)

وقد ذكرت الريطة من بعض النصوص فيروى ابو عبيده عن ابيه « دخل علينا كثير يوماً وقد اخذ بطرف ريطته والقى طرفها الآخر وهو يقول . . » (اغاني ٨ / ١٢٥) ويقول عمارة بن الوليد :

خلق البيض الحسان لنا وجياد الريط والازر

(اغاني ٩ / ٤٩)

ويذكر ابو نعيم عن عبد الملك بن شداد بن الهاد انه رأى « عثمان يوم الجمعة على المنبر عليه ازار عدني غليظ . وريطة كوفية ممشوقة » (حلية ١ / ٦٠) ويذكر مالك « الرائطة من نسج الولائد » (مدونة ٩ / ١٣١ ، ٢٤)

الدراعة :

كانت الدراعة من اهم ثياب النساء زمن الرسول حين كانت الثياب بسيطة وقليلة ، فيروى عن عائشة انها قالت « . . كان لاحدانا الدرع فيه تحيض وفيه تصيبها الجنـابة » (انظر معجم فنسنك مادة درع)

وقد ذكرت الدراعة لباساً للنسـاء في عدة نصوص (اغاني ٢ / ٢٨١ سـعد ٨ / ٣٥٨ — ٩) وللرجال اغاني ١ / ٤٦ ، ١١ / ١٧١)

وقد تكون الدراعة صفراء (اغاني ١١ / ١٧١) او موردة (سعد ٨ / ٣٥٨ / ٣٦٣) او مورسة (اغاني ٢ / ٢٨١) او مصبوغة بالزعفران (اغاني ١ / ٤٦)

الخميصة :

يقول الثعالبي « الخميصة كساء اسود اسود مربع له علمان ، عن ابي عبيد ، وعن الاصمعي ان الخميصة ملاءة معلمة من خز او صوف » (فقه اللغة ٢٤٦) ويذكر ابن منظور « الخميصة برنكان اسود معلم من المرعز والصوف ونحوه ، والخميصة كساء اسود مربع له علمان ، فان لم يكن معلماً فليس بخميصة .. وفي الحديث جئت اليه وعليه خميصة ، تكرر ذكرها في الحديث ، وهي ثوب خز او صوف معلم ، قيل لانسمى خميصة الا ان تكون سوداء معلمة وكانت من لباس الناس قديماً وجمعها الخمائص ثياب من خز ثخان سود وحمر ولها اعلام ثخان ايضاً » (لسان ٨ / ٢٩٦)

وقد ذكرت الخميصة في زمن الرسول ، فيروى انه قال « تعس عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة » (بخارى كتاب الجهاد ٧٠ ابن ماجة : الزهد ٨) مما يدل على انها من البسة المترفين .

وقد ذكرت خميصة سوداء لبسها عثمان (سعد ٣ ـ ١ / ٣٩ انساب الاشراف ٥ / ٣) كما لبسها علي مع ازار اصفر (سعد ٣ ـ ١ / ٢٠)

البرنكان :

يقول ابن منظور « البرنكان ضرب من الثياب عن ابن الاعرابي .. الجوهري البرنكان ضرب من الاكسية ، قال الفراء البرنكان كساء من صوف له علمان » (لسان ١٢ / ٢٨١) لقد ذكرنا أعلاه قول ابن منظور ان الخميصة برنكان أسود . لم يرد ذكر البرنكان في الحديث ولكن يذكر الاصبهاني ان رؤبة بن العجاج دخل السوق وعليه برنكان اخضر (اغاني ٢١ / ٦٠) ويذكر ابن قتيبة ان جعفر البرمكي مر على الاصمعي « ورآه على مصلى بالٍ وعليه برنكان اجرد » (عيون ١ / ٢٩٩) .

يقول الثعالبي « المرط كساء من خز او صوف يؤتزر به » (فقه اللغة ص ٢٤٦)

ويقول ابن منظور « المرط كساء من خز او صوف او كتان وقيل هو الثوب الاخضر .. وفي الحديث انه (ص) كان يصلي في مروط نسائه اي اكسيتهن الواحد مرط يكون من صوف وربما كان من خز او غيره يؤتزر به ، وفي الحديث انه (ص) كان يغلس بالفجر فينصرف النساء ملتفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس . وقال الحكم الخضري :

تساهم ثوباها ففي الدرع رادة وفي المرط لفاوان ردفهما عبل

قوله تساهم اى تقارع والمرط كل ثوب غير مخيط » (لسان ٩ / ٢٧٨)

لقد ذكر المرط من البسة النساء ، فروى الاصبهانى ان بثينة جاءت « وهي تتعثر في مرطها » (اغاني ٨ / ١٥٤) وقال عمر بن ابي ربيعة :

يسحبن اذيال المروط بأسوق خدال واعجاز مآكمها روا

(اغاني ٩ / ٦٣) ويقول :

وتلبس للجارات إتباً ومئزراً ومرطاً فبئس الشيخ يرفل في الاتب

(اغاني ١ / ٤٠١)

الغلالة :

يقول ابن منظور « الغلالة شعار يلبس تحت الثوب لانه لا يتغلل فيها اي يدخل .. » (لسان ١٤ / ١٥)

وقد ذكرت الغلالة في الاغاني حيث يروى خبراً يذكر فيه « ان سليمان بن عبد الملك

وجارية الى جنبه وعليها غلالة ورداء معصفران وعليها وشاحان من ذهب وفي عنقها فصلان من لؤلؤ وزبرجد وياقوت » (اغاني ٤ / ٢٧٥)

الخمار :

يقول ابن منظور « وقيل الخمار ما تغطى المرأة رأسها » (لسان ٥ / ٣٤٢)

وقد ذكر الخمار في عدة نصوص ، فيروى ابن سعد عمن رأى عائشة عليها « خماراً جيشانياً » (سعد ٨/٣٥٨) و« خماراً اسود » (سعد ٨/٣٦٣) و« خمار» (سعد ٨/٣٥٩)

ويبدو ان الخمر السود لم تكن شائعة في بداية الاسلام ، وان العراق كان من البلاد المنتجة لها ، فيروى الاصبهاني « ان تاجراً من اهل الكوفة قدم المدينة بخمر فباعها كلها وبقيت السود منها فلم تنفق وكان صديقاً للدارمي (ثم نظم له الدارمي قصيدة قل للمليحة في الخمار الاسود) .. فلم تبقى في المدينة ظريفة الا ابتاعت خماراً اسود حتي نفد ما كان مع العراقي منها » (اغاني ٣ / ٤٥)

ويبدو ان الخمار كان اخص بلبس الحرائر فيروى « احمد بن محمد عن عبدالرحمن بن حسين عن ابيه ان عمر بن عبدالعزيز كتب ان لا تلبس امة خماراً ولا يتشبهن بالحرائر » (سعد ٥/ ٢٨١)

العباءة

لقد ذكرت العباءة في عدة نصوص ، فيذكر ابن سعد » ان سلمان كان اميراً على المدائن وكان يخرج الى الناس في اندرورد وعباءة » (سعد ٤ ـ ١ / ٦٣ / ٦٤)

يذكر ابن قتيبة « نظر معاوية الى النخار العذري في عباءة فازدراه في عباءته » (عيون ١ / ٢٩٧)

ويقول جرير :

يا ذا العباءة ان بشراً قد قضى ... الا تجوز حكومة النشوان

(اغاني ٨ / ١٧)

وقالت امرأة روح بن زنباع تهجوه :

بكى الخز من روح وانكر جلده ... وعجت عجيجاً من جذام المطارف

وقال العبا قد كنت حيناً لباسكم ... واكسية كردية وقطائف

(اغاني ٩ / ٢٢٩)

ويتبين من هذه النصوص ان العباءة تختص بالبسة الرجال ، كما ان النصوص الثلاثة الاخيرة تظهر ان العباءة ليست من لباس الارستقراطية .

القباء :

وكان القباء مستعملاً في العراق وفي الحجاز

وهو اما من سندس كقباء زياد ابن ابيه (اغاني ١٦ / ٣ ط ٢ / ١١٥) وكقباء عروة بن الزبير (سعد ٥ / ١٣٤) او من ديباج كقباء اهدي الى الرسول (مسلم ٢ / ١٥٣) وكقباء زياد الاعجم (اغاني ١٤ / ١٠٠)

او من خز كالقباء الذي كساه ابو جعفر ابن عتاب (اغاني ٢٠ / ٤٢)

او من سمور كقباء الشعبي (سعد ٦ / ١٧٦)

او من كتان كالقباء الذي كساه ابو جعفر ابن عتاب (اغاني ٢٠ / ٤٥)

وقد يكون القباء مبطناً بالحرير كقباء عروة (سعد ٥ / ١٣٤)

وقد يلبس مع المطرف كما فعل زياد بن ابيه (اغاني ١٦ / ٣٢٠)

او قد يلبس قباءان احدهما فوق الآخر كما فعل ابن عتاب حيث كساه ابو جعفر قباء خز وكساه تحته قباء كتان مرقوع القب » (اغاني ٢٠ / ٤٢)

يروى أبو الفرج « وكان زياد (الاعجم) يخرج وعليه قباء ديباج تشبهاً بالاعاجم » (اغاني ١٤ / ١٠٠) مما يدل على ان هذا اللباس هو من لباس الاعاجم

ويقول أيضاً « ولما تولى محمد بن عبدالملك الوزارة اشترط ان لا يلبس القباء وان يلبس الدراعة ويتقلد عليها سيفاً بحمائل فاجيب الى ذلك » (اغاني ٢٠ / ٤٩)

السروال :

ذكر ابن سعد ان سعيد بن المسيب كان يلبس السروال (سعد ٥ / ١٠٣) وقد روى ابن جريج عن عطاء « انه قال من لم يكن له ازار وله تبان او سراويل فليلبسهما » (ام ٢ / ١٢٦)

ويسمى شداد السروال هميان (لسان ٢٠ / ٢٤١) وكانت توضع فيه الدراهم فقد اخرج ابن جامع « من وسطه همياناً فيه ٣٠٠ درهم » (اغاني ٦ / ٢٩٦)

الجباب :

يقول ابن منظور « الجبة ضرب من مقطعات الثياب تلبس » (لسان ١ / ٢٤٢)

ورد في نصوص كثيرة ذكر الجباب من الخز : وقد ذكر منها جبة لكل من محمد بن علي (سعد ٥ / ٢٣٦) وعروة بن الزبير (سعد ٥ / ١٣٤) والقاسم بن محمد (سعد ٥ / ١٤١ ـ ١٤٢) والحكم بن العاص (اليعقوبي ٢ / ١٨٩) وعبيدالله بن عمرو بن عثمان (اغاني ١٩ / ٥١) والعجاج (اغانى ١٠ / ١٥٢) والاخطل (اغاني ٨ / ٢٩٩) وحماد عجرد (اغانى ٨ / ٧٣)

وقد ذكرت النصوص ايضاً جبة صوف (اغانى ٣/ ٥٧) وجبة وشي (اغانى ٧ / ١٣١ ـ ٦ / ٢٨١) كما ذكرت الجبة دون ذكر نسيجها (سعد ٥/ ٢١٥ اغانى ٨ / ٤ ٧١ / ٢٥٠)

وكان للنبي « جبة طيالسة عليها لبنة شبر من ديباج كسرواني وفرجاها مكفوفان به » (حنبل ٤ / ٧،٣)

اما الوان الجباب فمنوعة : منها البيضاء كجبة عكرمة (سعد ٥ / ٢١٥)

والصفراء كجبة القاسم (سعد ٥ / ١٤٢) وجبة محمد النفس الزكية يوم اعلن الثورة (طبري ٣ / ١٩٦)

او خضراء كجبة القاسم (سعد ٥ / ١٤١، ١٤٢)

او حمراء كجبة عبيدالله بن عمرو بن عثمان (اغانى ١٩/ ٥١)

او دكناء كالجبة التى رآها حماد عجرد على بعض الكتاب (اغانى ١٣ / ٨٣)

وقد تلبس الجبة وحدها فيروى عصام بن قدامة « كان عكرمة يؤمنا في جبة بيضاء ليس عليه قميص ولا ازار ولا رداء » (سعد ٥ / ٢١٥) .

او مع رداء فيروى العطاء « رأيت القاسم وعليه جبة خز خضراء ورداء مبتت » (سعد ٥ / ١٤٢) الوليد بن يزيد عليه جبة وشي ورداء وشي (اغانى ٦ / ٢٨١)

او مع كساء فيروى خالد بن الياس : « رأيت على القاسم بن محمد جبة خز وكساء خز وعمامة » (سعد ٥ / ١٤١) .

او مع القميص فيروى زيد بن ايوب « امنا سالم في قميص وجبة قد اتزر فوقها » (سعد ٥/ ١٤٦) او مع مطرف : فيروى الاصبهاني ان الفرزدق « مر بعبيد الله بن عمرو ابن عثمان وهو جالس في سقيفة داره عليه مطرف خز احمر وجبة خز احمر » (اغانى ١٩ / ٥١) وكذلك السيد الحميري (اغانى ٧ / ٢٥٠) .

او مع طيلسان فيروى اليعقوبى ان الحكم بن ابى العاص خرج من عثمان وعليه جبة خز وطيلسان (٢ / ١٨٩)

او مع حرز فيروى الاصبهاني « لقد كان الاخطل يجيء وعليه جبة خز وحرز خز » (اغاني ٨ / ٢٩٩)

البرنس :

يقول ابن منظور « البرنس كل ثوب رأسه منه ملتزق به ، دراعة او ممطراً أو جبة الجوهري البرنس قلنسوة طويلة وكان النساك يلبسونها في صدر الاسلام » (لسان ٧ / ٣٢٨) .

وكان يصلي فيه بعض الصحابة مثل سعيد بن المسيب » (ام ١ / ٢٠٦) وسعيد بن جبير (سعد ٦/١٨٦) وعلقمه (سعد ٦ / ٦٢) ومسروق (سعد ٦/٥١) وكان يلبسه ايضاً ابن عون (عيون الاخبار ١ / ٢٩٧) وابو الدرداء (تاريخ البخاري ١ قسم ٢ / ٢٨)

ذكرت برانس من الخز لبسها بعض المسلمين مثل ابن ابي اوفى (سعد ٤ قسم ٢ /٣٦) وابي عبيدة بن عبدالله (سعد ٦ / ١٤٦) وموسى بن طلحة (٥ / ١٢١) وعبدالعزيز بن عبدالملك (اغاني ٨ / ٤٤)

اما الوانه فقد ذكر منها برنس خز ادكن (سعد ٤ قسم ٢ /٣٦) وبرنس ارجوان (ام ١ / ٢٠٦)

ان كافة النصوص التي اوردناها اعلاه تبين ان البرانس من البسة الرجال ، ولكن توجد نصوص اخرى تبين ان البرانس كانت من البسة النساء ايضاً ، فيروى الاصبهاني « جلست جميلة يوماً ولبست برنساً طويلاً ، والبست من كان عندها برانس دون ذلك . . ثم قامت جميلة ورقصت وضربت بالعود وعلى رأسها البرنس الطويل وعلى عاتقها بردة يمانية وعلى القوم امثالها .. ثم دعت بثياب مصبغة ووفرة شعر مثل وفرة ابن سريج فوضعتها

على رأسها (اغاني ٨ / ٢٢٦)

ويبدو ان البرانس كانت غالية الثمن فيروى الاصمعي ان « ابن عون اشترى برنساً من عمر بن انس بن سيرين فمر على معاذه العدوية ، فقالت امثلك يلبس هذا ؟ قال فذكرت ذلك لابن سيرين فقال الا اخبرتها ان تميماً الداري اشترى حلة بالف يصلي بها » (عيون الاخبار ١ / ٢٩٧)

المستقة :

يقول ابن الاعرابي والاصمعي وابو عبيد « المستقة هي فرو طويلة الكم » (لسان ١ / ٢٢٠) انظر ايضاً الجواليقي : المعرب ص ١٣٧) ويقول ابو عبيد ان اصلها بالفارسية مشته فعربت (لسان ١٢ / ١٨)

يذكر شمر « ان النبي كان يلبس البرانس والمساتق ويصلي فيها » ويروى عن أنس ان « ملك الروم اهدى الى النبي مستقه من سندس فلبسها (لسان / ٢٢٠)

وقد كا يصلي في المستقة كل من سعد بن ابي وقاص (سعد ٣ قسم ١ / ١٠١) ويحي وثاب (سعد ٦ / ٢٠٩) وعلقمة (سعد ٦ / ٦٢) ومسروق (سعد ٦ / ٥١) كما كان يلبس المساتق كل من الشعبي (سعد ٦ / ١٧٦) وابراهيم النخعي (سعد ٦ ١٩٦)

ان كافة هـذه النصوص من ابن سعد تتعلق باهل العراق ، مما يدل على شيوع استعمال المساتق فيه ، غير ان هذا لا يعني ان استعمالها قصر على أهله ، فقد رأينا ان بعض النصوص تذكر ان الرسول استعملها كما ان ابن سعد يذكر « اهديت لعلي بن الحسين مستقة من العراق فكان يلبسها فاذا اراد ان يصلي نزعها » (سعد ٥ / ١٦١) ويذكر ابو الفرج المغني حنين و « عوده في حجره وعليه قباء خشك سوى ، وقال اسحق ، خشكون ، ومستقة حمراء وخفان مكعبان » (اغاني ٢ / ٣٥٠)

المطرف :

يقول ابن منظور « المطرف واحد المطارف وهي اردية من خز مربعة لها اعلام ، وقيل ثوب مربع من خز له اعلام . الفراء : المطرف من الثياب ما جعل في طرفيه علمان » ل. ان ١١ / ١٢٣) ويقول الثعالبي ان المطرف كساء في طرفيه علمان (فقه اللغة ٢٤٦)

ولم يرد للمطرف ذكر في كتب الحديث سوى ما روى ان عائشة كست عبدالله بن الزبير مطرف خز (حنبل ٤ / ٣٨٣ / ٤٣٨ موطأ لباس ٥ وانظر معجم فنسنك مادة طرف)

وكان المطرف من لباس الارستقراطية فيروى ابن قتيبه ان بعض اشراف البصرة كانوا « اذا اتوا السلطان ركبوا ولبسوا المطارف » (عيون الاخبار ١ / ٢٩٧)

واكثر النصوص التي ورد فيها ذكر المطرف كان مقرونا بالخز : وممن ذكر انه لبس مطرف خز : عثمان بن عفان (ابن سعد ٣ قسم ١ / ٤٠) وعبدالله بن عمر (ابن سعد ٤ قسم ١ ـ ١٢٧) ومحمد بن عمر (ابن سعد ٥ ـ ٥٠) وابو سـلمة (ابن سعد ٥ / ١١٦) وعبدالرحمن بن ابي ليلى (سعد ٦ / ٧١) ومحمد بن الحنفية (سعد ٥ / ٨٤) والوليد بن يزيد (اغاني ٧ / ٧)

وكان مطرف الخز يلبس مع الجبه : وممن ذكر انه لبسهما عبدالله بن عمرو بن عثمان (اغاني ١٩ / ٥١) والسيد الحميري (اغاني ٧ / ٢٥٠) ومحمد بن علي بن جعفر (سعد ٥ / ٢٣٦) كما كان يلبس مع القباء ، فقد ذكر انه لبسه زياد (اغانى (١٦ / ٣) ويلبس ايضاً مع البرنس ، حيث ذكر ان شريح لبسهما (سعد ٦ / ٩٦)

ان الوان المطارف منوعة : منها الاخضر وقد لبسه زياد (اغاني ١٦ / ٣) والشعبي (سعد ٥ / ١٧٦) والاحمر وقد لبسه عبدالله بن عمرو بن عثمان (اغاني ١٩ / ٥١) والاصفر وقد لبسه ابو سلمة (سعد ٥ / ١١٦) ومحمد بن الحنفية (سعد ٥ / ٧٤ ، عيون الاخبار ١ ـ ٢٩٨) والشعبي (سعد ٦ ـ ١٧٦) والادكن وقد لبسه عروه بن الزبير (سعد ٥ ـ ١٤٣)

— البقيـــة على ص ٤١٨ —

البردة :

يقول ابن منظور « البردة كساء ملتحف به . وقيل إذا جعل الصوف شقة وله هدب فهي بردة ، وفي حديث ابن عمر انه كان عليه يوم الفتح بردة فلوب صغيرة ، قال شمر رأيت اعرابياً بخزيمية وعليه شبه منديل من صوف قد أتزر به فقلت ما تسميه ، قال بردة .. قال الازهري وجمعها بُرَد ، وهي الشملة المخططة ، قال الليث : واما البردة فكساء مربع اسود فيه صفر تلبسه الاعراب » (لسان ٤/٥٣) .

ويروي البخاري عن سهل بن سعد « جاءت امرأة ببردة ، قال أتدرون ما البردة ؟ فقيل له نعم هي الشملة منسوج في حاشيتها ، فقالت يا رسول الله إني نسجت هذه بيدي أكسوكها ، فاخذها النبي (ص) محتاج اليها ، فخرج الينا وانها ازار » (البخاري : كتاب البيوع باب النساج) وقد ورد في الاغاني ذكر « بردة من برد الاعراب (الاغاني ٢/١٣) .

ولا بد من الاشارة إلى وجوب تمييز البردة عن البرود ، وهي انسجة يمانية تنسب إلى اماكن مختلفة من اليمن كانت تعرف بصناعتها ، وقد نشرت النصوص التي وردت فيها في مقال لي عن مراكز الانسجة في القرن الاول الهجري في مجلة الابحاث .

الشملة :

يتبين من الحديث النبوي الذي رواه البخاري وأوردنا نصه عند الكلام عن البردة ، ان البردة هي شملة منسوج في حاشيتها ، ومن كلام الازهري انها الشملة المخططة .

فاما الشملة فيقول ابن منظور « المشمل ثوب يشتمل به ، واشتمل بالثوب إذا اداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده .. والشملة الصماء التي ليس تحتها قميص ولا سراويل قال أبو عبيد اشتمال الصماء هو ان يشتمل بالثوب حتى يجلل به جسده ولا يرفع منه جانباً

فيكون فيه فرجة تخرج منها يده وهو التلفع ، وربما اضطجع فيه على هذه الحالة ، قال أبو عبيدة : واما تفسير الفقهاء فأنهم يقولون هو أن يشتمل بثوب واحد ليس عليه غيره ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضمه على منكبيه فتبدو منه فرجة ، قال والفقهاء اعلم بالتأويل في هـذا الباب ، وذلك أصح في الكلام . الجوهري اشتمال الصماء ان يجلل جسده كله بالكساء أو بالازار .. والشملة كساء دون القطيفة يشتمل به .. قال أبو منصور : الشملة عند العرب مئزر من صوف أو شعر يؤتزر به فاذا لفق لفقين فهي مشملة يشتمل بها الرجل إذا نام بالليل .. والمشملة ملحفة يشتمل بها . الليث المشملة والمشمل كساء له خمل متفرق يلتحف به دون القطيفة .. وفي الحـديث ولا تشتمل اشتمال اليهود هو افتعال من الشملة وهو كساء يتغطى به ويتلفف فيه ، والمنهى عنه هو التجلل بالثوب واسباله من غير أن يرفع طرفه .. » لسان ١٣/٣٩١ـ٢) .

وقد ورد ذكر الشملة في عدة احاديث (انظرها في معجم فنسنك مادة شملة) وورد ذكر استعمالها في الكتب فيروي الاغاني انه « كان العرجى يستقي على ابله في شملتين ثم يغتسل ويلبس حلتين بخمسمائة دينار (اغاني ١/٣٩٠) .

الطيلسان :

يقول ابن منظور « الطيلسان ضرب من الاكسية . ويقال للثوب الاسود الوسخ اطلس » (لسان ٧ / ٤٣١)

وقـد ذكر انه كان لرسول الله جبـة طيالسة (حنبل ٦/ ٣٤٨ ، ٣٥٤) ، « واتى النبي اعرابي عليه جبة من طيالسة (حنبل ٣ / ٢٢٥)

واستعمال الطيلسان من مظاهر الارستقراطية فقد روى حكيم بن حكيم انه راى ابا جعفر متكئاً على طيلسان، وقد علق الواقدي على ذلك قائلاً « ولم يزل ذلك من فعل الاشراف واهل المروءة عندنا : الذين يلزمون المسجد يتكئون على طيالسة مطوية سوى طيلسانه وردائه الذي عليه » (سعد ٥ / ٢٣٧)

وقد ذكر الطيلسان المزرر بالديباج ؛ استعمله عروة بن الزبير (سعد ٥ ـ ١٣٤) وسعيد بن المسيب (سعد ٥ ـ ١٠٣) وكريب (سعد ٥ ـ ٢١٦) وابي ميسرة واصحابه (سعد ٦ ـ ٧٢) انظر ايضاً سعد ٦ ـ ٨١

ويلبس الطيلسان مع الجبة : كما فعل الحكم بن ابي العاص (اليعقوبي ٢ ـ ١٨٩) وكانت للنبي جبة من طيالسة ((ابن حنبل ٦ ـ ٣٤٧)

كما كان يلبس مع الازار، كما فعل سعيد بن المسيب (سعد ٥ ـ ١٠٢)

وقد تردد ذكر الطيالسة الكردية ولبسها عدد من المسلمين (انظر ابن سعد ٥ ـ ١٦١، ٤ ـ ٢ ـ ١٢١)

الساج :

يقول ابن منظور « .. ابن الاعرابي : السيجان الطيالسة السود واحدها ساج، وفي حديث ابن عباس (رض) ان النبي كان يلبس في الحرب من القلانس ما يكون من السيجان الخضر جمع ساج وهو الطيلسان الاخضر وقيل الطيلسان المقور ينسج كذلك كانت القلانس تعمل منها او من نوعها .. ومنه حديثه الآخر انه زر ساجاً عليه وهو محرم فافتدى، وحديث ابي هريرة اصحاب الدجال عليهم السيجان ؛ وفي رواية كلهم ذو سيف محلى وساج وفي حديث جابر فقام في ساجة .. وهو ضرب من الملاحف منسوجة » (لسان ٣ ـ ١٢٦)

ويذكر ابن سيده « (قال) ابو عبيد : البت ثوب من صوف غليظ شبه الطيلسان . صاحب

العين : وهو الذي يسمى الساج ، غيره الساج الطيلسان ، كل طيلسان اخضر ساج .. ابن دريد : الساج هو الطيلسان وقيل الساج الطيلسان الغليظ الضخم » (المخصص ٤ ـ ٧٩)

يتبين من النص الذي نقلناه عن ابن منظور ان الساج ورد ذكره في الاحاديث (انظر ابن حنبل ٣ ـ ١٧٠ ـ ٣٩٢ ، ٤ ـ ٢١٦)

وقد ذكر مالك « والصوف كذلك منه ما يخرج منه السيجان المراقية وما اشبهها من الاسوانية ، ومن الصوف ما لايكون منه هذه السيجان ابداً لاختلافه » (مدونه ١١ـ٢١)

وقد ذكر ابن سعد « على ابي هريرة ساجاً مزوراً بديباج » (سعد ٤ ـ ٢ ـ ٥٨)

البت :

يقول ابن سيده « البت ثوب من صوف غليظ شبه الطيلسان . صاحب العين وهو الذي يسمى الساج .. ابن السكيت البت كساء اخضر مهلهل تلتحف به المرأة فيغيبها » (المخصص ٤ ـ ٧٩)

ويقول ابن منظور « البت كساء غليظ مهلهل مربع اخضر ، وقيل هو من وبر وصوف .. التهذيب : البت ضرب من الطيالسة يسمى الساج مربع غليظ اخضر والجمع بتوت . الجوهري : البت الطيلسان من خز ونحوه .. وفي حديث دار الندوة وتشاورهم في امر النبي (ص) فاعترضهم ابليس في صورة شيخ جليل عليه بت » اي كساء غليظ مربع ، وقيل طيلسان من خز ، وفي حديث عليّ عليه السلام ان طائفة جاءت اليه فقال لقنبر بتّهم اي اعطهم البتوت . وفي حديث الحسن عليه السلام : اين الذين طرحوا الخزوز والحبرات ولبسوا البتوت والنمرات ؛ وفي حديث سفيان : اجد قلبي بين بتوت وعباء » (لسان ٢ ـ ٣١٣) .

وبالاضافة الى ما ذكره ابن منظور ، فقد ورد ذكر البت في حديث روته عائشة عن صلاة الرسول (ص) حيث قال « وما رأيته يلقي على الارض بشيء قط الا اني اذكر ان يوم مطر القينا تحته بتاً .. » (حنبل ٦ ـ ٥٨)

البجاد :

يقول ابن منظور « البجاد كساء مخطط من اكسية الاعراب ، وقيل اذا غزل الصوف بسرة ونسج بالصيصة فهو بجاد .. ومنه ذوالبجادي، وهو دليل النبي (ص)، وهوعنبسه بن نهم المزني ، قال ابن سيده اراه كان يلبسه في سفره مع سيدنا رسول الله (ص) ، وقيل سماه رسول الله ص بذلك لانه حين اراد المصير اليه قطعت امه بجاداً قطعتين فارتدى احداها واتزر بالاخرى » (لسان ٤ _ ٤٣)

ويقول جابر بن عبدالله ان الرسول جاءه مرة « ثم دنوت به الى خيمة لي فبسطت له بجاداً من شعر » حنبل ٣ _ ٣٩٥)

العمائم :

وللاعراب عمائم خاصة فيروى الطبري « لما حمل بنو حسن كان محمد وابراهيم يأتيان معتمين كهيئة الاعراب فيسايران اباهما ويسائلانه ويستأذنانه في الخروج »(طبري ٣ _ ١٧٦) لقد كانت العمائم معروفة في الجاهلية وقد قيل « تيجان العرب العمائم، فكما قيل في العجم توج من التاج قيل في العرب عمم .. والعرب تقول للرجل اذا سود قد عمم، وكانوا اذا سودوا رجلاً عمموه عمامة حمراء ، ومنه قول الشاعر :

رأيتك هريت العمامة بعد ما   رأيتك دهراً فاصعاً لا تعصب

(لسان ١٥ _ ٢١٩)

اكثر العمائم شيوعاً هي السوداء ، فقد استعملها علي (سعد ٣ قسم ١ _ ١٨) وعبدالرحمن بن عوف (سعد ٣ قسم ١ _ ٩٣) وسعيد بن المسيب (سعد ٥ _ ١٠٢) وعمر (عيون ٣ _ ٤٦) ومعاوية (يعقوبي ٢ _ ٢٧٤ سعد ٤ قسم ١ _ ٨٣) ومحمد بن الحنفية (سعد ٥ _ ٨٤) وعبدالرحمن بن زيد (سعد ٦ _ ٨٣) والاسود بن يزيد

(سعد ٦ ــ ٤٩) وكانت العمائم التي رفعهــا .. في عرفة سنة ١٢٩ هـ سوداء حرقانيــه (ط ٣ ــ ١٩٨١)

غير ان عدداً من الصحابة كان يستعمل العمائم البيضاء ومنهم سالم بن عبد الله (سعد ١٤٦/٥) والقاسم بن محمد (سعد ١٤٣/٥) وسعيد بن المسيب (سعد ١٠٢/٥) ونافع بن جبير (سعد ١٥٢/٥) وخارجه بن زيد (سعد ١٩٤/٥) وعلي بن الحسين (سعد ١٦١/٥) والشعبي (سعد ١٧٦/٦) وسعيد بن جبير (سعد ١٨٦/٦) وأبو هريرة (سعد ٤ قسم ٢ ــ ٥٨) والفرزدق (أغاني ٥١/١٩) والحميري (أغاني ٧ ــ ٢٥٠) .

وقد ذكر أن الشعبي كانت له عمامة حمراء (سعد ٦ ــ ١٧٦) وكانت عمامة سعيد بن العاص بيضاء لها علم أحمر (سعد ٥ ــ ١٠٢) ومحمد بن علي له عمامة لها علم ، (سعد ٥ ــ ٢٣٧)

وقد تكون العمامة رفيعة كعمامة الحسن بن علي (سعد ٥ ــ ٢٤١) . ويروى الكليني « ان الرسول عمم علياً بيده فسدلها من بين يديه وقصرها من خلفه قد اربع اصابع » (الكافي ٦ / ٤٦١) .

وكانت العمامة ترخى أحياناً من الخلف كما كان أحياناً يفعل الإمام علي (سعد ٣ قسم ١ ص ١٩) وسعيد بن المسيب (سعد ٥ ــ ١٠٢) وعمر (سعد ٤ قسم ١ ص ١٢٨ــ٩) ومحمد ابن علي بن الحسين (سعد ٥ ــ ٢٣٦) وعلي بن الحسين (سعد ٥ــ١٦١) وسالم بن عبد الله (سعد ٥ ــ ١٤٦) وشريح (سعد ٦ ــ ٩٦) والأسود بن يزيد (سعد ٦ ــ ٤٩) وابراهيم النخعي (سعد ٦ ــ ١٩٧ ــ ١٩٧) وعبيد الله بن عبد الله (سعد ٥ ــ ١٥٠) والقاسم بن محمد (سعد ٥ ــ ١٤٣) وسعيد بن جبير (سعد ٦ــ١٨٢) .

وقد ترخى العمامة من الامام والخلف ، فيروي (رأيت علياً متعصباً بعصابة سوداء ما أدري أي طرفيها أطول الذي قدامه أو الذي خلفه يعني عمامه (سعد ٣ قسم ١ ص ١٨)

ويروى « اطلع عمر في بئر بالابواء فأصابته لقوة فاعلم بعمامة سوداء وسدلها على الشق الذي

أصيب به » (عيون ٣ ـ ٤٦) ويقـول « رأيت معاوية على المنبر معتماً بعمامة سوداء فسدلها على فيه (يعقوبي ٢ ـ ٢٨٤) ولما خرج محمد النفس الزكية كان عليه عمامة قد شدبها حقويه (طبري ٣ـ١٩٦) وكان على عبد الرحمن بن يزيد « عمامة غليظة الكور » (سعد ٦ ـ ٨٣) ويقول ابن أبي خالد « رأيت شريحاً معتماً بكور واحد (سعد ٦ـ٩٦) وقد يلبس عليها برنس (سعد ٥ ـ ١٠٢).

وكانت السادة من العرب تلتمس العمائم المهراة وهي الصفر وأنشد الشاعر :

رأيتك هريت العمامة بعدما　　عمرت زماناً حاسراً لم تعمم

الثعالبي : فقه اللغة ٢٤٢ .

وبعض العمائم من الخز كعمامة العجاج (أغاني ١٠ ـ ١٥٢) وقد تكون حرقانية كعمامة عبد الله بن عمرو (سعد ٤ قسم ٢ ـ ١١) ومحمد بن الحنفية (سعد ٥ ـ ٨٤).

القلنسوة :

يذكر الكليني ان الرسول كان « يلبس القلانس اليمنه والبيضاء والمضربة وذات الاذنين في الحرب » وانه « كان رسول الله يلبس قلنسوة بيضاء مضربة وكان يلبس في الحرب قلنسوة لها اذنان » ويذكر عن جعفر الصادق انه قال لرجل « اعمل لي قلانس بيضاء ولا تكسرها فان السيد مثلي لا يلبس المكسر » وفي رواية اخرى « ولا تجعلها مصمته فان السيد مثلي لا يلبسها » . (الكافي ٦ / ٤٦٢)

قد تكون القلنسوة من جلود الثعالب فيروى ابن سعد عدة روايات تذكر ان ابراهيم النخعي كان يلبس قلنسوة ثعالب ، وقلنسوة من طيالسه في مقدمها جلد ثعلب ، أو قلنسوة ثعالب أو مبطنة بثعالب أو مكفوفة من ثعالب (سعد ٦ ـ ١٩٦) ويروي رجل انه رأى على الضحاك بن مزاحم قلنسوة ثعالب (سعد ٦ ـ ٢١٠).

وقد تكون القلنسوة من خز فكانت للشعبي « قلنسوة خز أخضر » (سعد٦ـ١٧٦)

وكذلك للقاسم بن محمد (سعد ٤ ـ ١٤٠ ـ ١٤١ .

والقلنسوة قد تكون بيضاء كقلنسوة سعد بن عبد الله (سعد ٥ ـ ١٤٦) وقلنسوة علي بن الحسين (سعد ٥ ـ ١٦١) وعبيد الله بن عبد الله (سعد ٥ ـ ١٥٠) والقاسم بن محمد (سعد ٥ ـ ١٤٢) . أو سوداء كقلنسوة حمزة بن أبي سلالة (أغاني ٢١ ـ ٣٥) أو أسماطاً كقلنسوة نافع بن جبير (سعد ٥ ـ ١٥٢) أو صفراء مصرية كقلنسوة محمد النفس الزكية (طبري ٣ ـ ١٩٦ اغاني ١٨ ـ ٤) ولسعيد بن المسيب « قلنسوة لطيفة بعمامة بيضاء لها علم أحمر » (سعد ٥ ـ ١٠٢) وقد تكون من وشي مذهبة كقلنسوة الوليد بن يزيد (اغاني ٧ ـ ٩١) .

وقد استعملت القلانس الطوال منذ زمن الامويين فقد « حج هشام بن عبد الملك وعديله الأبرش الكلبي فوقف له حنين بظهر الكوفة ومعه عوده وزامر له وعليه قلنسية طويلة » (اغاني ٢ ـ ٣٤٢) ثم عممها أبو جعفر المنصور فيروي الاصبهاني « كان أبو جعفر قد امر اصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها وان يعلقوا السيوف في المناطق ويكتبوا على ظهورهم فسيكفيكهم الله والله السميع العليم » (اغاني ١٠ ـ ٢٣٦)

ويبدو ان القلانس الطويلة كانت سمة التجار فيروي الفضل بن دكين « كنت اذا رأيت داود الطائي (مات سنة ١٦٥) لا يشبه القراء عليه قلنسوة سوداء طويلة مما يلبس التجار » (سعد ٦ ـ ٢٥٥) كما كانت سمة الفقهاء حيث يذكر أبو الفرج الاصبهاني .

وكان ابن جامع يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ويلبس لباس الفقهاء وركب حماراً مريسياً في زي أهل الحجاز . أقبل يوسف بأصحابه أهل القلانس » (أغاني ٦ـ٢٩١) ويروي الأصبهاني أيضاً « ان سلمة بن عباد ولي القضاء بالبصرة فأتى بابه (باب سليمان بن علي) ليلاً فدق عليه ومعه جماعة من اصحابه أصحاب القلانس » (اغاني ٣ ـ ٣٠٣) .

صالح احمد العلي

قضاة بغداد في العصر العباسي

دراسة في الإدارة الإسلامية

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الثامن عشر

1389هـ -1969م

قضاة بغداد في العصر العباسي

«دراسة في الادارة الاسلامية»

الدكتور صالح احمد العلي

لا ريب ان العدالة هي المعيار الرئيسة الذي يحكم الناس بموجبه على صلاح الحكومات في الشرق الاوسط منذ اقدم الازمنة ، فخير الحكام هو الحاكم العادل واسوأهم هو الحاكم الظالم . واحسن ما يخلد ذكر الحاكم الصالح هو ايراد القصص والاخبار التي تظهر حرصه على تطبيق العدالة ، وأقوى شعار يرفعه الثائرون ضد أي حاكم هو ادعاؤهم الدفاع عن العدالة ووصم الحاكم بالظلم .

وقد أولى الاسلام العدالة أهمية خاصة فقال تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تتقون (النحل ٩٠) .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون »(المائدة ٨) «ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعمّا يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيرا »(النساء ٥٨)« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » (الانعام ١٥٢) « وضرب الله مثلا رجلين احدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كلّ على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم

(النحــل ٧١) « .. وقل آمنت بما انزل الله من كتب وأمرت لأعـدل بينكم .. »
(الشورى ١٥) .

ولا ريب ان تطبيق العـدالة والحكم فيما ينشأ بين الناس من خلافات ، يتطلب نظـاماً قضائياً يتناسب مع اهمية هـذه المؤسسة . وقد كان فقدان هذا النظام واقتصـارد على الحكام عند عرب الجاهلية من أبرز نقاط الضعف في الجاهلية ، وقد اهتم الرسول بمعالجتها منذ ان هاجر الى المدينة ووضع التنظيمات الخاصة بادارتها ، كما بينا في مقالنا عن تنظيمات الرسول الادارية في المدينة ، حيث ذكرنا ان تنظيم القضاء مستند الى الآية الـكريمة « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا حرجاً مما حكمت ويسلموا تسليما » أي انه جعل الرجوع الى الرسول في القضاء وقبول احكامه وتنفيذها جزءاً من الايمان .

وقد تابع الخلفاء الراشدون والأمويون العناية بأمر القضاء ، سائرين على الاسس التي وضعها الرسول . ولما كان بحثنا الحالي يقتصر على العصر العباسي ، فاننا نـكتفي بالاشارة الى ان تنظيم ادارة القضاء كان في هذه الفترة في دور التـكوين ، ولما تستقر أسسه .

لقد أولى الخلفاء العباسـيون القضاء اهتماماً خاصاً فأوجدوا منصب قاضي القضاة ببغداد ، وكانوا هم الذين يعينون القضاة في بغداد والامصار بعد أن كان تعيينهم في العصر الراشدي والأموي بيد الولاة (ابن سـعد ٥/١١٧ وكيع : اخبار القضاة ١/١٤١) الخطيب : تاريخ بغداد ١٤/١٠٣ مصعب الزبيري : نسب قريش ٢٨٤) .

مصادر البحث :

لقد كان القضاء من الوظائف الرئيسة في الدولة ، ويتصل عمله بالناس من مختلف الطبقات ، كما يتصل بالشريعة والفقه اللذين أولى المفكرون المسلمون دراستهما عناية خاصة ، لذلك اهتم عدد من المؤرخين بالقضاة واوردوا اسماء بعض قضاة بغداد وخاصة فيما عقدوه من فصول عن اسماء كبار موظفي كل خليفـة او خلال الاحداث التي يذكرونها والتي كان للقاضي صلة بها ، وممن فعل ذلك « خليفة بن خياط » و « اليعقوبي » و « الطبري » و « المسعودي » ثم « ابن الاثير » و « ابن الساعي » وصاحب « الحوادث الجامعة » .

غير ان اياً من هذه المصادر لم يقدم قائمة كاملة بأسماء كافة من ولى القضاء ببغداد ، فقد اغفل كل منهم ذكر عدد غير قليل من القضاة ، وكثيراً ما اغفلوا اماكن تعيينهم أو زمن ذلك التعيين . والواقع ان مجموع ما يذكره مؤرخوا الحوادث لايكون قائمة كاملة لكافة قضاة بغداد .

وبالنظر للصلة الوثيقة بين القضاء وعلم الفقه ، فان كتب طبقات الفقهاء وخاصة المصنفة لتراجم اصحاب مذهب فقهي معين كطبقات الشافعية لكل من الاسنوي والسبكي، والجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القادر بن ابي الوفاء القرشي ، وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا وطبقات الحنابلة لابي يعلى وذيله لابن رجب ، أوردت عن بعض قضاة بغداد بضمن من ترجمت له من رجال المذهب ، وبذلك ثبتت معلومات عن مذاهب القضاة، فضلاً عن المعلومات الاخرى التي تقدمها عن تعيينهم ، غير انه حتى لو جمعت كافة الاسماء الواردة في كتب طبقات المذاهب الفقهية فانه لايمكن تكوين قائمة كاملة لكل قضاة بغداد ، لان عدداً من هؤلاء القضاة لم يعرف عنهم انتماؤهم الى مذهب فقهي معين .

واقدم قائمة كبيرة وصلتنا عن قضاة بغداد هي التي وردت في كتاب اخبار القضاة لوكيع ، محمد بن خلف (ت ٣٣٠ هـ) وقد تضمنت اسماء قضاة بغداد وقضاة الجانب الشرقي والشرقية ومدينة المنصور ومن تولى قضاء القضاة بالاضافة الى معلومات قيمة عن عدد منهم وخاصة عن مذاهبهم الفقهية . وقد اعتمدنا أساساً لدراستنا قائمته التي تنتهي الى سنة ٣٠١ هـ .

وقد تضمن تاريخ بغداد للخطيب تراجم غنية لمن ولى منصب القضاء في بغداد وذكر لشيوخ كل منهم ورواته ومعلومات عن توليهم القضاء وتنقلهم في مناصبه وهي معلومات تتصل بصميم بحثنا . وقد اعتمد الخطيب في هذه المعلومات على « علي بن المحسن » الذي كان ممن ولى القضاء في عدد من البلدان ، ومن الغريب ان الخطيب الذي اقتبس من وكيع معظم نصوصه عن خطط بغداد، لم يشر الى أنه اخذ من وكيع أي نص يتعلق بالقضاة بالرغم

من شهرة كتاب الاخير في اخبار القضاة .

اعتمد علي بن المحسن بدوره فيما نقله عنه الخطيب عن قضاة بغداد على طلحة بن محمد بن جعفر (٢٩١ـ٣٨٠) الذي تصل رواياته عن القضاة الى قبيل سنة ٣٦٠ حيث ان آخر رواياته تتعلق بعمرو بن أكثم الذي ولي قضاء القضاة بين سنة ٣٥٢ـ٣٥٦ (الخطيب ١١/٢٥٠) ؛ وقد ترجم لأبي الحسن محمد بن صالح بن ام شيبان ولم يذكر توليه قضاء القضاة سنة ٣٦٤ كما انه لم ينقل عنه ترجمة لابن محمد عبيد الله بن معروف الذي ولي قضاء القضاة سنة ٣٦٠ (الخطيب١٠/٣٦٧) .

وقد ذكر علي بن المحسن « وحدثنا طلحة بن محمد بن جعفر في تسمية قضاة بغـداد » (٤/٣١) وهي عبارة قد يفهم منها ان طلحة بن محمد الف كتاباً في تسمية قضاة بغـداد ، غير ان الخطيب لا يذكر في ترجمته المقتضبة لطلحة بن محمد بن جعفر (٩/٣٥١) انـه ألف مثل هذا الـكتاب .

ويلاحظ ان المعلومات التي اوردها طلحة بن محمد عن قضاة بغداد الى سنة ٣٠١ تشبه كثيراً ما اورده وكيع مما قد يدل على اعتماده على وكيع . وجدير بالملاحظة ان طلحة بن محمد لم يترك في بحثه احداً من قضاة بغداد الى نهاية الفترة التي يتناولها . ومن المعلوم ان تنظيم ادارة القضاء قد تبدل اساسياً بعد تلك الفترة كما سنبين فيما بعد، ولا نعلم ما اذا كان عدم تدوين « طلحة ابن محمد » راجع الى عدم رضاه عن التبديلات التي حدثت ام الى انه انجز تأليف كتابه قبل حدوث هذه التبدلات .

وقد نقل الخطيب ايضاً عن اسماعيل بن علي الخطبي نصوصاً عن تولية محمد بن ابي موسى (٢ / ٤٠٣) وابي الطاهر الذهلي (١ / ٣١٣) ومحمد بن عيسى بن ابي موسى (٢ / ٤٠٣) .

اما الفترة التالية فقـد اعتمد فيها الخطيب على علي بن المحسن فقط ، ويلاحظ ان المعلومات التي قدمت عن هذه الفترة التالية غير كاملة ولا دقيقة ، فهو لم يذكر كل قضاة بغداد، كما انه لم يذكر مكان تولية من ذكرهم وسني توليتهم وعزلهم . واذا كان لغياب الخطيب

عن بغداد في هذه الفترة بعض العذر في اغفاله ترجمة بعض قضاة هذه الحقبة في بغداد ، فان هذا العذر لا يكفي لاهمال ذكر من اشغل وظيفة رئيسة ذات صلة بنطاق اختصاص الخطيب اي الفقه والحديث ، والراجح ان هذا الاغفال راجع الى الاضطراب الذي رافق الاوضاع السيئة التي سادت بغداد آنذاك ، وفي طبقات الحنابلة اشارة الى ذلك حيث يقول في ترجمة القاضي الموقر الحنبلي المتوفى سنة ٤٣٧ « كان يقضي بين عسكر بغداد نحو اربعة الاف غلام تمضي قضاياه بهم ابلغ من قضاة (كذا ولعله قضاء) المقدم عليه وهو ابو عبدالله بن ما كولا ، لما كان له في نفوسهم من الدين ولا يبرم الاحكام بينهم الا على مذهب امامنا » (طبقات الحنابلة ٢ / ١٨٩).

لقد كان كتاب الخطيب المصدر الذي اعتمد عليه كلياً ونقل ما فيه من تراجم كل من ابن الجوزي في المنتظم ، وابن الفراء في طبقات الحنابلة ، والقرشي في الجواهر المضيئة ، وابن خلكان في وفيات الاعيان. وكان آخر من ترجم له الخطيب هو ابو عمرو عبدالله بن محمد الدامغاني الذي ولى قضاء القضاة سنة ٤٤٧ هـ.

فاما ابن الجوزي فان طريقته في المنتظم هي ان يذكر الاحداث التي جرت في كل سنة ثم يذكر تراجم اشهر من توفى في تلك السنة ، وفي هذه التراجم اعتمد كلياً على الخطيب الى سنة ٤٥٠ هـ اما تراجم السنوات التالية فلا نعلم من اين استقاها.

غير ان ابن الجوزي يورد في كلامه عن الاحداث معلومات غير قليلة عن تولية القضاة او عزلهم وبذلك يساعد في تحديد سني ولاية القضاة الذين يتحدث عنهم. ويبدو انه اعتمد كثيراً على هلال بن المحسن الصابي كما يتجلى ذلك من التطابق الحرفي بين كثير مما اورده مع القطعة المنشورة من كتاب هلال في ذيل تاريخ مسكويه .

غير ان ابن الجوزي اهتم بذكر من ولي منصب قاضي القضاة ، اما بقية القضاة فلم يهتم بذكرهم ، ولم يذكر الا قليلا منهم وبصورة عرضية ، ولذلك فان القائمة المستمدة مما ذكره غير كاملة ولا وافية فضلا عن انها تقف عند سنة ٥٧٤ هـ حيث ينتهي الكتاب .

اما كتب الاحداث التاريخية التي تلت المنتظم ، مثل مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي وذيله لليونيني ، وتاريخ ابن الفرات فلم تشر الى القضاة الا نادراً .

وقد دون ابن الاثير قدراً طيباً من اخبار القضاة وتوليتهم، وتابعه مؤلف العسجد المسبوك.

وقد الف ابو العباس احمد بن بختيار بن علي المندائي الواسطي (ت ٥٥٢ هـ) « تاريخ الحكام في مدينة السلام » لم تصلنا منه الا المقتطفات الكثيرة التي اقتبسها ابن الدبيثي في ذيل تاريخ بغداد ، ويتبين من هذه المقتطفات ان ابن بختيار اهتم بذكر الشهود ومن زكاهم وتاريخ تزكيتهم وتوليتهم القضاء ، يبدأ النقل عنه من تزكية الحسن بن محمد بن الحسن التي تمت سنة ٥١٣ هـ، غير اننا لا نستطيع الجزم فيما اذا كان حصر الحكام الذين نقل ابن الدبيثي اخبارهم عن ابن بختيار بهذه الفترة راجع الى ان كتاب ابن بختيار اقتصر على هذه الفترة من الزمن او الى ان ابن الدبيثي اهتم بنقل ما يتعلق بهذه الفترة فقط .

ولكتاب ابن الدبيثي الذي ذيل به على ذيل تاريخ بغداد للسمعاني اهمية خاصة فقد ذكر فيه من تأخر وخاصة عن وفاة السمعاني الى سنة ٦٢٠هـ ، وفيهم عدد غير قليل من القضاة .

وقد بقيت منه ثلاثة اجزاء في ثلاث مخطوطات في باريس برقم ١٩٢١ وهي تشمل تراجم من اسمه محمد وأحمد ، وقد وضعت لها فيما ذكرته من مصادر رقم (٢) والثانية في باريس برقم ١٩٢٢ تشمل تراجم من اسمه الحسن الى علي بن الحسن ، وقد جعلتها في مصادري رقم (٢) ، والثالثة برقم ٧١٧ وهي تشمل تراجم من اسمه احمد الى من اسمه حبش ابن محمد وقد رمزت اليها برقم (٣). ويتبين من ذلك ان الموجود من الكتاب يشمل الاسماء من محمد الى علي بن الحسين ، أي اكثر من ثلثي الكتاب .

ولا بد من الاشارة الى أن لكتاب ابن الدبيثي ملخصاً عمله الذهبي ونشر بعضه الاستاذ مصطفى جواد مع تعليقات قيمة واضافات لبعض ما ترك الذهبي في تلخيصه .

لقد كان ابن الدبيثي من المصادر الرئيسة للمنذري الذي شمل كتابه « التكملة في وفيات النقلة » تراجم من توفوا بين سنة ٥٨٠هـ ـ ٦٤٠هـ واعتمد في كثير من معلوماته على ابن الدبيثي

(انظر في ذلك المقدمة التي كتبها بشار عواد لكتاب التكملة الذي حصل بها على اجازة الماجستير) .

وقد اعتمد ابن قطلوبغا ايضاً على ابن الدبيثي في تراجم القضاة الذين ذكرهم في كتابه « الجواهر المضية في طبقات الحنفية » .

اما الدراسات الحديثة عن القضاء فلا ريب ان أوسعها هي دراسة « تيان » عن تنظيم القضاء في الاقطار الاسلامية . Emile Tyan. Histoire de L'Organization Judicaire de Pays D islam 1938-1943

وقد شملت دراسة واسعة لمكانة القضاة واختصاصاتهم والجهات التي كانت تمارس سلطات قضائية من غير القضاة، ولكن بحثه بالرغم من سعته فهو عام لكل بلاد الاسلام ، ولا يختص بالعراق ، كما انه لم يتطرق الى ادارة القضاء وتوزيع القضاة .

ولاريب فيه ان كثيراً من الكتب التي تبحث عن الحضارة الاسلامية ومؤسساتها في العالم الاسلامي أو في اقليم معين قد تطرقت الى بحث القضاء اما عن قضاة بغداد فلا اعلم الا القائمة التي نشرها الاستاذ لويس ماسينيون سنة ١٩٤٨ بعنوان :

Cadis et Naqib Baghdadiens

واعيد نشرها سنة ١٩٦٣ في مجموعة كتاباته : Opera Minori 1958

وهي تقتصر على أسماء من ولي منصب قاضي القضاة ببغداد وسني اشغالهم هذا المنصب ، وهي قائمة مقتضبة محدودة .

وفي العربية بحوث كثيرة عن أدب القضاء ، بعضها فصول من كتب في الفقه ، وبعضها كتب قائمة بذاتها ، تبحث في القضاء وشروطه والمباديء التي ينبغي السير عليها ، وتتطرق احياناً الى ديوان القضاء والشهود ، ولما كانت هذه البحوث تتطرق الى الاحكام الفقهية ، والى المباديء العامة ، فاننا لم نعتمد عليها ، خاصة وانها قلما تتطرق الى الاوضاع الواقعية من ادارة القضاء وهو موضوع بحثنا .

ويتضح من مطالعة الجدول الذي وضعته في آخر المقال عن قضاة بغداد ، ان فيه بعض

النقائص ، وخاصة في قضاة النصف الاول من القرن الخامس ، وقضاة العقود الاخيرة من العهد العباسي . وقد فضلت نشرها بشكلها الناقص ، باعتبارها استوعبت ما في الكتب المتداولة ، وهي قريبة من الكمال ، وعسى ان نجد في المستقبل ما يكمل نقائصها القليلة .

ان مقالي مقتصر على اعداد قائمة شاملة لاسماء القضاة في بغداد وسني عملهم ومراكز عملهم ، مع ملاحظات عامة عن التكوين الثقافي والاجتماعي لهؤلاء القضاة ، وهو بحث اشد صلة بالادارة منه بعمل القضاء ، فان هذا الموضوع الاخير يتطلب دراسة الفصول والكتب التي ألفت عن أدب القضاة ومدى تطبيق الآراء الفقهية ، وهو موضوع شامل نرجو ان نوفق الى الكتابة فيه في المستقبل .

مطار القضاء :

لقد كانت بغداد مدينة محدثة بناها أبو جعفر المنصور بعد ان استقر ملكه وتثبتت دولته ، لذلك لم يتأثر هو ومن تلاه في تنظيم القضاء في عاصمة ملكه إلا بالاعتبارات العملية ؛ ولما كانت المدينة عند انشائها غير كبيرة، وهي تتبع خليفة واحداً يرى أنه ظل الله في ارضه ، لذلك كان يكفي لسد حاجات هذه المدينة الجديدة قاضٍ واحد ، خاصة وانه لم يكن في الادارة القضائية ما نراه اليوم من تخصص كمحاكم جزائية ومدنية ... الخ . هذا الى ان الدولة لم تعترف بوجود مذاهب تستلزم تعدد القضاة .

ولا ريب في ان عمل القضاة هو الحكم في الخلافات التي تظهر بين الناس ، فصلته بالسكان وثيقة ، وهم ملزمون بتطبيق القواعد المعترف بها بين الناس ومراعاة المبادىء التي يؤكد عليها الاسلام ؛ فلم يكن للقضاء سلطان على السياسة والادارة التي تدخل في صميم واجبات الخليفة ، اي انها كانت بعيدة نسبياً عن الخليفة وأشد صلة بالناس والقواعد التي يقرها الاسلام ومبادؤه ، ولهذا لم تفرد للقضاء بناية خاصة يقوم فيها القاضي بعمله ، بل كان مركز عمله في الجامع الذي يعبر عن الاسلام وروحه وقواعده ويتصل بالجماهير والشعب فهو لذلك اكثر الاماكن ملاءمة لعمل القاضي ، واتخاذ القضاة الجامع مركزاً لعملهم يجعل القضاء مفتوحاً للشعب ويكسبه صبغة قدسية .

وقد كان هذا الطابع الشعبي والديني هو الذي جعل مجالس القضاة بسيطة ، فقد كانوا « يجلسون على الوطاء ويتكأون حتى جاء علي بن ظبيان فكان يجلس على بارية »(وكيع ٣/٢٨٦ الخطيب ١١ / ٤٤٥) وبالرغم من بساطة البارية في نظرنا الا انها اعتبرت من مظاهر الترف التي لفتت انظار المؤرخين فسجلوها .

كما ان مقتضيات عمل القاضي كان بسيطاً الى ان جاء سوار (حوالى سنة ١٤٠ هـ وكان على قضاء البصرة) فكان « اول من تشدد في القضاء وعظم امره واتخذ الامناء واجرى عليهم الارزاق وقدم على القرعة وقبض الوقوف وادخل على الاوصياء الامناء وطول السجلات ودعا الناس باسمائهم لم يكنّهم وضم الاموال المجهول اربابها وسماها الحشرية » (وكيع ٢ / ٥٨) .

لقد ذكرنا ان صلة القضاء بالناس والدين قضت ان يكون الجامع مركز عمل القضاة ويقتضي منطق الاحوال ان يتخذ قاضي مدينة المنصور محل قضائه في جامعها ، غير انه ليست لدينا عن ذلك الا اشارة واحدة ، فيذكر الخطيب ان محمد بن يوسف لما ولي قضاء مدينة المنصور والاعمال المتصلة بها سنة ٣٨٤ هـ « جلس في المسجد الجامع بالمدينة » (٣ / ٤٠٢ انظر ايضاً المنتظم ، ٥ / ٤٥ ـ ١٧٠ ، ٦ / ٢٤٧)

اما قضاة الجانب الشرقي فقد وردت عدة اشارات الى انهم كانوا يقضون في مسجد الرصافة ، فيذكر الخطيب ان محمد بن عبدالله بن علاثة « وعافية بن يزيد » كانا يقضيان في المسجد الجامع بالرصافة » (الخطيب ٥/٣٩٠ ، ١٢/٣٠٨ ، انظر ايضاً ابن سعد ٧ـ٢/٦٩ وكيع ٣/٢٥١) . « وكان عمر بن حبيب يقضي في مسجد الرصافة » (الخطيب ١١/١٩٨) « وقتيبة بن مسلم يحكم في جامع الرصافة » (الخطيب ١٤ / ١٩٤) « وكان يحيى بن اكثم يجلس في مسجد الرصافة مجلس القضاء » (الخطيب ١٤ / ١٩٤) ويقول ابراهيم الحربي عن القاضي الحسن ابن علي بن الجعد (سنة ٢٤٢) « فرأيته في المسجد جالساً كلما تقدم احدهم الى الحسن .. »

(وكيع ٣ / ٢٨٣) وكان محمد بن معروف (سنة ٣٥٩هـ)« يجلس للقضاء في مسجد الرصافة» (الخطيب ١٠ / ٣٦٦) كما ان أبا نصر يوسف بن عمر « استخلف اباه وجلس سنة ٣٢٧ هـ في جامع الرصافة وقرأ عهده بذلك » (المنتظم ٦/٢٩٦) وكذلك ابن البهلول (المنتظم ٦/٣٤٢)

اما قاضي الشرقية فيذكر اليعقوبي « وانما سميت الشرقية لانها قدرت مدينة للمهدي قبل ان يعزم على ان يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي من دجلة، فسميت الشرقية ، وبها المسجد الكبير وكان يجمع فيه يوم الجمعة وفيه منبر ، وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ، ثم اخرج المنبر منه » (البلدان ٢٤٥) ويذكر الخطيب ان المنصور امر باخراج الاسواق من المدينة وان يبنى ما بين الصراة الى نهر عيسى، ثم امر أن يبنى لأهل الاسواق مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة لا يدخلون فيه المدينة ،ويفرد لهم ذلك،وقلد ذلك رجل يقال له الوضاح بن شبا ، فبنى القصر الذي يقال له قصر الوضاح والمسجد الذي فيه ،وسميت الشرقية لانها شرقي الصراة..ثم اخرج منه المنبر بعد»(١/٨٠-٨١).ويلاحظ ان الخطيب في كلامه عن المساجد التي تقام فيها الجمعة ببغداد لم يشر الى مسجد الشرقية ، مما يؤيد اليعقوبي في ذلك.

ويذكر ابن سعد ان علي بن ظبيان ، الذي ولي القضاء في عهد هرون الرشيد ،كان يجلس في المسجد الذي ينسب الى الخلد فيقضي فيه (الطبقات ٦/٢٨٠ الخطيب ١١/٤٤٣) .

ولما كان عمل القضاة متصلاً بالمسجد فقد كانت عهود توليتهم تقرأ فيه ،فيذكر الصولي ان عهد احمد بن اسحق الخرقي قرىء في جامع الرصافة (اخبار الراضي والمتقي ٢٢٦) .

وقد قرىء عهد ابن ماكولا الذي تولى قضاء القضاة سـنة ٤٢٠ هـ ، في دار الخلافة وخلع عليه « ثم قرىء عهده بعد ذلك في جامع الرصافة وجامع المدينة » (المنتظم ٨/٤٤) وقد قرىء بجامع القصر عهد كل من أبي الحسن علي بن محمد الدامغاني (الجامع المختصر ٢٠١) ، الدبيثي ١/٢١٣أ) وأبي القاسم الدامغاني (الدبيثي ١/٩١أ) .

وقرىء عهد الاكمل الزينبي « وخلع عليه بالديوان ومضى الى جامع المنصور للتثبيت» (المنتظم ١٠ - ٢٠٤) .

اما قضاة الجانب الغربي فقد كانت عهودهم تقرأ في جامع المنصور (الدبيثي ٢-٨٠أ) .

سلطة التعيين :

والقضاء مؤسسة حكومية رسمية كان اختيار من يليها من اختصاصات الخليفة بصرف النظر عن المؤثرات التي يخضع لها او الاستشارات والآراء التي قد يسمعها عند اختيار أي قاضي . ولم تذكر المصادر حادثة تساهل فيها الخليفة في استعمال هذا الحق في القرون الاربعة الاولى حتى في الفترات التي كان سلطانه الزمني هزيلا او بحكم المعدوم ، ويبدو انه حتى الذين سيطروا على بغداد وجردوا الخليفة من سلطاته الزمنية لم يحاولوا مس هـــذا الحق او تجريد الخليفة منه اللهم الا حادثة واحدة تعين فيها قاضي قضاة رغم ارادة الخليفة وهي انه عندما توفي أبو السائب سنة ٣٥٠ هـ ضمن أبو العباس بن عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب (ان يؤدي كل سنة مائتي الف درهم ، وهو أول من ضمن القضاء وكان ذلك ايام معز الدولة ، ولم يسمع بذلك قبله فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه وأمر بان لا يحضر الموكب ، لما ارتكبه من ضمان القضاء »(الهمداني . تكملة تاريخ الطبري ١٧٩ ، ابن الاثير ٨ـ١٩٣) .

ولما قلد بهاء الدولة الحسين بن موسى قضاء القضاة « لم ينظر في قضاء القضاة لامتناع القادر بالله من الاذن له وترددت في هذا اقوال انتهت الى الوقوف »(المنتظم٧ـ٢٢٦ـ٧) .

لم تذكر المصادر ان الخلفاء استجابوا لآراء الناس في اختيار قضاة بغداد الا في حادثة واحدةحيث يذكر الخطيب« وكان اهل بغداد قد ضجوا من اصحاب ابن أبي دؤاد وقالوا بعد أن عزلعبيد الله بن احمد بن غالب لا يلي علينا الا من نرضى به » (١١ـ٥٢) والواقع ان عمل القضاء في العصر العباسي كان ضعيف الصلة بالسياســة والادارة ، ووثيق الصلة بالناس ، وبالفقه الذي اكتسب طابعاً دينياً وكان موضوع دراسة الفقهاء الذين اعتبروا مكانتهم متوقفة على عمق دراساتهم ونضج افكارهم وسلامة سلوكهم وحسن سمعتهم بين الناس اكثر مما تتوقف على ثرواتهم او مكانتهم عند رجال الادارة .

وقد ذكرت المصادر عدداً من الحالات ، وخاصة في القرن السادس الهجري ، كان فيها

الوزراء ، وليس الخلفاء ، هم الذين يعينون قاضي القضاة .

فقدذكر ابن الدبيثي في ترجمته لكل من ابي الحسن علي بن احمد الدامغاني وروح بن احمد الحديثي والبخاري وابي القاسم عبدالله بن الحسن الدامغاني أن الذي ولاهم قضاء القضاة هو الوزير . فاما عن أبي الحسن الدامغاني فقد ذكر انه « تولى قضاء القضاة في ١٥ ذي الحجة سنة ٥٤٣هـ ولاه نائب الوزراء يومئذ نقيب النقباء أبو احمد طلحة بن علي الزيني والديوان العزيز ولما اعيد الى قضاء القضاة في ١٣ ربيع الأول سنة ٥٧ [٥] » ولاه ذلك نائب الوزارة يومئذ علم الدين أبو الفضل يحيى بن جعفر (١ـ٢١٣أ) .

اما روح بن احمد فانه في سنة ٥٦٦هـ ولاه الوزير أبو الفرج محمد بن عبدالله بن المظفر قضاء القضاة شرقاً وغرباً باذن الامام المستضيء بالله وخاطبه بالولاية من غير أن يخلع عليه ولا كتب عهده لأجل أن الامام المستنجد بالله لم يخلع عليه ، وقرىء عهده بعد ذلك (١ ـ ١٥٢) .

اما أبو الفضل احمد بن علي البخاري (٥٩٥ هـ) فقد ولاه أبو القاسم الحسن بن نصر بن الناقد وكان يومئذ صدر المخزن المعمور والنائب عن ديوان المجلس في داره بدرب الجب » (الجامع المختصر ١٩٤) .

اما أبو القاسم عبد الله بن الحسين الدامغاني « فانه ولي قضاء القضاة شرقاً وغرباً سنة ٦٠٣هـ » ، ولاه ذلك الوزير يومئذ أبو الحسين ناصر بن مهدي وخلع عليه الخلعة السوداء والعمامة الكحلية والطرحة الكحلية وسلم اليه العهد بذلك (١ـ٩١أ انظر ايضاً الجامع المختصر ٢٠١) .

وكان تعيين القضاة في القرون الاولى بيد الخليفة ايضاً ، الا أن للقاضي ان يختار من يخلفه ، وفي القرن الخامس تشير الاخبار الى ان تعيين القضاة كان يتم من قبل قاضي القضاة الامر الذي يدل على ان سلطة تعيينهم اصبحت بيد قاضي القضاة بعد أن كانت بيد الخليفة ومن الطبيعي ان يصبح عزل القضاة بيد قاضي القضاة ايضاً .

ويلاحظ ان المصادر كانت تستعمل في القرون المتأخرة لتعيين القاضي كلمة (جعله) او (استنابه) بينما استعملت في القرون الاولى كلمة (استخلاف). وهي ايضاً تذكر في الفترة المتأخرة (الحكم والقضاء) واحياناً تستعمل كلمة (الحكم في مدينة السلام) ويلاحظ ان وظيفة القضاء في الجاهليـة كان يقوم بها « الحكم »، وان كلمة الحُكم ، والحَكَم وردت في عدد كبير من الآيات الكريمة ولكن المسلمين استعملوا كلمة القضاء دون الحكم ، وصارت كلمة الحكم والحاكم منحصرة بالسلطة التنفيذية وبمن يمارسها دون السلطة القضائية . وقد ظل الامر كذلك حتى القرن السادس الهجري حيث بدأت كلمة الحكم والحاكم يكثر استعمالها مكان كلمة القضاء والقاضي أو بجانبهما ، ولا نعلم سبب ذلك .

والمفروض ان يعين للقضاء من قبلت شهادته واثبتت تزكيته وخاصة في العهود المتأخرة التي اصبحت فيه للشهادة والتزكية اهمية خاصة ونظاماً مستقراً ، والواقع ان معظم من عين للقضاء تم تعيينهم بعد أن قبلت شهادتهم واثبتت تزكيتهم، ولكن يبدو أن هذا لم يكن قاعدة عامة فان المصادر اشارت الى من ولي القضاء قبل ان تتم تزكيته ، فيذكر ابن الدبيثي في ترجمته لابي المظفر الحسين بن احمد بن علي الدامغاني ، ان اخاه قاضي القضاة ابا الحسن علي بن احمد استنابه في الحكم والقضاء بمدينة السلام سنة ٥٤٦هـ، ثم قبل شهادته سنة ٥٥٢هـ (٣ـ١٨٤ ب) ويذكر ايضاً ان قاضي القضاة ابا القاسم عبد الله بن الدامغاني استناب اخاه محمد بن الحسن بن احمد يوم ولايته سنة ٦٠٣هـ « في الحكم بدار الخلافة المعظمة وما يليها واذن للشهود بالشهادة عنده وعليه فيما يسجله ، ثم قبل شهادته » (٢ـ٨٨أ) .

ولا بد ان نشير الى ان اختصاص القاضي كان حينئذ النظر في الاحوال الشخصية وفي شؤون اليتامى والحفاظ على اموالهم وفي بعض الخلافات التي تدخل اليوم ضمن القانون المدني والتجاري ، فلم يكن يدخل في اختصاص القاضي الخلافات السياسية والادارية الناجمة من تصرفات الخليفة وموظفي الادارة ، وقد ادى هذا الى اقفال باب رئيسي للخلاف بينه وبين الحكومة وجعله قادراً على العمل بمعزل عن التقلبات الادارية والسياسية العنيفة التي طالما اجتاحت الدولة العباسية .

ثم ان الخلفاء العباسيين بتركيز اهتمامهم بالجيش وحفظ الامن ، لم يكثروا من التدخل المباشر في شؤون التجار واصحاب الاعمال والحرف والعمال الذين تزايد عددهم واتسع نشاطهم وانشأوا لانفسهم تنظيمات خاصة بهم قامت بصورة شبه مستقلة عن الدولة ، وكانوا يتبعون قواعد قانونية معترف بها يحكم بموجبها في الخلافات التي قد تظهر بينهم .

وقد نما بجانب هذه التطورات دراسات نظرية دقيقة للقواعد والاحكام الفقهية قام بها علماء من اماكن واوساط مختلفة ، ولكن قلما اشغل واحد من علماء الفقه المبرزين وظيفة في الدولة ، فكانوا « رقيبا غير رسمي » على القضاة مما عزز الصلة بينه وبين العامة .

اصول القضاة :

تحاشى الخلفاء العباسيون تولية القضاء رجالا من افراد اسرتهم ، فيذكر طلحة بن محمد ابن جعفر الذي ترجم قضاة بغداد الى سنة ٣٩٠ هـ في كلامه عن أبي الحسن محمد بن صالح المعروف بابن ام شيبان الذي ولاه المطيع القضاء (٢٣٤ هـ) « ولا اعلم قاضياً تقلد القضاء بمدينة السلام من بني هاشم غيره » (٥ـ٣٦٤) ويبدو أن محمد بن طلحة لم يدخل في قضاء بغداد من ولي قضاء القضاة عندما كانت الخلافة العباسية في سامراء ، اذ وليه في تلك الفترة من العباسيين جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي (الخطيب ٦ـ٢٨٧ ، ٧ـ١١٤ ، ٤١٠) .

ثم ولي القضاء ببغداد بعد زمن طلحة بن محمد ، علي بن محمد بن عبد الصمد بن المهتدي بالله المعروف بابن الغريق فانه « ولي القضاء بمدينة المنصور وما اتصل بها ..) . (الخطيب ٣ـ١٠٨ المنتظم ٨ـ٢٨٣) كما وليه منهم ايضاً علي بن عبدالله الهاشمي (ت٤١٥ هـ) الذي ولي قضاء مدينة المنصور (الخطيب ١٢ـ٨) وفي العهود المتأخرة ولي من العباسيين قضاء القضاة كل من أبي القاسم الزينبي ومحمد بن جعفر العباسي .

لقد قضت الاحوال السائدة في اوائل عهد انشاء بغداد ان يولى الخلفاء عليها قضاة يجلبون من اماكن اخرى ، وقد حرص الخلفاء العباسيون الاولون ان يولوا القضاء في بغداد رجالا من اهل المدينة المنورة من الانصار وقريش ، وكذلك من اهل الكوفة ، ولكنهم

لم يتمسكوا بمبدأ قصر ولاية القضاء على العرب كما كان الحال في العهد الاموي، بل استخدموا منذ اوائل عهدهم بعض الموالي مثل نوح بن دراج وعبدالرحمن بن اسحق مولى بني امية. غير ان عدد هؤلاء الموالي قليل نسبياً اذا ما قورن بالقضاة من العرب.

لا يمكن استنباط قاعدة عامة تقيد بها الخلفاء العباسيون في اختيار قضاة بغداد، فدراسة اسمائهم وتراجمهم تبين انهم كانوا متباينين في معظم خصائصهم، فاصولهم، ما عدا الاولين منهم، ترجع الى مدن مختلفة، وفيهم عدد ممن ولى القضاء ببغداد لاول مرة، بجانب عدد غير قليل ممن ولى القضاء في مدن اخرى قبل توليته ببغداد، كما ان عدداً غير قليل منهم نقل الى مدن اخرى بعد توليه القضاء ببغداد.

غير ان بعض الاسر تولى منها عدة قضاة، فيذكر الخطيب في ترجمته ليوسف بن عمرو ابن ابي عمرو محمد بن يوسف بن يعقوب بن اسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم « ولا نعلم قاضيا تقلد هذا البلد اعرق في القضاء منه ومن اخيه الحسين، لانه يوسف بن عمرو بن محمد ابن يوسف بن يعقوب، وكل هؤلاء تقلدوا الحضرة غير يعقوب فانه كان قاضيا على مدينة الرسول (ص) ثم تقلد فارس ومات بها » (١٤ / ٣٢٣، انظر ايضاً المنتظم ٧ / ٤٢) وكان « ابو نصر يوسف بن عمرو بن محمد بن يوسف آخر من ولي القضاء ببغداد من ولد حماد بن زيد » (طبقات الفقهاء للشيرازي ١٩٠) ويجدر ان نذكر ان اسماعيل بن اسحق بن اسماعيل بن حماد بن زيد ولي القضاء في الجانب الغربي والجانب الشرقي، ثم جمعت له بغداد كلها « وكان اسماعيل بن اسحق نيفاً وخمسين سنة على القضاء، ما عزل الا سنتين » (الخطيب ٦ / ٢٨٧).

ومن ابرز الاسر التي انجبت رجالاً تولوا القضاء ببغداد هم آل ابي الشوارب وهم امويون من نسل سعيد بن العاص، وجدهم الاعلى عتاب بن اسيد الذي ولاه الرسول (ص) مكة، فقد ولى القضاء منهم اربعة وعشرون اكثرهم ببغداد وولى ثمانية منهم قضاء القضاة (الخطيب ٥ / ٤٨ المنتظم ٨ / ٢٥ وانظر ايضاً جمهرة النسب لابن حزم ١٠٥).

وفي القرنين الخامس والسادس ولى اربعة من اسرة الدامغاني منصب قضاء القضاة

(الجامع المختصر ٢٠١) ، تلخيص مجمع الالقاب ٤ـ٢ / ٧٤٨) كما ولي عـدد غير قليل من افراد هذه الاسرة القضاء في بغداد ، وفي المدن الاخرى .

وقد توارث القضاء من كل من اسرة البيضاوي ، وعلي بن عبد الرشيد الهمـــداني ثلاثة اجيال ، كما ان عدداً من القضاة اعقبوا آباءهم في المنصب .

المذاهب الفقهية للقضاة :

لاريب ان للقضاء علاقة وثيقة بالفقه الذي هو دراسة القواعـد القانونية التي ينبغي السير عليها والحكم بموجبها فيما ينجم من خلافات بين الناس . غير ان العلاقـة بين القضاء والفقه بالرغم من قوتها ، لم تصل الى حد المطابقة التامة من الناحية العملية ، ومن المعلوم ان القضاة يقومون بتطبيق القواعد الفقهية ، اي ان عملهم متصل بالجانب التطبيقي العملي الذي لا يستلزم حتما التبحر في الدراسات النظرية التي يتطلبها الفقه ، ولدينا شواهد كثيرة اليوم من علمـــاء في القانون متبحرون في دراسته واساتذة نظريون لم يمـارسوا تطبيق القانون ، في حين نجد عدداً كبيراً من حكام وقضاة بارزين لم يؤلف واحد منهم كتابا او ينشر بحثاً في القانون الذي يطبقه ، واذا كان الجمع بين البحث النظري والتطبيق العملي يعتبر مفخرة تستحق الاشادة بها ، فان عدم الجمع بينهما لا يعتبر عيباً او مطعناً .

ان هذا الوضع القـائم اليوم كان له ما يشبهه في العصر العباسي الذي انجب فيه العـالم الاسلامي عدداً كبيراً جداً من الفقهاء الذين درسوا الفقه والفوا فيه فابدعوا ، لم يشغل منهم منصب القضاء الاعدد قليل جداً . كما ان قل من قضاة بغداد من عرف عنه انه الف كتبا في الفقه او اشتهر عنه تبحره في دراساته النظرية .

وقد اشار وكيع الى ان عبدالرحمن بن اسحق « لا علم له بالفقه » (٣ / ٢٨٣) ونقل عن محمد بن سماعه ان « محمد بن ابي رجاء لم يكن له علم بالاصول » (٣ / ٢٨٩) .

غير ان هذه حالات شاذة ، اما الاغلبية المطلقة من القضاة فقد عرف عنهم اطلاعهم على العلوم النقلية ، وخاصة الفقه وكان بعضهم ممن أخذ عنه العلم .

ويبدو ان الخلفاء العباسيين لم يراعوا في اختيارهم قضاة بغـــداد ان يكون القاضي ممن يتبع مذهباً فقهياً معيناً ، ولذلك ولي قضاء بغداد رجال مذاهبهم الفقهية مختلفة .

فأما المذهب المالكي (المنسـوب الى الامام مالك بن انس الأصبحي) مذهب أهل المدينة ، فالراجح انه كان مذهب المدنيين الذين ولوا القضاء ببغداد في العهود الأولى . وقد اشارت المصادر صراحة الى اتباع عدد من قضاة بغـداد المذهب المالكي في الفقـه ، ومن هؤلاء « أبو يحيي الزهري ، هارون بن عبد الله ، وكان من الفقهـاء على مذهب أهل المدينة من اصحاب مالك » (وكيع ٣/٢٧٤ الخطيب ١٤/١٣) .

ومنهم ايضاً اسماعيل بن اسحق الذي كان« من الفقهـاء على مذهب مالك بن أنس يعتل ويحتج وعمل كتباً حملها الناس »(وكيع ٣/٢٨٠) ، « وهو الذي بسط فقه مالك واحتج له ، وصنف فيه الكتب ، ودعى اليه الناس ورغبهم فيه » (الفهرست ٢٨٢) « ونشر عن مذهب مالك وفضله ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات ، وصنف في الاحتجاج لمذهب مالك ، وشرع له ما صار لأهل هذا المذهب مثالاً يحتذونه وطريقاً يسلكونه » (الخطيب ٥/٣٩٤عن طلحة بن محمد بن جعفر) وقد ظل اسماعيل بن اسحق يلي القضاء ببغداد قرابة خمسين سنة ، كما ان عـدداً غير قليل من نسله ولى القضاء فيها ، ولعلهم كانوا من المالكية ايضاً ، وان لم تشر المصادر الى ذلك صراحة ما عـدا اخاه حماد الذي يشير ابن النديم صراحة الى انه كان من المالكية (الفهرست ٢٨٢) .

ومن المالكية ايضاً محمد بن احمد أبو الطـاهر الذهلي الذي ولى القضاء في زمن المتقي والمستكفي ، وكان « متوسط الفقه على مذهب مالك » (الخطيب ١/٣١٣) .

ومنهم ايضاً محمد بن صالح الهاشمي (الخطيب ٥/٣٩٤ شذرات الذهب ٣/٧٠) .

اما من الشافعية فقد ولى قضاء القضاة أبو السائب (الخطيب ١١/٢٤٩،١٢/٣٢٠)وهو أول من ولي قضاء القضاة من الشافعية (شذرات الذهب ٣/٥) كما وليه كل من عمر بن اكثم

الأسدي (الخطيب ١١/٢٤٩) وابن ماكولا (الخطيب ٨/٨٠ المنتظم ٨/١٦٧ ابن الاثير ٩/٦١٥ شذرات الذهب ٣/٢٧٥) ومحمد بن المظفر الحموي (شذرات الذهب ٣/٣٩١ ومحيي الدين بن فضلان (شذرات الذهب ٥/١٤٦) وعبدالله بن محمد البدراني (شذرات٥/٢٦٩).

ومن القضاة الشافعية احمد بن عمر بن سريج (الخطيب ٤/٢٨٧) وابو عمران موسى ابن الاشيب (الفهرست ٣٠١) وأبو المعالي عزيزي (ابن الاثير ١٠/٣٢٦ ، شذرات الذهب ٣/٤٠١) وابن السيبي (ابن النجار ١٧٣ أ) واحمد بن سلامة الرطبي (شذرات الذهب ٤/٨٠)واحمد بن محمد أبو العباس الابيوردي (الخطيب ٥/٥١ ، المنتظم ٨/٨٠) وطاهر بن عبد الله أبو الطيب الطبري (الخطيب ٩/٣٥٩ الاباب لابن الاثير ١/٨١) ومحمد بن عبد الله البيضاوي(الخطيب٥/٤٧٦) ،وباي بن جعفر الجيلي (الخطيب٧/١٢٦ أنساب السمعاني٣ـ٤٦٢)

وكان من اصحاب داود الظاهري عبد العزيز بن احمد الخرزي (الخطيب ١٠ ـ ٤٦٦) غير أن ابن النديم يذكر انه كان شافعياً . الفهرست ٣٠٧) .

اما الحنابلة فلم يتول منهم قضاء القضاة غير أبي صالح نصر بن أبي بكر بن عبد الرزاق الجيلي (الحوادث الجامعة ٨٧ شذرات الذهب ٥ ـ ٢٨٤) ويذكر ابن رجب الحنبلي عنه « لا اعلم احداً من اصحابنا دعي بقاضي القضاة قبله ، ولا استقل منهم بولاية قضاء القضاة بعصر غيره » (ذيل طبقات الحنابلة ٢ ـ ١٩١) .

غير ان عدداً من الحنابلة ولي القضاء في العهود المتأخرة ، ومنهم يعقوب بن ابراهيم البرزبيني (اللباب لابن الأثير ١ ـ ١١١ الاكمال لابن ماكولا ١ ـ ١٦١ طبقات الحنابلة لابن الفراء ٢ ـ ٢٤٨ ذيله ١ـ٩٢) وعلي بن محمد ابو منصور الانباري (طبقات الحنابلة ٢ ـ ٢٥٧ ذيله ١ـ١٣٧)وعلي بن روح النهرواني (الجامع المختصر ٢٣٧) ومحمد بن الحسين الفراء (طبقات الحنابلة ٢ ـ ٢٠٠) .

ومن الشيعة كان القاضي الجعابي(الفهرست٢٧٩ وانظر ايضاً الخطيب ٤ـ٢٦ فما بعد) . ويذكر ابن الجوزي ان قاضي القضاة روح بن احمد الحديثي كان «ينبز بالرفض » (المنتظم

١٠ ـ ٢٥٥) ، ومنهم ابن الجير (شذرات الذهب ٥ ـ ٣١) ومحمد بن عبدالله السامري (شذرات الذهب ٤ ـ ٧٠، ٢٠٥) .

ومن الطبيعي ان يكون اكثر قضاة بغداد ممن كانوا يعتنقون المذهب الحنفي ، وقد خصت المصادر ، وخاصة الخطيب ، بالذكر عدداً غير قليل منهم فقد ذكر الخطيب انه كان على مذهب أهل العراق كل من احمد بن يحيى بن أبي يوسف (٥ ـ ٢٠١) والحسن ابن عبد الله السيرافي (٧ ـ ٢٤١) وعبيد الله بن غالب (٨ ـ ٢١٨) ومحمد بن عيسى الضرير (٢ ـ ٤٠٣) واحمد بن محمد بن عيسى البرتي (٥ ـ ٦٢) وكان ابن البهلول « حسن المعرفة بمذهب اهل العراق » (٤ـ٣١) .

وذكرت لنا المصادر من أصحاب أبي يوسف كلاً من محمد بن أبي رجاء (الخطيب ٥ـ٢٧٥) وعكرمة بن طارق السرخي (الخطيب ١٢ ـ ٢٦٣) ومحمد بن سماعه (وكيع ٣ـ٢٨٢) وأبن أبي يوسف (وكيع ٣ ـ ٢٨٦) ، وحماد ، والحسن بن زياد اللؤلؤي (وكيع ٣ـ٢٨٢) وقتيبة ابن زياد (وكيع ٣ ـ ٢٩١) وأبي خازم عبد الحميد بن عبد العزيز (وكيع ٣ ـ ٢٩٢) .

وذكرت المصادر لنا من القضاة الحنفية أسد بن عمرو البجلي (الخطيب ٧ ـ ١٦) وبشر بن الوليد (الخطيب ٧ ـ ٨١ ، وقد ذكر ابن النديم انه من أصحاب الرأي (الفهرست ٢٨٩) وعبد الرحمن ابن اسحق الضبي (الخطيب ٨ـ٣١٨) وعبد الله بن محمد الخلنجي (الخطيب ٨ ـ ٧٣) وأبي خازم (الخطيب ١١ ـ ٥٢ تاج التراجم لابن قطلوبغا ٣٣١) وعلي بن حرملة التيمي (الخطيب ١١ ـ ٤١٠ وكيع ٣ ـ ٢٨٨) ومحمد بن عبد الله المؤذن (الخطيب ٥ ـ ٤١٦) . والصيمري « قاضي الكرخ شيخ اصحاب أبي حنيفة في زمنه » (ابن الاثير ٩ ـ ٥٢٧ ، اللباب ٢ ـ ٦٦، تاج التراجم ٢٦ ، شذرات الذهب ٣ ـ ٢٥٦)

ومن أبرز القضاة الحنفية آل الدامغاني ، فان رأس العائلة أبي عبد الله الدامغاني « انتهت اليه الرئاسة في مذهب العراقيين » (الخطيب ٣ ـ ١٠٩) وقد سيطرت هذه الأسرة على القضاء فترة غير قصيرة من الزمن ، حيث ولي منها منصب قاضي القضاة عدة

رجال ، فضلاً عمن كان ينيبه كل منهم من اسرته على القضاة ببغداد .

وقد اعتبر صاحب الجواهر المضية كافة القضاة من اسرة الدامغاني من رجال المذهب الحنفي.

امتداد سلطان القاضي :

كان عمل بعض القضاة في بغداد يشمل أيضاً عدداً من المدن والاماكن الأخرى ، فقد ذكر أن يوسف بن يعقوب بن اسماعيل بن حماد « قد ولي القضاء بالبصرة سنة ٢٧٦ هـ وضم اليه قضاء واسط ثم اضيف الى ذلك قضاء الجانب الشرقي من بغداد .. اي انه ولي القضاء بين أهل الجانب الشرقي اضافة الى ما كان يتولاه من قضاء واسط والبصرة (الخطيب ١٤-٣١٠) ويذكر ابن الجوزي ان يوسف بن يعقوب « قلد قضاء الجانب الشرقي من بغداد ، وكلواذي ، ونهر بين ، والنهروانات ، وكور دجلة ، وواسط ، مضافاً الى ما تولاه من القضاء بالكوفة واعمالها ، وذلك بعد ان مكثت بغداد ثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً بعد وفاة اسماعيل بن اسحق بغير قاض » (المنتظم ٥ ـ ١٦٢ ، ٦ ـ ٩٦) .

وفي سنة ٢٨٣ هـ « جعل علي بن محمد بن أبي الشوارب على قضاء المدينة ، يعني مدينة المنصور ، مضافاً الى ما كان يتقلده من القضاء بسر من رأى واعمالها » (الخطيب ١٢-٦٠) ويذكر ابن الجوزي انه ولي قضاء مدينة المنصور « وقطربل مضافاً الى ما كان يتولاه من الحكم بسامرا وتكريت وطريق الموصل » (المنتظم ٥ ـ ١٦٢ ، ٦ ـ ٩٦) .

وفي سنة ٢٨٤ « ولي محمد بن يوسف قضاء مدينة المنصور والاعمال المتصلة بها والقضاء بين أهل بزرج سابور ، والراذانين وسكرود (مسكن ؟) وقطربل » (الخطيب ٣ ـ ٤٠٢) وفي سنة ٣٠١ هـ رد المقتدر محمد بن يوسف الى القضاء بعد ان كان معزولاً « وقلده الجانب الشرقي والشرقية وعدة نواحي من السواد والشام والحرمين واليمن وغير ذلك (الخطيب ٣ ـ ٤٠٢) ويقول وكيع ان محمد بن يوسف اعيد في هذه السنة « على قضاء الشرقية والجانب الشرقي من مدينة السلام ، والمدائن ، والنهروانات ، وسقي الفرات من طريق الكوفة » (٣-٢٩٣) .

وقد تولى أحمد بن اسحق بن البهلول « القضاء بمدينة المنصـــور من مدينة السلام وطسوجي قطربل ومسكن والانبار وهيت وطريق الفرات، ثم اضاف له الى ذلك بعد سنين القضاء بكور الاهواز مجموعة لمامات قاضيها إذ ذاك محمد بن خلف المعروف بوكيع ، فما زال على هذه الاعمال الى ان صرف عنها في سنة سبع عشرة وثلاثمائة » (الخطيب ٤ ـ ٣٢) .

وفي سنة ٣٢٨ هـ « خلع الراضي علي ابي نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف وقلده قضاء الحضرة باسرها : الجانب الشرقي والغربي ، المدينـة والـكرخ ، وقطعة من اعمـال السواد » (الخطيب ١٤ /١٢٣) ويذكر الصولي ان الراضي جعل الى ابي نصر قضاء بغداد والمدائن (اخبار الراضي والمتقي ١٤٣)

وفي سنة ٣٣٠هـ «قلد المقتفي بغداد باسرها : الجانب الشرقي ومدينة المنصور والـكرخ ابا الحسن احمد بن عبدالله بن اسحق الخرقي مضافاً الى ما كان قلده قبل الحضرة من القضاء بمصر والمغرب والرملة والبصرة وواسط وكور دجلة وقطعة من السواد » (الخطيب ٤/٢٣١)

وفي سنة ٣٣٤ هـ ولي الخلافة المطيع « فقلد ابا الحسن محمد بن الحسن بن ابي الشوارب الشرقية والحرمين واليمن ومصر وسرمن رآى وقطعة من اعمال السواد وبعض اعمال الشام وسقي الفرات وواسط ، ثم صرف عن جميع ذلك في رجب سنة ٣٣٥ » (الخطيب ٢/٢٠٠)

ولما قلد الطائع محمد بن عبدالله بن احمـد بن ابي معروف قضاء القضاة سنة ٣٦٣هـ خوله « الحـكم بين اهل سر من رآى ، وتـكريت ، والطيرهان ، والسن ، والبوازيج ، ودقوقا ، وخانيجار ، وبزرج سابور ، والراذانين ، ومسكن ، وقطربل ، ونهر بوق ، والذيبين ، وجميع الاعمال المضافة الى ذلك ، المنسوبة اليه (رسائل الصابي ص ١١٧) .

وكان القاضي ابو عبيدالله الحسين بن هارون الضبي قد « ولي القضاء بربع الـكرخ من مدينة السلام ، ثم اضيف اليه القضاء بمدينة المنصور ، وقضاء الكوفة وسقي الفرات بامره » (الخطيب ٨ / ١٤٦) وفي سنة ٣٩٠ « قلد القاضي ابو عبدالله الحسين بن هـارون الضبي مدينة المنصور مضافة الى الـكرخ والـكوفة وسقي الفرات ، وقلد القاضي ابو محمد عبدالله

ابن محمد الاكفاني الرصافة واعمالها عوضاً عن المدينة التي كان يليها ، وقلد القضاء ابو الحسن الخرزي طريقي دجلة وخراسان ، مضافاً الى عمله بالحضرة ، وقرئت عهودهم على ذلك » (ذيل تجارب الامم للصابي ٣/٣٧٢ المنتظم ٧ / ٢٠٨) الخطيب ٨ / ١٤٦) وفي سنة ٣٩٠هـ اضيف الى القاضي ابي الحسن الخرزي « النظر بطريق دجلة وخراسان » (الصابي ٣ / ٢٧٢ انظر ايضاً المنتظم ٨ / ٢١٨) .

ويبدو ان تولية قضاة بغداد على مناطق اضافية اخرى ، لم تتبع كثيراً في العصور العباسية المتأخرة ، اذ لم تذكر المصادر الا اشارة في عهد قاضي القضاة ابي الحسن علي بن احمد الدامغاني الذي ولى سنة ٥٠٢ هـ ابنه محمد « قضاء الجانب الغربي من مدينة السلام وواسط وغير ذلك » (ابن الدبيثي ٢ / ٨٨أ) وولى اخاه ابا جعفر القضاء بالرصافة وباب الطاق ، ومن اعلى بغداد الى الموصل وغيرها من البلاد (المنتظم ٩ / ٨٣) وولي ايضاً اخاه الحسن بن احمد القضاء بربع الكرخ من الجانب الغربي سنة ٥٤٦ هـ ، ثم اضاف اليه في سنة ٥٥٥ واسط (الدبيثي ٣ / ١٥٤ أ) .

وقد جمع القضاء في بعض الفترات ، في عدة مناطق بيد قاض واحد : فقد جمع قضاء الجانب الغربي كله ، مدينة المنصور والشرقية ، لكل من محمد بن سماعه (سنة ٢٠٧ ـ ٨) وعبدالرحمن بن اسحق (٢١٣ ـ ٢٢٨ هـ) واسماعيل بن اسحق ، ومحمد بن الحسن بن ابي الشوارب (٣٣٣ هـ) ومحمد بن عيسى بن ابي موسى الضرير (٣٣٣ هـ) وابي الحسن محمد بن صالح الهاشمي (٣٣٥ ـ ٦) وابي السائب عتبة بن عبدالله (٣٣٦ هـ)

وجمع الجانب الشرقي والكرخ لكل من عبدالله بن علي بن ابي الشوارب (٢٩٦هـ ـ٣٠١هـ)وابي نصر يوسف بن عمر الازدي (٣٢٩) ومحمد بن عيسى بن ابي موسى (٣٢٩ هـ) .

وجمعت بغداد كلها لكل من إسماعيل بن اسحق(٢٦٤ـ٢٨٢هـ) وابي نصر يوسف بن عمر بن يوسف (٣٢٨هـ ـ ٣٢٩هـ) واحمد بن عبدالله بن اسحق الخرقي (٣٣٠هـ ـ ٣٣٥هـ)ومحمد بن

صالح (٣٣٥ ـ ٦) وابي السائب عتبة بن عبدالملك بن موسى (٣٣٦) وعبدالله بن الحسين ابن ابي الشوارب (٣٥٠) وابي محمد عبيدالله بن معروف ٣٥٦)

وقد ذكر ابن الدبيثي عدداً من القضاة الذين ولوا الحكم والقضاء في القرن السادس واوائل القرن السابع بمدينة السلام دون تخصيص منطقة فيها ، وممن ذكر منهم .

١ ـ ابو منصور محمد بن احمد بن علي الدامغاني « استنابه اخوه ابو الحسن سنة ٥٤٣هـ في الحكم والقضاء بمدينة السلام ، فلم يزل على ذلك الى ان توفى في سنة ٥٤٦هـ» (٢/٥ ب)

٢ ـ ابو المظفر الحسين بن احمد بن علي « استنابه اخوه قاضي القضاة ابو الحسن علي ابن احمد بن الدامغاني في الحكم والقضاء بمدينة السلام سنة ٥٤٦هـ الى ان عزل اخوه سنة ٥٥٥هـ ، فانعزل ولزم بيته ، فلما اعيد اخوه الى قضاء القضاة سنة ٥٧٠ هـ ، استنابه في الحكم والقضاء على عادته المتقدمة فلم يزل على ذلك الى ان توفي سنة ٥٧٩هـ » (٣ ـ ١٨٤ ب) .

٣ ـ عبد الله بن عبد الواحد بن أحمد بن محمد الثقفي « استنابه أبوه على القضاء والحكم بمدينة السلام (سنة ٥٥٥هـ) » (١ ـ ٩٥ أ) .

٤ ـ أبو طالب روح بن أحمد الحديثي كان ينوب في القضاء بمدينة السلام قبل ولايته قضاء القضاة سنة ٥٦٥هـ (١ ـ ١٥٤ ب) .

٥ ـ أبو عبد الله الحسين الدامغاني « كان قاضياً بمدينة السلام قبل ولايته قضاء القضاة سنة ٥٨٨ » (١ ـ ١٣٩ ب) .

٦ ـ أبوالقاسم عبيد الله بن الحسين الدامغاني « تولى القضاء والحكم بمدينة السلام سنة ٥٨٦هـ » وقد ظل في عمله الى أن ولي قضاء القضاة علي بن علي البخاري، ثم انفرد بالحكم ببغداد (١ ـ ٩١أ وانظر أيضاً ٣ ـ ١٧ ب) .

٧ ـ عبد الحق بن محمد بن عبد الله المقرون « شهد عند القاضي محمود بن أحمد الزنجاني النائب في الحكم بمدينة السلام سنة ٦١٢هـ » (١ ـ ١٦٩ أ وانظر أيضاً ٢ ـ ٢٢ ب) .

ولا ريب فيه ان المقصود بمدينة السلام هو غير «مدينة المنصور» . ومع اننا لانستطيع

الجزم ما اذا كانت ولايات القضاة المذكورة في هذه النصوص على بغداد كلها (واسمها الرسمي مدينة السلام) او ان ولايتهم كانت مقصورة على بعض اجزائها .

لا تذكر المصادر كيف كان يتم بالفعل قيام القاضي بالنظر في أمر الجانب الغربي كله ، أو بغداد كلها ، أو بغداد وما يضاف اليها ، خاصة وأنها لم تذكر نواباً عنهم أو أشخاصاً مخولين بالقيام بهذا العمل كله ، وكل ما أشارت اليه هو الشهود والامناء الذين لا نعتقد ان عملهم يمتد الى النيابة عن القاضي في كل عمله .

ومما يلفت النظر قلة عدد القضاة في بغداد اذا قورن بعدد الحكام في الوقت الحاضر ، ولا ريب ان هذا قد يرجع الى ان عدد سكان بغداد كان أقل مما هو عليه الآن ، وان بعض الاعمال التي تعتبر اليوم من اختصاص الحكام كانت آنذاك خارجة عن اختصاص القضاة وداخله في اختصاصات الوالي أو صاحب الشرط أو المحتسب ، كما ان المشاكل التي واجهت أهل بغداد آنذاك كانت اقل مما تواجه سكانها في العصر الحاضر ، نظراً لقلة تعقد المجتمع وقوة الوازع الديني ، غير ان هذه العوامل مجتمعة ومهما كانت قوة تأثيرها فانها لا تبرر اقتصار بغداد على اربعة قضاة ، وهو أقصى ما كان فيها ، علماً بانه كان ببغداد في فترات غير قليلة قاضيان أو قاضٍ واحد فقط ، هذا فضلاً عن ان القاضي ببغداد أو في بعض أقسامها ، كان عليه في بعض الفترات ان ينظر في قضاء مناطق واسعة وبلدان كثيرة خارج بغداد ، وهي اوضاع لا تمكنه من النظر شخصياً في كل القضايا التي تظهر في هذه المناطق ، هذا بالاضافة الى ما يصيب بعض القضاة من المرض أو الشيخوخة مما يعيقهم عن النظر في القضايا .

لقد ذكرت المصادر عدداً من الاشخاص كانوا يخلفون القضاة في الحكم ، وان كلاً من هؤلاء كان يقوم بالعمل نيابة عن القاضي الاصيل وبتخويل شخصي منه ، دون حاجة الى تأييد الخليفة أو ذي السلطان التنفيذي ، وأغلب من كان ينوب عن القاضي هم ممن كانت تربطهم صلة نسب بالقاضي الاصيل ، فقد كان زياد بن عبدالله بن علاثة يخلف أخاه محمداً على القضاء بعسكر المهدي (وكيع ٣ ـ ٢٥٢ الخطيب ٥ ـ ٣٨٩ ، ٨ ـ ٤٧٨ ، ١١ ـ ١٩٦) واستخلف

أبو يوسف ابنه يوسف على قضاء مدينة المنصور (وكيع ٣ ـ ٣٨٢) ، وكان أبو الحسين عمرو بن يوسف يخلف أباه على القضاء بالجانب الشرقي والشرقية وسائر ما كان الى قاضي القضاة أبي عمرو (المنتظم ٦ ـ ١٦٧ انظر أيضاً المنتظم ٦ ـ ١٤٧).

ولما اصيب عبد الله بن علي بن أبي الشوارب بالفالج استخلف له ابنه محمد على عمله كله (الخطيب ٥ ـ ٤٣١ المنتظم ٦ ـ ٩٧) .

وكان أحمد بن اسحق بن البهلول « ربما اعتل فيخلفه ابنه » (الخطيب ١ ـ ٢٧٨) وقد « خلف أبو نصر يوسف أباه على القضاء بالحضرة سنة ٣٢٧ هـ » (الخطيب ١٤ ـ ٣٢٢ المنتظم ٦ ـ ٢٩٦) واستخلف أبو الحسين عمر بن يوسف محمد بن محمد بن راهويه سنة ٣٢٦هـ (الخطيب ٥ ـ ٢١٥) .

ولما خرج المتقى الى الموصل اختفى القاضي الخرقي فاستخلف على مدينة المنصور أبا الفضل محمد بن عبد الله بن العباس بن أبي الشوارب ، ثم عاد المتقي فظهر القاضي الخرقي وأخذ يحكم بنفسه (الخطيب ٥ ـ ٤٤٩) .

وعند ما خرج القاضي أبو السائب عتبة من بغداد خلفه عمر بن اكثم على الجانب الشرقي، ثم جمع البلد لأبي السائب ، وهو بالبصرة مع المطيع ، فكتب بذلك الى الحضرة واستخلفه على بغداد بأسرها (الخطيب ١١ ـ ٢٤٩) .

وفي سنة ٣٧٦هـ استخلف قاضي القضاة ابن معروف الحسين بن هارون الضبي على الحكم والقضاء بالمدينة الشرقية قبل ان يولاها رئاسة (الخطيب ٨ ـ ١٤٦ ، المنتظم ٧ ـ ٢٤٠) .

وقد ناب عن أبي عبدالله الحسين بن هارون الضبي ، محمد بن محمد بن جعفر أبو بكر الدقاق المتوفى سنة ٣٩٢ هـ (المنتظم ٧ ـ ٢٢٢) كما ناب عنه على بعض عمله بالكرخ القاضي النصيبي (الخطيب ٣ ـ ٥٢) .

وكان يخلف ابن الاكفاني على ربع الرصافة عبد الوهاب بن مكرم أبو خازم (الخطيب ١١ ـ ٣٠) ويخلفه على عمله بالكرخ الحسين بن بكر بن عبد الله (الخطيب ٨ ـ ١١٢) .

وقد ولي المعافى بن زكريا القضاء بباب الطاق نيابة عن ابن صبر (الخطيب ١٣ ـ ٢٣) وناب المبارك بن علي في القضاء عن ابن السيبي والهروي الى سنة ٥١١ هـ (المنتظم ٥ ـ ٢١٧)

ان تولية قاضٍ واحد على اكثر من مركز، أو اضافة مناطق أخرى خارج بغداد له، أو استخلاف آخرين ليمارسوا سلطانه، قد تكرر حدوثه بصورة خاصة في أواخر القرن الثالث وفي القرن الرابع الذي اضطربت خلاله الادارة العباسية وبدأت الاحوال العامة بالتردي والانحطاط في بغداد وبصورة خاصة في الجانب الغربي منها، يذكر ابن الجوزي ان عضد الدولة لما دخل بغداد سنة ٣٧٢ هـ كان « قد هلك أهلها قتلاً وحرقاً وجوعاً للفتن التي اتصلت بين الشيعة والسنة» (المنتظم ٧ ـ ٨٨، وانظر أيضاً طبقات الحنابلة لابن الفراء ٢ ـ ١٥٨).

المناطق القضائية في بغداد

مدينة المنصور: استهدف المنصور من بنائه مدينته المدورة ايجاد قاعدة للخليفة وحاشيته ومواليه وصحابته وانصاره وموظفيه وكذلك لحرسه وجيشه الخاص الذي لا بد من بقائه قريباً منه وتحت تصرفه للتغلب على الأزمات والملمات التي تواجهه، أي أنه أراد أن تكون مركزاً إدارياً وعسكرياً، وهو غرض محدد عبر عنه الخندق والأسوار التي جعل حدودها ثابتة ورقعتها صغيرة. وبالرغم من استيطان الناس في أرباضها منذ بدء بنائها. فان عدد سكانها كان محدوداً نسبياً. ولذلك اكتفي بتعيين قاض واحد لها.

وقد ظلت مدينة المنصور المدورة مركزاً لقاضٍ خاص بها الى أواخر القرن الرابع الهجري، فمن المعلوم ان أبا عبيد الله الحسين بن هارون الضبي عين سنة ٣٩٠ هـ « على مدينة المنصور والكرخ وسقى الفرات » (الخطيب ٨ ـ ١٤٦ المنتظم ٧ ـ ٢٠٧ هلال الصابي ٣ ـ ٣٧٢).

ويذكر الخطيب ان أحمد بن محمد الأبيوردي « سكن بغداد وولى القضاء بها، على الجانب الشرقي بأسره ومدينة المنصور في أيام ابن الاكفاني ثم عزل ورد ابن الاكفاني الى عمله »

(٥ ـ ٥١ ، أنظر أيضاً الانساب للسمعاني ١ ـ ١٠٨) . أما ابن الجوزي فقد ذكر ان الأبيوردي ولى القضاء ببغداد على الجانب الشرقي ومدينة المنصور في أيام ابن الاكفاني ثم عزل » (٨ ـ ٨٠) والراجح ان الفقرة الاخيرة المذكورة عند الخطيب « ورد ابن الاكفاني الى عمله » قد حذفت من المنتظم بسبب خطأ النساخ ، لأن ابن الجوزي ينقل عن الخطيب ومما يؤيد وجود هذه الجملة في كتابه نقل السمعاني لها في كتابه الانساب .

ولا ريب ان سياق الجملة يقتضي ان الأبيوردي ولى قضاء مدينة المنصور ابان تولية ابن الاكفاني القضاء على كل بغداد وممارسته سلطة قاضي القضاة التي حدثت بين سنة٣٩٦ هـ (حيث كان في هذه السنة على باب الطاق) وسنة ٤٠٥ هـ وهي سنة وفاته (الخطيب ١٠ ـ ١٤١) أي أنه كان على قضاء مدينة المنصور حوالي سنة ٤٠٠ هـ .

وقد ورد في بداية القرن الخامس الهجري ذكر لقاضيين من قضاة مدينة المنصور هما :

(١) محمد بن علي بن محمد بن عبيدالله بن عبد الصمد بن المهتدي بالله ابو الحسين الهاشمي الخطيب المعروف بابن الغريق « الذي ولي القضاء بمدينة المنصور وما اتصل بها » (الخطيب ٣ ـ ١٠٨) ويذكر ابن الجوزي ان ابن الغريق ولي القضاء في سنة ٤٠٩ هـ (المنتظم ٨ ـ ٢٨٣) ويذكر ابن العماد انه كان سيد بني العباس في زمانه وشيخهم مات (سنة ٤٦٦ هـ) وله خمس وتسعون سنة (٣ ـ ٣٢٤) .

(٢) علي بن عبد الله بن ابراهيم بن احمد بن عبد الله بن محمد بن داود بن موسى ابو الحسن الهاشمي وكان قد شهد وتولى قضاء مدينة المنصور ومات سنة ٤١٥ (الخطيب ١٢ ـ ٨) ولا يذكر الخطيب سنة تولية أبي الحسن الهاشمي القضاء ولا ما اذا كان قد تولاه قبل ابن الغريق او بعده . ومن المؤكد انه تولاه قبل سنة ٤١٥ وهي سنة وفاته .

ان هذين القاضيين هما آخر من وجدت في المصادر ذكراً لتوليهما القضاء بمدينة المنصور واذا كنا لا نستطيع الجزم بالسنة التي انتهى فيها تعيين القضاة على مدينة المنصور فالراجح انها تمت بعد عهد ولاية احمد بن محمد بن عبدالله بن ابي الشوارب قضاء القضاة (سنة ٤١٧ هـ)

ولعلها في الفترة التي انقضت بين وفاته وبين تولية ابن ماكولا .

وجدير بالذكر ان مدينة المنصور اصابها الانحلال منذ اواخر القرن الرابع، قال فيها احسن التقاسيم المقدسي « فاما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب (٣٠) ويذكر هلال بن المحسن « واما مابين باب البصرة والعتابيين والخلد وشارع دار الرقيق من الجانب الغربي فقد اندرس اندراساً كلياً ، وصار الجامعان بالمدينة والرصافة في الصحراء بعد أن كانا وسط العمارة » (مناقب بغداد ٣٣) ولعل من اهم مظاهر هـذا الانحلال ان مدينة ابي جعفر المنصور اصبحت تدعى بباب البصرة (ياقوت ٣ـ٦٧٥) وان طرقها وسككها اصبحت تنسب الى باب البصرة (انظر الخطيب ٢ـ٣٨٢ . ٨ـ١٤٢ . ١٤ـ٢٤١) .

ووردت في المصادر المتأخرة ثلاث اشارات عن قضاة تولوا مدينة المنصور في العهود العباسية المتأخرة .

فقد ذكر ابن الجوزي ان محمد بن المظفر بن بكران الحموي الشامي « شهد عند قاضي القضاة ابي عبد الله الدامغاني في ربيع الاول سنة [٤] وزكاه القاضي ابو يعلي بن الفراء وابو الحسن ابن السمناني وناب عنه في القضاء بربع المدينة (المنتظم ١٠ـ٩٥) .

وذكر الصفدي ان « محمد بن عبد المتكبر بن الحسن بن عبد الودود بن عبد المتكبر بن هارون بن محمد بن عبدالله بن المهتدي ابو جعفر الهاشمي الخطيب قاضي باب البصرة وقد توفي سنة ٥٣٣ هـ » (الوافي ٤ـ٧٥) .

غير انني لم اجد في الكتب الاخرى ترجمة لهذين الرجلين او أية اشارة الى نيابة الشامي في القضاء بربع المدينة او الى تولية ابي جعفر الهاشمي قضاء باب البصرة وهو الاسم الذي اصبح يطلق على مدينة المنصور .

ذكر ابن الدبيثي ان عبد الملك بن المبارك (ت ٦٠٩هـ) ولي القضاء بمدينة المنصور والحريم الطاهري وما يلي ذلك وشهد سنة ٥٨٨هـ ، (١ ـ ١٣٩ ب ، أنظر أيضاً ذيل طبقات

الحنابلة ١ ـ ٢٤٨ طبعة لاوست) ويذكر صاحب الجواهر المضية (١ ـ ٣٢٦) عن ابن النجار انه عين على الحريم غير انه ذكر في ترجمة ثابت بن احمد انه « ابن عم القاضي ابي منصور عبد الملك بن المبارك قاضي الحريم الطاهري (٣ـ١٤١ ب) كما يذكر أن احمد ابن موهوب (ت٥٧٠ هـ) كان من اهل الحريم الطاهري كان امين القضاة بالحريم وما يجاورها (٣ـ٢٣٠) وان الحسن بن المبارك (ت٦٠٦ هـ) « كان من اهل الحريم الطاهري ، كان امين القضاة بالحريم وما يجاورها » (٢ـ١٨) .

ان النص الذي اورده ابن الجوزي لم يحدد اية مدينة ناب فيها محمد بن المظفر بن بكران . وقد اوردنا من قبل النصوص التي اشارت الى من ولي الحكم او ناب فيه بمدينة السلام التي لا يمكن ان اعتبارها مرادفة لمدينة المنصور .

اما رواية الصفدي فلم يؤيدها مصدر آخر ولم نجد اية اشارة اخرى لقاض ولي القضاء بباب البصرة، ولا شك ان انفراد الصفدي بهذه الاشارة يرجح عدم صحتها، اما ذكر ابن الدبيثي ولاية ابن المبارك على مدينة المنصور فيدل على عدم دقته عدم ذكر المصادر الاخرى لمن ولي مدينة المنصور (التي زال اسمها) قبل تاريخ ولاية ابن المبارك بزمن واصبحت خالية من السكان . اما الاشارة الى قاض على الحريم فان تكررها يدل على وجود (امين) فيها اي وكيل قاض ، وليس بقاض .

الشرقية والكرخ :

لقد ذكرنا ان المنصور استهدف من بناء بغداد ان يتخذها مقراً رسمياً له ولجنده وموظفيه وحاشيته والمتصلين به ، غير انه سرعان ما تقاطرت عليها اعداد كبيرة من العمال واصحاب الحرف والصناع والتجار ورجال الاعمال الذين قدموا الى هذا المركز الجديد للاستفادة من المجالات الواسعة للحياة فيه . ومن الطبيعي انه لم يكن لهم الضبط العسكري المتوفر في جند المنصور ، كما انه لم يكن لهم تجاه الخليفة نفس روابط الاخلاص المتوفرة في الموظفين والحاشية ، وقد اثر ذلك في تشويه الطابع الذي اراده المنصور لمدينته

الجديدة ،الأمر الذي حمله على اقصائهم عن مدينته المدورة حيث امر في سنة ١٥٧هـ «باخراج الاسواق من المدينة الى الكرخ ، وان يبنى ما بين الصراة الى نهر عيسى .. ثم امر ان يبنى لاهل الاسواق مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة لا يدخلون فيه المدينة ويفرد لهم وقلد ذلك رجلاً يقال له الوضاح بن شبا ، فبنى القصر الذي يقال له قصر الوضاح والمسجد فيه ، وسميت الشرقيه لانها شرقي الصراة » (الخطيب ١-٨٠ ، ٨١) .

ويذكر اليعقوبي « وانما سميت الشرقية لانها قدرت مدينة للمهدي قبل ان يعزم على ان يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي من دجلة ، فسميت الشرقية ، وبها المسجد الكبير وكان يجمع فيه يوم الجمعة وفيه منبر ، وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم أخرج المنبر منه» (البلدان ٢٤٥) . ويبدو أن صلاة الجمعة لم تعد تقام في مسجد الشرقية بعد ذلك بامد قصير ، اذ ان الخطيب لم يشر اليه في الفصل الذي خصصه للجوامع التي اقيمت فيها صلاة الجمعة ببغداد (١-١٠٧ ، ١١٠) .

وقد ادى استمرار تقاطر الناس الى بغداد ومقامهم في الجانب الغربي الى توسع رقعة المناطق السكنية وامتدادها جنوباً الى نهر عيسى ، فازدحمت هذه المنطقة وخاصة محلة الكرخ غير أن اسم « الشرقية » ظل مستعملاً .

وقد تطلب ازدحام السكان في الشرقية والكرخ وازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها الى ان يعين لها قاض خاص . ويذكر وكيع ان اول قاض على الشرقية هو عمر بن حبيب العوذي (٣-٢٨٢) كما يذكر ان ابن علاثة استعان بعمر بن حبيب العوذي لينظر في امور الناس بالشرقية ثم ولى رياسة في ايام المهدي (٣-٢٥٢ انظر ايضاً الخطيب ١٦-١٩٦) ويستدل من هذا الكلام ان عمر بن حبيب كان ينظر في القضاء بالشرقية منذ زمن المهدي نيابة ، اي « بصورة غير رسمية ، وان القضاء بالشرقية لم يتثبت « رسمياً » الا منذ عهد هارون الرشيد حيث اصبح الجانب الغربي منذ ذلك الحين مقسما لغرض الادارة القضائية الى منطقتين

هما : مدينة المنصور التي تحدثنا عن منصب القاضي فيها ، والشرقية التي نتكلم عنها الآن .

لقد ذكرت « الشرقية » للقاضي الثاني في الجانب الغربي من بغداد في كتاب « اخبار القضاة » لوكيع الذي ينتهي حوالى سنة ٣٠٢ هـ ، وفي كتاب «اخبار الراضي والمتقي» للصولي الذي ينتهي بحوادث سنة ٣٣٧ هـ ، وفي كتاب « تكملة تاريخ الطبري » لمحمد بن عبد الملك الهمداني الذي ينتهي القسم المطبوع منه بحوادث سنة ٣٧٠هـ ، وكذلك في كتاب « تجارب الامم» لمسكويه الذي ينتهي فيه بحوادث سنة ٣٧٠هـ ايضاً ويذكر الأخير ان عضد الدولة عين على بغداد اربعة قضاة احدهم ابو محمد عبد الرحمن بن محمد العماني« ... على المدينة التي تعرف بالشرقية وهي على غربي دجلة الى الطرف الاسفل منه » (تجارب الامم ٢ـ ٤٠٠) .

اما طلحة بن محمد بن جعفر الذي ينتهي ما نقله عنه الخطيب بحوالي سنة ٣٦٠ هـ فانه لايذكر الشرقية الا في اربعة قضاة هم عبدالله بن علي بن محمد بن عبدالملك بن ابي الشوارب الذي ظل من سنة ٢٩٦ هـ الى ٢٩٨ هـ « على القضاء بالجانب الشرقي من بغداد وعلى الكرخ ايضاً » (الخطيب ٥ / ٤٣٦) ومحمد بن عيسى بن ابي موسى الذي كان سنة ٣٢٩هـ « على الجانب الشرقي والكرخ » (الخطيب ٢ / ٤٠٣) وابو يوسف بن عمر الذي كان على « الحضرة باسرها : الجانب الشرقي والغربي والمدينة والكرخ ... الى سنة ٣٢٩ هـ فان الراضي صرفه عن مدينة المنصور باخيه الحسين واقره على الجانب الشرقي والكرخ » (الخطيب ١٤ـ٢٢٣)ـ المنتظم ٦ ـ ٢٠٠) والخرقي الذي كان بين سنة ٣٣٠ هـ ـ ٣٣٥ هـ « على بغداد باسرها : الجانب الشرقي ومدينة المنصور والكرخ » (الخطيب ٤ـ ٢٣١) .

وذكر الخطيب نقلا عن ابي الحسين الصيمري ان ابا خازم عبدالحميد بن عبد العزيز الحنفي ولي القضاء بالشام والكوفة والكرخ من مدينة السلام » (الخطيب ١١ـ٦٢) وقد كانت ولايته القضاء ببغداد بين سنة ٢٨٢ هـ ـ ٢٩٢ هـ .

لا نعلم فيما اذا كانت كلمة الكرخ الواردة في النصوص المذكورة اعلاه ترجع الى استعمال طلحة بن محمد اياها في كتابه المفقود ، ام الى ان الخطيب وضعها من عنده بدل كلمة

الشرقية . وقد بينا ان المصادر التي الفت قبل سنة ٢٧٠ هـ استعملت كلها كلمة الشرقية ، ولم يستعمل احد منها كلمة الكرخ لوصف منطقة قضاء من كان يلي الجانب الغربي ، الامر الذي يرجح ان كلمة الكرخ استعملت في نصوص الخطيب تجوزاً ، وان الخطيب قد استعمل تعبيراً متأخراً وصفاً لمؤسسة قائمة كان يطلق عليها في القديم اسم يختلف عن اسمها في العهود المتأخرة . او قد يرجع ذلك الى ان طلحة بن محمد قد الف كتابه بعد ما صارت كلمة الكرخ تستعمل مكان كلمة الشرقية ، ولما كان طلحة قد الف كتابه حوالي سنة ٣٧٠هـ ، فان كلمة الشرقية ظلت مستعملة الى حوالي سنة ٣٧٠ هـ ثم حلت محلها كلمة الكرخ ؛ ويبدو ان كلمه الشرقية نسي استعمالها بعد ذلك ، مما جعل الخطيب يشير في عدة مواضع من كتابه الى ان الشرقية هي الكرخ (انظر ٣ ـ ٤٠٢ ، ٥ـ١٠٢ ، ٦ ـ ٢٨٨ انظر ايضاً المنتظم ٥ـ١٥٢)

وقد أخذت المصادر تستعمل ربع الكرخ منذ اواخر القرن الرابع الهجري ، فقد ذكر الخطيب ان ابا محمد عبدالرحمن بن محمد العماني المتوفي سنة ٣٨٦ هـ « ولي القضاء بربع الكرخ » (١٠ـ ٣٠٠) وقد ذكر ذلك ايضاً ابن الجوزي الا انه جعل خطأ سنة وفاته ٤٨٥هـ وقد ذكر الخطيب ايضاً ان ابا عبدالله الحسين بن هارون الضبي المتوفي سنة ٣٩٢هـ « ولي القضاء بربع الكرخ من مدينة السلام ثم اضيف اليه القضاء بمدينة المنصور وقضاء الكوفة وسقي الفرات باسره » وان قاضي القضاة ابن معروف « استخلفه على الحكم والقضاء بالمدينة الشرقية واعمالها » (٨ـ ١٤٦ ، انظر ايضاً المنتظم ٧ـ ٢٤٠ حيث يضيف انه ولي القضاء نيابة عن ابن معروف سنة ٧٦ [٣] ثم رياسة ثم عزل سنة ٧٧ [٣] .

غير انه تجدر الاشارة الى ان مسكويه يذكر ان العماني ولي على الشرقية سنة ٣٦٩ هـ (٢ ـ ٢٩٩) مضافه الى الكرخ والكوفة وسقي الفرات » (٣ـ٣٧٢) ولما كان مسكويه مؤرخ معاصر موثق به، فالراجح ان تعبير ربع الكرخ لم يكن مستعملاً في وقته

وان الخطيب لم يكن دقيقاً في استعماله تعبير «ربع الكرخ» لمكان ولاية كل من العاني والضبي، كما ان استعمال هلال كلمة «الكرخ» لمكان تقلد الضبي يدل على ان هذا التعبير بدأ استعماله بين سنتي ٣٦٩ هـ و ٣٩٠ هـ، اما تعبير «ربع الكرخ» فان عدم وروده عند هلال يدل على انه قد ظهر بعد سنة ٣٩٠ هـ ويلاحظ ان بغداد جمعت سنة ٣٩٦ هـ لابن الاكفاني الذي ظل قاضياً على كل بغداد الى ان توفى سنة ٤٠٥ هـ (الخطيب ١٠-١٤١ المنتظم ٧-٢٣٠، ٢٧٣) فلم تكن حاجة لاستعمال كلمة «الكرخ»، او «ربع الكرخ».

ان اول قاض يردنا اسمه بعد ابن الاكفاني هو محمد بن عبدالله بن احمد البيضاوي المتوفى سنة ٤٢٤ هـ. ويذكر الخطيب (٥-٤٧٢) والسمعاني (الانساب ٢-٣٩٨ طبعة حيدر اباد، والسبكي (٣-٦٣) والصفدي (الوافي ١-١٢١) انه كان قاضياً على ربع الكرخ، الامر الذي يدل على ان تعبير «ربع الكرخ» كان مستعملا في حوالي سنة ٤٢٠ هـ، غير اننا لا نستطيع تحديد سنة ظهور استعماله لاننا لا نعرف شيئاً عن القضاة الذين عينوا بعد ابن الاكفاني (ت ٤٠٥ هـ) وقبل البيضاوي (ت ٤٢٤ هـ) فضلا عن اننا لا نعلم سنة تولية البيضاوي بالضبط.

ومما يجدر ذكره ان تعبير «ربع الكرخ» استعمله ابن الجوزي لوصف ما يقع فيه بركة زلزل (٩-٢٩) ومقابر باب التبن (٩-٢٩) ومقابر قريش (٩-٢٨) علماً بان مقابر باب التبن ومقابر قريش تقع شمال خندق مدينة المنصور المدورة، وبذلك صار يشمل منطقة واسعة تمتد من الكرخ القديمة الى اقصى شمال الجانب الغربي.

الجانب الشرقي (عسكر المهدي، الرصافة):

ان الازدهار السريع الذي رفلت به بغداد منذ السنوات الأولى من إنشائها، جعل الجانب الغربي غير كاف لاستيطان كافة القادمين الى العاصمة الجديدة، خاصة وان رقعتها كانت محصورة بين دجلة ونهر عيسى وذنائب الدجيل. فكان لابد من التوجه الى الجانب الشرقي لاتخاذه مستوطناً للعدد المتزايد من الموظفين وعلية القوم والجيش وبقية

المتقاطرين اليها . وقد ظهر ذلك جلياً بعد سنوات قليلة من اكمال بناء مدينة المنصور ، ففي سنة ١٥١ هـ قدم المهدي ، وكان ولياً للعهد ، مع جيش من الري ، فامر الخليفة المنصور بانشاء الرصافة لتكون مقاماً له ولجنده ولعدد من كبار رجال الدولة . وقد كمل بناؤها سنة ١٥٩هـ (الخطيب ١ـ٨٣) وفي هذه السنة تم بناء جامع الرصافة الذي ظل واحداً من الجامعين اللذين تقام فيهما الجمعة ببغداد الى زمن المعتضد حيث انشئت بعد ذلك جوامع اخرى (الخطيب ١ـ ١٠٩)

وقد تطلب استيطان الناس في الجانب الشرقي تعيين قاض خاص له ، ويذكر وكيع ان اول من فرق القضاء في الجانبين موسى الهادى (٣ـ٢٥٤) ، غير انه يذكر في مكان آخر ان المهدي عين محمد بن عبدالله بن علاثة وعافية بن يزيد الازدي على الجانب الشرقي (اخبار القضاة ٣ـ٢٥١ انظر ايضا الخطيب ٥ـ٣٨٩ ، ٨ـ٤٧٩، ١٢ـ٣٠٨) . ولا ريب فيه ان الرواية الاخيرة هي الأرجح إذ يؤيدها ذكر القاضيين على الجانب الشرقي في زمن المهدي ، بالاضافة الى انه لا يعقل ان يهتم المهدي بالرصافة وينشيء فيها جامعاً ، ثم يبقيها تابعة في امور القضاء الى الجانب الغربي .

ويمكننا ان نحصل مما ذكره وكيع والمصادر الاخرى على قائمة كاملة باسماء القضاة الذين تولوا القضاء في الجانب الشرقي الى اواخر القرن الرابع الهجرى ، وكان يعين عليها طوال تلك المدة قاض واحد فقط مما يدل على انها كانت منطقة قضائية واحدة ، وقد ذكرت بعض المصادر « قاضي الرصافة » وسمته بعضها « قاضي عسكر المهدي » ولكن اغلبيتها المطلقة تذكر « قاضي الجانب الشرقي » ، ولا نرى كبير فائدة في ذكر كافة الاشارات الواردة في الكتب حول هذه التعابير الثلاثة مادام لم يعين على الجانب الشرقي غير قاض واحد ، وما دامت التعبيرات الثلاثة ذات مدلول مقارب ، وان كان تعبير « الجانب الشرقي » ادق من حيث شموله على الرصافة وما حولها .

ولا شك ان الجانب الشرقي لم تكن له في العهود الاولى الاهمية التى كانت للجانب

الغربي ، حيث كان الخلفاء العباسيون الاولون يقيمون فيه الى زمن المأمون ، غير ان اهمية الجانب الشرقي بدأت تتزايد بعد عودة الخلفاء من سامراء في النصف الثاني من القرن الثالث واتخاذ مقامهم في دار الخلافة ، ثم انشاء دار السلطان فيه .

وفي القرن الرابع الهجري اضطربت الادارة العباسية في بغداد وبدأت الاحوال ، وخاصة في الجانب الغربي ، بالتردي والانحطاط ، فيذكر ابن الجوزي ان عضد الدولة لما دخل بغداد في سنة ٣٧٢ هـ ، كان « قد هلك اهلها قتلاً وحرقاً وجوعاً للفتن التي اتصلت بين الشيعة والسنة » (المنتظم ٧ـ٨٨ انظر ايضاً طبقات الحنابلة لابن الفراء ٢ـ١٥٨) ، ولعل من ابرز مظاهر وآثار هذا التردي هو تكرر اختصار عدد القضاة والاكتفاء بقاض واحد على منطقتين او اكثر من المناطق القضائية الثلاث في بغداد ، فضلا عن تخويل قضاة بغداد النظر في قضاء مناطق واسعة خارج بغداد ، وكثرة استخلاف القضاة من يقوم بالنظر الفعلي في امور القضاء ، مما اسلفنا ذكره مفصلاً .

ومع ان عضد الدولة بعد ان دخل بغداد « عمد الى مصالح بغداد فاوجدها بعد العدم ، واعادها الى ريعانهم بعد الهرم ، واستدر افاويق الاعمال بعد ان كانت متصرمة ، واستمد ينابيع الاموال بعد ان كانت مستهدمة ، وفعل في تجديد العمران وبناء البيمارستان ووقف الوقوف الكثيرة عليها ونقل انواع الآلات والادوية من كل ناحية اليه ، ما يدرك العيان بعضه الى الآن ... » . (الروذ راوردي : ذيل تجارب الامم ٣ـ٦٩) . الا ان وفاة عضد الدولة في تلك السنة ادت الى استمرار عوامل التردي والانحطاط في بغداد ، حتى ان هلال الصابي الف كتاباً في مظاهر انحلال بغداد وذكر في تاريخه عن احداث سنة ٣٩٢ هـ « لا جرم ان البلد خرب وانتقل اهله عنه ، فمنهم من مضى الى البطيحة ، ومنهم من اعتصب بباب الأزج ومنهم من بعد الى عكبرا والانهار ، ولقد حدثني جماعة من الناس انهم شاهدوا صينية الكرخ فيما بين طرف الحذائين والبزازين ، والفواخت والعصافير تمشي في ارضها انتصاف النهار وفي الوقت الذي جرت العادة بازدحام الناس فيه بهذا المكان » (٣/٤١٣) .

وقد اشار الخطيب عند كلامه في مقدمة كتابه « تاريخ بغداد » ، عن انهارها الى ان معظم تلك الانهار كانت جافة في زمنه .

ولا ريب فيه ان هذا الانحطاط الذي اوردنا فيه بعض النصوص التي توضحه والذي سندرسه بتفصيل اوفى في بحث مقبل ، كان أقل أثراً على الجانب الشرقي الذي كان فيه مقام الخلفاء والوزراء ومعظم المتنفذين بعد عودة الخلافة من سامراء ، هذا بالاضافة الى قلة المناوشات المذهبية فيه والى بقاء شبكة الانهار والترع التي تزوده بالماء دون ان تتعرض للاندثار . وكان لابد ان تؤدي هذه التطورات الواسعة الى اعادة النظر في التنظيمات الادارية في بغداد وخاصة ادارة القضاء .

لم تظهر تبدلات الاوضاع في بغداد فجأة او تتركز كلها في سنة واحدة بل حدثت تدريجياً خلال فترة امتدت قرناً من الزمن احتفظت خلاله الانظمة بكثير من مظاهرها الخارجية بالرغم من عدم ملائمة هذه المظاهر للاوضاع الجديدة ، فقد ظلت بغداد مقسمة الى ثلاثة مناطق قضائية ، اثنتان منها في الجانب الغربي والثالثة في الجانب الشرقي ، كما ان الخليفة كان صاحب السلطة في تعيين قاضي القضاة والقضاة ، ومع ان تولية قاض واحد على منطقتين او اكثر يمكن اعتباره محاولة لخلق انسجام بين الادارة وواقع الاوضاع الجديدة ، الا ان هذه التعيينات لم تؤثر في عدد المناطق القضائية ، يضاف الى ذلك ان القاضي قد يختار من يخلفه ، اي من يمارس فعلياً عمل القضاء مكان القاضي ، الا ان هذا الممارس كان «يستخلف» ولا « ينوب » اي انه يقوم بالعمل بصورة شخصية ، فهو خليفة القاضي وليس بقاضي لذلك كانت المصادر تشير الى أن امثال هؤلاء القائمين « مستخلفون » ولم تصف احداً منهم بانه « قاض » الا اذا صدر امر الخليفة بتعيينه قاضياً .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ادخلت على القضاء تغييرات ادارية فجعلت المراكز القضائية في بغداد اربعة بدلا من ثلاثة ، وذلك بجعل مركزين للقضاء في الجانب

الشرقي بدلا من مركز واحد ، غير اننا لا نستطيع تحديد السنة التي حدث فيها هذا التبدل .
فيذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٣٥٦ هـ انه « في يوم الخميس لسبع خلون من شعبان خلع على القاضي ابي محمد عبدالله بن احمد بن معروف ، وقلد القضاء بالجانب الغربي من بغداد ومدينة المنصور وحريم دار السلطان ، وقلد القاضي ابو بكر احمد بن سيار القضاء فيما بقي من الجانب الشرقي ببغداد ، وخلع عليهما ، وبعد مديدة ، قلد القاضي ابو محمد بن معروف الاشراف على الحكم » (المنتظم ٧ ـ ٣٨) . وقد تم هـذا في عهد عزالدولة بختيار بن معز الدولة الذي تولى السلطنة في ربيع الآخر من السنة نفسها .

لم يذكر مسكويه تولية ابن معروف القضاء ، ولم يشر الخطيب في ترجمته لابن معروف (١٠ ـ ٢٦٥) الى ما تولاه قبل ان يصبح قاضي قضاة ، كما اني لم اجد لابي بكر احمد بن سيار ترجمة في كتاب الخطيب ، وقد ذكر محمد بن عبدالملك الهمداني انه في شعبان من تلك السنة (٣٥٦ هـ) خلع على القاضي ابي محمد بن معروف وولي القضاء بالجانب الغربي وخلع على ابن سيار وقلد القضاء بالجانب الشرقي (تكملة الطبري ١٩٦) ويلاحظ ان مسكويه لم يهتم كثيراً بذكر القضاة واخبارهم ، وان الهمداني دون كتابه بعيداً عن زمن حدوثها ، فعدم ذكرها منطقة قضاء ابن معروف لا يمكن اتخاذه حجة على خطأ ما ذكره ابن الجوزي .

لم يذكر ابن الجوزي المصدر الذي استقى منه الخبر المذكور اعلاه ، ولكننا نرجح انه اخذه من هلال بن المحسن الذي تدل مقارنة القطعة المنشورة منه بما اورده ابن الجوزي على مدى اعتماد الاخير على هلال .

ويلاحظ ان ابن الجوزي يذكر من الجانب الشرقي « حريم دار السلطان » و « ما بقي من الجانب الشرقي » وهو تقسيم لم يذكر فيما بعد مما يدل على انه تقسيم احدث موقتاً ثم الغي وحل محله تقسيم آخر ، فاغفل المؤرخون ذكر التقسيم الأول لعدم استمراره .

ويذكر مسكويه ان عضد الدولة في سنة ٣٦٩ هـ « قلد قضاء القضاة ابا سعد بشر بن الحسن ، وهو شيخ كبير مقيم بفارس ، واستخلف له ببغداد اربع خلفاء على ارباع بغداد وهم :

محمد بن عبدالله المعروف بابن صبر وكان خليفته على الجانب الشرقي من حد المخرم والى الطرف الاعلى منه .

وابو الحسن عبدالعزيز بن احمد الخرزي وصيره خليفته على ما بقي من الجانب الشرقي من حد المخرم الى الطرف الاسفل منه .

وابو محمد عبدالله بن محمد المعروف بابن الاكفاني خليفته على مدينة ابي جعفر المنصور وما يتصل بها من الجانب الغربي الى طرفه الاعلى .

وابو محمد عبدالرحمن بن محمد العماني خليفته على المدينةالتي تعرف بالشرقية ، وهي على غربي دجلة ، الى الطرف الاسفل منه .

وضمت نواحي بغداد على هذه الحصص (تجارب الامم ٢ـ٣٩٩ـ٤٠٠)

ومما يؤيد حدوث هذا التقسيم قول ابن النديم ان ابا الحسن عبدالعزيز بن احمد الاصفهاني الخرزي « ولاه عضد الدولة قضاء الربع الاسفل من الجانب الشرقي من مدينة السلام والى وقتنا هذا وهو سنة ٣٧٧ هـ » (الفهرست ٣٠٧) كما ان الخطيب ذكر في ترجمة عبدالعزيز بن احمد الخرزي انه « ولي القضاء من حد المخرم الى باب الازج » (١٠ـ٤٦٦ انظر ايضاً المنتظم ٧ـ٢١٨ حيث يضيف انه كان على النهروانات وطريق خراسان ايضاً).

ويلاحظ ان هذا التقسيم جعل القضاة خلفاء لقاضي القضاة ولكنه لم يجعل تعيينهم بيده كما انه ابقى للجانب الغربي مركزين هما : مدينة أبي جعفر والمدينة الشرقية ، فهو لم يستعمل كلمة الكرخ ، مما يدل على ان تعبير « ربع الكرخ » بدأ استعماله بعد هذا التاريخ ، اما الجانب الشرقي فقد جعل له قاضيان يفصل بين حدود عمل كل منهما المخرم ، وهو تقسيم جديد لم يكن موجوداً في السابق .

ويبدو انه حدثت في هذه الفترة تبدلات اساسية ، فقد اختفى بعدها اسم مدينة المنصور وحل محله اسم باب البصرة فلم يعد يذكر لها قاض ، كما بينا سابقاً .

ان تقسيم عضد الدولة المناطق القضائية في بغداد الى أربعة أقسام : اثنان منها في الشرق

واثنان في الغرب اكسب تعبير « الربع » معنىً خاصاً ، وصارت كلمة « الأرباع » تطلق على مراكز القضاة في بغداد .

ويلاحظ ان للربع سمة الخير والبركة والتفاؤل عند العرب ؛ وكانت الكعبة مبنية بناءً مربع الشكل . كما كانت المناطق السكنية التي تقيم فيها عشائر مكة وقبائلها تسمى الرباع ، وكانت الكوفة مقسمة الى أربعة أرباع .

وكانت خراسان في العهد الاسلامي الأول مقسمة الى أربعة أرباع (طبري ٢ ـ ٧٩ فتوح ٤٠٢ ابن الفقيه ٣٢١ ياقوت ٢ ـ ٤٠٩ المقدسي ٣١٣) وكان لمرو أرباع ذكر منها الطبري ربع خرقانه (٢ـ١٩٥٣ ، ١٩٥٧) وربع السقادم (٢ـ١٩٥٧) ولنيسابور أرباع (ابن رستة ٧١ المقدسي ٣١٦ وانظر أيضاً ٣٠٠ ، ياقوت ١ ـ ٧٩١ ، ٣ ـ ٢٣٨ ، ٨٥٢ ، ٢ ـ ٩١٠ ، تاريخ نيسابور للحاكم ١٣٩) .

ويذكر البيهقي ان « الربع هو أحد أرباع الشيء .. والربع محلة القوم ، اذا اجتمع كل قوم في مكان وتقاربت بيوتهم ومحلات سكناهم وقويت أواصر علاقتهم يسمون بالربع ، واما الربع في اللغة الفارسية فيطلق على محلات السكن التي تبنى متقاربة على سفوح الجبال وفي الصحراء » (تاريخ بيهق ٣٤ ـ ٣٥ طبعة أحمد بهمينار) .

اما في بغداد فإن المناطق السكنية كان يطلق عليها عادة « القطائع » ثم « المحلات » الا ان فكرة الارباع كانت قائمة فيها منذ بناء بغداد حيث ان المنصور قسم أرباض بغداد الى اربعة ارباع وجعل على كل ربع قائداً من قواده ، غير ان استعمال كلمة ارباع لم يكن لها معنى محدد ، ولم أجد ذكراً لها الا في المنتظم في حوادث سنة ٢٨٤ هـ انه « نودي في الارباع والاسواق ببغداد بالنهي عن وقود النار ليلة النيروز » (٥ ـ ١٧٧) .

وقد جعل عضد الدولة بغداد أرباعاً وولى على كل ربع قاض ، ومنذ ذلك الحين بدأ يتردد استعمال كلمة « ربع » التي استعملت في النصوص وصفاً للمدينة والرصافة وسوق الثلاثاء ، وباب الطاق .

فيذكر الخطيب ان ابن الاكفاني كان « يخلفه على ربع الرصافة عبد الوهاب بن مكرم » (١٢ ـ ٣١) ويذكر ابن الجوزي ان محمد بن المظفر بن بكران الحموي شهد عند قاضي القضاة ابن الدامغاني وناب عنه في القضاء بربع المدينة (المنتظم ٩ ـ ٩٥) ويذكر ايضاً ان أبا جعفر الدامغاني « كان اليه القضاء بربع باب الطاق » (المنتظم ٩ ـ ١٥٠) ويذكر ابن النجار ان عمر بن علي بن خضر الدمشقي « ولي القضاء بدار الخلافة ، ثم القضاء بربع سوق الثلاثاء » (ذيل تاريخ بغداد ١٣ آ) .

غير انه لابد من الاشارة الى ان ما أوردناه هنا ، ما هو إلا نصوص مفردة ، وان اكثر ما يتردد في المصادر هو « ربع الكرخ » الذي ظهر في الربع الأخير من القرن الرابع وظل مستعملاً حتى أواخر القرن الخامس ، كما اسلفنا ذكره .

ان عضد الدولة بتقليده اربع قضاة على بغداد ، ابقى من غير تبديل ما كان قد استقر عليه من تعيين قاضيين على الجانب الغربي احدهما على مدينة المنصور والاخر على الشرقية (التي أصبحت تسمى الآن الكرخ) ومن المؤكد ان وجود أربع قضاة على بغداد كان قائماً في سنة ٣٨٦ هـ حيث يذكر الروذراوري « القضاة الأربعة وهم أبو عبد الله الضبي ، وأبو محمد بن الاكفاني ، وابو الحسين بن معروف ، وأبو الحسين الخرزي » (ذيل تجارب الامم ٣ ـ ٢٧٧) .

غير ان تنظيم المناطق القضائية ببغداد تعرض في الفترة التي امتدت من هذا التاريخ الى نهاية ولاية ابن ماكولا قضاء القضاة (سنة ٤٤٧ هـ) الى تطورات لا توضحها المصادر ، فقد جمعت بغداد للحسين بن هارون الضبي (٣٩٠ ـ ٣٩٧) ولأحمد بن محمد الأبيوردي كما جمع الجانب الشرقي لابن الاكفاني سنة ٣٩٦ هـ) وفي سنة ٤٠١ هـ وقع على محضر الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين ، من القضاة أبو محمد بن الاكفاني وأبو القاسم الخرزي وابو العباس السوري (المنتظم ٧ ـ ٢٥٦) مما قد يدل على انه كان في تلك السنة ثلاثة قضاة في بغداد ، ولكننا لا نعلم عن مناطق عملهم سوى ابن الاكفاني منهم .

وليس لدينا عن هذه الفترة غير اسم قاضيين على مدينة المنصور وثلاثة على الكرخ

وواحد على باب الطاق .

ويبدو ان التبدلات التي حدثت في هذه الفترة كانت اساسية ، إذ يلاحظ ان اسم مدينة المنصور اختفى بعد هذه الفترة وحل محله اسم باب البصرة ولم يعد عليها قاض ، كما اسلفنا.

ان التغيير الأساسي الذي ادخله عضد الدولة على تنظيم القضاء ببغداد هو ان الجانب الشرقي اصبح له قاضيان ، بدلا من قاض واحد ، يفصل بين حدود اختصاصها المخرم ولعل هذا راجع الى ان الجانب الشرقي كانت قد تزايدت أهميته اذ صار فيه مقام الخلافة والوزارة والسلطان بعد عودة الخلافة من سامراء ، فضلاً عن استتباب الأمن فيه ، وقلة الفتن والاضطرابات الطائفية فيه .

يبدو ان تنظيم عضد الدولة فيما يخص مناطق القضاء في الجانب الشرقي لم يستمر السير عليه ، فقد عين له بعد ذلك قاض واحد هو أبو الحسين بن معروف (٣٨١ هـ) ثم احمد بن محمد الابيوردي ثم ابن الاكفاني (٣٩٠ ـ ٣٩٦) ثم تلت ذلك فترة لم يذكر فيها من القضاة على الجانب الشرقي سوى محمد بن علي بن يعقوب ابي العلاء الواسطي المتوفى سنة ٤٣١ هـ ، ويقول الخطيب انه « رد اليه القضاء بالحريم من شرقي بغداد وبالكوفة وبغيرها من سقي الفرات (الخطيب ٣ ـ ٩٥ ، أنظر أيضاً شذرات الذهب ٣ ـ ٢٤٩) كما ذكرت المصادر تولية أبي جعفر السمناني على باب الطاق والرصافة سنة ٤١٥ هـ (ابن الاثير ٩ ـ ٣٤٣) وتولية أبي الطيب الطبري (ابن الاثير ٩ ـ ٥٢٧) .

غير انه منذ أن ولي ابو عبد الله محمد بن علي الدامغاني قضاء القضاة (سنة ٤٣٧ هـ) ترد سلسلة متصلة الحلقات تقريباً من القضاة على حريم دار الخلافة وباب الطاق وباب الأزج ، مما يدل على أن الجانب الشرقي أصبحت فيه هذه المراكز الثلاثة للقضاء ، ولم يعد للجانب الشرقي ذكر في المصادر .

باب الطاق :

ورد اول ذكر لولاية القضاء بباب الطاق عند الخطيب الذي يذكر ان المعافي بن زكريا « ولي القضاء بباب الطاق نيابة عن ابن صبر » (٨ ـ ٢٣٠) . غير ان مسكويه ذكر ان

ابن صبر كان « على الجانب الشرقي من حد المخرم والى الطرف الأعلى منه » (٢ ـ ٣٩٩) . ولما كان مسكويه معاصراً ومتصلاً بالمراجع الرسمية : فالراجح ان كلامه عن ولاية ابن صبر أدق ، أي ان باب الطاق لم يكن اسم منطقة قضائية في هذه الفترة ، وان الخطيب قد استعمل هذا التعبير تجوزاً . والواقع ان ابن الجوزي في كلامه عن المعافي اقتصر على القول انه « ناب في القضاء » دون ان يذكر باب الطاق أو يشر اليه .

ولما كان القطاع من بغداد الذي يقع من حد المخرم الى الطرف الأعلى منه يشمل الرصافة وباب الطاق ، وان الرصافة التي اصبحت مدفن الخلفاء قد تناقصت اهميتها بالنسبة الى باب الطاق الذي شيد البويهيون في اعلاه عدة منشآت وقصور ضخمة ، فان الناس صاروا يطلقون باب الطاق على ولاية القاضي في هذه المنطقة . ومن المؤكد ان هذا التعبير بدأ استعماله بعد سنة ٣٧٠ هـ ، غير اننا لا نعلم في أي سنة اصبح تعبيراً رسمياً .

والواقع ان الخطيب يذكر ان ابن الاكفاني « ولي قضاء مدينة المنصور ثم ولي قضاء باب الطاق وضم اليه سوق الثلاثاء ثم جمع له قضاء جميع بغداد في سنة ٣٩٦ هـ (الخطيب ١٠ ـ ١٤١ المنتظم ٧ ـ ٢٧٣) .

وقد تتابع ذكر القضاة على باب الطاق بشكل متسلسل تقريباً الى اوائل خلافة المستنجد حيث ولي عليه أبو الفضل محمد بن احمد بن محمد (الدبيثي ١ ـ ١١٥ ب) ثم لم يعد يذكر قاضٍ لباب الطاق مما قد يدل على انه لم يعد يعين له قاض منذ ذلك التاريخ .

ولا بد ان التوقف عن تعيين قاض على باب الطاق يرجع الى استقرار تطورات مهمة في سكان بغداد لا نعلم تفاصيلها . ويلاحظ ان النسخ الباقية من ابن الدبيثي لاتترجم لقاض على باب الطاق غير أبي الفضل المذكور آنفاً .

ويلاحظ ان تعبير « ربع باب الطاق » لم يرد الا في نص واحد يرجع الى سنة ٥٠٠هـ في زمن أبي الحسن الدامغاني (المنتظم ٩ـ١٥٠) كما يلاحظ ان تعبير « الرصافة » زال ذكره من المصادر فلم يرد له ذكر الا عند ابن الاثير الذي يقول أن ابا جعفر السمناني « قلد قضاء

الرصافة وباب الطاق سنة ٤١٥هـ» (٤-٣٤٣). والراجح ان قاضي باب الطاق كانت ولايته تشمل الرصافة ايضاً نظراً لتجاور المكانين .

ويلاحظ ايضاً ان القضاة كانوا يلون باب الطاق وحده الا ابو الطيب الطبري الذي ولي الكرخ وباب الطاق (ابن الاثير ٩-٥٢٧) .

باب الأزج :

ذكر الخطيب ان عبد العزيز الخرزي ولي القضاء بالجانب الشرقي من حد المخرم الى باب الأزج (١٠-٤٦٩) وذكر ابن الجوزي ان الخرزي كان يقضي بالمخرم وحريم دار الخلافة وباب الأزج والنهروانات وطريق خراسان (المنتظم ٧-٢١٨) .

ان هذين النصين هما اول ما يظهر فيهما استعمال تعبير باب الأزج ، غير ان مسكويه وابن النديم ، وهما معاصران لتولية الخرزي ، ذكرا أن الخرزي استعمل على الطرف الاسفل من بغداد ولم يذكرا « باب الأزج » وهذا يدل على ان باب الأزج لم يكن قد استعمل لولاية القضاء انذاك وان استعمال الخطيب وابن الجوزي له كان تجوزاً .

ويذكر ابن الجوزي ان اسماعيل بن عمر بن محمد بن ابراهيم المعروف بابن نسنبك (ت ٤٠٣ هـ) « كان يسكن باب الأزج وتقلد النظر والحكم هناك » (المنتظم ٧-٢٦٣) ومن الواضح ان هذا النص لا يجزم بوجود ولاية قضاء على باب الأزج .

ان اول اسم في السلسلة المتصلة لقضاة باب الأزج ورد ذكره في اواسط القرن الخامس ، حيث يذكر ابو يعلى الفراء انه بعد وفاة ابن ماكولا سنة ٤٤٧ هـ اراد الخليفة القائم بأمر الله محمد بن الحسين بن الفراء على ولاية القضاء بدار الخلافة والحريم ، وان ابن الفراء قبل ذلك على ان يقصد نهر المعلى يوماً وباب الأزج يوماً ، ويستخلف من ينوب عنه في الحريم ، وان الفراء قد رد القضاء بباب الأزج الى الجيلي وجعل صاحبه ابا علي يعقوب (البرزبيني) مشرفاً عليه ، فلما تبين له من حال الجيلي الاختلال عزله ثم رد النظر في عقد الانكحة والمداينات بباب الأزج الى تلميذه ابي علي يعقوب (طبقات الحنابلة ٢-٢٠٠) .

ويلاحظ ان الخطيب وابن الجوزي يذكران ان محمد ابن الجيلي «ولي القضاء بباب الطاق وبحريم دار الخلافة» (الخطيب ٧ـ١٣٦ المنتظم ٨ـ٢١٧) اما السمعاني فيذكر انه كان على باب الطاق (الانساب ٣ـ٤٦٢).

ونستدل من هذا على ان القضاء بباب الازج كان داخلاً مع قضاء الحريم حتى سنة ٤٤٧هـ حيث بدأ يتميز عنه ويتولى عليه قضاة خاصون ذكرت المصادر اسماءهم وظل الامر كذلك الى اوائل القرن السابع.

وقد استعمل ابن الجوزي تعبير «باب الأزج»، وكذلك فعل ابن الدبيثي الا في كلامه عن ولاية أبي الفتوح ابن البخاري (١ـ٦٠١) ومحمد بن روح الحديثي (٢ـ٤٩ ب) فانه استعمل تعبير «ربع باب الأزج».

الحريم :

ذكر ابن الجوزي انه في سنة ٣٥٦ هـ «خلع على القاضي أبي محمد عبيد الله بن احمد بن معروف وقلد القضاء بالجانب الغربي من مدينة المنصور وحريم دار السلطان وقلد القاضي ابو بكر احمد بن سيار القضاء فيما بقى من الجانب الشرقي، وبعد مدة قلده القاضي أبو محمد عبيد الله بن معروف الاشراف على الحكم والحكام» (المنتظم ٧ـ٣٨) ويذكر انه في سنة ٣٥٧هـ «صرف القاضي أبي محمد عبيد الله بن معروف عن القضاء في حريم دار السلطان وتقلد القاضي أبو بكر بن سيار مضافاً الى ما كان اليه من الجانب الشرقي» (٧ـ٤٣)، ويتبين من هذين النصين المتكاملين ان الجانب الشرقي جعل منذ سنة ٣٥٦هـ منطقتي قضاء احداهما حريم دار السلطان والاخرى ما يتبقى من الجانب الشرقي، وان هـذا التقسيم لم يستمر طويلاً لان ابن سيار اصبح بعد سنة على الجانب الشرقي كله.

والواقع ان «حريم دار السلطان» لم يذكر كوحدة قضائية في اي مصدر آخر.

ويذكر ابن الجوزي (٧ـ٥١) ومحمد بن عبد الملك الهمداني (تكملة تاريخ الطبري ٢٠٤) انه في سنة ٣٥٩ هـ «صرف القاضي ابو بكر بن سيار عن القضاء في حريم دار الخلافة وتولاه أبو محمد بن معروف»

كما أن ابن الجوزي يذكر ان عمر بن محمد بن ابراهيم البجلي « استخلفه أبو محمد بن معروف على الحكم بسوق الثلاثاء وحريم دار الخلافة » (٧ـ١٣٣) وقد يدل هذا النص على ان ابن الجوزي لم يكن دقيقاً في استعمال تعبير « حريم دار السلطان » الذي كان يقصد منه « حريم دار الخلافة » .

وقد ذكر ابن الجوزي ان عبد العزيز بن احمد الخرزي « كان يقضي بالمخرم وحريم دار الخلافة وباب الأزج والنهروانات وطريق خراسان» (٧ـ٢١٨) غير أن استعمال تعبير « حريم دار الخلافة » في هذا النص كان عاماً وليس دقيقاً لان مسكويه وابن النديم ، هما مصدران معاصران ، لم يذكراه .

ويذكر الخطيب (٣ـ٩٥) وابن الجوزي (٨ـ١٠٧) ان محمد بن علي بن احمد بن يعقوب ، ابا العلاء الواسطي (٣٤٨ـ٤٢١) كان « اليه القضاء بالحريم من شرقي بغداد » غير أن المصادر لا تحدد سنة تعيينه ، كما ان هذا النص لم يوضح اي حريم مقصود ، وان كان الوضع العام يقضي باعتباره الحريم الطاهري .

كل هذه النصوص تدل على ان قاضي الحريم قد انشىء منصبه منذ اواخر القرن الرابع الهجري ، غير أن جمع ابن معروف وابن الاكفاني قضاء الجانب الشرقي لا بد وان ادى الى اختفاء عمله كوحدة قائمة بذاتها اما ابان ولاية ابن الاكفاني قضاء القضاة فلا نجد ذكرا لقاض على الجانب الشرقي ، مما قد يدل على ان قاضي القضاة كان يقوم بعمله .

غير أن وفاة ابن ماكولا سنة ٤٤٧هـ ادت الى ظهور وضع جديد وقد تبين « للامام القائم بأمر الله احتياج الحريم الى قاض عالم زاهد ، فطلب من محمد بن الحسين بن الفراء ان يلي القضاء بدار الخلافة والحريم ، فوافق على شروط منها انه في كل شهر يقصد نهر المعلى يوماً وباب الأزج يوماً ، ويستخلف من ينوب عنه في الحريم فاجيب الى ذلك ... ثم اضيف الى ولايته بالحريم قضاء حمران (؟) وحلوان واستناب فيها » (طبقات الحنابلة ٢ ـ ١٩٩) .

يتبين من هذا النص ان الحاجة الى قاض للحريم ظهرت بعد وفاة ابن ماكولا ، وذلك اما لتزايد اهمية الحريم في ذلك الوقت ، او لان ابن ماكولا كان يقوم في حياته بعمل قاضي الحريم فلما توفي ظهرت الحاجة الى تعيين قاض جديد .

ويتبين من النص ايضاً ان قضاء دار الخلافة كان في ذلك الوقت متميزاً عن قضاء الحريم ، اذ أن الفراء وافق على ان ينيب عنه في الحريم ، وان قضاء حمران وحلوان اضيفا الى قضاء الحريم ، اما قضاء دار الخلافة فكان يتولاه بنفسه . ويدل هذا النص ايضاً على ان قضاء دار الخلافة كان يشمل نهر المعلى وباب الأزج .

وقد أدت تولية قاض واحد على الحريم ودار الخلافة الى الخلط بينها ، فيذكر ابن الفراء ان محمد بن الحسين الفراء « استناب النظر في الحكم بدار ار الخلافة ونهر المعلى ابا الحسن السيبي (طبقات الحنابلة ٢ـ٢٠٠) كما يذكر ابن الجوزي انه في سنة ٤٧٨ هـ ، توفي القاضي ابو الحسن هبة الله بن محمد السيبي قاضي الحريم بنهر المعلى » (المنتظم ٩ـ١٨) .

ومنذ هذا التاريخ تبدأ سلسلة متتابعة للقضاة الذين تذكر المصادر انهم تولوا حريم دار الخلافة ، وتستمر هذه السلسلة الى اوائل القرن السابع ، ويلاحظ ان المصادر التي ذكرت هؤلاء القضاء اطلقت على منطقة ولايتهم حريم دار الخلافة ولم تسمه ربع دار الخلافة ، ويلاحظ ايضاً أن القضاة الذين تولوا الحريم كانوا من ذوي المكانة البارزة .

باب النوبى :

ذكر صاحب الجواهر المضية ان محمد بن نصر بن منصور الهروي لما ولي القضاء على حريم دار الخلافة وما يليه من النواحي والاقطار وديار مضر وربيعة استناب ابا سعد المبارك بن علي المخرمي الحنبلي على باب المراتب ، وابا محمد الحسن بن محمد بن احمد بن علي الاسترابادي الحنفي على باب النوبى » (الجواهر المضية ٢ـ١٣٧) .

ويتبين من هذا أن قضاء حريم دار الخلافة يتكون من باب المراتب و باب النوبى ، فاما باب المراتب فلم اجد ذكراً لقاض ولي عليه . واما باب النوبى فقد ورد في ثلاثة مواضع من

ابن الدبيثي ، فاما اولاها فهي قوله ان عبد الله بن محمد بن محمد بن احمد الكرخي « تولى القضاء بباب النوبى المحروس ومن بعد وفاة ابيه وكان يلي ذلك ، ولم يزل ابو منصور على ولايته الى ان توفي سنة ٥٥٧هـ » (١ـ١٠٠ت) والثانية قوله إن الحسين بن علي الشهرزوري «كان يجلس بباب النوبى (٣ـ١٨٩ ب) والثالثة كلامه عن محمد بن عبد الواحد بن محمد ابن علي بن عبد الواحد بن الصباغ الذي « تولى القضاء بباب النوبى المحروس »(٢ـ٤٣ أ)

لم اجد في المصادر الاخرى اشارة الى ولاية الشهرزوري اما ولاية عبد الله بن محمد الكرخي ، فان المصادر الاخرى تذكر انه ولى القضاء بحريم دار الخلافة ، الامر الذي يدل على عدم وجود تمييز بين الحريم وبين باب النوبى ، وان قول الدبيثي ان الشهرزوري كان يجلس بباب النوبى يوحي ان باب النوبى هو مكان جلوس قاضي الحريم .

نهر المعلى :

لقد ذكر ابن الفراء أن ابا يعلي الفراء ذكر أن محمد بن الحسين الفراء عند ما عرضت عليه ولاية القضاء بدار الخلافة والحريم « قبل على ان يقصد نهر المعلى يوماً وباب الأزج يوماً، ويستخلف من ينوب عنه في الحريم » وانه استناب عنه في في دار الخلافة ونهر المعلى السيبي (طبقات الحنابلة ٢ ـ ٢٠٠) . ويتضح من هذا النص ان دار الخلافة كانت آنذاك تتميز عن الحريم وانها كانت تشمل نهر المعلى وباب الأزج .

لقد ذكر ابن الجوزي وابن الاثير انه في سنة ٤٧٨ هـ « توفي القاضي ابو الحسن هبة الله بن محمد السيبي قاضي الحريم ونهر المعلى » (المنتظم ٩ـ١٨ ابن الاثير ١٠ـ١٣٦) ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٢٧ هـ « ولى ابن الكرخي القضاء والحسبة بنهر المعلى وولى ابن يعيش القضاء بباب الأزج (المنتظم ١٠ـ٢٩) ويذكر ايضاً انه في سنة ٥٦٦هـ « ولي ابو المحاسن عمر بن علي الدمشقي الحكم بنهر المعلى » (المنتظم ١٠ـ٢٩) .

غير أن نصوصاً اخرى تذكر انه كان على قضاء الحريم كل من ابن الكرخي (المنتظم ١٠ ـ ٢٠٢ وعمر بن علي (ابن النجار ١١٣ ب ابن الاثير ١١ـ٤٦١) . الأمر الذي يدل على ان قاضي نهر المعلى هو قاضي الحريم وانه لا فرق بين قضاء الحريم وقضاء نهر المعلى .

الخليفة	القاضي
السفاح	يحيي بن سعيد الأنصاري [١]
١٣٢	
المنصور	يحيي بن سعيد الأنصاري [٢]
١٣٦	الحسن بن عمارة مولى بجيله [٣]
	عبد الله بن محمد بن صفوان الجمحي
المهدي	عبد الله بن محمد بن صفوان [٤]
١٥٨	محمد بن عبد الله بن علاثة الكلابي (على عسكر المهدي) [٥]
	عافية بن يزيد الأودى (على الجانب الشرقي) [٦]
	عمر بن حبيب العدوي (على الشرقية) [٧]
موسى الهادي	ابو بكر بن عبد الله بن أبي سيرة [٨]
١٦٩	ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم (الجانب الغربي) [٩]
	سعيد بن عبد الرحمن الجمحي (الجانب الشرقي) [١٠]

(١) وكيع ٣/٢٤١ ، وكل الاشارات التالية مأخوذة من الجزء الثالث من كتابه اخبار القضاة ولا بد من الاشارة ان بغداد انشئت في عهد المنصور ، وقد ذكرنا قاضي السفاح هذا استكمالا للقائمة علماً بانه مارس عمله قبل بناء بغداد

(٢) وكيع ٢٤٢ الخطيب : تاريخ بغداد ١٤/١٠٢ اليعقوبي ٢/٤٦٨ العيون والحدائق ٣/٢٦٩

(٣) وكيع ٢٤٥ الخطيب ٧/٣٤٥ ، ١٠/٣٠٦

(٤) وكيع ٢٤٩ الخطيب ١٠ /٣٠٦ ، ٧/٣٤٥ ، اليعقوبي ٢/٤٦٨

(٥) » ٢٥١ ابن سعد ٧ ـ ٢/٦٨ طبري ٣/٤٩١ المسعودي ٣/٣١٦ اليعقوبي ٢/٤٨٣ الخطيب ٥/٣٨٩ ، ٨/٤٧٩ ، ١٢/٣٠٨ العيون والحدائق ٣/٢٨١ (يخلفه اخاه زياد على عسكر المهدي) الخطيب ١١/١٩٦ ، ٨/٤٧٩ ، ٥/٣٨٩

(٦) وكيع ٢٥١ الخطيب ٥/٣٨٩ ، ٢/٣٠٨ . اليعقوبي ٢/٤٨٣ العيون والحدائق ٣/٢٨١

(٧) » ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، وهو يذكر في ص ٢٨٢ انه اول قاضي قضي على الشرقية ، الخطيب ١١/١٩٦ ، ١٢/٣٠٨ طبري ٣/٤٩١ ، وكان يخلف محمد بن عبدالله بن علاثة ثم نبته المهدي على الشرقية

(٨) وكيع ٢٥٣ الخطيب ١٤ ـ ٣٦٨

(٩) » ٢٥٤ (وهو يذكر في ص ٢٥٦ ان أبا يوسف كان قاضي موسى في جميع بغداد ، وان عمر بن حبيب كان على الشرقية الخطيب ١٤/٢٤٢ . المسعودي ٣/٣٥٠ . العيون والحدائق ٣/٢٩٠

(١٠) وكيع ٢٦٤ العيون والحدايق ٣/٢٩٠

الخليفة	قاضي القضاة	مدينة المنصور	الشرقية ـ الكرخ	الجانب الشرقي الرصافة ـ عسكر المهدي
الرشيد ١٧٠	ابو يوسف [١١] ٢٨٢	ابو يوسف [١٦]	عمر بن حبيب [١٩]	سعيد بن عبد الرحمن الجمحي [٢٦] ١٥٧ـ١٧٤
	ابو البختري وهب بن وهب القرشي [١٢]	يوسف بن ابي يوسف [١٧]	نوح بن دراج [٢٠]	عمر بن حبيب [٢٧]
	علي بن ظبيان [١٣] ١٩٢	محمد بن سماعه التيمي [١٨]	حفص بن غياث [٢١]	الحسين بن الحسن العوفي [٢٨]
	محمد بن الحسن التيمي [١٤]		الحسين بن الحسن العوفي [٢٢]	عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن حزم [٢٩]
	علي بن حرمله التيمي [١٥]		اسد بن عمرو البجلي [٢٣]	عون بن عبدالله المسعودي [٣٠]
			علي بن ظبيان العبسي [٢٤]	محمد بن عبدالله الانصاري [٣١]
			علي بن حرمله التيمي [٢٥]	

(١١) » ٢٥٦ ، ٢٩٤ الخطيب ١٤/١٤٢ ؛ ٨/١٨٩ . المسعودي ٣/٣٥٠

(١٢) الخطيب ٨/١٨٩ ، ١٤/٢٤٣ ابن سعد ٧ ـ ٢/٧٥

(١٣) وكيع ٢٨٨ ، ٢٩٤ الخطيب ١١/٤٤٣

(١٤) الخطيب ١١/٤١٥

(١٥) وكيع ٢٨٨ ، ٢٩٤ الخطيب ١١/٤١٥ ، ٤٤٥

(١٦) الخطيب ٥/٣٤١

(١٧) وكيع ٢٥٥/٢٨٢ الخطيب ٥/٣٤١ ، ١٢/٢٤٣ (يخلف اباه) ابن سعد ٧ ـ ٧/٧٨

(١٨) » ٢٨٢ الخطيب ٥/٣٤١ ، ١٢/٤٦٤

(١٩) انظر هامش ٧

(٢٠) وكيع ٢٨٥ الخطيب ١٣/٣١٥

(٢١) » ٢٨٥ الخطيب ٨/٢٩ ، ١٨٩ ، ١٣/٣١٨ (ت ١٨٢ وهو على الجانب الشرقي) ابن سعد ٦/٢٧١ ، ٧ ـ ٢/٧٤

(٢٢) الخطيب ٨/٢٩ ، ٣٢ ، ٧/١٦ ابن سعد ٧ ـ ٢/٧٤

(٢٣) » ٧/١٦ سعد ٧ ـ ٢/٧٤ ، ويقول وكيع انه عين بعد حفص بن غياث (٢٨٥)

(٢٤) وكيع ٢٨٦ الخطيب ١١[٤٤٣ سعد ٦/٢٨٠ (٢٥) انظر هامش ١٥

(٢٦) الخطيب ٩/٦٧ سعد٤ـ٢/١١:٧ـ٢/٦٩ نسب قريش لمصعب ٤٠٠ابن حزم انساب ١٥٤ وكيع ٢٥٤ ، ٢٦٤على الجانب الشرقي دون تعيين .

(٢٧) الخطيب ١١/١٩٧ (على الرصافة) (٢٨) وكيع ٢٦٤ الخطيب ٨/٢٩ ، ٣٢ سعد ٧ ـ ٢/٧٤ (٢٩) الخطيب ١٠/٤٠٨ وكيع ٢٦٧

(٣٠) وكيع ٢٦٨ الخطيب ١٢|٢٩٢(بعد العوفي) (٣١) الخطيب ٥/٤٠٩ (بعد العوفي) ٦/٢٤٣ وكيع ٢٦٨

الخليفة	قاضي القضاة	مدينة المنصور	الشرقية ـ الكرخ	الجانب الشرقي
الأمين ١٩٣				محمد بن عبدالله الانصاري (٣١) اسماعيل بن حماد (٣٢) ابو البختري (٣٣)
المأمون ١٩٨	يحيى بن اكثم (٣٤)		محمد بن ابي رجاء الخراساني (٣٩) ٢٠٧	سعد بن ابراهيم الزهري (٤٣) ٢٠١
		محمد بن سماعة (٣٥) ٢٠٧ـ٨		
		اسماعيل بن حماد بن ابي حنيفة (٣٦) ٢٠٨ـ٢١٠	عكرمة بن طارق السرخسي (٤٠) ٢٠٨ ـ ٢١٤	قتيبة بن زياد الخراساني (٤٤)
		بشر بن الوليد الكندي (٣٧) ٢١٠ ـ ٢١٣	حفص بن غياث (٤١)	محمد بن عمر الواقدي (٤٥) ٢٠٤ـ٨
			الحسين بن الحسن بن عطية العوفي (٤٢)	محمد بن عبد الرحمن المخزومي (٤٦) ٢٠٨
		عبد الرحمن بن اسحق مولى بني ضبه (٣٨) ٢٢٨		بشر بن الوليد الكندي (٤٧) ٢٠٨ـ٢١٠
				جعفر بن عيسى الحسني (٤٨)
				هارون بن عبد الزهري (٤٨)

(٣٢) وكيع ٢٦٨ الخطيب ٦/٢٤٣ العيون والحدائق ٣ـ٣٤٢ (٣٣) وكيع ٢٦٩ العيون والحدائق ٣/٣٤٢ الخطيب ١٠/٤٨١ (يذكر ان الرشيد عينه) . (٣٤) وكيع ٢٧٣ ، ٢٩٤ للمسعودي ٤/١٨ الخطيب ٧ـ١٦١

(٣٥) » ٢٨٩ الخطيب ٥/٢٧٦ بعد فتنة المهدي ثم ضمت اليه الشرقية (٣٦) الخطيب ٥/٣٤٢، ٧/٨١ ، ١٢/٢٦٣ ، ويذكر وكيع ٢٨٢ انه كان على قضاء الشرقية ثم ضمت اليه المدينة بعد عزل محمد بن سماعة (٣٧) وكيع ٢٨٢ الخطيب ٧/٨١ ، ١٠/٢٦٠

(٣٨) الخطيب ١٠/٢٦٠ ويقول وكيع (٢٨٢) انه كان على قضاة الشرقية ثم ضم اليه عمل بشر (٣٩) وكيع ٢٨٩ الخطيب ٥/٣٧٦ ، ١٢/٣٦٤ الطبرى ٣ / ١٠٦٦ (٤٠) وكيع ٣/٢٨٩ الخطيب ١٢/٢٦٣ ـ ٤ (١١) الخطيب ٨/٢٩

(٤٢) وكيع ٨/٢٩ ويذكر وكيع (٢٩٠)أن عكرمة تلاه اسماعيل بن حماد

(٤٣) وكيع ٣/٢٦٩ الخطيب ٩/١٢٣ ، ١١/٤٦٣ سعد ٧ ـ ٢/٨٣

(٤٤) « ٣/٢٦٩ الخطيب ١٢/٤٦٣ (اثناء فتنة ابراهيم بن المهدي على الجانب الشرقي)

(٤٥) « ٣/٢٧٠ الخطيب ٣/٣ ، ٣٠٩ سعد ٧ ـ ٢/٧٧ (توفى سنة ٢٠٧) العيون والحدائق ٣/٣٨٠

(٤٦) وكيع ٢٧١ الطبري (٣/١٠٦٦) الخطيب ٧/٨١ ، ٢ـ٣٠٩ العيون والحدائق ٢/٠٠

(٤٧) وكيع ٢٧٣ ، الخطيب ٧/٨١ العيون والحدائق ٣/٣٨٠

(٤٨) « ٢٧٣ الخطيب ٧/١٦١ وعن هارون بن عبد الله انظر الخطيب ١٤/١٠

الخليفة	قاضي القضاة	مدينة المنصور	الشرقية	الجانب الشرقي
المعتصم	احمد بن ابي دؤاد [٤٩]			شعيب بن سهل [٥١]
٢١٨		عبد الرحمن بن اسحق [٥٠]		شعيب بن سهل [٥٧] ٢٢٨
الواثق	احمد بن ابي دؤاد [٥٢] ٢٣٠	عبدالرحمن بن اسحق الضبي [٥٤] _٢٢٨		
٢٢٧	يحيى بن اكثم [٥٣]	الحسن بن علي بن الجعد [٥٥]	عبدالله بن محمد الخلنجي [٥٦]	عبيدالله بن احمد بن غالب [٥٨]
	٢٣٠ _ ٢٤٠	٢٢٨ _ ٢٤٢	٢٢٨_٢٣٧	٢٢٨ _ ٢٣٤
المتوكل	يحيى بن اكثم [٥٩]	الحسن بن علي بن الجعد [٦٣]	حيان بن بشر [٦٥]	عبد السلام الوادعي [٦٩]
٢٣٢	٢٣٠ _ ٢٤٠	٢٤٢	٢٣٧ _ ٢٣٨	٢٣٤ _ ٢٣٧
	جعفر بن عبد الواحد [٦٠] ٢٤٠ _	احمد بن محمد بن سماعة [٦٤]	محمد بن عبد الله المؤذن [٦٦]	اسماعيل بن اسحق [٧٠]
	٢٤٩	٢٤٣ _ ٢٥٣	٢٣٨ _ ٢٤١	٢٤٦ _ ٢٥٥
	جعفر بن محمد بن عمارة [٦١]		الحسن بن عثمان الزيادي [٦٧] ٢٤١ _ ٢٤٣	
	محمد بن رزين البصري [٦٢]		محمد بن يزيد الرفاعي [٦٨]	
			٢٤٣ _ ٢٤٩	
المنتصر				
٢٤٧				

(٤٩) « ٢٩٤ الخطيب ١٤٢/٤، ٣١٨/١٠، ٣١٨/١٠ (خليفته ابنه الوليد) العيون والحدائق ٤١٠/٣

(٥٠) الخطيب ٢٦٠/١٠، ١٥٦/١١، ٢٤٣ وكيع ٢٥٦، ويذكر مؤلف العيون والحدائق (٤١٠/٣) ان قضاة المعتصم ايضاً محمد بن سماعة وشعيب بن سهل وعبد الله بن غالب (٥١) وكيع ٢٧٧ الخطيب ٢٤٣/٩، ١_٣١٩ (٥٢) الخطيب ١٤٢/٤ المسعودي ٨٤/٤

(٥٣) الطبري ١٤١٠/٣، ١٤٢٠ وكيع ٣٠٠/٣ الخطيب ٢٠١/١٤ (٥٤) الخطيب ٢٦٤/٧، ٢٤٣/٩، ٧٣/١٠، ٣١٨، ٢٦٠

(٥٥) الخطيب ٧٣/١٠، ٢٧٩، ٣١٩، ٣٦٤/٧، وكيع ٢٨٣/٣ (٥٦) الخطيب ٧٣/١، ٣١٩، وكيع ٢٩٠

(٥٧) « ٧٣/١٠، ٣١٨، ٢٤٣/٩ وكيع ٢٧٧ (٥٨) الخطيب ٣١٨/١٠، ٣٣٩، ١١_٥٢ وكيع ٢٧٧

(٥٩) طبري ١٤١٠/٣، ١٤٢٠ وكيع ٣٠٠ الخطيب ٢٠١/١٤، ٨_٢٨٥

(٦٠) طبري ١٤٢٠/٣، ١٥١٤ وكيع ٣٠٣ الخطيب ٢٨٧/٦، ١٧٤/٧، ٤١٠ ١٠_٢٠١ المنتظم ١١/٥، ٢٧، ١٥٢

(٦١) وكيع ٣٠٣ الخطيب ١٦٢/٧ (٦٢) وكيع ٣٠٣ (٦٣) طبري ١٤٣٤/٣ الخطيب ١٠/٥، ٣٦١/٧

(٦٤) وكيع ٢٨٤ الخطيب ١٠/٥، ٦_٢٥ (٦٥) وكيع ٢٩١ الخطيب ٤١٦/٥، ٢٨٥/٨ طبري ١٣١٤/٣

(٦٦) « ٢٩١ « ٣٥٦/٧، ٣٦٤، ٤١٦/٥ (٦٧) وكيع ٢٩١ _ ٢ الخطيب ٣٥٦/٧، ٣٦٤، طبري ١٤٢١/٣

(٦٨) « ٢٩١ الخطيب ٣٧٦/٣ (٦٩) وكيع ٢٧٧ الخطيب ٢٨٥/٨، ٥٢/١١

(٧٠) وكيع ٢٨٠ الخطيب ٢٨٧/٦ للمنتظم ١٥٢/٥

الخليفة	قاضي القضاة	مدينة المنصور	الشرقية	الجانب الشرقي
المستعين ٢٤٨	الحسن بن محمد بن ابي الشوارب[٧١] ٢٥٢ _ ٢٥٥	ابراهيم بن اسحق الزهري[٧٢] ٢٥٣ _ ٢٥٤ احمد بن يحيي بن ابي يوسف[٧٣] ٢٥٤	احمد بن محمد بن عيسى البرتي[٧٤] ٢٤٩ _ ٢٥٨	اسماعيل بن اسحق
المعتز ٢٥٥	كذلك	عمر بن عبدالرحمن العمري[٧٥] ٢٥٤ احمد بن يحيي بن ابي يوسف[٧٦] ٢٥٤ _ ٢٦٢		كذلك
المهتدي ٢٥٥	كذلك عبدالرحمن بن نائل بن نجيح[٧٧] ٢٥٥ الحسن بن محمد بن ابي الشوارب[٧٨] ٢٥٨			كذلك القاسم بن منصور التميمي[٧٩] (سبعة اشهر)
المعتمد ٢٥٦	كذلك علي بن محمد بن عبد الملك[٨٠] ٢٦٢	احمد بن يحيي بن ابي يوسف[٨١] ٢٦٤ اسماعيل بن اسحق[٨٣] ٢٥٨ _ ٢٦٢	احمد بن محمد بن عيسى البرتي[٨٢] ٢٥٨ اسماعيل بن اسحق[٨٤] ٢٦٤ _ ٢٨٢	اسماعيل بن اسحق[٨٥] ٢٥٦ _ ٢٥٨ احمد بن محمد بن عيسى البرتي[٨٦] ٢٥٨ _ ٢٦٢

(٧١) طبري ٣/١٦٨٤ ، ١٨٩١ ، الخطيب ٦/٢٨٧ ، ٧/٤١٠ المنتظم ٥/١٥٢
(٧٢) وكيع ٢٨٤ الخطيب ٦/٢٥ ، ٥/١٠ ، ٢٠١ المنتظم ٥/٢٠٦ (٧٣) وكيع ٤/٢ الخطيب ٥/٢٠١
(٧٤) » ٢٩٣ الخطيب ٥/٩٢ (دون تعيين مكان) ٦ـ٢٨٨ (٧٥) وكيع ٢٨٤ (٧٦) وكيع ٢٧٤ الخطيب ٥/٢٠١
(٧٧) وكيع ٣٠٣ الخطيب ٦/٢٨٧ المنتظم ٥/١٥٢ وكيع ٣/٣٠٣ (٧٨) وكيع ٣٠٣ الخطيب ٦/٢٨٧ المنتظم ٥/٢٧ ، ١٥٢
(٧٩) » ٢٨١ الخطيب ٦/٢٨٧ ، ١٢ـ٢٩٤ المنتظم ٥/١٥٢
(٨٠) طبري ٣/١٩٠٧ الخطيب ٦/٢٨٨ ، ٧/٤١ المنتظم ٥/٣٣ ، ١٥٢ وكيع ٣٠٣
(٨١) وكيع ٢٨٤ الخطيب ٦ ـ ٢٨٨ المنتظم ٥ ـ ١٥٢ ، ٤٥ دون الاعمال المتصلة بها (٨٢) انظر هامش ٧٤
(٨٣) الخطيب ٦/٢٨٨ المنتظم ٥/٣٣ (٨٤) كذلك (٨٥) الخطيب ٦/٢٨٩ المنتظم ٥ـ١٥٢ (٨٦) الخطيب ٦ ـ٢٨٨

الخليفة	قاضي القضاة	مدينة المنصور	الشرقية	الجانب الشرقي
المعتضد ٢٧٩	الحسن بن ابي الشوارب [87]	اسماعيل بن اسحق [88] ٢٥٨ _ ٨٢		
		علي بن محمد بن ابي الشوارب ٢٨٣ _ ٢٨٤ [89]	ابو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز [91] ٢٨٢_٢٩٢	يوسف بن يعقوب اسماعيل ٢٨٣ [92]
		ابو عمرو محمد بن يوسف [90] ٢٨٤ _ ٢٩٢	كذلك	
المكتفي ٢٨٩		عبدالله بن علي بن ابي الشوارب ٢٩٢ _ ٢٩٦ [93]	ابو عمرو محمد بن يوسف ٢٩٢ _ ٢٩٦ [94]	
المقتدر ٢٩٥	ابو عمرو محمد بن يوسف [95] ٣١٧ _ ٣٢٨	احمد بن اسحق البهلول ٢٩٦ _ ٣١٦	عبدالله بن علي بن ابي الشوارب [96] ٢٩٦ _ ٢٩٨ [99]	عبدالله بن علي بن ابي الشوارب ٢٩٦ _ ٣٠١
		عمر بن الحسين بن علي بن الاشناني [97] ٣ ايام	محمد بن عبد الله بن علي ابن أبي الشوارب [99]	
		الحسن بن عبد الله بن ابي الشوارب [98] ٣١٦ _ ٣٢٠	ابو عمر محمد بن يوسف [101] ٣٠١ _ ٠	
القاهر ٣٢٢	كذلك	كذلك		عمر بن محمد بن يوسف

(٨٧) انظر هامش ٧٨ (٨٨) انظر هامش ٨٣ (٨٩) وكيع ٢٨٥ طبري ٣ـ٢١٥٩ المنتظم ٥ـ١٦٢ ، ١٧٠ . انظر آنفاً الخطيب ١٢ ـ ١

(٩٠) وكيع ٢٨٥ طبري ٣ ـ ٢١٦١ الخطيب ٣ ـ ٤٠١ ، المنتظم ٥ ـ ١٧٠ ، ٦ ـ ٢٤٧

(٩١) « ٣ ـ ٢٩٣ الخطيب ، ١١ ـ ٦٣ ـ ٧ المنتظم ٦ ـ ٥٣ (٩٢) وكيع ٢٨٢ الخطيب ١٤ـ٣١٠ المنتظم ٥ـ١٦٢ ، ٦ـ٢٤٧ ، ١

(٩٣) « ٢٨٥ الخطيب ١٠ ـ ١٠ المنتظم ٦ ـ ١٢٥ ، ٥ ـ ١٦٢

(٩٤) « ٢٩٢ ، مسكويه ١ ـ ٧ الخطيب ٣ ـ ٤٠٢ منظم ٦ ـ ٢٤٧ ، ٥ـ ١٧٠

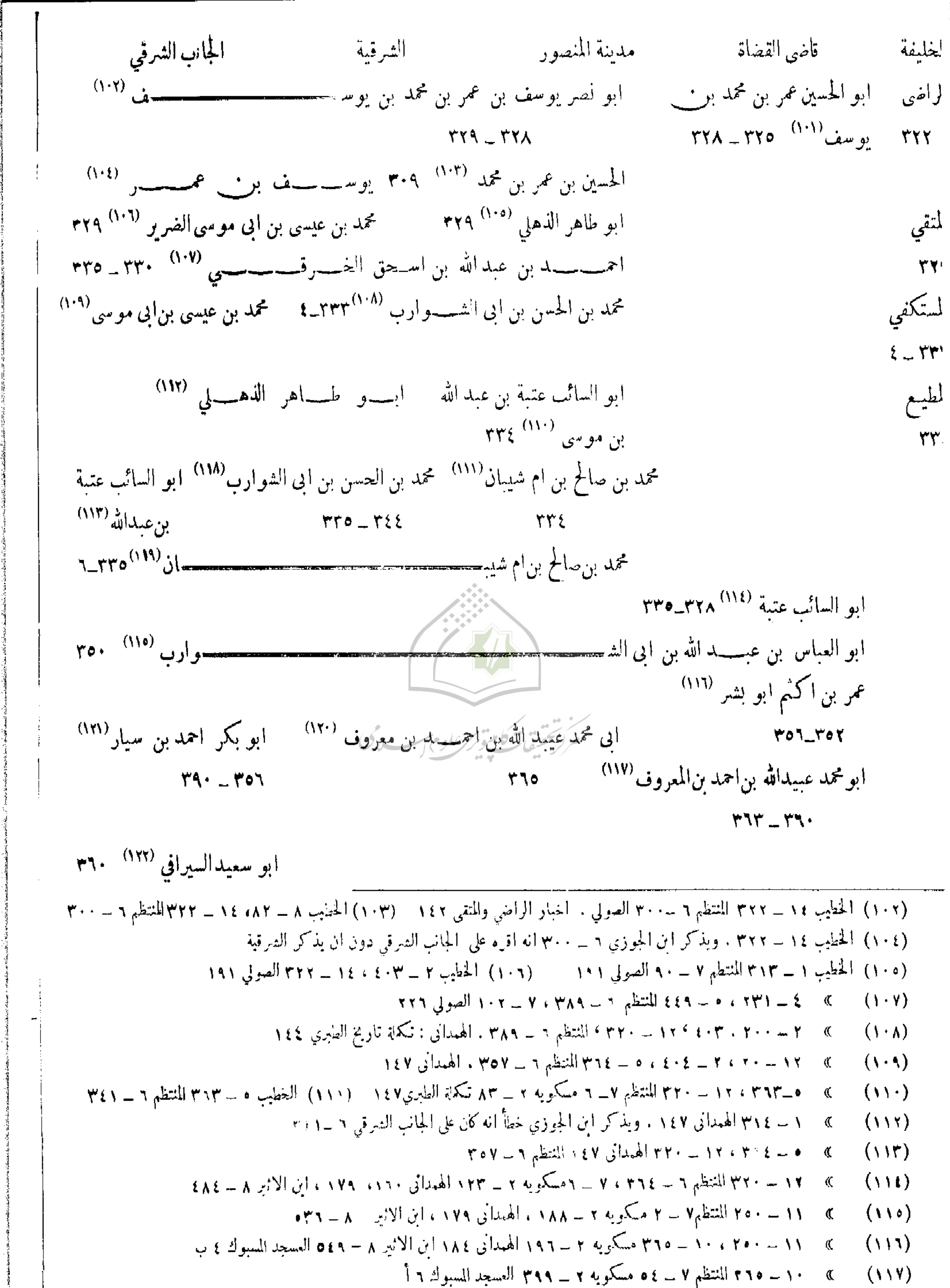
(٩٥) الخطيب ٣ ـ ٤٠١ ، ١١ ـ ٢٣٠ ـ ٨ المنتظم ٦ ـ ٢٤٧ المسعودي ٤ ـ ٣١٠

(٩٦) وكيع ٢٨٥ الخطيب ١ ـ ٢٧٨ ، ٤ ـ ٣٠ ، ١١ ـ ٢٣٧ المنتظم ٢ـ١٤٦ ـ١٦٦ ـ٢٣٢ المسعودي ٤ ـ ٣١٠

(٩٧) الخطيب ٧ ـ ٣٤٠ ، ١١ ـ ٢٣٦ المنتظم ٦ ـ ١٦٦ ، ٢٩٠ (٩٨) الخطيب ٧ ـ ٣٤٠ للمنتظم ٦ ـ ٢٩٠

(٩٩) وكيع ٢٨٢ ، ٢٩٣ الخطيب ٥ ـ ٤٣٦ ـ١٠ـ١٠ المنتظم ٦ ـ ٩٧ ، ١٢٥ (١٠٠) الخطيب ١١ـ٢٢٩ ، ٥ ـ ٤٣٦

(١٠١) مسكويه ١ ـ ٣٦٥ تكملة الطبري ١٠١ الصولي ص ٨٧ ، ١٤١ المنتظم ٦ ـ ٢٩٦ الخطيب ١٤ ـ ٣٢٢



الخليفة	قاضي القضاة	مدينة المنصور	الشرقية	الجانب الشرقي
الراضي ٣٢٢	ابو الحسين عمر بن محمد بن يوسف(١٠١) ٣٢٥ ـ ٣٢٨	ابو نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف(١٠٢) ٣٢٨ ـ ٣٢٩		
		الحسين بن عمر بن محمد(١٠٣) ٣٠٩	يوسف بن عمر(١٠٤)	
المتقي		ابو طاهر الذهلي(١٠٥) ٣٢٩	محمد بن عيسى بن ابي موسى الضرير(١٠٦) ٣٢٩	
٣٢		احمد بن عبد الله بن اسحق الخرقي(١٠٧) ٣٣٠ ـ ٣٣٥		
المستكفي ٣٣ ـ ٤		محمد بن الحسن بن ابي الشوارب(١٠٨) ٣٣٣ـ٤	محمد بن عيسى بن ابي موسى(١٠٩)	
المطيع ٣٣		ابو السائب عتبة بن عبد الله بن موسى(١١٠) ٣٣٤	ابو طاهر الذهلي(١١٢)	
		محمد بن صالح بن ام شيبان(١١١) ٣٣٤	محمد بن الحسن بن ابي الشوارب(١١٨) ٣٣٥ ـ ٣٤٤	ابو السائب عتبة بن عبدالله(١١٣)
		محمد بن صالح بن ام شيبان(١١٩) ٣٣٥ـ٦		
	ابو السائب عتبة(١١٤) ٣٢٨ـ٣٣٥			
	ابو العباس بن عبد الله بن ابي الشوارب(١١٥) ٣٥٠			
	عمر بن اكثم ابو بشر(١١٦) ٣٥٢ـ٣٥٦	ابي محمد عبيد الله بن احمد بن معروف(١٢٠)		ابو بكر احمد بن سيار(١٢١)
	ابو محمد عبيدالله بن احمد بن المعروف(١١٧) ٣٦٠ ـ ٣٦٣	٣٦٥		٣٥٦ ـ ٣٩٠
				ابو سعيد السيرافي(١٢٢) ٣٦٠

(١٠٢) الخطيب ١٤ ـ ٣٢٢ المنتظم ٦ ـ ٣٠٠ الصولي . اخبار الراضي والمتقي ١٤٢ (١٠٣) الخطيب ٨ ـ ٨٢، ١٤ ـ ٣٢٢ المنتظم ٦ ـ ٣٠٠

(١٠٤) الخطيب ١٤ ـ ٣٢٢ . ويذكر ابن الجوزي ٦ ـ ٣٠٠ انه اقره على الجانب الشرقي دون ان يذكر الشرقية

(١٠٥) الخطيب ١ ـ ٣١٣ المنتظم ٧ ـ ٩٠ الصولي ١٩١ (١٠٦) الخطيب ٢ ـ ٤٠٣ ، ١٤ ـ ٣٢٢ الصولي ١٩١

(١٠٧) « ٤ ـ ٢٣١ ، ٥ ـ ٤٤٩ المنتظم ٦ ـ ٣٨٩ ، ٧ ـ ١٠٢ الصولي ٢٢٦

(١٠٨) « ٢ ـ ٢٠٠ ، ٤٠٣ ، ١٢ ـ ٣٢٠ ، المنتظم ٦ ـ ٣٨٩ . الهمداني : تكملة تاريخ الطبري ١٤٤

(١٠٩) « ١٢ ـ ٢٠ ، ٢ ـ ٤٠٤ ، ٥ ـ ٣٦٤ المنتظم ٦ ـ ٣٥٧ ، الهمداني ١٤٧

(١١٠) « ٥ـ٣٦٣ ، ١٢ ـ ٣٢٠ المنتظم ٧ـ ٦ مسكويه ٢ ـ ٨٣ تكملة الطبري ١٤٧ (١١١) الخطيب ٥ ـ ٣٦٣ المنتظم ٦ ـ ٣٤١

(١١٢) « ١ ـ ٣١٤ الهمداني ١٤٧ ، ويذكر ابن الجوزي خطأً انه كان على الجانب الشرقي ٦ ـ ١

(١١٣) « ٥ ـ ٣٦٤ ، ١٢ ـ ٣٢٠ الهمداني ١٤٧ المنتظم ٦ ـ ٣٥٧

(١١٤) « ١٢ ـ ٣٢٠ المنتظم ٦ ـ ٣٦٤ ، ٧ ـ ٦ مسكويه ٢ ـ ١٢٣ الهمداني ١٦٠، ١٧٩ ، ابن الاثير ٨ ـ ٤٨٤

(١١٥) « ١١ ـ ٢٥٠ المنتظم ٧ ـ ٢ مسكويه ٢ ـ ١٨٨ ، الهمداني ١٧٩ ، ابن الاثير ٨ ـ ٥٣٦

(١١٦) « ١١ ـ ٢٥٠ ، ١٠ ـ ٣٦٥ مسكويه ٢ ـ ١٩٦ الهمداني ١٨٤ ابن الاثير ٨ ـ ٥٤٩ العسجد المسبوك ٤ ب

(١١٧) « ١٠ ـ ٣٦٥ المنتظم ٧ ـ ٥٤ مسكويه ٢ ـ ٣٩٩ العسجد المسبوك ٦ أ

(١١٨) « ٢ ـ ٢٠٠ ، ٤٠٣ ، ١٢ ـ ٣٢٠ المنتظم ٧ـ٦، ١٢٣ ـ ٣٥٠ الهمداني ١٥٠ ، ١٥٩

(١١٩) « ٥ ـ ٣٦٤ المنتظم ٦ ـ ٣٥٠ ، ٣٥٧ الهمداني ١٥٩ (١٢٠) المنتظم ٧ ـ ٣٨

الخليفة	قاضي القضاة	مدينة المنصور	الكرخ	الجانب الشرقي
الطائع ٣٦٣	ابو محمد عبيدالله بن معروف[١٢٣] ٣٦٠ _ ٣٦٣			ابو سعيد الحسين بن عبدالله السيرافي[١٣٥]
	ابو الحسن محمد بن صالح[١٢٤] ٣٦٤			
	ابو محمد عبيدالله بن معروف[١٢٥] ٣٦٤_٣٦٩		عبيدالله بن احمد بن القاسم بن نجاح[١٣٢]	
	ابو سعد بشر بن الحسين[١٢٦] ٣٦٩	ابو محمد عبدالله بن محمد الاكفاني[١٣١] ٣٦٩	ابو محمد عبدالرحمن بن محمد العماني[١٣٣] ٣٦٩	محمد بن عبد الله بن صبر[١٣٦] ابوالحسن عبدالعزيز ـ ٣٦٩ ابن احمد الخرزي[١٣٧] ٣٦٩_٣٩١
	ابو محمد عبيدالله بن معروف[١٢٧]		ابو عبد الله الحسن بن هارون الضبي[١٣٤]	ابو القاسم ابن عبد العزيز الخرزي[١٣٨] ٣٩١ ابو الحسين محمد بن عبيد الله ابن معروف[١٣٩]
القادر ٣٨١	ابو الحسن بن عبد العزيز[١٢٨]	الحسين بن هارون الضبي[١٤٠] ٣٩٠ _ ٣٩٧		
	احمد بن محـــــد الابيوردي[١٤١]			
	ابو محمد عبدالله بن محمد الاكفاني[١٢٩] ٣٩٩_٤٠٥	علي بن عبد الله الهاشمي[١٤٢]		ابو محمد عبد الله بن محمد الاكفاني[١٤٤] ٣٩٠_٣٩٦
	احمد بن محمد بن عبدالله بن ابي الشوارب[١٣٠] ٤٠٥_٤١٧	محمد بن علي بن عبد الله بن الغريق[١٤٣]		اسماعيل بن عمر بن محمد ابن السنبك[١٤٥]

(١٢٣) انظر هامش ١١٧ (١٢٤) المنتظم ٧ ـ ٦٤ تكملة تاريخ الطبري ٢١٣ المسجد المسبوك ٧ أ مسكوية ٢ ـ ٣٩٩

(١٢٥) تكملة تاريخ الطبري ٢٢١ المنتظم ٧ ـ ٧ الخطيب ٥ ـ ٣٦٣ (يذكر انه توفي سنة ٣٦٦ دون الاشارة الى سنة التولية) شذرات الذهب ٣ـ ٤٩

(١٢٦) مسكويه ٢ ـ ٣٩٩ المنتظم ٧ ـ ٩٨ ابن الاثير ٨ ـ ٧١ المسجد المسبوك ٩ ب

(١٢٧) الروذراوري ٣ ـ ١٣٦ المنتظم ٧ ـ ١٣٢ (يذكران انه كان بهذا المنصب سنة ٣٧٦ دون الاشارة الى سنة التعيين) . وقد توفى سنة ٣٨١) الخطيب ١٠ ـ ٣٦٧ المنتظم ٧ ـ ١٦٦ . وقد قلد بهاء الدولة ابا احمد الحسين بن موسى قضاء القضاة سنة ٣٩٤ ولكن الخليفة لم يأذن له فابطل التقليد ، الروذ راورى ٣ ـ ١٨٠ المنتظم ٧ ـ ٢٢٦ ، ٢٤٧ المسجد المسبوك ١٦ أ

= (١٢٨) الروذراوري ٣ ـ ٢٦٣ (ولعل المقصود ابو الحسن عبدالعزيز الخرزي)

(١٢٩) الخطيب ١٠ ـ ١٢١ المنتظم ٧ ـ ٢٣٠ ، ٢٧٣ (يذكران ان بغداد جمعت له ، ولكنهما يذكران في مكان اخر (انظر مصادر هامش ١٤٠) انه كان قاضي القضاة ، ابن الاثير ٩ ـ ٢٥٢ المسجد المسبوك ١٦ أ

(١٣٠) الخطيب ٥ ـ ٤٧ المنتظم ٧ ـ ٢٧٠ ، ٨ ـ ٢٥ ، المسجد المسبوك ١٧ ب، ٢٠ ب البداية والنهاية ١١ ـ ٣٥٣

(١٣١) مسكويه ٢ ـ ٣٩٩ هلال الصابي ٣ ـ ٢٧٢ المنتظم ٧ ـ ٢٧ (يذكر انه كان على المدينة سنة ٣٩٠) الخطيب ١٠ ـ ١٤١

(١٣٢) ابن النجار (٨٣ أ) نقلاعن كتاب التاريخ لأبي طاهر احمد بن الحسن الكرخي « كان يخلف القاضي ابن معروف بالجانب الغربي على الفرض؟» سنة ٣٦٦

(١٣٣) مسكويه ٢ـ٣٩٩ (على الشرقية) الخطيب ١٠ـ٣٠٠ المنتظم ٩ـ٦٩ (على ربع الكرخ دون تحديد سنة الولاية، سوى انه توفي سنة ٣٨٦)

(١٣٤) الخطيب ٨ ـ ١٤٦ المنتظم ٧ ـ ٢٤٠ (ربع الكرخ)

(١٣٥) انظر هامش ١٢٢

(١٣٦) مسكويه ٣ ـ ٣٩٩ (من حد الحريم والى الطرف الاعلى منه) الخطيب ٢ ـ ٣٢١ (يتولى عسكر المهدي) وناب عنه المعافي بن زكريا المنتظم ٨ ـ ٢١٣ ، ويحدد الخطيب انه ناب عنه بباب الطاق ٨ ـ ٢٣٠

(١٣٧) مسكويه ٢ ـ ٣٩٩ (من حد الحريم الى الطرف الاسفل) الخطيب ١٠ـ٤٦٦ (الجانب الشرقي من حد الحريم الى اخر باب الازج) المنتظم ٨ـ٢١٨ (بالحريم وحريم دار الخلافة وباب الازج والنهروانات وطريق خراسان) الفهرست لابن النديم ٣٠٧ (الربع الاسفل من الجانب الشرقي من مدينة السلام)

(١٣٨) هلال الصابي ٣ـ٤٠٢ المنتظم ٧ ـ ٢١٥ . ويذكر ابن الجوزي انه ممن وقع محضر الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين سنة ٤٠١ (المنتظم ٧ ـ ٢٥٦) مما قد يدل على انه كان قاضياً في تلك السنة ، انظر البداية والنهاية ١١ ـ ٣٤٦

(١٣٩) المنتظم ٧ ـ ١٥٦ (.. ما كان لابي بكر ؟)

(١٤٠) هلال ٣ ـ ٢٧٢ الخطيب ٨ ـ ١٤٦ (ربع الكرخ) المنتظم ٧ ـ ٢٠٧ (مدينة المنصور والكرخ)، ٧ ـ ٢٤٠

(١٤١) الخطيب ٥ ـ ٥١ المنتظم ٨ ـ ٨٠ (الجانب الشرقي بأسره ومدينة المنصور في ايام ابن الاكفاني ، ثم عزل وورد ابن الاكفاني الى عمله) انساب السمعاني ١ ـ ١٠٨ النجوم الزاهرة ٤ ـ ٢٧٩ البداية والنهاية ١٢ ـ ٣٧ (ولي الحكم ببغداد نيابة عن ابن الاكفاني).

(١٤٢) الخطيب ١٢ ـ ٨ (لا يذكر سنة التولية بل يذكر وفاته سنة ٤١٥)

(١٤٣) الخطيب(٣ ـ ١٠٨)المنتظم (٨ ـ ٢٨٣)، الوافي بالوفيات ٤ ـ١٣٧ . (يذكرون انه ولي سنة ٤٠٩ على مدينة المنصور) البداية والنهاية ١٢ ـ ١٠٨ .(يذكر انه ولي الحكم سنة ٤٠٩ وانه حكم ٥٦ وتوفي سنة ٤٦٥ دون تعيين مكان الحكم) ويذكر البنداري : تاريخ بغداد ١٦ أ (ولي القضاء بمدينة المنصور وما اتصل بها، توفي سنة ٤٦٥ هـ)

(١٤٤) هلال ٣ـ٣٧٢ الخطيب ١١ـ٣٠ ويذكر كل من الخطيب (١٠ـ١٤١) والمنتظم (٧ـ٢٧٣)انه ولي قضاء باب الطاق وضم اليه سوق الثلاثاء ويذكر ابن الجوزي في مكان آخر (٧ ـ ٢٠٧) انه ولي (الرصافة واعمالها) ويذكر هلال (٣ ـ ٤٠٢) انه ولي على كل بغداد سنة ٣٩٢

(١٤٥) المنتظم (٧ ـ ٢٦٣) (كان يسكن باب الأزج وتقلد النظر في الحكم هناك) ويذكر انه توفي سنة ٤٠٣ دون الاشارة الى سنة التقليد

الخليفة	قاضي القضاة	ربع الكرخ - الجانب الغربي	حريم دار الخلافة	باب الازج	باب الطاق
القائم ٤٢٢	الحسين بن علي، ابن ماكولا[1] ٤٢٠-٤٤٧	محمد بن عبدالله بن احمد البيضاوي[3] -٤٢٤	محمد بن علي بن يعقوب، ابو العلاء الواسطي[6]		احمد بن محمد ابوجعفر السمناني[11] ٤١٥
		الحسين بن علي الصيمري[4] -٤٣٦	عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن، ابن اللبان[9أ] ٤٤٦		طاهر بن عبدالله ابو الطيب الطبري[12]
	محمد بن علي ابو عبد الله الدامغاني[2] ٤٤٧-٤٧٧	طاهر بن عبد الله، ابو الطيب الطبري[5] ٤٣٦-٤٥٠	محمد بن الحسين بن الفراء[7] ٤٤٧		
			باي بن جعفر الجيلي[8] -٤٥٢		باي بن جعفر الجيلي[13] ٤٥٢
			ابو الحسن هبة الله ابن السيبي[9] (ت ٤٧٨)	يعقوب بن ابراهيم البرزبيني[10] ٤٥٢-٤٧٢	احمد بن محمد، ابوجعفر السمناني[14] ٤٦٦

(١) الخطيب ٨/٨٠ المنتظم ٨-٤٤٠١٦٧ ابن الاثير ٩/٦١٥ البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١٠ المسجد المسبوك ٢٠ ب طبقات الشافعية للسبكي ٣/١٥٢

(٢) الخطيب ٣/١٠٩، ٩/٢٣ المنتظم ٨/١٦٥، ٩/١٥، ٢٣، ابن الاثير ١٠/١٤٦ البنداري ١٠ المسجد المسبوك ٢٥ ب السبكي ٣/٨٣ البداية والنهاية ١٢/٦٧، شذرات الذهب ٣/٣٦٢ (توفي سنة ٤٧٨)

(٣) الخطيب ٥/٤٧٦، انساب السمعاني ٢/٤٩٨ السبكي ٣/٦٣ الوافي بالوفيات ١/١٢١ (لايذكرون سنة التولية)

(٤) الخطيب ٨/٧٩، ٩/٣٠٩ المنتظم ٨/١١٩ الجواهر المضية ١/٢١٤ اللباب في الانساب ٢/٦٦ - ٧ شذرات الذهب ٣/٢٥٦. البداية والنهاية ١٢/٥٢ وقد ذكره البنداري في ذيل تاريخ بغداد ٣٨ أ، ٤٤ ب ٥٥ أ ٥٥ ب

(٥) الخطيب ٩/٣٠٩ المنتظم ٨/١٩٨ ابن الاثير ٩/٥٢٧ اللباب ٢/٨١ شذرات الذهب ٣/٢٨٥ البداية والنهاية ١٢/٥٢ وقد نقل عنه الخطيب روايات كثيرة. وقد تردد ذكره عند البنداري ٣ أ ٢٧ أ ٤٣ ب ٥٧ ب ٥٩ ب ٦٣ ب

(٦) الخطيب ٣/٩٥ (رد اليه القضاة بالحريم من شرقي بغداد وبالكوفة وغيرهما من سقي الفرات.. توفي سنة ٤٣٣) ولا يذكر سنة التولية شذرات الذهب ٣/٢٥٦. البغدادي ٤٢ أ ويلاحظ انه كان ممن نقل عنهم الخطيب روايات كثيرة في عدد من اجزاء تاريخ بغداد كما روى عنه البنداري ٢٠ أ ٣٥ ب ٤٢ أ، ٥٤ ب ١٠٤ ب

(٧) المنتظم ٨/٢٤٣ طبقات الحنابلة ٢/٢٠٠

(٨) الخطيب ٧/١٢٦ المنتظم ٨/٢١٧ ياقوت ٢/١١٩ طبقات الشافعية الاسنوي ٦٢ البداية والنهاية ١٢/٩٥

(٩) طبقات الحنابلة ٢/٢٠٠ (استنابه ابن الفراء بدار الخلافة ونهر المعلى). المنتظم ٩/١٨ «أبو الحسن هبة الله بن محمد بن السيبي قاضي الحريم بنهر المعلى. توفي سنة ٤٧٨» البداية والنهاية ٢/١٢٠

(٩ أ) الخطيب ١٠/١٤٤ (في الزج) البداية والنهاية ١٢/٦٦ (في الكرخ)

(١٠) يقول ابن الفراء ان محمد بن الحسين بن الفراء «رد القضاء بباب الازج الى الجيلي وجعل صاحبه أبا علي يعقوب (ابن ابراهيم البرزبيني) مشرفاً عليه، فلما تبين من حال الجيلي الاختلال عزله، ثم رد النظر في عقد الانكحة والمداينات بباب الازج الى تلميذه أبي يعقوب» (طبقات الحنابلة ٢/٢٠٠) اما السمعاني فيذكر ان يعقوب كان على باب الطاق؛ أنساب ٢/١٥٦ وعن عزل البرزبيني انظر طبقات الحنابلة ٢/٢٤٦ شذرات الذهب ٣/٣٨٢.

(١١) ابن الاثير ٩/٣٤٣ (قلد قضاء الرصافة وباب الطاق) ويذكر ابن كثير انه في سنة ٤١٢ تولى الحسبة والمواريث ببغداد (البداية والنهاية ١٢/١١)

(١٢) ابن الاثير ٩/٥٢٧ (يذكر انه ولي بعد الصيمري قضاء الكرخ مضافاً إلى ما كان يتولاه من القضاء بباب الطاق) البداية والنهاية ١٢/٥٢

(١٣) الخطيب ٧/١٣٦ المنتظم ٨/٢١٧ السمعاني ٣/٤٦٢ البداية والنهاية ١٢/٨٥

(١٤) المنتظم ٨/٢٨٧ الجواهر المضية ١/٩٦ البداية والنهاية ١٢/١٠٩

الخليفة	قاضي القضاة	ربع الكرخ ـ الجانب الغربي	حريم دار الخلافة	باب الازج	باب الطاق
					علي بن محمد بن علي الدامغاني[15] ٤٦٦ـ٤٧٤
المقتدي ٤٦٧	-	محمد بن محمد بن عبد الله البيضاوي[17] (ت ٤٦٨)		علي بن محمدبن علي الدامغاني[20] ٤٧٤ ـ ٤٧٧	
		عبد الله بن محمد بن طلحة الدامغاني[18] ٤٧٤ـ٤٧٨		الحسين بن علي البلداوي ابن البقال[21] ـ٤٧٧	علي بن محمدبن محمد ابن الحسين البسطامي[24] ت٤٨٢
	محمد بن المظفر بن بكران الحموي[16] ٤٧٨ـ٤٨٨	(استناب محمد بن عبدالله ابن محمدبن البيضاوي[18]	عبدالوهاب بن هبة الله ابوالفرج بن السيبي[19] ٤٨٨	يعقوب بن ابراهيم البرزبيني[22] ٤٧٨ـ٤٨٦	
				ابو المعالي عزيزي[23] ٤٨٦ـ٤٩٤	علي بن محمد ، ابو منصور الانباري[25] ٥٠٧

(١٥) المنتظم ٩/٢٠٨ ابن الاثير ١٠/٥٦١ مرآة الزمان ٨/٨١ ابن النجار اب ابن كثير ١٢/٢٨٠

(١٦) المنتظم ٩/١٥ ، ٩٥ ابن الاثير ١٠/١٤٦ ، ٢٠٣ ، ٤٨٨ ، السبكي ٣/٨٣ شذرات الذهب ٣/٣٩١ البداية والنهاية ١٢/١٢٧ البنداري ٧١ ب

(١٧) انساب السمعاني ٢/٣٩٨ الاسنوي ٤ ب (توفى سنة ٤٦٨) . الوافي ١/١٢١ البنداري ٧، ب

(١٨) الجواهر المضية ١/٢٨٩ (عن ابن النجار) شذرات الذهب ٣/١٥١ (ولي القضاء مدينة المنصور والكوفة)

(١٩) انظر المصادر في هامش (٩) كذلك البداية والنهاية ١٢/١٤٩

(٢٠) ابن النجار ٢ ب ، المنتظم ٩/٢٠٨ « ولي باب الطاق وما كان الى جده ابي امه القاضي أبي الحسن احمد بن أبي جعفر السمناني من القضاء »

(٢١) ابن الاثير ١٠/١٤١

(٢٢) المنتظم ٩/٨٠ طبقات الحنابلة ٢/٢٤٦ ابن الاثير ١٠/٢٢٧ . شذرات الذهب ٣/٣٨٢ ، وانظر ايضاً ذيل طبقات الحنابلة ١/٩٢ (طبعة لاوست)

(٢٣) المنتظم ٩/١٢٦ ابن الاثير ١٠/٢٢٧ ، ٣٢٦ (يذكر انه توفي سنة ٤٨٨ اما ابن الجوزي (١٠/٣٢٦) والاسنوي ١٣٢ ب وشذرات الذهب ٣/٤٠١ البداية والنهاية ١٢/١٦٠ فيذكرون انه توفي سنة ٤٩٤

(٢٤) ابن النجار ١٨ ب الجواهر المضية ١/٣٧٤

(٢٥) المنتظم ٩/١٧٦ طبقات الحنابلة ٢/٢٥٧ شذرات الذهب ٤/١٧ (توفي سنة ٥٠٧ ، ذيل طبقات الحنابلة ١١ ـ ١٣٧ طبعة لاوست)

الخليفة	قاضي القضاة	ربع الكرخ ـ الجانب الغربي	حريم دار الخلافة	باب الأزج	باب الطاق
المستظهر ٤٨٧	علي بن محمد الدامغاني[٢٦] ٤٨٨ ـ ٥١٣	احمد بن محمد بن عبد الواحد، ابو منصور، ابن الصباغ[٢٧] ـ ٤٩٤ عبد الله بن محمد بن علي ، ابوجعفر الدامغاني[٢٨] ٥٠٢ محمد بن علي بن محمد، ابو عبدالله الدامغاني[٢٩] ٥٠٢	عبدالوهاب ابو الفرج ابن السيبي[٣٠] ٤٨٨ محمد بن نصر بن منصور الهروي[٣١] ٥٠٢_٥٠٤	المبارك بن علي المخرمي[٣١أ] ابو الفرج ابن السيبي[٣٢] ٤٩٤_٥١٧ ينوب عنه ابو سعد المخرمي[٣٣] ٤٩٤_٥١١	عبدالله بن محمد، ابو جعفر الدامغاني[٣٤]
المسترشد ٥١٢	علي بن ابي طالب ، ابو القاسم الزينبي[٣٥] ٥١٣_٥٤٣	ابراهيم بن سالم ، ابو منصور الهيتي[٣٦] ٥٢٩_٤٨٨ عبد القاهر بن محمد الشطوي[٣٧] ٥٢٩	ابو بكر قاضي الدجيل[٣٨] احمد بن سلامة ، ابوالعباس ابن الرطبي[٣٩] ٥٢٧	ابراهيم نصر بن يوسف ابن الحسن[٤٠] ٥١٧_٥١٨ احمد بن سلامة بن الرطبي[٤١] ٥٢٧	عبدالله بن احمد بن عسكر[٤٣] محمد بن علي ين يعيش[٤٢] ٥٢٧

(٢٦) المنتظم ٩ ـ ٨٣ ، ٢٠٨ ابن الاثير ١٠ ـ ٥٦١ الجواهر المضية ١ ـ ٣٧٣ . شذرات الذهب ٤ ـ ٤٠

(٢٧) المنتظم ٩ ـ ١٢٥ السبكي ٣ ـ ٣٤ (ينوب في القضاء بربع الكرخ عن القاضي أبي محمد الدامغاني ثم ولي الحسبة بالجانب الغربي ت ٤٩٤) . البداية والنهاية ١٢ ـ ١٦٠ (توفي سنة ٤٩٥)

(٢٨) المنتظم ٩ ـ ٢٥١ « على ربع الكرخ من قبل اخيه . . ثم ترك ذلك سنة ٥٠٢ »

(٢٩) ابن الدبيثي ٢ ـ ٨٨ أ « ولاه أبوه قضاء الجانب الغربي من مدينة السلام وواسط وغير ذلك . وشافهه بالولاية سنة ٥٠٢ ت ٥١٩ »

(٣٠) المنتظم ٩ ـ ٨٧ ابن النجار ٣٨ أ ٧٣ أ السبكي ٤ ـ ٢٦٩

(٣١) الجواهر المضية ٢ ـ ١٣٧ « على حريم دار الخلافة وما يليه من النواحي والاقطار وديار مضر وربيعة » استناب أبا سعد المبارك بن علي المخرمي الحنبلي على باب المراتب ، وأبا محمد الحسن بن محمد بن احمد بن علي الاستراباذي الحنفي على باب النوبي ٥٠٢ ـ ٥٠٤) . ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥١٣ « وصل القاضي الهروي» (المنتظم ٩ ـ ٢٠٦ ، كما يذكر ان أبا الحسن علي بن محمد الدامغاني عند ما ولي قضاء القضاة سنة ٤٨٨ « كان عليه اسم قاضي القضاة وهو معزول في المعنى بالسيبي والهروي ولم يكن له الا سماع البينة بالجانب الغربي » (المنتظم ٩ ـ ٢٠٨) كما يذكر ان أبا سعد المخرمي « ناب في القضاء عن السيبي والهروي ثم عزل عن القضاء سنة ١١ (٥) (٩ ـ ٢١٥)

(٣١ أ) الحوادث الجامعة ١٣٩ (٣٢) المنتظم ٩ ـ ١٢٠ ، ٢٤٣ ، ابن النجار ٨٣ أ ، ٧٣ أ

(٣٣) المنتظم ٩ ـ ١٢٠ ، ٢١٦ ، الحوادث الجامعة ١٣٩ ذيل طبقات الحنابلة ١ ـ ١٩٩ طبعة لاوست

(٣٤) المنتظم ٩ ـ ٣ (ولاه اخوه القضاء بالرصافة وباب الطاق ومن أعلى بغداد الى الموصل وغيرها من البلاد) ويذكر ايضاً (٩ ـ ١٥٠) كان اليه القضاء بربع باب الطاق وقطعة كبيرة من البلاد نيابة عن اخيه » كذلك الجواهر المضية (١ ـ ٢٨٧)

(٣٥) المنتظم ٩ ـ ٢٠٤ ، ١٠ ـ ١٣٤ ابن الاثير ١٠ ـ ٥٦١ ، ١١ ـ ١٤٦ الجامع المختصر ٢٣ السبكي ٤ ـ ٣٢٢ الجواهر المضية ١ ـ ٣٥٠ ، ٣٦٢ وقد تردد ذكره عند ابن الدبيثي في معرض تراجم عدد كبير ممن تمت تزكيتهم في زمنه

(٣٦) المنتظم ٩ ـ ٢٢٧ ، ١٠ ـ ١٠٤ ، « يذكر ان الزينبي استنابه دون تعيين المكان» وقد ذكر عرضاً في ١٠ ـ ٤٢ ، وكان من شهود التعديل في زمن الزينبي سنة ٥٣٤ الدبيثي ١ ـ ١٠٠ ب ، ٢ ٥٥ ب (٣٧) ابن الدبيثي ١٨٨ أ (٣٨) ابن الاثير ١٠ ـ ٢٠٣ .

(٣٩) المنتظم ١٠ ـ ٢٥ « ولي القضاء والحسبة بنهر المعلى » ويذكر في مكان آخر انه توفي سنة ٥٢٧ وانه ولي القضاء بالحريم والحسبة ايضاً (١٠ ـ ٣١) ويذكر ايضاً انه كان في سنة ٥١٣ قاضياً (٩ ـ ٢٢٢) اما السبكي فيذكر انه « ولي القضاء بالحريم الطاهري والحسبة ٤ ـ ٣٨

(٤٠) ابن الدبيثي ٣ ـ ٩٩ أ وهو يذكر ان تزكيته تمت سنة ٥١٧ وانه توفي في سنة ٥١٨ فالراجح انه ولي القضاء بين هذين التاريخين

(٤١) ابن الدبيثي ٢ ـ ٨٩ أ (٤٢) المنتظم ١٠ ـ ٢٩ (٤٣) الجواهر المضية ١ ـ ٢٧٠ وقد ناب في القضاء عن ابن الزينبي محمد بن الحسين بن المعلم الحنفي ، المنتظم ١٠ ـ ٦١ المختصر المحتاج اليه ٢٧ ولكن لا نعلم مكان نيابته

الخليفة	قاضي القضاة	ربع الكرخ - الجانب الغربي	حريم دار الخلافة	باب الازج	باب الطاق
الراشد ٥٢٩		عبد الله بن محمد بن طلحة ، الدامغاني[٤٤]	محمد بن احمد بن ابي طاهر الكرخي[٤٥]		
المقتفي ٥٣٠		محمد بن محمد بن محمد بن عبدالله بن احمد البيضاوي[٤٧] ٥٣٧_٥٤٦	محمد بن عبدالواحد بن محمد، بن الصباغ[٥٣] ٥٣٢	محمد بن محمد بن الحسن ، ابن الفراء[٥٥] ٥٣٣_٥٣٧	
		احمد بن علي بن محمد[٤٨] ٥٤٠		عبدالواحد بن احمد الثقفي[٥٦] ٥٤٠	
	علي بن احمد ، ابو الحسن الدامغاني[٤٦] ٥٤٣_٥٥٥	عبدالله بن احمد بن علي ، ابو جعفر الدامغاني[٤٨]		احمد بن علي بن احمد ، ابو الحسن الدامغاني[٥٧] ٥٤٣	
		محمد بن احمد بن علي، ابو منصور الدامغاني[٤٩] ٥٤٣_٥٤٦		محمد بن طاهر الخوارزمي[٥٨] ٥٤٣_٥٤٥	
		الحسن بن احمد بن علي ، ابو محمد الدامغاني[٥٠] ٥٤٦_٥٥٥	عبد الله بن محمد بن احمد الكرخي[٥٤] ٥٥٥_٥٥٧		محمد بن طاهر الخوارزمي[٦٠] ٥٤٥_٥٤٦
		محمد بن علي بن احمد[٥١]		ابن المرخم[٥٩] ٥٥٥	محمد بن احمد بن محمد، ابو الفضل[٦١] ٥٥٥
		الحسين بن علي بن محمد، ابو نصر[٥٢]			

(٤٤) المنتظم ٩ ـ ٢٣٢ الجواهر المضية ١ ـ ٢٨٩ عن ابن النجار (استنابه عبد الله بن محمد بن محمد البيضاوي)

(٤٥) يذكر ابن الجوزي ان محمد بن احمد بن محمد أبو طاهر الكرخي المتوفي سنة ٥٥٦ ولي قضاء باب الازج وقضاء واسط وقضاء الحريم وقد ولي في زمن خمسة خلفاء : المستظهر والمسترشد والراشد والمقتفي والمستنجد ، وهو الذي حكم بفسخ ولاية الراشد « (المنتظم ١٠ ـ ٢٠٢) ويذكر ايضاً انه ولي واسط سنة ٥٢٢ (١٠ ـ ٩) كما يذكر ان الذين شهدوا على عزل الراشد « ابن الكرخي والهيتي وابن البيضاوي ، ونقيب الطالبين وابن الرزاز ، وابن شافع وروح ابن الحديثي وقالوا ان ابن البيضاوي شهد مكرهاً وحكم ابن الكرخي قاضي البلد بخلعه »(١٠ ـ ٦٠) وهـذا يدل على ان ابن الكرخي كان من قضاة بغداد آنذاك . ومما يؤيد هذا ان ابن الدبيثي يذكر في مواضع مختلفة من كتابه شهادة ابن الكرخي على تزكية عدد من الشهود بين سنتي ٥٢٧ ـ ٥٣٥ (٢٠٥ ب ، ١١٦ ب ، ١٤٠ ب ١٥٢ أ ٣٥٥ ب ، ٦٩ ب ، ١١٩ ب مما يرجح انه كان في تلك الفترة قاضياً ببغـداد ، غير ان المصادر لم تذكر زمن او مكان حكمه في بغداد . ويلاحظ ان ابن الدبيثي لم يذكر انه كان يشـغل منصب القضاء خلال ذلك ، وان كان كلام ابن الجوزي (١٠ ـ ٢٠٢) يدل على انه استمر في اشغال القضاء .

(٤٦) المنتظم ٢٠ ـ ١٣٤ ، ١٩٥ ابن الاثير ١٠ ـ ١٣٤ ، ٥١٣ ، ١١ ـ ١٤٦ ، ٢٥٠ الجامع المختصر ٢٣ ، ٥٥ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ابن الدبيثي ١ ـ ٢١٣ أ ، ٢ ـ ٥ ب العسجد المسبوك ١٣٨ أ الجواهر المضية ١ ـ ٣٥٠ ابن النجار ١٦٩

(٤٧) البنداري : تاريخ بغداد ٥٧ ب

(٤٨) الدبيثي ٢ ـ ٢١٣ الجواهر المضية ١ ـ ٣٥٠ (عبد الله بن احمد ولي ربع الكرخ بعد وفاة ابيه) . ابن النجار ١٦٩

(٤٩) ابن الدبيثي ١ ـ ٥ ب ، ويذكر في ١ ـ ٢١٣ أنه استنابه في الحكم بحريم دار الخلافة الى ان عزل سنة ٥٥٥ . الجواهر المضية ٢ ـ ١٩

(٥٠) ابن الدبيثي ٢ ـ ٣ ب الجواهر المضية ١ ـ ١٨٩

(٥١) المختصر المحتاج اليه من ابن الدبيثي ١٦٥ الجواهر المضية ٢ ـ ٩٦ (عن ابن النجار)

(٥٢) ابن الدبيثي ٢ ـ ١٠ ب المختصر المحتاج اليه ٢٨٢ (بالجانب الغربي سنة ٥٧٥) الجواهر المضية ١ ـ ١٩٩ (بربع الكرخ) .

(٥٣) ابن الدبيثي ٢ ـ ٧٣ أ (تمت تزكيته سنة ٥٣٢ ، وكان على القضاء بباب النوبي ، دون ذكر سنة توليته

(٥٤) الدبيثي ١ ـ ١٠٠ ب (تولي القضاء بباب النوبي من بعد وفاة أبيه . الى ان توفي سنة ٥٥٧)

(٥٥) الدبيثي ٢ ـ ١١٦ ب

(٥٦) الجواهر المضية ١ ـ ٣٣٢ عن ابن النجار « القضاء بباب الازج وطريق خراسان »

(٥٧) المنتظم ١١٧/١٠

(٥٨) الجواهر المضية ٢ ـ ٦٢ دون تعيين المكان

(٥٩) المنتظم ١٠ ـ ١٩٥

(٦٠) الجواهر المضية ٢ ـ ٦٢

(٦١) ابن الدبيثي ١ ـ ١١٥ب

الخليفة	قاضي القضاة	ربع الكرخ ـ الجانب الغربي	حريم دار الخلافة	باب الازج	باب الطاق
المستنجد ٥٥٥	عبد الواحد الثقفي[٦٢] ٥٥٥	ابو جعفر علي بن عبدالرحمن بن مبادر[٦٤] ٥٥٥ (ت ٥٦٣)		ابن الثقفي الصغير[٦٧]	محمد بن عبد الله ... البيضاوي[٦٩] ٥٥٥ـ٨
	جعفر بن عبد الواحد الثقفي[٦٣] ٥٥٦ـ٥٦٣	عبدالله بن عبدالواحد[٦٥]	الحسين بن القاسم الشهرزوري[٦٦] ٥٥٦ـ٧	احمد بن عبدالباقي القرشي[٦٨]	القاسم بن علي ابو نصر الزينبي[٧٠] ٥٥٦
المستضيء ٥٦٦	روح بن احمد الحديثي[٧١] ٥٦٦ ـ ٥٧٠	احمد بن عبدالله بن احمد البندنيجي[٧٣] ٥٦٩ـ٥٧٣	عمر بن علي بن خضر[٧٥] ٥٦٦		
			عبد الملك بن روح بن احمد[٧٦] ٥٦٦ـ٥٦٩		
			ابراهيم بن عبدالله بن احمد الرطبي[٧٧] ٥٦٨ـ٥٧٠		
	علي احمد ابو الحسن الدامغاني[٧٢] ٥٧٠ـ٥٨٤	عبدالله بن احمد بن عبدالله البندنيجي[٧٤] ٥٧٢ـ٥٧٥	الحسين بن احمد ، ابو المظفر الدامغاني[٧٨]	ابراهيم بن عبدالله بن احمد الرطبي[٧٩] ٥٧٠ـ٥٧٧	

(٦٢) المنتظم ١٠ ـ ١٩٥ ـ ٦ ابن الاثير ١١ ـ ٢٥٨ الجواهر المضية ١ ـ ١٧٩

(٦٣) المنتظم ١٠ ـ ١٩٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، الجامع المختصر ٧٤ ابن الدبيثي ١ ـ ٢٧٢ . ٣٠ ـ ١٤٤ أ ابن الاثير ١١ ـ ٣٣٢ الجواهر المضية ١ ـ ١٧٩

(٦٤) طبقات الشافعية للاسنوي ١١٣ أ (تولي قضاء ربع الكرخ ثم عزل وسجن الى ان مات سنة ٥٦٣ ، (لايعين زمن التولية)

(٦٥) المنتظم ١٠ ـ ١٩٩ الجواهر المضية ١ ـ ٢٢٧ (دون تعيين المكان)

(٦٦) ابن الدبيثي ٣ ـ ١٨٩ ب السبكي ٤ ـ ٢١١ (٦٧) المنتظم ١٠ ـ ١٩٤

(٦٨) ابن الدبيثي ٢/١٣٥ « هو ابن عم احمد بن موهوب المتوفي سنة ٥٦ » ولا يذكر سنة توليته .

(٦٩) الجواهر المضية ٢/٦٩ (بربع سوق الثلاثاء) . (٧٠) الجواهر المضية ١/٤١١ (ولاة المستنجد قضاء بغداد) تاج التراجم ٥١

(٧١) المنتظم ١٠/٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٥ ابن الدبيثي ١/٥٢ أ

(٧٢) المنتظم ١٠/٢٥٠ ابن الدبيثي ١/٢١٣ الجامع المختصر ٧٣ ، ابن النجار ١٧٠ أ المسجد المسبوك ١٣٨ أ

(٧٣) الجواهر المضية ١/٧١ « القضاء والحسبة بالجانب الغربي » (٧٤) الجواهر المضية ١/٢٧٠

(٧٥) ابن الدبيثي ١/١٩٦ ب (تمت تزكيته سنة ٥٦٦) ويقول ابن النجار انه ولي القضاء بدار الخلافة ثم القضاء بربع سوق الثلاثاء (١١٣ ب) انظر ايضا ابن الاثير ١١/٤٦١

(٧٦) ابن الدبيثي ١/٥٢ ب ، ١/١٣٧ ب ابن النجار ٧٦ ، ١١٢ ب

(٧٧) ابن الدبيثي ٣/٨٩ ب (٧٨) ابن الدبيثي ٢/٢١٣ الجواهر المضية ١/ ٢٠٧ (استنابه اخوه ابو الحسن فى الحكم بحريم دار الخلافة وما يليها

(٧٩) ابن الدبيثي ٣/٨٩ ب

الخليفة	قاضي القضاة	الجانب الغربي	حريم دار الخلافة	قضاة في باب الأزج اماكن منوعة
الناصر ٥٧٥	علي بن احمد ابو الحسن الدامغاني ٥٧٠_٥٨٤	عبد الله بن عبد الواحد(٨٩) ٥٧٦_٥٨٠	عبدالله بن محمد بن الساوى (٩٥) ٥٨٤	محمد بن روح بن احمد(١١٠) ٥٧٧_٨
			محمد بن علي بن احمد الدامغاني (٩٦)	
			محمد بن الحسن بن محمد بن زرقان (٩٧)	
	علي بن علي ، ابو طالب البخاري(٨٠) ٥٨٤_٥٨٦	عبد الرحمن بن احمد بن محمد العمري (٩٠) ٥٨٣_٥٨٤، ٥٨٦		
	محمد بن جعفر ، فخر الدين العباسي (٨١) ٥٨٦_٥٨٨		يحيي بن الربيع، ابو علي الواسطي (٩٨)	
		علي بن عبد الرشيد الهمداني (٩١) ٥٨٦_٥٩٨	عبدالله بن الحسين ابو القاسم الدامغاني (٩٩) ٥٨٦_٥٩٤	
			(ينيب عنه عبدالله بن محمد الساوى (١٠٠))	
	علي بن علي ، ابو طالب البخاري(٨٢) ٥٨٨_٥٩٥	احمد بن علي ، ابو الفضل البخاري (٩٢)	عبد السلام بن اسماعيل .. ابن اللمغاني (١٠١) ٥٩٥	
			احمد بن علي ، ابو الفضل البخاري (١٠٢) ٥٩٣	
	احمد بن علي ، ابو الفضل البخاري (٨٣) ٥٩٥		محمد بن القاسم بن هبة الله التكريتي (١٠٣)	
	القاسم بن يحيي الشهرزوري (٨٤) ٥٩٥_٥٩٧	نصر الله بن علي بن عبد الرشيد (٩٥)	احمد بن نصر بن الحسين الانباري (١٠٤) ٥٩٧_٥٩٩	
	علي بن عبدالله بن سلمان الحلي (٩٥) ٥٩٨_٦٠٠		عبد السلام بن اسماعيل .. ابن اللمغاني (١٠٥) ٥٩٨_٦٠٥	عبداللطيف ابن البخاري (١١١) ٦٠١_٦١١
	عبدالله بن الحسين، ابو القاسم الدامغاني (٨٦) ٦٠٣_٦١١		الحسن بن عبدالسلام ابن اللمغاني (١٠٦) ٦٠٥	يحيى بن المظفر، ابن الحبير (١١٢)
		علي بن روح النهرواني (٩٣)		
	محمد بن احمد الزنجاني (٨٧) ٦١١_٦١٥	احمد بن محمود بن احمد بن عبدالله الواسطي (٩٤) ٦١٤_٦١٦	عبد الرحمن بن اللمغاني (١٠٩)	
	محمد بن يحيي بن علي ، ابن فضلان (٨٨) ٦١٦_٦٢٢			محمد بن يحيي بن المظفر .. ابن الحبير (١١٣)

(٨٠) الجامع المختصر ، وابن الأثير ١٢/١٣٠ (يذكر وفاته سنة ٥٩٥) ابن الدبيثي ٣(١٥١ ، ٢٢٢ الذهبي تاريخ [illegible] =

= الاسلام ٨/١٣ أ ابن الفوطي : تلخيص مجمع الالقاب ٤-٢/٧٨٥

(٨١) ابن الدبيثي ١/١٩١ أ ، ٨٨ ب الجامع المختصر ٩-١٠ الذهبي ٨/٢٠ أ المختصر المحتاج اليه ٥٦ (٣٠) البداية والنهاية ١٣/٢٢

(٨٢) ابن الدبيثي ١/٩١ أ الجواهر المضية ١/٨٢ انظر ايضا البداية والنهاية ١٣/١٥

(٨٣) الجامع المختصر ١١٣ الجواهر المضية ١/٨٢ المختصر المحتاج اليه ٣٨٩ (١٩١)

(٨٤) الجامع المختصر ١/٤٥ ، ١٠٢ - ٣ البداية والنهاية ١٣/٢٠

(٨٥) الجامع المختصر ٨٠ ، ١١٥ ابن الفوطي ، تلخيص مجمع ٤-٢/٨٨٤ . الجواهر المضية ١/٣٦٤ العسجد المسبوك ١٣٨ أ البداية والنهاية ١٣/٣٧

(٨٦) الجامع المختصر ٢٠١ ابن الدبيثي ١/٩١ أ ، ٢/٤٢ ب مرآة الزمان ٨/٥٢٩ المختصر المحتاج اليه ٧٧١ (١٤٢) تلخيص مجمع الالقاب ٤-٢/٧٤٨ شذرات الذهب ٥/٦٣ الذهبي ٨/٨٤ أ (٨٧) مرآة الزمان ٨/٥٦٩ . وانظر ايضاً ابن الدبيثي ١/٧٠ أ ، ١٦٩ أ ، ٢١٧ ب ، ٢/٢٢ ب ، ٢٥ ب

(٨٨) السبكي ٥/٤٤ الحوادث الجامعة ٦٤ . شذرات الذهب ٥/١٤٦

(٨٩) الجواهر المضية ١/٢٧٧ « القضاء والحسبة بالجانب الغربي من بغداد والبلاد المزيدية والكوفة » (٩٠) المختصر المحتاج اليه ٣٨/٤ الاسنوي ١٨٠ ب

(٩١) المختصر المحتاج اليه ٨٣٨ الاسنوي ١٨٤ ب الجامع المختصر ٢٨١-٢ يذكر وفاته سنة ٦٠٦ بعد ان عزل عن نيابة اخيه شذرات الذهب ٥/٩٥

(٩٢) الجواهر المضية ١/٨٢ (٩٣) ابن الدبيثي ١/٩١ أ لما ولي ابو القاسم الدامغاني جعل « نوابه بمدينة السلام اخوه القاضي ابو عبدالله محمد والقاضي ابو الحسن علي بن روح النهرواني » ويذكر الجامع المختصر ان ابا القاسم الدامغاني استناب سنة ٦٠٤ ابا الحسن علي بن روح في الحكم عنه بجانبي بغداد (٢٣٧)

(٩٤) ابن الدبيثي ٣/٦٤ ب الاسنوي ١٨٤ ب تلخيص مجمع الالقاب ٤-١/١٨ ، ٤-٢ ٩٦ (بالجانب الغربي) الجامع المختصر : ٢٩٠ تلخيص مجمع الالقاب ٤-٢/٤٢٦ ويذكر في ٥/١٦٥ ان « الحسن بن نصر الله تولى قضاء الجانب الغربي هو وابوه وجده وانه ولد سنة ٦١٨ .

(٩٥) ابن الدبيثي ١/٢١٣ أ (دون تعيين المكان) الجامع المختصر ٢٣ « ولاه قاضي القضاة علي بن الدامغاني القضاء بحريم دار الخلافة المعظمة وما يليها فلم يزل على ذلك الى ان توفي قاضي القضاة المذكور » (٩٦) ابن الدبيثي ٢/٩٤ أ الجواهر المضية ٢ /٩٦ (دون تعيين المكان) .

(٩٧) ابن الدبيثي ٢-٣٥ ب « استنابه اقضى القضاة ابو طالب علي بن علي البخاري . وقبل شهادته سنة ٥٨٣ . . الى سنة ٥٨٤ » المختصر المحتاج اليه ٦٦ (٣٥) (٩٨) الجامع المختصر ٢٩٧ (٩٩) ابن الدبيثي ١-٩١ أ « تولى اولا القضاء والحكم بمدينة السلام في رجب سنة ٥٨٦ .. ولما توفي قاضي القضاة العباسي ... انفرد القاضي ابو القاسم هذا بالقضاء والحكم بمدينة السلام الى ان ولي قاضي القضاة ابو طالب علي بن علي بن البخاري المرة الثانية وهو على حكمه وقضائه وتوفي قاضي القضاة ابو طالب هذا سنة ٥٩٣ فانفرد القاضي ابو القاسم ايضا بالحكم ببغداد الى ان عزل سنة ٥٩٤ وكانت ولايته ثمان سنين الجامع المختصر ٢٠١ (١٠٠) الجامع المختصر ٢٣ « استخلفه القاضي عبدالله بن الحسين الدامغاني على الحكم بمدينة السلام في سنة ٥٨٦ فكان على ذلك الى ان عزل القاضي عبدالله بن الحسين المذكور في رجب ٩٤ (٥)

(١٠١) الجامع المختصر ٢٧٦ « ناب عن قاضي القضاة ابي طالب ...في الانكحة والمطالبات» ابن الدبيثي ١-١٤٢ أ دون تعيين الزمن

(١٠٢) ابن الدبيثي ٣-٣٩ ب الجامع المختصر ١١٣ المختصر المحتاج اليه ٧٦٤ (١٣٧-٨) الجواهر المضية ١-٣٢٥

(١٠٣) الوافي ٤-٢٣٩ (١٠٤) ابن الدبيثي ٣-٧٢ ب (١٠٥) ابن الدبيثي ١-١٤٢ أ الجامع المختصر ٨٠ ، ٢٧٦ « في عقود الانكحة والمطالبات بدار الخلافة المعظمة (١٠٦) الجامع المختصر ٨٠ « علي بن سلمان الحلي . . استناب في الحكم عنه والد كمال الدين عبدالرحمن بن عبدالسلام بن اللمغاني ثم ولده الحسين ، ولم يأذن لهما في سماع بينة ولا اسجال »

(١٠٨) ابن الدبيثي ٩١ أ الجامع المختصر ٢٠٢ (ولا يعينان المكان ابن النجار ٤٢ المختصر المحتاج اليه ٧٨ (٤٠) الجواهر المضية ٢-٤٨

(١٠٩) تلخيص مجمع الالقاب ٥-٩٠ (ناب عن الزنجاني وابن فضل الله والحلي وعبدالرحمن بن مقبل (دون تعيين المكان) العسجد المسبوك ١٧٩ ب شذرات الذهب ٥-٦١ وعن نيابته عن ابن مقبل الحوادث الجامعة ٧٢ البداية والنهاية ١٣-١٨١

(١١٠) ابن الدبيثي ٢-٤٩ ب المختصر المحتاج اليه (اضافه مصطفى جواد ٨٩٢)

(١١١) الجامع المختصر ١٤٩ ويذكر ابن الدبيثي ١-١٦٣ ب (تولى اولا القضاء بربع باب الازج سنة ٦٠١ ثم ولي القضاء والحكم بجميع شرقي مدينة السلام سنة ٦٠٨ ... فلم يزل على ذلك الى ان ولي صدرية المخزن المعمور والنظر في اعماله سنة ٦١١) العسجد المسبوك ١٨٤ ب .

(١١٢) ذيل طبقات الحنابلة ٢-٦٢ طبعة الفقي) شذرات الذهب ٥-٣١ دون تعيين المكان او السنة

(١١٣) طبقات الشافعية للسبكي ٥-٤٤ شذرات الذهب ٥-٢٠٠ لم تذكر المصادر محل تعيينه وتعيين من قبله

الخليفة	قاضي القضاة	الجانب الغربي	حريم دار الخلافة
الظاهر ٦٢٢	نصر بن عبدالرزاق ، ابو صالح الجيلي[١١٤] ٦٢٢_٦٢٣	كذلك	محمد بن نصر الجيلي[١٢١] عبد الرحمن بن علي بن احمد التانرايا[١٢٢] عبد الرحمن بن مقبل الواسطي[١٢٣]
المستنصر ٦٢٣	محمود بن احمد بن بختيار الزنجاني[١١٥] عبدالرحمن بن مقبل الواسطي[١١٦] ٦٣٣ (نائباه عبدالرحمن بن عبدالسلام بن اللمغاني وعبدالرحمن بن يحيي التكريتي[١٢٤]) عبد الرحمن بن عبد السلام ، اللمغاني[١١٧] ٦٣٣_٦٤٤		
المستعصم ٦٤٠	سراج الدين النهرقلي[١١٨] ٦٥٤ عبد الله بن المبارك ، نجم الدين البادرائي[١١٩] ٦٥٥ (١٥) يوماً نظام الدين عبدالمنعم البندنيجي[١٢٠] ٦٥٥_٦٩٨	فخر الدين بن نصر الدين بن علي ابن عبدالرشيد[١٢٥] ٦٤٢ عزالدين احمد بن محمود الزنجاني[١٢٨] ٦٥٥	نظام الدين عبدالمنعم البندنيجي[١٢٧] ٦٥٥ فخر الدين عبدالله بن عبد الجليل الطهراني[١٢٩]

(١١٤) الحوادث الجامعة ٨٦ ، ٥٧ ، ١٥٧ ، العسجد المسبوك ١٤٠ أ ، ١٥٢ أ شذرات الذهب ٥ ـ ١٦١ .

(١١٥) الحوادث الجامعة ٨٤_١٥٧ العسجد المسبوك ١٦٠ أ ، ١٩٣ أ تاريخ علماء المستنصرية الناجي معروف ١_٢١٢

(١١٦) الحوادث الجامعة ٨٤ ، ١٥٧ العسجد المسبوك ١٦٠ أ البداية والنهاية ٣_١٠٨

(١١٧) الحوادث الجامعة ١٥٧ العسجد المسبوك ١٦٠ أ تلخيص مجمع الالقاب ٥_١٩٥ . تاريخ علماء المستنصرية ١ ـ ١٢٤ البداية والنهاية ١٣_١٨١ (لقب اقضى القضاة وتوفي سنة ٦٤٩)

(١١٨) الحوادث الجامعة ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٣١٦

(١١٩) الحوادث الجامعة ٣٢٢ السبكي ٥_٥٩ . شذرات الذهب ٥_٢٦٩ اليونيني ١/٧١ البداية والنهاية ١٣_ ١٩٦

(١٢٠) الحوادث الجامعة ٣٤٣

(١٢١) شذرات الذهب ٥_٢٨٥ ، وينقل السبكي عن ابن النجار انة ناب عن ابى صالح الجيلي بحريم دار الخلافة (٥_٧١) ذيل طبقات الحنابلة ٢_٢٦٥

(١٢٢) ذيل طبقات الحنابلة ٢_١٧٣ (١٢٣) شذرات الذهب ٥_٢٠٤ السبكي ٥_٧١ عن ابن النجار ، ابن كثير ١٣_ ١٥٨

(١٢٤) الحوادث الجامعة ٧٢ (لايعين مكان عمل كل منهما ، ويذكر الصفدي انه استناب محمد علي ابن نصر الابري في عقود الانكحة والطلاق والديون (الوافي ٤_١٥٥)

(١٢٥) الحوادث الجامعة ٢٩٠ تلخيص مجمع الالقاب ١_٣/ ٤٢٦ ويقول في ٥ / ١٦٥ أن «الحسن بن نصر الله تولى قضاء الجانب الغربي هو وابوه وجده وانه ولد سنة ٦١٨ »

(١٢٦) الحوادث الجامعة ٣٢٣ ، ٣٦٣ (١٢٧) الحوادث الجامعة ٣٦٣ (١٢٨) الحوادث الجامعة ٣٢٣ ، ٣٤٣

(١٢٩) الحوادث الجامعة ٣٦٣ (استنابه نظام الدين دون تعيين زمن او مكان الاستنابه)

تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد السابع عشر
1388هـ -1969م

تنظيمات الرسول الادارية في المدينة

الدكتور صالح احمد العلي

كانت المهام الملقاة على عاتق الرسول بعد هجرته الى المدينة عظيمة ، اذ رغم انه كان له في المحيط الجديد عدد كبير من المؤمنين الانصار الذين آمنوا به من تلقاء انفسهم وبرغبة ذاتية منهم ، ورغم ان دعوته لم تقابل بالاستغراب والمعارضة والانكار الذي قوبلت به في مكة فان الاحوال الجديدة القت عليه كثيراً من المسؤوليات ، وكانت تتطلب منه الاهتمام بتنظيم المدينة التي كانت قد اضعفتها الخصومات ومزقت وحدة عشائرها الخلافات ومنعتها من إقامة تنظيم مدني وسياسي بالمستوى الذي بلغته حتى مكة .

لذلك كان من الضروري للرسول بعد تثبيت معالم الدين الاسلامي وتوضيحه وتقرير فرائضه ، ان يهتم بتنظيم المجتمع المدني ، وكان لابد له من ذلك اذا اراد ان يجعل المدينة نموذجاً يوضح رسالة الاسلام واثرها في تحقيق المجتمع البشري السعيد وتقدمه ، واذا اراد ان يجعلها قاعدة صلدة لنشر الاسلام بين الناس ولدحر خصمه الاول ، قريش . ومن المعلوم ان انتشار الاسلام واعتناق الناس اياه لايتوقف على مجرد سمو مبادئه وعظمة الافكار التي ينادي بها ، بل لابد له اذا اراد الانتشار ان يظهر نجاحه في التطبيق العملي ، كما ان الرسول لن يستطيع التصدي لاعدائه والانتصار عليهم ما لم تكن قاعدة حركاته متينة الأسس .

ولم يكن تحقيق هذه الوجائب أمراً يسيراً في المجتمع المدني الذي كانت قد تأصلت

فيه الروح القبلية بأعنف مظاهرها وامتدت الى كافة السكان ، وتثبتت نتيجة الخصومات العنيفة التي نشبت بينهم فزادت من تكتل كل قبيلة وقوت شعور الفرد بوجوب تمسكه بقبيلته التي تحميه وتدافع عنه وتضمن له الحياة ، هذا ـ فضلاً ـ عن الاعتداد بالفردية الذي يتميز به النظام القبلي والذي يقاوم الخضوع الى سلطة خارجية عليا . ولا ننسى ان المدينة كانت في اوائل الهجرة تضم عدداً ممن لم يعتنق الاسلام ، وعدداً آخر ممن كانوا يعلنون الاسلام ويبطنون الكفر ويقومون بأعمال تعرقل جهود الرسول في تنفيذ تنظيماته . كما ان كثيراً من اليهود وقفوا معارضين له ، لايخضعون لأوامره ولا يرضخون لتنظيماته ويعملون على عرقلة مساعيه ويحرضون الناس على التمرد والعصيان، هذا بالاضافة الى ان قريش كانت لا تزال واقفة للرسول والاسلام بالمرصاد .

وتتجلى تنظيمات الرسول في المدينة بالوثيقة التي وضعها والتي روى نصها ابن اسحق ونقل بعض الرواة نبذاً منها واطلقوا عليها اسم الصحيفة والوثيقة والكتاب . وقد سميت في المتن مرة (الكتاب) (١/٤٧) ومرة « صحيفة (٢٢/٣٧/٣٩/٤٢/٤٦)[١] ولا ريب ان مدلول الصحيفة يجعلها اقرب الى كونها اعلان declaration من جانب الرسول يظهر فيها الامور التي يريد الالتزام بتنفيذها . اما كلمة كتاب فقد تدل على الامر الواجب التنفيذ ، وقد وردت كلمة كتاب بهذا المعنى فى القرآن الكريم حيث قال تعالى « كتب عليكم القتال » « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » والراجح ان الرسول قصد من اصدارها المعنى الثاني . وهو بيان الامور التي يرى وجوب اتباعها ، فهي بيان مسجل للتنظيمات التي يريد ان يتبعها الناس .

ونصوص الوثيقة مكونة من جمل قصيرة بسيطة وغير معقدة التركيب ويكثر فيها التكرار ، وتستعمل كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ثم قل استعمالها فيما بعد

(١) ننشر في نهاية المقال هذه الوثيقة ، وهي مقسمة الى فقرات ، ولكل فقرة رقم منقولة من كتاب الوثائق السياسية في عهد الرسول والخلافة الراشدة للاستاذ محمد حيدالله . والارقام التي نشير اليها في المقال هي التي وضعها الاستاذ حيدالله .

حتى اصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة . وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح او تقدح بفرد او جماعة ، او تخص احداً بالاطراء او الذم ، لذلك يمكن القول بأنها وثيقة اصيلة وغير مزورة ، رغم عدم ورودها في كتب الحديث المعتمدة. ولا يطعن في صحة هذه الوثيقة عدم اشارة القرآن الكريم لها مع اشاراته الى كثير من الاحداث التي واجهت الرسول والمسلمين وخاصة في الفترة المدنية ، ذلك ان القرآن الكريم نزلت آياته لتوضيح الدين ومعالمه ولهداية الناس ، ولذلك لم يشر الى كل حدث واجه المجتمع الاسـلامي بل اقتصر على الاشارة الى بعضها . ثم ان المبادئ التي جاءت بها تنسجم مع تعاليم القرآن الكريم وما تتطلبه الاحوال والظروف في حينها .

ولا نعلم فيما اذا كانت بنود هـذه الصحيفة قد صيغت اثر مفاوضات او أنها كانت كالمعاهدات الاخرى ، لأن ديباجتها لا تذكر فريقاً - ثانياً - فاوضه الرسول أو تعاهد معه، بل تقتصر على القول « هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسـلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم » كما انها لا تذكر تاريخ وضعها او اسم كاتبها كما هو شأن الكتب والمعاهدات التي كان يعقدها الرسول خاصة بعد أن تثبت الاسلام . ولا نعلم فيما اذا كان اغفال ذلك راجع الى تعمد حذف الرواة بعض نصوصها ام لان اسلوب ذكر اسم الكاتب في الكتب والمعاهدات قد حدث بعد اصدار هذه الوثيقة .

تتكون الوثيقة من ثلاثة اقسام متميزة . اولها يتعلق بالمسلمين وثانيها يتعلق باليهود ، وثالثها احكام عامة تتعلق بأحوال المدينة . وقد اشار ابن منظور الى نصوص منها وجدها « في كتابه للمهاجرين والانصار » ونصوص « وقع في كتاب الرسول الله يهود » مما قد يدل على ان هذه الوثيقة هي في الأصل كتابين ولكن ابن اسحق جمعها في روايته وجعلها وثيقة واحدة .

وقد ذكر القرآن الكريم عهوداً تمت بين الرسول واليهود فقال تعالى « ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في

كل مرة وهم لايتقون » (الانفال ٥٥ ـ ٥٦) « أو كلما عهدوا عهداً ـ نبذه فريق منهم بل اكثرهم لايؤمنون » (البقرة ١٠٠) « ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلا اولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » (آل عمران ٧٧) « واذ اخذنا ميثاقكم لاتسفكوا دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم اسارى تفدوهم وهو محرم عليكم اخراجهم افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » (البقرة ٨٤ ـ ٨٥) . ومن المحتمل ان بعض هذه العهود تشمل هذه الوثيقة .

والراجح ان هذه الوثيقة اصدرها الرسول بعد انتصاره في بدر ذلك الانتصار الذي كان مبعث قوة معنوية كبيرة للمسلمين ، وقد حدث في وقت زاد فيه نشاط اليهود لاثارة الشغب ضد المسلمين في المدينة ، فكان لابد من تنظيم العلاقة بين السكان وتحديد الواجبات المطلوبة من كل جماعة في المدينة ، والزام الجميع بجعل الرسول حكماً ومرجعاً في القضايا الرئيسية . ويلاحظ ان في الوثيقة مادة تنص على انه « لايحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يأويه » وهي تتعلق بالاحوال التي نشأت على أثر معركة بدر حيث حاول بعض المسلمين إجارة اسرى قريش .

يوضح القسم المتعلق بالمسلمين الاحوال الجديدة للاسلام حيث اصبح المسلمون أمة واحدة يؤمنون بإله واحد ، ويطيعون رسولا واحداً ويخضعون لأوامر دينية واحدة.

والسيادة Sovereignty في هذا المجتمع هي لله تعالى فهو الاول والآخر والظاهر والباطن « له ما في السموات والارض يعطي الملك من يشاء ويأخذ الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وهو على كل شيء قدير » وطاعة الله فرض واجب على البشر ، فمن عصى الله فان له جهنم ، إن كون السيادة في الاسلام لله تعالى قد اكسب

الحكم تماسكاً ووقاراً وخلصه من الاضطرابات العنيفة التي تعتري المجتمعات الحديثة التي جعلت السيادة للشعب . ان اوامر الله تعالى وتعاليمه تتجلى في القرآن الكريم الذي جاء للناس عن طريق الرسول الذي مع انه بشر، الا انه له مكانة خاصة فريدة إذ انه الشخص الوحيد الذي اختاره الله تعالى لتبليغ رسالته فهو أعلم الناس بأوامر الله وهو البشير والنذير ، ولذلك تجب طاعته وان من يطع الله ورسوله « فقد فاز فوزاً عظيما » و« يدخله جنات تجري من تحتها الانهار » ومن يطع الرسول فقد اطاع الله » (النساء ٨٠) « ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » (الاحزاب ٢٦) « ومن يعصى الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابداً (الجن ٢٢) وقد ورد الأمر بطاعة الله ورسوله في اكثر من عشرين آية .

لقد ذكرنا ان السيادة في الاسلام لله تعالى ، غير انه لما كان الاتجاه العام للعقيدة الاسلامية هو ضد التجسيد والحصر المادي وعدم الاقرار بهما ، لذلك فان الادارة والحكم الفعلي في المجتمع اي ما نسميه اليوم السلطة Authority كان يمارسها الرسول بنفسه، وقد عززت اوامر القرآن الكريم سلطة الرسول بعدد غير قليل من الآيات التي تذكر « واطيعوا الله واطيعوا الرسول » « من اطاع الرسول فقد اطاع الله » « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدون في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

ولا ريب ان الرسول كان يتخذ من احكام القرآن وروحه هادياً ودليلاً في الحكم ، غير ان الآيات القرآنية وضعت المبادىء والاسس العامة ، اما تفاصيل الحكم وتطبيقاته فقد كان متروكاً الى الرسول ليطبق وينفذ ما يراه ، فهو بذلك اصبح يتمتع بسلطات ادارية وتنفيذية واسعة .

لم يكن في النظام الذي وضعه الرسول عدد كبير من الموظفين الثابتين الدائميين ، فقد كان الرسول يسند الاعمال التي تستجد الى اشخاص قد يغيرهم ، فهم غير ثابتين ، وعددهم محدود ولا تنظمهم بوروقراطية وتسلسل في مستوى المناصب كالتي تسود الحكومات الحديثة

وكان الرسول يشاور اصحابه دائماً ولا يفرض آراءه ، وقد أمره تعالى بالمشاورة « وأمرهم شورى بينهم » «وشاورهم في الامر» ؛ وكان الرسول يسمع اراء ذوي الحجى من صحابته ، ولكنه لم يؤسس للاستشارة مجلساً خاصاً ذا اعضاء ثابتين شأن نظام المجالس النيابية فى العصر الحديث ، كما ان القرارات كانت تصدر باسمه .

لقد كون الاسلام « امة واحدة من دون الناس » أي كتلة يرتبط اعضاؤها برابطة العقيدة الدينية ، فتنظيمهم يختلف عن تنظيم القبيلة من حيث انه قائم على اساس العقيدة والفكر وليس على اساس الدم ، ومن المعلوم ان هذه الكتلة قائمة على اسس فكرية اخلاقية ، وليس على اسس بيولوجية ،وانها قابلة للتوسع والتقلص ، فبالامكان ان يزداد عدد افرادها بقدر من يؤمن بالمباديء التي تعتنقها ،او يتناقص هذا العدد بقدر ما يترك افرادها تلك العقيدة ، في حين ان الرابطة القبلية ثابتة لاتتبدل ،فالفرد من بني تميم مثلا لا يمكن أن يكون من الازد . وما دامت الامة تقوم على رابطة العقيدة فانها تستند الى مباديء روحية واخلاقية ،فالسياسة فى الاسلام ممتزجة بالاخلاق ، ورابطة الامة تسود على الرابطة القبلية .

تتجلى روح المساواة والتماسك بين المسلمين في الإجارة ، فقد نصت الوثيقة « ان ذمة الله واحدة يجير عليهم ادناهم ، وان المؤمنين بعضهم اولياء بعض من دون الناس » (١٥) فالمسلمون كتلة واحدة تتميز عن غيرها من الكتل ، وتقف امامها جميعاً ، وهم متعاونون متناصرون يسند بعضهم بعضاً ، ويحمي كل منهم الآخر ، فهم سواسية لافرق بين صغير أو كبير ، غني أو فقير ، ولكل فرد أن يجير من يشاء ، فاذا اجاره فعلى كافة المسلمين حماية المجار لان المجير مسلم ، وهو يجير باسم الاسلام ، ولا ريب ان الاجارة تقليد كان سائداً عند القبائل منذ القديم ، وقد حوره الاسلام فجعله خاضعاً للتماسك الاسلامى الذي حل محل العصبية القبلية .

وقد نصت الوثيقة أن « المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس » (١٥) فهم كتلة واحدة ، يحمي كل فرد الآخرين ، ويتمتع بحمايتهم ، ويظفر بمعونتهم اذا كان بحاجة

الى هذه المعونة « وان المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم ان يعطوه بالمعروف والقسط بين المؤمنين (١٢) والمسلمين تتكافأ دماؤهم ، فالدية عليهم واحدة ، بعكس الحال في الجاهلية حيث كانت دية الافراد تختلف حسب مكانتهم الاجتماعية .

ان وحدة الامة وتماسكها يتجلى في موقفها من الجرائم المخلة بالامن فقد نصت الوثيقة ان المؤمنين « يد واحدة على من بغى أو إبتغى دسيعة ظلم أو اثما او عدوانا او فساداً بين المؤمنين ، وان ايديهم عليه جميعاً . ولو كان ولد احدهم (١٣) وانه لا يحل لمؤمن اقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً او يؤويه وان من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل » (٢٢) ، فبهذا لا يجوز لاحد ان يوالي المجرم أو يؤازره او يدافع عنه او يسعى في تخليصه حتى ولو كان ولده .

وقد حددت الصحيفة عقاب القاتل ، فأن « من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينه فانه قود به الا ان يرضى ولي المقتول بالعقل ، وان المؤمنين عليه كافة ولا لهم الاقيام عليه(٢١) .

ويتبين من هذه النصوص التأكيد الشديد على الروح الجماعية وعلى وجوب اشتراك المسلمين ومساهمتهم جميعاً في صيانة الامن ومعاقبة المفسد وعدم حمايته ، وبهذا تنبع السلطة التنفيذية من مجتمع المسلمين وحدهم ولا يساهم بها غيرهم ، فهم كتلة واحدة ، والسلطة التنفيذية جماعية ، وهي منهم وليست مفروضة عليهم .

ان هذه النصوص الجنائية اقرب الى المفاهيم التي كانت سائدة في المجتمع آنذاك ، وهي محددة واضحة ، ولكنها تكيفت لتلائم الروح الاسلامية الجديدة والقائمة على اساس المساواة بين الناس وتماسك المؤمنين .

وقد اعترفت الصحيفة بالمجموعات العشائرية التي كانت قائمة ، وأقرت لها بالتماسك وحق الجوار والعاقلة والتعاون والاحتفاظ بالسيطرة على الموالي ، وقد اعتبرت المهاجرين من قريش عشيرة قائمة بذاتها واقتصرت على ذكر ثماني عشائر هي : عوف ، والحارث ، وساعدة ،

وجشم ، والنجار ، وعمرو بن عوف ، والنبيت ، واوس (اللاة).

ويلاحظ أنه لم يشر الى الكتلتين القبليتين المشهورتين (الأوس والخزرج) بل اقتصر على ذكر العشائر دون القبائل ، ولعل ذلك راجع الى ان التكتل العشائري كان هو الأساس الذي يقوم عليه تنظيم المدينة وان التكتل القبلي كان اثره اضعف .

ثم ان الصحيفة اقتصرت على ذكر خمسة من عشائر الخزرج وثلاثة من عشائر الأوس . وان اغفال ذكر العشائر الأخرى قد يرجع الى ان الرواة حذفوها او لان الاسلام لم ينتشر فيها كثيراً ، ثم انه ذكر بني النبيت الذين لم يعتبروا كتلة عشائرية فيما بعد ، مما يدل على ان هذه العشيرة الغيت من التنظيم فيما بعد ، اما اوس المذكورة فيقصد بها عشيرة اوس اللات وليس قبيلة الأوس .

لقد ذكرت الوثيقة عن كل عشيرة انهم « على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين »(٣-١١) ، اي انه اقر النظام العشائري اساساً لخطط الاستيطان (على ربعتهم) وعلى دفع الدية تبعاً لما كانوا يفعلون قبل الاسلام (معاقلهم الاولى) وعلى معاونة من يقع من افرادها في ازمة ، واضاف الى ذلك مسؤوليتهم الجديدة تجاه الاسلام (المؤمنين) . ان كلمة (طائفة) التي وردت في هذا النص قد يدل على ادراكه ان كل عشيرة فيها عدة طوائف ، وان كنا لا نعلم بدقة المقصود بكلمة طائفة .

لقد نصت الوثيقة انه « لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه » (١٢ب)، وبهذا اقر بقاء الولاء ولكنه منع المؤمنين من محالفة الموالي دون موافقة اسيادهم ، ومن المعلوم ان مؤسسة الولاء قديمة ، وفيها منافع للمولى وللعشيرة ، فاما المولى فانه يستطيع ممارسة نشاطه واعماله بحرية في ظل الحماية التي يوفرها الولاء ، كما أن العشيرة تستفيد من الموالي الذين يزيدون في عددها ويقدمون لها بعض المساعدة ، ولا ريب ان روابط الولاء ليست ثابتة كرابطة الدم ، ولكن انتقال الولاء من عشيرة الى اخرى يضعف العشيرة الاولى

ويقوي الثانية ، الأمر الذي يؤدي الى عدم الاستقرار والى قلق التنظيمات والى خلق مشاكل اجتماعية وسياسية وادارية ؛ وتجنباً عن كل ذلك منع الرسول مخالفة المولى دون اذن سيده

ويرجع إبقاء الرسول التكتل العشائري الى عمق تغلغله في النفوس ومكانته في حياتهم ، ومن الطبيعي ان هذا التنظيم العشائري كان لا بد من زواله بعد تشرب الناس لمبادىء الدين الجديد ، لأن الدين الاسلامي يقوم على اساس المسؤولية الفردية ويجمع الناس جميعاً برابطة العقيدة ويضع للتفاضل بينهم معايير جديدة من التقوى والتدين والخلق الفاضل ، فالتكتل العشائري إذاً يقع ضمن رابطة الامة وهو خاضع لها ، وهو معرض للتفكك على مر الايام في صميم العشيرة الواحدة ، اذ ان من يعتنق الاسلام يرتبط برابطة عامة مع اخوانه في الدين ويشترك معهم في تأدية فرائضهم واحتفالاتهم وافراحهم واتراحهم ومصالحهم العامة وبذلك يبتعد عمن يبقى متمسكاً بالشرك .

لقد اعتبر الرسول العرب المتهودين جزءاً من عشائرهم وهذا دليل على ان التماسك العشائري كان اقوى من الرابطة الدينية ، وان تهود بعض العرب لم يكن عميق الجذور ولم يؤد الى انفصالهم عن عشائرهم أو الى انضمامهم الى اليهود . والواقع انه لا توجد اشارة الى ان العرب المتهودين ايدوا اليهود في خصوماتهم مع الرسول ، او انهم وقفوا ضد عشائرهم المسلمة ، وان عدم ذكر المؤرخين لمواقف وقفها العرب المتهودون دليل على مدى سطحية يهوديتهم ، وانهم سرعان ما اعتنقوا الاسلام وانضموا الى راية الرسول ، ويلاحظ ان المسلمين معتبرين في الوثيقة كتلة واحدة تربطهم ، بالاضافة الى الرابطة العشائرية ، رابطة الاسلام الكبرى ، اما معتنقي اليهودية ، فمع انه اباح لهم حرية الدين والمعتقد ، الا انه لم يعتبرهم كتلة واحدة ، بل ذكرهم قبائل متفرقة ، وهم جزء من عشائرهم العربية في الحقوق والواجبات . وقد ذكرت الوثيقة « ان يهود بني عوف امة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وانفسهم ، الا من ظلم أو اثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته (٢٥) وقد كرر نص هذا البند مع بقية بنود العشائر العربية (٢٦-٣١) .

ويلاحظ أن البنود المتعلقة بالعرب المتهودين لم يرد فيها الجملة التي تكررت في البنود الخاصة بالعرب « .. على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين » الأمر الذي يدل على قلة تدخله في الشؤون الخاصة باليهود .

ان المادة الاولى من الوثيقة توصي بأنه يجوز لمشركي يثرب الانضمام الى احكامها فهي كتاب بين « المسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم » الا ان المشركين لا يساوون المسلمين فانه « لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن ». (١٤)

ان هذا الموقف المعتدل نسبياً من مشركي المدينة يرجع الى تقدير الرسول مدى تأصل الروح القبلية والى ان تجاهلها قد يؤدي الى الاضرار بمصلحة انتشار الاسلام حيث ان وضع القيود الشديدة عليهم قد يؤدي الى مناصرة اخوانهم الذين اسلموا لهم او قد يحدث ارباكا في الاوضاع الاجتماعية القائمة ، لذلك قصد ان يحافظ على الوحدة القبلية وترك لهم الخيار في التصرف ،وبذلك وضع على كواهلهم المسؤولية ، ولا نعلم عدد من بقي على الشرك ومدى تمسكهم بالروابط القبلية .

ان عدم التشديد في فصل المشركين من العرب عن المسلمين من افراد قبائلهم لا يعني اعطاء المشركين نفس حقوق المسلمين ومكانتهم ، فقد نصت الوثيقة انه « لا يقتل مؤمن مؤمنافي كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن»(١٤) وهكذا اكد على ان التماسك الذي تقتضيه الروح القبلية يقف عند حد الايمان ، وان التناصر يكون تاماً بين المؤمنين فحسب ، اذ لا يجوز ان ينصر كافر على مؤمن ، كما انه اذا قتل مؤمن كافراً فلا يقتل به ، لأن دم المؤمن لا يكافىء دم الكافر ، وبذلك جعلت مكانة هؤلاء المشركين اقل من مكانة المؤمنين .

ومن الممكن القول ان كافة النصوص التي ذكرت فيها كلمة (المؤمنين) منفردة فان احكامها تسرى عليهم دون المشركين ، كالتعاون والتناصر والقسط .

وضعت الوثيقة على مشركي قريش قيوداً اضافية خاصة ، فقد نصت على انه « لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن (٢٠ ب) وانه « لا تجار قريش ولا من نصرها» (٤٣) ولا شك ان تمييز الرسول مشركي قريش في المعاملة امر طبيعي اذ أن مشركي قريش هم الذين قاوموا الاسلام وحاولوا خنقه ، وهم الذين اضطهدوا الرسول والمسلمين حتى اضطروهم الى الهجرة ، وقد ظلوا الخصم الالد للأسلام والعقبة الكؤود امام انتشاره ، والواقع انه ما كان بالامكان نشر الاسلام ما دامت قريش تقف موقف العداء ، وما كان من المنتظر ان تستسلم قريش الا بحد السيف ، لذلك خصهم الرسول بهذه القيود ، فلم يبح اجارتهم ، ولم يشركهم في المساهمة مع المسلمين في الدفاع عن المدينة ، في حين اباح ذلك لمن بقي على الشرك من اهل يثرب ، ولا بد ان هذا الموقف المعتدل نسبياً من مشركي يثرب دافعه تأصل الروح القبلية التي قد يؤدي تجاهلها الى تأثر اقاربهم المؤمنين ، مما قد يحدث ارتباكا واضراراً بانتشار الاسلام ؛ لذلك ترك لهؤلاء المشركين الخيار في الانضمام الى الاسلام ، ووضع عليهم مسؤولية التقاطع . اننا لا نعلم عدد من بقي على الشرك في المدينة في هذه المرحلة المبكرة ، ولا مدى تطبيقهم لاحكام الوثيقة ، اي الى اي حد حافظوا على علاقات التعاون مع المسلمين .

اهتمت الوثيقة بأمر العدالة وتنظيم القضاء وادارته ، وخصصت له عدداً غير قليل من الاحكام ، ويمكن القول بان العدالة وتنظيم القضاء كانا من الغايات الرئيسية التي استهدفتها الوثيقة ، ولا بد أن هذا التأكيد راجع الى ادراك الرسول اهمية العدالة والقضاء لكل مجتمع سليم ، وان فقدانهما كان من اهم العيوب في المجتمع المكي والمجتمع المدني ومن اعظم اسباب القلق والاضطراب .

لقد ركزت السلطة القضائية بيد الرسول ، فهو الذي يحكم في الخلافات التي تهدد الأمن وتسبب الاضطراب سواء كان ذلك بين المسلمين فقط (٢٣) أو مع اليهود ، فقد نص في الصحيفة « وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ،

فان مرده الى الله والى محمد رسول الله » (٤٢) فقد اوجد في هـــذه المادة سلطة قضائية مركزية يرجع اليها الجميع، وهي مسألة خطيرة لها تأثير في خلق الاستقرار والنظام وان هذه السلطة من الله، فهي مصطبغة بصبغة قدسية ، كما ان لها قوة تنفيذية ، لأن اوامر الله تعالى واجبة الطاعة ولازمة التنفيذ ، كما ان اوامر الرسول من الله وطاعتها واجبة ، فان اطاعة اوامر الرسول هي اطاعة لأوامر الله ، وقدنصت على ذلك عدة آيات كما ذكرنا من قبل .

لم تقتصر السلطة القضائية على المسلمين فحسب بل شملت المشركين من قريش واهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم « (١) والراجح انه كان يقصد بـ « من تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم » الافراد والعشائر التي لم تعتنق الدين الاسلامي من اهل المدينة وبذلك ادخلهم ضمن هذه الاحكام الاساسية ، ولم يجبرهم على اعتناق الاسلام . ولعل الرسول اخذهم بالحسنى ولم يعمل على اقصائهم والتشديد عليهم ، وابقاهم ضمن قبائلهم دون اجبارهم على الانضمام الى الاسلام تحاشياً من تفكيك العشائر والقبائل وتعريض هؤلاء الذين لم ينضموا الى الاسلام الى الاخطار الكبيرة فيما اذا انفصلوا عن عشائرهم وتجردوا من حمايتها ، ولا بد ان هؤلاء الذين لم يعتنقوا الاسلام ادركوا انه لا بد لهم من الرضوخ لتحكيم الرسول ، خاصة بعد أن اسلمت معظم عشائرهم ورؤسائهم ، فأضطروا ان يبقوا مع عشائرهم ، ولا بد ان هذا البقاء سيؤثر عليهم على مر الايام ويجعلهم يتفهموا الاسلام ثم ينضموا اليه .

لقد ذكرنا أن من ابرز مظاهر وحدة المدينة هو امر الامن العام والنظام القضائي الذي اكدت عليه الوثيقة وجعلته مركزيا بيد الرسول « وان ما كان بين اهل هـــذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله ورسول الله » (٤٢)، ولا ريب ان وضع هذه المادة بهذا الشكل العام معناه ان احكامها لا تقتصر على المؤمنين فحسب بل تمتد حتى الى اليهود ايضاً . ولا ريب ان رجوع اليهود في التحكيم الى النبي معناه اعترافهم

بسلطة واسعة للنبي الامر الذي يضعهم بمكانة ثانوية وان يكون الرســـول هو مرجعهم وحا كمهم في الخلافات المتعلقة بالامن العام ، وهذا يدل على ان هذه الوثيقة جاءت بعد ان حقق الرسول انتصاره العظيم في بدر الأمر الذي قوى شوكة المسلمـــين والقى الرعب في قلوب خصومه ، هذا بالاضافة الى الانقسامات والمخاصمات التي كانت بين اليهود في المدينة .

كانت قضايا الامن العام ، وامور السلم والحرب بيد الرسول ، اما الخـلافات الشخصية وما يتعلق بما نسميه القانون المدني من زواج وطـلاق وميراث ، فلم يكن اليهود ملزمـين بعرضها على الرسول ، كما ان للرسول ، اذا عرض عليه اليهود خلافاتهم عليه ان ينظر فيها او لا ينظر « فاذا جاؤوك فاحكم بينهم او أعرض » ، ولا ريب انه كان يحكم بموجب التقاليد والاعراف الاسلامية .

ان أمر الحرب والسلم وما يتصل بهما من ابرز ما اهتمت به الوثيقة وخصصت له عدة نصوص ،ولا ريب ان الاهتمام به امر طبيعي في تلك الظروف التي كان فيها الاسلام مقتصراً على المدينة وكان محاطاً بالخصوم والاعداء الذين يريدون ازالته ويعتمدون في ذلك على القتال حيث كانت حالة الحرب سائدة في الجزيرة ، ولم يكن من الممـكن اسكات اعـداء الاسلام الا بالقتال .

ان احوال الحرب والسلم تتجلى فيها وحدة المدينة كلها والمساهمين في الوثيقة لا مـن المؤمنين والمسلمين من اهل قريش ويثرب فحسب بل ايضاً « من تبعهم فلحق بهم » «فسلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله على سواء وعدل بينهم » (١٧) فلا يمكن أن يشترك بعض اهل المدينة في الحرب ، ويبقى بعضهم في حالة سلم مع العـــدو ، والمسلمون يتعاونون جميعاً ويشتركون جميعاً في دماء من يقتل منهم في سبيل الله « وانـ المؤمنين يبني بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله »(١٩) .

لا تقتصر احكام الحرب والسلم على المسلمين ومن تبعهم فحسب ، بل تمتـــد الى اليهود ايضاً ، والواقع أن الوثيقة نصت على ضمان الحرية الدينيـة لليهود « لليهود دينهم وللمسلمين

دينهم ، مواليهم وانفسهم الا من ظلم او اثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته »(٢٥)
وقد نص ايضاً على أن من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم (١٦) اما الباقون فقد نص على وجوب مناصرتهم المسلمين في صد الهجمات الموجهة الى المدينة « وان بينهم النصر على دهم يثرب »(٤٤) اي انه حتم عليهم الاشتراك في الحروب الدفاعية عن المدينة . وفي الوثيقة مادة تنص على « ان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الأثم » (٣٧) وواضح منها ان على اليهود الوقوف بجانب المسلمين ضد من يحارب المسلمين ، وان عليهم مساندتهم وتأييدهم وعدم خيانتهم ، ولكن الراجح انه لم يطلب منهم ان يقاتلوا مع المسلمين ، بل ان يقفوا موقف الحياد المشرب بروح التأييد للمسلمين ، والواقع انه ليس هناك اشارة او دليل على قتالهم مع المسلمين ، وان لوم الرسول بني قريظة في غزوة الخندق يرجع الى انضمامهم الى قريش . وفي الوثيقة مادة صريحة تجيز لليهود عدم الاشتراك في الحروب الدينية الاسلامية .
« واذا دعـــوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين الا من حارب في الدين » (٤٥) وقد وضعت هذه المادة تالية للمواد المتعلقة بالدفاع عن المدينة ، لذلك يمكن اعتبارها مكملة لها ومرتبطة بها ، وان الصلح الذي تشير اليه هذه المادة يتعلق بالاخطار التي تهدد المدينة .

وفي الوثيقة مادة تنص على انه « لا يخرج منهم احد الا باذن محمد » (٣٦)، ويظهر أن المقصود بها عدم السماح لليهود باشهار حرب الا بأذن الرسول ، ولهذا تأثير كبير في عدم السماح لهم بمحالفة قريش ، والواقع ان مادة اخرى فى الوثيقة ذهبت الى ابعد من ذلك فقررت انه « لا تجار قريش ولا من نصرها . » (٤٣)

وقد نظمت الوثيقة الالتزامات المالية الناجمة من الحروب التي قد يشترك فيها الفريقان فقد نصت على « ان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»(٤٢) وان على اليهود

نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم » (٣٧) اي انه اذا حدثت حرب وشارك فيها اليهود ، فانهم يقومون بدفع ما يحتاجونه من نفقات .

نصت الوثيقة على « ان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة (٣٩) ومعنى هذا منع الحروب والقتال بين القبائل والعشائر وتثبيت السلم في المدينة ،فوضع حداً لاقوى عامل في خلق القلق والاضطراب وما يجره من امور ، ولا ريب ان استعمال كلمة حرام قصد منه اعطاء السلم طابعاً دينياً ، فيكون اثره اقوى ، كما ان هذه المادة تعطينا فكرة عن كيفية ظهور بعض الحرم في الجزيرة ، وقد استلزم ذلك تحديد حرم المدينة ، فتقررت حدوده ببعض العوارض البارزة في اطراف المدينة ، وهي لا تتجاوز بضعة اميال ، يسود السلم بين من يقيم داخلها فحسب ، ولا ريب ان المسلمين كانوا آنذاك منحصرين في هذه المنطقة ، اما من كان خارجها فلم يكونوا قد اعتنقوا الاسلام حتى ذلك الوقت فيما يظهر .

ان امة الاسلام يرتبط اعضاؤها برابطة العقيده ويشتركون بحقوق وواجبات تعبر عن وحدتهم وتقوى من تماسكهم ، ولكنها ليست جماعية طاغية Totaliterian بل تهدف تنسيق حرية الفرد مع مصلحة الجماعة ، وان وجود الامة لا يعني القضاء على كيان الفرد ومكانته ، فالمسؤولية المدنية والاخلاقية والدينية فردية « كل نفس بما كسبت رهينة » « ولا تزر وازرة وزر اخرى » ويوم القيامة « لا يسأل والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئا » «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»

وقد اباح الاسلام للفرد حرية العمل ومزاولة المهنة التي يرتأيها ، والتنقل حيث شاء كل ذلك ضمن نطاق الامة ، اذ لا يجوز له القيام باعمال تضر بمصلحة الجماعة ، كما انه ليست للامة ان تقيد حرية الفرد ما لم تضر بمصلحة المجموع .

وقد نصت الوثيقة انه « لا يكسب كاسب الا على نفسه» (٤٦)و« انه لا يأثم امرؤ بحليفه» (٣٧ب)ثم ان الوثيقة اكدت على اهمية المبادىء الاخلاقية في العلاقات الاجتماعية فقد نصت على « ان الله جار لمن بر واتقى»(٤٧) اى ان الله تعالى يحمى من يبر ويتقي ويتخلق بالاخلاق

الفاضلة ، كما ان الوثيقة اكدت على البر دون الاثم :

وقد اشرنا من قبل الى تأكيد الوثيقة على وجوب عدم حماية المفسدين والمعتـــدين والمجرمين ووجوب تعـاون « المؤمنين المتقـين على من بغى منهم او ابتغى منهم او ابتغى دسيعة ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وان ايديهم عليه جميعاً ولو كان ولد احدهم ، وان المؤمنين كافة على من يقترف القتل ، ولا يحل لمؤمن ان ينصر محدثا ولا يأويه وانه من نصره او آواه ، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيـامة ، ولا يؤخـذ منه صرف ولا عدل .

يتبين مما ذكرنا ان ادارة الرسول في المدينه كانت تهدف تـكوين امة مترابطة بينهـا ، فللافراد فيها حرية العمل والتنظيم ، وللسلطة المركزية حق الاهتمام بالعدالة والامن العام والقضاء وامور الحرب والسلم ، على ان تـكون التقوى والاخلاق الفاضلة الاسلامية اساس اعمالهم وتصرفاتهم .

صالح احمد العلي

كتابة (ص) بين المهاجرين والانصار واليهود

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — هـــذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش [واهل] يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢ — انهم امة واحدة من دون الناس .

٣ — المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ — وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفـــدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ — وبنو الحارث [بن الخزرج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٦ — وبنو ساعـــدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧ — وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفـــدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨ — وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفـــدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩ — وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلرن معاقلهم الاولى وكل طائفة تفـــدي

عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠ — وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفـــدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١ — وبنو الاوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفــدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢ — وان المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم ان يعطوه بالمعروف من فداء او عقل .

(١٢ب) وان لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ — وان المؤمنين المتقين [ايديهم] على [كل] من بغى منهم او ابتغى دسيعة ظلم او اثماً او عـــدواناً او فساداً بين المؤمنين ، وان ايديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد احدهم .

١٤ — ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

١٥ — وان ذمة الله واحـــدة يجير عليهم ادناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

١٦ — وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم

١٧ — وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الاعلى سواء وعدل بينهم .

١٨ — وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

١٩ — وان المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

٢٠ — وان المؤمنين المتقين على احسن هدى وأقومه .

٢١ ب وانه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .

(٢١) وانه من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به ، إلا ان يرضى ولي المقتول (بالعقل) وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

(٢٢) وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الاخر ان ينصر محدثاً او يؤويه ، وان من نصره ، أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

(٢٣) وانه مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده الى الله والى محمد .

(٢٤) وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٢٥) وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم نفسه وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

(٢٦) وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٧) وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٨) وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٩) وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

(٣٠) وان ليهود بني الاوس مثل ما ليهود بني عوف .

(٣١) وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه واهل بيته .

(٣٢) وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

(٣٣) وان لبني الشطيبه مثل ما ليهود بني عوف ، وان البر دون الاثم .

(٣٤) وان موالي ثعلبة كأنفسهم .

(٣٥) وان بطانة يهود كأنفسهم .

(٣٦) وانه لا يخرج منهم أحد ألا بأذن محمد .

(٣٧ب) وانه لا ينحجز على ثأر جرحٍ ، وانه من فتك فبنفسه واهل بيته إلا من ظلم ، وان الله على أبرِّ هذا .

(٣٧) وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من

حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

(٣٧ب) وانه لا يأثم امرءٌ بحليفه ، وان النصر للمظلوم .

(٣٨) وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٣٩) وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة .

(٤٠) وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

(٤١) وانه لا تجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها .

(٤٢) وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث ، او أشتجار يخاف فساده ، فإن مرده الى الله والى محمد رسول الله (ﷺ) وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

(٤٣) وانه لا تجار قريش ولا من نصرها .

(٤٤) وان بينهم النصر من دهم يثرب .

(٤٥) واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

(٤٥ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

(٤٦) وان يهود الاوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الاثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

(٤٧) وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم او آثم ، وانه من خرج آمن ومن قصد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وان الله جارٌ لمن برّ واتقى ، ومحمد رسول الله (ﷺ) .

مفردات اللغة العربية
منابع دراستها وتطورها

الدكتور أحمد صالح العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الحادي والأربعون - الجزء الأول
1410هـ - 1990م

مُفردات اللغة العربية
منابع دراستها وتطورها

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

مفردات اللغة العربية والحضارة :

اللغة اداة التعبير عن المحسوسات والافكار التي يدركها المجتمع وافراده، ويتطلب انتشارها ان تكون مفهومة عند المتكلم بها والسامع لها ، ونطاقها يمتد الى حدود المعرفة عندهما، ويختلف مدى هذا الامتداد تبعا لسعة الثقافة والادراك، وهو اغنى عند واسعي الادراك • وللافراد مكانة متميزة في تقرير مدى سعة المفردات والتراكيب المستعملة ، والحس المرهف والفكر العميق يقدمان مادة للغة ، وهما يتطلبان مفردات تعبر عن المحسوسات والافكار •

وتسود في كل مجتمع مفردات عامة يدركها سواد المجتمع ، غير انه بجانب هذه اللغة العامة توجد عادة مفردات محصورة بأفراد، يفهمها ويستعملها عدد قليل من الناس ، منوعة في اللفظ او في اسباغ معنى جديد على الكلمات العامة، أو بابداع تسميات خاصة ، وهي تختلف في مدى شيوعها بين الناس ، ولكنها من حيث العموم أقل انتشارا بين عامة الناس،وانما يكثر استعمالها في اوساط المثقفين •

وللاحوال المادية والثقافية دور كبير في تقرير مدى سعة اللغة وماهيتها ، فالبيئة البسيطة التي لاتحتوي الا مظاهر حضارية محدودة تقتصر حاجتها على القليل من المفردات للتعبير عن تلك المظاهر ، غير ان توسع

مظاهر الحضارة وتعدد جوانبها ورقي المستوى الفكري العام عند الجميـع أو الخاص في أفراد محدودين يرافقـه عـادة توسع في المفردات المستعملة •

ويمتد التنوع الى طريقة اللفظ والاصوات من حيث التفخيم والترقيق والحركات التي لها أهمية كبيرة في اللغة العربية من حيث اثرها في تقرير معاني الكلمات وخاصة في أواخر الكلمات •

ذكرنا ان اللغة الفاظ صوتية يعبر بها عن الملموســات والمحسوســات والمدركات وعن الافكار والاراء والاعمال العقلية وأساليبها ، ومع ان أساسها شخصي قائم على الفرد الذي يستعملها الا انها تتطلب انتشارا بين الناس ليتفقوا على معرفة دلالاتها ، ويعتمد هذا على مدى سعة الادراك الحسي والعقلي للمتكلم والمجتمع ، ومع ان للافذاذ من الافراد صفة التميز بنوع المـفردات وتعددها، الا انها من حيث العموم تعبر عن احوال المجتمع ومستواه وتوجهاته، ولن يكتب لها البقاء والخلود الا اذا كانت مفهومة عند الناس او اكثرهم •

وعند ظهور الاسلام كانت اللغة العربية الفصحى مثبتة ومستقرة في شبه وفي جزيرةالعرب واطرافها ، وتجلت هذه اللغة فيالقرآنالكريم والشعروفي عدد منالامثالوالأقوال التي وصلت الينا ، وفيالقرآن آيات تذكر بفخر انه نزل «بلسان عربي مبين» «قرآنا عربيا غير ذي عوج»، وتتضمن اصالة عروبته الالفاظ وقواعدالتركيب والاصوات•ويدلوصف القرآن الكريملغتهبالاستقامة والوضوح على ان هذه اللغة كانت عامة عندالعرب ، سائدة فيهم ، ومما يؤيد ذلك انها كانت لغة الشعر الذي نقل الينا عن تلك الحقبة وما قبلها ، ومن المؤكد انها كانت سائدة قبل ظهور الاسلام باكثر من قرن حيـث كان امرؤ القيس ينظم فيها ؛ ولابد انها كانت قائمة منذ أقدم من ذلك التاريخ ، اذ لايعقل ان تظهر وتعم فجأة ، غير ان قلة الوثائق المكتشفة المكتوبة بهذه اللغة لاتمكننـا من تحديد مدى قدمها الذي لابد ان يكون موغلا في القدم ، وليس كمـا

يدعي البعض انه احدث من اللغات المقاربة له مما توفرت عنها وثائق تعين على تحديد زمن انتشارها •

ان عمومية اللغة الفصحى بمفرداتها الاساسية وتلفظها وقواعدها لم يمنع قيام لهجات متعددة تتميز بتخصص في استعمال الفاظ او طريقة نطقها او اتباع طرق خاصة في القواعد كصيغ الجموع والتأنيث والتذكير والاضداد وأمثال ذلك مما فصلت فيه كتب النحو والصرف واشارت الى تنوعه ، ولكنها أشارت الى ان ذلك التنوع يرجع الى ان كل صيغة من هذه الصيغ المنوعة مردّه الى استعمالات محلية مستقرة •

اشارت الدراسات القديمة والحديثة في اللهجات الى عدد من الاختلافات المحلية في التلفظ ومكان انتشار كل منها ، أي العشائر التي استعملت كلا منها وأشارت كتب القراءات الى امتداد هذا التنوع في قراءة القرآن • وما ذكروه مهم ولكن يصعب القول بانه مستوعب •

العربية في العهود القديمة :

اكتشفت في الأطراف الشمالية من الجزيرة وفي اليمن نقوش فيها مفردات تخالف في صيغ لفظها وبعض قواعدها العربية الفصحى المعروفة ، وكافة هذه المكتشفات هي نقوش على الحجر ، واكثرها مكون من عبارات او اسطر قليلة مما كتبه الامراء والملوك او من شواهد القبور وتخليد الهدايا للمعابد ، ونقشها يدل على انها كانت مستعملة في زمن كتابتها ، ولكن لم تجر دراسة عن مدى انتشار استعمال كل منها ، فهل كانت لغة «رسمية» مقصورة على بلاط الامراء ورجال الدين ، أم انها كانت عامة عند «الشعب» • وتقدم الاحوال اللغوية في اليمن اجابة عن بعض هذه التساؤلات ، فقد اكتشفت فيه نقوش كثيرة مكتوبة بخط المسند وبلغة فيها كثير من الاختلافات في مفرداتها وقواعدها عن اللغة العربية الفصحى ، وبعض هذه النقوش كنقش أبرهة يرجع الى زمن

قريب جدا من ظهور الاسلام ، غير ان الصورة العامة لتطور الحضارة العربية يظهر ان أهل اليمن كانوا عند ظهور الاسلام يستعملون اللغة العربية الفصحى التي نزل فيها القرآن ونظم فيها الشعر ، اذ مع كثرة اليمانيين الذين استقروا بعد الفتوح في الكوفة والشام والفسطاط خاصة ، وولي عدد منهم مناصب ادارية وقيادات عسكرية وكان فيهم اكثر القضاة ، فانه لاتوجد اشـارة الى اختلاف لغتهم عن لغة القرآن الفصحى ، وكل هذا يدل على ان العربية كمـا تتجلى في القرآن كانت سائدة عند ظهور الاسلام وقبله في اليمن، وان لغـة النقوش كانت ضيقة الانتشار ، حتى ان الهمداني أشار الى وجودها في مناطق محدودة من جنوب شرقي اليمن ، ووصف أهلها ان « كلامهم غتم » ، وأشار في الاكليل الى قلة من كان يعرف قراءة المسند ، وكل هذا يظهر ان لغةالنقوش كانت « لغة رسمية » محصورة في بعض الاوساط الحاكمة ، ولم تكن عـامة عند الناس •

مفردات القرآن الكريم :

ان القرآن الكريم هو أول معتمد واسع وصلنا عن لغة العرب ، ومـع انه منزل لفظا ومعنى بالوحي من الله تعالى ، الا انه نزل باللغة التي يفهمها القوم الذين نزل فيهم ، «وما ارسلنا من رسول الا بلســان قومـه ليبـين لهم » (ابراهيم ٤) « لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبـين » (النحل ١٠٣) « فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » (مريم٩٧) «فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» (الدخان٥٨)، ولاريب في ان الاسلام يدعو الى العمل والتفكير والتعرف ، وكان عماد الدعوة الاسلامية في القرآن الكريم قائماً على الفكر ، يدعو اليه في مخاطبة الناس ، ويستحثهم في استجابـاتهم ، فاكثر مفرداته تعبر عن أحوال الحياة الفكرية وتوجهاتهـا والنفس الانسانية وتطوراتها ، ففيه كثير من الآيات والتعابير عن الذات الالهية

وصفاتها وأعمالها، وعن إعمال الفكر والعقل، وأساليب المعرفةمن وحي والهام، وبصر، ونظر، وتعقل، وتفكر، وادراك ، وجدل، وفيه عن الروح والنفس وخلجاتها ووساوسها وظنونها وشكوكها ويقينها، ويتكرر ذكرالتعابير المتعلقة بهذه الأمور بصورة تظهر ان مفاهيمها كانت واضحة في اذهانهم مألوفة عندهم، وهي تعبر عن ثقافة فكرية عالية المستوى ، يعززها تقدير كبير للفكر والمعرفة يتجلى في تردد كلمة الحكمة ومشتقاتها (٩١١ مرة) كثير منها صفة لله تعالى فهو العزيز الحكيم (٤٦) والعليم الحكيم (٣٧) والخبير الحكيم (٤) وذكر القرآن الحكمة وأشار الى مكانتها المرموقة « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا » (البقرة ٢٦٩) •

وترددت بكثرة كلمة «العلم» ومشتقاتها في القرآن ، فذكر الفعل «علم» في ٤٢٧ آية منها ١٣٨ آية «علم الله» وذكر في وصفه تعالى «عليم» في ١٥٧ آية و «اعلم» في ٤٨ آية ، «عالم الغيب» في ثلاث عشرة آية « علاّم » في أربع آيات •

وأقر للعلم مرتبة عالية توازي الايمان « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » (المجادلة ١١) •

وفي القرآن الكريم عدد كبير من المفردات التي تعبر عن أحوال المجتمعات ونظمها وتطورها ، وكثير من هذه المفردات تكرر ذكرها فيه وهي في كل مكان تعبر عن زمن خاص يختلف عن معناه في مكان آخر ، ومن أوضح الامثلة على ذلك كلمة «الامة» التي يدل سياق نزولها على تعدد معانيها ، وقد الفت في ذلك كتب متعددة اكثرها بعنوان «الوجوه والنظائر» كما ان بعض الكلمات وردت بمعنى خاص يختلف عما صار مفهومه فيما بعد، فكلمة «شهيد» ذكرت بصيغة المفرد في خمسة وثلاثين موضعا بمعنى شاهد ، وذكرت مرة بصيغة الجمع بمعنى غير محدد المعالم «والشهداء والصديقين» ، ولم تذكر صفة لمن يقتل في سبيل الله ، الذي ورد ذكره في عدة آيات ، كلما

بأن تعبير «الشهيد» خص في الأزمنة التالية بمعنى «الذي يقتل في سبيل الله»؛ وكلمة «سلطان» ذكرت في أربعين موضعا اكثرها بمعنى « برهان » وقليل جدا منها بمعنى «صاحب السلطة» وهو المعنى الذي ساد فيما بعد من الكتب وخاصة كتب التاريخ والفقه .

وبعض الكلمات يتكرر ذكر كل منها بمعنى واحد ، الا في مكان واحد يكون لها فيه معنى مخالف للمعنى المكرر مثل كلمة اسف ، وروح ، وبحسب، وبعد ، وجثيا ، وحسبان [(١)] .

ثم ان عددا غير قليل من الكلمات القرآنية لم يكن معناها مألوفا في القرن الثاني الهجري ، فاعتبرت « غريبة » والفت كتب كثيرة في « غريب القرآن» رصدت هذه الكلمات ، وأوضحت معناها ، والراجح ان معناها كان معروفا في اوساط المسلمين ابان نزولها ولم تكن سائدة الاستعمال في الجزيرة، ولمعانيها مفردات اخرى ، فقل استعمالها وجهل عند العـموم معناها ، فألف المختصون كتب « غريب القرآن »لتوضيح معناها باستعمال المفـردات السـائدة في زمنهم [(٢)] .

ذكرنا ان القرآن الكريم عربي بمفرداته وتلفظه وقواعده ، وانه نــزل « بلسان عربي مبين » « قرآنا عربيا غير ذي عوج » وان مفرداته تعبر عن اشياء مادية محسوسة ، وعن نظم مطبقة ، وافكار قد لم تكن مقبولة عن المشركين ، ولكنها معروفة عندهم ، وبعضها ذات معان دقيقة يتطلب فهمهمـا الصحيـح مستوى فكريا خاصا ، وهذا من مصادر اعجاز القرآن .

كان فهم معاني مفردات القرآن الكريم الموضوع الرئيسي الذي عنى به علماء القرآن الاولون ، وقد اسهم فيه العلماء المتبحرون فـي اللغة والفكر ،

(١) الافراد في القرآن ٣٣٠ .

(٢) انظر قائمة فيها من كتاب « معجم المعاجم » لاحمد الشرقاوي اقبال .
وانظر ايضا « معجم مصنفات القرآن الكريم » للدكتور علي شواح اسحاق .

وكان من ابرز ميادين الحركة الفكرية وخاصة في صدر الاسلام ، كما كان من اهم الميادين التي عنى بها العلماء في الحجاز اولا ثم امتد الى البلاد الاخرى ، فلما بدأ تأليف الكتب دون عـدد من العلماء كتبا خاصة في توضيـح معاني مفردات القرآن وآياته ، كانت العماد الاول لمادة كتب التفسير .

وكان القرآن الكريم الموضوع الاساس الذي تدارسه العرب ، فكانت آياته تقرأ في الصلوات ، وأفكاره تدرس ، ومفرداته تتداول ، وبسبب اعتماد العرب فـي قراءته على السماع دون التدوين فقـد ظهرت في تلفظ كلماته ، واحيانا في تثبيتها بعض الاختلافات ، وكانت منذ زمن مبكر مثار جدل كاد ان يصبح مهددا ، فتداركه الخليفة عثمان بن عفان وثبت له نصا واحدا في المفردات والتلفظ والتنظيم ، وساد مصحف عثمان ، ولكن ذلك لم يمنع اصرار البعض على قراءات خاصة مخالفة للعموم ، تمسك بهـا علماء متعمقـون وتـابعهم تلامذتهم ، فكانت موضوعا عنى البعض في دراسته ، فألفوا كتبا كثيرة في « قراءات القرآن »[٣] يتبين من دراستها ان الاختلافات ظلت محدودة في طريقة تلفظ حروف العلة وعدد محدود من الكلمات .

ولما كان القرآن الكريم يهتم بالدرجة الاولى بالعقائد واساليب المعرفة الفكرية والنظم السياسية والاجتماعية المنوعة التي قامت عند شعوب متعددة وبعضها قديمة ، وكثير من هذه الامور لم تكن مألوفـة في عدد مـن ارجاء الجزيرة ، فقد تمت دراسات لشرح مدلول مفرداتها ومعانيها ، وكان لاهل الحجاز القدح المعلى ، وبرز فيهم مختصون كونوا العدد الاكبر من المفسرين الاولين ، وعرضوا في ذلك خبراتهم ومعرفتهم القائمة على تتبعاتهم وعلـى ماسمعوه مباشرة او بالواسطة من الرسول (ص) .

---

(٣) بالاضافة الى المصدرين السابقين ، انظر جردا لهـا في كتـاب « معجم القراءات القرآنية » لعبد العال سالم مكرم واحمد مختار عمر .

المفردات العامة عند العرب :

ان المصدر الرئيسي الثاني لمعرفتنا اللغة العربية هي الروايات والمدونات التي سجلها العلماء ، وخاصة في العراق منذ القرن الثاني، وعنوا بصورة خاصة بما كان متداولا عند العشائر البدوية في المناطق الصحراوية ، ومن المعلوم ان الجيوش الاسلامية التي قهرت الفرس والروم ووسعت الدولة ومدتهـا في بلاد الشرق الاوسط ، كان قوامها العرب من كافة ارجاء الجزيرة العربيـة ومناطقها ، ومن مختلف العشائر ، وقد استقروا في الامصار الرئيسة التي كان في كل منها عشائر منوعة من مختلف منـاطق الجزيرة ، ففي البصرة كـان المقاتلة من ازد عمان ، وعبد القيس وحنيفـة مـن البحرين وعشـائر بـكر واطراف العراق الجنوبية ، وتميم من هضبة نجد ، كما كان فيها عدد من عـدة عشائر من الحجاز .

واستوطن في الكوفة عشائر متعددة من اليمن (خثعـم ، وهمـدان ، وحمير ، وكندة، وحضرموت) ومن عشائر الحجاز ونجد عامر بن صعصعـة وفزارة وأسد ، وطي ، وتميم .

وفي بلاد الشام عشائر متعددة من الحجاز ، واليمن ، وبادية الشـام (لخم وجذام وكلب) .

ومثل هذه العشائر استوطن رجالها في الفسطاط ايضا .

وكانت العربية لغة هذه العشائر كافـة ، ولابد ان كل عشيرة احتفظت بلهجاتها الخاصة التي تتجلى في نطق حروف العلة والصامتة وفي اختلاف بعض الكلمات الدالة على الشيء الواحد ، ولم تسجل اخبار عن تباين واسع وعميق في هذه اللهجات ، وكانت الفصحى عامة الاستعمال يعززها القرآن الكريم والشعر الذى ظل ينظم بها .

تابع العرب بعد استقرارهم في الامصار الاهتمام بالاداب والشعر وظلوا يتناقلون الاخبار ويروون الشعر ، وظهر فيهم شعراء حرصوا على متـابعة

التقاليد القديمة في أوزان الشعر وقوافيه ، وادخلوا صورا جديدة وعبروا عن عواطف جديدة ، وكانت مفرداتهم عربية لاتختلف عن التراث الصحراوى في ذلك ، وتظهر كثرة ماروى منه مدى متابعة التراث ، وان كان قد ازداد فيه التأكيد على مفردات وصور معينة ، واهمال استعمال بعض ماكان قديما •

وتابع العرب اهتمامهم بتناقل الاخبار ورواية « الكلم الطيب » من الحوادث والاقوال المأثورة والامثال ، وحرصوا على نقل بعضها بالنص ، أي الحفاظ على مفرداتها القديمة •

ذكرنا ان عرب الامصار جاؤوا من مختلف ارجاء الجزيرة العربية وكان اكثرهم من عشائر البادية ، غير ان فيهم عدداً من اهل الريف والمدن ، وأدى استقرارهم وتمازجهم الى ازدهار حضاري زاد من قوته استقرار الحياة المدنية وتطور الحياة الاجتماعية ونشاط الحياة الاقتصادية ، وتزايد الاعاجم في هذه الامصار وادخالهم مفردات اعجمية جديدة ، وتطويرهم الفاظ بعض الكلمات ، وادخال مفاهيم جديدة للالفاظ العربية ، واهمالهم استعمال عدد من الكلمات العربية ، وأدى كل هذا الى تطوير في اللغة العربية المستعملة في الامصار كان من أبرز ميزاتها زيادة استعمال التعابير المتعلقة بالحيادة المدنية الجديدة وشيوع معان جديدة لبعض الكلمات ، واهمال استعمال كثير من الكلمات وخاصة مما كان استعماله مقصورا على بعض العشائر او المجتمعات •

وقد ظهر بعض ذلك في معاني بعض مفردات القران الكريم وهو الكتاب المنزل الذي ثبتت الفاظه باعتراف العموم بدقة وامانة ، وقد عم استعمال كثير من مفرداته واستقرت لها مفاهيم محددة بعد كان لبعضها مفاهيم متعددة، كما صارت لبعض مفرداته مفاهيم جديدة تختلف عن مفهومها القديم ، ونسيت المفاهيم الاصلية لبعض المفردات، وتطلب معرفتها اختصاص العلماء ، وكانت

هذه مواضيع دراســات سجلت بعضها كتب بعناوين تدل على محتواهــا ، وهي «معاني القرآن» و «الاشباه والنظائر» و «غريب القرآن» .

رافق هذه التطورات اهتمام بمفردات اللغة العربية ودراستها ، وتثبيت الصحيح في تلفظ اصواتهــا وتصريفها ، واكثر من عنى بذلك رجــال من أهل الكوفة والبصرة ، ولابد انهم افادوا مما كان سائدا او معروفا في كل من هذين المصرين ، غير انه اقتصارهم عليهما لم يكن كافيــا ، لان المفــردات العامة فيهما اصبحت محدودة لها معان خاصة وتلفظ خاص ، وفيها عدد مــن الكلمات الاعجمية ، او اتخذت معاني العجمة ، فهي غير شــاملة او دقيقــة او خالصة ، فتوجهوا الى منابع اخرى يستقون منها الاحاطة بمفردات العربية وتدوينها .

لغة اهل الوبر :

وكان المنبع الاول والاقرب هم الاعراب الذين يفدون الى هذه الامصار ويقيمون فيها امدا قصيرا من اجل الزيارة او جلب منتوجات الصحراء لبيعها، او لشراء بعض المواد ، وهؤلاء الاعراب الوافدون متفرقون من عشائر متعددة يقدمون في اوقات مختلفة ، خاصة في الربيع والخريف ، واجمع امــكنتهم الكناسة في الكوفة والمربد في البصرة ، وهما في طرف الصحراء وفي غربي هاتين المدينتين ، وكثير منهم بدو ثقــافتهم محدودة ، ولكن منهم ذوي علم اصيل في مجتمعهم ، فهم غير متأثرين بمــا حدث في الامصــار من تطورات حضارية ولغوية ، وبعض هؤلاء الوافدين شعراء او رواة للشعر .

كان هؤلاء الاعراب الوافدون مصدراً ثراً للغة العربية في الجزيرة ، وجعلوا من الكناسة والمربد مركزا لحركة فكرية نشطة لم تقتصرعلى الوافدين ومن يتصل بهم ، وانما ايضا على المعنيين بالشعر و « الكلم الطيب » وبذلك زادت من الاهتمام بمفردات اللغة وساعدت على انماء جوانب اخرى مــن «علوم اللغة» كالنحو والصرف والاشتقاقات ، وكان البدو يعتبرون حجــة

لا يرقى اليها الشك في جميع مسائل اللغة ، وقد ذكر ابن النديم اسماء عدد منهم [٤] .

وقد ظل الاعراب مصدرا معتمدا في اللغة حتى القرن الرابع الهجري ، فكان ابو النجم يحرص على الاتصال بهم[٥] واليهم رحل الازهري (ت٣٧٠).

غير ان عدد الاعراب الوافدين على الامصار كان قليلا، وقدومهم موقت وغير منتظم، وكثير منهم غير مستوعب للمفردات اللغوية ، وخبراتهم وآفاقهم الثقافية محدودة وقد تكون معرفتهم محصورة بما يسود في عشيرتهم او بما يعرفونه منها ، فهي ضيقة خاصة يتطلب تقرير كونها مصدراً معتمداً لمعرفة اللغة الصحيحة تدقيقاً ومقارنة واسعتين ، وقد أدرك عدد من العلماء المعنيين ان المعلومات التي يقدمها الاعراب الوافدين غير كافية فقاموا برحلات الى أرجاء من الجزيرة لاخذ اللغة من أهلها في مواطنهم .

كانت اكثر رحلات «العلماء» الى العشائر التي تسكن هضبة نجد بين العراق والحجاز، وهي تشمل عشائر تميم وأسد وطي وفزارة وعامر بن صعصعة، ويبدو ان بعضهم زار لهذا الغرض الحجاز ايضا ، واغلب هذه الرحلات «علمية» خالصة ، غرضها تقصّي مفردات اللغة بصيغها وطريقة تلفظها ومعانيها، ويجيء في ذلك عرضا استقصاء الاشعار وأسماء الاماكن وبعض انماط الحياة، وكانت اكثر عنايتهم بجمع «المتفرد» من الالفاظ المجهولة أو غير مشهورة ولا متداولة في الامصار، وقد سجل فيها تراث الصحراء ، فهي غنية في مايتعلق بالصحراء من حيوان ونبات وتربة وأنواء وعواطف انسانية فضلا عن قواعدها

---

(٤) انظر الفهرست لابن النديم ٦١ .
وانظر تفاصيل أوفى في كتاب « الاعراب الرواة » للدكتور عبدالرحمن الشلقاني وانظر : البيان والتبيين (٩٢) . وانظر ايضا «تاريخ الاداب العربية» لمصطفى صادق الرافعي .

(٥) الفهرست ٣٥٥ : معجم الادباء ٦٥/٢ ــ وانظر « العربية » ليوهان فوك : ١٢١ .

المستقرة التي تبرز انماطها وخصائصها في المرونة وقابلية الاشتقاق .

كانت حصيلة هذه الرحلات ثروة غنية وافرة من المفردات أضيفت الى معارف العلماء مما استقوه من أمصارهم والوافدين عليها ، ونشروهـا في أحاديثهم ومجالسهم ، ودونوا كثيرا منها في كتب بعضها عامة منوعة مثل الكتب التي عنوانها « النوادر » أو في كتب اختصت بموضوع واحد مثل « الابل » و « الخيل » و « النبات والشجر » [٦] .

ومادة هذه الكتب في جملتها مما هو موجود في الجزيرة ، وهي تظهـر تنوع احوال الجزيرة وغناها الفكري المعبر عنه بهذه المفردات ، وقد اغنـت هذه المفردات الثقافة العربية ووسعت ميدانها اللغوي ، وقدم انتشارها مـادة سليمة لمعربي الكتب الاغريقية ، وخاصة في ميدان علوم النبات والادويـة والحيوان والبيطرة[٧] ، كما قدمت « للكتّاب » من العاملين في الدواوين مادة غنية لضبط كلامهم وكتابتهم بالعربية . وافادت الكتّاب والشعراء باغنـاء معرفتهم اللغوية التي سـاعدت على غنى مفرداتهم ودقتها وكانـت المعتمـد لرواة الشعر العبـاسي وشراحـه ونقـاده ، وكان لهـا الاثـر الاكبر في احتفـاظ الشـعر العربي بمـا يتميـز بـه من اوزان وقـواف واخيلة ، ولم تقض عليها حركات التجدد التالية من الشعر ، ولم تبطل ضرورة استيعاب الشعراء الاطـلاع على ما قيل عند شـعراء البدو . وبسبب اهميتها الواسعة والدائمة فقد كانت أساساً غنيا في الحركة الفكرية ، وكثر دارسـوها وتتابعت فيهـا مؤلفـات تبـاينت في سـعتها ومواضيعها ومدى دقتها ، واكثر هـذه المؤلفات معاجم استقى مؤلفوها مادتهم من الرواة الاول ورحلتهـم ، حيـث قلت الرحلات بعد القرن الثالث وتنـاقص قـدوم « الاعراب الوافديـن » والاعتماد عليهم .

(٦) انظر قائمة مستوعبة عنها في كتاب « معجم المعاجم » .

(٧) انظر كتابنا « تاريخ العلم عند العرب » .

والمادة التي جمعت من هذه الرحلات اصيلة ، ولكن يصعب الجزم بمدى قدمها وانتشارها حتى ابان جمعها ، فمن المحتمل ان مصدر بعضها فردي في محتواه او طريقة نطقه ، ولعل من هذا جاء اختلاف حركات لفظ كثير من الكلمات وتعدد معاني الكلمة الواحدة والاضداد . وكانت معلوماتها عماد المعاجم العربية الضخمة التي ألفت في العهود الاسلامية الزاهرة التي جمعت اكثر ما روى ورتبته على الحروف والمعاني دون الاشارة الى مدى انتشار استعمالها أو تطورها [٨] .

ولاريب في ان العرب الذين ظلوا مقيمين في الجزيرة ولم يهاجروا الى الامصار او يشاركوا في الفتوح كان تأثرهم ضئيلا بالمؤثرات الحضارية التي رافقت الفتوح والاستقرار ، ومن حيث العموم احتفظوا بتقاليدهم وثقافاتهم ومفرداتهم اللغوية ، فكانوا اقرب الى الاصالة والنقاوة من عرب الفتوح والامصار .

اعتمد الرواة الاولون والرحالون من جمع اللغة على مصادرهم من العشائر المحتفظة ببداوتها بين العراق والحجاز ، وهي خاصة تميم وأسد وطي وفزارة وعامر بن صعصعة وعدد من العشائر الحجازية ، وبهذا لم ينقلوا من العشائر العربية الكثيرة الاخرى مثل عشائر بكر بن وائل ، وتغلب ، ولخم ، وجذام ، وأهل البحرين وعمان واليمامة واليمن ومعظم عشائر جنوب شبه جزيرة العرب ، وبذلك لم تكن مستوعبة لكلام كافة العرب من أهل الجزيرة ، كما ان اكثر اهتمامهم كان بلغة البدو ، ولم يبدوا اهتماما بلغة الحواضر ، وقد ربطوا بموقفهم المنحاز للبداوة بين العروبة والبداوة ، مما اعلى مكانة البداوة ورفع من شأنها ، ولكنه كان مصدرا لاثارة الشكوك بصلة العرب الوثيقة في الحياة

(٨) انظر عن نشأة المعاجم كتاب (المعجم العربي) لحسين نصار ، والمقدمة التي كتبها رمضان عبد التواب في نشرته (الغريب المصنف) وانظر قوائم واسعة عنها في كتاب « معجم المعاجم » .

الحضرية، وقد وصلت الشكوك بكثير منهم الى حد تحاشي الاستشهاد باحاديث الرسول (ص) على أساس ان بعضاً منها مما صار مستعملا في ازمنة متأخرة في المدن ولم تحافظ على حرفية أقوال الرسول (ص) [٩] ولاريب في أن اقتران العروبة بالبداوة كان من الحجج التي استعان بها الشعوبيون على الطعـن بالعـرب ولا يرجع هذا الى التشكيك بسلامة نية اللغويين ، وانمـا يرجـع الى ان اندفاعهم في هذا باعدهم عن تصوير الحقيقة كاملة وأمد الشعوبيين بالحجج على العـرب .

كانت لغة أهل الوبر «فصحى» سليمة ، وهي عامة بمفرداتها وتراكيبها النحوية والصرفية ، غير ان فيها بجانب هذه العموميـة تنوعـاً في المفـردات والتراكيب وطرق التلفظ ، وقد أشار مدونو هذه اللغة الى مصـادر بعـض هذا التنوع وذكروا العشيرة التي يسود فيها ، غير انهم اغفلوا الاشارة الى كثير منه ، الامر الذي أدى الى توسع وبعض التنوع والتعقيد في اللغة ، فـذكر اوجه للفظ عدد غير قليل من الكلمات وصفت الكلمات المنوعة الدالة على شيء ما بأنها مترادفات ، في حين ان أصول كثير منها يرجع الى التنـوع المحـلي فيها ، كما ان الفاظا جعلت لها معاني متناقضة واضدادا، وأدى ذلك الى اتساع ما وصلنا من تراث أهل الوبر ، وكثرة الشواذ والتنوع في المعاني والتلفـظ، والى صعوبة الاحاطة بالعربية ومعاجمها ، فأخذ كل باحث يختار للاستعمال مايراه ، وبدأ ينعزل «العام» السائد في الاستعمال عن « المهمل والحوشي » وكان هذا العام بدوره غير ثابت ، فهو أوسـع عند المتبحرين ، وأقـل عنـد العامة ، وهو لايسير مطردا ، فقد يزداد ويتنوع في بعض الازمنة ، ويضعف في اخرى ، واكثر ازدياده عند من يهتم بالجرس الموسيقي ويعنـي بايـراد المحسنات البديعية ، فانتشار استعمالها غير مطرد ، وهو اكثر خضوعا لتطور أساليب الكتابة .

(٩) انظر : المزهر للسيوطي ١/٢١٠ ، ٢١٢ .

المفردات العربية عند الحضر واهل الامصار :

ان المنبع الثالث للغة العربية هي المفردات التي استعملها أهل الامصار العربية وأهل المدن في مناطق الهلال الخصيب خاصة ، والواقع ان الدولة الاسلامية الواسعة ضمت أراضي فيها مجتمعات بدوية تعنى بالرعي ، وقرى يقطنها أهل الريف من الزراع ، وبلداناً ومدنا يقطنها سكان كثيرون يمتهن بعضهم الحرف والصناعة وأعمال السوق والتجارات ، بالاضافة الى رجال الفكر والادارة ، وكثير من المدن يسكنها من لهم صلة بالزراعة فيقومون فيها أو في بعض أطرافها بالزراعة ، أو يمتلكون أراضي تزرع في الريف •

وتتميز المدن بتنوع الحياة ومايتصل بها من نظم وأفكار ، ففيها الطبقات الدنيا ممن حياتهم رتيبة ، وأفكارهم محصورة ، ومفردات لغاتهم محدودة قد تتخذ خصائص في تلفظها ومعانيها ، وفيها العامة والسواد الاعظم الذين يعمل اكثرهم في الحرف والصناعات ، ولهم بعض الخصائص الثقافية والآفاق الفكرية التي تظهر في لغاتهم في تنوع مفرداتها وطريقة تلفظها علما بأن أكثر الغرباء في أية مدينة يكونون من هؤلاء العامة ، ومع ان هؤلاء العامة يتكلمون لغة واحدة بمفرداتها وتراكيبها الا انهم قد يستعملون مفردات محلية خاصة تعبر عن حرفهم واساليب عملهم الخاصة •

غير ان المدن تضم اكثر من غيرها اعدادا من رجال الادارة والفكر الذين لهم نطاق لغوي واسع بعدد مفرداتها وآفاق مفاهيمها ، والغالب انها متصلة بالفكر العام للعلماء ، فهي تسمو على الاقليمية والانية ، وتقرب من العمومية الواسعة الممتدة على نطاق أوسع من المكان والزمان •

وكانت في الدولة الاسلامية منذ بدء تكونها مراكز حضرية كثيرة لاتتوفر معلومات واسعة عن تركيب معظمها والحياة فيها ، وقد اولى الاسلام منذ بدء ظهوره اهتماما أوسع في الحياة الحضرية ونظمها وعقائدها ، وقد بدأت الدعوة الاسلامية في مكة وهي مركز حضري ديني وتجاري ، وانتقلت بعد عشر

سنوات الى المدينة وهي مركز حضري تسود فيه الزراعة وتقوم فيه بعـض الصناعة والتجارة ، وركزت الدعوة الاسلامية فيه على تثبيت افكار كونيـة عامة ومبادىء اخلاقية توجه سلوك الافراد ، وعلى نظم اجتماعية وسياسـية تنظم حياة الجماعة ، وكانت دولة الاسلام في السنوات الاولى قائمة في المدينة ويطلب ممن يسلم أن يقيم فيها ، فتزايد سكانها بتزايد المسلمين ، ومـع ان الزراعة بقيت حرفة غالبية السكان من الانصار ، الا ان التجـارة والاعمـال المالية ، وربما الصناعة ، ازدهرت بفضل استتاب الأمن وخبرات المهاجرين من اهل مكة ونشاط الحياة العامة ، وكان لكل ذلك أثر في زيادة اهتمام الاسلام بالحياة المدنية وعبرت آيات قرآنية عن استهجان قلق البدو وضحالة افكارهم «قالت الاعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولمّا يدخل الايمانفي قلوبكم» «الاعراب اشد كفراً ونفاقاً واجدر الا يعلموا حدود ما انزل اللـه على رسوله والله عليم حكيم » وهذا الموقف العدائي كان موجها الى افكار البداوة ، وليس الى البدو الذين لقوا الترحيب عند انضمامهم الى الاســلام واظهار استعدادهم لقبول افكاره التي تتطلب التشبع بها وقتا [١٠] .

كان للتوجه الاسلامي العام الممالىء للحياة الحضرية أثر في تعزيز الحياة الحضرية ، وقواه ان المهيمنين الاولين على ادارة الدولة وتسيير دفتها اكثرهم من أهل مكة ممن تقبلوا الاسلام وكانت لهم اهتمامات وخبرات في الحيـاة الحضرية وفي التجارة ، وهذا شجع نمو الحياة الحضرية ونشرها في الدولـة ، حيث ان توحيدها السياسي أزال الحدود والحواجز بين الاقاليم ، وأولى الفرد مكانة خاصة فتيسر له حرية التنقل ، وقدم له دوافع مشجعة للعمل ، ووضع له مبـادىء لتنظيم الحياة وفق مبادىء في الاخلاق والسلوك تعزز الطمأنينـة والاستقرار والتحرر من القيود المعرقلة ، ورافق ذلك رقي في مستوى معيشة

(١٠) انظر مقالنا « الاسلام والبداوة في صدر الاسلام » المنشور في مجـلة كلية الادارة والتربية بالكويت ١٩٧٥م .

العامة ، وتوفر الموارد للافراد وازدهار الصناعة والتجارة لتأمين حاجات الناس ، وبفضل الامن والحرية لم تتعطل التجارات الخارجية .

وأدى كل ذلك الى تطور عام في المراكز الحضرية التي بقي معظمها قائما وازدهار بعضها ، كما نمت اماكن جديدة لتصبح حضرية ؛ وكان هذا التطور سلمياً ناجماً عن الاوضاع العامة الجديدة ، وازداد قوة وبرزت آثاره عندما ولى العباسيون الخلافة ، فكانت في الدولة مراكز حضرية كثيرة منبثة في كافة أرجائها تتميز عن مجتمعات البدو والرعاة وعن قرى أهل الريف ، بما كان فيها من صناعة وتجارة ونظم .

الكوفة والبصرة وبغداد :

لاريب في ان هذه المدن الكثيرة كانت تختلف في تركيبها السكاني والاجتماعي والثقافي، ولا تتوفر تفاصيل شاملةعن كثيرمن هذه المدن، فكثيرمنها لانعرف عنه الا اسمه وموقعه واحيانا اهميته ، ويمكن تصنيفها لغرض بحثنا الى ثلاثة أصناف رئيسة هي مدن عربية خالصة، ومدن استوطن فيها العرب ، ومدن اعجمية ، ويتناسب مقدار معلوماتنا تبعا لهذا التصنيف ، فهي واسعة عن اكثر المدن العربية وأقل عن المدن الاعجمية ، غير ان معلوماتنا اوسع عن بعض المدن العربية ، واخصها المدينة ، ومكة ، والبصرة ، والكوفة ، وواسط ، وبغداد ، وسامراء ، والفسطاط ، وبعض مدن بلاد الشام ، ولكن المعلومات الواسعة عن المدن الاربعة الاولى خاصة لا تصل الى حد الاستيعاب في تفاصيل نظمها وحياتها ولغة اهلها [١١] .

وكانت مؤلفات علماء البصرة والكوفة وبغداد ، هي المنبع الاكبر الذي نستقي منه معلوماتنا عن اللغه العربية ، وهذه المدن تشترك بسمات عامة

---

(١١) يذكر السيوطي ان الذي اثبت اللغة في كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من أهل الامصار (المزهر ١/١١١)

حضارية ولغوية فكل من هذه المدن انشأها العرب المسلمون في مناطق زراعية مأهولة بسكان ممن لهم صلة عرقية ولغوية بالعرب وفي رقعة زراعية قليلة السكان نسبيا ، وبقربها مراكز حضرية قديمة ، فالبصرة بقرب الابلة وفرات البصرة ، والكوفة بقرب الحيرة ، وبغداد ليست بعيدة عن المدائن، كانت في كل من هذه المراكز الحضرية حركة فكرية قديمة تعرضت للركود قبيل الاسلام ، وظل كل من هذه المدن الثلاثة مركز ادارة واسعة للمتولى عليها سلطات كبيرة ويمتد الى مناطق واسعة .

غير ان لكل من هذه المدن الثلاثة خصائص تميزت بها ، ومجرى خاصاً من التطور حدث فيها وكان له تأثير في الاحوال اللغوية لسكانها[١٢]، فالكوفة كان سكانها العرب منذ بدء تاسيسها من العشائر التي كانت مواطنها في الاصل في اواسط وشمالي نجد ، تميم ، طي ، اسد ، فزارة ، عامر بن صعصعة، وكذلك من عشائر الحجاز واهله ، وفيها عدد كبير من اهل اليمن (ازد السراة ، خثعم، همدان ، مراد ، حمير ، كندة ، حضرموت) وفيها ايضا بكر وتغلب وقلة من عشائر البحرين واليمامة ، ومنها يسلك الطريق الرئسي بين اقاليم المشرق والحجاز ، وهي بالقرب من الحيرة التي كانت مقر دولة عربية رعى أمراؤها الشعر العربي البدوي الخصائص ، وبسطوا سلطانهم السلمي على عشائر كبيرة من شمالي نجد (بكر وتميم) ، وتابعت الكوفة علاقتها الوثيقة بهذه العشائر التي كانت لها صلات سلمية وثيقة بمكة ، وامتدت صلة الكوفة الثقافية بالمدينة ومكة فازدهرت فيها دارسة الفقه وعلم الحديث والقرآن خاصة ، كما نشطت دراسات اللغة العربية ، وكثر المعنيون بها بمتابعة لغة العشائر في شمالي نجد ، واعتبروا سماعهم لها اساساً دون القياس والاستنباط، كما كانت صلتهم بعلم اهل الحجاز وثيقة، ومن علماء الحجاز كان

(١٢) انظر عن الكوفة «حياة الشعر في الكوفة» ليوسف خليف ، و «الكوفة» لهشام جعيط .

معظم مصادر علم اهل الكوفة في السيرة والحديث .

وكانت صلة بغداد الثقافية منذ تأسيسها أوثق بالكوفة التي انتقل كثير من علمائها الى بغداد ، فنشروا علمهم ، وأرسوا توجيهاتهم الفكرية فقدموا مع اهل الحجاز الاساس الاكبر للعلم في بغداد في هذه الميادين .

غير ان الكوفة انتابها التدهور بعد تأسيس بغداد ، فقد هاجر الى بغداد كثير من اهلها العلماء والتجار ورجال الاعمال ، وعلى مر الايام فقدت مكانتها المتميزة ، واصحت مجرد بلدة تحمل بعض سمات الماضي وآثاره .

اما البصرة (١٣) فكانت اطرافها بادية قليلة السكان تعزلها رمال الصمان عن هضبة نجد ، مما جعل صلتها اوثق بالعرب الذين ديارهم في غرب الخليج العربي ، وهم بكر وعبدالقيس وازد عمان ، وقد كوّن هؤلاء معظم سكانها ، واضيف اليهم عشائر من أواسط هضبة نجد وغربها ، وخاصة تميم وبني عامر بن صعصعة ، ومن اهل الحجاز . ولم تقطنها عشائر من اليمن أو من شمالي الجزيرة وشمالي الحجاز (طي وأسد وفزارة) .

ومنطقة البصرة تتصل بالخليج العربي ، فلا يفصلها حاجز معرقل عن البحرين وعمان ، كما ان ملاحة الخليج تربطها بالبلاد الواقعة على طرفي الخليج وبالبلاد الواقعة في اطراف المحيط الهندى في افريقية والهند وجزر الهند الشرقية ثم الشرق الأقصى ، وبالقرب منها ايضا اقليما الاحواز وفارس الغنيان بالمزروعات وخاصة قصب السكر وبصناعة المنسوجات ، وكل هذا

(١٣) انظر عن البصرة كتابنا «خطط البصرة ومنطقتها» و «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة» وانظر ايضا «الحياة الادبية في البصرة» لاحمد كمال زكي و « الشعر في البصرة في العصر الاموي» لعون شريف القاسم ، و «الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء » لساول بيللات ، والجاحظ والحاضرة العباسية لوديعة طه النجم .

جعل منها مركزاً تجاريا متميزاً ، وأسهم اهل البصرة بالملاحة والتجارة فكـان ذلك من عوامل دوام ازدهارها بعد انشاء بغداد .

وقد تقاطر بعض الاعاجم الى البصرة واستوطنوها شأن ما حدث في الكوفة ، ولعل كثيرا منهم كانوا عمالا وحرفيين وتجاراً ، والراجح انهم كانوا يستعملون لغاتهم الخاصة ومفرداتها وخاصة في الحرف التي اختصوا بهـا ، ولم تكن لها مفردات عربية ، كما ان كثيرا منهم تعلم العربية التي كانت اللغة السائدة . وبرز في البصرة من اهتم بدراسة مفردات اللغة وقواعد نحوهـا وتصريفها ، فكان فيها عدد من أبرز اللغويين الاولين ، ومن اشهرهم الأصمعي والخليل ، ومنهم سيبوية مؤلف أول كتاب ضخم في النحو العربي ، وظلـت دراسات اللغة العربية قائمة فيها في العصر العباسي الاول ، واسهم بعضهم في الحركة الفكرية في بغداد ، ون ابرزهم في هذا الميدان الجاحظ .

بغداد ومكانتها في اللغة :

كان تأسيس بغداد حدثاً بارزاً في تاريخ العمران والفكر ، وقد استهدف ابو جعفر المنصور من انشائها ان تكون مركزا عسكريا واداريا لحاشيته واسرته وحرسـه وجنده ، فقاعدتهـا الاولى النظام والانضباط ، غير ان ابـا جعفر المنصور لم يغب عن باله ان تكون مدينته الجديدة مركزا لحياة اقتصادية وفكرية نشيطتين ، والواقـع انه سرعان ما تقطر اليها الناس للتوطن فـيها مستفيدين من الامن والاستقرار ، ومن تزايد الموارد الماليـة من الجبايات ولابد ان بعض الوافدين شاركوا أصحاب القطائع الاولى في السكنى ، غير كثيرا منهم استوطن في اطرافها الجنوبية وفي جانبها الشرقي اللذين توسعا بزيادة عدد هؤلاء الوافديـن ، ووصلت حدا عاليا من النمو في زمن خلافة هرون الرشيد الذى تشير الاخبار والدلائل على وصولها في زمنه ما يقرب الاوج

من الازدهار والنشاط[14] .

يتبين من دراسة خطط بغداد انه كان فيها عدد من النصارى من النساطرة واليعاقبة ، ولهم في بغداد أديره قليلة ومحلة باسمهم في الجانب الغربي ، واخرى تسمى «دار الروم» في الجانب الشرقي ، ووجود هاتين المحلتين بين العدد الكبير من المحلات يدل على قلة عددهم نسبيا ، ولم تذكر المصادر لغتهم ، وقد تكون السريانية ، ولكن قربها من العربية يسهل تعلمهم العربية .

وذكرت في بغداد محلة واحدة باسم المجوس في الجانب الغربي ولعل كثيرا من سكانها الاولين كانوا يدينون بالزرادشتية ويستعملون الفارسية ، الا ان عددهم محدود ومحلتهم في اقصى الاطراف الجنوبية من الجانب الغربي .

تظهر خطط بغداد انه سكنها منذ اول تأسيسها جماعات من مدن عديدة في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، والراجح ان كثيرا منهم كانوا من المقاتلة العرب الذين تفرقت سكناهم في تلك المدن لاسباب عسكرية ، ولعل غير العرب منهم كانوا يتحدثون بالعربية ايضا .

تعبر بغداد ، شأن كثير من المدن العربية الاخرى ، عن ظاهرتين في المفردات اللغوية هما ، المفردات التي يستعملها الناس ، والمفردات المدونة في المعاجم وفي الكتب المختصه باللغة .

أمّا المفردات التي يستعملها الناس فبعضها مشترك عند عموم الناس ، وبعضها منفرد باشخاص او جماعات او حرف ، ولا تدخل في ذلك ما يستعمله افراد متفرقون من الفاظ ينفردون باستعمالها او طريقة في النطق تنحصر في كل منهم .

وأمّا اللغة التي يشترك فيها عموم الناس ، وهي ماتسمى اليوم « اللغة

---

(14) انظر تفاصيل وافية عن تأسيس بغداد وسكانها وتنظيم خططها كتابنا « بغداد مدينة السلام » .

الأساسيـة » وتتميز بـمفردات محددة تتصـل بمتطلبات الحياة الـيومية والتصرفات الفردية من أسماء المستلزمات المادية العامة وما في البيئة مـن حيوان ونبات وأحجار ، والاعضاء الرئيسة للجسم ، وقواعد السلوك العام ، وفيها مفردات من النظم الادارية العامة والفرائض الدينية ، وكثيرا ما يشوب تلفظها تحريف ، وهو مايسمى « اللحن » وقد أشارت بعـض المصـادر الى «لحن العامة »، وألفت فيه عدة كتـب، فذكرت المصـادر كتبـا عنوانهـا «ما تلحن فيه العامة» ألف فيها كل من احمد بن حاتم ، والاصمعي ، وثعلب، وأبي حاتم السجستاني ، وأبي حنيفة الدينوري ، وسلامة بن غياض ، وأبي عبيدة ، وأبي عثمان المازني ، وأبي الهيذام .

وألفت كتب عنوانها « لحن العامة » أو « لحن العوام » ألف كلا منها ابو هلال العسكري ، والكسائي ، وعمرو بن محمد السكوني .

وامتد اللحن الى الخاصة ، فألف في ذلك كتابـا كل مـن ابي هـلال العسكري ، وأبي أحمد العسكري ، كما ألف ابو عبيدة ما خالفت فيه العامة لغات العرب .

ولابد ان مادة اكثر هذه الكتب عن « عامة بغداد » حيث عاش معظـم هؤلاء المؤلفين ووجهوا العناية اليها ، وتدل عناوينها على انها تبحث في انحراف « التلفظ » من حيث الاصوات أو قواعد النحو ، وليس عن مادة الالفـاظ ومعانيها .

ومن المعلوم ان اكثر الناس هم من اصحاب الحرف والصناعات ويستعمل كل منهم مفردات عن مايستعمله من الادوات وأسـاليب العمـل ، وأحيانـا المعاملاتلا ، وبعض هذه الحرف عربية في أصولها ، غير ان كثيرا منها اخـذه العرب في العراق من الاعاجم ، أو استخدموا فيه الاعاجم الذين وان تكلموا العربية الا انهم يكثرون من استعمال الكلمات الاعجمية .

ان الاعتزاز بالعربية دفع اهل المدن العربية على التمسك باستعمالهـا

والحرص على الاحتفاظ بها ، ومما عزز موقفهم ان الهيئة العليا الحاكمة من الخلفاء ورجال البلاط وكبار رجال الجيش والادارة كانوا من العرب وكانوا يعتزون بالعربية ويحرصون على بقائها ، وكانوا موئل الشعراء الذين ينظمون بها ، ومصدر تقدير لمن يحسنها ، وكان مؤدبو الخلفاء ومعظم كبار رجال الدولة من المختصين بالعربية وعلومها •

ثم ان القرآن الكريم ، وهو بلسان عربي مبين ، كانت اياته تتردد في الصلوات والفرائض ، وفي اقوال الخطباء والوعاظ ، فتعين على تثبيت العربية ونشر الفاظها وطريقة نطقها •

وكان اعتداد العرب بذاتهم كبيرا وخاصة في أوائل سنى الدولة حيث كانوا المهيمنين على الدولة والاداة الكبرى في الحفاظ عليها وانمائها ، ومع ان غير العرب ازداد عددهم في الامصار، وتوسع دورهم في الحياة الفكرية ، وعلا صوتهم في الحياة العامة ، واظهر بعضهم تعصبه لقومه وحاول تحدي مكانة العرب وخصائصهم ، فجاهروا في شعوبيتهم التهجمية ، وسلكوا مسالك ظاهرة وخفية للمس بتراث العرب ومكانته، الا ان اغلب مواقفهم كانت سلبية اقتصرت على الطعن بالعرب والفخر بانجازات غيرهم دون ان يقدموا بديلا عن العربية والعروبة ، وفيما عدا كتب الدين النصرانية واليهودية فانه لم يدون شعر او نثر بغير اللغة العربية حتى اواخر القرن الرابع الهجرى ، ويلاحظ ان الكتابات بغير العربية كانت في اقاليم الهضبة الايرانية واكثرها برعاية حكام اعتزوا بتمسكهم في الدولة الاسلامية والدين الاسلامي اللذين تكوّن العروبة اساسا مكينا لهم ، وكانت اكثر انتاجاتهم الثقافية في الشعر والرسائل والتواريخ المحلية ، وفيها وصف اكثر من اعتزاز بالاوضاع القائمة ، وقل فيها الفخر بماض يتحدى العروبة وفي كتاباتهم مفردات عربية لاتقل عن نصف ما يستعملونه من مفردات اضافة الى تأثرهم بأساليب الشعر والنثر العربية •

لاريب في أن أوضح سبيل لمعرفة كلمات الحرفيين هي تصنيفها تبعـا للحرف ، فتكتب الكلمات التي يستعملها أصحاب كل حرفة ، ولانعلم كتابـا أفرد للكلمات التي يستعملها أصحاب كل حرفة ، ماعدا كتاب الدواوين ، وأبرز ما ألف فيها ، «مفاتيح العلوم» للخوارزمي ، غير ان بعض المصنفات في فقـه اللغة خصصت مكانا ذكرت فيه عددا من الحرف وبعض الكلمات المستعملة في كل حرفـة .

وفي الكتب التي اختصت بدراسة الكلمات المعرّبة عـدد غير قليـل من الكلمات الاعجمية التي استعملها العرب ، ولابد انها كانت اشيع عند العامة ، ولكن كثيرا منها استعمله العلماء ايضا ، واشـهر كتابـين في ذلك « شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل » ، للخفاجي ، و « المعرب مـن الكلام الاعجمي على حروف المعجم » لموهوب بن احمد الجواليقي (ت ٥٤٠هـ) وفي مقدمته اشارات الى حروف كلمات اعجمية .

غير ان التطور الحضاري أدى ، بالاضافة الى تعريب عدد من الكلمات الاعجمية ، الى اسباغ معان جديدة لعدد غير قليل من الكلمات العربية الاصيلة، وكثير من هذه المعاني تعرض بدوره الى تطورات ، فصار للكلمة الواحـدة معان متعددة تبعا لأحوال الزمان والمكان ، واحيانا الافراد مـن الكتّاب . وكثير من هذه الكلمات « المولدة » وتطور المعـاني لم يدخلـه اصحـاب المعاجم الكبيرة المشهورة في معاجمهم ، ولم تؤلف فيه الا كتب قليلة عن تطور معاني بعض الكلمات « الفنية » ، كالذي فعله الجرجاني في « التعريفات » ، كما ان الدراسات الحديثة اقتصرت على رصد بعض هذه الكلمات ، وبحثت في تطور معاني عدد محدود منها ، مما يجعل الحاجة قائمة الى معجم لغوي حضاري شامل يضم ما استعمل من المفردات ، ويرتب معلوماته عن كل منهـا وفقاً لتطورها عبر الزمان والمكان . ولابد ان استعمال الحسابات والاجهـزة التقنية الحديثة ييسر هذا العمل الذي يتطلب جهودا واسعة جديرة بأهميته .

المفردات عند العلماء :

رافق تكوّن الدولة الاسلامية نشاط فكري واسع في دراسة ما هو قائم وتفهمه وانمائه ، وكانت عناصره الأساسية تراث عربي موروث عزّزه الاسلام واغناه بما ثبت فيه من الفاظ احتفظت بمعانيها القديمة او اسبغت عليها معاني جديدة ، وكانت ترقى الى مستوى فكري عال يتطلب معرفة خاصة بالمفردات ، فكانت طلائع النشاط الفكري في الامصار تدارس « الكلم الطيب » من حكم وامثال ، وتداول الشعر الذى يتطلب فهم مفرداته وافكاره والصور التي يعرفها ، وكان المعين الذي يستقون منه أهل البادية ، وخاصة الاعراب الذين يقدمون مادة غنية عن كثير من المفردات التي تتطلب التوضيح غير انه لابد من اكمالها بتوضيحات يقوم بها « اهل الحاضرة » الذين ظهر فيهم كثير من الشعراء وكان عندهم ينشد اكثر الشعر ويكثر تداوله .

ورافق ذلك ظهور من عنى باللغة وضبط مفرداتها وتراكيبها ، وبمرور الايام اتسعت مادتها وكثرت تشعباتها وعمقت مادتها ، وصار فهمها الشامل يتطلب تبحرا وتخصصا ، غير ان التخصص كان واسعا متشعبا ، ولم يكن ضيقا محدودا ، فضلا عن ان هؤلاء « العلماء » لم يعيشوا في برجهم العاجي وانما كانوا متصلين بالناس ، وكثير منهم متصلا بذوي السلطان ، فتعمقهم في البحث الذى يقودهم الى اتقان « الغريب المتفرد » لم يعزلهم عن الناس ، فكانت كتاباتهم المعبرة عن تكوينهم الفكري بسيطة واضحة ، ومفرداتها مألوفة شائعة .

الفقه :

ومنذ منتصف القرن الاول الهجرى ازداد ظهور القضايا الاجتماعية ومنها ما يتعلق بالعبادات او المعاملات او الصلات الاجتماعية بين أفرادالاسرة او بين طبقات المجتمع ، وظهر معنيون ببحثها واصدار الاراء فيها ، وكان اكثر

الاوائل منهم من اهل الحجاز ، وخاصة ممن كان يقيم في المدينة ومكة ، واقتضت الاحوال ان يكثروا من استعمال المفردات المتداولة في بيئتهم وهي التي عاش فيها الرسول (ص) فكانت مفرداتهم مما استعمله الرسول (ص) وما استجد بسبب تطور الاحوال ونموها ، وكان لفقهاء المدينة في هذا الزمن المبكر مكانة خاصة ، فهم اوثق صلة بتراث الرسول(ص) والصحابة والخلفاء الاولين الذين مدوا الدولة ورسخوها ، وكانوا بعد انتقال مقر الخلافة الى الشام غير خاضعين مباشرة لضغط السلطات الحاكمة ، كما ان موقع الحجاز المتوسط بين الاقاليم الرئيسة ، ووجود الاماكن المقدسة فيه يجعله اكثر ملاءمة لترسيخ النظرة الاسلامية الشاملة في الاحكام ، وبذلك استوعبوا القضايا التي لاتشغل بيئتهم المحدودة فحسب ، بل ايضا كثيرا من القضايا التي تهتم بها بقية المناطق ، وبذلك وضعوا الخطوط العامة للفقه ونطاق دراسته، كما قدموا حلولا لكثير من قضاياه التفصيلية .

ونمت دراسة الفقه في أمصار اخرى ومنها الشام والبصرة ولكن اخصها الكوفة ، وكان فقهاؤها ذوي صلة وثيقة بفقهاء المدينة ، وقد شجع الخلفاء العباسيون الاولون علم أهل المدينة وعملوا على اتخاذه أساسا للعلم في بغداد، واظهر ما يعبر عن اثر اهل المدينة في العراق هو ان ابا يوسف وهو اول فقيه وصلتنا كتب منه ، كان معظم شيوخه ومصادره اهل المدينة ، كما ان محمد بن الحسن الشيباني ، وهو الفقيه البارز الثاني في العراق ، درس على فقهاء أهل المدينة وكان ممن روى موطأ مالك .

تتميز كتب الفقه بسعة مفرداتها المتصلة بالعبادات وبجوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية مما له علاقة بسواد الناس وعامتهم دون الخاصة ، وبالسلوك المقبول دون التزدل المنبوذ ، فمفرداتها متعددة ومنوعة ، ولكنها دائماً دقيقة التحديد لانها اساس الحكم القانوني ، ومعانيها واضحة عند

الفقيه الذي يستعملها ، ويدل تعددها على غنى ثروة الفقهاء اللغوية، وهي متصلة بالعامة من الناس ، ولكن لايمكن الادعاء بانها الثروة اللغوية لكل فرد ، فلابد ان الافراد اقل احاطة بها وبدقة فهمها •

ولابد ا ان كثر مفردات فقهاء المدينة كان مما هومستعمل في المدينةومكة، ونظرا لصلاتهما التجارية القديمة خاصة مع اقاليم غرب الجزيرة ، بما في ذلك اليمن وبلاد الشام ، فلابد انهم استعملوا المفردات العربية الشائعة عندهم منذ قبل الاسلام ، ولابد ان يكون لليمن اثر اكبر للصلة الوثيقة بين اليمن والحجاز، خاصة وأن كثيرا ممن عنى بالفقه وكذلك قضاة الامصار كانوا من أهل اليمن، غير ان ضعف صلتهم بمناطق شرقي الجزيرة يوحي بانهم لم يستعملوا ما تفرد به هؤلاء من تعابير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية •

ان الازدهار الاقتصادي في الحجاز ابان القرن الاول وأوائل القرن الثاني الهجري ، جلب الى المدينة ومكة عددا من الاعاجم وسلعهم ، فشاعت بينهم كلمات اعجمية منها ماكان مستعملا في المشرق ، ومن مظاهر ذلك تردد كلمة « العدل ببرنامجه » وبيع «ده دوازده» في مدونة مالك ، غير ان المفردات من الرومية نادرة ، ان كانت موجودة ، وكان وجود الكلمات الاعجمية أحد المبررات التي اعتمدها اللغويون لعدم اخذهم اللغة من أهل الحجاز .•

ساعدت مكانة فقهاء المدينة على تثبيت مفردات معينة بمفاهيم محددة عند الباحثين في الفقه ، ورافق امتداد مكانتهم انتشار هذه المفردات بمعانيها المحددة في أوساط الفقهاء في كافة أرجاء دولة الاسلام ، وقد امتد هذا التأثير عبر أزمنة طويلة حتى انك لاتلقى صعوبة لغوية عند قراءة كتاب في الفقه في أوائل القرون أو في أواخرها ، وقد يكون الفرق الاساس البارز هي كتب الفتاوى والنوازل التي يكثر في كل منها تعبيرات من واقع زمن كتابتها وكثيرا ماتكون محلية •

غير ان عددا من المفردات الفقهية انحصر استعمالها وفهمها عند المختصين

من علماء الفقه ، واصبح معناها غريبا عند غيرهم ، وقد دخل بعضها في المعاجم اللغويـة العـامة ، وظل عدد منهـا معزولا ، وألف عدد قليـل من المعاجم الخاصة بهـا •

وهكذا ثبت الفقهاء استعمال كلمات خاصة متصلة بالحياة اليومية للناس ومحددة بمعان خاصة ، وهي عربية الاصول مما يدل على قدم اسـتعمالها ، وبعضها يعبر عن مؤسسات مالية وادارية كانت قائمة في اقاليم اخرى مثـل «راس المـال » « ام القرى » « الحاضر » •

ومما يتصل بالفقه والكتابة • النصوص القانونية لمعاملات البيع والاجارة والارث وما اليها ، وهي تسمى في المشرق « الشروط » وفي المغرب «النوازل» وهي تقوم على أساس احكام الفقه وتستعمل مفرداته ، ولكنها تفصّـل في الحالات التي تبحثها ، وتستعمل مفردات تعبر عن الحياة اليومية وما فيهـا ، وبحكم وضعها القانوني تدقق في استعمال الكلمات ، فمفرداتها عربية سليمة ودقيقة ومما يستعمله الناس ، غير انها قـد تدخل مفردات غـير « فصيحة » شـائعة •

ذكرت المصادر اسماء عدد كبير من الكتب المؤلفة في الشروط والنوازل، بالاضافة الى فصول تكتب في كتب القضاء عن الشروط ، غير انه لم يصلنـا منها غير كتابين ألفهما الفقيه الحنفي الطحـاوي في أوائـل القـرن الرابع ، والسمرقندي في القرن السادس ، وأورد القلقشندي في «صبح الاعشى » ثلاثة نصوص عن الاراضي في العراق تتعلق بالاراضي •

ووصلت كتب كثيرة في «النوازل» مما كتب في الاندلس والمغرب، وطبع بعضها ، ولغتها عربية ، ومفرداتها مما هو مدرج في كتب الفقه او ما يستعمل في الحياة اليومية والاوضاع القائمة ، وقليل منها مفردات محلية •

كتابه الاسائل والاداب :

ومن مظاهر ازدهار الحركة الفكرية التي تتصل بها الالفاظ هي الكتابة التي يمكن تصنيفها الى ثلاثة أصناف هي : الكتابات المعبرة عن العواطف والخلجات والمشاعر والافكار مما نسميه «الاداب» ، وكتابة الرسائل السلطانية الصادرة من الخلافة ورجال الادارة ، وكتابة الدواوين المالية .

فأما الاداب فان اصولها تمتد الى ماقبل الاسلام حيث عرف العرب بتقدير « الكلم الطيب » وتناقله حكما او امثالا ، بالاضافة الى رواية الحوادث وأوصاف الاعمال، فمفرداتها عربية ومعروفة، وهي «متخيرة» بدقتها ورصانتها، وقد نمت واتسعت بعد استقرار تكون الدولة الاسلامية حيث تابع المستقرون في الامصار خاصة اهتماماتهم بآداب السلوك والعواطف التي يعبر عنها بمفردات واضحة يزداد تقديرها مع دقتها ، وقد وصلتنا منها نصوص قصيرة عن العهود الاولى ، ثم ازدادت عددا وسعة منذ أوائل العصر العباسي ، ونبغ كتاب تنوعت اساليب كتابتهم من البساطة والسلاسة والطلاقة والاسترسال الى التدقيق واعمال الفكر في صياغة الافكار وتخير الالفاظ ، وعنى بعضهم باختيار المفردات واعتبارها أساسا لسمو الكتابة وبلاغتها، وكانت كتابتهم بمفردات عربية اساسها ماجاء في القرآن الكريم وما يستعمله الناس وعمموا كثيرا من مفردات أهل الصحراء، وقلل بعضهم استعمال كلمات اخرى حتى صارت حوشية غريبة، واستعملوا مفردات بغير معناها القديم لتعبر عن صور جديدة بما في ذلك تسمية الأساليب البلاغية من جناس وطباق واستعارة وكنايات ومجاز (١٥) .

تطلب قيام الدولة الاهتمام بالكتب التي تصدر عن الخلفاء والولاة

(١٥) انظر في ذلك « نشأة الكتابة الفنية » لحسين نصار ، و «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» لزكي مبارك .

وأولي الامر، وهي تكتب بالعربية ، ويعنى فيها باختيار الالفاظ المعبرة بدقـة ووضوح عن الافكار المطلوب عرضها ونقلها ، فاساليبها بسيطة واضحـة ، وتعابيرها من المألوف السائد عند كاتبه ، والمفهوم عند متلقيه ، وكان اغلـب ما كتب منها في صدر الاسلام قصيرا ، ومفرداته مفهومة التعابير في زمنها ، وان كان بعضها تبدل بمر الزمن ، وروعيت في كثير منها المفاهيم الاسـلامية الجديدة، واعتمد أصحاب المعاجم كثيرا من هذه المفردات ونقلوها للاستشهاد، وقام عدد من المحدثين بجمعها في كتب من اشهرها « الوثائق السياسية في عهد الرسول (ص) والخلافة الراشدة» لمحمد حميد الله ، و «جمهرة رسائل العرب» لمحمد صفوت و « الوثائق السياسية » لماهر حمادة •

وقد كثرت هذه الكتب في زمن الخلافة العباسية ، وازداد طول كـل منها ، وبعضها يتعلق بقضايا سياسية متنوعة في محتواها، فبعضهايتعلق بالادارة وبعضها يتعلق بقضايا سياسية ، وفيها افكار ولاة الامر عن السياسة والادارة ومفرداتها عربية ، وألفاظها متخيرة للتعبير الدقيق بالدرجة الاولى ، وقد دبج صياغتها كتاب يعملون في بلاط الخليفة أو الوالي ، فهم يدركون المطلوب من الكتابة ، ويصوغون الكتب بلغة عربية سليمة •

تطلبت المكانة الخاصة للغة العربية العناية بتدقيق عبارات الكتب الرسمية، وتخير الالفاظ السليمة في كتابتهـا ، فكان اتقان اللغة جـزءاً أسـاسيا مـن متطلبات ثقافة الكتاب ، وقد حث عبدالحميد الكاتب الكتـاب في رسـالته المشهورة التي وجهها اليهم اتقان العربية فقال « فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الاداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عـز وجـل ، والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ، ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم، وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها •

كان حرص كتاب الرسائل السلطانية على الكتابة بعربية سليمة بمفرداتها

ونحوها من دوافع تأليف كتب تعنى بذكر المفردات العربية السليمة مرتبة في الغالب حسب مواضيعها مما يحتاجه الكاتب ؛ ومن أشهر الكتب الاولى فيها « أدب الكاتب » لابن قتيبة (ت ٢٧٦) ، وقد اعتبره ابن خلدون أحد الكتب الاربعة الاساسية في أصول الادب ، وذكر ابن قتيبة في مقدمته ان الدافع لتأليفه انه رأى «أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الادب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولاهله كارهين » ، وان «ابعد غايات كاتبنا في كتابته ان يكون حسن الخط ، قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا ان يقول من الشعر ابياتا في مدح قينة أو وصف كأس» وانه «طال عليه ان ينظر •• في علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاداه » وهو يقول انه عزم على معالجة ذلك بتأليف كتب خفاف في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد ، يشتمل منها على فن، متحاشياً التطويل والتثقيل •

وهو يذكر ان الكاتب يحتاج الى معارف اخرى في الهندسة والمساحة والفقه واخبار ، وأكد على ان السابقة لتأديب وتهذيب الاخلاق ، ثم يتلوها تأديب اللسان وتهذيب الالفاظ العفة ، مع تحاشي الغريب ، وانه يكره في الكتاب وحش الغريب وتعقيد الكلام •

وذكر فيه التعابير المستعملة في مختلف ميادين الحياة مرتبة حسب مواضيعها ، وتلاها بابحاث الصق بالصرف والنحو •

ومن هذه الكتب كتاب «الكتاب» لابن درستويه (ت٣٤٧) وهو يعني بضبط الكلمات • ومنها «الالفاظ الكتابية» لعبد الرحمان بن عيسى الهمداني (ت٣٢٠) ورتب الكلمات الاساسية المستعملة لمواضيعها •

ومن أشهر هذه الكتب « أدب الكاتب » لابي بكر الصولي (ت ٣٣٦) وقد ألفه «لأعلى الكتاب درجة وأقلهم فيه منزلة» ، وركز على ضبط الالفاظ والمعاملات المالية والفقهية •

وهذه الكتب هي فرع خاص من كتب الفت حسب المواضيـع ومـن أوائلها «الغريب المصنف» لابي عبيدة (ت٢٢٤)ووصلت اوجهـا في كتـاب «المخصص»لابن سيـده (ت ٤٥٨) ، الذي جمع الالفاظ العربـية حسـب مواضيعها واعتمد في مانقله على المعلومات التي دونها ابرز علماء اللـغة من سبقه •

كتابه دواوين الخراج :

لكتّاب الخراج وضع خاص متميز، فهم يتعاملون بالامور المالية ومايتصل بالارض خاصة ، ويسيرون وفق نظم وتقاليد استقرت عبر مدة طويلة مـن الزمن ، فعملهم يتطلب استعمال مفردات تتعلـق بنظـم الادارة ، والارض ، والمنتوجات وأعمال المساحة والهندسة والحساب ، فهي مفردات واسعة في نطاقها ، منوعة في ميادينها ، متصلة بمعرفة الناس وبما تتطلبه النظم من مخاطبة الحكام وولاة الامور •

ولابد ان نظم الجباية والادارة المالية كانت قائمـة في الارجـاء التي تحكمها دول في جزيرة العرب ، وانهم كانوا يستعملون التعـابير العربيـة السائدة في أراضي تلك الدول غير انه لم تصلنا معلومات مجزية عنها .•

وفي القرآن الكريم تعابير عن السجلات وتنظيم الحسابات ، ومنـها «الكتاب» و«الصحف» و«الحساب» و«السجل» [١٦] ، وإشاراتالى بعض الضرائب ومنها «الخراج» و «الصدقة» و «الجزية» ؛ ويدل ترددها على كثرة استعمالها وخاصة في مكة التي عرف أهلها بنشاطهم التجـاري واتصـالهم بالاقاليم العربية وبعض الاقاليم الخارجة عن الجزيرة العربية ، غير انه ينبغي عدم المبالغة في سعة نطاقها وتنوع ميادينها •

---

(١٦) جمع توري هذه التعابير وحللها في كتابه «التعابير التجارية في القرآن» (بالانكليزية) .

ولما توسعت الدولة الاسلامية ضمت اقاليم واسعة كانت تابعةللساسانيين في المشرق وللروم في المغرب ، وكان اكثر الاقاليم تعقيداً في نظمها العراق والشام ومصر ، حيث كان في كل منها نظم ادارية ومالية استقرت عبر مدة من الزمن ، وكانت الهيئة الحاكمة في كل منها تختلف عن غالبية السكان في أصولها وثقافتها ولغتها ، وفي كل منها دواوين منظمة أوسعها ما يتصل بالجباية المالية ، وهي وثيقة الصلة بأهل البلاد لانها تتعامل معهم في الجباية والاتفاق ، غير أن واجبها الرئيس متصل بالهيئة الحاكمة ، ولذلك كانت تكتب وثائق معاملاتها باللغة التي يستعملها الحكام وهي الفارسية في العراق واليونانية في بلاد الشام ومصر ، وبالنظر لسعة أعمالهم وتعقدها ، وخبراتهم المستقرة ، فقد ابقاهم العرب ولم يعملوا على تبديل اساليب عملهم •

غير انه بعد استقرار الحكم ادرك العرب خطر استمرار الدواوين بالكتابة بغير العربية ، فهي تعيق متابعة ولاة الامور شؤون المالية التي هي من أهم أسس كيان الدولة ، وهي تعطل ايضا معاملات عامة السكان الذين لغتهم تخالف الكتّاب ، فضلا عن مكانة اللغة الاعجمية في الدواوين فيه انتقاص لمكانة العربية التي هي من أبرز مقومات الدولة •

ومما كان ييسر عملية التعريب ان غالبية كتاب الدواوين كانوا من أهل البلاد ولغتهم في الاصل غير الاعجمية التي كانوا يتعلمونها من اجل الحصول على العمل ، وقد افقدهم استقرار الدولة العربية الامل بعودة النظام القديم ، وسرت فيهم روح الثقة ببقاء الدولة الجديدة مما تقتضي مصلحتهم الخاصة ان يتكيفوا لها ويخدموها •

ولم يكن كتاب دواوين الخراج في العراق خاصة بعيدين عن العربية، فأكثرهم كانت لغة الام عندهم هي العربية أو وثيقة الصلة بالعربية التي هي لغة الهيئات الحاكمة والمقاتلة وكثير من التجار ، فليس من الصعب احلال مفرداتها محل معظم المفردات الاعجمية التي كانوا يستعملونها ، وتنسب عملية تعريب

الدواوين في العراق الى صالح بن عبدالرحمن ، ويروى الجهشياري في ذلـك انه لما ولى الحجاج العراق «كان يكتب له صالح بن عبدالرحمن ويكنى ابا الوليد ، وكان يتقلد ديوان الفارسية اذ ذاك زادان فـروخ فخلفـه عليـه صالح بن عبدالرحمن ، فخف على قلب الحجاج وخص به ، فقال لزادان فروخ اني قد خففت على قلب الحجاج ، ولست آمن ان ازيلك عن محلك لتقديمه اياي وانت رئيسي ، فقال زادان فروخ ، لاتفعل فانه احوج الي مني اليه،قال فكيف ذلك ، قال لايجد من يكفيه الحساب ، فقال صالح اني لو شئت حولته بالعربية ، قال فحوّل منه سطرا ، فحول منه شيئا كثيرا ، فقال زادان فروخ لاصحابه التمسوا مسكنا غير هذا ، وأمر الحجاج صالحا بنقل الدواوين الى العربية في سنة ثمان وسبعين [17] .

يظهر هذا النص ان صالح بن عبدالرحمن كانت له صلة وظيفية بديوان الخراج وانه كان يتقن العربية والفارسية ، وان كتابة الحسابات بالفارسـية كانت تلزم الولاة العرب بمراعاة ولاة الخراج الذين يستعملون الفارسية وان صالح بن عبدالرحمن لم يواجه صعوبة في نقل الحسابـات ومعاملاتهـا الى العربية ، وان ذلك تم في سنة ٧٨ .

لم يكن لتعريب الدواوين بالبساطة التي صورها الجهشياري فهي لم تكن مقصورة على العراق ، وانما امتدت الى بلاد الشام ايضا ، كما امتـدت الى تعريب النقود ، فهي جزء من سياسة شاملة ، ودوافعها واسعة تمتـد الى تعزيز مكانة اللغة العربية ، وتوثيق الوحدة الثقافية والفكرية ، وافساح مجال عمل أوسع للمعتزين بها ؛ واتاحة الفرصة للولاة في الاطلاع على تفـاصيل الادارة المالية .

أشار الجهشياري الى بعض نتائج التعريب فذكر ان « كان عامة كتّاب

(١٧) الوزراء والكتاب ٣٨ .

العراق تلامذة صالح بن عبدالرحمن ، فمنهم المغيرة بن ابي فروة ، كتب ليزيد ابن المهلب ، ومنهم قحذم بن ابي سليم وشيبة بن ايمن كاتبا يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا امية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مروان بن إياس ، كتب لخالد القسري ، وغيرهم »[١٨] .

ولابد ان هؤلاء حلوا محل من كان قبلهم من المتمسكين باللغة الفارسية، وانهم كانوا رؤوس أصحاب الديوان ، اما عامة الكتاب فقد بقوا في مكانهم يستعملون العربية في المكاتبات .

ومع ان معظم الكتّاب من أهل العراق وليسوا فرساً ، الا انهم ظلوا حريصين على الثقافة الفارسية دون العربية ، فقال الجاحظ ان احدهم اذا وطىء مقعد الرئاسة « وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه وروى لبرزجمهر امثاله ، ولاردشير عهده ولعبدالحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه، صيّر مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته»[١٩] ثم ذكر طعنهم بالقرآن والصحابة والفقهاء التابعين وانه « لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ، ولا التفقه في الدين شعاره ، ولا الحفظ للسنن والاثار عماده »[٢٠] .

ويتصل بهذا قول ابن قتيبةفي مقدمة كتابه «أدب الكاتب» «فابعدغايات كاتبنامن الشعر أبياتافي مدح قينة او وصف كأس، وأرفعدرجات لطيفنا انيطالع شيئا من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لايعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله (ص) بالتكذيب وهو لايدري من نقله» ويقول «ولكنه طال عليه ان ينظر في علم الكتاب ، ومن اخبار الرسول (ص) وصحابته ومن علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف الى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون

(١٨) الكتاب والوزراء للجهشياري ٣٨ .
(١٩) في ذم اخلاق الكتاب ضمن رسائل الجاحظ ١٩١/٢ ــ ٢ .
(٢٠) كذلك ١٩٤/٢ .

وقل منه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم » .

ان هذين النصين يتفقان على صدوف الكتاب عن علوم القرآن والحديث، ويضيف ابن قتيبة صدوفهم عن علوم العرب ولغاتها وآدابها ، ويذكر الجاحظ أسماء الكتب التي كانت معينهم في الثقافة والفكر ، وكلها ما عدا مزدك ، منقولة الى العربية بلغة سليمة ليس فيها مفردات اعجمية كما ان ابن قتيبة يذكر عنايتهم في كتب الفلسفة مما له ترجمة « تروق بلا معنى ، واسم يهول بلاجسم» أي ان نشازهم قائم على أفكارهم وليس على اللغـة التي يستعملونهـا وهي العربية ، والواقع انه لم يعرف عن الشعوبيين فيما طعنوا به العرب ، انكارهم مكانة اللغة العربية ، وان كثيرا من غير العرب اسـهموا بسـعة في دراسـة مختلف المواضيع المتصلة باللغة العربية ، بما في ذلك المفردات وقواعد النحو والصرف ، ومظاهر البلاغة ، ولم تبدأ الكتابة بالفارسية الا في أواخر القرن الرابع الهجري ، وبدأت عند الشعراء والادباء وليس في الدواوين ، وكانت في ظل حكام كانوا يقرون بالاسلام والثقافة العربية وحرمة الخلافة العباسية .

كانت محاولة اتقان الكتّاب اللغة العربية من دوافع تأليف كتب لتيسير تعلم مفرداتها ولاتقان نحوها وصرفها وتلفظها ، وثبّت استعمال الكتاب العربية شيوع مفرداتها وتوسع معاني بعضها لتستعمل في المؤسسات الادارية والمالية، وكانت اكثر الكتب التي عدها الجاحظ من مقومات ثقافتهم مكتوبة بلغـة عربية سليمة .

غير ان الكتّاب ظلوا يستعملون في العـراق ، وربمـا في المشرق ، عددا من المفردات الفارسية ، وخاصة في تفاصيل معاملات سجلات الحسابات، وهذه التعابير عددها محدود ، وهي فنية خاصة بتلك المعاملات فلم يشع استعمالها عند الناس .

ازدهـار دراسة العلـوم :

كانت شبه جزيرة العرب منوعة في شكل أرضها وتربتها ومظاهر مناخها، وفي منتوجاتها المعدنية والنباتية والحيوانية ، وكانت لكثير من أهلها صلات تجارية بالبلاد الاخرى وخاصة الاقاليم التي حولهم ، وقامت في عدة مناطق فيها ، وخاصة في اليمن وعمان والبحرين واليمامة ، حضارات تدل المعلومات القليلة التي وصلتنا عنها على تقدم واسع في الحياة المادية وما يتصل بها من زراعة وصناعة وتجارة ، وقد اثمر هذا ثروة يدل على مداها سعة المفردات التي دونها لغويو القرون الاولى رغم اقتصارهم على ماكان سائدا عند بعض قبائل الجزيرة ، وليس عن كل ما في الجزيرة ، وان قلة المعلومات التي وصلتنا عن التراث العلمي في الجزيرة مرجعه قلة الحفريات وطبيعة مادة الكتابة ، وهو ليس بأقل مما وصلنا عن معظم البلاد الاخرى .

ولا يصح ان تتخذ قلة المادة التي وصلتنا عن المعرفة بالعلوم على جهلهم بها ، فقلة المدونات القديمة في الجزيرة عن الطب مثلا لايعني عدم معرفتهم التشخيص والعلاج الذي لايستغني عنه أي مجتمع . وقلة الكتب التي وصلتنا عن النبات والزراعة لايعني عدم معرفتهم بها ، ومثل هذا ينطبق على كثير من ميادين العلم ، وخاصة التطبيقية والمتصلة بحياة الناس . ولايبعد ان المعرفة الواسعة التي تدل عليها اللغة العربية في ما يتعلق بالعلوم ، رافقته أفكار وآراء عن تنظيم هذه المعرفة وتعليل اسبابها ونتائجها وآثارها .

وفي القرآن الكريم تعابير كثيرة وتعليلات واسعة عن كثير من مظاهر الكون وسلوك البشر والقواعد التي تحكم مسيرتها .

ازداد نشاط الحركة الفكرية منذ تولي العباسيين الخلافة خاصة، ورافق ذلك انتشار استعمال الكاغد مما يسر توسع تأليف الكتب ، ومما انمى هذا النشاط

تأسيس بغداد التي جمعت اعدادا كبيرة من أرجاء كثيرة ، وخاصة من الكوفة والبصرة وريف العراق ومناطق خراسان وما وراء النهر ، ورافق ذلك ازدهار الحياة الاقتصادية واستقرار الامن والسلام واهتمام الخلفاء العباسيين الأولين برعاية الحركة الفكرية وانمائها، وتتابع ازدهار معارف اللغةوالادبوالدراسات القرآنية والفقه التي كانت قد ظهرت منذ زمن الامويين •

وقد قدر العباسيون ان البناء الفكري السليم يستلزم ان يكون واسعا ليشمل العلوم الصرفة والتطبيقية التي عنى بدراستها علماء قدماء أجانب وألفوا فيها كتبا قيمة ، كما يشمل عددا من الكتب في الآداب والتقنيات ، وكان عدد من هذه المؤلفات بالهندية والسريانية والفارسية ، ولكن اكثرهـــا واغناهـــا باليونانية التي ضمت تراث الالف سنة التي سبقت الاسلام ، ونمت بفضل تشجيع الحكام واهتمام الناس فألفت فيها كتب قيمة وخاصـــة في الفلـــك والرياضيات والطب [21] •

أدرك الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور ، وهو مؤسس بغداد ، أهمية التراث العلمي لهذه الامم،فعنى بتشجيع نقل كتبهالى العربيةلتكون مكملة للبناء الفكري في الدولة والامة • وقد بدأ في زمنه نقل كتب في عدد مـــن ميادين العلم وخاصة الفلك (المجسطي والسند هنـــد) والطب والفلســـفة ، وتتابع نشاط النقل في هذه المواضيع ومواضيع اخرى ، ووصلت أوجهـــا في القرن الثالث الهجري •

وكان اكثر نقلة كتب العلوم من نصارى العراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام، وقدحدثت في أساليب النقل تطورات، فكان اكثر أوائلها نقلا حرفيا دون مراعاة لاسلوب الكتابة العربية، وفيها كثير من الكلمات الاعجمية، ثم تطورت فاصبحت تعرض مادتها باسلوب عربي مقبول، وتناقص عدد الكلمات الاعجمية، فاستعملت

(٢١) انظر عن تقدير مكانتها كتابنا «تاريخ العلم في العهود الاسلامية الاولى» •

مكانها كلمات عربية أصيلة ، وهي تظهر اتقان النقلة واكثرهم نصارى ، اساليب الكتابة العربية وسعة ثروتهم في المفردات العربية ، وتثير التساؤل عن الاساليب التي كانت متبعة في ضمان اتقانهم العربية وكان ثمارها هذا التمثيل للاسلوب، وهذه الثروة اللغوية الواسعة . ولابد انهم أفادوا كثيرا من المفردات التي جمعها المعنيون بلغة أهل البادية ، وخاصة في التشريح والحيوان والنبات والاحجار .

عززت كتب العلم المنقولة الى العربية كثيرا من مفردات العربية المستعملة في تلك الميادين ، ووسعت نطاق نشرها ، واضفت على بعضها معاني جديدة ، فلم تعد المفردات في خلق الانسان والحيوان والنبات مقصورة على دارسي كتب اللغة ، وانما امتدت الى المعنيين بالطب بما فيه التشخيص والعلاج والأدوية واستعملت كتب البيطرة المنقولة الى العربية المفردات التي جمعها اللغويون عن الحيوان ، وأفادت الفلسفة من مفردات القرآن الكريم فاستعملت كثيرا منها واضفت على بعضها معاني جديدة مثل الكون ، والفساد والكيفية ، والكمية ، والزمان ، والدليل ، والقياس ، والبرهان ، والجوهر ، والعرض ، والكلمة ، والروح ، والنفس .

ومما أفاد في انماء مفردات اللغة العربية وتيسيرها لمتطلبات الكتابة في العلوم تعدد صيغ تصريفها ومرونتها وقابليتها على سعة الاشتقاق ، ونمو دراسات النحو والتصريف ، واستنباط القواعد التي توضحها وتيسر توسيعها.

ولم تقدم المصادر معلومات توضح الصلة بين « علماء اللغة » والنقلة والمؤلفين ، وهل ان علماء اللغة ادركوا حاجات هؤلاء الكتاب فبحثوا في مايسر عملهم ، أم ان النقلة درسوا كتب علماء اللغة وأفادوا منها ، أم ان هذه الصلات جاءت عفوية، خاصة واننا نلاحظ ان كلا من اللغويين والنقلة ومؤلفي كتب العلم لم يشر الى الاخر او الى التعابير التي يستعملها الطرف الاخر ، واذا كانت بين اللغويين وبين النقلة والمؤلفين صلات ، فما مداها وامتدادها ،

وهل اقتصرت على مرحلة التعليم الاولى ام امتدت الى المراحل المتقدمة التي يتم فيها التأليف والانتاج .

كان بعض النقل في مراحله الاولى حرفيا « فجا » أطلق عليه ابن النديم نعت « عفطي » تكثر فيه الكلمات الاعجمية مثل انا لوطيقا وسوفسطيقا وارثماطيقي وابيديميا (٢٢) ، كما ان اسلوب الكتابة يتابع اسلوب كتابة ماينقل عنه ، وهو مخالف للأسلوب المألوف بالعربية، ويكون فهمه مغلقا على القاريء العربي . وهذا يدل على ضعف معرفة النقلة الاولين اللغة وضعف اتقانهم تركيب كلامها وأساليبها (٢٣) .

غير ان النقل لم يلبث ان تطور ليصبح أقرب ملاءمة للعربية بمفرداتها واساليبها ، فوضعت كلمات عربية لكثير من الكلمات التي وضعها النقلةالاولون بصيغتها الاعجمية ، فوضع الحساب مكان الارتماطيقي ، والقياس مكان الانالوطيقي ، والوباء مكان ابيديميا .

ولجأ النقلة الى هضم معنى ماينقلونه وصياغته باسلوب عربي قد يخالف حرفية النص الاصلي ولكنه لايخرج عن معناه ، ولقيت هذه النقول رواجا ، وكان ابرز متقنيها حنين بن اسحاق وهو حيري الاصل ، درس في جنديسابور الطب على يد بعض السريا ن، والعربية في البصرة على يد الخليل ابن احمد ابرز علماء العربية وواضع اول معجم عربي ، ثم درس اليونانية في الاسكندرية ومكنته مواهبه من استيعاب هذه العناصر ، وادرك حاجات اهل عصره وتذوقهم اسلوب الكتابة ، فكانت ترجماته انموذجا مقبولا تابعه من

---

(٢٢) انظر « فن الترجمة في الادب العربي » لمحمد عبدالغني حسن « في فنون الترجمة » لوديع قسطنطين ، المنشور في مجلة المجمع العلمي في دمشق ٣/٤٥ ، ١٩٧٠ «دراسات في تاريخ الترجمة» لبول كراوس. مجلة كلية الاداب بالقاهرة ٥ ــ ١٩٣٩/١ . « ضحى الاسلام» لاحمد امين، « حركة الترجمة في المشرق الاسلامي» رشيد الجميلي .

(٢٣) انظر : الحيوان للجاحظ ٧٥/١ .

تلاه ، وجعل الكتب المنقولة منسجمة في مفرداتها وأساليب عرضها مع كتب ميادين الفكر الاخرى ، ولا تتوفر معلومات كالتي عن حنين تتصل بنشأة النقلة واعدادهم الثقافي وأحوال اتقانهم العربية والاغريقية .

ذكرنا ان النقلة تظهر كتبهم انهم اتقنوا معرفة مفردات العربية وتركيب جملها واسلوبها ، وانهم حرصوا على ان يكون ما ينتجوه منسجما مع الهيكل الفكري العام في ذلك ، غير انهم اسبغوا معاني جديدة على كثير من المفردات العربية لتنسجم مع الافكار الجديدة في هذه العلوم .

وكان لابد من ابقاء عدد من الكلمات التي لا مقابل لها بالعربية ومن ذلك اسماء عدد من الاماكن واحجار والنبات ، وقد حافظوا على شكلها واصواتها ، وحرفوا بعضها لتنسجم مع جرس الالفاظ العربية ؛ وكان مصدرهم الرئيسي كتاب ديسقوريدس وكتب جالينوس خاصة والتي يحتوي كل كتاب منها أسماء نباتات واحجار في أقاليم اصبحت من ضمن الدولة الاسلامية مما يبسر على النقلة ضبط اسمائها ومعرفة ماكانت تسمى به في العربية اذا كانت فيه ، غير ان الدراسة المدققة التي عرضها ابراهيم بن مراد في كتابه القيم « المصطلح الاعجمي » تظهر ان نقلة الكتب ومن اخذ عنهم لم يكونوا دقيقين دائما في ضبط الاسماء الاعجمية للادوية والنبات او تعريف ماهيتها ؛ ومع هذا فقد بقيت تتناقلها الكتب المختصة دون ان تثير معارضة حتى اشد المعتزين بالعربية والمؤمنين بأهمية التعريب ، والواقع ان هذه المفردات قليلة العدد اذا قورنت بالثروة الضخمة من المفردات العربية وهي في ميادين فكرية خاصة محدودة الانتشار ، وقد ابقتها الضرورة دون تعمد التشويه .

رتب كثير من نقلة العلوم والمؤلفين فيها معلوماتهم وفق تنظيمات خاصة تسبغ على كتبهم سمة المعجمية ، غير انهم كثيرا ما أوردوا في بحث كل مادة تعابير غير قليلة تتعلق بتلك المادة ولا ترادفها .

وقد عنى عدد من المعاصرين بجرد المفردات « العلمية الواردة في الكتب

العربية القديمة ، وأفردوها ضمائم لما نشره من هذه الكتب ؛ وهي مادة قيمة تساعد على تحديد مستعمليها وزمن استعمالها ، وان كان كثير منها عام في كتب ميـدان العلم الذي تبحثـه • وكثير من هذه القوائم متفرق يتطلب التوحيد والتنسيق» •

وقد ازدادت العناية بجرد المفردات العلمية في الكتب التراثية على أثر الاهتمام الكبير في تعريب العلوم الحديثة ؛ فنشطت مؤسسات وأفراد لمتابعتها، وصدرت قوائم كبـيرة ، ومعجمات كثـيرة في عدد مـن ميـادين العلـوم الحديثة ، وأوردوا فيها كثيرا من التعابير « القديمة » واكملوه بما أضـافوه فيها ؛ وكادت كثرتها تجعلها مربكة فضلا عما في بعضها مـن اختلافات ؛ وهذا يدعو الى الحاجة لجرد شامل لما تم انجازه ، وتنسيقه بمجموعات موحدة ، ولابد ان التطور التقني المعاصر واستعمال الحسابات يساعد على تيسير هـذا العمل وتحقيقـه •



* * *

رصافة بغداد وأطرافها

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الحادي والأربعون - الجزء الثاني
1411هـ - 1990م

رصافة بغداد واطرافها

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع

ملاحظات عامة

اختار ابو جعفر المنصور الرقعة التي قرر اقامة مدينته عليها في الجانب الغربي من دجلة ، ووضع بنفسه تخطيطها واشرف على تأسيسها وتشييدها ، وقدّر ان تستوعب من اراد سكناهم معه فيها ؛ وكانت الرقعة عامرة بالمزارع ومحصورة بشبكة الانهار التي تزودها بالماء . وقد احتفظ الجانب الغربي بالتخطيطات التي وضعها ابو جعفر ، وظلت المدينة المدورة وابوابها والقطائع حولها محتفظة باسمائها وسماتها العامة قرابة قرنين من الزمن ، وامتدت بعد تطورها الى الاطراف الجنوبية ؛ حيث انشئت مناطق عامرة بالاسواق والمساكن ، وكان حد الاعمار فيها مجرى نهر عيسى ومصبه في دجلة . وبفضل الازدهار الاعماري والاقتصادي والفكري في الجانب الغربي ، فقد توفرت عنه معلومات يسرت رسم صورة واضحة لاعماره وتطوره . (١)

غير أن التطورات السريعة التي حدثت منذ ان انتقل اليهـا الخليفة كشفت ان الجانب الغربي لا يستوعب كافة السكان المتزايدين اذا أريد لـه ابقـاء التخطيط الذي وضعه ابو جعفر المنصور (١) . والحفاظ على هذا التخطيط في

---

(١) انصر تفاصيل وافيه عن الجانب الغربي وتطور اعماره كتابنا « بغـداد مدينة السلام » .

الجانب الغربي قرر استغلال الجانب الشرقي من دجلة ، واعماره ليستوعب تزايد السكان ؛ وقد حدث ذلك بعد ثلاث سنوات من انتقاله الى المدينة المدورة واستقراره فيها .

حدّد المنصور في الجانب الشرقي الرقعة التي قرر ان يقيم فيها ابنه وولي عهده محمد المهدي ؛ ولم تذكر المصادر انه عين اسمها ، وان كانت المصادر تسميها «عسكر المهدي» او «الرصافة» ؛ ثم انه اقطع عدداً من قواده وحاشيته وكتابه قطائع في المنطقة ؛ وذكر اليعقوبي ان « الجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابتدأ بناءه في سنة ١٤٣ (ولعل الاصح ١٥٣) فاختط المهدي قصره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي في الرصافة ، وحفر نهراً يأخذ من النهروان سماه نهر المهدي ، يجري في الجانب الشرقي .

واقطع المنصور اخوته وقواده بعدما اقطع من بالجانب الغربي وهو جانب مدينته ، وقسمت القطائع في هذا الجانب وهو يعرف بعسكر المهدي كما قسمت في جانب المدينة ، وتنافس الناس في النزول على المهدي لمحبتهم له ولاتساعه عليهم بالاموال والعطايا ، ولانه كان اوسع الجانبين ارضاً ، لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات ، فبنوا فيه ، وصار فيه الاسواق والتجارات فلما ابتدى بالبناء في الجانب الشرقي امتنع على من أراد سعة البناء (٢) .

ويتبين من هذا النص ان المهدي ، وليس ابو جعفر ، هو الذي اختط العسكر ؛ غير أن المصادر لم تذكر تفاصيل عن التخطيط العام كالذي ذكرته عن مدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي .

---

(٢) البلدان لليعقوبي ٢٥١ ؛ وقد أورد الحميرى في كتابه « الروض المعطار » نص الفقرة الاولى من كلام اليعقوبي في مادة « عسكر المهدي » (٤٢٠) ومادة « الرصافة » ٢٦٩ .

ويذكر النص ان المنصور اقطع « اخوته وقواده » ، وذكر كل من اليعقوبي والخطيب عدداً ممن اقطعوا في هذا الجانب ، وهم من اخوته وقواده وكتابه والمقربين اليه ؛ ولم يرد ذكر قطائع لمجموعات من الجند او اهل مدن كالذي ذكر في الجانب الغربي ، كما انه لم يرد ذلك تخطيط مسبق وضعه المنصور او المهدي للجانب الشرقي ؛ وفي هذا يختلف الجانب الشرقي عن الغربي ، علماً بان المصادر لم تذكر معلومات وافية عن الجانب الشرقي في القرنين اللذين تليا تأسيسه ما خلا اشـارة اليعقوبي الى الطـرق الخمسة الرئيسة الآخذة من رأس الجسر(٣) ،ووصف سهراب للانهار التي تخترق الجانب الشرقي وما عليها من قصور وبيوت (٤) .

ظل القسم الاعلى من الجانب الشرقي ، بما فيه عسكر المهدي او الرصافة ، عامراً بالقصور والمنازل والاسواق قرابة قرنين من الزمن ، فيروي الخطيب ان « طول المعمور في الجانب الشرقي والغربي مائتان وخمسون حبلاً ، أما في العرض فان الجانب الشرقي مائة وخمسة احبل وعرض الجانب الغربي سبعون حبلاً » (٥) اي ان مساحة المعمور في الجانب الشرقي كانت اوسع مما في الجانب الغربي ، والحبل ستون ذراعاً .

ويقول الخطيب ايضاً ان عدد دروب الجانب الغربي ستة الاف درب ، وعددها في الجانب الشرقي اربعةالاف درب(٦)وقد تكون في هذه الارقام مبالغة ، الا أنها تشير الى ان اعمارالجانب الغربي كان يبلغ ثلثي الجانب الشرقي

---

(٣) البلدان ٢٥٣ .

(٤) عجائب الاقاليم السبع ١٢٩ ــ ١٣١ ، تاريخ بغداد للخطيب ١٠٣/١ ــ ٤ ويلاحظ ان اليعقوبي لـم يخصص في كتـاب البـلدان الا صفحتين (٢٥١ ــ ٣) وكذلك الخطيب فانه لم يخصص للجانب الشرقي في مقدمته الجغرافية الا صفحات قليلة (٦٤/١ ــ ٦٥ ، ٧٨ ــ ٨٤ .

(٥) الخطيب ١٢٠/١ .

(٦) الخطيب ٨٩/١ .

ثم عم الخراب بغداد بجانبيها في اواخر القرن الرابع ، ولما عاد الاعمار الى بغداد في القرن السادس اتجه نحو الجنوب ، حيث كانت دار الخلافة وما حولها من المحال والمنازل . غير ان منطقة واحدة ظلت بعيدة عن الخراب ، هي الرصافة التي لم يقم بها من الخلفاء غير المهدي في بعض سني خلافته(٧) ، ولكن اقام في قصرها بعض افراد الاسرة العباسية ، كما ظل جامعها ثاني ابرز جوامع بغداد. بما كانت تقام به الصلوات وصلاة الجمعة بائمتها من الاسرة العباسية ، وبما كان فيه من حركة فكرية كمركز العلم ؛ ثم صارت فيها مدافن الخلفاء .

المصادر : ـ

ان المصادر الاساسية للمعلومات عن الجانب الشرقي هي التي اوردها كل من سهراب وابن الفقيه والخطيب البغـدادي واليعقوبي . ويلاحظ ان الخطيب نقل ما اورده سهراب ، كما ان المعلومات الخططية التي ذكرها ابن الفقيه تطابق مـا ذكره الخطيب ، لذلك يمكن اعتبار المصادر عن الجانب الشرقي هي سهراب ، والخطيب البغدادي ، واليعقوبي .

وعني سهراب بوصف مجاري انهار الجانب الشرقي ، وذكر في وصفه عدداً قليلاً من الاماكن التي تقع على الأنهار ، وهذه الأماكن التي ذكرها هي سويقة نصر ، وسويقة الخضريين ، وسوق عمار ، ودار البانوجة ، ودار ابي الخطيب ، وشارع سعد الوصيف ، واحواض الأنصار ، وهيلانة ، وداوود ؛ وشارع عمرو الرومي . ان ذكره هذه الاماكن دليل على وجودها في اواخر القرن الثالث ، وهو زمن تأليف الكتاب ، ولعله ذكرها لانها معالم بارزة على الانهار ولا بد أنه اغفل ذكر اماكن غير قليلة لبعدها عن الانهار او لانها لم تكن لها اهمية في زمنه .

(٧) انظر الفصل الذى كتبناه « منازل الخلفاء وقصورهم » ونشر في مجلة سومر ثم في كتاب « معالم بغداد العمرانية » .

وخص الخطيب الجانب الشرقي باربعة صفحات عن القطائع والدروب ، والرصافة ، والانهار ، والمقابر . وفصله عن الانهار مطابق لما ذكره سهراب ، اما المقابر فان التي ذكرها قليلة ، واما الرصافة فسنفرد لها حديثاً خاصاً .

اما القطائع والدروب والاسواق فانه ذكر اثنين وثلاثين موضعاً ، منها ثمانية اسواق ، وثلاثة دروب ، ورحبة ، ومربعة ، وخان ، وقنطرة ؛ وثلاثة أحواض ، وسبعة قصور ، وسبعة دور ، واشار الى ان بعضها قطائع .

انفرد الخطيب بذكر قصور وقطائع اسماء ، وعبيد الله بن المهدي ، وخضير ، ويحيى بن خالد ، وابي عبدالله ، ونصر ، والسرى ، وحطم ، والمفضل بن زمام ، والعباسة ، وابن عباد ، وحجاج الوصيف ، وعمارة بن ابي الخصيب ، والمعلى بن طريف ، والاغلب ، وداوود ، وهيلانة ، والمبارك ، وعلي بن المهدي ، كما ذكر قصور الشاطىء وهي تشمل دار كل من دينار ، ورجاء بن ابي الضحاك ، والهاشميين ، والمعتصم ، والمأمون .

أما اليعقوبي فانه ذكر قطائع اربعين رجلاً ذكر منها الخطيب درب خزيمة ، ويعقوب بن داوود ، وعمارة بن ابي الخصيب ، وسعيد الحرشي ، وانفرد بذكر الباقين .

وذكر اليعقوبي ان « هذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في ايام المنصور ووقت ابتدائها ، وقد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها ، وملكها قوم بعد قوم ، وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ٢٢٣ » (٨) .

(٨) البلدان ٢٥٤ .

التخطيط : ـ

يدعي اليعقوبي بهذا النص أن كلامه ينطبق على الاحوال التي كانت قائمة في زمن أبي جعفر ، وأنه حدثت في تلك الاحوال تطورات تالية واسعة لم يفصلها ، والواقع ان معظم اصحاب القطائع الذين ذكرهم كانوا في ايام ابي جعفر والمهدي ، ومن المحتمل انه ادخل معهم بعض من امتلك املاكاً بعد ذلك . ولا تسعف المصادر بمعلومات تيسر التحديد بدقة احوال كل قطيعة وزمن حدوث التبدلات في ملكيتها واوضاعها .

ابرز اليعقوبي ان الجانب الشرقي تكوّن من مجموعة قطائع ذكرها ، وذكر سوقاً واحدة وخمسة طرق ، ولم يشر الى معالم عمرانية أخرى في الجانب الشرقي ، غير انه ذكر ان استيطان الجانب الشرقي لم يقتصر على هذه القطائع ، وانما كان بينها « منازل الجند وسائر الناس من التناء والتجار ومن سائر الناس في كل محلة وعند كل ربض » ثم ذكر سوقا واحدة اطلق عليها « السوق العظمى في هذا الجانب » وهي تبدأ من رأس الجسر » كما ذكر خمسة طرق فيه . . (٩)

ويتبين من كلام اليعقوبي ان تخطيط الجانب الشرقي خلط منذ بدايته بين القطائع ومنازل العامة من الجند وسائر الناس ، فهو لم يفرد قطائع لجماعات متميزة ، كالذي حدث في الجانب الغربي ، ولم يشر الى خطة مرسومة في توزيع منازل العامة والجند ، كما انه لم يشر الى عدد هؤلاء وتكوينهم . ولعل الاختلاف بين معلومات الخطيب واليعقوبي يرجع الى ان الخطيب لم يحصر كلامه في اصحاب القطائع الاولى وانما ادخل فيه بعض التطورات التالية ، وان بحثه لم يكن شاملاً .

(٩) البلدان ٢٥٣ .

القطائـع : ـ

ان كافة القطائع المذكورة في الجانب الشرقي هي لاشخاص ذوى مكانة متميزة لقرابتها بالخليفة او عملها في الادارة ، وقليل منهم ولى مناصب عسكرية ، ولابد ان قطيعة كل منهم كانت كبيرة تتناسب مع مكانته ، وربما كان بناؤها متميزا . ومن المحتمل ان كلاً منهم أسكن من كان متصلا به من الموالي والحشم والخدم ، لسد حاجاته البيتية .

ولا بد ان الجانب الشرقي أخذ يزدحم بالسكان منذ اول استيطانه نظرا لحاجة المستوطنين الى العمال والصناع ورجال الاعمال والتجار ومع أن عددا منهم جاء من المتوطنين القدماء ، الا ان عددا اكبر قدمها من خارجها . ولا تسعفنا المصادر بمعلومات عن خطوات تطور هذا الاعمار . ولكن مدفن كل من ابي حنيفة ، ومحمد بن اسحاق ، وهشام بن عروة في سنة ١٥٠ في مقبرة الخيزران وهي بالجانب الشرقي(١٠) قد يدل على سكناهم فيه وعلى قدم الهجرة الواسعة اليه .

ان كثرة القطائع في القسم الاعلى من الجانب الشرقي يدل على ان هذا القسم زاد اعماره منذ البداية ، ثم ان وجود منابت القصب والمصلى القديم عند قبر النذور يدل على ان هذه المناطق كانت نهاية الاعمار في الجانب الشرقي .

غير ان تشييد جامع الرصافة في الجانب الشرقي يدل على ان التزايد وصل درجة تطلب اقامة هذا الجامع الذي يشير يزدجرد بن مهبنداد الى انه لم يقل في سعته عن جامع المنصور في الجانب الغربي .

لم يذكر اليعقوبي او الخطيب مساحة كل قطيعة او يحددا موقعه بدقة ، غير ان سياق كلامهما يدل على انهما عدّدا القطائع مبتدئين من شاطىء دجلة غرباً ، ثم اتجها في وصفهما الى الشرق والجنوب ، ولم ينص اي منهم على ما كان من قطاعات في الرصافة التي بنيت مناظرة لمدينة المنصور المدورة ، والواقع ان

(١٠) الخطيب ١٢٠/١ .

المعلومات تدل على ان معظم هذه القطائع ، ان لم يكن كلها ، كانت حول الرصافة وخارجها ، ولم تكن في داخلها .

اصحاب القطائع : ـ

ان اغلب هذه القطائع كان اصحابها عرباً ممن لهم مكانة في الخلافة العباسية في عهودها الاولى ، ومنهم رجال من ابناء الاسرة العباسية ، ومن المتصلين بالخليفة المهدي ، وممن اشغلوا مناصب عالية في الجيش والادارة ، ولا بد ان معظمهم كان له عدد من الموالي والاتباع يسكنون في اقطاعه .

يتصدر قائمة اليعقوبي في الاقطاعات اربعة من رجال الاسرة العباسية ، وتنتهي قائمة الخطيب بذكر قصور لهم على شاطيء دجلة في الاطراف الجنوبية من الرصافة، اي ان اكثر اقطاعات العباسيين كانت على شاطىء دجله، كما كانت لبعضهم ، كالبانوقة وام حبيب ، قصور في الاطراف الجنوبية والشرقية من هذا الجانب ، وهي بعيدة عن شاطىء دجلة .

ذكر اليعقوبي اقطاعات لسبعة رجال من موالي المهدي وخدمه وهم نصر الوصيف او بدر الوصيف ، وسلمة الوصيف ، والعلاء الخادم ، وحمويه ، وسلام ، وسوار ، وابو غسان ، وهم من موالي المهدي .

ان اغلب اقطاعات الجانب الشرقي كانت لرجال من مختلف العشائر اليمنية وهي تشمل .

١ ــ من خزاعة : مالك بن الهيثم ، ومحمد بن الاشعث ، واسد بن عبدالله .

٢ ــ من الازد : سفيان بن معاويه ، وروح بن حاتم ، وابان بن صدقة ، وعقبة بن سلم الهنائي .

٣ ــ من بجيلة جبريل بن يحيي ، ومن حمير زياد بن منصور .

٤ ــ من باهلة سلم بن قتيبة ، ومن الحريش سعيد الحرشي .

وفي الجانب الشرقي قطائع لعدد ممن اشغل مناصب ادارية كقادة في الجيش ، وولاة ، وقضاة ، وكتاب .

عسكر المهدي والرصافة

عسكر المهدي : ـ

أمر أبو جعفر المنصور بأن يشيد في الجانب الشرقي مقر لابنه محمد المهدي مع من معه من الجيش الذي عاد به من الري ، ولذلك سمى المكان عسكر المهدي . وفي ذلك يقول الخطيب « ربع الرصافة يسمى عسكر المهدي ، وانما سمي بذلك لان المهدي عسكر فيه عند شخوصه من الري » (١١) ويقول ابن حوقل « ويسمى الجانب الشرقي منها جانب باب الطاق وجانب الرصافة ، ويسمى عسكر المهدي لانه كان عسكر بحذاء مدينة ابي جعفر المنصور » (١٢) ويقول اليعقوبي «الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي» (١٣) ، ويقول ياقوت «عسكر المهدي هو الرصافة» (١٤).

تردد اسم « عسكر المهدي في المصادر الاولى ، فذكر وكيع ان المهدي ولى محمد بن عبدالله بن ابي علاثة القضاء بعسكر المهدي (١٥) وذكر عريب ان محمد بن يوسف قلد قضاء الشرقية وعسكر المهدي (١٦) وذكر ابن سعد من قضاة عسكر المهدي كل من سعيد بن عامر (١٧) ، والواقدي (١٨) ، كما ذكر ابن سعد ان يحيى بن سعيد بن أبان ينزل عسكر المهدى على المسيب عند رجاء عبد (١٩) ، وان شريح بن النعمان « كان منزله بعسكر المهدي على شبيب القاضي (٢٠) ،

---

(١١) الخطيب ١/٨٣ .

(١٢) ابن حوقل ٢١٦ .

(١٣) البلدان ٥٣ .

(١٤) ممعجم البلدان ٣/٦٧٧ ، مراصد الاطلاع ٢/٩٤١ .

(١٥) اخبار القضاة ٣/٢٥١ ، ٢٥٢ .

(١٦) صلة تاريخ الطبرى ٤٣ ، ٤٦ .

(١٧) الطبقات ٤ ـ ٢/١٤ .

(١٨) الطبقات ٥/٣١٤ ، ٧ ـ ٢/٧٧ .

(١٩) الطبقات ٧ ـ ٢/٨١ .

(٢٠) الطبقات ٧ ـ ٢/٨٢ .

وذكر ممن كان ينزل عسكر المهدي كلا من (١) عبدالرحمن بن يونس (٢) ابراهيم ابن الليث (٣) محمد بن عبدالله بن المثنى (٤) عبدالملك بن محمد (٥) الحسين بن الحسن العوفي (٦) ابو البختري (٧) سعيد بن عبدالرحمن (٨) عبدالملك بن محمد . . ابن حزم (٢١) .

وذكر أيضاً ممن دفن بعسكر المهدي فطر بن باب (٢٢) ، وعبدالجبار بن عاصم (٢٣) وعبدالله بن عمر بن ميسرة القواريري « دفن بعسكر المهدي خارج الثلاثة الابواب » (٢٤) .

وذكر الطبري ان « جسر دجلة الاعلى مما يلي عسكر المهدي » (٢٥) وان الرشيد « ولد في دار كانت لمحمد بن سليمان على شاطىء دجلة في عسكر المهدي (٢٦) .

وقد امتد استعمال تعبير «عسكر المهدي» ، فشمل عند ابن النديم مقابر الخيزران التي فيها قبر ابي حنيفة (٢٧) . وجعل اليعقوبي « الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي » (٢٨) ، غير انها خصصت في الكتب التالية باسم « الرصافة » ، وتناقص تردد تعبير «عسكر المهدي» ولا نعلم متى او لماذا استعملت كلمة «الرصافة» التي تعني الارض المرصوفة والتي اطلقت على عدة مواضع اخرى اشهرها رصافة هشام بن عبد الملك قرب قنسرين ، ورصافة واسط .

(٢١) مذكورون بالتتابع في القسم الثاني من الجزء السابع من الطبقات (١) ٩٤ (٢) ٩٧ (٣) ٤٨ (٤) ٦٨ (٥) ٨٤ (٦) ٧٥ (٧) ٤٦ (٨) ٤٦ .
(٢٢) الطبقات ٧ ــ ٢/٨٥ .
(٢٣) الطبقات ٧ ــ ٢/٩٤ .
(٢٤) الطبقات ٧ ــ ٢/٨٤ .
(٢٥) الطبري ٣/٤٧١ .
(٢٦) الطبري ٣/٤٧٢ .
(٢٧) الفهرست ٢٥٥ .
(٢٨) البلدان ٢٥٣ .

تاريخ البناء : ـ

نقل الخطيب عن محمد بن يحيي ان ابا جعفر المنصور بنى الرصافة سنة ١٥١ ، وان بناءها استتم ١٥٩ (٢٩) .

وروى الطبرى عن الشروى ان المهدي بنى مسجد الرصافة وحائطها وحفر خندقها سنة ١٥٩ (٣٠) .

ان تاريخ ١٥١ مبكر جدا ولا ينسجم مع رواية اخرى تذكر ان المهدي اقام بعد عودته من الري في الشرقية بالجانب الغربي حيث بنى له مسجداً ، ثم بدا للمنصور ان يبنى له في الشرقي .

ونستبعد ايضاً ان يكون المهدي قد بدأ بناء الرصافة سنة ١٥٩ اي بعد توليه الخلافه ، اذ انه لم يطل المقام فيها وانتقل سنة ١٦٤ الى قصر السلامة ، فالراجح ان البناء قد بدىء به في زمن ابي جعفر المنصور ولعله في سنة ١٥٤ ، وان البناء استغرق زمنا ، واكمل سنة ١٥٩ (٣١) .

بدايات البناء : ـ

يقول اليعقوبي « اختط المهدي قصره بالرصافة الى جنب المسجد الجامع الذي بالرصافة ، وحفر نهراً يأخذ من النهروان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي » (٣٢) .

ويروى الخطيب « امر المهدي ببناء مسجد الرصافة وحاط حائطها وخندق خندقها ، وذلك كله في السنة التي قدم فيها مدينة السلام » (٣٣) .

(٢٩) الخطيب ٨٢/١٢ .
(٣٠) الطبرى ٣٦٥/٣ ، وانظر تاريخ الغسوى ١٠٩/١ .
(٣١) انظر تفاصيل اوفي في الفصل الذى كتبناه عن « منازل الخلفاء وقصورهم » والمنشور في كتاب « معالم بغداد العمرانية » .
(٣٢) البلدان ٢٥١ ، وانظر الروض المعطار ٢٦٩ .
(٣٣) الخطيب ٣٩٣/٥ .

ويقول الطبري انه في سنة ١٥٩ « بنى المهدي مسجد الرصافة وفيها بنى حائطها وحفر خندقها » (٣٤) .

ويذكر الخطيب ان المنصور بنى للمهدي « الرصافة وعمل لها سورا وخندقا وبستانا واجرى له الماء » (٣٥) ويضيف الطبري بعد روايته هذا النص فكان يجري الماء من نهر مهدي الى الرصافة » (٣٦) .

ويروي ياقوت « لما بنى المنصور مدينته بالجانب الغربي واستتم بناءها أمر أبنه (المهدي) ان يعسكر في الجانب الشرقي وان يبني له فيه دوراً ، وجعلها معسكراً له ، والتحق بها الناس وعمروها ، فصارت مقدار مدينة المنصور » (٣٧) .

السور والخندق : ــ

يتبين من الروايات التي ذكرناها ان الرصافة كانت محاطة بسور وخندق يجعلانها محددة المعالم ، محصورة الرقعة . وكان في سورها ابواب من حديد ظلت حتى قلعت سنة ٣٥٠هـ(٣٨) . ولم تذكر المصادر عنها معلومات كالتي ذكرتها عن المدينة المدورة عن الخندق او عن السور الذي ذكرته بصيغة المفرد ، ولم تشر الى وجود سورين فيها كالذي كان في المدينة المدورة في الجانب الغربي .

ولا بد ان السور كانت له ابواب لم يذكر عددها . ويذكر ابن سعد ان عبيدالله بن عمر بن ميسرة القواريري « دفن بعسكر المهدي خارج الثلاثة الابواب » (٣٩) ، وقد يوحي هذا بانه كانت للرصافة ثلاثة ابواب ويلاحظ ان الطبري في وصفه سور المستعين يذكر ان محمد بن عبدالله بن طاهر ركب « الى

(٣٤) الطبري ٣/٤٦٠ .
(٣٥) الخطيب ١/٨٢ .
(٣٦) الطبري ٣/٣٦٥ .
(٣٧) معجم البلدان ٢/١٨٣ .
(٣٨) تجارب الامم ٢/١٨٣ .
(٣٩) الطبقات ٧ ــ ٢/٨٩ .

باب الشماسية وامر بهدم ما وراء سور بغداد من الدور والحوانيت والبساتين . وقطع النخل والشجر من باب الشماسية الى ثلاثة ابواب لتتسع الناحية على من يحارب » (٤٠) .

وذكر الخطيب باب الرصافة (٤١) .

ويلاحظ ان المستعين عندما تحصن في بغداد كان يقيم بالرصافة ، وانه بنى سوراً يمتد في الجانب الشرقي من باب الشماسية فالبردان فشارع الميدان وسوق الثلاثاء ، أي بعيداً عن الرصافة ، ولا بد ان سور الرصافة كان قائماً ومكيناً ، فلم يرد ذكر لتقويته في زمن المستعين .

وكان سور الرصافة قائماً في سنة ٣٢٩ التي توفي فيها الخليفة الراضي وكان قبره « في قبة مفردة في ظاهر سور الرصافة وحده » ولم يرد ذكر السور بعدذلك، علماً بأن الرصافة ظلت قائمة رغم اندثار ما حولها ، وفيها ترب الخلفاء (٤٢) كما ستذكر فيما بعد .

وقد شيد المسترشد سوراً على الجانب الشرقي من بغداد سنة ٥١٧(٤٣) ولم يذكر ان هذا السور عند الرصافة .

ويذكر مؤلف الحوادث الجامعة أنه في سنة ٦٢٧ « فيها تكامل بناء سور الرصافة الذي أمر بعمارته الخليفة المستنصر بالله » (٤٤) ، ولا بد أن تشييد هـذا السور بسبب اندثار السور القديم . غير انه لا تذكر المصادر معلومات عنه . اذ قد يكون حول الجانب الشرقي وليس حول عسكر المهدي .

---

(٤٠) الطبرى ١٥٧٦/٣ .
(٤١) الخطيب ١١٦/٦ .
(٤٢) معجم البلدان ٧٨٣/٢ .
(٤٣) المنتظم ٢٤٣/٩ ، ٢٤٥ ، ابن الاثير ٦١٦/١٠ ، ٣٧/١١ ، وانظر الحوادث الجامعة ٢٣ .
(٤٤) الحوادث الجامعة ١٦ .

وكانت على السور ابواب ظلت الى سنة ٣٥٠ حين قلع معز الدولة « الابواب الحديد على المدينة والتي بالرصافة ، وعلى شارع نهر المعلى (٣٥) .

واشارت المصادر الى باب الرصافة ففي سنة ٢٧٥ « حبس أبو احمد (الموفق) ابنه ابا العباس فشغب اصحابه وحملوا السلاح .. فركب أبو احمد لذلك حتى بلغ باب الرصافة »(٤٦).

ولما ادخل القرمطي سنة ٢٩١ بغداد مصلوبا على دقل « والدقل على ظهر فيل ، فأمر بهدم طاقات الابواب التي يجتاز بها الفيل وكانت أقصر من الدقل ، وذلك مثل باب الطاق وباب الرصافة وغيره (٤٧) .

العمران والتوسع : ـ

أنشئت مدينة الرصافة لتكون مقاماً للمهدي وعسكره ، ولا بد أن ارضها وزعت خططاً ، ويروي الطبري ان صالح صاحب المصلى اشرف على توزيع الخطط وان « له بباب الجسر وسوق يحيى ومسجد خضير وفي الرصافة وطريق الزواريق على دجلة مواضع بناء بما استوهب من فضل الاقطاع عن اهله » (٤٨) . غير ان المصادر لم تذكر تنظيم الرصافة وطرقها وقطائعها .

اشار ياقوت الى التوسع الذي حصل في سكان مدينة الرصافة بعد تشييدها فذكر « لما بنى المنصور مدينته بالجانب الغربي واتم بناءها امر ابنه المهدي ان يعسكر في الجانب الشرقي وان يبني له فيه دوراً وجعلها معسكراً له ، والتحق بها الناس وعمروها فصارت مقدار مدينة المنصور » (٥٩) ؛ ولا ريب في أن التوسع الذي أشار اليه كان في عدد السكان لأن مساحتها محصورة بالسور والخندق ، وان هذا التزايد كان اغلبه من عناصر « حضرية » وليست عسكرية ، وقد اشار

(٤٥) تكملة الطبري للهمداني ١٧٩ ، تجارب الامم ١٨٣/٢ .
(٤٦) الطبري ٢١١٥/٣ .
(٤٧) الطبري ٢٢٤٣/٣ .
(٤٨) الطبري ٣٦٧/٣ .
(٤٩) معجم البلدان ٧٨٣/٢ .

اليعقوبي الى هذا التزايد وأسبابه في الجانب الشرقي عموماً فقال « واقطع المنصور أخوته وقواده بعدما اقطع من بالجانب الغربي وهو جانب مدينته ، وقسمت القطائع في هذا الجانب وهو يعرف بعسكر المهدي كما قسمت في جانب المدينة ، وتنافس الناس في النزول على المهدي لمحبتهم له ولا تساعه عليهم بالاموال والعطايا ، ولانه كان اوسع الجانبين ارضاً ، ولان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات ، فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والبناء ، فلما ابتدىء البناء في الجانب الشرقي امتنع على من اراد سعة البناء » (٥٠) وقد عدد اليعقوبي قطائع الجانب الشرقي واشار الى موقع بعضها خارج الرصافة ، ولم يحدد ما كان منها داخل الرصافة .

ولا ريب في ان مما ساعد على نموها اتخاذ المهدي مقره فيها ، ، مما لابد ان يكون تبعه انتقال عدد من الكتاب والحاشية اليها . وقد اشار الطبري الى درب الديوان في الرصافة (٥١) ، وذكر ابن الجوزي ان عبدالخالق الهاشمي كان يقيم بدرب الديوان في الرصافة ، ودرّس بجامع المهدي وبالمسجد الذي على باب الديوان (٥٢) وذكر الخطيب ان محمد بن علي بن طاهر كان ينزل درب الديوان في جوار ابي القاسم بن بشران وله مجلس وعظ في جامع المهدي (٥٣) .

وورد ذكر شارع الرصافة ، فلما ماتت جدة المقتدر « كفنها ودفنها بشارع الرصافة » (٥٤) ، ولما ماتت ام المقتدر حملت الى باب الطاق ومشى الناس كلهم سوى الوزير الى الترب بشارع الرصافة (٥٥) ، ولعل هذا الشارع هو الذي سماه ابن عقيل « شارع الترب » .

(٥٠) البلدان ٢٥١ ، وانظر الروض المعطار ٤٢٠ .
(٥١) الطبرى ٤٧٣/٣ .
(٥٢) المنتظم ٣١٦/٨ ، ذيل طبقات الحنابلة (طبعة سور ديل) ٢٠٢/١ .
(٥٣) الخطيب ١٠٤/٣ .
(٥٤) صلة تاريخ الطبرى لعريب ١٥٦ .
(٥٥) المنتظم ٢٥/٩ .

وذكر ابن عقيل ان « سوق الرصافة عظيمة جامعة» .

ويذكر سهراب ان نهر المهدي يدخل الرصافة في مسجد الجامع الى بستان حفص ، ويصب في جوف قصر الرصافه في بركة فيه (٥٦) .

وممن كانت له في الرصافة : دار محمد بن سليمان ، وقد نزلها عيسى بن موسى (٥٧) وفيها ولد الامين سنة ١٦٥ ،ثم صارت الدار للعباسة ثم للمعتصم(٥٨)

وفي عسكر المهدي كانت دار ابي صالح (٥٩) .

اقتصرت المصادر على ذكر « الرصافة » دون الاشارة الى انها مدينة وذكر الخطيب في عدة مواضع « ناحية الرصافة » (٦٠) وذكر في مكان واحد « تخوم الرصافة » (٦١) .

وبسبب موقعها المنعزل نسبيا لم تسهم في الحركات السياسية والفتن الطائفية ولم يؤيد اهلها الأمين ومالوا الى طاهر بن الحسين في قتاله الامين ؛ وعندما حدثت اضطرابات في الجانب الشرقي قصدها الموفق واتخذها قاعدة لتهدئة الاحوال في سنة ٢٧٥ (٦٢) ، وفي سنة ٣٢٥ حدثت فتنة » فحصل بدر في الجانب الغربي وحصل اقبال بالرصافة (٦٣) .

وذكر ابن سعد ممن سكن عسكر المهدي ، وهو الرصافة، عبد الرحمن بن يونس ، وابراهيم بن ابي ابي الليث ، وشريح بن النعمان .

---

(٥٦) عجائب الاقاليم السبع ١٣١ .
(٥٧) الطبرى ٣/٤٧٠ .
(٥٨) الطبرى ٣/٧٥٧ .
(٥٩) الطبرى ٣/٩٢١ .
(٦٠) الخطيب ٣/٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٧/٤٢٤ ، ٨/١٥ ، ١٠٧ ، ١٠/١٣٩ ، ١١/٤٠١
(٦١) الخطيب ٤/٥٥ .
(٦٢) المنتظم ٥/٦٤ .
(٦٣) تكملة الطبرى ٣٢٥ .

وذكر الخطيب في مواضع متفرقة من تاريخه عـــددا ممن سكن الرصافة دون ان يحدد موضع سكناهم بدقة : وممن ذكرهم

(١) محمد بن علي الكرخي ٣/٩٢
(٢) محمد بن محمد بن الطيب ٣/٢٣٤
(٣) الحسن بن زيد الاصم الكوفي ٧/٤٥٠
(٤) الحسن بن محمد ابو علي الفقيه ٧/٤٢٤
(٥) الحسين بن احمد بن عثمان بن نشيطا ٨/١٥
(٦) الحسين بن محمد بن علي . . ابن البزري ٨/١٠٧
(٧) عبدالله بن محمد الضرير ١٠/١٣٩
(٨) علي بن الحسين الانماطي ١١/٤٠١
(٩) يعقوب بن الوليد ١٤/٢٦٦
(١٠) يعقوب بن ابراهيم الدورقي (ت ٢٥٢) ١٤/٢٧٨

وذكر ابن النديم ان ابن المنادى كان ينزل الرصافة (٦٤)

وذكر ابن النجار ممن سكن الرصافة علي بن الحسين بن احمد (٦٥) ، وعلي بن احمد الزجاجي (٦٥أ)

وذكر ابن الدبيثي ممن سكن الرصافة محمد بن احمد ابن الفقيه (٦٦)

وكان اهل عسكر المهدي مؤيدين للمأمون ، فوقفوا ضد عيسى المعارض له ؛ ولم يسهموا في الدفاع عن الامين وانما « لزموا منازلهم واسواقهم » (٦٧) .

وفي سنة ٣٢٩ « نصبت القباب باب الطاق والرصافة لزوار الحائر (٦٨)

---

(٦٤) الفهرست ٤١ .
(٦٥) ذيل تاريخ بغداد ٣/٢٥٧ .
(٦٥أ) ذيل تاريخ بغداد ٣/١٠٦ .
(٦٦) ابن الدبيثى ١/١٥٢ .
(٦٧) الطبرى ٣/٩٠٥ .
(٦٨) تكملة الطبرى ١٢١ (= ٣٢٩ طبعة ابى الفضل ابراهيم) .

وذكر ياقوت « المحلة المعروفة بالرصافة (٦٩) ، وذكر المنذرى ان « الرصافة محلة كبيرة » (٧٠)

وذكر ابن عقيل ان «سوق الرصافة عظيمة جامعة» .

غير انه في اواخر زمن العباسيين « خربت تلك النواحي كلها ولم يبق الا الجامع وبلصقه مقابر الخلفاء(٧١) ودفن زيرك الخصى غلام القاهر في دار اشتريت له بالرصافة (٧٢) .



* * *

(٦٩) مضمار الحقائق ٥٧ .
(٧٠) التكملة في وفيات النقلة ٣٨٢/١ .
(٧١) معجم البلدان ٧٨٣/٢ .
(٧٢) اخبار الراضي والمتقي ١٤٦ .

المسـجد الجامـع

كان الجامع المعلم العمراني الكبير الاول الذي شيد في الرصافة ، وكانت قبلته صحيحة « لأن مسجد الرصافة بني قبل القصر وبنى القصر عليه »، وهو يقع في الجهة الشمالية الشرقية من القصر ،لان نهر المهدي يمر به ثم ببستان حفص ثم يصب في بركة في القصر وكان الجامع مما يلي سويقة نصر بن مالك (٢) وقد استتم بناؤه في سنة ١٥٩ (٣) ، ولم تذكر المصادر توسيعا اجرى فيه ، او طراز بنائه وعدد ابوابه ، سوى ان وكيع ذكر فيه « باب الخدم » (٤) .

ويقول ياقوت ان جامع الرصافة اكبر من جامع المنصور واحسن (٥) . « ولم تكن صلاة الجمعة تقام بمدينة السلام الا في مسجدي المدينة والرصافة الى وقت خلافة المعتضد » حيث بنى مسجد القصر و « استقرت صلاة الجمعة ببغداد في المساجد التي ذكرناها الى خلافة المتقى » . ثم ظلت تقام فيه صلاة الجمعة الى آخر العصر العباسي (٦) . ولم يكن في اعلى الجانب الشرقي جامع غيره .

وكان جامع الرصافة يسمى المسجد(٧) والمسجد الجامع (٨) ، وجامع الجماعة

---

(١) الطبرى ٣»٣٢٢ ، احسن التقاسيم ١٢١ .

(٢) عجائب الاقاليم السبع ٢٣١ ، الخطيب ٤٢٧/١٤ .

(٣) الخطيب ٨٢/١ ، ١٠٩ ، وانظر ٣٩٣/٥ .

(٤) اخبار القضاة ٢٧١/٣ .

(٥) معجم البلدان ٧٨٣/٢ .

(٦) الخطيب ١٠٩/١ ، اخبار الراضي والمتقى ٢٨٥ ، المنتظم ٥١/٦ .

(٧) الخطيب ٤٠٣/١ ، ٣٦٧/٦ ، ٧١/١٠ ، ١٤٣/١٢ .

(٨) البلدان لليعقوبي ٢٥١ ، عجائب الاقاليم السبع ٢٥١ ، الخطيب ٧٥/١ ، ٣٩٠/٥ ، ٤٠٩/١٣ ، ٤٢٧/١٤ .

بالرصافة (٩) غير انه كان في الغالب يسمى جامع الرصافة(١٠) .

وفي اواخر العصر العباسي غلب عليه اسم « جامع المهدي » (١١) وبهذا الاسم ذكره ابن المنذري وابن الدبيثي وابن الساعي الذين لم يذكروه باسم « جامع الرصافة » .

ومن مظاهر اهميته ذكر المصادر اسماء من ولي صلاة الجمعة فيه ، فكان يليها في زمن المأمون محمد بن عمر الواقدي (١٢) ، وفي زمن المعتصم شعبة بن سهل الرازي (١٣) .

وعند ان عاد الخلفاء العباسيون من سامراء الى بغداد ، ذكرت المصادر اسماء من ولي صلاة الجمعة فيه وكلهم من الاسـرة العباسية ، وممن ذكر الحسن بن عبدالعزيز وولده(١٤) ، والفضل بن عبدالملك الهاشمي(١٥) ، وعمر بن الفضل ابن عبدالملك (الى ان توفي سنة ٣٠٧) (١٦) ، واحمد بن العباس بن محمد بن العباس بن محمد بن سليمان بن محمد بن ابراهيم الامام(سنة ٣٠٧) (١٧) ، وابراهيم بن عبدالعزيز الهاشمي (الى سنة ٣٢٢) (١٨) ، واحمد بن الفضل بن عبدالملك الهاشمي (من ٣٢٢) (١٩) ، وحمزة بن القاسم (ت ٣٣٥) (٢٠) ، وابو

(٩) الطبرى ٤٧٢/٣ .
(١٠) الخطيب ٣٥٣/١ ، ٣٩٠ ، ٦٥/٣ ، ١٥٥ ، ٢٥٣/٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، ٤٢٤ ، ١٠٩/٧ ، ٨ ظ ٥ ، ١١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٢ ، ٦٢/١٣ .
(١١) المنذرى ٤٤/٢ ، ١٢٦ ، ٤٨٠/٣ ، ابن الدبيثي ١٢٣/١ ، المنتظم ٨ ظ ٣١٦ .
(١٢) اخبار القضاة ٢٧٠/٣ .
(١٣) اخبار القضاة ٢٧٧/٣ .
(١٤) اخبار الراضي والمتقى ٢٨٥ .
(١٥) الخطيب ٣٧٥/٢ .
(١٦) الخطيب ٢٢٢/١١ .
(١٧) الخطيب ٣٢٨/٣ .
(١٨) الخطيب ٣٤٨/٣ .
(١٩) الخطيب ٣٤٨/٣ ، اخبار الراضي والمتقي ١٩٢ .
(٢٠) الخطيب ١٨/٨ ، ٢٧١/١٣ ، المنتظم ٣٥٠/٦ .

بكر الهاشمي تقلد الخطابة سنة ٣٣٦ كان يتناوب هو وابو الحسن بن المهتدي الصلاة في جامع الرصافة وجامع القصر الى ان ترك المهتدي الصلاة في جامع الرصافة واقتصر على مناوبة تمام في جامع القصر (٢١) وعلي بن ثابت الدروغاني (٢١ أ)

وفي الازمنة العباسية المتأخرة كان ممن يتولى الخطابة فيه ، ابن ابي الرجاء (ت ٥٩٤) (٢١ب) آكل بن علي بن عبدالرحيم الهاشمي (ت ٦٠٠) (٢٢) ، وعلي بن نصر الحمداني (ت ٦٠٤) (٢٣) وهبة الله بن عبدالله المنصوري (٢٤) ، واحمد بن هبة الله بن الزيتوني (٢٥) .

ذكر الطبري ان «ابن ثوبان وكان على المظالم ، يجلس بجامع الرصافة» (٢٦) وان « احمد بن سلام صاحب المظالم منزله في عسكر المهدي (٢٧) . ولا تذكر المصادر استمرار ممارسة اصحاب المظالم اعمالهم في عسكر المهدي .

ويذكر الطبري ان عافية بن يزيد الازدي وابن علاثة كانا يقضيان في عسكر المهدي بالرصافة (٢٨) ولعل جامع الرصافة ظل المركز الذي يمارس فيه القضاة اعمالهم ، وكانت تقرأ فيه بعض العهود (٢٩) . وعند ما تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد « خرج الى مجلس الجماعة بالرصافة فقعد فيه (٣٠)

---

(٢١) الخطيب ١٤١/٧ .
(٢١أ) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٢٢٧/٣ .
(٢١ب) كذلك ٦٨/٣ .
(٢٢) المنذري ٤٤/٢ .
(٢٣) المنذري ١٢٦/٢ .
(٢٤) المنذري ٧٣/٣ب .
(٢٥) ابن الدبيثي ٧٣/٣ب .
(٢٦) الطبرى ٤٠٨/٣ .
(٢٧) الطبرى ٤٩١/٣ .
(٢٨) الخطيب ٣٩٠/٥ ، ٣٠٨/١٢ ، الطبرى ٤٩١/٣ ، ويذكر الخطيب ان يحيى بن اكثم كان يجلس في مسجد الرصافة ١٩٧/١٤ .
(٢٩) اخبار الراضي والمتقي ١٠٨ ، ٢٢٦ ، صلة تاريخ الطبرى ٤٣ .
(٣٠) الطبرى ٤٧٢/٣ .

ومن دلائل مكانته المتميزة ان الخليفة القادر كان « يقسم الطعام الذي يهيأ لافطاره ثلاثة أقسام فقسم يتركه بين يديه ، وقسم يحمل الى جامع الرصافة ، وقسم الى جامع المدينة (في الجانب الغربي) (٣١)

كان جامع الرصافة مركزاً رئيساً لدراسة العلوم الدينية وخاصة علم الحديث حيث كانت لاصحابه حلقة فيه (٣٢) .

وذكر الخطيب ممن كان يملي او يدرس الحديث في جامع الرصافة

١ — محمد بن احمد بن ابي الفوارس (ت ٤١٢) ١ / ٣٥٣
٢ — محمد بن ابراهيم ابو حمزة الصوفي (ت ٢٦٩) ١ / ٣٩٠
٣ — محمد بن ابراهيم سمسمة (ت ٣٠٨) ١ / ٤٠٣
٤ — محمد بن علي الروزهان ٣ / ٦٥
٥ — محمد بن الفضل الهمداني ٣ / ١٥٥
٦ — احمد بن عبيدالله الدباس ٤ / ٢٥٣
٧ — احمد بن الحسن بن حميد ٤ / ٩٠
٨ — أحمد بن عبدالله ابن الروزي ٤ / ٢٣٤
٩ — احمد بن علي السامرائي ٤ / ٣١٠
١٠— احمد بن محمد بن سعيد بن عقدة ٥ / ١٥
١١— ابو العباس الكوفي ٥ / ١٥
١٢— البهلول بن حسان التنوخي (٣٢٨) ٧ / ١٠٩
١٣— الحسن بن سعيد الصفار الموصلي ٧ / ١٢٥
١٤— خلف بن علي القطعي (٢٩٩) ٨ / ٣٣٢
١٥— ابو بكر بن ابي شيبه (ت ٢٣٥) ١٠ / ٦٧
١٦— عبدالرحمن العمر ١١ / ٨٣

(٣١) المنتظم ٧/١٦٢ .
(٣٢) الخطيب ٤/٣٧ ، وانظر تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين احمد ترجمة الدكتور سامي الصقار ٧٠ .

١٧- عبيد بن القاسم ١١ / ٩٤
١٨- عمر بن القاسم بن الحداد ١١ /٢٦٩
١٩- ابو عمرو عثمان الخصيب ١١ /٢٩٥
٢٠- علي بن سايمان الخرقي ١١ /٤٣٤
٢١- العباس بن محمد بن عبدالله البلخي ١٢ /١٥٥
٢٢- عاصم بن علي الواسطي (مجلسه يحزر باكثر من مائةالفانسان) ١٢ /٢٤٧
٢٣- قتيبة بن زياد ١٢ /٤٦٤
٢٤- موسى بن محمد الزرقي (ت٣٤٣) ١٣ /٦٢
٢٥- مشمعل بن ملحان ١٣ /٥١
٢٦- هارون بن موسى الطرسوسي ١٤ /٣١
٢٧- يعقوب بن الوليد ١٤ /٢٦٦
٢٨- ابو القاسم الثلاج ١٤ /٣٢٠
٢٩- يوسف بن محمد المؤدب ١٤ /٣٢٠
٣٠- يوسف بن عمر القواس (ت ٣٨٥) ١٤ /٣٢٧
٣١- ابو سعيد الخياط ١٤ /٤٢٤

* * *

قصر الرصافـة

كان قصر الرصافة من ابرز المعالم العمرانية فيها منذ تأسيسها ، وقد شيده المهدي بعد بناء المسجد الذي كانت قبلته صحيحة لانه لم يرتكز على القصر(١)، وكان موقعه في الجهـة الجنوبية الغربية من المسجـد ، ويدل قول سهراب ان نهر المهدي « يدخل الرصافة في مسجد الجامع الى بستان حفص ويصب في قصر الرصافة في بركة فيه (٢) ان القصر لم يكن ملاصقاً للمسجد ، وانما كان بينهما بستان حفص ، كما ان انصباب نهر المهدي في بركة القصر يدل على ان القصر لم يكن على شاطيء دجلة . ويذكر الطبري ان المهدي بنى قصره في وسطها والمسجد حول القصر (٣) ، وبذلك كان قريباً من الجامع (٤) .

لم تنص المصادر على ذكر سنة بناء القصر ، ولم تصفه ، ويدل سياق الأحداث على ان المهدي هو الذي بناه ، غير انه لم يقم فيه طويلا (٥) لانه في سنة ١٦٠ حج وكان معه هارون وجماعة من اهل بيته (٦) وفي سنة ١٦٣ سافر الى الموصل ثم الى بيت المقدس (٧) ، فاما عاد بنى في سنة ١٦٤ قصر الطين ثم انتقل الى قصر

---

(١) الطبرى ٣٢٢/٣ .
(٢) عجائب الاقاليم السبع ١٣١ ، الخطيب ١١٥/١ .
(٣) الطبرى ٣٢١/٣ .
(٤) البلدان لليعقوبي ٢٥١ .
(٥) انظر عن اقامة المهدى في قصر الرصافة : الجهشيارى ١٣٣ ، الخطيب ٥٧/٧ .
(٦) الطبرى ٣٨٢/٣٩٣ .
(٧) الطبرى ٤٩٤/٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ .

السلامة بعيساباذ وكان فيه اكثر نزوله وضرب فيه الدراهم (٨) اي انه لم يسكن قصر الرصافة الا بعض الوقت بين توليه الخلافة ١٥٨ الى سنة ١٦٤ .

وفي قصر الرصافة ولد الأمين سنة ١٦٥ (٩) وفيه ايضاً نزل المأمون عند قدومه بغداد وظل فيه حتى بنى منازل على شط دجلة عند قصره الاول وفي بستان موسى واقام فيه (١٠) .

واتخذ المستعين قصر الرصافة مقرا له عندما اعتصم ببغداد في فتنة المقر (١١) ثم انتقل بعد ذلك الى دار رزق الخادم في الرصافة ومر بدار علي بن المعتصم(١٢) ؛ ثم انتقل بعد تنازله عن الخلافة الى قصر الحسن بن سهل بالمخرم (١٣) .

يتبين مما تقدم ان قصر الرصافة كان مقاماً موقتاً للمهدي والمأمون والمستعين ، ولم يذكر خليفة آخر اقام فيه غير انه مكان واحداً من قصرين كان يقيم فيهما الحرم من العباسيات والآخر هو من قصر ام حبيب . فيذكر الطبري « وكانت ام محمد بن الواثق توفيت قبل ان يبايع ، وكانت تحت المستعين . فلما قتل المستعين صيرها المعتز في قصر الرصافة الذي فيه الحرم (١٤)

وذكر الصابي من النفقات على العباسيين « الصدقة التي تحضر في كل يوم عند صلاة الصبح في خرقة سوداء على ما كان الناصر رحمه الله رسمه وامر المعتضد بالله ، رحمه الله ، بعد بتفرقته على من في قصر الرصافة من الحرم المحتاجات

(٨) الطبرى ٥٠٢/٣ ، فتوح البلدان ٢٨٦ ، الجهشيارى ١٩٥ ، الخطيب ٩٦/١ ، تاريخ الفسوى ١٣٨/١ ، وانظر تفاصيل أوفى في الفصل الذى كتبناه عن منازل الخلفاء وقصورهم .
(٩) الطبرى ٩٣٨/٣ ، الخطيب ٣٣٧/٣ .
(١٠) بغداد لطيفور ٣ ، ١٠ ، ١٢ ، الطبرى ١٠٢٨/٣ ، الخطيب ١٤٣/٦
(١١) الطبرى ١٦٤٢/٣ ، ١٦٤٦ .
(١٢) الطبرى ١٦٣٠/٣ .
(١٣) الطبرى ١٦٤٦/٣ .
(١٤) الطبرى ١٧٢٠/٣ ، وكان القصر الثاني للحرم قصر ام حبيب .

من قيمة مائتي درهم محدداً في كل يوم خمسة عشر ديناراً (١٥) ، ولم يذكر الصابي عدد من كان يقيم منهن في قصر الرصافة ، او سبب اختياره مع قصر ام حبيب دون غيرهما ، من القصور .

وتوفي في قصر الرصافة كل من ميمونه بنت المتوكل (ت ٣٠٨) (١٦) وعبدالواحد بن المقتدر (ت ٣٢٤) والعباس بن المقتدر (ت ٣٣٠) (١٧) مما يدل على انه كان في ذلك التاريخ مسكنا لا سر الخلافة العباسية .



(١٥) الوزراء للصابي ٢٤ ــ ٢٥ .
(١٦) تاريخ الكازروني ١٤٧ .
(١٧) تاريخ الكازروني ١٧٤ .

المقابر وترب الخلفاء العباسيين

ذكرت المصادر مدفن افراد في الرصافة : فذكر الصولي ان زيرك غلام القاهر « دفن في دار اشتريت له بالرصافة (١) ، وذكر عريب ان مؤنس دفن بطرف الرصافة (٢) ولم يرد ذكر لموقع دفنهما او اشارة الى مقبرة في الرصافة يدفن فيها رجال من عموم الناس .

وفي الكتب اشارات الى مدافن الخلفاء العباسيين ، والى افراد من الاسرة العباسية والمتصلين بها دفنوا في الرصافة . فذكر الطبري ان قطر الندى بنت خمارويه زوجة المعتضد (ت ٢٨٧) دفنت داخل قصر الرصافة (٣) ،وذكر ايضاً ان ابا أحمد الموفق اخا المعتضد دفن في الرصافة عند قبر امه (٤) ويقول ابن الساعي ان « اسحاق ام الموفق دفنت في الرصافة (٥) ولم تحدد المصادر موقع دفنها وهل كان في قصر الرصافة ام في مكان غيره .

وذكر ابن الساعي ان ضرار والدة المعتضد (ت٢٩٨) دفنت بترب الرصافة (٦) وان خمزة مولاة المقتدر نقل معها ابنها ودفنا بالترب بالرصافة (٧)غير انه لم يحدد موقع الترب ولم يشر الى علاقتها بقصر الرصافة ، إلا انه يلاحظ انه منذ ان انشئت الترب لم يعد يرد ذكر لقصر الرصافة مما يقوى احتمال ان الترب الاولى كانت في القصر او بلصقه .

---

(١) اخبار الراضي والمتقي ١٤٦ .
(٢) صلة تاريخ الطبرى ٤٥ .
(٣) الطبرى ٣/١٩٥٠ ، المنتظم ٦/٢٧ .
(٤) المنتظم ٥/٢٢ = ، الطبرى ٣/٢١٢٢ ويقول الخطيب ان الموفق دفن في الرصافة (٢/١٢٧) .
(٥) ابن الساعي : جهات الخلفاء ٨٢ .
(٦) ابن الساعي : جهات الخلفاء ١٠٤ .
(٧) ابن الساعي : جهات الخلفاء ١٠٧ .

ذكر ابن الجوزي ان شغب ام المقتدر (ت ٣١٤) دفنت في الرصافة (٨) وذكر مسكويه ان ام المقتدر حملت الى تربتها بالرصافة ودفنت فيها (٩) ، وذكر عبدالملك الهمداني ان « والدة المقتدر حملت الى التربة بالرصافة فدفنت فيها (١٠) ويقول الكازروني ان ابا احمد ابن المقتدر « توفي في قصر الرصافة ودفن في تربة شغب ام والده بالرصافة (١١) ويذكر عريب ان الجدة ماتت ودفنت بشارع الرصافة (١٢) . وقد يدل كل ذلك على ان تربة شغب لم تكن في القصر وانما كانت في شارع الرصافة . وكانت تربة شغب تسمى ايضاً « تربة السيدة » .

ذكرت المصادر عدداً من افراد الاسرة العباسية دفنوا في تربة شغب ، ومنهم ابو احمد ابن المقتدر (١٣) ، والخليفة المطيع (ت ٣٣٤) (١٤) ، وابنة للمطيع (١٥) وابنه عبدالوهاب (١٦) .

اما المقتدر فانه قتل بباب الشماسية (١٧) ، ويذكر عبدالملك الهمداني انه كانت له بالرصافة تربة دفن فيها المطيع (١٨) .

(٨) المنتظم ٦/٢٥٤ .
(٩) تجارب الامم ١/١٦٢ .
(١٠) تكملة تاريخ الطبرى ٢٧٨ ، وانظر ايضا ٣٢٦ ، ٤٣٥ .
(١١) تاريخ الكازروني ١٧٨ .
(١٢) صلة تاريخ الطبرى ٥٩٣٦ .
(١٣) تاريخ الكازروني ١٧٤ .
(١٤) الخطيب ١/٣٨٠ ، والمنتظم ٧/٧٩ ، الكازروني ١٨٩ ((تربة عملها)) .
(١٥) المنتظم ٧/٧٩ .
(١٦) تاريخ الكازروني ١٨٩ .
(١٧) مروج الذهب ٤/٢١٤ ، تاريخ الكازروني ١٧٣ ويذكر عريب ((قيل انه دفن مع ابيه وقيل انه دفن في رقة الشماسية)) (صلة تاريخ الطبرى ٥٢) .
(١٨) تكملة تاريخ الطبرى ٤٣٥ ، ويقول دحية انه قتل في الراشدية وعفي اثره (النبراس ١١) .

وكانت للطائع تربة خاصة (١٩) ، وهي بازاء تربة شغب ، وقد دفن فيها ايضاً ابنه عبدالوهاب (٢٠) ودفن الراضي بالرصافة (٢١) في تربة خاصة به (٢٢) ، « وكانت تربة عظيمة قد انفقت عليها الأموال والان قد عمل عندهما سور المحلة فلم يبق لها الا اثر قريب » ، ودفنت عنده امه ظلوم(٢٣) ، ولا بد ان ابنه احمد دفن في هذه التربة .

اما القادر فان عدداً من المصادر تذكر انه دفن بالرصافة (٢٤) ولا بد أنه دفن بقربه كل من امه تمنى (٢٥) ، وابنيه القاسم (٢٦) ، ومحمد (٢٧) ، وكانت تربته فيما يبدو مستقلة اذ يذكر الخطيب ان « محمد بن القادر دفن في تربة القادر واهله » (٢٨) .

اما القائم فان الكازروني يذكر انه « دفن بالرصافة ، وقبره الى الان يزار ويتبرك به » (٢٩) ولا بد ان امه دفنت بقربه . علما بأن ابن الجوزي يقتصر على القول بانها « دفنت » (٣٠) ولعل في هذه التربة دفنت ابنته السيدة زوجة طغرليك سنة ٤٩٦ (٣١) .

---

(١٩) الخطيب ١١/٧٩ ، تاريخ الكازروني ١٩٥ .
(٢٠) المنتظم ٧/١٣٩ .
(٢١) الخطيب ٢/١٤٢ ، تاريخ الكازروني ٢٧٩ .
(٢٢) اخبار الراضي والمتقي ١٨٣ .
(٢٣) المنتظم ٦/٣٢٥ ، تاريخ الكازروني ١٧٦ وانظر : النبراس ١١٨ .
(٢٤) الخطيب ٤/٣٨ ، والمنتظم ٨/٦١ .
(٢٥) الخطيب ٤/٢٧ ، المنتظم ٧/٢٤٤ ، تاريخ الكازروني ٢٠٠ .
(٢٦) تاريخ الكازروني ٢٠٠ .
(٢٧) المنتظم ٧/٢٩٢ .
(٢٨) الخطيب ١/٢٧٩ ، ويقول الخطيب انه دفن مع ابيه المعتضد اى في الحريم الطاهرى .
(٢٩) تاريخ الكازروني ٢٠٨ .
(٣٠) المنتظم ٨/٢١٧ .
(٣١) مرآة الزمان ٨/٨ (دفنت في الرصافة) .

ذكر الكازروني ان المقتدى واولاده الزبير وموسى وابو احمد دفنوا في الترب بالرصافة(٣٢) ويذكر ابن الساعي ان المقتدى دفن بالترب الشريفة بالرصافة (٣٣) . كما يذكر ان ابا اسحاق ابراهيم ابن المستظهر من زوجته عصمة بنت ملكشاه « دفن في تربة الامام المقتدر» (المقتدى بالله ؟ !) بالرصافة الى جنب عمه جعفر ابن المقتدى (٣٤) ، والمستظهر واولاده اسماعيل ، وأبو اسحاق ، والعباس ، وعلي ، وأبو الحسن (٣٥) ، وامه قرة العين (٣٦) والمقتفى (٣٧) ، وولداه ابو احمد وأبو جعفر (٣٨) ، والمستنجد (٣٩) ، والمسترشد (٤٠) ، وامه (٤١) .

والمستظهر وابنه العباس (٤٢) ، والمستنصر (٤٣) ، تحت قبته التي كان بناها ابنه ابو القاسم (٤٤) وفي ترب بالرصافة دفنت ابنته (٤٥) .

اما المستعصم فان الكازروني يذكر انه دفن في الرصافة (٤٦) ، ويذكر مؤلف الحوادث الجامعه انه « تعفى أثر قبره » (٤٧) .

(٣٢) تاريخ الكازروني ٢١٢ .
(٣٣) ابن الساعي ١١٠ .
(٣٤) ابن الساعي ١٠٨ .
(٣٥) تاريخ الكازروني ٢١٧ .
(٣٦) مرآة الزمان ٧٤/٨ .
(٣٧) مرآة الزمان ٣٤/٨ .
(٣٨) المنتظم ١٩٦/١٠ ، تاريخ الكازروني ٢٣٠ .
(٣٩) المنتظم ٢٣٦/٩ ، تاريخ الكازروني ٢٩٥ .
(٤٠) مرآة الزمان ٧٣/٨ .
(٤١) مرآة الزمان ١٥٢/٨ .
(٤٢) تاريخ الكازروتني ٢٥٧ .
(٤٣) مرآة الزمان ٧٤١/٨ .
(٤٤) تاريخ الكازروني ٢٦٣ .
(٤٥) الجامع المختصر ١٦٣ .
(٤٦) تاريخ الكازروني ٢٦٥ .
(٤٧) الحوادث الجامعة ٣٢٧ .

ويقول ابن بطوطة وقبور الخلفاء العباسيين بالرصافة وعلى قبر كل منها اسم صاحبه (٤٨) .

وذكر الهروي ان « محلة الرصافة بها قبر الراضي محمد بن المقتدر ، والامام المستكفي ، والامام المطيع ، والامام الطائع ، والامام القادر ، والامام القائم ، والامام المقتدي ، والامام المستظهر ، والامام المقتفي والامام المستنجد (٤٩) » ولم يحدد الهروي مواضع قبور هم اويذكر زيارة الناس لهم للتبرك .

ودفنت بترب الرصافة شرف خاتون عتيقة المستضيء وام ولده هاشم (٥٠) وباب جوهر (ت ٦٣٧) وهي من حظايا الظاهر (٥١) . ولعل عدداً آخر لم تذكرهم المصادر من زوجات الخلفاء العباسيين دفنوا في التربة ودفن في الترب من غير افراد الاسرة العباسية ، كل من احمد بن الفرج بن فرحشاذ ان (ت ٣٩٢)(٥٢) ، وفطر بن عبدالله الجيوشي (ت ٥٤٤) (٥٣) ، ومختار الخادم (ت ٥٧٢) (٥٤) ، ومرجان (٥٤ أ) .

يقول ياقوت في كلامه عن الرصافة « وخربت تلك النواحي كلها ولم يبق الا الجامع وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس ، وعليها وقوف وفراشون برسم الخدمة ولولا ذلك لخربت » ، ويقول ايضاً « وبرصافة بغداد مقابر جماعة الخلفاء من بني العباس ، وعليهم تربة عظيمة بعمارة هائلة المنظر عليها هيبة وجلالة اذا رآها الرائي خشع قلبه ، وعليها وقوف وخدم مرتبون للنظر في مصالحها .

(٤٨) رحلة ابن بطوطة ١٤٢/١ .
(٤٩) الزيارات ٧٣ .
(٥٠) ابن الساعي ١١٥ .
(٥١) ابن الساعي ١٢٤ .
(٥٢) الخطيب ٣٤٢/٤ .
(٥٣) المنتظم ٣٤٢/٤ .
(٥٤) المنتظم ٢٦٨/١٠ .
(٥٤أ) مرآة الزمان ٢٥٥/٨ .

وفي التربة قبـر المستكفي والمطيع والطـائع والقادر والقائم والمقتدى والمستظهر والمقتفي والمستنجـد » (٥٥) ، ويدل كلام ياقوت ان قبور هؤلاء الخلفاء كانت متقاربة مما أتاح بناء « تربة عظيمة بعمارة هائلة عليها » ، وان عدم ذكر قصر الرصافة الذي دفن فيه بعض العباسيين وذوي الصلة بهم في اول العهود يدل على ان الترب كانت عند هذا القصر فاستوعبته وعفى ذكره ، وانها كانت تقع في جهة القبلة جنوب غربي الجامع الذي بقي قائماً (٥٦) .

ذكرنا ان الراضي «كانت تربته عظيمة قد انفقت عليها الاموال والان قد عمل عندها سور المحلة فلم يبق لها الا اثر قريب » (٥٧) ، وقد اشار الى ذلك ياقوت فقال دفن بها من الخلفاء الراضي ابن المقتدى وهو في قبة مفردة من ظاهر سور الرصافة وحده (٥٨) .

وكانت على الترب وقوف ذكر من متوليها محمد بن الحسن الدامغاني (٥٩) . ومن متولها ايضاً يحيى بين بهليقا ، وقد بقي عليه عندما عزل عن عمله عشرة الاف دينار (٦٠) ، مما يدل على مدى سعة الصرف عليها .

ومن فراشيها عبدالواحد بن كرم بن بركة (٦١) .

---

(٥٥) معجم البلدان ٢/٧٨٣ .
(٥٦) ذكر ابن عقيل شارع الترب وقصر المهدى وجامع الرصافة ، مما يدل على ان الترب لم تكن في القصر .
(٥٧) المنتظم ٦/٣٢٥ ، النبراس ١١٨ .
(٥٨) معجم البلدان ٢/٧٨٣ .
(٥٩) ابن الدبيثي ١/٢١٤ .
(٦٠) الجامع المختصر ٨٠ .
(٦١) ابن النجار ١/١٥٨ .

(٣)
المعالم العمرانية في أطراف الرصـافة

معالم المنطقة : ـ

ذكر سهراب في كلامه عن مجرى نهر المهدي مواقع المعالم العمرانية في الاطراف الشرقية والشمالية الشرقية من الرصافة ، فقال (ويحمل من نهر الشماسية ، وهو نهر الفضل ، نهر يقال له نهر المهدي : اوله فوق الباب بشيْ يسير ، ويمر في الشارع الى مدينه السلام من باب الشماسية ،ويجيء الى سويقة جعفر ، ويمر في الشارع المعروف بنهر المهدي ،ثم يجيء الى قنطرة البردان ، ويدخل في دار الروميين ثم يخرج الى سويقة نصر بن مالك ، ثم يدخل الرصافة في مسجد الجامع الى بستان حفص . ويصب في قصر الرصافة في بركة فيه

ويحمل من هذا النهر اوله في سويقة نصر (١) مع الابواب الحديد ، يمر في وسط شارع باب خراسان مادا الى ان يصب في نهر السور بباب خراسان (١) .

وذكر حفيد حاجب النعمان (نهر الفضل عمود جليل يحمل من نهر بين ، وهو مطموم وقد درس للتقصير في كريه ، وفوهته خراب بلا قنطرة ، ويحتاج ان يبنى عليه قنطرة ينفق عليها مائة الف دينار ببابين ويكرى النهر الى مبزه بمائة الف درهم فانه يرتفع منه مائة الف دينار »(٢) ولم يذكر نهر المهدي مما يدل على انه كان في زمانه مطمورا

وذكر اليعقوبي «فاختط المهدي قصره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي في الرصافة وحفر نهرا يأخذ من النهروان سماه نهر المهدي ، يجري في الجانب الشرقي » (٣) .

---

(١) عجائب الاقاليم السبع ١٣١ ، تاريخ بغداد للخطيب ١/١١٥ .
(٢) الوزراء ١٣٢ب .
(٣) البلدان ٢٥١ ، ولم اجد عن نهر المهدى والمعالم العمرانية عليه سوى ما ذكره ابن النديم ان ان المفلس داره على نهر مهدى (الفهرست ٢٧٣) .

لما كان نهر المهدي يجري من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، فان المعالم البارزة في تلك الجهات هي دار الروميين وسويقة نصر .

دار الروم

فاما دار الروم فقد ذكر ياقوت انها تلاصق الرصافة(٤) وذكرابن عبد الحق ان دارالروم محلة نسبت الىالروم لان جماعة من الروم وردوا بغداد وسكنوا بهذه المحلة (٥) وهم غير اسرى الروم الذين انزلوا ببغداد عند باب الشماسيةفي موضع سمي بهم وبنوا فيه ديراً مشيّد البناء كثير الرهبان بين يديه أجمة يربى فيه الطير(٦) وهناك ارحية للماء وحوله بساتين واشجار ونخل(٧) .

كانت في دار الروم دار الطيفوري الطبيب وهي لصيقة دار يوحنا بن ماسويه (٨) وذكر مما في دار الروم (دير الروم وهو بيعة كبيره حسنة البناء محكمة الصنعة للنسطورية خاصة ، وهي ببغداد في الجانب الشرقي منها ، وللجاثاليق قلاية الى جانبيها وبيعة ، وبينهما باب يخرج منه اليها في اوقات صلواتهم وقربانهم وتجاور هذه البيعة بيعة لليعقوبية مفردة لهم حسنة المنظر عجيبة البناء مقصودة لما فيها من عجائب السور وحسن العمل »[٩] ويذكر ابن عبدالحق «وقد كان بظاهر البيعة دار كبيرة بصحن متسع يظهر انها التي اسكن الروم بها ، وبالمحلة المذكورة فكانت بيعتان اخريان اصغر من تلك احداهما لليعقوبية من النصارى،

---

(٤) معجم البلدان ٢/٦٦٢ .
(٥) مراصد الاطلاع ٥٦١ .
(٦) معجم البلدان ٢/٦٧٠ .
(٧) الديارات للشابشتي ١٤ مسالك الابصار ٢٧٥/٧ ، ويضيف ابن عبد الحق ان هذا الدير « خرب بعد ذلك فلم يبق له اثر » (٥٦٤) وانظر عن اسرى سمالو : الطبري ٤٩٩/٣ ــ ٥٠٠ ، فتوح البلدان ١٦٩ ــ ١٧٠ ، معجم البلدان ٤١٦/٣ .
(٨) عيون الانباء لابن ابى صيبعه ٢٤٨ ، وانظر : ادب الطبيب ، للرهاوى ١٦٨
(٩) معجم البلدان ٢/٦٦٢ ، وانظر مسالك الابصار لابن فضل الله العمرى ٢٧٥

ولعل الاخرى كانت للروم فان كل صنف من النصارى لايرى الصلاة في بيعة النصف الاخر [٩أ] .

تعرضت بيعة دار الروم لحوادث نهب ، ففي سنة ٣٠٧ هاج العامة ببغداد وقصدوا دار الروم ونهبوها [١٠] ، وفي سنة ٤١٣ توفيت زوجة ابى نوح الاهوازى ، وحدث في تشييعها اضطراب « وهرب النصارى بالجنازة الى بيعة دار الروم فدهمهم المسلمون ونهبوا البيعة واكثر دور النصارى المجاورة لها (١١)

وفي سنة ٣٤٤« ركب الاتراك الى دار الروم ، وفيها دور ابي الحسن كاتب البساسيرى وغيره فنهبوا ودخلوا البيعة واخذوا اموالا كثيرة ، واخربوا البيعة وعدة دور ، وقاتلهم العوام (١٢) .

ولا بد ان وجود البيع في دار الروم جلب الى السكن فيها نصارى وخاصة من الكتاب والاطباء ، وقد ذكرنا من قبل سكن ماسويه يوحنا بن الطيفورى ، .

كانت دار الروم من مراكز اللهو ، واثارت في سنه ٣٢٧ استياءاً ، فطالب الناس « بتعطيل مايجرى من امر النباذين بدار الروم بالجانب الشرقي ونسب ذلك الى الجاثليق (١٤) .

وفي اواخر زمن الخلافة العباسية كان « الرباط المستنصري بدار الروم عند الرصافة » وكان يسكنه عند الواحد بن نزار بن عبدالواحد في آخر عمره (ت ٦٣٤) (١٥) وبالقرب من البيعة وفي اخر سويقة نصربن مالك كان درب النهر وممن ينزله محمد بن سعد بن الحسين بن عطية العوفي (١٦) .

(٩أ) مراصد الاطلاع ٥٦١ .
(١٠) تكملة تاريخ الطبرى ٢١٦ .
(١١) المنتظم ٢٦٢/٧ .
(١٢) المنتظم ١٦/٨ .
(١٤) اخبار الراضى والمتقى ٢٧٩ ــ ٢٨٠ .
(١٥) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٣٠٥/١ .

سويقة نصر : ـ

وفي الجهة الغربية من دار الروم كانت سويقة نصر ، وهي منسوبة الى نصر ابن مالك بن الهيثم الخزاعي احد نقباء الدعوة العباسية (١٧) وكانت مع ما حولها من اجمل معالم بغداد ، فيروي الخطيب ان بغداد صورت لملك الروم ارضهـا واسواقها وشوارعها وقصورها وانهارها ، غربيها وشرقيها ، وان الجانب الشرقي منها لما صورت شوارعه فصور شارع الميدان وشارع سويقة نصر بن مالك من باب الجسر الى الثلاثة الابواب والقصور التي فيه والاسواق والشوارع من سويقة خضير الى قنطرة البردان ، فكان ملك الروم اذا شرب دعا بالصور فيشرب على مثال شارع سويقة نصر ويقول : لم ار صورة شيء من الابنية احسن منه(١٨)

ذكرنا ان سويقة نصر تتصل من شرقيها بدار الروم ، وهي تتصل من جانبها الغربي بالرصافة ، وقد أشار الخطيب الى اتصالها بالمسجد الجامع بالرصافة مما يلي سويقة نصر (١٩) .

كان في سويقة نصر مسجد تعطل ايام المستعين ، وكان فيها ايضاً ساباط شرائح ، وهو ساباط مشهور منسوب الى شرائح الخزاعي(٢١) .

ذكر الخطيب عدداً من المحدثين ممن سكنوا بسويقة نصر ، ومنهم الحسين بن محمد الانصاري (ت ٣١٥) وحفص بن سليمان (٢٣) وروح بن حاتم(٢٤) ولم

---

(١٦) تاريخ بغداد للخطيب ٣٢٣/٥ .
(١٧) الخطيب ٩٣/١/١٧٣/٥ .
(١٨) الخطيب ٩٤/١ .
(١٩) الخطيب ٤٢٧/١٤ .
(٢٠) الخطيب ٩٣/١ .
(٢١) الاغاني ١٣٦/١١ .
(٢٢) الخطيب ٩٦/٨ ، المنتظم ٢١١/٦ .
(٢٣) الخطيب ١٨٦/٨ .
(٢٤) الخطيب ٤٠٧/٨ ، وانظر ايضا ٣٠٠/٩ .

يذكر سويقة نصر اي من الطبري ، وابن الفقيه والصولي ، وعبدالملك الهمداني مما يدل على تدهورها منذ نهاية القرن الثالث الهجري .

الجسر الاعلى : ـ

ذكر اليعقوبي مواقع بعض المعالم العمرانية في الاطراف الغربية والشمالية من الرصافة فقال عن طرق هذه المنطقة .

« وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة أقسام .

فطريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع .

وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير ، وهي معدن طرائف الصين ، وتخرج منها الى الميدان ودار الفضل بن الربيع .

وطريق ذات اليسار الى باب البردان ، وهناك منازل خالد بن برمك وولده .

وطريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بدار يحيى بن الوليد (خالد) والى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ، ومنه يخرج من اراد الى سر من رأى .

وطريق عند الجسر الاول الذي يصير اليه من اتى من الجانب الغربي ، يأخذ على دجلة الى باب للمقير والمخرم وما اتصل بذلك (٢٥) .

يدل سياق كلام اليعقوبي ان هذه الطرق غير متصلة ، وكل منها طريق مستقل بدليل اختلاف نهايتها غير انه لم يذكر فيما اذا كانت هذه الطرق متوازية أم انها مروحية ، اى هل ان بداياتها متفرقة ام ان جميعها تبدأ من مكان واحد ثم يسلك كل منها مسلكاً خاصاً فتتباعد نهايتها ، وهذا الفرض الاخير اكثر احتمالاً وان هذه الطرق تبدأ من نهاية الجسر . ويبدو ان الطرق الاربعة الاولى ذكرت بتسلسل ترتيبها من الجنوب الى الشمال ، اما الطريق الذي عند الجسر الاول فكان في جنوب الرصافة

(٢٥) البلدان ٢٥٣ .

روت المصادر بسند عن احمد بن الخليل بن مالك ان ابا جعفر المنصور عقد ثلاثة جسور للذهاب وللاياب وللنساء ، وعقد جسراً رابعاً عند باب البستان وخامساً عند سويقة قطوطا ، وان الرشيد عقد عند باب الشماسية جسرين وعقد محمد (المهدي) جسرين بالزندورد(٢٦) ، ولا ريب في ان جسر سويقة قطوطا كان بعيداً عن المنطقة(٢٧) وربما لم يكن على دجلة ، اما جسرا الزندورد(٢٨) وباب البستان (٢٩) فكانا بعيدين عن المنطقة . ومن الواضح أن الجسور الثلاثة الاولى متقاربة فهي تكون مجموعة واحدة ، وهي التي بقيت بعد انتهاء فتنة الامين، وكان في أولها مجلس الشرطة(٣٠) ، فهي الجسر الرئيس الذي تكثر الاشارة اليه بتعبير (الجسر) وتذكر أنه كان بين درب سليمان في الطرف الشمالي من باب خراسان (٣١) وبين باب الطاق (ويقصد به طاق اسماء) وكان في دارها التي صارت لعلي بن الجهشياري بمشرعة الصخر(٣٢) ومن الواضح ان باب الطاق اقرب الى مشهد ابي حنيفة الذي كانت تسمى المحلة عنده باب الطاق ايضاً لتقاربهما .

وقد أشارت المصادر الى (الجسرين) (٣٣) في هذه المنطقة ، ولعل جسر باب الطاق هو الجسر الاعلى الذي ذكر الطبري انه مما يلي عسكر المهدي واشار

(٢٦) الخطيب ١١٦/١ ، المنتظم : مخطوطة اياصوفيا حوادث سنة ١٤٥ ، وانظر بحثنا عن جسور بغداد المنشور في معالم بغداد العمرانية .
(٢٧) الطبرى ١٧٣٠/٣ ، ابن الفقيه : بغداد مدينة السلام ٥٦ ، معجم البلدان ٥٢٢/٢ .
(٢٨) الطبرى ٢١٣٣/٣ ، ١٣٦٥ .
(٢٩) مسكويه : تجارب الامم ٢٦٥/١ تكملة تاريخ الطبرى ٥٠ ، ٧١٨ ، الوزراء للصابى ٣١١ .
(٣٠) الطبرى ١٦٣٠/٣ ، ٣١٠٩ ، بغداد لطيفور ٤٣ : البلدان لليعقوبي ٢٤٩ .
(٣١) البلدان لليعقوبي ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، التاريخ ٢١٠/٣ .
(٣٢) بغداد مدينة السلام ٥٥ .
(٣٣) طيفور ٩٢، ، الطبرى ١٠٦٢/٣ ، ١٢٣١ ، ١٥١٠ ، ٢١٢١ ، ١٧٢٧ ، ١٢٨٥ ، الوزراء للصابي ٢٦ ، تجارب الامم (طبعة كايتاني) ٤٢٤ .

الطبري الى ان الجسـر الاعلى حياله درب سليمان وان النـار استعرت في احد الجسرين وانتقلت الى الجسر الثاني ، فلا بد ان بداية هذا الجسر قرب الجسر الاول ، وان الجسر الاعلى قريب من الرصافة ، ومن الواضح ان ابا جعفر المنصور استهدف من إنشائه هذه المجموعة تأمين حاجات الجانب الغربي الذي استقرت معالمه ،أما الجانب الشرقي فكان في دور التكوين ،ولم تكن الرصافة قد كمل تشييدها.



* * *

بــاب الطــاق

طــاق اســماء : ــ

ذكر الخطيب « طاق اسماء منسوب الى اسماء بنت المنصور ، وهذا الطاق كان طاقاً عظيماً وكان في دارها التي صارت لعلي بن الجهشياري، اقطعه اياهــا الموفق ، ثم اقطعها ازتكين بن ساتكين . وعند هذا الطاق كان مجلس الشعراء وهناك كانوا يجتمعون أيام الرشيد » (١) وورد هذا النص عند ابن الفقيه واضاف انه « في مشرعة الصخر » (٢) .

وذكر اليعقوبي ان « دار خزيمة بن خازم اقطاع على رأس الجسر» (٣) ، وذكر الخطيب «دار خزيمة وهي التي صارت لعلي بن الجهشياري »(٤) ، ويمكن التوفيق بين هذه الروايات بالقول ان كلا من قصر اسماء ودار خزيمة كانا عند رأس الجسر ، وان دار علي بن الجهشياري شملت القصرين او معظهما .

ويذكر عريب ان « صاحب الشرطة محمد بن عبدالصمد كان ينزل الجانب الشرقي في الدار المعروفة لعلي بن الجهشياري » (٥) .

ذكر ابن الجوزي انه في سنة ٣٠٩ « ابتدئ بهدم دار علي بن الجشيهاري ببغداد في الفرضة ، وكان هذا الباب علما ببغداد في العلو والحسن، وبنى موضعه مستغل(٦) ويضيف الصولي ان « رحبة باب الطاق ومستغلاتها لاصحاب القلانس » (٧) .

---

(١) الخطيب ٩٣/١ ، وانظر معجم البلدان ٤٨٩/٣ .
(٢) بغداد مدينة السلام لابن الفقية ٥٥ .
(٣) البلدان ٢٥١ .
(٤) الخطيب ٩٣/١ .
(٥) تكملة الطبرى لعريب ٧٧ .
(٦) المنتظم ١٥٩/٦ .
(٧) اخبار المقتدر ١٩ .

يذكر الطبري ان «دار علي بن الجهشياري وكانت في الخراب على باب الجسر الشرقي (٨) ولعل الذي حدث في سنة ٣٠٩ هو هدم دار ابن الجهشياري التي كانت تحيطها منطقة خراب ، ثم اعيد تعميرها مستغلات .

ويذكر الطبري « دار ابن ابي ليلى بن عبدالعزيز بن دلف وهي دار علي بن الجهشياري على رأس الجسر ،(٩) ولم اجد معلومات عن ابن ابي ليلى ، ولعل داره كانت بعد هدم دار ابن الجهشياري ، وكانت قطعة منها

وعند باب الطاق دار حسنة ام ولد المهدي ومسجدها ، وهو المسجد الذي بباب الطاق وكان يجلس فيه في زمن المامون احد صاحبي الشرطة (١٠)

وبالقرب من قصر اسماء يقع قصر عبيدالله بن المهدي ، وبينهما الموضع المعروف بين القصرين اسم لمحلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي بين قصر اسماء وقصر عبيدالله بن المهدي (١٢) والراجح ان قصر عبيدالله بن المهدي كان قرب النهر ، وعلى الجهة الجنوبية من طاق اسماء

ذكر الصولي ان ابن الفرات وكان وزر سنة ٣٢٦ كانت داره التي على دجلة بين القصرين (١٣)

سوق خضير والخضيرية

يقول ابن الفقيه « الخضيرية مما يلي باب الطاق منسوب الى خضير مولى صالح صاحب المصلى وفيها تباع الجرار وتعمل المزملات (١٤) وذكر الخطيب ان سويقة خضير مولى صالح صاحب المصلى ، كان يبيع الجرار

(٨) الطبرى ١٦٣٢/٣ .
(٩) الطبرى ٢١٢٢/٢ .
(١٠) بغداد لطيفور ٤٣ .
(١١) الخطيب ٩٣/١٠ ، بغداد لابن الفقيه ٥٥ ، معجم البلدان ٤٨٩/٣ .
(١٢) معجم البلدان ٨٠٠/١ .
(١٣) اخبار الراضي والمتقي ٩٠ .
(١٤) بغداد لابن الفقيه ٥٤ .

هناك»(١٥) ، ومما يدل على وقوع سويقة خضير في هذه المنطقة قول الخطيب انه صورت لملك الروم المنطقة من سويقة خضير الى باب البردان » (١٦)

وذكر اليعقوبي ان « سوق خضير وهو معدن طرائف الصين ويخرج منه الى الميدان ودار الفضل بن الربيع (١٧) ويدل هذا النص على ان سوق خضير كانت تقع شرقي باب الطاق

كانت محلة الخضريين قائمة في القرن الخامس (١٨) ، وذكر الخطيب ممن كان يسكنها محمد بن الطيب بن سعيد الصباغ (ت ٤٢٨) (١٩)

ورد ذكر (باب الطاق) بكثرة في المصادر بما يشير الى انه كان يطلق على منطقة واسعة . ووصفته بعض المصادر المتأخرة بانه محلة (٢٠) ووصفها ياقوت (محلة كبيرة) (٢١) وذكر الخطيب سوقها(٢٢) وصف الطحانين فيها (٢٣) والصفارين(٢٤) وذكر ايضا بيع الثياب فيها(٢٥) وذكر ابن الدبيثي (سوق يحيى من باب الطاق)(٢٦) و(رصافة باب الطاق) (٢٧) مما يدل على امتداد استعمالها واهميتها ،

(١٥) الخطيب ١/٩٣ ، معجم البلدان ٢/٤٥٣ ، مراصد الاطلاع ٣٥٧ .
(١٦) الخطيب ١/٩٤ .
(١٧) البلدان ٢٥١ .
(١٨) معجم البلدان ٢/٤٥٣ .
(١٩) الخطيب ٥/٣٨٣ .
(٢٠) الخطيب ٧/٣٥٣ ، وانظر الدبيثي ٢/٩ ، ٧٦ .
(٢١) معجم البلدان ١/٤٤٣ .
(٢٢) الخطيب ٢/٢٥٠ ، ويذكر حمزه الاصبهاني ان سوق باب الطاق احترق سنة ٣٠٨ (تاريخ سمنى ملوك الارض ١٥٣ ، وانظر عن سوقه المنتظم ٥/٢٨٤ .
(٢٣) الخطيب ٢/٣٢٣ .
(٢٤) الخطيب ١١/٤٤٢ ، ٣٠٩ .
(٢٥) الخطيب ١٣/١٩١ .
(٢٦) ابن الدبيثي ٢/١٦٦ .
(٢٧) ابن الدبيثي ٢/٣٩ .

وذكر الخطيب ممن سكن باب الطاق (١) ابن الشيص (٢) محمد بن عبدالرحمن (٣)موسى بن عيسى (٤)محمد بن علي البزاز (٥)محمد بن علي الدجاجي (٦)بشر بن الحارث الحافي (٧)الحسن بن عيسى الماسرجسي (٨)الحسن بن محمد المقري (٩)داود بن عبدالجبار (١٠)عبدالواحد بن الحسين الحذاء (١١)علي بن عطية (١٢)عثمان بن جعفر محمد بن الحسين (١٣)منصور بن ملاعب (١٤)نصر بن غالب البزاز (٢٨) . وذكرها عرضا في مواضع اخرى .

وذكر ابن الدبيثي من اهل باب الطاق (١) محمد بن احمد الهاشمي (٢)محمد بن احمد العطار (٣)محمد بن سعد القطان (٤)الحسن بن علي بن الحسين (٥)الحسن بن احمد (٦) عبد الكريم بن الديناري (٧) شجاع بن الحسن بن الفضل الحنفي (٨)عبدالسلام بن علي القاضي (٩) احمد بن ابي بكر (٢٩) وردت في المصادر اشارات الى باب الطاق واهله (٣٠) .

وردت اشارات في المصادر الى ان اهل باب الطاق كان لهم عموماً عقائد سياسية مخالفة لعقائد الخلافة فذكر التوحيدي « طائفة من الناس في ايام المعتضد يجتمعون بباب الطاق ويجلسون في دكان شيخ تبان ويخوضون في الفضول والاراجيف » (٣١) .

وذكر الراضي انه في سنه ٣٢٨ « نصبت القباب بباب الطاق والرصافة لزوار الحائر على ساكنه السلام »(٣٢) وفي سنة ٣٣٥ « عقدت القباب بباب الطاق

---

(٢٨) هذه الاسماء مذكوره بالتتابع في تاريخ الخطيب (١) ٢١٩/١٢ (٢) ٣٢٣/٢ (٣) ٦٠/٣ (٤) ٧٨/٣ (٥ ١٠٨/٣ (٦) ٧٩/٧ (٧) ٣٥٣/٧ (٨) ٤٢٢/٧ (٩) ٣١١/٨ (١٠) ١٦/١١ (١١) ٢٧٥/١١ (١٢) ٣٠٩/١١ .

(٢٩) هذه الاسماء ذكرت بالتتابع (١) ٨١/١ (٢) ١٢٥/١ (٣) ٢٧٥/١ (٤) ٩/٢ (٥) ٤/٢ (٦) ١٦٦/٢ (٧) ٧٦/٢ (٨) ١٤٢/٢ (٩) ٢٤١/٣ .

(٣٠) انظر : الصولي اخبار الراضي والمتقى ٧١ ، ٩٧ ، ٢٤٣ ، تكملة الطبرى ١٨٤ ، مسكوية ٧٥/١ ، الامتاع والمؤانسة ٦٦/٢ .

(٣١) الامتاع والمؤانسة ٨٨/٣ .

(٣٢) الصولي ٢٨٠ ، تكملة الطبرى ١٤٩ .

(٣٣) وذكر ابن الجوزي في حوادث سنه ٣٨٩ « جرت عادة الشيعة في الكرخ وباب الطاق في نصب القباب وتعليق الثياب واظهار الزينة في يوم الغدير » (٣٤) وحدثت فتنة بين اهل باب الطاق وسوق يحيى (٣٥) .

وفي اواسط العهود العباسية كان باب الطاق وحدة قضائية فقد ولى القضاء بباب الطاق المعافى بن زكريا (ت ٣٩٠) نيابة عن ابن خير (٣٧) وولى عبدالله بن محمد بن الاكفاني قضاء مدينة المنصور وباب الطاق ، وضم اليه سوق الثلاثاء ثم قضاء جميع بغداد سنه ٣٩٦ (٣٨) وولى ابو المنصور الجيلي باى جعفر (٤٥) القضاء بباب الطاق وبحريم دار الخلافة (٣٩) وفي سنه ٤٨٧ ولى اخاه ابا جعفر القضاء بالرصافة وباب الطاق ثم فوض قضاء باب الطاق الى الدامغاني (ت ٥١٣)(٤١).



(٣٣) تكملة الطبرى ١/١٩٤ .
(٣٤) المنتظم ٨/٢٦ .
(٣٥) المنتظم ٨/١٦٣ .
(٣٧) الخطيب ١٣/٢٣٠ .
(٣٨) الخطيب ١٠/١٤٢ .
(٣٩) المنتظم ٨/٢١٧ .
(٤٠) المنتظم ٩/٨٣ .
(٤١) المنتظم ٩/١٦٥ .

مقبرة الخيزران

ذكر الخطيب ان « مقبرة الخيزران منسوبة الى الخيزران ام موسى وهارون » يعني ابني المهدي ، وهي اقدم المقابر(١) .

واقدم من دفن في مقبرة الخيزران محمد بن اسحاق مؤلف السيرة النبوية (ت ١٥٠) (٢) ابو حنيفة النعمان (ت ١٥١) (٣) ، ويدل الدفن في هذا التاريخ ان الجانب الشرقي كان معمراً في هذا التاريخ المبكر من قبل ان يكتمل بناء الرصافة ولعله يدل على ان الرصافة بديء بتشييدها في هذا التاريخ المبكر .

تتابع الدفن في مقبرة الخيزران ، وممن ذكر الخطيب مدفنهم فيها (١) الحسن بن زيد الهاشمي (ت ١٦٨) (٢) ، محمد بن عبدالرحمن بن ابي الزناد (ت ٤١٣) (٣) محمد بن عمر الوقدي (ت ٢٠٧) (٤) محمد بن عمر المعيطي (ت ٢٢٢)(٥) محمود بن خداش الطالقاني (ت ٢٥٠) (٦) القاسم بن نصر (ت ٢٨٠)(٧) ابو بكر

---

(١) الخطيب ١٢٥/١ .

(٢) الخطيب ١٢٥/١ ، ٢١٤ ، ١٧٦/٤ .

(٣) الخطيب ١٢٥/١ ، ٤٢٢/٣٢٤/١٣ .

(٤) مذكورون في الخطيب بالتتابع (١) ٢٠٩/٧ ، (٢) ٣٠٨/٢ ، (٣) ١٧٤/٢ ، (٤) ٢٢/٣ (٥) ٩١/٧ ، ٣١٤/١٣ ، (٦) ٤٣٧/١٢ ، (٧) ٥٦/٥ (٨) المنتظم ١٦٦/٦ ، (٩) المنتظم ١٦٨/٦ ، (١٠) ١٤/١٠ (١١) ٤ : ٧ ، (١٢) ٧٢/٤ ، (١٢) ٢٣٠/٧ ، (١٤) ٧٦/١٢ (١٥) ٤٥٢/٥ ، (١٦) المنتظم ٣٩١/٦ ، (١٧) ١٣٥/٧ (١٨) ٢٤٤/١١ ، (١٩) ٦٤/٧ ، (٢٠) ٢١٧/٢ ، (٢١) ٧١/١ (٢٢) ٣٩/٣ ، (٢٣) ٣٧٨/٤ ، ٢٤ (٢٥) ٣٢٤/٤

(٥) مذكرون في المنتظم بالتتابع (١) ١٩٩/٨ (٢) ٣٠٨/٨ (٣) ٢٨٣/٨ (٤) ١٩/٩ (٥) ١١٧/٩ (٦) ١٤٣/٩ (٧) ١٠٤/١٠ (٨) ١٩٧/١٠ .

(٦) مذكورون بالتتابع في كتاب ابن الربيعي (١) ٢١٤/٢ (٢) ٢٧١/٣ (٣) ٢١٤/٢ (٤) ١١٨/٢ (٥) ٢٢٩/٣ .

(٧) الخطيب ١٣٥/٧ .

الوشاء (ت ٣٠١) (٨) الحسن بن الحسن (ت ٣١٠) (٩) جعفر ابو علي الصواف (٣١٠) (١٠) منصور بن هبة الله (ت ٣٢٥) (١١) احمد بن محمد المنادى (ت ٣٣٦) (١٢) احمد بن جعفر انختلى (ت ٣٣٦) ، (١٤) علي بن محمد المصعبي (ت ٣٣٨) ، (١٥) (١٦) عبدالواحد بن عمر (ت ٣٤٩) ، (١٧) بكار بن احمد ابو عيسى (ت ٣٥٣) (١٨) عمر بن جعفر الختلي (ت ٣٥٦) ، (١٩) سليمان بن محمد (ت ٣٧٨) ، (٢٠) محمدبن الحسن الوراق (ت ٤١٢) ، (٢١) محمد بن احمد الهمداني (ت ٤٢١) ، (٢٢) محمد بن عمر النجار (ت ٤٣٢) ، (٢٣) احمد بن محمد الذهبي (ت ٤٣٥) ، (٢٤) محمد بن عبدالواحد (ت ٤٣٥)، (٢٥) احمد بن علي التوزي (ت ٤٤٢) (٤) .

وذكر ابن الجوزي ممن دفن فيها بعد تاريخ الخطيب .

(١) عبد الواحد بن الحسن (ت ٤٥٠) (٢) ابن دوست الديلمي (ت ٤٦٩)
(٣) محمد بن عمر بن بشران (ت ٤٦٥) (٤) عبدالسلام بن محمد القزويني (ت ٤٨٨)
(٥) عبدالملك بن محمد السامري (ت ٤٩٣) (٦) اياز (ت ٤٩٩)

---

(٨) الخطيب ٣٥٢/٥ .
(٩) المنتظم ٩٠/٩ .
(١٠) المنتظم ١١٧/٩ .
(١١) ابن الربيعي ٢٠/٢ .
(١٢) ابن الربيعي ٤٠/٢ .
(١٣)
(١٤) تلخيص مجمع الالقاب ١٩٥/٥ المنتظم ٢٤/٩ ، ١١٩ ، ابن النجار ١٦٤/٣ ابن الدبيعي ٣٩/٢ ، ١٨ ، المنذري ١١٠٦/١٠٦٨/٤٣١ ، ١٢٥٧ ، ١٢٩٠ ، ١٥/٩ /١٩٧٩/ ٢٨٣٨ .
(١) ذكروا في الخطيب بالتتابع (١) ٢١٧/١ (٢) ٣٧٨/٤٢٢) (٣) ١٧١/٢ وانظر الوزراء للصابي ٣٠١ .
(١٤) ابن النجار ٣٩/١ ، وانظر ١٢٥/١ ، ٢٣٩ ، المنذري ٢٣١ ، ١٠٦٨ ، ١١٦٨ ، ١٢٥٧ ، ١٢٩٠ ، ٢٨٣٨ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٩ .

(٧) ابراهيم بن محمد (ت ٥٣٧) (٨) الحسن بن الحسن (ت ٥٤٠)

وذكر ابن الدبيثي ممن دفن فيها :

(١) عبدالسلام بن اسماعيل (ت ٥٢٠) (٢) اسماعيل بن عبدالرحمن (ت٥٣٦)

(٣) علي بن احمد (ت ٥٩٢) (٤) عبدالله بن محمد بن عبدالجليل (ت ٦٠٩)

(٥) احمد بن مسعود التركستاني (ت ٦١٠) .

كان قبر ابي حنيفة ابرز ما في مقابر الخيزران ، ووردت اشارات الى من دفن بقربه فذكر الخطيب ان بكار بن احمد : دفن عند قبر ابي حنيفة في مقبرة الخيزران (٧) ، وان محمد بن عبدالله المعدل دفن «بقرب ابي حنيفة» (٨) .

وذكر ابن الجوزي ممن دفن في مقبرة الخيزران قريباً من ابي حنيفة كل من عبدالسلام بن محمد القزويني (٩) ، وعبدالملك بن محمد السامري (١٠).

وذكر ابن الدبيثي (١١) ان اسماعيل بن عبد الرحمن ودفن بمقبرة الخيزران المجاورة لمشهد ابي حنيفة (١٢) وان احمد بن عبدالرحمن دفن بمقبرة الخيزران عند مشهد ابي حنيفة (١٣) .

وفي العهود المتأخرة كان قبر ابي حنيفة يسمى « مشهد ابي حنيفة » (١٤).

كانت منطقة الخيزرانية سكناً ذكر الخطيب ممن سكنها (١) محمد بن أحمد الهمداني (ت ٤٢١) (٢) واحمد بن محمد الذهبي (ت ٤٣٥) (٣) ومحمد بن الحسن الهمداني (١٣)

---

(١٥) ابن الدبيثي ٢/١٩٣ .
(١٦) كذلك ٢/١٤٥ .
(١٧) كذلك ٢/٤٩ .
(١٨) ابن الدبيثي ١/٢٩ ، ٢٩٥ ، ٢/١٥٦ .
(١٩) المنتظم ١٠/٢٤٦ .
(٢٠)مذكورون بالتتابع في ابن الدبيثي (١) ٢/٢١٩ (٢) ٣/١٩١ (٣) ٢/٢١٤ (٤) ٢/٢٥٦ .
(٥) ١/٢٩٥ .

وذكرت بعض المصادر ان مشهد ابن حنيفة بباب الطاق (١٤)

وتسند اشار ابن الدبيثي بتمييز مشهــد ابي حنيفة عن باب الطاق فذكر «ومن اهل باب الطاق ومشهد ابن حنيفة كلا من احمد بن ابي بكر بن عيسى(١٥) ، (١٤) والحسن بن احمد وعبد السلام بن اسماعيل القاضي (١٦) ، ونقل عن الحسن بن علي بن احمد قوله « اصلنا من باب الطاق محلة كانت قريبة من مشهد ابي حنيفة (١٧)

وتردد ذكر « محلة ابي حنيفة » في اخبار العهود العباسية المتأخرة (١٨)

وذكر ابن الجوزي انه في فيضان سنة٥٦٩ «اسكر اهل محلة ابي حنيفة فجاءهم الماء من خلف المحلة ، فنجوا باطفالهم وعم المحلة (١٩)

وذكر ابن الدبيثي من سكانها (١) اسماعيل بن عبدالرحمن (ت ٥٣٦) (٢) واحمد بن عبدالله البندنيجي (٣) وعلي بن احمد العباسي (ت ٥٩٢) (٤) والدامغاني (ت ٥٥٢) (٥) محمد بن طلحة الشاهد (٢٠) .



*— *

المقبرة المالكية

تقع بالقرب من الرصافة مقبرة عبدالله بن مالك(١) وتسمى المقبرة المالكية وذكر ابن الجوزي ما يدل على انها كانت تقع في الأطراف الشرقية من الرصافة حيث قال انه في سنة ٤٦١ « بلغ الماء الى مشهد النذور ومشهد السبتي وتلرفي »(٢) وفي سنة ٤٦٦ غرقت المقابر وصعدت التوابيت على الماء وخرق مشهد النذور ومقبرة الخيزران (مقبرة ابي حنيفة) وقبر السبتي وتهدم الجامع » (٣) وفي سنة ٥٦٩ « عم الماء السبتي والخيزرانية ، واسكر اهل ابي حنيفة فجاءهم الماء من خلف المحلة فنجوا باطفالهم ، وعم المحلة وجامع المهدي ، ووقعت منه اذرع » (٤) ويدل سياق كلامه ان المواضع التي ذكرها هي بالتتابع من الشرق : قبر النذور ، وقبر السبتي ، ومقبرة ابي حنيفة ، وجامع المهدي ، وسنذكر ان قبر السبتي كان في مقبرة عبدالله بن مالك .

نسبت المقبرة الى عبدالله بن مالك (٥) وذكر الخطيب انه « دفن فيها خلق كثير من الفقهاء والمحدثين والزهاد والصالحين ، وتعرف بالمالكية (٦) .

كانت مقبرة عبدالله بن مالك احدى مقبرتي الجانب الشرقي ، والثانية مقبرة الخيزران

---

(١) التكملة في وفيات النقله للمنذري ٢٨١/١ ، ابن الدبيثي ١٩٥/٢ .

(٢) المنتظم ٢٥٤/٨ .

(٣) المنتظم ٢٨٦/٨ .

(٤) المنتظم ٢٤٦/١٠ .

(٥) ذكر الخطيب ان عبدالله بن مالك كان له اقطاع في الجانب الغربي ثم جعل الحبس الحديد في الاقطاع (٨٧/١) ولم يذكر له اقطاعا في الجانب الشرقي .

(٦) الخطيب ١٢٣/١ .

في اوائل زمن الخلفاء العباسيين ، وذكر ابن سعد ممن دفن فيها اسماعيل بن ابراهيم بن مقسم (ت ١٩٣) (٧) وهاشم بن القاسم الكناني (ت ٢٠٧) (٨) .

وذكر الخطيب ممن دفن فيها محمد بن علي المحاملي (ت ٣٥٧) (٩) ، واحمد بن نصر (١٠) والعباس بن بشران الرخجي (ت ٣٢٠) (١١) وعبدالملك بن محمد الأموي (ت ٣٢١) (١٢) .

ان أشهر ما في مقبرة المالكية هو قبر السبتي (١٣) المنسوب في قول ابن الجوزي الى احمد بن هارون الرشيد ، وكان قد ولدته امرأة لم يذكر اسمها ، ونشأ في البصرة ، ثم عاد الى بغداد(١٤) « وكان عبداً صالحاً ترك الدنيا في حياة ابيه مع القدرة ولم يتعلق بشيء من امورها وابوه خليفة الدنيا ،وآثر الانقطاع والعزلة ، وانما قيل له السبتي لانه كان يتكسب بيده في يوم السبت ينفقه في بقية الاسبوع ويتفرغ بالاشتغال بالعبادة فعرف بهذه النسبة ، ولم يزل على هذه الحال الى ان توفي سنة ١٨٤ قبل موت ابيه (١٥) .

لم تذكر المصادر الاساسية ، ومنها ابن سعد والخطيب والسمعاني السبتي وقبره ، وانفرد بذكره ابن الجوزي ومن نقل عنه ، ولكنه لم يشر الى الزمن الذي بدأ فيه تقدير الناس للسبتي .

(٧) الطبقات ٧ ـ ٢/٧٠ .
(٨) الطبقات ٧ ـ ٢/٧٧ ، وانظر الخطيب ١٤/٦٦ .
(٩) الخطيب ٣/٨٥ .
(١٠) الخطيب ٥/١٨٠ .
(١١) الخطيب ٦/٢٣٠ .
(١٢) الخطيب ١٠/٤٣٣ .
(١٣) صفة الصفوة ٢/١٧٦ .
(١٤) صفة الصفوة ٢/١٧٤ ـ ٦ ، ويسميه الكازروني « ابو احمد محمد » ويذكر ان امه ام ولد يقال لها كتمان (١٣٧) ويذكر انه السبتى الزاهد الذى يزار (١٣٨) .
(١٥) وفيات الاعيان لابن خلكان ١/١٦٨ ، وهو تلخيص لما ذكره ابن الجوزى .

المصلى وقبر النذور : ـ

من المعالم العمرانية القريبة من الرصافة مصلى العيد وهو وفق تقاليد المدن الاسلامية ارض فضاء واسعة في طرف المدينة من الجهة التي يقيم فيها الخليفة ، وتقام فيه الصلاة في الاعياد . وقد سماه الخطيب «المصلى المرسوم بصلاة العيد»(١٦) غير انه كانت تتم فيه بعض الصلوات : ففي سنة (٣٢٩) « خرج الناس للاستسقاء وخرج اهل الجانب الشرقي الى المصلى » (١٧) .

من المحتمل ان المصلى في الجانب الشرقي كان قائماً منذ اوائل سنى اعمار ذلك الجانب ، غير انه لم يرد له ذكر قبل عودة الخلفاء العباسيين الى بغداد من سامرا .

ذكرنا ان مصلى الاعياد في الامصار ارض فضاء محدودة ، ليس فيها بناء جامع ، ويبدو انها كانت كذلك في بغداد . ويذكر الطبري ان المكتفي أمر في سنة ٢٩١ « ببناء دكة في المصلى العتيق من الجانب الشرقي تكسيرها عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، وارتفاعها نحو من عشرة اذرع ، وبنى لها درج يصعد منها اليها (١٨) ، وقد قعد عليها المكتفى والقواد والعلماء وعرضوا الاسرى الذين جاءبهم المكتفى » (١٩) .

ويذكر الصولي ان المقتدر امر بتجديد المصلى العتيق الذي بباب خراسان(٢٠) ولم يذكر تفاصيل عن التجديد الذي نرجح انه اقتصر على اعادة بناء الدكة او تشييد بناء بسيط فيه .

---

(١٦) الخطيب ١/١٢٣ .
(١٧) الصولي : اخبار الراضي والمتقي ١٩٢ .
(١٨) الطبرى ٣/٢٢٤٤ .
(١٩) تكملة الطبرى لعريب ١٣ .
(٢٠) اخبار المقتدر للصولي ٩٦ب (مخطوط) .

وبالنظر لفسحة الارض في المصلى ، ووقوعه عند طرف العمران ، فقد كان مركزاً لتجمع الجند ، فيروي الطبري أنه في سنة ٢٥٢ أمر المعتز باطلاق وصيف وبغا « فاتاهما جيش من الاتراك فنزلوا بالمصلى ، وخرج وصيف وبغا واولادهما وفرسانهما في نحو من اربعمائة انسان ، وخلفا في دورهما الثقل والعيال »(٢١) .

وفي سنة ٣١٧ خرج مؤنس الى باب الشماسية « ثم انتقلوا من باب الشماسية الى المصلى » (٢٢) .

وفي سنة ٣٣١ « خرج من بقي من الديلم ببغداد الى المصلى وعسكروا هناك » (٢٣) .

وفي سنة ٣٣١ « اقبل غلمان مرداويج وفيهم بجكم الى جسر النهروان وراسلوا السلطان فأمرهم بدخول الحضرة ، فدخلوا وعسكروا بالمصلى»(٢٤)

وفي سنة ٣٣٤ « اضطرب الاتراك والديلم ببغداد واخرجوا مضاربهم الى المصلى وعسكروا هناك » (٢٦) .

وفي سنة ٣٦٩ عسكر فيه عضد الدولة مع عسكره قبيل خروجه من بغداد(٢٧) .

ذكر الخطيب « عند المصلى المرسوم بصلاة العيد كان قبر يعرف بقبر النذور » (٢٨) وذكر ياقوت « قبر النذور مشهد بظاهر بغداد على نصف ميل من السور يزار وينذر له ، قال التنوخي : كنت مع عضد الدولة وقد اراد الخروج

(٢١) الطبرى ١٦٥٩/٣ .
(٢٢) تجارب الامم ١٨٩/١ .
(٢٣) تجارب الامم ٤١/٢ .
(٢٤) تجارب الامم ٣٣١/١ .
(٢٥) تجارب الامم ٤١/٢ .
(٢٦) تجارب الامم ٨٤/٢ .
(٢٧) ذيل تجارب الامم ٩/٣ .
(٢٨) تاريخ بغداد ١٢٣/١ .

الى همذان وقد وقع نظره على البيت الذي على قبر النذور ، فقال لي : يا قاضي ما هذا البناء ، قلت اطال الله بقاء مولانا هذا مشهد النذور ، ولم اقل قبر النذور لعلمي تطيره . فقلت هذا قبر عبيدالله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، فكان بعض الخلفاء اراد قتله خفية ، فجعل هناك زبية وستر عليها وهو لا يعلم ، فوقع فيها وهيل عليه التراب حياً وشهر بالنذور » . يتبين من هذا ان قبر النذور كان قائماً قبل مجيء عضد الدولة (سنة ٣٦٩) ، وان الناس كانت تؤمن باستجابه من يدعو عنده وينذر اليه (٢٩) .

يتبين من نص ياقوت ان قبر النذور نسب الى عبيدالله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذكر عبدالرزاق كمونة عن عبيدالله « قال ابو الحسن العمري في المجدي كان حليماً سديداً وهو صاحب قبر النذور ببغداد .

وقال ابو نصر البخاري توفي ببغداد وهو ابن سبع وستين سنة .

وذكر العميد في المشجر الكشاف انه توفي سنة ١٥٠ وقبره مشهور ببغداد صاحب قبر النذور » (٣٠) .

ذكر ياقوت ان « قبر النذور مشهد بظاهر بغداد على نصف ميل من السور يزار وينذر اليه (٣١) . واضاف ابن عبدالحق الى قول ياقوت « كان اولا بين دروب بغداد . وخرب ما حوله وصار في البرية ، وبينه وبين سور بغداد قريب من نصف فرسخ » (٣٢) ولعله يقصد السور الذي اقيم في المنطقة المعمرة انذاك ، وحدها الشمالي قرب باب الحالي .

---

(٢٩) معجم البلدان ٢٨/٤ .

(٣٠) مشاهد العترة الطاهرة ٤٥ ، ويلاحظ ان البخاري لم يذكره في « سر السلسلة » .

(٣١) معجم البلدان ٢٨/٤ .

(٣٢) مراصد الاطلاع ١١٢٦/٣ .

ولا ريب في أن موقعه قرب المصلى يدل على ان الارض التي حوله كانت منذ القرن الرابع قليلة السكان .

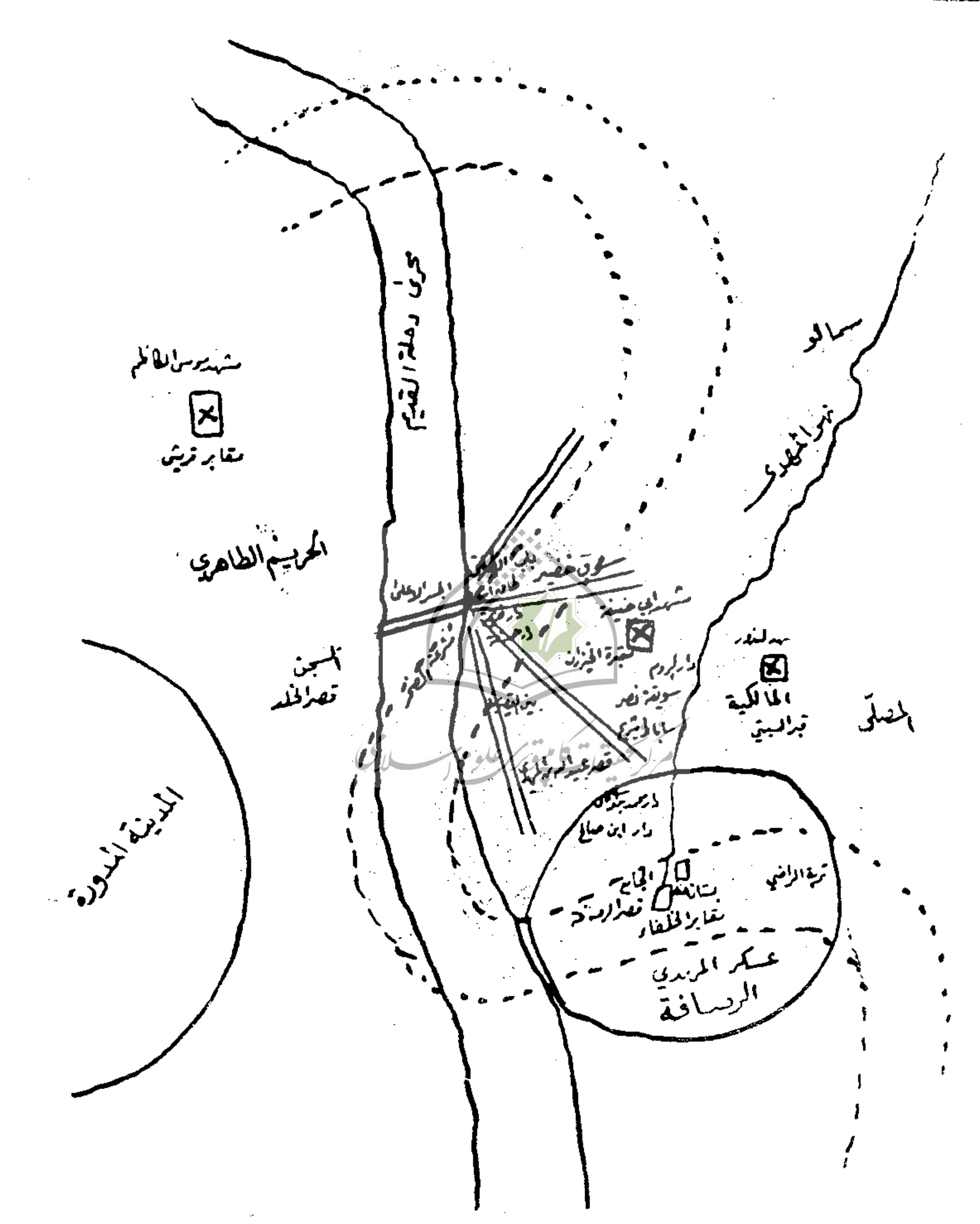
وذكر ابن النجار من دفن في مشهد النذور علي بن احمد بن ابي الحسن بن ملاعب (٣٣) .

ولا يزال مشهد النذور قائمـاً اليوم في الاعظمية ويسمى قبر أبي رابعة ، وهو يبعد قرابة ثلاثمائة متر جنوبي شرقي مرقد ابي حنيفة .



* — *

(٣٣) ذيل تاريخ بغداد ٣/٤٦ .



خارطة عسكر المهدي (الرصافة) والمواضع القريبة منها
(تحديد المواقع تقديري عدا ما وضع عليه علامة X)

أقوال العرب ومؤلفاتهم في خصائص الشعوب والبلدان

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الثاني والأربعون - الجزء الثالث

1413هـ - 1992م

أقوال العرب ومؤلفاتهم
في خصائص الشعوب والبلدان

الدكتور صالح أحمد العلي
رئيس المجمع

المدن وخصائصها في العالم الاسلامي :

وحّدت الدولة الاسلامية البلاد الواسعة التي إنضوت تحت لوائها وازالت الحواجز القديمة التي كانت بين الدول المتعادية قبل الاسلام ، كما زعزعت النظم الاقطاعية الجامدة ، ونشرت الحرية التي ارتكزت عليها المبادىء الاسلامية وتشبعت بها الهيئة الموجهة للحكم من الخلفاء والولاة والقواد العرب ومستشاريهم ، فاباحت بموجبها حرية العمل والتنقل ، وأدت هذه الحرية والاختلاط الى تمازج مختلف النظم والحضارات ، والى اضعاف التقاليد المحلية الناجمة عن العزلة .

غير أن تنوع الأحوال والظروف الطبيعية ، وتباين المصالح بين مختلف الأقاليم والأماكن ، وضعف سبل المواصلات والاتصال أدى على مر الزمن الى بروز خصائص محلية لبعض الاقاليم ، كما ان عدداً من الدوافع السياسية والاجتماعية دفعت بعض هذه الاماكن الى التفاخر بخصائصها التاريخية او الطبيعية ، وزاد من قوة ظهور هذه الخصائص محدودية حرية التنقل والتجارات التي تعين على انتشار المعرفة بتلك الخصائص .

مصادر المعلومات :

وترجع الأصول الأولى لملاحظة هذه الخصائص الى السنوات الاولى لتكوّن الدولة الاسلامية حين كانت ترد وفود الامصار الى الخليفة فتعرض أحوال أهلها ، أو تقدم السلع الى الامصار الرئيسة .

ان اول ما روي لنا عن خصائص المدن هي ما ذكرته الوفود ، كذكر وفد البصرة لعمر الأحوال الضنكة لمدينتهم ، أو وصف الخليفة عمر للكوفة تقديراً لأهلها وحثا على الهجرة اليها ، أو وصف بعض الولاة خصائص الأقاليم التي

ولوها ، كوصف عمرو بن العاص لمصر ، هذا فضلا عن رغبة بعض الخلفاء معرفة خصائص الأقاليم والاستفسار عنها كالذي فعله عمر بن الخطاب مع كعب الأحبار .

وقد أدى استقرار الأمصار الى نمو روح الجماعة بين أهلها والى شعورهم بمصالحهم الخاصة المشتركة ، والى طابعهم الخاص المميز لهم عن أهل الامصار الاخرى بالرغم من تشابه أصولهم القبلية والنظم السائدة فيهم . وأبرز ما ظهرت فيه بين الكوفة والبصرة اللتين كان لكل منهما موقف سياسي يخالف الاخرى ، فان أهل الكوفة قاموا بدور كبير في فتوح العراق التي حدثت في خلافة عمر ، وساهموا في المعارضة للخليفة عثمان ، وأيدوا الامام علي الذي اتخذ الكوفة قاعدته ، أما البصرة فلم يقم أهلها بفتوح كبيرة في أوائل خلافة عمر بن الخطاب ، ثم ازدادت فتوحهم في أواخر خلافة عمر وفي خلافة عثمان ، ثم صارت مركزا لمتحدي الخليفة علي الذي قضى عليهم في موقعة الجمل ، ولم يكونوا متحمسين في تأييده ، وكانوا من حيث العموم عثمانية واسهموا في القضاء على المختار في الكوفة .

المؤلفات في الخصائص :

وعندما نشط التأليف والتدوين عند العرب والاقاليم ، كان مما عنوا به تدوين ما تتميز به بعض المدن والأقاليم وعنونوا مادونوه عناوين متعددة، منها «خصائص» و «فضائل» و «مفاخر» و «مثالب» ، ولكل من هذه التعابير مدلول لغوي خاص استخدمه العرب للدلالة على ما يقصدوه ؛ فكلمة « خصائص » تدل على صفات خاصة تتسم بها المدينة أو الاقاليم ولا يشترط ان تنفرد بها وحدها ، وكلمة « فضائل » يقصد بها ما تميزت به المدينة وخاصة بما يتصل بالدين كقدسية أرضها أو من أنجبتهم من المعنيين بالدين ، أما «المفاخر» فهي وصف لما تميزت به على غيرها من أمور جيدة ، و «المثالب» هي ذكر للعيوب .

ويتصل بهذا الميدان ما روي من «مفاخرات» بين اكثر من مكان تذكر فيه خصائص المكان وميزاته ويشار الى عيوب المكان الاخر ونقائصه .

والجوانب التي تذكر في هذه المدونات تعبير عن المثل العليا المقبولة عند الناس ، وهي بلا ريب غير ثابتة وانما منوعة ومتطورة ، وقد لا تقتصر على جانب واحد ، فتشمل عدة جوانب ، فقد تشمل خصائصها الجغرافية وأرضها ، ومنتوجاتها ، ورجالها ، واسهامها في الفكر والحضارة ، أو في المصنوعات التي تنتجها ، وهي تعبر عن الاوضاع القائمة عندما ابديت عليها الملاحظات ، ولذلك فان تحديد مصدر القول وتعيين زمنه هو أمر مهم ، علما بأن كثيراً من المظاهر التي ذكرتها النصوص استمرت أمداً غير قصير .

والابحاث في خصائص البلدان ليست مرادفة لخصائص الشعوب ، فأن هذه تبحث في الشعوب حيثما كانوا ، فهي لاتقتصر على مدينة أو تنحصر في مكان ، اما خصائص المدن والاقاليم وترتكز على المكان وتبحث ما تميز به من منتوجات ومصنوعات ، ويتطرق بعضها الى خصائص أهله ورجاله المتأثرة بالأحوال الاقليمية وليس بالموروثات العرقية ، غير أنها في تطرفها الى ذلك تدرسها ضمن نطاقها العام للمكان ، وبذلك تتميز عن دراسة مناخر الأفراد أو مثالبهم والجماعات التي تدرس لذاتها وليس لصلتها بالمكان .

تعبر مدونات الخصائص عن « الاقليمية » وعن تميز كل منطقة من مدينة أو اقليم بسمات معينة على اختلاف أهلها عن الأحوال في المناطق الأخرى ، وأغلبها تعبر عن التباين والتنافس المحلي السلمي .

وصلتنا نصوص غير قليلة ، بعضها مقتصر على خصائص مدينة معينة ، وبعضها مقارنات بين مدينتين ، تذكر فيها خصائص كل منها ، وبعضها يجمع خصائص عدة مدن . وأغلب ما وردنا في ذلك يتعلق بما لأهل كل مدينة من مميزات خلقية ، أو ما تميزت به من منتوجات زراعية أو حيوانية أو صناعية ؟ وبعضها يذكر من اشتهر من علمائها ، ولاريب في أن هذه

المعلومات بلدانية ، غير أنها تنفرد بسمات خاصة تميزها عما كتبه البلدانيون والجغرافيون الذين ألفوا كتبا عامة ذكروا فيها أوصاف عدد من المدن وما تميزت به كل منها من أحوال طبيعية أو سكان أو منتوجات دون أن يقدروا أهمية هذه المنتوجات بالنسبة للعالم الاسلامي مما تهتم به النصوص التي ذكرت خصائص المدن •

ان بعض هذه النصوص يمكن تحديد تاريخه من معرفة قائلها أو أقدم مصدر ذكرها ، غير أنه يصعب تحديد عدد منها ، خاصة وأن المؤلفين العرب إهتموا بنقل النصوص المتقنة التي تروق لهم مع اغفال المصدر الذي نقلوا عنه، ولهذا الاغفال أثر في صعوبة تحديد تطور هذه الخصائص، فمن المعلوم ان المدن ، شأن أية مؤسسة أخرى ، تعرضت لتطورات واسعة من النمو والضمور، ومن ميادين الاهتمام ، ومعرفة القائل الاول للنص يحدد زمن ظهور هذه الخصائص التي قد لاتبقى ثابتة الى الأزمنة المتأخرة التي تنقل كتبها تلك النصوص من دون تحديد زمنها أو ماحدث عليها من تطورات تالية ، وأكثر ما روي عن العرب وصف أمصارهم وخاصة الكوفة والبصرة ، أما غير العرب فرووا بجانب ذلك خصائص مدن ايران وأقاليمها بجانب وصفهم لأحوال العرب•

وأغلب النصوص التي وردتنا قصيرة محكمة ، يذكر كل منها ما للمدينة أو المدن من خصائص بعضها مميزات وبعضها عيوب، ويرجع أقدمها الى أقوال نقلت عن أفراد أبرزهم الأحنف بن قيس ، وكعب الأحبار ، وابن القِرّية وخالد بن صفوان ومحمد بن عمير العطاردي وابي بكر الهذلي وابن عياش وقد نقل كثيراً من أقوالهم ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» والجاحظ في عدد من كتبه وخاصة كتابي « البلدان » و « البيان والتبيين » ، وابن الفقيه الهمداني في كتاب « البلدان » والنويري في كتاب «نهاية الارب» •

وردت في المصادر ثلاث مفاخرات في أقاليم المشرق ، هي مناظرة بغداد وهمدان ، وقد نقلها ابن الفقيه في كتابه «البلدان» (٢٢٧) ، والمفاخرة بين

بغداد وإصبهان وهي تكون قوام كتاب «حكاية ابي القاسم» التي ينسبها عبود الشالجي الى التنوخي ، ومفاخرة ابن زولاق بمصر في كتابه عن «الموازنة بين مصر وبغداد» .

أما المفاخرة بين الكوفة والبصرة ، فقوامها نصوص متفرقة تختلف في سعتها ومادتها ، منسوبة الى رجال من أهل المدينتين عاش جلهم في زمن الراشدين والأمويين ، وفيها معلومات زاخرة عن الأحوال العمرانية وعن اسهامها في الفتوح والحركات السياسية والفكرية ؛ وبالنظر لأهمية معلوماتها وتفرقها ، فقد رأينا ان نفردها بفصل خاص .

وذكر ابن النديم في كتابه «الفهرست» عددا من كتب فضائل البلدان ومنها «فضائل بغداد وصفتها» ليزدجرد بن مهبنداد (١٨٥) و « خصائص بغداد وأخبارها» لأحمد بن الطيب السرخسي (٣٦٦) .

وذكر أيضا «كتاب» مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة للمدائني (١٥٢)، و «فخر أهل الكوفة على أهل البصرة» للهيثم بن عدي (١٤٦) ، وفضل المدينة على مكة (٢٣٨) ، و «فضائل مكة على سائر البقاع» لابي زيد البلخي (١٩٩) ، و«فضائل مصر» للجمحي (١٦١) وكافة هذه الكتب مفقودة ولم يشر اليها أحد سوى كتاب يزدجرد بن مهبنداد الذي نقل كثيرا منه ابن الفقيه في الفصل الذي كتبه عن بغداد في كتابه «البلدان» ، كما ألمح الى بعض محتواه ابن زولاق في كتابه عن فضائل مصر ، غير ان في مقدمات بعض كتب المدن نصوص عن خصائص المدينة موضوعة البحث ، كالذي نجده في تاريخ بغداد للخطيب ، وكتاب البلدان لليعقوبي و «فضائل اصبهان» للمافرخي ، و «أخبار أصفهان» لابي نعيم .

وذكر الطوسي في كتابه «الفهرست» كتابين عنوان كل منهما «فضل الكوفة» أحدهما لأحمد بن محمد بن عقدة الحافظ (٢٨) والثاني لعلي بن الحسين بن فضلة (٩٥) ، وذكر أيضا كتاب «فضل قم والكوفة» لسعد بن

عبدالله القمي (٧٥) •

وأورد كل من ابن الفقيه الهمداني في كتابه «البلدان» ، والخطيب البغدادي في المقدمة الخططية لكتابه « تاريخ بغداد » نصوصاً متشابهة عن بغداد وما قيل فيها من مدح وذم •

ونشير الى ما كتبه عن العراق وبغداد كل من اليعقوبي في كتاب البلدان، والخطيب البغدادي في مقدمة كتابه «تاريخ بغداد ، والاشارات التي ذكرها ابن ابي الحديد عن خصائص العراق في كتابه «شرح نهج البلاغة» •

وعن مصر يضم كتاب نشر بعنوان «فضائل مصر» منسوب الى الكندي، معلومات تطابق ما في كتاب منسوب لابن زولاق الذي ذكر ابن ظهيرة في كتابه «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» ان ابن زولاق قال في كتابه الكبير في تاريخ مصر ، هذا كتاب عملت فيه عملا من عيون أخبار مصر وفضائلها وضيعها كتبت بالموازنة بين مصر وبغداد (٧١) وذكر ابن ظهيرة في مكانين من كتابه اسم كتاب ابن زولاق «الموازنة بين مصر وبغداد» (٣١ ، ٢٤٣) وقد نقل ابن ظهيرة عن ابن زولاق معلومات كثيرة عن مدن مصر ومنتوجاتها ، وهي معلومات لاتوجد في مخطوطة باريس من كتاب ابن زولاق ، وهي النسخة الوحيدة الباقية فيما أعلم •

بحث الجاحظ في كتابه (التبصر بالتجارة) منتوجات عدد من الأقاليم ، ومنها الجواهر النفيسة (٨-١٢) ، والطيب والعطور (١٢-١٣) والمنسوجة (١٤ - ٢٠) وما يجلب من البلدان من طرائف السلع والامتعة وبحث في كتاب « البلدان » الذي وصلنا مختصره عن فضائل قريش وآل أبي طالب ، ثم بحث في مكة ، والمدينة ، ومصر ، والكوفة ، والبصرة •

وبحث عدد من البلدانيين ، وأبرزهم اليعقوبي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، وابن الفقيه • اقاليم بلاد العالم الاسلامي وكثير من مدنهم ، وتميز اليعقوبي باهتمامه في المدن ببحث خططها وتركيبها السكاني ،

وبذكر بعض منتوجاتها • غير أن المطبوع من كتاب اليعقوبي معتمد على نسخة فريدة ناقصة ، ولم تكتشف حتى الآن مخطوطة اكمل منها ، او نصوص منقولة عنها وفيها معلومات تضيف الى المطبوع •

اما الاصطخري فقد وصف في كتابه « المسالك والممالك » اقاليم بلاد الاسلام وكثير من مدن كل اقليم ، وفيه اشارة الى منتوجات الاقاليم ، وصناعة وسكان بعض المدن التي ذكرها ، وكان كتابه معتمد ابن حوقل الذي نقل مادة الاصطخري مع اضافات عن الموصل والمغرب ، وقد ارتاب عدد من الأقدمين بصحة نسبة الكتاب الى الاصطخري ، وعزوه الى ابي زيد البلخمي، ولكن هذا لا يمس صحة المعلومات التي حددت فيه والتي تمثل الاحوال في اواسط القرن الرابع •

ونظم المقدسي مادة كتابه « أحسن التقاسيم » على اساس الاقاليم • وذكر معلومات غنية عن احوال ومنتوجات عدد كبير من الاقاليم والمدن التي وصفها •

اما ابن الفقيه فقد وصلتنا من كتابه « البلدان » نسختان غير كاملتان طبع احداهما دي غوية ، وطبع الثانية بالتصوير فؤاد سزكين عن اصلها الفريد المحفوظ في مشهد وتتفق النسختان في بعض المعلومات ، وتنفرد كل منهما بمعلومات عن خصائص بعض البلدان ، وخاصة البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، وواسط ، وسر من رأى • وقد كشفت قطعة صغيرة منه في احدى مدن اسيا الوسطى ، كما نقل عنه ياقوت نصوصاً لا توجد في النسختين المطبوعتين •

ومع ان كتاب الفقيه في البلدان ، الا انه لم يرتب مادته تبعاً للاقاليم ، كما انه اورد معلومات واسعة عن خصائص الشعوب وبعض المدن والمناظرات الاولى بين بعض المدن ، وخاصة بين الكوفة والبصرة ، وبين بغداد وهمدان •

بحث ابن الفقيه في خصائص بعض الامم ومنها الروم والنوبة ، والبجة، والترك ، والهند وبعض شعوب اوربا ، كما ذكر معلومات واسعة عن بعض

اقاليم ومدن العالم الاسلامي بما في ذلك مدن اقاليم المشرق ، والعراق ، وجزيرة العرب ، والمغرب واورد كثيراً من المفاخرات بين البصرة والكوفة ، وعجائب بعض المدن ، والمنتوجات الزراعية والصناعية ، وما يضاف وينسب الى بعض المدن والاقاليم ، وخصائصها * .

وبحث الثعالبي في « لطائف المعارف » خصائص ومحاسن ومساوىء عدد من أقاليم ومدن العالم الاسلامي ، كما بحث في كتابه « ثمار القلوب » ما خص به عدد من اقاليم ومدن العالم الاسلامي ، وخاصة مدن شبه جزيرة العرب ، وما خصت به بعض هذه الاقاليم والمدن من احوال ومنتوجات . ونقل فيما اورده ، كثيراً عن الجاحظ وخاصة من كتابه « البلدان » .

وبحث النويري في كتابه (نهاية الأرب) خصائص ومنتوجات عدد من الأقاليم ومعلوماته فيها تطابق تقريبا ماذكره الثعالبي في «لطائف المعارف» عنها مما يدل على ان الثعالبي كان مصدر النويري الذي لم يضف شيئاً على ما اقتبسه .

وخصص عمر بن الوردي في كتابه « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » فصلا في خصائص البلدان وذكر فيه خصائص كل من الشام ومصر واليمن والبصرة والكوفة وبغداد والاهواز وفارس وأصفهان والري وطبرستان وجرجان ونيسابور وطوس وهراة ومرو وبلخ وسجستان وبست وغزنة والهند وسمرقند والصين والتبت وخوارزم .

تباين خصائص أهل الآقاليم وتناقضها :

ترجع أقدم النصوص التي وصلتنا عن خصائص المدن والأقاليم الى زمن الخليفة عمر بن الخطاب وتنسب الى كعب الأحبار ، فقد ذكر النويري « ان

---

* انظر تفاصيل أوفى في كتاب « الأدب الجغرافي عند العرب » لكراتشوفسكي وكتاب الجغرافية البشرية للعالم الاسلامي « لميجيل » .

عمر بن الخطاب سأل كعب الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سكنتها ، فقال : ان الله تعالى لما خلق الاشياء جعل كل شيء لشيء :

فقال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك

وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك

وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك[1] .

ونقل عن محمد بن حبيب ما يشبه هذا القول من دون أن يحدد قائله أو زمنه

فقال «لما خلق الله الخلق جعل معهم عشرة أخلاق : الايمان ، والحياء ، والنجدة ، والفتنة ، والكبر ، والنفاق ، والغنى ، والفقر ، والذل ، والشقاء.

فقال الايمان أنا لاحق باليمن ، فقال الحياء وأنا معك

وقالت النجدة أنا لاحقة بالشام ، فقالت الفتنة وأنا معك

وقال الكبر أنا لاحق بالعراق ، فقالت النعمة وأنا معك

وقال الغنى أنا لاحق بمصر ، فقال الذل وأنا معك

وقال الفقر أنا لاحق بالبادية ، فقال الشقاء وأنا معك[2] .

وروى المدائني ان الحجاج هو الذي قال : لما تبوأت الأمور منازلها

قالت الطاعة أنزل الشام قال الطاعون وأنا معك

وقال النفاق أنزل العراق قالت النعمة وأنا معك

وقالت الصحة أنزل البادية قالت الشقوة وأنا معك [3] .

يروى ابن الفقيه عن عمرو بن أوس أن عمر بن الخطاب أراد أن يقدم الى الكوفة فكتب اليه كعب الحبر : يا أمير المؤمنين لا تعجل فانه قد بلغني أن بها الداء العضال وبها تسعة أعشار الشر ، وبلغني أنه اذ كل شيء ينطق أجتمع ثمانية أشياء في واد . الايمان والحياء والهجرة والموت والفناء والعي

(1) نهاية الأرب ١/١٩٢ .

(2) نهاية الأرب ١/٢٩٢ .

(3) عيون الاخبار ٢٢٢٨ ، النويري ١/٩٢ .

والشقاء والصحة ، فقال بعضهم لبعض تعالوا تتصرف في الارض فتفرقوا في البـلاد :

فقال الايمان أنا الحق بأرض اليمن ، فقال الحياء أنا معك
قال الهجرة أنا الحق بالشام ، قال الموت أنا معك
قال الغنـاء أنا الحق بأرض العراق فانها أرض واسـعة ، فقال الغنـى أنا معك .

قالت الصحة ما تركتم لي شيئا من البلاد الا وقد أخذتموه ، قال الحـق بالبرية ، فقال الشقاء : أنا معك (٤) .

وروى المدائن عن عاصم في اسناد له بعض هذا القـول ولم يوضـح الاسناد فقال :

قال الطاعون لنا الحق بالشام ، فقال الخصب انا معك
وقال الجوع انا الحق بأرض البادية ، فقالت الصحة وأنا معك
وقالت النعمة أنا الحق بأرض العراق ، فقال السقم أنا معك (٥) .

اقتصرت بعض النصوص على ذكر ما تميزت به بعض الامصـار وكان أقدمها متصوراً على أقاليم الحجاز والشام ، والعراق ، غير أن بعضها شـمل خصائص الأمصار العربية ، ثم امتدت بعض النصوص لتشمل أيضا خصائص أقاليم بلاد العرب ، ثم الأقاليم المفتوحة .

ومن أقدم هذه النصـوص ما رواه محمد بن حبيب عن ابن مـــورع الكلبي عن صعصعة بن صوحان ، حيث قال « دخل صعصعة بن صوحـــان العبدي على معاوية فقال له يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالهـا ، فأخبرني عن أهل البصرة واياك والحمل على قوم لقوم ، قال : البصرة واسطة

(٤) البلدان ١٨٦ ــ ٧ .
(٥) التعازي ٨٢ ، ثمار القلوب ٥٤٧ .

العرب ، ومنتهى الشرف والسؤدد ، وهم أهل الخطط في أول الدهر وآخره وقد دارت بهم سروات العرب كدوران الرحا على قطبها » .

قال فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : قبة الاسلام ، وذروة الكلام ، وفطان ذوي الأحلام ، الا ان بها أخلاقاً تمنع ذوي الأمر الطاعة وتخرجهم عن الجماعة وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة .

قال اخبرني عن أهل الحجاز ، قال : أسرع الناس الى فتنة ، واضعفهم عنها ، وأقلهم عناء فيها ، غير أن لهم ثباتاً في الدين ، وتمسكا بعروة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلفون الفسقة الفجار[6] .

روى ابن الفقيه جواب ابن القرية على تساؤل الحجاج عن أقاليم جزيرة العرب وفيها بعض الاختلاف عما رواه ابن شاكر ، فذكر :

قال فأخبرني عن اليمامة ، قال : أهل جفاء وجَلَد وثروة وعدد وفرّ وكرّ

قال فأخبرني عن عمان : قال : حرّها شديد ، وصيدها عتيد ، وأهلها بهائم ليس بها رائم ،

قال فأخبرني عن البحرين : قال كناسة بين مصرين : كثيرة جبالها ، جهلة رجالها ،

قال فأخبرني عن مكة : قال : رجالها علماء ، وفيهم جفاء ، ونساؤها كساة عراة .

قال فأخبرني عن المدينة ، قال : رسخ العلم فيها ثم علا وانتشر في الآفاق

قال فأخبرني عن اليمامة ، قال: أهل جفاء وجَلَد وثروة وعدد ، وفرّ وكرّ

قال فأخبرني عن البصرة : قال : حرها شديد ، وماؤها مالح ، وحربها صالح ، مأوى كل تاجر وطريق كل عابر

---

(٦) مروج الذهب ٣/٢ .

قال فأخبرني عن واسط ، قال : جنة بين حماة وكنة تحسدانها ودجلة والزاب يتناوبان عليها

قال فأخبرني عن الكوفة ، قال : سفلت عن برد الشام ، وارتفعت عن حر اليمن ، فطاب ليلها وكثر خيرها

قال فأخبرني عن الشام ، قال : عروس في نسوة جلوس كلهن يزفنها ويرفدنها

وذكر أنه قال عن مكران « ماؤها وشل ، وتمرها دفل ، وسهلها جبل ، ان كثر بها الجيش جاءوا ، وان قلوا ضاعوا

وذكر ان خراسان « ماؤها جامد ، وعدوها جاهد ، وبأسهم شديد ، وشرهم عنيد [٧] .

ومما يرجع الى زمن الحجاج بن يوسف نص ينسب لزادان فروخ أجاب فيه الحجاج عندما قال له «اخبرني عن العرب والأمصار ، فقال اصلح الله الأمير : أنا بالعجم أبصر مني بالعرب ، قال لتخبرني قال فسل عما بدا لك :

قال أخبرني عن أهل الكوفة ، قال : نزلوا بحضرة أهل السواد فأخذوا من ضيافتهم وسماحتهم

قال فأهل البصرة ، قال : نزلوا بحضرة الخوز فأخذوا من مكرهم وبخلهم

قال فأهل الحجاز ، قال نزلوا بحضرة السودان فأخذوا من حمقة عقولهم وطربهم

فغضب الحجاج فقال له : اعزك الله لست حجازيا انما أنت رجل من أهل الشام

قال فأخبرني عن أهل الشام ، قال : نزلوا بحضرة الروم فأخذوا من ترفهم وصناعتهم وشجاعتهم [٨]

---

(٧) البلدان ٩٢ ــ ٩٣ .

(٨) البلدان لابن الفقيه ١١٤ .

ولعل هذا القول هو الذي نقله النويري دون ان يذكر مصدره فقال :

جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة
وجاور أهل الكوفة أهل السواد فأخذوا عنهم السخاء والغيرة [٩]
وروى المدائني أن عبدالله بن عمر قال :
أهل الحجاز أسرع الناس الى فتنة
وأهل الشام أطوع الناس لمخلوق في معصية خالق
وأهل العراق أسأل الناس عن صغيرة ، وأركبهم لكبيرة ، يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم [١٠] .

وروى عن سعيد بن عبدالعزيز وسليمان بن موسى قولهم : إذا كان علم الرجل حجازيا ، وخلقه عراقيا ، وطاعته شامية ، فناهيك به [١١] .

وأشار الجاحظ الى فقه الحجاز ، ودهاء العراق وطاعة اهل الشام [١٢] .
وقال سفيان بن عيينة : اذا أردت الحديث الصحيح الاسناد الجيد فعليك بأهل المدينة ، واذا أردت النسك فعليك بأهل مكة

واذا أردت المغازي فعليك بأهل الشام [١٣]
ويروى أن أبا جعفر المنصور قال لمالك :
وأما أهل الشام فأهل جهاد وليس فيهم كثير علم
وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم ، وأنت عالم الحجاز [١٤] .
نسبت الى أيوب بن القرية أقوال أجاب بها الحجاج في وصف أهل

(٩) النويري ١/٢٩٥ .
(١٠) انساب الاشراف ٥/٣٧٨ .
(١١) تاريخ دمشق ١/٣٠٨ .
(١٢) لطائف المعارف ١٥٩/٦١ ، ثمار القلوب ٢٤٦ .

أقاليم اسلامية ذكر فيها الأقاليم الأربعة التي ذكرتها المصادر السابقة ، وأضاف اليها ثلاثة أقاليم من الجزيرة هي عمان والبحرين واليمامة ، كما اضاف اليها الجزيرة وفارس ، فقال :

أهل الحجاز أسرع الى فتنة ، وأعجزهم عنها ، ورجالها حفاة ، ونساؤها كساة عراة

وأهل اليمن أهل سمع وطاعة ، ولزوم الجماعة

وأهل عمان عرب استنبطوا

وأهل البحرين نبط استعربوا

وأهل اليمامة أهل جفاء واختلاف اراء

وأهل فارس أهل بأس شديد وعز عتيد

وأهل العراق أبحث عن صغيرة ، وأضيعهم لكبيرة .

وأهل الجزيرة أشجع فرسان وأقتل للاقران

وأهل الشام أطوعهم لمخلوق ، وأعصاهم لخالق

وأهل مصر عبيد لمن غلب ، اكيس الناس صغارا ، واجهلهم كبارا

ان هذه النصوص تختلف في عدد الاقاليم التي ذكرتها ، وفي خصائص أهلها فرواية النويري قصرت على الشام ومصر ، والبادية ، ورواية ابن الفقيه أغفلت مصر ، وذكرت اليمن والعراق ، اضافة الى الشام والبادية ، ورواية ابن حبيب شملت اليمن ، والشام ، والعراق ، ومصر والبادية والصفات التي ذكرها ابن حبيب عشرة متناقضات لكل اقليم متناقضان .

ويتفق من ذكر البادية ان فيها الفقر والشفاء ، وان مصر فيها الغنى والذل ، واليمن فيها الايمان والحياء . اما الشام فان نص ابن الفقيه يذكر ان

(١٣) تاريخ دمشق ٣١٦/١ ، البلدان للهمذاني ٤٨٧ .
(١٤) تاريخ دمشق ٢٧١/١ .

فيها الهجرة والموت ، ونص النويري أن فيها العقل والفتنة ، أما ابن حبيب فينص ان فيها النجدة والفتنة .

وأما العراق فان نص ابن الفقيه يذكر ان فيه الغني والعي .

روى عن عبدالله بن عباس (رض) انه قال :(١٥)

ان الله تعالى خلق البركة عشرة اجزاء ، فتسعة منها من قريش ، وواحد في سائر الناس

وجعل الكلام عشرة أجزاء فتسعة منها في العرب وواحدة في سائر الناس
وجعل الغيرة عشرة أجزاء فتسعة منها في الاكراد وواحدة في سائر الناس
وجعل المكيدة عشرة أجزاء فتسعة منها في القبط وواحدة في سائر الناس
وجعل الجفاء عشرة أجزاء فتسعة منها في البربر وواحدة في سائر الناس
وجعل النجابة عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس
وجعل الصناعة عشرة أجزاء فتسعة منها في الصين وواحدة في سائر الناس
وجعل الشهوة عشرة أجزاء فتسعة منها في النساء وواحدة في سائر الناس
وجعل العمل عشرة أجزاء فتسعة منها في الانبياء وواحدة في سائر الناس

وجعل الحسد عشرة أجزاء فتسعة منها في اليهود وواحدة في سائر الناس
وقسم البخل عشرة أجزاء فتسعة منها في الفرس وواحدة في سائر الناس
وقسم الكبر عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس
وقسم الطرب عشرة اجزاء فتسعة منها في السودان وواحدة في سائر الناس
وقسم الشبق عشرة أجزاء فتسعة منها في اليهود وواحدة في سائر الناس

---

(١٥) النويري ١/٢٩٣ .

الاهتمام بخصائص البلدان في العصر العباسي :

تابع العباسيون الأوائل الاهتمام بخصائص الأقاليم ، فنقل الطبري عن اسحاق بن موسى بن عيسى قوله : حدثت عن عبدالله بن الربيع قال : قال ابو جعفر لاسماعيل بن عبدالله صف لي الناس فقال :

أهل الحجاز مبتدأ الاسلام وبقية الناس
وأهل العراق ركن الاسلام ومقاتلة عن الدين
وأهل الشام حصن الأمة وأسنة الأئمة
وأهل خراسان فرسان الهيجاء واعنّة الرجال
والترك منابت الصخور وأبناء المغازي
وأهل الهند حكماء استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عجابيهم
والروم أهل كتاب وتدين ، نجاهم الله من القرب الى البعد
والأنباط كان ملكهم قدرنجا فهم لكل قوم عبيد[١٦] .

ومن خصائص المدن أقوال في العصر العباسي الأول
فقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة :

قمي من رعون ، ويماني من جنون ، وواسطي من غفلة ، وبصري من جدل ، وكوفي من كذب ، وسوادي من جهل ، وبغدادي من مخرقة ، وخوزي من لؤم ، وطبري من رزق[١٧] .

وقال الجاحظ في كتاب الامصار :

(١٦) الطبري ٣/٤٠٢ ــ ٣ .
(١٧) النويري ١/٢٩٥ .

الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والرقة ببغداد ، والعجائب بمصر[١٨] .

وقال ابو حامد القاضي : اعياني ان أرى خراسانياً ذكياً وطبرياً رزيناً ، وهمدانياً لبيباً وبصريا ركيكا ، وكوفيا رئيسا ، وبغداديا سخيا ، وموصليا لطيفا ، وشاميا خفيفا ، وحجازيا منافقا ، وبدويا ظريفا[١٩] .

وردت من العصر العباسي نصوص عن صفات أهل مدن واقاليم الهضبة الايرانية : ويذكرون بالذات او باسم البلد ومقصودهم أهلها .

فقد حكى عن الجاحظ انه قال : كنا نعلم في المكتب كما نعلم القرآ احذروا : حماقة أهل بخارى ، وغل أهل مرو ، وشغب أهل نيسابور ، وحسد أهل هراة ، وحقد سجستان . وقال في كتاب الامصار :

.. الطرمدة بسمرقند ، والغي بالري ، والجفاء بنيسابور ، والحسد بهراة ، والمرؤة ببلخ ، والبخل بمرو .

وكان يقال : أربعة لا تعرف في أربعة

السخاء في الروم ، والوفاء في الترك ، والشجاعة في النبط ، والغم في الزنج[٢٠] .

ونقل نشوان بن سعيد عن كتاب الأخبار للجاحظ كلاماً في خصائص الأمم ، فذكر أن أهل الحرف ليس فيهم تفاوت في الفهم والعقل والصناعة ولا معهما خش الخطأ وافراط النص مثل الذي تجد في أديانهم وفي عقولهم عند اختيار الاديان .

ثم ذكر اختصاص العرب في البيان ، واللغة ، وقيافة الاثر ، والشعر

---

(١٨) النويري ١/٢٩٤ .
(١٩) النويري ١/٢٩٤ .
(٢٠) النويري ١/٢٩٤ .

وصدق الحس وصواب الحدس وجودة الظن وبعد الفهم والمعرفة بمساقط النجوم والعلم بالأنواء وحسن المعرفة بما يكون منها للاهتداء ، كما أن لهم خط العربية ، والحفاظ لأنسابهم ، وانعدام العى فيهم ، وحرمة الامهات ، وروعة اللسان ، والبديهة ، والعجب بالخيل وايثارها وارتباطها[21] .

ثم ذكر خصائص اهل الهند في الحساب والنجوم والخط الهندي ، وفي الطب ، وحفظ التماثيل ، ونحت الصور مع التصاوير بالاصباغ ، والشطرنج ، وصفة السيوف ، وانواع من الرقص والخفة .

وخصائص الروم في الطب والحكمة والتنجيم وأصول اللحون وصنعة القرسطون وكيان الكتب والتصوير .

أما فارس فمعروفة بالسياسة وترتيب الامور والعلم[22] .

(٢١) الحور العين ٢٢ ـ ٢٢٦ .
(٢٢) الحور العين ٢٢٧ ـ ٨ .

مصادر دراسة خطط بغداد
في العصور العباسية

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الرابع عشر
1387هـ -1967م

مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية

الدكتور صالح احمد العلي

من الحقائق التي تصل الى مستوى البديهيات ان المدن هي المراكز الرئيسة التي تزدهر فيها الحضارة وتتعقد فيها النظم وتنمو فيها الحركة الفكرية ، وتتوفر فيها بصورة خاصة الوثائق المكتوبة عن نشاط الانسان الاجتماعي الذي هو موضوع دراسة التاريخ ، وقد ادى هذا الى ان يكون التاريخ المألوف عندنا هو في الحقيقة تاريخ المدن ووصف فعاليات اهلها بالدرجة الاولى ، واننا عندما نتحدث عن التقدم العلمي العظيم في العصر العباسي فنحن نقصد ما كان في المدن ، دون الريف او الصحارى التي كانت تغط في غياهب الجهل . فدراسة تكوين المدن وتطورها يمكننا من التعمق في تفاصيل التنظيم الاجتماعي والاداري والجوانب الاخرى من نشاط الانسان ، ويقدم لنا اساساً ادق واوضح في معرفة الاحداث التاريخية .

ولعل الخطوة الاولى لتفهم تنظيم اية مدينة والحياة فيها هو دراسة خططها ، لان هذه الدراسة لها اهمية كبرى في اشباع غريزة حب الاستطلاع وتوفير اللذة التي تنبعث من الكشف عن المجهول وتوسيع افق المعرفة وخاصة لمن يقيم في تلك المدينة او يهتم بها ، غير ان اهميتها تمتد الى ابعد من ذلك ، فهي تقدم مادة اساسية لمن يريد دراسة توزيع

السكان واحوالهم البشرية والاجتماعية والاقتصادية ، وتوضح بعض ما يؤثر في العلاقات بينهم ، وتفسر بعض عوامل ظهور التنظيمات الادارية كما تقدم تفسيرات لكثير من الحوادث السياسية والوقائع العسكرية .

غير أن دراسة خطط المدن ليست سهلة او يسيرة ، لان مناطق السكنى والبيوت تتبدل بتغير الازمان والاحوال ، بل حتى العوارض الطبيعية معرضة لمثل هذا التبدل ، حيث ان الانهار والقنوات والترع قد تبدل مجاريها ، وقد تختفي التلول والمرتفعات او قد تتكون على مر الايام في المدن تلول من تكدس الانقاض . ثم ان التكوين الاجتماعي والاقتصادي لاية مدينة يتبدل بمرور الزمن ، ويرافقه تبدل الخطط . ويلاحظ ان الحفريات الاثرية بالرغم من فائدتها القصوى في تعيين مجاري الترع والانهار ، وتبيين امتداد الشوارع ، وتوضيح اتساع المدن ، الا انه لا يزال الاعتماد الاول في معرفة اسماء الخطط على المصادر الادبية التي كثيراً ما تستعمل تعبيرات غير محددة ، كالشارع والطريق والدرب ، فضلا عن انها كثيراً ماتذكر اماكن دون تحديد سعتها او حجمها ، هذا بالاضافة الى ان هذه المصادر الادبية وخاصة المتأخرة منها ، قلما تعين تاريخ ظهور او اختفاء اية خطة . ولما كانت المدن معرضة للتطور والتبدل تبعاً لتبدل الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فان الباحث الحصيف لا بد له من الحذر والتدقيق عند دراسة هذه المصادر الادبية .

ولدراسة خطط بغداد اهمية خاصة في فهم الحضارة الاسلامية ، نظراً لكونها ظلت عاصمة الدولة العباسية كانت خلالها موئل الحركة الفكرية ، ومقصد العلماء والادباء والمفكرين ، ومركز الحياة الاقتصادية ، وقد عبر اليعقوبي عن ذلك اوضح تعبير بقوله إن اهل بغداد « فضلوا الناس في العلم والفهم والادب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحذق بكل مناظرة ، واحكام كل مهنة ، واتقان كل صناعة ، فليس عالم اعلم من عالمهم ولا اروى من راويتهم ولا اجدل من متكلمهم ، ولا اعرب من نحويهم ، ولا اصح من قارئهم ، ولا امهر من متطببهم ، ولا احذق من مغنيهم ، ولا الطف من صانعهم ،

ولا اكتب من كاتبهم ، ولا ابين من منطيقهم ، ولا اعبد من عابدهم ، ولا اورع من زاهدهم ، ولا افقه من حاكمهم ، ولا اخطب من خطيبهم ، ولا اشعر من شاعرهم ، ولا افتك من ماجنهم » (البلدان ٢٣٥) .

ومن ابرز خصائص بغداد تنوع سكانها وتعدد اصولهم ، وهنا ننقل عن اليعقوبي قوله عن بغداد انها « المدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء ، ولانه سكنها من اصناف الناس واهل الامصار والكور ، وانتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدانية ، وآثرها جميع اهل الافاق على اوطانهم ، فليس من اهل بلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف ، فاجتمع بها ما ليس في مدينة فى الدنيا ، ثم يجري في حافتيها النهران الاعظمان دجلة والفرات ، فيأتيها التجارات والمير براً وبحراً بايسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من ارض الاسلام وغير ارض الاسلام ، فانه يحمل اليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان ، حتى يكون بها من تجارات البلدان اكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها ويكون مع ذلك أوجد وامكن » (البلدان ٢٣٣ ـ ٤) .

ومن المعلوم ان بغداد منشأة في ارض سهلة مستوية تقل فيها العوارض الطبيعية ويتعرض مجرى دجلة والقنوات الاخرى فيها إلى تبدلات كثيرة ، ثم ان بغداد مرت بتطورات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة كان لها اثر في تبدل احوالها وتغير اوضاعها ، وقد ظهرت اثار هذه التطورات منذ وقت مبكر حتى ان اليعقوبي بعد أن وصف خطط بغداد فى عهد المنصور عقب على ذلك بقوله « وقد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها ، وملكها قوم بعد قوم ، وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين » (ص ٢٥٤) فاذا كان مثل هذا التطور قد حدث

في اول قرن مضى على تأسيسها ، فان تطورات وتبدلات اوسع حدثت في القرون التالية التي مرت بغداد فيها .

فاذا كانت لدراسة خطط بغداد اهمية كبيرة ، فان على الباحث الاهتمام بالتطور التاريخي لهذه الخطط ، وتحديد اماكنها وخططها في زمن معين ، لان الخطط تتطور ، فتتسع او تضيق ، او تتبدل فيها مواضع الاسواق ، ومراكز اللهو او السكنى ، فلا بد لهذه الدراسة من تحديد زمن المصدر او الكتاب الذي يصف خطط المدينة ، وبيان ان وصف الخطط في ذلك المصدر ينطبق على زمن المؤلف ، وتمييز ذلك عما نقله ممن سبقه . فاذا كانت وفرة مادة المصدر او الكتاب مهمة ، فان معرفة الزمن الذي ينطبق عليه هذا الوصف لا يقل اهمية عن ذلك ، ولهذا الامر اهمية بالغة في دراسة خطط بغداد ، التي مرت بادوار من التوسع والتقلص بالرغم من اهميتها الكبرى . وجدير بنا ان نشير قبل بحث مصادر دراسة خطط بغداد ، الى ان المؤلفين العرب والمسلمين اهتموا بدراسة المدن واحوالها واكثروا من التأليف فيها ، حتى انك قلما تجد مدينة في العالم الاسلامي لم يؤلف فيها كتاب او اكثر ، ولا ريب ان بحث اسماء المؤلفات في المدن الاسلامية خارج عن الصدد ، ويمكن لمحب الاستزادة الرجوع الى ما ذكره السخاوي في « الاعلان بالتوبيخ » او الى بحث روزنثال في « علم التاريخ عند المسلمين » ؛ ولكننا نكتفي بالاشارة هنا الى ان المؤلفين الاولين في المدن اهتموا بوصف خطط المدن التي يبحثونها ، وسكانها ، واحوالها البشرية والاجتماعية ، واوضاعها الادارية والاقتصادية ، اما المتأخرون فقد اهتموا بذكر اسماء او تراجم العلماء الذين ظهروا اوعاشوا او مروا بالمدينة التي يبحثونها كما ان حظ المدن الاسلامية من التأليف لم يكن واحداً ولا متناسباً دائماً مع اهمية المدينة فقد الفت عدة كتب عن بعض مدن قليلة الاهمية ، ولم يؤلف الا كتب قليلة جداً عن بعض المدن المهمة .

ان المؤلفات التي كتبت عن بغداد لاتتناسب مع اهميتها العظيمة في تاريخ الحضارة الاسلامية

فابن النديم الذي الف كتابه العظيم « الفهرست » في سنة ٣٧٨ واستوعب فيه كل المؤلفات العربية تقريباً ، لم يذكر عن بغداد الا ثلاثة كتب هي بغداد واخبارها لاحمد بن الطيب السرخسي (ص ٣٦٦) وفضائل بغداد وصفتها ليزدجرد بن مهمندار (ص ١٨٥) وكتاب بغداد لطيفور وما زاده عليه عبد الله (ص ٢٠٩ _ ٢١٠) . اما السخاوي فانه في كتابه « الاعلان بالتوبيخ » الذي استعرض فيه المؤلفات العربية في التاريخ حتى عصره فانه يذكر ان المؤلفات عن « بغداد لاحمد بن ابي طاهر ، ولابن اسفنديار ، وللخطيب ابي بكر وهو اوسعها في عشر مجلدات وعليه معول من بعده ، وذيوله لابي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني .. الخ » (س ٦٢٢ ط روزنثال) اما حاجي خليفة فيذكر « قيل اول من صنف لها تاريخاً احمد بن ابي طاهر البغدادي ، وتلاه الامام الحافظ ابو بكر احمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ » ثم يصف كتاب الخطيب ويذكر ما الف عليه من ذيول تكون قائمة لا تضيف الى ما اورده السخاوي ، مما يدل على اقتباسه من السخاوي غير انه يضيف الى آخر القائمة « ومختصر تاريخ بغداد لابي اليمن مسعود بن محمد البخاري المتوفى سنة ٤٦١ ؛ وصنف ابو سهل يزدجرد بن مهنداد الكسروي كتاباً حسناً في وصف بغداد وعدد سككها وحماماتها وما يحتاج اليه في كل يوم من الاقوات والاموال ذكره الصفدي . وفي اخباره كتاب التبيان لاحمد بن محمد بن خالد البرقي الكاتب » (كشف الظنون ١/٢٨٨) .

يتبين مما ذكر ان ابرز المؤلفين المسلمين في تاريخ التاريخ عند المسلمين يرون ان احمد ابن ابي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ هو اقدم من الف في تاريخ بغداد وقد وصف القفطي اهمية هذا الكتاب بقوله « واذا اردت التاريخ متصلا جميلا فعليك بكتاب ابي جعفر الطبري رضي الله عنه فانه من اول العالم الى سنة ٣٠٩ ومتى شئت ان تقرن به كتاب احمد بن طاهر وولده عبيد فنعم ما تفعل لانها قد بالغا في ذكر الدولة العباسية واتيا من شرح الاحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده ، وهما في الانتهاء قريبا المدة » (اخبار الحكماء ص ١١٠) .

لقد بقيت من كتاب طيفور قطعة تتناول الاحداث في زمن المأمون بين سنتى ٢٠٤ ـ ٢١٨ هـ ، طبعها كيللر مع مقدمة تحليلية في تبيان اهمية معلوماتها ومقارنة هذه المعلومات بما ذكره الطبري الذي لم يشر الى طيفور . وقد اعاد طبع هذه القطعة السيد عزت العطار الحسني سنة ١٩٤٩ . وتبين هذه القطعة المطبوعة ان المؤلف دون الحوادث السياسية . وقد اورد روزنتال في كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » من نقل عنه ؛ ويتبين منها ان معظم النقول تتناول الحوادث السياسية .

ويبدو انطيفور ضمن كتابه وصفاً لخطط بغداد ، لأن الحميدي يذكر ان احمد بن محمد ابن موسى الرازي « الف في صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها ، كتاباً على نحو ما بدأ به احمد بن ابي طاهر في اخبار بغداد وذكره لمنازل صحابة المنصور بها » (جذوة المقتبس ص ٩٧ طبعة محمد بن تاويت) غير ان المؤرخين المتأخرين لم يعنوا بذكر ما نقلوه عن احمد بن ابي طاهر ، فياقوت لم ينقل عنه الا في اربعة مواضع لا علاقة لها بالخطط ، اما الخطيب فقد نقل عنه في القسم الخاص بالخطط من الجزء الاول ، خمسة نصوص (١/٨٤ ، ٨٨ ، ١١٧ ، ١٢٠) منها روايتان غير مسندتين (١/١١٧) اما الثلاث الباقية فقد رواها عن طريق محمد بن علي بن مخلد (٨٨ ، ١٢٠) وعن طريق محمد بن خلف عن محمد بن موسى بن الفرات . وهذه الروايات عن مربعة ابي العباس وعن بادوريا ، وعن مساحة بغداد ، وذرع بغداد ، وحماماتها . ولعل هذه الكتب وغيرها نقلت عن طيفور نصوصاً اخرى دون ان تشير الى مصدرها .

اما احمد بن الطيب السرخسي (ت ٢٨٦ هـ) فهو تلميذ الكندي وقد الف عدداً كبيراً من الكتب جمع روزنتال الاشارات اليها والنقول عنها في كتاب الفه عن السرخسي ونشره في نيوهافن سنة ١٩٤٣ ؛ وقد ذكر اشارات ابن النديم ، وابن القفطي ، وحاجي خليفة الى كتاب السرخسي غير اننا لا نعلم احداً غير ابن الفقيه نقل عنه شيئاً عن خطط بغداد .

اما يزدجرد بن مهمندار فقد ذكر كتابه ابن النديم وحاجي خليفة ونقل عنه التنوخي

في نشوار المحاضرة (١/٦٤ ـ ٦٥) كما نقل عنه ياقوت في معجمه في موضعين (١/٤٤٨ ، ٤/٤٤٥ـ٦) وقد جمع السيد ميخائيل عواد النصوص التي نقلاها عنه في بحث نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد ١٩ سنة ١٩٤٤) ثم اعاد طبع البحث مرتين . وتشمل هذه النصوص كلاماً عن المدائن ، وعن بابل ، وعن حمامات بغداد ، واذا كانت النصوص المتعلقة بحمامات بغداد مأخوذة عن كتابه « فضائل بغداد » فاننا لا نستطيع الجزم في اسم كتابه الذي نقلت منه نصوص المدائن وبابل .

اما كتاب التبيان لاحمد بن خالد البرقي الكاتب الذي ذكره حاجي خليفة من ضمن الكتب التي تتحدث عن بغداد (كشف الظنون ١/٢٨٨) وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب هذا الكتاب ضمن كتب التاريخ التي اعتمد عليها (١ / ١٩ طبعة باريس) دون ان يشير الى محتواه . وقد فقد هذا الكتاب ولم نعثر على نص منقول منه ، ولانعلم اذا كان كتاباً قائماً بذاته ام هو نفس كتاب « البلدان والمساحة » كما يبدو لاغابزرك (انظر الذريعة ج ٢ ص ١١٥ ، ٢٢٦) وما اذا كان قد تناول بحث خطط بغداد.

لقد اشارت كتب التاريخ والتراجم الى بعض خطط بغداد في معرض الكلام عن الاحداث السياسية او من تراجم بعض الاشخاص حيث يذكر مكان اقامة المترجم له او دفنه في بغداد ، كما يشيرون الى الحرائق والتخريبات او الاماكن التي حدثت فيها بعض الاحداث التي دونوها ، ولهذه المعلومات اهمية غير قليلة حيث انها تعين على تحديد زمن وجود المكان واهميته احياناً ، غير أن الاغلبية المطلقة لهذه المعلومات هي اشارات عابرة لخطط تذكر عادة منفردة ، اللهم الا ما يرد في وصف الحروب واحوال الحصار من ذكر عدة اماكن وايراد معلومات عن مواقعها . ولما كانت هذه المعلومات مشتتة مبعثرة فاننا لا نتطرق الى تقييمها او حصرها ، بل نكتفي بالاشارة الى اهميتها لمن اراد استكمال البحث اما هنا فاننا نقصر بحثنا على عرض المؤلفات التي اختصت كلها او فصول منها لخطط بغداد .

ان اغلب المؤلفين العرب الذين كتبوا في التاريخ العام لم يخصوا موضوع بناء بغداد وتوسعها وخططها بتفاصيل وافية . فالبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ لم يذكر شيئاً عن بناء بغداد في الفصل الذي كتبه عن المنصور في انساب الاشراف ، اما في فتوح البلدان ، فقد خص مدينة السلام بفصل تبلغ صفحاته ستاً فقط اورد فيه معلومات قيمة ، ولكنها لا تقارن بتفاصيلها وشمولها بما اورده عن الكوفة او البصرة ، هذا بالرغم من ان كتابه مزيج من التاريخ والجغرافية ، ولعل البلاذري كان يشعر ان بغداد خارجة عن نطاق بحثه المحدد بالاماكن المفتوحة والتي لها اهمية عسكرية . ولم يخص خليفة بن خياط بغداد بشيء في كتابه التاريخ الذي يؤمل طبعه قريباً .

اما اليعقوبي الذي سنتحدث فيما بعد عن الفصل القيم الذي كتبه في كتابه البلدان ، فانه لم يخص في تاريخه بناء بغداد باكثر من ثمانية اسطر اجمل فيه اهمية موقع بغداد ، وعدد ابوابها ، وسورها ، وقطائعها (ج ٢ ص ٤٤٩ ـ ٥٠) .

اما المسعودي فانه خص في كتابه « التنبيه والاشراف » بغداد ببضعة اسطر تحدث فيها عن اشتقاق كلمة بغداد ، وزمن بناء المدينة ، وعن الرصافة ، وكل ذلك في معرض كلامه عن الامصار (ص ٣١٢) .

واقتصر كتاب مروج الذهب على نقل حكاية عن ابن عياش المنتوف ، وذكر معها عرضاً أبواب المدينة وطاقاتها وبقاءها الى زمنه (ج ٣ ص ٢٩٩) غير انه ذكر « وقد أتينا على كيفية بناء هذه المدينة ، واختيار المنصور لهذه البقعة بين دجلة والفرات، ودجيل والصراة ، وهذه أنهار تأخذ من الفرات ، وأخبار بغداد ، وعلة تسميها بهذا الاسم ، وما قاله الناس من ذلك ، وخبر القبة الخضراء وسقوطها في هذا العصر ، وقصة قبة الحجاج الخضراء التي كان الحجاج بناها بواسط العراق وبقاؤها الى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢ في كتابنا الأوسط الذي كتابنا هذا تالٍ له » (٢٩٩/٣) ومن سوء الحظ ان الكتاب الأوسط مفقود ، غير انه اذا كانت هذه هي كل المواضع التي بحثها ، فان بحثه لا يكون

شاملاً لكل خطط بغداد .

ومن الغريب أن يهمل هؤلاء المؤرخون دراسة بغداد على عظمها وأهميتها ، في هذا العصر المبكر الذي اهتم فيه المؤلفون بدراسة خطط المدن كالذي فعله الأزرقي في أخبار مكة ، وابن زباله ، ويحي بن الحسن ، والزبير بن بكار في خطط المدينة ، وابن يونس ، وابن زولاق والكندي في خطط القاهرة .

وقد خص معظم الجغرافيين العرب بغداد ببحوثهم ، فذكروا وصفها ، وخاصة في زمنهم . وهذا ما فعله ابن جبير وابن بطوطة في رحلاتهم ، وابن رسته .

تعد الفصول التي اوردها اليعقوبي في البلدان وابن سيرابيون في كتاب عجائب الأقاليم وابن الفقيه في كتاب البلدان والطبري في تاريخه والخطيب في تاريخ بغداد والمواد المشتتة في معجم البلدان والتي لخصها وأضاف اليها مؤلف مراصد الاطلاع من أغنى الفصول التي وصلت الينا عن خطط بغداد وسنقتصر في هذه الدراسة على دراسة ما جاء في المصادر الخمسة الأولى مرجئين دراسة ما ورد في معجم البلدان ومراصد الاطلاع الى مقال آخر .

خص اليعقوبي خطط بغداد بعشرين صحيفة تلت مقدمة كتابه « البلدان » ، وقد تقصد البدء بدراسة بغداد وتفصيل أحوالها لان العراق « وسط الدنيا وسرة الأرض » وبغداد « وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير » (٢٣٤) وبعد أن بين أهمية موقعها ، والمحاولات التي قام بها أبو العباس والمنصور لإيجاد عاصمة لهما حتى استقر رأي الأخير على موقع بغداد ، ثم بحث عن بناء مدينة المنصور ووصف أسوارها وأبوابها ، وعدد سككها ، وأرباع أرباضها ومن اختط فيها ، ثم تكلم عن الشرقية وعن الكرخ وقنواتها ، وعن الجانب الشرقي . وقد حصر اليعقوبي كلامه بوصف المدينة عند بنائها وفي أوائل عهدها ، وكان يعلم أن بعض خطط المدينة قد تبدل ، وقد أشار إلى ذلك عند كلامه عن بعض سكك المدينة المدورة حيث يقول « وسكة تعرف في هذا الوقت بالقواريري قد ذهب عني اسم صاحبها .. وسكة تعرف اليوم بالزيادي وقد ذهب عني اسم صاحبها » (٢٤٠) ، ويقول في آخر الفصل الذي كتبه عن بغداد « وهذه القطائع

والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في أيام المنصور ووقت ابتدائها ، وقد تغيرت ومات المتقدمون من أصحابها وملكها قوم بعد قوم ، وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والجلة والقواد وأهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم إلى سرمن رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين » .

ان المعلومات التي قدمها اليعقوبي تفوق ما قدمه غيره ، فالسكك التي ذكرها في المدينة المدورة تبلغ اربعين سكة ، في حين أن الخطيب لم يذكر سوى خمس سكك ، وقطائع الأرباض لا تقارن بتفاصيلها بما ذكره الخطيب . لذلك فاننا نعجز عن تدقيق ما أورده اليعقوبي لانفراده في ذكر معظم المعلومات التي أوردها .

ان الفقرة الأخيرة التي أوردها اليعقوبي تشير صراحة الى أن بحثه قائم على وصف المدينة أيام بنائها ، لافي أيامه ، ومع أنه يؤكد أنها ظلت عامرة حتى زمنه رغم من انتقل عنها بعد انشاء سامراء ، إلا أنه لايذكر ما عرى خططها من تبدل وتغير ، حتى انه وهو المحقق الذي ظل يجمع مادة كتابه منذ عهد شبابه (ص ٢٢٢) غاب عنه إسم صاحبي سكة القواريري وسكة الزيادي . ويلاحظ انه ألف كتابه وهو بعيد العهد عن بغداد حيث يقول عند كلامه عن سويقة عبد الوهاب « وبلغني ان السويقة أيضاً خربت » (٢٤٢) .

ولا يفوتنا أن نذكر ان كتاب البلدان طبع على نسخة فريدة ناقصة ، ويظهر نقصها في مقدمتها ، وفي القطع الواضح في الفصل المكتوب عن البصرة ، وفي النصوص غير القليلة المنقولة عن بلدان اليعقوبي في الكتب الأخرى ، هذه النصوص التي جمعها دي غويه وألحقها بالمطبوع ، تعد دليلا واضحاً على نقص الكتاب ، وكان المؤمل ان تكون حافزاً للبحث عن نسخة أكمل من هذا الكتاب العظيم ، ولكن يبدو أن الناس ظلوا يعتمدون على النسخة المطبوعة ولم يحاولوا البحث عن نسخة أكمل ، وهكذا أعيد طبع هذا الكتاب

في النجف عدة مرات دون أية محاولة لإكمال هذا النقص .

* * *

ومن الفصول القيمة عن خطط بغداد الفصل المنسوب إلى سهراب أو ابن سيرابيون والذي نشره وترجمه لي سترانج ، ثم أعاد نشره مزيك ضمن كتاب عجائب الأقاليم . وفي هذا الفصل تفصيل دقيق عن انهار بغداد أي الترع التي تخترقها ، مع ذكر ما يتشعب منها وما عليها من خطط ، وهو أوسع فصل في موضوعه ، وقد نقله الخطيب البغدادي حرفياً تقريباً بسنده من « عبد الله بن محمد البغدادي بطرابلس عن بعض متقدمي أهل العلم » (١١٢/١) . وقد نقل ياقوت أيضاً هذه المعلومات عن أنهار بغداد ووزعها على حروف الهجاء لتنسجم مع تنظيم كتابه ، دون الاشارة إلى المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات وما إذا كان استمدها من الخطيب أم من سهراب أم من مصدر آخر غيرها . ان تشابه مادة هذه المصادر الثلاثة تجعل فصل أنهار بغداد خالياً من العيوب التي نجدها في وصف سهراب لأنهار المناطق الأخرى ، وذلك كالعيوب التي لاحظها هرزفيلد عن انهار سامراء وروبرت أدامز عن مجرى دجلة بين المدائن وواسط (انظر ص ١٧٨ من كتاب « ارض وراء بغداد » لروبرت ادامز) وعما نلاحظه من عيوب وخلل في وصف الانهار المتشعبة من دجلة أسفل واسط ، أو مجرى نهر سورا بين بابل والنيل .

* * *

بحث الطبري في كتابه العظيم « تاريخ الأمم والملوك » عن انشاء بغداد في مكانين من القسم الثالث (٢٧٢ ـ ٢٨١/٣٢٠ ـ ٣٢٧) ومجموع كلامه لا يزيد على خمسة عشر صحيفة ، تناول في القسم الأول منها اختيار موقع بغداد وخصائصه ، والقرى التي كانت في موضع بغداد قبل إنشائها ، أما في القسم الثاني فتحدث عن بناء بغداد ، ومحاولة نقض إيوان كسرى ، والاشراف على البناء ، ونفقاته ، وعن أبواب المدينة والاسواق ونقلها . ويتبين من هذا ان القسمين متكاملان ، وان فصلهما جرى بسبب تقسيم الكتاب . غير ان هذه المعلومات متقطعة ، غير كاملة ولا شاملة ، ولا يستطيع المرء تكوين صورة واضحة

أو دقيقة للمدينـة منها . ولا نستطيع الجزم بسبب اختياره هذه المادة دون غيرها عن بغداد الأولى . وجدير بالذكر ان المعلومات التي أوردها مذكورة عند ابن الفقيه الهمداني والخطيب البغدادي .كما سنبين فيما بعد .

لم يستخدم الطبري فيما رواه عن بغداد سلسلة كاملة من المساند ، ولـكنه ذكر عدداً من الأخبار دون التصـريح بمصدرها واكتفى بكلمة « وذكر بعضهم » (أنظر ص ٣٢٢/٣٢٣/٣٢٥) كما انه لم يذكر شيوخه في هذه المساند . اماالرواة ألذين أخذ عنهم مادته فهم متعددون ، وأغلبهم منفردون . وأهمهم :

(١) حماد التركي ، فقد روىعنه نصوصاً عنأهمية موقع بغداد ، وما حولها منالقرى ، والاديرة ، وقد روى عنـه ايضاً اخباراً عن المنصور ، يبدو منهـا انه كان من الفرسان (٣/٤٣٠) وانـه كان مقرباً من الخليفة (٣/٣٤٣/٣٩٢) . وقد جاءت معظم روايات حماد عن طريق ابراهيم بن عيسى بن أبي جعفر .

(٢) سليمان بن مجالد وهو من القواد المقربين للمنصور (٣/٤٢٩) وقد روى الطبري عنه أهمية موقع بغداد ، وقصة المقلاص ، وتولية أبي حنيفة الإشراف على البناء .كما روى عنه أخباراً عن ثورة أهل الـكرخ .

(٣) يحي بنالحسين بنعبد الخالق وهو خال الفضلبن الربيع ، وقد روى عنه شكوى عيسى بن علي من المشي ، ونقل الأســواق ، وتولية القواد البناء . وقد روى عنه أيضاً اخباراً عن أرزاق الـكتاب ، وعن مقتل موسى الهادي ، وعن الرشيد والمأمون .

(٤) وقد روى عنالفضل بنسليمان سبب نقل الاسواق ، وعن ابراهيمالموصلي محاولة هدم إيوان كسرى ، وعن رشيد أبي داود عن احتراق الساج والخشب ، وعن محمد بن موسى بن الفرات عن نهر طابق .كما روى عن كل هؤلاء أخباراً قليلة عن أمور أخرى .

* * *

يصح القول ان اوج ما وصلنا عن تاريخ بغداد هو الـكتاب الذي ألفه أبو بكر أحمد ابن علي البغدادي ، فقد وصفه السبكي بأنه « من أجل الـكتب وأعودها فائدة » (طبقات

الشافعية ١٧٢/١) ووصفه حاجي خليفة بأنه « كتاب عظيم الجمع والنفع » (كشف الظنون ٢٨٨/١ وقد ادرك الأقدمون عظمة هذا الكتاب فقاموا بتلخيصه وتذييله ، فقد ذكر حاجي خليفة ممن لخصه أبو اليمن مسعود بن محمد البخاري ، وان من ألف ذيلاً على تاريخ بغداد أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني صاحب الانساب (ت ٥٦٢ هـ) وأبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي (ت ٦٣٧ هـ) ومحب الدين محمد بن محمود ابن النجار (ت ٦٤٣ هـ) . وقد ذيل على كتاب السمعاني عماد الدين محمد بن محمد الكات (ت ٥٩٧ هـ) ، وعلى كتاب ابن الدبيثي ابن القطيعي ، كما لخص شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨) ذيل ابن الدبيثي ، وذيل على كتاب ابن النجار تقي الدين محمد بن رافع (ت ٦٧٤هـ) وأبي بكر المارستاني الذي ذيل عليه علي بن أنجب بن الساعي (ت ٦٧٤ هـ) . ولم يطبع من هذه الكتب غير ملخص شمس الدين الذهبي لذيل ابن الدبيثي ، فقد طبعه الزميل الدكتور مصطفى جواد ، أما بقية الكتب فلم يطبع منها شيء ، وقد بقيت منها مخطوطات متفرقة في مكتبات الشرق والغرب ، وقد فصل بروكلمان في كتابه العظيم تاريخ الأدب العربي مواضع وجود مخطوطاتها ، دون المصورات التي نقلت عن تلك المخطوطات .

لقد طبع تاريخ بغداد في أوائل الثلاثينات ، ثم أعيد طبعه حديثاً مصوراً على الطبعة القديمة ، ويتكون الكتاب في كلتا الطبعتين من أربعة عشر جزءاً يضم كلاً منها حوالي أربعمائة صحيفة . وقد تكلم في الجزء الأول عن حكم ارض بغداد والسواد ، ومناقب بغداد ، ونهري دجلة والفرات وبعض أخبار المنصور ، ثم خصص ٥٤ صحيفة (٦٦ ـ ١٢٠) لخطط بغداد ، ثم تكلم عن المدائن ومن نزلها ، اما الباقي فقد خصصه كله لتراجم من عاش ببغداد أو مرّ بها . وقد ذكر في ثنايا هذه التراجم آلاف الاشارات الى خطط بغداد وأنهارها وجوامعها وأسواقها ومقابرها ودروبها وقصورها مما له أهمية عظيمة في دراسة خطط بغداد . ولما كانت هذه الاشارات عرضية مفردة ، فاننا لا ندخلها ضمن نطاق بحثنا الحالي الذي نركزه على الاربع والخمسين صحيفة التي خصصها لدراسة خطط بغداد .

لقد أشرنا في أول مقالنا الى الأهمية الكبرى لدراسة تطور خطط بغداد وتقرير الأوضاع التي كانت قائمة في كل زمن أو حقبة معينة ، وبينا أن دراسة هذا التطور يستلزم معرفة الزمن الذي تشير اليه المعلومات التي تذكرها المصادر ، وان من أهم وسائل تقرير هذا الزمن هو معرفة تاريخ المصدر الذي ننقل عنه معلوماتنا ، وان غرضنا الرئيسي من هذا المقال هو فحص التاريخ الذي وجدت فيه الخطط التي يصفها المصدر ؛ ومما يسهل تحقيق غرضنا هو معرفة مصادر الأخبار المتعلقة بالخطط . ومما يسهل تحقيق هذا الغرض ان معظم المؤرخين المسلمين القدماء ، ومنهم الطبري والخطيب ، كانوا يذكرون مصادر رواياتهم ، كما ان كثيراً من هذه المصادر كانت تشير الى الفترة التي يتناولها بحثهم .

غير ان معرفتنا أسماء الكتب التي اختصت أو اهتمت بدراسة خطط بغداد لا يكفي لتقرير مدى مساهمتها ، أو مدى مساهمة الخطيب في دراسة خطط بغداد وتاريخ تطورها ؛ لأن هذا لايتم إلا اذا وجدت الكتب نفسها كاملة ، وقد لاحظنا ان معظم هذه الكتب مفقود ، زال أثره أو لم تبق منه الا مقتطعات مهما كان طولها فهي لا تكفي لإصدار حكم قاطع على اهمية هذا المصدر . ثم ان الخطيب يذكر الرواة الذين نقل عنهم ، ولا يشير الى اسماء كتبهم التي نقل عنها هذه المعلومات . ومن المعلوم انه يذكر السند كاملاً في الغالب وان رجال السند كلهم ، أو معظمهم أحياناً ، علماء مؤلفون ، فلا نعلم أحياناً أيهم المؤلف وأيهم الراوية . ثم أن الخطيب يورد أحياناً معلومات دون ذكر مصدرها ، كما انه ينقل معلومات مسندة تشبه المعلومات الموجودة في الكتب الأخرى المعتمدة ، ولكنه لايذكر انه أخذها من تلك المصادر . وقد ذكرنا من قبل اشاراته الى ما نقله عن طيفور ، أما في الصفحات التالية فسنقارن ما ذكره عن الخطط بما ورد في الكتب الرئيسة الثلاثة التي بحثت خطط بغداد في أدوارها الأولى ، وهي الطبري ، واليعقوبي ، وسهراب ، بما جاء في الخطيب ، ثم نحلل مساند الخطيب في بحثه عن خطط بغداد في القسم الذي أشرنا الى ان البحث سيقتصر عليه .

لم يذكر الخطيب سهراب واليعقوبي ، وقد ذكر الطبري مرة واحدة (ص٦٦) غير ان مقارنة ما أورده بالمادة الموجودة في هـذه الكتب تبين انه نقل حرفياً ، تقريباً ، كل ما أورده سهراب عن أنهار بغداد ، غير ان الخطيب يذكر انه حدثه بها عبد الله بن محمد بن علي البغدادي بأطرابلس عن بعض متقـدمي العلماء وذكر أنهار بغداد فقال .. (١١٢) وجدير بالملاحظة ان هذا الفصل يطابق ما جاء في سهراب (١٢١ ـ ٣٢) وما جاء في مناقب بغداد المنسوب لابن الجوزي ، وينطبق بعضه على ما نقله ياقوت والراجح ان سهراب هو مصدر الجميع .

أما علاقة الخطيب بالطبري ، فلا بد أن نذكر انه بمقارنة ما كتبه الخطيب بما كتبه الطبري عن نشوء بغداد (٢٧٢ ـ ٢٨١ ؛ ٣٢٠ ـ ٣٢٧) نجد ان الطبري انفرد بتفاصيل عن تفتيش المنصور عن موضع لبناء بغـداد ، وخصائص موقعها (٢٧٢ ـ ٢٧٨) ومقام المنصور بالدير (٢٨١) ؛ وكذلك عن احتراق الساج عند بناء بغداد (٣٢٠) ومحاولة نقض إيوان كسرى (٣٢١) وبناء الطاقات (٣٢٦) . غير انـ بقيـة المعلومات التي أوردها الطبري نقلهـا الخطيب بنصوص روى أغلبهـا عن وكيع . وهـذه المعلومات تشمل تولية أبي حنيفة الاشراف على عدّ اللبن (٢٧٩ ط = ٧١ خ) وقرية بني زرارة والشرفانية وقطيعة الربيع وبناورى (٢٨٠ ط = ٢١(٨١ ، ٨٨ خ) وأبواب بغداد (٣٢٢ ط = ٧٥ خ) واشراف الحجاج بن ارطاة على عمارة المسجد (٣٢٢ ط = ٧٠ خ) ووزن اللبن (٣٢٣ ط = ٧٢ ، ٧٠ خ) وركوب عيسى بن علي في المدينة المدورة (٣٢٤ ط = ٧٣ خ) وانتقاد البطريك خطط بغداد (٣٢٤ ط = ٨٠ خ) وثورة أهل الكرخ ونقلهم (٣٢٥ ط = ٧٩ خ) ونفقات البناء (٣٢٧ ط = ٦٥ خ) . ويتبين من كل هذا ان الخطيب استوعب المادة المهمة في الطبري ، ولكنه نقلها عن وكيع ، ولم يشر فيهـا الى الطبري بالرغم من تشابه المادة .

اما اليعقوبي فان الخطيب نقل عنه نصين (٦٦/٦٩ خ) دون ذكر مصدره ، ومع

ان كلا من اليعقوبي والخطيب متفقان في ذكر سكك بغداد وقطائعها واهميتها ، الا ان اليعقوبي اشمل بحثاً وادق تعبيراً ، اما الخطيب فقد ذكر بعض السكك والقطائع ، مع معلومات اوضح عن اصحابها ، كما ذكر اهمية بغداد وعظمها ولكن بافكار واسلوب يخالف ما جاء في اليعقوبي .

ان المعلومات التى اوردها الخطيب عن خطط بغداد فيها نصوص ذكر انها كانت منه او لم يذكر مصدرها ، ولكن اغلبيتها المطلقة جاءت مسندة ، اي انه اخذها من مصادر ذكرها . وتختلف المصادر فى كثرة ما نقله عنها الخطيب وسنذكرها فيما يلي مرتبة حسب كثرة من نقل عنهم .

نقل الخطيب اغلبية المعلومات التى اوردها عن خطط بغداد في اوائل عهد تأسيسها عن محمد ابن خلف المعروف بالقاضي وكيع ؛ فقد نقل بسند عن وكيع مباشرة ما اورده عن استخدام ابي حنيفه في بناء بغداد (٧١) وابواب مدينة المنصور وسورها (٧٢ ـ ٧٣) وصفة المدينة (٧٦) وسوق البطيخ والاسواق (٨١) والطاقات والارباض (٨٣) ومربعة ابي العباس (٨٤) وبستان القس (٨٥) وبعض الاقطاعات (٨٥) وبعض الدور والسكك (٨٧) وبركة زلزل (٨٨) وقطيعة الربيع (٨٨) وطاقا الحراني (٩٠) والانهر والقطائع (٩١) والسويقات (٩٣) ومربعة الحرشي وقصر رخج (٩٤) والدروب (٩٦) وسوق الثلاثاء (٩٦) وحوض داود (٩٧) وسجن المنصور (١٠٧)

وروى الخطيب ايضاً احد عشر نصاً عن وكيع الذي نقلها بدوره عن راوية آخر فقد نقل الخطيب رواية وكيع عن ابن الاعرابي حول انحراف القبلة (١٠٧) وعن الحارث بن اسامة حول البطريق والاسواق (٨٠) وتاريخ اكمال الرصافة (٨٢) وعن ابي هيثم الفراش حول اقطاع المسيب (٨٥) وعن ابي زيد الخطيب عن جهار سوق المنار (٨٥) وعن يحيى بن الحسن بن عبدالخالق عن دار عباد (٩٦) وعن بعض الخطط (٧٠) وعن احمد ابن الحارث العتابي عن مصادر ابواب بغداد (٧٥) وعن احمد بن ابي طاهر عن مربعة العباس (٨٤) وعن مساحة بغداد (١٢٠) وبادوريا (٨٨) .

وقد نقل الخطيب رواية وكيع عن احمد بن الخليل بن مالك عن ابيه حول جسور بغداد (١١٥) وما رواه عن محمد بن ابي علي عن محمد بن عبدالمنعم بن ادريس عن هشام بن محمد (الكلبي) حول المخرم (٩٥) .

يبدو ان الخطيب نقل نصوصه من كتاب مدون الفه القاضي وكيع ، وانه كانت لهذا الكتاب منه روايتان بينهما بعض الاختلاف ، وان الخطيب اطلع على كلتا الروايتين لكنه فضل احداهما فاكثر النقل عنها ، ولم يهمل الثانية بل نقل عنها نصين على الاقل .

والنسخة التي اعتمدها الخطيب ونقل عنها اكثر نصوصه عن القاضي وكيع هي رواية محمد بن علي الوراق واحمد بن علي المحتسب عن محمد بن جعفر النحوي عن الحسن بن محمد السكوني عن محمد بن خلف وكيع ، فاما الوراق فهو محمد بن علي بن محمد بن مخلد بن خداش بن عجلان المتوفى سنة ٤٢٢هـ وقد ذكر الخطيب اسمه بعدة صور هي: محمد بن علي الوراق ومحمد بن علي بن مخلد ، وابن مخلد . وقد ترجم له ترجمة قصيرة ذكر فيها « وكتبت عنه » (٣ / ٩٤ ـ ٥) .

اما احمد بن علي المحتسب فهو احمد بن علي بن الحسين بن محمد بن موسى المحتسب المعروف بابن التوزي (٣٦٤ ـ ٤٤٢هـ) وقد ذكره الخطيب مرة على احمد بن علي ، ومرة على احمد بن علي المحتسب ، ومرة على « التوزي » . وترجم له ترجمة مقتضبة ذكر فيها انه « كثير الكتاب .. كتبت عنه وكان صدوقاً » (٤ / ٣٢٤)

لقد ذكرنا ان محمد بن علي الوراق واحمد بن علي المحتسب رويا عن محمد بن جعفر النحوي المعروف ايضاً بابن النجار (٣٠٣ ـ ٤٠٢ هـ) وقد الف محمد بن جعفر هذا كتاباً في تاريخ الكوفة نقل عنه ياقوت في ارشاد الاريب (٣/٦٩ ، ٤/٢٤٥ ، ٥/١١٣ ، ٦/٤٦٨) ومعجم البلدان (٣/٨٤٨ ؛ ٤ / ٥٦٨ / ٦٣٣) . وقد ترجم الخطيب لمحمد بن جعفر وذكر انه من اهل الكوفة ، وأنه قدم بغداد وحدث بها عن « الاشناني والحريري وابن مروان والمحاربي وابن دريد ونفطويه وابي روق الهمداني ومحمد بن يحيي الصولي ،

وذكر أيضاً « حدثنا عنه محمد بن علي بن مخلد الوراق واحمد بن علي بن التوزي » .

اما الحسن بن محمد السكوني فلم يترجم له الخطيب ، وفعل ذلك القهبائي في مجمع الرجال (٢ / ١٤٨) والتستري في الرجال (٣ / ٢٣٣) والاردبيلي في جامع الرواة (٢٢٤) وكرروا القول بانه « الحسن بن محمد بن الحسن السكوني الكوفي ابو القاسم وروى عنه التلعكبري وسمع منه في داره بالكوفة سنة ٣٤٤ » . وقد ذكره كل من ابن المطهر في خلاصة الاقوال (٥٩٥) والحسن بن داود في الرجال (٤٤) الحسن بن الحسين السكوني ، ولا نعلم اذا كان المقصود هو الحسن بن محمد السكوني الراوية ام انهما شخصان مختلفان .

ويبدو ان الخطيب اعتبر السكوني راويها المعتمد فهو يقول « وذكر باب خراسان كان قد سقط من الكتاب فلم يذكره محمد بن جعفر عن السكوني وانما استدركناه من رواية غيره » (١٧٢/١) وواضح من هذا النص ان لمحمد بن خلف كتاباً مؤلفاً نقلت عنه النصوص .

وجاءت روايتان عن وكيع لم يذكر الخطيب سندها بل اكتفى بالقول « فيما بلغني عنه » (٧٢/١ ، ٧٣) وبالاضافة الى ذلك توجد ايضاً روايتان نقلها الخطيب عن طريق ابي عبدالله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع عن علي بن محمد بن السرى الهمداني عن محمد بن خلف (١ / ٩١ ، ٩٤)

ولا نعلم من اي كتب وكيع نقل الخطيب النصوص المتعلقة بخطط بغداد ؛ لان النص الذي نقلناه فيما مر يدل على ان الخطيب نقل عن احد كتب وكيع ، لكنه لا يصرح اي كتب وكيع جاء منه النقل ، فهو بالرغم من كثرة ما نقل عن وكيع لم يذكر في ترجمته انه الف كتاباً عن بغداد ، بل يقتصر على القول انه « محمد بن خلف بن حيان بن صدقة بن زياد ابو بكر الضبي القاضي المعروف بوكيع كان عالماً فاضلا عارفاً بالسير وايام الناس واخبارهم ، وله مصنفات كثيرة منها كتاب الطريق وكتاب الشريف ،

وكتاب عدد آى القرآن والاختلاف فيه » . ويروى ايضاً انه « كان من اهل القرآن والفقه والنحو له تصانيف كثيرة في اخبار القضاة، وفي عدد آى القرآن وكتاب الشريف ، والرمى والنضال ، والمكاييل والموازين ، وغير ذلك » (٥ / ٢٣٦ ـ ٧) ويذكر ابن النديم في الفهرست (ص ١٦٦) ان لوكيع « كتاب اخبار القضاة وتاريخهم واحكامهم ، كتاب الشريف يجري مجرى المعارف لابن قتيبة ، كتاب الانواء ، كتاب الغزو وأخباره ، كتاب المسافر ، كتاب الطريق ويعرف ايضاً بالنواحي ويحتوي على اخبار البلدان ومسالك الطرق ولم يتمه ، كتاب التصرف (لعله الصرف) والنقد والسكة كتاب البحث». وقد ذكر المسعودي في مقدمة مروج الذهب مؤلفات العرب في التاريخ ومنها « الكتاب الشريف تأليف ابي بكر محمد بن خلف المعروف بوكيع القاضي في التاريخ وغيره... »

ويتبين من ذلك أن نصوص خطط بغداد ربما كانت من كتاب اخبار البلدان او الكتاب الشريف ، وكلاهما مفقود ولم يشر احد الى محتواهما او ينقل منهما .

والمصدر الرئيس الثاني من حيث الكمية ، الذي استقى منه الخطيب معلوماته عن خطط بغداد هو ابراهيم بن محمد بن عرفه الازدي المعروف بنفطويه (المتوفى سنة ٣٢٣ هـ) فقد اخذ عنه معلومات عن الطالع (٦٧) وثورة اهل الكرخ واسواقها (٧٩) وشارع القحاطبة (٨٥) والقطائع (٨٨ ، ٩٢) وقطيعة العباس (٩٥) ودار اسحق (٩٣) وقصر رخج (٩٤) ونهر المهدي والمعلى (٩٦) وحوض داود (٩٧) وقصور بغداد الشرقية (٩٨) .

لقد استمد الخطيب معلوماته من نفطويه عن طريق ابي القاسم الازهري عن احمد بن ابراهيم بن الحسن عن ابيه عن ابراهيم بن محمد بن عرفه ، دون ذكر اسم الكتاب الذي اخذ منه الخطيب هذه المعلومات عن ابن عرفه ، وجدير بالذكر ان الخطيب عند ما ترجم لابن عرفه هذا لم يذكر له غير كتابين هما «غريب القرآن » و« التاريخ »(٥/١٥٩ـ٦٠) اما ابن النديم فقد ذكر بالاضافة الى ذلك كتباً اخرى في القراءات والنحو واللغة والعقائد(١٢١)

وقد نقل ياقوت عن ابن عرفة في عشرة مواضع من معجم البلدان نصوصاً لا علاقة

لها بخطط بغداد ولا اشارة الى الكتاب الذي نقلت منه . اما المسعودي فانه يعدد في مقدمة كتابه مروج الذهب المؤلفات العربية في التاريخ ويذكر من ضمنها « تاريخ ابي عبدالله ابراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي النحوي المعروف بنفطويه فحشو من ملاحاة كتب الخاصة مملو من فوائد السادة ، وكان احسن اهل عصره تأليفاً واصلحهم تصنيفاً » ولعل الخطيب نقل عن نفطويه في خطط بغداد من هذا الكتاب المفقود الذي لا نعلم احداً نقل عنه غير الخطيب .

نقل الخطيب مباشرة عن هلال بن المحسن ستة نصوص عن خطط بغداد ، وهي تتعلق بدار الخلافة والتاج (٩٩) والمخرم (١٠٥) والمسجد (١٠٩) والجسور (١١٦) والسميريات (١١٧) والحمامات (١١٨) . ونقل بواسطة هلال عن ابي الحسن بن بشر بن علي بن عبيد النصراني حول الازدحام في بغداد (٧١) ومن ابي نصر خواشاذ خازن عضد الدولة حول دار الخلافة (١٠٠) ومن جماعة عارفين حول زيارة رسول ملك الروم (١٠٠) ومن ابن ام شيبان عن هذه الزيارة ايضاً (١٠٢)

لم يذكر الخطيب من اي كتب هلال نقل هذه النصوص . ومن المعلوم ان هلال بن المحسن الصابي (٣٥٩ ـ ٤٤٨) الف عدة كتب منها كتاب الاماثل والاعيان ، وكتاب التاريخ الذي اشتمل على الحوادث التي جرت بين سنتي ٣٦٠ ـ ٤٤٧ ، وكتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، وكتاب الرسائل ، ورسوم دار الخلافة ، والسياسة ، وغرر البلاغة ، والكتاب، ومآثر اهله ؛ كما الف عن بغداد كتاباً نقل عنه ياقوت اربعة نصوص عن دار الخلافة (٢ / ٢٥٥) والانحلال الذي اصابها وتناقص الزروع فيما بين المحول والسندية (٢ / ٥٤٢) وفي درتا من نواحي الكوفة (٢ / ٥٦٥) وفي قصر ابن هبيرة (٤ / ١٢٣)

كما نقل عن هلال نصوصاً عن أبرقباذ (١ / ٩٠)و برذعة (١ / ٥٥٨) والمبارك (٤ / ٤٠٩) والرواية المنقولة عن دار الخلافة هي نفسها التي رواها الخطيب ، مما يرجح ان الخطيب اخذ رواياته عن كتاب التاريخ .وجدير بالذكر ان صاحب كتاب مناقب بغداد نقل

عن هلال بن المحسن نصاً يتعلق بما حدث من انحطاط في احوال بغداد في اواخر عهده (٣٣) ولما كان معظم ما نقله ياقوت من هلال نصوصاً تتعلق بانحطاط بغداد في اواخر حياة هلال الصابي، فانه يمكن القول ان هلال اهتم بدراسة « بغداد وذكر خرابها » كما يقول ياقوت (٤ / ١٢٣) ولعل هذا هو العنوان الاصلي لكتاب هلال. ومهما يكن الأمرفان النصوص المنقولة عن هلال تتعلق باحوال بغداد في القرن الرابع الهجري، فهي تصف الاحوال التي وقعت في زمن مؤلفها ولا تتطرق الى خطط بغداد واحوالها في اوائل عهد تأسيسها.

ونقل الخطيب عن ابراهيم بن مخلد القاضي عن اسماعيل بن علي الخطبي اربعة نصوص: واحد منها عن انشاء المهدي قصر السلام بعيساباذ (٩٧) والثلاثة الاخرى عن توسيع جامع المنصور (١٠٨) وعن سقوط راس القبة الخضراء (٧٣)

لقد كان ابراهيم بن مخلد (٣٢٥ - ٤١٠ هـ) من شيوخ الخطيب وقد ترجم له في الجزء السادس وقال « كتبت عنه » اما اسماعيل بن علي الخطبي (٢٦٩ - ٣٥٠ هـ) فقد ترجم له في الجزء السادس (ص ٢ - ٣ - ٥) وذكر انه « صنف تاريخاً كبيراً على السنين » وقد ذكر ابن النديم هذا الكتاب(٢٤٣) ويبدو ان النقل جاء من هذا الكتاب .

ونقل الخطيب بسند عن محمد بن الحسين بن الفضل القطان عن عبدالله بن جعفر بن درستويه النحوي عن يعقوب بن سفيان اربعة نصوص عن تاريخ انتهاء البناء (٦٧) وتاريخ الانتقال الى الكرخ (٧٩) ومسجد الرصافة زمن المهدي (١٠٩) وبناء الخلد ونصب الجسر (١١٥)

ومحمد بن الحسين بن الفضل القطان ذكره الخطيب وقال انه توفي سنة ٣٠٦ هـ وانه روى عن عمرو بن الفلاس كتاب التاريخ (٢/ ٢٣٢) ولما كان الفلاس محدثاً بصرياً مشهوراً (١٢ / ٢٠٧) فالراجح ان المعلومات الواردة في كتاب الخطيب لم تؤخذ من هذا الكتاب .

اما عبدالله بن جعفر بن درستويه النحوي (٢٥٨ - ٣٤٧ هـ) فقد ترجم له الخطيب

وذكر انه حدّث عن عدد من العلماء منهم يعقوب بن سفيان النسوي « وحمل عنه من علوم الادب كتب عدة صنفها منها تفسير كتاب الجرمي ، ومنها كتابه في النحو الذي يدعى الارشاد ومنها كتابه في الهجاء وهو من احسن كتبه .. وحدثنا عنه ابو الحسن بن رزقويه وابو الحسين بن الفضل وابو علي بن شاذان .. سألت البرقاني عن ابن درستويه فقال ضعفوه لانه لما روى كتاب التاريخ عن يعقوب بن سفيان انكروا عليه ذلك وقالوا له انما حدث يعقوب بهذا الكتاب قديماً فمتى سمعه ؟ وفي هذا القول نظر لان جعفر بن درستويه من كبار المحدثين وفهمائهم وعنده عن علي بن المديني وطبقته فلا يستنكر ان يكون بكّر بابنه في السماع عن يعقوب بن سفيان وغيره مع ان ابا القاسم الازهري قد حدثني قال رأيت اصل كتاب ابن درستويه بتاريخ يعقوب بن سفيان لما بيع من ميراث ابن الأبنوس فرأيته اصلا حسناً ووجدت سماعه صحيحاً »(٩ / ٤٢٨) وقد ذكر له ابن النديم عدداً كبيراً من المؤلفات ليس فيها كتاب في التاريخ (٩٢ ـ ٤)

ولم يترجم الخطيب ليعقوب بن سفيان ، كما ان صاحب لسان الميزان ترجم له ترجمة غامضة ذكر فيها رواته (٦ / ٣٠٧)

ويتبين مما ذكره الخطيب من ترجمة ابن درستويه ان المعلومات التي نقلها مستمدة من كتاب التاريخ .

وقد نقل الخطيب عن ابي عبدالله محمد بن عمران بن موسى المرزبان ثلاثة نصوص احدها عن عبدالباقي بن قانع حول تسمية سويقة ابي الورد (٨٧) والثانية عن محمد بن يحيي عن محمد بن موسى المنجم حول ارتفاع مدينة بغداد (٨٢) والثالثة نقلها المرزباني عن كتاب بخط عبدالله بن ابي سعد الوراق عن عبدالله بن محمد بن عياش التميمي عن جده عياش ، وهي عن حرس ابواب بغداد (٧٠)

وترجم الخطيب للمرزباني (٢٩٦ ـ ٣٨٤ هـ) وذكر انه « حدث عن ابي القاسم البغوي وابي حامد محمد بن هارون الحضرمي واحمد بن سليمان الطوسي وابي بكر بن دريد وابي

عبد الله نفطويه وابى بكر الانباري ومن في طبقتهم بعـــدهم ؛ حدثنا عنه القاضيان ابو عبد الله الصيمري وابو القاسم التنوخي .. كان صاحب اخبار ورواية للادب وصنف كتباً كثيرة في اخبار الشعراء المتقدمين والمحدثين على طبقاتهم وكتباً فى الغزل والنوادر وغير ذلك ، وكان حسن الترتيب لما يجمعه ، غير أن اكثر كتبه لم تكن سماعاً له وكان يرويها اجازة (٣/١٣٥ـ٦) .

وقدخصص له ابن النديم ثلاث صفحات ، ووصفهبانه « آخر من رأينا من الاخباريين المصنفين ، راوية صادق اللهجة واسع المعرفة بالروايات » ويذكر انه عاش ما بين٢٩٧ـ٣٧٨ وعدد له كتباً كثيرة فى الشعراء وغيرها . ولا نعلم من اي الكتب اخذ الخطيب ما نقله عنه من نصوص عن بغداد .

نقل الخطيب عن عبيد الله بن احمد بن عثمان الصيرفى نصين ، احدهما نقله عبيد الله عن الحسن بن علي بن عمر الحافظ عن ابن دريد حول المخرم (٩٥) والثاني نقله عبيد الله عن محمد بن عبد الله بن ايوب عن ابى العباس احمد بن عبد الله بن عمار الثقفي عن أبي ايوب ، وهو حول هدم المنصور دور الصحابة (٩٥) .

وقـــد ترجم الخطيب لعبيد الله فذكر انه عاش بين ٣٥٥ ـ ٤٣٥ هـ وانه روى عن كثيرين ، وكان احد المكثرين من الحديث كتابة وسماعاً ومن المعنيين به والجامعين له (١٠/٣٨٥) ولكنه لم يذكر له كتاباً .

نقل الخطيب روايات مفردة عن خطط بغداد الاولى دون ان نعرف مؤلفات اصحابها وهى :

(١) ابو عمر الحسن بن عثمان بن احمد الفلو الواعظ عن جعفر بن محمد بن احمـــد بن الحكم الواسطي عن الفضل العباس بن احمد الحداد عن احمد البربري : وهى عن مساحة بغداد ونفقاتها (٦٩) .

(٢) أبو الفضـل ـ أبو الطيب البزاز ـ خاله قيم بدر غلام المعتضد : مساحـة بغداد (٦٩) .

(٣) محمد بن اسحق البغوى ـ رباح البناء : ابعاد المدينة المدورة (٧١) .

(٤) الحسين بن محمد المؤدب ـ ابراهيم بن علي الشطي ـ ابو اسحق الهجيمي ـ محمد بن القاسم ـ الربيع ! نفق بغداد (٧٧) وانتقاء الرومي لبغداد ٧٨ .

وقد اورد الخطيب في الصفحات التي خصصها للخطط تسعة نصوص لا علاقة لمحتواها بخطط بغداد ، وستة نصوص فيها شعر ؛ ورواتها وهم :

١ ــ ابو عبد الله احمد بن محمد بن عبد الله الكاتب عن ابن ميثم عن احمد بن عبيد الله ابن عمار عن محمد بن داود الجراح (لم يمت فيها خليفة ٦٨) .

٢ ــ ابو الحسن محمد بن رزق البزاز ـ جعفر الخلدي ـ الفضل بن محلد الدقاق ـ داود ابن جعفر بن شبيب بن رستم البخاري (الاسعار زمن ابي جعفر ٧٠) .

٣ ــ الحسن بن ابي بكر ـ عثمان بن احمد الدقاق ـ الحسن بن سلام السواق ـ الفضل ابن دكين (الاسعار في الكوفة ٧٠) .

٤ ــ الجاحظ (أحكام بناء بغداد ٧٧) .

٥ ــ الحسن بن ابي طالب ـ ابو عمر محمد بن العباس الخزاز ـ ابو عبد الله الناقد ـ محمد بن غالب ـ عبد الرحمن بن يونس ـ الواقدي (ذم الكرخ ٨١) .

٦ ــ محمد بن الحسن الاهوازي ـ ابو احمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ـ ابو العباس بن عمار ـ ابن ابي سعد احمد بن كلثوم (نسب ابي دلامة ٨٦) .

٧ ــ ابو الفضل عيسى بن احمد بن عثمان الهمداني ـ ابو الحسن بن رزقويه ـ القاضي الجعابي (مرور على بغداد ٩٠) .

٨ ــ ابو عبد الله الحسين بن علي الصيمري ـ احمد بن محمد بن علي الصيرفي ـ القاضي الجعابي (مرور علي ببغداد ٩٠) .

٩ — الوزير ابو القاسم علي بن الحسن بن المسلمة ـ الخليفة القائم ـ الخليفة القادر ـ زوجة المقتدر (زيارة رسول ملك الروم بغداد ١٠١) .

١٠ — محمد بن احمد بن مهدي الاسكاف (موت هيلانة ٩٩) .

اما النصوص المقصورة على رواية أبيات شعر تتعلق ببغداد فرواتها هم :

(١) الحسن بن بكر بن شاذان ـ أبيه ـ أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة (٨١) .

(٢) الحسن بن أبي بكر ـ أحمد بن كامل القاضي ـ محمد بن موسى ـ محمد بن أبي السرى ـ الهيثم بن عدي (٨٢) .

(٣) أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله المعدل ـ عثمان بن أحمد الدقاق ـ محمد بن أحمد ابن البراء ـ علي بن يقطين (٨٢) .

(٤) علي بن محمد بن عبد الله المعدل ـ الحسين بن صفوان البردعي ـ أبو بكر عبد الله ابن محمد بن أبي الدنيا (٩٢) .

(٥) محمد بن أحمد بن رزق ـ عثمان بن أحمد الدقاق ـ محمد بن أحمد بن البراء ـ علي بن أبي مريم (٨٦) .

(٦) أحمد بن أبي علي الاصبهاني ـ أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد السكري ـ محمد بن يحيي الصولي ـ الغلابي ـ محمد بن عبد الرحمن .

أما النصوص التي أورد فيها الخطيب معلومات من عنده فهي قليلة واكثرها تعليقات على مروياته من المصادر الأخرى وتشمل :

(١) تعليق على قول أحمد بن حنبل ان بغداد من الصراة الى باب التبن (٧١) وفيه معلومات عن انحطاط بغداد في زمنه .

(٢) تسمية قصر المنصور الخلد وموضعه واندراسه فى زمن المؤلف (٧٥) .

(٣) القنوات التي مدها المنصور في مدينته وفى الكرخ واندثارها في زمن المؤلف (٧٩) .

(٤) عمارة طغرلبك دار المملكة (١٠٦) .

(٥) تعليقات قصيرة على تسميات بعض المحال وهي عسكر المهدي (٨٣) شيرويه (٨٤) العباسية (٩٥) وكذلك مناقشة بعض الآراء عن استهلاك بغداد لاسويق في زمنه (١١٩) .

(٦) اطراء بغداد (١١٩) .

(٧) مساجد الشيعة ببغداد (٨١ ، ٩٠).

ويتبين من هذا ان النصوص التي أضافها الخطيب من عنده قليلة جداً نسبياً ، وهي تعكس انحطاط بغداد في زمنه ، فهي تكمل نصوص هلال بن المحسن الصابي ؛ كما ان هذه النصوص توضح اتجاهه العقائدي .

أما بقية المادة التي أوردها فقد اعتمد فيها على رواة متعددين أغلبهم عاشوا في القرن الرابع الهجري ، أي في الفترة التي وصلت فيها بغداد الى أوج العمران ؛ ولم يذكر الخطيب كتب الرواة الذين اعتمد عليهم ، ونسبة ما نقل مما أهمل ، ومبرره في نقل بعض النصوص وإهمال البعض الآخر كما ان ذكره السند كاملاً يسبب ارباك الباحث الذي يريد معرفة المصدر المسؤول عن الخبر . ومن حيث العموم فان أغلب ما روى يتعلق بوضع بغداد أيام تأسيسها أما النصوص التي تمثل الفترة المتأخرة فهي قليلة نسبياً ، ولا يستطيع المرء أن يحصل على فكرة واضحة مما كتبه عن تطور خطط بغداد بصورة شاملة .

لم يعتمد الخطيب على الكتب المشهورة عندنا كالطبري واليعقوبي ، فلم يشر إلىالاول إلا مرة واحدة (٦٦) أما الثاني فقد نقل عنه نصين دون أن يشير إلى اسمه . وعلى كل فان الخطيب استوعب المادة المهمة الموجودة في الطبري ، كما استوعب ما أورده سهراب عن أنهار بغداد ، ولكنه لم يستوعب ما كتبه اليعقوبي عنها ، هذا فضلاً عن أنه أورد نصوصاً من كتب مفقودة لها أهمية كبيرة لأنها غير موجودة في الكتب المتداولة عندنا . وبهذا يكتسب الخطيب أهميته الخاصة من حيث تعريفنا بعلماء أو كتب بحثت خطط بغداد،

ونقله عنها نصوصاً نموذجية لها قيمتها الخاصة في دراسة خطط بغداد . وان تشابه المادة في بعض ما ورد مع المادة الموجودة في بعض الكتب كالطبري وابن سرابيون يفيد في تدقيق طبع هذه الكتب وتصحيحها ، اما المادة الجديدة فتبقى ذات أهمية خاصة لدراسة خطط بغداد تكمل المادة التي قدمها اليعقوبي وخاصة عن وضع المدينة في أوائل عهد تاسيسها .

* * *

خصص ابن الفقيه الهمداني لبغداد وخططها اربعين صحيفة (٢٩ ـ ٦٩) من كتابه «البلدان» ، وهذه الصفحات موجودة في مخطوطة محفوظة بمشهد الرضا ويفتقدها المختصر المطبوع من الكتاب . وقد بحث الهمداني اشتقاق اسم بغداد وتأسيسها وخططها وخصائصها وسكانها بالتفصيل ؛ وقد ذكر مصادره عن بعض ما نقل ، ولكنه أغفل مصادر كثير مما نقل . غير اننا إذا قارنا ما ذكره بما ورد في الكتب الاخرى نستطيع معرفة كثير من المصادر التي اغفلها ونتمكن من تقييم المعلومات التي أوردها عن بغداد . وسنصنف فيما يلي مادته تبعاً لمصادرها وليس تبعاً لتسلسل كتابتها في المخطوطة .

١ — لقد أشار بصراحة الى نقله عن احمد بن أبي طاهر نصاً عن مساحة بغداد ، وعن يزدجرد ابن مهمندار في ذم مصر ومقارنتها ببغداد ، وعن أحمد بن الطيب السرخسي عن سعة بغداد وفطنة أهلها .

٢ — وأورد في القسم الاخير من كلامه عن بغداد صفحات كثيرة لم يشر إلى مصدره وفيها معلومات لم نستطع معرفة أصولها ، وهي تتناول وصف بغداد وخصائصها . وكذلك اشعار في مدح بغداد والشوق اليها ؛ مع ذكر أسماء بعض ناظميها ومنهم الحسن ابن أبي الرعد ، وهرون الرشيد ، وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر . وقد ذكر هذه المعلومات بعد النص المنقول عن ابن أبي طاهر ، مما قد يدل على انه نقلها منه .

كما أورد كلاماً طويلاً عن مقارنة بغداد بمصر ، وهذا الكلام مذكور بعد النص المنقول عن يزدجرد بن مهمندار مما قد يدل على انه أخذها عن يزدجرد .

وبحث أيضاً عن تجارة بغداد مع الشرق الأقصى عن طريق الأبله ، ومع الموصل ، ومع خراسان وأهمية موقعها كعاصمة للدولة .

كما بحث في تقدير عدد سكانها مستنبطاً ذلك من طول سورها ، وحماماتها ، وجوامعها، وعدد بيوتها ، وما تستهلكه من دهن للاضاءة ، ومن الفواكه والخضرات ، والمواد العطارية، واللحوم،والحنطة ، وجباية الجوالي ومسكوكات الدراهم . ومعظم هذه المواضيع بحثها يزدجرد بن مهمندار على ما يذكر صاحب كشف الظنون (١/٢٨٨) كما أشرنا الى ذلك من قبل . ولعل الهمداني نقلها من يزدجرد رغم انه ينص على ذلك صراحة .

٣ — ان مقداراً كبيراً من المعلومات التي أوردها الهمداني عن بغداد يمكن معرفة أصولها عند مقارنتها بما ورد في المصادر الاخرى ، . وهذه الأصول هي :

١ — البلاذري : فقد نقل الهمداني كل ما جاء في باب « أمر مدينة السلام » من فتوح البلدان غير ان الهمداني قسم هذه المادة قسمين ، وضع القسم الأول منها (المذكور في ص ٢٩٤ من البلاذري) في أوائل مقاله ، ووضع الباقي (المذكور في ص ٢٩٤ — ٢٩٧ من البلاذري) في أواخر مقاله منسوباً الى ابن الكلبي ، الذي يصرح البلاذري بانه اقتبس هذه المعلومات منه ؛ ويبدو ان الهمداني أخذ من فتوح البلدان أيضاً خبر إغارة المثنى على سوق بغداد .

ومع ان الهمداني نقل حرفياً عن البلاذري ، إلا أنه أغفل ما ذكره البلاذري عن الصالحية ، واقطاع كل من سليمان بن مجالد ، والمهلهل ، وسبيل ، كما ان يختلف عن النسخة المتداولة من البلاذري في قراءة بعض الكلمات .

ب — نصوص محمد بن خلف وكيع التي أوردها الخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد .

١ — نقل الهمداني ما رواه الخطيب عن محمد بن خلف وكيع فيما يتعلق بخطط الجانب الشرقي من بغداد ؛ وقد حافظ النقل على المادة المذكورة وترتيب عرضها . غير انه حذف ما ذكره وكيع عن قنطرة البردان ، وشارع عبد الصمد ، وخان أبي زياد ؛ وأورد معلومات

اضافية لم يذكرها الخطيب فيما رواه عن وكيع عن شارع الميدان ، ودار الربيع ، وقصر الطين ، وخان وردان ، وبعض أنهار شرقي بغداد ، وتفاصيل اضافية عن طاق اسماء ، وقصر أم حبيب ، وسوق العطش ، ودارو ج ؛ كما أورد عن بيع السويق ببغداد معلومات تختلف عما ذكره الخطيب .

٢ — نقل الهمداني كثيراً من المعلومات التي أوردها الخطيب عن وكيع في فصله عن « محال مدينة السلام وطاقاتها .. » . وكثيراً ما كان النقل حرفياً ، غير ان الهمداني لم يتبع نفس التسلسل الذي اتبعه وكيع ، بل قدم بعض النصوص وأخر بعضها ، ولكنه على تسلسل ذكر بعض الاماكن .

كما ان الهمداني لم يذكر ما رواه الخطيب عن وكيع حول ربض أبي أيوب الخوزي ومربعة أبي قرة ، وربض ابراهيم بن حميد ، وعبد الملك بن حميد ، وحميد بن ابي الحارث وعمرو بن المهلب ، وابراهيم بن عثمان بن نهيك ، ومنارة حميد الطوسي ، وكثير من المعلومات عن دور الصحابة ، وأبي دلامة ، ودار عمرو بن مسعده ، ودار صالح المسكين ، وأبي يزيد الشروي ، وسكة مهلهل ، وصحراء أبي السرى ، وقطيعة اسحق بن الازرق الشروي ، وقطيعة الربيع ، وقطيعة الانصار ، وقطيعة الكلاب ، وسكك المدينة المدورة ، والزبيدية ، ودور بني نهيك ، ودرب جميل ، ومسجد الانباريين ، والياسرية ، وقطيعة خزيمة ، ودار اسحق بن ابراهيم . وكذلك عن ايوان المنصور ، والقبة الخضراء ، ومنفذ المنصور السري ، والموكلون بالأبواب ؛ كما قدم الخطيب تفاصيل أوفى عن الطاقات .

وذكر الهمداني معلومات غير موجودة في الخطيب عن ربض الحربية ، والمراوزة ، وعتيك بن هلال ، وابي العباس الطوسي ، ودار البطيخ ، وقطيعة عقبة بن جعفر ، وقصر الوضاح ، والمسجد الكبير ، والقرار ، ومربعة الفضل بن سليمان ، ودرب البخارية ، وربض عمرو بن اسفنديار ، وربض رشيد ، وربض عبد بن حميد ، وقطائع الموالى ، والسرخسية ،

وطاقات الراوندي، ودار عمارة، وربض ابي حنيفة، وقصر هانىء بن بشير، ودويرة مبارك وربض الخوارزمية، وربض سعيد بن حميد بن دعلج، ومنارة الحكم بن ميمون، وبعض التفاصيل عن العباسية، والنوبختية، ودرب الناووس.

٣ — ذكر الهمداني في اول فصله عن بغداد اصل تسميتها، وبحث المنصور عن مكان لانشاء عاصمته، وموقف اهل الكوفة وصفة المدينة المدورة، وابوابها واسوارها، وابعادها، ومخططيها، وحجم اللبن، ومحاولة هدم القصر الابيض، وقصة البطريق والاسواق، وعيوب المدينة المدورة، وبناء الرصافة، وتكاليف البناء، وطالع النجوم، والموكلون بالبناء، والقرى التي كانت في موقع بغداد وهي المباركة والترابية، والخطابية وقرية بنو زراري والوردانية والشرفانية وماوري، وموضع بركة زلزل، واقطاع الربيع وورثالا، ونهر طابق، وبراثا، ونهر كرخايا.

ان هذه المعلومات وردت في الطبري، وفي ما رواه الخطيب عن وكيع بنفس التسلسل تقريباً. ومع ان وكيع نقل عن شيوخ الطبري، الا انه لم يشر الى نقله عن الطبري؛ فاذا اعتبرنا ان الطبري ووكيع مصدران مستقلان، فمن الصعب ان نجزم في ايهما اخذ الهمداني.

لقد ذكر الهمداني بحث المنصور عن مكان لعاصمته، وافساد اهل الكوفة جند المنصور، ونصيحة خالد البرمكي للمنصور الا يهدم القصر الابيض، وتمزق طيلسان الدهقان والخطابية. وهي معلومات ذكرها الطبري ولم يذكرها الخطيب فيما نقل عن وكيع غير ان الهمداني ذكر اشتقاق اسم بغداد، وورثالا، وبراثا وكرخايا والترابية كما وردت عند الخطيب وهي غير مذكورة في الطبري؛

اما المعلومات التي عن خصائص المدينة المدورة، وابعادها، وابوابها وواضع تخطيط المسجد الجامع، ووزن اللبن، وقصر البطريق والاسواق وعيوب المدينة المدورة وانشاء الكرخ، وانشاء الرصافة، والتكاليف، والقرى التي كانت في موقع بغداد، ونهر طابق، فهي

موجودة في كلا الكتابين الامر الذي يجعل البت صعباً في تقرير اي المصدرين اعتمده الهمداني.

ومن حيث العموم فان الهمداني اورد كافة ما ذكره الطبري تقريباً ، مع حذف بعض الروايات المتعددة عن الامر الواحد ، وكذلك خبر انحراف قبلة جامع المنصور وسير عيسى بن علي محمولاً ، وثورة ابي زكريا المحتسب، وطريق المنصور السرى ، وتفاصيل تكاليف البناء .

كما ان الهمداني اورد المعلومات التي اوردها الخطيب (وقد ذكر الخطيب بعض القرى التي كانت في موضع بغداد في ص ٢٢) ولكنه اضاف خبر تجار الصين وان اسم مدينة السلام هو الذي يذكر في السكة والاشربة والغلات ، كما اختصر بعض الروايات المتكررة عن بغداد . ولما كان وصف الخطيب خطط بغداد مأخوذاً من وكيع فالراجح ان الهمداني نقل عن وكيع الذي ربما اعتمد بدوره على الطبري وادخل مادته فى بحثه ثم اضاف اليه .

ونختتم مقالنا هذا بالاشارة الى ما كتبه ابن عقيل عن بغداد في عصره الذي يعقب الخطيب . ان نص ابن عقيل نقله صاحب كتاب مناقب بغداد الذي نشره الاستاذ بهجت الاثري . وقد ترجم هذا النص وعلق عليه وحلله الاستاذ جورج مقدسي فى مقالين نشرهما في مجلة Arabica سنة ١٩٦٣ .

صالح أحمد العلي

مصادر دراسة تاريخ الكوفة في القرون الإسلامية الأولى

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الرابع والعشرون
1974 - 1394

مصادر دراسة تاريخ الكوفة
في القرون الإسلامية الأولى

الدكتور صالح احمد العلي

المدن هي الاماكن التي تستقر فيها اعداد كبيرة من الناس ، وتعيش مجتمعة معاً في رقعة محدودة ، ممتهنة الصناعة والتجارة والخدمات العامة ؛ وهي منذ اقدم نشأتها البيئات الاساسية للنظم الاجتماعية والادارية المعقدة ولنشاط الحياة الاقتصادية ونمو الحركة الفكرية ؛ وهذه الامور تكون ابرز مظاهر الحضارة وتكسب المدن سمات خاصة تميز المجتمع فيها عن المجتمعات الريفية والرعوية بالرغم من الصلات الوثيقة بين هذه المجتمعات .

وتاريخ المدن يتناول بحث الاحوال الطبيعية والبشرية والاجتماعية والاقتصادية والادارية والفكرية ، كلها او بعضها ، في المدينة موضوع الدراسة ، وكذلك تتبع تطور هذه الاحوال في مرور الزمن ، فبحثه يتميز بالتركيز على رقعة محدودة ، الامر الذي يتطلب الاهتمام بتفاصيل الاحوال الجغرافية والتعمق في تتبع تطور مظاهر الحياة والصلات بين عناصرها المتنوعة ، وتوضيح اثر العوامل المحلية فيها وفي مجرى التاريخ العام .

وقد ظهرت الدعوة الاسلامية في بيئة حضرية ، واهتم الاسلام بصورة خاصة بتنظيم الحياة الحضرية ، فكانت من ابرز سماته انه دين حضري ، والواقع ان الدولة الاسلامية التي امتدت من اواسط اسيا الى المحيط الاطلسي ضمت كثيراً من المدن القديمة او التي انشئت بعد الفتح ،فكانت مراكز الحضارة الاسلامية ، غير ان المسلمين لم يهتموا كثيراً ببحث المكانة القانونية للمدن ،فان كتب الفقه الاسلامية التي تضم المفاهيم والافكار القانونية عند المسلمين ، اقتصرت على مجرد البحث في تمييز البدو عن الحضر في بعض الاحكام ، وعلى التأكيد على ان صلاة الجمعة لاتجوز الا في الامصار ، رغم اختلافاتهم الكبيرة في تعريف « المصر » وبهذا كانوا يختلفون عن الاغريق والرومان والاوربيين ، الذين وضعوا تشريعات وقوانين تحدد المدن وتميزها وتقرر الامتيازات القانونية والسياسية والاقتصادية التي تتمتع بها .

غير ان المتطلبات الحضارية والادارية كانت تقضي بتمييز بعض المراكز الحضارية لتفي بأغراض ضبط الامن والنظام ، او لاقامة القوات العسكرية ، او تأمين جباية الاموال . وقد ورثت الدولة الاسلامية بعض هذه التنظيمات وابقت على كثير منها مع بعض التبديلات ، فكان العراق ، مثلاً ، مقسماً الى عدة استانات ينقسم كل منها بدوره الى عدد من الطساسيج التي يتكون كل منها من عدة رساتيق ، وكانت هذه التقسيمات لتيسير الجبايات المالية ، فابقاها المسلمون وساروا عليها عدة قرون .

وقد قضت الاحوال الادارية على العرب انشاء تقسيمات اخرى تلائم حاجاتهم الجديدة ، و انشاء « امصار » يقيم في كل منها المقاتلة المسلمون وعيالاتهم ، والولاة المسؤولون عن الادارة وحفظ الامن فيها وفي الاقاليم التي فتحها المقاتلة المقيمون في ذلك المصر . وكانت هذه الامصار تتميز بان اغلب سكانها من العرب المسلمين المقاتلة الذين يأخذون العطاء والرزق . والواقع ان هذه الامصار اصبحت المراكز

الرئيسة للحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والحضارية ، حتى انه ليس من المبالغة القول ان تاريخ الشرق الاوسط في القرن الاول الهجري هو في الحقيقة تاريخ هذه الامصار وما تم فيها من احداث وتطورات .

والكوفة هي احد المصرين اللذين تأسسا في العراق في عهد خلافة عمر بن الخطاب ، وثانيهما البصرة . وقد انشئت الكوفة لتكون مركزاً لبقيم فيه المقاتلة العرب الذين فتحوا العراق ودمروا جيوش كسرى ، كما شاركوا في فتوح الجزيرة وارمينية ، وكانوا مسؤولين عن حفظ الامن والنظام في العراق وشمال الهضبة الايرانية . وكانت الكوفة منذ بداية تأسيسها تضم عدداً كبيراً من المقاتلة العرب ، وعدداً من البيوتات التي كانت لها مكانة كبيرة في عشائرها قبل الاسلام . وقد اتخذها الخليفة الرابع الامام علي مقاماً له في معظم السنوات الاربعة من خلافته ، ثم ساهمت في كثير من الحركات السياسية التي حدثت في زمن الخلافة الاموية ، وكانت معظم هذه الحركات ضد الدولة الاموية . ثم اصبحت من اعظم مراكز الحركة الفكرية في الاسلام ، فازدهرت فيها دراسة الفقه والنحو واللغة والتاريخ ، وكان لعلمائها اثر كبير في تطوير وتقدم هذه العلوم ؛ فضلاً عن ان الحيرة المجاورة لها ، كانت من اعظم مراكز الدراسات الفلسفية والكلامية والطبية في السريانية وفي ترجمة الكتب الى العربية . وكان لعلماء الكوفة دور كبير في تأسيس وازدهار الحركة الفكرية في بغداد بعد انشائها .

وقد نشرت في السنوات الاخيرة بعض الدراسات عن الكوفة وتاريخها وفيها معلومات جيدة وبعض الملاحظات الصائبة ، غير انها لم تستوعب كافة جوانب تاريخ هذه المدينة ، ولذلك بقى المجال مفتوحاً لدراسات اخرى ، وخاصة في هذه السنوات التي ازداد فيها الاهتمام بدراسة المدن الاسلامية بعد ان تبين ان مثل هذه

الدراسات اقدر على عرض تفاعل المؤسسات وتفهم عوامل ظهورها وتطورها ودورها في الحياة العامة .

ولاريب في ان اول ماتتطلبه الدراسات المستوعبة هو معرفة المصادر وتقييمها . ومن المعلوم ان مصادر دراسة تاريخ الكوفة مشتتة في كتب كثيرة منوعة ، ولم تجر لجمعها الا محاولات قليلة نذكر منها ماكتبه السخاوي في كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » حيث افرد ذكر اسماء الكتب المؤلفة في تاريخ الكوفة ، ولكنه لم يذكر الا اسماء ثلاثة مؤلفين (١) دون ان يورد اسماء كتبهم ؛ وكذلك ماذكره اغا بزرك في كتابه القيم « الذريعة في تصانيف الشيعة » تحت باب «تاريخ الكوفة (٢) و « فضل الكوفة » (٣) و « الكوفة » (٤) ؛ ثم القائمة التي اعدها الاستاذ كوركيس عواد في مقاله « ما طبع عن بلدان العراق باللغة العربية» (٥) وهي تشمل بعض الكتب والمقالات القديمة والحديثة التي بحثت في تاريخ الكوفة ومنطقتها ؛ واخيراً القائمة التي نشرتها في كتاب « علم التاريخ عند المسلمين » ، وجمعت منها ماأورده كل من ابن النديم والطوسي في فهرستيهما (٦).

ان المحاولات التي ذكرتها انفاً اقتصرت على تسمية بعض الكتب والمقالات ولم تستوعب تحليلها ، كما انها لم تشر الى مصادر كثيرة فيها مادة قيمة عن الكوفة واهلها وتاريخها ، وهو ما تستهدفه المقالة الحالية .

١ــ الكتب الخاصة في تاريخ الكوفة :ــ

ذكرت المصادر اسماء عدد من المؤلفين الذين الفوا عن الكوفة كتباً مستقلة بعناوين مختلفة ؛ فقد ذكر النجاشي في سرده الكتب التي الفها محمد بن بكران الرازي « كتاب الكوفة » (٧) ، غير انه لم يذكر شيئاً عن ترجمة المؤلف اوسنة وفاته

او محتوى الكتاب .

وذكر السخاوي ان الكتب المؤلفة عن « الكوفة لابن مجالد ، ولعمر بن شبة ، ولابي الحسن محمد بن جعفر بن هارون بن فروة التميمي الكوفي النحوي ابن النجار » (٨) ؛ فاما كتاب ابن المجالد فقد ورد ذكره باسم « تاريخ الكوفة » ضمن قائمة الكتب التي ذكر ابن الساعي في بعض تآليفه انه قد قرأها (٩) . غير اني لم اجد في اي مصدر آخر اشارة الى هذا الكتاب ، او اية معلومات عن مؤلفه الذي لاعلاقة له بالمجالد بن سعيد بن مجالد الفقيه الكوفي المشهور والذي كان من شيوخ ابي يوسف (١٠) .

واما ابن شبة فهو عمر بن شبة النمري المتوفى سنة ٢٦٢هـ ، وقد ذكر له ابن النديم اثنين وعشرين كتاباً في الشعر والنحو والقرآن والنسب وفي تاريخ بعض الاحداث وبعض المدن ، ومنها « كتاب الكوفة » و « كتاب امراء الكوفة » (١١) وقد اعتمد الطبري على ابن شبة في نقل معظم ماروى عن المدائني في حوادث البصرة وخراسان ، كما نقل السمهودي عنه معلومات عن خطط المدينة (١٢) ، ولكني لم اجد من نقل عنه ما يتعلق بالكوفة .

اما تاريخ الكوفة لابن النجار (٣٠٣-٤٠٢) (١٣) ، فهو مفقود ، غير انه وصلتنا نصوص عن ابن النجار نقلتها عدة كتب ، ففي كتاب ارشاد الاريب لياقوت الحموي خمسة نصوص عنه (١-٤١٠ ، ٣-٦٩ ، ٤-٢٤٥ ، ٥-١١٣ ٦-٤٦٧) وفي لسان الميزان خمسة نصوص ايضاً (٤١٣/١ — ٤١٤ ، ٤٦٨ ، ٣-١٤٧ ، ٢٠٥) وفي معجم البلدان لياقوت نصان (٤ / ١١٧ ، ٥٦٨) وفي مخطوطة « فضل الكوفة » اربعة نصوص منقولة عن ابن النجار . وقد نقل ابن طاووس في « فرحة الغري » عن ابن النجار وذكره في احد المواضع « ابو جعفر

الحسن بن محمد بن جعفر التميمي المعروف بابن النجار » في كتابه « تاريخ الكوفة وهو الكتاب الموسوم بالمنصف » (١٤) .

ويتبين من هذه المقتطفات ان ابن النجار بحث في هذا الكتاب خطط الكوفة وتراجم رجالها . ومن المعروف ان العرب الفوا كتباً كثيرة في عنوانها « تاريخ» للمدن ؛ واغلب هذه الكتب التي الفت حتى اواسط القرن الثالث الهجري والتي وصلتنا ، تبحث في الخطط وفي ابرز المعالم العمرانية في المدينة موضوع الدراسة ، كما تسرد الحوادث التي جرت فيها أولها صلة بها . اما الكتب التي الفت منذ القرن الخامس الهجري فتبحث عادة في فضائل المدينة وخططها ومعالمها العمرانية ، ثم تذكر تراجم ابرز رجالها ، وخاصة من علماء الحديث ؛ فكتاب ابن النجار عن تاريخ الكوفة هو من اقدم الكتب التي وصلتنا من هذا الطراز .

وقد ذكرت المصادر عدداً من الكتب عنوان كل منها « فضل الكوفة » ؛ وقد وصلنا منها كتاب لابي علي محمد بن علي بن الحسن الكوفي العلوي ت ٤٤٥هـ (١٥) ؛ وهو مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق (مجموع ٩٣ص ٢٨٢— ٣٠٧) ، وتاريخ نسخه سنة ٤٧٤هـ ؛ وهو مقسم الى فصول هي : ذكر النبي للكوفة ، وشراء ابراهيم الخليل ظهر الكوفة ، وشراء الامام علي ظهر الكوفة ، وانه يحشر فيها سبعون الفاً يدخلون الجنة ، ومدح ارض الكوفة واختيار الملوك سكناها لصحة هوائها وطيب تربتها ؛ ومدح الامام علي الكوفة واهلها ، وقول عمر في تفضيل اهل الكوفة ، وقول سلمان في فضل الكوفة واهلها ؛ وقول حذيفة بن اليمان في فضل الكوفة ، وقول الحسن والحسين وعلي بن الحسين في فضل الكوفة واهلها ، وقول محمد بن الحنفية في فضل الكوفة واهلها .

وكتاب ابي علي العلوي يذكر كافة مساند الروايات التي اوردها ، وهي تبلغ

مائة واثنتين وخمسين رواية ، منها ٢٦ عن ابي طالب محمد بن العباس الحذاء ، و ٢٣ عن محمد بن عبد الله الجعفي ، و ١٥ عن الحسين بن احمد بن ابي داؤود الجعفري المقرئ القطان ، و ٧ عن علي بن محمد بن الفضل الدهقان ، و٦ عن الحسن بن محمد بن الحسين البجلي ، و٥ عن محمد وزيد ابني ابي هاشم جعفر ابن محمد العلوي ، و ٤ عن كل من محمد بن جعفر التميمي ، وعبد الله بن مجالد ابن بشر والحسين بن احمد بن داود الحضري ، وثلاث روايات عن محمد بن الحسين بن غزال ، اما بقية الروايات فمنفردة .

ويحتوي الكتاب على نصوص في مدح الكوفة ، وهي نصوص محدودة ولكنها تتكرر في مسانيد متعددة ؛ ومعظمها في إطراء الكوفة واظهار صبغتها المقدسة ؛ غير ان فيها نصوصاً قليلة ومهمة عن خطط الكوفة . وكثير من النصوص التي اوردها في مدح الكوفة مذكورة في مصادر اقدم كالبلاذري وابن قتيبة والطبري .

وقد ذكر الطوسي كتابين عنوان كل منهما « فضل الكوفة » احدهما لعلي بن الحسين بن فضال (١٦) ، والثاني لابي العباس احمد بن محمد بن سعيد المشهور باسم ابن عقدة (١٧) فاما الكتاب الاول فقد ذكره ابن شهراشوب ضمن قائمة الكتب التي الفها ابن فضال (١٨) اما النجاشي فقد ذكر في ترجمته لابن فضال عدداً من الكتب منها « كتاب الكوفة » (١٩) ولعله نفس كتاب « فضل الكوفة » ؛ وقد ذكر النجاشي ابن فضال في عدة مواضع من كتابه (٢٠) ، غير انه لم يشر صراحة الى نقله عن هذا الكتاب . وقد وصف الطوسي ابن فضال بانه «فطحي المذهب ، ثقة كوفي كثير العلم ، واسع الرواية والاخبار ، جيد التصانيف ، غير معاند » كما ذكر له عدة كتب اخرى ، وذكر ايضاً « اخبرنا بجميع كتبه قراءة عليه اكثرها ، والباقي اجازة ، احمد بن عبدون عن علي بن محمد بن الزبير سماعاً

واجازة منه » (٢١)

اما ابن عقدة فهو محدث كوفي مشهور (٢٤٩ـــ٣٣٣هـ) وقد الف كتباً كثيرة (٢٢) وقد نقل ابو علي العلوي عن ابن عقدة سبع عشرة رواية منها واحدة بسند عن ابي جعفر التميمي ، والباقية بسند عن محمد بن عبد الله الجعفي ، وقد ذكر هذا الكتاب كل من النجاشي وابن شهراشوب (٢٣) .

وقد ذكر النجاشي « كتاب الكوفة » لمحمد بن علي بن الفضل بن تمام الدهقان وقال انه قرأه على ابي عبد الله الحسين بن عبد الله (٢٤) وقد نقل ابو علي العلوي عن الدهقان سبعة نصوص دون الاشارة الى الكتاب الذي نقلها عنه . وقد ذكر الطوسي محمد بن علي الدهقان وقال انه كثير الرواية ، له كتب منها كتاب الفرج في الغيبة كبير حسن ، اخبرنا برواياته وكتبه كلها الشريف ابو محمد المحمدي عنه ، واخبرنا ايضاً جماعة عن التلعكبري عنه » (٢٥) ، غير ان الطوسي لم يذكر صراحة كتاباً للدهقان عن الكوفة .

وقد ذكر النجاشي خمسة كتب عن فضل الكوفة هي .

١ـــ « فضل الكوفة » لمحمد بن احمد بن خاقان النهدي

٢ـــ « الكوفة وما فيها من الاثار والفضائل » لاحمد بن العباس النجاشي

٣ـــ « المزار وفضل الكوفة ومساجدها » لجعفر بن الحسين بن علي بن شهر يار القمي

٤ـــ « فضل قم والكوفة » لسعد بن عبد الله القمي

٥ـــ « فضل الكوفة ومن نزلها من الصحابة » لابراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي (٢٦)

وقد ذكر كل من الطوسي (٢٧) ،وابن شهرا شوب (٢٨) كتاب سعد بن عبدالله القمي اما عن مؤلفي هذه الكتب ، فاني لم اجد معلومات عن محمد بن احمد بن خاقان ، اما احمد بن العباس النجاشي فهو مؤلف كتاب الرجال ، وقد توفي

سنة ٤٠٥هـ ، واما جعفر بن الحسين القمي فهو قمي انتقل الى الكوفة واقام بها وتوفي سنة ٣٠٤هـ (٢٩) .

واما سعد بن عبد الله القمي فقد ذكره ابن شهراشوب وقال انه « له كتاب » دون ان يذكر اسمه (٣٠) ، وذكر النجاشي وفاته سنة ٢٩٩هـ (٣١) .

اما ابراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي فهو مؤرخ مشهور ، ولد في الكوفة ، ثم انتقل الى اصفهان وتوفي سنة ٢٨٣هـ (٣٢) ؛ والف عدة كتب اشهرها كتاب الغارات الذي نقل عنه كثيراً ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة (٣٣) ، غير اني لم اجد من نقل عن كتابه في فضل الكوفة لقد ذكرت انه لم يصلنا من الكتب التي عنوانها « فضل الكوفة » الا كتاب ابي علي العلوي ومن المعلوم ان كلمة « الفضل » « الفضائل » يقصد بها المميزات الحسنة ، فكتب الفضائل تؤكد على المزايا دون المعايب ، وهي عادة تهتم بالمزايا الخلقية التي تقدرها الاوساط الدينية ؛ والواقع ان العرب الفوا كتباً كثيرة في فضائل الاشخاص والقبائل والشعوب والمدن ، ذكر ابن النديم عدداً غير قليل منها . ويبدو من كتاب علي الحسني ، ومن النصوص التي وصلتنا عن فضائل المدن الاخرى ان كتب « الفضائل » متأثرة بالبيئة الفكرية السائدة في الاوساط الدينية ، فهي تهتم بذكر مساند نصوصها ، كما تهتم بايراد اقوال لبعض الصحابة او ذوي المكانة الدينية ، في اظهار ميزات ذات طابع ديني ، كأن يكون قد زارها الانبياء أو أن في تربتها الخير والبركة ، او ان تكون مقدسة ، غير ان فيها احياناً نصوصاً عن خططها وتاريخ بعض الاحداث فيها . ولعل كتب « فضائل الكوفة » التي ذكرناها اعلاه تجري كلها على هذا النمط مع اختلاف في التفاصيل .

٢ـ كتب الولاة والقضاة :ـ

ذكر ابن النديم اسم كتابين الفهما الهيثم بن عدي هما « ولاة الكوفة » و « قضاة

الكوفة والبصرة » (٣٤) . والكتابان مفقودان ، ومن المحتمل أنهما كانا معتمد كل من خليفة بن خياط والطبري واليعقوبي في قائمة الولاة التي اوردوها في كتبهم بعد ذكر حوادث كل سنة او في ترجمة الخلفاء ؛ غير ان هذه المقتبسات لاتكفي للجزم بمدى نطاق بحث الهيثم بن عدي ، لانها مقصورة على ذكر اسماء الولاة دون الاشارة الى اعمال كل منهم .

وقد خصص وكيع في كتابه « اخبار القضاة » مقداراً كبيراً لقضاة الكوفة في القرون الثلاثة الاولى ، واورد في كلامه عن كل قاض عدداً من القضايا التي نظر فيها ، وتطرق الى معلومات كثيرة عن الاحوال الادراية والاجتماعية فيها (٣٥)..

٣- كتب التاريخ العام :

وفي الكتب التي تتحدث عن الأحداث السياسية معلومات عن الكوفة وأهلها ورجالها ، وردت في ثنايا كلامهم عن تلك الأحداث . فقد الفت عدة كتب عن الفتوح وتاريخ الخلفاء ، وكتب عن ولاة الكوفة كزياد ، ومصعب ، والحجاج ، وخالد بن عبد الله القسري .

كما ألف بعض المؤرخين كتباً في أحداث وثيقة الصلة بالكوفة كوقعة الجمل وصفين والنهروان ، ومقتل كل من حجر بن عدي ، والحسين ، والمختار ، وزيد ابن علي ، وابن الأشعث .

فقد ألف عدد من المؤرخين المسلمين الأوائل كتباً في هذه الأحداث ، ذكر ابن النديم عدداً منهم وأهمهم أبو مخنف الذي ألف كتباً في وقعة الجمل ، وصفين ، ومقتل علي ، ومقتل الحسين ، ومقتل حجر بن عدي .

كما ألف عن سليمان بن صرد وعين الوردة ، والمختار ، وشبيب الخارجي ،

ومطرف بن المغيرة ، ودير الجماجم ، وباجميرا ومقتل ابن الأشعث ، وعن خالد القسري .

وألف نصر بن مزاحم كتباً في وقعة الجمل ، وصفين ، ومقتل حجر بن عدي ، ومقتل الحسين .

وألف الهيثم بن عدي عن « نزول العرب بخراسان والسواد » وعن خالد بن عبد الله القسري ، فضلاً عن كتبه عن خطط الكوفة ، وعن أمراء الكوفة .

وألف الواقدي عن وقعة الجمل ، وصفين ، وفتوح العراق .

وألف المدائني عن الجمل ، والنهروان ، وعمران بن حطان ، وفتوح العراق ، وفتوح الري ، وخطب علي وكتبه إلى عماله .

وألف أبو عبيدة عن السواد وفتحه ، والجمل ، والخوارج .

وألف الغلابي عن الجمل ، وصفين ، ومقتل علي ، ومقتل الحسين .

وألف الأشناني عن فضائل أمير المؤمنين، ومقتل الحسين ، ومقتل زيد بن علي .

وألف كل من اسحق بن بشر وابي اسحق العطار عن الجمل ، وعن صفين .

وألف كل من سيف بن عمر وعبد الله بن محمد بن ابي شيبة عن الجمل .

كما ألف ابن النطاح عن مقتل زيد بن علي وابن حماد الثقفي عن مقتل حجر بن عدي .

وقد ذكر الطوسي كتباً أخرى في مقتل علي ألفها كل من ابن ابي الدنيا وغياث بن ابراهيم . وفي مقتل الحسين ذكر كتباً ألفها ابراهيم بن اسحق النهاوندي ومسلمة بن الخطاب وابن ابي الدنيا وابن بابويه(٣٦) .

ويتبين مما تقدم ان أكثر المؤلفات في وقعة الجمل(١٠) ووقعة صفين(٦) وفي مناقب الإمام علي ومقتله (٦—٥) ثم في مقتل الحسين(٤) ومقتل حجر بن عدي

(٣) ومقتل زيد بن علي(٢) وكل هذه الأحداث تتصل بالكوفة وتتعلق بآل علي وأنصـــاره .

ومن المؤرخين الذين كتبوا فيهـا واحـد حجازي (الواقدي) واثنان بصريان (المدائني وابو عبيدة) أما الباقون فـأغلبهم كوفيون . ولم يصلنا كـاملاً أي من الكتب الآنفة الذكـر سوى كتاب صفين لنصر بن مزاحم ؛ غير انه وصلتنـا مقتطفات متباينة من مؤلفات الباقين ، موجودة بصورة خاصة في تاريخ الطبري ، وانساب الأشراف للبلاذري ، وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد . فأما الكتابان الأولان فقد عنيا بذكر مساند أخبارهما التي استقيا معظمها من ابي مخنف ، والمدائني ، وابي عبيدة ، والهيثم بن عدي ، ولكنهما لم يذكرا إسم الكتاب الذي نقلا عنه الأخبار ، غير انه يمكن حدس ذلك من مادة الأخبار التي نقلوهـا ، فالأخبار المتعلقة بالجمل لا بد أن تكون منقولة من كتاب الجمل ، وهكذا بقيـة الأخبار . وليس هنا مكان البحث في سبب اغفال هذين المؤرخين ذكر إسم كتب مصادرهما .

ويتميز ابن ابي الحديـد بالمادة التاريخية الضخمـة التي أوردها في شـــرحه واستطراداته المفصلة في شرح نهج البلاغة ، وفيها معلومات غنية عن الكوفة . وقد ذكر الكتب التي نقل عنها بعض معلوماته ، ومنها كتاب صفين لنصر بن مزاحـم الذي أكثر من الإشارة اليه ، كما ذكر كتاب صفين للواقدي(٣٧) ، وكتاب صفين للمدائني (٣٨) وكتاب صفين لابراهيم بن الحسن بن علي بن ديزيل الهمداني(٣٩) وذكر أيضاً كتاب وقعة الجمل لابي مخنف(٤٠) ، وكتاب الجمل للمدائني(٤١)

هذا بالاضافة إلى المعلومات الكثيرة التي نقلها عن شيوخ ذكرهم دون أن يسمي كتبهم .

٤- كتب وابحاث عن الخطط :-

لكتب الخطط أهمية كبيرة في دراسة الأحوال والتطورات العمرانية والاجتماعية والاقتصادية للمدن ؛ إذ أن هذه الكتب تهتم عادة بأقسام المدينة وسكانها وتوزيعهم تبعاً لسكناهم كما تذكر المعالم العمرانية البارزة كالمساجد ودار الامارة ، وكذلك أهم الدور ، وتذكر أيضاً اسماء عدد من الشخصيات البارزة في المدينة ومصادر قوتهم وثروتهم والمناصب الإدارية التي شغلوها . وكثيراً ما تبدأ هذه الكتب بمقدمة يختلف طولها في تاريخ الذين استوطنوا فيها ، والأحداث البارزة التي حدثت فيها أو كانت لها علاقة بها .

وقد ذكرت المصادر كتاباً واحداً عن خطط الكوفة ألفه الهيثم بن عدي(٤٢)وهو كتاب مفقود ، ولم يشر اليه الذين بحثوا عن خطط الكوفة في مساندهم . غير ان علي بن محمد العلوي أورد في « فضل الكوفة » نصوصاً عن خططها ، منقولة عن الهيثم بن عدي ، ولعل هذه النصوص مأخوذة من كتاب خطط الكوفة . ومن المحتمل ان بعض المعلومات التي ذكرها البلاذري عن خطط الكوفة ولم يشر إلى مصدرها مستمدة من كتاب الهيثم أيضاً .

وقد خصصت بعض المصادر فصولاً عن خطط الكوفة ، وأهم هذه المصادر هي فتوح البلدان للبلاذري ، وتاريخ الطبري وكتاب البلدان لليعقوبي .

فاما البلاذري فانه خصص عشر صفحات (٤٣) من كتابه بحث فيها عن تمصير الكوفة وخططها وأبرز الدور فيها ، كما أورد معلومات عن بعض الأبنية والقصور والقرى المحيطة بالكوفة . وقد ذكر في معظم ما أورده أسماء الرواة الذين اعتمد عليهم ، واكتفى في بعض النصوص بذكر كلمة (قالوا) دون أن يخصص

أسماءهم ؛ ولم يذكر إسم أي كتاب لأي من هؤلاء الشيوخ . والرواة الذين ذكر اعتماده عليهم في هذا الفصل هم أبو مسعود الكوفي(١٠) وهشام بن الكلبي(٧) ووكيع(٤) والمدائني(٢) والعباس بن الوليد النرسي(٢) كما ذكر رواية واحدة عن كل من محمد بن سعد ، ويزيد بن هارون ، والهيثم بن عدي ، واسماعيل بن مجالد ، وشريك .

ويتبين من هذا السرد ان أبرز مصادر البلاذري في هذا الموضوع هو أبو مسعود الكوفي ، حيث نقل عنه معلومات مهمة ، كما نقل عنه أيضاً في مواضع أخرى من « الفتوح » معلومات عن أحوال العراق الأوسط الذي له صلة وثيقة بالكوفة ، وقد نقل عنه في الجزء الأول من « أنساب الأشراف » في ستة مواضع ، وفي الجزء الخامس في خمسة مواضع .

لم ترد إشارة الى أبي مسعود الكوفي في كتب أبي يوسف ، أو يحيى بن ادم ، مما قد يدل على انه متأخر عنهما ، كما ان ابن سعد والطبري لم يذكراه من رواتهما ، ولم يشر اليه ابن النديم ، كما لم تذكره كتب التراجم ؛ وقد ذكر الذهبي في المشتبه عدداً من الأشخاص كنية كل منهم أبو مسعود ، وأقربهم هو محمد بن جعفر القتات (المشتبه ١١٤٩/٣) غير انه لا بد من توافر أدلة أخرى لكي نجزم بانه هو الذي اعتمد عليه البلاذري . ويلاحظ ان البلاذري روى عن أبي مسعود القتات (فتوح ٧ ، انساب ٤٣٩/١)

ان معظم روايات ابي مسعود في البلاذري خالية من السند ، غير انه ذكر عنه رواية في الخطط « عن بعض الكوفيين » (٢٧٩) .

وذكر من شيوخه يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمي(٢٨٧) . كما ذكر في مواضع أخرى من الفتوح من شيوخه عوانة (٢٦٤ ، ٢٩٣ ، ٣٨٢) وابن مجالد (٢٤٣) والهيثم بن عدي(٦٦) والمبارك بن سعيد (٣٠٥) . ومحمد بن مروان (٦٦) .

وذكر البلاذري في انساب الاشراف من شيوخ ابي مسعود كلاً من عوانة (١/ ٤٩٣ ، ١٤٦/٥ – ٢٨١) وعلي بن هاشم (٤١٤/١) ومالك بن انس (٤١٤/١) وابن ابي الاجلح (٤١٦/١) وابن الكلبي (٤٢٤/١) وغياث بن ابراهيم (٥–٩٩) وابن كناسة (١٧٣/٥) وعلي بن مجاهد (٢٦٣/٥) وكل هؤلاء من شيوخ ابن سعد مما يدل على ان ابا مسعود عاش في اوائل القرن الثالث الهجري .

وقد نقل البلاذري في فصل تمصير الكوفة سبع روايات عن هشام بن الكلبي ، غير انه لم يذكر فيما اذا كان هذا النقل من كتاب معين ام من السماع ، ومن المعلوم ان ابن الكلبي الف كتباً كثيرة في الانساب والبلدان وفي بعض الحوادث . ولم اجد المعلومات التي نقلها البلاذري عن ابن الكلبي في مخطوطتي انساب ابن الكلبي .

وقد نقل الهمداني في كتاب البلدان كثيراً مما اورده البلاذري عن خطط الكوفة(٤٤) كما نقل ياقوت في معجم البلدان عن البلاذري ايضاً ، ولكنهما لم يصرحا بذكر البلاذري اما الطبري فقد خصص لتأسيس الكوفة اربع عشرة صفحة (٤٥) واعتمد في كلامه بالدرجة الاولى على سيف بن عمر الذي اعتمد بدوره على محمد وطلحة وعمر وسعيد والمهلب في اربع روايات ، وفي رواية خامسة عن زياد بدل المهلب ، ورواية سادسة لم يذكر المهلب ولا يزيد .

وقد اعتمد سيف في روايتين على ابن شبرمة الذي اعتمد بدوره على الشعبي وفي رواية على مخلد بن نسير عن ابيه النسير بن ثور .

وفي رواية عن عطاء ابي محمد مولى اسحق بن طلحة .

وفي رواية عن عمر بن عياش اخي ابي بكر بن عياش عن ابي كثير .

وقد نقل الطبري ايضاً رواية بسند عن (محمد بن عبد الله بن صفوان عن امية

ابن خالد عن ابي عوانة عن حصين بن عبد الرحمن) ، ورواية عن الواقدي ، ورواية عن عطية بن الحارث .

وقد تكلم في هذه الصفحات عن اختيار موقعها ، وتأسيس المسجد الجامع وتقسيم الخطط على العشائر ، وبعض الدور فيها . ان عدد هذه الصفحات المخصصة لتأسيس الكوفة يعادل نصف عدد الصفحات التي خصصها لتأسيس بغداد .

ومن المعلوم ان تاريخ الطبري يهتم بالحوادث السياسية ، وانه اورد اوسع التفاصيل عن الحوادث التي ساهم بها اهل الكوفة وخاصة في العصر الاموي الذي كانت فيه الكوفة المركز الرئيسي لتلك الحوادث . وفي ثنايا الاخبار عن هذه الحوادث وردت معلومات متناثرة ، ولكنها قيمة ، عن تطور الكوفة وسكانها من العرب وقبائلهم وكبار رجالهم .

والمصادر الرئيسة التي اعتمد عليها الطبري في هذه الاحداث هم ابو مخنف وعلي بن محمد المدائني (٤٦) .

٥ـ الخصائص والمفاخرات واهميتها في دراسة تاريخ الكوفة :ـ

لفتت انظار العرب خصائص المدن والاقاليم ، سواء في الاحوال المناخية ، او الاخلاقية او المادية ؛ وهذه الخصائص تكشف التنوع والاقليمية في الاجزاء المكونة للدولة الاسلامية . وقد وصلتنا نصوص متعددة عن خصائص بعض المدن والاقاليم التي يشملها العالم الاسلامي ؛ وهي تصف هذا التنوع في العصر الساساني وفي العصر الاسلامي .

نقلت المصادر العربية نصوصاً منسوبة الى كعب الاحبار وصف فيها خصائص الاقاليم للخليفة عمر بن الخطاب والى ابن القربة ذكرها للحجاج ، ثم الى الجاحظ الذي اهتم بذكر خصائص منتوجات الاقاليم . وقد رددت المصادر ذكر نصوص

عن خصائص المدن والاقاليم دون ذكر مصادرها .

وقد ترددت هذه النصوص في الكتب وخاصة في عيون الاخبار لابن قتيبة (٤٧) ونهاية الارب للنويري (٤٨) ، غير ان اوسع من نقل نصوصاً في ذلك هو كتاب لطائف المعارف للثعالبي (٤٩) ، وكتاب البلدان لابن الفقيه (٥٠) .

اما المفاخرات فهي تذكر بعض الخصائص التي تميز المدينة ، وهي تختلف عن الفضائل من حيث انها لاتقتصر على ابراز الجانب الديني والخلقي ، بل تشمل عادة جوانب الحياة المادية والدنيوية وما يتصل بها من الاحوال السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية وهي تبرز بعض الجوانب الممدوحة ، وكثيراً ماتذكر عيوب المتافسين لها .

والمفاخرات معروفة عند العرب منذ العصر الجاهلي ، وقد اشار القرآن الكريم بمعرض الذم الى تفاخر الجاهليين بالآباء (سورة الحديد ٢٠) وقد تابع العرب مفاخراتهم بعد الاسلام ؛ وابرز مظاهرها النقائض التي كانت تقوم بين الشعراء واشهرها نقائض جرير والفرزدق ، ونقائض جرير والاخطل .

وقد الف العرب كتباً في المفاخرات ذكر منها ابن النديم « مفاخرة العرب والعجم » (٥١) ومفاخرة العرب ومفاخرة القبائل في النسب لعمر بن المطرف (٥٢) ومفاخرة الورد والنرجس لاحمد بن ابي طاهر (٥٣) .

وقد ذكر ابن النديم كتاب « مفاخرة اهل البصرة واهل الكوفة » للهيثم بن عدي (٥٤) ، وهو كتاب مفقود ، ولم تشر اليه المصادر التي نقلت المفاخرات .

غير ان اهتمام الهيثم بن عدي بالتاريخ دون الادب ، يحملنا على الاعتقاد بانه نقل فيه اخبار المفاخرات ، ولعله ذكر ايضاً معلومات تؤيد مفاخر كل من

ومفاخرات الكوفة التي وصلتنا جرت كلها مع البصرة ، وقد روى بعضها في المدينتين .

عيون الاخبار لابن قتيبة ، وكتاب البلدان لابن الفقيه ، ومعجم البلدان لياقوت

وقد حدثت بداياتها في عهد مصعب بن الزبير ، ثم حدثت ايضاً في عهد عبد الملك ابن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وهشام بن عبد الملك ، وابي العباس السفاح ، والمأمون .

ان هذه المفاخرات تعبر عن الروح المحلية ، وتظهر تمكن رابطة المدينة ، وتلقي ضوءاً مهماً على خصائص الكوفة ومميزاتها والطابع العام لها .

٦ـ كتب الجغرافية :ـ

نقصد بكتب الجغرافية الكتب التي تعني بوصف البلدان والمواصلات بينها ومنتوجاتها وهي اما كتب وصف او كتب رحلات ، فهي تختلف عن الكتب المفردة لبلد واحد من حيث انها تصف عدة مدن واقاليم ، ولا تقتصر على واحد منها ، كما انها تهتم بوصف الاحوال القائمة في زمن تأليفها بالدرجة الاولى ؛ علماً بان بعضها يتطرق الى ذكر احوالها السابقة .

لقد الف العرب عدداً من الكتب في البلدان وما يتصل بها ، ذكر منها ابن النديم للاصمعي وابن الكلبي والحسن بن محبوب السراج وابنه احمد والكندي وابي حنيفة الدينوري وابي الوزير عمر بن المطرف وابن ابي عون وكتباً في المسالك والممالك لاحمد بن الحارث الخراز والجيهاني والسرخسي والمروزي والبرقي (٥٥) غير ان هذه الكتب كافة مفقودة .

ومن اهم واقدم ما وصلنا هو كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وهو كتاب « تاريخ » من حيث انه يتكلم عن الفتوح والاحداث التي مرت بالعالم الاسلامي

ولكنه مرتب على المدن والبلاد ، وفيه معلومات قيمة عن الخطط والسكان والادارة ، وقد تحدثنا عن الفصل الذي كتبه عن الكوفة . وقد نقل عن الفتوح كثيراً كل من قدامة بن جعفر في كتاب الخراج ، وياقوت في معجم البلدان .

وقد وصلنا من كتب الرحلات التي بحثت الكوفة رحلات ناصري خسرو وابن جبير ، وابن بطوطة .

اما كتب وصف البلدان فمن اقدمها واهمها كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، الذي اهتم بالمواصلات والجبايات والاقسام الادارية ، واعتمد فيما يظهر على سجلات الدواوين من المعلومات « الرسمية » ؛ فمعلوماته مفيدة في ذكر احوال منطقة الكوفة ، اما الكوفة ذاتها فلم يتطرق اليها .

ومن هذا النمط المنزلة السابقة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، ويبدو ان قدامة نقل المعلومات التي اوردها في هذه المنزلة عن ابن خرداذبة ، فهي متطابقة في نطاقها ومتشابهة في مادتها .

ومن الكتب الجغرافية العربية كتاب المسالك والممالك للاصطخري ، الذي اخذه ابن حوقل حرفياً ، مع اضافات قليلة في الكلام عن بعض الاقاليم ؛ وقد اتهمت عدة مصادر الاصطخري بأخذه مادة كتاب ابي زيد البلخي المفقود ، وأياً كان مؤلف الكتاب ، فانه يقدم معلومات واسعة مستجدة من الدواوين عن فارس والمشرق ، اما عن العراق فان معلوماته وصفية ، وفيه ملاحظات قيمة عن الاحوال في القرن الثالث الذي الف فيه الكتاب .

اما المقدسي فان معظم المعلومات التي اوردها في كتابه « احسن التقاسيم »عن العراق عامة ، والكوفة خاصة تعتمد على ملاحظاته الشخصية التي اكتسبها من رحلاته ؛ وفي كلامه القصير عن الكوفة معلومات قيمة عن خططها واحوالها في

اواخر القرن الرابع الهجري .

وفي كتاب البلدان للجاحظ ملاحظات قيمة عن الانحطاط الذي اصابها في اواسط القرن الثالث الهجري .

ولليعقوبي اهمية خاصة في دراسة البلدان : اذ انه يظهر في كتابه الجغرافي اهتماماً خاصاً بالاحوال البشرية والاقتصادية ، وقد خصّ الكوفة بتفصيل ذكر فيه خططها والبيوت والقصور الرئيسة فيها في العهود الاولى ، ومعلومات اوسع من التي اوردها الطبري في تاريخه .

اما ابن الفقيه فقد جمع في كتابه « البلدان » مادة واسعة عن الكوفة ، شملت مقداراً كبيراً نقله عن البلاذري ، ومناظرات بين الكوفة والبصرة لم يذكر مصدره الذي نقلها عنه ، وفي مخطوطة مشهد من الكتاب معلومات اضافية واسلوب في العرض يختلف عما في النسخة المطبوعة .

٧ـ كتب النسب :ـ

وفي بعض كتب النسب مادة قيمة تفيد في معرفة تاريخ الكوفة .

لقد الف العرب منذ اوائل القرن الثاني كتباً عديدة في انساب القبائل عموماً ، او في نسب قبيلة ، وفي المثالب والمآثر والمفاخر والغارات والبيوتات ، وقد فقدت معظمها (٥٦) . ومن اقدم ماوصلنا كتاب النسب لهشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وهو لما يزل مخطوطاً ومنه نسختان احداهما في الاسكوريال ، والثانية في المتحف البريطاني بلندن ، كما وصلنا ملخص للكتاب عمله ياقوت الحموي .

فاما نسخة الاسكوريال فتشمل نسب قبائل ربيعة ، وهي بكر وعشائرها ، وتغلب ، وكندة وعشائرها ، وطي ، ومذحج ، والنخع ، وجعفى ، وجنب ، ومراد ، والاشاعرة ، وقسر ، وخثعم ، والازد . اما نسخة لندن فهي اشمل فيما تذكره

من قبائل ، ولكنها مقتضبة وفيها اضافات من محمد بن حبيب .

يذكر ابن الكلبي القبائل والعشائر والبطون ، ويورد اسماءهم مسلسلة ، واسماء امهات اصحاب البطون وعدداً محدوداً من رجال كل منهم ، وبعض الحوادث البارزة التي اسهموا فيها والمناصب التي اشغلوها في الاسلام . ويشير الى تداخل بعض العشائر والبطون ، وتتناول بعض معلوماته الحوادث في الجاهلية وقبيل الاسلام . الا ان اغلبها عن الحوادث بعد الاسلام ، وخاصة القادسية وصفين ، وهو يشير الى من كان شريفاً او من كان فقيهاً .

ويذكر ابن الكلبي مواطن بعض المجموعات التي ذكرها ، وخاصة في الكوفة ويشير الى مواطن بعضها في البصرة والجزيرة وبلاد الشام وفلسطين ، ثم مصر . غير ان اوسع اشاراته الى الكوفة حيث يذكر خطط بعض عشائرها ودور بعض رجالها ومساجد بعض بطونها وهذه المعلومات التي ذكرها عن الكوفة ، اوسع بكثير مما ذكره عن المناطق الاخرى ، مما يدل على علاقته الوثقى بالكوفة .

ويبدو من المعلومات التي وردت في كتاب النسب ان ابن الكلبي يهتم بالعلاقات الاجتماعية وبعض الاحوال السياسية والادارية ، وانه لم يهتم بالاحوال الاقتصادية او العقائد حيث لم يشر اليها : كما انه اهتم « بالشعب » فلم يشر الى الخلفاء وكبار الاداريين واعمالهم ؛ ومن الطبيعي انه اختار طبقة خاصة من الناس ، هي التي كان لها دور في الحياة العامة ؛ ولم يدخل الموالي . بل حتى فيما يتعلق بالكوفة لم يقدم صورة كاملة لعشائرها ومواقع خططها ، فضلاً عن مكانتها وعلاقتها ببعضها.

وقد الفت ايضاً كتب بحثت في النسب ، ورتبت مادتها تبعاً لحروف المعجم ، واهتمت بالدرجة الاولى بضبط الاسماء المتشابهة او المتقاربة في رسمها ، وغرضها الرئيسي فيما يظهر مساعدة الباحثين في علوم الحديث خاصة

على ضبط اسماء رواة الحديث ورجاله واصولهم (٥٧) واقدم نموذج لهذه الكتب هو كتاب المؤتلف والمختلف لمحمد بن حبيب وهو كتاب صغير فيه ذكر لاسماء عدد كبير من القبائل ، ومعلوماته مقتضبة ، وبحثه استمرار لبحوث النسابين (٥٨) .

ومن اقدم الكتب واوسعها في هذا الميدان كتاب ابن ماكولا (ت ٥٦٢هـ) وقد طبعت منه ستة اجزاء ، رتب فيه مادته من حيث العموم على حروف المعجم ، وفيه معلومات وافية عن كثير من القبائل وابرز رجالها الذين يحملون اسماءها ، وقد نقل فيما يتعلق بقبائل الكوفة نصوصاً كثيرة من ابن الكلبي ، ومحمد بن حبيب ، وشبل ، ويمكن ان نستنبط منه بعض العشائر التي استوطنت الكوفة من ذكره الصريح لذلك في بعض المواضع ، او من كثرة الكوفيين الذين يشير الى انهم منسوبون الى عشيرة معينة .

ومن الكتب المهمة المكتوبة على هذا الطراز هو كتاب الانساب للسمعاني (ت ٥٦٢) الذي رتب مادته على حروف الحجاء ، وشمل بحثه النسبة الى الاماكن والحروف والعشائر ، وقد اعتمد في تعريف العشائر على ابن الكلبي وابن حبيب وذكر ابرز رجال كل عشيرة وخاصة في علوم الحديث لاريب في ان المعلومات التي اوردها في المنتسبين الى الحرف ذات اهمية في معرفة العلاقة بين رجال العلم والحياة الاقتصادية .

وقد لخص ابن الاثير كتاب الانساب واستدرك عليه باضافات وتصليحات قيمة ولكنها لاتفيد في بحث الكوفة . كما لخص السيوطي كتاب ابن الاثير وسماه (لب اللباب) ، وهذان الكتابان مطبوعان .

وقدالفت في القرون المتأخرة عدة كتب في المشتبه ، ولكن معلوماتها عن الكوفة مقتضبة .

٨- كتب الرجال و التراجم :

نقصد بكتب الرجال الكتب التي تختص بايراد المعلومات عن الرجال ومكانتهم واعمالهم ؛ وهي تختلف عن كتب النسب من حيث ان هذه تهتم بالعشائر ، وترتب الرجال الذين تذكرهم تبعاً لعشائرهم ، فهي تفيد بالدرجة الاولى في معرفة الجماعات التي استوطنت الكوفة ، او غيرها من المدن ؛ وبذلك تورد المعلومات عن الرجال بصورة عريضة . اما كتب الرجال فتهتم بالدرجة الاولى بذكر الاشخاص وتقدم المعلومات عن احوالهم ومكانتهم ، وقد تذكر نسبتهم ، ولكن الكلام عن النسبة في هذه الكتب عرضي .

وقد الفت في التراجم والرجال كتب كثيرة تختلف في سعتها وعدد أو صنف الرجال الذين تذكرهم ، او في ترتيب عرض الرجال الذين تذكرهم . وقد عني علماء الحديث بصورة خاصة بالتأليف في كتب الرجال لان السند القائم على الرجال من رواة الحديث ، كان من اهم مصادر توثيق الحديث عندهم .

ولما كانت الكوفة من اهم مراكز علم الحديث . وقد ساهم كثير من رجالها فيه ، لذلك حوت كتب علم الرجال على معلومات عن عدد كبير من رجال اهل الكوفة ، ومعلومات عن عشائرهم واعمالهم ومدى توثيقهم (٥٨) .

وتختلف كتب الرجال في تصنيف مادتها ، فبعضها مرتب على الانساب ، وبعضها على الالقاب ، وبعضها على المدن ، اوعلى الطبقات اي تبعاً لزمن ظهور هؤلاء الرجال . وقد تجمع بعض الكتب اكثر من اساس واحد للترتيب . ومن اقدم ما وصلنا من كتب الرجال « كتاب الطبقات » لخليفة بن خياط الذي ذكر

فيه عدداً كبيراً من محدثي الكوفة في القرن الاول والثاني الهجري (٦٠) ؛ ويتلو هذا الكتاب في الزمن كتاب الطبقات الكبير لابن سعد .

٩ــ كتاب الطبقات لابن سعد :ــ

ان كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد هو من اقدم واوسع الكتب المؤلفة في التراجم ، وهو يتكون من تسعة اجزاء مرتبة تبعاً للاماكن والازمنة ؛ وقد بحث في الجزئين الاول والثاني عن سيرة الرسول ، وخصص الجزء الثالث والرابع والخامس لاهل المدينة ، والجزء السادس للكوفيين ، اما الجزء السابع فمعظمه لاهل البصرة ، وقليل منه لاهل الشام و بغداد وخراسان ، والجزء الثامن للنساء .

وقد رتبت تراجم كل مصر طبقات حسب الزمن ، فهو يبدأ بالصحابة ممـــن صاحبوا الرسول او لقوه او عاشوا في عصره ، ثم التابعين من الجيل الثاني ، ثم تابعي التابعين . ويدل هذا الترتيب على استقرار مبدأ تفضيل الاقدمين على المتأخرين وكان هذا المبدأ هو الاساس الذي اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب في تنظيم مقدار العطاء ؛ مدفوعاً الى ذلك بظروف خاصة تقضي بتفضيل الذين حاربوا مع الاسلام في السنوات الاولى التي لم يكن النصر قد اتضح واستقر . ولا بد أن اعمالهم من اجل الاسلام وتفضيلهم في العطاء قد اكسبهم مكانة « رسمية » عالية في المجتمع ، ثم اصبح الناس تدريجياً يرونهم من الاشراف ثم اسبغت الاوساط الدينية عليهم صفة دينية ، فاعتبرتهم ، ــ او اكثرهم ــ صحابة ، واوردت اخباراً صحيحة او مختلقة عن صلاتهم الشخصية بالرسول ؛ وبذلك كونوا الطبقة الاولى ، لا لانها اسبق في الزمن فحسب ، بل لان لها المكانة الاولى في نظر هذه الاوساط التي ينتمي اليها ابن سعد .

وتتميز الكوفة بالعدد الكبير الذي جاءها وسكنها ممن صاحبوا الرسول وشاركوا في

غزواته ولما كان معظم هؤلاء من اهل المدينة ، فقد حدث في كتاب ابن سعد تداخل في تراجم اهل المدينة الذين استقروا في الكوفة ، وقد ترجم لكثير منهم في مكانين ، اي في الاجزاء الخاصة باهل المدينة وفي الجزء الخاص بالكوفيين ؛ ومن الطبيعي ان اوفى الترجمتين هي في الاجزاء المتعلقة باهل المدينة .

وتختلف تراجم الجزء السادس في مقدار ماخصص لكل منها من صفحات ، فبعض الاشخاص خصص لهم حوالي عشر صفحات ، ولكن الاغلبية المطلقة من تراجمه التي تبلغ (١٠٢٩) ترجمة في هذا الجزء ، لاتتجاوز نصف صفحة ، وبعضهم لم يخصهم باكثر من سطر او سطرين .

وقد ذكر ابن سعد اسم عشائر كثير من الذين ترجم لهم ، كما اورد شجرات نسب بعضهم واشار في تراجم بعضهم الى الخطط التي كانوا يسكنونها ، والعلوم التي ساهموا فيها ، وبعض احوالهم الشخصية كالبستهم ومأكولاتهم واستعمالهم للخضاب والاصباغ . واكثر الذين ذكر عشائرهم او انسابهم من اهل الطبقة الاولى والثانية ، اما اهل الطبقات التالية فنادراً ما يذكر عشائرهم ؛ ولم يشر الى الموالي منهم ، حتى انه يصعب معرفة العربي من المولى فيهم .

ويمكن ارجاع الاكثار من ذكر عشائر الطبقات الاولى واهمال ذكرها في المتأخرين الى ان النظام القبلي في الكوفة كان في العهود الاولى متمكن الجذور ، قوي الاثر ، فكان لذكر العشيرة اهمية وضرورة ، غير ان مكانته واثره ضعفا في العهود المتأخرة ، فلم تعد له اهمية ، وخاصة في الاوساط الدينية التي ينتمي اليها ابن سعد ، فلم تبق حاجة الى ذكرها . ثم ان الموالي كان عددهم كبيراً ، وامتزجوا في الاوساط الدينية ، التي لم تكن تهتم بتمييزهم لدرجة لم تعد حاجة لذكرهم الذي قد يستغله البعض لاهانتهم .

واهتمام ابن سعد بتراجم الافراد يظهر تحرر الفرد من هيمنة العشيرة ، في الاوساط الدينية على الأقل ، غير ان تنظيم الطبقات يدل على ان ابن سعد كان يدرك ان الفرد كان لايزال يعيش ضمن جماعة ، هي الطبقة التي اخذت تحل محل القبيلة في هذا العصر .

ومن الطبيعي انه توجد تكتلات اخرى من الممكن ان ينضوى اليها الافراد ومنها التكتلات السياسية ، كالاحزاب والفرق ، والتكتلات الاقتصادية والاجتماعية القائمة على الحرف ، غير ان ابن سعد لم يهتم بها ، فهو نادراً مايذكر الاتجاه السياسي لمترجميه او حرفهم ، كما انه لم يهتم بمن ساهم في السياسة والادارة فلم يترجم الا لمن كان مرضياً في الاوساط الدينية منهم ، كالخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن مروان ، والقواد والولاة الاولين ، اما الخلفاء الامويون وقوادهم وولاتهم فلم يذكرهم ، كما انه لم يذكر البارزين في اية حرفة ودورهم فيها ؛ ولعل ذلك راجع الى ان الكوفة لم تعد تساهم في الاحداث السياسية ولم يكن لها دور كبير في الحياة الاقتصادية في القرن الثالث الهجري الذي الف فيه ابن سعد كتابه ؛ بل اصبحت مركزاً فكرياً بالدرجة الاولى ، ويؤيد هذا ان الكوفة لم تساهم في احداث كبيرة في القرن الثالث الهجري .

اهتم ابن سعد بعلم الحديث والقرآن فخص علماءهما بتراجم مفصلة نسبياً ، وقد ذكر اسماء الرواة الذين نقل عنهم ، كما ذكر مسانيد كثير من هؤلاء الرواة ؛ ويبلغ عدد شيوخه الذين روى عن كل منهم نصين فاكثر مائة وعشرين شيخاً ، الامر الذي يمكن اعتبارهم كوفيين ؛ وبالاضافة الى ذلك فقد روى عن خمسين آخرين رواية واحدة ؛ ولعل هؤلاء ايضاً كوفيون . وبهذا يكون ابن سعد قد نقل عن حوالي مائة راو كوفي ؛ اي انه قدم اوسع مجموعة من رواة اهل الكوفة ، وبهذا

يتميز ابن سعد على الكتب الكثيرة عن رجال الحديث التي تتسم بالاقتضاب وبالاهتمام بتقييم هؤلاء الرجال في الرواية ، وبانها فيما توردة من اسماء بتتبع الترتيب الابجدي ، وكثيراً مالاتذكر المدن التي ينتسب اليها الرواة ، الامر الذي يولد صعوبة كبيرة في حصر الرواة الكوفيين .

ان ترتيب ابن سعد يشبه الترتيب الذي اتبعته بعض الكتب مثل « مشاهير علماء الامصار » للبستي الذي رتب تراجمه تبعاً لمدنهم ، ولكن يلاحظ ان معلومات البستي مقتضبة ، وهي تركز على مكانة المترجم لهم في علم الحديث او الفقه .

ان العدد الكبير من الرواة الكوفيين عند ابن سعد ، يظهر مدى ازدهار علم الحديث في الكوفة ، وان هؤلاء الرواة معتمدون عند علماء الحديث من اهل السنة ، مما يدل على ان العلم في الكوفة كان يتسم بسمة خاصة مميزة . وستكون هذه السمات موضوع بحث مستقل نرجو ان ننشره في القريب .

لم تذكر المصادر من الف من رواة ابن سعد كتاباً سوى هشام ابن الكلبي ويحيى ابن آدم ، الامر الذي يظهر ان الحركة الفكرية فيها كانت قائمة على الرواية والسماع دون التدوين والكتابة .

واكثر من نقل عنه ابن سعد هو الفضل بن دكين (ت ٢١٩) ، فقد نقل عنه حوالي ٢٨٠ نصاً عن مختلف رجال اهل الكوفة ؛ وهذا العدد الكبير من النصوص يكون بمجموعه كتاباً غير انه لم يذكر احد من المصادر ان الفضل الف كتاباً عن الكوفة سوى مؤلف واحد من رجال القرن الحادي عشر الهجري .

وقد اعتمد الفضل بن دكين بدوره على عدد من الشيوخ اهمهم سفيان (بن سعيد الثوري ؟ ت ١٦٣) (٥٢) ، وشريك بن عبد الله النخعي ت ١٧٨ (٣٧) وابو اسرائيل (١٧) وحنش بن الحارث (١٣) والحسن بن صالح الهمداني ت ١٦٩ (١٠)

وقيس بن الربيع الاسدي ت ١٦٨ (١٠) كما نقل عن فطر بن خليفة ت ١٥٣ (٩) ومالك بن مغول البجلي ت١٥٨ (٨) ويونس بن (ابي) اسحق الهمداني ت١٥٩ (٧) وحفص بن غياث النخعي ت ١٩٤ (٧) فضلاً عن روايات مفردة لعدد غير قليل من الرواة . والواقع ان الفضل بن دكين هو الراوية الرئيس لهؤلاء الشيوخ .

ونقل ابن سعد عن عفان بن مسلم ت ٢٢٠ حوالي مائة نص ، واكثر من نقل عنهم عفان في هذا الجزء هم شعبة (بن الحجاج مولى الاشاقر ت ١٦٠) (٢٤) وحماد بن سلمة مولى تميم ت ١٦٧ (١٣) وحماد بن زيد مولى الازد ت ١٧٩ (١٢) وابو عوانة الواسطي ت ١٧٦ (١٣) وعبد الواحد بن زياد مولى عبد القيس ت ١٧٧ (٩) وكل هؤلاء يعتبرون في عداد البصريين .

ونقل ابن سعد عن محمد بن عبد الله الاسدي ت ٢٠٣ ؛ وقد نقل الاسدي بدوره عن شيوخ كثيرين ، وخاصة سفيان بن منصور (١٥) والاعمش ، وهو سليمان بن مهران مولى بني اسد ت ١٤٨ (٨) وابيه .

ويتلو هؤلاء في عدد النصوص التي نقلها عنهم ابن سعد في الجزء السادس هو قبيصة بن عقبة السوائي ت ٢٠٣ ، وقد نقل ابن سعد عنه ثلاثة وسبعين نصاً كلها تقريباً عن سفيان .

ونقل ابن سعد في الجزء السادس عن احمد بن عبد الله بن يونس مولى بني يربوع ت ٢٢٧ اثنين وسبعين نصاً ؛ واكثر مانقل عن زهير بن معاوية الجعفي ت ١٧١ (٢٥) وابي بكر بن عياش مولى بني اسد ت ١٩٣ (٢٤) وابي شهاب (١٤) واسرائيل بن يونس بن ابي اسحق الهمداني ت ١٦٢ (٦) ومندل بن علي العنزي ت ١٦٨ (٦) وابي الاحوص عوف بن مالك (٤) .

ونقل ايضاً عن وكيع بن الجراح الرواسي ت١٩٧ واحداً وسبعين نصاً معظمها

عن سفيان (ت١٦٢) والاعمش (ت ١٤٨) ومسعر بن كدام الهلالي (ت ١٥٣) واسماعيل بن ابي خالد مولى بجيلة (ت ١٤٥) .

ونقل ابن سعد عن عبيد الله بن موسى مولى بني عبس (ت ٢١٣) تسعة وستين نصاً معظمها عن اسرائيل بن يونس الهمداني (ت ٢٦٢) ، والبقية عن عدة رواة .

ونقل عن عارم بن الفضل مولى بني سدوس ت ٢٢٤ واحداً واربعين نصاً كلها تقريباً عن حماد بن زيد .

ونقل عن يزيد بن هارون مولى بني سليم (ت٢٠٦) ثلاثة وثلاثين نصاً منقولة بدورها عن طلق بن غنام (٢٣) وشعبة (٧) وسفيان (٦) .

ونقل ابن سعد عن كل من هشام بن عباد (٢٠) ومحمد بن غزوان بن الفضيل (٢٠) وعبد الله بن نمير الهمداني ت ١٩٨ (١٧) وهشام بن عبد الملك الطيالسي (١٩) ويعلى بن عبيد الطنافسي ت ٢٠٩ (١٦) ويحيى بن عباد (١٥) ووهب بن جرير ت٢٠٧ (١٥) وعمرو بن الهيثم (١٤) وعبد الله بن ادريس الأودي ت ١٩٢ (١٣) وعبد الوهاب بن عطاء توفي بعد المائتين (١١) وعلي بن عبد الله بن جعفر (١٠) .

وتبلغ عدد النصوص التي نقلها عن كل من يحيى بن آدم مولى آل ابي معيط ت ٢٠٣ (٩) وعبد الرحمن بن محمد المحاربي ت ١٩٥ (٩) وعبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني (٩) ، وعبد الرحمن بن مهدي ت ١٩٨ (٨) .

ونقل سبع روايات عن كل من عبد الملك بن عمرو العقدي ت ٢٠٥ واسحق بن منصور وست روايات عن كل من عبد الله بن جعفر الرقي ، ومحمد بن الصلت وعبد الله بن الزبير الحميدي وخمس روايات عن كل من حفص بن غياث النخعي ت ١٩٤ ، ويحيى بن حماد ، ومحمد بن عبد الله بن نمير ، وعمر بن سعد الحضرمي ، وعمرو بن عاصم الكلابي ، وابي خيثمة وهو زهير بن حرب ت ٢٣٤ .

وثلاث روايات عن كثير بن هشام ت ٢٢٨ ، ويحيى بن ابي بكر ، وعمرو بن عبد الله المنقري .

وبالاضافة الى ماذكرنا ، فقد نقل ابن سعد في الجزء السادس عن رواة اعتمد عليهم في الاجزاء الاخرى ايضاً ، ونذكر فيما يلي هؤلاء الرواة ومقدار النصوص التي نقلها عن كل منهم في الجزء السادس فقط :ـــ

سليمان ابو داود الطيالسي مولى بني اسد ت ٢٠٤ (٢٧) ومالك بن اسماعيل النهدي ت ٢١٨ (٢٥) والحسن بنموسى الاشيب ت ٢٠٩ (٢٥) ومحمد بن عبيد الطنافسي ت ٢٠٥ (٢٤) وسفيان بن عيينة (٢٢) واسماعيل بن ابراهيم الاسدي ت ١٩٤ (٢٠) ومحمد بن غزوان بن الفضيل (٢٠) وابو معاوية الضرير (١٩) ومحمد بن عبيد الله الانصاري ت ٢١٥ (١٨) ويزيد بن هارون (١٧) وسعيد بن منصور (١٢) وروح بن عبادة ت ٢٠٥ (١٢) والنضر بناسماعيل (١٢) واسحق ابن يوسف الازرق ت ١٩٥ (١٢) ويحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير (١١) والحجاج بن محمد الاعور ت ٢٠٦ (١١) وموسى بنمسعود النهدي ت ٢٢٠ (١٠) ومؤمل (٨) وهشام بن محمد الكلبي (٦) . ونقل خمس روايات عن كل من جرير بن عبد الحميد الضبيت ١٨٨ وخلاد بن يحيى ، واربع روايات عن كل من يحيى ابن سعيد القطان ت ١٩٨ ، ومحمد بن ربيعة الكلابي والمعلى بن اسد القمي ت ٢١٩ ، وخلف بن تميم بن مالك ، كما نقل ثلاث روايات عن حفص بن عمرو مولى بني عدي ت ٢١٥ ، ويحيى بن عيسى الرملي ، ومحمد بن ابي بكر وعبد الله ابن محمد بن ابي شيبة ، والحجاج بن نصر البصري ، ومعن بن عيسى مولى اشجع ت ١٧٨ ويحيى بن سعيد بن ابان . وبالاضافة الىذلكفقد نقل روايتين عن كل من ثمانية شيوخ ورواية واحدة عن كل من ثمانية وعشرين شيخاً .

ان الرواة الذين نقل عنهم ابن سعد في الجزء السادس اعتمد كل منهم على شيوخ يزيد عددهم على ٢٠٠ واكثر هؤلاء الشيوخ نقل عنهم اكثر من واحد . واكثر من نقل الرواة عنهم هم سفيان وشعبة ، واسرائيل ، والاعمش ، وزهير بن معاوية .

فاما سفيان فقد ورد عنه ١٩٠ نصاً اكثرها عن طريق قبيصة بن عقبة (٧٤) والفضل بن دكين (٥٢) ووكيع بن الجراح (١٢) ومؤمل (٧) ويزيد بن هارون (٦)

واما شعبة (١٠٢) فاكثر رواته عفان بن مسلم (٢٨) ثم سليمان الطيالسي (١٠) وهشام بن عبد الملك الطيالسي (١٠) ويزيد بن هارون (٨) وعمر بن الهيثم (٧) وروح بن عبادة (٦) والحجاج بن محمد الأعور (٦) .

واما اسرائيل (٨٢) فاكثر رواته عبيد الله بن موسى (٤٤) ثم الفضل بن دكين (١٦) ووكيع بن الجراح (٩) ومالك بن اسماعيل النهدي (٧) .

اما الاعمش (٦٤) فرواته موزعون منهم وكيع بن الجراح (٩) والنضر بن اسماعيل (٩) وعبد الله بن نمير (٧) وموسى بن مسعود (٥) .

واما زهير بن معاوية (٤١) فرواته الحسين بن موسى الاشيب (٢٠) واحمد بن عبد الله بن يونس (١١) والفضل بن دكين (٥) واسحق بن منصور (٥) .

ومن الشيوخ الذين نقل عنهم رواة ابن سعد ابو عوانة (٣٢) واكثر من نقل عنه عفان بن مسلم (١٣) وشريك (٢٧) واكثر من نقل عنه الفضل بن دكين (٢٧)

وحماد بن زيد (٢٢) واكثر من نقل عنه عفان بن مسلم (١٢) .

ومالك بن مغول (٢٢) واكثر من نقل عنه الفضل بن دكين (٨) .

وابن عون (٢٢) واكثر من نقل عنه محمد بن عبد الله الانصاري (١٠) وروح ابن عبادة (٥) ويونس بن ابي اسحق (١٨) واكثر من نقل عنه الفضل بن دكين (٧) ومالك بن عبد الله (٦) .

وحماد بن سلمة (١٧) واكثر من نقل عنه عفان بن مسلم .

واسماعيل بن ابي خالد (١٥) واكثر من نقل عنه وكيع بن الجراح (٥) ومحمد ابن عبيد الطنافسي (٥) .

ان بعض شيوخ ابن سعد من الفقهاء الذين نقلت عنهم بعض الكتب الفقهية نصوصاً فقد نقل ابو عبيد في كتاب الاموال عن كل من الفضل ابن دكين (١٠ نصوص) وقبيصة بن عقبة (٩ نصوص) ومحمد بن عبيد الطنافسي (٥ نصوص) واسماعيل بن ابراهيم الاسدي (٤٠ نصاً) وسفيان بن عيينة (٣٥ نصاً) وعبد الوهاب بن عطاء (٧ نصوص) واسحق بن يوسف الازرق (٥ نصوص) والحجاج بن محمد الاعور (١٠٤ نصوص) وحفص بن غياث (٨نصوص) وجرير بن عبد الحميد الضبي (١٩ نصاً) وكثير بن هشام (١٣ نصاً) وابو بكر بن عياش (١٣ نصاً) وسعيد بن محمد الثقفي (١٠) والوليد بن مسلم (١)

كما نقل يحيى بن ادم عن وكيع بن الجراح (١٠ نصوص) وعن سفيان بن عيينة (١٨ نصاً) وعن حفص بن غياث (٢٠ نصاً) وعن جرير بن عبد الحميد الضبي (١١ نصاً) وعن ابي بكر بن عياش (٣٤) .

صالح احمد العلي

---

(١) « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ »نشر في كتاب « علم التاريخ عند المسلمين » ص ٦٣٩ .
(٢) الذريعة ٢٨١/٣ .
(٣) الذريعة ٢٧٢/١٦ .
(٤) الذريعة ١٨٤/١٨ .
(٥) « ما طبع عن بلدان العراق » سومر م١٠ ج١ ص٥٢—٥٤ .
(٦) علم التاريخ عند المسلمين ٢٩١، ٣١٥ .
(٧) الرجال ٣٠٧ .
(٨) الاعلان بالتوبيخ ٦٣٩ .
(٩) الدرر الكامنة ٣٦٥/٢ط حيدر آباد .
(١٠) ذكر ابن النديم « ابن مجالد » من ضمن قائمة الوراقين (الفهرست ١٠ طبعة رضا تجدد) ونقل

ابو علي العلوي في كتابه فضل الكوفة اربعة نصوص عن عبد الله بن المجالد بن بشر (انظر ادناه) غير انه لم يذكر اسم كتاب عبد الله بن المجالد ، كما اني لم اجد فيما قرأته من الكتب معلومات عن هذا الرجل .

(١١) الفهرست ١٢٥ .

(١٢) انظر في ذلك مقالي « المؤلفات العربية عن الحجاز والمدينة » ص١٣١-١٣٤ مجلة المجمع العلمي العراقي م١١ سنة ١٩٦٤ . وتوجد قطعة من كتاب ابن شبة عن المدينة في مكتبه عارف حكمت بالمدينة المنورة . انظر مجلة العرب م٤ج٤ سنة ١٩٧٠ ص ٣٢٧ فما بعد . وانظر عن المقتطفات من بعض كتب ابن شبة في كتاب تاريخ المؤلفات العربية لفؤاد سزكين ١٧٣/١ (بالالمانية) .

(١٣) انظر عن ترجمة ابن النجار : تاريخ بغداد للخطيب ١٥٨/٢-١٥٩؛ المنتظم لابن الجوزي ٢٦/٧ ؛ ارشاد الاريب لياقوت ٤٦٧/٦ ؛ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ١١١/٢؛ شذرات الذهب لابن العماد ١٦٤/٢ ؛ علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ١٩٧ ؛ تاريخ التراث العربي لفؤاد سوزكين ٣٥٠/١ وسنشير اليه « سوزكين » .

(١٤) فرحة الغري ٥٧ وانظر ايضاً ١٠٦/٤٩ .

(١٥) انظر عن ترجمته شذرات الذهب ٢٧٤/٣ ، سوزكين ٣٥٠/١ .

(١٦) الفهرست ٩٢ .

(١٧) الفهرست ٢٨ .

(١٨) معالم الايمان ٦٥ .

(١٩) الرجال ١٩٦ .

(٢٠) انظر مثلا الرجال ٢١١،١٩١،٦٣،٢٤ .

(٢١) الفهرست ٩٢-٩٣ .

(٢٢) انظر عن ترجمته : النجاشي ٧٣- ٧٤ ؛ تاريخ بغداد ١٤/٥-٢٣ ؛ المنتظم ٣٣٦/٦-٣٧ ؛ ميزان الاعتدال ٦٤/١ لسان الميزان ٢٦٣/١-٢٦٦ ؛ تذكرة الحفاظ للذهبي ٥٥/٣ ؛سير اعلام النبلاء ٨٣/١ اعيان الشيعة ٤٢٨/٩-٤٤٤ سزكين ١٨٢/١ (بالالمانية) .

(٢٣) الرجال ٧٤ معالم العلماء ١٦ .

(٢٤) الرجال ٢٩٩ .

(٢٥) الفهرست ١٥٩ .

(٢٦) هذه الكتب وردت بالتتابع في كتاب الرجال ١٤/١٣٤/٩٥/٧٩/٢٩٢ .

(٢٧) الفهرست ٧٦ .

(٢٨) معالم العلماء ٥٤ .

(٢٩) الرجال ٩٥ .

(٣٠) معالم العلماء ٥٤ .

(٣١) الرجال ١٢٥ .

(٣٢) انظر عنه الفهرست لابن النديم ٢٢٤ الرجال ١٤—١٥ معالم العلماء ٣ ارشاد الاريب ٩—٢٩٤/٨ لسان الميزان ١٠٢/٢ اعيان الشيعة ٥/٠٣٥—٣ الاعلام ٣٦/١١ سوزكين ٣٢١/١ (بالالمانية)

(٣٣) انظر عن مواضع هذه المقتطفات في شرح نهج البلاغة ٥—١٤٤/١ ، ٧—١٥٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٦٤، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٨—٢٢/٢، ٥٠/٤٧ وانظر سوزكين ٣٢١/١ (بالالمانية) .

(٣٤) الفهرست ١١٢ .

(٣٥) اخبار القضاة ١٨٤/٢ فما بعد ١٩٩—١/٣ .

(٣٦) انظر عن مواضع ذكر هذه الكتب في فهرست ابن النديم وفهرست الطوسي القائمة التي نشرتها في كتاب « علم التاريخ عند المسلمين » ص ٢٧٣—٣١٦ .

(٣٧) شرح نهج البلاغة ٢٠٢/١ .

(٣٨) كذلك ١٩٥/١ ، ٢٠٢، ٢٠٣ ؛ ٤٩/٢—٥٠ .

(٣٩) كذلك ١٨٧/١ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢، ٢٠٥ ، ٢١٥ .

(٤٠) كذلك ٤٩/١ ، ٣٤٠ .

(٤١) كذلك ٧٧/٢ .

(٤٢) الفهرست ١١٢ .

(٤٣) فتوح البلدان ٢٧٤—٢٨٨ .

(٤٤) مختصر كتاب البلدان ١٨١ —— ١٨٤ .

(٤٥) تاريخ الطبري ٢٤٨٢/١—٢٤٩٦ .

(٤٦) انظر بحث الدكتور جواد علي « موارد تاريخ الطبري » .

(٤٧) عيون الاخبار ٢١٣/١—٢٢٢ .

(٤٨) نهاية الارب ٣٦٢/١ و يلاحظ ان كثيراً من نصوصه منقولة عن لطائف المعارف .

(٤٩) لطائف المعارف ٢٣٥—٨ .

(٥٠) مختصر كتاب البلدان ١١٤/٩٢ ، ١٨٦-٧/٢٠٩-٢١٢

(٥١) الفهرست ١٦٧ .

(٥٢) كذلك ١٤١ .

(٤٣) كذلك ١٦٣ .

(٥٤) كذلك ٣١٧ .

(٥٥) انظر عن اسماء هذه الكتب والصفحات التي ذكرت في كتاب الفهرست : علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٨٨ فما بعد .

(٥٦) انظر في ذلك علم التاريخ عند المسلمين ٢٩٧ فما بعد وانظر المقدمة التي كتبها زترستن لكتاب طرفة الاصحاب في معرفة الانساب .

(٥٧) انظر في هذه الكتب « بحوث في تاريخ السنة المشرفة » لأكرم العمري ص ١٧ فما بعد وانظر ايضاً « معرفة علوم الحديث » للحاكم النيسابوري ص ١٦١ فما بعد .

(٥٨) انظر عن هذه الكتب المقدمة التي كتبها الدكتور مصطفى جواد لكتاب « تكملة اكمال الاكمال » لابن الصابوني .

(٥٩) انظر المقدمة التي كتبها أكرم العمري لكتاب « الطبقات » لخليفة بن خياط ، انظر ايضاً «علم التاريخ عند المسلمين » لروزنثال ١٤١-١٤٨ .

(٦٠) «كتاب الطبقات» لخليفة بن خياط ص ١٢٦-١٧٣ طبعة أكرم العمري .

المعالم العمرانية في مكة المكرمة في القرنين الأول والثاني

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الأربعون - الجزء الأول
1409 - 1989

المعالم العمرانية في مكة المكرمة

في القرنين الاول والثاني

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

مكانة مكة وأهلها :

لمكة اهمية متميزة في تاريخ العرب والاسلام ، فكانت قبل الاسلام من أهم مراكز التجارة والدين ، وفيها ولد ونشأ الرسول (ص) ونزل عليه الوحي وقضى السنوات العشر الاولى بعد نزول الوحي يبشر بالدين الجديد ، فآمن به من اهلها من كان منهم جلّ السابقين الاولين والصحابة المهاجرين، كما لاقى المعارضة والعنت والاضطهاد من كثير من أهلها الى ان هاجر الى المدينة ، وقضى ثماني سنوات بعد الهجرة يناضل مشركي قريش الى ان تم فتحها وانضمت الى دولة الاسلام ، وآمن أهلهـا بالاسلام وقام رجالها بخدمته وتعزيز دولته فكان منهم الخلفـاء وأبرز القـادة والولاة كما أن اعداداً كبيرة منهم شاركت في الجيوش الاسلامية التي قاتلت في مختلف الجبهات وخاصة جبهة بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، بالاضافة الى اسهام عدد كبير منهم في الادارة والحياة الاقتصادية وانماء الحياة الفكرية .

ولا ريب في أن نمو المدينة المنورة بعد ان اصبحت قاعدة الرسول(ص) ومقام الخلفاء الراشدين أثر في مكانة مكة حيث انتقل عدد من أهلها ، وخاصة ذوى المكانة ، للاقامة في المدينة ، غير أن هذا عوضته مكانة مكة في الاسلام

حيث كانت فيها الكعبة قبلة المسلمين في صلواتهم الخمسة اليومية ، ومركز الحج الذي هو احد اركان الاسلام الخمسة . ولابد أن هذا أثار اهتمام الناس والمفكرين بها ، فبالاضافة الى الاعداد الكبيرة التي كانت تؤمها من مختلف الأرجاء لاداء فريضة الحج ، فان الفقهاء أولوا بعض معالمها المتصلة بالقبلة والحج اهتماماً خاصاً وتطرقوا الى بحثها في كتبهم الفقهية ، إضافة الى ما أولاه البلدانيون من عناية خاصة بوصفها .

التطورات بعد الاسلام :

ولا ريب في أن مجيء الاسلام أحدث تطورات واسعة في الأحوال العشائرية وتنظيماتها وخططها .

فمن ذلك أن عدداً من المهاجرين صودرت أملاكهم فأخذ ابو سفيان البيت الذي ولد فيه الرسول (ص) واخذ عقيل البيت الذي كان يسكنه الرسول (ص) ، وأخذ بنو سفيان دور آل جحش .

غير أن هذه الحوادث فردية ، فالمهاجرون افرادٌ من عشائر متعددة ، وعددهم غير كبير ، وحظي بعضهم بحماية عشيرته .

ثم ان عدداً غير قليل من أهل مكة ، وخاصة ذوى المكانة هاجروا الى المدينة بعد الهجرة ثم بعد الفتح واستقروا فيها . ومع ان كثيراً منهم احتفظ بعلاقته بمكة ، كابن الزبير ، والعباس ، وآل ابي العاص الا ان بعضهم اتخذ المدينة مقاماً دائماً ، وترك اقامته في مكة .

وشارك عدد غير قليل من أهل مكة في القضاء على حركات الردة وفي الفتوح الاولى ، خاصة في جبهة الشام ، فقتل بعضهم في المعارك ، واستقر بعضهم في الأقاليم التي امتدت اليها دولة الاسلام . وخاصة في الأمصار التي استوطنها العرب .

ولم تحتفظ مكة بعد الاسلام بما كان لها قبله من مركز متميز في التجارة العالمية ، ذلك ان مركزها كان قائما بالدرجة الاولى على الافادة من العداء

الروم والفرس ، فكانت باستقلالها ومهارة أهلها وموقعها الأمين مركزاً لنقل السلع بين الدولتين المتخاصمتين اللتين كانتا تهيمنان قبل الاسلام على معظم اقاليم الشرق الاوسط .

فلما جاء الاسلام وكوّن دولته الواسعة أزال الحدود الفاصلة القديمة وأحل السلم والأمن مكان الحروب والتقاطع ، وانمى مراكز جديدة للاستهلاك والنشاط الاقتصادي ، فحوّل أهل مكة نشاطهم الى هذه المراكز الجديدة ، واحتفظوا بالافادة منها ، ومع ان بعضهم جلب شيئا من ثرائه الى مكة ، الا أن هذا كان أقل مما السابق .

ولا بد ان الحج عوّض بعض هذا ، حيث انه لم يعد مقصوراً بعد الاسلام على العرب وانما اصبح فريضة على كافة المسلمين من كافة الأرجاء ، غير أنه يجب عدم المبالغة في أثر الحج في النشاط الاقتصادي في مكة ، فهو يتم في مدة محدودة قصيرة يعود بعدها الحجاج الى بلادهم ، ومعظمهم يؤمون مكة بدافع العبادة وليس لاستغلال اقتصادي ، بل حتى كراء البيوت كان محدوداً وعمل الخلفاء على منعه .

وادى هذا ان تكون اغلب التجارة في مكة بعد الاسلام محلية داخلية ، ويتجلى هذا في الأسواق التي ذكرت فيها وهي الحناطون ، والجزارون ، والعطارون ، والحذاؤون ، واصحاب الكتب ، كما توجد اشارة الى الحاكة ، ومعظم هذه الصناعات محلية .

وقد عمل الخلفاء على تيسير الحياة في مكة ، فاقام كل من عمر بن الخطاب وابن الزبير ، وعبدالملك ، والمهدي ، رُدُمًا لصد اخطار السيول ، وتم حفر حفر أبار وعيون وبرك ، وابرزها سداد الحجاج وبرك القسرى ثم عين زبيدة ، ليتيسر الماء الذي يكون مشكلة في الحياة المعاشية في مكة . واقيمت عدة بساتين « حوائط »

ويسر نشر الامن توسيع رقعة السكن في المناطق في اطراف مكة وفي جبالها ، وتقاطر عدد غير قليل من خارجها للسكن فيها .

ويروى ابن شبة في كتاب مكة بسند عن رجل من القارة اسمه خيثم قال « أتيت عمر بن الخطاب وهو يقطع الناس عند المروة فقلت اقطعني لى ولعصبتي فأعرض عني ، وقال هو حرم الله سواءٌ العاكف فيه والبادى ، قال خيثم فأدركت الذين اقطعوا باع بائعهم وورث مورثهم ومنعت انا لاني قلت لي ولعصبتي » (١) .

ولعل غير قليل ممن امتلك في المروة رباعاً ودوراً يرجع أصلها الى هذا الاقطاع الذي ربما امتد الى مناطق اخرى من مكة وفي زمن بقية الخلفاء أيضاً .

يظهر مما ذكره الازرقي أن أكثر من عنى باعمار مكة هم عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن الزبير ، وهارون الرشيد وعدد من المتصلين به .

فأما عمر فلم يعرف عنه حرص على امتلاك أراض أو اعمار بيوت في مكة ، وانما قام بعمل الردم الأعلى الذي كان له أثر في احياء المنطقة التي في شمالي المسجد .

وأما معاوية فقد بنى البيوت الست المتقاطرة ، كما أعمر عدة حيطان

واما عبد الله بن الزبير فقد أقام ردما ، واقتنى بيوتاً .

واما العباسيون فكانت عماراتهم واسعة ، وشملت ما اعمره الخلفاء وافراد اسرتهم والمتصلون بهم من ذوى المكانة .

ذكرت بعض المصادر المبالغ التي دفعت اثمانا للبيوت التي ادخلت في المسجد الحرام او لنقل ملكيتها ، وهي مبالغ كبيرة ، ولا نعلم هل ان ذلك

(١) الاصابة ٤٥٥/١ (٢٣٢٦) .

دليل على ارتفاع اسعار الاراضي ، وخاصة في اوائل العصر العباسي ام ان بعضه يرجع ارضاءًا لأصحابها .

وعلى اي حال فان تزايد السكان، وتكاثر الثروة لابد أن يؤدي الى انفجار اقتصادي ترتفع معه الاسعار وخاصة للاماكن القريبة من المركز .

عشائر مكة :

ذكر المعنيون بالأنساب انه كان أهل مكة عند ظهور الاسلام كلهم من قريش ، وهم مجموعتان : قريش الظواهر ، وقريش البطاح . فاماقريش الظواهر فكانوا يسكنون اطراف مكة وهم خمسة عشائر هي : محارب والحارث ابني فهر ، وتيم الأدرم غالب ، وهلال بن لؤي ، ومعيص بن عامر .

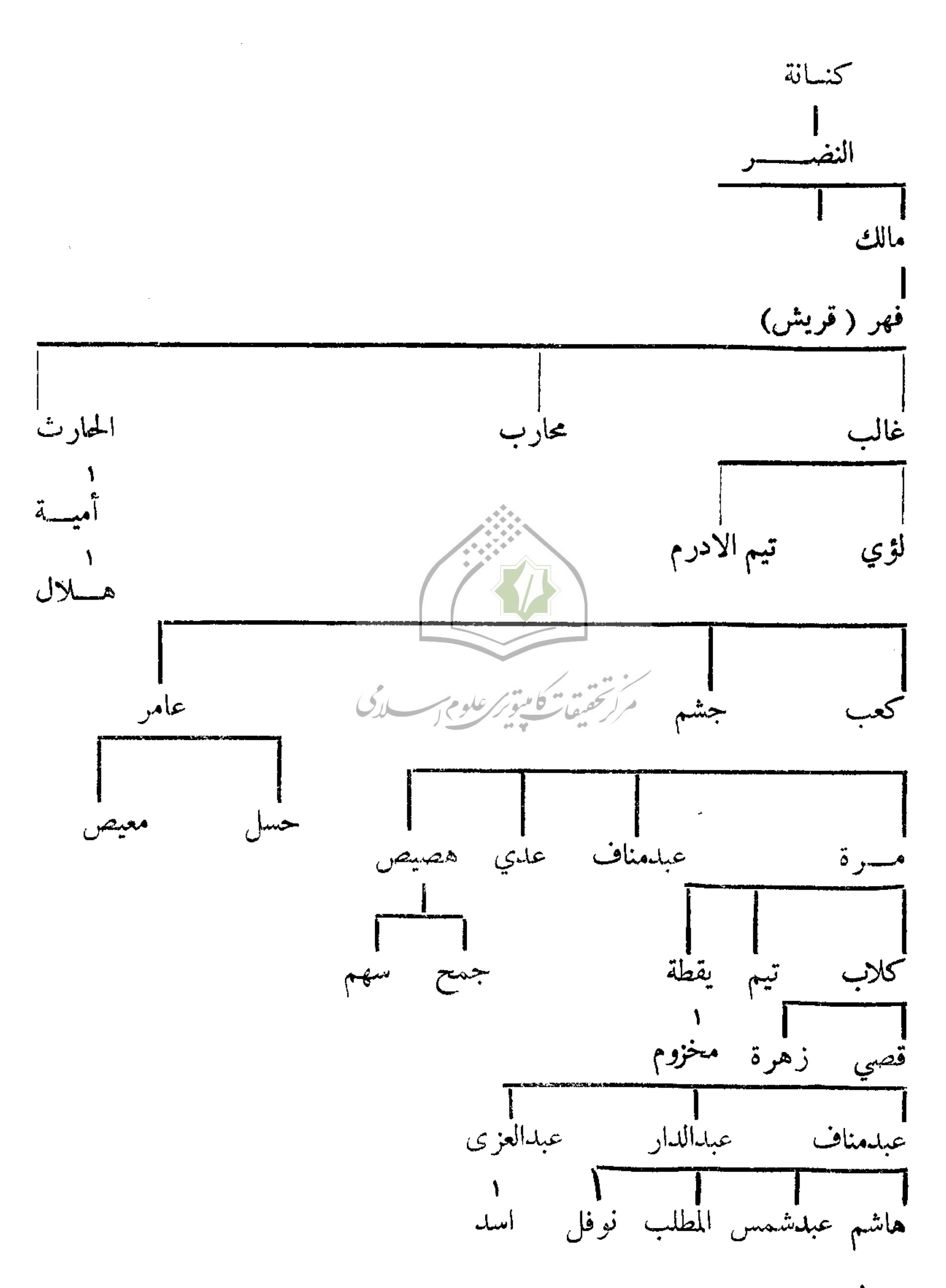
واما قريش البطاح فكانت تقيم في داخل مكة وهم عبد مناف ، وعبد الدار ، واسد بن عبدالعزى ، وزهرة ، وتيم ، ومخزوم ، وجمح ، وسهم ، وعدى ، وحسل ، وهلال بن اهيب ، وهلال بن مالك (٢) .

وشارك في حلف لعقة الدم عبد مناف وعبد الدار وسهم وجمح ومخزوم وعدى .

وشارك في حلف الفضول بنو هاشم (٣) ، وبنو المطلب ، وزهرة ، وتيم ، والحارث بن فهر (٤)

وروى ابن حبيب في المحبر انه بعد موت حرب اصبح لكل عشيرة رئيس منها ، وذكر اسماء هؤلاء الرؤساء لبني هاشم ، وأمية ، ونوفل بن عبد مناف ، وأسد بن عبد العزى ، واضاف اليهم في

(٢) المحبر ١٦٨ ، البكرى ٢٥٧ ، ياقوت ٦٥٩/١ عن الزبير ، وانظر عن قريش الظواهر البكرى ٨٩ عن ابن شبه الازرقي ١٠١/١ .
(٣) المحبر ١٦٦ ، ابن هشام ٢١٣/١ .
(٤) المحبر ، وانظر ابن هشام ١٤٢/١ .


كنـانة
النضـــر
مالك
فهر (قريش)
غالب
محارب
الحارث
أميــة
هــلال
لؤي
تيم الادرم
كعب
جشم
عامر
حسل
معيص
مــرة
عبدمناف
عدي
هصيص
جمح
سهم
كلاب
تيم
يقظة
مخزوم
قصي
زهرة
عبدمناف
عبدالدار
عبدالعزى
هاشم
عبدشمس
المطلب
نوفل
اسد

المنمق عبد الدار وزهرة ، وتيم بن مرة ، ومخزوم ، وعدى بن كعب ، وسهم ، وجمح ، وعامر بن لؤي ، ومحارب بن فهر ، والحارث بن فهر (٥) .

وشارك في بناء الكعبة ، بنو عبد مناف ، وزهرة ، وعبد الدار ، وأسد بن عبد العزى ، وتيم ، ومخزوم ، وسهم ، وجمح ، وعدى(٦) .

وهذه العشائر شاركت في حلف المطيبين مع الحارث بن فهر (٧) .

لاريب في أن التنظيم القبلي ظل قائماً في مكة بعد الاسلام إذكان أساس الوراثة والعاقلة ، وقدرتب عطاء المقاتلة على أساسه في الديوان ، وقد ذكرت المصادر اشارات الى ترتيبه في المدينة حيث كان يقيم عدد من مهاجري قريش ، أما مكة فلم يذكر ترتيب الديوان فيها ، لان اهل مكة لم يدخلوا في العطاء .

غير ان تثبيت السلطة المركزية العليا في الاسلام ، واستتباب الامن ، وتوسع مجالات الحياة في مكة وخارجها ادى الى تبدلات وتطورات غير قليلة ، فهاجر عدد من أهل مكة ، وقدمها عدد من مختلف العشائر .

فقد ذكر البلاذرى ان بني الادرم وقيس بن غالب درجوا ، وكان آخر من بقى منهم هلك في زمن خالد بن عبد الله القسري في ولايته مكة من قبل الوليد (٨) .

(٥) المحبر ١٦٥ ، المنمق ٤١١ ، ويروى ابن حبيب عن ابي عبيدة ان هذه العشائر شاركت في حرب الفجار : المنمق ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٦) انساب الاشراف ٩٩/١ ، المنمق ٣٣٢ ، الطبرى ١١٣٧/١ .

(٧) المحبر ١٦٦ ، ويقول البلاذري ان المطيبين هم مخزوم ، وجمح ، وعدى (انساب الاشراف ٥٦/١ ، ابن هشام ٢١١/١ .

(٨) انساب الاشراف ٣٩/١ .

وذكر ابن حبيب جماعات دخلت في قريش في الاسلام بغير حلف الابصهر او صداقة او برحم اوولاء ، وذكر من عشائر قريش التي دخل فيها غيرهم : هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ين عبد مناف ، وبني الحارث ابن عبدالمطلب ، والمطلب بن عبد مناف ، وعبدالدار ، واسد بن عبد العزى ، وزهرة (٩) .

ولابد ان اعداداً اخرى استوطنت مكة من غير محالفات وكان لها أثر في تغير عدد افراد العشائر ، وربما في مجموعات العشائر ، غير أن كتب النسب والفقه لم تذكرها سوى ما ذكر الشافعي ممايشير الى العشائر في أواخر القرن الثاني فقال « إذا كان رجل من بني عبد مناف جنى فحملت جنايته ينو عبد مناف فترفع الى بني قصي ، فان لم تحملها رفعت الى بني كلاب ، فان لم تحملها رفعت الى بني لؤي ، فان لم تحملها رفعت الى بني غالب ، فان لم تحملها رفعت الى بني فهر ، فان لم تحملها رفعت الى بني مالك ، فان لم تحملها رفعت الى بني النضر ، فان لم تحملها رفعت الى بني كنانة كلها وهكذا » (١٠) . ولا ريب في ان الشافعي يصف في هذا عشائر مكة في زمنه ، وهو لا يذكر الاسماء القديمة ، ولكن يمكن القول بان التسميات تبدلت خاصة وان الدية تنحصر في المصر الذي حدثت فيه الجناية .

وعند مقارنة تسميات الشافعي بما ذكرته كتب النسب مما يتطابق مع الاحوال عند ظهور الاسلام يتجلى ان بني عبد مناف وبني هاشم ، وعبد شمس والمطلب ، ونوفل وبني قصي هم عبد الدار ، واسد بن عبد العزي ، وبني كلاب هم زهرة ، وبني مرة هم مخزوم ، وبني كعب هم عدى وسهم وجمح ، وبني لؤي هم عامر ومعيص وبني غالب هم تيم الادرم وبني فهر هم محارب والحارث .

(٩) الملحق ٣٠١ ـ ٩ ، وانظر ما بعدها .
(١٠) الام ١٠١/٦ .

ذكر الازرقي عدداً من الابار حفر كلاً منها عشيرة قبل الاسلام وهي لبني أمية ، وهاشم ، وبني أسد بن عبد العزي ، وعبد الدار ، ومخزوم وتيم ، وعامر بن لؤي (١١) .

وذكر من أبواب المسجد لكل من بني سهم ، وجمح ، وتيم ، ومخزوم ، وعبد شمس ، واشار الى رباع بني عدى التي كانت عند المسجد ثم انتقالهم الى الاطراف الشمالية من بني سهم (١٢) .

ووضع عنواناً لرباع بني نوفل بن عبد مناف ، وعبد الدار بن قصي وزهرة ، ومخزوم وحلفاء كل منهم ، كما وضع عنواناً لرباع أسد بن عبد العزى ، وتيم ، وعدى بن كلب ، وجمح ، وسهم ، وذكر رباع بني عامر ابن لؤي ، والحارث بن فهر والخزاعيين (١٣) .

واشار الى مايرجع الى زمن الرسول (ص) في بعض الرباع والدور ، غير أن أكثر ما ذكره في رباع العشائر هو دور ومنازل افراد من رجالهم ، واكثرهم مما كان بعد الاسلام ، وخاصة في زمن الامويين واول زمن العباسيين .

ويتجلى عدم شمول كلامه عدداً من العشائر من اغفاله ذكر رباع بني اسد بن عبد العزي ، وزهرة ، وعدى بعد انتقالها الى اطراف رباع سهم .

وذكر عنوانا لرباع آل قارض الأنماريين ، وآل انمار القاريين وعدد من الخزاعيين ، وآل الأخنس بن شريق ، وآل عدى بن ابي الحمراء الثقفي (١٤) .

---

(١١) انظر عن الابار ٢/١٧٩ .
(١٢) ٢/٦٩ — ٧٤ .
(١٣) ٢/١٨٩ فما بعد .
(١٤) ٢/٢٠٦ — ٩ .

وافاض في الكلام عن رباع بني عبد شمس ورجالهم، فتحدث عن رباع بني عبد شمس ، وربيعة بن عبد شمس ، وامية بن عبد شمس ، وعدى ابن امية بن عبد شمس ، وكريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، ورباع آل ابي الصاص ، وآل سعيد بن العاص ، وأُسيد بن أبي العاص ، وآل عقبة بن أبي معيط ، ورباع حلفاء بني عبد شمس وآل الازرق ، وآل الحضرمي (١٥) .

ومما ذكر رباع بني عبدالمطلب وحلفائهم ودور بعض البارزين من رجالهم (١٦) .

وذكر املاك عبدالله بن الزبير ، وابنه حمزة ؛ وأكثر كلامه عن دور وبيوت افراد في زمن الامويين واوائل زمن العباسيين ، واشار الى تسميات مواضع ، من شعاب وجبال ، باسماء رجال كثير منهم ممن عاش في مكة بعد الاسلام ، ولم يكونوا من الشخصيات البارزة ، وقليل منهم ممن ولى مناصب ادارية او قيادة في الجيش ، ولم يذكر من تملك من الخلفاء غير معاوية ، والرشيد وفيهم عدد قليل من مواليهم ومن حواشي خلفاء بني العباس .

فبحثه يتركز على المعالم العمرانية البارزة وليس على خطط الجماعات ، والواقع ان بعض العشائر امتلك أفراد منها املاكا في أماكن متفرقة ، وهذا يظهر أن التنظيم العشائري لم يكن قوي الأثر فلم يشمل افراد العشيرة

(١٥) ٢/١٩٠ - ٢٠١ .

(١٦) ٢/٨٧/١٨٩ .

للسكن في منطقة واحدة وقد لايقتصر هذا على الشخصيات البارزة وانما يمتد الى بقية أفراد العشيرة .

واكثر من ذكرت املاكهم ممن اقتصرت اقامتهم في مكة ، غير أن عدداً منهم كانت له دور في المدينة . وعني الازرقي بذكر المعالم الجغرافية بما في ذلك اسماء الجبال والشعاب والابار ، واولى اهتماما بتدقيق الابعاد والمسافات وبوصف تفاصيل بناء بعض المساجد وخاصة المسجد الحرام ، واشار الى مواقع بعض اصنام الجاهلية وبعض الاسواق والحامات ، والى مكان مقام الخلفاء عند زيارتهم مكة والى دار الامارة ومقر صاحب البريد ، وذكر حديثا طويلا عن تطور احوال دار الندوة ، غير انه لم يذكر مراكز تجمع الناس كنوادي القوم التي اشار اليها القرآن الكريم ، أو مساجد العشائر التي كانت في الامصار الاخرى ، ومجالس الاشراف ، كما ذكر اسماء عمال بعض الدور الفخمة ، ومواد بنائها ومقاطع الاحجار واسعار بعض البيوت .

وفصّل الكلام في المسجد الحرام وما كان بقربه ، ثم في رباع بني امية واعمال عبد الله بن الزبير وتحدث باقتضاب عن رباع بني عبد المطلب .

قد يرجع تفصيله في بعض المواضع ، واختصاره في اخرى الى ان فصل في المهم ، واختصر في قليل الاهمية ، اوقد يرجع الى اهتماماته الشخصية التي تتجلى في التفاصيل التي اوردها عن رباع ودور آل الازرق والامويين ، وعلى اي حال فان اهتمامه بالمعالم الجغرافية يساعد على رسم صورة لخطط مكة ، اما المعالم العمرانية ففيها فائدة كبيرة في معرفة البناء العمراني في مكة غير أنه باغفاله المعلومات عن العشائر وغيرهم ، وبقلة عنايته بتحديد زمن امتلاك هذه الدور ومدى سعتها ، فانه لايقدم صورة كاملة عن احوال مكة العمرانية

وتطورها ، فبحثه يقدم أساساً لدراسة ينبغي ان تكمل من مصادر اخرى اذا اريد لها ان تكون شاملة للتطور العمراني والحضاري في مكة ابان القرنين الاول والثاني .

مصادر دراسة المعالم العمرانية

ان ماتميزت به مكة من اهمية خاصة عززتها مكانتها في نشأة الاسلام وفرائضه ، ودور أهلها في تاريخ الدولة الاسلامية لاتتناسب مع قلة المعلومات عن تطور خططها وعمرانها ، فالفصول الطويلة التي كتبها الفقهاء عن القبلة وعن الحج عنيت بالجوانب الفقهية والممارسات المتصلة باداء شعائر الحج ، ولم تذكر الا معلومات مقتضبة متفرقة عن أماكن محدودة تتصل بمناسك الحج فيها ، وكتب الأموال التي بحثت في العطاء وتوزيعه لم تذكر شيئاً ذى أهمية عن تنظيم أهل مكة في ديوان العطاء ، وقد يرجع بعض هذا الى أن العطاء لم يكن يوزع على اهل مكة المقيمين فيها .

كتب التاريخ والتراجم :

وهذا ينطبق على كتب التاريخ ، وابرزما وصلنا منها عن العهود الاسلامية الاولى تاريخ خليفة وتاريخ الطبري وتاريخ اليعقوبي ،ومروج الذهب للمسعودي فان هذه الكتب اهتمت بأخبار الحوادث السياسية التي لم يحدث منها في مكة ابان القرنين الاول والثاني حوادث خطيرة سوى حركة عبد الله بن الزبير الذي عندما أعلن خلافته اتخذ مركزه في مكة ، ومقرّه في المسجد الحرام ثم قتل بعد حصار قضى على حركته ، والحركة الاخرى هي ثورة الحسين الطالبي شهيد فخ ، واخبار كلتا الحركتين اقتصرت على سرد الحوادث ولم

تذكر الا إشارات قليلة الى بعض المواضع في مكة ، وهي في الغالب مواضع بارزة معروفة ، ولا تذكر كافة المواضع ، ولا التطورات العمرانية والاجتماعية في مكة (١٧) .

اما كتب التراجم فان عدداً منها مرتب حسب الطبقات ، أي تبعاً للازمنة المتعاقبة التي عاشوا فيها واغلب هذه الكتب ترفق ذلك بترتيب الرجال تبعاً للمدن التي عاشوا فيها ، وأقدم ما وصلنا كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، وكتاب الطبقات لخليفة بن خياط ، ويتميز الأول بسعة معلوماته وحرصه على ذكر اسانيد رواياته ، والكتاب مكون من ثماني مجلدات ، الجزئين الاولين منها عن سيرة الرسول (ص) ، وفيها قسط كبير عن حياته . اما الاجزاء الثلاثة التالية فهي في الغالب عن رجال أهل الحجاز ، وفيهم كثير من أهل مكة الذين هاجروا منها واستقروا في المدينة منذ أن هاجر الرسول(ص) اليها ، والجزء الثامن مخصص للنساء ، ومع ان معلومات ابن سعد واسعة وغزيرة ، وانه عني بذكر العلاقات النسبية والزيجات لمن ترجم لهم ، الا أنه عني بعرض سلوك وعلم من ترجم لهم ولم يذكر كثيراً عن معالم العمران وتطوره في مكة ،وهذا ينطبق على كل طبقات الرجال التي الفها المعنيون بالحديث النبوي ورجاله(١٨) علماً بأن في المطبوع من كتاب ابن سعد نقص كبير في تراجم المكيين .

كتب النسب :

وتعنى كتب النسب بذكر القبائل والعشائر وعلاقاتها النسبية وابرز رجالها ، وقد الف العرب عدداً كبيراً منها ، ومن ابرزها الكتاب الذي الفه

(١٧) انظر قائمة وافية عما ذكره ابن النديم من كتب التاريخ في القائمة التي الحقناها بالترجمة العربية لكتاب « علم التاريخ عند المسلمين » .

(١٨) انظر تفاصيل أوفى في كتاب « بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور اكرم ضياء العمري .

هشام بن محمد الكلبي (ت ٢٠٤) والذي كان معتمد معظم من الف في الموضوع بما في ذلك ابن ماكولا . وقد خص ابن الكلبي ومن نقل عنه قريشاً بفصول طويلة ذكر فيها عشائرها وابرز رجالها وعلاقاتهم النسبية ، ولكن كتب النسب لم تستوعب كل سكان اهل مكة ولم تفصل في ما مر بها من تطور عمراني ومن معالم ، علماً بان ابحاثهم تنتهي بزمن خلافة هارون الرشيد في الغالب .

ذكر ابن النديم عدة كتب في النسب تدل عناوينها على اقتصاره على قريش وهي : نسب قريش وفضائل قريش للمدائني (١٩) وأنساب قريش وأخبارها للجمحي (٢٠) ، (ت ٢٣٢) ومناقب قريش (٢١) ، لابن عبدة ، فضائل قريش لمحمد بن ادريس الشافعي (٢٢) (ت ٢٠٤) كما ذكر جمهرة نسب بني هاشم لطيفور (٢٣) وأنساب عبد المطلب للسكرى (٢٤) ، وكل هذه الكتب مفقودة ولم نعلم نقلا منها .

وذكر ابن النديم أيضاً نسب قريش لمصعب الزبيري (٢٥) ، (ت ٢٣٦) ونسب قريش للزبير بن بكار (٢٦) (ت ٢٥٦) ، وحذف من نسب قريش لمؤرج السدوسي ، وقد وصلنا الكتاب الاول كاملاً ، كما وصلتنا قطعة كبيرة من الكتاب الثاني ، وكلها تبحث في عشائر مكة وعلاقاتها النسبية وبعض رجالها ، ولا تبحث في عمران مكة وتطوره .

(١٩) الفهرست ١١٤ (طبعة تجددى) ، وقد نقل الفاكهى عن ابى عبيدة احد عشر نصا في ابار مكة .
(٢٠) الفهرست ١٢٤ .
(٢١) الفهرست ١١٨ .
(٢٢) الفهرست ٢٦٤ .
(٢٣) الفهرست ١٦٢ .
(٢٤) الفهرست ١٢٠ .
(٢٥) الفهرست ١٣٣ .
(٢٦) الفهرست ١٥٠ ، وانظر قوائم وافية لكتب النسب في المقدمة التي كتبها زترستن للكتاب « طرفة الاحباب » و « كتاب موارد البلاذرى » للدكتور محمد حسن المشهداني .

ومما له صلة بالنسب كتاب المحبر و المنمق لمحمد بن حبيب ، وكتاب سيرة ابن هشام ، ففي كل منها معلومات عن آبار مكة وعشائرها وأحلافها وبناء الكعبة ، وفي المنمق معلومات عن بعض التطور الاجتماعي في مكة بعد الاسلام .

ومما يجمع بين النسب والتاريخ كتاب أنساب الاشراف للبلاذري ، وهو كتاب ضخم طبع قرابة ثلثه في خمسة أجزاء ضخمة . وقد رتب على تقسيمات العشائر ، ولكن معلوماته مصنفة تبعاً لاعمال رجالها ، وفيهم عدد من أهل مكة ، ولكن اكثر اهتمامه بالحوادث السياسية والأعمال الفردية ، والفصول التي كتبها عن بطون قريش مقتضبة ومعتمدة على ابن الكلبي ، وهي لاتقدم معلومات اضافية .

كتب البلدانيين والمصنفات عن مكة :

وقد بحثت عن مكة بعض كتب البلدان واخصها المسالك والممالك للأصطخري الذي نقله مع اضافات قليلة ابن حوقل ، و احسن التقاسيم للمقدسي ، والأعلاق النفيسة لابن رستة ، فاما الكتب الثلاثة الاولى فانها ذكرت نصوصاً عن مكة في القرن الرابع الهجري ، وفيها وصف مهم ولكنه مقتضب ، اما ابن رسته فقد نقل ماذكره الازرقي عن الكعبة والمسجد الحرام .

والمتوقع ان تكون اغزر مادة في الكتب التي اختصت بمكة او بعض معالمها . وقد الفت فيها في العهود الاسلامية الاولى كتب كثيرة ذكر ابن النديم عدداً منها هي كتاب مكة والحرم لابي عبيدة (٢٧) و اخبار مكة للواقدي (٢٨) وكتاب مكة للمدائني (٢٩) وكتاب مكة لعمر بن شبه النمري (ت ٢٥٣) (٣٠) .

---

(٢٧) الفهرست ٥٩ .
(٢٨) الفهرست ١١١ .
(٢٩) الفهرست ١١٧ .
(٣٠) الفهرست ١٢٥ .

و كتاب مكة واخبارها وجبالها واوديتها للازرقي (٣١) ، وكتاب « مكة واخبارها في الجاهلية والاسلام » للفاكهي (٣٢) ، وكتاب « مكة والحرم » لمحمد بن مسعود العياشي ٣٣) ، و« امراء مكة » لعمر بن شبة (٣٤) .

وفي كتاب « سيره الرسول » لابن اسحاق معلومات عن آبار مكة وعشائرها وحلفائهم قبيل الاسلام .

ونقل السمهودي عن الحكيم الترمذي في نوادره انه سمع الزبير بن بكار (ت ٢٦٣) يقول : صنف بعض اهل المدينة في المدينة كتابا ، وصنف بعض اهل مكة في مكة كتابا ، فلم يزل كل واحد منهما يذكر بقعته بفضيلة يريد كل واحد منها ان يبرز على صاحبه بها حتى برز المدنى على المكى في خلة واحدة عجز عنها المكى . . ، ان هذه اشارة الى كتابين في المفاخرات والمفاضلات التي يحتوي ما نعرفه من نمطها عن المدن الاخرى انه يحتوي معلومات عن الخطط والمعالم العمرانية والمنتوجات ، ولكن لم نجد اشاره الى كتاب فيه مثل هذا النوع من المادة عن مكة ، وان ما وصلتنا من معلومات عن مكة انما تقتصر على وصف المعالم دون الاشارة الى المفاخرات .

وذكر البلاذرى في فتوح البلدان معلومات عن آبار مكة لاتزيد على ما ذكره ابن اسحاق

ومما يتصل بهذا كتاب « قصة الكعبة » لأبي عبيدة (٣٥) و «كتاب بناء الكعبة » للمدائني (٣٦) ، و « حفر زمزم » لاسحاق بن اسماعيل بن عيسى العطار (٣٧) ، و « حفر زمزم » لاسحاق بن بشر (٣٨) ، وكذلك « فضل مكة على سائر البقاع » لابي زيد البلخي (٣٩) ، و « فضل المدينة على مكة » لابي بكر الأبهري (ت ٣٧٥) (٤٠) .

---

(٣١) الفهرست ١٢٥ .
(٣٢) الفهرست ١٢٢ .
(٣٣) الفهرست ٢٤٥
(٣٤) الفهرست ١٦٣ .
(٣٥) الفهرست ٥٩ .
(٣٦) الفهرست ١١٦ .
(٣٧) الفهرست ١٥٢ .
(٣٨) الفهرست ١١٦ .
(٣٩) الفهرست ١٥٣ .
(٤٠) الفهرست ٢٥٣ .

وذكر السخاوي من الكتب الاولى المؤلفة في تاريخ مكة كتاب كل من ابي الوليد الازرقي ، ومحمد بن اسحاق الفاكهي ، وعمر بن شبّة ، والزبير ابن بكار ، ثم عدّد الكتب التي لخصت كتاب الأزرقي او الفت في القرن السادس وما بعده (٤٢) .

وفيما عدا كتابي الأزرقي والفاكهي فان كافة الكتب التي ذكرها ابن النديم والسخاوي مفقودة ، والواقع ان بعض هذه الكتب الفها رجال ذوو مكانة في التأليف التاريخي ، ونقلت عنهم الكتب التي وصلتنا معلومات وافية عن مختلف جوانب التاريخ الاسلامي ، غير انه يصعب تحديد الكتب التي التي نقلت عنها هذه المعلومات . وجدير بالذكر ان الازرقي ، وهو اوسع الكتب الاولى عن مكة نقل عن الواقدي والمدائني ، كما نقل عن غيره ، غير انه لم يذكر عنهم شيئاً يتعلق بمعالم مكة العمرانية وتطوراتها السكانية ، ولذلك لايمكن القطع بنطاق ماذكره واهميته .

وقد اوردت بعض الكتب نصوصاً لعدد ممن ذكرت المصادر تآليفهم كتبا عن مكة ، غير ان النقلة يذكرون الاخبار ورواتها دون ان يذكروا اسماء الكتب التي نقلوا عنها .

فاما المدائني فقد نقل عنه وكيع قائمة في اسماء من ولي القضاء بمكة الى زمن هارون الرشيد واشار الى انه « لم يذكر المدائني غير هؤلاء » (٤٣) .

ونقل وكيع عن مصعب الزبيري عدة روايات عن قضاة مكة (٤٤) .

---

(٤٢) الاعلان بالتوبيخ « منشور في » علم التاريخ عند المسلمين ٦٤٧ .
(٤٣) اخبار القضاة ١/٢٦٧ .
(٤٤) اخبار القضاة ١/٢٦٤ ــ ٢٦٦ .

ونقل الفاكهي عن الواقدي ستة وعشرين نصاً اكثرها عن حصار الحصين ابن نمير لعبد الله بن الزبير .

ونقل الفاسي في كتاب « شفاء الغرام » عن الزبير اخباراً عن ولاة مكة (٤٥) وعن قاض في مكة (٤٦) كما نقل عنه في « العقد الثمين اخبارا عن المسجد الحرام ، وعن حليل بن حبشية ، وعن قصي (٤٧)

اخبار مكة لابن شبه :

ان كتاب عمر بن شبه النمري نقل عنه عدد من المؤلفين ، ومؤلفه من ابرز الرواة الاولين ، وقد ذكر له ابن النديم كتباً في تاريخ البصرة ، وقضاتها واحداثها كما ذكر له كتابا في تاريخ مكة ، وتاريخ المدينة ذكر السخاوي انه « على نمط الازرقي والفاكهي(٤٨) ، وكان هذا الكتاب معروفاً حتى القرن الثامن الهجري ، فقد ذكر ابن النديم في كلامه عن نشأة الخط العربي « قرأت في كتاب مكة لعمر بن شبة وبخطه ، اخبرني قوم من علماء مضر » (٤٩) ، وذكر السخاوي ان كتاب ابن شبه « لم يقف عليه الفاسي ، وكتبه صاحبنا ابن فهد بخطه » (٥٠) ويذكر الفاسي واظن اني رأيت بخط بعض اصحابنا من حفاظ الحديث ان لعمر بن شبه تأليفاً في أخبار مكة ، واظن ان كتاب عمر بن شبة في أخبار مكة ان صح ما رأيته من ذلك على نمط تاريخ الازرقي والفاكهي ، (٥١) .

وقد نقل البلاذري في انساب الاشراف ، نصوصاً عن ابن شبه بعضها يتعلق برجال من اهل مكة ، غير انه يصعب الجزم بانها نقلت من كتاب تاريخ مكة ، خاصة

(٤٥) شفاء الغرام ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ .
(٤٦) شفاء الغرام ١٣٤ .
(٤٧) العقد الثمين ٤٧/١ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، وانظر ١٣٦/١ .
(٤٨) الاعلان بالتوبيخ ٦٤٧ مطبوع ضمن « علم التاريخ عند المسلمين » .
(٤٩) الفهرست ٨ .
(٥٠) الاعلان بالتوبيخ ٧٤٧ .
(٥١) العقد الثمين ١٠/١ .

وان البلاذري يقتصر على ذكر اسماء من روى عنهم دون ذكر كتبهم (٥٢) .

ونص ابن حجر في « فتح الباري في شرح صحيح البخاري على نقله عن كتاب اخبار مكة لابن شبه في عشر روايات عن الكعبة في كيفية الصلاة فيها (٥٣) وتكبير الرسول (ص) عندها (٥٤) وقسمة ماكان فيها من اموال (٥٥) ، وحديث نبوي عن تعظيمها (٥٦) ، وصورة مريم وفي حجرها عيسى فيهـا (٥٣) وعن السعي بين اساف ونائله قبل الاسلام (٥٨) كما اشار الى نقله عن ابن شبه في خبر عن ذي قار (٦٩) وان المدينة لايدخلها الدجال ولا الطاعون (٦٠)

ونقل ابن ظهيرة عن كتاب ابن شبه رواية عن توسيع عمر بن الخطاب الكعبة (٦١) .

ونقل عن هذا الكتاب العسقلاني في كتاب « الاصابة » خمس عشرة رواية عن مكة (١ – ٢٢٤ ، ٢٩٨ ، ٥٧٥ ، ٢ – ٣٥٧ ، ٣ – ٥٥٦ ، ٤ – ٧٢، ٣١٥ ، ٤٢٩، ٥٧٩. ٥ – ١٢٨، ٧ – ٢٣٨، ٢٩٠ ، ٨ –٣٠٨

ان المقتطفات القليلة التي وصلتنا من الكتاب تؤيد قول الفاسي ان ابن شبه بحث في خطط مكة ومعالمها العمرانية ولعله كتب عن مكة على غرار ماكتبه

(٥٢) انظر « موارد البلاذرى » الدكتور محمد جاسم المشهداني ٣٠٦/١ – ٣١٤ .

(٥٣) فتح البارى ٢١٥/٤ .

(٥٤) فتح البارى ٢١٤/٤ .

(٥٥) فتح البارى ٢٠١/٤ .

(٥٦) فتح البارى ١٩٤/٤ .

(٥٧) فتح البارى ٧٨/٩ .

(٥٨) فتح البارى ٢٤٦/٤ .

(٥٩) فتح البارى ٧٣/٧ .

(٦٠) فتح البارى ٣٠٠/٢ .

(٦١) العقد الثمين ١٩/١ ، ٤١١ ؛ وقد انجز السيد محمود عبدالله العبيدى اطروحة عن عمر بن شبه فيه من نقل عنه .

عن المدينة حيث ذكر خططها واخبار الحوادث التي مرت بها ، غير انه لايمكن الجزم باجمال مابحثه وبتميزه على كتاب الازرقي . وعلى اي حال فان كتاب ابن شبه لم يحظ بالعناية التي حظى بها كتاب الازرقي .

وفي كتاب المناسك للحربي اربعون صحيفة (٤٧١ — ٥١١) عن مكة ، بحث فيها انصاب الحرم (٤٧١) ومكة (٤٧٢ — ٥) وصفة المسجد الحرام وابوابه (٤٧٥ — ٤٨١) والكعبة (٤٨١ — ٤٩٦) وذرع المسجد الحرام والكعبة (٤٩٦ — (٥٠٠) وزمزم (٥٠٠) والسقاية (٥٠٠) وذرع المسجد (٥٠١) وطريق منى (٥٠٣) ومسجد الخيف (٥٠٤ — ٦) والمزدلفة (٥٠٦ — ٨) وعرفة (٥٠٨ — ١١) . ولم يذكر مصادره الا في بحث انصاب الحرم ، واسم مكة ، وامر الكعبة واكثر من ذكر روايته عنه ابن جريج ، وشملت روايته انصاب الحرم ، وامر الكعبة وبنيانها .

كما روى عن الزبير بن بكار في انصاب الحرم(٤٧٢) وبنيان الكعبة (٤٨٢) بالاضافة الى عدد آخر من الرواة .

وذكر من رواته محمد بن الوليد (٤٧٢) ، والفاكهي (٤٩٧) .

واكثر معلوماته تتطابق مع ما ذكره الازرقي ، مما يدل على اعتماده عليه غير ان اشارته الى الفاكهي قد تدل على انه اخذ هذه المعلومات عن طريق الفاكهي الذي نقل بدوره عن الازرقي .

اخبار مكة للفاكهي :

والكتاب الثاني المهم في اخبار معالم مكة العمرانية هو الكتاب الذي الفه ابو عبد الله محمد بن اسحق بن العباس الفاكهي ولد حوالي سنة ٢١٥ وتوفى حوالي سنة ٢٨٠ وكان من علماء مكة البارزين ، روى عنه عدد من

العلماء ، منهم البخاري (٦٢) ، والف كتابه في اخبار مكة بعد سنة ٢٧٢ التي ذكر بعض الحوادث فيها في كتابه وكان معروفا عند الاولين ، فذكر ابن حجر انه كتاب نفيس في خمسة اسفار(٦٣) وقال الفاسي فيه « امور كثيرة مفيدة جدا ليست في معنى تاليف الازرقي (٦٤) ونقل عنه عدد من المتأخرين ومن ابرزهم ياقوت الحموي ، وتقي الدين الفاسي ، وابن حجر العسقلاني وابن فهد . وقد طبعه حديثاً عبد الملك بن عبد الله بن دهيش في اربع مجلدات ضخمة ووضع لها مقدمة ضافية في ترجمة المؤلف وشيوخه واهمية الكتاب، واحتوى المطبوع ابحاثا عن الحجر الاسود ، والملتزم ، والطواف والمقام ، وزمزم ، والمسجد الحرام ، والسعي بين الصفا والمروة ، واسماء مكة ،وقتال ابن الزبير ، وسيول مكة ، وبعض احوال مكة ، واخبارها في الجاهلية والاسلام واوائل الاشياء التي حدثت في مكة وحكم بيع دور مكة وكرائها وتملكها ، ورباعها ، وحدودها ، وآثار الرسول (ص) فيها ، وآبارها وعيونها وبركها ، وطرقاتها وشعابها . ثم بحث منى ، والمزدلفة ، وعرفة .

ويتجلى من المطبوع ان الفاكهي اتبع اسلوب المحدثين ، فذكر قرابة ثلاثة الاف حديث وأثر واشار الى مصادره فيها ، نقلها عن ٢٣١ شيخا واكثر ما نقل عن محمد بن يحيى ت ٢٤٣ (٥٢٦ نصا) ويعقوب بن حميد (١٨٨ نصا) والزبير بن بكار (١٤٣ نصا) وبكر بن خلف (١٥٥ نصا) ، وسعيد بن عبد الرحمن المخزومي (١٥٢ نصا) كما نقل ايضا عن الواقدي والحميدي وابي عبيدة وآخرين .

---

(٦٢) الفاسي : العقد الثمين ١/٤١٠ .
(٦٣) تلفيق التعليق ٤٧/٥ .
(٦٤) شفاء الغرام ٤٨ .

بحث الفاكهي كثيرا من المواضيع التي بحثها الازرقي ، وهو يساير الازرقي في ترتيب مادتة في المعالم العمرانية ، ويطابقه في المعلومات مع بعض اضافات قليلة ، وان كانت مهمة ، غير انه يكثر من ذكر شيوخه ويشير الى الاحكام الفقهية ، ويشير إلى قيامه بفحص الكتابات ، ويورد اشعاراً واقوالا وبعض الاخبار التاريخية ، ومن هذا ذكر الفاسي ان كتاب الفاكهي كتاب حسن جداً لكثرة مافيه من الفوائد النفيسة ،وفيه غنية عن كتاب الازرقي وكتاب الازرقي لايغني عنه ، لانه ذكر فيه اشياء كثيرة حسنة جداً لم يذكرها الازرقي ، . وافاد في المعنى الذي ذكره الازرقي اشياء كثيرة لم يفدها الازرقي (٦٥) .

ان التشابه الواسع بين ما ذكره الازرقي والفاكهي في المواضيع التي بحثاها ، وتسلسل ترتيبها وحرفية لفظها يدل على ان الفاكهي اطلع على كتاب الازرقي واعتمده في ترتيب موضوعاته ومادتها ،مع اضافات اكثرها استطرادية غير انه لم يشر في ما نقله الى الأزرقي صراحة ، وانما يكتفي بالقول بانها منقولة عن « بعض اهل مكة » أو عن كتاب لاشياخ من أهل مكة ، وقد يدل هذا على أن الفاكهي نقل عن الأزرقي دون ذكر اسمه ، أو ان كليهما نقل عن مصدر اقدم .

وقد ذكر عدد من القدماء نقولا عن الفاكهي منها عن بناء البيت ،وولاية الكعبة ، وابار خزاعة ، وقريش والانساء ، وقصي ، واصنام مكة ، وعام الفيل ، وعبد المطلب وحياة الرسول (ص) في مكة ، وصلح الحديبية ، وفتح مكة ، وبناء الكعبة .

وبسبب تأخر استلامي النسخة المطبوعة من كتاب الفاكهي ، فاني اقتصرت على الاعتماد على كتاب الازرقي ، واضفت اليه بعض مانفرد به كتاب الفاكهي ، وفي عملي هذا ثغرة ، ولكنها غير واسعة ، لان اضافات الفاكهي

(٦٥) العقد الثمين للفاسى ١/٤١١ .

في المعالم العمرانية ليست كبيرة ، سوى ماذكره عن الدور التي في اطراف المسجد الحرام

تاريخ مكة للازرقي :

لكتاب الازرقي في تاريخ المعالم العمرانية في مكة مكانة متميزة أشار اليها عدد من الباحثين ، ولخصه او نقل عنه عدد كبير من المؤلفين .

فاما عن مكانة الكتاب فان الفاسي يقول « وللامام الازرقي والفاكهي فضل السبق والتحرير والتحصيل ، فان ماذكراه هو الاصل الذي انبنى عليه هذا الكتاب ، واني لاعجب من اهمال فضلاء مكة بعد الازرقي التأليف على منوال تاريخه ، ومن تركهم تأليفا لتاريخ مكة يحتوي على معرفة اعيانها من اهلها وغيرهم من ولاتها وائمتها وقضاتها وخطبائها وعلمائها كما صنع فضلاء غيرها من البلاد . . ومن عصرهما الى تاريخه خمسمائة سنة ونحو اربعين سنة ، ولم يصف بعدهما في المعنى الذي أضفناه أحد »(٦٦) ، وقال أيضاً « لا اعلم أحداً جمع لمكة تاريخاً الا الازرقي والفاكهي وشريف يقال له زيد بن هاشم » وذكر أنه لم يطلع على كتاب زيد (٦٧) .

وقال السمعاني ان الوليد « صاحب كتاب اخبار مكة وقد احسن في تصنيف ذلك الكتاب غاية الاحسان » (٦٨)

وقال حاجي خليفة ان الأزرقي أول من ألف في تواريخ مكة (٦٩) .

وقال بروكلمان ان الازرقي اول من جمع الاخبار المأثورة عن تاريخ مكة القديم (٧٠)

(٦٦) الفاسي ٦٦/٢ (طبعة وستنفلد) ، علم التاريخ عن المسلمين لروزنثال ٢٢٧ .
(٦٧) العقد الثمين ٩/١ .
(٦٨) الانساب ٤٦/١ طبعة حيدر اباد .
(٦٩) كشف الظنون ٣٠٦/١ .
(٧٠) تاريخ الادب العربي ٢٢/٣ .

اشار بعض الباحثين الى عدم استيعاب الازرقي في كتابه كافة المعالم العمرانية ، فقال الفاسي « في كتاب الفاكهي وهو محمد بن اسحاق بن العباس المكي أمور كثيرة مفيدة جداً ليست من معنى تأليف الازرقي ولا في المعنى الذي الفناه ، وكانا في المائة الثالثة ، والفاكهي تأخر عن الازرقى قليلا في في غالب الظن .

وقال انه عزم على ان « يضم الى ما ذكره تاريخ الازرقي اموراً كثيرة مفيدة لم يذكرها الازرقي ، بعضها مما عني بجمعه ، وبعضها مما لم يصل به ، ضمن الاول احاديث نبوية ، واثاراً عن الصحابة والسلف ،واخباراً جاهلية لها تعلق بمكة واهلها وملوكها وغير ذلك »(٧١) .

وقال أيضا « لم يعن الازرقي بجمع ولاة مكة في الاسلام » وأن الازرقي والفاكهي لم يعنيا الا في أخبار الكعبة والمسجد وشبه ذلك (٧٢) .

ومن مظاهر أهمية ودلالة مكانته عناية العلماء به واعتمادهم عليه .

فكان كتاب عمر بن شبه في تاريخ مكة على نمط كتابي الازرقي والفاكهي.

والف محمد بن سعيد الجندي كتاب « فضائل مكة » على نمط كتاب الازرقي والفاكهي (٧٣) .

والف رزين العبدرى امام المالكية بالحرم (ت ٥٢٥) كتاباً في اخبار مكة رآه الفاسي وقال انه ملخص من كتاب الازرقي (٧٤) .

---

(٧١) الفاسي ٦٦/٢ طبعة وستنفلد ، علم التاريخ عند المسلمين ٢٢٦ .

(٧٢) العقد الثمين ٨٠/١ .

(٧٣) الفاسي ١٠٨ ، السخاوى ٦٤٧ .

(٧٤) العقد الثمين ٣٩٨/٤ ، السخاوى ٦٤٧ وسماه رزين بن معاوية السرقسطي .

والف سعدالله بن عمر الاسفراييني في سنة ٧٦٢هـ (زبدة الاعمال وخلاصة الافعال) في فضائل مكة والمدينة ، اختصره من تاريخ الازرقي كما ذكره في خطبة كتابه (٧٥) .

كما لخصه يحيى بن محمد الكرماني (ومنه نسخة في برلين رقم ٩٧٥٢) ونظمه الارمانتي (٧٦) .

واسهم في دراسته عدد من المحدثين ومنهم من غير العرب كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الادب العربي (٥) والاستاذ فؤاد سزكين في « تاريخ التراث العربي » ، ويوهان فرك في المقال الذي كتبه ونشره في الكتاب المهدى لديللا فيدا ، وفي مقالة في دائرة المعارف الاسلامية ، كما تطرق الى بحثه روزنثال في كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » وكتب رشدي صالح ملحس دراسة ضافية عن الازرقي في مقدمة نشره الكتاب .

ان كتاب الازرقي بصورته الحالية وصلنا باعداد ابي الوليد محمد بن عبد الله بن احمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الازرق ، وبرواية ابي محمد بن اسحاق الخزاعي .

المؤلف وعنوانه :

والقسم الاكبر من الكتاب من اعداد أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي المنحدر من الأزرق الذي ذكر ابن سعد انه « كان روميا حداداً غلاماً للحارث بن كلدة الثقفي ، وهو ممن خرج يوم الطائف الى النبي (ص) مع عبيد أهل الطائف ومنهم أبو بكرة اخو عمار لامه » واعتقهم الرسول » (٧٧) .

---

(٧٥) السخاوى ٦٤٧ .
(٧٦) مقدمة رشدى ملحس لكتاب تاريخ مكة .
(٧٧) ابن سعد ٣ ــ ١٧٦/١ ، انساب الاشراف للبلاذرى ١٥٧/١ (عن ابن سعد عن ابي الكلبي) ويذكر المنمق ٢١٣ ، ٣٠٢ ، ويذكر البلاذرى ان سمية هى ام اياد انساب الاشراف ٤٨٩/١ .

ويروى الازرقي ان الرسول (ص) كتب لجدهم كتاباً يبيح لهم التزوج في اي قبائل قريش وولده ، وانهم احتفظوا بالكتاب الى ان تلف في سيل الجحاف سنة ٢١٨هـ (٧٨) .

ونسب الى الازرق انه قال للرسول (ص) قدمت من الشام وبها اهلي وعشيرتي » .

ويذكر ابن سعد ان بني الازرق كانوا في أول أمرهم يدعون أنهم من تغلب ثم من بني عكب ، ثم تزوج جبير بن مطعم احدى بنات الأزرق ، فولدت له بنية تزوجها سعيد بن العاص فولدت له عبد الله بن سعيد (٧٩) .

ويذكر محمد بن حبيب أن الأزرق تزوج سمية بنت خياط امة حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي فولدت له عمرو وسلمة ، ويذكر أيضاً « أن سلمة تزوج آمنة بنت عفان اخت عثمان » (٨٠) ، ويذكر ابن سعد أن الازرق ولد له سلمة ، وعمرو ، وعقبة (٨١) .

ويذكر ابن سعد أن « الأزرق كان حليف بني أمية ، وأنهم شرفوا في مكة وتزوج الازرق وولده في بني أمية وكان لهم منهم اولاد » ثم افسدتهم خزاعة ودعوهم الى اليمن وزينوا لهم ذلك وقالوا انتم لايغسل عنكم ذكر الروم الا ان تدعوا انكم من غسان فانتموا الى غسان بعد (٨٢) .

وذكر النسابون نسب الأزرق أنه « ابن عمرو بن الحارث بن ابي شمر الغساني ، وهو ماذكره في كتابه ، وكانت للأزرق دار الى جنب المسجد جددها وجدد المسجد

---

(٧٨) تاريخ مكة ١/٢٠٠ .
(٧٩) ابن سعد ١ — ١/١٧٦ .
(٨٠) المنمق ٣١٢ ، ويلاحظ ان مصعب الزبيرى لا يذكر ذلك وانما يقول ان امنة تزوجت عبدالله بن ابي سعد (نسب قريش) .
(٨١) ابن سعد ٢ — ١/١٧٦ انساب الاشراف ١/١٥٧ .
(٨٢) ابن سعد ٣ — ١/١٧٦ .

واحد وكان وجهها شارعاً على باب بني شيبة، وكان عقبة بن الازرق يضع على جدرها مما يلي الكعبة مصباحاً «عظيماً» فكان أول من استصبح لأهل الطواف (٨٣) . وقد دخل بعضها في توسيع ابن الزبير المسجد ، ودخل بقيتها فيه عند توسيع المهدي ودفع كل منهما بضعة عشر الف دينار للازرق تعويضاً» عنها (٨٤) ، مما يدل على فخامتها؛ وكانت لهم دار عند المروة الى جنب دار طلحة(٨٥) ، ثم صارت لابن سلمة الازرق دار الى جنب دار بني مرحب وهي قبالة دار حويطب بن عبد العزى (٨٦) ، وفخامة هذه الدور تدل على غناهم ومالهم من ثروة لم تذكر المصادر كيف حصلوا عليها، علماً بانه لم يذكر عن احدهم تولى اي منصب اداري او امتلاكه مزارع أو دور في الاحداث .

اما ابو الوليد، فهو احمد بن الوليد بن عقبة بن الازرق ، «فكان موثقاً» عند علماء الحديث ، قال عنه ابن سعد انه «ثقة كثير الحديث »(٨٧) ، وقال ابو حاتم وابو عوانة انه «ثقة» ، وقال الربيع انه كان احد أوصياء الشافعي (٨٨) .

وروى عنه مالك والشافعي وعمرو بن يحيى السعدى وابن عيينة والبخاري، وابو حاتم . واختلف في تاريخ وفاته، فذكر ابن حبان والسمعاني انه توفي سنة ٢١١هـ ، وقال ابو حاتم وعوانة انه كان حياً» سنة ٢١٧ (٨٩) ونقل الذهبي عن الحاكم انه توفي سنة ٢١١ (٩٠) .

---

(٨٣) تاريخ مكة ٢/١٨٧ ، ٢٠١ .
(٨٤) تاريخ مكة ٢/١٩٩ .
(٨٥) تاريخ مكة ٢/٢٠١ .
(٨٦) تاريخ مكة ٢/٢٠٨ .
(٨٧) ابن سعد ٥/٣٦٧ .
(٨٨) تهذيب التهذيب ١/٧٩ .
(٨٩) الانساب للسمعاني ١/٤٦ (طبعة حيدر اباد) .
(٩٠) تهذيب التهذيب ١/٧٩ .

كان احمد بن الوليد الازرقي ممن نقل عنهم ابن سعد في كتابه الطبقات : وذكر ابن سعد رواته في مانقله عنه ، واكثر نقله عن مسلم بن خالد الزنجي ، ثم عبد الرحمن بن حسين ، ثم عمر بن يزيد . وندرج فيما يلي هؤلاء الرواة ، علماً باننا اعتمدنا فيها على المطبوع من كتاب الطبقات ، وهي طبقة فيها كثير من الخروم والنقائص ، وقد طبع احد هذه الخروم بمجلد يبلغ ٣٩٠ صفحة .

احمد بن محمد بن الوليد الازرقي — مسلم بن خالد الزنجي — دينار بن سعد — محمد بن المنكرر — صفوان بن مسلم — انس بن مالك

— عائشة ٨ / ٥٢ — ٥ / ٩٧

— عبد ابراهيم بن عمر — محمد بن كعب القرظي ٢ —٢ / ١٣

— ابن شهاب — سالم بن عبد الله بن عمر — ابيه عبد الله ١ — ٢ / ٨

— ابن ابي نجيح — مجاهد ٤ — ١

— ام هانىء ١ — ٢ / ١٣٤

— يعقوب بن عطاء ٥ / ٣٤٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥

— موسى بن عقبة — امه — ام كلثوم ٨ / ٦٧

— عبد الله بن معمر — نافع ٣ — ١ / ٢٥٤

— هشام بن عروة — ابيه ٣ — ١ / ٢٧٣

— المثنى بن الصباح ٥ / ٣٦٥

— عبد الكريم بن ابي المخارة ٣ / ٣٩٢ — ٣٩٦

— عبد الرحمن بن حسين — ابيه ٥ /

— ابن القاسم الازرقي — ابيه ٥ /

— ايوب بن موسى ٣ — ١ / ١٨٩ ؛

— عمرو بن يحيى بن سعيد ٤ — ١ / ١٢٥ — ٦ / ٢٠٧ ، ٢٠٨

— جده — عمه — خالد بن سعيد بن العاص ٤ — ١ /

- عبد الرحمن بن أبي الرحال - عبد الله بن عمر ٧ / ١٢٧ ، ٨ /
- سفيان بن عيينة - ابن ابي نجيح - مجاهد ٤ - ١ / ١٢٩
- عطاف بن خالد - رجل - ابن شهاب ٥ / ٩٧ ، ٩٨
- عدة من اصحابهم - سليمان بن عمرو ٥ /
- ابو عبد الحارث بن عمير - رجل ٣ - ١ / ٢١٠
- داود بن عبد الرحمن - يحيى بن سعيد - القاسم بن محمد ٨ / ٤٩ ، ٥ / ٢٦٢ ، ٢٦٥

اكثر احمد بن محمد الازرقي من الرواية عن كل من سعيد بن سالم القداح ، ومسلم بن خالد الزنجي ، وسفيان بن عيينة ، وابراهيم بن محمد ابن ابي يحيى . ونقل عن كل من هؤلاء روايات مسندة عن عدة شيوخ واكثر روايات سعيد بن سالم القداح من عثمان بن ساج وابن جريج ؛ واكثر روايات مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج ، وروايته عن سفيان بن عيينة كثير منها من عمرو بن دينار . غير ان كلاً من هؤلاء وابراهيم بن محمد بن ابي يحيى يروي روايات مفردة عن عدد غير قليل من رواة آخرين .

وروى احمد بن محمد روايات مفردة عن شيوخ كثيرين نذكر منهم داود بن عبد الرحمن ، ويحيى بن سليم ، وابراهيم بن محمد بن المنتشر ، وعبد الجبار بن الورد ، وعبد الله بن معاذ الصنعاني ، وعبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد ، ومحمد بن ادريس ، ومروان بن معاوية ، وسعيد بن عبد الرحمن المخزومي

ومن ابرز الشيوخ الذين نقل عنهم الازرقي ، هو محمد بن عمر الواقدي ، وقد نقل رواياته عن طريق محمد بن يحيى ومحمد بن ادريس

ونقل ابو الوليد كثيراً عن مهدي بن ابي المهدي الذي نقل بدوره عن عدد من الرواة ، وخاصة عبد الله بن معاذ الصنعاني ، وبشر بن السري البصري ، وعبد الرحمن بن عبد الله مولى بني هاشم ، اضافة الى روايات

مفردة نقلها عن ابراهيم بن الحكم بن ابان ، وابي ايوب البصري ، واسماعيل ابن عبد الكريم الصنعاني ، وعمر بن سهل ، وعبد الملك الزماري ، وعبد الرحمن بن عبد الله مولى بني هاشم ، وعيسى بن يونس ، ومروان بن معاوية الفزاري ، ويحيى بن سليم ، ويزيد بن ابي الحكم .

ونقل ابو الوليد روايات مفردة عن ابراهيم بن محمد الشافعي ، واحمد ابن عيسى المكي ، وابن ابي سبرة ، وسعيد بن محمد ، وسعيد بن منصور ، وسعيد بن يحيى ، وعبد الله بن شبيب الربعي ، وعلي بن هارون بن مسلم المحلبي ، وابي الوليد بن ابا ن الرازي ، ومسافع بن عبد الرحمن الحجبي ، ومحمد بن اسماعيل بن ابي عصيدة ، ومحمد بن واضح ، ويعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الاخنس .

اما محمد بن عبد الله بن احمد بن محمد فقد ذكر الفاسي انه مؤلف أخبار مكة ، حدث عن جماعة ، وذكر في الخطط ان القصر المسمى ستر والستار في الجاهلية صار للمنتصر امير المؤمنين ، أي أنه كان حياً في ذلك التاريخ ، واظهر عجبه من عدم عناية الباحثين بترجمة حياته (٩١) .

طبع تاريخ مكة على عدة نسخ ، ثم اعاد طبعه رشدي صالح ملحس على طبعة وستنفلد وثلاث مخطوطات اخرى كلها برواية ابي محمد اسحاق ابن احمد بن نافع الخزاعي رواها عن عم ابيه ابي الحسن محمد بن نافع الخزاعي المتوفى بعد سنة ١٥٠ ويتبين منها ان ابا محمد الخزاعي اضاف اليها نصوصاً عن غربي المسجد سنة ٢٨١ هـ (٩٢) .

---

(٩١) العقد الثمين ٢/٢٠٦ .

(٩٢) تاريخ مكة ٢/٧١ .

وعن دار الندوة في زمن المعضتد (٩٣) ، وابياتا لشاعر في حراء (٩٤) . واضاف ابو الحسن اليه خبراً « عن اضافة المقتدر جدار دار الندوة » (٩٥) .

وابو محمد اسحاق هو ابن احمد بن اسحاق بن نافع بن أبي بكر بن بكر بن يوسف بن عبد الله بن نافع بن الحارث الخزاعي ، وكان نافع ولي مكة لعمر بن الخطاب (٩٦) واشترى لعمر دار السجن في مكة (٩٧) .

اما ابو محمد اسحق فكان من كبار اهل القرآن وأحد فصحاء مكة ، ويذكر ابن الجزرى انه كان إماما « في قراءة المكيين ثقة ضابط حجة . وذكر عدداً من شيوخه ومن قرأ عليه من البارزين في علم القراءات وتوفي في الثامن من رمضان سنة ٣٠٨ » (٩٨) .

اما محمد بن نافع بن احمد بن اسحاق فيذكر الفاسي انه حدث عن عمه اسحاق بن احمد الخزاعي بتاريخ مكة للازرقي ، وله عليه حاشيتان تتعلقان بزيادة دار الندوة وزيادة باب ابراهيم . ونقل عن تاريخ المسبحي كان فيمن دخل الكعبة وشاهد الحجر الاسود فيها عندما عمل له الحجبة طوقاً يشد به بعد اتيان القرامطة به الى مكة في سنة ٣٤٠ ، وكان رده في موضعه يوم النحر سنة ٣٣٩ ، وكان محمد بن نافع هذا حياً سنة ٣٥٠ وله تأليف في فضائل مكة (٩٩) .

ويذكر ياقوت ان سعيد بن عثمان البلدي الاندلسي قرأ في مكة على ابي الحسن محمد بن نافع الخزاعي فضائل مكة من تأليفه وذلك في سنة ٣٥١ (١٠٠).

---

(٩٣) تاريخ مكة ٢/٨٧ — ٩١ ، ٢٠٤ .
(٩٤) تاريخ مكة ٢/١٣٣ .
(٩٥) تاريخ مكة ٢/٩٠ .
(٩٦) تاريخ مكة ١/١١٤ ، ١٢٢ .
(٩٧) تاريخ مكة ٢/١٣٣ ، ٢١٣ .
(٩٨) العقد الثمين ٣/٤١٨ ، غاية النهاية لابن الجزرى ١/١٥٦ .
(٩٩) العقد الثمين ٢/١٧٨ .
(١٠٠) ياقوت ١/٧١٨ .

ان كتاب الأزرقي عنوانه « أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار » فهو يعني بالدرجة الاولى بالمعالم العمرانية فيها فيبحث التاريخ الموغل في القدم للبيت الحرام ، ونزول ابراهيم الخليل مكة ، وبناءه البيت ، وماطرأ على مكة بعده من تبدلات ، والاصنام فيها ، ثم تحدث بالتفصيل عن الكعبة عند ظهور الاسلام وبنائها وكسوتها وذرعها ، والحجر الاسود ، والطواف ، والمقام ، وزمزم ، والمسجد الحرام ، والصفا والمروة ، وحدود الحرم ، ومنى وعرفة ، والآبار والعيون ، ثم ختمها بفصل طويل عن الرباع .

وبحثه عن الكعبة والمسجد الحرام والاماكن التي تتم فيها مناسك الحج مستوعبة لايدانيها بحث آخر . ولذلك كانت معتمد الباحثين من بعده ، فنقلوا بعض ماذكر مع اضافات لبعض التطورات التي استجدت بعده .

واولى عناية خاصة بتدقيق الأبعاد والمسافات والقياسات وبوصف الابنية المعمارية وتزويقها ، واسماء معماريها احياناً » ، ومعلوماته في ذلك جديرة بدراسة لم تحظ بها ممن كتب في الآثار الاسلامية من المحدثين العرب والغربيين .

غير انه لايبحث في تاريخ الحوادث التي مرت فيها أو أسهم أهلها فيها ، كما أنه لايبحث عن رجالها أو ولاتها أو قضاتها أو من عمل في ادارتها ، الا مايذكره عرضاً لعلاقته بالمعالم .

وهو لايذكر عشائر مكة ، ولا الحوادث المتصلة بحياة الرسول(ص) في مكة الا عرضاً ، علماً بأن احداثاً مهمة جرت فيها كحرب الفجار وحلف الفضول والدعوة الاسلامية في سنواتها الاولى ، وفتح مكة ، وحجة الوداع ثم حركة ابن الزبير ، وحركة الحسين الطالبي ، كما انه لايذكر التطورات الاجتماعية والاقتصادية ولا يشير الى احكام فقهية ، وان كان يذكر ممارسات شخصيات بارزة تتعلق بالحج ، وهي تشمل علماء ، ورجال ادارة وخلفاء ، ويولي الامويين اهتماماً « فيذكر كثيراً من أعمالهم .

وبحثه عن رباع مكة رغم طوله ، شمل رباع عدد من الأسر او البارزين من رجالها عند ظهور الاسلام وبعده ، ولم يعن بذكر خطط العشائر وتطورها ، كما أنه أغفل عدداً من المعالم التي اكملها الفاكهي في كتابه ، وبحثه عن الرباع فيه معلومات عن عدد كبير من الدور والبيوت، ولكنه لايعطي فكرة شاملةعن سعة عمران مكة وشكله وتطوره .



الكعبة والمسجد الحرام

الكعبـــة :

يرجع قسط كبير من مكانة مكه قبل الاسلام وبعده الى انه كانت فيها الكعبة التي ذكرها القرآن الكريم بنصها « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » (المائدة ٩٧) ، وذكرها باسم البيت الحرام (المائدة ٩٧) ، والبيت المحرم (ابراهيم ٣٧) والبيت العتيق (الحج ٣٣) والبيت المعمور (الطور ٤) واشار الى انها بيت الله (ابراهيم ٣٧ ، البقرة ١٢٥ ، الحج ٢٦ وذكره « البيت » (البقرة ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، آل عمران ٩٦ ، ٩٧ ، الانفال ٣٥ ، الحج ٢٦ ، قريش ٣)

واشـار الى قدمها « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » (آل عمران ٩٦)

وذكر بعض الرواة ان قدسيتها موغلة في القدم ، غير ان كافة الروايات تجمع على ان ابراهيم كان لـه دور كبير في تثبيت مكانتها وذلك مصداقا لقوله تعالى « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (البقرة ١٢٧) ، « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت » (الحج ٢٦) « رب اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » (ابراهيم ١٣٧) .

وذكر القرآن الكريم الحج الى البيت (البقرة ١٥٨ ، آل عمران ٩٧ المائدة ٢ ، ٩٧ ، الحج ٣٣) .

وموضع الكعبة في الاصـل قبل ان يشيـدها ابراهيم الخليل كان « اكمة حمراء مدورة لاتعلوها السيول » يحج اليها الناس ويأتيها المظلوم والمتعوذ ، يدعو عندها ، وقل من دعا هناك الااستجيب دعاؤه (١) .

(١) ١٨/١ ، ٢٠ .

ثم بنى ابراهيم البيت ، ويروى عن ابن عباس ان ابراهيم وابنه « ما بنياه بقَصَّة ولا مدر ، ولا كان معهما من الاعوان والاموال ما يسقفانه ، ولكنهما اعلماه فطافا به ، (٢) غير ان روايات اخرى تذكر انه بناه من حجارة جلبها من بعض جبال مكة (٣)

وجعل طوله في السماء تسعة اذرع ، وعرضه من الارض ٣٢ ذراعا من الركن الاسود الى الركن الشامي الذي عند الحِجْر من وجهه .

وجعل عرض مابين الركن الشامي الى الركن الغربي الذي فيه الحجر احد عشر ذراعا .

وجعل طول ظهرها من الركن الغربي الى الركن اليماني ٣١ ذراعا وجعل عرض شقها اليماني من الركن الاسود الى الركن اليماني ٢٠ ذراعا فلذلك سميت الكعبة لانها على خلقة الكعب .

وجعل بابها بالارض غير مبوب ، حتى كان تبع اسعد الحميري هو الذي جعل لها بابا وغلقا فارسيا وكساها كسوة تامة ونحر عندها (٤) .

لم يبن ابراهيم الخليل الكعبة بمدر ، وانما رضمها ، (٥) ولم يسقفها (٦) وكان بابها من الارض (٧) وكانت الكسوة تدلى على الجدر من الخارج وتربط من اعلى الجدر ومن بطنها (٤) وظلت كذلك الى ان اعادت قريش بناءها (٨) .

(٢) ١/٢٥ .
(٣) ١/٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ١٠٠ .
(٤) ١/٢٧ ، وانظر عن الباب ١/١٠٠ .
(٥) ١/٢٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .
(٦) ١/٤٤ ، ١٠٠ .
(٧) ١/١٠٠ .
(٨) ١/١٠٩ .

وحفر ابراهيم في بطن الكعبة على يمين من دخلها جبّاً (٩) عمقه ثلاثة اذرع ، ويسمى الاخسف (١٠) ، يكون خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى (١١) وقد نصب عمرو بن لحى عند البئر هبل (١٢) .

وكان في بطن الكعبة قرنا الكبش الذي ذبحه ابراهيم الخليل معلقين في بطنها بالجدر تلقاء من دخلها يخلّقان ويُطيّبان اذا طيّب البيت(١٣) وكانت الكسوة تكدس عليها ركاما بعضها فوق بعض (١٤) .

بنـــاء قريش :

واصاب الكعبة قبيل الاسلام حريق سببته امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت شرارة في أستار الكعبة ، واحترق الركن الاسود واسودّ ، وتوهنت الكعبة (١٥) ثم جاء سيل دخل الكعبة وصدع جدرانها (١٦) وعلى اثر ذلك قررت قريش اعادة بنائها ، وتم ذلك قبل البعثة بثماني سنوات ، فقاموا بهدمها « حتى بلغوا الأساس الأول الذي وضع عليه ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت فابصروا أحجاره (١٧) .

وعندما أعادوا بناءها قصروا عن بنائها القديم (١٨) وجعلوه أصغر مما كان منذ زمن ابراهيم ، وجعلوا الأساس في البناء ستة اذرع (١٩) .

---

(٩) ١/٢٧ ، ٦٧ .
(١٠) ١/٦٨ .
(١١) ١/٢٧ ، ٤٤ ، ٦١ ، وعندما قام الطالبيون بثورتهم في زمن الرشيد اخذوا ما في البئر ١/٦٣ .
(١٢) ١/٢٨ ، ٥٤ ، ٦٨ .
(١٣) ١/١٠٠ .
(١٤) ١/١٣/٢٨ ، ١٠٠ .
(١٥) ١/١٠١ .
(١٦) ١٠٢٨ .
(١٧) ١/١٠٢/١٠٩/١٧٤/١٣٨٠ .
(١٨) ١/١٤١ .
(١٩) ١/١٣٢ .

واستعملوا في بنائها خشباً من ركام سفينة كانت على الساحل وجعلوها مداميك : مدماك من ساج ومدماك من حجارة (٢٠) وكان الخشب مدماكاً والحجارة مدماكا (٢١) وكان الخشب الذي استعملوه في البناء قصيراً (٢٢) . .

وجعلوا طولها عندما اعادوا بناءها عشرين ذراعاً لان الخشب الذي استعملوه كان قصيراً (٢٣) فتركوا منها في الحجر ستة أذرع وشبراً لان النفقة قصرت بهم (٢٤) .

وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الارض الى أعلاها ثمانية عشر ذراعاً(٢٥) وكان قبل ذلك تسعة اذرع (٢٦) .

وجعلوا لها سقفاً(٢٧) ، كما جعلوا لها ست دعائم بصفين متوازيين (٢٨) وردوا الجب في مكانه مما يلي الشق الشامي ، ونصبوا هبل على الجب كما كما كان قبل ذلك (٢٩) .

وجعلوا لها باباً واحداً بمصراع واحد (٣٠) ويغلق (٣١) ورفعوا الباب عن الأرض حتى لايدخل عليها الأبسلم ، وقالوا بذلك ، لايدخل عليكم الا من اردتم ، فان جاء احد ممن تكرهون ميتم به فيسقط ، فكان نكالا لمن راه (٣٢)

وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها الى ظهرها ، وزوقوا سقفها وجدرانها وبطنها ودعائمها ، وجعلوا في دعائمها صور الانبياء وصور الشجر وصور الملائكة (٣٣) .

---

(٢٠) ١/١٠٤ .
(٢١) ١/١٣٥ .
(٢٢)
(٢٣) ١/١٣٥ .
(٢٤) ١/١٠٩ .
(٢٥) ١/١٣٦ ، ١٠٤ .
(٢٦) ١/٩٩ ، ١٣٦ .
(٢٧) ١/١٠٩ .
(٢٨) ١/١٣٧ ، ١٤١ .
(٢٩) ١/١٠٦ .
(٣٠) ١/١٣٧ .
(٣١) ١/١٠٤ .
(٣٢) ١/١٣٥ .
(٣٣) ١/١٠٤ ، وانظر ايضا .

وردموا الردم الأعلى وصرفوا السيل عن الكعبة وكسوها الوصائل (٣٤)

بناء عبد الله ابن الزبير .

ظل بناء الكعبة على ما وضعته قريش قبيل البعثة الى زمن حركه عبدالله ابن الزبير ، حيث اصابها عندما حوصر تخريب من ضرب المجانيق ، ومن نار وصلتها .

وكان ابن الزبير قد تحصن في المسجد الحرام ، فنصب القائد الاموي الحصين بن نمير المجنيق على جبلى ابي قبيس والاحمر ، وهما اخشبا مكة ، فكان يرميهم بها فتصيب الحجارة والكعبة حتى تخرقت كسوتها عليها فصارت كانها جيوب النساء ، فوهنه الرمى بالمنجنيق (١)

ثم اصاب الكعبة شرارة من خيمة من يوم عاصف ، فاحترقت كسوة الكعبة واحترق الساج الذي فيه البناء (٢) وانصدع الركن بثلاث فرق (٣) ، حتى انها تنتقض من اعلاها الى اسفلها ، وتقع الحمام عليها فتتناثر حجارتها وهي مجرده فتوهنه من كل جانب (٩)

فلما توقف القتال على اثر وصول خبر وفاه يزيد بن معاوية قرر عبد عبد الله بن الزبير ان يعيد بناءها فامر بهدمها حتى الصقها كلها بالأرض من جوانبها جميعا ، وكان ذلك في منتصف جمادي الاخر من سنة ٦٤ ، وتم هدم الكعبة وتسويتها بالارض ، ثم كشف عن اساس ابراهيم وكان داخلا في الحجر نحوا من سته اذرع وشبرا (٥)

ثم وضع البناء على ذلك الاساس ، ووضع لها بابان ،باب الكعبة على مدماك على الشاذروان اللاصق بالارض ، شرقيا يدخل منه الناس ، وبابا

---

(٣٤) ١/١٠٩ ، ١٣٥ .

(ب) ١/١٣٣ .

(ث) ١/١٣٣ .

(أ) ١/١٣٢ .

(ت) ١/١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٣٦ .

(ج) ١/١٣٦ ، ١٤١ .

غربيا من ظهر الكعبة مقابلة يخرج منه الناس (٦) وجعل عتبته على الحجر الاخضر الطويل الذي في الشاذروان في ظهر الكعبة قريبا من الركن اليماني (٧) ولكل من بابيها مصراعين طول كل باب واحد وعشرين ذراعا من الارض الى منتهى اعلاه (٨) .

ولما بلغ البناء موضع الركن امر ابن الزبير بموضعه فنقر في حجرين ، حجر من المد ماك الذي تحته ، وحجر من المد ماك الذي فوقه بقدر الركن وطوبق بينهما (٩) .

وشد الركن بالفضة بعد ان كان قد تصدع من الحريق بثلاث فرق ، وكان طول الركن ذراعان قد اخذ عرض الجدار من مؤخر الركن داخله في الجدر ، مفرس على ثلاثة رؤوس (١)

وزاد في ارتفاعها تسعة اذرع اخرى فصار ارتفاعها في السماء سبعة وعشرين ذراعا ، وهي سبعة وعشرون مد ماكا ، وعرض جدارها ذراعان ، وجعل لها ثلاث دعائم

وجعل لها رواشن على سقفها الضوء ، من رخام جلبه من صنعاء يقال له البلق ، وجعل ميزابها يسكب في الحجر .

وجعل لها درجة في بطنها في الركن الشامي من خشب معرجة يصعد منها الى ظهرها (٢) ثم خلقها من داخلها وخارجها ، من اعلاها الى اسفلها ، وكساها القباطي (٣).

(ح) ١/١٣٦ ، ١٣٤ . (خ) ١/١٣٦ ، وانظر ايضا ١/١٤٥.
(ر) ١/١٣٦ ، ١٤١ ، ١٣٨ .
(ز) ١/١٣٧ ، ١٤١ وانظر عن الرواشن ١/١٩٧ .
(د) ١/١٣٦ . (ذ) ١/١٣٧ .
(س) ١/١٣٧ .

اعادة البناء في زمن عبدالملك بن مروان :

ولما قتل ابن الزبير واستقرت الخلافة لعبد الملك أمر الحجاج بن يوسف، وكان والياً على الحجاز ، بسد الباب الغربي الذي كان فتحه ابن الزبير وهدم ما كان زاد فيها من الحجر وردها الى ماكانت عليه . فهدم الحجاج منها ستة اذرع وشبرا مما يلي الحجر وبناها على أساس قريش الذي كانت استقصرت عليها وكبسها بما هدم منها ، وسد الباب الذي في ظهرها وترك سائرها لم يحرك منها شيئاً، فكل شيء فيها أصبح بناء ابن الزبير الا الجدار الذي في الحجر فانه بناء الحجاج ، وسد الباب الذي في ظهرها وما تحت عتبة الباب الشرقي الذي يدخل منه اليوم الى الأرض أربعة أذرع وشبر ، كل هذا بناء الحجاج .

ومن عمل الحجاج أيضاً الدرجة التي في بطنها اليوم والبابان اللذان عليها(٣٥).

وكان الحجاج نقص من الباب أربعة أذرع وشبراً ، وعمل لها بابين طولهما ستة أذرع وشبراً (٣٦) ثم زوّقها الوليد بالذهب .

وعمل الوليد بن عبد الملك الرخام الأحمر والأخضر والأبيض الذي في بطنها مؤزراً به جدرانها وفرشها بالرخام ، وجعل الجزعة . . في موضعها ، وجعل عليها طوقاً من ذهب ، فجميع ما في الكعبة من الرخام فهو من عمل الوليد بن عبد الملك ، وهو أول من فرشها بالرخام وأزر به جدرانها ، وهو أول من زخرف المساجد (٣٧)

الزخارف والمعاليق :

أمر الرسول (ص) بعد فتحه مكة بازالة ما كان في الكعبة من صور ورسوم ، كما أمر بتكسير صنم هبل ، وأبقى قرني الكبش معلقين فيها :

وعنى الخلفاء بزخارفها وتقديم هدايا تحفظ فيها ، وذكر الازرقي

(٣٥) ١/١٣٧ ـ ٨ . (٣٦) ١/١٣٨ .

(٣٧) ١/١٣٩ .

تفاصيل ما قدمه كل خليفة ، فقد بعث الخليفة عمر بن الخطاب هلالين ، مما غُنِـم من المدائن ، وعلّقها في الكعبة .

وبعث عبد الملك بن مروان شمستين وقدحين من قوارير ، وضرب على الاسطوانة الوسطى الذهب من أسفلها الى أعلاها صفائح .

وبعث الوليد بن عبد الملك بقدحين . إضافة الى ما قام به من زخرفتها وتذهيبها .

وبعث الوليد بن يزيد بالسريرين الزينبي وبهلالين .

وبعث الخليفة العباسي الأول أبو العباس بصفحة خضراء .

وبعث أبو جعفر المنصور بالقارورة الفرعونية .

ووضع هارون الرشيد في الكعبة قصبتين علقهما مع المعاليق .

وبعث المأمون ياقوتة تعلق في كل سنة بوجه الكعبة في الموسم بسلسلة من ذهب ، كما بعث سريرا من فضة مفروشا بالديباج ومكللا بالجواهر والياقوت والزبرجد .

وبعث المتوكل بشمسة عملها من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد بسلسلة من ذهب تعلق في وجه الكعبة في كل موسم (٣٨) .

وعلّق هرون الرشيد نسخة من توليته ولديه الأمين والمأمون العهد .

وأمر المأمون بتعليق الكتاب الذي أرسله مع السرير (٣٩) .

وكانت الكعبة تكسى من الخارج ، وأول من كساها أسعد تبّع ، كساها الوصائل ثياب حبرة من عصب اليمن (٤٠) .

ثم تابع رجال قريش كساءها وتجميرها بالخلوق وكانت تكسى في عاشوراء (٤١) .

(٣٨) ١/١٤٧ — ١٤٨ .
(٣٩) ١/١٤٩ — ١٦١ .
(٤٠) ١/١٦٥ — ٦ .
(٤١) ١/١٦٧/١٦٩ .

وكساها الرسول (ص) الثياب اليمانية ، ثم كساها ابو بكر وعمر وعثمان القباطي .

وكساها عثمان كسوتين : احداهما من القباطي والثانية من الديباج ، واجرى لها بطيف من الطيب في الصلاة والخلوق في الموسم وفي رجب ، واحد منها عبيراً ، ثم اتبعت ذلك الولاة بعده (٤٢) .

وكساها يزيد بن معاوية ، ثم الحجاج بالديباج .

وكان جوف الكعبة يخلّق منذ زمن عبدالله بن الزبير الذي كان أول من خلّقها (٤٣)

وكان معاوية اول من طيب الكعبة بالخلوق والبخور ، واجرى الزيت لقناديل المسجد من بيت المال (٤٤) .

وكانت الكعبة تكسى في كل سنة كسوتين : بالديباج يوم التروية وبالقباطي يوم عاشوراء .

ثم أمر المأمون ان تكسى بالديباج الابيض وبذلك صارت تكسى كسوات(٤٥).

وكان بعض الناس يكسونها بالانطاع والأدم والالبسة (٤٦) .

وأمر عمر أن تنزع كسوة البيت في كل سنة وتقسم على الحاج (٤٧) .

وأما مفاتيحها فظلّت بعد الاسلام بيد عثمان بن طلحة الشيبي ونسله من بعده (٤٨) .

مقام ابراهيم :

من أبرز المعالم في المسجد الحرام هو المقام الذي ترجع مكانته الى زمن

---

(٤٢) ١/١٦٨ ، وانظر ١٧٤ .
(٤٣) ١/١٦٨ ، ١٧١ .
(٤٤) ١/١٦٩ .
(٤٥) ١/١٧٠ .
(٤٦) ١/١٧٣ ، ١٧٤ .
(٤٧) ١/١٤١ .
(٤٨) ١/١٧٧ — ١٧٩ .

ابراهيم الخليل ، ولذلك كان يسمى مقام ابراهيم ، وقد ذكر في القرآن الكريم نصاً في آيتين فذكر عن البيت « فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا » (ال عمران ٩٧) « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى » (البقرة ١٢٥) .

ويذكر ابن اسحاق ان ابراهيم » عمد الى دوحة فوق زمزم في اعلا المسجد . . بين البير وبين الصفة فوضع اسماعيل وامه تحتها (٤٩) ويروى أيضاً ان أثر قدمي ابراهيم في المقام الى اليوم (٥٠) .

ويروى عن ابن عباس أنه وجد في المقام كتاب روى نصه وفي أوله ذكر أن هذا موقع البيت (٥١) .

ويروى عبد الله بن حمزة السلولي ان ما بين الركن الى المقام قبر تسعة وتسعين نبيا جاؤوا حجاجاً فدفنوا هناك (٥٢) .

ويروى ابن اسحاق أن ابراهيم أمر بالمقام فوضعه قبلة ، فكان يصلي اليه مستقبل الباب فهو قبلة الى ما شاء الله (٥٣) .

والمقام حجر رخو شبه السنان (٥٤) ، مربع الشكل أبعاده من أعلاه ومن أسفله ١٤ × ١٤ أصبعا(٥٥) وقد تعرض بسبب هشاشته الى التفكك في زمن الاسلام ، ولما علم الخليفة المهدي بذلك بعث الف دينار فضبب بها أسفله وأعلاه ، ثم جعل المتوكل فوق الذي كان عمله المهدي طوقاً اضافياً (٥٦) .

---

(٤٩) ١٩/١ ، ٢٣ ، ٢٤/٢ .
(٥٠) ٢٩/١ .
(٥١) ٣٧/١ .
(٥٢) ٣٠/١ ، ١٠٧/٢ .
(٥٣) ٢٣/٢ .
(٥٤) ٢٨/٢ .
(٥٥) ٢٩/٢ .
(٥٦) ٢٨/٢ ، ٢٩ .

ويبعد المقام عن الركن الأسود ٢٩ ذراعا وتسع اصابع ، وعن جدر الكعبة من وسطها سبع وعشرون ذراعا وعن شاذروان الكعبة ٢٦ ذراعا

وعن الركن الشامي ٢٨ ذراعا و ١٩ اصبعا

وعن المقام الى حد المسجد الذي يلي المسعى ١٨٨ ذراعا

وعن الجدار الذي يلي باب جمح ٢١٨ ذراعا

وعن الجدار الذي يلي باب الصفا ١٦٤ ذراعا ونصف ذراع

ويبعد عن زمزم ٢٤ ذراعا (٥٧)

وعن الصفا ٢٧٧ ذراعا (٥٨)

وعندما سيطر مضاض بن عمرو كان حوزه وجه الكعبة والركن الأسود والمقام وموضع زمزم مصعداً يميناً وشمالا ومتقعان الى اعلى الوادي (٥٩)

وعندما ارادت قريش قبيل ظهور الاسلام بناء الكعبة وظهرت لهم حية منعتهم من ذلك فاعتزلوا عند المقام (٦٠) .

غير انهم عندما هدموها لاعادة بنائها نقلوا هبل ونصبوه عند المقام (٦١)

تعرض المقام الى سيول كانت احياناً تدفعه عن موضعه ، وربما تحته الى وجه الكعبة (٦٢) ، غير انه ظل مثبتاً في مكانه في الجاهلية والاسلام (٦٣)

وكان اقوى سيل في الاسلام هو السيل المسمى بأم نهشل في زمن خلافة عمر بن الخطاب حيث دخل المسجد الحرام وجرفه الى اسفل مكة ، وعفى مكانه الذي كان فيه ، فأخذوه وربطوه بلصق الكعبة (٦٤)

---

(٥٧) ٢/٦٨ ـ ٦٩ .
(٥٨) ١/٩٦ .
(٥٩) ١/٤٢ .
(٦٠) ١/٤٤ ، ١٠٢ .
(٦١) ١/١٠٢ .
(٦٢) ٢/٢٥ .
(٦٣) ٢/٢٧ .
(٦٤) ١/١٣٥ ، ٢/٢٦ .

فقدم عمر ورده الى موضعه بمحضر الناس « واعلم ببناء ربطه تحت المقام ، ثم حوله فهو في مكانه الى هذا اليوم (٦٥) .

اشار القرآن الكريم الى ان المقام كان مصلى « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

وعندما قدم الرسول (ص) مكة ، كان يصلى الى المقام كلما كان بمكة (٦٦) وفي زمن الاسلام كانت الصلاة عادة خلف المقام (٩٧) .

« وكان الناس يقومون قيام شهر رمضان في اعلا المسجد الحرام ، وتركز حربة خلف المقام بربوة ، فيصلى الامام خلف الحربة والناس وراءه ، فمن اراد صلى مع الامام ومن اراد طاف بالبيت وركع خلف المقام (٦٨) .

زمــــزم :

بئر زمزم من أبرز المعالم في الحرم ، ويرجع حفره الى زمن ابراهيم الخليل عندما وضع زوجته هاجر وابنه اسماعيل في المسجد الحرام ، فوجدوا دوحة حفرت بقربها فظهر الماء (٦٩)

ثم نضب ماؤها عندما سيطرت جرهم على مكة حتى غبى مكان البئر ودرس (٧٠) فقام مضاض بن عمرو (فحفر في موضع بئر زمزم وأعمق ، ثم دفن فيه الأسياف والغزالين ٢٢ ، وقد يدل هذا على ان حفر مضاء كان غرضه إيجاد مستودع لبعض الهدايا ، وليس لانباط مائه (٧١) .

(٦٥) ٢٦/٢ ، ٢٧ .
(٦٦) ٧١/١ ، ٢٤/٢ .
(٦٧) ٧/٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٥٢ ، ٩٢ ، وانظر تفسير الطبري ٣١/٣ ، ٣٥ طبعة احمد محمد شاكر .
(٦٨) ٥٢/٢ .
(٦٩) ١٩/١ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٣٠/٢ ، ٣١ .
(٧٠) ٤٠/١ ، ٣٢/٢ .
(٧١) ٤٠/١ ، ٣٢/٢ .

وعندما سيطرت خزاعة على مكة كان موضع زمزم لايعرف لتقادم الزمان(٧٢)

وكان مكانها بين اساف ونائلة(٧٣)

وعندما رأس عبد المطلب قام بحفر البئر حتى أنبط الماء في القرار ، ثم فجرها حتى لاينزف ، ثم بنى عليها حوضا يشرب منه الحاج (٧٤) فعفت على آبار مكة كلهـــا لمكانها من البيت والمسجـــد وفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر اسماعيل بن ابراهيم في الموضع الذي ضرب عليه جبريل برجله (٧٥)

وقد لقي عبد المطلب معارضة من البعض فكان « يكسره ناس من حسدة قريش بالليل فيصلحه عبد المطلب حين يصبح(٧٦)

ونقل عبد المطلب الغزالين والسيوف التي كان قد وضعها عمرو بن لحى ، فوضع الغزالين وأحد السيفين على باب الكعبة ، ووضع السيف الثاني في الجب الذي في باطن الكعبة .

وظل فيه الى ان نقله القرامطة عندما غزوا مكة(٧٧)

وكان ماؤها فيه غلظ(٧٨) ، وكانت تسمى في الجاهلية شباعة(٧٩) ولما حفرت زمزم كثرت المياه بمكة « حتى يروى القاطن والبادى ودنت لها بكر وخزاعة فارتووا منها لاتنزح(٨٠)

---

(٧٢) ٣٢/١ . (٧٣) ٣٤/١٢ .
(٧٤) ٣٢/٢ ، ٣٣ ، ٦٥/١ . (٧٥) ١٠٧/٢ .
(٧٦) ٤٨/٢ .
(٧٧) ٤٨/٢ ـ ٩ (في رواية اخرى ان عمقها ستون ذراعا .
(٧٨) ٤٣/٢ . (٧٩) ٤٨/٢ .
(٨٠) ٤٨/٢ ـ ٩ ، ٨١ .

وكان ماؤها يزيد ويعذب إثر سقوط الامطار الغزيرة كالذي حدث سنة ٢٨١(٨١)

والمسافة بينها وبين الركن الاسود أربعون ذراعاً ، وبينها وبين الركن الذي فيه الحجر الاسود ست وثلاثون ذراعاً ونصف(٨٢) وما بين الركن الى المقام الى زمزم الى الحجر قبور يقال إنها لعدد من الانبياء(٨٣) وفي قعرها ثلاث عيون عين حذاء الركن الاسود ، وعين حذاء أبي قبيس والصفا ، وعين حذاء المروة(٨٤)

وكان غورها من رأسها الى الحبل اربعين ذراعا ، كله بنيان ، وما بقى فهو جبل منقور وهو تسعة وعشرون ذراعاً ، وذرعه في السماء ذراعان وشبر(٨٥) ، وهي أرفع من المسجد(٨٦)

وقد تناقص ماؤها في زمن الاسلام ، فجرى تعميقها في زمن كل من المهدي والرشيد ووصل الماء اقله في سنة ٢٢٣ ، فجرى تعميقها تسعة اذرع ، وزيد في تقوير جوانبها(٨٧)

وسعة فمها ثلاثة اذرع وثلثا ذراع ، وتدويره من الخارج ١٥ ذراعاً ومن الداخل احد عشر ذراعاً وعليه ملبن ساج مربع فيه اثنتا عشرة بكرة يستقى عليها .

وفرش ابو جعفر أرضها بالرخام ، ثم جدده المهدي (٨٨)

كان لزمزم في الزمان الاول حوضان أحدهما بينها وبين الركن يشرب منه . والثاني من ورائها له سرب يذهب فيه الماء من باب الصفا حيث يتوضأ الناس ، ويصب الزائد من الماء في بئر ، ولم يكن عليها شباك .

---

(٨١) ٢/٤٧ .
(٨٢) ٢/٢٦ .
(٨٣) ٢/٣١ .
(٨٤) ٢/٤٨ .
(٨٥) ٢/٤٨ — ٤٩ .
(٨٦) ٢/٤٩ .
(٨٧) ٢/٨٢ .
(٨٨) ٢/٨٣ .

وكان موضع السقاية بين الركن وزمزم مما يلي ناحية الصفا الى أن نحاها ابن الزبير(٨٩)

وكان موضع مجلس ابن عباس في زاوية زمزم التي تلي الصفا والوادي ، على يسار من دخل زمزم وقد عمل سليمان بن علي على هذا المجلس قبة ، ثم عمل المهدي القبة التي على الصفحة التي بين زمزم وبين الشراب ، وهي في موضع الدوحة التي انزل ابراهيم ابنه اسماعيل وأمه هاجر تحتها(٤)

وتبعد الحجرة عن وسط جدار الحوض واحداً وثلاثين ذراعاً ونصف ذراع .

أما سقاية العباس عبدالمطلب فهى بحيال الحوض ، تربطها بالحوض قناة رصاص طولها ستة أذرع ، يصب فيها الى الحوض الذي فيه القبة ايام الحج ، ثم نقضت في زمن المهتدى وجعل فيها بركة صغيرة يخرج فيها الماء من الفوارة التي في بطنها ، وجعل عليها شباك من خشب بأبواب تغلق (٩٠)

وسقاية العباس تسعة عشر ذراعاً ، فيها أربعة أساطين بينها ألواح ساج ، وأرتفاعها ثمانية أذرع (٩١) .

وتبعد سقاية العباس من وسطها الى الجدار الذي يلي المسعى مائة ذراع ، والى الجدار الذي يلي باب جمح مائين وتسعين ذراعا ، والى جدار دار الندوة مأتي ذراع ، والى الوادي خمسة وثمانين ذراعا(٩٢)

وكان لها بابان باب حيال الكعبة والآخر من الجدر الذي يلي الوادي ، وفيها ستة أحواض ، منها ثلاثة طول كل منها خمسة اذرع ونصف وعرضه ذراعان وارتفاعه ثلاثة اذرع ونصف ، وثلاثة اخرى ارتفاع كل منها ذراع ونصف ،يملى كل منها حوض من أدم ويجري من قناة تتصل بحجرةزمزم

(٨٩) ٦٩/٢ .

(٩٠) ٨١/٢ ، ٤٩ .

(٩١) ١٧٦/٢ ، ١٧٩ .

(٩٢) ٨٠/٢ .

ثم اعاد بناءها عمربن فرج في زمن المعتصم وسقفها بالساج المذهب من داخلها وجعل عليها من ظهرها الفسيفساء ، واشرع لها جناحاً صغيراً كما يدور تربيعها ، وفيه سلاسل فيها قناديل يستصبح بها في الموسم وكانت القبة التي بين زمزم وبين الشراب مكشوفة تزوق في كل موسم فجعل عليها عمر ابن فرج الفسيفساء (٩٣)

ووضع مطعم بن عدى حوضاً من أُدم الى جنب زمزم يسقى فيه من بئر (٩٤)

وبالقرب من زمزم حوض ارتفاعه تسعة عشر اصبعا وعرضه ثمانية عشر اصبعا وسعته اثنا عشر ذراعا وتسع أصابع ، وتدوير الحوض من داخل تسع وثلاثون ذراعاً وجداره ملبس رخاماً ، عرضه ذراع واربعة اصابع ، وهو مفرش بالرخام ثم جعله عمر بن فرج بحجر مفجرى(٩٥)

وعلى زمزم حجرة ساج تسقف الحوض ، ارتفاع بابها ثلاثة أذرع ، وعرضه ذراعان ، وهي مفروشة بالرخام بينها وبين حد البئر أربعة اذرع عليها أربعة أساطين زجاج عليها ملبن ساج مربع فيه اثنتا عشرة بكرة يستقى عليها الماء ، وفي حد مؤخرة مما يلي الوادي ظلة ساج للتعليم

وفي حدها اسطوانة ساج مستقبل الركن الذي فيه الحجر الاسود فوقها قبة من شَبَه يسرج فيها بالليل لاهل الطواف يقال له مصباح زمزم(٩٦)

* * *

(٩٣) ٨٠/٢ .
(٩٤) ٨١/٢ .
(٩٥) ٤٩/٢ .
(٩٦) ٤٩/٢ .

المسجد الحرام

تقع الكعبة والمقام وزمزم في ساحة كانت مكشوفة هي المسجد الحرام ، وهي مقدسة منذ ازمنة موغلة في القدم(١) وكانت تمتد من الحزورة جنوباً الى سيل أجياد (٢) والمسعى(٣) ، ولم يكن حولها حائط أو سياج يحدها ، وانما كانت في اطرافها رباع العشائر ودور بعض المتنفذين ، ولا بد ان البعض ، وخاصة المتنفذين تجاوزوا على أطراف هذه الساحة وبنوا على هذه الاطراف مساكنهم فاصبح « المسجد ضيق ليس بين جدر المسجد وبين المقام الا شيء يسير ، ولم يكن له سياج يحيطه وانما جدراته جدرات الناس(٤) » ليس عليه جدرات محاطة ، وانما كانت الدور محدقة به من كل جانب ، غير ان بين الدور أبواباً يدخل منها الناس من كل نواحيه (٥)

وعندما جاء الاسلام اصبحت هذه الساحة المسجد الوحيد في مكة ، فكانت تضيق بالمصلين مما حمل الخلفاء على توسيعها بضم بعض البيوت في اطرافها اليها ، وكان أول توسيع لهما في زمن خلافه عمر بن الخطاب ، ثم تلاه توسيع ثان في زمن خلافة عثمان (٦) لم يحدد المؤرخون جهته وسعته .

ثم تلا ذلك توسيع في زمن كل من عبدالله بن الزبير والوليد بن عبد الملك ، وأبي جعفر المنصور ، والمهدي ، والرشيد؛وفيما يلي وصف ماكان حول المسجد من بيوت ، وما دخل منها في التوسيعات .

ظل المسجد على وضعه الى أن أعلن عبد الله بن الزبير حركته ، وكان مما قام به توسيع المسجد في جهته الشرقية ، فأضاف اليه بعض دار الأزرق ، ثم أشرعه على الوادي مما يلي الصفا وناحية بني مخزوم ومضى به مصعداً

---

(١) ١/١٥ ، ١٨ .
(٢) ٢/٥٠ .
(٣) ٢/٤٩ .
(٤) ١/١٩٣ .
(٥) ٢/٥٤ .
(٦) ٢/٥٥ .

من وراء بيت الشراب تاركاً بين هذا البيت وحائط المسجد سبعة أذرع ، ثم ردّه الى باب دار شيبة بن عثمان(٧) .

وقام عبد الملك برفع جدران المسجد وسقفه بالساج وعمّره عمارة حسنة ، ثم نقض الوليد عمل عبدالملك وعمله عملا محكماً ، ونقل اليه أساطين الرخام ، وسقّفه بالساج المزخرف وزخرف الطيقان بالفسيفساء وكسا بصفائح الصفر ، وجعل له شرافات ، ولكنه لم يزد في توسيعه(٨) .

وقام أبو جعفر المنصور بتوسيعه ، فزاد في شقه الشمالي الذي يلي دار العجلة ودار الندوة ، وأدخل فيه أكثر دار الندوة وبعض دار شيبة وكان ذلك في سنة مائة واربعين (٩) .

وفي سنة مائة وستين حج المهدي وأمر بأن يزاد في أعلى المسجد ، فأدخل ما بقي من دار الازرق ودار خيرة بنت سباع الخزاعية ودار لآل جبير بن مطعم ، وبعض دار شيبة بن عثمان ، وجعل المسجد شارعاً على المسعى دون أن يزيد فيه (١٠) .

وفي سنة مائة واربع وستين أمر المهدي فحوّل الوادي وهدمت الدور بينه وبين المسجد ، وأدخل المسعى والوادي وماكان بين الصفا والوادي في المسجد فزادوا فيه من جهة الوادي تسعين ذراعاً ، وكان عرضه قبل ذلك قرابة خمسين ذراعاً (١١) .



(٧) ٥٦/٢ .
(٨) ٥٧/٢ .
(٩) ٥٨/٢ — ٥٩ .
(١٠) ٥٩/٢ .
(١١) ٦٣/٢ — ٦٤ .

القسم الثاني

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الأربعون - الجزء الثاني

1410هـ - 1989م

المعالم العمرانية في مكة المكرمة

في القرنين الاول والثاني

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

المعالم العمرانية حول المسجد الحرام

ان المعالم العمرانية حول المسجد الحرام يمكن تحديدها من أبواب المسجد ، وقد ذكرها الأزرقي وحدد جهات مواقعها وتتابعها ، وكانت ثلاثة وعشرين بابا .

١ : في الشق الذي يلي المسعى وهو الشرقي خمسة أبواب
(١) باب بني شيبة وهو باب بني عبد شمس
(٢) باب دار القوارير
(٣) باب النبي
(٤) باب العباس بن عبد المطلب وعنده علم المسعى
(٥) باب بني هاشم

٢ : الشق اليماني الذي يلي الوادي سبعة ابواب
(١) باب بني عائذ
(٢) باب بني سفيان بن عبد الاسد

(٣) باب الصفا وهو باب بني عدي بن كعب

(٤) باب بني مخزوم

(٥) باب بني مخزوم

(٦) باب بني تيم (دار عبد الله بن جدعان ، وعبد الله بن معمر

(٧) باب أم هانيء

٣ : الشق الذي يلي بني جمح ستة ابواب

(١) باب بني حكيم بن حزام

(٢) باب الزبير بن العوام او باب الحزامية ، او باب الخياطين

(٣) باب بني جمح (الخياطين)

(٤) باب أبي البختري (عند دار زبيدة)

(٥) باب يشرع في زقاق دار زبيدة

(٦) باب بني سهم

٤ : الشق الشامي الذي يلي دار الندوة ودار العجلة فيه ستة ابواب

(١) باب عمرو بن العاص

(٢) باب سُدّ في دار العجلة

(٣) باب دار العجلة

(٤) باب قعيقعان (باب حجير بن أبي إهاب)

(٥) باب دار الندوة

(٦) باب دار شيبة بن عثمان

وذكر كتاب المناسك ان للمسجد ثلاثة وعشرين باباً وسمى الابواب دون ان يحدد اتجاهاتها ، وتسميته بعضها يختلف عن تسميات الازرقي والفاكهي ، وعند المقارنة بينهما واعادة ترتيبها في مواضعها تبعا لما ذكره الازرقي يكون ما ذكره كمايلي (ووضعنا اشارة × على ماذكره الازرقي)

١ ـ في الشـــق الشـــرقي

(١) باب القاضي
(٢) باب آل عباد
(٣) باب بني هاشم ×
(٤) باب بني هاشم مقابل سوق الليل
(٥) باب النبي ×
(٦) باب دار القوارير ×
(٧) باب في رحبة الحدّادين

٢ ـ في الشـــق اليماني

(١) باب أصحاب الزيت
(٢) باب قيس بن السائب
(٣) باب خالد بن العاص
(٤) باب ابن جدعان (تيم ×)
(٥) باب المغيرة بن مخزوم (مخزوم ؟) ×
(٦) باب الصفا ×
(٧) باب الأرقم

٣ ـ ظهر الكعبة

(١) باب بني سهم الكبير
(٢) باب دار زبيدة ×
(٣) باب بني جمح ×
(٤) باب الحناطين
(٥) باب البقالين

الشــق الشــامي

(١) باب بني شيبة ×

(٢) باب دار الامارة

(٣) باب بني شيبة الصغير

(٤) باب دار الندوة ×

(٥) باب ابن الزبير

(٦) باب العجلة ×

(٧) باب عمرو بن العاص ×

(٨) باب بني سهم الصغير

وذكر الفاكهي ، الدور التي تستقبل المسجد الحرام من جهة الشام ، ثم المغرب ، ثم اليماني ، ثم الشرقي ، ونذكرها فيما يلي مرتبة تبعا لترتيب الابواب كما ذكره الازرقي .

١ -- الشق الشرقي

(١)دار عيسى بن موسى ، كان سفيـــان بن عيينة سكنها ثم صــارت متوضيات لزبيدة

(٢)الى جنبها دار لبعض ولد محمد بن عبد الرحمن عند اصحاب الصابون

(٣)دار ابي عزارة واحمد بن ابراهيم المكيين ، وهي بقية الدار التي فيها حلف الفضول وهي اليوم لصاعد بن مخلد

(٤)ودار عباس بن محمد المشرفة على باب أجياد الصغير

(٥)ثم دار يحيي بن خالد بن برمك وتعرف اليوم بابي احمد بن الرشيد

(٦)ثم دار شفيقة فيها البزازون وبين يديها الصيارفة

(٧)ثم دار المطلب بن حنطب التي باعتها ام عيسى بنت سهل بن عبد العزى بن المطلب المخزومية من محمد بن داوود فبناها ، ثم صارت

لابنه عبدالله بن محمد بن داوود وبه تعرف : شارعة على الصفا والوادي

(٨)ثم دار الأرقم بن أبي الارقم المخزومي وبها دار احمد بن اسماعيل ابن علي على الصفا

(٩)ثم دار صبية مولاة العباسة

(١٠)ثم دار الخيزران لولد موسى أمير المؤمنين ، وهي اليوم ، أو بعضها ، لابي عمارة بن ابي ميسرة

(١١)ودار القاضي محمد بن عبد الرحمن السفياني مشرعة على منارة المسجد والوادي

(١٢)ثم دار عبّاد بن جعفر عند العلم الاخضر

(١٣)ودار يحيى بن خالد بن برمك تشرف على سوق الليل والوادي ويقال إنه اشتراها بتسعين الفـا وانفق عليها عشرين ومائة الف دينار ثم هي اليوم في يد ورثة وصيف

(١٤)ودار موسى بن عيسى في أصلها الميل الاخضر وهو علم المسعى

(١٥)ثم دار جعفر بن سليمان عند زقاق العطارين

(١٦)ودار الازهريين

(١٧)ودار امير المؤمنين التي بناها حماد البربري على الصيادلة فاحترقت ثم صارت اليوم لابي عيسى ابن المتوكل

(١٨)ثم دار الفضل بن الربيع بناها وأراد أن يسويها بدار ابن علقمة فمنع من ذلك فجعل اسطوانة في ركن الدار مما يلي دار ابن علقمة فيقال إن امير المؤمنين قال له حين رآها ما اشبه دارك هذه بعجوز تمشي على عكازة .

(١٩)ثم دار نافع بن علقمة الكناني كان امير المؤمنين قبضها ثم ردها عليهم ، وقال بعض المكيين كان لآل طلحة بن عبيد الله فيها شيء فأخذه

نافع بن علقمة منهم في ولايته على مكة .

(٢٠)وتقابلها دار عيسى بن علي .

(٢١)والى جانب دار عيسى بن علي منزل ابي غبشان الخزاعي بين دار عيسى بن جعفر التي فيها الحذاؤون وهي اليوم بيد ورثة أحمد المولد،بينها وبين دار الامارة الى السويقة وما ناحاها .

(٢٢)ودار احمد بن سهل الى جنب دار ابن علقمة ، وهي من الدور التي قال رسول الله (ص) من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

٢ — وذكر في الشق اليماني

(١) دار عمرو بن عثمان التي تستقبل باب الحناطين

(٢) والى جانبها دار ابن بزيع

(٣) ودار سعيد بن مسلم الباهلي

(٤) ودار بنت الاشعث عند التمارين

(٥) ودار ابراهيم بن مدبر الكاتب

(٦) ودار عيسى بن محمد المخزومي عند فم خط الحزامية، خربها ابن ابي الساج فهي خراب الى اليوم

(٧) ثم دار المعبدي على فوهة أجياد الكبير صارت لمحمد بن احمد ابن سهيل اليسوم فاخرجها الحناطون والجزارون ايام الفتنة فيهم وكانت قبل ذلك لجعفر بن خالد بن برمك

٣ — وذكر في الشق الذي يلي بني جمح (الغربي)

(١) دار اسحاق بن ابراهيم ، كانت لعبيد الله بن الحسين ، ثم صارت لاسحاق بن ابراهيم وهي اليوم لعلي بن جعفر البرمكي

(٢) ودار عمرو بن العاص

(٣) ودار ابن عبد الرزاق الجمحي

٤ ـ وذكر في الشق الشمالي

(١) دار شيبة بن عثمان وخزانة الكعبة تحتها ، وهي الى جنب دار الامارة

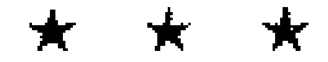
(٢) ودار الفضل بن الربيع وهي اليوم في الصوافي عند دار حجير بن ابي اهاب

(٣) ودار صاحب البريد التي يسكنها أصحاب البرد بمكة

(٤) ودار مسرور خادم زبيدة

وذلك كله من الجانب الشامي(١٢)

واكثر هذه الدور كانت في القرن الثالث الهجري ، ولم يشر الفاكهي الى الدور القديمة التي حلت هذه الدور محلها ، كما ان عدد البيوت غير متوازن فهي كثيرة جدا في الشق الشرقي وقليلة في الشق الغربي والشمالي مما يرجع اما الى سعة هذه الدور او الى ان قائمة الفاكهي غير مستوعبة وانما قتصرت على ابرز البيوت .



(١٢) الفاكهي ٢/١٨٨ ــ ١٩٨ = ١٤ ــ ١٦) طبعة وستنفلد .

المعالم الجنوبية

اجياد الكبير :

اجياد الكبير شعب يمتد نحو الجنوب الى اسفل المسجد الحرام ، وتشرف عليه المنارة التي عند الباب الأول من شق بني جمح (١٣)

ويتصل الأجيادان الكبير والصغير ، وفي مجتمعهما دار عبد الله بن جدعان «شارعة على الوادي ، على فوهتي سكتي أجيادين : اجياد الكبير واجياد الصغير ،وقد عقد فيها حلف الفضول ، ثم دخلت في المسجد عندما وسّعه المهدي ، (١٤)

وفي مجتمع اجيادين دار العلوج ، كانت لخالد بن العاص بن هشام (١٥) كما كان بين الاجيادين شعب المأتم(١٦)

وبين اجياد الكبير وابي قبيس جبل رأس الانسان(١٧)

كان اجياد الكبير يسمى في الجاهلية«كيد» ، ويشرف عليه جبل خليفة الذي يمر سيله بدار حكيم بن حزام ، وقد خلّج الناس فيه خليجاً يجرى تحت البيوت ، وانتبط فوقه ، وكان يلي هذا الخليج قرن القرظيين ربع آل مرة بن عمرو الجمحيين ، وبين الطريق التي لآل وابصة (١٨)

وفي فوهة اجياد دار أبي العاص زوج زينب بنت الرسول (ص) آلت الى ام السائب بنت جميع الأموية ، ثم اشتراها جعفر بن يحيي البرمكي بثمانين الف دينار وعمّرها بالحجر المنقوش والساج (١٩)

---

(١٣) الازرقي ٧٢/٢ ، ٦٥ .
(١٤) الازرقي ٢٠٧/٢ .
(١٥) الازرقي ٢٠٨/٢ .
(١٦) الازرقي ٢٣٥/٢ .
(١٧) الازرقي ٢٣٥/٢ .
(١٨) الازرقي ٢٠٢/٢ .
(١٩) الازرقي ١٩٥/٢ .

وفي طرف اجياد بقيت بعد توسيع المهدي مسجد الرسول قطعة قرب الصيارفة كان فيها دار ابن عزارة ، ودار المكيين التي عند الغزالين (٢٠)

والاجيادين لبنى مخزوم ، وفيه أيضاً حق بني جدعان وآل عثمان التيميين ودار علة ودار خالد بن العاص المسماة دار الدومة ، وفيه منزل ابي جهل الذي صار لهشام بن سليمان (٢١)

وفي طرف أجياد الكبير دار بني عبد الله بن عكرمة المخزومي ، اشتراها ياسر ، عندها بئر الحفر(٢٢)

وفي اجياد دار عتبة بن ربيعة في ظهر دار خالد بن العاص بن هشام المخزومي ثم صارت الى موسى بن عيسى ، وعملت فيها متوضيات (٢٣) وكانت في اصل اجياد في الجاهلية سوق يقال لها الكثيب تمتد من دار الحارث الى موقف البقر واسفل منها العرابات التي يرفعها آل مرة من بني جمح الى الثنية (٢٤)

وبالقرب من اجياد كانت الحزورة تشرف عليها المنارة التي تلي اجياد ، وكانت الحزورة بفناء دار ام هانئ بنت ابي طالب (٢٥) التي كانت عند سوق الخياطين ، ثم دخلت في المسجد الحرام (٢٦) وفي هذه الدار كانت بئر العجول (٢٧) وكانت الحزورة في اول الاسلام سوقاً كلها (٢٨)

وعند باب اجياد الكبير تنح الحزامية على الوادي . في منتهى المجرى الذي حفره المهدي بالمجرى القديم (٢٩) ، وخط الحزامية يقابل باب الحزامية ،

---

(٢٠) الازرقي ٢/٢١٨ .
(٢١) الازرقي ٢/٢٠٨ .
(٢٢) الازرقي ٢/١٧٦ ، ١٩٥ .
(٢٣) الازرقي ٢/١٩٣ .
(٢٤) الازرقي ٢/٢٣٥ .
(٢٥) الازرقي ٢/١٧٤ ، ٢٣٨ .
(٢٦) الازرقي ٢/٢٣٨ .
(٢٧) الازرقي ٢/١٧٤ .
(٢٨) الازرقي ٢/٢٤٨ .
(٢٩) الازرقي ٢/٦٤ .

من أبواب المسجد الحرام (٣٠) وكان هذا الاسم الغالب عليه (٣١) ، وان كان يسمى احيانا باب بني الزبير بن العوام اوباب البقالين (٣٢) وعند فوهة الحزامية عمل عبد الملك بن مروان ردم الحزامية (٣٣)

وفي فوهة الحزامية دار خرابة ، وهي عند اللبانين شارعة على الوادي ، كانت لبني مخزوم ثم صار بعضها لخالصة وبعضها لعيسى بن محمد بن اسماعيل المخزومي وبعضها لابن غزوان الجندي (٣٤)

وفي خط الحزامية دار البخاتي ، كانت فيها بخاتي معاوية بن ابي سفيان اذا حج ، وفيها بئر ثم صارت لولد ابي عبد الله الكاتب (٣٥) وهي غير دار البخاتي التي كانت بين دار الندوة ودار العجلة وكان يمتلكها عبد الله ابن الزبير (٣٦)

وفي سكة الحزامية دار عبد الله بن الزبير بن العوام ، يتلوه باب خير ، وقبالة دار ابن الزبير بئر السنبلة ، كانت لخلف بن وهب الجمحي ، ثم صارت تسمى بئر ابي (٣٧) وبلصقه حق الوابصيين ثم دار الحارث بن عبد الله بدرب ربيعة (٣٨)

وفي الحزامية دار حكيم بن حزام التي تزوج فيها الرسول (ص) خديجة (٣٩)

(٣٠) الازرقي ٢/٧٣ .
(٣١) الازرقي ٢/٦٤ .
(٣٢) الازرقي ٢/١٣٦ .
(٣٣) الازرقي ٢/٢١٠ .
(٣٤) الازرقي ٢/١٩٢ .
(٣٥) الازرقي ٢/٢٠٣ .
(٣٦) الازرقي ٢/٢٠٣ .
(٣٧) الازرقي ٢/١٧٧ .
(٣٨) الازرقي ٢/٢١٠ .
(٣٩) الازرقي ٢/٢٠٣ .

الاطراف الشمالية من المسجد الحرام السويقة وقعيقعان

ذكر الازرقي في الشق الشمالي من المسجد الحرام ستة ابواب هي حسب تسلسلها .

١- الباب الاول يلي المنارة التي تلي باب سهم وهو باب عمرو بن العاص .
٢- الباب الثاني قد سد في دار العجلة وموضعه بيّن لمن يقابله .
٣- الباب الثالث وهو باب دار العجلة .
٤- الباب الرابع باب قعيقعان . . وهو باب حجير بن اهاب .
٥- الباب الخامس باب دار الندوة .
٦- الباب السادس باب دار شيبة بن عثمان ، يسلك منه الى السويقة (١) .

وذكر أيضاً ان الباب الاول في الشق الشرقي هو باب بني شيبة وكان يعرف في الجاهلية والاسلام باسم باب بني عبد شمس بن عبد مناف (٢) ، كما ذكر أن باب بني سهم يلي باب بني جمح (٣) ، ويظهر من هذا ان بني سهم كانت رباعهم في الاطراف الشمالية الشرقية من المسجد . وقد حدثت في الاطراف الشمالية من المسجد تبدلات بسبب الترسيع الذي أحدثه عبد الله ابن الزبير ثم ابو جعفر المنصور والمهدي .

ويذكر ان الظلال التي تلي دار الندوة ٢٤٢ ذراعا (٤) ؛ وان عرض المسجد من منارة باب أجياد الى منارة بني سهم ٢٧٨ ذراعاً (٥) . وهذه الأبعاد هي بعد توسيع المهدي .

---

(١) الازرقي ٢/٧٤ . (٢) الازرقي ٢/٦٩ .
(٣) الازرقي ٢/٧٧ ، وانظر : الفاكهي ٢/٢٦٠ .
(٤) الازرقي ٢/٦٨ . (٥) الازرقي ٢/٦٥ .

يقع باب بني سهم في الجهة الغربية من الشق الشمالي ، وعنده دار عمرو بن العاص ، تشرف عليهما احدى منائر المسجد (٦) . وكان الرسول (ص) يصلي مما يلي باب بني سهم (٧) ، وفي هذه المنطقة كانت رباع بني سهم ممتدة الى ما حاز سيل قعيقعان من دار عمرو بن العاص الى دار غباءة السهمي (٨) .

يظهر من تسلسل مواقع أبواب الأطراف الشمالية من المسجد الحرام أن دار العجلة كانت تلي دار عمرو بن العاص . ودار العجلة من دور بني سهم (٩) ، كانت لآل سمير بن موهب السهمي فابتاعها عبد الله بن الزبير ، ورويت في تسميتها روايتان تذكر احداهما أنها سميت بذلك لأنه عجل في بنائها ، فكان العمال يشتغلون ليل نهار لاكمالها ، وتذكر الرواية الثانية أن حجارتها كانت تنقل على عجل تجرها البخاتي (١٠) ، ولا بد انها صودرت بعد فشل حركة ابن الزبير ، وقد دخل بعضها في المسجد الحرام عند توسيع ابي جعفر (١١) ، واعاد يقطين بن موسى بناءها للخليفة المهدي ، وصار بعضها للربيع ، ثم صارت في الصوافي يسكنها صاحب البريد (١٢) ، وأخرب بعضها حسين بن حسن العلوي في ثورته (١٣) ثم امر المعتصم باعادة عمارتها ، وجعل عليها ابوابا مزورّة تطوى وتنشر (١٤) .

وبقرب دار العجلة كانت دار للخطاب بن نفيل العلوى ثم صارت لمصعب بن الزبير (١٥).

وعند دار العجلة منزل عرض فيه المهدي اربعة الاف دينار فلم يبعه (١٦) .

---

(٦) الازرقي ٢/٧٤ ، ٥٨ .
(٧) الازرقي ٢/٥٢ .
(٨) الازرقي ٢/٢١٣ .
(٩) الازرقي ٢/٢١٢ .
(١٠) الازرقي ٢/٢٠٤ .
(١١) الازرقي ٢/٥٧ .
(١٢) الازرقي ٢/٢٠٣ .
(١٣) الازرقي ٢/٢٠٧ .
(١٤) الازرقي ٢/٧٥ .
(١٥) الازرقي ٢/٢٠٢ .
(١٦) الموفقيات للزبير بن بكار ٢٨٦ .

وبجانب دار العجلة ، بينها وبين دار الندوة كانت دار البخاتي التي بجانبها دار فيها بيت مال مكة ، وهي في الاصل من دور بني سهم ، ثم صارت لابن الزبير ، ثم قبضها عبد الملك بن مروان ، وادخلها فيما بعد بقطين بن موسى في دار العجلة عندما بناها (١٧) .

وبين باب دار العجلة وباب حجير يقع قعيقعان (١٨) .

اما دار حجير فكان لها بابان : يشرع اولهما على فوهة سكة قعيقعان ويتجه الثاني الى السكة التي تخرج الى المسجد ، وكانت لال معمر بن حنظل الجمحي ، ثم آلت إلى حجير بن ابي اهاب السهمي ، ثم اشتراها يحيى بن خالد البرمكي بستة وثلاثين الف دينار (١٩) ، ثم اقطعت لعمرو بن الليث الصفار ، ثم صار بعضها اصطبلا للسلطان ، وبعضها بيوتاً للسكن لاصقا بدار العروس ودار جعفر بن محمد (٢٠) .

اما دار الندوة فقد فصّل الخزاعي في تطور ملكيتها واحوالها ، فذكر انها كانت لاصقة بالمسجد الحرام ، وكانت دار قصي ، ثم صارت الى عبد الدار ، ثم آلت الى ابنه عبد مناف ، ثم انتقلت الى ابنه هاشم ثم الى عمير وعامر ابنى هشام ، ثم الى ابن الرهين العبدي ، وهو من ولد عامر بن هاشم (٢١) ، ثم اشتراها منه معاوية وعمرها وكان ينزل فيها اذا حج ،

---

(١٧) الازرقي ٢٠٣/٢ .
(١٨) الازرقي ٧٤/٢ ، وانظر ١٤ .
(١٩) الازرقي ٢٠٢/٢ .
(٢٠) الازرقي ٧٤/٢ ، ٢٠٢ .
(٢١) يروى الزبير بن بكار ان دار الندوة كانت في يد حكيم بن حزام ، ثم باعها بعد معاوية بمائة الف (نسب قريش ٣٦٨) ويقول مصعب الزبيري ان حكيم بن حزام اشترى في الجاهلية دار الندوة من منصور بن عامر بن هاشم (نسب قريش ٢٥٤) ، ويذكر الفاكهي ان بدير دار الندوة دار يقال لها دار الحنطة ، سميت بذلك لان ابن الزبير وضع فيها حنطة الارزاق التي كان يجريها بمكة (اخبار مكة ٣١٢/٣) .

ثم تابع الخلفاء الامويون النزول فيها اذا حجوا ، ودخل بعضها في المسجد الحرام فيزيادات عبد الملك بن مروان ، والوليد ، وسليمان ، وأبي جعفر المنصور

وتابع خلفاءبني العباس النزول فيها اذا حجّوا ، الى ان ابتاع هاورن الرشيد دار الامارة عند بني خلف الخراعيين ، فتعرضت دار الندوة للخراب والهدم ، وصارت مقاصير النساء فيها تكرى من الغرباء والمجاورين ، اما مقاصير الرجال فكانت لدواب عمال مكة . ثم صار ينزلها عبيد العمال من السودان وغيرهم ويعبثون فيها ويؤذون جيرانهم ، و كانت تلقى فيها القمائم ، و كان ماء المطر يسيل منها الى المسجد الحرام ، ولما علم الخليفة المعتضد بذلك امر بعمارة دار الندوة مسجدا يوصل بالمسجد الكبير وعزق الوادي ، فأعيد بناؤها وفتح لها اثنا عشر بابا في جدار المسجد الكبير ، وبذلك اتصلت بالمسجد الكبير ، وصار من يصلي فيها يستقبل الكعبة (٢٢) .

كان باب شيبة الباب الاخير الذي يقع في الطرف الشرقي من الجدار الشمالي وعنده اول الاميال الاثنى عشر بين مكة وعرفة (٢٣) ، وكان يقال له ايضا باب السيل لان السيول كانت تدخل منه الى المسجد الحرام قبل ان يعمل عمر بن الخطاب الردم الأعلى (٢٤) . وهو الباب الكبير الذي يدخل منه الخلفاء ، وكان يقال له أيضاً باب بني عبد شمس (٢٥) .

وعند هذا الباب تقع دار شيبة بن عثمان وهو لاصق بالمسجد الحرام وقد ادخل في المسجد الحرام(٢٦) عندما وسعه ابو جعفر (٢٧) ، ثم المهدي(٢٨) . وهذه الدار بجنب دار الندوة (٢٩) ، ويتصل بها ربع آل نافع الخزاعيين (٣٠)

---

(٢٢) الازرقي ٢/٨٧ – ٩٠ ، وانظر ٢٥٤ .
(٢٣) ٢/١٢٣ .
(٢٤) ٢/١٣ .
(٢٥) ٢/٦٢ .
(٢٦) ٢/٥٩ .
(٢٧) ٢/٥٨ .
(٢٨) ٢/٦٠ .
(٢٩) ٢/٢٠٤ .
(٣٠) ٢/٢٠٥ ، ٢٢٩ .

وعلى يمين من خرج من باب شيبة كانت تقع دار الازرق وكانت لاصقة بالمسجد (٣١) . وقد اشتراها ابن الزبير وادخل نصفها في المسجد (٣٢) ، ثم ادخلها المهدي عند توسيعه المسجد كما ادخل دار خيرة التي كانت قرب دار الازرق وقرب دار شيبة (٣٣) .

ومما دخل في توسيع المهدي دار شوذب مولى معاوية ، وكانت عند باب بني شيبة (٣٤) .

ودخلت في توسيع المهدي دار عتبة بن غزوان التي صارت ليعلى بن منبه وكانت « في فناء المسجد الحرام فيها العطارون » (٣٥) .

وعند باب بني شيبة دار غزوان بن جابر ذات الوجهين (٣٦) .

وفي الأطراف الشمالية من دار شيبة ودار الندوة يقع ربع آل نافع بن عبد الحارث الخزاعيين . يتصل بهذين الدارين وبدار عبد الله بن مالك الى الزقاق الذي عند دار أم ابراهيم في دار أوس ، ويشركهم الملحيون أهل دار ابن ماهان (٣٧) .

ودار أم ابراهيم يقال لها دار أوس (٣٨) ، ويقال لها دار سلسبيل ، وهي في زقاق الحذائين بين السويقة والمروة (٣٩) .

والحذائين تطل على المنارة الرابعة التي بين المشرق والشمال ، كما تطل على دار الامارة (٤٠) .

وعند الحذائين دار الامارة . وهي في الأصل دار الاسود بن خلف

---

(٣١) ٢/٥٥ ، ٥٩ ، ١٩٩ .
(٣٢) ٢/٥٥ .
(٣٣) ٢/٥٩ .
(٣٤) ٢/٦٠ ، ١٨٥ .
(٣٥) ٢/٢٠٠ .
(٣٦) ٢/١٩٨ .
(٣٧) ٢/٢٠٥ .
(٣٨) ٢/١٨٩ .
(٣٩) ٢/١٩٢ .
(٤٠) ٢/٧٨ .

الخزاعي ثم صارت لطلحة الطلحات ، ثم باعها عبيد الله بن القاسم بن عبيدة ابن خلف الخزاعي من جعفر بن يحيي البرمكي بمائة الف وبناها حماد البربري لهارون الرشيد (٤١) ، وكانت تسمى أيضاً «دار السلام» ، وكان يصعد اليها بدرج في الشق الشمالي (٤٢) .

يمتد ربع آل نافع بن الحارث الى دار حمزة ، وكانت هذه الدار لآل نافع ، ثم اشتراها ابو الاعور السلمي (٤٣) ثم اصطفاها عبد الله بن الزبير فوهبها لابنه حمزة ، ثم صارت من بعده في الصوافي (٤٤) وهي تقع في السويقة (٤٥) .

وفي السويقة دار يزيد بن منصور (٤٦) ، يقال لها دار العروس (٤٧) ويقابلها دار عبد الصمد وعندها زقاق البقر والطاحونة ، وهي حد المعلاة (٤٨) .

يشرف على دار يزيد بن منصور جبل كان يسمى في الجاهلية القط ، ثم صار يسمى في الاسلام جبل زرزر باسم حائك كان اول من بنى فيه ، ويلي جبل زرزر جبل النار ، ثم يلي هذا جبل ابي يزيد (٤٩) ، وهذا الجبل الاخير سمي برجل كان «امير الحاكة» في مكة ، وهو يشرف على حق آل عمرو بن عثمان الذي يلي زقاق مهر (٥٠) .

تقع السويقة في فوهة قعيقعان (٥١) .

---

(٤١) ٢/١٨٨ ، ٨٨ ، ويذكر الفاكهي موضعها في القديم كانت سوقسا يباع فيه الرقيق : اخبار مكة ٣/٢٧٤ .

(٤٢) ٢/٧٥ .

(٤٣) ٢/٨٥ .

(٤٤) ٢/١٩٣ ، ٢٠٠ .

(٤٥) ٢/٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ .

(٤٦) ٢/٢٢٩ .

(٤٧) ٢/٧١ ، ٢٢٩ .

(٤٨) ٢/٢١٥ .

(٤٩) ٢/٢٣٩ .

(٥٠) ٢/١٨٩ .

(٥١) ٢/٤٤٩ .

يمتد شعب قعيقعان بين دار يزيد بن منصور الى دور ابن الزبير الى الشعب الذي منتهاه وفي أصل الاحمر الى فلق الزبير الذي يسلك منه الى الابطح (٥٢).

والأحمر جبل كان يسمى في الجاهلية الأعرف ، وهو مشرف على قعيقعان وعلى دور عبد الله بن الزبير وفيه موضع يقال له الجر والميزاب (٥٣).

وفي ظهر الجبل الاحمر قرن ابي ريش ، وهو من الجبل الاحمر يشرف على كدا (٥٤) ، وعلى رأسه صخرات مشرفات يقال لها الكبش ، عندها موضع فوق الجبل الاحمر يقال له قرارة المداحي (٥٥) ، ولها طريق من دار الزنج (٥٦).

والسويقة يمتد اليها ربع بني سهم الذين «لهم دار عفيف الى قعيقعان : الى ما حاز سيل قعيقعان من دار عمرو بن العاص الى دار غباءة السهمي ، الى ما حاز الزقاق الذي يخرج على دار ابي محذورة بالثنية (٥٧) وبين دار عفيف وربع آل المرتفع ردم يصد ماء السيول عن السويقة وربع الخزاعيين ودار الندوة ودار شيبة (٥٨).

فأما دار عفيف السهمي فكانت بجنبها دار الضحاك بن قيس الفهري (٥٩).

وكانت لعبد الله بن الزبير دور ثلاثة مصطفة عند قعيقعان ؛ يقال لها دور الزبير ، ابتاعها عبد الله (بن الزبير) من آل عفيف بن نبيه السهميين ومن ولد منبه ، وفيها دار يقال لها دار الزنج ، وانما سميت دار الزنج

---

(٥٢) ٢٤٩/٢ .

(٥٣) ٢٠٦/٢ ، وانظر ٢١٦ .

(٥٤) ٢٤٠/٢ .

(٥٥) ٢٠٦/٢ .

(٥٦) ٢٠٣/٢ .

(٥٧) ٤٠٣/٢ (ويذكر الازرقي ان دار الزنج الدارين كانت في الاصل من حسق بني عدي ثم اشتراها معاوية (١٩٢/٢)، وانظر : الفاكهي ٤٧/٤–٤٨ .

(٥٨) ٢٤٩/٢ .

(٥٩) ٢٩٢/٢ .

لان ابن الزبير كان له فيها رقيق زنج ، وفي الدار العظمى منهن بئر حفره عبد الله بن الزبير ، وفي طريق هذه الدار طريق الى الجبل الاحمر والى قرارة المداحي (٦٠) ، ولا بد ان تكون هذه الدور قرب دار عفيف ان لم تكن شملتها ، وكان لدور الزبير طريق من خلف السائل المشرف على دار الحمام فلقه ابن الزبير عند الخافض لتيسير سير المال الذي يأتيه من العراق فيدخل الى دوره دون أن يراه الناس (٦١) .

والدار الدنيا التي في قعيقعان من دور ابن الزبير كان ينتهي اليها ربع بني المرتفع الممتد من السويقة ، فيقال ان ذلك الربع كان لآل النباش بن زرارة التميمي (زوج السيدة خديجة) وقال بعض اهـل العلم كان ذلك الربع لآل الحجاج بن علاط السلمي ، كانت عنده امرأة منهم يقال لها فاطمة ابنة الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار ، فخرج منها جبراً ، فاتخذوا داره (٦٢) .

وفي السويقة دار الخشني ، وكانت لعبد الله بن الزبير (٦٣) .

وعند السويقة ردم عمله ابن الزبير حين بنى دوره بقعيقعان ليرد السيل عن دار حجير بن أبي إهاب وغيرها ، وهو دون الردم الذي بين دار عفيف وربع آل المرتفع (٦٤) ...

وفي الأطراف الشمالية كانت دار آل جحش بن رئاب ، وقد صادرها ابو سفيان عندما هاجر بنو جحش الى المدينة مع الرسول (ص) (٦٥) ، ثم صارت الدار ليعلى بن منبه ، وصادرها عثمان بن عفان حين قاسم يعلى

---

(٦٠) ٢٠٣/٢ .
(٦١) ٢٣٠/٢ .
(٦٢) ٢٠٥/٢ .
(٦٣) ٢٠٣/٢ .
(٦٤) ٢٤٩/٢ .
(٦٥) ١٩٣/٢ .

دوره (٦٦) واعطاها ابنه ، فصارت تدعى دار ابان بن عثمان ، ينزلها في الحج والعمرة اذا قدم مكة (٦٧) .

وخلف دار ابان بئر جبير (٦٨) . وعندها بئر العلوق (٦٩) ، ومسجد بناه عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد (٧٠) .

وبلصق دار جحش بن رئاب دار لقوم من الأزد اشتراها خالد بن عبد الله القسري فصارت تعرف بدار القسري ، ثم اصطفيت (٧١) .

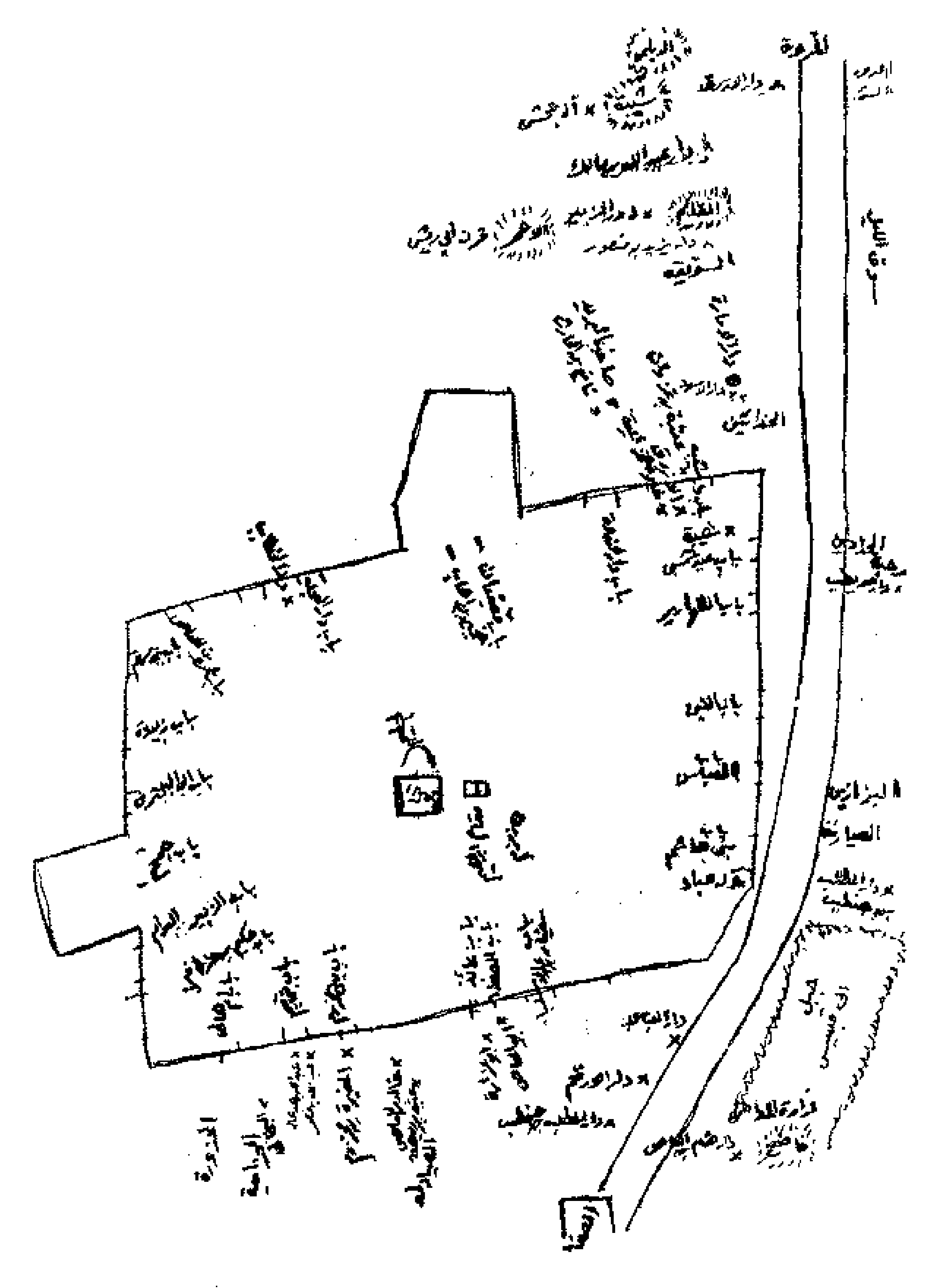
وفي هذه المنطقة دار ببة ، وهو عبد الله بن مطيع ، وبجنبها دار المراجل (٧٢) ودار سلمة (٧٣) .

وقد عمل عمر بن الخطاب ردماً بين دار أبان ودار ببة ليصد السيل عن المسجد الحرام ، وهو مبني بالضفائر والصخر العظام (٧٤) ، لم يصله سيل (٧٥) ويسمى الردم الاعلى (٧٦) ، او ردم عمر (٧٧) ، وقد اكمل عبد الملك بن مروان هذا الردم من دار أبان الى دار ابن الحوّار (٧٨) ، التي تقابل حق آل الاخنس الذي بسوق الليل عند الحدادين (٧٩) .

وفوق ردم عمر كان زقاق النار (٨٠) ، وهو بين دار الحمام ودار سلمة (٨١) .

---

(٦٦) ١٩٨/٢ .
(٦٧) ١٩٨/٢ .
(٦٨) ١٧٤/٢ .
(٦٩) ١٧٧/٢ .
(٧٠) ١٧٤/٢ ، وانظر ١٦٢ .
(٧١) ٢٠١/٢ .
(٧٢) ١٩١/٢ .
(٧٣) ١٩٣/٢ .
(٧٤) ٢٦/٢ ، ١٣٥ .
(٧٥) ١٣٥/٢ .
(٧٦) ٢٥/٢ .
(٧٧) ٢٦/٢ ، ١٣٦ ، ١٧٤ ، ١٩١ ،
(٧٨) ١٣٦/٢ ، ١٧٤ ، ١٩١ ، ١٩٧ .
(٧٩) ٢٠٧/٢ .
(٨٠) ٢٦/٢ .
(٨١) ١٩١/٢ .



جبل ابي قبيس :

وفي الطرف الجنوبي الغربي من الخندمة يقع جبل ابي قبيس في شرقي الصفا مشرف عليها وكان يسمى في الجاهلية « الامين » (٨٢) وهو أحد اخشبي مكة ، وهو لاصق بوادي مكة (٨٣) . ومنه احد العيون الثلاثة التي تغذي زمزم بالماء (٨٤) وقد وضع عليه بن نمير مجانيق عندما حاصر ابن الزبير (٨٥)

يصعد على جبل أبي قبيس من الصفا على زقاق مصعدا في الوادي وعند هذا دار الارقم بن ابي الارقم يكون حد المعلاة .

ويقع «فاضح» بأصل جبل أبي قبيس ما اقبل على المسجد الحرام (٨٦) وعليه مسجد ابراهيم القبيسي (٨٧) وعند فاضح تقع قرارة المداحى وهو موضع كان أهل مكة يتداحون فيه بالمداحى والمراصع (٨٨)

وفي طريق قرارة المداحى تقع دار الزنج

وفي أصل أبي قبيس سعد ، وهو ماء يجري في اصل ابي قبيس يعمل فيه القصارون (٨٩)

وبلصق جبل ابي قبيس في الوادي كانت دار عبّاد بن جعفر في الوادي وقد ادخلها المهدي في المسجد الا ما لصق منها بجبل ابي قبيس (٩٠)

و كان شق وادي مكة اللاصق بجبل أبي قبيس في سوق الليل لبني عامر ، وكان حق الحارث بن عبد المطلب الذي على باب شعب أبي يوسف منحدرا الى دار ابن صيفي التي صارت ليحيي بن خالد بن برمك ، وفيه حق لآل الاخنس بن

---

(٨٢) الازرقي ٢/٢١٥ ، ١/٢٧ ، ١١٦، وانظر : الفاكهي ٤/٤٧ .
(٨٣) الازرقي ٢/٩٠ ، ٢١٤ .
(٨٤) الازرقي ٢/٤٨ .
(٨٥) الازرقي ١/١٣٠ ، ٢٢٣ .
(٨٦) الازرقي ٢/٢١٧ .
(٨٧) الازرقي ٢/١٦٤ .
(٨٨) الازرقي ٢/٢١٣ .
(٨٩) ياقوت ٣/٩٢ .
(٩٠) الازرقي ٢/٢١٠ .

شريق سرى من بني عامر (٩١)

اجياد الصغير :

اجياد الصغير شعب صغير بأصق جبل ابي قبيس ، وفي فمه دار هشام ابن العاص بن المغيرة ودار زهير بن ابي امية بن المغيرة (٩٢) وكانت في في دار زهير بئر (٩٣) وعند هذه الدار دار الأوقص (٩٤)

وبالقرب من دار زهير كانت دار لآل هبّار الازديين يتلوها ربع خالد ابن العاص بن هشام (٩٥)

وفي اجياد الصغير دار الساج وهي لآل هشام بن سليمان (٩٦) وفي آخر شعب أجياد يقع المتكا (٩٧)

وفي اقصى اجياد الصغير الخندمة (٩٨) ، وهي الجبل الذي مابين حرف السويدا الى الثنية التي عندها بئر ابن ابي السمير في شعب عمرو ، مشرفة على اجياد الصغير وعلى شعب ابن عامر وعلى دار محمد ابن سليمان (٩٩)

وفي الخندمة أنصاب الأسد (١٠٠) وفيها مسجد (١٠١) على بابه بئر حفره جعفر بن محمد بن سليمان ، وهي في شعب الايسر (١٠٢)

وفي أصل الخندمة بئر عكرمة (١٠٣) ، وذباب وهو القرن المتقطع من اصلها بين بيوت عثمان بن عبد الله

يمتد جبل نفيع (١٠٤) الى انصاب الاسد (١٠٥) ويتصل الخندمة بالمستنذر

(٩١) الازرقي ٢/٢١٤ .
(٩٢) الازرقي ٢/٢٣٤ .
(٩٣) الازرقي ٢/٢٠٩ .
(٩٤) الازرقي ٢/٢٠٩ .
(٩٥) الازرقي ٢/٢٠٨ .
(٩٦) الازرقي ٢/٢٠٨ .
(٩٧) الازرقي ٢/٢٣٤ ، ٢٣٥ ، وانظر ١٦٣ .
(٩٨) الازرقي ٢/٢٣٥ .
(٩٩) الازرقي ٢/٢١٧ .
(١٠٠) الازرقي ٢/٢٣٥ .
(١٠١) ٢/١٦٥ .
(١٠٢) الازرقي ٢/٢٨٣ .
(١٠٣) الازرقي ٢/١٨١ ، ٢٧٥ .
(١٠٤) الازرقي ٢/٢٢٣ .
(١٠٥) الازرقي ٢/٢٣٥ .

الصفا

الصفا مرتفع من جبل أبي قبيس يطل على الوادي الذي كان يجرى في أول الاسلام في طرف المسجد(١) وكان عليه في الجاهلية صنم نهيك مجاور الريح نصبه عليه عمرو بن لحى (٢) ، كما كان عليه أساف(٣) الى ان حولها قصى الى زمزم (٤) . واول من استصبح به واثقب النفاطات في ليالي الحج خالد بن عبد الله القسري ابان ولايته مكة (٥) ، وأحدث عليه عبد الصمد بن علي في زمن المأمون درجاً كحلت بالنورة فيما بعد (٦)

والصفا حد المعلاة من مكة (٧) ، وعنده الميل الاول بين المسجد وعرفة(٨) .

ومن أبرز المعالم على الصفا دار الارقم الذي كانت تقام فيه الدعوة الاسلامية في السنوات الاول عندما كانت سرية (٩) ، وقد تنقلت ملكية هذه الدار الى أن صارت الى ابي جعفر المنصور ثم صيرها المهدي للخيزران ام موسى الهادي فبنتها ، وعرفت بها ، ثم صارت لجعفر بن موسى الهادي سكنها اصحاب الشطوى والعدني ثم اشترى عامتها او اكثرها عثمان ابن عباد (١٠) ، و كان في فنائها سقاية عملتها الخيزران (١١) ، ومسجد (١٢) .

ودار الأرقم حد المعلاة ، وبقربها الزقاق الذي على الصفا ، يصعد منه الى جبل أبي قبيس

---

(١) الازرقي ٥٦/٢ .
(٢) الازرقي ٧٣/١ .
(٣) الازرقي ٤٤/١ .
(٤) الازرقي ٦٩/١ .
(٥) الازرقي ١٩٤/١ .
(٦) الازرقي ٩٦/٢ .
(٧) الازرقي ٢١٥/٢ .
(٨) الازرقي ١٥٩/٢ .
(٩) انظر ابن سعد ٣-٢/٢٤ ، ٣٧ ، ٥٩ ، ٦٢ .
(١٠) ابن سعد ٣ - ٧٤/١ .
(١١) الازرقي ١٦٢/٢ ، ٢١٥ .
(١٢) الازرقي ٢٣٨/٢ .

وبالقرب من دار الأرقم تقع دور السفيانيين ، وكانت لاصقة بجبل أبي قبيس ، ولذلك لم تدخل في توسيع الخليفة المهدي المسجد الحرام (١٣) . وعند الصفا تقع دار السائب بن ابي السائب العائذي ، وهي الدار التي كان فيها البيت الذي كانت فيه تجارة النبي (ص) في الجاهلية ، وكان السائب شريك الرسول (ص) في التجارة (١٤) ، وقد دخلت بعض دار السائب في الوادي وظلت منها بقية في الدار التي يقال لها دار سقيفة ، فيها البزازون عند الصيارفة ، وصارت لعبد العزيز بن المغيرة بن عطاء بن ابي السائب ، وصار وجهها لمحمد بن يحيي بن خالد (١٥) .

ويتصل بدار السائب حق آل حنطب من الصيارفة الى الصفاء ، ولعل عند هذه الدار كانت دار ابن صيفي العائذي التي صارت ليحيي بن خالد بن برملك فيها البزاوزن (١٦) .

وعند الصفا تقع الصيادلة التي عندها دار الخلد وكانت لنافع بن الارزق القارظي ، ثم اشتراها هارون الرشيد ، واعاد بناءها له حماد البربري وسميت دار الخلد (١٧) ، وهي تقع بين دار ازهر ودار الفضل ، ولعل الدار الاخيرة هي التي يذكر الازرقي ان الفضل اشتراها من أهل نافع بن جبير (١٨) ، وبجنب دار نافع كانت تقع دار ابن علقمة (١٩) .

وبالقرب من الصفا كانت بئر سجلة ، كانت لجبير بن مطعم بن عدي ابن نوفل التي دخلت في المسجد الحرام عندما وسّعه المهدي (٢٠) ، وقد بقيت من هذه الدار رحبتها فاقطعت لجعفر بن يحيي ،

(١٣) الازرقي ٢/٢١٠ .

(١٤) الازرقي ٢/٢٠٩ .

(١٥) الازرقي ٢/٢٠٩ .

(١٦) الازرقي ٢/٢١٠ .

(١٧) الازرقي ٢/٢٠٦ .

(١٨) الازرقي ٢/٢٠٦ .

(١٩) الازرقي ٢/٢٠٦ .

(٢٠) الازرقي ٢/٥٦ ، ٢٠١ .

ثم قبضها الرشيد ، وبناها له حماد البربري (٢١) وسميت دار القوارير لأنها كانت مبنية بالرخام والفسيفساء من خارجها وبالقوارير والمينا الأصفر والأحمر (٢٢) .

وكانت دار القوارير عند الباب الثاني الذي يلي المسعى (٢٣) ، وكانت عندها سقاية (٢٤) وبالقرب من دار جبير تقع دار خيرة بنت سباع بن عبد العزّى وكانت في أصل المسجد الحرام ثم دخلت فيه ، ودفع المهدي لخيرة عنها ثلاثة واربعين الف دينار (٢٥) .

ويتلو دار خيرة دار الازرق بن عمرو الغساني (٢٦) ، التي بالقرب منها تقع دار حفصة التي يقال لها دار الزوراء ، وبجنبها دار عتبة بن فرقد السلمي (٢٧)

وكانت مساكن بني عدي في الجاهلية بين الصفا والكعبة ، ثم انتقل أكثرهم الى الاطراف الشمالية قبيل الاسلام بعد منازعات جرت بينهم وبين بني عبد شمس ، وباعوا رباعهم ومنازلهم هناك جميعاً الا آل صداء ، وآل المؤمل (٢٨) ، غير أن الازرقي لم يذكر تفاصيل عن منازل من بقي .

المسعى :

للرقعة الواقعة بين الصفا والمروة مكانة خاصة في خطط مكة . اذ يكون فيها السعي وهو واجب مكمل لشعائر الحج بحكم قوله تعالى « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطّوف بهما (٢٩) » وتسمى هذه الرقعة « المسعى » وهي تمتد من الصفا الى

(٢١) الازرقي ٢/١٧٥ .
(٢٢) الازرقي ٢/٦٠ ؛ ٢٠٢ .
(٢٣) الازرقي ٢/٦٩ .
(٢٤) الازرقي ٢/٧٦ .
(٢٥) الازرقي ٢/٥٦ .
(٢٦) الازرقي ٢/٢٠٦ .
(٢٧) الازرقي ٢/٢٠١ .
(٢٨) الازرقي ٢/٢١١ ؛ ٧١ ؛ ويقول الفاكهي ان رباع بني عدي كانت أسفل الثنية فيما بين حق بني جمح وبني سهم ٣/٢٦٠ .
(٢٩) سورة البقرة ، الاية ١٨٥ .

المروة ، وكان يمر في ادناها الوادي ملاصقا للمسجد الحرام ، غير أنه حدثت في مجرى الوادي تعديلات بسبب توسيع المسجد في اطرافه الشمالية لمنع تعرض المسجد لمياه السيول الجارفة التي يتعرض لها الوادي وتكون سبباً في اغراق المسجد الحرام .

وصف الأزرقي المسعى وما حدثت عليه من تطورات ، وذكر بعض المعالم العمرانية عليه ، كما ذكرت بعض كتب الفقه احوال المنطقة التي في المسعى حيث كان المسعى لايتم على وتيرة واحدة ، وانما يتروح بين المشي والرمل ، كما انه يتم المسعى مشيا على القدم أو ركرباً على الدواب .

وابرز ما في المسعى هو الوادي ، وكان ما يلي الصفا وناحية بني مخزوم لاصقاً بالمسجد قبل أن يوسع المسجد (٣٠) فلما وسع المسجد اصبح الوادي في بطنه (٣١)

ان المسعى في الجهة الشرقية من المسجد ، وكانت زاوية المسجد التي تلي المسعى ليس بينها وبين زاوية بيت الشراب الشرقية الا نحو من سبعة اذرع (٣٢) ، فكان المسجد بجداره الذي يلي الوادي لاصقاً ببيت الشراب (٣٣)

وكان باب بني هاشم الذي عليه العلم الأخضر الذي يسعى منه من اقبل من المروة يريد الصفا فيه منارة شارعة على الوادي والمسعى ، لاصقاً بهما في بطن المسجد قبل ان يؤخر المهدي المسجد في منتهاه ، وكان الوادي من شق الصفا والوادي (٣٤) .

وكانت وراء الوادي دور الناس ، وكان يسلك من المسجد الى الصفا في بطن الوادي ، ثم يسلك في زقاق ضيق حتى يخرج الى الصفا من التفاف

---

(٣٠) الازرقي ٢/٦٣ .
(٣١) الازرقي ٢/٥٦ ، ٦٣ .
(٣٢) الازرقي ٢/٥٦ .
(٣٣) الازرقي ٢/٦٠ .
(٣٤) الازرقي ٢/٦٠ .

البيوت فيما بين الوادي والصفا (٣٥)

وكانت دار الأزرق لاصقة بالمسجد الحرام على يمين من خرج من باب شيبة بن عثمان الكبير ودار خيرة السباعية شارعة على المسعى (٣٦)

وقد حدث في هذه المنطقة تبدلان : احدهما في زمن ابن الزبير ، والثاني في زمن الخليفة العباسي المهدي .

فاما ابن الزبير فانه « انتهى بالمسجد الى ان اشرعه على الوادي مما يلي الصفا وناحية بني مخزوم ، والوادي يومئذ في موضع المسجد اليوم ، ثم مضى به مصعداً من وراء بيت الشراب لاصقاً به،وبين جدر بيت الشراب الذي يلي الصفا وبين جدر المسجد الا قدر ما يمر الرجل وهو منحرف ، ثم اصعد به عن بيت الشراب مصعداً بقدر سبعة أذرع او نحو ذلك ، ثم رده في العراض وكانت زاوية المسجد التي تلي المسعى ونحو الوادي الزاوية الشرقية ليس بينها وبين زاوية بيت الشراب الشرقية الا نحو من سبعة اذرع ، ثم رده عرضا على المضمار الى باب دار شيبة بن عثمان (٣٧) ولتحقيق هذا التوسيع اشترى ابن الزبير دورا من الناس وادخلها في المسجد ، وكان مما اشتراه دار الأزرق .وكانت لاصقة بالمسجد الحرام بابها شارع على باب بني شيبة الكبير على يسار من دخل المسجد الحرام ، فاشترى نصفها فادخله في المسجد الحرام (٣٨)

اما توسيع المهدي ، فقد تم في دفعتين : اولاهما في سنة ١٦٠ حيث أمر ان يزداد في أعلاه . ويشتري ما كان في ذلك الموضع من الدور ، فكان مما دخل في ذلك الهدم دار الازرق وهي يومئذ لاصقة بالمسجد الحرام على يمين

(٣٥) الازرقي ٢/٥٩ .
(٣٦) الازرقي ٢/٥٦ .
(٣٧) الازرقي ٢/٥٥ .
(٣٨) الازرقي ٢/٥٩ — ٦٠ .

من خرج من باب بني شيبة بن عثمان الكبير . . ودخلت أيضاً « دار خيرة بنت سباع الخزاعية . . وكانت شارعة على المسعى يومئذ قبل ان يؤخر المسعى » ، ودخلت أيضاً « بعض دار شيبة بن عثمان ، فاشترى جميع ماكان بين المسعى والمسجد من الدور فهدمها ، ووضع المسجد على ماهو عليه اليوم شارعاً على المسعى ، وجعل موضع دار القوارير رحبة (٣٩)، وكان الذي زاد المهدي في المسجد في الزيادة الاولى ان مضى بجداره الذي يلي الوادي ، اذ كان لاصقاً ببيت الشراب حتى انتهى به الى حد باب بني هاشم « الذي عليه العلم الاخضر الذي يسعى من اقبل من المروة يريد الصفا ، ولم يكن حول المهدي في الهدم الاول من شق الوادي والصفا ، اقره على حاله طافا « واحدا » (٤٠)

وفي سنة ١٦٧ احدث المهدي توسعاً ثانياً في المسجد شمل هدم اكثر دار ابن عباد بن جعفر العايذي « وجعلوا المسعى والوادي فيها ، فهدموا ما كان بين الصفا والوادي من الدور ، ثم حرفوا الوادي في موضع الدور حتى التقوا به الوادي القديم باب أجياد الكبير بضم خط الحزامية ، فالذي زيد في المسجد من شق الوادي، تسعون ذراعاً من موضع جدر المسجد الاول الى موضعه اليوم (٤١) .

يتبين مما تقدم ان اقدم توسيع في المسجد حدث في زمن عبد الله بن الزبير وشمل نصف دار الازرق التي تقع على يمين من خرج من باب شيبة وهي لاصقة بالمسجد (٤٢)

اما التوسع الثاني الذي حدث في زيادة المهدي الاولى فقد شمل بقية

(٣٩) الازرقي ٢/٥٩ — ٦٠ .
(٤٠) الازرقي ٢/٦١ .
(٤١) الازرقي ٢/٦٥ .
(٤٢) الازرقي ٢/٥٩ .

دار الازرق ودار خيرة بنت سباع الخزاعية (٤٣)

اما التوسع الاخير فانه شمل دار محمد بن عباد وكان بابه « عند المسجد الحرام ، عند موضع المنارة الشارعة في نحر الوادي فيها علم المسعى (٤٤) . وكان الوادي يمر دونها (٤٥) ، وقد بقي ذكره بعد هدمه فيذكر الأزرقي « من العلم الذي على دار العباس الى العلم الذي عند دار ابن عباد الذي بحذاء العلم الذي في حد المنارة وبينهما الوادي ١٢١ ذراعاً اي ان دار العباس تبعد عن دار ابن عباد ١٢١ ذراعاً ، وهي عند العلم الذي بحذاء المسجد بينهما عرض المسعى»(٤٦)، اي في الطرف الشرقي من الوادي .

ولم تدخل في توسيع المهدي دار العباس مقابل باب بني هاشم الذي عليه العلم الاخضر الذي يسعى منه من أقبل من المروة يريد الصفا ، ونظراً لهذه التقارب فقد كان العلم الأخضر يذكر أحياناً انه عند باب العباس .

ودار العباس كانت في الاصل لهاشم بن عبد مناف ، وفيها اساف ونائلة ، كانا يعبدان في الجاهلية في ركن الدار (٤٧) .

ذكر الازرقي الابعاد في معالم المسعى فقال :

ذرع مابين باب المسجد الذي يخرج منه الى الصفا الى وسط ½ ١١٢ ذراعاً

ومن وسط الصفا الى علم المسعى الذي في حد المنارة ½ ١٤٢ ذراعاً .

وذرع ما بين العلم الذي في حد المنارة الى العلم الاخضر الذي على باب المسجد وهو المسعى ١١٢ ذراعاً

وذرع مابين العلم الذي على باب المسجد الى المروة ½ ٥٠٠ ذراع .

وذرع مابين الصفا والمروة ½ ٧٦٦ ذراعاً » .

---

(٤٣) الازرقي ٥٩/٢ . (٤٤) الازرقي ١٦٧/٢ .

(٤٥) الازرقي ٦٣/٢ . (٤٦) الازرقي ٩٥/٢ .

(٤٧) الازرقي ٩٥/٢ ، ١٨٨ ، ويقول الفاكهي انه كان في موضعها في قديم الدهر سوق يباع فيه الرقيق (٢٧٠/٣) .

وذرع مابين العلم الذي على باب المسجد الى العلم الذي بحذائه على باب دار العباس بن عبد المطلب وبينهما عرض المسعى ½ ٣٥ ذراعاً .

ومن العلم الذي عند دار ابن عباد الذي بحذاء العلم الذي في حد المنارة وبينهما الوادي ١٢١ ذراعاً » (٤٨)

ان التعديلات التي احدثها ابن الزبير والمهدي اقتصرت على جهة الوادي عند المسجد ، اما بقية المناطق فلم تحدث فيها تعديلات ، وتشير المعلومات عن المسعى بين الصفا والمروة ، ان الوادي ظل قائماً .

فيذكر الازرقي ان عبد الله بن عمر كان في سعيه بين الصفا والمروة « ينزل من الصفا فيمشي ، حتى اذا جاء دار ابن عباد سعى حتى ينتهي الى الزقاق الذي يسلك الى المسجد بين دار ابن ابي حسين ودار ابنة قرظة سعياً دون الشد وفوق الرمل ، ثم مشيه الذي هو فيه حتى يرقى المروة فيجعل المروة امامه » (٤٩) .

ويروى ان سعيد بن المسيب قال « السنة في الطواف بين الصفا والمروة ان ينزل من الصفا ثم يمشي حتى يأتي بطن المسيل ، فاذا جاء سعى حتى يظهر منه ، ثم يمشي حتى يأتي المروة » (٥٠) .

ويذكر عن عطاء « من طاف بين الصفا والمروة راكباً فليجعل المروة البيضاء في ظهره ويستقبل البيت ، وليدع الطريق والمروة وليأخذ دار عبد الله مالك ، وهي بين دار منارة المنقوشة وبين المروة البيضاء في طريق دار طلحة بن داوود حتى يجعل المروة في ظهره » (٥١) .

ذكر الازرقي الدور التي على الوادي شمالي دار العباس التي في المسعى ، وهي لبني عامر حيث قال « بني عامر بن لؤي لهم من وادي مكة على يسار

(٤٨) الازرقي ٢/٩٥ .
(٤٩) الازرقي ٢/٩٤ .
(٥٠) الازرقي ٢/٩٣ .
(٥١) الازرقي ٢/٩٣ .

المصدر من دار العباس بن عبد المطلب التي في المسمى دار جعفر بن سليمان ودار ابن حوار مصعدا الى دار ابي احيحة سعيد بن العاص ، ومعهم فيه حق لآل طرفة الهذليين ، وهو دار الربيع ، ودار الطلحيين والحمام ودار ابي طرفة » ، ثم عدد هذه الدور ومواقعها فقال :

« فاول حقهم من أعلى الوادي دار هند بنت سهيل ، وهو ربع سهيل بن عمرو ، وهذه الدار أول دار بمكة عمل لها بابان .

واسفل منها دار الغطريف بن عطاء والرحبة التي خلفها في ظهر دار الحكم كانت لعمرو بن عبد ود ثم صارت لآل حويطب .

واسفل من هذه الدار دار حويطب بن عبد العزي.

في اسفل هذه الدار دار الحدادين التي كانت لبعض بني عامر فاشتراها معاوية وبناها .

والدار التي أسفل منها التي فيها الحمام .

ودار السلماني فوق دار الربيع كانت لرجل من بني عامر بن لؤي يقال له العباس بن علقمة .

واسفل من هذه الدار دار الربيع ، وحمام العائذين ، ودار ابي طرفة ودار الطلحيين كانت لآل طلحة بن طرفة الهذليين .

واسفل من هذه الدار دار محمد بن سليمان كانت لمخرمة بن عبد العزي .

ودار ابن الحوار من رباع بني عامر ، وربعهم جاهلي ، وهي لولد عبد الرحمن بن زمعة .

واسفل من دار ابن الحوار دار جعفر بن سليمان كانت من رباع بني عامر بن لؤي (٥٢) .

ويبدو ان الازرقي ذكر تسلسل هذه الدور من الشمال الى الجنوب ، ومما يدل على ذلك قوله ان دار جعفر بن سليمان كانت الى جنب دار العباس (٥٣) .

(٥٢) الازرقي ٢/٢١٢ ـ ٢١٣ . (٥٣) الازرقي ٢/١٨١ .

المروة واطرافهـا :

ان المروة التي يتم السعي بينها وبين الصفا هي اكمة في وسط مكة ، مائلة الى الغرب نحو قعيقعان تحيطها بيوت أهل مكة (٥٤) ، والمسافة بينها وبين الصفا ½ ٧٦٦ ذراعا ، وعن العلم الذي على باب المسجد الحرام ٥٠٠ ذراع (٥٥) ، وكانت عندها في الازمنة القديمة اساف ونائلة ، يطوف بها اهل الحج في الجاهلية ثم حولهما قصي احدهما في الكعبة والآخر عند زمزم ، وكانوا ينحرون عندهما (٥٦) ، وكان على المروة ايضا مطعم الطير . وهو صنم نصبه عمرو بن لحى (٥٧) .

لم يكن على المروة درج الى ان جاء العباسيون فبنى عبد الصمد بن علي في خلافة ابي جعفر المنصور على المروة درجاً عددها خمس عشرة درجة (٥٨) ، ثم قام مبارك التركي في زمن خلافة المأمون بتكحيل الدرج بالنورة (٥٩) .

وفي زمن خلافة سليمان بن عبد الملك قام واليه على مكة خالد بن عبد الله القسري باستصباح مابين الصفا والمروة ، وظل الامر كذلك الى زمن المعتصم حيث جعل الانارة عليها بالنفاطات (٦٠) .

يشرف على المروة جبل ديلمي (٦١) ، وكان يسمى في الجاهلية « سميرا » ثم أخذ اسمه الجديد من مولى لمعاوية كان بنى في ذلك الجبل داراً (٦٢) وقد آلت هذه الدار فيما بعد لخزيمة بن خازم السلمي (٦٣) .

ويطل على الديلمي جبل شيبة ، وكان في الاصل للنباش بن زرارة

---

(٥٤) ياقوت ٥١٣/٣ .
(٥٥) الازرقي ٩٥/٢ .
(٥٦) الازرقي ٦٩/٢ .
(٥٧) الازرقي ٧٣/٢ .
(٥٨) الازرقي ٩٥/٢ .
(٥٩) الازرقي ٩٦/٢ .
(٦٠) الازرقي ١٩٤/٢ .
(٦١) الازرقي ١٩٣/٢ ، ٢٣١ .
(٦٢) ياقوت ٧١٢/٢ .
(٦٣) الازرقي ٥٣/٢ .

التميمي زوج خديجة الأول ، ثم صار بعد ذلك لشيبة (٦٤) وكان السيل المقبل من جبل شيبة يمر من زقاق بين دار العجلة وبين جدار المسجد (٦٥) .

وكان جبلا الديلمي وشيبة يسميان في الجاهلية « واسط » (٦٦)

كان لبني عبد الدار ربع في جبل شيبة ، يقع وراء دار عبد الله بن مالك ويمتد الى دار الازرق بن عمرو الى ما سال من قرارة جبل شيبة الى دار درهم وربع بني المرتفع (٦٧) .

فاما دار الازرق فكانت « عند المروة الى جانب دار طلحة بن ابي الحضرمي الذي كان الى جنبه دار حفصة التي يقال لها دار الزوراء ، وهي عند باب الازرق ، وهو ربع لهم منذ قبل الاسلام » (٦٨) .

وفي الجانب الثاني من دار طلحة كانت دار عتبة بن فرقد السلمي (٦٩) وهذه الدار كما يقال لها « دار ابن فرقد » ، وكانت دار آل عتبة وربعهم في شق المروة السوداء دار الحرشي المنقوشة وزقاق ابي ميسرة (٧٠).

وعند دار الحضرمي يقع ربع ال انمار القاريين شارعة على المروة وعندها أصحاب الادم ، وفي وجهها البرامون ، وفيه دار ام انمار القارية ومسجد صغير عند البرامين وبين الدارين ، وهي مقابل سوق الخرازين الذي يسلك على دار عبد الله بن مالك (٧١).

وعند ربع القاريين رحبة كانت في الأصل داراً للخطاب بن نفيل ثم

(٦٤) الازرقي ٢/٢٣٠ ، ياقوت ٣/٣٤٦(٦٥) الازرقي ٢/٦٢ .
(٦٦) الازرقي ٢/٢٣٠ . (٦٧) الازرقي ٢٠٤ — ٥ .
(٦٨) الازرقي ٢/٢٠١ . (٦٩) الازرقي ٢/٢٠١ .
(٧٠) الازرقي ٢/١٨٩ ، ويذكر الازرقي أن ابا سفيان قال لال فرقد سواد المروة ولنا بياضها (٢/١٣٢ ، ١٩٦) .
(٧١) الازرقي ٢/٢٠٦ .

صارت لعمر بن الخطاب (٧٢) فهدمها في خلافته وجعلها رحبة ومناخا للحاج ، وفيها حوانيت اصحاب الادم ، وهي بين دار مخرمة ودار الوليد ابن عتبة وجهها الآخر يقابل الدارين (٧٣)

فأما دار مخرمة بن نوفل فقد صارت لعيسى بن علي بن عبدالله بن العباس (٧٤) وقد اعاد بناءها له ابو بحر المجوسي في سنة ١٦١ ، وعني بسقوفها وبابها (٧٥)

ومن ابرز المعالم عند المروة هو دار عبد الله الخزاعي ، وكانت في قول البعض اصلها لسعد بن ابي طلحة ثم صارت لمعاوية ، ثم آلت الى عبد الله ابن مالك الخزاعي (٧٦) ويذكر الازرقي ان دار سعد « كانت فيها طريق تمر بها المحامل والقباب من السويقة الى المروة ، وكان بينها وبين دار عيسى ابن علي ودار سلسبيل طريق في زقاق ضيق ، فصارت لعبد الله بن مالك بن ابن الهيثم الخزاعي فهدمها وسد الطريق التي كانت في بطنها واخرج للناس طريقاً تمر بها المحامل والقباب ، فكان الزقاق الضيق بينهما وبين دار سلسبيل ام زبيدة ، ودار عيسى بن علي وهي دار عبد الله بن مالك التي الى جنب دار عيسى بن علي في زقاق الجزارين » (٧٧) .

ودار عبد الله بن مالك بين دار منارة المنقوشة وبين المروة البيضاء في طريق دار طلحة بن داوود (٧٨) وهي امام ربع بني عبد الدار في جبل شيبة (٧٩) ويسلك اليها طريق مقابل الخرازين في رحبة عمر بن الخطاب (٨٠) ، ويسلك ايضا اليها والى المروة زقاق من رباع الخزاعيين التي تمتد من دار

---

(٧٢) الازرقي ٢/٢٠٦ .
(٧٣) الازرقي ٢/٢١٢ ـ ٣ .
(٧٤) الازرقي ٢/٨٢ ، ٢٠٥ .
(٧٥) الازرقي ٢/٤٨ ، ٨٢ ، ٢١٣ .
(٧٦) الازرقي ٢/٢٠٥ .
(٧٧) الازرقي ٢/١٩٢ .
(٧٨) الازرقي ٢/٩٤ .
(٧٩) الازرقي ٢/٢٠٤ .
(٨٠) الازرقي ٢/٢٠٦ .

خمرة بالسريقة وينقطع ربعهم في ذلك الزقاق عند دار ام ابراهيم التي من دار اوس » (٨١) .

وفي المروة دار لعمر بن عبد العزيز في لصقها دار لآل الحضرمي وجهها شارع على المروة ، الحجامون في وجهها ، وقد اشترتها رملة بنت عبد الله ابن عبد الملك بن مروان وزوجها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ، فتصدقت بها ليسكنها الحاج والمعتمرون ، وكان في دهليز دارها هذه شراب من اسوقة محلاة ومحمضة تسقى فيها في الموسم ، ثم اصطفاها العباسيون ، وكانت هذه الدار تقع بين دار عمر بن عبد العزيز ودار ام انمار القارية » (٨٢) .

يقول الأزرقي(٨٣) ان معاوية بن ابي سفيان ابتنى في مكة دورا منها الست المتقاطرة ليس لاحد بينها فصل :

(١)أولها دار البيضاء على المروة وبابها ناحية المروة ، ووجهها شارع على الطريق العظمى بين الدارين ، وكانت فيها طريق الى جبل الديلمي فلم تزل حتى قطعها العباس بن محمد بن علي فسد تلك الطريق فهي مسدودة الى اليوم ، ثم قبضت بعد من العباس بن محمد ، وانما سميت البيضاء لانها بنيت بالجص ثم طليت به فكانت كلها بيضاء .

(٢) وجدر الرقطاء الى جنبها ، وانما سميت الرقطاء لانها بنيت بالآجر الأحمر والجص الأبيض فكانت رقطاء ، ثم كانت اقطعها الغطريف بن عطاء ثم قبضت منه فهي اليوم في الصوافي (٨٤)

---

(٨١) الازرقي ١٩٢/٢ . (٨٢) الازرقي ٢٠١/٢ .
(٨٣) الازرقي ١٩١/٢ . (٨٤) يجدر عدم الخلط بينها وبين دار بهذا الاسم لمحمد بن يوسف وادخل فيها مولد النبي ١٦٠/٢، ١٧٩، ١٨١

(٣) ودار المراجل تلي الرقطاء ، بينهما الطريق الى جبل الديلمي ، وانما سميت دار المراجل لانها كانت فيها قدور من صفر لمعاوية يطبخ فيها طعام الحاج وطعام شهر رمضان ، فصارت دار المراجل لولد سليمان ابن عبد الله بن عباس أقطعها .

ويقال انها كانت لآل المؤمل العدويين فابتاعها منهم معاوية (٨٥) .

ويقال ان دار الرقطاء والبيضاء كانتا لآل اسيد ابن ابي العاص بن امية فابتاعها منهم معاوية.

(٤) ودار بية الى جنب دار المراجل على رأس الردم ، ردم عمر بن الخطاب(٨٦) (رض) وبية عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهي التي صارت لعيسى بن موسى

(٥) ودار سلم بن زياد وهي التي الى جنب دار بية ، وسلم بن زياد كان قيماً عليها وكان يسكنها

(٦) ودار الحمام وهي التي الى جنب دار سلمة بينهما زقاق النار .

ويقال ان دار الحمام كانت لعبد الله بن عامر بن كريز فناقله بها معاوية الى دار ابن عامر التي في الشعب .

(٧) دار رابغة وهي مقابل دار الحمام ، وهي التي في وجهها دور بني غزوان باصل قرن مسقلة (٨٧)

يظهر من هذا النص ان هذه الدور كانت متصاقبة ، وهي تمتد من جبل الديلمي الذي تقع بقربه الدور الثلاثة الاولى : البيضاء ، والرقطاء ،

---

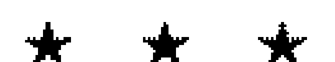
(٨٥) انظر ٢/٢١٢ .

(٨٦) كان ردم عمر من دار ابان بن عثمان الى دار بية بن ربيعة ٢/٢٦ ، ١٣٥ .

(٨٧) انظر ٢/٢١٨ ، ويقال ان قبر امنة بنت وهب أم الرسول (ص) كان في دار ارابغة (٢/١٧٠ ، ٢٢٠) .

والمراجل ، وانها تمتد الى الردم حيث يقع دار ببة ، والى قرن مسقلة حيث يقع دار الحمام اي انها كانت تمتد الى الجهات الشمالية الشرقية من المروة .

لم يذكر الازرقي معالم عمرانية عند هذه البيوت سوى ما ذكره عن دار سلم ودار الحمام حيث ذكر ان جبل نفاجة يشرف عليها ، وان نفاجة سمى بها الجبل هي مولاة لمعاوية كان أول من بنى في ذلك الجبل (٨٨)



(٨٨) الازرقي ٢/٢٣٠ .

الخندمة
والرباع في الأطراف الشرقية

الخندمة جبل يمتد مابين حرف السويدا الى الثنية التي عندها بئر ابن ابي السمير في شعب عمرو ، مشرف على أجياد الصغير وعلى شعب ابن عامر ، وعلى دار محمد بن سليمان في طريق حتى اذا جاوزت المقبرة على يمين الذاهب الى منى (١) ، فهي تقع في أقصى أجياد (٢) ، ويجرى فيها بعض السيول التي تأتي من شعب السد في وادي ابراهيم (٣) .

وفي اصل الخندمة شعب يقال له الأيسر يقع في أقصى أجياد الصغير (٤) ، وفيه بئر عكرمة ومسجد المتكى (٥) .

وفي خطم الخندمة المستندر وهو اسم جاهلي للجبل الأبيض المشرف على حق أبي لهب وحق ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله (٦) .

والمستندر في فم شعب أبي طالب ، وفيه يذر « البئر التي حفرها هاشم بن عبد مناف ثم ابتاعها مطعم بن عدي ، وهي في حق المقوم بن عبد المطلب في ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة في أصل المستندر (٧) ويقال ان قصياً حفرها فنزلها ابو لهب (٨) .

وتمتد في جنوب المستندر رباع بني عبد المطلب ، ورباع آل أبي سفيان ابن عبد شمس ، ورباع بني عامر بن لؤي ، وكلها مما كانت له اهمية متميزة ، اما لعلاقتها بالرسول (ص) واسرته ، او للمكانة التي كانت

(١) الازرقي ٢/٢١٧ .
(٢) الازرقي ٢/١٨٣ ، ٢٢٥ .
(٣) الازرقي ٢/١٣٤ .
(٤) الازرقي ٢/١٨٣ .
(٥) الازرقي ٢/١٣٥ ، ١٦٣ .
(٦) الازرقي ٢/٢١٨ ، ١/٦٤ .
(٧) الازرقي ٢/١٧٥ ، ١٧٩ .
(٨) الازرقي ٢/١٧٥ .

لاصحاب هذه الرباع ، فضلا عن امتدادها جنوبا الى أطراف الصفا .

رباع بني عبدالمطلب :ـ

ذكر الأزرقي رباع بني عبد المطلب فقال .

الدار التي صارت لابن سليم الازرق الى جنب دار بني مرحب صارت لاسماعيل بن ابراهيم الحجبي ، هي قبالة دار حويطب بن عبد العزى الى منتهى دار ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله .

١ ـ فولده الحارث بن عبد المطلب أول ذلك الحق ، وهي الدار التي اشتراها ابن ابي الطلوح البصري .

٢ـ والحق الذي يليه وهو الشعب ، شعب ابن يوسف ، وبعض دار ابي يوسف لابي طالب .

٣ـ والحق الذي يليه وبعض دار ابن يوسف المولد ، مولد النبي (ص) وما حوله لابي النبي (ص) عبد الله بن عبد المطلب .

٤ـ والحق الذي يليه حق العباس بن عبد المطلب وهي دار خالصة مولاة الخيزران .

٥ ـ ثم حق المقوم بن عبد المطلب وهي دار الطلوب مولاة زبيدة .

٦ـ ثم حق ابي لهب وهي دار ابي يزيد اللهبي ، وهذا آخر حقهم (٩) .

وذكر الأزرقي ان المستندر في اصله حق المقوم وفيها بئر بذّر (١٠) ، وانه يشرف على حق ابي لهب وحق ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبدالله(١١) أي انهما في الاطراف الشمالية من ماوزعه عبد المطلب على اولاده ، اما دار العباس فلعلها التي عند العلم الذي عند الصفا في بداية المسعى ، وان الازرقي ذكر هذه الاملاك تبعًا لتسلسل مواقعها من الجنوب الى الشمال .

فأما دار الحارث بن عبد المطلب فقد ذكره الازرقي عرضاً عند كلامه

---

(٩) الازرقي ١٨٨/٢ ، وانظر عن رباعهم : الفاكهي ٢٩٢/٣ .

(١٠) الازرقي ١٧٥/٢ .

(١١) الازرقي ٢١٨/٢ ، ٦٤/١ .

عن ربع بني عامر بن لؤي التي تمتد « من شق وادي مكة اللاحق بجبل أبي قبيس في سوق الليل من حق الحارث بن عبد المطلب الذي على باب شعب ابن يوسف منحدراً الى دار ابن صيفي التي صارت ليحيى بن خالد بن برمك » (١٢) ، ويظهر هذا النص ان حق الحارث في أول (باب) شعب ابن يوسف ، وأنه قرب سوق الليل .

فاما سوق الليل فكانت تشرف عليه منارة المكيين المشرفة على دار ابن عبّاد ودار السفيانيين (١٣) .

وفي سوق الليل تقع دار الحدّادين (١٤) ، الذي يقابل سوق الفاكهة وسوق الرطب في الزقاق الذي بين دار حويطب ودار ابن اخي سفيان بن عيينه (١٥) .

وفي هذا السوق أيضاً حق لال الاخنس مقابل دار الحوار (١٦) .

مولد النبي (ص) وبيت خديجـة :ـ

لاريب في أن أبرز ما في رباع بني عبد المطلب هو شعب ابن يوسف ، فقيه حقوق كل من الحارث بن عبد المطلب ، وأبي طالب ، وعبد الله بن عبد المطلب ، وأبرز المعالم العمرانية في هذه الرباع هو مولد النبي (ص) ومنزل خديجة .

فاما مولد النبي (ص) فكان في شعب ابن يوسف (١٧) ، وهو في زقاق يسمى زقاق المولد (١٨) ، وكان عقيل ابن ابي طالب قد صادره عندما هاجر الرسول (ص) من مكة ، ولم يسترده الرسول (ص) بعد الفتح (١٩) .

---

(١٢) الازرقي ٢/٢١٤ .
(١٣) الازرقي ٢/٧٧ .
(١٤) الازرقي ٢/١٩٢ ، ٢٠٧ .
(١٥) الازرقي ٢/١٩٢ .
(١٦) الازرقي ٢/٢٠٧ .
(١٧) الازرقي ٢/١٨٨ .
(١٨) الازرقي ٢/١٦٠ ، ٤١٧ .
(١٩) الازرقي ٢/١٧٦ ، ١٧٩ .

وقد حفر فيه عقيل بئر الطوى (٢٠) ، ثم اشتراه محمد بن يوسف اخو الحجاج ، فادخله في داره التي يقال لها البيضاء ، ولابد ان الشعب اخذ اسمه من محمد بن يوسف .

ظل بيت مولد النبي (ص) في دار ابن يوسف حتى حجت الخيزران ام الخليفتين موسى وهارون ، فجعلته مسجداً يصلى فيه ، وأخرجته من دار ابن يوسف وأشرعته في الزقاق الذي في أصل تلك الدار ، وكان قبل ان تفرزه الخيزران يسكنه اناس ، فانتقلوا عنه عندما جعل مسجداً (٢١) .

ودار محمد بن يوسف هي البيضاء (٢٢) ، وهي حد حق آل نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب ، اما الحد الآخر لآل نوفل فيمتد الى فاضح بأصل جبل ابي قبيس (٢٣) .

وعند شعب ابن يوسف في وجه دار ابن يوسف كانت بركة البطحاء تسكب فيها مياه عين من بركة ام جعفر (٢٤) .

والمعلم العمراني البارز الثاني في هذه المنطقة هو منزل خديجة الذي كان يسكنه الرسول (ص) منذ ان تزوج خديجة ، وفيه ولدت خديجة جميع اولادها ، وفيه توفيت ، فلما هاجر الرسول (ص) اخذه عقيل بن ابي طالب ، ولم يسترده الرسول (ص) بعد الفتح ، ثم اشتراه معاوية بعد الخلافة ، وجعله مسجداً يصلى فيه ، واعاد بناءه على حدود ما كان في زمن حياة خديجة (٢٥) .

---

(٢٠) الازرقي ١٧٦/٢ ، ١٧٩ .
(٢١) الازرقي ١٦١/٢ — وانظر ايضا : الفاكهي ٢٦٩/٢ ، ٤/٥ — ٧ .
(٢٢) الازرقي ١٦٠/٢ ، ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٢٣) الازرقي ٢١٧/٢ .
(٢٤) الازرقي ١٨٧/٢ .
(٢٥) الازرقي ١٦١/٢ .

ويتصل ببيت خديجة دار أبي لهب ودار عدي بن ابي الحمراء الثقفي ومنهما كانت ترشق الحجارة على الرسول (ص) (٢٦) .

ودار أبي لهب في زقاق مسجد خديجة ، واسفل منها دار ابن ابي ذئب (٢٧) ، ويصاقب دار ابي لهب ودار ابي سبرة بن ابي رهم ثم دار حويطب كما ذكرنا .

اما دار عدي بن ابي الحمراء فكانت تسمى دار العاصميين ، وهي في ظهر دار ابن علقمة ، وتقع بين بيت خديجة ودار القدر (٢٨) ، وهذه الدار الاخيرة كانت لعبد الرحمن بن القاسم الخزاعي ، ثم اشتراها منه الفضل بن الربيع بعشرين الف دينار وهي في زقاق اصحاب الشيرق (٢٩) .

وتجاور دار القدر دار الاخنس التي تجاور من الجهة الثانية داراً بناها حماد البربري لهارون الرشيد (٣٠) .

ومقابل دار الاخنس في زقاق العطارين حق للسفيانيين يقال لها دار الحارث وقد آلت الى قوم من السفيانيين يقال لهم آل ابي قزعة (٣١) .

كان منزل خديجة يسلك عليه من زقاق العطارين (٣٢) الذي كان في فوهته حق ازهر بن عبد عوف فيها العطارون (٣٣) وفي هذا الزقاق دار عوف بن ابي عوف ، ابو عبد الرحمن بن عوف ، ثم اصبحت لجعفر بن سليمان (٣٤) .

---

(٢٦) الازرقي ١٦٢/٢ .

(٢٧) الازرقي ١٦٢/٢ .

(٢٨) الازرقي ٢٠٧/٢ .

(٢٩) الازرقي ١٨٨/٢ .

(٣٠) الازرقي ٢٠٧/٢ .

(٣١) الازرقي ٢١٠/٢ .

(٣٢) الازرقي ٦٢/٢ ، ٧٠ .

(٣٣) الازرقي ٢٠٥/٢ .

(٣٤) الازرقي ٢٠٥/٢ .

ربـاع آل ابي سفيان :ـ

كانت دار أبي سفيان بن حرب بجانب خليجة ، وقد فتح معاوية بينهما باباً ، وهذه الدار هي التي قال الرسول (ص) يوم الفتح « من دخل دار ابي سفيان فهو آمن » (٣٥) ، وقد صارت دار ابي سفيان فيما بعد لريطة بنت ابي العباس فصارت تسمى دار ريطة (٣٦) .

وعند دار ابي سفيان ، بينها وبين دار حنظلة بن أبي سفيان رحبة كانت تحط فيها العير القادمة من السراة والطائف ماتحمله من متاع لتباع ، وهذه الرحبة تدعى « بين الدارين » ، وقد اقطعها معاوية لزياد والي العسراق فبناها دارا ، وصارت تدعى الصرارة (٣٧) .

أما دار حنظلة فالراجح انها التي صارت للبابة ابنة علي بن عبد الله بن العباس وكانت عند القواسين (٣٨) .

تقع على رحبة بين الدارين دار سعيد بن العاص ودار الحكم بن ابي العاص وكانتا متجاورتين ، فلما بنى زياد داره سدت وجه هذين الدارين (٣٩)

وفي ظهر دار الحكم رحبة كانت لعمرو بن عبد ود ثم صارت لآل الغطريف بن عطاء (٤٠).

وكانت عند دار سعيد بن العاص رباع بني عامر التي تستند الى دار جعفر ودار ابن الجرّار (٤١) .

وعند دار ابي سفيان دار عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وقد صارت للوليد بن عتبة بن ابي سفيان ، فبناها بناءا ظل قائما ، وبجنب دار عتبة كانت دار ابن علقمة (٤٢) .

---

(٣٥) الازرقي ٢/١٦١ .
(٣٦) الازرقي ٢/١٦١ ، ١٦٠ .
(٣٧) الازرقي ٢/١٩٣ .
(٣٨) الازرقي ٢/١٩٣ .
(٣٩) الازرقي ٢/١٩٣ ، ١٩٤ .
(٤٠) الازرقي ٢/٢١٤ .
(٤١) الازرقي ٢/٢١٤ .
(٤٢) الازرقي ٢/٢١٥ .

ربـاع بني عـامر بن لؤي :

ذكر الازرقي في كلامه عن رباع بني عامر بن لؤي المعالم العمرانية في هذه المنطقة ، فذكر ان بني عامر « لهم من وادي مكة على يسار المصعد في الوادي من دار العباس بن عبد المطلب التي في المسعى ، دار جعفر بن سليمان ، ودار ابن حوار ، مصعداً الى دار أبي احيحة سعيد بن العاص ، ومعهم في هذا حق لآل ابي طرفة الهذليين وهو دار الربيع ، ودار الطلحيين ، والحمّام ، ودار أبي طرفة ، ثم عدد هذه الدور مسلسلة تبعا لمواقعها الجغرافية .

١ ـ فأول حقهم من اعلى الوادي دار هند بنت سهيل ، وهو ربع سهيل ابن عمرو .

٢ ـ واسفل منها دار الغطريف .

٣ ـ والرحبة التي خلفها في دار الحكم كانت لعمرو بن عبد ود ، ثم صارت لآل حنطب .

٤ ـ واسفل من هذه الدار دار حويطب بن عبد العزّى .

٥ ـ واسفل من هذه الدار دار الحدادين ، كانت لبعض بني عامر فاشتراها معاوية وبناها .

٦ ـ والدار التي اسفل منها فيها الحمام .

٧ ـ ودار السلماني فوق دار الربيع كانت لرجل من بني عامر بن لؤي يقال له العباس بن علقمة .

٨ ـ واسفل من هذه الدار دار الربيع ، وحمام العائذيين ، ودار ابي طرفة ، ودار الطلحيين ، كانت لآل ابي طرفة الهذليين .

٩ ـ واسفل من هذه الدار دار محمد بن سليمان كانت لمخرمة بن عبد العزى اخي حويطب بن عبد العزى .

١٠ ـ ودار ابن الحوار من رباع بني عامر ، وابن الحوار من موالي ابن عامر

في الجاهلية وربعهم جاهلي ودار ابن الحوار لولد عبد الرحمن بن زمعة اليوم .

١١ — واسفل من دار جعفر بن سليمان كانت من رباع بني عامر .

ثم ذكر مالبني عامر بن لؤي من الرباع في شق وادي مكة اللاصق بجبل أبي قبيس في سوق الليل من حق الحارث بن عبد المطلب الى دار ابن صفي التي صارت ليحيىٰ بن خالد بن برمك ، كما ذكر دوراً لهم عند دار ابي لهب ، ودار الحكم (٤٣) وهو يذكر أن دار جعفر بن سليمان عند حائط عوف ، وان دار مال الله في اصل الحجون (٤٤)

ولا بد أن هذه الدور تقع غربي دور بني عبد المطلب .

اما دار مال الله فكانت في العهود الاولى يكون فيها المرضى وطعام مال الله ثم ابتاعها معاوية وصارت تدعى دار الحدادين (٤٥) ، وكانت تقع في رباع بني عامر بن لؤي .

وصف الازرقي دور ابن عامر ومواضعها فقال « فاول حقهم دارهند بنت سهيل بن عمرو .. واسفل منها دار الغطريف ابن عطارد .

والرحبةالتي خلفها فيظهر دار الحكم كانت لعمروبن عبد ود ثم صارت لآل حويطب

واسفل من هذه الدار دار الحدادين كانت لبعض بني عامر فاشتراها فاشتراها معاوية وبناها والدار التي اسفل منها التي فيها الحمام .

ودار السلماني فوق دار الربيع كانت لرجل من بني عامر بن لؤي يقال له العباس بن علقمة

---

(٤٣) الازرقي ٢/٢١٣ — ٢١٤ .　(٤٤) الازرقي ٢/١٨٤ .

(٤٥) الازرقي ٢/١٩٣ ، ٩٤ .

وأسفل من هذه الدار دار الربيع وحمام العايذيين ودار ابي طرفة بن عبد العزى في حويطب بن عبد العزي

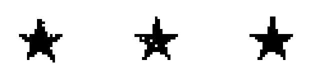
ودار ابن الحوار من رباع بني عامر ، وابن الحوار من موالي بني عامر في الجاهلية ، وربعهم جاهلي

ودار ابن الحوار لولد عبد الرحمن بن زمعة اليوم

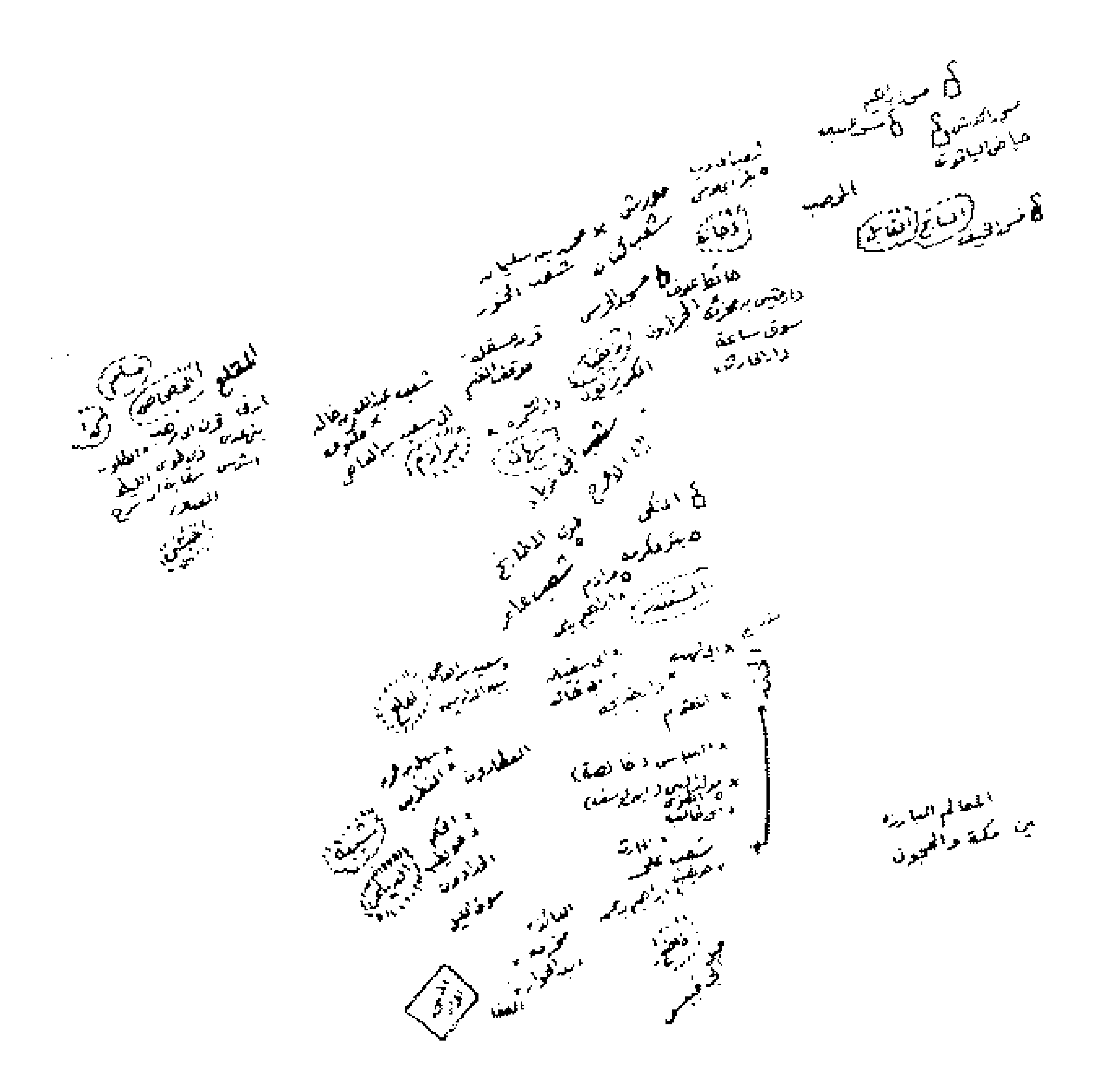
وأسفل من دار ابن الحوار دار جعفر بن سليمان كانت من رباع بني عامر بن لؤي (٤٦) .

ويتبين من هذا ان دار الحدادين هي السادسة في ترتيب البيوت من الوادي . وذكر الازرقي ان دار الحدادين تقع بسوق الليل » مقابل سوق الفاكهة وسوق الرطب ، في الزقاق الذي بين دار حويطب دار ابن اخي سفيان بن عيينة (٤٧) ، وكانت في دار حويطب بئر له (٤٨) ؛ وامامها دار ابن سليم الازرقي (٤٩) وفوقها دار هند بنت سهيل ؛ وكانت دار حويطب في الاصل لعمرو بن عبد ود (٥٠) .

وفي سوق الليل على الحدادين دار الاخنس مقابل دار الحوار (٥١) ، وفيه ايضا « بئر السماطية » هي قرب مولد النبي (ص) (٥٢) .



(٤٦) الازرقي ٢/٢١٣ ــ ٢١٤ .
(٤٧) الازرقي ٢/١٩٢ .
(٤٨) الازرقي ٢/١٨١ .
(٤٩) الازرقي ٢/١٨٧ .
(٥٠) الازرقي ٢/٢١٤ .
(٥١) الازرقي ٢/٢٠٧ .
(٥٢) الازرقي ٢/١٧٦ .


المعالم البارزة
بين مكة والحجون
سوق ساعة

القسم الثالث

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الأربعون - الجزء الثالث والرابع

1410هـ - 1989م

المعالم العمرانية في مكة المكرمة

في القرنين الاول والثاني

الدكتور صالح احمد العلي

رئيس المجمع العلمي العراقي

الحجـــون

الحجون جبل بأعلى مكة يبعد عن المسجد الحرام قرابة ميل ونصف (١) ، يشرف على مسجد الحرس الذي يقع على يمين الطريق من المدينة (٢)، وكان هذا المسجد يسمى في الأول مسجد الجن ، ثم سمى مسجد الحرس لان صاحب الحرس كان يطوف بمكة حتى اذا انتهى اليه وقف عنده ولم يجزه حتى يتوافى عرفاؤه وحرسه ، يأتونه من شعب بني عامر ومن ثنية المدنيين فاذا توافوا عنده رجع منحدرا الى مكة ، وهو فيما يقال موضع الخط الذي خط رسول الله (ص) لابن مسعود ليلة استمع اليه الجن (٣) ، ويسمى ايضا «مسجد البيعة» (٤) وبحذاء هذا المسجد في اعلى مكة يقع مسجد الشجرة عند دار منارة (٥).

وعند الحجون ثنية المدنيين التي اصبحت بعد الاسلام مقبرة اهل مكة ،وكان أهل مكة يدفنون موتاهم في جنبتي الوادي يمنة وشمالا في الجاهلية وصدر الاسلام ثم حوّل

---

(١) ياقوت ٢/٢١٥ .

(٢) الازرقي ٢ / ١٢٩ ، ١ / ٥١ ،الفاكهي ٤/٥٥ .

(٣) الازرقي ٢/١٦٢ ، وانظـــر :الفاكهي ٤/٢٠ .

(٤) الازرقي ٢/١٦٢ ، ٢٢١ ، وانظر الفاكهي ٤/٥٥ .

(٥) الازرقي ٢/١٦٢ ، وانظر الفاكهي ٤/٥٤ .

الناس جميعا قبورهم في الشعب الايسر . ففيه قبور اهل مكة (٦) » ويذكر الازرقي في نص اخر تفاصيل اوفى حيث يقول «كان اهل الجاهلية وفي صدر الاسلام يدفنون موتاهم في شعب ابي دب من الحجون الى شعب الصفى ، صفى السباب ، وفي الشعب اللاحق بثنية المدنيين الذي هو مقبرة اهل مكة اليوم ،ثم تمضي المقبرة مصعدة لاصقة بالجبل الى ثنية اذاخر بحايط خرمان ، وكان يدفن في المقبرة التي عند ثنية اذاخر ال اسيد بن سعيد بن العاص ،. وفيها دفن عبد الله بن عمر بن معاوية » (٧)

شعب المقبرة :

وشعب المقبرة هو الشعب الوحيد الذي يستقبل وجه الكعبة (٨) ، وخلف المقبرة جبل دجانة شارعا على الوادي ، والاحداب التي خالفه تسمى ذات اعاصير (٩) .

وعند شعب المقبرة شعب ابي دب منسوب الى رجل من بني سواءة بن عامر سكنه فسمى به (١٠) ، وكانت على فم الشعب سقيفة من حجارة بناها ابو موسى الاشعري ، نزلها حين انصرف من الحكمين (١١) ، وعند هذه السقيفة ايضا بئر ابي موسى (١٢) .

كان في شعب ابي دب الجزارون (١٣) ، وفيه ايضاً المقبرة في الجاهلية (١٤) وتمر به ثنية تسلك من حايط عوف من عند الماجلين اللذين فوق دار مال الله (١٥).

(٦) الازرقي ١٧١/٢ .
(٧) الازرقي ١٧٠/٢ ، الفاكهي ٥٥/٤ ، ٥٩ .
(٨) الازرقي ١٦٩/٢ .
(٩) الازرقي ٢٣١/٢ .
(١٠) الازرقي ٢١٩/١ .
(١١) الازرقي ٢١٩/٢ .
(١٢) الازرقي ١٨٢/٢ .
(١٣) الازرقي ١٧٠/٢ ، ٢١٩ .
(١٤) ياقوت ٢١٥/٢ ، ٣٢١ .
(١٥) الازرقي ٢١٩/١ .

فاما حائط عوف فان « موضعه من زقاق خشبة ودار مبارك التركي ودار جعفر بن سليمان ، وهو اليوم من حق ام جعفر ، ودار مال الله ، وموضع الماجلين ، ماجلى امير المؤمنين هارون الذي باصل المجون ، فهذا كله موضع حائط عوف الى الجبل ، وكانت له عين تسقيه ، وكان فيه النخل ، وكان له مشرع يرده الناس » (١٦) .

اما الماجلين فان الازرقي يذكر ان الرشيد « امر بعيون من عيون معاوية فعملت وأُحييت وصرفت في عين واحدة يقال لها الرشا تسكب في الماجلين اللذين احدهما لامير المؤمنين الرشيد بالمعلاة ، ثم تسكب في البركة التي عند المسجد الحرام » (١٧) .

وكان حايط عوف بن مالك في وجهه رباع الكريزيين ثم اشتراها منهم معاوية (١٨) .

كـدا :

تسمى ثنية المقبرة كداء ، وهي العقبة الصغرى التي باعلى مكة يهبط منها الى مقبرة مكة والابطح ، ويطلق عليها اهل مكة الحجون ، وهي الحجون الثانية (١٩) .

وثنية كدا التي يهبط منها الى ذى طوى ، وهي التي دخل منها قيس بن سعد بن عبادة يوم الفتح ، وخرج منها رسول الله (ص) الى المدينة (٢٠) .

وفي كدا شعب ارنى وهو « في الثنية في حق ال الاسود . ويشرف على شعب ارنى وكدا الجبل الابيض (٢١) الذي يشرف ايضا على فلق ابن الزبير (٢٢) وعلى حق ابي لهب وحق ابراهيم بن محمد بن خلف » (٢٣) .

---

(١٦) الازرقي ٢/١٨٤ .
(١٧) الازرقي ٢/١٨٦ .
(١٨) الازرقي ٢/١٩٦ .
(١٩) تعليق ناشر الازرقي ٢/٢٣١ .
(٢٠) الازرقي ٢/٢٤٠ .
(٢١) الازرقي ٢/٢٤٠ .
(٢٢) الازرقي ٢/٢٣٠ .
(٢٣) الازرقي ٢/٢١٨ .

وفي ثنية كدا خط بني عدى « على يمين الخارج من مكة الى حق الشافعيين على رأس كدا ، ولهم من الشق الايسر حق ال ابي طرفة الهذليين الذي على راس كدا ، فيه اراكه شارعة على الطريق يقال له دار الاراكة ، ومعهم في هذا الشق الايسر حقوق ليست لهم معروفة في حق ال كثير بن الصلت الكندى الى جنب دار مطيع كانت لال جحش بن رئاب الاسدي »(٢٤) .

ويشرف على كدا ايضا قرن ابى الاشعث على يمين الخارج من مكة ، وهو من الجبل الاحمر، وقد سمى برجل من بني اسد بن خزيمة يقال له كثير بن عبد الله بن بشر (٢٥) .

وبين ثنية المقبرة ودار السرى احداب تسمى الات يحاميم في اصلها قبر ابي جعفر المنصور، واولها القرن الذي عند ثنية المدنيين على رأس بيوت ابن ابي حسين النوفلي والذي يليه قرن مشرف على منارة الحبشي فيما بين ثنية المدنيين وفلق ابن الزبير ، وكان معاوية بن ابي سفيان سهلها ، ثم عملها عبدالملك بن مروان ، ثم بنى المهدي ضفائرها ودرجها وحددها (٢٦) .

ذى طـــوى :

يمتد بطن ذى طوى بين مهبط ثنية المقبرة وثنية الخضراء (٢٧) ويذكر ياقوت ان ذى طوى وادي مكة (٢٨) وان البعض يقول انه الابطح وهذا غير صحيح (٢٩) فان طوى من بطن الوادي وليس كل الوادي (٣٠) وفي ذى طوى سقاية سراج وعندها بئر وردان (٣١) ، وممادر بكار وبئر

(٢٤) الازرقي ٢/٢١٢ ، وانظر ٢/٢٤٠ .
(٢٥) الازرقي ٢/٢٤٠ .
(٢٦) الازرقي ٢/٢٣١ .
(٢٧) الازرقي ٢/٢٤١ .
(٢٨) ياقوت ٣/٥٥٣ .
(٢٩) ياقوت ١/٩٢ .
(٣٠) الازرقي ١/١٩ ، ياقوت ١/٧٦ .
(٣١) الازرقي ٢/١٨٢ .

بكار ، ولا بد انها هي الممدرة التي كان ينقل منها الطين الذي يبنى به اهل مكة (٣٢) ، وكان شعب اشرس يفوغ على بيوت ابن وردان (٣٣) .

وفيه ايضا بيت حمران الذي يشرف عليه جبل مسلم في طريق جدة ، وفيه ايضا قصر ابن ابي محمود وتهبط اليه ثنية (٣٥) ، ويفرغ في ذى طوى شعب المطلب وهو خلف شعب الاخنس (٣٦) .

ويفرغ في وادي طوى شعب زريق (٣٧) ، وتقع العبلاء بينه وبين الليط (٣٨) وفيها مقبرة النصارى دير المقلع على طريق بئر عنبسه (٣٩) .

يشرف على ذى طوى جبل الحصحاص (٤٠) كما يشرف ايضا على بطن مكة مما يلي بيوت احمد المخزومي. وعند الحصحاص ثنية ام الحارث وهي الثنيـة التي على يسارك اذا هبطت ذا طوى تريد فخـا بين الحصحاص وطريق جدة. وبقربه المدور ، وهو متن يليه سقاية وهيب بن ميمون (٤١). وبين الحصحاص وذى طوى ثنية كانت فيه سمرة ينزلها الرسول (ص) حين يعتمر وفي حجته حين حج (٤٢) ، ثم بنت زبيدة مكان السمرة مسجدا بازاج(٤٣) .

وفي طرق الحصحاص مقبرة المهاجرين (٤٤) ، وهي قرب فخ (٤٥) .

فـــخ :

فخ واد باصل الثنية البيضاء الى بلدح ، تطأه في طريق جدة على يسار

---

(٣٢) الازرقي ٢٤١/٢ .
(٣٣) الازرقي ٢٤٢/٢ .
(٣٤) الازرقي ٢٤٢/٢ .
(٣٥) الازرقي ٢٤٠/٢ .
(٣٦) الازرقي ٢٤٣/٢ .
(٣٧) الازرقي ٢٤٣/٢ .
(٣٨) الازرقي ٢٤٤/٢ .
(٣٩) الازرقي ٢٤١/٢ .
(٤٠) الازرقي ٢٧٤/٢ ، ياقـوت ٢٥٧/١ ، والحصحاص مقبرة المهاجرين . الفاكهي ٧٥/٤ .
(٤١) الازرقي ٢٤٢/٢ .
(٤٢) الازرقي ١٦٤/٢ .
(٤٣) الازرقي ١٦٤/٢ ، ٢٤٠ .
(٤٤) الازرقي ١٧١/٢ ، ١٧٢ .
(٤٥) الازرقي ١٧٢/٢ ، ١٤٢ .

ذى طوى وما بين الليط الى الممدرة الى ذى طوى (٤٦) ، وحده شعب بنى عبد الله بن خالد بن اسيد (٤٧) ، ويقول ياقوت ان الثنية البيضاء عقبة قرب مكة تهبطك الى فخ (٤٨) .

وفي فخ حائط ظل قائما الى زمن الازرقي ، وفيه ايضا حايط ابن الشهيد الذي يقع في جبل لقيط وهذا الجبل بأصله فخ (٥٠) .

وفيه ايضا بئر البرود ، حفرها خراش بن امية الكعبي (٥١) ، وهي عند جبل الحسين الذي قتل عنده الحسين صاحب فخ ، وفوقها الثنية البيضاء (٥٢) وهي بين فخ وبلدح (٥٣) .

وفي فخ ايضا سقاية سراج باسم مولى لبنى هاشم ، وعندها بئر وردان مولى المطلب بن ابي وداعة (٥٤) وبين فخ وطوى ثنية ام الحارث على يسار الطريق (٥٥) .

ومن المعالم في فخ الليط وبالقرب منه ظهر الممدرة (٥٦) ، تقع عنده الاقحوانة (٥٧) وفي هذه الرقعة الحزنة وهي ثنية تهبط من حق آل عروة بن مطبع ودار كثير الى الممادر وبئر بكار ، وقد سهلها يحيى ابن خالد البرمكي (٥٨) .

وفي طرق الليط المغشى الذي يمتد الى خيف الشبرق بغربه (٥٩) ، ومن المغشى تقطع الحجارة البيض التي يبنى بها ، وهي الحجارة المنقوشة البيض بمكة ، ومنه بنيت دار العباس بن محمد التي على الصيارفة (٦٠) .

---

(٤٦) الازرقي ٢٤١/٢ .
(٤٧) الازرقي ٢٢٨/٢ .
(٤٨) ياقوت ٩٣٦/١ .
(٤٩) الازرقي ١٨٥/٢ .
(٥٠) الازرقي ٢٤٢/٢ .
(٥١) الازرقي ١٨٢/٢ .
(٥٢) الازرقي ٢٤٢/٢ .
(٥٣) الازرقي ٢٤٤/٢ .
(٥٤) الازرقي ١٨٢/٢ .
(٥٥) الازرقي ٢٤٢/٢ .
(٥٦) الازرقي ٢٤١/٢ .
(٥٧) الازرقي ٢٢٥/٢ .
(٥٨) الازرقي ٢٤٠/٢ .
(٥٩) الازرقي ٢٤١/٢ .
(٦٠) الازرقي ٢٤٣/٢ .

وفي المغش والليط تقع الحزنة ، وقد اجرى فيها يحيي بن خالد بن برمك عينا وعمل عندها بستانا (٦١) .

وفي طرف الليط مما يلي المغش يقع خزروع (٦٢).

وفي طرف المغش يقع جبل قتد (٦٣) .

وبين الليط وذى طوى تقع العبلاء (٦٤) .

وبالقرب من فخ الحدث ، ويمتد بينهما مكة السدر (٦٥) ، وتقع ذات الجبلين بين مكة والسدر وفخ (٦٦) ، وعندها الجبل الاسود (٦٨) ويشرف على فخ ممايلى طريق المحدث جبل استار ، وهو ارض كانت لاهل يوسف بن الحكم الثقفي (٦٩) .

ويمتد شعب بني عبد الله مابين المحدث الى الجعرانة (٧٠) ، ومن هذا الشعب الى نخلة ثنية النفوس وهي شعب (٧١) .

وبالقرب من فخ اذاخر بينهما شعب الاخنس (٧٢) ، وقد نزل الرسول منها الى مكة عام الفتح (٧٣) وثنية اذاخر عند حائط خرمان المشرف على ابن الشهيد (٧٤) .

وفي آخر وادي فخ يقع وادي بلدح ، وهو الوادي التي يقطعه طريق جدة (٧٥) .

---

(٦١) الازرقي ٢/٢٤٠ .
(٦٢) الازرقي ٢/٢٤١ .
(٦٣) الازرقي ٢/٢٤٣ .
(٦٤) الازرقي ٢/٢٤٤ .
(٦٥) الازرقي ٢/٢٣٣ .
(٦٦) الازرقي ٢/٢٤٣ .
(٦٨) ياقوت ٣/٨٧٤ .
(٦٩) الازرقي ٢/٢٤١ .
(٧٠) الازرقي ٢/٢٣٣ .
(٧١) الازرقي ٢/٢٣٤ .
(٧٢) الازرقي ٢/٢٣٢ .
(٧٣) ياقوت ١/١٧١ .
(٧٤) الازرقي ٢/٢٤٢ .
(٧٥) الازرقي ٢/٢٤١ ، ياقوت١/٧١٤

وبين واديي فخ وبلدح تقع الثنية البيضاء وهي الثنية التي قتل فيها الحسين صاحب فخ (٧٦) .

وفي بلدح حائط من عيون معاوية ، وعين سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وحائط سفيان والخيف الذي اسفل منه وقد اصبحت ملكيته فيما بعد لام جعفر (٧٧) .

وفي بلدح ايضا حائط ابن خرشه يفرغ فيه شعب اللبن ، وحائط الطائفي يفرغ فيه شعب ملحة الغراب وحائط ابن سعيد يفرغ عليه شعب الحروب (٧٨).

وفي بلدح ذات الحنظل وهي ثنية في مؤخر شعب الشيق الذي يقع طرف بلدح على يمين طريق جدة ،وفوق فوهته حائط وعين عملها الدورقي (٧٩) .

شعب ابن عامر :

كان شعب ابن عامر يقال له في الجاهلية المطابخ (٨٠) ، ثم اصبح يسمى في الاسلام شعب ابن عامر الذي كانت داره في الشعب (٨١) ، والشعب كله من ربعه ، من دار قيس بن مخرمة الى دار حجير ، وما وراء دار حجير الى ثنية ابي مرحب ، الى موضع نادر من الجبل كالمنحوت ، وهو قائم شبه الميل ، ويقال ان ذلك كان علما بين معاوية وبين عبد الله بن عامر ، فما وراء ذلك الى الشعب هو لعبد الله بن عامر ، وما كان في وجهه مما يلي حائط عوف بن مالك فذلك لمعاوية (٨٢) .

وفي فوهة شعب ابن عامر دار قيس بن مخرمة ، وهي لهم جاهلية (٨٣) وفي فوهته ايضا سوق ساعة الذي عنده دار الحارث ودار الحسين (٨٤)

---

(٧٦) الازرقي ٢/٢٤٢ .
(٧٧) الازرقي ٢/١٨٥ .
(٧٨) الازرقي ٢/٢٤٤ .
(٧٩) الازرقي ٢/٢٤٣ .
(٨٠) الازرقي ٢/٢٠٩ .
(٨١) الازرقي ٢/١٩٢ ، ٢٩٦ .
(٨٢) الازرقي ٢/١٩٦ .
(٨٣) الازرقي ٢/١٨٩ .
(٨٤) الازرقي ٢/٢١٩ .

وفي شعب ابن عامر ثنية عندها بئر ابن ابي السمير التي يمتد اليها جبل الخندمة الى حرف السويداء ، وهي مشرفة على اجياد الصغير وعلى شعب ابن عامر وعلى دار محمد بن سليمان في طريق منى اذا جاوزت المقبرة على يمين الذاهب الى منى (٨٥) .

وعند شعب عبد الله بن عامر يقع جبل نبهان مشرف على شعب ابي زياد وهو من حق ال عبد الله بن عامر ، ونبهان وزياد موليان لعبد الله بن عامر

ويتصل بجبل نبهان جبل زيقيا ممتدا الى حائط عوف ، وهو مسمى بمولى لال الجد بن ربيعة المخزوميين وكان اول من بنى فيه فسمي به .

ويشرف جبل الاعرج على شعب ابي زياد وشعب ابن عامر ، وهو منسوب الى الاعرج مولى ابي بكر الصديق ، كان فيه فسمي به (٨٦) .

ويشرف على شعب ابي زياد وحق ابن عامر ثنية ابي مرحب التي يهبط منها على حائط عوف يختصر من شعب ابن عامر الى المعلاة والى منى (٨٧) .

وبين شعب ابن عامر وحرف دار رابطة يقع قرن مسقلة ، وقد سمي برجل كان يسكنه في الجاهلية (٨٨) وعنده سوق الغنم القديم (٨٩) وقد وقف عنده الرسول (ص) يوم الفتح فجاء الناس يبايعونه ، ودار رابغة مقابل دار الحمام التي في وجهها دور ابن غزوان (٩٠) .

وفي دبر قرن مسقلة دار سمرة ، وعند هذه الدار دار صفوان السفلى (٩١)

ولبني عتوارة ، من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة ، دار عمرو بن سعيد بن العاص الاشدق من دار الطلحيين التي بالبطحاء الى شعب ابن عامر ، فذلك الربع لهم جاهلي (٩٢)

---

(٨٥) الازرقي ٢/٢٣٤ .
(٨٦) الازرقي ٢/٢١٨ — ٢١٩ .
(٨٧) الازرقي ٢/٢١٩ .
(٨٨) الازرقي ٢/٢١٨ .
(٨٩) الازرقي ٢/١٩٧ ، ٢١٨ .
(٩٠) الازرقي ٢/٢١٨ .
(٩١) الازرقي ٢/٢١٣ .
(٩٢) الازرقي ٢/١٨٩ .

شعب عبدالله بن خالد بن اسيد :

يشرف على حق ابن عامر جبل مرزام الذي يصل حق ال عبد الله بن خالد بن اسيد وعلى حق ال سعيد بن العاص ، واخر حق ابي لهب ، وكانت دار الله بن خالد بقرب دار سعيد بن العاص .

ان شعب بني عبد الله بن خالد بن اسيد يسمى « القنة» وهو يصب على بيوت مكتومة مولاة محمد بن سليمان .

ويقع الحضر ، وهو متن ، على يمين شعب ال عبد الله بن خالد بحذاء دار ابن هربذ وهذه الدار في زقاق يلي ربع كريز ، ويخرج الى النجارين والى المسكن الذي صار لعبد المجيد بن عبد العزيز والى الزقاق الذي يخرج على البطحاء عند حمام ابن عمران العطار

وتقع القعمة دون شعب بني عبد الله بن خالد على يمين الطريق ، في اسفلها حجر عظيم مستدق كهيئة القمع .

وبالقرب من شعب بني عبد الله بن خالد يقع فخ وادي مكة الاعظم .

ذكرنا ان بركة القسرى كانت بفم الثقبة ، وهذه الثقبة تصب من ثبير غيناء ، وهي بين حراء وثبير ، وهي الفج الذي فيه قصر الفضل بن الربيع طريق العراق الى بيوت ابن جريج (٩٣) وكان في الثقبة سد فجاء سيل في سنة ٢٠٨هـ فامتلأ بالماء « فلما فاض انهدم السد فجاء السيل الذي اجتمع فيه مع سيل السدرة وسيل ماقبل من منى ، فاجتمع ذلك كله ، فجاء جملة فاقتحم المسجد الحرام (٩٤)

وبالقرب من بير القسرى كانت واسط ، وقد روى الازرقي في تعريفها عدة روايات فقال واسط قرن كان اسفل من حجرة العقبة بين مأزمي منى فضرب حتى ذهب .

---

(٩٣) الازرقي ٢/٢٢٧ . (٩٤) الازرقي ٢/٢٣٧ .

وقال بعض المكيين واسط الجبلان دون العقبة

وقال بعضهم تلك الناحية من بير القسرى الى العقبة يسمى واسطا

وقال بعضهم واسط القرن الذي على يسار من ذهب الى منى دون الخضراء في وجهه مما يلي طريق منى بيوت مبارك بن يزيد مولى الازرق بن عمرو وفي ظهر دار محمد بن عمر بن ابراهيم الخيبري ، فذلك الجبل يسمى واسط ، وهذا اثبت الاقوال عند جدى (٩٥) .

وقد نقل ياقوت هذا النص ونسبه الى الفاكهي واضاف « قال الحميدي ، واسط الجبل الذي يجلس عنده المساكين اذا ذهبت الى منى» . . قال الفاكهي يقال ان اول من شهده وضرب فيه قبة خالصة مولاة الخيزران (٩٦) .

وتخرج الى بئر خالد ثنية في شعب الرخم ، كان يسلكها النبي (ص) في طريقه من حراء الى ثور (٩٧) وهي على يســار الذاهب الى منى من مكة ، وقد سواها وبناها ابن علقمة والى مكة (٩٨)

وشعب الرخم بين الرباب وبين اصل ثبير غيناء (٩٩) وهو في ظهر شعب عمارة الذي فيه منازل سعيد بن اسلم (١٠٠)

ثبير :

ان ثبير غيناء الذي بقربه شعب الرخام هو احد الاثبرة ، وقد نقل ياقوت عن محمود بن عمير « الثبيران جبلان مفترقان يصب بينهما افاعية وهو واد يصب من منى ، يقال لاحدهما ثبير غيناء وللاخر ثبير الاعرج (١٠١) .

---

(٩٥) الازرقي ٢/٢٢٤ .
(٩٦) ياقوت ٤/٨٩٠ .
(٩٧) الازرقي ٢/١٦٥ .
(٩٨) الازرقي ٢/١٦٦ .
(٩٩) الازرقي ٢/٢٢٥ ، ياقـــوت٢/٧٧١ .
(١٠٠) الازرقي ٢/٢٢٧ ـ ٨ .
(١٠١) ياقوت ١/٩١٧ ، وانظر عن الاثيرة البكرى ٣٣٦ .

ويذكر ياقوت ان غيناء قنة في اصل ثبير الجبل المطل على مكة ، وهو حجر كأنه قبة (١٠٢) وكان يسمى في الجاهلية سميراً ، (١٠٣) ويقال لقلته ذات القتادة ، ويسمى ثبير غيناء ايضا جبل الزنج لان الزنوج كانوا يحتطبون منه ويلعبون فيه (١٠٤) ، وافاعيه التي تصب بين الثبيرين تقع في بطن السرر وهو مجاري المـــاء منه ماء سيل مكة ، وهو على اربعة اميال من مكة ، وكان عبد الصمد بن علي اتخذ عليه مسجدا (١٠٥) .

ومن بطن السرر سدرة خالد وهي صدر وادي مكة ، وهو بين منى ومكة ومنها ياتي سيل مكة اذا عظم ، وقد اختلف في نسبتها الى خالد بن سعيد بن العاص او الى خالد بن عبد العزيز بن عبد الله (١٠٦) ويذكر البكري « اذا كنت بين الاخشبين من منى والفخ بيمنة نحو الشرف فان هناك واديا يقال له السرر وبه سرحة » (١٠٧) ويذكر ايضا اذا كنت بين المأزمين من منى فان هناك سرحة تحتها سبعون نبيا » (١٠٨)

وافيعية عندها النصع ، وقربه السداد في طرف النخيل عملها الحجاج ، لحبس الماء والاوسط منها يدعى اثال (١٠٩)

ان سداد الحجاج التي صدرها ثبير النصع هي « ثلاثة اسدة بشعب عمرو بن عبد الله بن خالد » عملها الحجاج بن يوسف لحبس الماء ، والكبير منها

(١٠٢) ياقوت ٨٣١/٣ .
(١٠٣) الازرقي ٢٢٥/٢ ، ياقوت ١٥٠/٣ .
(١٠٤) الازرقي ٢٢٥/٢ .
(١٠٥) الازرقي ٢٢٧/٢ .
(١٠٦) الازرقي ٢٢٨/٢ ، ياقوت ٧٥/٣ .
(١٠٧) البكري ٧٣٣ .
(١٠٨) البكري ١١٧٣ .
(١٠٩) الازرقي ٢٢٨/٢ .

يدعى اثال ، وهو سد عمله الحجاج بن يوسف في صدر شعب ابن عمرو وجعله حبسا على وادي مكة ، جعل مغيضه يسكب في سدرة خالد ، وهو على يسار من اقبل من شعب عمرو .

والسدان الأخران على يمين من اقبل من شعب عمرو ، وهما يسكبان في اسفل منى بسدرة خالد ، وهي صدر وادي مكة ، ومن شقها واد يقال له الافيعية ، ويسكب فيه ايضا شعب علي بمنى ، وشعب عمارة الذي فيه منازل سعيد بن سلم ، وفي ظهره شعب الرخم ، ويسكب فيه ايضا المنحر من منى ، والجمار كلها تسكب في بكة (١١٠) .

ان شعب عمرو فيما يذكر الازرقي بمنى وفيهـا بئر عمرو بن عثمان بن عفان (١١١) اما شعب علي فان قلة ثبير تشرف عليه (١١٢) ، وهو حيال جمره العقبة وعرض طريقه ست وعشرون ذراعاً (١١٣) ، وابرز ما فيه مسجد الكبش ، وقد بنت عليه لبابه بنت علي بن عبدالله بن عباس(١١٤)

يقول المقدسي ان مسجد الكبش بقرب العقبة (١١٥) ، ويقول ياقوت انها العقبة التي بويع فيها النبي (ص) بين منى ومكة ، بينها وبين مكة نحو ميلين وعندها مسجد(١١٦) وذرع طريق العقبة من العلم الذي على الجدران الى العلم الآخر الذي بحذائه سبع وستون ذراعاً ، والطريق مفروش يمر عليها سيل منى ، وعرض الطريق الاعظم طريق القبة المدرجة ست وثلاثون ذراعاً وقد هدمت في احد سيول مكة الجارفة (١١٨) .

---

(١١٠) الازرقي ٢/٢٢٧ — ٨ .
(١١١) الازرقي ٢/١٨١ .
(١١٢) الازرقي ٢/٢٢٥ .
(١١٣) الازرقي ٢/١٥٠ .
(١١٤) ٢/١٤١ .
(١١٥) احسن التقاسيم ٧٦ ، ياقوت ٤/٦٤٢ .
(١١٦) ياقوت ٣/٤٩٢ .
(١١٧) ابن رسته ٥٥ .
(١١٨) الازرقي ١/٢٠٢ .

يقع بأصل ثبير غيناء قرن الرباب وهو عند الثنية الخضراء عند بيوت ابن لاحق مولى لال الازرق بن عمرو ، مشرفة عليها ، وهي عند القصر الذي بني محمد بن خالد بن برمك اسفل من بير ميمون الحضرمي واسفل من قصر امير المؤمنين ابي جعفر (١١٩)

وعند الخضراء شعب عثمان ، وهو من طريق منى لمن سلك شعب الخوز وسيله يفرغ في أصل العير ، وفيه بئر عير (١٢٠)

الجبل الذي عند الميل على يمين الذاهب الى منى ، وجهه قصر محمد بن داوود ، ومقابله جبل يقال له العير الذي فيه قصر صالح بن العباس بن محمد باصل الدار التي كانت لخالصة (١٢١) .

والثنية الحضراء في جبل يقـال له الاقحوانة ، ويسمى ايضا ثبير النخيل وكانوا يحتطبون منه ويلعبون ، وباصله بيوت الهاشميين ، يمر سيل منى بينه وبين وادي ثبير . . وقال بعض المكيين الاقحوانة عند الليط كان مجلسا يجلس فيه من خرج من مكة يتحدثون به بالعشي ويلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطيبة ، وكان مجلسهم من حسن ثيابهم يقال له الاقحوانة (١٢٢)

ويقول البكرى ان الأقحوانة مابين بئر ميمون الى بئر ابن هشام (١٢٣)

وتقع المفجر مابين ثنية الخضراء الى خلف دار يزيد بن منصور ، تهبط على حياض ابن هشام التي بمفضى المأزمين ، مأزمى منى ، يفضي بك على بير نافع بن علقمة وبيوته حتى تخرج على ثور (١٢٤) وفي المفجر شعب حوا (١٢٥) .

---

(١١٩) الازرقي ٢/٢٢٥ .
(١٢٠) الازرقي ٢/٢٢٣ .
(١٢١) الازرقي ٢/٢٢٣ .
(١٢٢) الازرقي ٢/٢٢٦ .
(١٢٣) البكرى ١٧٩ .
(١٢٤) الازرقي ٢/٢٢٣ ــ ٢٢٤ .
(١٢٥) الازرقي ٢/٢٠٢ .

وشعب الخوز الذي يقع بين شعب عثمان والخضراء ، ويقال له خيف بني المصطلق ، وهو مابين الثنية التي بين شعب الخوز بأصلها بيوت سعيد ابن صيفي ، الى الثنية التي تهبط على شعب عمرو الذي فيه بير ابن ابي سمير ، وسمى بهذا الاسم لان قوما من موالي عبد الرحمن بن نافع الخزاعي كانوا اول من بنى فيه وكانوا يسكنونه ، وكانت لهم دقة نظر في التجارة وتشدد في الاموال والضبط فسموا الخوز (١٢٦)

وفي فم شعب الخوز كانت دار محمد بن سليمان بن علي،ودار لبابة بنت علي،ودار ابن قثم،ثم صار في موضعها حائط ورش ، وكان فيه النخل وكانت له عين ومشرع يرده الناس ، وكان فيه النخل والزرع على طريق منى .

وتهبط من شعب الخوز ثنية بقربها شعب عمرو بن عثمان ، وقد اصبح يسمى خيما بعد شعب النوبة ، وتهبط عليه ثنية في اخر شعب بني كنانة وفي وجهه دار محمد بن سليمان بن علي (١٢٧)

تقع في المفجر بطحاء قريش (١٢٨) ويذكر ياقوت ان « الابطح يضاف الى مكة والى منى لان المسافة بينهما واحدة ، وربما كان الى منى اقرب ، وهو المحصب ، وهو خيف بني كنانة (١٢٩) وحده مابين شعب عمرو الى ثنيه بني كنانة » (١٣٠)

يقول الحازمي ان خيف بني كنانة بمنى نزله النبي (ص) (١٣١) يقول البكرى ان مسجد الخيف وهو خيف بني كنانة (١٣٢) ، ويقول القاضي عياض ان خيف بني كنانة هو المحصب (١٣٣)

---

(١٢٦) الازرقي ٢/٢٢٣ .
(١٢٧) الازرقي ٢/١٨٤ .
(١٢٨) الازرقي ٢/٢٢٤ .
(١٢٩) ياقوت ١/٩٢ ، ٤/٤٢٦ .
(١٣٠) ياقوت ٤/٤٢٦ .
(١٣١) ياقوت ٢/١١٧ .
(١٣٢) البكرى ٥٢٦ .
(١٣٣) ياقوت ٢/١٨ .

ويقال لخيف بني كنانة شعب الصفى (٣٤) ويقال له صفي السباب وهو مابين الراحة : الجبل الذي يشرف على دار الوادي عليه المنارة وبين نزاعة الشوى ، وهو الجبل الذي عليه بيوت ابن فطر ثم صارت لعبيد الله بن عبد الله بن العباس (١٣٥ وقد سمى «الراحة» لان قريشا كانت تخرج اليه في الصيف وتبيت فيه وتستريح (١٣٦) ويذكر البكرى ان صفى السباب كان يسمى احجار المراء (١٣٧ وكان في شعب الصفي حائط (بستان) لمعاوية ، يقال له حائط الصفى من اموال معاوية التي كان اتخذها في الحرم (١٣٨) وموضع هذا الحائط من دار زينب بنت سليمان التي صارت لعمرو بن مسعدة والدار التي فوقها الى دار العباس بن محمد التي باصل نزاعة الشوى ، وكانت له عين ، وكان له مشرع يرده الناس (١٣٩)

وصفى السباب مابين دار سعيد الحرشي التي بناها الى بيوت ابي القاسم بن عبدالواحد التي باصلها المسجد الذي صُلِّيَ على امير المؤمنين المنصور عنده وكان به نخل وحائط لمعاوية ويعرف بحائط خرمان » (١٤٠)

ينقل رشدى ملحس في تعليقه على المحصب انه « مسيل بين مكة ومنى ، وحده من جهة منى جبل العيرة بقرب السبيل الذي يقال له سبيل الست في طريق منى على ماذكر الناس »و(١٤١) ، ويذكر في تعليقه على بئر ميمون انها في سبيل الست (١٤٢)

---

(١٣٤) الازرقي ٢/٢٢٣ .
(١٣٥) الازرقي ٢/٢٢٣ .
(١٣٦) الازرقي ٢/٢٢١ .
(١٣٧) البكرى ١١٧ .
(١٣٨) الازرقي ٢/٢٢٢ ، وانظر ٢/٢٢٣ ــ ٤ .
(١٣٩) الازرقي ٢/١٨٤ .
(١٤٠) ياقوت ٣/٤٠٤ عن الزبير بن بكار .
(١٤١) الازرقي ٢/١٢٩ ، ٢٢٣ .
(١٤٢) الازرقي ٢/١٧٩ (تعليق مقتبس من الفاسي) .

ويذكر الفاسي « وحد المحصب من الميمون مصعدا في الشق الايسر وانت ذاهب الى منى ، الى حايط خرمان مرتفعا عن بطن الوادي ، فذلك كله المحصب » (١٤٣) .

يمتد حائط خرمان من ثنية اذاخر الى بيوت جعفر العلقمي وبيوت ابن ابي الرزام ، وماجله قائم اليوم ، وكان فيه النخل والزرع حيثاً من الدهر ، وكانت له عين ومشرع يرده الناس (١٤٤) .

وفوق حائط خرمان شعب ابى قنفذ وهو الشعب الذي فيه دار ابى خلف بن عبد ربه بن السائب مستقبل قصر محمد بن سليمان ، وكان يسمى شعب الاثام . . وهو الشعب الذي على يسارك وانت ذاهب الى منى من مكة ، وفيه اليوم دار الخلفيين من بني مخزوم ، وفي هذا الشعب مسجد مبني يقال ان النبي (ص) نزل فيه ، ثم صار ينزله في الموسم الحضارم (١٤٥)

وكان « غراب القرك الذي عليه بيوت خالد بن عكرمة بين حائط خرمان وبين شعب ال قنفذ مسكن ابن ابي الرزام ومسكن ابي جعفر العلقمي بطرف حائط خرمان » (١٤٦) وهو بمؤخر شعب الاخنس بن شريق الى اذاخر (١٤٧) وخلف شعب الاخنس يقع شعب المطلب الذي يفرع في بطن طوى وسمى باسم المعلى بن السائب بن ابي وداعة

(١٤٣) الازرقي ٢/١٢٩ (في الهامش) .
(١٤٤) الازرقي ٢/١٨٥ .
(١٤٥) الازرقي ٢/٢٣١ .
(١٤٦) الازرقي ٢/٢٣٢ .
(١٤٧) الازرقي ٢/٢٤٣ .

مسجد الخيف

لم يرد في المنطقة الواقعة عند الميل الخامس من المعالم سوى قرن الثعالب الذي كان الميل الخامس وراءه بمائة ذراع (١) ، وبينه وبين مسجد منى ١٥٣٠ ذراعا (٢) وهو في قول الفاكهي جبل مشرف على اسفل منى .

اما الميل الرابع فكان عند الجمرة الثالثة التي تلي مسجد الخيف ، تبعد عن الميل خمسة عشر ذراعا (٣)

والجمرات الثلاث هي الاولى والوسطى والثالثة؛ وصف الازرقي ماكان فيها قبل الاسلام اذ قال « وكان عمرو بن لحي قد نصب في هذه المنطقة سبعة اصنام : .

نصب صنماً على القرين الذي بين مسجد منى والجمرة الاولى على بعض الطريق

ونصب على الجمرة الاولى صنما

وعلى المدعى صنما

وعلى الجمرة الوسطى صنما

ونصب على شفير الوادي صنما

وفوق الجمرة العظمى صنما

وعلى الجمرة العظمى صنما (٤)

ويدل سياق كلامه ان وصفه قائم على تسلسل مواقعها ، وان الجمرة الاولى كانت ادنى الى منى ، وان الجمرة العظمى هي الثالثة ، وهي الابعد عن منى ، وتلي مسجد الخيف وذكر من معالم هذه المنطقة القرين ، والجمرة الاولى المدعي ، وشفير الوادي ، والجمرة العظمى ، ولكنه لم يذكر الابعاد بين هذه المعالم .

---

(١) الازرقي ٢/١٥٣ .
(٢) الازرقي ٢/١٤٩ .
(٣) الازرقي ٢/٥٣ .
(٤) الازرقي ١/١٤٢ .

ذكر الازرقي الجمرة الاولى والثانية وجمرة العقبة(٥) ، كما ذكر الجمرة الاولى والجمرة السفلى والقرين (٦)

وذكر ايضا ان الجمرة الثالثة تلي مسجد منى ، وان الثانية (الوسطى) تبعد عنها ثلاثمائة ذراع وخمس اذرع ، وان الجمرة الاولى وهي جمره العقبة تبعد عن الجمرة الوسطى ٤٨٧ ٢/٣ ذراع ، وهي تبعد عن وادي محسر سبعمائة وعشرين ذراعا (٨) . فتكون الجمرة الاولى هي الجمره العقبة، وهي أدنى الى المزدلفة ، وتبعد عن المسجد منى ٧٩٢ ٢/٣ ذراعا ، فهي قريبة من وادي محسر ، وتقع في منتصف المسافة بين هذا الوادي وقرن الثعالب .

وابرز ما في هذه المنطقة هو مسجد الخيف ، وسمي بذلك لأنه يقع في خيف الجبل اي في سفحه الذي ينأى عن غلظ الجبل ويرتفع عن مسيل الماء (٨)، وكان مسجد الخيف يقع في اصل جبل الصابح ، ويقابله عن يساره جبل القابل (٩) وعنده اجتمعت قريش وتحالفت على الرسول (ص) ، وكان هذا المسجد يسمى ايضا مسجد العيشومة ، وفيه عيشومة ابدا خضراء في الجدب والخصب بين حجرين من القبلة ، فتلك العيشومة قديمة لم تزل ثمة ، وكان الرسول (ص) قد صلى عنده امام المنارة ، وكانت الانصار تصلي عندها (١٠)

وصف الازرقي ابواب مسجد الخيف وذرعها ، فقال ان فيه عشرين بابا منها في الجدر الذي يلي الطريق تسعة ابواب شارعة في الرحبة على السوق . . ومنها في الجدر الذي يلي عرفات خمسة ، ومنها على الجدر الذي يلي

(٥) الازرقي ١٤٢/٢ .
(٦) الازرقي ١٤٤/٢ .
(٧) الازرقي ٥١٠/٢ .
(٨) لسان العرب ٤٥٢/١٠ ، ياقوت٥٠٨/٢ .
(٩) ياقوت ٤٥٩/٣ ، ٥/٤ .
(١٠) الازرقي ١٤٠/٢ — ١٤١ .

الجبل اربعة ابواب . . وفي قبلة المسجد بابان في دار الاماره ، كما ذكر ان في قبلة المسجد مما يلي دار الامارة ثلاث ظلال وفي شقه الذي يلي الطريق ظلة واحده ، وفي شقه الذي يلي اسفل منى ظلة واحدة ، وفي شقه الذي يلي الجبل ظلة (١١)

وهذا يدل على ان جدار عرفات في جهته الشمالية ، والجدار الذي في القبله كان في الجهة الجنوبية عند دار الامارة ، اما الجدار الذي يلي الجبل فلعله واقع في الجهة الشرقية ، والذي يلي الطريق يقع في الجهة الغربية، وقد ميز الازرقي هذا المسجد عن مسجد منى الذي وصف ابعاده الداخلية ولم يذكر ابوابه .

ذكر الازرقي ان سيلا في زمن خلافة المتوكل « حمل مسجد رسول الله (ص) وابراهيم نبي الله المعروف بمسجد الخيف ، فهدم سقوفه وعامة جدرانه وذهب بما فيه من الحصباء فأعراه ، وهدم من دار الامارة بمنى ومافيها من الحر ، وهدم العقبة المعروفة بجمرة العقبة وبركة الياقوتة وبرك المأزمين » ، وان المتوكل اعاد ترميمها وبناءها (١٢)

ومن ابرز معالم هذه المنطقة هي العقبة، وقد اشتهرت باجتماع الرسول (ص) فيها بوفد الانصار الذين بايعوه عندها ، وكانت بيعه العقبة ممهدا لهجرته الى المدينة .

والعقبة من المعالم التي تحد اعمال الحاج ، فيروى مالك بن انس ان عمر بن الخطاب قال لايبيتن احد من الحاج ليالي من منى وراء العقبة (١٣) .

والعقبة تبعد عن وادي محسر سبعمائة وعشرين ذراعا (١٤)، ويذكر مالك ان عمر بن الخطاب كان يقف عند الجمرتين الاوليين ولا يقصر عند جمره العقبة (١٥)

(١١) الازرقي ٢/١٤٩ ، وانظر ابن رسته ٥٥ .
(١٢) الازرقي ٢٠٢/٩١ .
(١٣) الموطأ ٢٨٣/١ .
(١٤) الازرقي ٢/ ١٥٠ .
(١٥) الموطأ ٢٨٤/١ .

يذكر الازرقي ان جمره العقبة هي اول الجمار مما يلي مكة ، وان بينها وبين الجمــرة الوسطى $487\frac{2}{3}$ ذراعا ، وان الجمــرة الثالثة في مسجد منى وتبعد عن الجمرة الوسطى ٣٠٥ ذراعا (١٦) ، ويذكر الاصطخرى ان جمرة العقبة الى اخر منى مما يلي مكة ، ويذكر ان الجمرة الاولى والوسطى هما جميعا فوق مسجد الخيف الى ما يلي مكة ويذكر ابن جبير ان جمرة العقبة هي اول منى للمتوجه من مكة وعن يسار المار اليها وهي قارعه الطريق (١٧)

ويذكر الازرقي ان من مسجد منى الذي يلي عرفات الى وسط حياض الياقوتة ٣٧٥٣ ذراعا ، ومن وسط حياض الياقوتة الى حد محسر ٢٠٠٠ ذراع (١٨) ، اي ان حياض الياقوتة قريبة من الميل الرابع ؛ولم اجد في مصدر اخر ذكراً لحياض الياقوتة .

منــى :

منى شعب على طريق عرفة من مكة ، بينه وبين مكة ثلاثة اميال (١٩) اي فرسخ (٢٠) وطول الشعب نحو ميلين ، وعرضه يسير (٢١) ، وهو يتفرع الى شعبتين تقع في الايمن منه الازقة والمسجد (٢٢) ، وهذا الشعب عن يسار (جنوب) المقبل من عرفة والمزدلفة (٢٣) .

وكانت منى تسمى المنازل (٢٤) ويتم فيها النحر بعد حج عرفة ، وكلها منحر(٢٥) ويسمى مجمع الناس من منى « الجباجب » (٢٦) ويسمى الجبلان فيها الاخشبان (٢٧) .

---

(١٦) المسالك ١٦ .

(١٧) رحله ابن جبير ١٣٩ .

(١٨) الازرقي ١٤٩/٢ .

(١٩) الاصطخرى ١٦ .

(٢٠) المقدسي ٧٦ ، ياقوت ٦٤٢/٤ .

(٢١) الاصطخرى ١٦ ، المقدسي ٧٦ .

(٢٢) المقدسي ٧٦ ، ياقوت ٦٤٢/٤ .

(٢٣) ياقوت ٨٠٢/٤ .

(٢٤) البكرى ٢٧٤ .

(٢٥) الام للشــافعي ٩٧/٢ ، البكرى٣٩٣ .

(٢٦) ياقوت ١٠٤/٢ (عن نصر) .

(٢٧) ياقوت ١٥٨/١ ، ١٦٣ .

يقول الاصطخرى ان منى بها ابنية كثيرة لاهل كل بلد من بلدان الاسلام ، وتعمر ايام الموسم وتخلو بقية السنة الا ممن يحفظها (٢٨) ويقول المقدسي انه عـد من يسكنها وسط السنة فكانوا ثلاثة وعشرين رجلا ، ويقول ايضا انها تبدو مدينتين ، الاولى بقرب مسجد الخيف ، والوسطى بينهما وان فيها أزقة ، والمسجد في الشارع الايمن ، وان فيها آباراً ومصانع * وقياسر وحوانيت حسنة البناء بالحجارة وخشب الساج ، والجبلان يطلان عليها (٢٩)

وتنتعش منى ايام الحج حيث يكرى اهلها البيوت للحجاج ، وقد أمر عمر بن عبد العزيز بتسوية منى ، غير ان الناس جعلوا يدسّون للوالى الكراء سرا ويسكنون (٣٠) .

وكان في منى منزل لابي بكر الصديق ، ثم هدم وبنى على صخرة المنارة (٣١) ويقع مسجد الخيف في اقل من الوسط مما يلي مكة (٣٢)

ومن ابرز ما في شعب منى هو المأزمان والعرض بينهما خمسون ذراعا (١) وعنده موضع الميل الثالث بين المسجد الحرام وعرفة (٣٤)

وبين مأزمي منى بئر لخالد بن عبد الله القسرى يقال لها القسرية (٣٥) هي بركة عظيمة في الحرم باصل ثبير (٣٦) ، وقد قال الازرقي عنها « كتب سليمان بن عبد الملك بن مروان الى خالد بن عبد الله القسرى (واليه على مكة) ان اجر لي عينا تخرج من الثقب من مائها العذب الزلال حتى تظهر بين زمزم والركن الاسـود ويضاهي بهـا ماء زمزم ، فعمل خالد بن عبد الله القسرى البركة التي بفم الثقبة ، يقال لهابركة القسرى ، ويقال لهـا ايضا بركة

(٢٨) المسالك ١٦ . * المصانع : حياض الماء تتخذ من الصخر .
(٢٩) احسن التقاسيم ٧٦ . (٣٢) الاصطخرى ١٦ .
(٣٠) الازرقي ١/٦٤ ، ١٢٧ ، ١٤٠،٩٢ (٣٣) الازرقي ٢/١٥٢ .
(٣١) الازرقي ٢/١٤٠ .
(٣٤) الازرقي ٢/١٥٣ ، ابن رستة ٥٦، البكرى ١١٧٣ .
(٣٥) الازرقي ٢/١٦٥ . (٣٦) الازرقي ٢/١١٣ .

البردى ببير ميمون ، وهي قائمة الى اليوم باصل ثبير ، فعملها بحجارة منقوشة طوال ، احكمها وانبط ماءها في ذلك الموضع، ثم شق لها عينا تسكب فيها من الثقبة وبني سد الثقبة واحكمه ، والثقبة شعب يفرغ فيه وجه ثبير ، ثم شق من هذه البركة عينا تجرى على المسجد الحرام ، فاجراها في قصب من رصاص حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام . . ثم تفرغ تلك الفسقية في سرب من رصاص يخرج الى وضوء كان عند باب المسجد ، باب الصفا ، في بركة كانت في السوق . . فلم تزل تلك البركة على حالها حتى قدم داوود بن علي بن عبد الله بن عباس مكة حيث افضت الخلافة الى بنى هاشم ، فكان اول ما احدث بمكة هدمها ، ورفع الفسقية وكسرها وصرف العين الى بركة كانت بباب المسجد (٣٧) .

وذكر الفاكهي ان ذلك السرب الرصاص بقي مع حاله « حتى قدم بشر الخادم مولى امير المؤمنين (المنصور) في سنة ١٥٦ فعمل القبة التي الى جانب بيت الشراب ، واخرج قصب خالد هذه التي من الرصاص التي كان عملها سليمان بن عبد الملك فاصلحه وجعله في سرب الفوارة التي يخرج الماء منها من حياض زمزم تصب في هذه البركة التي بباب المسجد (٣٨) كانت حجارة البركة طوالا نقلها المهدي فيما بعد (٣٩)

المزدلفــة :

تقع عند الميل الثامن المزدلفة وهي المشعر الحرام الذي ذكره القرآن الكريم « فاذكروا الله عند المشعر الحرام » (٤٠) وتسمى ايضا جمع لاجتماع الناس بها للجمـع بين صلاتي المغرب والعشاء فيها (٤١) وكان يجتمع

(٣٧) الازرقي ٢/٨٥ ـ ٦ ، وقد اشاراليها الطبرى في حوادث سنة ٨٩ .
(٣٨) الفاكهي .
(٣٩) الازرقي ٢/٦٢ .
(٤٠) ياقوت ٤/٥٤٠ .
(٤١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ٢٥، ابن حوقل ١/٣٠ ، البكرى ١٩٢ ، ياقوت ٢/١١٨ .

فيها قبل الاسلام كافة العشائر التي تحج من الحلة والحمس (٤٢) ، وهي تبعد عن منى ميلين ونصف ميل وعن عرفة اربعة اميال(٤٣) ويبعد مسجدها من مسجد مني ميلين (٤٤) ، والمزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء (٤٥) كما ان فيها مصلى وسقاية ومنارة وبرك عدة (٤٦) ، وهي بين المأزمين ومحسر ، وحدها اذا افضت من عرفات تريده فانت فيه حتى تبلغ القرن الاحمر دون محسر (٤٧) وهي مبيت للحاج ومجمع للصلاة اذا صدروا من عرفات وفي المزدلفة جبل ثبير النصع (٤٨) ، وهو على يسار الذاهب الى منى (٤٩) وكانوا في الجاهلية اذا ارادوا ان يدفعوا من المزدلفة يقولون « اشرق ثبير كيما نغير » ، ولا يدفعون حتى يروا الشمس عليه (٥٠)

وفي اصل ثبير صدر السدادات وهي ثلاثة اسدة بشعب عمرو بن عبد الله بن خالد عملها الحجاج لحبس الماء ، والاوسط منها يدعى اثال (٥١) ، وعند المزدلفة بركة القسرى التي يقال لها بركة البردى بفم الثقبة (٥٢)

وفي قرن من جبل ثبير يقع قزح عند الموقف (٥٣) وعند هذا القرن يقف الامام بالمزدلفة (٥٤) وعن يمين موقفه الميقدة وهي الموضع الذي كانت في الجاهلية تقف فيه قريش وتوقد النيران في الجاهلية وتجتمع في الوقوف عنده الحلة والحمس (٥٥)

(٤٢) الازرقي ١٥٨/٢ ، البكرى ٣٩٢ .(٤٣) ابن رسته ٥٦ .
(٤٤) الازرقي ١٥٠/٢ .
(٤٥) رحلة ابن جبير ١٥٥ (طبعةحسين نصار) .
(٤٦) احسن التقاسيم للمقدسي ٧٦ . (٤٧) ياقوت ٥١٩/٤ .
(٤٨) الازرقي ٢٢٦/٢ ، ياقوت ٩١٨/٤ .
(٤٩) الازرقي ٢٢٦/٢ .
(٥٠) الازرقي ٢٩/٢ ، ابن حوقل ٣٠/١ .
(٥١) الازرقي ٢٢٨/٢ ، ٢٢٦ . (٥٢) الازرقي ٦٢/٢ ، ياقوت ٧٨٦/٤
(٥٣) ياقوت ٥٢٠/٤ . (٥٤) ياقوت ٨٥/٤ ، الازرقي ٣٢/١ .
(٥٥) الازرقي ١٢٣/١ ، ياقوت ٨٥/٤

وكان على قرن قزح اسطوانة من حجارة مدورة تدويرها اربع وعشرون ذراعا ، وطولها في السماء اثنتا عشرة ذراعا ، فيها خمس وعشرون درجة ، وهي اكمة مرتفعة ، كان يوقد عليها النيران بالحطب ثم صار يوقد عليها في زمن خلافة هارون الرشيد بالشمع ، فلما مات هارون الرشيد صاورا يضعون عليها مصابيح يسرج فيها بفتل جلال ، فكان ضوؤها يبلغ مكانا بعيداً ، ثم صارت بعد ذلك توقد عليها مصابيح صغار وفتل رقاق ، ولهذا كانت تسمى الميقدة (٥٦) وكانت قريش تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة لقزح وكان العرب يقفون بعرفة (٥٧)

وعلى مسافة اربعمائة ذراع من قزح يقع مسجد المزدلفة قرب الميل الثامن ، وهو يبعد ميلين عن مسجد منى (٥٨) وكان الرسول (ص) قد نزله في حجة الوداع (٥٩) وفي قبلة مسجد المزدلفة دار الامارة التي ينزلها الائمة من الخلفاء والولاة (٦٠) .

وبالقرب من المزدلفة المراخ ، وبينه وبين المزدلفة يقع بطن غزة ويسمى ذنب السلم ، وعليه انصاب الحرم (٦١) بالقرب منه جبل عبد الله بن ابراهيم الجمحي ، وارض ابن عامر (٦٢) .

وعند المزدلفة المفجر (٦٣) وبطرفه شعب حوا « على يسارك وانت ذاهب الى المزدلفة من المفجز (٦٤) وفي ذلك الشعب البير التي يقال لها كرادم

(٥٦) الازرقي ٢/١٥١ .
(٥٧) الموطأ ١/٢٧٦ .
(٥٨) الازرقي ٢/١٥١ .
(٥٩) الازرقي ٢/٣ .
(٦٠) الازرقي ٢/١٥ .
(٦١) الازرقي ٢/١٠٥ ، ٢٣٧ .
(٦٢) الازرقي ٢/٢٣٦ ، ياقوت ٤/٤٧٤ .
(٦٣) الازرقي ١/١٤٦ . (٦٤) الازرقي ٢/٢٢٤ .

بالقرب من المزدلفة بطن محسر وهو واد، يجري بينها وبين منى(٦٥) ، وجاء في الحـديث المزدلفة كلها موقف الاوادى محسر ، فقسمه الاعلى من المزدلفة والاسفل من منى (٦٦) فهو يكون الحدود الدنيا من المزدلفة التي حدودها العليامأزما عرفة، ولا يقف عنده الحجاج(٦٧) اذ قال الرسول(ص) المزدلفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن محسر، وفي جداره الميل السادس (٦٩) وبين الوادي ومنى يجري وادي السرر « على يمين الذاهب الى عرفة ، ومنه يأتي الماء الذي يهدد مكة بالغرق (٧٠) وعلى الفي ذراع من محسر تقع الياقوتة التي تبعد ٣٧٥٢ ذراعا عن مسجد منى (٧١)



(٦٥) احسن التقاسيم ٧٦ .
(٦٦) المسالك للاصطخرى ١٧ .
(٦٧) ياقوت ٦٦٧/١ ، ٢٢٠/٢ ، ٤٢٦/٤ ، ٥١٩ .
(٦٨) الموطأ ٢٧٥/١ .
(٦٩) الازرقي ١٥٣/٢ .
(٧٠) الازرقي ١٦٣/٢ .
(٧١) ياقوت ٧٢/٤ .

عرفــــه

تقع عرفة خارج الحرم ، يفصلهما مأزمى عرفه الواقعين في طرفها الشمالي .

وفي تحديد عرفة يذكر ابن عباس « حد عرفة من الجبل المشرف على بطن عرفة ، الى جبالها ، الى قصر آل مالك وادي عرفة» (١) ، ويعرفها الازرقي بانها » من الجبل المشرف على بطن عرفة الى جبال عرفة ، الى الوصيق ، الى ملتقى الوصيق ، الى وادي عرفة (٢) .

وفي الاطراف الجنوبية من عرفة كبكب « يشرف على عرفات من خلفها » (٣) وهو الجبل الاحمر الذي تجعله في ظهرك اذا وقفت بعرفة . .» وهو نقب لهذيل (٤) .

وعند كبكب اللبنين (٥) ، وهما جبلان يقال لهما لبن الاسفل ولبن الاعلى، وفوق ذلك جبل يقال له المبرك (٦) ، به برك فيل ابرهة عندما قدم لغزو مكة . وكانت حدود الحرم من طريق اليمن في طرف اضاءة لبن على ثنية لبن ، وهي سبعة اميال من مكة (٧) .

وفي طرف من عرفة يقع كدا الذي يقول البكري انه جبل عرفة (٨) ، وكان خالد بن الوليد تقدم من كدا لدخول مكة عام الفتح ، وعند كدا

(١) الازرقي ١٥٧/٢ ، ياقوت ٦٤٦/٣ .
(٢) الازرقي ١٥٧/٢ .
(٣) البكرى ٣٨ ، ١٣٥ ، ١١١٢ ،ياقوت ٢٣٣/٤ .
(٤) البكرى ١١١٢ ، ياقوت ٢٣٣/١
(٥) البكرى ١١٥٠ .
(٦) ياقوت ١٤٨/٤ .
(٧) الازرقي ١٠٥/٢ ، ياقوت ٣٤٨/٤ .
(٨) البكرى ١١١٨ ، ١١٩٠ ، ابن رسته ٥٧ .

ذات السليم (٩) ، و الوتير وهـي تمتد مـن ادام الى عرفة (١٠) والاراك (١١) ، ويسمى ايضا التنعيم ، وهو يمتد من الشمال الى الجنوب (١٢) وعلى يمنته جبل نعيم وعلى ساره جبل ناعم (١٣) وعند التنعيم القدوم التي التي بقربها مرتفع يدعى المخيم (١٤) ، واره (٢٥) ، والتنروق (١٦) ، وجبل مدرى (١٧) ومواضع تدعى الاصدار كان فيها نحل يجلب عسمها الى مكـة (١٨)

وفي عرفات الالال وهو « جبل رمـل يقوم عليه الامام ، وقيل هو جبل عرفات نفسه ، وعنده يقف الامام (١٩) .

وعند الالال النابت » وهو عند النشرة التي خلف موقف الامام ، وموقفه على ضرس من الجبل الثابت ومضرس بين احجار هناك في جبل الال على يسار الطائف ، وعن يمين الامام » (٢٠) .

ويذكر ابن عباس ان موقف النبي (ص) عشية عرفة بين الاجبل : النبعة والنبيعة والنابت وموقفه منها على النابت وهي الظراب التي تكتنف الامام ، والنابت عند النشرة التي خلف الامام ، وموقفه (ص) على ضرس بين احجار هناك في الجبل الذي يقال له الال بعرفة عن يسار طريق الطائف وعن يمين الامام ، وله يقول نابغة بني ذبيان .

بمصطحبات من لصاف وثبرة يزرن الالا سيرهن الترافع (٢١)

وقرن النابت الذي يقف عنده الامام في عرفة يبعد عشرة اذرع عن الميل الثاني عشر من مكة (٢٢) ، الامام يقف على ميل من وسط عرفة (٢٣) .

(٩) الازرقي ٢٥١/٢ .
(١٠) البكرى ١٢٦ ، ياقوت ٩٠٣/٤ .
(١١) البكرى ٣٢١ ، ١٢١٦ .
(١٢) البكرى ١٢٤ ، ياقوت ١٨٢/١ .
(١٣) البكرى ٣٢١ .
(١٤) البكرى ١١٩٨ ، ياقوت ١٨٢/١ .
(١٥) البكرى ٥٢٠ .
(١٦) ياقوت ٤١٨/٤ .
(١٧) ياقوت ٤٤٨/٤ .
(١٨) ياقوت ٢٩٨/١ عن الاصمعي .
(١٩) البكرى ١٨٥ ، ياقوت ٣٤٦/٣ .
(٢٠) الازرقي ١٥٧/٢ .
(٢١) الازرقي ١٥٧/٢ .
(٢٢) الازرقي ١٥٣/٢ .
(٢٣) ابن رسته ٥٦ .

وعلى ميل من موقف الامام في عرفة يقع « الدكان » الذي يدور حول قبلة المسجد ، يعرف مسجد ابراهيم الخليل الرحمان ، وبينه وبين جدار المسجد خمس وعشرون ذراعاً ولا بد ان هذا المسجد هو مسجد عرفة الذي وصف الازرقي ابعاده فقال ، سعة مسجد عرفة من مقدمه الى مؤخره ١٦٣ ذراعا ، ومن جانبه الايسر بين عرفة والطريق ٢١٣ ذراعا ، ويدور حول المسجد جدر ، طول جدر القبلة ثمانية اذرع في السماء واثنى عشر اصبعا ، وعطفه من الشق الايمن عشرون ذراعا وعطفه من الشق الايسر مثله ، وذرع طول الجدارين الايمن والايسر بعد العطف ثلاثة اذرع واربع اصابع (؟) (٢٤)

وذكر ايضا شرفات جدر المسجد فقال » وعلى جدرات المسجد من الشرف مايتا شرافة وثلاث شرفات ونصف ، منها على جدر القبلة اربع وستون ، وعلى العطف من جدر القبلة من الجانب الايمن ثمان ومنها في بقيته سبع وخمسون ونصف ، ومنها على مؤخر المسجد عشر في الايمن ، وفي الايسر اربع ، ويلاحظ ان مجموع الشرافات التي ذكر تفاصيلها تبلغ ١٥١ شرافة وليس ٢٠٣ شرافة ونصف .

وذكر الازرقي ايضا ان لمسجد عرفة عشرة ابواب ، منها واحد في القبلة واربعة في كل من الجدار الايمن والايسر ، وباب في مؤخر المسجد مما يلي الموقف ، وذكر ايضا ان على جدر المسجد ١٠٥ شرافات وان في مؤخر المسجد الايمن دكان مربع طوله في السماء خمسة اذرع ، وسعة اعلاه سبعة اذرع وثمان عشر اصبعا في ست اذرع وثمان عشر اصبعا يؤذن عليه يوم عرفة ، وان في المسجد محراب على دكان مرتفع يصلي عليه الامام وبعض من معه ، ويصلي بقية الناس اسفل ، وارتفاع الدكان ذراعان (٢٥) .

(٢٤) الازرقي ١/٣٢ .
(٢٥) الازرقي ٢/١٥١ – ٢ .

وهذا المسجد هو الذي ذكر الاصطخري ان الامام يجمع فيه بين صلاة الظهر والعصر ،وان بعرفة حائط بني عامر ، وهو حائط نخيل وبه عين وينسب الى عبد الله بن عامر بن كريز ،وان عرفة مابين وادي عرفة الى حائط نخيل الى ما اقبل على الصخرات التي يكون بها موقف الامام (٢٦) .

لم تذكر المصادر تطور العمران في عرفة في العهود الاسلامية الاولى سوى ما ذكر المقدسي انها « قرية بها مزارع وخضر ومباطخ ، وبها دور حسنة لاهل مكة ينزلونها يوم عرفة ، والموقف منها على صيحة عند جبل متلاصقة وثم سقايات وحياض وعلم قد بني يقف عنده الامام » (٢٧)

وعلى بعد ١٦٠٥ ذراعا ، اي ميل شمالي مسجد عرفة يكون حد الحرم، وانصاب الحرم على نمرة « وهو الجبل الذي عليه انصاب الحرم على يمينك (غربا) اذا خرجت من مازمي عرفة تريد الموقف » (٢٨) ، وكانت الحمس ، وهي عشائر قريش وبعض من والاها تقف عنده قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام امرهم ان يقفوا بعرفة بحكم الاية « وافيضوا من حيث أفاض الناس(٢٩) .

وتحت جبل نمرة (٦) غار اربعة اذرع في خمسة اذرع ، ذكروا ان النبي (ص) كان ينزله يوم عرفة حتى يروح الى الموقف ، وهو منزل الائمة اليوم . والغار داخل في جدار دار الامارة في بيت الدار (٣٠) ويبعد الغار عن مسجد عرفة ٢٠١١ ذراعا (٣١) .

وعند نمرة الاراك وهو « من مواقف عرفة ، بعضه من جهة الشام وبعضه من جهة اليمن (٣٢) .

(٢٦) المسالك للاصطخرى ١٧ .
(٢٧) احسن التقاسيم ٧٦ ، ياقوت٣/٩٤٦ .
(٢٨) الازرقي ٢/١٥٢ ، ياقوت ٤/٨١٣ ، وانظر عن انصاب الحرم في نمرة الازرقي ١/١٢٢ .
(٢٩) الازرقي ١/١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٣٠) ياقوت ٤/٨١٣ .
(٣١) الازرقي ٢/١٥٢ .
(٣٢) ياقوت ١/١٨٢ .

وبين مازمى عرفة عن يسار المقبل من عرفة يريد المزدلفة مما يلي نمرة يقع شعب كبير يدعى « النقب» (٣٤) .

ذكر الازرقي ان الميل العاشر بين المسجد الحرام وعرفة يقع « عند سقاية ابن برملك ، وبينهما طريق ، وهو حد جبل المنظر »(٥) ، ولم اجد ذكرا لهذه السقاية ، والجبل .

يذكر الازرقي ان « موضع الميل التاسع بين مازمن عرفة ، يقع الشعب الذي يقال له شعب الميال ، الذي بال فيه رسول الله (ص) حين دفع من عرفة يريد المزدلفة ، وهذا الميل بحيال شعب السقيا ، سقاية خالصه (٣٥) ، والمأزمين شعب بين جبلين يقضي اخره الى بطن عرفة (٣٦) .

وذكر الازرقي ايضا « ان الشعب الكبير الذي بين مازمي عرفة على اليسار المقبل من عرفة يريد المزدلفة في اقصى المازم مما يلي نمرة، وبين يدي هذا الشعب الميل ، ومن هذا الميل الى سقاية زبيدة التي في اول المزدلفة مثل الميل عندها دونها الى المزدلفة قليلاً ، وهو اقصى هذا الشعب فيه صخرة » ويذكر ايضا ان عرض المازمين ١٠٢ ذراعا و١٦ اصبعا (٣٧) .

وشعب الميال نزله الرسول في حجة الوداع فيه صلى المغرب والعشاء (٤) ، وهو « الشعب الكبير الذي بين مازمى عرفة على يسار المقبل من عرفة يريد المزدلفة مثل الميل عندها دونها الى المزدلفة قليلاً ، وهو اقصى هذه الشعب ، فيه صخرة كبيرة ، وهذا الشعب الذي من بطن المازم على يمينك وانت مقبل من عرفة بين الجبلين اذا افضيت من مضيق المازمين ، وهو اقرب واوصل بالطريق » (٣٩) .

(٣٣) ياقوت ٤/٨٠٣ .
(٣٤) ياقوت ٢/١٥٣ .
(٣٥) الازرقي ٢/١٥٣ .
(٣٦) الاصطخرى ١٧ .
(٣٧) الازرقي ٢/١٦٠ .
(٣٨) الازرقي ٢/١٥٩ .
(٣٩) الازرقي ٢/١٦٠ .

وعند هذا الشعب كان يصلي حجاج اهل الاندلس (٤٠) .

ومازمي عرفة ليسا من المزدلفة ، ولكن مفضاهما اليها (٤١) .

وفي اصل المأزمين طريق ضب ، وهو طريق مختصر من المزدلفة الى عرفة ، وهي في اصل المأزمين عن يمينك وانت ذاهب الى عرفة ، وقد ذكروا ان النبي (ص) سلكها حين غدا من منى الى عرفة (٤٢) .

وبين مأزمي عرفة ومسجد ابراهيم تقع السقيا ، وهي المسيل التي كانت فيها بئر جاهلية انطمرت ثم نثلتها خالصة مولاة الخيزران فسميت باسمها (٤٣) وفي السقيا ايضا بئر عظيمة وبستان عمهها عبد الله بن الزبير (٤٤) .

وذكر ياقوت ان المأزمين « موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة ، وهو شعب بين جبلين يفضي اخره الى بطن عرفة ، وهو ما أقبل من على الصخرة التي يكون بها موقف الامام الى طريق يفضي الى حصن . وحائط بني عامر عند عرفة ، وبه المسجد الذي يجمع فيه الامام بين الصلاتين ، الظهر والعصر ، وهو حائط بجبيل به عين تنسب الى عبد الله بن عامر بن كريزا ، وليس عرفات من الحرام ، وانما حد الحرام بين المأزمين ، فاذا اجزتهما الى المازم ، وهو الطريق الضيق بين الجبال . وقال الاصمعي المازمين في السنة مضيق بين جمع وعرفة (٤٥) .

ذكر ياقوت « قال الازهري بطن عرفة واد بحذاء عرفات ، وقال غيره بطن عرفة مسجد عرفة والمسيل كله » (٤٦) .

---

(٤٠) الازرقي ١٥٩/٢ .
(٤١) الازرقي ١٥٥/٢ .
(٤٢) الازرقي ١٥٦/٢ ، الام للشافعي ١٧٩/٢ .
(٤٣) الازرقي ١٨٠/٢ .
(٤٤) الازرقي ٢٢٩/١ .
(٤٥) ياقوت ٣٩١/٣ ، وانظر الاصطخرى ١٧ .
(٤٦) ياقوت ٩٥٧/٣ .

وذكر البكرى « بطن عرنة هو بطن الوادي الذي فيه مسجد عرفة ، وهي مسايل يسيل فيها الماء اذا كان المطر ، يقال لها الجبال ، وهي ثلاثة اقصاها مما يلي الموقف ، امر رسول الله (ص) بالارتفاع عن تلك الجبال الى سفح جبل عرفة اي اسفله ، قال ابن المواز : حائط مسجد عرفة القبلى على حدّ عرفة ، ولو سقط ماسقط الا فيها (٤٧)

وذكر الاصطخري ان عرنة واد بين المازمين وليس من عرفة (٤٨). وعرفة ليست من الحرام ، بينهما وبين الحرم رمية بحجر (٤٩) ، وهي وهي حد عرفة (٥٠) ولا يجتمع فيها الحاج ويروى ان الرسول (ص) قال « عرفة كلها موقف ، وارتفعوا عن بطن عرنة (٥١). والمصلى على حافة وادي عرنة (٥٢) وفي طرف الموقف « بعرفة » يقع بئر رم التي حفرها مرة بن كعب بن لؤي (٥٣) .

وفي عرفة اضاءة النبط « كان يعمل فيها الأجر ، وانما سميت اضاءة النبط لانه كان فيها نبط بعث بهم معاوية بن ابي سفيان يعملون الاجر لدوره بمكة فسميت بهم» (٥٤) ، وحذاء هذه الاضاءة كانت ركايا قدامة بن مضعون في شقها الذي يلي ظلكة (٥٥) .

وفي عرفة ايضا المغش من طرف النبط الى خيف الشبرق (٥٦) ، « وخزرورع » بطرف الليط مما يلي المغش (٥٧) وكند» الجبل الذي بطرف المغش ، وبينه وبين الممدرة تقع حاحلة (٥٨) ، والحزنة وهي« ثنية كان

---

(٤٧) البكرى ١١٩٠ .
(٤٨) الاصطخرى ١٧ .
(٤٩) البكرى ١١١٧ ، ١١٩٠ .
(٥٠) الازرقي ١٥٧/٢ .
(٥١) الموطأ ٢٧٥/١ .
(٥٢) احسن التقاسيم ٧٦ .
(٥٣) الازرقي ١٧٣/٢ .
(٥٤) الازرقي ٢٣٧/٢ .
(٥٥) الازرقي ١٨١/٢ .
(٥٦) الازرقي ٢٤٢/٢ .
(٥٧) الازرقي ٢٤١/٢ .
(٥٨) الازرقي ٢٤٢/٢ .

الذي ضرب فيها وسهلها يحي بن خالد بن برمك ، واحتفر منها الى عين اجراها في المغش والليط من فخ وعمل هنالك بستانا » (٥٩) .

وعند الليط كانت الأقحوانة « كان مجلسا يجلس فيه من خرج من مكة (٦٠) وعنده الارنبة « وهي شعب يفرغ من ذات الحنظل ومابين ثنية ام رباب الى الثنية التي بين الليط وبين شعب عمر بن عبد الله بن ابي ربيعة (٦١) وبين الليط وذى طوى تقع العبلاء (٦٢) وكانت فخ مابين الليط ظهر الممدرة ، الى الروضة اسفل مكة . (٦٣) .

وعلى الطريق بين عرفة ومكة يقع جبل ثور(٦٤) ، ويسمى ثور اطحل(٦٥) وفي هذا الجبل غار اختبأ فيه الرسول (ص) وابو بكر (٦٦) من ملاحقة قريش ، وفي ثور تقع عابدين ، وهو موضع او واد (٦٧) ، وفيه ايضاجهر القفيلة وهو سيل تمسك ماءه بعض الحجارة ، وتطؤه محجة مكة الى عرفة (٦٨) ، وفي ظهر القبلة منه جبل مريخ (٦٩) .

(٥٩) الازرقي ٢/٢٤٠ .
(٦٠) الازرقي ٢/٢٤٥ .
(٦١) الازرقي ٢/٢٤٣ .
(٦٢) الازرقي ٢/٢٤٤ .
(٦٣) الازرقي ٢/٢٤١ .
(٦٤) الازرقي ٢/٣٣٧ .
(٦٥) ياقوت ١/٩٣١ .
(٦٦) الازرقي ٢/٢٣٧ .
(٦٧) ياقوت ٣/٥٨٣ .
(٦٨) الازرقي ٢/٢٣٧ .
(٦٩) ياقوت ٤/٤٨٣ .

منطقة الحيرة
دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الأدبية

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة كلية الآداب العراقية
العدد الخامس
نيسان 1963

منطقة الحيرة

دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الادبية

الدكتور صالح أحمد العلي

لمنطقة الحيرة أهميـة كبيرة فى تاريخ العراق وتاريخ العرب ، فان الحيرة كانت قاعدة دولة المناذرة التي لعبت دورا مهماً فى السيطرة عـلى أطراف العـراق وضبط حـدوده ، وبسط النفوذ على كثـير من عشائر الجزيرة العربيـة وأراضيها ؛ فضلا عن معاونـة أمراءها الساسانيين فى حروبهم مع الروم • يضاف الى ذلك انها كانت تقوم بحراسة القوافل ونقل التجارات • وقد تطلب كل ذلك منها أن تكون ذات قوة عسكرية كافيـة وادارة محكمة ونظم راقية نسبياً ، والواقع ان ادارة دولة المناذرة الذيـن كانت عاصمتهم الحيرة ، تقدم انموذجا مهماً عن ادارة الساسانيين وعلاقتهم بالامراء المحليين ، وهى بلا ريب أوسع صورة يمكن أن نحصل عليها من ادارة أى أمير آخر فى العصر الساسانى •

ثم ان للحيرة قبل الاسلام حضارة خاصة بها لدينا عنها تفاصيل طيبة نسبيا ، وربما كانت أوسع من التفاصيل التى عن أية دولة عربية أخرى قبل الاسلام ، ما عدا مكة ، وقد وصفها المرحوم يوسف غنيمة فى كتابه عن الحيرة بتفصيل واف • ولعل وفرة هذه التفاصيل راجعة الى بقاء الوثائق المتعلقة بتاريخ الـكوفة فى العصر الاسلامى حيث استفاد منها الرواة وخاصة هشام ابن الـكلبى ، كما أن معظم القبائل والعشائر ذات الصلة بالمناذرة استقرت بالـكوفة ، فاحتفظت وروت أخبار علاقتها مع المناذرة • يضاف الى ذلك ان الحيرة كانت مركزا مهما للنصارى ، ففيها أنشئت أديرة كثيرة ومراكز لترجمة العلم •

وقد لعبت الحيرة في تاريخ الاسلام دورا كبيرا ، فان موقف أهل الحيرة الودى من الفتح الاسلامى ضمن لها مكانة طيبة فى الدولة ، كما أن خبرات أهلها التجارية أتاح لها مجالا واسعا للاستفادة المادية من الفتوح الاسلامية ، ثم أن كونها مركزا مسيحيا قرب الكوفة أتاح لها أن تكون من مراكز اللهو والتحرر لأهل الكوفة ، وان يقصدها الكثير من الزوار •

وبالرغم من هذه الاهمية فلم تجر عنها دراسات كافية ، ولم تجر الا حفريات قليلة فى مناطق محدودة ، قام بها رايس سنة **١٩٣٢** ، والمتحف العراقى فى سنة **١٩٥٠** ونشرت عن ذلك مقالات حول الاماكن المحدودة التى جرت الحفريات فيها • أما دراسة الواموزيل التى دونها فى كتابه عن الفرات الاوسط فمع ثروتها الهائلة من المعلومات ، الا أن منطقة الحيرة لم تحض بالاستيعاب الكامل •

وسنحاول فى مقالنا هذا تقديم وصف طوبوغرافى للاماكن التى ورد ذكرها فى المصادر العربية الادبية والتاريخية والجغرافية فى العصور الاسلامية الاولى محاولين تحديد كل مكان ، وسنقصر بحثنا على المنطقة الممتدة بين العذيب والكوفة ، فندخل فى هذا الوصف منطقة القادسية والنجف أيضا ، دون أن نشمل بحثنا الكوفة التى سنخصص لها بحثا خاصا ، وسنبدأ بحثنا من العذيب التى تقع على الطرف الغربى من حدود العراق ، ثم نتقدم فى الوصف شرقا •

العذيب والقادسية :

وفى الطرف الغربى من القادسية يقع العذيب ، « وهو ماء بين القادسية والمغيثة ، بينه وبين القادسية أربعة أميال والى المغيثة اثنين وثلاثين ميلا ، وقيل هو حد السواد »[1] ويروى الطبرى ان عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن ابى وقاص عندما أرسله الى القادسية « اذا كان يوم كذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس[2] » ويرى ياقوت فى هذا النص ان هناك عذيبان ، الهجانات والقوادس[3] ، غير أنه يمكن القول بأن العذيب واد ينسب شرقيه الى القوادس ، وغربيه الى الهجانات ، وقد ذكر السكونى ان « العذيب يخرج من قادسية الكوفة اليه »[4] ويصفه ابن جبير بأنه « واد خصيب وعليه بناء وحوله فلاة خصيبة فيها مسرح للعيون وفرجة ، وأعلمنا أن بمقربة منه بارقا ، ووصلنا منه الى الرحبة وهى بمقربة منه[2] » .

كانت المنطقة الواقعة بين العذيب والقادسية عند ظهور الاسلام مجدبة ليس فيها غير نخلة واحدة ، دفن عندها قتلى المسلمين فى القادسية[6] ، غير أنها ازدرعت فيما بعد ، فكان بها فى زمن المسعودى نخل كثير[7] « بينهـا

---

(١) ياقوت الحموى . معجم البلدان ج ٣ ص ٦٢٦ طبعة ليدن . ويروى ياقوت عن العمرانى ان من العذيب الى القادسية ستة أميال (ياقوت ج ٤ ص ٣٥٩) ويذكر الازهرى ان العذيب على مرحلة من الكوفة (لسان العرب ج ٢ ص ٧٥) انظر أيضا ج ٨ ص ٥٢ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك I ص ٢٢٢٤ طبعة ليدن .

(٣) ياقوت ج ٣ ص ٦٢٦ . ويرى الواموزيل ان عذيب الهجانات هو المكان الذى يسمى ، عندما زار المنطقة سنة ١٩١٥ ، عين السيد ، اما عذيب القوادس فهو عين النجارية A. Musil. Middle Euphrates PIII

(٤) ياقوت ج ٣ ص ٦٢٦ .

(٥) ابن جبير : الرحله ص ١٩٦ طبعة حسين نصار .

(٦) الطبرى I ص ٢٣١٧ .

(٧) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٢٦ .

وبين القادسية حايطان متصلان بينهما نحل وهى ستة أميال فاذا خرجت منه دخلت البادية ثم المغيثة[٨] » وهى على طريق الحج ، وقد مر منها عدد غير قليل[٩] .

لقد كانت العذيب للمناذرة حيث كان بها هجائن النعمان ترعى هناك[١٠] وكانت عند الفتح الاسلامى مسلحة للفرس[١١] ، وقد وجد فيها المسلمون رماحا ونشابا[١٢] ، وقد كان فيها قصر اتخذه سعد مقرا له يشرف منه على معركة القادسية[١٣] ، وقد وضع فى هذا القصر النساء وعين لها مفرزة من الخيالة تحميها[١٤] .

وبين العذيب والقادسية عين شمس[١٥] وهو ماء ، يجرى بينه وبين العذيب وادى مشرق[١٦] دفن فيه عدد من شهداء القادسية[١٧] ، وفى شرقى العذيب الاقيلة فقد روى ياقوت « وفى كتاب الفتوح ولما نزل سعد بالقادسية أنزل بكر بن وائل القلب وهى تدعى الاقيلة فاحتفروا بها القلب بين العذيب وبين مطلع الشمس[١٨] .

تتجلى الاماكن الواقعة بين العذيب والقادسية من وصف تقدم جيش سعد ، حيث كانت تتقدمه طليعة بقيادة زهرة بن حويه « فقدم زهرة سعد حتى عسكر

---

(٨) ابن رسته · الاعلاق النفيسه ص ١٧٥ ياقوت ج ٣ ص ٦٢٦ ·
(٩) انظر طبرى II ص ٣٠٥ ، ١٠٧٢ ، ١٣٨٠ ، ١٦٧٧ III ص ٤٥٦ ياقوت ج ٣ ص ٦٢٦ ·
(١٠) طبرى II ٣٠٢ ·
(١١) طبرى I ٢٢٣١ ياقوت ج ٣ ص ٦٢٦ ·
(١٢) طبرى I ٢٢٣٢ ·
(١٣) طبرى I ٢٣٥١ المسعودى · مروج الذهب ج ٢ ص ٣٢٣ ·
(١٤) طبرى I ٢٢٣٢ ·
(١٥) ياقوت ج ٣ ص ٧٦٣ ·
(١٦) ياقوت ج ٤ ص ٥٣٩ ·
(١٧) الطبرى I ص ٢٣٠٤ ، ٢٣١٧ ، ٢٣٣٨ ياقوت ج ٤ ص ٥٣٩ ·
(١٨) ياقوت ج ١ ص ٣٤١ ·

بعذيب الهجانات، ثم خرج في اثره حتى ينزل على زهرة بعد
وقدمه فنزل زهرة القادسية بين العتيق والخندق بحيال القنطرة
يومئذ أسفل منها بميل » ثم « نزل سعد القادسية فنزل بقديس ونزل زهرة
بحيال قنطرة العتيق فى موضع القادسية اليوم »[١٩] .

يتبين من هذا ان قديس هى بين العذيب والمكان الذى صار يطلق عليه فيما بعد القادسية ، وانها على بعد ميل من القادسية ، وهى مائلة الى الجنوب حيث يروى الطبرى ان رستم تقدم الى القادسية « ثم قدم ذا الحاجب فلما انتهى الى العتيق ياسر حتى اذا كان بحيال قديس خندق خندقا »[٢٠] ويبدو ان المعركة نشبت بين قادس والعتيق « كان صف المشركين على شفير العتيق ، وكان صف المسلمين مع حائط قديس ، الخندق من ورائهم ، فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق[٢١] ، « وطبقت القتلى ما بين قديس والعتيق »[٢٢] « ودافن شهداء ليلة الهرير من ليالى القادسية وقتلى يوم القادسية وهى آخر أيام القادسية حول قديس من وراء العتيق وكانوا ٢٥٠٠ بحيال مشرق[٢٣] والعتيق هو مجرى جاف للفرات حيث كان يجرى فيه قبل الاسلام[٢٤]

ان الخندق الذى يتردد ذكره فى أخبار معركة القادسية هو خندق القادسية[٢٥] ، ولما « كان صف المسلمين مع حائط قديس : الخندق من وراءهم[٢٦] » فيكون الخندق غربى قديس والواقع ان مكان القادسية التى

---

(١٩) طبرى I ٢٢٣٣ ياقوت ج ٤ ص ٤٢ ــ ٣ .
(٢٠) الطبرى I ٢٢٦٥ .
(٢١) طبرى I ٢٢٩٤ ، ٢٢٨٨ .
(٢٢) طبرى I ٢٣٣٨ .
(٢٣) ياقوت ج ٤ ص ٥٣٩ .
(٢٤) مروج الذهب ج ١ ص ١٠٣ .
(٢٥) طبرى I ٢٥٤٣ .
(٢٦) طبرى I ٢٢٩٤ .

معركة «بين العتيق والخندق»[٢٧]. أما العتيق فنظرا لان الفرس طفة فيه في القادسية[٢٨] فمعنى ذلك انه كان شرقي القادسية ويبدو ه كان مجرى نهر ، لانه « لما أراد رستم العبور أمر بسكر العتيق بحيال قادس وهو يومئذ اسفل منها اليوم مما يلي عين شمس ، فباتوا ليلتهم حتى الصباح يسكرون العتيق بالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقا واستتم بعد ما ارتفع النهار »[٢٩] .

لقد أورد الطبري نصا يصف فيه منطقة القادسية ، فان عمر « كتب اليه سعد بصفة البلدان : القادسية بين الخندق والعتيق ، وان ما على يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح الى الحيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الخضوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة ، وان ما عن يمين القادسية الى الولجه فيض من فيوض مياههم »[٣٠] .

وقد وصف بعض جغرافيي العرب القادسية فيقول الاصطخري « القادسية على شفير البادية وهي مدينة صغيرة ذات نخيل ومياه وزروع ليس بالعراق بعدها ماء جار ولا شجر »[٣١] . ويقول المقدسي « والقادسية مدينة على سيف البادية تعمر أيام الحاج ويحمل اليها كل خير لها بابان وحصن طين وقد شق لهم نهر من الفرات الى حوض على باب بغداد وثم عيون غربيه ، وماء آخر يجرونه عند باب البادية أيام الحاج وهي سوق واحد الجامع فيه »[٣٢] ويقول ابن جبير « القادسية قرية كبيرة فيها حدائق

---

(٢٧) طبري I ٢٢٣٠ ، ٢٢٣٨ ، ٢٢٤٩ ، ٢٢٢٩ ياقوت ج ٤ ص ٨ .

(٢٨) طبري I ٢٢٩٤ .

(٢٩) طبري I ص ٢٢٨٦ .

(٣٠) طبري I ٢٢٢٩ ياقوت ج ٤ ص ٨ .

(٣١) الاصطخري . المسالك ص ٨٣ .

(٣٢) المقدسي . أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

من النخيل »[٣٣] .

ويقول الاصطخرى « والقادسية والحيرة والخورنق هى على طرف البادية مما يلى المغرب ويحيط بها مما يلى المشرق النخيل والانهار والزروع وهما والـكوفة فى أقل من مرحلة »[٣٤].

وتذكر بعض المصادر ان « من الـكوفة الـ[illegible] ـسية مرحلة »[٣٥] كما تذكر مصادر أخرى « من الـكـ[illegible] خمسة عشر ميلا ، ثم الى العذيب طرف البادية ستة أميال [illegible]

ان الخصوص الذى ذكر فى وصف سعد للقادسية هو نهر كان بين الحيرة والقادسية [٣٧] ، وهو شمال القـادسية ، ويبدو انـه كان منطقـة عامرة ، ومركزا صناعيا ، فيروى ياقوت انه تنسب اليه الدنان فيقـال دن خصي »[٣٨] .

لقد ذكرت المصادر بعض الاماكن قرب القادسية دون أن تحـدد مواقعها : كالرقراقة وهى ماءة قرب القادسية نزلها جيش امام القادسية[٣٩]، وخريم الذى يصفه نصر انه ماء قرب القادسية [٤٠] ، والقرة وهى قرية من القادسية [٤١] ؛ والصوأر وهو « على أربعة أميال من القادسية عرضـا

---

(٣٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٩٧ طبعة حسين نصار .

(٣٤) الاصطخرى ص ٨٢ . ويرى موزيل (ص ١٠٩ فما بعد) ان القادسية مكانها غدير المقصورة وهو فرع من شعيب الحسب وقد وصف منطقتها بالتفصيل .

(٣٥) الاصطخرى ص ٧٩ المقدسى ص ١٣٤ .

(٣٦) ابن خرداذبه . المسالك والممالك ص ١٢٥ . قدامه : كتاب الخراج ص ١٨٥ ابن رسته ص ١٧٥ .

(٣٧) ياقوت ج ٢ ص ٢٨٩ ج ٤ ص ٨ .

(٣٨) ياقوت ج ٢ ص ٤٤٩ . الفيروز ابادى . القاموس المحيط ج ٢ ص ٣٠١ . ويذكر موزيل ان بقايا الخضوض لا تزال موجودة (ص ١١١) .

(٣٩) ياقوت ج ٢ ص ٨٠٠ ج ٤ ص ١٨١ .

(٤٠) ياقوت ج ٢ ص ٤٣١ .

(٤١) ياقوت ج ٤ ص ٧٦ .

في البر »[٤٢] .

والرحبة وهي « قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج اذا أرادوا مكة وقد خربت الان بكثرة طروق العرب لانها في ضفة البر ليس بعدها عمارة ، وقال السكوني ومن اراد الغرب دون المغيثة خرج على : طف الحجاز فأولها عين الرحبة وهي من القادسية على ثلاثة أميال ثم ٤٣ ، وبين خفان والقادسية ستة أميال[٤٤] .

أما الاماكن القادسية فنجد أبرزها مذكورة في وصف حركات تقدم الجيس ... نى نحو ميدان في القادسية ؟ فيروى الطبري أن رستم خرج « ونزل بحيال دير الاعور ، ثم انصب الى الملطاط ، فعسكر مما يلي الفرات بحيال أهل النجف ، بحيال الخورنق الى الغريين[٤٥] ثم « أمر الجالنوس ان يسير من النجف ، فسار في المقدمات فنزل فيما بين النجف والسيلحين ، وارتحل رستم فنزل النجف[٤٦] « ورأى رستم أن ينزل من العتيق والنجف »[٤٧] « فاذا رستم قد ارتحل من النجف فنزل منزل ذي الحاجب ، فارتحل الجالينوس ، فنزل ذو الحاجب منزله ، والجالنوس يريد طيزناباد فنزل بها »[٤٨] « فلما أصبح رستم من الغد من يوم نزل السيلحين قدم الجالنوس وذا الحاجب ، فارتحل الجالنوس فنزل من دون القنطرة .. ونزل ذو الحاجب منزله بطيزناباد ، ونزل رستم منزل ذي الحاجب بالخرارة ، ثم قدم ذا الحاجب ، فلما

---

(٤٢) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٢٥ .

(٤٣) ياقوت ج ٢ ص ٧٦٢ وقد اورد موزيل نصوصا عنها وحاول تحقيق موضعها والاماكن المجاورة الاخرى (ص ١١٠ فما بعد) وقد تجنبنا الدخول في تفاصيل هذه المنطقة لانها خارج نطاق دراستنا .

(٤٤) المسعودي : التنبيه ص ٣٣٨ .

(٤٥) طبري I ٢٢٥٥ .

(٤٦) طبري I ٢٢٥٦ .

(٤٧) طبري I ٢٢٥٧ .

(٤٨) طبري I ٢٢٦٤ .

انتهى الى العتيق تياسر حتى اذا كان بحيال قديس خندق خندقا ، وارتحل الجالنوس فنزل عليه .. فلما انتهى رستم الى العتيق وقف عليه بحيال عسكر سعد .. ثم صعد القنطرة [٤٩] .

يتبين من الوصف المتقدم أعلاه ان محطات الجيش الساساني هي من الشرق الى الغرب : دير الاعور ـ الملطاط (عند النجف والخورنق والغريين ـ السيلحين ـ الخرارة ـ طيزناباد)

فأما طيزناباد فيروى البلاذري انها كانت تدعى ضيزناباد نسبة الى الضيزن بن معاوية بن عمر بن عبيد السليحي ، ثم حرفت الى طيزناباد [٥٠] وهي « بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق على جادة الحاج ، وبينها وبين القادسية ميل [٥١] ، ويقول المسعودي انها « قرية بين الكوفة والقادسية ذات كروم واشجار ونخل ورياض تخرقها الانهار من كل العقاب عن الفرات ، شرابها موصوف بالجود كوصف القطربلي » [٥٢] غير انها خربت فيما بعد كما يدل على ذلك قول ياقوت انها « كانت من انزه المواضع محفوفة بالكروم والشجر والحانات والمعاصر ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة ، وهو الآن خراب لم يبق به الا اثر قباب يسمونها قباب أبي نواس ، ولاهل الخلاعة فيه أخبار يطول ذكرها » [٥٣] .

---

(٤٩) طبري I ٢٢٦٥ . البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٥٥ .

(٥٠) فتوح البلدان ص ٢٨٤ ياقوت ج ٣ ص ٥٦٩ . ويجدر بنا ان نذكر احتمالات اخرى لتسمية طيزناباد فيقول ابن منظور « الضيزنان صنمان للمنذر الاكبر كان اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحانا للطاعة ، والضيزن الذي يسميه اهل العراق البندار يكون مع عامل الخراج » (لسان العرب ج ١٧ ص ١٢٣) فلعل أصل هذا المكان مدخل الحيرة ، وفيه أصنام ، وفيه مركز جباية الضرائب .

(٥١) ياقوت ج ٣ ص ٥٦٩ ويرى ابراهيم حلمي انها هي الطعيزيات الواقعة على ٦ أميال من ابى صخير انظر لغة العرب ج ٢ ص ٣٢١ ـ ٦ .

(٥٢) مروج الذهب ج ٦ ص ٣٠٥ .

(٥٣) ياقوت ج ٣ ص ٥٧٠ .

وقد أقطع عثمان طيزناباد الاشعث بن قيس الكندي[٥٤] ، وكان لابنه محمد فيها قصر مما يلي القادسية[٥٥] أمر المختار بهدمه[٥٦] .

وفي طيزناباد كان دير سرجس وبكس وهو منسوب الى راهبين وكان هذا الدير بطيزناباد بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق ، وبينهما وبين القادسية ميل ، وكانت ارضه محفوفة بالنخل والكروم والشجر والحانات والمعاصر ، وكانت أحد البقاع المقصودة والنزه الموصوفة، وقد خربت الآن وبطلت وعفت اثارها وتهدمت ابارها ، ولم يبق من جميع رسومها الا قباب خراب وحجر على قارعة الطريق ، تسميه الناس معصرة أبي نواس[٥٧] » وكان هذا الدير من أحسن الديارات عمارة وأنزهها موضعا[٥٨] » .

ويروي ياقوت عن الشابشتي أن دير الزرنوق كان يسمى باسم دير بطيز ناباذ بين الكوفة والقادسية على وجه الطريق بينه وبين القادسية ميل[٥٩]. ويقول البكري انها موضع دون القادسية[٦٠] أما الخرارة التي تقع بين طيز ناباذ والسيلحين فليس في الكتب عنها سوى ما رواه ياقوت انها قرب السيلحون من نواحي الكوفة[٦١] .

---

(٥٤) طبري I ٢٨٥٥ فتوح البلدان ص ٢٧٤ ياقوت ج ٣ ص ٥٦٩ .
(٥٥) طبري II ص ٦٨٠ البلاذري : انساب الاشراف ج ٥ ص ٢٤١ .
(٥٦) طبري II ص ٧١٨ .
(٥٧) الشابشتي : كتاب الديارات ص ١٥٠ ياقوت ج ٢ ص ٦٦٧ (ويسميها قباب ابى نواس ابن فضل‌الله العمري : مسالك الابصار ج ١ ص ٢٨٤ .
(٥٨) الشابشتي ص ١٥١ .
(٥٩) ياقوت ج ٢ ص ٦٦٣ .
(٦٠) البكري . معجم ما استعجم ص ٤٩٣ طبع مصطفى السقا .
(٦١) ياقوت ج ٢ ص ٤٠٩ .

أما السيلحون فهو أحد طساسيج البهقباذ الاسفل[٦٢] ، أما الطساسيج الاخرى فهى الكوفة ، وفرات بادقلى ، والحيرة ، ونستر ، وهرمز جرد[٦٣] « وطسوج السيلحين وفيه الخورنق وطيزناباد ، وبيادره أربع وثلاثون بيدرا الحنطة ألف كر ، الشعير ألف وسبعمائة كر ، الورق مائة ألف وأربعون ألف[٦٤] . وكان فى السيلحون نهر السيلحون وهو يجرى من الفرات[٦٥]، وكانت فيه أحد » مسالح كسرى[٦٦] .

وبقرب السيلحين تقع الصنين[٦٧] « وهو بلد كان بظاهر الكوفة ، كان من منازل المنذر ، وبه مزارع باعه عثمان بن عفان من طلحة بن عبيدالله وكتب له كتابا مشهورا مذكورا عند المحدثين وجدت نسخته سقيمة فلم أنقله »[٦٨] .

ونهر السيلحين قريب من مجتمع الانهر فيروى الطبرى انه عندما تقدم المصعب بن لازبير الى الكوفة « ولما بلغ المختار انهم قد أقبلوا اليه فى البحر وعلى الظهر سار حتى نزل بهم السيلحين ونظر الى مجتمع الانهار نهر الحيرة ونهر السيلحين ونهر القادسية ونهر برسف (يوسف ؟) فسكر الفرات على مجتمع الانهار فذهب ماء الفرات كله فى هذه الانهار وبقيت سفن أهل البصرة فى الطين »[٦٩] .

(٦٢) ياقوت ج ١ ص ٢٤١ .
(٦٣) ياقوت ج ١ ص ٧٧٠ .
(٦٤) خرداذبه ص ١٢ قدامه كتاب الخراج ص ٢٣٧ .
(٦٥) البلاذرى : انساب الاشراف ج ٥ ص ٢٥٨ .
(٦٦) ياقوت ج ٣ ص ٢١٨ .
(٦٧) طبرى I ٢٢٣٢ .
(٦٨) ياقوت ج ٣ ص ٤١٣ .
(٦٩) طبرى II ص ٧٢٥ .

الحيرة تبعد ثلاثة اميال عن الكوفة ، على موضع يقال له النجف[١] ، يرويها نهر كافر[٢] وهو يسمى نهر الحيرة[٣] .

تروى بعض المصادر انه كان فيها من جميع القبائل : من مذحج ، وحمير ، وطى ، وكلب ، وتميم [٤] . ومع ان بعض هذه القبائل قـديم سكناها فى الحيرة ، الا ان بعضها استوطن الحيرة بعد الفتح الاسلامى أو ازدادوا فيها بعد الفتح على الاقل .

وقد ذكر النسابون من القبائل التى استوطنت الحيرة بنو عوف بن أبى سلمى[٥] ، وبنو عمار بن عبدالمسيح بن قيس بن حرملة[٦] أصحاب قصر العدسيين ، وهما من كلب ، وجفنه وهم بطن من بنى عوف بن عمرة بن ربيعة بن حارثة الخزاعيين[٧] ، وبنو زمـان بن تيم الله بن جفال[٨] ، وبنو سنيد ومره اولاد زيد بن سعد بن عدى بن نمر ويقال لهم بنو مطر ، ومنهم بقيلة صاحب قصر بنى بقيلة ، وبنو هند من بنى زيدالله بن عمرو بن مازن ، وهـم من الازد[٩] . وبنو الساطع وهـم بنو عـدى بن عمره بن

(١) اليعقوبى . البلدان ص ٣٠٩ ابن رسته ص ٣٠٩ ياقوت ج ٢ ص ٣٧٥ ويروى الاصطخرى (ص ٨٢) ان بينها وبين الـكوفة فرسخ ، وهى رواية غير دقيقة ، او انه قدر المسافة من أبعد نقطتين بين الـكوفة والحيرة . ويرى موزيل ان مركز الحيرة يبعد ٥ كيلو مترات عن الـكوفة والخورنق ، وعشرة كيلومترات عن النجف (ص ١٠) .

(٢) البكرى ص ١١١٠ الاغانى ج ٢ ص ١٣٤ .

(٣) ابن سعد . كتاب الطبقات ج ٦ ص ١٤٥ انساب الاشراف ج ٥ ص ٢١٧ طبرى II ص ٧٢٥ .

(٤) ياقوت ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٥) ابن الـكلبى . كتاب النسب ص ٤٢٣ مخطوطة الاسكوريال .

(٦) ابن الـكلبى ص ٤٢٤ .

(٧) ابن الـكلبى ص ٣١٠ .

(٨) ابن الـكلبى ص ٣٢١ .

(٩) ابن الـكلبى ص ٣٢٣ .

كنانة[١٠] ، وبنو عدى بن الرميل بن لوب بن اسس اصحاب بيعة عدى وهم من لخم[١١] ، والحمرات من بنى اراش بن حرملة بن لخم[١٢] ، وبنو سمينة الطائيين[١٣] ، وبنو المحلق بن بكر بن وائل[١٤] ، وسلسلة من بنى ملك بن هزيم الجعفى[١٥] ، وبنو عبدالخيار ـ وبنو مالك من أياد [١٥] أ .

وكانت الحيرة مشهورة بخماراتها[١٦] ، حيث كان يؤمها كثير من أهل الكوفة متحررين من قيود الوقار التى يفرضها عليهم بقاؤهم فى الكوفة ؛ كما زارها عدد من خلفاء بنى العباس « لطيب هوائها وصفاء جوها وصحة تربتها وصلابتها ، غير انها بدأت تنحط تدريجيا ، حتى انها كانت فى زمن المعتضد خرابا »[١٧] .

وفى الحيرة عدة اديرة منها دير هند الصغرى ، وقد بنته هند بنت النعمان « وترهبت فيه وسكنته دهرا طويلا ثم عميت ، وهذا الدير من أعظم ديارات الحيرة واعمرها وهو بين الخندق وحضرا (صحراء ؟) بكر ، ولما قدم الحجاج الكوفة سنة ٧٤ قيل له ان بين الحيرة والكوفة ديرا لهند بنت النعمان ..»[١٨] ، ولما ولى بشر بن مروان امارة الكوفة « شق له نهرا من الفرات ، ولم يزل النهر يجرى حتى خرب الدير»[١٩]

(١٠) ابن الكلبى ص ٤٥٠ .
(١١) ابن الكلبى ص ١٣٩ ابن دريد : الاشتقاق ص ٣٧٧ طبعة عبدالسلام هارون .
(١٢) ابن الكلبى ص ١٤١ .
(١٣) ابن الكلبى ص ١٥٦ .
(١٤) ابن الكلبى ص ٢١٩ .
(١٥) ابن الكلبى ص ٢١٨ .
(١٥أ) البلاذرى . انساب الاشراف ج ١ ص ٢٧ ـ ٨ .
(١٦) الاصفهانى : كتاب الاغانى ج ١١ ص ٢٥٤ ـ ٢٧١ طبعة دار الكتب .
(١٧) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٤ الاصطخرى ص ٨٢ .
(١٨) الشابشتى ص ١٥٧ الاغانى ج ٢ ص ١٣٥ .
(١٩) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ج ١ ص ٣٢٣ .

ويروى البكرى ان « هذا الدير يقارب بنى عبدالله بن دارم بالكوفة مما يلى الخندق ، فى موضع نزه »[٢٠] .

اما دير هند الكبرى فهو غير الدير السابق ، وهو على طف النجف[٢١] . وعند هذا الدير دير اللج[٢٢] الذى بناه النعمان ابو قابوس ، « ولم يكن فى ديارات الحيرة احسن بناءا منه ولا انزه موضعا »[٢٣] .

ومن اديرة الحيرة دير ابن مزعوق « وهذا الدير فى وسطها ، وهو دير كثير الرهبان حسن العمارة احد المتنزهات المقصودة والاماكن الموصوفة [٢٤] ، وبالقرب من هذا الدير مائلا نحو الشمال يقع دير الحريق »[٢٥] .

ومن الاديرة التى بظاهر الكوفة دير عبدالمسيح بن بقيلة الغسانى « وهو بظاهر الحيرة بموضع يقال له الجرعة .. وخرب الدير بعد مدة فظهر فيه ازج معقود من حجارة »[٢٦] وهو يسمى أيضا دير الجرعة .[٢٧] اما الجرعة فيذكر ابن سعد انها بين الكوفة والحيرة[٢٨] ، ويذكر ياقوت انها بين النجفة والحيرة [٢٩] ويمكن التوفيق بين الروايتين بالقول ان الجرعة

(٢٠) البكرى ص ٦٠٥ .
(٢١) البكرى ص ٦٠٧ .
(٢٢) البكرى ص ١١٩٦ .
(٢٣) البكرى ص ٥٩٥ الاغانى ج ١١ ص ٣٦٥ ياقوت ج ٢ ص ٦٩١ .
(٢٤) الشابشتى ص ١٤٨ . مسالك الابصار ص ٣١٥ ياقوت ج ٢ ص ٧٠١ .
(٢٥) مسالك الابصار ص ٣١٦ ياقوت ج ٢ ص ٦٥٤ .
(٢٦) ياقوت ج ٢ ص ٢٧٧ .
(٢٧) ياقوت ج ٢ ص ٦٥١ .
(٢٨) كتاب الطبقات ج ٥ ص ٢٢ .
(٢٩) ياقوت ج ٢ ص ٦٢ ويذكر ان منظور ان « الجرعه اسم موضع بالكوفة كان فيه فتنة فى زمن عثمان بن عفان » (لسان العرب ج ٩ ص ٣٩٧) .

بين الكوفة والحيرة والنجف ، أى انها فى شمال غربى الكوفة .

ومن ابرز ما فى الحيرة قصور يجمل الشابشتى موقعها بنص يذكره عن ابنية المناذرة حيث يقول « ومن هذه الابنية المسقطات ، وهو قصر فيه ازاج مستطيلة مسقطة شرقى الحيرة على طريق الحاج ؛ ثم القصر ؛ ثم كرة البقال ؛ ثم قصر العدسيين ؛ ثم الاقصى (القصر !) الابيض ؛ ثم بنى بقيلة وكان هذا القصر لعبدالمسيح بن بقيلة الغسانى .. ومن بعده دار عون ، ثم فيه عصر (؟) مما يلى النجف ، فهذه قصور الحيرة الباقية الآن[٣٠] .

لقد تردد ذكر هذه القصور فى اخبار الفتوح الاسلامية ، فيروى ياقوت ان قصر العدسيين « كان بالكوفة فى طرف الحيرة لبنى عمار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة»[٣١] ؛ ولما حاصرت قوات خالد بن الوليد قصور الحيرة فى خلافة ابى بكر « كان ضرار بن الخطاب محاصرا قصر العدسيين ، وفيه عدس بن عدس المقتول »[٣٢] ، وقد نزل المستورد بن علفة « فنزل دارا بالحيرة الى جنب قصر العدسيين من كلب»[٣٣] .

وقصر العدسيين فهو لبقيلة[٣٤] .

أما القصر الابيض فهو من قصور الحيرة[٣٥] ، ولما تقدم خالد لحصار الحيرة « تحصن اهلها فى القصر الابيض وقصر ابن بقيلة وقصر العدسيين»[٣٦] ويذكر الاصبهانى انه « كان لجابر بن شمعون

---

(٣٠) الشابشتى ص ١٥٤ ــ ١٥٥ .

(٣١) ياقوت ج ٤ ص ١١٦ ، ويبدو انه أخذ روايته من ابن الكلبى الذى يذكر ان « لهم قصر العدسيين » (النسب ص ٤٢٤ مخطوطة الاسكوريال .

(٣٢) طبرى I ٢٠٣٩ .

(٣٣) طبرى II ٢٩ .

(٣٤) ابن الكلبى . النسب ص ٣٢٣ مخطوطة الاسكوريال . ابن دريد : الاشتقاق ص ٤٨٥ (طبعة عبدالسلام هارون) .

(٣٥) ياقوت ج ٤ ص ١٠٦ .

(٣٦) فتوح البلدان ص ٢٤٤ انظر أيضا انساب الاشراف ج ٥ ص ٣٣٢ .

الاسقف »[٣٧] ، كما يذكر ياقوت ان هذا القصر « هو أبيض النعمان قصر كان له بالحيرة »[٣٨] اما ابن الفقيه فيقول عنه انه « فى طرف الحيرة لبنى عمار بن عبدالمسيح »[٣٩] . ويذكر الطبرى ان رستم عسكر « بين الغريين والقصر الابيض »[٤٠] ومعنى هـذا ان القصر الابيض قـرب الغريين فى جهة النجف .

وقد ذكر من قصـور الحيرة ايضا قصـــر بنى مازن[٤١] وقصـــر الطـــين[٤٢] .

ومن قصورها ايضا قصر الفرس « حكى الاديبى ان قصـر الفرس احد قصور الحيرة الاربعة »[٤٣] .

والزوراء « وهى دار بناها النعمان بن المنذر بالحيرة هدمها ابو جعفر المنصور »[٤٤] وعمير اللصوص « وكان مقابل الحيرة »[٤٥] .

وفى الحيرة أيضا « قبة الشنيق وهى من الابنية القديمة بالحيرة على طريق الحاج ، وبازائها قباب يقال لها الشكورة ، جميعها للنصارى »[٤٦].

تذكر المصادر عدداً غير قليل من الاديرة فى منطقة الحيرة دون أن تحدد مواقعها بالضبط ، ومن هذه الاديرة دير علقمة[٤٧] ، ولعله هو دير حنظلـه الـذى يروى ابو الفـرج الاصـبهانى انه « مـــن ديـارات بنى

---

(٣٧) الاغانى ج ٢ ص ١١٥ .
(٣٨) ياقوت ج ٤ ص ٣٥٣ .
(٣٩) مختصر كتاب البلدان ص ١٨٣ .
(٤٠) طبرى I ٢٠٣٩ .
(٤١) طبرى I ص ٢٠٣٩ .
(٤٢) ياقوت ج ٣ ص ٥٧١ ج ٤ ص ١١٤ .
(٤٣) ياقوت ج ٣ ص ٨٧٤ ج ٤ ص ١٠٨ .
(٤٤) ابن قتيبة : المعانى الـكبير ج ١ ص ٤٦٥ البكرى ص ٧٠٤ ياقوت ج ٢ ص ٩٥٥ لسان العرب ج ٥ ص ٤٢٧ ــ ٨ .
(٤٥) البكرى ص ١٠٠٤ ياقوت ج ٣ ص ٧٣١ .
(٤٦) الشابشتى ص ١٥٥ مسالك الابصار ص ٣٢٨ .
(٤٧) ياقوت ج ٢ ص ٦٨١ .

علقمة »[٤٨] .

ومن هذه الاديرة دير السوا « اى العدل لانهم كانوا يتحالفون عنده ، فيتناصفون ، وقال الكلبى هو منسوب الى رجل من اياد ، وقيل هو منسوب الى بنى حذاقة ، وقيل السوا امرأة منهم ، وقيل السوا ارض نسب الدير اليها[٤٩] .

وكذلك الاكيراح فيقول ياقوت « روى ابو سعيد السكرى عن ابى جعفر احمد بن الهيثم البجلى « رأيت الاكيراح وهو على سبعة فراسخ من الحيرة مما يلى مغرب الشمس من الحيرة ، وفيه ديارات فيها عيون وآبار محفورة يدخلها الماء ، وروى الخالدين ان الاكيراح رستاق نزه بأرض الكوفة .. بالقرب منها ديران يقال لأحدهما دير مر عبدا ، وللآخر دير حنة ، وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض »[٥٠] .

فاما دير عبدا فهو « ينسب الى مر عبدا ابن حنيف بن وضاح اللحيانى كان مع ملوك الحيرة ، وهو دير ابن وضاح »[٥١] ويسميه الاصبهانى دير الاكيراح[٥٢] .

اما دير حنة فهو « دير قديم بالحيرة منذ ايام بنى المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم[٥٣] بنو ساطع ، تقابله منارة عالية كالمرقب تسمى القايم لبنى أوس بن عمرو بن عامر » .

وقد ذكر فى منطقة الحيرة أيضا دير ابن براق[٥٤] .

وعند الحيرة ايضا اماكن لا نستطيع تحديد مواقعها بالضبط مثل[٥٥]

---

(٤٨) البكرى ص ٥٧٧ انظر أيضا ياقوت ج ٢ ص ٦٥٦ .
(٤٩) فتوح البلدان ص ٢٨٣ ياقوت ج ٢ ص ٦٧٢ .
(٥٠) ياقوت ج ١ ص ٣٤٥ ـ ٦ .
(٥١) ياقوت ج ٢ ص ٦٩٩ .
(٥٢) البكرى ص ٥٧٩ .
(٥٣) البكرى ص ٥٧٨ (عن الاصبهانى) .
(٥٤) ياقوت ج ٢ ص ٦٤٠ .
(٥٥) ياقوت ج ٤ ص ٦٤٣ .

الباغوث [٥٦] ، وقلاية القس [٥٧] ، والفروط [٥٨] ، وبين « وهى موضع قريب من الحيرة » [٥٩] ؛ وكانت فى طرف السواد من ناحية الحيرة [٦٠] ، وجفر الاملاك « وهو موضع دير بنى مرينا » [٦١] ؛ وانقره « وهى موضع بنواحى الحيرة [٦٢] ، والجرف « كانت به منازل المنذر [٦٣] .



(٥٦) البكرى ص ٢٢١ .
(٥٧) البكرى ص ١٠٩١ .
(٥٨) البكرى ص ١٠٢٣ .
(٥٩) ياقوت ج ١ ص ٤٢٥ .
(٦٠) ياقوت ج ٤ ص ٩٧٩ .
(٦١) ياقوت ج ٢ ص ٦٥٦ ـ ٧ .
(٦٢) ياقوت ج ١ ص ٣٩١ .
(٦٣) ياقوت ج ٢ ص ٦٣ .

الخورنق والسدير وقصر ابى الخصيب :

الخورنق قصر كان بظهر الحيرة[1] ، « بقرب منها مما يلى الشرق على نحو ميل[2] ، وهو مقابل الفرات يدور عليه على عاقول كالخندق[3] » ، وهو كما نعلم يرجع الى عهد المناذرة[4] ، وقد اضيفت اليه فى العصر الاسلامى عدة اضافات « فلم يقدم احد من الولاة السكوفة الا واحدث فى قصرها المعروف بالخورنق شيئا من الابنية ، فلما قدم الضحاك بن قيس بنى فيه مواضع وبيضه وتنقده »[5] . فلما ظهرت الدولة العباسية « أقطع الخورنق ابراهيم بن سلمه أحد الدعاة بخراسان .. وابراهيم أحدث قبة الخورنق فى خلافة ابى العباس ولم تكن قبل ذلك »[6] ، وقد تردد ذكر الخورنق فى الشعر العربى[7] .

وقد تردد ذكر الخورنق فى احداث الفتوح الاسلامية ، فلما اصاب « خالد ابن الازادبه على فم فرات بادقلى قصد للحيرة واستلحق اصحابه وسار حتى ينزل بين الخورنق والنجف فقدم خالد الخورنق .. ثم .. خرج من العسكر حتى يعسكر بموضع الازاد به بين الغريين والقصر الابيض »[8] ، « وقال خذوا على الجوف ، فسلكوا القادسية والجوف ، وسلك المثنى وسط السواد فطلع على النهرين ثم على الخورنق ، وطلع عصمة على النجف ومن سلك معه طريقه وطلع جرير على الجوف فانتهوا

---

(١) ياقوت ج ٢ ص ٤٩١ .

(٢) ياقوت ج ٢ ص ٣٧٥ ، ويقول ابن رسته انه على ثلاثة أميال من الحيرة (الاعلاق النفيسة ص ٣٠٩) ولعل اختلاف التقدير راجع الى البدايات التى تقدر منها المسافات .

(٣) **ياقوت ج ٢ ص ٤٩٢ .**

(٤) انظر فى وصفه كتاب الحيرة ليوسف غنيمة .

(٥) ابن الفقيه ص ١٧٨ ياقوت ج ٢ ص ٤٩٣ عن الهيثم بن عدى . وعن زيادة عبدالملك بن مروان انظر انساب الاشراف ج ٥ ص ٧٥٢ .

(٦) فتوح البلدان ص ٢٨٧ ــ ٨ .

(٧) انظر طبرى II ١٤٦ ياقوت ج ١ ص ٣٩١ ، ٤٦٣ ج ٢ ص ١٤٦ ، ٤٧٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٠ ، ٧٨٨ .

(٨) طبرى I ص ٢٠٣٨ .

الى المثنى وهو على البويب »[٩] وقد رأينا ان سعدا قال في وصفه منطقة « وان عن يسار القادسية بحر أخضر لاح الى الحيرة بين طريقين ، فأما احدهما فعلى الظهر ، واما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الخصوص يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة »[١٠] وان رستم خرج « ونزل بحيال دير الاعور ، ثم انصب الى الملطاط فعسكر مما يلي الفرات بحيال الخورنق الى الغريين[١١] .

ومن هذا يتبين ان الخورنق قريب من النجف ، ومن الغريين ، وان منها طريق يربطها بالنهرين وطريق القادسية عن طريق نهر الخصوص .

وتقع انقرة وهي « موضع بظهر الكوفة من الخورنق»[١٢].

ومن الاماكن البارزة قرب الخورنق هو السدير « في وسط البرية التي بينها (الحيرة) وبين الشام »[١٣] أي انه في الشمال الغربي من الحيرة ؛ ولا ريب ان اهميته وشهرته اقل من الخورنق بدليل اختلاف المتأخرين في أخباره . فيروى ياقوت انه « قال العمراني السدير موضع بالحيرة ، وقال السدير نهر وقيل قصر قريب من الخورنق كان النعمان اتخذه لبعض ملوك العجم » . وقال ابن الفقيه قالوا السدير ما بين نهر الحيرة الى النجف الى كسكر من هذا الجانب »[١٤] ويقول الشابشتي « والسدير قصر عظيم من ابنية ملوك لخم في قديم الزمان ، وما بقي الان منه فهو ديارات وبيع للنصارى »[١٥] .

ويقول ابن منظور « السدير بناء هو بالفارسية سهدلى أي ثلاث شعب أو ثلاث مداخلات ، وقال الاصمعي السدير فارسية ،كأن أصله سادل أي قبة في ثلاث قباب متداخلة وهي التي يسميها الناس اليوم سدلى فاعربته العرب

---

(٩) طبري I ص ٢١٨٤ .
(١٠) طبري I ٢٢٣٠ .
(١١) طبري I ٢٢٥٥ .
(١٢) البكري ص ٢٠٣ .
(١٣) ياقوت ج ٢ ص ٢٧٥ .
(١٤) ياقوت ج ٣ ص ٦٠ ـ ٦١ .
(١٥) الشابشتي ص ١٥٢ .

فقالوا سدير ، والسدير النهر وقد غلب على بعض الانهار .. التهذيب السدير نهر بالحيرة .. والسدير النهر ويقال قصر وهو معرب واصله بالفارسية سه‌دله أى فيه قباب متداخلة مثل الحارى بكمين »[١٦] .

اما قصر ابى الخصيب فهو « بظاهر الكوفة قريب من السدير ، بينه وبين السدير ديارات الاساقف ، وهو أحد المتنزهات يشرف على النجف وعلى ذلك الظهر كله يصعد من اسفله فى خمسين درجة الى سطح آخر افيح فى غاية الحسن ، وهو عجيب الصنعة »[١٧] « وبنى المنصور بالكوفة الرصافة وأمر أبا الخصيب مرزوقا مولاه فبنى له القصر المعروف بأبى الخصيب على اساس قديم ، ويقال ان ابا الخصيب بناه لنفسه ، فكان المنصور يزوره فيه »[١٨] .

وقد ذكر على بن محمد العلوى الحمانى بعض الاماكن القريبة من قصر أبى الخصيب بقوله :

سقيا لمنزلة وطيب ... بين الخورنق والكثيب
بمدافع الجرعات من ... اكناف قصر ابى الخصيب
دار تخيرها الملوك ... فهتكت رأس اللبيب[١٩]

وبين قصر أبى الخصيب والسدير تقع ديارات الاساقف[٢٠] « وهذه الديارات بالنجف ظاهر الكوفة وهو اول الحيرة ، وهى قباب وقصور بحضرتها نهر يعرف بالغدير (السدير ؟) ، عن يمنه قصر أبى الخصيب وعن شماله السدير [٢١] .

وبالقرب من هذا القصر ايضا دير مارت مريم وهو « دير قديم من بناء آل المنذر بنواحى الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر ابى الخصيب مشرف على النجف »[٢٢] .

---

(١٦) لسان العرب ج ٦ ص ١٩ ـ ٢٠ .
(١٧) الشابشتى ص ١٥٢ ياقوت ج ٤ ص ١٠٧ .
(١٨) فتوح البلدان ص ٢٨٧ . ابن الفقيه ص ١٨٤ .
(١٩) ياقوت ج ٢ ص ٤٩٣ .
(٢٠) الشابشتى ص ١٥٢ ياقوت ج ٤ ص ١٠٧ .
(٢١) الشابشتى ص ١٥٢ ياقوت ج ٢ ص ٦٤٢ .
(٢٢) البكرى ص ٥٩٧ ياقوت ج ٢ ص ٦٩٢ .

النجف والهاشمية :

لقد لاحظنا انه بقرب الخورنق كانت النجف « وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها »[1] وكان يقال لظهر الكوفة اللسان[2] ، « واللسان لسان البر الذى ادلعه فى الريف وعليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم »[3] « وهو فيما بين النهرين الى العين عين بنى الحذاء ، كانت العرب تقول ادلع البر لسانه فى الريف ، فما كان يلى الفرات منه فهو الملطاط ، وما كان يلى الطين منه فهو النجاف »[4]

وكان الظهر « يدعى خد العذراء ينبت الخزامى والاقحوان والشيح والقيصوم والشقاق »[5] و « كان الناس يدفنون موتاهم بالكوفة فى جبابينهم فلما ثقل خباب قال لى أى بنى اذا انا مت فادفنى بهذا الظهر ، فانك لو قد دفنتى بالظهر قيل دفن بالظهر رجل من اصحاب رسول الله ص ، فدفن الناس موتاهم ، فلما مات خباب رحمه الله دفن بالظهر فكان اول مدفون بظهر الكوفة خباب »[6] • ثم « ان عمرو بن عتبة ومعضد بن يزيد العجلى بنيا مسجدا بظهر الكوفة فاتاهم ابن مسعود فقال جئت لاكسر مسجد الخبال »[7] •

لقد تردد ذكر النجف فى احداث الفتوح الاسلامية الاولى ، و« لما اصاب خالد ابن الازادبه على فم فرات بادقلى قصد للحيرة واستلحق اصحابه وسار حتى ينزل بين الخورنق والنجف فقدم خالد الخورنق •• وكان

(١) ياقوت ج ٤ ص ٧٦٠ •
(٢) طبرى I ص ٢٤٨٥ ياقوت ج ٤ ص ٦٣٣ •
(٣) طبرى I ٢٤١٩ •
(٤) طبرى I ص ٢٤٨٥ ياقوت ج ٤ ص ٣٥٥ •
(٥) فتوح البلدان ص ٢٧٧ •
(٦) ابن سعد ج ٣ قسم ٢ ص ١١٨ •
(٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٤٤ •

عسكره بين الغريين والقصر الابيض »[8] ثم ان المثنى « قال خذوا على الجوف ، فسلكوا القادسية والجوف ، وسالك المثنى وسط السواد فطلع على النهرين ثم على الخورنق وطلع عصمة على النجف ومن سلك معه طريقه »[9] . ولما تقدم رستم الى القادسية « نزل بحيال دير الاعور ثم انصب الى الملطاط فعسكر مما يلى الفرات بحيال اهل النجف بحيال الخورنق الى الغريين »[10] ، ثم « أمر الجالنوس أن يسير من النجف فسار في المقدمات فنزل فيما بين النجف والسيلحين ، وارتحل رستم فنزل النجف »[11] ، « ورای رستم ان ينزل بين العتيق والنجف »[12] ، « فاذا رستم قد ارتحل من النجف فنزل منزل ذى الحاجب ، فارتحل الجالنوس، فنزل ذو الحاجب منزله والجالنوس يريد طيزناباد فنزل بها »[13] ، « وقتلوا ما بين الخرارة الى السيلحين الى النجف »[14] .

وهناك اشارات الى النجف في العصر الاموى[15] .

وقد ورد وصفها ومدحها في قصيدة لاسحق بن ابراهيم الموصلى يمدح بها الواثق[16] .

تشير بعض المصادر الى ان النجف كانت فيها دومة : فيروى البكرى ان « دومة الكوفة هى النجف بعينها »[17] ، ويقول ياقوت ان « دوما

---

(٨) طبرى I ص ٢٠٣٨ .

(٩) طبرى I ص ٢١٨٤ .

(١٠) طبرى I ص ٢٢٥٥ .

(١١) طبرى I ص ٢٢٥٦ .

(١٢) طبرى I ص ٢٢٥٧ .

(١٣) طبرى I ص ٢٢٦٤ .

(١٤) طبرى I ص ٢٣٣٩ .

(١٥) انظر طبرى II ص ٧٤٦ ، ١٦٥٣ وكيع : اخبار القضاة ج ٢ ص ٢٦٧ البكرى ص ١٢٩٩ .

(١٦) اغانى ج ٩ ص ٢٨٩ ياقوت ج ٤ ص ٧٦٠ .

(١٧) البكرى ص ٥٦٦ .

بالكوفة والنجف محلة منها ، ويقال اسمها دومة لان عمر لما اجلا اكيدر صاحب دومة الجندل قدم الحيرة فبنى بها حصنا وسماه دومة ايضا »[١٨] .

ولدينا عن دومة التي في هذه المنطقة اخبار من مصادر اخرى فيروى البلاذرى عن هشام بن الكلبي عن أبيه « وجه رسول الله (ص) خالد بن الوليد الى اكيدر فقدم به عليه فاسلم ، فكتب له كتابا ، فلما قبض النبي(ص) منع الصدقة ونقض العهد وخرج من دومة الجندل فلحق بالحيرة وابتنى بها بناءا سماه دومة بدومة الجندل » ويقول بعد ان يورد روايات عن عوانه بن الحكم وعن الواقدى في توجيه خالد الى اكيدر « وسمعت بعض اهل الحيرة يذكر أن اكيدر واخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة ، وكانوا يزورون اخوالهم من كلب فيتغربون عندهم ، فانهم لمعهم وقد خرجوا للصيد اذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق الا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل ، فاعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة »[١٩] .

ويبين هذا النص ان دومة الحيرة اقدم من دومة الجندل ، وانها القاعدة القديمة لاكيدر . ومهما كانت صحة هذه التفاصيل ، فالثابت فيها وجود دومة بالحيرة ، كانت معروفة .

ويذكر ابن الكلبي ان « اكيدر وبشر وحريث بنو عبدالملك بن عبد الحي بن اعيابن الحرث بن معاوية بن حلاوة بن ايامه بن شكامة صاحب دومة الجندل كان رسول الله (ص) صالحه على شيء يؤديه اليه ففعل ، فلما قبض رسول الله (ص) منع ذلك ابا بكر ، فاخرج من جزيرة العرب من دومة ولحق بالجزيرة وابتنا بها بناءا وسماه دومة بدومة الجندل »[٢٠].

ان المعلومات المذكورة في المصادر الآنفة الذكر تحملنا على الاعتقاد بأن كلمة (الجزيرة) هي من خطأ الناسخ وحقيقتها (الحيرة) . أما ذكر

---

(١٨) ياقوت ج ٢ ص ٦٢٤ ، ويذكر ياقوت في ص ٦٢٦ من نفس الجزء عن السكوني ان اكيدر اجلاه عمره الى الحيره « فنزل في موضع منها قرب عين التمر وبنى بها منازل وسماها دومه وقيل دوماء باسم حصنه بوادى القرى فهو قائم يعرف الا انه خراب » .

(٢٠) كتاب النسب ص ١٢٦ مخطوطة الاسكوريال .

بعض المصادر كون دومة في الحيرة ، وذكر اخرى انها بالنجف فيرجع الى ان النجف متصلة بالحيرة ، وقد يدل على ان دومة بينهما ٠

وبظاهر النجف يقع الغريين[٢١] ، وقد أشار الطبرى الى هذا المكان في النصوص التي أوردناها أعلاه ، ويروى ابن منظور « .. قال أبو سعيد : الغرى نصب كان يذبح عليه النسك وكل بناء حسن غرى ، والغريان المشهوران بالكوفة منه .. وقال ابن برى .. وهما بناءان طويلان يقال هما قبر مالك وعقيل نديمى جذيمة الابرش وسميا الغريين لان النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه »[٢٢] وفي أسفل النجف دير فاثيون[٢٣] وعلى طرفها دير هند الكبرى[٢٤] ٠

لقد ذكرنا ان « ظهر الكوفة يقال له اللسان .. فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط وما كان يلي الطين منهو فهو النجاف»[٢٥] ويروى البلاذرى عن شيخ من الكوفيين« ان ما بين الكوفة والحيرة كان يسمى الملطاط»[٢٦] ٠

وكانت تقع فيه شوميا اذ لما عبر مهران « فنزل على شاطىء الفرات معهم في الملطاط فقال المثنى لذلك الرجل ما يقال لهذه الرقعة التي نزل مهران وعسكره قال شوميا »[٢٧] ويبدو انه كان يمتلكه آل كسرى«لوددت ان هذا الملطاط لك يعنى ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلي الكوفة »[٢٨] ٠

لقد بنى المنصور بظهر الكوفة مدينة سماها الرصافة[٢٩] ، ونزلها

---

(٢١) ياقوت ج ٣ ص ٧٩٢ ٠

(٢٢) لسان العرب ج ١٩ ص ٣٥٨ ويقول ابن قتيبه « الغربيين وهما طربالان يغريهما (النعمان) بدم من يقتل اذا ركب يوم بؤسه » المعارف ص ٦٤٩ طبعة ثروت عكاشه ٠

(٢٣) ياقوت ج ٢ ص ٦٩٣ ٠

(٢٤) ياقوت ج ٢ ص ٧٠٩ ٠

(٢٥) طبرى I ص ٢٤٨٥ ابن قتيبه : المعارف ص ٢٤٦ ياقوت ج ٤ ص ٦٣٣ ٠

(٢٦) فتوح البلدان ص ٢٣ ٠

(٢٧) طبرى I ص ٢١٨٥ ٠

(٢٨) طبرى I ص ٢٩٠٨ ٠

(٢٩) فتوح البلدان ص ٢٨٧ طبرى III ص ٢٧١ ، ٢٩٣ ياقوت ج ٢ ص ٧٨٧ — ٨ ٠

عدة مرات[٣٠] ، غير اننا لا نعلم موقع هذه المدينة بالضبط .

يذكر البلاذري « حدثني ابو مسعود وغيره قالوا : كان يزيد بن عمر بن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات ونزلها ومنها شيء يسير لم يستتم ، فاتاه كتاب مروان يأمره باجتناب مجاوره اهل الكوفة فتركها ، وبنى القصر الذي يعرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا .

فلما ظهر أمير المؤمنين أبو العباس نزل تلك المدينة واستتم مقاصير فيها واحدث فيها بناءا وسماها الهاشمية ، فكان الناس ينسبونها الى ابن هبيرة على العادة ، فقال ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها ، فرفضها وبنى بحيالها المدينة الهاشمية ثم اختار نزول الانبار فبنى بها مدينته المعروفة ، فلما توفي دفن بها ، واستخلف ابو جعفر المنصور فنزل المدينة الهاشمية بالكوفة ، واستتم شيئا كان بقي منها ، وزاد فيها بناءا وهيأها على ما اراد ثم تحول منها الى بغداد .. وبالهاشمية حبس المنصور عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب بسبب ابنيه محمد وابراهيم وبها قبره »[٣١] .

ويتبين من هذا النص :

١ ـ ان ابن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات ، وهي غير قصر ابن هبيرة المشهورة والتي هي على جسر سورا ، وانه نزلها مدة قصيرة من قبل أن تتم ، ثم تركها لاسباب ادارية .

٢ ـ ان السفاح اكملها وسماها الهاشمية ولكن تسميته لم تعم بين الناس .

٣ ـ ان السفاح بنى بقرب هذه المدينة مدينة أخرى سماها الهاشمية ونزل فيها امدا .

٤ ـ ان المنصور نزلها واكملها وزاد في بناءها قبل ان يتحول الى بغداد .

٥ ـ ان فيها دفن عبدالله بن حسن .

ويقول الطبري « ان ابا جعفر المنصور بنى فيما ذكر حين افضى الامر اليه الهاشمية قبالة مدينة ابن هبيرة بينهما عرض الطريق ، وكانت مدينة ابن هبيرة التي بحيالها مدينة ابي جعفر الهاشمية ، الى جانب الكوفة . وبنى

(٣٠) طبري III ص ٢٩٤ ، ٣٣٥ ، ٣٨٣ ، ٤٤٥ .

(٣١) فتوح البلدان ص ٢٨٦ ياقوت ج ٤ ص ١٢٣ ، ٩٤٦ .

المنصور ايضا مدينة بظهر الكوفة سماها الرصافة • فلما ثارت الراوندية بابي جعفر في مدينته التي تسمى الهاشمية ، وهي التي بحيال مدينة ابن هبيرة ، كره سكناها لاضطراب من اضطرب امره عليه من الراوندية ، مع قرب جواره من الكوفة ، ولم يأمن اهلها على نفسه فاراد ان يبعد من جوارهم »[٣٢] ••

ويختلف نص الطبرى عن البلاذرى من حيث انه ينسب بناء الهاشمية الى المنصور ولكن الراجح ان البلاذرى ادق ، لان الطبرى نفسه يذكر فى مواضع أخرى نزول السفاح بها ، ودفن ابى اسلمه فيها ، مما يؤيد انها موجودة زمن السفاح • ثم ان نص الطبرى :

١ ـ يميز بين الهاشمية والرصافة ؛ فالاولى بحيال مدينة ابن هبيرة والثانية بظهر الكوفة •

٢ ـ ان الهاشمية لا يفصلها عن مدينة ابن هبيرة الا عرض الطريق •

٣ ـ انها الى جانب الكوفة ، فهى اذاً ليست بقرب قصر ابن هبيرة •

٤ ـ انه بقى فيها امدا ، وثار عليه فيها الراوندية •

٥ ـ انه تركها لاسباب ادارية وسياسية •

وقد ذكرت هاشمية الكوفة فى بعض المواضع من تاريخ الطبرى ، فهو يذكر ان السفاح بعد أن بويع له بالخلافة ذهب الى عسكره « وأقام أبو العباس فى العسكر شهرا ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية فى قصر الكوفة »[٣٣] ؛ كما ان أبا جعفر بعد ان زار بيت المقدس والشام سنة ١٤٠هـ عاد الى الرقة ثم انحدر « فسلك الفرات حتى أتى الهاشمية ، هاشمية الكوفة »[٣٤] • كما ان ثورة الراوندية وما رافقها من اضطراب « وكان ذلك كله فى المدينة الهاشمية بالكوفة »[٣٥] ، ويروى عن مسلم الخصى

---

(٣٢) طبرى III ص ٢٧١ ـ ٢ •

(٣٣) طبرى III ص ٣٧ •

(٣٤) طبرى III ص ١٢٣ انظر أيضا ابن قتيبه • المعارف ص ٣٧٨ طبعة ثروت عكاشه •

(٣٥) طبرى III ص ١٣١ •

مولى محمد بن سليمان قال « كان أمر ابراهيم وانا ابن بضع عشـــرة سنة وانا يومئذ لابى جعفر فانزلنا الهاشمية بالكوفة ونزل هو بالرصافة فى ظهر الـكوفة • وكان جميـع جنـده الذين فى عسـكره نحـوا مـــن ألـف وخمسمائة »[٣٦] •

وقد ذكرت الهاشمية مجردة دون قرنها بالكوفة ، فقد دفن ابو سلمة الخلال فى الهاشمية[٣٧] ، وحبس أبو جعفر بنى الحسن فى الهاشمية[٣٨] وان وجود النصـوص السابقة يؤيد ان المقصـود بالهاشمية نفس هاشمية الـكوفة •

يقول ابن رسته ان « الهاشمية بين الكوفة والحيرة »[٣٩] •

أما اليعقوبى فيقول ان المهدى عاد من خراسان سنة ١٤٤ « فخرج أبو جعفر لاستقباله بنهاوند وقدم الى الكوفة فنزل الحيرة والمدينة التى بناهـــا المنصور وسماها الهاشمية »[٤٠] •

---

(٣٦) طبـرى III ص ٢٩٣ انظـر أيضـا ابن قتيبه • المعـارف ص ٤٨٠ •

(٣٧) طبرى III ص ٦٠ •

(٣٨) طبرى III ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢٥٠٨ • أبو الفرج الاصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٢٦ •

(٣٩) الاعلاق النفيسه ص ٢٣٧ •

(٤٠) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ٤٥٠ ومن الجدير بالملاحظة ان اليعقوبى يذكر كثيرا من حوادث السفاح والمنصور فى الحيرة : فقد صلب السفاح اثنين من الامويين فيها (ج ٢ ص ٤١٤) ، و « انتقل أبو العباس من الحيرة فنزل الانبار » (ج ٢ ص ٤٢٩) و « قدم أبو جعفر الكوفة غرة المحرم فنزل الحيرة وصلى بالناس الجمعة ثم شخص الى الانبار » (ج٢ ص٤٣٨) كما قدم عليه سليمان بن على وهو بالحيره (ج ٢ ص ٤٤٢) ولما عاد من الرقه « نزل الحيره » (ج ٢ ص ٤٤٥) •

ونحن نرجح ان اليعقوبى كان يقصد بالحيره الهاشمية ، لان المصادر الاخرى ذكرت بعض هذه الاحداث متصلة بالهاشمية ، وهذا يدل على ان الهاشمية كانت فى الحيرة أو قريبة جدا من الحيره ، وانها اختلطت فيما بعد وزال اسمها بحيث أصبح اليعقوبى يذكر الحيره باعتبارها الاسم الاشهر بعد ان طمس اسم الهاشمية •

مراكز الحركة الفكرية في صدر الإسلام

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الحادي والثلاثون - الجزء الثالث
1980 - 1400

مراكز الحركة الفكرية

في صدر الإسلام

الدكتور صالح أحمد العلي

رئيس المجمع العلمي العراقي

الاستاذ بكلية الآداب ـ جامعة بغداد

تهدف دراسة الحركة الفكرية توضيح طبيعة تقدم البشرية ومداها ، وهي تشمل دراسة ظهور الأفكار وتطورها ، والكشف عن المفكرين والعلماء الذين عملوا على إظهارها وتعميقها وتقدمها ، كما تعنى بمدى اهتمام الناس بها وكثرة المعنيين بها.

والأفكار تظهر باستعمال العقل ، وتنمو بالإبداع ، ويعبر عنها بالكلام أو الكتابة . فدراسة أحوالها وتطورها ، تتطلب أساليب قد تختلف عما تتطلبه دراسة الأحوال السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التي تعتمد مادتها على المحسوسات وفي الحركة الفكرية يبرز التفاعل بين الفرد والمجتمع ، فالإبداع الفكري يتوقف على الافراد المبدعين ، والازدهار الفكري يتوقف على مدى كثرة المعنيين بالفكر من أبناء المجتمع ؛ وكل دراسة للحركة الفكرية يجب أن تأخذ بنظر الاعتبار كلتا الظاهرتين : إبداع الأفكار ، وانتشارها بين الناس . ولعل من أبرز سمات الحركة الفكرية في صدر الاسلام ، هو أنها جمعت بين الأفذاذ المبدعين من الأفراد ، وكثرة المهتمين بالفكر والمعنيين بدراسته .

وتطور الحركة الفكرية ، يقوم على عوامل نابعة من طبيعة الفكر ، ولذلك فإنه قد يتخذ مساراً خاصاً لا يطابق مسار التطورات السياسية أو الإجتماعية ، فقد تنشط

الحركات السياسية وما يرافقها من ثورات أو معارك ،أو قد تزدهر الحياة الاقتصادية وتنشط المعاملات التجارية وتنمو الصناعة وتزداد الثروة ، ولكن تبقى الحركة الفكرية راكدة ، كالذي حدث في بعض الدول التجارية في القديم ؛ وبالعكس قد تنشط الحركة الفكرية في مجتمع يتميز بالهدوء أو الركود السياسي ، وبالفقر وقلة الموارد .

والحركة الفكرية تقوم على استعمال العقل والتأمل والتفكير ، وكثيراً ما يكون القائمون بها في حالة عوز مادي ؛ والواقع يشهد أن قلة من العلماء كانوا في بحبوحة من العيش ، وأن أغلبهم كانوا يشكون العَوَز ويعانون الفاقة (١) .

إن النشاط الفكري يقوم على انتقال الأفكار الذي قد لا يستلزم بالضرورة انتقال الأشخاص العلماء ؛ فقد تنتقل الأفكار بالمدونات والكتب ، أو بانتقال وسطاء من الاشخاص ؛ فتمتد فكرةٌ مّا الى مناطق بعيدة لم يصل اليها مبدع الفكرة.

ولا ريب في أن خير وسيلة لمعرفة الأفكار هو المدونات والكتب ؛ غير أن قلة الكتب قبل انتشار الورق ، واعتماد الحركة الفكرية على الرواية والسماع أفقدانا كثيراً من التفاصيل المهمة عن تطور هذه الحركة ، ولم يبق أمامنا إلا نصوص قليلة متفرقة ، علينا أن نعالجها بحذق وحذر إذا أردنا تقديم صورة شاملة لتطور الحركة الفكرية .

والأداة الأساسية في الفكر هي اللغة ، إذ بها يعبر المرء عن أفكاره وينشرها بين الناس ؛ ولولا اللغة لما استطاع الإنسان أن يفكر ، ولا استطاع معرفة أفكار غيره . ومع أن لكل قوم لغةً خاصةً بهم ، فإن اللغة إنما تكتسب بالتعلّم والمران ، وقد يستطيع المرء تعلم لغة قوم غير قومه والتفكير بها والتأليف فيها ، وقد تترجم الأفكار وتنقل من لغتها الأصلية الى لغات أخرى ؛ وعلى هذا فما كل ما كتب بالاغريقية يرجع الى مفكرين إغريقيي الأصل ، وما كل ما كتب بالفارسية كتبه أناس عرقهم فارسي ، فاللغة الواحدة قد يكتب بها أناس من أصول

---

(١) انظر في ذلك كتاب « صفحات من صبر العلماء » لعبد الفتاح أبو غدة .

متعددة ، وهذه حقيقة يؤدي تجاهلها الى الوقوع في كثير من الأخطاء والأخطار. غير أن انتشار لغة ما وتطورها لتصبح لغة العلم العامة ، يعطي دلالة على ميزات تلك اللغة وعلى الدور الرئيس لأهلها في تطور الحركة الفكرية .

ولدراسة مراكز الحركة الفكرية أهمية في فهم الآثار المحلية من جغرافيّة أو بشرية على تكوين آراء الكاتب وأفكاره ؛ لأن للبيئة أثراً في تقديم المثيرات ، وخلق التحديات ، وفي تقديم بعض المعلومات التي تؤثر في تنشيط التفكير وتوجيهه. غير أن هذا لايعني أن النشاط الفكري مقيد كلياً بالمكان ، فقد يتأثر التوجيه الفكري للمرء بكتاب ألّفه رجل بعيد عنه في الزمان أو المكان ، فيأخذ من هذا الكتاب أفكاراً قد تبدو غريبة عن بيئته أو جديدة عليها . ولعل هذا أوضح أثراً في عصرنا الحاضر ، إذْ كثرت الكتب ، وسهل الحصول عليها ، وتيسر نقل الأفكار بوسائل الاتصال والنشر المتطورة . غير أن هذا الأثر لم يكن معدوماً كلياً في الماضي ، وإن كان أثره أقل .

ودراسة مراكز الحركة الفكرية ، لا يعني الاعتقاد بالحتمية الجغرافية في تقرير ازدهار الحركة الفكرية فمن المعلوم أن تكوّن مراكز الحركة الفكرية يتأثر بعوامل متعددة وليس بعامل واحد ، وانها لا تبقى ثابتة في مكان واحد ، وإنما تتبدل تبعاً للظروف والأحوال ، ومن أبرز الأمثلة على ما نقول هو بلاد اليونان التي ازدهرت الحركة الفكرية في عدد من مدنها قروناً عديدة ، ثم غرقت في سبات لم تتحرر منه حتى الآن. وفي تاريخنا العربيّ أمثلة لا تنكر على تنقل مراكز الازدهار الفكري فقد كانت هذه المراكز في صدر الاسلام في المدينة ومكة ، ثم في الكوفة والبصرة ودمشق ، ثم ازدهرت بغداد ، ونشطت الحركة الفكرية بعد ذلك في عدد من مدن خراسان والهضبة الايرانية ، وفي الفُسْطاط والقيروان ، ثم في مدن أخرى متباعدة في المكان ، أي أنها لم تبق ثابتة في مكان واحد .

وعند دراسة مراكز الحركة الفكرية في صدر الاسلام تجدر ملاحظة أن الدولة التي كونها العرب المسلمون امتدت من أواسط آسية حتى المحيط الأطلسي وأن موجهيها من الخلفاء والولاة والمقربين اليهم كانت لهم أفكار واضحة عن توجه

الدولة ومسيرتها ، وأن من أفكارهم الأساسية العمل على توحيد الدولة وضمان الحرية فيها . والواقع أن هذه الدولة بعد تكونها عمّ فيها السلم والأمن والرخاء ، وأزيل كثير من القيود والحواجز القديمة ، ونفذت خطوات جدّية لإحلال نظم موحدة محل النظم والأوضاع المتباينة ، وقد آمن موجهو الدولة بالحرية الفردية ، وهي من المبادئ الاساسية التي دعا إليها القرآن الكريم ، فأباحت حرية العمل والتنقل والكلام . وأدت هذه الحرية الى أن يقيم في كل مصر أناس من قبائل مختلفة واحياناً من أصول مختلفة ، وإلى ظهور تيّارات فكرية متعددة واحياناً متعارضة ؛ غير أن عوامل التوحيد سرعان ما سيطرت على التنوعات ، فجعلتها فرعية ضمن إطار عام موحد يسير فيه كل علم . فكتب الفقه مثلا رتبت أبوابها على نمط واحد، أي انها تعالج مشكلات واحدة وإن اختلفت حلول كلّ مشكلة . وهذا ينطبق على كثير من فروع المعرفة الأخرى (٢) .

ولما كان الإبداع الفكري هو ثمرة نتاج الأفذاذ من الأفراد، وبالنظر لصعوبات التنقل والاسفار في الأزمنة القديمة ، وسهولة الاتصال بين سكان المكان الواحد ، فقد كان لبعض العلماء تأثير أقوى في التوجيه الفكري للأبحاث في بلدهم ، ومن هنا ظهرت منذ صدر الإسلام تيارات فكرية محلية متمايزة . ففي النحو والفقه وقراءات القرآن مثلاً ، ظهر ما يسمى مدرسة البصرة والكوفة والمدينة ، غير أن الاختلاف بين هذه « المدارس » كان في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات . وبالرغم من تعدد مراكز الحركة الفكرية ، واختلاف بعض أحوالها واتجاهات دراستها ، فان عوامل التوحيد سيطرت على توجيه الكليات فأنتجت هياكل عامة واحدة تضم الجزئيات .

ظفرت مراكز الحركة الفكرية باهتمام العرب وعنايتهم ، فكتبُ معظم المؤلفين في تواريخ الاقاليم والمدن، عن العلم في المكان الذي ألفوا عنه وعن العلماء

(٢) انظر في ذلك كتاب Islam and Integration of Society للأستاذ مونتجومري وات : وكتاب « الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية » الذي أشرف على إعداده فون جرونباوم وترجمه الى العربية الدكتور صدقي حمدي .

الذين ظهروا في ذلك المكان ، وأورد كثير منهم ملاحظات قيّمة عن أسباب ازدهار العلم وعن خصائص الاتجاهات العلمية في ذلك المكان ، وكانت عناية متأخري المؤلفين في هذا النمط من التأليف أكبر ، حتى تكاد تكون مادة كافة الكتب التي عنوانها « تاريخ » المكان الفلاني منصبةً كلها على ذكر العلماء الذين ظهروا في ذلك المكان أو مرّوا بـه [٣] .

وصنّف كثير من الباحثين في علم الرجال والطبقات مادتهم مرتبة بحسَب الأقاليم ، فذكروا علماء كل مصر أو إقليم . وكان علماء رجال الحديث أكثر تأليفاً من غيرهم في هذا الباب ، غير أن عدداً من مؤرخي علماء علوم أخرى اتبعوا التصنيف بحسب الأقاليم ، كالذي فعله ابن أبي أُصَيْبِعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » .

ووردت في كلام عدد من الباحثين عن تطور بعض فنون المعرفة إشارات الى خصائص الحركة الفكرية وعوامل ازدهار الحركة الفكرية فيها . ووردت مثل هذه الإشارات فيما كتب عن فضائل بعض المدن ، أو المفاخرات بين المدن والأقاليم .

غير أن أغلب من درس مراكز الحركة الفكرية ، عني بعموم علماء المكان ، فاختلطت في دراستهم الأحوال الفكرية في عهودها الأولى وعهودها المتأخرة ، وكان أغلب ما ذكروه يصف الأحوال في الازمنة المتأخرة التي كثيراً ما كانت تختلف عما في صدر الاسلام . ثم أن معظم الباحثين أطال في قائمة أسماء الصحابة الذين لهم صلة بذلك المكان ، ولم يميزوا بين من مرّ مروراً عابراً ، أو أقام مدة قصيرة ، وبين من أقام أمداً طويلاً مكّنه من ترك أثر ملحوظ ؛ وبهذا بالغوا من طريق غير مباشر في دور أهل الحجاز في نشاط الحركة الفكرية في صدر الإسلام .

وفي الازمنة الحديثة عُنِيَ بعض الباحثين بمراكز الحركة الفكرية في صدر الاسلام . وكان الرواد في ذلك عدداً من المستشرقين المعنيين بدراسة التطور الفكري ، وقد ردد كثير من باحثيهم حتى العقد الثالث من القرن الحالي أن المراكز الفكرية

---

(٣) انظر في ذلك « علم التاريخ عند المسلمين » للاستاذ روزنثال وقد ترجمته الى العربية .

الرئيسة ، التي كانت عند ظهور الإسلام ، هي الإسكندرية وأنطاكية وحرّان وجُنْدَيْسابور [4]. وذهب الدكتور ماكس مايرهوف ، وهو من ذوي الاطلاع الواسع والاعتدال في التفكير ، الى أن مراكز العلم انتقلت بعد الإسلام من الإسكندرية الى أنطاكية ، ثم الى حران ، حتى أستقرت أخيراً في بغداد [5] .

وقد اعتمد مايرهوف في مقاله على ثلاثة نصوص ، ورد اثنان منها في كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لإبن أبي أصيبعة ، وورد الثالث في كتاب « التنبيه والاشراف » للمسعودي .

فقد ذكر إبن أبي أصيبعة : أن « عبدالملك بن أبجر الكِناني ، كان طبيباً عالماً ماهراً ، وكان في أول امره مقيماً في الإسكندرية ،لأنه كان المتولي في التدريس بها من بعد الإسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم . . ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبدالعزيز ، وكان حينئذ أميراً قبل أن تصل اليه الخلافة ، وصحبه ، فلما أفضت الخلافة الى عمر ، وذلك في صفر سنة ٩٩ هـ ، نقل التدريس الى أنطاكية وحرّان ، وتفرق في البلاد » [6] .

ونقل ابن أبي أصيبعة عن الفارابي قوله : إن النصرانية لما جاءت بطل التعليم من رومية وبقي بالإسكندرية ، وإن الاساقفة اجتمعوا وقرروا إباحة تدريس بعض كتب المنطق مما يمكن الاستعانة به على نصرة دينهم « فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار ، وما ينظر فيه من الباقي مستوراً ، الى أن كان الإسلام بعده بمدة

(٤) انظر مثلا كتاب « علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب » وكتاب « الفكر العربي ومركزه في التاريخ » لديلاسي أوليرى : وقد ترجم الكتاب الأول الى العربية الدكتور وهيب كامل ، وترجم الكتاب الثاني الدكتور تمام حسان .

(٥) هذا الرأي واضح في الفصل الذي كتبه ما يرهوف عن الطب والعلوم ، في كتاب « تراث الاسلام » الطبعة الاولى ، وقد ترجمه الى العربية جرجيس فتح الله ، وكذلك مقاله « من الاسكندرية الى بغداد » وقد نشره في محاضر جلسات الأكاديمية البروسية للعلوم سنة ١٩٣٠ ، ثم نشر الدكتور عبد الرحمن بدوي ترجمتها العربية في كتابه « التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية » . والى هذا المقال نشير في بحثنا الحالي .

(٦) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١١٦/١ .

طويلة ، فانتقل التعليم من الإسكندرية الى أنطاكية ، وبقي بها زمناً طويــلاً الى أن بقي معلم واحد ، فتعلّم منه رجلان ، وخرجا ومعهما الكتب ، فكان أحدهما من أهل حرّان ، والآخر من أهل مَرْو . فأما الذي من أهل مرو ، فتعلّم منــه رجلان ، أحدهما ابراهيم المروزي ، والآخر يوحنا بن حيلان ، وتعلّم من الحرّاني إسرائيل الأسقف وقويري ، وسارا الى بغداد ، فتشاغل إبراهيم بالدين ، وأخذ قويري في التعليم . وأما يوحنا بن حيلان ، فانه تشاغل أيضاً بدينه ، وانحدر ابراهيم المروزي الى بغداد فأقام بها . . » (٧) .

أما المسعودي ، فقال « وقد ذكرنا في كتاب (فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف) الفلسفة وصدورها ، والاخبار عن كمية أجزائها . . وكيف انتقل مجلس التعليم من أثينة الى الاسكندرية من بلاد مصر . . ولأي سبب نقل التعليم في أيام عمر بن عبدالعزيز من الإسكندرية الى أنطاكية ، ثم انتقاله الى حرّان في أيام المتوكل ، وانتهى ذلك في ايام المعتضد الى قويري ويوحنا بن حيلان ، وكانت وفاته في ايام المقتدر ، وابراهيم المروزي ، ثم الى محمد بن كرنيب وأبي بشر متى بن يوسف تلميذي ابراهيم المروزي . . وكانت وفاته ببغداد في خلافة الراضي ، ثم الى ابي نصر محمد بن محمد الفارابي تلميذ يوحنا بن حيلان ، وكانت وفاته بدمشق في رجب سنة ٣٣٩ » (٨) .

يتبين من هذين النصين أنّ مدرسة الاسكندرية لم يكن فيها عند ظهور الإسلام عالم مرموق المكانة إلا عبدالملك بن أبجر ، وهو عربي كِناني ، وأنه بانتقالــه عنها ماتت المدرسة ، وهذا مظهر للضعف والتدهور الذي كانت تعانيه هذه المدرسة من قرون سابقة (٩) .

أما انطاكية ، فكانت قبل الإسلام أكبر مدن الدولة البيزنطية بعد القسطنطينية ، وكانت اهم المراكز المسيحية ، ومن مراكز الثقافة الإغريقية ، غير أنها عانت

(٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/١٣٥ .

(٨) التنبيه والاشراف ١٠٥ — ٦ .

(٩) فصل الدكتور مايرهوف في أول مقاله الذي ذكرناه أعلاه في تدهور مدرسة الإسكندرية قبل الاسلام

كثيراً من الاضطرابات قبيل الإسلام ، فضعفت مكانتها وتضاءل شأنها ، وكانت عند الفتح الاسلامي منغمرة في الدراسات الدينية . وإشارة المسعودي وابن ابي أصيبعة الى انتقال التعليم الطبي والفلسفي اليها من الاسكندرية على يد عبدالملك ابن ابجر في خلافة عمر بن عبدالعزيز ، لم يؤد الى زيادة النشاط الفكري فيها ، بدليل عدم وجود إشارة مّا الى طبيب او فيلسوف ظهر فيها (١٠) .

أما حرّان ، فكانت من أهم مدن الجزيرة ، ويبدو أنها كانت قاعدة هذا الاقليم ، وقد اتخذها مروان بن محمد قاعدة له لما ولي الخلافة . والمسعودي صريح في تحديده انتقال العلم الى حران في زمن المتوكل ، أي أنها لم تكن قبل ذلك مركزاً فكرياً . والواقع أن كلاً من المسعودي وابن ابي أصيبعة يذكر أن العلم بعد انتقاله الى حران في زمن المتوكل كان معتمداً على رجلين فقط ، هما : قويري ويوحنا بن حيلان ، اللذين بانتقالهما الى بغداد انتهى النشاط العلمي في حرّان بعد أن استمر زُهاء اربعين سنة . والواقع انه لم يعرف من العلماء الحرانيين غير ثابت بن قُرّة (٢١٩ — ٢٨٨ ه) الذي انتقل الى بغداد، وكانت له مكانة عظيمة فيها ، واشتهر بالطب والرياضيات والفلك ، كما برز عدد من أولاده وحفدته في بغداد . إن قصر مدة ازدهار العلم في حرّان ، وقلّة من اخرجت من العلماء ، يظهر ضعف الحركة العلمية فيها .

إن النصوص التي أوردناها، تتعلق بالفلسفة ، وقد تتناول الطب أيضاً ، وهما أبرز علوم الإغريق ، ويظهر منها أن دراستها كانت تقوم في مركز واحد ، وتعتمد على شخص أوشخصين ، وينتقل مركز هذه الدراسة بانتقال العالم . فقد كان العلم في الاسكندرية قائماً على ابن ابجر ، ثم انتقل بانتقال ابن ابجر الى انطاكية ، ثم انتقل بعد نحو من خمسين ومئة سنة الى حرّان ومرْو على يد رجل أو رجلين . ولا ريب في أن العلم ، الذي يقوم على شخص واحد ، لا يمكن عدّه مزدهراً ، والواقع أن المعلومات من سبل أخرى تؤيد أن العلم الإغريقي كان

---

(١٠) من أنضج الدراسات عن انطاكية قبل الإسلام هي كتاب « انطاكية » وقد ترجمه الى العربية الدكتور إبراهيم نصحي . وأنظر كذلك كتاب « انطاكية مدينة الله » للدكتور أسد رستم .

قد تدهور وأصيب بالركود والجمود ، فقلّ دارسوه ، وتناقص العلماء فيه ، وندرت كتبه ؛ وأوضح دليل على هذا هو أن العرب لما ازدادت حماستهم في ترجمة كتب الإغريق ، وبذلوا في ذلك بسخاء ، لم يجدوا كتباً كثيرة ، فأرسلوا من يجوب الآفاق ، ويذهب الى بلاد الروم للحصول على هذه الكتب . والمهم في موضوع بحثنا هو أن هذه الأماكن التي عُدَّت مراكز العلم الإغريقي لم يبرز منها عالم عربي ، ولم يعرف عنها نشاط فكري في صدر الإسلام ؛ وهي حقيقة تشير الى أن العلم الإغريقي لم يكن له دور في تنشيط الحركة الفكرية أو توجيهها في صدر الاسلام ، وأن العرب بدأوا يطلّعون على الفكر الإغريقي بعد أن بلغ نشاطهم الذاتي مدىً بعيداً ، وبعد أن رست قواعد العلوم عندهم واستقرت هياكلها .

وكانت السريانية ، وهي لغة وثيقة الصلة بالعربية وقريبة الشبه بها ، شائعة عند أهل بلاد الشام وفلسطين والعراق . فلما دان هؤلاء بالنصرانية بعد ظهورها ، أصبحت لغتهم السريانية تستعمل في الكنائس وفي الأبحاث والمجادلات الدينية .

وأغلب المؤلفات فيها هي كتب في تراجم القديسين والشهداء ورجال الدين ، وأناشيد دينية ، وشروح لبعض عقائد المسيحية ومذاهبها ، وقد ترجمت الى السريانية أو ألفت فيها بعض الكتب في الفلسفة والمنطق تعين في فهم الدين وعقائده ، كما ترجم إليها عدد من الكتب في الطب وبعض العلوم الطبيعية (١١) .

وردد عدد من المؤلفين المحدثين أن أهم المراكز الفكرية للسريانية عند ظهور الإسلام ، هي : الرُّهَا ونَصيبين وحَرّان والحِيرة وجُنْدَيْسابور ، واعتمدوا في اختيار حرّان على ظهور ثابت بن قُرّة فيها ، وفي الحيرة على كون حنين وأسرته منها ، وفي جنديسابور على كونها كانت مقام آل بختيشوع وماسويه (١٢) . والحق أن الأخيرين كانا في جُنْدَيْسابور ، وكان لهما دور كبير في دراسة الطب فيها. أما حرّان ، فان ظهور ثابت فيها لا يكون دليلاً قاطعاً على أنها كانت مركزاً لحركة

(١١) من أوسع الدراسات في الإنتاج الفكري بالسريانية كتاب بومشترك . وكتاب « اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية » للبطريرك اغناطيوس افرام برصوم .

(١٢) انظر ما كتبه الأستاذ أحمد أمين في كتابيه « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » ؛ ولهذين الكتابين أثر بالغ على معظم من ألف من العرب بعد ظهورهما .

فكرية نشطة ، وانما توجد اشارة تدل على ضعف دراسة الطب فيها . فان حنيناً ، وهو أبرز عالم من أهل الحيرة ، درس الطب في جُنْدَيْسابور ثم في بغداد ؛ ويروى أنّ يوحنا بن ماسويه غضب على حنين لسؤال سأله إيّاه حين كان يدرس عليه وقال له : « ما لأهل الحيرة ولتعلّم صِناعة الطب ؟ . عليك ببيع القُلُوس في الطريق ! » . ويذكر القفطي تعليقاً على هذا الخبر « وهذا عمله يوحنا ، لأن هؤلاء الجُنْدَيْسابوريين كانوا يعتقدون أنهم أهل هذا العلم ولا يخرجونه عنهم وعن أولادهم وجنسهم » (١٣) .

يتبين من الدراسات التفصيلية الحديثة المعتمدة ، أن الحركة الفكرية باللغة السريانية كانت قائمة بالدرجة الأولى على رجال الدين الذين كانت مراكزهم الرئيسة في الكنائس والأديرة الكثيرة المنبثة في مختلف أرجاء البلاد في القرى والمدن الصغيرة ، وخاصة في إقليم الجزيرة الفراتية وفي العراق والأهواز .

ومن اللغات التي كانت قبل الاسلام ، « الفهلوية » ، وهي لغة الملوك الساسانيين الذين كانوا في الأصل من اقليم فارس ، ولذا سُمّوا الفرس ، ثم امتد ملكهم فشمل جميع البلاد والأقاليم الواقعة بين نهر الفرات غرباً ، ونهر جيحون شرقاً ، وبذلك ضمت العراق وأقاليم الهضبة الايرانية ، وقد إعتنق ملوكهم الدين الزرادشتي وناصروه .

وقد اشار عدد غير قليل من الباحثين الى أثر الفرس في الفكر العربي ، ومنطلقهم في ذلك من الافتراض بأن الحركة الفكرية كانت مزدهرة فيها ، وأبرز تعبير في ذلك قول الاستاذ أحمد أمين « وقد دامت الدولة الساسانية نحو أربعة قرون خلفت فيها علماً كثيراً وأدباً غزيراً ، وأكثر ما نقل إلينا في العصر العباسي من الأدب والعلم والاساطير والتاريخ . . إنما يرجع الى هذه الأسرة » ويقول أيضاً « قد كان للفرس من قديم علم وأدب يتناسب مع ضخامة ملكهم » (١٤) .

(١٣) تاريخ الحكماء للقفطي ١٧٣ وانظر ابن أبي أصيبعة ١٨٥/١ وانظر أيضاً المقدمة التي كتبها مايرهوف لكتاب العشر مقالات في العين .

(١٤) ضحى الاسلام ١٨٣/١ — ٤ .

وقد ردد مثل هذه الآراء معظم من ألف في تاريخ الفكر العربي، وخاصة في تاريخ الادب =

والواقع ان علوم الفلك والتنجيم ، والطب كانت مزدهرة في العهد الساساني [١٥] وربما ما كان يتعلق بالدين الزرادشتي ، غير أنه يلاحظ أن ما ترجم الى العربية بعد الإسلام اقتصر على عدد قليل من الكتب ، هي كتاب « خداى نامه » ، و « آيين نامه » وبعض رسائل عهود الملوك ، وكليلة ودمنة — وهذا كتاب هندي الأصل — وبعض القصص [١٦] . وهو مقدار قليل ، وفي ميادين محدودة ، علماً بأن الدولة الاسلامية كانت منفتحة لتلقي الأفكار والعلوم المترجمة ، وأنه كان للفرس في صدر الإسلام ، وخاصة في العصر العباسي الاول عدد كبير من المتعصبين المتنفذين .

لم أجد فيما اطلعت عليه من الكتب من يذكر مراكز الحركة الفكرية عند الساسانيين ، غير نص واحد منقول عن كتاب « اختلاف الزيجات » لأبي معشر يذكر « أن ملوك الفرس بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم وحرصهم على بقائها على وجه الدهر واشفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث ، وأبقاها على الدهر ، وأبعدها من التعفن والدروس : لحاء شجر الخدنك ، ولحاؤه يسمى التوز ، وبهم اقتدى أهل الهند والصين ومن يليهم من الأمم في ذلك » . ثم يقول إن « الفرس جعلوا كتبهم في (جيّ) ، وإنهم « جاؤوا الى قهندز هو في داخل مدينة (جيّ) فأودعوه علومهم ، وقد بقي الى زماننا هذا ، وهو يسمى سارويه »

ثم يذكر أن هذه الخزينة بنيت ايام طهمورث ، وانها ظلت مطمورة « ثم تهدم بعضها قبل زماننا بسنين كثيرة . . فظهروا فيها على أزج معقود من طين السفتق فوجدوا فيه كتباً كثيرة من كتب الأوائل ، مكتوبة كلها في لحاء التوز ، مودعة

= العربي ، وفي حركات الشعوبية ، وفي النظم الادارية عند العرب .

(١٥) انظر « طبقات الأمم » لصاعد بن أحمد ١٦ ، «تاريخ سنى ملوك الأرض والانبياء» لحمزة الاصفهاني ١٥٠ — ١٥١ ، « علم الفلك تاريخه عند العرب لنالينو ١٦٨ فما بعد .

(١٦) انظر كتاب «الترجمة والنقل عن الفارسية» للدكتور محمد محمدي وكذلك كتاب « ضحى الاسلام » لأحمد أمين ج ١ ، وكتاب « تاريخ الادب العربي » لبروكلمان ج ٣ /٩٢ فما بعد .
وانظر عن الحركة الفكرية في العصر الساساني كتاب « إيران في عهد الساسانيين » لارثر كرستنسن ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب : ص ٤٠٠ فما بعد .

أصناف علوم الأوائل بالكتابة الفارسية القديمة » ويضيف ابن النديم قوله : « خبرني الثقة أنه انهار في سنة خمسين وثلاث مئة من سني الهجرة أزَج آخر لم يعرف مكانه ، وانكشف عن هذه الكتب الكثيرة التي لا يهتدي أحد الى قراءتها » (١٧) .

غير أن عدم ذكر المصادر مراكزَ للحركة الفكرية المدوّنة باللغة الفارسية ، لا يعني عدم وجودها ، فمن الراجح أن المراكز الدينية وبعض المراكز الادارية كانت فيها آثار للحركة الفكرية ، ولا بد أن تكون المدائن حيث يقيم كسرى واسرته وبلاطه وكبار رجال الدولة ، هي أكبر المراكز الفكرية في العهد الساساني ؛ إلا أن المصادر لم تذكر نصاً : أيّ كتاب ألّف في المدائن ، أو في اية مدينة أخرى ، كما أنها لم تذكر اسم عالم نسب الى مدينة .

وتجدر الإشارة الى أن « الفهلوية » كانت محدودة الاستعمال في جماعات معينة ، وأنه كان بجانبها لغات متعددة يستعمل كلاً منها شعب ممن تحكمهم الدولة الساسانية : كالصغديّة ، والساجية ، والتخاريّة ، والآراميّة ، والسريانية (١٨) .

لا ريب في أن العربية هي اللغة الكبرى في المنطقة ، وهي اللغة المتأصلة في شبه جزيرة العرب ، اللغة التي يتكلم بها العرب ممن أقام في شبه الجزيرة أو هاجر منها . وهي أبرز ما يميز العرب ، وأقوى أساس لوحدتهم وروابطهم الفكرية . والعربية تتميز بمرونتها وقابليتها على الاشتقاق ، وبغنى مفرداتها بالتعابير المتعلقة بمختلف الظواهر وجوانب الحياة : كالإنسان وأعضائه وعواطفه وسلوكه وتنظيم حياته ؛ والحيوان وأنواعه وأجزائه ، والنبات ، والأرض ، والتربة ، ومختلف مظاهر المناخ ، والآلات والأدوات واللوازم المستعملة في حياتهم ؛ وكل هذه المظاهر تظهر مدى دقة ملاحظة العرب وإعمالهم الحواس والفكر في إدراكها وفهمها ، وتشير الى مدى ونطاق معارفهم .

(١٧) الفهرست ٣٠١ – ٢ ، وانظر ايضاً « تاريخ سني ملوك الارض . والانبياء » لحمزة الاصفهاني : ١٤٩ – ١٥٠ ؛ « محاسن اصفهان » للمافرخي : ٩١ – ٩٢ .

(١٨) انظر « ايران في عهد الساسانيين » لارثركرستنسن ص ٤٢ .

والعربية هي اللغة التي نظم بها الشعراء العرب من جميع القبائل . والواقع أن ظهور الشعراء في مختلف مناطق شبه الجزيرة وانتشار الشعر ، وهو « ديوان العرب »[19] بين كل العرب دون الاقتصار على رقعة واحدة أو منطقة محدودة ، هو دليل قاطع على أن هذه اللغة كانت عامة عند العرب وانه شارك في استعمالها ونموها جميعهم ، ولا ريب في أن الأسواق المتعددة التي رددت المصادر أن الشعراء كانوا ينشدون فيها شعرهم ، لا يمكن عدها مراكز ثابتة للحركة الفكرية ، وذلك لأن الأصل في هذه الأسواق أنها مراكز مؤقتة لمبادلة السلع ، وأنها ليست مراكز سكن دائمة للناس ، وأن الشعراء كانت تؤم هذه الأسواق أياماً معدودة ثم ينفضّون ويعود كل منهم الى مقامه الأصلي . ومن المعروف أن عدداً من الشعراء كانوا يؤمّون بلاط ملوك المناذرة في الحيرة ، ولكن هذا مظهر لتشجيع الشعراء ، وليس مظهراً لوجود مركز فكري ينمي الشعر ، والشاعر الحيري الوحيد الذي نعرفه هو زيد بن عدي العبادي . ويلاحظ أن شعراء « المعلقات » هم من مناطق متفرقة في شبه الجزيرة . فمن شرقي الجزيرة ظهر طَرَفة بن العبد ، والحارث بن حِلِّزَة وهما ينتسبان الى قبائل تقيم في البحرين ، وعمرو بن كُلْثوم من تغلب التي كانت تقيم في البحرين قديماً ثم هاجرت الى الأطراف الشمالية من الفرات ، وزهير بن أبي سُلْمَى ، والنابغة الذُّبْياني ، وعنترة العَبْسي من قبائل غَطَفان المقيمة في شمال شرقي الجزيرة ، وامرؤ القيس عاش في البحرين وفي أواسط الجزيرة . ويكاد يكون لكل قبيلة عدة شعراء . وكل هذا يظهر عدم وجود مركز واحد أو مراكز محدودة للنشاط الفكري في شبه جزيرة العرب .

والعربية ، هي لغة القرآن الكريم الذي نزل « بلسان عربي مبين » « قرآناً عربياً غير ذي عِوَج » . والقرآن الكريم يظهر ، بما لا يقبل الجدل ، مكانة اللغة العربية في مكة بالرغم من قلة عدد الشعراء البارزين الذين ظهروا فيها . ويظهر أيضاً أن مكة كانت مركزاً تجارياً نشطاً ، وبلداً آمناً يأوي اليه الناس ، ومكاناً مقدساً يحجّه الناس . غير أن القرآن الكريم يظهر منه أيضاً أن مكة لم تكن مركز حركة فكرية

(١٩) الجاحظ : الحيوان ٧١/١ ، ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ١٤ .

دينية وفلسفية ، وأن معارضة المشركين العنيدة للإسلام اقتصرت على الموقف السلبي أو العنف المادي دون أن يبرز المشركون توضيحاً لعقائدهم أو حججاً للدفاع عن أديانهم ، فضلاً عن أنه لا توجد إشارة الى علماء في الدين الجاهلي .

إن نزول القرآن الكريم ومجيء الإسلام حدث فاصل في تاريخ العرب وتطورهم الفكري ، فقد أكد أهمية المعرفة والعلم ، وحض على الاستزادة منها ، ودعا الإنسان الى استعمال البصر والنظر والعقل والفكر ، لدراسة أحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل ، والى التأمل في ظواهر الدنيا والتفكير فيها ؛ وقدم نظرة كونية ذات سمات معينة ، وبذلك خلق دوافع وحوافز قوية ، وقدم صوراً جديدة ، ووضع إطاراً عاماً لآفاق الفكر ، وحدد هيكلاً فكرياً إسلامياً جديداً صارت فيه معارف العرب وخبراتهم السابقة مجرد مادة أولية في بناء هذا الهيكل .

وقد قضى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بعد بدء نزول الوحي عليه عشر سنوات يدعو الناس الى الإسلام ؛ فأفلحت دعوته في ضم عدد محدود ممن هداهم الله فأسلموا ، وظل أكثر أهل مكة متمسكين بالشرك . ثم هاجر في السنة الثالثة عشرة من الدعوة الى « المدينة » حيث لقي ترحيباً من أهلها ، فأقبلوا على الدخول في الدين الجديد ، وتأسست دولة الإسلام ، وبدأت تتتابع الآيات الكريمة موضحة تعاليم الإسلام ومبادئه ، وعمل الرسول على شرح هذه التعاليم وعلى تعويد الناس الحياة بموجبها . وناصر أهل « المدينة » الرسول واتبعوا دعوته ، وانضم اليهم عدد من العرب من أطراف المدينة فضلاً عن المسلمين من قريش الذين هاجروا معه . وقد قضى الرسول ، صلّى الله عليه وسلم ، كل السنوات العشر التي عاشها بعد الهجرة ، في المدينة ، ما خلا أزمنة قصيرة خرج فيها للغزو أو للحج والعمرة ؛ وكان يشترط على من يسلم الإقامة في المدينة لتسنح له فرصة إشباعهم بمبادئ الدين الإسلامي .

وفي السنة الثامنة من الهجرة تم فتح مكة وضمها الى دولة الإسلام ، فزال منها الشرك ، ودخل أهلها في الإسلام ؛ فعاملهم الرسول معاملة كريمة ، وولّى عليهم رجلاً منهم ، هو عتّاب بن أسيد ، واستعمل كثيراً من رجالهم ، فقدروا ذلك ،

وتمسكوا بالإسلام فلم يرتدوا بعد وفاته ، واختار أبو بكر عدداً من رجالهم لقيادة الجيوش الإسلامية التي قضت على الردة ، ثم نهضت بالفتوح. ومكة هي البلدة التي بدأت فيها الدعوة الاسلامية وظلت سنواتها العشر الأولى ، وهي التي توجهت اليها قبلة المسلمين في الصلاة ، وهي مركز الحج ، كما أنها هي البلدة الوحيدة التي كان منها أول المسلمين الذين ظلوا مع الرسول وهاجروا معه ، ولابد أنهم أعادوا بعد فتح مكة علاقتهم باهلها .

وعلى أثر فتح مكة أقبلت الى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الوفود من مختلف أرجاء الجزيرة ، تبايع الرسول ، وتعلن باسم عشائرهم الإسلام والإنضمام الى دولته التي اتسعت بهذه الطريقة السلمية ، حتى أصبحت تشمل الجزيرة العربية كلها ، وأصبح كل العرب مسلمين تقريباً ، يقرون بعبادة الله الواحد الأحد ، ويعترفون بشرائعه ومثله . وقد عمل الرسول على تفهيمهم الدين ، فكان يرسل الى القبائل معلمين ، ولكن كثرة عدد من انضموا الى الاسلام كانت أوسع من أن تمكن الرسول ومن أرسلهم من المعلمين ، على أن يتشبع الناس بمبادئ الاسلام ؛ وبذلك ظلت للمهاجرين والأنصار مكانتهم الخاصة من حيث طول مدة مرافقتهم الشخصية للرسول ، وتشبعهم بتعاليم الإسلام ومشاركتهم في الأحداث التي ساعدت على تثبيت مبادئه وتوطيد دولته .

وقد استطاع أبو بكر أن يقضي على الردة التي نشطت في الجزيرة واستهدفت تحدي سلطة الدولة أو رفض الإسلام ، وبذلك أعاد الى الجزيرة وحدتها في ظل دولة الإسلام . وأصبحت كلمة الله هي العليا ، وشرائعه هي المُثُل العليا للناس .

ثم خرجت الجيوش من الجزيرة لتوسيع الدولة الاسلامية ، وافلحت في مدة لا تزيد على ربع قرن من خروجها ، في مدّ دولة الإسلام الى نهر جيحون شرقاً ، والى اطراف القفقاس شمالاً ، وإلى تونس غرباً . وتابعت توسعها في العهد الأموي حتى أصبحت في نهاية القرن الأول تمتد الى المحيط الأطلسي والبرانيس غرباً ، والى أطراف بلاد الصين شرقاً . واصبحت هذه البلاد الواسعة مجموعة في دولة واحدة ، على رأسها خليفة واحد ، ولها قاعدة واحدة . وقد أنهى قيام الدولة

الإسلاميـــة الحروب الطويلة التي كانت بين الفرس والروم وما أدت اليه من قلق ودمار وخاصة في العراق وبلاد الشام ، وأصبحت ميادين القتال محصورة فـــي الأطراف الشمالية من بلاد الشام والجزيرة . أما بقية البلاد ، فقد عمّها الأمـــن والنظام والاستقرار ، وأزيل كثير من الحواجز والقيود المعرقلة لحركة الناس والتجارات واتبعت الدولة الجديدة سياسة أباحت فيها للناس حرية العمل والتنقل والتفكير ، وأوجدت ظروفاً وأحوالاً ساعدت على نمو النشاط الفكري ، فازدهرت جوانـــب متعددة من الفكر ، وشاركت أعداد كبيرة من الناس في تنشيط الحياة الفكرية ونموها . واستقر هذا النشاط في مناطق محددة ، تساعد دراستها على فهم بعض عوامل الازدهار ، وتصلح كثيراً من الافكار الخاطئة المنتشرة عنه .

لقد ذكرنا أن الاسلام عمّ ، في آخر حياة الرسول ، جزيرةَ العرب ، فأصبح أهلها مجموعين في دولة واحدة ، يدينون بدين واحد ، وأن الخليفة الأول أبا بكر الصديق بعد أن قضى على الردة ، وجه الجيوش الى أطراف الجزيرة لمقاتلة الروم والفرس وتوسيع الدولة . وكانت جيوشه من جميع قبائل العرب ، ما عدا المرتدين ، فانه لم يستعن بهم ، فلما ولي عمر أباح للمرتدين السابقين الانضمام الى الجيوش العربية . وبذلك أصبحت هذه الجيوش تضم العرب يجمعها هدف واحد تتفهمه وتعمل على تحقيقـــه ، وهو ترسيخ الدولة وتوسيعها ، وصيانة أهـــدافها ومثلها ، مما هو من مصلحة الجميع .

أباحت الدولة للعرب الانضمام الى جيوشها ، فانضمت الى هذه الجيوش أفراد وجماعات من جميع القبائل العربية المقيمة في مختلف ارجاء الجزيرة ، فكان في كل جبهة جند من مختلف هذه العشائر .

وبعد أن تمت الانتصارات الحاسمة الأولى على الروم والفرس ، اهتم عمر بن الخطاب بإنشاء قواعد للإقامة الدائمة للمقاتلة العرب وأسَرِهم ، ووضع لاختيار مواقع هذه القواعد شروطاً راعى فيها أن تلائم أحوال العرب وحاجات الـــدولة والأحوال العسكرية القائمة حينئذ . فاشترط أن يكون كل منها على طرف الصحراء ، لا يفصل بينها ماء ، وأن يكون مناخها صحراوياً جافاً . وكانت هذه القواعد ،

وتسمى الأمصار ، ستة ، هي : المدينة (في الحجاز) ، وجُواثا (في البحرين) ، والجابية (في بلاد الشام) ، والبصرة والكوفة (في العراق) ، والفُسطاط (في مصر). والثلاثة الاولى مدن عربية كانت قائمة ومزدهرة منذ القديم . أما الثلاثة الأخرى ، فهي جديدة . ثم اقتضت الأحوال إلغاء جواثا والجابية ، وإنشاء القيروان (في تونس).

كانت هذه الامصار قواعد للإقامة الدائمة للمقاتلة العرب وأُسَرِهم ، ومراكز لاقامة الولاة وما يرتبط بهم من دواوين ، فهي تتميز عن المدن العربية الأخرى بكون كل منها مقام مقاتلة ومركزاً اداريا لمقاطعات وأقاليم واسعة . كما تتميز عن المدن الأعجمية بكون اهلها من العرب المسلمين ، وبأن تنظيمها وإدارتها متكيفان بهذين المؤثرين القويين .

وقد قسمت أرض كل من هذه الأمصار الى خطط تقيم في كل منها قبيلة أو عشيرة لها عريف يشرف على شؤونها ، ومسجد يصلي فيه أفرادها . فكان أفراد كل عشيرة متقاربين في المسكن ، الأمر الذي يزيد قوة الإتصال بين أفراد العشيرة غير أن الأحوال الجديدة الناجمة من قيام السلطة العليا المركزية ، وانتشار الأمن ، وازدهار الحياة المدنية ، ساعدت على تنمية العلاقات بين الأفراد من مختلف العشائر ، ثم تطورت الى اعتزاز أهل كل مصر بمصره ، وتعصبه له ، وتفضيله على الروابط القبلية [20] .

وقد تميز كل مصر من هذه الأمصار بالبساطة العمرانية : ففي كل منها مسجد جامع واحد يتسع لجميع أهل المصر ، وبلصقه دار الامارة وبيت المال والدواوين. وللجامع وظائف متعددة ، ففيه تقام الصلوات الخمس وصلاة الجمعة ، وفيه يجتمع الناس للتحدث والتعامل ، فهو كالندوة العامة .

وقد تطلب التوسع الكبير ، الذي حدث في رقعة الدولة وإدارتها بعد خلافة عمر ، إحداث قواعد جديدة للعرب ، ففي الهضبة الإيرانية مُصِّرت قزوين والري وأردبيل [21] ، أي سكنت كل منها مقاتلة من العرب ، وجُعلت مركز إدارة ، كما

---

(٢٠) انظر في ذلك كتابي « التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية في البصرة » .

(٢١) فتوح البلدان للبلاذري ٣٢٢ ، ٣٢٩ .

سكنت قوات عربية في همدان واصفهان وقم والكَرَج ، وبعض مدن اقليم الاهواز وفارس وفي خراسان نقل خمسون ألف من المقاتلة العرب مع أسرهم واسكنوا مرو ونيسابور وطوس وهراة ومروالروذ وبلخ (٢٢) وفي الأندلس أسكن العرب قرطبة ، واشبيلية ، وجيان ، وريّة ، ومالقة ، وشذونة وتدمير (٢٣) .

ولعل أوسع التبدلات ، هو ما حدث في بلاد الشام والجزيرة ، لأن هذين الإقليمين كانا متاخمين للروم ومعرضين لتهديدهم ، ولذلك وزعت المقاتلة العرب في عدة مراكز : بعضها رئيسة كحمص وفِلَسْطين والأُرْدُنّ والرُّها والمَوْصِل وحَرّان ، وبعضها فرعية كالمراكز المتعددة ، التي اتخذت على سواحل البحر المتوسط ، أو على طول الحدود الشمالية التي تفصلها عن بلاد الروم (٢٤) .

وبسبب غزارة الأمطار ، أو برودة المناخ ، ووفرة البيوت ، أُسكن المقاتلة العرب في مدن مشيدة قديمة ، بجنب سكانها القدماء . وقد رويت لنا شروط صلح عدد من المدن ، منصوص فيها على ان للعرب نصف المنازل أو رُبعها (٢٥) .

يتبين مما سبق أن العرب الذين خرجوا من جزيرة العرب مع الجيوش للفتوح في صدر الإسلام ، استوطنوا في أماكن يمكن تصنيفها صنفين رئيسيْن : الصنف الأول مدن قديمة ، إستوطن فيها العرب مع أهل البلاد القدماء ، وذلك مثل مدن بلاد الشام والجزيرة ، والهضبة الإيرانية وخراسان وبلاد ما وراء النهر والأندلس . وكانت للعرب تنظيمات خاصة لم يحاولوا فرضها على أهل المدن الذين ساكنوهم والذين ابقيت لهم تنظيماتهم . غير أننا لا نعلم كيفية توزع مساكن العرب في مدن هذا الصنف ، ما عدا مدناً قليلة كدمشق ، ومرو ، وجُرجان ، ونيسابور ، إذْ تدل حصيلة المعلومات المتفرقة أن العرب كانوا يقيمون في الغالب في أطراف

---

(٢٢) انظر مقالتنا « استيطان العرب خراسان » المنشور في مجلة كلية الاداب ٣/٣٠-٨٦ .

(٢٣) انظر نفح الطيب ٢٢٢/١ المقتبس ٥٧ وانظر « فجر الإسلام في الاندلس » للدكتور حسين مؤنس ص ٣٥٥-٣٧٧ .

(٢٤) ضم كتاب « فتوح البلدان » للبلاذري اشارات كثيرة الى ذلك .

(٢٥) انظر عن هذا الشرط في صلح طبرية : فتوح البلدان ١١٥ تاريخ اليعقوبي ١٥٩/٢ الطبري ٢١٥٩/١ ، وفي صلح دمشق فتوح البلدان ١٢٢ وفي صلح حمص فتوح البلدان ١٣٠، ١٣٧

كل مدينة ، ما عدا الوالي وموظفي الإدارة وعدداً من الأعيان الذين يقيمون في داخل المدينة .

أما الصنف الثاني والمدن التي أنشأها العرب وتميزت بسيادة العروبة والإسلام فيها ، واحتفظت بهذه الميزة بالرغم من هجرات الأعاجم إليها واستقرارهم فيها بأعداد متزايدة . والواقع أن هذه المدن الأمصار كانت لها خصائص تميزها عن بقية المدن العربية والأعجمية التي كانت منتشرة في مختلف أرجاء الدولة ، فهي تتميز عن المدن الأعجمية بسيادة العرب وثقافتهم وبالإسلام ، كما أنها تتميز عن بقية المدن العربية بالعطاء الذي كان يوزع على أهلها وما يصحبه من النتائج الاقتصادية الناجمة عن توزيعه .

اقتصرت الحركة الفكرية طوال العصور الاسلامية على الأماكن التي توطنها العرب دون غيرها . اما الأماكن التي لم يستوطنها العرب فلم يعرف فيها نشاط فكري كبير بالرغم من الحرية الواسعة التي وفرها العرب والتسامح الكبير الذي أبدوه ، وخاصة فيما لا يمس أسس العقيدة الاسلامية (٢٦) .

إن جمود الحركة الفكرية في المراكز التي لم يتوطنها العرب ، لا يمكن إرجاعه الى أية محاولة قام بها العرب لاضطهاد الإنتاج الفكري بغير العربية ، والدليل على ذلك بقاء عدد من مراكز الدراسات باللغات الاعجمية ، كجنديسابور وحرّان والعدد الكبير من الأديرة ، بالرغم من أن هذه المراكز تدهورت تدهوراً ملحوظا ، وتحول أطباء جنديسابور وعلماء النصارى الى الكتابة والتأليف بالعربية التي دُوّن فيها أروع إنتاجهم الفكري .

ثم إن جمود الإنتاج الفكري الذي ترجع بداياته الى قرون سبقت ظهور الإسلام لا يمكن ارجاعه في حالة الفكر الاغريقي ، الى هجرة العلماء المؤلفين بغير العربية ، من البلاد الاسلامية الى بلاد الروم والقسطنطينية التي ظلت مركزاً للثقافة الإغريقية ؛ ذلك أن الروم لم ينعشوا الدراسات بالاغريقية بعد الإسلام أكثر مما انعشها وقدّمها العرب بعد أن ترجموا كتب الإغريق الى العربية . ثم إن تسويغ الجمود بهجرة

(٢٦) يشذ عن ذلك جنديسابور وعدد من الأديرة المسيحية التي ظلت مراكز للتأليف .

العلماء ، لا يمكن بأي حال أن ينطبق على الثقافة البهلوية الفارسية التي آلت كل دولتها الى العرب ، فلم يبق لعلمائها إلا أن يبقوا في الدولة الجديدة ، ومع هــذا لم يشاركوا في الانتاج فيها بالرغم من وجود المتعصبين لها .

لم يكن نشاط الحركة الفكرية واحداً في جميع الأماكن التي توطنها العرب ، فقد تأخر ظهوره في الأماكن القديمة التي ذكرنا أن العرب توطّنوا فيها مع السكان القدماء لأهل تلك الأماكن ولعل من البديهيات أن يقال إن الحركة الفكرية فــي صدر الإسلام نشطت أولاً في المدينة ودمشق[٢٧]،والبصرة والكوفة ، ثم في بغداد والفسطاط والقيروان ، أي في الامصار العربية التي أنشأها العرب ، واتخذوا منها مقراً لمقاتلتهم ومراكز لادارتهم . ولا ريب في أن تركّز الحركة الفكرية في هذه الأماكن ، أدى الى أن تنصب عنايتها ، بالدرجة الأولى على القضايا التي تحظى باهتمام العربو تتصل بالإسلام ،وهما أبرز سمات سكان هــذه الأمصار ، أما « علوم الأوائل » ، فقد كانت « علوماً دخيلة » ، جاءت متأخرة لتأخذ مكانتها ضمن النطاق اللغوي والفكري العام الذي صاغه رجال القرنين الأول والثاني .

إن جمود الحركة الفكرية في الأماكن الأعجمية الخالصة، ونشاطها في الأماكن التي ساد فيها العرب لغتهم ودينهم تكون دليلاً ينقض مُدّعَى بعض من زعــم أن حَمَلَة العلم في الإسلام من الأعاجم ؛ وأن الموالي ، وهم من غير العرب ، قام عليهم العلم وازدهاره وتوجيهه ؛ إذ لو صح ذلك لكان حرياً ان يزدهر في الاماكن التي يسود فيها الأعاجم ، وأن يكتب بغير العربية . علماً بأن الدراسة الدقيقة لهوية العلماء الأولين واهتماماتهم تظهر أن أغلبهم من العرب ، وأنهم عنوا بدراســة ما اهتم به العرب من جوانب فكرية ، وأن دور الموالي ثانوي في كميته وفي نوعيته .

ذكرنا أن الحركــة الفكرية تركّزت في صدر الإسلام في أمصار محــددة اشتركت بخصائص ميزتها عن غيرها ، وهذه الخصائص هي أن الغالبية العظمى السائدة من سكانها هم العرب ، من مختلف القبائل والعشائر ، وانهم كانوا جميعاً مسلمين مؤمنين بالله الواحد الأحد، وممجدين مثله وتعاليمه ، يضاف الى ذلك أن

---

(٢٧) لا ريب في أن دمشق والمدينة قديمتا التأسيس .

كلاً من هذه الأمصار كان مقر الوالي ، ومركز الادارة ، فهو مسؤول عن الأمن والنظام في البلاد والأقاليم المرتبطة به ، والتي ترسل جباياتها اليه ، فيدفعها في عطاء السكان . وكانت هذه الخصائص الثلاث : العروبة ، والإسلام ، والإدارة ، الجوانب الأساسية التي لقيت عناية كبيرة ، وأهتم بها الناس في الامصار ؛ ثم ما لبثت أن ظهرت بجانبها اهتمامات خاصة بكل مصر .

فأما العناية بالعربية ، فَمَرَدُّها الى مكانة اللغة العربية عند أهلها ، وغناها في المفردات ، واستيعابها ثقافة العرب وأفكارهم ؛ ثم جاء القرآن الكريم فعززها بنزوله بها ، وإطرائه مكانتها ، فازدادت تأثلاً وارتفعت مكانة . ولما كان الشعر « ديوان العرب » ومستودع أفكارهم وعواطفهم وأخيلتهم وأمجادهم منذ العصر الجاهلي . فقد ظلت له مكانته عنـــدهم جميعاً [٢٨] ، فظهر في كل مصر عدد من الشعراء ، وتابع أهل كل مصر العناية بالشعر وإنشاده وحفظه . ثم امتدت العناية الى دراسة اللغة : معانيها ، وتراكيبها ، ونحوها ، وصرفها .

وأما العناية بالاسلام ، فمرجعها الى دوره العظيم في إيقاظهم وتوحيدهم وتوجيههم وتمكينهم من تحقيق المكانة الكبيرة التي نالوها بعد إيمانهم به وانضمامهم إلى دولته. ولما كان القرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام وشرائعه ، فقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون بنشره في الناس وتعليمهم قراءته ؛ وبذلك عمت قراءة القرآن الأمصار كافةً . وليس من باب المصادفة أن تكون أول قضية فكرية خطيرة هي ضبط قراءته وتقرير مُصْحَفه . غير أن جمع الخليفة عثمان بن عفان القرآن وتثبيت قراءته ، وتعميم مصحفه لم ينه دراسة القرآن ، فقد استمرت عنايـــة الناس به ، والتعمق في دراسة رسمه ومفرداته ومعانيه وأسلوبه وأفكاره ، وبرز في كل مصر علماء تميّزوا على غيرهم بالمعرفة ، واختص كل منهم باراء وأفكار .

(٢٨) « الجاحظ : الحيوان ٧١/١ ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ١٤ ويروي ان عمر بن الخطاب قال « كان الشعر علم القوم ، لم يكن لهم علم أصح منه » (ابن سلام : طبقات فحول الشعراء) ويروي السجستاني عن ابي مجلز « لولا أن عثمان كتب القرآن لألفيت الناس يقرأون الشعر » (المصاحف ١٣)

وأنظر ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ١٠٧ فما بعد ، ١٥٢ ، ١٩٤ .

وثالث الميادين التي لقيت اهتمام الناس في جميع الامصار ، هو الآراء المتعلقة بالسياسة والإداره وانعكاساتها على الدين ؛ ومظهرها الخلافات السياسية ، وظهور الفرق وأهل الآراء ، وقد ظهرت في عدد من الأمصار ، وامتد بعضها الى عدة أمصار .

كانت للمدينة مكانة خاصة في الحركة الفكرية في صدر الاسلام ، ففيها تأسست دولة الإسلام ، واستقرت فرائضه ، واكتملت تعاليمه ، وأهلها صحابة الرسول الذين رافقوه وناصروه ، وقاتلوا معه دفاعاً عن الإسلام وتثبيتاً لكيانه وتوسيعاً لدولته ؛ وقد ساعدهم طول صحبتهم على تفهم مبادئ الإسلام وتشرب روحه . ولما توفي الرسول كان لهم الدور المباشر في انتخاب خليفته في بلدهم ؛ وقد ثبتوا على الولاء للإسلام ، وشاركوا في القضاء على الردة ، فثّبتوا كيان الدولة التي مركزها مدينتهم ، وكانت المدينة مقر الخلفاء الراشدين الثلاثة الأولين ، أقاموا فيها طوال بقائهم في الخلافة ، يحيطهم الصحابة من أهلها فيسدون لهم المشورة والنصيحة ، فكان اطلاعهم على ما تواجهه الأقاليم من مشكلات واسعاً ودورهم في تقديم الحلول وفي التوجيه الإداري والسياسي كبيراً ، ومعرفتهم بسُنّة الرسول صلى الله عليه وسلم ، «وهي كل ما قاله الرسول أو فعله ، أو رآه فأقرّه أو لم ينكره » واضحة شاملة لأن فيها تعبيراً عن ممارستهم وأعمالهم ، وقد انتقل بعض أهل المدينة الى الامصار فأقاموا فيها ، وعملوا على نشر علمهم . ولكن عدد هؤلاء « المنتقلة » قليل إذا قورن بمن ظل مقيماً فيها ، وانتقل كثير من علمهم الى أولادهم والطبقة التالية لهم من التابعين .

وفي زمن الأمويين ، انتقل مركز الخلافة الى دمشق ، فبَعُدَ الخلفاء عن اهل المدينة وقلّ الاتصال بهم ؛ ولم تظلّ المدينة المركز السياسي للدولة . ولكنها ظلت مركز الأعلام من الصحابة والتابعين العارفين بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته . وقد عمل الخلفاء الأمويون على إبقاء صلتهم وثيقة بأهل المدينة ، ولم يتأثروا ببعض الثورات التي قامت فيها على الأمويين ، فظلوا يغدقون على اهلها العطاء ويجزلون لرجالها الهبات ، ويرحبون بوفودها في الشام . ومن المعلوم أن الخليفة

الأموي الأول ، معاوية بن أبي سفيان ، عاش ردحاً من الزمن في المدينة ، وأن كلاً من مروان بن الحكم وابنه عبدالملك وَلِيا المدينة عدة سنوات . فانتقال مركز الخلافة إلى الشام أبعد عن المدينة الخلافة ، وخفّف عنها التدخلات السياسية المحتملة ، مما ساعد على أن يكوّن أهلها نظرة إسلامية شاملة ، غير خاضعة لتيارات سياسية محددة ، وظلوا مركز إشعاع فكري موجّه ، ومرجعاً للناس من مختلف الأمصار لمعرفة ما يتصل بعلوم الإسلام ، وخاصة سُنّة الرسول والعبادات والمعاملات ، أي الفقه ؛ كما ان علم السيرة وتدوين أخبار الرسول وأعماله وتاريخه بدأ ونما عندهم حتى وصل الى أوجه عند ابن اسحق والواقدي ، وكلاهما من أهل المدينة [٢٩] .

أما الشام ، فقد كانت لها في صدر الإسلام أوضاع خاصة تؤثر في حياة أهلها. فعندما ضمها العرب إلى دولتهم ، كانت فيها مدن وموانىء كثيرة ، في كل منها صناعة مزدهرة أو تجارة نشطة ، ولبعض هذه المدن تنظيم إداري خاص ، وهي مقسمة أربعة أجناد : دمشق ، وحمص ، والأردن ، وفلسطين ؛ وكل جند وحدة إدارية .

وبلاد الشام متصلة من غربيها بالصحراء ، حيث تقيم قبائل عربية كثيرة ، مثل كلب ولَخْم وجُذام وغسّان وسليح ، انضمت الى الإسلام وحاربت مع جيوشه وظهر فيها رجال شاركوا في الحركة الفكرية قبيل الإسلام . ومن المعروف أن مُدَوّنة جستنيان في الفقه الروماني أعدها فقهاء من أهل بيروت ، كما أن للنصارى في الشام بعض المفكرين ، من أعيانهم يوحنا الدمشقي ، وثيودور أبو قرّة .

وقد استقر في بلاد الشام بعد ضمها الى دولة الإسلام جيش كبير العدد أغلبهم ممن جاء من اليمن والحجاز ، بالإضافة الى القبائل التي كانت في أطراف بلاد الشام. غير أن بلاد الشام كانت معرضة لتهديدات الروم من اطرافها الغربية والشمالية ، ولم يُنه انشاء المسلمين أسطولاً في البحر المتوسط ان يكفل سيادة العرب

(٢٩) أنظر ابن سعد ١١/٤ ، حلية الأولياء ٩٤/٢ فتوح البلدان ٤٥٦ وانظر عن دور القراء السياسي كتاب التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ٥٦ — ٥٨ .

في البحر فقد ظلت أطرافها الشمالية مهددة بالأخطار ؛ الامر الذي حمل ولاة الأمور الى توزيع القوات العربية في اماكن متعددة على السواحل ، وفي الداخل . وقد القي على هذه القوات واجب الدفاع عن حدود الدولة والقيام بالحملات على بلاد الروم . فشغلتهم هذه الحروب عن الاهتمام بالأمور الفكرية . وقد اشار الى ذلك البستي بقوله « وإنما وقـع جلّة أهل اليمن من التابعين بالشام ومصر ، فسكنوها ثم استوطنوها ، حتى لقد نزل بحمص وحدها من سكسك (السكون؟) وسكاسك قبيلتين من اليمن زهاء ألف نفس ، إلا أن أكثرهم اشتغلوا بالغزوات وبالعبادات ، فلم يظهر كثير علم ، اذهم أهل سلامة وخير ، كانوا لا يشتغلون بما يؤدي الى التنوّق من العلم ، وآثروا العبادة عليه » (٣٠) . إن هذه الملاحظة تؤيدها دراسة قيمة نشرتها حديثاً الدكتورة ملك أبيض عن حركة العلم والعلماء في بلاد الشام إبّان القرون الثلاثة الأولى معتمدة على ما ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر ، وهو كتاب فيه أوسع المعلومات عن المعنيّين بالعلوم الدينية واللغوية والتاريخية في بلاد الشام عامة ودمشق خاصة .

تظهر دراسة الدكتورة ملك أن ابن عساكر ذكر اسماء خمس مئة عالم وثمانية علماء من القرن الأول ، وتسع مئة عالم وواحد وخمسين عالماً من القرن الثاني ، وست‌مئة عالم وأربعين عالماً من القرن الثالث ، وأغلب هؤلاء العلماء كانوا من العرب فقد كانت نسبة الموالي في القرن الأول ٨ر٢٪ وفي القرن الثاني ٤ر١٨٪ ، وفي القرن الثالث ٣ر٧٪ ، ومعظمهم كانوا من أهل دمشق » اذ كانت نسبتهم الى المجموع العام من العلماء ٥٨٪ ، ثم ارتفع في القرن التالي الى ٧٢ ٪ (٣١) .

وتتميز دمشق بكونها أصبحت في العصر الأموي مقر الخلافة ، فَصِلَتُها بالخلفاء أوثق ، وأثرها في الإدارة العامة أقوى ، ومواردها المالية أكثر . والواقـع أن لبَعض الخلفاء الأمويين دوراً شخصياً في تنشيط الحركة الفكرية فقد كان معاوية يُعْنَى بسماع أخبار الماضين ، ويروى أنه استقدم عبيد بن شرْيَة ليروي

(٣٠) مشاهير علماء الأمصار ١٢٥

(٣١) « صورة كمية للنشاط الفكري والتربوي في بلاد الشام في القرون الثلاثة الأولى » فصل من كتاب « إبن عساكر » ٧٢١ – ٧٦٢ .

له أخبارهم ؛ ويقال إنه أمره بتدوينها ، [٣٢] وخالد بن يزيد ، وان لم يرق الى الخلافة ، عُني بالصنعة والكيمياء ، وعبدالملك بن مروان كان ذوّاقة للشعر معيناً بالعربية [٣٣] ، وهو الذي أمر بتعريب الدواوين ؛ وعمر بن عبدالعزيز هو الذي أمر بتدوين السُنّة [٣٤] ؛ وهشام بن عبدالملك ظهر في زمنه كبار الكتاب والمترجمين من الفارسية (عبدالحميد الكاتب ، وسالم ، وابن المقفع) فضلاً عن كبار الفقهاء والشعراء ؛ والوليد بن يزيد حرص على جمع شعر العرب وتدوينه [٣٥] .

وقد انصب أكثر اهتمام أهل الشام على قراءة القرآن وتفسيره ، والفقه ، والحديث وظهر فيهم بعض الاهتمام بجوانب من علم الكلام [٣٦] .

أما مصر ، فقد كانت قاعدة الحركات الحربية في شمالي أفريقية وفي غزو البحر . ولعل هذا من عوامل تأخر ظهور الحركة الفكرية فيها ، فإن الذهبي في كلامه على يزيد بن أبي حبيب الفقيه (ت١٢٨) ، يقول : « قال أبو سعيد ابن يونس : وهو أول من أظهر العلم والمسائل والحلال والحرام بمصر ، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن ، وروى همام عن أبي قبيل وموسى بن وردان والعلاء بن كثير قالوا : يزيد أول من سنّ العلم بمصر ، وكانوا إنما يتحدثون بالفتن والملاحم والترغيب [٣٧] .

أما القيروان ، فان ابن العذارى يذكر أن اسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر كان « حريصاً على دعاء البربر الى الإسلام ، حتى أسلم بقية البربر بأفريقية

---

(٣٢) انظر : مروج الذهب للمسعودي ٣/٣١٠ ، البيان والتبيين للجاحظ ١/٣٣٣ ، ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ١٩٩ .

(٣٣) الحيوان ٥/١٩٤ ، العقد الفريد ٦/١٢٤ ، وانظر عن مساءلته عروة بن الزبير عن بعض اخبار السيرة : الطبري ١/١٢٨٤ ، ١٦٣٤ ، وانظر عن حبه للعلم ابن سعد ٥ — ١ / ١٦٧ ، ١٧٤ .

(٣٤) أنظر : ابن سعد ٢ — ٢/١٣٤ ، ٨/٣٥٣ ؛ تقييد العلم ١٠٥ .

(٣٥) الفهرست ١٠٣ تذكرة الحفاظ ١/١١٢ .

(٣٦) انظر : « الحياة العلمية في الشام » لخليل داود الرزو .

(٣٧) الذهبي : تاريخ الاسلام ٥/١٨٤ — ٥ تذكرة الحفاظ ١/١٢٩ وانظر الفصل الذي كتبته الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف عن الحركة الفكرية في مصر في كتابها « مصر في فجر الإسلام» ص ٣١٤ فما بعد .

على يديه في دولة عمربن عبدالعزيز ،وهو الذي علّم أهل أفريقية الحلال والحرام، وبعث معه عمر رضي الله عنه عشرة من فقهاء التابعين ، أهل علم وفضل ، ومنهم عبدالرحمن بن نافع ، وسعيد بن مسعود التجيبي ، وغيرهما » (٣٨) .

أما العراق ، فهو إقليم غنيّ ، متصل بشبه جزيرة العرب ، ليس بينهما حاجز طبيعي يعوق الهجرات وحركات الناس بينهما ؛ والواقع أن أهل الجزيرة كانـوا منذ أقدم الأزمنة يؤمّون العراق للامتيار او السكنى ، بأعداد قليلة أو مجموعات كبيرة ، ولذلك غلب أهل الجزيرة فيه ، وتركوا فيه آثاراً أقوى مما تركوا في الأقاليم الأخرى ، وكان منهم من استقر في الأرياف والمدن ، ومنهم من ملأ بواديه الغربية والوسطى وكوّنوا فيه دولاً قامت بدور سياسي وحضاري كبير . وكانت حياة أهل البوادي ونظمهم في العراق تشبه كل الشّبه ما لقبائل الجزيرة من نظم وأساليب في الحياة . وأبرز هذه القبائل : إياد ، وديارها بين دجلة والفرات في أطراف تَكْرِيت والحَضْر ؛ وتغلِبُ في أعالي وادي الفرات ، وتَنُوخ في أطراف الأنبار والحِيرة ، وبكر في أدنى وادي الفرات بين الحِيرة والخليج العربي . وقد احتفظ أهل البوادي خاصة بنظمهم العربية إبان الحكم الساساني ، وكانت لهم دولة المناذرة تحميهم وترعاهم ؛ ولا يوجد دليل على أخذهم النظم الساسانية أو أديانها .

وقد قام العرب ، ولا سيما من قبائل بكر ، بعدة حركات في أطراف العراق الغربية ، فلما ولي عمر بن الخطاب الخلافة ، أرسل إمدادات واسعة ، فانتصروا على الفرس وحرروا العراق من حكمهم ، وعززها بقوات أخرى ، حررت جنوب العراق وتعاونت القوتان فضمتا الهضبة الايرانية الى الدولة الاسلامية . ومَصّر عمر بن الخطاب الكوفة والبصرة ، لتكونا قاعدتين للمقاتلة العرب وعيالاتهم ، ومركزين لإدارة الأقاليم . وكانت مُنْجزَات أهل الكوفة في خلافة عمَر أعظم وأكبر ، إذ دحـروا الجيوش الفارسيـة الكبرى ، وضمـوا العـراق وبعض الجزيرة والأقسام الشمالية من الهضبـة الايرانيـة . أما أهـل البصرة . فقـد أتموا تصفيـة الحكم الساســاني في جنوبي العـراق والأهواز ، ثـم أكملوا في

(٣٨) البيان المغرب لابن عذارى ٤٨/١، ابن ابي العرب طبقات أفريقية ٢٦ .

خلافة عثمان فتح جميع أقاليم وسط الهضبة الإيرانية وجنوبيّها وأوصلوا حدود الدولة إلى خراسان .

وكان عدد أهل الكوفة في بداءة تأسيسها كبيراً ، وهم من بكر وتميم ، وبني عامر ، وغَطَفان ، وأسد ، وطيّء ، ومن القبائل اليمانية ، ومن القبائل الحجازية .

أما أهل البصرة ، فكانت عشائرهم من بكر ، وتميم وعبدالقيس وأزْد عُمان ، وعدد من القبائل الحجازية . وقد استمرت هجرات القبائل العربية الى هذين المصرين اللذين ظلت صلتهما بالجزيرة أوثق منها بالأمصار الأخرى .

وفي أوائل العهد الاموي نقلت أعداد كبيرة من مقاتلة البصرة الى خراسان ، ومن مقاتلة الكوفة الى أردبيل وقزوين والري ؛ وألقي على هؤلاء الناقلة واجب القتال للدفاع عن حدود الدولة وتوسيعها ، وبدأت تسود في كل من الكوفة والبصرة حياة السلم والاستقرار ، وأمن العطاء مطالب حياتهم المعاشية ، فتوفر لهم الوقت الكافي للانصراف الى الاهتمام بالسياسة والفكر ، وازدادت العناية بالمعرفة والآداب ، نمت ميادين أخرى من المعرفة المتصلة بالاسلام كالحديث والفقه ، إضافةً الى الشعر ودراسة القرآن الكريم ، وأفادوا في كل ذلك من أهل المدينة فائدة كبيرة.

وبمرور الأيام اختص كل من المصرين بعلم أنماه ووسّعه . فأما الكوفة فقد اختصت عنايتها بالشعر ، أو كادت ، فكان « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة » [٣٩] ، وكان « الكوفيون علاّمين باشعار العرب مطلعين عليها [٤٠] » ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله ، وذلك بين في دواوينهم [٤١] .تنسب بعض المصادر تفوّق أهل الكوفة على أهل البصرة في معرفة الشعر الى أن أهل الكوفة كشفوا في زمن المختار (حوالي سنة ٦٥ هـ) مجموعة شعرية من زمن المناذرة كانت مدفونة في أحد القصور [٤٢] . غير أن هذا التعليل ساذج وغير مقنع .

---

(٣٩) المزهر للسيوطي ٢/٢٥٤ .

(٤٠) الخصائص لإبن جني ٣٩٢ .

(٤١) مراتب النحويين للحلبي ٧٤ .

(٤٢) لسان العرب ٣/١٤١ — ٢ وانظر عن الشعر في الكوفة « حياة الشعر في الكوفة » ليوسف خليف

وكانت عناية أهل الكوفة بالقرآن الكريم أكثر ، وعدد القراء بها كان يزيد على من كان منهم في المدينة أو مكة او البصرة (٤٣) .

كما نمت دراسة الفقه حتى إنه يمكن القول بأن كل الإشارات الى « فقه أهل العراق » يقصد منه فقه الكوفيين .

وتفوق البصريون باللغة والنحو ، فـ « علم العربية عنهم أُخِذ » (٤٤) ، و « أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين ، وأهل البصرة يمتنعون من الأخذ عنهم »(٤٥) ، و « لا يُعلم أحد من علماء البصرة بالنحوواللغة أخذ عن أهل الكوفة إلا ابا زيد» (٤٦) ويقول الحلبي « علماء البصرة رؤساء علماء معظّمون غير مدافعين في المصرين جميعاً ، ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأمصار مثل أصغرهم في العلم بالعربية ، ولو كان لافتخروا به ، وباهوا بمكانه أهل البلاد ، وأفرطوا في إعظامه » (٤٧) وعرفت البصرة بأنها مركز الزهد والاعتزال (٤٨) .

ولما زالت الدولة الأموية وانتقلت الخلافة الى العباسيين ، اتخذ الخليفة العباسيّ الأول ، أبو العباس ، مقرّه في الكوفة ؛ ثم انتقل الى الأنبار حيث توفي بعد ان قضى في الخلافة خمس سنوات . وتلاه أخوه أبو جعفر الذي عاد الى الكوفة ، ولكنه فكر في اتخاذ مقر جديد ، واستقر رأيه على بغداد ، فبدأ بتأسيس عاصمته فيها سنة ١٤٣ هـ ، ثم انتقل إليها بعد اكتمال بنائها سنة ١٤٥ ؛وكانت قد انشئت في الاصل لتكون مقاماً للخليفة وأهله وحاشيته وحرسه وجنده ، ولكن سرعان ما اجتذبت الناس ، فهاجروا اليها من كل الأطراف ، فازداد عدد سكانها وتنوعت أصول بلادهم ؛ فمنهم الكوفيون ، والبصريون ، والواسطيون ، واليماميون ، ومنهم من جاء من بلاد المشرق .

---

(٤٣) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٧٣/١ وانظر أيضاً ابن الفقيه : البلدان ١٩٢ . ويقول الحلبي « لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب » مراتب النحويين ٧٤ .

(٤٤) الفهرست لإبن النديم ٩٦ .

(٤٥) المزهر ٢٥٦/٢ مراتب النحويين ٩٠ .

(٤٦) نزهة الألبا لابن الانباري ٢٦٣ .

(٤٧) مراتب النحويين ٧٤

(٤٨) حلية الأولياء ٩٢/٢ .

وقد أدرك الخلفاء العباسيون الأولون خطر ترك البناء الثقافي العام سائباً من غير توجيه ، ويبدو أنهم أدركوا مكانة علماء أهل المدينة وقيمة علومهم ، فبذلوا جهوداً في جلبهم الى بغداد ، وتيسير الفرص لهم لنشر علومهم ، أي جعل الثقافة العامة في بغداد منسجمة مع الخط العام الذي أنماه علماء أهل المدينة . وقد روى ابن عبدالبر أن أبا يوسف قال : « لقد طلبنا هذا العلم ، وطلبه معنا من لا نحصيه كثرة ، فما انتفع به منا إلاّ من دبغ اللبن قلبه . وذلك أن أبا العباس لما أفضى اليه الأمر ، بعث الى المدينة فأقدم إليه عامة من كان فيها من أهل العلم ، فكان أهلنا يعدون لنا خبزاً يلطخونه لنا باللبن ، فنغدو في طلب العلم ، ثم نرجع الى ذلك فنأكله . فأمّا من كان ينتظر أن تصنع له هريسة أو عصيدة ، فكان ذلك يشغله حتى يفوته كل ما كنا ندركه »[49] والواقع أن دراسة أسانيد كتاب « الخراج » لأبي يوسف تظهر مصداق قوله في كثرة من اعتمد عليهم من شيوخ أهل المدينة وما كان يكنّ لهم من تقدير واحترام [50].

وقد قدم عدد من رجال أهل المدينة الى بغداد منذ أوائل تأسيسها ، فكانت لهم مكانة فيها . فقد كان من أوائل قضاتها : يحيى بن سعيد الأنصاري ، وعبدالله ابن محمد بن صفوان الجُمَحِي ، وسعيد بن عبدالرحمن الجُمَحيّ ، وكلهم من أهل الحجاز [51] ومن المعلوم أن كلاً من ابن إسحاق والواقدي ، وهما اللذان ألفا الكتابين المعتمدين في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قدما بغداد ، ولعلهما كتبا كتابيهما ببغداد ؛ ويلاحظ أن ابن إسحاق قدم بغداد في اوائل تأسيسها ، توفي بها في سنة ١٥١ هـ . أما الواقدي ، فقد قدمها في خلافة المأمون .

وبعد أن تسنم المهدي الخلافة ، زار الحجاز سنة ١٦٠ هـ « وأمر أيام مقامه بالمدينة بإثبات خمس مئة رجل من الأنصار ، ليكونوا معه حرساً له بالعراق وأنصاراً ، وأجرى عليهم أرزاقاً سِوى أعطياتهم ، وأقطعهم عند قدومهم معه بغداد قطيعة

---

(٤٩) جامع بيان العلم ٩٧/١ .

(٥٠) انظر مقالتنا « الخراج وكتاب أبي يوسف » المنشور في العدد الثاني من مجلة كلية الإمام الاعظم ١٩٧٤ .

(٥١) انظر مقالتنا قضاة بغداد في العصر العباسي المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٩ .

تعرف بهم » [٥٢] . وكان لهؤلاء الأنصار قطيعة [٥٣] ، وقنطرة [٥٤] ، ومسجد [٥٥] ومقابر خاصة بهم [٥٦] كما كان لهم نقيب خاص [٥٧] .

غير أن قرب الكوفة من بغداد جعل أثر علمائها أظهر ، وقد أشار الى ذلك الحلبي بقوله : « غلب أهل الكوفة على بغداد ، وحدّثوا الملوك فقدّموهم ، ورغّبوا الناس في الروايات الشاذّة ، وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات ، وتركوا الأصول ، واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم » [٥٨] . والواقع أن مؤدبي أولاد الخلفاء العباسيين الأولين كانوا من علماء الكوفة ، فكان المفضل الضّبّيّ مؤدّب المهدي والرشيد [٥٩] ، والكسائي مؤدب الرشيد الأمين [٦٠] ، واليزيدي مؤدب المأمون [٦١] ، والفرّاء ملقن ولدي المأمون النحو [٦٢] ، وابن السِكّيت مؤدب ولدي المتوكل [٦٣] .

عمل هؤلاء العلماء ، بتشجيع من الخلفاء العباسيين الأولين ، على نشر علوم القرآن والحديث والسنة والفقه ، وسيرة الرسول ، وأخبار العرب وشعرها ، وهي العلوم التي سبق أن وضع العرب أسسها ونَمَّوْها لأنها معبرة عن ميولهم واتجاهاتهم ومعززة لكيانهم . وبذلك استقرت الثقافة ببغداد على نفس الاسس والاتجاهات السابقة . وسرعان ما اتضحت معالم هذا الصرح الثقافي ، وازدادت عناية الناس به وتقديرهم له ؛ وأصبح لعلماء هذه العلوم الحظوة ببغداد والسيطرة على توجيهها .

(٥٢) الطبري ٣/٤٨٤ الخطيب البغدادي ١/٨٨ – ٩ .
(٥٣) الخطيب ١/٩٩ .
(٥٤) الخطيب ١٣/٩٢ ، ٤/١٠ .
(٥٥) ابن سعد ٧ – ٢/٧٥ الخطيب ١٢/٢٨٦ ، ٦/٦ ، ١٢ .
(٥٦) الخطيب ١/٢٦٠ ، ٦/٦ ، ٧/١٦٢ المنتظم ٧/٨٥ .
(٥٧) الخطيب ١/٢٥٩ المنتظم ٧/٨٥ .
(٥٨) مراتب النحويين ٩٠ وانظر أيضاً المزهر للسيوطي ٢/٢٥٦ ضحى الاسلام لأحمد أمين ٢/٣٤ ؛ ٢٩٧ ، حياة الشعر في الكوفة ليوسف خليف ٢٤١ .
(٥٩) الفهرست ٦٩ الخطيب البغدادي ١/٢٠٣ .
(٦٠) ابن الأنباري : نزهة الألبا ٦٩ .
(٦١) نزهة الألبا ٦٩ .
(٦٢) نزهة الألبا ٨٢ الخطيب ١٤/١٢ .
(٦٣) نزهة الألبا ١٣٩ .

ولما استخلف المأمون وعاد الى بغداد، عمل على تشجيع الكلام، وترجمة «حكمة الأوائل، ومنطق اليونان، وعمل رصد الكواكب، ونشأ للناس علم جديد مُرْدٍ مهلك، لا يلائم علم النبوة، ولا يوافق توحيد المؤمنين، قد كانت الأمة منه في عافية..»[64]؛ وقد لقي عمل المأمون مقاومة من أهل بغداد الذين كانت قد استقرت ثقافتهم على النحو الذي ذكرنا، فاستعمل هو والخليفتان اللذان جاءا بعده، القوة في فرض الاتجاهات الجديدة، ولقد اضاف عمله الى الثقافة ببغداد عناصر جديدة، ولكنه لم يفلح في اجتثاث الثقافة القديمة. وفي الأخير، أدخلت العناصر الجديدة في الصرح الثقافي الأول، فأنمته دون أن تزيله، وظلت علوم العرب والإسلام أبرز ما يميز الثقافة ببغداد والعالم الإسلامي.



★ ★ ★

(٦٤) تذكرة الحفاظ ١/٢٢٨.

✿سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومدونوها الأوائل

✿صالح أحمد العلي

✿ مقال

✿ مجلة : آفاق الثقافة والتراث

✿ العدد : 43 / الإمارات العربية المتحدة

سيرة الرسول ﷺ ومدونوها الأوائل

الأستاذ الدكتور/ صالح أحمد العلي
بغداد - العراق

لسيرة الرسول (ﷺ) مكانة متميزة بحكم الآيات القرآنية، التي أشادت بخلقه، وأمرت باتخاذه قدوة وبطاعته، إضافة إلى حياته الغنية بالحوادث، وما أنجزه وخلفه من آثار عميقة واسعة في توجيه حياة الأمة والبشرية، فقال تعالى: ﴿*لَقَدْ كان لكم في رسول الله أسوة حسنة*﴾[1]، وأمرهم بالأخذ بما يأتيهم ﴿*وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا*﴾[2]، وأن يستجيبوا له ويطيعوه ﴿*اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ*﴾[3]، ﴿*أطيعوا الله والرسول*﴾[4]، ﴿*أطيعوا الله وأطيعوا الرسول*﴾، ﴿*من يطع الرسول فقد أطاع الله*﴾[5]. ونهى عن مشاقته[6]، أو عصيانه[7]، وأمره باللين في التعامل مع الناس ﴿*ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم*﴾[8]، ﴿*ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك*﴾[9] وأمره بمشاورة صحابته ﴿*وشاورهم في الأمر*﴾[10]، ﴿*وأمرهم شورى بينهم*﴾[11].

وكان (ﷺ) في حياته المعاشية لا يتميز بمأكله أو مسكنه أو في لباسه الذي يعنى بنظافته. وكان بعيدًا عن الأبهة والفخفخة، ونزلت عدة آيات تذكر ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾ منها الآية ١١٠ من سورة الكهف. تدل الآيات الكثيرة التي تذم الترف والإسراف والتقتير أنه كان معتدلا في معيشته، ويؤيد ذلك الروايات التي وصلت إلينا عن حياته المعاشية والمعتدلة.

لا بد أن حياة الرسول (ﷺ)، وبخاصة بعد نزول الوحي عليه، كانت مفعمة بالحيوية والنشاط الفكري؛ لتوضيح معالم الدعوة، والعمل على نشرها، ومجادلة معارضيها، ومقارعة المشركين في مكة، ثم في المدينة بعد هجرته إليها واتخاذها مركزًا للدعوة والعمل على معالجة الأحوال الجديدة من مقارعة اليهود المعاندين، والمنافقين

القلقين، وتنظيم أحوال المهاجرين، وتثبيت تنظيم مجتمع الأنصار، وصلتهم بدولة الإسلام ومتطلباتها، وتأمينها من أخطار مشركي قريش ومن في فلكهم، مما كان له أثر في زيادة الاهتمام بإصلاح الإنسان وسلوكه وتصرفاته وعلاقاته بأفراد المجتمع الذي يضم مجموعات من العشائر والقبائل، وذوي المصالح، وكل هذا يمد نشاط الرسول (ﷺ) إلى ميادين أوسع من حياة المسلمين من أهل المدينة.

أقام الرسول (ﷺ) طوال إحدى عشرة السنة الأخيرة من عمره بعد الهجرة في المدينة، وكان يلزم من أسلم قبل فتح مكة أن يهاجر إلى المدينة ويقيم بها، ولم يغادر المدينة إلا في مدد متقطعة قصيرة عندما كان يخرج للغزوات، وهذه الإقامة الدائمة يسرت للمسلمين في المدينة تعرف تصرفات الرسول (ﷺ) وأعماله والاتصال المباشر به، ولم يكن هذا الاتصال واحدا لكل المسلمين في المدينة، فكان اتصال عدد منهم غير دائم أو واسع، ومنهم عدد أقرب إليه وأوثق صلة به، مما وسع معرفتهم بأفكاره وآرائه وأعماله وقراراته، وعنوا بتناقل أخباره سماعا. أما التدوين فاقتصر على ما نزل من القرآن الكريم، وعلى الرسائل والكتب التي أنفذها لمن دعاهم إلى الإسلام أو أسلموا، وكذلك بعض أحكام الجبايات.

وفي أواخر سني حياة الرسول (ﷺ) توسع الإسلام ودولته فشمل الحجاز وأكثر أرجاء جزيرة العرب، وتلاه بعده الرسول (ﷺ) توسع متتابع في أقاليم ضمت إلى الدولة الإسلامية ودان أهلها بالإسلام ولم يكن لهم اتصال مباشر سابق بالرسول (ﷺ)، ولا بد أنهم أو كثيرا منهم اهتموا بأخباره واعتمدوا في استقائها على الصحابة الأولين الذين هاجر عدد منهم هجرة دائمة أو مؤقتة إلى مراكز متفرقة من أرجاء الدولة، وكان بعضهم معنيًّا بمتابعة المعلومات عن حياة الرسول (ﷺ) وأعماله، إلا أن المدينة كانت تضم العدد الأكبر من الصحابة الأولين الذين عايشوا الرسول (ﷺ) طويلا، وعني عدد منهم بتتبع أخباره وتناقلها.

وكانت المعلومات والأخبار تنقل شفاها بالاتصال المباشر برواتها؛ لأن وسائل التدوين، وأهمها الأدم وقراطيس البردى، كانت مكلفة، اقتصر أكثرها على المكاتبات الرسمية للدولة، أو على الرسائل الشخصية المهمة، لذلك ظلت الكتابة محدودة؛ لقلة عدد من يعرفها ولارتفاع ثمن وسائلها، ويروى أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لم يشجع تدوين أقوال الرسول (ﷺ) وقراراته خشية احتمال طغيانها على الاهتمام بتدارس القرآن الكريم، واحتمال تنوعها، وما قد تؤدي إلى الفرقة والتشتت، ولا بد أن قرار عمر (رضي الله عنه) في هذا الأمر لم يراعِ بعده، ولكن الكتابة ظلت محدودة، وساء الاعتماد على الروايات الشفهية التي يتركز كثير منها على ما ينسجم مع اهتمامات الناس المتأخرة، مما يؤثر في المروي والجوانب المبرزة فيه[١٢]. وهي في أي حال لا تشمل كل أقوال الرسول (ﷺ) وأعماله ومعالم حياته.

السيرة النبوية والسنّة:

لسيرة الرسول (ﷺ) صلة وثيقة بالسنّة، فكلاهما يبحثان في حياة الرسول (ﷺ) وأصحابه، غير أنهما غير متطابقتين كليًّا، فالسيرة تبحث في

أعماله العامة السياسية والعسكرية، وتصرفاته، أما السنّة فتبحث في أعماله الإدارية وما يتصل بها من أمور اجتماعية واقتصادية، وهي تقدم مادة للفقه، ولكنها لا تقدم المسوغات والتعليلات التي يعنى الفقه بتقديمها، ويكاد يكون الاتفاق تامًّا على أن السنة هي الأساس الثاني بعد القرآن الكريم في التشريع، وأنّ قوامها أعمال الرسول (ﷺ) وأقواله، وهي واسعة لطول حياته، وتحدد جوانب الحياة التي عالجها إبان حياته التي امتدت أكثر من عشرين سنة منذ نزول الوحي عليه، واتصل خلالها بالمجتمعات كلها؛ البدوية والريفية والزراعية والتجارية والصناعية وما في كل منها من تنوع، وعمله في تنقيتها بما ينسجم مع المبادئ العامة التي رسمها الإسلام، وقد تمت ممارسة كثير منها عمليًّا على وفق توجيهات مرت بعدة تطورات أوسع، وازداد الاهتمام بدراستها والتفكير فيها، وتطورت الآراء في تحديد مصادرها، وفي القضايا التي تبرزها، والحلول التي تقدمها.

قد برز من الصحابة ثم من التابعين مَنْ تميز بالعقلية القانونية السليمة، فكانت آراؤهم في الفتيا مقدرة، ويبدو أن بدء تدوينها حدث في أيام الزهري، فقد روى عنه قوله: كنا «نطلب العلم فكنا نكتب السنن، وكتبنا ما جاء عن النبي (ﷺ)، ثم كنا نكتب ما جاء عن الصحابة، فقيل إنه ليس بسنة، فلا نكتبه، قال : فكتب ولم أكتب فانجح وضيعت»، ويروى أن الزهري كان لا يفضل الحديث عن الموالي، وأنّه قال: «إني لأحدث عنهم، ولكن إذا وجدت أبناء المهاجرين والأنصار اتكئ عليهم فما أصنع بغيرهم»[١٣]. و المشهور أن مالك بن أنس، كان يعدّ السائد المقرر في المدينة أساس السنة، وقد تردد في كتابه (الموطأ) تعابير «والأمر عندنا»، «الذي عليه العمل عندنا»، «الذي أدركت عليه الناس وأهل العلم عندنا»، «أدركت أهل العلم منا»[١٤]، ويقصد فيه أن ما ساد في المدينة، وأقره أهل العلم فيها سنة، وهو بالطبع يشمل ما عرف من أقوال الرسول (ﷺ)، وأحكامه، إضافة إلى ما سار عليه أهل المدينة وأقروه.

وبسبب المكانة المتميزة التي اكتسبتها السنة بكونها مصدرًا يتلو القرآن الكريم في التشريع، دخلتها ممارسات منوعة، وفي هذا يقول ابن المقفع في وصفه ما كان قائمًا في الكوفة من اختلاف وتناقض في الأحكام: «وأما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس سنة، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله (ﷺ) أو أئمة الهدى من بعده، وإذا قيل له أيّ دم سفك على هذه السنة التي تزعمون؟ قالوا : فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من أولئك الأمراء»[١٥].

كانت معرفة سيرة الرسول (ﷺ) وحياته أثبت وأوسع عند الصحابة والتابعين في المدينة ومكة، غير أنها امتدت إلى أرجاء الدولة الأخرى بانتشارهم في تلك الأرجاء، وتركزهم بصورة خاصة في الأمصار، ولا بد أن عددَ من عرف أعمال الرسول (ﷺ) وأقواله كان كبيرا في السنوات الأولى حين كان جميع الصحابة والمتصلين به أحياء، ولكن بمرور الزمن اقتصر عدد المعنيين بتداول أخبار الرسول (ﷺ) وأعماله وسيرته على عدد محدود من المهتمين بروايتها، فكانوا المعين الذي يستقي الناس منه الأخبار، وكانت لكثير منهم اهتمامات في ميادين أخرى متصلة بسيرة الرسول (ﷺ) أيضا، ومنها الفقه والتفسير.

كانت المعلومات عن أخبار الرسول (ﷺ) وسيرته، شأن غيرها من الحوادث، تنقل بالروايات السماعية، وأدى هذا الأسلوب إلى أن يكون النقل مباشرًا، وفي الأماكن التي يقيم فيها ذوو المعرفة، ومن الطبيعي أن الرواة لا ينقلون كل ما يقوله الشيوخ وبالدقة نفسها، وإنما يقتصرون على أخبار معينة، ويختلفون في مدى سعة ما ينقلون ودقته، ومع أن الحفظ وضبط النقل كانا يحظيان بالتقدير، إلا أن الجوانب التي ينقلون أخبارها قد تتنوع وتتبدل، فلبعضهم اهتمام شامل بكل حياة الرسول (ﷺ)، والآخرين يقصر اهتمامهم على أخبار حادثة أو حوادث محدودة معينة. ومما كان يؤثر في تقدير الحوادث التي تنقل أخبارها مدى صلتها بالاهتمامات التالية. ولا ريب في أن أدق المرويات ما كانت منذ بدايتها مدونة، ومن هذه المعلومات التي تناقلها المعنيون بالسيرة عن عروة بن الزبير، وبعضها إجابات محررة لأسئلة وجهها إليه الخليفة عبد الملك ابن مروان. ولعل كثيرا مما نقل عن الزهري كان مما أمره الخليفة عمر بن عبد العزيز بكتابته ثم عممه في الأمصار. وليس ببعيد أن الخليفة هشام بن عبد الملك احتفظ ببعض مدونات الزهري، الذي كان ذا صلة وثيقة بالخليفة هشام بن عبد الملك.

بدأ تدوين أخبار السيرة النبوية في الربع الأخير من القرن الأول، وكان أساس طلائعها المسجلة إجابة عن أسئلة وجهها الخليفة عبد الملك بن مروان (٧٢-٨٥هـ) لأبان بن عثمان وعروة بن الزبير في قضايا محدودة، كأسماء الصحابة المشاركين في بعض الأحداث، ثم امتدت فشملت أخبارًا تتعلق ببعض البارزين من الصحابة، وبذلك كانت منذ بدايتها مزيجًا من أخبار حياة الرسول (ﷺ)، وأعماله وأخبار الصحابة.

كانت كتابة السيرة متصلة بتفسير القرآن وبالفقه، حيث إنّ القرآن الكريم ذكر أو أشار إلى كثير من الحوادث التي مرت بالرسول (ﷺ)، وبالدعوة الإسلامية، وعُني المفسرون الأولون بإيراد تفاصيل تلك الحوادث التي تتصل بالتاريخ، فقدموا معلومات عن الرسول (ﷺ)، وما يتصل بالإسلام، وكلها مادة أساسية مهمة للتاريخ، غير أنها متفرقة وغير منظمة تبعًا لتعاقبها الزمني، وكان تزايد أهمية مكانة السنة في التشريع دافعًا قويًا لعناية المهتمين بالفقه على إيراد معلومات عن حوادث مرّت بالرسول (ﷺ)، وبعض أعماله الخاصة، المتصلة بالتنظيم الاجتماعي والإداري والمؤسسات الدينية، ويتصل بالاهتمام بسنة الرسول (ﷺ) دراسة أعماله الخاصة وتصرفاته، ثم بالرجال الذين عنوا بها، فكونوا بذلك ميدانا خاصًا هو (علم الحديث) و(علم الرجال).

غير أن الصلة الوثيقة بين المعلومات التي يُعنى بها المفسرون والفقهاء وأهل الحديث وبين التي يُعنى بها كتابة السيرة لا يعني أنها واحدة، وإنما كانت متمايزة من حيث جوانب الاهتمام وطريقة العرض، فكتابة السيرة تعنى بسرد الحوادث مرتبة تبعًا لتعاقبها الزمني، ولا تأخذ من كتب التفسير إلا ما يتعلق بالحوادث، ولا تقتصر في معلوماتها على ما له علاقة بالتشريع، أو بالتصرفات الشخصية الخاصة، كالذي يفعله الفقهاء، كما أنها لا تولي رجال السند أهمية استثنائية؛ لأنها تعنى بالخبر أكثر من عنايتها بالرواية.

طلائع كتابة السيرة النبوية:

بدا الاهتمام بأخبار السيرة النبوية وكتابتها في

أوائل زمن خلافة الأمويين، ونمت خلالها حتى استقر هيكلها التنظيمي العام ومعلوماتها، وكان لكثير من المعنيين بدراستها، ومن أبرزهم أبان بن عثمان وعروة بن الزبير، ومحمد بن مسلم الزهري، علاقة طيبة بالأمويين، ولعل هذا كان له تأثير في توجيه المعلومات بإبراز ما له صلة بالأمويين والتقليل من أخبار معارضيهم للإسلام. غير أن ما خفف أثر هذا الحرية المتوافرة في الكتابة أنّ كثيرا منهم لم يكن مؤيدًا للأمويين، وإبرازهم دور عدد من هؤلاء المعارضين، وبذلك لم تكن الكتابات الأولى للسيرة منحازة كليًّا إلى الأمويين.

قامت دراسة للسيرة في مراحلها الأولى على الروايات الشفهية، أما التدوين فكان محدودًا، ثم استقر في أوائل زمن الخلافة العباسية. ولعله تعرض خلال هذه المدة، التي تزيد على القرن، إلى التأثر بالأحوال المتأخرة، في ما تذكره من الأشخاص، وما تعنى به من أخبارهم، وفي الجوانب التي تُعنى بإبرازها.

المدونات الأولى في سيرة الرسول (ﷺ):

تتميز المدونات والكتب بخلوها من عيوب الروايات الشفهية المتعرضة للتحوير والتبديل تبعًا لمدى دقة الرواة واستيعابهم الروايات، ولم يمنع غلاء كلفة التدوين عددا من المعنيين بالسيرة من تدوينها في كتب، وأقدم من أشارت الكتب إلى تدوينهم سيرة الرسول (ﷺ) وهب بن منبه (ت حوالي ٣٢هـ)، وعبد الله بن العباس (ت٦٨هـ)، وعبد الله بن عمرو بن العاص (ت٦٦هـ)، وكلهم كانوا يقيمون في الحجاز، وقضوا سنوات من عمرهم في مكة.

فأما وهب بن منبه فأصله يماني من اليهود، قدم المدينة وأسلم في زمن خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ودون كتابا في مغازي الرسول (ﷺ)، بقيت منه قطعة مكتوبة على بردية، محفوظة في جامعة هايدلبرج، نشرها رئيف الخوري، وهي قطعة صغيرة فجة الأسلوب، وفي تاريخ الطبري ثمانية عشر مقتبسًا من وهب منها تسعة من طريق محمد بن سهل بن عسكر بن إسماعيل بن عبد الكريم بن عبد الصمد بن معقل، وخمسة من طريق ابن إسحاق (١/٢٦٠، ٣٢٧، ٤٦٢، ٥٠٤، ٥٣٩)، كلها عن الأنبياء الأولين. وفي المعجم الكبير للطبراني عدد من الاقتباسات منه.

وأما عبد الله بن العباس فإن ابن سعد ينقل عن محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنه كان يحضر مجلس ابن عباس فيتحدث العشية يومًا في التأويل، ويومًا في المغازي، ويومًا في الشعر، ويومًا في أيام العرب[١٦]، ويذكر أن كتب ابن عباس صارت عند مولاه كريب، الذي وضعها عند موسى بن عقبة صاحب المغازي[١٧]، ولعل مقسم مولى ابن عباس أخذ عن مولاه أخبار المغازي التي اقتبس منها الصنعاني في مصنفه[١٨]. وفي رواية ابن هشام لابن إسحاق نُقول متفرقة عن ابن عباس، وفي تفسير الطبري نقول كثيرة عن ابن عباس أكثرها عن طريق محمد بن سعد عن أبيه عن جده.

روى سلمة بن الحضرمي «سمعت ابن عباس يقول: كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله (ﷺ) من المهاجرين عن مغازي رسول الله (ﷺ)، وما نزل من القرآن في ذلك»[١٩]، وروى ابن سعد: أن الشعبي سأل ابن عباس عن نسب رسول الله

(ﷺ)، وذلك في تفسير آية ﴿لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾[٢٠].

وأما عبد الله بن عمرو بن العاص فإن الترمذي يذكر أن له صحيفة في أخبار الرسول (ﷺ)[٢١]، ولعل من هذه الصحيفة أخذ حفيده شعيب بن عمرو، الذي روت المصادر عنه، معلومات عن وثيقة الرسول (ﷺ) في تنظيم المدينة، كما نقل عنه الواقدي وابن حنبل معلومات عن كل من غزوة بني المصطلق وفتح مكة وغزوة هوازن وتبوك وحجة الوداع[٢٢].

وممن ذكرت المصادر تدوينه كتابًا عن حياة الرسول (ﷺ) سعيد بن عبادة الخزرجي (ت١٢٣هـ)، وأشار ابن حجر إلى أن نسخة من كتابه كانت عند حفيده سعيد بن عمرو[٢٣]، وذكر أبو عوانة: «وجدت في كتاب سعيد بن سعد بن عبادة»[٢٤]، ونقل عنه الطبري في تاريخه رواية عن خلق آدم[٢٥]، كما نقل البلاذري عنه رواية عن بئر بضاعة، وعن فرس الرسول (ﷺ)[٢٦]، وروى عن سعيد بن سعد كل من ابن ماجه (ت في حدود ٤١٨هـ) وابن حنبل (٢٢٢/٥).

ومن الأوائل الذين ذكرت المصادر لهم كتبا مدونة في السيرة سهل بن أبي حثمة، فقد ذكر حفيده محمد بن يحيى بن سهل «وجدت في كتاب آبائي»[٢٧]، وأشار كل من ابن اسحاق، والواقدي والبلاذري، وابن سعد، والطبري إلى نقلهم أخبارا عن سهل[٢٨]، كما نقلت له كتب الصحاح روايات كثيرة في البيوع والديات إلا أنهم لم يشيروا إلى نقلهم من كتاب.

وممن ذكرت المصادر تدوينه للمغازي أبان بن عثمان بن عفان، وكان قد ولي المدينة لعبد الملك بن مروان خمس سنوات (٧٨-٨٣هـ)، فذكر الواقدي أن المغيرة بن عبد الرحمن كان في جيش مسلمة الذي حاصر القسطنطينية، وكان ثقة قليل الحديث إلا مغازي رسول الله (ﷺ) أخذها من أبان بن عثمان، فكان كثيرا ما تقرأ عليه، ويأمرنا بتعلمها[٢٩]، غير أن مؤلفي السيرة الأولين لم ينقلوا منه؛ وروى له الفاكهي بعض ما لا علاقة له بالسيرة[٣٠].

الخلفاء الأمويون وتدوين سيرة الرسول (ﷺ):

يذكر المسعودي أن معاوية بن أبي سفيان كان يقضي صدرا من ليله مع الوزراء، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكائدها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسيرة والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح[٣١]، ويذكر كذلك أن عبيد بن شريه الجرهمي حين وفد على معاوية «سأله عن ملوك اليمن وسنيها، وطسم وجديس»[٣٢]، يظهر هذان النصان اهتمامه بأخبار اليمن. وقد يكون ذلك راجع إلى أن عبيد بن شريه يماني، فسأله في ما كان له اطلاع فيه، أو قد يكون هذا الاهتمام راجع إلى كثرة اليمانيين في بلاد الشام. ولم تذكر المصادر اهتمام معاوية بأخبار الرسول (ﷺ)، علمًا بأنه كان حريصا على تثبيت علاقات طيبة مع أهل المدينة ومكة، حيث كانت لأفراد من الأسرة الأموية مكانة مرموقة فيهما،

منهم عدد من المسلمين الأوائل، وكانت أخته أم حبيبة (رضي الله عنها) زوجة الرسول (ﷺ)، وكان هو بعد إسلامه من كتاب الوحي، كما أن لأبيه مكانة عند الرسول (ﷺ) منذ فتح مكة، وأسند الرسول (ﷺ) أعمالاً إلى عدد من رجال بني أمية، فولى عتاب بن أسيد مكة بعد فتحها، وولى رجالا من آل أبي العاص عددًا من البلاد التي انضم أهلها إلى الإسلام: وتابع أبو بكر هذه السياسة، فولى خالد بن العاص ويزيد بن أبي سفيان قيادة جيوش من التي انفذها لفتح بلا الشام، وشارك عدد غير قليل من الأمويين في هذه الفتوح، فقد يكون عدم ذكر المصادر اهتمام معاوية بأخبار الرسول (ﷺ) مرجعه أن معاوية عايشها وعرفها، فلم تكن له حاجة بمساءلة الناس عنها، أو لتعمد الرواة طمس هذه الأخبار إضعافًا لإبراز مكانته في الإسلام.

اهتم عبد الملك بن مروان بعد تسلمه الخلافة بمتابعة أخبار سيرة الرسول (ﷺ) وتدوينها، واعتمد في ذلك على علماء من أهل المدينة، التي كانت له صلة وثيقة بأهلها، حيث إنه عاش فيها قبل توليه الخلافة ردحا من الزمن ووليها عدة سنوات، وكانت له علاقة طيبة بعلمائها وفقهائها، وكان فقيهًا معنيًّا بالفقه وبالعربية وآدابها، ووردت في موقف عبد الملك من تدوين سيرة الرسول (ﷺ) روايتان بينهما بعض التناقض، روى إحداهما الزبير بن بكار بسند عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عبد الرحمن بن يزيد، ذكر فيها أن سليمان ابن عبد الملك قدم المدينة إبان خلافة أبيه عبد الملك، وطاف على مشاهد النبي (ﷺ) التي صلى فيها ثم أمر أبان بن عثمان أن يكتب له سيرة النبي (ﷺ) ومغازيه، فقال أبان هي عندي، قد أخذتها مصححة ممن أثق به، فأمر بنسخها وألقى بها إلى عشرة من الكتاب، فكتبوها في رق، فلما صارت إليه نظر فإذا فيها ذكر الأنصار في العقبتين، وذكر الأنصار في بدر، فقال ما كنت لأرى لهؤلاء القوم هذا الفضل، فإما أن يكون أهل بيتي غمصوا عليه، وإما أن يكون ليس هكذا، فقال أبان بن عثمان: أيها الأمير، لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم (عثمان) من خذلانه، أن القول بالحق هم على ما وصفنا لك من كتابنا هذا، قال: ما حاجتي إلى أن أنسخ ذلك حتى أذكره لأمير المؤمنين لعله يخالفه، فأمر بذلك الكتاب فحرقه، وقال اسأل أمير المؤمنين إذا رجعت، فإن يوافقه فما أيسر نسخه، فرجع سليمان فأخبر أباه بالذي كان من قول أبان، فقال: وما حاجتك أن نقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، نُعرّف أهل الشام أمورا لا نريد أن يعرفوها، فقال سليمان: فذلك يا أمير المؤمنين أمرت بتخريق ما كنت نسخته حتى استطلع رأي أمير المؤمنين فصوب رأيه[٣٣]. يتبين من هذا النص أن كتاب عروة كان مدونًا قبل أن يلقى لسليمان، وأنّه كان كبيرًا لم يقتصر على المغازي وإنما شمل سيرة الرسول (ﷺ)، والمشاركين في العقبة، وأنَّ سليمان حرق ما استنسخ، ولم يحرق الأصل.

وتذكر روايات أخرى أنّ عبد الملك بن مروان اهتم بأخبار الرسول (ﷺ)، فقد ذكر الطبري بسند عن عبد الوارث بن عبد الصمد عن أبان العطار عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الملك ابن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء[٣٤]، وذكر بالسند نفسه من الأسئلة (في خديجة بنت خويلد متى توفيت؟)[٣٥]، كما سأله عن الهجرة إلى الحبشة[٣٦]، وعن مخرج رسول الله (ﷺ) من مكة[٣٧]، وفي أبي سفيان ومخرجه إلى بدر[٣٨]، وعن

خالد بن الوليد هل أغار يوم الفتح بأمر من أغار[٣٩]، وعن الخمس[٤٠]، ونقل الطبري في هذا السند أخبارًا عن الدعوة الإسلامية بعد رجوع مهاجرة الحبشة[٤١]، وعن هجرة الرسول(ﷺ)[٤٢]، وتقدم أبي سفيان في بدر[٤٣]، وتقدم قريش إلى بدر[٤٤]، وعن معركة حنين[٤٥]، وحصار الطائف[٤٦]، ولم ينص الطبري على أن هذه الأخيرة من إجابات عروة عن أسئلة عبد الملك، غير أن سياقها يرجح كونها من تلك الإجابات. وهذه أسئلة عن حوادث بارزة في تاريخ الرسول (ﷺ)، فإذا كانت مكملة بما لم تنص المصادر على أنها إجابة عن أسئلة عبد الملك فإنها تكون علامات بارزة تكون هيكلاً للسيرة.

وتجدر الإشارة إلى اهتمام عبد الملك بن مروان بمتابعة أخبار تاريخ قريش، فيروي الطبري بسند عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم أن عبد الملك سأل محمد بن جبير بن مطعم عن سبب تسمية قريش[٤٧]، ويذكر الواقدي «الثبت عندنا المحفوظ من حديث محمد بن عبد الله بن مسلم عن أبيه عن محمد بن جبير، ومن حديث ابن أبي حبيبة عن داوود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس»[٤٨]، وهذا قد يدل على أن أحاديث محمد بن جبير كانت مدونة، ولكن لا يمكن الجزم بأن له كتابًا عن السيرة. وقد روى الطبري لمحمد بن جبير روايات في السيرة[٤٩]. وروى له البخاري في الخمس، والنفقات، والفرائض، والأحكام، والاعتصام، وروى له مالك في الموطأ حديثًا في أسماء النبي (ﷺ)، وفي الكتب إشارات إلى كتاب عروة رجال من الدولة الأموية، فروى الواقدي عن الزهري: «دخلت على عروة بن الزبير، وهو يكتب إلى هبيرة صاحب الوليد بن عبد الملك، وكان كتب إليه يسأله عن قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾[٥٠]. وكان جبير بن مطعم مقربًا من ابن الحنفية، وقد حج إبان حركة ابن الزبير»[٥١].

روى ابن اسحاق لعروة عن طريق ابنه هشام[٥٢]، وعن طريق الزهري[٥٣]، كما روى له ابن سعد[٥٤]. غير أن المعلومات التي رووها لا تدل على أنها من إجابات لعبد الملك، التي لم ينص عليها غير الطبري.

ولم يرو الطبري لأبان العطار غير رواياته عن هشام، إلا أنه روى لعبد الصمد روايات أخرى[٥٥]، كما روى له في عدة روايات عن الحسين عن قتادة[٥٦]، وعن محمد بن ذكوان بن نعامة السعدي[٥٧].

وروى الطبري في التفسير روايات لعبد الصمد ابن عبد الوارث عن شعبة[٥٨]، وقتادة[٥٩]، وثابت البناني[٦٠]، وأنس بن مالك[٦١].

وممن كتب في السيرة النبوية أبو بكر بن عبد الله بن عمرو بن حزم، الذي ولي المدينة للخليفة عمر بن عبد العزيز، فذكر ابن سعد: أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه أن «افحص لي عن الكتيبة أكانت خمسًا لرسول الله (ﷺ) من خيبر أم كانت لرسول الله (ﷺ) خالصة، قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن فقالت[٦٢]: وعمرة هي بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة من بني النجار»[٦٣]، وهي جدة القاسم بن محمد[٦٤]، قال فيها عمر بن عبد العزيز: «ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة منها»، وتقديرا لها كتب إلى ابن حزم «انظر ما كان من حديث رسول الله (ﷺ) أو سنة ماضية أو حديث عمرة[٦٥] بنت عبد الرحمن فاكتبه فإني قد

خفت دروس العلم وذهاب أهله». وواضح من هذا النص أن أحاديث الرسول (ﷺ) والسنة تم الأمر بتدوينها بطلب من الخليفة عمر بن عبد العزيز اعتمادًا على ما هو معروف في المدينة، وبصورة خاصة عند عمره بنت عبد الرحمن.

نقلت عن أبي بكر ابن حزم كتب الصحاح (البخاري: علم ٣٤، لباس٦) (النسائي: الصلاة، القسامة ٤٦) (الدارمي: مقدمة ٤٣، الفرائض ٥٢، وصايا٣٨) كما نقل عنه مالك في الموطأ: (طلاق ٣، بيوع٤٨، وصايا٣، عتق٢٢، حدود ٣٥، عقود١، استئذان٤، صدقة ١٤) (وابن حنبل: ٥/ ١٤٤). ووردت روايات عن ابنه عبد الله (مسلم: أضاحي ٢٨، أبو داوود: إمارة ٢٤، الدارمي: مقدمة ١٢، موطأ: نداء٦٩، ٧٠، رمضان ٧، جنائز ٣، زكاة ٣٩، حج ١٣٨، ضحايا ٧، بيوع ٣، ١٨، أقضية ٢٨، صفة النبي ٢٦، ٣٩، استئذان ١٤، كما روى عنه ابن حنبل٦/١٣).

لم ينقل ابن إسحاق عن أبي بكر ابن حزم، وإنما نقل عن ابنه عبد الملك في ثلاثة عشر موضعا، منها ثمانية غير مسندة عن وفاة آمنة أم الرسول (ﷺ) بالأبواء[٦٦]، واستياء عبد الله بن أبي من عدم إخباره ببيعة العقبة[٦٧]، وصفية بنت حيي[٦٨]، وخروج بني النضير[٦٩] عن غزوة المصطلق[٧٠]، وأخبار عرضية عن الحديبية[٧١]. وذكر خبرا مسندا عن عمر[٧٢]، وعن عبد الله بن مكنف الحارثي عن المسلمين عند إخراج يهود خيبر[٧٣]. وعن عامر بن عبد الله بن الزبير خبرا عن مؤتة[٧٤]، وخبرا عن أم عيسى الخزرجية[٧٥]. وكلها أخبار عرضية، لا تتعلق بصميم سيرة الرسول (ﷺ). لم تذكر المصادر متى سألها وهل وجهت الأسئلة مجموعة في وقت واحد أم متفرقة في أوقات مختلفة، ولماذا اختارها دون غيرها. علما بأنها لا تقتصر على الغزوات، وإنما تمتد إلى جوانب أخرى من السيرة.

روى المدائني عن الزهري أن خالد بن عبد الله القسري عندما كان واليا على مكة قال له: «اكتب لي النسب، فبدأت بنسب مضر، وما أتممته، فقال اقطعه قطعه الله مع أصولهم واكتب لي السيرة»[٧٦].

ويروي الواقدي عن عبد الله بن عمر بن علي بن أبيه: «سمعت علي بن الحسين يقول: كنا نعلم مغازي النبي كما نعلم سورًا من القرآن»[٧٧].

ويروي ابن سعد عن الواقدي أن المغيرة بن عبد الرحمن كان ثقة قليل الحديث إلا مغازي رسول الله (ﷺ) أخذها من أبان بن عثمان، فكان كثيرًا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها[٧٨].

أولى عمر بن عبد العزيز، عندما ولي الخلافة، اهتمامًا بتتبع أخبار الرسول (ﷺ) وأحكامه لأهميتها في السنة التي أراد تثبيتها ليسير الناس عليها، ووردت في ذلك أخبار منها أنه كتب إلى ابن حزم واليه على المدينة: «انظر ما كان من حديث رسول الله (ﷺ) أو سنة ماضية أو حديث عمره بنت عبد الرحمن فاكتبه، فإني قد خففت دروس العلم وذهاب أهله»[٧٩]، وعمرة هي بنت عبد الرحمن ابن سعد بن زرارة من بني النجار، وجدة القاسم ابن محمد، قال فيها عمر بن عبد العزيز: ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة منها. ولما كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن عبد الله بن حزم أن يفحص له عن الكتيبة، أكانت خمسَ رسول الله (ﷺ) من خيبر أم كانت لرسول الله (ﷺ)

خالصة، سأل أبو بكر عنها عمرة بنت عبد الرحمن. وروى ابن إسحاق عن ابنه في ثلاثة عشر موضعا منها ثمانية غير مسندة، عن وفاة آمنه بنت وهب أم الرسول (ﷺ) بالابواء، واستياء عبد الله ابن أبي من عدم إخباره ببيعة العقبة، وعن خروج بني النضير، وعن غزوة بني المصطلق، وصفية بنت حيي، والحديبية، وخيبر، وخبر عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن غزوة مؤتة، وعن أم عيسى الخزرجية.

انصب اهتمام عمر بن عبد العزيز على «السنة» وما يتعلق بأحكام الرسول (ﷺ) المالية فحسب، وهو بعض معالجته تنظيم الأحوال المالية والإدارية.

أما الخليفة هشام بن عبد الملك فكان من أبرز اهتماماته إنماء الحركة الفكرية. وشمل ذلك تدوين سيرة الرسول (ﷺ)، واعتمد في ذلك على الزهري، مما أفاض به الباحثون فيه. ذكرنا أن عبد الملك عندما أراد معلومات عن سيرة الرسول (ﷺ) كتب إلى عروة بن الزبير تزويده بها، والواقع أن لعروة في الكتابة الأولى للمغازي مكانة متميزة، ترجع إلى مكانة أسرته، فهو ابن الزبير ابن العوام، وحفيد أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأخو عبد الله الذي أعلن نفسه خليفة بعد وفاة يزيد، ومد سلطته ردحًا من الزمن إلى الحجاز ومصر والعراق وبعض الشام، إلا أن عروة لم ينضم إلى أخيه عبد الله، فلما سمع بمقتله سارع إلى الشام، وأخبر عبد الملك بذلك قبل أن يصل كتاب الحجاج بالخبر، واحتفظ بعلاقة طيبة مع الخلفاء الأمويين، وكان يقيم في قصر خارج المدينة، وكان من علماء المدينة المرموقين، مقربًا من عمر بن عبد العزيز إبان ولايته المدينة وتوفي سنة ٩٣هـ.

ذكرنا في موقف عبد الملك بن مروان من تدوين أخبار الرسول (ﷺ) الأسئلة التي وجهها إلى عروة في بعض أخبار الرسول (ﷺ)، وأن الطبري نقل هذه الأسئلة بسند عن عبد الوارث بن عبد الصمد، عن أبيه عن أبان العطار، الذي روى عن عروة معلومات أخرى عن سيرة الرسول (ﷺ) لم ينص أنها من الإجابات عن أسئلة عبد الملك، وإن كان من المحتمل أن يكون بعضها أو ربما كلها من هذه الإجابات.

روى الطبري عن ابن وهب بن عبد الرحمن عن أبيه أن عروة كتب إلى الوليد بن عبد الملك جوابا عن سؤال الوليد عن قصة فتح مكة[٨٠]، وعن تاريخ وفاة خديجة[٨١]، وأنه كتب إلى جبيرة صاحب الوليد بن عبد الملك على سؤاله عن قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾**[٨٢].

أشار الزهري إلى مكانة عروة ووصفه بأنه «كان بحرا لا يكدره الدلاء»[٨٣]، وذكر ابن النديم أن لعروة كتابا في المغازي رواه أبو حسان الزيادي[٨٤]، وقال ابن سعد إن عروة احترقت كتبه[٨٥]، ولم يكن عنده خط مكتوب من الحديث إلا مغازيه، أخذها من أبان بن عثمان[٨٦]، وذكر أن عروة «أول من ألف في السيرة[٨٧]، وقال الدكتور مصطفى الأعظمي: إن مغازي موسى بن عقبة تكاد تتفق حرفيًا مع مغازي عروة، وأن موسى اعتمد على الزهري، ونقل أصحاب الصحاح كثيرًا عن عروة[٨٨]. ويروي ابن النديم

أن أبا حسان الزيادي كان من كتبة «كتاب مغازي عروة بن الزبير»[٨٩].

جمع الدكتور مصطفى الأعظمي ما رواه أبو الأسود عن عروة في المغازي عندما قدم مصر سنة ١٧٤هـ، وأشار إلى أقوال الآخرين عنه، وهي نصوص كثيرة، بعضها طويل، استوعبت معظم ما رواه عروة، تشمل تهيّأ الرسول (ﷺ) لاستلام الوحي وبدء الوحي، وصلاته الأولى من بدء الوحي، وتسمية المهاجرين إلى الحبشة، وقصة الغرانيق، والمقاطعة ونقضها، وعرض الدعوة على القبائل وأهل الطائف، والإسراء والمعراج، والعقبتين الأولى والثانية، وهجرة المسلمين والصحابة، وغزوة بدر، ومن شهدها، وقتل كعب بن الأشرف، وإقصاء بني النضير، وأخبار عدد من الغزوات، وحديث هرقل مع أبي سفيان، ثم حجة الوداع ووفاة الرسول (ﷺ)، وكتبه إلى كل من أهل نجران وثقيف وهجر وأيلة، وخزاعة.

اعتمد الأعظمي على النصوص المروية، ورتبها على غرار الترتيب الذي اتبعه ابن هشام لمغازي ابن إسحاق، وهي تعبر عن فكرة عامة وليست كاملة عن نطاق بحثه، وتظهر الاهتمام الشعبي و«غير الرسمي» في بحث المغازي في الحجاز.

موسى بن عقبة

من المؤلفين الأوائل في المغازي موسى بن عقبة ابن عياش، كان هو وأخوه محمد موالي الزبير بن العوام، وأمهما بنت أبي حبيبة مولى الزبير، وكانا من الفقهاء المحدثين، وتوفي موسى سنة ١٤١هـ[٩٠] قبل ثورة محمد النفس الزكية.

وضع السخاوي موسى بن عقبة في أول قائمته عن كتاب السيرة، ونقل مؤيدا أقوال مالك بن أنس أن كتاب موسى بن عقبة أصح السير[٩١]، وقال الذهبي: إنّ مغازي موسى بن عقبة أصح المغازي[٩٢].

ذكر ابن سعد أن موسى بن عقبة أخذ كتب ابن عباس[٩٣]، وقال الدكتور مصطفى الأعظمي :إنّ أكثر اقتباسات موسى تنتهي بالزهري، ونشر سخاو مخطوطة لموسى بن عقبة محفوظة في متحف برلين ٢٥٥٤، وترجمها إلى الألمانية، وكتب عنها بحثًا، واختصرها ابن عبد البر بعنوان «الدرر في المغازي والسير» ونقل عنه ابن حجر كثيرا في «الإصابة»، وابن سيد الناس في «عيون الأثر»؛ والذهبي في الجزء الأول من كتابه «تاريخ الإسلام».

ونقل الواقدي روايات لموسى بن عقبة عن طريق جده لأمه أم حبيبة[٩٤]، وعن رواة آخرين منها واحدة عن عمر، وثلاثة عن مقتل عثمان، واثنتان عن الزبير، ولم يرو عنه في مغازي الرسول(ﷺ) سوى خبر واحد[٩٥].

ونقل الطبري عن موسى بن عقبة عشرة نصوص، منها ثلاثة عن طريق الواقدي[٩٦]، وثلاثة عن طريق مصعب الزبيدي[٩٧]، واثنان عن طريق سيف بن عمر[٩٨]، وواحد عن طريق ابن جريج[٩٩].

ونقل الذهبي عن موسى بن عقبة خبر الغرانيق[١٠٠]، وعرض الرسول (ﷺ) دعوته على بعض القبائل[١٠١]، واخبار عن عدد من الغزوات[١٠٢]. ■

الحواشي

١- الأحزاب: ٢١
٢- الحشر: ٧
٣- الأنفال: ٢٤
٤- ال عمران: ٢٢، ١٣٢، محمد: ٣٣
٥- النساء: ٨٠
٦- النساء: ١١٥، محمد: ٢٠
٧- النساء: ١٤
٨- فصلت: ٣٤
٩- آل عمران: ١٥٩
١٠- آل عمران: ١٥٩
١١- الشورى: ٣٨
١٢- انظر تفاصيل أوفى في كتابنا، دراسات في نشأة الحركة الفكرية في الإسلام.
١٣- ابن سعد:٢-٥، تفسير الطبري:١/٦٣٧.
١٤- الموطأ:١/٣٤، ١٠٧.
١٥- رسالة الصحابة:١٢٥.
١٦- ذكر للإشارات إلى ذلك.
١٧- كريب.
١٨- مقسم.
١٩- أسد الغابة:١/٩٣، سير أعلام النبلاء:٣/٢٣٥ - ٢٧٢.
٢٠- ابن سعد:٥/٢٥٦، ابن أبي خيثمة:٣٢، سير أعلام النبلاء:٣/٧٦٩، ٣٢.
٢١- الترمذي:٢١.
٢٢- انظر المغازي للواقدي: ٢/١٤١، ١٧٩، ١٨٠، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٥، ابن حنبل:٢/١٠٤، ١١٣، ١/٢٥٩، ٢/٢٠٠، ٣/١٨٤.
٢٣- التهذيب: ٤/٦٩.
٢٤- ابن حنبل:٥/٢٢، الإصابة :٢/٣.
٢٥- تاريخ الطبري:١/١١١.
٢٦- أنساب الأشراف للبلاذري: ١/ ٣٢٢، ٥٣٧.
٢٧- الإصابة : ١/١٣٣، ابن سعد:١/٢٢٢، ٢٨٩، أنساب الأشراف:١/١٠٩.
٢٨- السيرة لابن اسحاق:١/ ٣٦٤، ٣٨٣، ، أنساب الأشراف:١/٢٢٧، ٢٨٩، ١٨٥، ٥٠٩، ابن سعد:١/٣٢٢، ٤٨٩، ٤٩٠، ٥٠٢، ٣/٢٠، ابن حنبل:٣/٤٤٨، ٤/٣٠٢، الطبري:١/٣٦٤، ، ١٥٥٧، ١٦٠٩، ١٧٨٢
٢٩- ابن سعد: ٥/١٥٥.
٣٠- أخبار مكة للفاكهي: ١٩١، ١٨٤٣، ٢٠١٧، ٢١٨٩، ١٩١٦، ١٨٠٧.
٣١- مروج الذهب:٣/٣١.
٣٢- مروج الذهب: ٣/٦٤، ١١٣.
٣٣- الموفقيات:٢٢١.
٣٤- تفسير الطبري:٩/١٦٢.
٣٥- تفسير الطبري:١/١٧٧.
٣٦- تفسير الطبري:١/١٨٨.
٣٧- تفسير الطبري:٩/١٦٢.
٣٨- تفسير الطبري:١/١٦٥٢.
٣٩- تفسير الطبري:٨/١٦٣.
٤٠- تفسير الطبري:٢/١٦٩.
٤١- تفسير الطبري:٤/١٥٢٤.
٤٢- تفسير الطبري:١/١٢٣٤.
٤٣- تفسير الطبري:٢/١٦٢٣.
٤٤- تفسير الطبري:٩/١٣٦.
٤٥- تفسير الطبري:١/١٦٥٤.
٤٦- تفسير الطبري:١/٢٦٦.
٤٧- تفسير الطبري:١/١٤٠١.
٤٨- تفسير الطبري:١/١١٢٩.
٤٩- تفسير الطبري:١/١١٢٩، ١١٤٥، ١٧٨٨.
٥٠- ابن سعد:٥/٨٩.
٥١- ابن سعد:٥/٢٦، وانظر الطبري:٢/٧٨١.
٥٢- سيرة ابن هشام:١/٢٥٩، ٣٤٠، ٢/٧٦، ٣/٢٨٧.
٥٣- السيرة:٤/٢٣٩.
٥٤- ابن سعد:١-٢/٩١، ٩٢، ١١٨، ١٢٣، ١٥٢؛ ٢-١/٧١، ١٢٧؛ ٢-٢/١٤، ١٠٥، ٢٩٠؛ ٣-١/٧١، ٤-١/١٦.
٥٥- تفسير الطبري:١/١٥، ٣٢، ١٤١.
٥٦- تفسير الطبري:١٤/٨٧، ٢٠/٦، ١٩، ٣/٢٧، ٣١.
٥٧- تفسير الطبري:٤/١٢٦.
٥٨- تفسير الطبري:٧/١٧.
٥٩- تفسير الطبري:٧/٨٦.



٦٠- تفسير الطبري:١٣٢/٧.

٦١- تفسير الطبري:٦/٤.

٦٢- ابن سعد:٢٨٧/٥.

٦٣- ابن سعد:٣-٥٢/٢.

٦٤- ابن سعد:١-٥٧/٢.

٦٥- ابن سعد:٢-١٢٤/٢.

٦٦- السيرة: ١٧٩/١.

٦٧- السيرة:٥٧.

٦٨- السيرة:١٤٠/٢.

٦٩- السيرة:١٩٣/٣.

٧٠- السيرة:٣٣٤/٣.

٧١- السيرة:٣٥٧/٣، ٣٦١، ٢٦٤

٧٢- السيرة:٢٧٣/٣.

٧٣- السيرة:٤١٣/٣.

٧٤- السيرة:٢٣٩/٣.

٧٥- السيرة:١٧٩/٣.

٧٦- الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني:٨٩٦/٩.

٧٧- ابن سعد: ٨/٦-٧.

٧٨- البداية والنهاية لابن كثير:٦٦/٥.

٧٩- ابن سعد:٢-١٢٤/٢، ٢٥٣/٥، مسند الدارمي:١٠٤/١، تقييد العلم للخطيب البغدادي: ١٠٦، فتح الباري:١٩٢/١٠.

٨٠- فتح الباري:٣٧١/٨.

٨١- فتح الباري:١٢٥/٧، تفسير الطبري:١٦٣/٩، فتح الباري، ٢٧/٨، ٢٥٧.

٨٢- ابن سعد: ٨/٦-٧.

٨٣- تاريخ دمشق:٢١٢/٥.

٨٤- الفهرست:١٢٢

٨٥- ابن سعد: ١٣٣/٢.

٨٦- ابن سعد:١١١٦/٥؛ وفيات الأعيان:٨٦/٩.

٨٧- البداية والنهاية: ٢١٥/٩؛ فتح الباري:٢٣/٢.

٨٨- انظر، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي من مادة عروة.

٨٩- ابن سعد:١٣٣/٢.

٩٠- ابن سعد:٣٣٩/٥-٣٤١.

٩١- الاعلان بالتوبيخ:٢٣٤، علم التاريخ عن المسلمين:٢٥٢.

٩٢- الاعلان بالتوبيخ:٢٤٤، تهذيب الكمال :١١٩/٩.

٩٣- ابن سعد:٢١٦/٥.

٩٤- المغازي:٢٩٨١/١، ٢٣١٩، ٢٠٧٣، ١٢٢١/٢.

٩٥- المغازي:٢٥٠١/١.

٩٦- تاريخ الطبري:٢٣٣١/١، ٢٧٥٥، ٢٩١٨.

٩٧- تاريخ الطبري:٢٩١٨/١، ٢٠٧٣، ٢١٠٤.

٩٨- تاريخ الطبري:١٨٥١/١، ٢٠١٤.

٩٩- تاريخ الطبري:١٥٠١/١.

١٠٠- تاريخ الإسلام : ١٤٩/١.

١٠١- تاريخ الإسلام :٢٣١/١.

١٠٢- تاريخ الإسلام :١/ ٦٢، ٢٥٩، ٢٧٢، ٢٨٠، ٢٩٠، ٣٤٤.

تاريخ العلماء وفهارس المصنفات في المصادر العربية

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الرابع والثلاثون - الجزء الأول

1983 - 1403

تاريخ العلماء وفهارس المصنفات

في المصادر العربية

الدكتور صالح أحمد العلي

(رئيس المجمع)

عُني العرب بالتاريخ وأخبار الماضين منذ الأزمنة السابقة للاسلام ، ويتجلى هذا في عنايتهم بالانساب وتفاخرهم بالآباء، وتناقلهم أخبار الاعمال المجيدة التي قام بها اسلافهم . وقد عزز الاسلام هذا الاهتمام ووسّعه، فأمر القرآن الكريم الناس ان يدرسوا أحوال الماضين وماحدث على المجتمعات من تطورات حضارية، ويفكروا في اسباب ازدهارها وانهيارها ؛ وذكر اخبار عدد غير قليل من الأمم الغابرة والمجتمعات القديمة ، فضلاً عمّن عاصر ظهور الاسلام ، كما ذكر عدداً من الحكام القدماء والانبياء واعمالهم ومالاقوه، وقد اصبح ماأورده القرآن الكريم في ذلك أساس دراسات واسعة في كتب التفسير ويطلق عليها « الاسرائيليات » لكثرة عنايتها بأخبار الانبياء والذين ارسلوا لبني اسرائيل ، وهي تبحث في حياتهم ولا تتطرق الى تاريخ العلماء ، ولذلك لن ندخلها في بحثنا الحالي .

وبعد أن آمن العرب بالاسلام وتثبتت دعائم الدولة الاسلامية التي كوّنوها ومدّوها من أواسط آسيا حتى المحيط الاطلسي ، تابعوا عنايتهم بدراسة أحوال الماضي وتناقل أخبار أعمال الماضين وإنجازاتهم وما هوجدير بالذكر . وعندما انتشر استعمال الورق وكثر التدوين وتأليف الكتب؛ كان للتاريخ نصيب وافٍ من ذلك ، فألفت كتب كثيرة في مواضيع خاصة محددة ، أو في مواضيع متعددة ، وعن ازمنة طويلة ، وظهرت كتب كثيرة تحمل في عنوانها كلمة « أخبار » أو « تاريخ » ومن حيث العموم كانت الكتب التي في عنوانها

« أخبار » تحتوي مادة عن منجزات الرجال في الماضي ، دون مراعاة دقيقة للترتيب الزمني ، اما التي تحمل عنوان « تاريخ » فكانت أكثر مراعاة للترتيب الزمني وتحديداً لسني حدوثها ، وكان أكثر ماتطلق على الكتب المؤلفة في رجال أهل الحديث ، ثم امتد استعمالها الى دراسة الحوادث ، وتطورت فيما بعد فأصبح عنوانها « الطبقات » ويقصد بذلك ترتيب مادتها بفصول « طبقات » تضم كل طبقة بحثاً عمن ظهر في زمن متقارب . وكانت كتب « الأخبار » أو « التاريخ » أو « الطبقات » منوّعة بتنوع جوانب المعرفة ، وفي كل جانب عدد غير قليل من الكتب .

كتب التاريخ العام والعلم عند الامم غير العربية

غير أن أكثر ماكانت تطلق كلمة « التاريخ » هو على مايعنى بالحوادث ، وهي اما كتب تبحث في حادثة معينة او احوال جماعة معيّنة وتبحث في حوادث كثيرة عبر مدة طويلة من الزمن ، وكانت أكثر عنايتها بالحوادث السياسية ، غير أن بعضها تطرق الى العلماء والأفكار العلمية ، كما ان بعضها اختص بتاريخ أمة أو علم معين .

كانت عناية مؤلفي التاريخ منصبّة على العرب وانجازاتهم ، غير أن كثيراً منهم لم يغفل ذكر الأمم الاخرى وانجازاتها . وأبرز الكتب الاولى في التاريخ العام هي تاريخ الامم والملوك لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٤) وتاريخ أحمد ابن واضح اليعقوبي (ت ٣٢٠) وكتب المسعودي (ت ٣٤٦) .

بحث الطبري في أول كتابه الضخم فكرة الزمن والوقت ، وبدء الخليقة ، ثم خلق آدم وهبوطه والاحداث القديمة ، والبارزين من الأنبياء الاولين ، وكبار ملوك الفرس وملوك بابل ، وانبياء بني اسرائيل ، والمسيح ، وملوك الاغريق والرومان الأولين ، ودول العرب ، ثم ملوك الفرس الساسانيين ، ثم تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام الى سنة ٣٠٢ .

عني الطبري بسرد الحوادث السياسية ، غير انه تطرق في مقدمته الى جوانب هي من صميم علم الفلك (الزمان والوقت والسماء) وذكر بعض الأمور الادارية والعمرانية ، ولكنه لم يبحث مايتصل بالعلم والعلماء ، علماً بأن الطبري أُلَّفَ كتباً اخرى في تفسير القرآن ، والفقه ، وفيها معلومات إضافية لبعض جوانب التاريخ .

أما اليعقوبي (ت ٣٢٠) فقد ألف كتاب «البلدان» ، وفيه وصف جغرافي وبشري لأقاليم العالم الاسلامي ، وكتاب «التاريخ» الذي بحث فيه تاريخ بعض الامم وبعض مايتصل بالعلوم والطب ، حيث انه تحدث عن الانبياء الاولين أو انبياء بني اسرائيل وملوكهم ، والمسيح والاناجيل ، وملوك السريان ، ونينوى وبابل والهند واليونان ، وتحدث عن كتب ابقراط ، وجالينوس ، واقليدس ، ونيقوماخوس ، وارسطو ، وبطليموس ، ثم عن ملوك اليونان والروم والفرس ، وعن ملوك الصين ، ومصر ، والبربر ، والحبشة ، والبجة ، وعن ملوك العرب في اليمن والشام والحيرة ، وعن بعض عقائد العرب وأديانهم والازلام والشعراء والاسواق ، ثم عن تاريخ الاسلام منذ زمن الرسول الى آخر خلافة المعتمد سنة ٢٥٠ هـ ويتبين من هذا ان اليعقوبي عني بذكر العلم ، وخص بعض علماء الطب والرياضيات والجغرافية بعناية خاصة ، وكان ماكتبه في ذلك معتمداً ذا قيمة .

أما المسعودي (ت ٣٤٦) فانه ألَّف أكثر من عشرين كتاباً ، لم يصل الينا منها الا كتابا « مروج الذهب ومعادن الجوهر » و « التنبيه والاشراف » الذي يبدو أنه آخر كتبه ، وقد ذكر في هذين الكتابين أسماء بعض كتبه المفقودة ومحتوى بعضها ، وهي تتناول جوانب ثقافية وعقائدية وفكرية متنوعة ، وعناوينها مسجوعة ، ومنها كتاب اسمه « أخبار الزمان » وآخر اسمه « التاريخ في أخبار الأمم عن العرب والعجم » .

تكلم السعودي في مروج الذهب عن مبدأ الخليقة والأنبياء الأولين ،

وأخبار الهند وآرائها وممالكها وملوكها ، ثم تحدث عن البحار والأنهار ، ثم عن ملوك الصين والترك ، ثم عاد الى الحديث عن البحار والجبال . ثم عن ملوك الآشوريين والكلدانيين ودول الفرس وملوكها ، وملوك اليونانيين ، وملوك الروم ، ومصر وملوكها ، والسودان واجناسهم ؛ ثم ملوك الصقالبة ، والافرنجة ، والنوكبرد ، وعاد وثمود ، ومكة ، واحوال البلدان ، وملوك اليمن والحيرة وغسان ، واقوال العرب وعقائدهم والكهان ، ثم تحدث عن السنين والشهور عند السريان والفرس والقبط والعرب ثم عن طبائع البلدان ، والبيوت المعظمة ؛ ثم تحدث عن تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام الى زمنه ، وتطرق في كلامه الى كثير مما يتصل بالعلوم ورجالها ، والكتب ومؤلفيها .

أما كتاب التنبيه والاشراف فقد أتم تأليفه في سنة ٣٤٥ تحدث فيه عن الأفلاك والنجوم ، وقسمة الأزمنة والفصول ، والأقاليم ، والبحار ، والأمم القديمة ، ثم فصّل في الكلام عن ملوك الفرس القدماء والساسانيين واليونانيين والروم والانبياء ، وسنيّ الأمم وشهورها ، ثم تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام حتى خلافة المطيع . ويتبين من هذا التلخيص أنه عني بما يتعلق بالفلك والجغرافية ولكنه ذكر معلومات قيمة عن أحوال الأمم الاخرى مما له علاقة بالعلم وتطوره .

وتجدر الإشارة هنا الى أن المسعودي ذكر في أول كتاب مروج الذهب أسماء عدد كبير من المؤلفين في التاريخ ، وأشار الى ان بعضهم تناول تواريخ الأمم الاخرى (١ / ١٣ — ١٥) غير أن معظم الكتب التي ذكرها فقدت ، ولم ينقل أحد عنها ، بل ان كثيراً منها لاتوجد عنها أو عن مؤلفها أية أشارة.

وألف صاعد بن أحمد الأندلسي (٤٢٠—٤٦٢ هـ) كتاب « طبقات الأمم » وهو كتاب صغير الحجم ، ولكنه ذو قيمة كبيرة لما احتواه من معلومات غنية ، وملاحظات ذكية ، وأحكام رصينة ، ونظرة شاملة . فقد تحدث فيه عن الأمم القديمة ، واختلافها في مدى العناية بالعلوم ، وأشار الى الأمم التي

لم تعن بالعلوم، ثم تحدث عن الأمم التي عنيت بالعلوم ؛ فذكر العلم عند كل من الهند ، والفرس، والكلدان ، واليونان ، والروم ،وأهل مصر ،والعرب ، وبني اسرائيل ؛وكان كتاب صاعد معتمد عدد ممن ألف في تاريخ العلوم ، فأكثروا النقل عنه ، وخاصة ابن أبي اصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » .

ويجدر ان نشير الى ان عدداً من الجغرافيين العرب تحدثوا عن بلاد الروم ومن أبرز من تكلم عن ذلك ابن خرداذبه في كتابه « المسالك والممالك» وابن رسته في كتابه «الاعلاق النفيسة» ، والشريف الادريسي في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . فضلاً عما كتبه المسعودي وخاصة في مروج الذهب ومن الطبيعي ان المعلومات التي أوردوها تتعلق بالاحوال الجغرافية والادارية والسكانية ، ولا تتطرق الى النشاط العلمي .

عرفت في العربية عدة كتب عنوانها « التاريخ » وهي تختص بالأمم الأخرى وتدل الاشارات اليها والمقتبسات منها على انها كانت تبحث في تاريخ العلماء، ويدل عنوانها على ان كلاً منها بحث أكثر من عالم ، وان مادتها مرتبة ترتيباً زمنياً .

ومن هذه الكتب «كتاب تاريخ الروم» و « كتاب أدب الروم » (ابن النديم ٣٦٥) ، وكتاب التاريخ لفرفوريوس الصوري ، وهو كتاب سرياني ذكر ابن النديم انما تكلم فيه عن أول الفلاسفة (٣٠٦) ولعله هو نفس كتاب «أخبار الفلاسفة » الذي ذكر انه لفرفوريوس (٣١٦) . وقد ذكر ابن أبي اصيبعة لفرفوريوس كتاباً عنوانه« أخبار الفلاسفة وقصصهم وآراؤهم » (٦٣، ٦٩)، وذكر القفطي أنه وجد من هذا الكتاب المقالة الرابعة بالسريانية (٢٥٧)

عقد ابن النديم في كتاب «الفهرست» فصلاً عنوانه « أسماء كتب الروم

في الاسمار والتواريخ والخرافات وأمثالهم » وذكر فيه : تاريخ الروم ، سمه ودمن ، موديانوس في الأدب ، انطون السائح وملك الروم ، محاورة الملك مع ماريوس ، ديسوب وراحل الملكين، سماس العالم في الأمثال ، العقل والجمال ، خبر ملك لد ، سطرنيوس الملك وسبب تزويجه يساراد الفقصة » (٣٦٥) غير انه لم يذكر مؤلفي أومترجمي هذه الكتب التي تدل عناوينها على أنها كتب قصص وليس فيها شيء عن العلوم .

وذكر حمزة الاصفهاني أنه قرأ في كتاب مصنف في أخبار اليونانيين قد نسب نقله الى حبيب بن بهريز مطران بالموصل (تاريخ سني ملوك الأرض ٧٢) وحبيب هذا من المترجمين « فسر للمأمون عدة كتب » (ابن النديم ٣٠٤) ولخص باري ارميناس (ابن النديم ٣٠٩) .

ذكر ابن جلجل في مطلع كتابه « طبقات الاطباء » انه ألّفه لشريف « لم ير لأحد من المتقدمين كتاباً مرضياً ولا كلاماً مقنعاً » عن أول من وضع صناعة الطب وتكلم فيها في بدء الزمان وقبل الطوفان وبعده ، وفي أي زمان كان كل متكلم فيه ممن شاع اسمه وفشا ذكره ، وصحت براعته ، وتمت حكمته وخلّد علماً نافعاً ، وذكراً باقياً ، وذكر أنه الف كتابه « بعد النظر والبحث في الكتب القديمة ، ككتاب الألوف لابي معشر المنجم وكتاب هروشيش صاحب القصص وكتاب القروانقة ليرونيم الترجمان ، وكأخبار رأيتها لحكماء اليونانية استدللت بها على مكان كل حكيم منهم ودرجته ، وفي دولة من كان من الملوك » فامّا هروشيش فهو مؤرخ اسباني عاش في القرن الرابع والخامس بعد الميلاد واسمه بولس اوروسيوس ، وقد اهدى ملك البيزنطيين الى عبدالرحمن الناصر كتاب هوروسيوس مع كتاب ديسقوريدس ، ووصفه ابن جلجل بقوله « كتاب هروشيس صاحب القصص وهو تاريخ للروم عجيب ، فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول ، وفوائد عظيمة » ونقل عنه ابن خلدون بعض

الأخبار ، كما نقل عنه المقريزي في الخطط وسماه « وصف الدول والحروب »، ونقل عنه ابن جلجل وصف هيكل المستقلابيوس (١١) وفي ترجمة بطليموس (٣٦) ، وقد ترجمه قاسم بن أصبغ الى العربية ومن الكتاب نسخة فريدة بالعربية مخطوطة في جامعة كولومبيا ٨٩٣/٧١٢ انظر ما كتبه فؤاد السيد في مقـــدمة كتاب طبقات الاطباء لابن جلجل اما يرونيم الترجمان فهو سفرونيوس يوسيبيوس ايرونيموس (٣٣١-٤٢٠) ، وقد اشتهر باسم القديس اويرونيم ، والف كتابه القروانقة باللاتينية ، وهو ترجمة كتاب يوسيبوس القيسراني اسقف قيسارية ، مع اضافات كثيرة وقد نقل عنه ابن العبري كثيراً (٤٣/ ٤٨/ ٥١/ ٦٢/ ١٢٩) كما نقل عنه ابن ابي اصيبعة في كتابه «عيون الانباء» (١/ ٧٢/ ٧٣) وقد نشر هذا الكتاب ضمن مجموعة كتب الآباء اللاتين ، واعاد نشره فاذرنكهام سنة ١٩٢٣ (انظر ما كتبه فؤاد السيد في مقدمته لطبقات الاطباء لابن جلجل ج ــ ك) ونقل ابن جلجل عنه نصاً في ترجمة جالينوس (ص ٤١) ذكر انه نقله عن بشير الاشبيلي المطران ، والراجح انه ايسيدور الاشبيلي اسقف اشبيلية (٥٧٠-٦٣٦) الذي ألف ايضاً كتاب « الاصـــول أو الاشتقاق » وقد نشر ضمن مجموعة الآباء اللاتين (ج ٨٢) وقد يدل اقتباس ابن جلجل منه انه كان مترجماً الى العربية .

ذكر ابن النديم ان لمحمد بن موسى الخوارزمي كتاباً في التاريخ (٣٣٣) وقد نقل عن هذا الكتاب الياس النصيبي معلومات عن حوادث من حياة الرسول الى سنة ١٦٨ (بروكلمان ٤/١٦٥) ، وأشار اليه حمزة الاصفهاني في كتابه تاريخ سني ملوك الأرض (١٤٤) .

وذكر ابن النديم ان لأبي يوسف ايشـــع القطيعي النصراني كتابا في « الكشف عن مذاهب الحرانيين المعروفين بعصرنا بالصابيين » (١٨٣) .

وذكر ابن النديم ايضاً ان قسطا بن لوقا عمل « الفردوس في التاريخ » ، وانه نقل « نوادر اليونانيين » و « شرح مذاهب اليونانيين » (٣٥٣) .

وأشار ابن النديم الى تاريخ إسحاق الراهب (٣٠١) وقال إن فيه ذكراً لبطليموس ولأفلاطون (٣٠٧) .

ولابد أن كتب « المواليد » و « تحاويل السنين » تتناول شيئاً من تواريخ الأمم الاخرى وخاصة اليونانيين والروم والفرس ، وتذكر بعض حوادثها ، وقد ذكر ابن النـــديم أن سهل بن نوبخت وهو من المشرفين على خزانة بيت الحكمة في زمن هارون الرشيد (٣٣٢) له كتاب النهطمان (٢٣٣) وفيه كلام عن بابل (٢٩٩) وعن الفرس (٢٩٩)، فضلا عن كتب اخرى في المواليد (٣٣٣) وقد بقيت من كتبه قطعة من « أسرار أحكام النجوم » (بروكلمان ٤/٢٠٠) .

ذكر أبو سليمان المنطقي أن أبا معشر البلخي له كتاب « في أخبار الأمم السالفة من المغربيين » (منتخبات صوان الحكمة ٦٣) .

وذكر ابن النديم لأبي معشر كتاب « اختلاف الزيجات » ، ونقل ماذكره عن عناية ملوك الفرس بالكتب (٣٠١) ، وقال قرأت بخط ابي معشر ان مرابا كان منجم بختنصر » (٣٣٠) .

ووصف القفطي أبا معشر بأنه « كان أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر الأمم » (أخبارالحكماء ١٥٣) ونقل عنه في عدة مواضع أقوالا عنهرمس (٦) وعن مرابا (٣٢٢) وعن هرمس البابلي (٣٤٧) وعن كنكة الهندي (٢٢٥) وعن المترجمين لنسخ المجسطي (١٨٧) وعن عمر بن الفرخان (٢٢١) ومحمد بن الجهم (٢٨٤) ومحمد بن موسى المنجم (٣٥٨) والكندي (٣٧٧) وأشار القفطي الى كتاب « المذكرات لشاذان » لابي معشر (٢٤١) غير أن أشهر كتاب لابي معشر هو كتاب « الالوف » الذي تكثر اليه الاشارة ، ولكنه لم يصل الينا كاملا (انظر الآثار الباقية ٢١٥) وقد نقــل عنــه ابن جلجل

والبيروني (الآثار الباقية ٢٠٥) . وهو يذكر الهياكل والبنيان العظيم الذي يحدث مرة كل الف سنة ، ومن المعلوم أن أبا معشر من أشهر الفلكيين والمنجمين ، وأنه ألف كتباً في المواليد وفي تحاويل السنين .

ومن كتب التاريخ التي ذكرت لعلماء الاعاجم هو كتاب علي بن يحيى النديم الذي كان مقربا للفتح بن خاقان « وجمع له خزانة » (ابن النديم ١٣٠) وله كتب في « أخبار الشعراء » (١٦٠) وجمع في التاريخ كتاباً كان مما ذكره أخبار عن جالينوس الطبيب ، كما ألف كتاب « جوامع كلام أفلاطون في سياسة المدن » (منتخبات صوّان الحكمة ١١) ، ولا نعلم فيما اذا كان هذا هو كتاب « تاريخ سني العالم » الذي ذكر ابن النديم انه لابنه ابي عيسى احمد (ت ١٦١) وأشار اليه المسعودي (١٤/١) ونقل منه ابو الفدا وبقيت منه نصوص نقلتها بعض الكتب .

وذكر المسعودي عند كلامه عن مارون « ولبعض متبعيه من المارونية ، ويعرف بقيس الماروني ، كتاب حسن في التاريخ وابتداء الخليقة والانبياء والكتب والمدن والأمم وملوك الروم وغيرهم وأخبارهم ، انتهى بتصنيفه الى خلافة المتوكل ، ولم أر للمارونية في هذا المعنى كتاباً مؤلفاً غيره .

وألّف جماعة من الملكية والنسطورية واليعقوبية كتباً كثيرة ممن سلف وخلف منهم .

وأحسن كتاب رأيته للملكية في تاريخ الملوك والأنبياء والأمم والبلدان وغير ذلك كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي ، وكتاب سعيد بن البطريق المعروف بابن الفراش المصري بطريرك كرسي مارقس بالاسكندرية ، وقد شاهدناه بفسطاط مصر ، انتهى بتصنيفه الى خلافة الراضي .

وكتاب اثنايوس الراهب المصري رتب فيه ملوك الروم وغيرهم من الأمم وسيرهم وأخبارهم من آدم الى قسطنطين بن هيلاني .

ورأيت لأهل المشرق من العباد كتاباً ليعقوب بن زكريا الكسكري الكاتب وقد شاهدناه بأرض العراق والشام يشتمل على أنواع من العلوم في هذه المعاني ، يزيد على غيره من كتب النصارى .

وكتاباً لليعاقبة في ذكر ملوك الروم واليونانيين وفلاسفتهم وسيرهم وأخبارهم ، ألفه أبو زكريا دنخا النصراني وكان متفلسفاً جدلاً نظّاراً ، جرت بينه وبيني مناظرات كثيرة ببغداد في الجانب الغربي بقطيعة أم جعفر وبمدينة تكريت في الكنيسة المعروفة بالخضراء في الثالوث وغيره ، وقد أتينا على ذكرها في« كتاب المسائل والعلل في المذاهب والملل» وفي كتاب « سر الحياة » وذلك في سنة ٣١٣ » (التنبيه والأشراف ١٣٢—١٣٣) .

لم يبق من الكتب التي ذكرها المسعودي سوى كتابي محبوب المنبجي وسعيد بن البطريق ، وكلاهما لا يفصلان في تاريخ العلوم والعلماء .

وذكر المسعودي في مقدمة كتابه « مروج الذهب » عدداً ممن سبقه في تأليف كتب في التاريخ ، وذكر وصف أو أسماء بعض هذه الكتب ، وكلها مفقودة ولم نجد لمعظمها إشارات في الكتب الاخرى ، وتدل أوصافها أو عناوينها على أنها بحثت أحوال الأمم الاخرى وربما تطرقت الى العلوم . ومما ذكره عن عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبه « فانه كان إماماً في التأليف متبرعاً في ملاحة التصنيف ، اتبعه من يعتمد وأخذ منه ومضى عقبه ، وقفا أثره ، واذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر الى كتابه الكبير في التاريخ فانه أجمع هذا الكتب جسداً وأبرعها نظماً ، وأكثرها علماً وأحوى لأخبار الأمم وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها » (٢٢/١) .

وذكر المسعودي أيضاً « كتاب داوود بن الجراح في التاريخ الجامع الكبير لكثير من أخبار الفرس وغيرهم من الأمم » و « كتاب التاريخ الجامع لفنون من الأخبار والكوائن في الأعصار قبل الاسلام وبعده تأليف ابي عبدالله محمد

ابن الحسين بن سوّار المعروف بابن أخت عيسى بن فرخان شاه ، بلغ في تصنيفه الى سنة ٣٢٠ » « وتاريخ ابي عيسى ابن المنجم على ماأنبأت به التوراة وغير ذلك من أخبار الانبياء والملوك » (٢٣/١) .

ويلاحظ ان المسعودي تحدث في بعض كتبه التي فقدت عن جوانب من العلم والفكر والعلماء ، وخاصة في كتابيه « أخبار الزمان » و « الكتاب الأوسط » (مروج الذهب ١٧/١—١٨) .

ذكر البيروني أن أبا الحسين أحمد بن الحسين الأهوازي الكاتب له كتاب « معارف الروم » ذكر فيه ماعاينه بالقسطنطينية وبلاد الروم ، وأنه « خلط بأهل المراتب المرسومة قوماً وان عظموا ، فليسوا من اصحابها » (الآثار الباقية ٢٨٩) كما ذكر أن أبا الحسين هذا ذكر في كتابه « معارف الروم » صفة المنتصر (الآثار الباقية ٢٩٣) .

وقد أشار البيروني في فهرست كتبه الى كتاب لأبي الحسن الأهوازي . ظلم فيه الخوارزمي فاضطر الى عمل كتاب الوساطة بينهما ناللينو علم الفلك : تاريخه عند العرب ١٧٣—٤ ، ولعله هو نفس مؤلف كتاب معارف الروم . ويلاحظ أن لأحمد بن الحسين الأهوازي كتاب شرح المقالة العاشرة من كتاب اقليدس بقيت منها عدة نسخ مخطوطة (بروكلمان ١٨٣/٤) .

وذكر حمزة الاصفهاني أنه أخذ تواريخ الروم من رجل رومي كان فراشاً لأحمد بن عبدالعزيز بن دلف » (تاريخ سني ملوك الأرض ٦٣) . كما وذكر أنه أصاب « في كتاب صنفه قاض من قضاة بغداد يقال له وكيع فصلا من تواريخ ساقها ابتداءاً من ملك قسطنطين الى سنة ٣٠١ » (٦٣) ولعله يشير بذلك الى كتاب الطريق لوكيع ، ويذكر حمزة « قال وكيع نقلت هذه التواريخ من كتاب ملك من ملوك الروم تولى نقله من الرومية الى العربية بعض

التراجم » (٦٨) ولكن وكيعاً لم يشر الى اسم الكتاب الذي نقل منه .

المؤلفات العربية في تاريخ العلماء .

عني العرب أيضاً بدراسة العلماء وأخبارهم ، وألّفوا في ذلك كتباً خاصة ، وأكثر من لقي اهتماماً بالتأليف هم الاطباء والحكماء ، علماً بأن العلاقة بين الطب والحكمة كانت وثيقة ، وأقدم ما كان في العربية منه هو تاريخ الاطباء والحكماء ليحيى النحوي،قال عنه أبو سليمان المنطقي « تاريخ يحيى النحوي وهو الذي يسميه الناس المحب للشعب ، فانه كان إذا همّ بشيءٔ من الأشياء بحث عنه بحثاً مستقصى ونقب فيه نقباً كثيراً ولم يأت به الا على الصحة والجودة » (منتخبات صوان الحكمة ٢٠ ، القفطي ٩٢) . ذكر أبو سليمان أن يحيى عاش في صدر الاسلام، وكانت له علاقة وثيقة بخالد بن يزيد(٢٣٥)، وانظر ابن النديم ، (٣٥١) وانه رد على ارسطو (٢٣٥) ونقل ابن النديم من تاريخه كلاماً عن نشأة الطب الاغريقي (٣٤٥) وعن بقراط (٣٤٦) وجالينوس (٣٤٨) وديسقوريدس (٣٥١) واقتبس منه اسحق بن حنين في تاريخ الاطباء .

وألّف حنين بن اسحق (ت ٢٦٠) كتاب «نوادر الاطباء والحكماء » ومنه نسخة في الاسكوريال (رقم ٧٥٦) وقد أشار اليه حاجي خليفة (٢٩١٨) وفي مكتبة اسفهسلار بطهران برقم ٢١٦٥ (مجلة معهد المخطوطات ٣٣٢/٦) وفي ميونيخ ٦٥ (٥) ، ومنه أيضاً ومخطوطة سريانية عربية (منجانا ٤٧) وقد ترجم هذا الكتاب الى العبرية ابن سالومو الغريزي وطبع الترجمة العبرية لوبنشال في فرانكفورت ١٨٩٦ ونشر ترجمته الالمانية في برلين ١٨٩٦ كما ترجمه ميرتل الى الالمانية ونشره في ليبزج ١٩٢١ .

وألف اسحاق بن حنين (ت ٢٩٨) كتاب « تاريخ الاطباء » ذكره ابن النديم (٣٤٣ ، ٣٥٦) وأشار الى أن اسحاق تكلم في ذلك الكتاب عن أومروس

(هوميروس) ، وأفلاطون ، وأرسطو (٣١٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨) وأنه اغفل ذكر كرفليفورس (٣٥٠) واروبا سيوس (٣٥٠) ، ونقل عنه ابن أبي اصيبعة في أربعة مواضع تحدث فيها عن كل من سقراط (٧٦) وافلاطون (٨١) وجالينوس (١١٥) وسلمويه ، (٢٣٤) ، ولعل هذا هو الكتاب الذي ذكر ابن أبي اصيبعة انه « كتاب ذكر فيه صناعة الطب واسماء اصحابه من الحكماء والاطباء » كما ذكر ان له كتاب « آداب الفلاسفة ونوادرهم » (عيون الأنباء ويذكر بروكلمان ان نسخة من هذا الكتاب في ميونيخ ٦٥١/٥ ، قد ترجم الى العبرية(١٠٧/٥) .

وقد ذكر البيروني هذا الكتاب فقال « وقد عمل اسحق بن حنين المترجم مقالة في تواريخ مشاهير الأطباء اليونانيين وكبارهم الذين أبدعوا الأصول وقنّنوا القوانين وحافظوا عليها . وزاد اسحق من هذا الفن على الكفاية لولا تناول الفساد مقالته في النسخ والنقل ممن يحصل ولا يصحح ويجمع ولا يطالع (مقدمة الآثار الباقية ٣٨) .

وقد بقيت من الكتاب مخطوطة في مكتبة حكيم اوغلو (رقم ٩٦١) نشرها روزنثال في مجلة Oriens ١٩٥٤ ويبدو منها ان اسحق اعتمد في كتابه على يحيى النحوي ، ووقف في تراجمه على من ترجم لهم يحيى .

وممن عني بتاريخ الأطباء فثيون الترجمان الذي ذكر ابن النديم اسمه عرضاً مع قائمة المترجمين التي اوردها (٣٠٤)، غير أن إبن ابي اصيبعة نقل عنه في عدة مواضع معلومات واسعة عن جرجيس ، وعن ابنه بختيشوع (١٣/١٠ـ١٩٠) وعن جبريل بن بختيشوع (١٩٠ ، ١٩٨) وبختيشوع ابن جبريل (٢٠١ ، ٢٠٦) وعن ماسويه (٢٤٢) (انظر سزكين تاريخ التراث العربي ٢٣١/٣ وممن عني بأخبار الاطباء وتاريخهم يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية ، فقد نقل عنه ابن ابي اصيبعة معلومات كثيرة عن عدد من اطباء العراق في اوائل العصر العباسي ، وتميّز ابن الداية فيما رواه بأنه ذكر مصادره

ومعظمهم من رجال البلاط العباسي . ويتبين من هذه المصادر ان ابن الداية كان مولى لابراهيم بن المهدي (٢٥٦) ، وأنه روى عن ابراهيم بن المهدي عدة أخبار (١٩٥، ١٩٧، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٦) وألف فيه كتاباً (مروج الذهب ٢٢/٣)، كما روى عن العباس بن علي بن المهدي (عيون الأنباء) (٢١٦) وعن زكريا الطيفوري (٢٢٠-٢٢٤) وسليمان الخراساني خادم الرشيد (١٩١) وفرج الخادم (١٩٥) وحميد الطوسي (٢٢٢) واسماعيل بن سهل ابن نوبخت (٢١٩) وعنبسة بن إسحق الضبي (٢٤١) وأيوب بن الحكم البصري الكسروي صاحب طاهر بن الحسين (٢٣٣) وموسى بن اسرائيل طبيب المهدي (٢٣٠) واحمد بن هارون الشرابي (٢٥٠) وصالح بن شيخ ابن عميرة (٢٥١) وميخائيل بن ماسويه (٢٥٦) ، وروى في مصر عن كل من احمد بن هارون الشرابي ، واحمد بن زهرون ، وابراهيم بن علي متطبب احمد بن طولون (٢٤٩) ، وذكر المسعودي كتاب ابن الداية « أخبار المتطببين مع الملك في المأكل والمشرب والملبس» (مروج ٤٤٤/٣) ويجدر أن نلاحظ أن يوسف بن ابراهيم ابن الداية كان رضيعاً للمعتصم ، وأنه عاش ببغداد متصلاً ببلاط الخلافة ، ثم انتقل الى مصر في زمن أحمد بن طولون وكان يعمل في الديوان ، وقد ألف ابنه أحمد كتاب المكافأة الذي احتوى معلومات قيمة عن الاحوال الادارية في العراق ومصر .

ان المعلومات التي نقلها ابن أبي اصيبعة عن ابن الداية تتعلق بأطباء العراق الى زمن المعتصم وهم أبو الحكم الدمشقي ، وابنه عيسى ، وجبريل بن بختيشوع ، وعيسى بن قريش (٢١٦) واللجلاج (٢١٩) وآل الطيفوري (٢٢٠- ٢٣٠) وماسرجويه (٢٣٠) وسلمويه (٢٣٤) وابراهيم بن فزارون (٢٤٠) وجبرائيل الكحال (٢٤١) ويوحنا ابن ماسويه (٢٣٦) وحُنين بن اسحق (٢٥٧) ومنكه الهندي (٤٧٥) .

ولابن الداية كتاب في أخبار المنجمين ذكره ياقوت الحموي (ارشاد الاريب ٢/١٦٠) ، وحاجي خليفة (كشف الظنون ١٩١) .

وممن عني بأخبار الاطباء اسحاق بن علي الرهاوي الذي نقل ابن أبي اصيبعة من كتابه « أدب الطبيب » معلومات واسعة عن كل من يوحنا بن ماسويه (١٩١) ، وبختيشوع (٢٠٧) وجورجيس بن بختيشوع (٢١٥) والطيفوري (٥٢٥) وسلمويه (٢٣٤) وابراهيم الأبرش (٢٤١) وماسويه (٢٤٢ ، ٢٤٦) ومعظم ماذكره الرهاوي منقول عن عيسى بن ماسه الذي ذكر ابن النديم أن له كتاباً في « قوى الأغذية » وآخر بعنوان « من لايحضره الطبيب » (٣٥٤). وقد نقل القفطي عنه نصاً (١٠٢) دون أن يصرح باسمه ، ومن كتاب الرهاوي نسخة ضمن مجموعة في مكتبة سليمية بأدرنة (رقم ٦٩٨) وقد طبعها وترجمها ليفي الى الانكليزية في مطبوعات « مذكرات الجمعية الفلسفية الامريكية » سنة ١٩٦٧، ونشر عنها بحثاً في العدد الصادر تلك السنة من مجلة الجمعية الالمانية للمستشرقين ص ٩٠-١١٢ (اولمان تاريخ الطب عند المسلمين ٢٢٥ سزكين تاريخ التراث ٣/٢٦٨) .

ومن مصادر ابن ابي اصيبعة في أخبار الاطباء هو ابو علي القياني ، فقد نقل عنه معلومات عن بختيشوع بن جبرائيل(٢٠٨) وعبدوس بن زيد (٢٢٨) وسلمويه(٢٣٨) وحنين (٢٧٢) وهو ينقل فيما رواه عن الأول والثالث عن أبيه ، وهويذكر اسم اخيه إسحاق بن علي (٢٢٨) وأن جد أبيه الحسين ابن عبدالله الذي كان صديقاً لسلمويه (٢٣٩) ، ومن الصعب الجزم بأن اسحاق ابن علي أخاه هو نفس اسحاق الرهاوي .

وذكر نالينو ان لأبي الفضل جعفر بن المكتفي (٢٩٤-٣٧٧) كتاب « أخبار الحكماء » (تاريخ علم الفلك) وهو كتاب مفقود ، ولعل ابن النديم اقتبس من هذا الكتاب مانقله عن جعفر بن المكتفي في مايتعلق بالبتاني (٣٣٨) وعن أساليب الروم في كتابتهم وقوانينها (١٨) .

ومن الكتب الشاملة كتاب « طبقات الأطباء والحكماء الذي ألفه في سنة ٣٧٧ هـ سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل (ت ٣٨٤) وهو طبيب أندلسي عاش في زمن عبدالرحمن الناصر الذي وصف عصره بأنه « تتابعت الخيرات في أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم ، وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الاطباء المشهورين » (٩٧) .

يضم « كتاب طبقات الاطباء والحكماء » تراجم سبعة وخمسين عالماً وطبيباً ، منهم ستة عشر إغريقياً ، أما الباقون فكلهم من السريان والعرب ، وفيهم أربعة من اطباء المغرب ، وإثنان وعشرون من أطباء الأندلس . واقتبس في ترجمته للاطباء الاغريق من بعض المؤلفين القدماء ومنهم هوروسيوس ، وجالينوس ، وابقراط ، وابو معشر ، أما معلوماته عن أطباء الأندلس فقد ذكر بعض من نقل عنهم من معاصريه ومنهم أحمد بن يونس الحرّاني ومحمد بن مالك العابدي ، وسليمان بن أيوب الفقيه ، وابن القوطية ، ومحمد ابن عبدون . وتراجمه من حيث العموم مقتضبة . وقد طبع فؤاد السيد هذا الكتاب مع تعليقات غنية .

وممن ألّف في أخبار الأطباء وتأريخهم عبيدالله بن جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع قال عنه ابن أبي اصيبعة كان فاضلاً في صناعة الطب ، مشهوراً بجودة الاعمال فيها ، متقناً لأصولها وفروعها ، من جملة المتميزين من أهلها والعريقين من اربابها ، وكان جيد المعرفة بعلم النصارى ومذاهبهم وله عناية بالغة بصناعة الطب ، وله تصانيف كثيرة فيها ، وأقام بميا فارقين ، وكان معاصراً ابن بطلان ويجتمع به ويأنس اليه وبينهما صحبة وتوفى عبدالله بن جبرائيل في شهور سنة نيف وخمسين وأربعمائة »، وذكر له ابن ابي أُصيبعة من الكتب مقالة في اختلاف الألبان، والروضة الطبية ، والتواصل الى حفظ التناسل ، ورسالة الى ابن قطرمين في الطهارة ووجوبها ، ورسالة في بيان وجوب حركة النفس، وتذكرة الحاضر وزاد المسافر ، والخاص

في علم الخواص ، وطبائع الحيوان وخواصها ومنافع اعضائها ، ونوادر المسائل مقتضبة من علم الاوائل في الطب (٢١٤) .

ألف ابن بختيشوع في سنة ٤٢٧ كتابه « مناقب الاطباء » كما يسميه ابن ابي اصيبعة أو « تاريخ الأطباء » كما يسميه ابن القفطي الذي نقل عنه مايدل على أنه تكلم في كتابه عن اصطيفن (٥٦) وديسقوريدس الكحال (٢٨٤) ومافنوس (٣٢٢) ويحيى النحوي (٢٥٦) ونقل عنه ابن ابي اصيبعة نصوصاً طويلة عن جالينوس (١١١-١١٧) ويحيى النحوي (١٥٢) ويختيشوع (٢٠٧) وجبرائيل (٢١٠) وثابت بن سنان (٣٠٨) ودانيال ، وعمر بن الدحلي ، وفنّون (٣٢١) وابن أبي الأشعث (٣٣١) وعن عضد الدولة ومارستانه ببغداد (انظر خاصة ٤١٥) ، كما نقل ماذكره عن الطبيب المصري ابن مقشر .

وممن عني بدراسة أحوال الطب والأطباء هو المختار بن الحسن ابن عبدون المشهور باسم « إبن بطلان » ، وهو طبيب نشأ ببغداد ودرس فيها الطب والمنطق ، ثم رحل الى الجزيرة والموصل وآمد وحلب حيث أقام مدة ثم انتقل الى مصر ، وقام فيها مدة حصلت بينه وبين ابن رضوان فيها مناظرات فخرج الى انطاكية حيث أقام فيأحد اديرتها الى ان توفي سنة ٤٤٤(ابن أبياصيبعة ٢٩٤) .

ألّف ابن بطلان عدة كتب ، ذكر إبن ابي اصيبعة عناوين عشرة منها ، وقد طبع عبدالسلام هارون منها كتاب شراء العبيد وتقليب المماليك والجواري (نوادر المخطوطات) رقم (٥) ، وطبع شاخت ومايرهوف له خمسة رسائل هي « ان الفرّوج أحسن من الفرخ » و « المقالة المصرية في مناقضات على ابن رضوان » وهي في تفضيل تحصيل العلم من لقاء الرجال على تحصيله من الكتب ، وله أيضاً كتب في الادوية والغذاء .

ووصف رحلته الى انطاكية في كتاب ، كما ألّف كتابين يستدل مما نقله

إبن أبي اصيبعة منهما على أهميتها في دراسة تاريخ الطب والاطباء ، واول هذين الكتابين هو كتاب دعوة الاطباء « ألفها للامير نصر الدولة ابي نصر احمد ابن مروان، وفرغ من تأليفها في أنطاكية سنة ٤٥٠ » (ابن ابي اصيبعة ٣٢٨) وصرح إبن ابي اصيبعة أنه نقل منها معلومات عن إسحاق بن حنين (٢٧٥) ولعل ابن ابي اصيبعة نقل من هذا الكتاب ما رواه ابن بطلان عن الاسكندرانيين (١٥٠) وكتب الدكتور محمود صدقي بك عن الكتاب بحثاً ألقاه في مؤتمر الامراض الاستوائية بالقاهرة سنة ١٩٢٨ وألف ابن بطلان ايضاً عن معالجة الطبيب صاعد للمرتضى (عيون الانبـــاء ٣١٤) ، وقد ضمن في هذا الكتاب أشعاراً كثيرة ونوادر طريفة له (٣٢٨)، وقد طبع بشارة زلزل هذا الكتاب في الاسكندرية سنة ١٩٠ .

ومن الكتب التي تبحث في تاريخ الحكماء بما فيهم الفلاسفة والاطباء والرياضيون كتاب « صوان الحكمة لابي سليمان المنطقي » (ت ٣٧٢) وقد اقتبس من هذا الكتاب كل من ابي حيان التوحيدي في كتابه « المقابسات » وابن ابي اصيبعة في كتابه « عيون الانباء » (٢٩/ ٩١/ ١٥٢ / ٦٠٥) وابن المطران في كتابه « بستان الاطباء » ولكنهم جميعاً سموه « التعليقات » .

ان كتاب صوان الحكمة مفقود ، ولكن يوجد منه مختصر عمله عمر ابن سهلان (فاتح ٣٢٢٢) ومنتخبات عملها الهروي (بشير اغا ٤٩٤، مراد ملا ١٤٠٨ كوبرللو ٩٠٣ المتحف البريطـــاني ٩٠٣٣) وانظـــر مجـــلة **Islamica** ٤/ ٥٣٤-٨ ، وقد طبعه حديثاً دنلوب، ويتبين من المنتخب ن كتاب « صوان الحكمة » احتوى على أقوال لأكثر من ١٣٢ فيلسوفاً وعالماً وطبيباً إغريقياً و ٣٤ عربياً ، مرتبة ترتيباً زمنياً ، ويختلف طول ما أورده لكل صاحب قول ، فبعضها لايتجاوز بضع كلمات ، وبعضها يبلغ بضع صفحات .

وألف ظهير الدين البيهقي (ت ٥٦٥) كتاب « تتمة صوان الحكمة » الذي

طبعه محمد شفيع في لاهور سنة ١٩٣٥ معتمداً على مخطوطة في برلين ، ثم طبعه محمد كرد علي سنة ١٩٤٦ بعنوان « تاريخ حكماء الاسلام » معتمداً على نسختين مخطوطتين في استانبول . وفي هذا الكتاب ترجمة لـ ١١١ من العلماء والحكماء في الاسلام ، معظمهم ممن عاش بعد تأليف « صوان الحكمة » ، وذكر عن كل منهم اسمه ونسبه وبعض اقواله وكتبه .

وألف جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف القفطي (٥٦٨-٦١٩) كتاباً عنوانه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، وهو كتاب مفقود ، ولكن المختصر الذي عمله له محمد بن علي الخطيبي الزوزني وعنوانه « المنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء » بقيت منه عدة مخطوطات اعتمد عليها ليبرت في طبعه هذا المختصر في سنة ١٩٠٣ مع مقدمة بالالمانية ترجم فيها للمؤلف والمختصر وأشار الى مخطوطات الكتاب والنقول عنه ، غير أننا لانعلم مقدار ونوع المعلومات التي حذفها الزوزني عند اختصاره الكتاب .

وألف محمد بن محمود الشهرزوري (توفي بعد سنة ٦٨٧) كتابه « نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء » ترجم فيه لمائة وثلاثين من العلماء والحكماء ، ونقل عن عدد ممن ترجم لهم معلومات تطابق كلياً ماذكره البيهقي ، غير أن فيه معلومات إضافية قيّمة لم ترد في الكتب الاخرى ، وقد طبع خورشيد أحمد هذا الكتاب بجزءين في حيدر آباد سنة ١٩٧٦ .

وألّف الشهرزوري أربعة كتب اخرى هي « مدينة الحكماء » و « التنقيحات » و « الرموز » و « الشجرة الالٓهية في علوم الحقائق الربانية » ، وهي كتب مفقودة ، غير أن عناوينها توحي بأن فيها مادة مفيدة في معرفة تاريخ العلوم في العهود الاسلامية الاولى .

وألّف الشهرستاني كتاباً في « تاريخ الحكماء » (كشف الظنون ١/٢٩١) وهو كتاب مفقود ، غير أن كتابه « الملل والنحل » طبع عدة مرات وفيه معلومات واسعة عن آراء بعض العلماء والفلاسفة الاولين .

ويتبين من مختصر الزوزني المطبوع أن القفطي عرض معلوماته تبعاً للتراجم المرتّبة على حروف الهجاء ، وأنه اعتمد في معلوماته على فهرست ابن النديم ، وعلى ابن ابي اصيبعة ، وعلى ابي الفرج ابن العبري وقد أشار الناشر في هوامش الطبعة الى مصادر اقتباس القفطي . وأورد ابن القفطي تراجم للعلماء الذين ذكرهم ، وأسماء كتبهم ، ويبلغ عدد من ترجم لهم من الفلاسفة والاطباء والمنجمين وعلماء الحساب والهندسة اربعمائة وتسعة .

إن كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء من أهم الكتب المؤلفة في تاريخ الأطباء ، ألّفه إبن أبي اصيبعة ، وهو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الذي ولد في مدينة دمشق سنة ٦٠٠ هـ ، ودرس العلوم اللسانية والطب فيها ، ثم انتقل الى القاهرة حيث مارس الطب في البيمارستان الناصري الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي ، ثم انتقل الى صرخد فاستقر فيها إلى أن توفي في سنة ٦٦٨ هـ .

ألّف إبن أبي اصيبعة كتابه في القاهرة ، ومنه مخطوطات في مكتبة عاشر أفندي (٦٦٧) وراغب (١٠٣٣) ونور عثمانية (١٥٥٩) وحميدية (١٠٢٨) ولندن (١٠٠) وقد طبعه مولر سنة ١٢٩٩ هـ في القاهرة ثم طبع في دار الحياة في بيروت ، وطبعه ايضاً الدكتور نزار رضا سنة ١٩٦٥ في بيروت ، وهذه الطبعة هي التي اعتمدناها في هذه الدراسة ، وقد ترجمه عبدالقادر نور الدين وهنري جاهي الى الفرنسية وطبعا الترجمة في الجزائر سنة ١٩٥٨ .

إن كتاب عيون الانباء ضخم تبلغ صفحاته ٧٧٦ ، وهو مقسم إلى خمسة عشر باباً ، أولها مقدمة في أول حدوث صناعة الطب ، وثانيها في أوائل الأطباء ، يتلوها أربعة أبواب في الأطباء اليونانيين والاسكندرانيين ، وبابان في الأطباء العرب ، وأطباء السريانيين في صدر الاسلام ، ثم باب في النقلة من الأطباء ، أما الأبواب الستة الأخيرة فقد كرّسها للأطباء العرب منظمين

تبعاً لأماكن ظهورهم في العراق والجزيرة ، وبلاد العجم ، والهند ، وبلاد المغرب ، ومصر ، والشام . وقد رتبت تراجم كل باب تبعاً لزمن ظهورهم ، وترجم لعدد ممن عاصرهم .

يبلغ عدد الأطباء الذين ترجم لهم إبن أبي اصيبعة وذكر كتبهم ٤٢٠ طبيباً ويختلف مقدار ماذكره عن كل منهم ، فقد اقتصر على مجرد ذكر أسماء بعضهم ، وفصل في البعض الآخر ، ويختلف مقدار ماذكر عن كل من الأطباء ، وخاصة الإغريق ، وعني بذكر نبذ عن حياة عدد ممن ترجم لهم ومالقوه في حياتهم مما يتصل بمهنتهم ، كما عني بذكر كتبهم .

نقل إبن أبي اصيبعة التراجم التي كتبها لنفسه كل من حنين بن اسحاق (٢٧٠) وأحمد بن الطيب السرخسي (٢٩٢) وابن الهيثم (٥٥٢) وعلي ابن رضوان (٥٦١) وعبداللطيف البغدادي (٦٨٧–٦٩٣) ، كما نقل الترجمة التي كتبها كل من ابي الجوزجاني لابن سينا (٤٣٧) ، والاسفزاري للرازي (٤٦٥) .

وذكر أيضاً قوائم الكتب التي ألفها عدد من الأطباء ، وخاصة أبقراط (٥٤) وروفس (٥٧) وأفلاطون (٨٥) وأرسطو (١٠٣–٥) والاسكندر الأفروديسي (١٠٦) وجالينوس (١٣٤) والاسكندرانيون (١٤٧) وابن سيرابيون (٢٨٩) وأحمد بن الطيب السرخسي (٢٩٤) وثابت بن قرّة (١٩٨) وقد اعتمد في معظمها على فهرست ابن النديم .

ذكر ابن أبي اصيبعة المصادر التي استقى منها معلوماته ، وهي مصادر متعددة . وأكثر مانقل فيما أورده عن الاطباء كان من حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق بن حنين ، والمبشر بن فاتك ، وصاعد بن أحمد ، واسحاق بن علي

الرهاوي مؤلف « أدب الطبيب » وكل هؤلاء كتبهم مطبوعة .

وأكثر النقل أيضاً عن كل من عبيدالله بن جبريل مؤلف « مناقب الاطباء » وفثيون الترجمان، ويوسف بن ابراهيم المشهور بابن الداية ، والقياني ، وابن بطلان ، وابن رضوان ، وكلهم ممن فقدت كتبهم .

نقل إبن أبي اصيبعة عن المبشر بن فاتك مؤلف « مختار الحكم ومحاسن الكلم » في عشرين موضعاً ، ومن سليمان بن حسان المشهور بابن جلجل مؤلف كتاب « طبقات الاطباء » في عشرين موضعاً ، ومن صاعد بن أحمد مؤلف « طبقات الأمم » في ثلاثة عشر موضعاً، وأشار الى نقله عن ابن النديم في عشرة مواضع ، وعن ابن القفطي مؤلف « أخبار الحكماء » في خمسة مواضع ، كما نقل عن ابن المطران في خمسة مواضع .

اما الكتاب الثاني الذي نقل عنه ابن ابي اصيبعة معلومات ذات اهمية في تاريخ الطب والاطباء فهو « مقالة في علة نقل الاطباء المهرة أكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة الى التدبير المبرد » وهو يذكر ان اول من فطن لهذه الطريق ونبه عليها ببغداد هو الشيخ ابو منصور صاعد بن بشر (٣١٨) وقد ذكر في هذه المقالة أخباراً عن الطبيب ابي الحسن الحراني (٣٠٧) وعن يحيى بن سعيد بن يحيى الطبيب الانطاكي » (٣٢٣) وما كتبه عن صاعد بن بشر بن عبدون (٣١٣-٣١٤) والاوبئة العظيمة العارضة للعلم بفقد العلماء في زمانه (٣٢٧) فقد ذكر انه ضمنها حوادث الى سنة ٤٥٥ .

اما علي بن رضوان فهو طبيب مصري بدأ حياته العلمية بدراسة التنجيم ثم انتقل الى الطب ، وكانت له مكانة في مصر ، وجرت بينه وبين ابن بطلان مناظرات ومنافرات اضطر في آخرها ابن بطلان الى مغادرة مصر . وألف ابن رضوان كتباً كثيرة اغلبها شروح لكتب جالينوس ، وقد تعلم

الطب من القراءة ولم يدرس على طبيب معين ، وهاجم في كتبه بعنف ابن بطلان ، وحنين، والرازي ، وابي الفرج ابن‌الطيب، وذكر له ابن ابي اصيبعة (١٠٢) كتاباً ومقالة في مواضيع متعددة ، وفي كتبه عن جالينوس وشروحه معلومات عن نشأة الطب ، كما ان في مقالاته التي يتهجم فيها على الاطباء معلومات عن احوال الطب والاطباء . ومن أهم كتبه المهمة « النافع في تعليم الطب » ومنه مخطوطة ناقصة في القاهرة (رقم ٩٣٣ طب) .

ونقل روايات منفردة عن عدد من الاغريق والرومان مثل بلوتارك (٧٠) واوسابيوس (١١١) واندروسيقوس (١٠٣) وارثيجانس (٧٩) .

ونقل روايات منفردة عن عدد من المؤرخين العرب ومنهم الطبري (٣٠٣) والتنوخي (٢٤٦ ، ٤١٧) والثعالبي (٤٣٠) وابو بكر الصولي (٢٥٤) والخالديان (٢٥٢) والخطيب البغدادي (٢٥٤) ومؤلف جراب الدولة (٢٥٣) ، وهلال بن المحسِّن (٣٠٤ /٣٠٩ / ٣١٠) والجرجاني(٢٩٦) ومحمد بن سلام الجمحي (٢١٤-٥) وهرون بن عزّو الراهب (١١١) والمسعودي (٩٠ ، ١٢٤) وابن ابي الأصبغ الكاتب (٢٠٣-٤) وخليل بن ابي الفضل الكاتب (٦٤٣) ويحيى بن سعيد بن يحيى (٥٤٥هـ ٥٤٦) وابو يحيى ابن الوزير المغربي (٣١٣) وابو الفرج الاصبهاني (٣١٣) وابراهيم بن القاسم الكاتب (١٨٠) وابراهيم بن علي الحصري (٢٠٣) وابراهيم بن الحسن (٢٧٦) والطرطوشي (٦١٣) واحمد بن ابي خالد الجزّار (٢٨٠) .

ونقل أيضاً عن كل من ابي الريحان البيروني (٢١٠) وابي معشر (٣١/ ٢٨٦ / ٤٧٣) وابن بختويه (١٢٤) واحمد بن الطيب السرخسي (٢٨٣) وابي يحيى بن اليسع بن عيسى (٥٠٠) والصناديقي (٢٥٩) وأبي سعيد بن يعقوب (٣٤٢) وأبي خليفة ابن الفارسي (٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٦٠٥)

وسعد الدين بن أبي السهل البغدادي (٣٥٣) وسديد الدين المنطقي (٥٠١) والطبيب رضا الدين الرحبي (٣٥٣/ ٥٧٢) وعبدالحق الصقلي (٢٦٢) وعلي بن عدنان النحوي (٤٠٨) وعن محمد بن الحسن بن محمد بن عبدالكريم البغدادي (٣٤٥ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥) .

ونقل ايضاً روايات منفردة عن كل من الصناديقي (٢٥٩ وعبدالرحيم ابن علي (٣٨١ ، ٤٣٦) وعبد الحميد بن عيسى الخسرو شاهي (٤٣٥) وعلي بن محمد بن العربي الطائي (٥٢٠) ومحمد بن أحمد بن صالح العبدي (٥١٨) ومحمد بن محمد بن ابراهيم الحلبي (٣٧٦) ومحمد بن الوّتار الموصلي (١٦٢) ومحمد بن أحمد بن عبدالملك اللخمي (٥٢٠ ، ٥٢١) ونفيس الدين بن الزبير (٥٧٢ ، ٥٧٤) وأعين الدولة يحيى بن اسماعيل العباسي (٦٣٩) ويحيى بن سعيد بن يحيى (٥٤٥ ، ٥٤٦) وجمال الدين النقّاش (١٦) وحمزة بن عابد الصرخدي (٤١١) والخوتي (٤٦٢) وشرف الدين بن عنين (٦١٠) وعلي بن عمر (٧٢٣) .

ونقل أيضاً عن كل من شمس الدين عمر بن محمد الكرندي (٢٦ ، ٣٧٦ ، ٤١٠) وسديد الدين محمود بن عمرو (٣٥٣ ، ٦٤١) وابراهيم بن محمد السويدي(٦٥٤) وابي علي بن كلنجا (٣١٠) وأبي الخيرالخمّار (١٥٧) وابراهيم بن العباس بن الهومان (٢٧٦) والحسن البعلبكي (٦١٠ ، ٦١١) وأبي الفتح بن المهنا (٦٦١) وأبي الفضل المطوع (٦٢٨) وأبي عبدالله المغربي (٥٣٩) وأسعد الدين عبدالعزيز ابن ابي الحسن (٥٧٢) وأبي القاسم ابن ابي تراب (٤١٥) وأحمد بن محمد بن أحمد الاشبيلي (٥٢٣) وعن بعض فقهاء العجم (٦٤٢) .

وفي سنة ١٩٤٢ نشر الدكتور أحمد عيسى كتابه « معجم الاطباء » وهو ذيل على عيون الانباء ، ترجم فيه لعدد من الأطباء الذين لم

يذكرهم ابن ابي اصيبعة ، ومعظمهم ممن عاش بعد زمن ابن ابي اصيبعة واعتمد في معلوماته على سبعة وسبعين مصدراً من كتب التراجم والتاريخ ، التقط منها ماذكروه عن الاطباء وكثير من مصادره مخطوطة . ورتب تراجمه على الانباء ، وذكر مظان كل ترجمة .

كتب الثقافة العامة :

أُلِّفَ في العربية عدد من الكتب التي تناولت جوانب متعددة من الحياة والفكر ، ومنها مايتصل بالعلم ، فذكرت بعض الحقائق والافكار العلمية ، واسماء بعض العلماء واقوالهم ومايتصل بحياتهم ، ومن اقدم هذه الكتب هو كتاب « عيون الأخبار » لمحمد بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦) وهو كتاب شامل نقل فيه نصوصاً كثيرة عن مواضيع متعددة منها مايتصل بالطيرة والفال والخيل والبغال والحمير والابل (١/ ١٤٤–١٦١) وطبائع الانسان وبعض الحيوانات (٢/ ٦٢–١٠٩) ومكانة العلماء عند الحكام (٢/ ٣٣٣–٣٤٣) وصنوف الاطعمة (٣٣/١٩٧– ٢١٤) والمياه ، وعدد من المحاصيل النباتية (٣/ ٢٧٨–٢٩٦) والصفات الجسمية للانسان (٤/١–٧٠) كما ذكر عدداً من العلماء والاطباء الذين نقل عنهم ومنهم ارسطو ، وصاحب الفلاحة ، واهرن القس ، وثيادوق ، وماسرجويه ، ويختيشوع ، وماسرجيس ، وسلمويه ، وحنين . (انظر : كتاب « ابن قتيبة » : الرجل ومؤلفاته وافكاره لجيرارد لاكومت ١٩٦٥ ، وخاصة الفصل السادس ١٧٩–٢٠٠) .

كانت لكتاب عيون الأخبار مكانة كبيرة ، واعتبره ابن خلدون أحد الاركان الاربعة من كتب الأدب عند العرب (المقدمة) وقد اقتبس منه عدد كبير من المؤلفين ، وتابعه ابن عبدربه في كتاب العقد الفريد ، فنقل عنه كثيراً .

ومن هذا الصنف من الكتب كتاب « ربيع الابرار » للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ،

فقد بحث في الجزء الثاني الروائح (٢٦٥–٢٨٩) والطعام (٦٧١–٧٦١) وخلق الانسان (٤١٧–٤٧١) والصحة (٦١١–٦٢٣) ، وأورد عن كل من ذلك مقتطفات من اقوال عدد من العلماء فيها .

وفي « مطالع البدور » للغزولي (ت ٨١٥) فصول عن الخضراوات والرياحين (١/٤٥ ، ٦٢ ، ٩٣) وعن الطيور (١/ ٦٦) والحمام (٢/٢) والاسماك (٢/ ٦٤) والماء (٢/ ٧٤–٨٧) وعن الاطباء (٢/ ٩٢–١٠٠) ذكر فيها عدداً من الاطباء والفلاسفة ومنهم ابقراط ، وفيثاغورس، وسقراط وافلاطون ، وارسطو ، وجالينوس ، وابو كلده ، وثيادوق ، ويختيشوع ، ويوحنا بن ماسويه ، وابن جلجل ، والكندي ، وابن جميع ، وصدقة بن منجا ، ويحيى بن اسحق .

وفي الاجزاء الاولى من « نهاية الارب في فنون الأدب » للنويري فصول طويلة عن بعض ميادين العلم ، وذكر لعدد من العلماء وآرائهم .

ومن أهم الكتب المتاخرة التي فيها معلومات قيمة عن الجوانب العلمية ، وعن اسماء العلماء وآرائهم هو كتاب « مباهج الفكر ومناهج العبر » للوطواط (ت ٧١٤) ؛ وهو كتاب مكون من ثلاثة اقسام متمايزة ، اولها عن الارض والمدن ، والثاني عن الحيوان ، والثالث عن النبات ؛ ويكوّن كل قسم كتاباً مستقلاً يحوي معلومات واسعة عن الموضوع الذي يبحثه ويذكر اسماء العلماء الذين نقل عنهم ، ويشير أحياناً الى اسماء كتبهم ؛ وهي كثيرة جداً ، ومعظمها من الكتب المعتمدة ، وان كان بعضها مما لا تكثر المصادر الاشارة اليها .

كتب التراجم :

عنيت بعض كتب التراجم العامة ، أي التي تترجم للبارزين في أكثر من ميدان واحد من ميادين الفكر ، بترجمة بعض العلماء فاما من كان منهم

مختصاً بالثقافة العربية فقد ترجمت لهم الكتب التي تترجم لاهل اللغة والأدب والنحو .

اما العلماء الآخرون فان بعض الكتب العامة ترجمت لهم ، ومن ابرز هذه الكتب هو كتاب ارشاد الأريب لياقوت الحموي ، وقد طبع مرتين ، احداهما باشراف الاستاذ مارجليوث والثانية باشراف الدكتور احمد فريد الرفاعي ، والطبعتان متشابهتان وفيهما بعض النقص في التراجم ، وهو يترجم للبارزين من رجال السياسة والادارة والحكم ، والشعراء والفقهاء ، وعدد من العلماء ، وقد اعتمد في سرد كتب هؤلاء العلماء على فهرست ابن النديم كما ذكر معلومات قيمة عن مصادر أخرى .

ومن كتب التراجم كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان وكتاب « الوافي بالوفيات » للصفدي ، وفي كل منهما تراجم لعدد غير قليل من العلماء .

وذكرت معظم كتب التراجم المؤلفة في الأندلس تراجم للعلماء والاطباء ، ومن ابرز هذه الكتب مؤلفات الضبي ، وابن بشكوال ، وابن بسام ، وابن الأبّار ولكن اوسعهم هو كتاب « نفح الطيب » للمقّري .

وأوردت بعض الكتب التي تعنى بأخبار الحوادث السياسية معلومات عن العلماء واعمالهم ، ويختلف مقدار ما أوردته ، فبعضها اقتصر على اسطر قليلة منبثة ضمن نطاق بحثها ، وبعضها قدمت تفاصيل اوفى ، وخاصة عند ذكرها الحوادث التي اسهم فيها هؤلاء العلماء ، او تراجم العلماء الذين تحدثت عنهم .

فهارس الكتب

ان تاريخ العلم شأن كل تاريخ ، يعتمد بالدرجة الأولى على المدوّنات المكتوبة فأول ما ينبغي التوجه اليه عند دراسة هذا التاريخ هو معرفة اسماء الكتب المؤلفة في العلم ، ومما يزيد في أهمية هذه المعرفة هو أن معظم الكتب القديمة كانت لها عناوين بسيطة واضحة تعبّر عن محتوى الكتاب ، ولا ريب في أن تنوع عناوين الكتب التي يؤلفها مؤلف واحد هي دليل على اتساع نطاق معرفة المؤلف وتعدد الجوانب التي كان يعنى بها .

أدرك العرب أهمية الفهارس في معرفة الحركة الفكرية ، فعني عدد منهم بذكرها وعني عدد من المؤلفين العرب بتدوين فهارس لما ألفوه أو قرأوه . وذكر كل من ابن النديم وابن ابي اصيبعة عدداً من هذه الفهارس ، ولعل هؤلاء استفادوا فيما أوردوه من قوائم لبعض المؤلفين ، واستفادوا من فهارس أخرى لم يشيروا اليها .

ان العناية بفهارس الكتب قديمة ترجع الى ما قبل الاسلام ، فقد ذكر ابن النديم فهارس ألّفها عدد من الاغريق ، وممن ذكرهم « ثاون المتعصب لفلاطن (افلاطون) وله من الكتب كتاب مراتب قراءة كتب أفلاطون وأسماء ما صنّفه (٣١٥) وانظر القفطي ١٧ ، ٢٦٨) ، وقد نقل ابن النديم اسماء كتب افلاطون من ثاون وتبعاً لترتيبه (٣٠٦ – ٧) وذكر ابن النديم أن « بطليموس الغريب » كان يتولى وينشر محاسنه ، وله من الكتب كتاب أخبار ارسطاليس وموته ومراتب كتبه أرسطاليس (أرسطو) (٣١٥ وانظر القفطي ٩٠) ويقول ابن النديم أيضاً « ووجدت على ظهر جزء بخط عتيق مكتوب تسمية من خرج الينا من مفسري كتب الفيلسوف في المنطق وغيره من الفلسفة » (٣١٥) ويذكر نالينو أن هذه القائمة النفيسة ضاع اصلها اليوناني وعنى كل من شتا واسم واحد !! ينشنايدر وروزه وموللر بتدقيقها ونشرها مع تعليقات ، واعتمدا فيها على رواية القفطي (تاريخ علم الفلك ٦١–٦٢) .

وذكر أيضاً كتبا لارسطو نقل أسماءها من كتاب بخط يحيى بن عدي في فهرست كتبه (٣١٢) والراجح أنه أحد كتب ارسطو، كما نقل ابن النديم عن يحيى بن عدي أسماء كتب عدد من الفلاسفة الذين تلو أرسطو (٣١٢ — ٤).

ويذكر ابن النديم أن فيلغريوس «له من الكتب على ما رأيته مثبتاً بخط عمرو بن الفتح في آخر جزء من كتاب «الى من لا يحضرهم الطبيب».. مقالة» (٣٥١) وذكر ابن ابي أصيبعة ان بطليموس ذكر في كتابه الى فلس فهرست كتبه (٦٣ — ٦٩).

كتب جالينوس فهرساً للكتب التي ألفها (القفطي ١٢٨، إبن أبي أصيبعة ١٤٥ التنبيه والاشراف ١١٠) واسم الفهرست «الفينكس» (إبن أبي اصيبعة ١١٣، ١٣١، ١٣٤، ١٤٢) ويقول حنين «ان جالينوس قد وضع كتاباً .. رسم فيه ذكر كتبه وسمّاه «فينكس» وترجمته «الفهرست» وأن جالينوس وضع مقالة أخرى وصف فيها مراتب قراءة كتبه. ويقول أيضاً «أما الكتاب الذي سماه جالينوس فينكس وأثبت فيه ذكر كتبه فهو مقالتان: ذكر في المقالة الأولى منه كتبه في الطب، وفي المقالة الثانية كتبه في المنطق والفلسفة والبلاغة والنحو، وقد وجدنا هاتين المقالتين في بعض النسخ باليونانية موصولتين كأنهما مقالة واحدة، وغرضه في هذا الكتاب أن يصف الكتب التي وضع، وما غرضه في كل واحد منها، وما دعاه الى وضعه، ولمن وضعه وفي أي حد من سنة» (حنين: ما ترجم ٢ — ٣).

وفي مكتبة مشهد بايران مخطوطة برقم ٥٢٢٣ فيها الفينكس وهي تضم ما يلي: ذكر ما وضعته من الكتب في العلاج، ذكر ما وضعته مما وقع لي عند رجوعي من روما الى بلدي، ذكر ما وضعته من الكتب بعد ذلك، ذكر الكتب التي بينت فيها ما ظهر من التشريح من أفعال الاعضاء ومنافعها، ذكر ما وضعته من تفسير كتب ابقراط، ذكر الكتب التي نحوت فيها نحو ارسطاليس،

ذكر ما نحوت فيه نحو اسقلبيادس ، ذكر ما نحوت فيه من الكتب نحو اصحاب التجارب، ذكر ما يحتاج اليه من الكتب في علم البرهان » (سزكين ٧٩/٣) .

يقول حنين عن الفينكس « وقد سبقني الى ترجمته الى السريانية أيوب الرهاوي المعروف بالابرش ، ثم ترجمته أنا إلى السريانية لداوود المتطبب ، والى العربي لابي جعفر محمد بن موسى » (ما ترجم ٢ – ٣). ومن الكتاب مخطوطة في مكتبة امبروسيانا .

ألف حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى المنجم فهرست كتب جالينوس (ابن النديم ٣٤٨ ، وانظر القفطي ١٧٤) وقد اشار إبن النديم الى هذا الفهرس بما يدل على أنه اعتمد عليه حيث قال إنه بالرجوع الى ذلك الفهرس « علمنا أن الذي نقل حنين أكثره الى السرياني. وربما أصلح العربي من نقل غيره أو تصفحه» (٣٤٨ وانظر القفطي ١٢٨) كما ذكر أن « كتاب التشريح الكبير خمس عشرة مقالة لم يذكر حنين في فهرسته من نقله الى العربية » (٣٤٩) ، ويذكر أيضاً « أن حنين بن إسحاق له كتاب ذكر ما ترجم من كتب جالينوس مقالتان » و« كتاب الى ابن المنجم في استخراج كمية كتب جالينوس » (٣٥٣) وقد اقتبس من هذا الكتاب إبن المطران في كتابه « بستان الأطباء » .

نشر برجشتراسر كتاب « ما ترجم من كتب جالينوس وما لم يترجم » لحنين مع ترجمة المانية في سنة ١٩٢٥ ، ولخصه مايرهوف في مجلة ايزيس ٨٢ سنة ١٩٢٦ (ص ٧٢٤ – ٧٨٥) .

والف حنين كتاباً ثالثاً ملحقاً بالفينكس ومراتب قراءة كتبه ، ووصف هذا الكتاب بقوله « أضفت الى المقالتين مقالة ثالثة صغيرة بالسريانية بيّنت فيها أن جالينوس قد ترك ذكر كتب من كتبه في ذلك الكتاب ، وعددت كثيراً منها مما رأيته وقرأته ووصفت السبب في تركه ذكرها » (٣) ويقول « ووجدت له كتباً أخرى لم يذكرها في الفهرست وأنا ذاكرها » (٣–٤٦) .

إن فهرست « الكتب التي لم يذكرها جالينوس في فهرست كتبه » منه مخطوطة في ايا صوفيا رقم ٣٥٩٠ (ص ٣٤ ـ ٣٧) ومنه نسخة في دار الكتب المصرية (رقم ١٣٨ فهارس تيمور)، ومن هذه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (الفهرست ٣ / ٢ / ٢٠٦) وقد أشار ابو بكر الرازي الى هذه الرسالة في فهرست كتبه الذي نقاه البيروني (ايزيس ٥ ـ ١٩٢٢ ص ٤٨) وذكرها ابن ابي اصيبعة (٨٨) ، ثم نشرها برجشتراسر سنة ١٩٣٢ وكتب عنها ما كس مايرهوف بحثا في سنة ١٩٢٨ .

والّف الرازي « مقالة في استدراك ما لم يذكره حنين في فهرسته » (البيروني فهرست كتب الرازي ١٩٣٢ ـ ٥ ايزيس اعلاه) .

والف الرازي كتاب « الشكوك على كلام فاضل الاطباء في الكتب التي نسبت اليه » ومنه مخطوطة في مكتبة بغدادلي وهبي رقم ١٤٨٨ـ٢٦ ومكتبة مجلس في طهران (رقم ١٤٢١ ص ٥٠ ـ ١٨٥) ، وملك ٤٥٥٤ ـ ٢٣ . وانظر البحث المنشور في محاضر المؤتمر الدولي لتاريخ العلوم الطبيعية لسنة ١٩٥٣ ص ٤٨٠ ـ ٤٨٧ ، ومقال محمد محقق المنشور في مجلة دانشكاه آداب بطهران م ١٥ قسم ٣٠٢ سنة ١٩٦٨ . وانظر ابحـــاث برجشتراسر ، ومايرِ ، وفالزر (سزكين تاريخ التراث العربي ٣ ـ ٧٧) .

وذكر ابن النديم ان الكتب التي عدّدها جالينوس من كتب البقارطة هي ثمانية كتب ، ستة منها مصنفة ، والكتابان الباقيان تكملة الثمانية كتب » (٣٥٢) ولعل هذا مما جاء في الفينكس .

وقد ألف حنين مقالاً اضافياً الى الفينكس والمراتب وصفه بقوله « أضفت الى المقالتين مقالة ثالثة صغيرة بالسريانية بيّنت فيها أن جالينوس قد ترك ذكر كتب من كتبه في ذلك الكتاب ، وعددت كثيراً منها مما رأيته وقرأته ، ووصفت السبب في تركه ذكرها » (٣) .

ويذكر بروكلمان أن قسطا بن لوقا له كتاب « فهرس مصنفات جالينوس منه مخطوطة في الاسكوريال (١-٧٩٥) وايا صوفيا (٣٥٩٣ ص ١٠٧) وقد اشار اليه شتاينشنايدر (تاريخ الأدب العربي ٣/٢٧٣)وكتب عنه مايرهوف مقالا سنة ١٩٢٨ ويشير سزكين الى كتاب قسطا ومنه مخطوطة في مكتبة ملك بطهران ٦١٨٨ (ص ٤ فما بعد) وفي ايا صوفيا ٣٥٩٣ (١٠٣) .

ألّف جالينوس كتابا بعنوان « كتب بقراط الصحيحة وغير الصحيحة » وقد وصفه حنين بأنه « مقالة واحدة ، وهو كتاب حسن نافع ، ونسخته في كتبي ولم أتفرغ لترجمته ولا أعلم أن غيرى ترجمه. ثم ترجمته لعيسى بن يحيى الى السريانية وعملت له جوامع ، ثم ترجمها الى العربية اسحاق بن حنين لعلي بن يحيى » (ما ترجم ٤٥) ويذكر إبن أبي أصيبعة « والذي انتهى إلينا ذكره ووجدناه من كتب أبقراط الصحيحة يكون ثلاثين كتاباً » (٥٣) .

وسرد اليعقوبي كتب ابقراط ومحتواها (التاريخ ٧/٦١ — ٩٢) ويقول اولمان (تاريخ الطب عند المسلمين ٢٦ ، ٥٣) ان اليعقوبي وابن ابي اصيبعة أشار في ما كتباه الى هذا الكتاب ، غير أنني لم أجد إشارة صريحة (له وانظر بحث ميلوت في مجلة هرمس سنة ١٩٠٩ ص ١١١-١٣٤ و انظر مايرهوف كتب جالينوس .

يذكر ابن النديم ان الكندي ألّف « كتاب ترتيب ارسطاليس » و « رسالة في اختيار الكتب الاربعة » (٣١٦) ، وقد طبع هذا الكتاب ضمن رسائل أرسطو التي طبعها محمد عبدالهادي ابو ريده (١ / ٣٦٣ — ٣٨٤) واعاد طبعها غويدي ووالزر مع ترجمة ايطالية نشراها في نشريات كتب دالنجي سلسلة ٦ مجلد ٦ سنة ١٩٣٧ — ١٩٤٠ ص ٣٩٠ — ٤١٩ .

ويبدو أن جالينوس ، او مترجمه حنين ، رتّب أسماء الكتب في الفهرست تبعاً لمراتب دراستها ، لانه يذكر بعد كلامه عن الكتاب السادس عشر « فهذه الكتب

التي كان يُقتصر على قراءتها في موضع تعليم الطب بالاسكندرية وكانوا يقرأونها على هذا الترتيب الذي أجريت ذكرها عليه ، وكانوا يجتمعون في كل يوم على قراءة إمام منها وتفهمه ، كما يجتمع أصحابنا اليوم من النصارى في مواضع التعليم التي تعرف بالاسكول في كل يوم على كتاب إمام ، إما من كتب المتقدمين ، واما من سائر الكتب ، وانما كانوا يقرأونها الافراد كل واحد على حدته بعد الارتياض بتلك الكتب التي ذكرت كما يقرأ أصحابنا اليوم كتب التفاسير » .

أما جالينوس فلم ير أن تُقرأ كتبه على هذا النظام ، لكنه تقدم في أن يُقرأ من كتبه بعد كتابه في الفرق كتبه في التشريح ، ولذلك كان مفتتح ذكر كتبه : بتعديد كتبه في التشريح ثم اتبعها بسائر كتبه على الولاء وعلى النظام والترتيب الذي كتبه وهو (١٥١) .

ثم تتلو هذه الكتب الكتب التي يحتاج الى قراءتها قبل قراءة كتاب حيلة البرء ، وقد ذكرت بعض تلك الكتب فيما ذكرت منها كتاب الاركان ، وكتاب المزاج ، وكتاب العلل والبحران ، وكتاب التعرف على الاعضاء الباطنه ، وكتاب اصناف الحيات ، وكتاب الصناعة .

ومن الكتب التي في تقدمة المعرفة كتاب البُحْران ، وكتاب أيام البُحْران وكتاب في النبض الصغير والكبير ، وانا واصف الان ما بقي بعد هذه من الكتب » (٢٨) .

ويذكر القفطي «ان علي بن رضوان ألّف كتاباً في ترتيب كتب جالينوس في الطب ، وكيفية نوع قراءتها منذ اخذها » (٢٤٤) .

وذكر ابن النديم فهرست كتب ليحيى بن عدي إطلع عليها بخط بن يحيى ابن عدي وفيه ذكر لكتاب الحيوان لارسطو (٣١٢) وكتاب الحروف ، وكتاب الاخلاق (٣٣١٢) ورسالته الى ديمقراطيس في اثبات الصانع وتفسير كلام ارسطوطاليس الذي عمله فرفوريوس (٣١٤) وهذه الاشارات قد تدل على ان يحيى ابن عدي عمل فهرساً لكتب ارسطو .

ويلاحظ أن عدداً من العلماء العرب كتبوا فهارس خاصة بما ألفوه من الكتب فمن ذلك الفهرست الذي اعده جابر بن حيّان لكتبه (ابن النديم ٤٢٢) والفهرس الذي كتبه الرازي فيما ألفه من الكتب ، وقد نقله ابن النديم (٣٥٧ – ٣٥٩) وانظر ايضا طبقات الامم لصاعد ٨٣ ، تتمة صيوان الحكمة للبيهقي ٧ ، ابن خلكان ، ابن القفطي ٢٧١ ، ابن ابي اصيبعة) ولعل هذا الفهرس كان معتمد « فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي » الذي الفه البيروني ، ومنه مخطوطة في ليدن (رقم ١٣٣) نشرها بول كراوس سنة ١٩٣٦) ، وقد ترجم نيجري المتنصر فهرست كتب الرازي الى اللاتينية (انظر بروكلمان ٢٧٢/٤ – ٣ سزكين ٢٧٨/٣) وكتب البيروني فهرساً لمؤلفاته نشره سخاو في المقدمة التي كتبها لكتاب الاثار الباقية (٣٨ – ٤٧) وعمل ابن عراق فهرساً مقتضبا لما الفه البيروني (مقدمة الاثار الباقية ٤٧) .

يذكر القفطي « ووجدت أوراقاً بخط أبي علي المحسِّن بن ابراهيم بن هلال الصابي تشتمل على ذكر نسب أبي الحسن ثابت بن قرة بن مروان هذا ، وعلى ذكر ما صنفه من الكتب على استيفاء واستقصاء فالحقتها تلو هذه » (١١٦) وواضح من هذا النص أن مؤلف القائمة هو المحسِّن بن هلال .

وألّف أبو الحسن محمد بن يوسف العامري ، وهو ممن تتلمذ على أبي زيد البلخي ، كتاباً عنوانه « الآمد على الآبد » وفيه فصل ذكر فيه تصانيفه ، وهذا الفصل نقله ابو سليمان المنطقي في كتابه « صيوان الحكمة » (منتخبات ص١٢٧) .

وفي سنة ٣٧٧ هـ أتم محمد بن اسحاق النديم كتابه « الفهرست » وهو اوسع كتاب شمل اسماء الكتب المؤلفة بالعربية او المترجمة اليها حتى سنة تأليفه مع معلومات عن بعض رجال العلم وعن نشأة بعض العلوم ، ويتكون كتابه من ثلاثة أقسام رئيسة عرض في أحدها المؤلفات في العلوم النقلية بما في ذلك القرآن الكريم والحديث واللغة والتاريخ والادب ، وعرض في الثاني ما يتعلق بعلوم الاوائل في الفلسفة والطب والرياضيات والهندسة والحيل ، أما القسم الثالث ففيه أبحاث عن

نشأة الكتابة والكتب ، وقد وضعه في أول الكتاب ، وعن معتقدات وتاريـــخ بعض الأديان والملل وقد وضعها في آخر الكتاب .

أشار ابن النديم الى بعض المصادر التي اعتمد عليها ونقل منها ، وهي الفهارس التي اشرنا اليها اعلاه ، غير ان مقداراً غير قليل من المعلومات التي اوردها لم يشر الى مصدره في معرفتها . وقد اشار في عدة مواضع الى ما نقله عن ابي جعفر الكوفي عن المؤلفات في مواضيع علوم اللغة والقرآن التي لا تدخل ضمن نطاق بحثنا الحالي .

عاش ابن النديم في بغداد ، وكان مطلعاً على ما في هذه المدينة العالمية من الكتب ، فكتابه يحتوي حصيلة التأليف الذي تم او وجد في بغداد التي كانت اكبر مركز ثقافي في العالم الاسلامي ، وكانت صلتها أوثق ببقية مدن العراق وبخراسان وبلاد الجزيرة والشام ، الا انه لم يعن بذكر مؤلفات العلماء في مصر واقاليم شمال افريقية والاندلس ولما كانت الحركة الفكرية في هذه الاقاليم في القرون الاولى معتمدة على العلم في بغداد ، ولم ينشط فيها التأليف إلا متأخراً لذلك يمكن القول بان كتابه كان معتبراً .

عني ابن النديم بتسجيل أسماء الكتب المعروفة ، فهو « فهرست » بالمعنى الدقيق ولم يذكر كثيراً عن محتوى هذه الكتب اومكانتها في تطور العلوم ، لكنه ذكر معلومات متفرقة ومقتضبة عن بعض العلماء .

حظي كتاب « الفهرست » لابن النديم بالتقدير الجدير به ، فتقل عنه عدد ممن تلاه من المؤلفين المعنيين بهذا الجانب ومن أبرز من نقل عنه ياقوت الحموي في كتابه « معجم الادباء » والقفطي في كتابيه « أخبـــار الحكماء » و « الانباه في أخبار النحاة » وابن أبي اصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » وابن خلكان في « وفيات الاعيان » .

نشرت لفهرست ابن النديم ثلاث طبعات بالعربية، اولها التي قام بها فلوجل وقد نشرت سنة ١٨٧٢ في ليبزج ، واعيد طبعها بالاوفسيت ، والثانية طبعت

في مصـــر والثالثة التي طبعها رضـــا تجددي في بيروت سنة ١٩٧١ وهي التي اعتمدناها ، وترجم بايارد دوج كتاب الفهرست الى الانكليزية ونشره بمجلدين في سنة ١٩٧٥ .

الف القفطي (ت ٦٤٦) « كتاب اخبار المصنفين وما صنّفوه » وقد ذكره ياقوت (معجم الادباء ١٥ / ١٩٧٩) ، والادفوى في كتاب « الطالع السعيد » ص ٤٣٧ وابن شاكر الكتبي في « فوات الوفيات ٢/١٢١) ، ويدل عنوان الكتاب على انه يضم قائمة بأسماء المؤلفين مما ألفه كل منهم ، وأنـــه كتاب شامل لكل العلوم والمعارف . غير أن الكتاب مفقود ، وهو غير كتاب اخبار العلماء الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

ومن الكتب المؤلفة في أسماء الكتب كتاب « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لطا شكبرى زاده (ت ١٩٦٨) ، وقد طبع هذا الكتاب في حيدر اباد في اربعة اجزاء يبدأ بمقدمة عن التعليم والعالم ، ثم اصناف العلوم وابرز الكتب المؤلفة في كل صنف .

ومن اهم الكتب المتأخرة كتاب « كشف الظنون » لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) وقد طبع في استانبول سنة ١٩٤٣ بمجلدين ضخمين ذكر فيهما اسماء الكتب مرتبة على العلوم بترتيب ألفبائي .

والف اسماعيل باشا البغدادي (ت ١٩٢٣) « ايضاح المكنون في ذيل كشف الظنون» و « هدية العارفين » وفيهما اسماء عدد كبير من الكتب بعضها مما لم يذكره حاجي خليفة .

ومن الكتب المختصة بأسماء الكتب كتاب « اسماء الكتب المتمم لكشف الظنون » وقد ألفه عبداللطيف محمد رياض زاده ونشر في سنة ١٩٧٥ بتحقيق محمد التونجي ، وهو يسير على طريقة حاجي خليفة ، غير أن عدد ماذكره من كتب أقل مما جاء في كشف الظنون .

ويروى عن الشريف محمد بن رضوان الحسيني المعروف بالناسخ انه وقف في المدرسة النظامية ببغداد على فهرست ماصنف فيالدولة الاسلامية من سائر الفنون الى آخر أيام المستنصر في سنة ٦٣٩ ، والفهرست ستة وخمسون مجلداً (تالي كتاب وفيات الاعيان ص ١٤٠) .

وقد الف العرب كتباً كثيرة في تراجم الرجال ، وطبقات علماء عدد من مواضيع المعرفة ، كما ألف عدد غير قليل منهم كتباً في أسماء الشيوخ الذين درسوا عليهم أو لقوهم ، وفي الكتب التي درسوها ؛ولما كانت كافة هذه الكتب تقريباً تبحث فيما يتعلق بالعلوم اللسانية والدينية ولا تبحث في مؤلفات علماء العلوم الرياضية والطبيعية ، فاننا لم نفصل فيها .

كتب عدد من العلماء تراجم ذاتية لانفسهم ، ذكروا فيها ماقرأوه وماألفوه من الكتب ، وأشاروا الى التطور الفكري الذي مروا به ، وقد ذكرنا عدداً من الفهارس التي أعدها بعض العلماء لما ألفوه من الكتب .

اما التراجم الذاتية التي كتبها العلماء لانفسهم وذكروا في كثير منها ماالفوه فقد ذكر ابن ابي اصيبعة منها ماتحدث به حنين عن نفسه وكتب حنين (٢٧٣) ، وحديث السرخسي عن نفسه (٢٩٢) والكتاب الذي ألّفه ابن الهيثم « فيما صنعه وصنّفه من علوم الاوائل الى سنة ٤١٧ ، ثم أضاف اليه ماقرأه بعد ذلك الى سنة ٤١٨ ، ومالحق بذلك الى سنة ٤٢٩ (٥٥٢–٨)وذكر القفطي انه وجد أوراقاً بخط أبي علي المحسن بن ابراهيم الصابي « تشتمل على ذكر نسب أبي الحسن ثابت بن قرة بن مروان هذا وعلى ذكر ما صنفه من الكتب على استيفاء واستقصاء فالحقتها تلو هذه » (١١٦) .

أدرك عدد من العلماء المكثرين من التأليف أهمية تصنيف كتبهم تبعاً لأهميتها في الدراسة في رأيهم ، وقد ذكرت المصادر عدداً ممن ألّف في ترتيب، كتبه وممن ذكرهم في ذلك ابن النديم افلاطون حيث يقول عنه

إنه « يرتب كتبه في القراءة ، أن يجعل كل مرتبة أربعة كتب يسمى ذلك رابوع » (٣٠٧) ، غير أن ابن النديم لم ينقل أسماء الكتب تبعاً لترتيبها ، ولكنه ذكر أن « ثاون المتعصب لفلاطين له من الكتب كتاب مراتب قراءة كتب فلاطن وأسماء ماصنفه » (٣١٥ ، وانظر القفطي (١٧ ، ٢٦٨) وقد نقل ابن النديم كتب افلاطون « من ثاون ، وتبعاً لترتيبه » (٣٠٦–٧) .

ويذكـر إبن النديم أن بطليموس الغريب كـان يتوالى ارسطاليس وله من الكتب كتاب أخبار ارسطاليس ووفاته ومراتب كتبه (٣١٥) وانظر القفطي ٩٠) .

وألّف جالينوس كتاباً عنوانه « في مراتب قراءة كتبه » وصفه حنين بأنه « مقالة واحدة وغرضه أن يخبر كيف ينبغي أن ترتب كتبه في قراءتها كتاباً بعد كتاب ، اولها الى اخرها ولم أكن ترجمت هذه المقالة الى السريانية ، وقد ترجمها ابنه اسحاق لبختيشوع ، واما الى العربية فترجمتها انا لابي الحسن أحمد بن موسى ولا أعلم أن أحداً ترجمها قبلي » (٣) وانظر إبن ابي اصيبعة ومن هذا الكتاب ترجمة لقسطا بن لوقا مخطوطة في مكتبة ملك بطهران ٦١٨٨ (ص ٤ فما بعد) وفي ايا صوفيا (رقم ٣٥٩٣) ص ١٠٣–١٠٦ ، وقد بحثها مايرهوف في مقال عن الكتب الصحيحة والمنسوبة الى جالينوس .

ذكر ابن جاجل في آخر كتابه « طبقات الأطباء والحكماء » « ووصفت أيها الشريف في آخر هذه الرسالة تأدبي وسيرتي وكيف كان طلبي ، وتوخيت الصدق ، والله الشاهد على ماأقول ، ولم أر إخلاء الرسالة من ذلك لما فيه من تخليد الذكر وجميل النشر » (١١٦) غير أن هذه الترجمة الذاتية غير موجودة في المطبوعة التي اعتمد في نشرها على مخطوطة فريدة ، ولعلها كانت مصدر ابن الابار في المعلومات الواسعة التي قدمها عن حياة ابن جلجل في كتاب التكملة (١ / ١٠١) .

ونقل القفطي (٤١٣) وابن ابي اصيبعة (٤٣٧) عن الجوزجاني ترجمة حياة ابن سينا ومادرسه من الكتب ، ولعل هذه الترجمة منقولة عن ما كتبه ابن سينا وقائمة كتبه (ابن ابي اصيبعة ٤٥٧) .

ونقل ابن ابي اصيبعة ماكتبه علي بن رضوان عن سيرته وكيفية تعلمه صناعة الطب (٥٦١ ـ ٥٦٢) ، وانظر ايضاً ما ذكره في كتاب « النافع » في كيفية تعلم صناعة الطب (١٥٤) .

وذكر ابن ابي اصيبعة السيرة التي الفها عبداللطيف البغدادي لنفسه، وأورد كثيراً من هذه السيرة (٦٨٣–٦٩٣ وانظر أيضاً ص ٣٧٥) .

وكتب ابن بطلان (ت ٤٥٥) الى هلال بن المحسن يصف رحلته من بغداد الى انطاكية (القفطي ٢٩٤ عن كتاب الربيع لمحمد بن هلال بن المحسن وانظر ياقوت (٤ / ٣٣٩ ، ٢ / ٦٧٢) .

* * *

ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد السادس والعشرون
1395 - 1975

ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور
صالح أحمد العلي



(١)

الألوان ظاهرة معقدة يمكن دراستها من عدة جوانب ، منها طبيعتها وخصائصها الفيزيائية ومنها تركيب المواد التي تصنع منها سواء المعدنية أو النباتية أوالكيمياوية كما أنه يمكن دراستها بالعلاقة مع المواد التي تُكَوّن بها كالخطوط والأثاث الخشبية والحديدية ، أو الحيطان والسقوف المبنية بالآجر والجص والفسيفساء ؛ أو لعلاقتها بأذواق الناس ونفسياتهم . وسنقتصر في هذا المقال على دراسة الألوان التي ذكرت المصادر شيوعها في الألبسة العربية في العهود الاسلامية الأولى ، مؤملين أن تقدم المادة المعروضة فيها ما يوضح جانباً من الحضارة لم يحظ باهتمام كبير ، وأن تساعد المستزيدين في دارسة هذه الميادين .

ومن المعلوم أن الدولة الاسلامية توسعت بعد تأسيسها بسرعة هائلة ، فبعد أن بدأت نواتها في أول القرن الأول الهجري ، صارت تشمل في أواخر حياة الرسول

(ص) كل الجزيرة العربية تقريباً ، وفي خلال أقل من ربع قرن من وفاته شملت كل البلاد الواقعة بين نهر جيحون في المشرق وتونس في المغرب ، ثم توسعت في عهد الخلافة الأموية في أواسط آسيا والسند وأرمينية والمغرب والأندلس . وكان يقطن هذه الرقعة الشاسعة شعوب ومجتمعات متعددة ، لها تقاليد ونظم إجتماعية واتجاهات فنية وأذواق متنوعة ، كما كانت فيها قبل الاسلام دول ذات نظم وتقاليد يتصل بعضها بألوان الألبسة السائدة عندهم . ومن الطبيعي أن تلك المجتمعات حدثت فيها تبدلات سياسية ومادية وحضارية بعد الفتح الاسلامي بسبب انقراض ملوكها وانهيار سيادة الطبقة الحاكمة فيها ونشاط الحياة الاقتصادية ، وتزايد مكانة الطبقة المتوسطة من أهل المدن وتكاثر عدد المهاجرين الأعاجم الى الأمصار التي أنشأها العرب ، وما كان لهم من آثار تدريجية في الألبسة والأذواق والألوان زاد أثرها بعد مجيء الدولة العباسية ، التي وان كانت ظلت تساند العرب ، إلا أنها أتاحت حرية اوسع للاعاجم ، وخاصة في المدن . للتعبير عن أذواقهم ومثلهم الحضارية ، بل اقتبست بعض مظاهر حضارتهم في الألبسة والألوان ، والواقع أن بعض العرب الذين نزلوا المدن الاعجمية أخذوا يقلدون الاعاجم في ألبستهم وأذواقهم ، ويقول البلاذرى إن عباد بن زياد غزا قندهار «ورأى قلانس أهلها طوالاً فعمل عليهافسميت العبادية»(١) ويقول الجاحظ «وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان لاتفصل بين من نزل أبوه فرغانة وبين اهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقاً في السبال الصهب والجلود القشرة والأقفاء العظيمة والأكسية الفرغانية ، وكذلك جميع تلك الارباع لاتفصل بين ابناء النازلة وبين ابناء الثابتة» (٢) والراجح ان ماقاله الجاحظ عن ماوراء النهر ينطبق على أنحاء أخرى من الدولة الاسلامية ، كما أن ازدياد هذا الاقتباس هو أحد المبررات التي وصف

١- فتوح البلدان ٤٣٤

٢- مناقب الاتراك . ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ١/٦٣-٤

فيها الجاحظ الدولة العباسية بأنها « دولة أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان أموية عربية » (١) .

والواقع أن التطورات التي حدثت في العصر العباسي لم تقتصر على تزايد أثر الأعاجم في مظاهر الحياة المادية ، ومنها الألبسة ألوانها ، بل امتدت الى ميادين اخرى ،منها اكثار الدولة من دور الطراز التي تنسج الألبسة للخليفة والمقربين اليه تبعاً لما تقرره الدولة ، ومنها فرض ازياء رسمية ذات ألوان تقررها الدولة ، ومنها تزايد الخاصة من الملتفين حول بلاط الخليفة،وكذلك عدد الموظفين وتمايزهم بالألبسة والألوان ، واهتمام المصادر بأخبارهم . ولاريب في أن كثيراً من هذه التطورات قد بدأت قبل مجيئ العباسيين ، ولكنها توسعت بعد ذلك العهد كما أن مظاهر الحضارة المادية ، بما في ذلك الألبسة وألوانها ، لم تزل كلياً بعد مجيئ العباسيين . ولما كان بحثي محدداً بالألبسة العربية في العهود الاسلامية الأولى ، فإني لم أتوسع في بحث ألوان الالبسة في العصر العباسي واكتفيت ببعض الاشارات إليها ، لإظهار الاستمرارية أو للمقارنة فحسب .

لقد ظهر الرسول (ص) بين العرب ، وبدأ ينشر دعوته فيهم ، فكان منهم الصحابة الأولون الذين استجابوا لدعوة الاسلام وتشبعوا بروحه ، وكوّنوا الدولة الاسلامية ووسعوا رقعتها ، وصاروا المثل الأعلى في حياتهم للمسلمين . وكان العرب هم المسيطرين في الدولة ، وقد استوطن المهاجرون منهم الى الاقاليم المفتوحة في عدد من الأمصار التي أنشأوها ، وكوّنوا فيها الغالبية العظمى من السكان ، وبذلك سادت في هذه الأمصار الأزياء الشائعة بين العرب .

ولا يخفى أن أهل الجزيرة كانوا عند ظهور الاسلام متباينين في أذواقهم وألبستهم ومستوياتهم الحضارية ، وقد أشارت المصادر الى بعض التباين بين لباس

١- البيان والتبيين ٣/٢٠٦

أهل الريف والقرى والمدن ، ولباس الأعراب من البدو ، فقد كان من لباس الأعراب البردة (١) ، والبجاد (٢) ويذكر ابن الحائك الهمداني عن صنعاء « أما أهل بواديهم فأهل شعور من الحمام ، ومنهم منحلة وأصحاب لبس الحمرة ومن بعد منها فأصحاب خضاب من ورس وزعفران » (٣) والراجح ان كلام الهمداني ،وهومن أهل القرن الرابع الهجري ، ينطبق على العهود الاسلامية الأولى فيها ، وأن تمايز أذواق أهل المدن عن أهل البدو لم يقتصر على صنعاء وحدها ، بل كان قائماً في أماكن اخرى .

وذكر ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز « كتب أن لاتلبس أمة خماراً ولا يتشبهن بالحرائر » (٤)وكانت الدولة منذ عهد الرسول (ص) تجبى بعض الضرائب في الألبسة ففي المعاهدة التي عقدها الرسول (ص) مع أهل نجران ، فرض عليهم « الفي حلةمن حلل الأواقي ، في كل رجب الف حلة ،وفي كل صفر الف حلة ، كل حلة اوقية من الفضة » (٥) وقد استمر الخلفاء من بعده يجبون من النجرانيين الضريبة بالملابس ،حتى القرن الثالث الهجري ،وان كان مقدار الحلل المجباة تناقص على مر الايام . وقرر الرسول على الذميين من اهل اليمن « على كل حالم وحالمة ذكرا وانثى ، حر أو عبد ديناران او قيمة المعافر أو عرضه ثياباً » (٦) .

١– لسان العرب ٥٣/٤ الاغاني ١٣/٢ (وسنشير الى لسان العرب بكلمة لسان)

٢– لسان ٤٣/٤

٣– الاكليل ٨/١٠

٤– ابن سعد ٢٨١/٥

٥– أنظر هذه المعاهدات والمصادر التي اوردتها في كتاب « الوثائق السياسية لمحمد حميد الله . وثيقة ٩٤ ، ١٠٣ .

٦– المصدر السابق : وثيقة ١٠٩ ، ١١٠ وانظر عن ثياب المعافر ابن حنبل ٢٣٠/٥ ، ٢٤٧ ابو داود زكاة ٥ ، النسائي : زكاة ٨ .

وقد فرض خالد بن الوليد على أهل الانبار أن يقدموا الف عباءة قطوانية » (١)

ولا ريب في أن هذه الثياب المجباة كانت توزع على المسلمين مع العطاء ، وقد ذكرت المصادر توزيع الكسى على الناس في الحجاز والشام ، فأما في الحجاز فإن محمد بن سلام الجمحي يروى « جاءت عمر حلل من اليمن فأعطى أصحاب رسول الله (ص) وأبو أيوب الانصاري غائب فرفع لنفسه حلة واخذ لنفسه حلة» (٢)

ويروى البلاذري بسند عن الحسن أنه قال « أدركت عثمان وعلي مانقموا منه وما يأتي على الناس يوم إلا وهم ينالون فيه خيراً ، ويقال أُغدوا على أعطياتكم فيأخذونها ويقال أغدوا على كسوتكم فيأخذونها » (٣) ويقول ابن سعد « وأمر عمر فكتب له عيال اهل العوالي فكان يجري عليهم القوت ، ثم كان عثمان فوسع عليهم في القوت والكسوة » (٤) .

ولم يرد ذكر لتوزيع الدولة الألبسة على أهل الحجاز في العصر الاموي ، أما في العصر العباسي ، فيروي مصعب الزبيري أن عبد الله بن مصعب بن ثابت في عهد خلافة المهدي « جلس للناس يعطيهم الأموال ، يعطي الرجل من قريش ثلاثمائة دينار ويكسوه سبعة أثواب » كما يذكر أن الرشيد كان معجباً بأبي بكر ابن عبدالله بن مصعب «وأخرج لأهل المدينة على يديه نصف عطاء وكسوة وقسماً في سنة ١٨١هـ ، وأخرج على يديه ثلاثة اعطية وكسوة فاخرة في سنة ١٨٦هـ...وأخرج على

١- فتوح البلدان ٢٤٥

٢- تهذيب ابن عساكر ٥/٤٠ .

٣- انساب الاشراف ٥/١٠٠ .

٤- ابن سعد ٣-١/٢١٤

يديه في سنة ١٨٨هـ نصف عطاء وكسوة وقسماً » (١) أما في الشام فيذكر عوانة أن الضحاك بن قيس رئيس القيسية في يوم مرج راهط قتل « وقتل معه من الأشراف ثمانون كلهم كان يأخذ القطيفة ، كان لكل رجل منهم في العطاء ألفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم » (٢) والراجح أن القطيفة لم يقتصر أخذ ها على أشراف القيسية ، بل كان عاماً على الأشراف من جميع القبائل . ويدل نص البلاذرى على أن توزيع القطيفة كان معمولاً به في أواخر خلافة السفيانيين ، ومن المحتمل أن بداية تطبيقه ترجع الى عهد الخلافة الراشدة ، وأن العمل بها استمر في خلافة المروانيين أيضاً ، ومن الطبيعي أن هذه القطيفة كانت توزع بصورة منتظمة وثابتة ، وهي غير الهدايا من الألبسة التي يتردد في المصادر أنه قدمها الخلفاء الأمويون ، وخاصة المتأخرين منهم ، وكذلك الخلفاء العباسيون .

لابد أن الخلفاء لم يكونوا يشترون المنسوجات التي يعطونها أو يهدونها ، ولعل كثيراً منها كان مما يؤخذ من الضرائب العينية على المنسوجات في بلاد الشام . غير أنه لايمكن الجزم بأنها مما كان يصنع في دور الطراز ، فان الطراز وإن كان مذكوراً في بيت لحسان بن ثابت في صدر الاسلام ، وأن الثياب ذات العلم الذي كان يدل في العصر العباسي على صنعه في الطراز ، مذكور منذ زمن الرسول (ص) (٣) إلا أن المصادر تنص على ان هشام بن عبد الملك « هو اول من اتخذ الطراز » (٤)

إن توزيع الدولة الملابس والمنسوجات لايعني أنها عملت على ترويج استعمال ألوان معينة فلا يوجد في المصادر دليل عل انها كانت تفرض ألواناً معينة على

١- نسب قريش ٢٤٢ .

٢- انساب الاشراف ١٣٦/٥ الطبري ٤٧٧/٢ .

٣- عن هذه الاحاديث انظر فنسنك : المعجم المفهرس مادة (علم) .

٤- الذخائر والتحف ٢١١ وانظر عن الطراز ونشأته دائرة المعارف الاسلامية مادة (طراز) وكذلك ما كتبه سارجنت في مقاله عن المنسوجات الاسلامية المنشور في مجلة Ars Islamica

المنسوجات التي توزعها أو أنها فرضت زياً رسمياً ذا ألوان مميزة حتى على مستخدميها من الجند والشرطة ورجال البلاط ، إلا ما ذكره القاضي الرشيد «كان هشام وبنو مروان يكسون الناس الخز إلا الأصفر والأحمر ، ويكسونهم ما سوى ذلك من الألوان ، ويدخرون الأحمر والأصفر لأنفسهم » (١) فان فرض الدولة لوناً رسمياً يستعمله المتصلون بها لم يبدأ إلا في العصر العباسي حيث اتخذ السواد شعاراً رسمياً ، كما تميز بعض الجماعات ، كالكتاب والفقهاء والتجار والجند والدهاقين بألبسة خاصة ذات ألوان خاصة .

وفي القرآن الكريم آيات تذكر الزينة وتدعو إليها ، فقال تعالى «يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (الاعراف ٣١–٣٢) وقد ذكرت زينة الحياة الدنيا في عدة آيات (الكهف ٧و ٢٨ و ٤٦ الحديد ٢٠ هود ١٥ القصص ٦٠ الاحزاب ٢٨ كما وردت كلمة الزينة ومشتقاتها في حوالي أربعين آية ، والقيد الوحيد الذي فرضه القرآن الكريم هو في منعه التبرج واظهار الزينة للناس .

ومن الطبيعي أن الزينة تشمل عدة مظاهر من أبرزها أصباغ الألبسة وألوانها وقد ذكر القرآن الكريم اختلاف الألوان في (٧) ايات (الروم ٢٢ والنحل ١٣ و٦٩ فاطر ٢٧و ٢٨ الزمر ٢١ » ، وهي تشير الى اختلاف ألوان البشر والمواشي والزروع والجبال .

وقد ذكر القرآن الكريم خمسة ألوان هي الأحمر والأصفر والأخضر والأسود والأبيض .

فأما الاحمر فلم يذكر الا في آية واحدة في وصف الجبال (فاطر ٢٧) وأما الأصفر فقد ذكر في أربع آيات ، إحداها عن لون بقرة بني اسرائيل (البقرة٦٩)

١– الذخائر والتحف ص ٢١١

والثلاث الأخرى في وصف لون النبات (المرسلات ٣٣ الحديد ٢٠ الروم ٥١) .

أما الأسود فقد ورد في ست آيات ، احداها في وصف لون الجبال (فاطر ٢٧) وأخرى في لون الخيط الذي يميز به الفجر (البقرة ١٨) واثنتان عن وصف وجه من كان يبشر بالأنثى (النحل ٥٨ الزخرف ١٧) واثنتان في وصف وجه الكاذبين على الله (الزمر ٦٠) والكافرين بعد الايمان (آل عمران ١٠٦) .

أما اللون الأخضر فقد ذكر في سبع آيات ، أربع منها في وصف لون النبات والشجر (يسن ٨٠ يوسف ٤٣ ، ٤٦ الحج ٦٣) وثلاث في وصف ثياب الجنة من السندس الأخضر (الانسان ٢١ الكهف ٣١ ومتكئهم من الرفرف (الرحمن ٧٦)

أما اللون الأبيض فقد ذكر في إحدى عشرة آية ، خمس منهن عن لون يد موسى عند ما ناظر السحرة (الأعراف ١٠٨ طه ٢٢ الشعراء ٣٣ القصص ١٢ و ٣٢ وواحدة كناية عن العمى (يوسف ٨٤ وواحدة عن لون الجبال (فاطر ٢٧) وواحدة عن لون الخيط الذي يميز به الفجر (البقرة ١٨٧) . وآية واحدة في وصف وجه من انعم الله عليه بالجنة (آل عمران ١٠٦) وأخرى في وصف الكأس الذي يدار على أهل الجنة (الصافات ٤٦) وأخرى في وصف جواري الجنة (الصافات ٤٩) ومن هذا يتبين أن لون الملبوسات الوحيد الذي أشار اليه القرآن هو الأخضر وأنه ليس في القرآن حض على استعمال لون معين أو تفضيله على غيره .

وتظهر الأحاديث النبوية وتراجم الصحابة والتابعين ، وسنذكر كثيراً منها عند الكلام عن كل لون ، أن الرسول (ص) والمسلمين الأولين استعملوا ألبسة ذات ألوان متعددة ، ولم يقتصروا على لون واحد أو ألوان محددة ، كما لم يرد في الأخبار ذكر تحريم استعمال لون معين ، كما أنهم لم يقيدوا استعمال الالوان إلا في الإحرام وعند الحداد ، أما فيما عدا هاتين الحالتين فقد أطلقت الحرية في اختيار ألوان

الملابس التي صار يتحكم فيها الذوق السائد الذي تتحكم فيه التقاليد الموروثة والمؤثرات الحضارية بالدرجة الاولى . وكان الذوق السائد هو الذي يفرض على الصباغين ألوان الأصباغ ، وليس العكس .

ولا ريب في أن المجتمع الاسلامي تعرض الى تطور بطيئ بفضل الإختلاط الكبير مع الأعاجم ، وازدياد القوة الشرائية ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وقد أثر هذا في اقتباس العرب بعض الملابس والألوان التي كانت شائعة بين الأعاجم . وكان هذا الاقتباس أسرع وأشمل في المدن والأقاليم البعيدة عن قلب الجزيرة العربية حيث كان عدد العرب بالنسبة للاعاجم قليلاً نسبياً ،كما أشرنا الى ذلك من قبل .

أما في الجزيرة العربية وفي الأمصار فقد كان الاقتباس بطيئاً ومحدداً وظلت الألبسة والألوان القديمة هي المفضلة عند العرب الذين كوّنوا غالبية السكان المطلقة فيها ، وكان أثرهم واضحاً على العدد الكبير من الأعاجم وخاصة الموالي الذين الذين استوطنوا الأمصار العربية خاصة والذين صاروا يلبسون ألبسة العرب الملونة بالألوان التي يفضلها العرب . والواقع أن عدداً غير قليل من الأفراد الذين سنذكر ألوان ملابسهم هم من الموالي ، أي أنهم ليسوا عرباً بدمهم ، ولكن كانت لغتهم عربية ، ودينهم الاسلام ، ومثلهم العليا في الحياة مستمدة من الرسول (ص) والصحابة . ولم تشر المصادر التي ذكرت الملابس وسمّت لابسيها ، الى تمييز ألبسة الموالي وأذواقهم عن غيرهم من العرب ،علماً بأن بعض المصادر كانت تشير إلى لباس الاعاجم .

لقد ذكرت من قبل أن الدولة لم تفرض قبل مجيئ الخلافة العباسية استعمال لون خاص يميز رجالها أو موظفيها وعمالها ، كما لاتوجد إشارة أو دليل على

تمايز الطبقات أو أهل الحرف ، بما في ذلك الكتاب والفقهاء والتجار والدهاقين بألبسة ذات ألوان معينة ، كما هو الحال في العصر العباسي .

وقد قدمت المصادر عن ملابس الرجال وألوانها معلومات أوفر مما قدمته عن ملابس النساء وألوانها ، غير أن هذه المعلومات تكفي للاستنتاج بعدم وجود تباين كبير بين اذواق النساء والرجال في اختيار الألوان وتفضيلها ، رغم أن كتب الفقه والاوساط الأشد تمسكاً بالشريعة تؤكد على قيود أشد على الرجال ، فتذكر كراهية استعمال الرجال لبعض الألوان والألبسة التي لايرون كراهيتها للنساء .

ولاريب في أن أهل الأمصار العربية ، وهم الذين وصلتنا عنهم أكثر الأخبار لم يكونوا في حالة واحدة من الذوق أو مستوى المعيشة أو الثروة ، فقد كان فيهم الفقراء والزهاد ومحبو البساطة في المظاهر ، كما كان فيهم الأغنياء والمترفون والمعنيون باختيار ملابسهم وألوانها . الا أن المصادر الأدبية التي عليها جل اعتمادي، اهتمت بذكر العلماء والمتصلين بالخليفة وبعض « العلية » ودونت ملابسهم وألوانها ، فمعظم المعلومات التي أذكرها في هذا المقال تتعلق بألوان ملابس « طبقة » معينة ولكن يجدر أن نلاحظ أن هذه الطبقة كانت لها مكانة كبيرة في المجتمع ، وكانت أنموذجاً يقدره الآخرون ويعملون على الاحتذاء به ، فملابسهم وألوانها تمثل « المثل العليا » التي يعمل الكثيرون على تقليدها ونشرها بين الناس فهي منتشرة بين أفراد وأوساط اكثر بكثير من العدد القليل الذي صرحت المصادر بذكر اسمائم ثم أن كتب الفقه تهتم بما ينبغي أن يسود عند سواد الناس وعمومهم . فالألوان التي تشير الى إستعمالها كانت هي السائدة بين الغالبية العظمى من الناس في بيئات الفقهاء الذين ألفوا تلك الكتب على الأقل .

إن المعلومات المذكورة في المصادر التي اعتمدت عليها مستمدة بالدرجة الأولى ممن سكن المدينة ومكة والكوفة والبصرة ودمشق . ويلاحظ أن أهل

هذه الأمصار هم من جزيرة العرب ، وأن الاتصال بينهم كان وثيقاً ، بدليل الوحدة الظاهرة في ألوان ملابسهم ، والراجح أن ماذكر عنهم ينطبق على ألوان البسة من لم تذكرهم المصادر من العرب .

لم يبق من نماذج ألبسة العهود الأسلامية الاولى إلا عدد قليل جداً تحتفظ به بعض المتاحف ، ونظراً لأن ما وصلنا قليل جداً ، فلا يمكن الادعاء بأنه يمثل السائد في تلك العصور ولا يصح الارتكاز عليه وحده لدراسة الألبسة والألوان في العهود الأسلامية الأولى (١) .

ولم أرجع في هذه الدراسة الى المصادر المعاصرة غير العربية كالسريانية أيضاً لأن المطبوع منها لم يشر الى الملابس وألوانها فضلا عن أنها لم تهتم كثيراً بدراسة العرب المسلمين وأحوالهم ، بله ملابسهم وألوانها .

لقد كان اعتمادي الاكبر في هذه الدراسة على المصادر الأدبية وخاصة كتب اللغة والحديث والتراجم والتاريخ ، وأقدم مادون من هذه المصادر يرجع الى أواخر القرن الثاني الهجري فما بعد ، غير أن الاهتمام الكبير بتتبع أخبار أهل صدر الاسلام ، والعناية الفائقة في تحري الدقة في نقل أخبارهم يبرر الاعتماد على ما أوردوه من معلومات عن الأزمنة التي سبقتهم ، علماً بان كثيراً مما كان سائداً في العهود الأولى إستمر مستعملاً الى الزمن الذي بدأ فيه التدوين .

ولعل أوسع مادة عن الألوان موجودة في كتب المعاجم التي رتبت معلوماتها باحدى طريقتين : أولهما تبعاً للمواضيع والثانية تبعاً لحروف الالفباء .

وأبرز الكتب التي بحثت عن الألوان متبعة الطريقة الاولى هما كتابا « فقه اللغة » للثعالبي و « المخصص » لابن سيدة .

---

١ – يقول الدكتور زكي محمد حسن « لانكاد نعرف اليوم نماذج تستحق الذكر من منتجات ايران وصناعة النسيج في فجر الاسلام » (الفنون الايرانية ٢١٤ وانظر ايضاً الفنون الاسلامية ٢٤٩ فما بعد)

فأما كتاب الثعالبي فإن فيه فصلين أحدهما عن الألوان (٧٠–٧٧) بحث فيه المفردات المستعملة في لون البياض ،والسواد والحمرة في الانسان والحيوان كما عقد فصلاً آخر عن ألوان الثياب (٢٤١–٢٤٣) ومادته ذات قيمة كبيرة ، وهي يسيرة المتناول ، إلا أنها مقتضبة .

وأما كتاب المخصص فهو كتاب ضخم مرتب حسب المواضيع ، وعرض للمفردات والتعابير المتعلقة بكل موضوع ، وقد كتب فصلاً عن النبات الذي يُصطبغ فيه ويُختضب (٢٠٩/١١–٢١٣) وفيه ذكر لعدة ألوان مستعملة في الملابس ، إعتمد فيها على عدد من اللغويين والنباتيين القدماء .

أما المعاجم المرتبة على الالفباء ، فقد اعتمدت منها على « لسان العرب » لابن منظور نظراً لأنه من أوسع المعاجم وأكثرها توثقاً ،وقد نقل في المواد التي بحثها أقوال عدد من لغويي القرن الثاني والثالث الهجري ، كما نقل عن ابن سيدة وأورد بعض الأحاديث نقلاً عن النهاية لابن الاثير . ومادته دسمة ، الا أن ترتيبه على المعجم قد يُضَيِّع على المتتبع لبعض الألوان ، وقد كان عليه جل اعتمادي في معرفة آراء اللغويين ومعرفتهم بالألوان .

وقد نظم السيد علي بن العزّ أرجوزة في الألوان ، نشرها مع شرح واف العلامة محمود شكري الآلوسي في المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

وفي كتب الحديث معلومات غير قليلة عن ألبسة الرسول (ص) والصحابة وعن الألوان:وقد عقدت بعض هذه الكتب فصولاً خاصة عن لباس الرسول وألوانه ، وعن ألبسة الاحرام . وقد يسّر المعجم المفصل لألفاظ الحديث النبوي ، الذي تم باشراف فنسنك مراجعة هذه الاحاديث وكان عليه جل اعتمادي في دراسة ما يتعلق بالألوان من احاديث الرسول علماً باني رجعت إلى الكتب الأصلية لتدقيق بعض النصوص ، وخاصة المهمة منها في بحثي .

أما كتب الفقه فهي تسجل الصورة الشرعية المقبولة لسلوك المسلمين في مختلف جوانب الحياة ، وقد تطرقت هذه الكتب الى ألوان الألبسة عند إشارتها إلى المباح أو المكروه أو المحرّم . ولهذه الاشارات أهمية كبيرة لأنها تسجل الألوان الشائعة بين الناس ، وتعبر عن رأي الأوساط المتدينة فيها كما تلمح إلى الشائع من الألوان بين الناس .

وقد تميزت المؤلفات الفقهية الأولى التي وصلتنا ،وخاصة « الموطأ » و « المدونة » لمالك بن انس ، و « الجامع الكبير » و « الحجج » لمحمد بن الحسن الشيباني و « الأم » للشافعي و « الكافي » للكليني بأنها تعبر عن معرفة وعلم وخبرات مؤلفيها فيما كان معروفاً في عصر الرسول والصحابة والتابعين ، وفي عصر مؤلفيها ضمن نطاق الصورة العامة الفقهية . ولهذه الكتب الأولى اهمية خاصة في دراستي نظراً لأنها كتبت في الامصار التي اكثر سكانها من العرب والتي يسود فيها ذوق العرب. اما الكتب الفقهية المتأخرة فلم أتعمق في دراستها لأنها تميل إلى نقل المعلومات التي وردت في الكتب القديمة وقلما تشير الى الأحوال السائدة في العصر الذي دونت فيه .

أما كتب التراجم فأهمها لدراستي هو كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) وهو مكون من ثمانية أجزاء ضخمة في تراجم الرسول (ص) والصحابة والتابعين والعلماء ممن عاش في المدينة ومكة والكوفة والبصرة خاصة ، وقد إهتم بتسجيل ملبوسات بعض المترجم لهم ، وخاصة البارزين منهم ، وبألوانها . وقد نقل معلوماته عن رواة معتمدين ، واعتمد عليه المتأخرون دون أن يضيفوا كثيراً على ماذكر في هذا الموضوع . ومعلوماته عن الألبسة وألوانها مذكورة في في تراجم لابسيها ، فهي متفرقة في ثنايا هذا الكتاب الضخم .

ويلاحظ أن ابن سعد من علماء الحديث ، وهو متأثر بالمثل المقبولة في أوساطهم ولعل لهذا أثراً في اختياره المادة التي أوردها في كتابه ، فهو يهتم بالدرجة الاولى بالإشارة إلى ماهو مقبول أو مكروه عند هذه الأوساط ، علماً بأن ذلك يعبر عن المثل المقبولة عند السواد الأعظم من أهل تلك الأمصار ، وعما كان سائداً عندهم . وإن المادة التي جمعها إبن سعد بتأثير هذه النظرة التي ذكرتها ، جعلته لايعنى كثيراً بالألبسة والألوان الشائعة بين بعض رجال الحكم والإدارة او الأغنياء والمترفين وأهل الانس ، أو ألبسة الأعاجم في خارج الأمصار أو ألبسة أهل الذمة .

ويكمل المادة التي أوردها إبن سعد ماجاء من معلومات في بعض كتب الأدب والتاريخ ومن أبرزها كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني (ت ٣٥٦هـ) الذي جمع مادة ضخمة عن الشعراء ورجال السياسة والإدارة والمتصلين بالخلفاء والمغنين وذكر ملبوسات بعضهم وألوانها معتمداً على مصادر معتبرة . فمادته تشمل ما كان سائداً في أوساط أهملها إبن سعد ، وبذلك تكون مادته مكملة لما أورده ابن سعد .

وفي كتاب (عيون الأخبار) لإبن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) معلومات قيمة رغم قلتها عن ألوان الألبسة عند « العلية » من رجال الإدارة والبلاط .

ولكتاب « تاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠) أهمية خاصة فهو أوسع كتاب عن الأحداث السياسية الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري وقد أشار في ثنايا بحثه إلى ملبوسات بعض كبار الرجال ، وخاصة الخلفاء والقواد والولاة ، وذكر ألوان ألبستهم .

وفي كتابي (التاريخ) لليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) و (مروج الذهب) للمسعودي (ت ٣٤٦هـ) إشارات قليلة ولكنها قيّمة عن الألبسة وألوانها ، وفي كتاب (البدء والتاريخ) للمطهر المقدسي إشارات الى الألوان التي أتخذتها بعض الفرق شعاراً لها . وبعض هذه الإشارات وردت في كتب الفرق .

أما الدراسات الحديثة فأكثرها اختصت بدراسة الالبسة والمنسوجات ، وفيها بعض الإشارات الى الألوان . ومن أقدمها كتاب « المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية الذي نشره رينهارت دوزي سنة ١٨٤٣ وترجمه الدكتور أكرم فاضل الى العربية سنة ١٩٧١ . وقد قدم دوزي كتابه بمقدمة ، ثم أتبعه بذكر وصف عدد كبير جداً من الألبسة التي استعملت في البلاد الاسلامية مرتبة على الحروف الهجائية . وقد إهتم بصورة خاصة في الأقسام الغربية من العالم الاسلامي، واعتمد على عدد كبير من المصادر ، وخاصة كتاب السلوك للمقريزي ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكذلك كتب الرحالة الغربيين ، غير أنه بالنظر لقدم تأليف الكتاب فان دوزي فاتته معلومات كتب كثيرة طبعت فيما بعد . كما أنه لم يهتم كثيراً بالمعلومات المتعلقة بألوان الملابس ، وهي التي نقصر عليها هنا دراستنا ، ففائدته محدودة لهذا المقال .

وقد نشر الاستاذ ماير كتابه عن الملابس المملوكية سنة ١٩٥٢ وقد ترجمه الى العربية صالح الشيبي سنة ١٩٧٢ . وفي هذا الكتاب مادة غنية منظمة تبعاً للابسيها من الخلفاء والسلاطين وكبار الموظفين والعلماء والعامة . ومع الإشارة إلى مادتها وألوانها ، غير أن بحثه مقتصر على الفترة المملوكية المتأخرة عن الفترة التي ندرسها .

ونشر الاستاذ سارجنت في مجلة Ars Islamica مقالات عنوانها (مواد لدراسة المنسوجات الاسلامية) في العصور الوسطى مصنفة تبعاً للمواقع الجغرافية لأماكن إنتاجها ، وقد أورد في دراسته مادة واسعة مستوعبة، غير أنه خصص فصلاً قصيراً عن الصباغين قدم فيه نصوصاً عن الصباغين اليهود وعما ذكرته بعض كتب الحسبة عن الصباغة . وأكثر مادته عن المنسوجات العباسية أما ألوانها فلم يهتم ببحثها .

ومن المعلوم أن الألوان كثيرة ، وأن اللون الواحد يختلف في مدى خفته وكثافته أو مدى صلته وامتزاجه بالالوان الأخرى ، وهذا يقتضي ملاحظة الألوان الأساسية الخالصة ، والمركبة أي الممتزجة مع الألوان الأخرى ، كما يقتضي أيضاً بيان درجة خفة وكثافة كل لون . وقد وردت في اللغة العربية نصوص تفيد في فهم العرب للألوان .

فقد ذكر الثعالبي في الفصول التي خصصها للألوان في كتابه « فقه اللغة » تفاصيل عن كل من اللون الأبيض والأسود ، ومعلومات عن اللون الأحمر ، وإشارة واحدة فقط الى اللون الأخضر . ولعله كان في ذهنه ، وإن لم يصرح بذلك أن هذه الألوان هي الأساسية وذكر الشيخ علي بن العز الحنفي الشهير بالجارح في ارجوزته عن الألوان أنواع الأسود والأحمر والأخضر والأبيض .

وتطرق الجاحظ في كتاب الحيوان الى الألوان فقال « البياض مياع مفسد لسائر الألوان » وأن « البياض ينصبغ ولا يصبغ ، والسواد يصبغ ولا ينصبغ ، وليس كذلك سائر الالوان لأنها كلها تصبغ وتنصبغ » وقال أيضاً « إن الصفرة متى اشتدت صارت حمرة ، ومتى اشتدت الحمرة صارت سواداً وكذلك الخضرة متى اشتدت صارت سواداً » وذكر ان البعض يرى ان « الألوان كلها إنما هي السواد والبياض » (١) .

وبين العلامة محمود شكري الآلوسي في شرحه لأرجوزة الألوان أن البياض هو أساس الألوان ، ونقل بعض آراء ابقراط وابن سينا في ذلك (٢) .

وذكر مؤلف كتاب « مفرج النفس » أن الالوان « تنقسم الى قسمين بسيط ومركب ، فالبسيط عند بعضهم لونان : الابيض والاسود ، وعند بعضهم

١- الحيوان ٥/٥٧-٥٩ .

٢- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١-٣/٧٧ .

اربعة ، وهي الابيض والاسود والاحمر والاصفر وما يتركب منها وتولد الاخلاط السوداوية وما يحدث عنها من الفكر الردية والهموم المؤذية والأحزان الملازمة . » وتعمى القلوب . والألوان المفرحة على ماقرنا وهي الأ بيض والأحمر والأخضر والاصفر (١) .

وقد أدرك العرب الاختلافات في اللون الواحد ووضعوا كلمات يعبر كل منها عن نوع خاص من اللون ، وقدم بعض اللغويين شروحاً لتوضيح هذه الكلمات وتبيان الفروق بينها . وهذه الكلمات متفرقة تبعاً لمواضعها في المعاجم . غير أن الثعالبي في كتاب « فقه اللغه » والعز في ارجوزته جمع كثيراً منها مصنفة، وذكرت بعض كتب الاحجار ، واهمها كتاب الجماهر في معرفة الجواهر « للبيروني » أنواع بعض الألوان .

فأما اللون الأبيض فقد ذكر الثعالبي منه (الأبيض اليقق ، اللهق ،الواضح، الناصع ،الهجان،الخالص ، ثم ذكر إسم الأبيض من البشر والحيوان والنبات) وأسمه إذا اختلط بالحمرة أو الصفرة أو الغبرة ، واسم البياض إذا كان في خلفية مخالفة .

وذكر علي بن العز في أرجوزته :-

أبيض ملاح لياح دمرغ ثم فقاعى صراحى(كذا)

ويقق ولهق وناصع (٢)

وذكر البيروني من الأبيض اليقق (٣) والبلوري (٤) .

اما الأسود فقد فصّل قدامة والثعالبي وعبد الرحمن بن عيسى والنويرى في اختلافها

١- نشره بشر فارس في كتاب « سر الزخرفة الاسلامية » ص ٣٩-٤٠ .
٢- مجلة المجمع العلمي العربي ١-٤/١١٢ .
٣- الجماهر في معرفة الجواهر ٥٠ .
٤- كذلك ص ٧٩ .

في الخيل ، وصرح عبد الرحمن بن عيسى بان ما ذكره مستعمل في ديوان العرض (١) .

وذكر الثعالبي في فصل عنوانه « في ترتيب السواد على القياس والتقريب » أنواع السواد فقال « أسود وأسحم ، ثم جون وفاحم ، ثم حالك وحانك ، ثم حلكوك ومحكوك ، ثم خداري ودجوجي ثم غربيب وغدافي » وأورد فصلاً آخر « في لواحق السواد » وهي « أخطب ، أغبس ، أغبر ، قاتم ، أصدأ ، أحوى ، أكهب أربد ، أغثر ، أدغم ، أطمس ، أورق ، أخصف » (٢) .

وقال العز :

أسود حالك أهـم لوبي   محلنكـك واحلـولك ونـوبي
وغيهب وغيهـم وفاحـم   وحالك ومـدلهم قاحـم
كذاك ديجـوري أو غرابي   كحنك او حلك الغراب (٣)

اما البيروني فذكر مع الأسود ألواناً عدها قريبة منه ، فقد ذكر « قالوا في الأسود انه النفطي والكحلي ، وهما من أنواع الأكهب (٤) وذكر « البنفسجي الضارب الى الكهوبة » و « اللعل بنفسجي وأكهب وأخضر وأصفر » (٥) وذكر « الأكهب أجوده الطاووسي ثم الاسمانجوني ثم النيـل ثم الآب جون وهو أقرب الى البياض ، ومن أنواعه الكحلي والنفطي وان ضربا الى السواد »(٦) . وقد ذكر ابن منظور ما يوضح اللون الأكهب فقال « الكهبة غبرة مشربة سواداً في

١ – انظر عن الاسود وبقية الالوان والتعابير المستعملة لها في الدواوين الثعالبي : فقه اللغة ١٢٢ فما بعد
٢ – فقه اللغة ٧٣–٧٥ .
٣ – مجلة المجمع العلمي العربي ١–٣/٧٨ .
٤ – الجماهر ٧٩ .
٥ – الجماهر ٨٦ .
٦ – الجماهر ٧٥ .

ألوان الابل . . . الجوهري الكهبة لون مثل القهبة ، قال ابو عمرو الكهبة لون ليس بخالص من الحمرة وهو في الحمرة خاصة ، وقال يعقوب الكهبة لون الى الغبرة . . . قال الأزهرى . . . ولعله يستعمل في الوان الثياب . الأزهري قال ابن الاعرابي وقيل الكهبة لون الجاموس » (١) .

اما الأخضر فلم يذكر الثعالبي أنواعه ، ولكن العز ذكره فقال .

اخضر مدهـام كـذاك ناضـر وحـاني(٢)

وذكر البيروني اصناف الالوان الخضراء فقال ان الكركند (خلوقي وزيتي وفستقي واسما نجوني) (٣) وان « الكركهن منه الخلوقي والزيتي وبوقلمون . . . يوجد فيه كل لون من الخلوقية والصفرة والخضرة السماوية (٤) » « ومن أصناف الكركند والكركهن الأصفر والفستقي والزيتي والخلوقي » (٥) وأن « الياقوت الاخضر ان خير أخضره الزيتي ثم الفستقي ثم ينحط لونه بالتدريج حتى يبلغ البياض » (٦) اما الأصفر فذكر البيروني « الأصفر المختار منه هو المشبع بالصفرة المقارب بالتشبه بالجلنار من الأحمر ، وبعد المشمشي ، ثم الأترجي ، ثم التبني (٧) وذكر « الأصفر الفاتح والخلوقي والجلنار » (٨) ويقول ابن منظور ان الخلوق « تغلب عليه الحمرة والصفرة »(٩) .

١- لسان ٢/٢٢٤ .
٢- مجلة المجمع العلمي . ١-٣
٣- الجماهر ٥٢ .
٤- الجماهر ٧٤-٧٦ .
٥- الجماهر ٧٤-٧٦ .
٦- الجماهر ٧٨ .
٧- الجماهر ٧٤ .
٨- الجماهر ٧٥ .
٩- لسان ١١/٢٧٩ .

ويذكر ان العقيق اليماني لونه « الصفرة الذهبية المشرقة . . . ومنه ما يشرب خضرته حمرة ، المشمشي والرطبي والتمري والكبدي (١) .

اما الأحمر فلم يذكر الثعالبي أنواعه ، ولكنه ذكر الأسماء التي تسمى بها بعض المواد الحمراء اللون ، وأسماء بعض الالوان التي تخالطها الحمرة . (٢)

وقال العز :

أحمر قاني بحراني عضب ذريحي وأرجواني
أسلغ سلفة وقرف مانع وباحري نكع وناصع
قالقرف نصاع فقاعي زاهر (٣)

غير ان ابن منظور والبيروني ذكرا تفاصيل عن أنواع الألوان الحمراء ، فقد ذكر ابن منظور « الأرجوان هو الشديد الحمرة ، ولا يقال لغير الحمرة أرجوان ، والبهرمان دونه بشيء من الحمرة ، والمفدم المشبع حمرة ، والمضرج دون المشبع ، ثم المورّد بعده » (٤) ويقول في موضع آخر « المضرج دون المفدم وبعده المورد » (٥)

وقد قدمت بعض كتب الاحجار معلومات عن أنواع الحمرة ، فيقول الجاحظ « وخير الياقوت البهرماني ثم الأحمر المورد ، ثم الاصفر ، ثم الآسمانجوني (٦)

وذكر البيروني في كلامه عن الياقوت تفاصيل عن اللون الاحمر فقال « ولون الياقوت الأحمر يترتب فيما بين طرفين : أحدهما أقصى الغاية المطلوبة فيه والآخر أقصى الرذالة التي تسقط عندها الرغبة فيه : فأجوده الرماني ثم البهرماني

١- الجماهر ١٧٣

٢- فقه اللغة ١٣٤ .

٣- مجلة المجمع العلمي العربي ١-٣/٨١ .

٤- لسان ٣٢٧/١٤ .

٥- لسان ١٤٦/١٥

٦- التبصر بالتجارة ٩

ثم الأرجواني ثم اللحمي ، ثم الجلناري ، ثم الوردي »(١) ثم يضيف بعدها « وقد قيل في الرماني والبهرماني وأنهما صفتان لموصوف واحد ، إلا أن الأول برسم أهل العراق ، والآخر برسم أهل الجبل وخراسان . وشهد لهذا ترتيب الكندي ألوانه ، فانه جعل البهرماني أعلى درجاته . . . وابتدأ الكندي بالوردي آخذاً من جنبة البياض الى لون الورد ، ووضع الخيري فوقه من الوردية الى ان تبلغ مشابه وردة الخيري ، وفوقه الأحمر الصفري في صبغ العصفر الناصع المشرق التابع للزردج ، ثم البهرمان العصفري الخالص الذي لايشوبه شيء من النشاستج الزردج ، يتفاضل من عند الاحمر الى ان ينتهي الى عند الغاية وهي البهرماني .

وقيل في كتاب مجهول ان خير اليواقيت البهرماني ثم المورد ، وقيل في الأرجواني « انه شديد الحمرة ، فان كان دونه فهو بهرماني والبهرمان هو العصفر ، يقال ثوب مبهرم أي معصفر » (٢) .

ان الانواع التي ذكرنا ما كتبته المصادر الرئيسة عنها تنطبق على مظاهر الطبيعة او الاحجار الكريمة ، ولا ينطبق منها على ألوان الألبسة الا أنواع الألوان الحمراء أما بقية الألوان فقد ذكرت الرئيسة منها ، وقلما يذكر من فروع هذه الالوان في الألبسة غير ألوان الاصباغ التي ولدت من تلك الالوان . ومن المعلوم أن كثيراً من الأصباغ كانت نباتية مألوفة في تلك العهود ثم بطل استعمالها ، الامر الذي يتطلب جهداً لمعرفة تلك الالوان . وقد أوردت في بحثي عن كل لون المعلومات المتوفرة عن مادة الصبغ كالزعفران والعصفر والورس . غير أنني أؤكد أن كثيرا من الألوان لم يذكر منشأ صبغها . ولعل في كتب الكيمياء معلومات أوفى عن

١- الجماهر ٣٣ .

٢- الجماهر ٣٤-٣٥ .

الاصباغ ،وأورد هنا انموذجاً اقتبسته من مختار رسائل جابر بن حيان في الموضوع وارجوان يلفت نظر الباحثين لمعاومات أوسع وأدق في هذا الميدان .

ذكر جابر « قاعدة الأصباغ عندهم النوشادر ، واللون الذي يراد كالصفرة من الزرنيخ والنوشادر . والأخضر من مياه الأوراق الخضر والنوشادر المحلول فيها والابيض من مياه الالوان (البيض والنوشادر) المبيض، وكذلك ان صبغ بغير هذه مما في طبعه أن يصبغ ذلك اللون كأيصال الزرنيخ في الأصفر من الألوان واستعمال الزعفران وما جرى مجراه ، وكذلك في جميع الألوان » (١) .

ويذكر ابن الفقيه في كلامه عن تفليس بارمينية « وبها من الشب المنسوب إليها وهو شب الحمرة المعروف باليماني ، ومنها يحمل الى اليمن وواسط ، ولا ينصبغ الصوف بواسط إلا به ، وهو أقوى من المصري » (٢) ويذكر ابن البيطار « شب ، ديوسقوريدس في الخامسة ، اصنافها كلها او القليل منها توجد في معادن باعيانها بمصر ، وقد يكون في مواضع أخرى » (٣) .

ويختلف اللون الواحد في مدى تشبعه بالصبغ . وقد أورد اللغويون نصوصاً عما يتعلق بالعصفر والزعفران من ذلك ، فينقل ابن سيدة عن ابي حنيفة الدينوري « ثوب مجسد إذا اكثر فيه الزعفران حتى يجف فيقوم قياماً ، ومنه يقال للدم جاسد » (٤) ويقول ابن منظور « والثوب المجسد هو المشبع عصفراً أو زعفراناً والمجسد الاحمر ، يقال على فلان ثوب مشبع من الصبغ وعليه ثوب مفدم ، فاذا قام قياماً من الصبغ قيل قد اجسد ثوب فلان اجساداً فهو مجسد . . . والجسد

١- مختار رسائل جابر بن حيان ٣٦١ .

٢- مختصر كتاب البلدان ١٨٥

٣- جامع الادوية المفردة ٣/٥٣ .

٤- المخصص ١١/٢١١ .

ما اشبع صبغه من الثياب » (١) ويذكر ابن سـيدة « وثوب مفروك بالزعفران وغيره إذا صبغ به صبغاً شديداً » (٢) .

ومن هذا يتبين أن الثوب اذا كثف صبغه يقال له مشبع ،أو مجسد ، او مفروك

والوان الثياب تكون إما بسبب نسجها من مواد أولية ملونة ، أو بسبب صباغها . ومن المعلوم ان بعض مواد النسيج ملونة بطبيعتها ، فالقطن قد يكون أبيض أو وبرياً ، والصوف قد يكون ابيض أو عسلياً او مائلاً الى الحمرة أو السواد ، ومن الطبيعي ان النسيج يتلون بلون المادة التي نسج منها .

أما الثوب المصبوغ ، فقد يتم صبغه بعد نسجه أو بعد خياطته ، أو قد يتم بصبغ الخيوط التي ينسج منها . فأما الصنف الاول فقد أشارت اليه كتب الفقه في معرض الحكم على المشاكل القانونية التي قد تنجم بين اصحاب السلعة والصباغين ، كأن يخطئ الصباغ فيصبغه بغير اللون المطلوب ، أو بتشبع خفيف أو بمواد غير المتفق عليها ، أو في عدم المحافظة على النقاء عند الصبغ أو تخفيفه وقد جاء في المدونة « قلت أرأيت إن اشتريت ثوباً صبغته بعصفر أو بسواد أو بزعفران أو بورس أو بمشق أو بخضرة أو بغير ذلك من الصبغ فزاد الثوب الصبغ خيراً أو نقص ، فأصبت به عيباً دلسه لي البائع »(٣) . . .

وبعض الثياب يصبغ غزلها ، ثم تنسج من الغزل المصبوغ ، وقد أشارت الكتب الى بعض أنواع هذه المنسوجات فيقول الشافعي « وأحب ما يلبس اليّ البياض ، فان جاوزه بعصب اليمن والقطري وما أشبه ، مما يصبغ غزله ولا يصبغ بعد ما ينسج ، فحسن » (٤) وقد ألمح مالك إلى تميز صبغ عصب اليمن ، فقد

١- لسان ٤/٩٢ .
٢- المخصص ١١/٢١١ .
٣- المدونة ١٠/١٦٩ .
٤- الأم ١/١٧٤ .

جاء في المدونة « قلت فهل كان مالك يرى عصب اليمن بمنزلة هذا المصبوغ بالدكنة والحمرة والخضرة والصفرة ، ام يجعل عصب اليمن بمنزلة هذه الثياب المصبغة ، واما غليظ عصب اليمن فان مالكاً وسع فيه ولم يره بمنزلة المصبوغ . (١)

فأما العصب فقد تردد ذكره في مختلف المصادر ، وأشار بعضها إلى صبغه ، فيقول ابن منظور « والعصب ضرب من برود اليمن ، سمى عصباً لان غزله يعصب ، أي يدرج ، ثم يصبغ ويحاك ، وليس من برود الرقم . . . ومنه قيل للسحاب كاللطخ عصب ، وفي الحديث : المعتدة لاتلبس الثياب المصبغة إلا ثوب عصب. : العصب برود يمنية يعصب غزلها ، أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج فيأتي موشياً لبقاء ماعصب منه أبيض لم يأخذه صبغ وقيل هي برود مخططة ، والعصب الفتل ، والعصّاب الغزّال . فيكون النهي للمعتدة عما صبغ بعد النسيج وفي حديث عمر (رض) أنه أراد ان ينهى عن عصب اليمن ، قال نبئت انه يصبغ بالبول . . . » (٢)

ويطلق العصب على عدة منسوجات اشهرها الحبرة فيذكر مالك « العصب هو الحبر وما أشبهه » (٣) ويروي السمهودى أن عبد الرحمن بن عوف « دفن عليه ثوب حبرة من العصب » (٤) وقد جاء في الحديث « كان أحب الثياب الى رسول الله (ص) يلبسها الحبرة » (٥) .

ويذكر وضاح اليمن ما يدل على أن من العصب ايضاً الثياب الجندية فهو يقول :

١– المدونة ٥/١١٣ .

٢– لسان ٢/٩٢ وانظر عن اباحة صبغ العصب في الاحاديث التي وردت في كتب الصحاح : فنسنك . مادة (عصب) وانظر ما كتبناه في مجلة الابحاث « الانسجة في القرنين الاول والثاني » ص ٥٦٤–٥ (سنة ١٩٦٢) .

٣– المدونة ١/١٨٨ .

٤– وفاء الوفا ٢/٨٩ .

٥– البخاري لباس ١٨ الترمذي لباس ٤٥ ، وانظر مقالنا عن الانسجه ٥٦٢–٣ .

وتلبس من بز العراق منـــاصفاً وابراد عصب من مهلهلة الجند(١)

والعصب من المنسوجات الغالية فيروى عن معاذ أنه قال « شر النساء اذا تحلين بالذهب ولبسن ريط الشام وعصب اليمن ، فاتعبن الغني وكلفن الفقير ما لايجد » (٢) .

والعصب لم يكن يصنع الا في اليمن فيقول الاصمعي « أربعة أشياء قد ملأت الدنيا لاتكون الا باليمن ، الورس والكندر والخطر والعصب » (٣) ويقول المقدسي « اليمن معدن العصائب » (٤) ويتبين مما ذكره ابن منظور .

١ـ أن العصب يصبغ غزله قبل حياكته .

٢ أن طريقة صبغه هي ان يدرج (اي يلف ويشد) .

٣ـ أن كل خيط من خيوط نسيجه يكون مبقعاً ، أي أن بعضه مصبوغ وبعضه أبيض .

٤ـ الثوب المنسوج بالعصب يكون ذا ألوان متعددة ، أي كالموشّى وقد يكون مخططاً .

٥ـ ان اصباغه خاصة ، ويقال انه يدخل فيه البول (النوشادر ؟) .

٦ـ انه يقابل برود الرقم .

ويضاف الى خصائصه مما ذكرته النصوص الاخرى .

٧ـ بعض العصب غليظ وبعضه رقيق .

٨ـ العصب انواع ، منه الحبرة ، والجندية .

١ـ الاغاني ٦/٢٣٦ .

٢ـ عيون الاخبار ٤/١١٤ .

٣ـ كذلك ٢/١٠٩ وانظر جامع الادوية المفردة ٤/٨٣، ١٩١ .

٤ـ أحسن التقاسيم ٩٨ .

٩ـ الثياب القطرية تصبغ على نفس الطريقة .

١٠ـ العصب من الثياب الغالية الثمن ومن لباس الارستقراطية .

١١ـ ان اليمن كانت تحتكر صناعة العصب حتى أواخر القرن الرابع على الأقل . غير أن الكليني يذكر ما يدل على ان صناعتها كانت تقلد في البصرة فهو يروى عن يسند عن الحسن بن راشد أنه سأل جعفر بن الصادق عن ثياب تعمل بالبصرة على عمل العصب اليماني من قزوقطن هل يصلح أن يكفن فيها الموتى : قال إذا كان القطن أكثر من القز فلا بأس » (١) .

لم تذكر المصادر أصباغ وألوان العصب ، غير أن غلاء اثمانه واقتصار صنعه على اليمن قد يدل على أن ألوانه المتعددة تظهر منسجمة ترتاح اليها النفوس الأرستقراطية التي تلبسه ، وهذا يتطلب مهارة فائقة في الحياكة ، ولعل هذه المهارة ، وأسرار الاصباغ المستعملة فيه هي التي مكنت أهل اليمن من احتكار صناعته . وقد وردت في الكتب اشارة الى بعض ثياب اليمن التي تصبغ بالبول (٢) .

لقد ذكرنا أن وضاح اليمن ذكر في إحدى قصائده « أبراد عصب من مهلهلة الجند » وقد ورد في بيت لعمر بن ابي ربيعة ما يشير الى طريقة تكوين الجندية حيث يقول .

شف عنها محقق جنـــدى   فهي كالشمس من خـــلال السحاب

ويقول الاصبهاني الذي روى هذا البيت « الثوب المحقق هو الوشي على صورة الحقق » (٣) .

١ـ الكافي ١٤٩/٣ .

٢ـ انظر البخاري : صلاة ٧ ؛ ابن حنبل ١٤٣/٥ .

٣ـ الاغاني ٢٤٠/١ وانظر لسان ٣٤/١١ .

ويقول ابن منظور « ثوب محقق عليه وشي على صورة الحقق »، كما يقال برد مرجل وثوب محقق ويقول عن الحقق « حقاق الشجر صغارها شبهت بحقاق الابل . . والحقة هذا المنحوت من الخشب والساج وغير ذلك . . قال رؤبة « سوى مساحيهن تنطيط الحقق » .وصف حوافر حمر الوحش ، أي أن الحجارة سوت حوافرها كأنما قططت تقطيط الحقق » (١) .

ولا ريب في أن كثيراً من المنسوجات والثياب ذات ألوان متعددة بأشكال مختلفة ، وهذه الألوان والأشكال قد تكون في أصل المنسوج بسبب تنوع ألوان خيوط النسيج ، أو قد تكون مطبوعة ومنقوشة عليها بعد انجاز نسجها ، ويسمى هذا النوع الاخير الوشي . وقد تردد ذكر الوشي في المصادر التي ذكر بعضها انواعاً من الوشي كما ذكر بعضها اشكال النقوش ، وكلاهما يرتبط بالنقش وليس بنوع القماش . والواقع ان المادة التي بين ايدينا لاتكفي للتمييز بدقة بينهما . وسنذكرها فيمايلي مؤملين أن تتوفر في المستقبل مادة أوفر نتمكن بها من التحقق من الفرق بينهما

يذكر ابن منظور عن الجوهرى أن الوشي من الثياب معروف وعن ابن سيدة أنه يكون من كل لون ، وأن الوشي في اللون خلط لون بلون (٢) وهذا التعريف بالطبع لايستلزم أن يكون الوشي مرادفاً لما يسمى البرودرى اليوم ، فقد يكون الخلط في أصل الحياكة أو في طبع القماش بصبغ على سمات خاصة .

وقد ميز الشافعي بين الثياب الملونة بالوشي وغيره فقال في باب السلف من الثياب حيث يجب أن تحدد أحوالها بدقة « إن كان وشياً نسبه يوسفياً أو نجرانياً أو فارعاً أو باسمه الذي يعرف به ، وان كان غير وشى من العصب وما أشبه وصفه ثوب حبرة » ويقول أيضاً « هكذا هذا في الثياب يقال هذا من وشي صنعاء والوشي الذي

١- لسان ١١/٢٤٠ .

٢- لسان ١٩/٢٧١ .

يقال له اليوسفي » (١) وقد ذكر الجاحظ أصناف الوشي فقال « وخير الوشي الثوب السابري ؛ ،والكوفي ، والابريسمي ، والمذهب المنسوج ، ثم الوشي الاسكندراني البحت ، ثم المنسوج بالذهب ثم الوشي الغزلي ، ثم الذي لا ابريسم فيه ولا ذهب وهو اليماني لانه يرتفع على هذا السبيل من الغزلي . والابريسمي الكتان لايبلغ في الثمن ما يبلغه اليماني ، لانه ربما بلغ الثوب الغزلي الف دينار (٢)

ويتبين من كلام الجاحظ ان الوشي عرفت به عدة اماكن منها سابور ، والكوفة ، والاسكندرية . والواقع أن المصادر ذكرت وشي العراق فقد ذكر الاصبهاني « ثياب من وشى وخز العراق » (٣) وقال حميد بن ثور .

تخيرت إمـا أرجوانياً مهـذبـاً   وإما سجلاط العراق المختّمـا

وقد عرّفت بعض الكتب السجلاط بأنها « ثياب موشاة كأن وشيه خاتم » (٤)

غير أن أشهر الاقاليم التي عرفت بالوشي هي اليمن ، فبالاضافة الى اشارات الشافعي والجاحظ التي ذكرناها أعلاه يذكر الاصبهاني عن عمر بن ابي ربيعة « عليه حلة موشية يمانية »(٥) ويذكر أن الفرزدق « طلع في حلة أفواف يمانية موشاة » (٦) .

ويلاحظ أن اليمن هي التي اشتهرت بالوشي وهي التي احتكرت العصب ، فيقول الثعالبي « يقال وشي اليمن وعصب اليمن ، ويضرب بها المثل في الحسن وتشبه بالرياض والالفاظ ، ويقال من نفائس الملابس برود اليمن » (٧) . ولعل

١- الام ١٠٨/٣ .
٢- التبصر بالتجارة ٢١ .
٣- الاغاني ٢٤٤/٩ .
٤- لسان ١٨٤/٩ المعرب للجواليقي ٨٢ .
٥- الاغاني ٩٩/١ .
٦- الاغاني ٣٣٨/٩ وانظر ايضاً ٢٥٩/٨ .
٧- ثمار القلوب ٥٣٤ .

اشتهار اليمن بالوشي والعصب ، واتفاقهما بالنقوش ، كان من أسباب الخلط بين الزخارف الناجمة عن التطريز (البرودري) والزخارف التي من الاصباغ ، هذا بالاضافة الى غلاء ثمن كليهما . وان بعض ما تذكر المصادر الأدبية أنه وشي ، هو في الحقيقة اصباغ منوعة للثوب ، ولذلك اوردته في هذا المقال . ويلاحظ أن ابن البيطار يقول « البرود وهي العصب » (١) ويقول الليث « البرد معروف من برود العصب والوشي » (٢) ويقول ايضاً « الفوف ضرب من عصب البرود » (٣) .

لقد ذكر الوشي في بعض النصوص مجرداً وغير مقترن بأي نسيج فيروي المغني ابن سريج « دعاني فتية من بني مروان ، فدخلت اليهم وأنا في ثياب الحجاز الغلاظ الجافية ، وهم في القوهي والوشي يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية » (٤) .

وتردد في المصادر ذكره مقروناً بالحلل ، فذكر الاصبهاني انه كان « على الوليد ابن يزيد حلة وشي » (٥) و « على الفرزدق حلة افواف يمانية موشاة » (٦) وأن عمر بن أبي ربيعة « كان يلبس تلك الحلل من الوشي » (٧) .

وذكرت المصادر أيضاً مقطعات الوشي ، فذكر الاصبهاني أنه كان للنصيب مقطعات وشي (٨) وذكر ابن سعد أنه « كان أبو وائل يلبس مقطعات اليمنه » (٩)

١- جامع الادوية المفردة ٨٣/٤، ١٩١ .
٢- لسان ٥٤/٤ .
٣- لسان ١٨٠/١١ .
٤- الاغاني ٣١٠/١٣ .
٥- الاغاني ٣٠٨/٣ .
٦- الاغاني ٣٨٨/٩ .
٧- الاغاني ٨٦/١ .
٨- الاغاني ٣٣٨/١ .
٩- ابن سعد ٦٨/٦ .

وينقل ابن منظور عن ابي الهيثم ان « القطع ضرب من الثياب الموشاة ، والجمع قطوع . والمقطعات برود عليها وشي مقطع » (١) .

وورد في المصادر البسة متعددة موشاة، فقد ذكر الاصبهاني انه كانت على الوليد بن يزيد قلنسوة وشي مذهبة (٢) وأنه كان عليه جبه وشي ، ورداء ، وخف وشى (٣) ، وأن النصيب دخل على عبد العزيز بن مروان في جبة وشي (٤) .

ويبدو أن اكثر اشكال التلوين شيوعاً هـو المخطط ، وهـذا يتجلى في البرود ، فيقول ابن منظور « قال ابن سيده : البرد ثوب فيه خطوط ، وخص بعضهم به الوشي . . . والبردة هي الشملة المخططة قال الليث « البرد معروف من برود العصب والوشي » (٥) .

وقد ذكرت المصادر عدة انواع من البرود المخططة منها الحبير وقد عرفه ابن منظور « الحبير من البرود ما كان موشياً مخططاً » (٦) ومنها الأتحمي وهو « ضرب من البرود . . . ويقال تحمت الثوب إذا وشيته ، وروى عن الفراء : «التحمة البرود المخططة بالصفرة » (٧) وفي ديوان الهذليين « الاتحمى برود يمانية فيها خطوط حمر » (٨) ويذكر ابن منظور « البرود المذهب هو ارفع الأتحمى (٩) والبرود التزيدية « بها خطوط حمر » (١٠) والرقم هو « ضرب من البرود . . . والرقم

١ — لسان ١٥٦/١٠ .
٢ — الاغاني ٩١/٧ .
٣ — الاغاني ٢٨١/٦ .
٤ — الاغاني ٩٩/١ .
٥ — لسان ٥٤/٤ .
٦ — لسان ٢٣٠/٥ .
٧ — لسان ٣٣٠/١٤ .
٨ — ديوان الهذليين ١٤٦/٢ .
٩ — لسان ٣٨٠/٢ ، ٣٣/١٢ .
١٠— لسان ١٨٤/٥ المحيط ٢٩٩/١ وانظر ديوان الهذليين ١٠/١ .

ضرب مخطط من الوشي ، وقيل من الخز ، وفي الحديث أتى فاطمة فوجد على بابها ستر موشى فقال مالنا والدنيا والرقم ، يريد النقش والوشي ، والاصل فيه الكتاب ، ورقم الثوب يرقمه خططه » (١) .

ومن المعلوم أن اليمن اشتهرت بالبرود ، فيذكر الجاحظ ان « من خصائص اليمن السيوف والبرود » (٢) ويذكر الثعالبي برود اليمن (٣) ، كما يذكر « ويقال في نفائس الملابس برود اليمن » (٤) .

غير أن صنع البرود انتشرت فيما بعد في اماكن اخرى ، فيذكر الثعالبي « والرى موصوفة كبرود اليمن ، ويقال لها العدنيات تشبيهاً لها ببرود عدن » (٥)

وقد استعمل العرب منسوجات أخرى مخططة ، ومنها الثياب القطرية التي ذكرنا مما يعصب غزله ويصبغ ثم يحاك .

ومن الالبسة المخططة الفوط وهي « أزر مخططة يشتريها الحمالون والخدم ويتزرون بها بالكوفة » (٦)

ومن ذلك البرجد الذي يذكر عنه ابن منظور انه « كساء من صوف أحمر وقيل البرجد كساء غليظ ، وقيل البرجد كساء مخطط ضخم يصلح للخباء » (٧)

وقد ذكرت المصادر منسوجات وثياباً فيها نقوش وتصاوير . وقد ذكر الثعالبي عدداً من نقوش الثياب فقال .

---

١ – لسان ١٥/١٤٥ .

٢ – التبصر بالتجارة ٢٢ وانظر لطائف المعارف ١٦٦ .

٣ – لطائف المعارف ٢٣ .

٤ – ثمار القلوب ٥٣٤ .

٥ – ثمار القلوب ٥٣٤ .

٦ – لسان ٩/٢٤٨ .

٧ – لسان ٤/٥٦ .

« اذا كان (الثوب) في وشيه ترابيع صغار تشبه عيون الوحش فهو معين ، فاذا كان مخططاً فهو معضّد ومشطب .

فاذا كان فيه طرائق فهو مُسَيَّر .

فاذا كانت خطوطه كالسهام فهو مُسَهَّم .

فاذا كانت تشبه العمد فهو مُعَمَّد .

فاذا كانت فيه نقوش وصور كالأهلة فهو مهلّل .

فاذا كان موشى بأشكال الكعاب فهو مكعّب .

فاذا كان فيه كالفلوس فهو مفلّس .

فاذا كان فيه صور الطيور فهو مُطَيَّر .

فاذا كان فيه صور الخيل فهو مخيّل (١) .

وقد نقل ابن منظور ماذكره الثعالبي عن المفلس (٢) والمعين (٣) وقال عن المطير انه ضرب من البرود (٤) ، وذكر تفاصيل أوفي عن نقوش بعض الثياب المذكورة أعلاه .

فأما عن المعضد فقال «ثوب معضد مخطط على اشكال العضد وقال اللحياني هو الذي وشيه في جوانبه ، والمعضد الثوب الذي له علم في موضع العضد من لابسه » (٥) .

وقال عن المشطب « شطبه السعف الاخضر الرطب من جريد النخل ، وفي حديث زرع مسبل شطب ، قال ابو عبيد : الشطبة ماشطب من جريد النخل

١- فقه اللغة ٢٤١ .

٢- لسان ٤٧/٨ .

٣- لسان ١٧٧/١٧ .

٤- لسان ١٨٦/٦

٥- لسان ١٨٤/٤

وهو سعفه،شبهته بتلك الشطبة لنعمته واعتدال شبابه ، وقيل آرادت أنه مهزول كأنه سعفة في دقتها . . وقال ابو سعيد : الشطبة السيف . . . وثوب مشطب فيه طرائق » (١) ويقول عن الطرائق انه « أخدود من الأرض أو ستقة ثوب أو موشى ملزق بعضه ببعض فهو طريقة . . . طرائق نسيجة تنسج من صوف أو شعر عرضها عظم الذراع وأقل،وطولها أربع أذرع أو ثمان أذرع على قدر رؤوس العمد » (٢) .

ويقول ابن منظور عن المسير « ثوب مسير وشيه مثل السيور ، وفي التهذيب اذا كان مخططاً ، وسيّر الثوب والسهم جعل فيه خطوطاً ، وعقاب مُسيّرة مخططة .

والسيراء ضرب من البرود ، وقيل هو ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القز كالسيور وقيل برود يخالطها حرير . وقيل هي ثياب من ثياب اليمن . . .الجوهري : « السيراء . برد فيه خطوط صفر . . قال ابن الاثير هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور . . .حلة مسيرة أي فيها خطوط من إبريسم كالسيور » ويتبين من هذا الكلام أن الثوب المسير هو من البرود اليمانية ، وأن فيه خيوطاً من القز والابريسم صفراء كالسيور . (٣) .

اما المفوف فذكر عنه ابن منظور مايلي : الجوهرى : الفوف الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة . . والفوف القشرة التي على حبة القلب أو النواة دون لحمة التمرة وكل قشرة فوف .

١- لسان ٢٧٨/١

٢- لسان ٩١/١٢

٣- لسان ٥٧/٦

التهذيب : ابن الاعرابي : الفوفة القشرة الرقيقة تكون على النواة . . . والفوف ضرب من برود اليمن .

وفي حديث عثمان خرج وعليه حلة أفواف ، الأفواف جمع فوف ، وهو القطن وواحدة الفوف فوفة ، وهي في الاصل القشرة التي على النواة ، يقال برد أفواف وحلة أفواف بالأضافة . الليث : الأفواف ضرب من عصب البرود .

ابن الأعرابي : الفوف ثياب رقاق من ثياب اليمن موشاة ، وهو الفوف وبرد مفوف أي رقيق : الجوهرى : الفوف قطع القطن . . . وبرد أفواف ومفوف بياض وخطوط بيض . . . وقول ابن احمر «والفوف تنسجه الدبور واثلال ملمقة» الثرى سقر الفوف الزهر ، شبهه بالفوف من الثياب (١) .

ويتبين من كلام ابن منظور أن الأفواف هي من البرود ، أو من العصب ، تنسج من القطن وهي بيضاء ، وفيها خطوط .

اما عن المسهم فذكر ابن منظور . «المسهم البرد المخطط . قال ابن بري : ومنه قول أوس :

فانا رأينا العرض أحوج ساعة   الى الصون من ريط يمان مسهم

وفي حديث جابر أنه (ص) كان يصلي في برد مسهم ، أى مخطط فيه وشي كالسهم . وبرد مسهم مخطط على شكل السهام . وقال اللحياني انما ذلك لوشي فيه . قال ذو الرمة يصف داراً :

كأنها بعد احوال مضين لها   بالاشمين يمان فيه تَسَهّم (٢)

ويظهر من هذا الكلام أن المسهم برد مخطط بخطوط مقطعة كالسهام .

١- لسان ١١/١٨٠-١٨١ .

٢- لسان ١٥/٢٠٠ .

ويذكر ابن منظور عن المكعب « . . .. ثوب مكعب مطوي شديد الأدراج في تربيع ، ومنهم من لم يقيده بالتربيع ، يقال كعبت الثوب تكعيباً .

وقال اللحياني برد معب فيه وشي مربع ، والمكعب الموشى ، ومنهم في خصص فقال من الثياب » (١) .

وقد ذكرت المصادر ثياباً فيها تصاوير ، فروى مالك ابن انس ان أبا طلحة الأنصاري نزع غطاء من تحت سهل بن حنيف لأن فيه تصاوير ، وكان الرسول نهى عن استعمال مافيه تصاوير ، فاعترض سهل وقال «ألم يقل رسول الله(ص) إلا ماكان رقماً في ثوب ، قال بلى ولكنه أطيب لنفسي » (٢) ويذكر ابن سعد أن عروة كان يلبس الطليسان المزرر بالديباج فيه وجوه الرجال وهو محرم لايزرره عليه (٣) .

كما ان السجلاط هي « ثياب كتان موشية كأن وشيه الخاتم (٤) » والقسية هي ثياب » مضلعة فيها حرير امثال الاترج» (٥) . ويقول ابن منظور « ثياب مضلعة مخططة على شكل الضلع (٦)

قال اللحياني هو الموشى ، وقيل المضلع من الثياب المسيّر، وقيل هو المختلف النسيج الرقيق وقال ابن شميل: المضلع الثوب الذي قد نسج بعضه وترك بعضه وقيل برد مضلع اذا كانت خطوطه عريضة كالأضلاع ، وتضليع الثوب جعل وشيه على هيئة الاضلاع . . . وفي الحديث أنه أهدي له (ص) ثوب سيراء مضلع بقزّ ، والمضلع الذي فيه سيور وخطوط من ابريسم او غيره شبه الاضلاع .

١- لسان ١١٣/٢ .

٢- الموطأ ٢٤١/٢

٣- ابن سعد ١٣٤/٥ .

٤- لسان ١٨٣/٩ ، ٦٤/١٧ المعرب ٨٢ .

٥- ابن حنبل ١٣٤/١ .

٦- لسان ٦٤/١٧ .

وفي حديث علي «وقيل له ما القسية ، قال ثياب مضلعة فيها حرير ، أي بها خطوط عريضة كالاضلاع » (١) .

ان المعلومات التي ذكرناها آنفاً تظهر ان كثيراً من المنسوجات والثياب ، وخاصة البرود كانت منقوشة باشكال متعددة ، ولكن يغلب عليها ان تكون مخططة بدليل كثرة البرود التي وصفت بانها مخططة ، اما الاشكال الاخرى من النقوش فكانت متعددة ولكنها قليلة ، ولم توضح المصادر بدقة الزخارف المطرزة او التي كانت في اصل الحياكة . ويبدو لي ان اغلب النقوش والخطوط هي في اصل الحياكة .

ثم ان المصادر لم تذكر نوعية الخطوط في الاقمشة ، اي فيما اذا كانت عريضة ام دقيقة افقية ام عمودية ، او شاملة لكل الثوب ام مقصورة على جزء منه ، كما انها قلما تذكر الوان الخطوط او خلفيتها . ويلاحظ ان البرود كانت من البسة الترف الغالية ، والراجح انها لم تكن شائعة بين الفقراء .

اما الصباغون فلم اجد في خطط المدينة ومكة والبصرة والكوفة سوقاً لهم او مكاناً خاصاً بهم فيها ، ولم اجد الا ماذكره البلاذري من أن سليمان بن عبد الملك احدث الرملة ومصرها « وكان اول مابنى فيها قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً فيها » (٢) .

ويقول الجاحظ « ولا تجد اليهودي الا صباغاً او دباغاً او حجاماً او شعاباً فلما رات العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت ان دين اليهود في الديانات

١- لسان ١٠/٩٧ .

٢- فتوح البلدان ١٤٢

كصناعتهم في الصناعات » (١) ويفهم من هذا النص ان حرفة الصباغة لم تكن محترمة ، وان اليهود كانوا يكثرون من احترافها . وكلام الجاحظ هذا ينطبق على عصره وفي العراق خاصة ، غير انه توجد اشارات في بعض الكتب تدل على ان اليهود كانوا يشتغلون بالصباغة في ازمنة وامكنة اخرى ، فالجاحظ يقول « وزعم ان القرمز حشيشة تكون في اصلها دودة حمراء تنبت في ثلاثة مواضع في ناحية المغرب بارض الاندلس ، وفي رستاق يقال له تارم ، وفي أرض فارس ولا يعرف هذه الحشيشة وأماكنها الا فرقة من اليهود يتولون قلعها كل سنة في ماه اسفنداروز » (٢) .

ويذكر ابن العبرى انه لم يرتفع في العالم الاسلامي يهودي الى اكثر من ان يكون دباغاً او صباغاً . ولعل سيطرة اليهود في الصباغة ترجع الى عهود قديمة وأماكن أعم ، وان من بعض عواملها تنظيماتهم التي تمكنهم من السيطرة على الاصباغ من منابعها المنتجة (٣) .

* * *

صالح احمد العلي

١- الرد على النصارى ضمن ثلاث رسائل للجاحظ ١٧ .

٢- التبصر بالتجارة ١٩ .

٣- تاريخ ابن العبري ١/٤٩ المترجم عن السريانية .

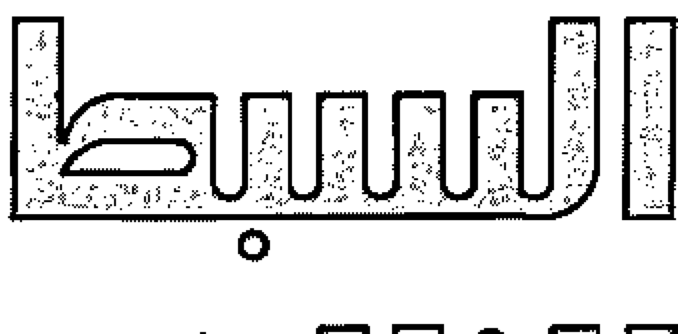
السبط الثالث عشر

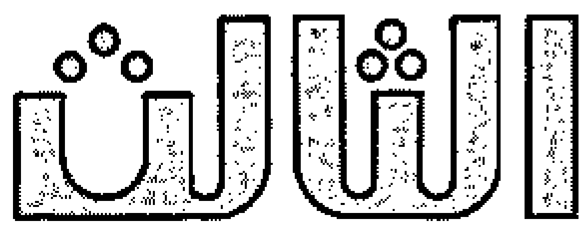
الدكتور صالح أحمد العلي

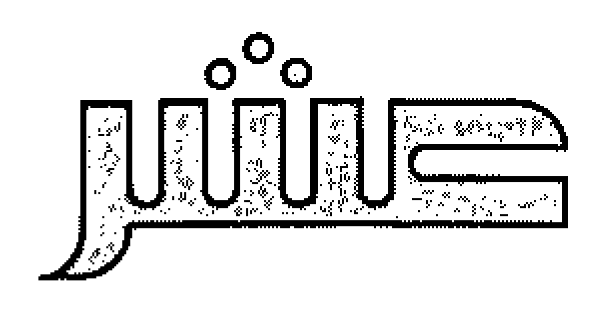


السبط الثالث عشر

مجلة آفاق عربية العدد الأول لسنة 1976







د. صالح احمد العلي

تعتبر نظرية نقاوة العرق اليوم من النظريات البالية بعد ان اثبتت الدراسات العلمية الدقيقة والمتعددة عدم صحتها ، ولم يبق ممن يؤمن بها الا عدد قليل من المتعجرين ذوي المصالح علما بانهم لا يلقون في اعتقادهم تاييدا ولا يحضون باي تقدير .

غير ان اسرائيل بالرغم من رفض العلم لهذه النظرية فانها تعتبرها عقيدة اساسية ، وتعتبر قيام دولتها قائما على اساس هذه الفكرية . وقد اثار موقفها اشمئزاز العالم واستهجانهم ، فاصدرت هيئة الامم المتحدة، وهي اعلى مؤسسة عالمية، قرارها بان اسرائيل دولة عنصرية ، وان هذا مثار استهجان العالم .

ان هذا القرار الخطير صادر من اعلى هيئة دولية ومستند على اسس علمية ومنبعث من الاخطار التي تنجم في العالم من تبني هذا المبدأ . غير انه بالرغم من ذلك فان اسرائيل للتعن للقرار ، وظلت متمسكة بعقيدتها العنصرية دون حياء او خجل . وقد تناست اسرائيل ان هذه العقيدة مناقضة لكل الدراسات العلمية .

وقد ظهرت حديثا دراسات تثبت ان اليهود ليسوا عنصرا نقي الدم، ولكنهم خليط من دماء متعددة . ومن ابرز هذه الدراسات كتاب صدر في الصيف الماضي ، مؤلفه الكاتب البريطاني اليهودي المشهور ارثر كستلر، بين فيه ان اكبر مجموعة من اليهود هي التي تسكن في روسيا واوربا الشرقية ومن هاجر منهم الى الولايات المتحدة ، وان هؤلاء اليهود اصلهم من الخزر الذين كانوا يعيشون في العصور الوسطى في جنوب روسيا ، وليست لهم علاقة عرقية بالاسرائيليين الذين كونوا دولة في فلسطين . لذلك فان القول بان اليهود خالصوا الدم وانهم يتكونون من اثنى عشرة قبيلة (سبطا) هو قول غير صحيح ، لان اغلبية يهود العصر الحاضر هم من الخزر في الاصل، وقد اورد ادلة تاريخية وحضارية وانثربولوجية كثيرة لترضيح ودعم رايه ؛ وبذلك يكون يهود هؤلاء الخزر القبيلة الثالثة عشر والامم اذا كان اليهود اثنا عشر قبيلة كما يدعون ؛ ومن هنا جعل عنوان كتابه The Thirteen Tribe

ومؤلف الكتاب «ارثر كستلر» يهودي من اواسط اوربا ، فابوه مجري ، وامه نمسارية ، وقد اعتنق المعتقدات اليسارية، وحارب مع الشيوعيين في اسبانيا، ثم لجأ الى فرنسا حيث سجن بعد الاحتلال الالماني لفرنسا ، ثم فر من السجن ولجأ الى انكلترة ، وشارك المشفقين على روسيا ونفوذها على الاحزاب الشيوعية . ونشر عددا كبيرا من الكتب الادبية والسياسية ؛ وتتميز كتبه بوضوح الفكرة وسلاسة الاسلوب .

والكتاب الذي نلخصه اليوم صدر في انكلترة قبل بضعة اشهر ، فلقي اقبالا عظيما عند الناس ، ولكنه اثار استياءا شديدا عند اليهود، فشنوا عليه حملة عنيفة ، ونشروا البحوث والمقالات في التهجم عليه ، وبالنظر لاهمية الكتاب فاننا نقدم تلخيصا وافيا له ، محاولين المحافظة على روح الكتاب ولب محتواه ، ولا ريب في ان الكتاب عن اليهود ، وقد عرض بعض الاراء التي يمكن اعتبارها مبالغة في دورهم ، كما انه قدم تفاصيل كثيرة عن دولة اليهود في الخزر ، وقد آثرنا ان يكون لها نفس التفصيل في ملخصنا لقلة المعلومات عنها ، ولعلاقتها بتاريخ العرب والمسلمين في العصور الوسطى هذا فضلا عن ان معرفة العدو على حقيقته يساعد على وضع خطط انفع للعرب في كفاحهم الاساس ضد اسرائيل .

دولة الخزر

كانت تسيطر في اواخر القرن الثامن الميلادي على العالم المتحضر دول كبيرة يحكم كل منها ملك عظيم؛ فالدولة الاسلاميه التي تمتد بلادها من اواسط اسيا حتى المحيط الاطلسي كان على راسها الخليفة هارون الرشيد ، وبالقرب منها كانت الدولة البيزنطية التي تحكم اقاليم ممتدة من اواسط اسيا الصغرى حتى ايطاليا، وعلى عرشها الامبراطورة ايرين، اما اوربا فكان يحكمها شارلمان الذي توج نفسه على الامبراطورية الرومانية الجديدة التي شملت فرنسا والمانيا وشمالي ايطاليا. وفي ذلك الوقت ايضا كانت المنطقة الواقعة بين القوقاس والفولغا في شرقي اوربا تحكمها دولة يهودية تعرف بامبراطورية الخزر . وقد قامت هذه الدولة ابان اوج قوتها بين القرن السابع والقرن العاشر الميلادي، بدور مهم في تشكيل مصائر اوربا في العصور الوسيطة ثم الحديثة . ومما يوضح مكانة هذه الدولة الخزرية في زمنها ما ذكره المؤرخ البيزنطي قسطنطين بور فيدرو جنيتس من ان الكتب التي كان يرسلها الامبراطور البيزنطي الى البابا او الى امبراطور اوربا الغربي كانت تختم بختم ذهب قيمته دينار ، اما الكتب التي كانت ترسل الى ملك الخزر فكانت قيمة ذهب ختمها ثلاثة دنانير . ويقول المؤرخ الانكليزي بيوري ان خانات الخزر لم تكن مرتبتها عند الاباطرة البيزنطيين اقل من مرتبة الامبراطور شارلمان .

دورها

حكمت دولة الخزر البلاد الواقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين ، وبذلك كانت كالسد الذي حمى الدولة البيزنطية من غزوات البلغار والمجريين والبشنك ثم الفاكينك والروس ، كما صدت التقدم العربي الى الاقاليم الشمالية؛ ولعل دورهم هذا هو الذي حدا بقسطنطين الخامس (الخزري) الى التزوج من ابنة ملك الخزر .

ولما قام العرب بالفتوح وحطموا جيش الروم وازالوا الدولة الساسانية تقدم رتل من قواتهم نحو الاقاليم الشمالية واحرزوا انتصارات في مناطق ارمينية والقوقاز . غير ان العرب توقفوا ولم يتابعوا انتصاراتهم بسبب انشغالهم بالمشكلات الداخلية التي قامت في اواخر الخلافة الاموية

وقد اتاح توقف العرب الفرصة للخزر في تثبيت اقدامهم في شمال القوقاز ؛ ثم اتخذوا في سنة ٧٤٠ م (١٢٣هـ) اليهودية دينا رسميا لهم، علما بانهم لم يكونوا من نسل اسرائيل ولم يكن لليهودية سند سياسي انذاك . ولما سقطت دولتهم تشتتوا في القرم واوكرانا وهنغاريا وبولندة ولتوانيا، وبذلك كونوا فيما يعتقد المؤرخون ، اصول اليهود في هذه المناطق؛ اي ان يهود هذه المناطق هم من اصل خزري، وليسوا من اصل اسرائيلي .

موقف المؤرخين اليهود منها

وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين وخاصة اليهود منهم ، على تجنب معالجة هذه الحقيقة ، وعملوا على عدم ابرازها للقراء؛ ويتجلى هذا واضحا فيما كتبه محرروا دائرة المعارف اليهودية في طبعة سنة ١٩٧٣، وكذلك فيما كتبه بولياك استاذ التاريخ اليهودي في العصور الوسطى؛ ومن المعلوم ان يهود شرقي اوربا يكونون اكبر كتلة من يهود العالم ؛ وان معظم يهود الولايات المتحدة هم من هذا الجذم ، وهم جميعا من اصل خزري، اي ان اصولهم ليست في فلسطين بل في الفولغا ، وبلادهم القديمة ليست كنعان بل القوقاز، وهم في دمهم اقرب الى الهون والمجر منهم الى الساميين .

من هم الخزر

كان الخزر في القرن الثالث الميلادي قبائل يعيشون في الخيام ، ثم اخذوا على مر الايام في الاستقرار وانشاء القرى والمدن، وجعلوا بيوتهم مستديرة الشكل ، كالخيام . غير انهم لم يتركوا حياة التجول حتى بعد استقرارهم ، فيذكر الاصطخري في كلامه عن عاصمتهم الاتل «وليس لهذه المدينة قرى، الا ان مزارعهم مفترشة، يخرجون في الصيف في الزروع نحو عشرين فرسخا ليزرعوا ، ويجمعوا بعضه على النهر وبعضه على الصحاري، فينقلون غلاتهم بالعجل وفي النهر».

استطاع الخزر ان يكونوا دولة بسطت سيطرتها على المنطقة التي بين القرم ونهر الفولغا ، وانشاوا حصونا قوية على طول حدودهم ، وسيطروا على بحر قزوين ، ومن هنا جاءت تسمية العرب له «بحر الخزر».

وقد وصفهم ابن سعيد المغربي بان بشرتهم بيضاء ، وعيونهم زرق ، وشعرهم مسترسل اشقر ، وابدانهم ضخمة، وطبعهم بارد . وقال عنهم الاصطخري ، والخزر لا يشبهون الاتراك ، وهم سود الشعر؛ وهم صنفان : صنف يسمون قرا خزر ، وهم سمر يضربون لشدة السمرة الى السواد ، كانهم صنف من الهند . وصنف بيض ظاهروا الحسن والجمال » .

اصلهم

لا نعلم على وجه التحقيق اصل الخزر ؛ ولكن الراجح انهم هاجروا من اواسط اسيا في حدود القرن الخامس الميلادي ، فهم اقرب الى الشعوب التركية ؛ ولعل اسمهم مشتق في الاصل من التركية «جز» اي «المتجول» او «البدوي» . ومن الطريف ان نذكر ان كلمة «هزر» عند القوزاق الروس وعند الهنغاريين معناها «الفرسان» وان كلمة «كتزر» تعني في اللغة الالمانية «يهودي» . ويذكر اليعقوبي ان الخزر هم من نسل يافث ، ابن نوح .

ورد ذكر الخزر في مؤلفات الكاتب السرياني زكريا الخطيب الذي ذكر انهم كانوا يقيمون في منطقة القوقاس . كما ذكرهم برسكوس ، وهو مؤرخ بيزنطي زار بلاط اتيلا ، لتحدث عن الخزر البيض ومحاولة البيزنطيين ضمهم الى جانبهم دون نجاح . فلما سقطت دولة الهون قام الخزر ببعض الغزوات في منطقة القوقاز وخضعوا خلال ذلك لدولة البلغار ثم لدولة الترك التي حكمت تلك المناطق فترة من الزمن . وقد حاول الامبراطور البيزنطي هرقل محالفتهم في حربه مع الفرس .

اخطارهم

وقد ادرك الساسانيون خطر الخزر وهجماتهم على الاطراف الشمالية من دولتهم، فقاموا بتحصين باب الابواب ليسدوا الثغرة التي يتوغل منها الخزر . فلما قضى العرب على الدولة الساسانية وورثوا اراضيها ، اتخذوا موقف الهجوم فتقدموا من باب الابواب وتوغلوا في الشمال مستهدفين فتح بلنجر وهي اكبر المدن الخزرية القريبة من هذه الحدود ؛ واستطاع القائد العربي سلمان بن ربيعة الباهلي من فتح عدد كبير من المدن والقلاع ، ولكن قوة كبيرة من الخزر قابلته عند ابواب بلنجر ، وانتصرت عليه، وقتل مع حوالي اربعة الاف من جيش المسلمين في سنة ٣٠ هـ ، فتوقفت الفتوح الاسلامية موقتا في هذا الميدان ، ثم ان الخزر بعد ان امنوا بهذا الانتصار حدودهم الجنوبية ، توجهوا نحو الغرب فاخضعوا قبائل المجر والبلغار واوكرانيا والقرم ، وكونوا دولة ضمت هذه الشعوب .

ثم جدد العرب حملاتهم ، واحرزوا في بعض هذه الحملات نجاحا كبيرا رغم ان الخزر ابدوا مقاومة وجلدا، فقد استطاع مسلمة بن عبدالملك فتح بلنجر وسمندر، ولكنه عاد وانسحب منها . وفي سنة ١٢٠ هـ قاد مروان

بن محمد ، وكان واليا على الجزيرة وارمينية ، حملة استطاعت التوغل والسيطرة على تلك البلاد ، واشتبك مع خاقان الخزر فانتصر عليه ودمر جيشه واضطره الى الفرار الى الفولغا. غير ان مروان فاوض خاقان على الصلح فقبله خاقان واعلن اسلامه. ثم انسحب مروان ولم يتابع انتصاراته، وانشغل باخماد الثورات التي قامت في بلاد الشام والجزيرة وهددت مؤخرته . وكانت هذه اخر محاولة عربية للتوغل في تلك الارجاء ؛ وبذلك وقفت حدود الدولة الاسلامية عند جبال القفقاس ، كما توقفت في اوربا بعد معركة بواتييه عند حدود البرانس .

غير انه في هذه الفترة بدات في الدولة البيزنطية اضطرابات داخلية جرت الخزر الى التدخل في شؤون هذه الدولة والاهتمام بها ؛ وبسبب حوادث ودسائس معقدة استطاعت دولة الخزر ان تفرض على القسطنطينية امبراطورا من صنائعها.

حضارتهم

وفي اعقاب هذه الفترة وصلتنا اوسع المعلومات عن احوال الخزر ، وذلك بفضل رسالة كتبها ابن فضلان الذي رافق بعثة ارسلها في سنة ٩٤٢ م (٣٠٩هـ) الخليفة المقتدر الى بلغار الفولغا، وغرضها الظاهري نشر الدين الاسلامي وبناء الجوامع ولكن ربما كان وراءها اغراض اخرى وهي محاولة عقد اتفاقيات دبلوماسية. ويتبين من وصف ابن فضلان ان البلغار، وكانوا انذاك يقيمون عند الفولغا ، كانوا متاخرين نسبيا في الحضارة ، فمعظمهم بدو يسكنون الخيام، ولهم بعض العادات الغريبة على المسلمين، ولكنهم كانوا يخافون الخزر الذين كانوا يقيمون في بيوت مبنية بالحجر؛ اى ان الخزر كانوا اكثر تقدما في الحضارة ، واقوى عسكريا .

تاثر الخزر بالفن الساساني ، ولكنهم انموه ونشروه في البلاد حتى وصل الى هنغاريا . وكانت عاصمتهم في البداية بلنجر ، فلما تعرضت لهجمات العرب نقلوا عاصمتهم الى الشمال ، ثم استقروا اخيرا في الاتل عند مصب الفولغا . وقد وصف عدد من الجغرافيين العرب مدينة الاتل، ومن اوضح وادق هذه الاوصاف ما ورد في كتاب المسالك والممالك للاصطخري حيث يقول: «واتل قطعتان : قطعة على غربي هذا النهر المسمى اتل ، وهي اكبرهما ، وقطعة على شرقيه . والملك يسكن في الغربي منها. وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ ، ويحيط بها سور ، الا انه مفترش البناء . وابنيتهم خركاهات لبود الا شيئا يسيرا بني من طين . ولهم اسواق وحمامات ، وفيها خلق من المسلمين، يقال انهم يزيدون على عشرة الاف مسلم . ولهم نحو ثلاثين مسجدا . وقصر الملك بعيد من شط النهر ، وقصره من آجر ، وليس لاحد بناء من آجر غيره، ولا يسوغ الملك لاحد ان يبني بالاجر . ولهذا السور ابواب اربعة : منها الى ما يلي النهر ومنها الى ما يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة ، ملكهم يهودي يقال ان له من الحاشية نحو اربعة الاف رجل ..»

ويقول ايضا «وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين واهل الاوثان ، اذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء . ولا يصل اهل الحوائج الى الملك نفسه ، وانما يصل الى هؤلاء الحكام ، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء وبين الملك سفير يراسلونه فيما يجري من الامر وينتهون اليه ، فيرد عليهم امره ويمضونه ».

الخزر يعتنقون اليهودية

ظاهرة فريدة

الخزر هم الشعب الوحيد من شعوب العالم ، الذين اعتنق ملوكهم اليهودية؛ ولعل هذا التهود راجع الى عوامل سياسية ؛ ذلك انهم اعتبروا انفسهم قوة سياسية ثالثة بجانب العرب والروم ؛ وقد كونوا مع كل من هاتين القوتين علاقات سياسية وتجارية ودبلوماسية ، ولكنهم لم يحاولوا الاندماج في اي منهما، وآثروا الاحتفاظ بكيانهم المستقل ليستطيعوا القيام بدورهم .

دوافعها

غير انهم لاحظوا ان دينهم الشاماني القديم ابتدائي لا يسمو الى مستوى الاسلام او المسيحية ، ولا يساعد على منح الحكام مكانة مرموقة كالتي يمنحها الدينان الاخيران لحكام رعاياه ؛ لذلك راو انه لا بد لهم من اتخاذ دين خاص يحفظ كيانهم ومكانتهم . فوقع اختيارهم على اليهودية ، وهي دين سماوي يعرفه المسلمون والنصارى ، ولا يؤدي اعتناقه الى الخضوع والانصهار في الاسلام او المسيحية . غير انهم لم يلتزموا بالتزمت اليهودي ولم يجبروا رعاياهم على اعتناق اليهودية او مراعاة قيودها المرهقة .

ولا بد ان هؤلاء الملوك كانوا قد عرفوا شيئا عن اليهودية واوضاعها وعقائدها ممن لجا اليهم من المضطهدين على يد اباطرة البيزنطيين وخاصة ليو الثالث الذي اصدر مرسوما يقضي بتنصرهم وتعميدهم ؛ وقد استمرت هجرة اليهود اليهم حينما قام بعض الاباطرة فيما بعد بعصر من لم يتنصر من اليهود بالمعاصر .وقد جلب اليهود الفارون من الاضطهادات البيزنطية الى بلاد الخزر ثقافتهم وافكارهم وحروفهم الكتابية، حتى ان ابن النديم يقول : «والخزر تكتب بالعبرانية».

يقول المسعودي ان ملوك الخزر تهودوا في زمن هارون الرشيد . ويروي البكري ان ملك الخزر اراد ان يعتنق دينا سماويا ، فاوحى له يهودي ان يفحص هذه الاديان، فبدأ بالنصرانية ، وطلب رجلا منها، فلما حضر ساله اليهودي فاقر النصراني ان دين اليهود حق وانه يؤمن بنبوة موسى وبالتوراة . ثم طلب مسلما غير ان المسلم توفي قبل ان يصل الى حضرة الملك . وبذلك صفا الجو لليهودي. ولعل هذا الخبر اسطوري، ولكنه يعكس ان ملك الخزر اخذ من الدين اليهودي خطه العام وهو الايمان بالتوراة وبنبوة موسى ، دون التوغل في التفاصيل المفرقة .

اما الرواية اليهوديه عن تهود ملك الخزر فقد اوردها حسداي بن شبروت ، وهو طبيب الخليفة الاندلسي عبدالرحمن الناصر ومنظم ماليته ؛ فقد ذكر حسداي انه ارسل سفارة الى ملك الخزر يسأله عن سبب اعتناقه اليهودية . فاجاب ملك الخزر بان الملك بولي، وهو احد اجداده، رأى في الحلم نورا ارشده الى اليهودية ووعده ببقاء ملكه الى الابد اذا تهود، فلما استيقظ بولي جمع ممثلي الاديان الثلاثة وناقشهم ثم اختار اليهودية دينا له .

واكد ملك الخزر في جوابه الى حسداي ان قومه لا ينتمون الى الساميين وانهم من نسل يافث وحفيده طغرمة الذي تحدر منه الترك كما تحدرت منه اقوام اخرى . وذكر فتوح اجداده ووصولهم الدانوب الذي حدث بعد تهود الملك بولان، ثم اعقب بولان ملك اهتم بالثقافة اليهودية ؛ اي ان التهود اتخذ مراحل متعاقبة بدات بطرد السحرة وانتهت بتثبيت الثقافة اليهودية .وذكر ملك الخزر في رسالته ايضا انه يقف بوجه تقدم الروس الذين لولاه لتوغلوا في تخريبهم ولوصلوا بغداد نفسها .

وقد تحدث بعض المؤلفين والرحالة اليهود عن الخزر وتهودهم ، كما ذكر بعضهم عددا من الخزريين تواجدوا في بغداد والاسكندرية والاندلس والقسطنطينية . واكدت المصادر ان هؤلاء اليهود ليسوا من اصل اسرائيلي وانهم من القرائين ، اي من الفرقة التي لا تؤمن بشروح التلمود .

انحطاط دولة الخزر

لم يحصل الخزر من تهودهم على مكانة مرموقة . بل بالعكس ان

اليهودية هي التي استفادت من قوتهم العسكرية والاقتصادية ؛ والواقع انه لم يرد ابان القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ذكر لحروب خاضها الخزر اللهم الامرتان في القرن الثامن، وكان احدهما عندما ماتت ابنة خاقان الخزر وهي في مخاضها، وكانت قد تزوجت والي ارمينية المسلم، فارتاب ملك الخزر من سبب الوفاة، وظنه محاولة متعمدة لقتلها ، فقام بهجوم على اطراف الدولة الاسلامية ؛ وفيما عدا ذلك فقد ساد السلم والاستقرار في العلاقات مع المسلمين والروم ٠

تقدم الفايكنج والروس

غير انه ظهر في القرن التاسع الميلادي خطر جديد انبعث من الفايكنج الذين يسمون في المصادر المعاصرة «الروس» ٠ فقد تقدم هؤلاء الفايكنج من سكندنافية سالكين الانهار والبحار بالسفن، وساروا بـ تلين اتجه احدهما الى الغرب فغزا ايسلندة وايرلندة ونورماندي وباريس وشواطىء الاندلس وايطاليا ثم وصل الى القسطنطينية فدخلها ، وبذلك برزت اهمية الخزر في الصمود بوجه الفايكنج وحماية البيزنطيين والمسلمين من اخطار غزوهم ٠

اما الرتل الثاني من الفايكنج فقد تقدم من شمالي روسيا سالكا نهر الفولغا حتى وصل بحر قزوين؛ وسلك نهر الدنيبر ايضا حتى وصل البحر الاسود ؛ وقاده هذا التقدم الى الاصطدام بالبلغار والخزر لانه هدد املاكهم في بلاد يسكنها السلاف ٠ وقد ظل هؤلاء «الروس» يغزون الاقاليم الجنوبية فترة من الزمن، ثم استقروا وتاثروا بالحضارة السلافية واصطبغوا بها ٠

وللوقوف بوجه التقدم الروسي تعاون الخزر والسلاف على بناء قلعة سركل في مصب الدون ، فضلا عن حصون اخرى شيدها الخزر لهذا الغرض ٠ غير ان الروس استطاعوا تثبيت اقدامهم ؛ ثم سيطروا على كييف وجعلوها مدينة زاهرة ٠

واستغل الروس في احدى الفترات انشغال الجيش البيزنطي في بعض الحوادث بعيدا عن العاصمة ، فقاموا بغزو القسطنطينية ونهب كافة القرى والاديرة حولها ٠ وقد نبهت هذه الغزوة البيزنطيين الى خطر الروس فحاولوا التفاهم معهم ، واخذوا يستخدمونهم في الاسطول وفي الجيش، وسمحوا لهم بالمتاجرة مع القسطنطينية بشروط خاصة ٠ ثم تنصرت اولجا اميرة كييف ، واستقرت النصرانية في تلك الامارة بعدئذ، وبذلك توطدت العلاقة بين البيزنطيين والروس على حساب الخزر الذين اخذت احوالهم بالتدهور ٠

المجريون

ومن الشعوب ذات الصلة الوثيقة بدولة الخزر في تلك الازمنة هم المجريون وهم قبائل جاءت في الاصل من مناطق الاورال، وسكنوا بين الدون وكوبان ولهم لغة خاصة لا تشبه ممن يجاورهم الا لغة اهل فنلندة ٠ وكانت علاقتهم طيبة مع الخزر ، فكانوا يجبون للخزر الضرائب من الشعوب المجاورة وخاصة من البلغار؛ ثم عين لهم خاقان الخزر ملكا منهم هو ارباد الذي يعتبر اول ملك هنغاري؛ وقد قاد هذا الملك المجريين واوطنهم هنغاريا حيث لا يزالون مقيمين فيها حتى اليوم ٠ وقد انضم عدد من الخزريين الى المجريين فاثروا في تكوينهم العرقي ٠

سقوط الدولة

تقدم الروس

ادت هجرة القبائل المجرية نحو الغرب وتاسيس امارة كييف الى تطبيق الحصار على دولة الخزر من الغرب؛ ثم ظهر لهم خطر جديد هددهم من الشرق جاء من الروس الذين اخذوا يتقدمون للتجارة احيانا وللنهب احيانا اخرى، وقد وصف المسعودي احدى غزوات الاسطول الروسي لمدينة آمل سنة ٣٠٠ هـ حيث قال في كلامه عن الروس «وقد كان بعد الثلاثمائة (من الهجرة) ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب ، في كل مركب مائة نفس فدخلوا خليج ينطس المتصل ببحر الخزر ، وهناك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية يصدون من يرد من ذلك البحر ٠٠ فلما وردت مراكب الروس الى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر في ان يجتازوا البلاد وينحدروا في نهره، فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر ٠٠ فاباحهم ذلك، فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه وساروا مصعدين في تلك الشعبة من الماء حتى وصلوا الى نهر الخزر وانحدروا فيه الى مدينة آمل ٠٠ فانتشرت مراكب الروس في هذا البحر وطرحت سراياها الى الجبل والديلم وبلاد طبرستان وابسكون ، وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة ونحو بلاد اذربيجان ٠٠ فسفكت الروس الدماء واستباحت النسوان والولدان ، وغنمت الاموال، وشنت الغارات واخربت واحرقت ؛ فضج من حول هذا البحر من الامم، لانهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه، وانما تختلف فيه مراكب التجار والصيد٠٠ وكانت الروس تاوي عند رجوعها من غاراتها الى جزائر تقرب من النفاطة على اميال منها ، وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم ، فاستعد الناس وركبوا في القوارب ومراكب التجار ، وساروا نحو تلك الجزائر، فمالت عليهم الروس، فقتل من المسلمين وغرق الوف ، واقام الروس شهورا كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لاحد ممن جاور هذا البحر من الامم اليهم والناس مهتابون لهم ، حذرون منهم ، لانه بحر عامر لمن حوله من الامم ، فلما غنموا وسئموا ما هم فيه ساروا الى فم نهر الخزر ومصبه ٠٠ ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم افة عظيمة، وعلم بشأنهم اللارسية ومن في بلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر خلنا وهؤلاء القوم فقد اغاروا على بلاد اخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والذراري ، فلم يمكن لملك منعهم وبعث الى الروس فاعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم ؛ وعسكروا وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء ، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها وصافوا المسلمين ، وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة آمل وكان المسلمون من نحو خمسة عشر الفا بالخيل والعدد ، فاقام الحرب بينهم ثلاثة ايام ، ونصر الله المسلمين عليهم ، واخذهم السيف ، فمن قتيل وغريق ، ونجا منهم نحو خمسة الاف، وركبوا في المراكب الى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس ، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر، فمنهم من قتله اهل برطاس، ومنهم من وقع الى بلاد البرغر الى المسلمين فقتلوهم وكان من وقع عليه الاحصاء ممن قتله المسلمون على شاطىء نهر الخزر نحوا من ثلاثين الفا ٠ ولم يكن للروس من تلك السنة عودة الى ما ذكرناه ٠

وقد جدد الروس هجومهم بعد ثلاثين سنة فاحتلوا بردعة ، ثم تعاقبت بعد ذلك حملاتهم ٠

امارة كييف

اما امارة كييف فقد قامت بحملة نجحت في اخذ مدينة سركل ، فكان ذلك ايذانا بزوال دولة الخزر؛ وكان ملكهم فلاديمير قد اعتنق النصرانية الارثوذكسية بعد ان حاولت مختلف الاديان جلبه اليها ٠ ومن الطريف ان نذكر انه عندما حاول اليهود اقناعه باعتناق اليهودية سالهم لماذا لم يقيموا دولة في فلسطين ؟ فاجابوا لان الله غضب على اجدادهم لما اقترفوه من آثام وشرور فشتتهم بين الناس ؛ فلما سمع فلاديمير جوابهم طردهم قائلا: كيف تستطيعون هداية الناس وانتم مشتتون قد بؤتم بغضب من الله٠ وقد حاولت الدولة البيزنطية الاعتماد على امارة كييف في حمايتها، غير انها اخطات التقدير ، لان امارة

كيف لم تدم طويلا ، بل سرعان ما انهارت امام تقدم القفجاق الاتراك الذين بسطوا سلطانهم على بلاد واسعة امتدت حتى هنغاريا ، وظلت مسيطرة من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر حيث اكتسحهم المغول . وكان موقف هؤلاء القفجاق معاديا للبيزنطيين . ومما تجدر الاشارة اليه ان فرعا آخر من الاتراك الغزية، وهم السلاجقة تقدموا في آسيا الصغرى وسحقوا الجيش البيزنطي واسروا امبراطوره في معركة ملاذكرد الشهيرة .

فترة مظلمة

لقد سيطرت على هذه الاقاليم خلال هذه الفترة عصور مظلمة لانعلم فيها عن شعوب تلك البلاد اية تفاصيل . والمصادر الوحيدة عن هذه الفترة هي المصادر العربية ، وهي بدورها مقتضبة وغير متفقسة في معلوماتها : فيقول ابن حوقل ان الروس دمروا كليا خزران وسمندر والاتل . غير ان المصادر الروسية لا تذكر حملة قام بها الروس انذاك، ويلاحظ ان ابن حوقل يفصل بين خزران والاتل ، علما بانها مدينة واحدة ، كما انه لا يذكر سركل . ثم انه يذكر ان الاتل كانت لا تزال في زمنه مركزا للتجار الروس ومن المحتمل ان الروس غزوا الاتل ففر اهلها ثم عادوا فبنوها . ويقول ابن مسكويه ان الخزر استعادوا الاتل بمساعدة المسلمين . اما المقدسي فلم يشر الى غزو الروس ويكتفي بالقول ان اهل الاتل ساروا نحو البحر، ثم عادوا الى مدينتهم بعد ان اعتنقوا الاسلام .

الخزر في اواخر العصور الوسطى

وقد ورد ذكر الخزر في المصادر المتاخرة، مما يدل على عدم اندثارهم؛ غير انه لم ترد معلومات عن قوتهم وتماسكهم مما يدل على مدى تضعضعهم وضعفهم ثم زوال دولتهم. غير ان زوال دولتهم لا يعني زوال اثارهم في اماكن وشعوب متعددة ، فيذكر ابن العبري ان تكك ابو سلجوق كان في الاصل قائدا في جيش خاقان الخزر ثم انفصل عنه فاسس الدولة السلجوقية . ويقول ابن العديم ان ابو سلجوق كان من اشراف الترك الخزر ويقول ابن حسول بان سلجوق كان في خدمة ملك الخزر ثم ترك تلك الخدمة . وكل هذه النصوص تظهر وجود علاقة بين الخزر وبين مؤسس الدولة السلجوقية . ويتردد من المصادر العربية ذكر المسلمين ومكانتهم في تلك المنطقة - كما اشارت الملاحم الادبية البولندية الى الخزر .

وفي القرن الثاني عشر الميلادى انتشرت بين الخزر نبوءة بظهور مسيح يخلص بيت المقدس . وقد نشر هذه النبوءة خزرى يهودى اسمه شليمون ابن دوجي وعاونه في نشرها ابنه مناحيم وقد ادعى شليمون هذا انه ايليا وان ابنه هو المسيح المنتظر ؛ وكاتب في ذلك عددا من اليهود في مختلف الاقطار، وحاول ان يسيطر على بعض البلاد الا انه فشل في هذه السيطرة. وقد انتشرت دعوته في البلاد وظلت ذكراه قائمة امدا . ويروي ان النجمة السداسية التي تتخذها اسرائيل شعارا لها هي من ابداع شليمون هذا .

التشتت

لقد فقدت دولة الخزر في سنة ٩٦٥ امبراطوريتها ، ولكنها لم تفقد كيانها ، بل ظلت دولة صغيرة ذات حدود واضحة حتى القرن الثالث عشر حيث ازالها المغول نهائيا من الوجود. وقد ارسلت قبيل زوالها الى البلاد السلافية فروعا لنشر اليهودية ، فكونت بذلك اوسع واقوى منطقة لليهود في العالم الحديث؛ واخذ اليهود ينساحون الى مختلف الجهات تجارا ورحالين وقوما لا وطن لهم الا حيث يقيموا موقتا في محلات محصورة تسمى الجيتو ينشؤون فيها مدارسهم وعباداتهم وينتظرون مسيحا ينقذهم.

الهجرة الى المجر

ففي هنغاريا مثلا انضم عدد من الكاباريين الى المجريين وهاجروا الى هنغاريا . وقد بدات هذه الهجرات قبل تدمير دولة الخزر ، ثم استمرت بعد ذلك فلما انتصر سانت اصطيفان فقد اليهود بعض مكانتهم ولكنهم لم يفقدوا كيانهم . وقد صدر في المجر ما يسمى المرسوم الذهبي ، وهو يشبه الماجنا كارتا الانكليزية ، وحرم فيه اليهود من وظائف سك النقود وجمع الضرائب والسيطرة على المالح الملكية ، مما يدل على انهم كانوا يتمتعون بهذه الامتيازات قبل ذلك . ومن المعلوم ان ماليه الملك المضروبه كان يشرف عليها رجل اسمه تيكا وهو يهودي من اصل خزري لعب دورا خطيرا في السياسة وظل باقيا في منصبه مدة احد عشر سنه ورغم صدور المرسوم الذهبي ، ولم يعزل عن عمله الا بعد ما تدخل البابا واجبر الملك على ذلك ، فذهب تيكا الى النمسا ولكنه عاد الى هنغاريا في عهد الملك بكلا الرابع ، وهو ابن الملك اندريه؛ وظل في عمله حتى قتله المغول عندما غزو هنغاريا .

غزو المغول واثره

ولما غزا المغول اوربا فر كثير من الشعوب من وجهها ، ولجا بعضهم ومنهم الكومان الى هنغاريا .

ثم اجتاحت هذه البلاد في القرن الثالث عشر جيوش جنكيزخان تهدم المدن وتقتل البشر وتدمر المزارع ، وتلاها الموت الاسود (١٣٤٧) وهو وباء هائل اجتاح البلاد وقتل معظم السكان ، وفر كثير منهم تاركين البلاد خرابا ليس لها من يعمرها .

وهكذا هاجرت الشعوب، لان الهجرة هي السبيل الوحيد لبقائها في الحياة اذا ارادت ذلك ، فكان ممن هاجر هؤلاء الخزر فلحقوا بمن سبقهم من ابناء جلدتهم الذين استوطنوا في اوكرانيا وجنوب روسيا ، ومن مظاهر هذه الاسماء الخزرية لكثير من الاماكن في هذه المناطق وفي الكاربات وكذلك من المقاطعات الشرقية من النمسا . غير ان عددا منهم ظل في الكرج وفي القفقاس ولا يزال حتى اليوم في شرقي القفقاس عدد من اليهود يسمون انفسهم داغ جو فوتي اي يهود الجبال .

الهجرة الى بولندة

وفي سنة ٩٦٢م، وهي السنة التي تدمرت فيها مدينة سركل الخزرية ، كونت القبائل السلافيه حلفا بزعامة البولنديين ، وكان هذا الحلف نواة دولة بولندة؛ وقد لعب اليهود دورا ملحوظا في هذه الاحداث، ويروى ان المرشحين لعرش بولندة كان رجلا يهوديا اسمه ابراهام بروكوفنك ، وسواء كان هذا الخبر صحيحا ام لا فانه يدل على ان اليهود ، وهم هنا من اصل خزري، كانت لهم قوة وعدد ملحوظ في بولندة آنذاك ، وان البولنديين ارادوا الافادة من خبراتهم في الادارة والمالية .

غير ان اعدادا اخرى من اليهود اجبرت على الهجرة من بلاد الخزر واوطنت الاقاليم الغربية، ومن هؤلاء عدد من الاسرى الذين نقلوا الى لتوانيا ثم الى بولندة . ولعل منهم ايضا عدد من القرائين . ويذكر الرحالة الفرنسي دي لانوي ان عددا من الجاليات اليهودية كانوا يقطنون في ارجاء مختلفة من شمال بولندة ولتوانيا ويتكلمون اللهجة التركية مما قد يدل على ان اصولهم خزرية . ولا تزال هذه اللغة هي المستعملة في العبادات الدينية لليهود القرائين في عدد من المدن مثل تروكي وفلنا ولوعزك وهاليج .

امتيازاتهم في بولندة

اتجه البولنديون عند تاسيس دولتهم نحو الغرب ؛ ولما كانوا

متأخرين عن الاقاليم الغربية فقد عملوا على تشجيع الهجرة الى بلادهم ليستطيعوا مجارات الغرب وبذلك هاجر اليهم اقوام من الخزر والارمن وغيرهم • وفي سنة ١٢٦٤ اصدر الملك بوليسلاف مرسوما حدد فيه حقوق المهاجرين اليهود ، فاباح لهم الاحتفاظ بكنائسهم ومدارسهم ومحاكمهم، وبتملك الاراضي وممارسة التجارة واحتراف ما يريدونه من الحرف • ثم اباح لهم الملك ستيفان باتوري (١٢٧٥ـ٨٦) انشاء برلمان خاص بهم يجتمع مرتين في السنة وله حق فرض الضرائب على اليهود •

وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ارسل البابا كليمنت الرابع الى احد امراء بولندة يشكو فيه من كثرة المعابد اليهودية في مدن بولندة • ومن ارتفاع بنائها وكثرة زخارفها وطغيانها في الفخامة على الكنائس المسيحية ؛ ثم اصدر امرا بمنع فيه اليهود من اقامة اكثر من كنيس واحد في كل مدينة: كل هذا حدث في الوقت الذي كانت فيه جيوش المغول تجتاح في غزوها سهوب روسيا ، مما يدل على ان معظم يهود بولندة كانوا من الخزر الفارين من وجه المغول، وانهم كانوا في وضع مالي جيد • ولعل عددهم لم يقل عن ربع مليون ، من المجموع الكلي ليهود اوربا الوسيطة البالغ مليونا في تقدير دائرة المعارف اليهودية • وهذا يدل على ان يهود الخزر كونوا نسبة عالية من يهود شرقي اوربا ، ومن الطبيعي ان معظمهم هاجر الى بولندة ولتوانيا ، والى هنغاريا والبلقان •

مكانة عالية

كانت لليهود مكانة متفوقة في بولندة وهنغاريا ، فكان منهم مدراء المال وجباة الضرائب والمسيطرون على احتكارات الملح • ويلاحظ ان النقود البولندية المسكوكة في هذا الزمن كانت عليها حروف عبرية • وقد امتد نفوذ اليهود الاقتصادي الى بلاط الامراء ايضا • وامتلك بعض اليهود مزارع واسعة • غير انهم من حيث العموم لم يقبلوا على الزراعة كثيرا ، لان النظام الاقطاعي يمنع هجرة الفلاحين ، كما ان مناخ بولندة يختلف عن مناخ بلاد الخزر ، هذا فضلا عن ان الزراعة لا تؤتي ارباحا كبيرة • وقد أدى هذا الى انصراف اليهود الى الصناعة والتجارة •

وكان يهود اوربا يعيشون في محلات خاصة محاطة باسوار تقفل ابوابها في الليل، ولم يكن لليهود تجاوز هذه المحلات التي اصبحت بسبب ذلك مزدحمة السكان وتتسم بالقذارة •

اما في بولندة فكان اليهود يسكنون في محلات مفتوحة يمارسون فيها اعمالهم في الصناعة والتجارة ، وقد احتكروا التجارة بالخشب والنقل بالعربات الذي ظل سائدا في بولندة حتى دخول السكك الحديدية اليها • واشتغل عدد من اليهود في ادارة الفنادق والخانات، وفي المطاحن وتجارة الفراء، ولا بد انهم جلبوا هذه الحرف معهم من بلاد الخزر ، لان المحلات المقفلة الغربية لا تفسح المجال لنمو مثل هذه الحرف •

ويلاحظ ان زخرفة معابد اليهود في بولندة يختلف عن زخرفة المعابد في غربي اوربا ، وان البسة اليهود البولنديين من القفطان الحريري الطويل، وكذلك اغطية رؤوسهم تشبه ما هو مستعمل عند الاقوام الساكنة في جنوب روسيا •

من أين جاؤوا

يتبين مما تقدم (اي ان الامة الخزرية اختفت من مسرح التاريخ (٢) انه ظهرت مراكز يهودية في المناطق المجاورة لمواطن الامة الخزرية، وخاصة تلك الواقعة في الجهات الشمالية الغربية (٣) ان عددا كبيرا منهم هاجر الى بولندة غير ان السؤال الذي يبرز هو : هل استقر في بولندة يهود هاجروا من غرب اوربا •

يهود اسبانيا

ان اقدم الجاليات اليهودية في اوربا الغربية ، ما عدا اسبانيا ، هي الجاليات التي كانت تقيم في فرنسا والراين: وقد استوطنت تلك الجاليات هذه الاقاليم بعد ان طردهم الرومان من فلسطين وشتتوهم ؛ ثم انتقل بعضهم الى انكلترة في زمن وليم الفاتح ليمارسوا نشاطهم الاقتصادي والمالي بعد ان تحدد نشاطهم التجاري الذي عرفوا به في العصور الوسطى، بسبب نمو الطبقة الوسطى في اقاليم غربي اوربا ؛ فانصرف اليهود الى الامور المالية واعتمدوا على الطبقة الحاكمة • وقد بلغ عدد المهاجرين الى انكلترة في زمن وليم الفاتح الفين وخمسمائة •

الاضطهادات في اوربا

وقد تتابعت الاضطهادات على الجالية اليهودية في فرنسا ، وانتهت بان طردهم فيليب الجميل من فرنسا كليا • اما يهود فرنسا الحاليون فقد جاؤوها من اسبانيا ابان القرن السابع عشر •

اما يهود المانيا فلا نعلم اصولهم، غير ان الاشارات الى وجودهم تكثر في القرن الثالث عشر، اي عندما ازداد عدد المهاجرين اليهود من بلاد الخزر الى بولندة • وقد تردد ذكرهم في المدن الواقعة على الراين مثل متز وستوتجارت وكولون والالزاس؛ وقد ذكرهم الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي واشار الى قلة عددهم •

ولما بدات الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر ذبح عدد من اليهود في المدن الالمانية لانهم رفضوا التنصر والتعميد ، وبذلك لم يبق في المانيا الا عدد قليل من اليهود الذين اختفوا او التجأوا الى بعض امراء القلاع ثم عادوا بعد هدوء الاحوال الى مدنهم؛ ولكن لا يوجد اي دليل على انهم هاجروا الى بولندة او الى اوربا الشرقية •

ثم استعاد اليهود نشاطهم في القرن الثالث عشر وتردد ذكرهم في عدد من المناطق القريبة من الراين والبلاتينات وفريبورغ واولم وهيدلبرغ • غير انهم سرعان ما واجهتهم نكبات جديدة بدات بطردهم كليا من بلاد فيليب الجميل ومصادرة املاكهم ، فهاجروا الى بروفانس وبورغندي واكويتانيا، غير انه لا توجد اية اشارة الى هجرة احد من هؤلاء اليهود الى المانيا •

وجاءت النكبة الثانية من الطاعون الاسود الذي ظهر في التركستان ومنها انتشر غربا حتى اجتاح اوربا وافنى كثيرا من سكانها ؛ ورافق انتشاره اشاعة عمت بان اليهود عملوا على نشره وانهم يسممون مياه الشرب ، فتعرض كثير منهم للقتل فضلا عمن مات بالطاعون • وبذلك خلت المانيا من اليهود الا القليلين الذين لجأوا الى قلاع الامراء؛ وكل هذا يدل على ان يهود بولندة لم يهاجروا من المانيا •

اما يهود انكلترة وفرنسا وهولندة في القرن السابع عشر فقد جاؤوا من اسبانيا •

فالقول بان يهود غرب اوربا هاجروا من اقليم الراين باعداد كبيرة الى بولندة وانهم اخترقوا اراضي المانيا المعادية لهم ، هو قول لا اساس له من الصحة ولا ينسجم مع الحجم الصغير ليهود الراين ورغبتهم في البقاء هناك • هذا فضلا عن عدم وجود اية اشارة في الكتب الى مثل هذه الهجرات شرقا •

تيارات متقاطعة

وعلى ضوء ما سبق يمكن ان يفهم المرء اتفاق المؤرخين البولنديين على ان معظم اليهود كانوا قديما في بلاد الخزر ؛ والحق ان المرء ليميل الى راي المؤرخ اليهودي كوشير بان كافة يهود شرق اوربا هم من اصل خزري خالص •

يهود النمسا

لقد كانت توجد في اواخر العصور الوسطى جاليات يهودية تقيم في فينا وبراغ والألب الكارنثي وايستريا ؛ وان بعض هذه الجاليات هاجرت الى ايطاليا وبولنده وهنغاريا • فمن اين جاءت هذه الجاليات في الاصل؟ قد يمكن الافتراض بان هذه الجاليات جاءت من ايطاليا التي قطنها اليهود منذ زمن الرومان غير انه لا يوجد ما يؤيد هذا الافتراض • بل بالعكس توجد ادلة على ان بعض يهود الخزر هاجروا الى ايطاليا •

وقد تبنى بعض المؤرخين رواية اسطورية مفادها ان المقاطعات النمساوية في العصور السابقة لانتشار المسيحية كان يحكمها امراء يهود• ولم تذكر المصادر اصول هؤلاء اليهود ، غير ان اسماءهم التي ذكرتها الرواية تدل على ان اصولهم من منطقة الخزر• ومن المعلوم ان النمسا ظلت طوال النصف الاول من القرن العاشر تحت حكم الهنغاريين • وان المجريين وصلوا تلك البلاد مع قبائل الكبر الخزرية في اواخر القرن التاسع ، ولم يكن الهنغاريون قد اعتنقوا النصرانية ، اي انهم لم يعرفوا غير اليهودية دينا موحدا • وجدير بالذكر ان المؤرخ البيزنطي جون سيناموس ذكر وجود اليهود في الجيش المنغاري • وكل هذا يلقي ضوءا على اصول هذه الاسطورة •

دليل لغوي

ومما يناقض الادعاء بان يهود شرقي اوربا جاؤوا من بلاد الراين هو التركيب اللغوي لليديش ، وهي لهجة العوام اليهود ، وكانت شائعة انذاك ولا تزال مستعملة عند بعض الاقليات اليهودية في كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة • وهذه اللهجة هي خليط غريب من العبرية والالمانية الوسيطة والسلافونية وعناصر اخرى؛ وهي تكتب بالحروف العبرية • وقد بدا الاهتمام بدراستها منذ سنة ١٩٢٤ حين نشر العالم اللغوي ميسنر دراسته عنها • ويتبين من هذه الدراسة انه ليس في اليديش ايه كلمات المانية مما يستعمل في منطقة الموزيل او فرانكفورت او المناطق المجاورة لفرنسا• والكلمات الالمانية التي وجدها ميسنر في اليديش كلها مما يستعمل في المانيا الشرقيه • ويلاحظ ان اليديش لغة عاميه ليس لكتابتها قواعد محددة ، فكل فرد يكتب كلماتها كما يريد دون التقيد باية قاعدة •

التأثر بالثقافة الالمانيه

ويلاحظ ان بولندة عملت في عهد ملكها كازمير العظيم على جلب الالمان الى بولندة لاعمارها ، واغدقت عليهم الامتيازات ، وامنت لهم الحرية والحقوق فنشطوا وانشأوا جامعة كركاو ، وساعدوا على تقدم بولندة وجعلها مركزا اقتصاديا وفكريا كبيرا، وانتشرت بين البولنديين الثقافة الالمانية وازداد تقديرهم لها •

وقد تأثر الخزر المهاجرون الى بولندة بدورهم ، فاخذوا يقتبسون من الثقافه الالمانيه وبدورها • ولم يقف بوجه هذه الثقافه الالمانيه الا الفرقه اليهوديه المعروفه باسم القرائين ، وكان اتباعها يميلون الى الزهد والى كره تعاليم علماء الدين اليهود : وجدير بالملاحظه ان القرائين في سنة ١٨٦٧ كان عددهم في روسيا (التي كانت تضم شرقي بولندة) يبلغ ١٢٫٨٩٤٢ ومنهم ٩٫٦٦٦ لغتهم التركية (وربما كان اصلهم خزري) ولم يكن يتكلم اليديش منهم يتجاوز ٣٨٣ • ويرجع عدم تكلم يهود بولندة اللغة التركية الى انهم تركوا استعمالها ، وبذلك فعلوا ما يفعله احفاد المهاجرين الى الولايات المتحدة، وهذه عادة مألوفة عند اليهود •

وكان بدء النهضة الاوربية ايذانا ببدء العصور المظلمة اليهودية ، فقد اصبحت تطبق بحقهم قوانين صارمة، ويفصلون عن الناس ، ويحرمون من الوظائف والحرف المحترمة، ويميزون بالملابس • وصاروا يعزلون في محلات مقفلة هي الجيتو •

اما في بولندة فقد تمتع اليهود ببعض الحرية حتى اواخر القرن السادس عشر حيث ادى تطبيق الجيتو وكثرة المهاجرين الى ازدحام مناطق سكناهم والى سوء احوالها الصحية ؛ وقد اضطرهم ذلك الى الهجرات الى هنغاريا وبوهيميا ورومانيا والمانيا حيث حلوا محل من زال بعد الطاعون الاسود •

يهود اوربا قفقاسيون وليسوا من فلسطين •

كل هذا يظهر ان معظم اليهود في اوربا ليسوا من فلسطين في الاصل بل انهم قفقاسيون في الاصل؛ وان مجرى الهجرة اليهودية لم يسر من البحر المتوسط الى فرنسا والمانيا ، ولكنه كان يسير دائما نحو الغرب مبتدئا بالقفقاس فاوكرانيا فبولنده فاوربا الوسطى • وهذا لا ينفي ان عددا من اليهود جاؤوا من الغرب؛ ولكن معناه ان اكثرية اليهود سارت في المسار الذي ذكرناه •

● خرافة العرق

السفردم

ينقسم اليهود في عصرنا الى قسمين رئيسين هما السفردم والاشكنازي • فاما السفردوم فهم متحدرون من اليهود الذين سكنوا منذ ازمنة قديمة في اسبانيا (وهي تسمى بالعبرية سفاراد) ثم طردوا منها في اواخر القرن الخامس عشر فانتقلوا الى البلاد المجاورة الواقعة على البحر المتوسط، وكذلك الى البلقان والى غرب اوربا • وهم يتكلمون اللهجة العبرية الاسبانية (اللادينو) ولهم طقوس دينية خاصة وكان عددهم في سنة ١٩٦٠ يبلغ نصف مليون •

الاشكناز

اما الاشكناز فهم الغالبية العظمى من اليهود ، اذ يبلغ تعدادهم حوالي احد عشر مليونا لقد ذكرت التوراة الاشكناز باعتبارهم قوما يسكنون في منطقة قرب جبل ارارات في ارمينية • ٠٦٠ ورد هذا التعبير في سفر التكوين (١٠ ، ٣) وفي سفر التواريخ (١ ، ٦) باعتباره احد اولاد جومر ، ابن يافث واخو طغرمة وابن اغماحوج الذي يدعي الخزر انه جدهم •

وذكر الاشكناز في سفر ارميا (٧،٥١) حيث دعاهم النبي ارميا الى تدمير بابل • وقد فسر سعديا الجاعون ، وهو من اكبر علماء اليهود في العراق في القرن العاشر الميلادي ، هذا النص بانه نبوءة عما سيحدث في عصره اي في القرن العاشر ، وان المقصود ببابل هو الخلافة الاسلامية ببغداد، والمقصود بالاشكناز هم الخزر او حلفاؤهم • ويرى بولياك، وهو استاذ تاريخ اليهودية في العصور الوسيطة في الجامعة العبرية، ان بعض علماء يهود الخزر سمع تفسير سعديا فصار يطلق على اليهود الذين هاجروا الى بولنده اسم (الاشكناز) •

دم اليهود غير خالص: الادلة الانثربولوجية

لخص رافائيل باتاي في المقال الذي كتبه في دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٧٣) المناقشة الحادة القديمة عن مدى نقاوة الدم اليهودي بالفقرة التالية : «ان الادلة المستمدة من الانثربولوجيا الفيزيائية تظهر بانه لا يوجد جنس يهودي كما هو سائد عند الناس ، فمقاييس اجزاء الجسم المسجلة لليهود تظهر بانهم يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا في مختلف المظاهر البدنية بما في ذلك القامة، والوزن ، ولون البشرة، وشكل الجمجمة ، ومقاييس اعضاء الوجه،

واصناف الدم . والواقع ان دراسة اصناف الدم تظهر ان اليهود لا يختلفون عن الشعوب التي يقيمون بينها .

وجاء في احدى الدراسات الناضجة التي نشرتها منظمة اليونيسكو عن مسألة العرق في العلم الحديث . وقد كتب هذه الدراسة الاستاذ جيوان كوماس:

« بالرغم من الراي السائد ، فان الشعب اليهودي خليط من اجناس متنوعة . والواقع ان هجرات اليهود المستمرة وعلاقاتهم الطوعية او القسرية مع انواع متعددة جدا من الامم والشعوب كانت من عوامل هذا التنوع وان ما يدعي شعب اسرائيل يمكن ان يظهر امثلة على صفات يتصف بها كل شعب ويكفي للتدليل على ذلك ان نقارن اليهودي من روتردام وما يتميز به من ضخامة بابن دينه من اهل سلانيك وما يتصف به من عيون غائرة ووجه عريض وجسم هزيل . وهكذا فان معلوماتنا تظهر ان اليهود عموما يمثلون درجة كبيرة من التباين والاختلاف تفوق ما يوجد بين الشعوب الاخرى» .

طول القامة

وذكر وليم ريلي في كتابه الكلاسيكي « عروق اوربا » الذي طبع سنة ١٩٠٠ .

«اليهود الاوربيون قامتهم اقصر من المعتاد ، وهم في الغالب Stanted مطلقا، وقد اورد على ذلك احصائيات كثيرة ، غير انه ذكر ان قصر القامة قد يكون مرجعه التأثر بعوامل محيطية » .

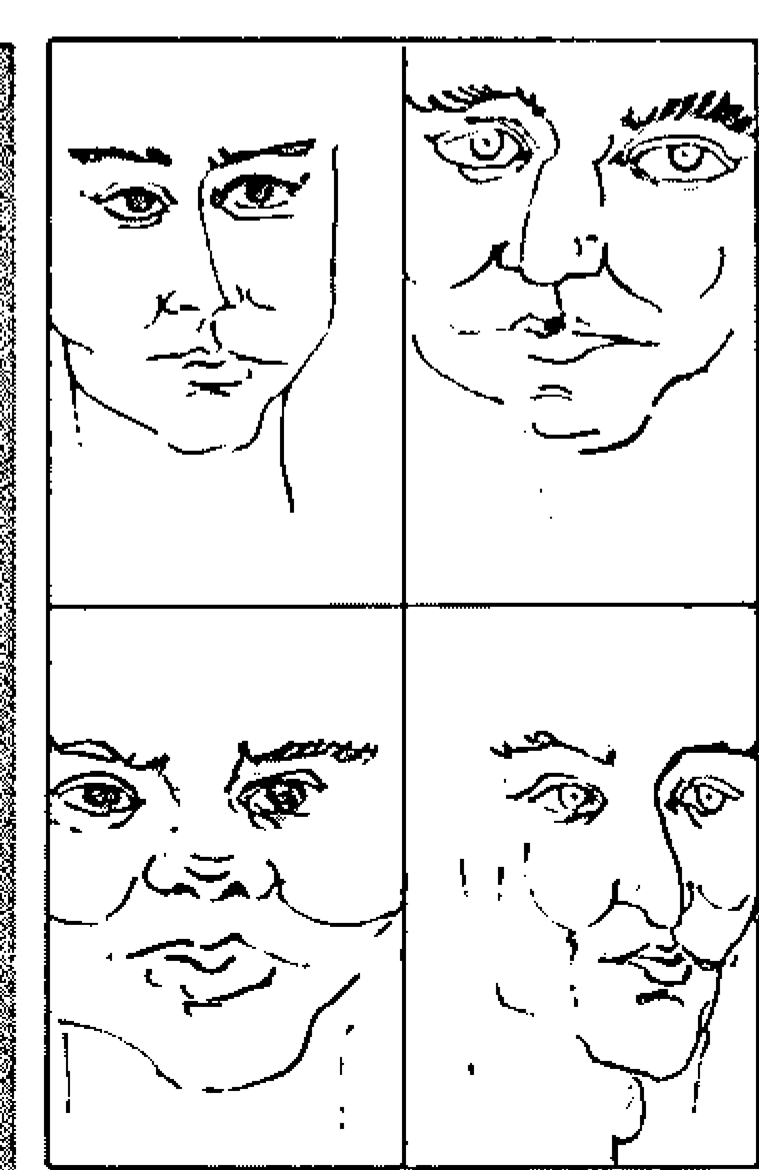
وفي سنة ١٩١١ نشر موريس فيشبرج كتابه «اليهود: دراسة في العرق والمحيط» وهو اول مسح انثروبولوجي من نوعه باللغة الانكليزية وقد كشف في هذا الكتاب حقيقة عجيبة وهي ان اطفال المهاجرين من اوربا الشرقية الى الولايات المتحدة قد يصبح معدل طولهم ١٦٧٫٩سم اي ان الطول يزيد حوالي انج ونصف في مدى جيل من الزمن . وهذه الظاهرة تنطبق على المهاجرين من الاجناس الاخرى، وهي ترجع الى تحسن التغذية والى عوامل محيطية اخرى .

ثم جمع فيشبرج احصائيات تقارن بين معدل طول اليهود وطول الشعوب الاخرى في بولندة، والنمسا، ورومانيا، وهنغاريا .. الخ؛ وكانت النتيجة عجيبة ايضا: فقد تبين منها ان طول قامة اليهود يتطابق مع طول قامة غيرهم ممن يعيشون معهم، فيكونون طوال القامة ، في البلاد التي أهلها طوال القامة والعكس بالعكس . ثم ان اطوال قامة الناس، سواء كانوا يهودا او غير يهود، تكون متباينة في افراد نفس الامة، بل وفي نفس المدينة،





اليهود المهاجرون الى الأرض المحتلة يمثلون درجة كبيرة من التباين والاختلاف تفوق ما يوجد بين الشعوب الأخرى.



من بين ٢٨٣٦ يهودي يسكنون نيويورك حسبت منهم فقط أنوفهم معقوفة ٥٧٫٠٪ مستقيمة و٢٠٫٠٪ فطس و٦٫٥٪ مستوية عريضة.

وذلك تبعا لرخاء تلك المنطقة؛ وهذا لا يعني عدم تاثير الوراثة في الطول، فاننا نؤكد في الحقيقة على العوامل الوراثية ولا نعطي العوامل المحيطية اهمية خاصة ٠

مقاييس الجمجمة

فلنعد الان الى مقاييس الجمجمة التي كان الانثروبولوجيون مغرمين بها؛ وهنا ايضا نجد ان مقاييس جماجم اليهود لا تختلف عن مقاييس غير اليهود الذين يعيشون معهم في نفس المنطقة؛ اي ان مقاييس جماجمهم متنوعة، فجماجم اليهود السفارديين مستطيلة ، وجماجم الاشكنازيين مستديرة ٠

والشائع ان اليهود ذوي شعور سوداء وعيون سوداء، غير ان كوماس قام بدراسة تبين منها ان ٤٠٪ من اليهود البولنديين شعرهم فاتح، وان ٥٤٪ من اطفال اليهود في النمسا ذوي عيون زرقاء ٠ اما فيرشوف فقد تبين له من دراسة قام بها ان ٣٢٪ من اطفال اليهود لونهم اشقر ٠

تصنيف الدم

اما اصناف دمائهم فهي متباينة ايضا، وقد اجمل ذلك شابيرو في فصل كتبه في احدى الدراسات التي نشرها اليونيسكو بعنوان والشعب اليهودي: تاريخ بيولوجي حيث قال « ان المدى الواسع في التنويع بين السكان اليهود في خصائصهم الفيزيولوجية، وتنوع تكررات الـ Genes لمجموعات الدم فيهم يجعل اي تصنيف جنسي موحد لهم يبدو غير مضبوط ٠

ان القضية الاساسية كما يقول فيشبرج هي: هل ان اليهود عرق نقي الدم تكيف الى حد ما بتاثيرات محيطية ؟ ام انهم فرقة دينية تتكون من عناصر عرقية متنوعة جاءت من تنوع اصول المتهودين ومن الاختلاط بالزواج ابان هجراتهم الى مختلف ارجاء العالم »٠ وقد اجاب فيشبرج عن ذلك بوضوح حيث قال:

اختلاط اليهود قديم

«فلنبدا بالادلة الدينية واخبارها اذ يبدو ان قبيلة اسرائيل كانت منذ بداية ظهورها مكونة من عناصر عرقية متنوعة ٠٠ فقد كانت في اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين آنذاك شعوب متعددة لكل منها سمات خاصة: فالعموريون شقر البشرة ، نحاف البدن ، طوال القامة وذوي رؤوس مستطيلة ؛ والحثيون سمر البشرة وهم اقرب شبها بالمغول، والكوشيون وهم من عرق زنجي، هذا فضلا عن شعوب اخرى، وقد تزاوج اليهود مع كل هذه الشعوب كما يتضح ذلك من نصوص التوراة ٠

اصول متباينة

لقد نصح انبياء اليهود شعبهم بعدم الزواج من نساء من دين اخر، غير ان اليهود ، وخاصة ملوكهم ، كانوا اول المخالفين لتعاليم انبيائهم فقد تزوج ابراهيم الخليل هاجر ، وهي امرأة مصرية؛ وتزوج يوسف من ابنة راهب مصري، وتزوج موسى امراة من مدين ؛ وكان شمشون اليهودي المشهور بقوته فلسطينيا ٠ اما الملك داؤود فكانت امه مابية ، وزوجته جيشوريه ٠ اما سليمان فكانت امه حثية ، وكان يفضل النساء الاجنبيات فقد تزوج ابنة فرعون ، ونساء مابيات ، وعموريات ، وادوميات ، وزيدونيات ، وحثيات ويتجلى من التوراة ايضا ان كثيرا من عامة اليهود تلدوا حكامهم في التزوج من الاجنبيات ولا يخفى ان التوراة تبيح الزواج من الاسرى وهكذا لم يشذ اليهود عن الشعوب الاخرى في عدم قصر الزواج على نساء من جنسهم ٠

يهود من شعوب اخرى

ثم ان عددا من مختلف الشعوب اعتنقوا اليهودية؛ نذكر من ذلك فلاشا الحبشي، وكان نتج الصيني، ويوسف ذي نواس اليماني، وظل التهود يحدث حتى في العصر الروماني وبعد سقوط الدولة اليهودية؛ فقد اعتنق اليهودية في تلك الفترة افراد من حدياب واليونان وانطاكية، ويقول المؤرخ اليهودي راينان ان اليهودية في العصور الهلنستية والرومانية اتسمت بميزة لم تخص بها في اي عصر اخر وهو انها اخذت تنتشر، لمدة قرنين او ثلاثة، بين الناس، وخاصة في مصر وقبرص وليبيا ٠ ولا بد ان هذا رافقه اختلاط دم الاسرائيليين بدماء الشعوب الاخرى ٠

الجيتو وحصر الزواج

ان ظهور المسيحية وتطبيق نظام الجيتو اديا الى حصر اليهود، غير ان الجيتو لم يطبق بدقة الا في القرن السادس عشر ٠ والواقع ان التزاوج بين اليهود وغيرهم ظل ساريا وكان سببا لاستياء رجال الدين النصارى ولاصدار المجالس الدينية مراسيم متعددة ، كالمراسيم التي اصدرها كل من مجلس طليطلة سنة ٥٨٩ ومجلس روما سنة ٧٤٣ ومجلس لاتيران سنة ١١٢٣ و ١١٣٩ وكذلك المرسوم الذي اصدره الملك لادسلاف الثاني الهنغاري في سنة ١٠٩٢ ٠ والواقع ان الجيتو حصر الزيجات مع غير اليهود ولكنه لم يمنعها، حتى انه كان في المانيا بين سنة ٩٢١ و ١٩٢٥ اثنان واربعون زيجة مختلطة من بين كل مائة زيجة يهودية ٠

تنصر يهود اسبانيا

اما يهود اسبانيا (السفارديم) فمن المعلوم ان كثيرا منهم تنصر: فبعد مذابح سنتي ١٣٩١ و ١٤١١ تنصر اكثر من مائة الف؛ ولكن كثيرا منهم ظل يعتنق اليهودية سرا، فاحتفظوا بمناصبهم العليا وتزاوجوا مع غيرهم فلما صدرت قوانين طرد اليهود من اسبانيا (سنة ١٤٩٢) ومن البرتغال (سنة ١٤٩٧) زادت الشكوك في المتنصرين منهم ، واحرقت محاكم التفتيش عددا منهم، واضطر اخرون الى الهجرة الى الاقاليم الاخرى من البحر المتوسط ، والى هولندة ، وانكلترة ، وفرنسا حيث اعلنوا يهوديتهم في هذه البلاد ٠

التزاوج

وقد امتد هذا الاختلاط في التزاوج الى يهود فلسطين انفسهم، فقد روى لنا مثلا ان يهودا بن حزقيل عارض زواج ابنه من امرأة لا تنحدر من نسل ابراهيم ، فقال له صديقه اولا: كيف تستطيع التحقق باننا انفسنا لسنا متحدرين من الوثنيين الذين افتضوا باكرات صهيون عند حصار اورشليم. ومن المعلوم ان غشيان نساء العدو كان يعتبر في التاريخ القديم حقا طبيعيا للجيوش الفاتحة • ويروي المؤرخ اليهودي جرايتز ان يهود المانيا تحدروا من نسل وحدة عسكرية المانية كانت تقاتل مع الجيش الروماني في فلسطين فاخذ افرادها فتيات يهوديات كان من نسلهن اقدم يهود المانيا •

ولم يقتصر التزاوج بين اليهود وغيرهم على المانيا الغربية، بل كان سائدا في اوربا الشرقية ايضا؛ فيقول فيشبرج:

«لقد كان الاختلاط الجنسي الناجم عن الحروب كثير الحدوث في البلاد السلافية حيث كان رجالها يعلمون ان اليهود يحاولون فداء اسراهم، فكانوا يعملون على الاكثار من اسر اليهود للحصول على الفدية، وكانوا ينكحون النساء الاسيرات» •

هل لليهودي سحنة خاصة

يدعي البعض انهم يمكنهم تمييز اليهودي من اول نظرة ، فهل هذا صحيح؟ لقد قال ارنست رينان في سنة ١٨٨٣ ، لا يوجد لليهود شكل واحد، بل توجد لهم عدة اشكال: فلليهود اشكال متعددة، كما ان عددا ممن تتصورهم يهودا، هم ليسوا كذلك» •

الانف

وقد ساد بين الناس ان ابرز مايميز اليهود هو شكل انوفهم المحدبة التي تشبه منقار النسر؛ غير ان من الغريب ان فيشبرج فحص ٢٨٣٦ يهوديا من مدينة نيويورك، فوجد ان سبعهم فقط كان له مثل هذا الانف، وان ٥٧٪ منهم كانت انوفهم مستقيمة، و ٢٠٪ ذوي انوف فطس ، و٦و٥٪ كانت انوفهم مستوية عريضة • وقد وجد عدد من الانثربولوجيين مثل هذه النتائج في بولندة واوكرانيا •

ويلاحظ ان الانوف المعقوفة كثيرة عند قبائل القفقاس وعند سكان اسيا الصغرى، وان لهنود امريكا انوفا تشبه الانوف التي يزعم الناس انها من خصائص اليهود• اما البدو والعرب، وهم ممثلوا السامية النقية ليست لهم انوف معقوفة •

وما ذكرناه عن الانف ينطبق على بقية اجزاء الوجه التي يزعم بعض الناس انها تميز اليهود، في حين انهم لا يحتكرونها بل توجد عند امم اخرى ايضا •

صفات مكتسبة من المحيط

ان الصفات المكتسبة من الاوضاع الاجتماعية ومن العوامل المحيطية الاخرى يصعب جدا فصلها عن العوامل الوراثية؛ ولهذه الصفات المكتسبة تاثير كبير على السلوك والكلام والعادات : وان من اهم وسائل تمييز اليهودي هي ملاحظة هذه الصفات المكتسبة ، وملاحظة البسته وطرق قص شعره : غير ان هذه الالبسة اذا لبسها غير اليهودي فانه يبدو وكانه يهودي ، وهذا لايقتصر على اليهود وحدهم، بل ينطبق على معظم الشعوب الاخرى، وهو يتجلي بوضوح من مراقبة الخصائص العامة التي يتميز بها سكان الولايات المتحدة علما بان اصولهم العرقية متنوعة جدا • وجدير بنا ان نتذكر ان اليهود في العصور الحديثة عاشوا في معظم البلاد معزولين في محلات خاصة (الجيتو) فخضعوا الى محيط متشابه وتعرضوا الى تاثيرات متشابهة •

عزلة اليهود في الجيتو

ان اليهود منذ زمن التوراة حتى العصور التي طبق فيها الجيتو سادت عندهم العزلة، وانحصر زواجهم في داخل جماعتهم المعزولة ، ولا ريب في ان هذا التزاوج الداخلي قد يؤدي الى الاحتفاظ ببعض الصفات الجيدة، كما هو الحال في تزاوج الخيول• غير انه كثيرا ما يسبب خطر جلب عناصر مضرة مجمدة او افساح المجال لزيادة تاثير هذه العناصر • ولعل هذه العزلة هي سبب ماعرفه الناس عن كثرة البلهاء في اليهود •

ومن تاثيرات العزلة ايضا التغييرات التي تحدث على العناصر الموروثة : فمن المعروف ان بعض الخصائص في الوراثة البيولوجية تنقرض في الشعوب المعزولة اما لعدم وجود من يحملها اطلاقا، او لقلة الذين يحملونها وعدم نجاحهم في نقلها الى الاجيال التالية، وهذا قد يؤدي الى تبدل كثير من الصفات الوراثية •

ثم ان اليهود لم يشتغلوا كثيرا بالزراعة ، ولم يكثروا سكنى الريف، بل قصروا نشاطهم على المدن فاصبحوا مكتظين فيها ، وقاسوا من الاخطار التي يولدها حصر انفسهم في الجيتو؛ وهذا ادى على حد قول شابيرو الى ان «الاوبئة الكاسحة التي اجتاحت البلاد في العصور الوسطى كان لابد ان تؤثر في اختيار اليهود اكثر من غيرهم، فقد افنت الضعفاء ، واكسبت الباقين منهم مناعة تفوق ما لغيرهم» • ويعتقد شابيرو ان هذا هو سبب قلة النسل عند اليهود •

الرهـــا

وقد رافقت المعيشة في الجيتو ضغوط معادية تراوحت بين الاحتقار البارد الى اعمال عنف تطبق تبعا لبرامج منظمة • ولا بد ان الحياة لعدة قرون في مثل هذه الظروف قد ادى الى بقاء اشدهم حضور بديهة واكثرهم مرونة وقابلية على البقاء • وهذه صفات يتميز بها اليهود الذين عاشوا في الجيتو • ولا يزال الجدل قائما حول ما اذا كانت هذه الصفات السيكولوجية تقوم على اسس وراثية تعمل بموجبها عملية الاختيار ، ام انها منقولة بالوراثة الاجتماعية خلال التكيف منذ الطفولة • فالمشهور مثلا ان اليهود معتدلون في شرب الخمور، وهذا يمكن تفسيره بانه من اثار الجيتو ؛ فان الذي يعيش في ظروفه لا بد له ان يضبط نفسه من تصرفاته اذا اراد الا يناله الاذى غير ان هذه العادة تزول عند زوال ظروف الجيتو • فهي مسالة بيولوجية وليست وراثة اجتماعية •

يقول ربلي «ان اليهودي من اصل عرقي مختلط ، ولكنه من جهة اخرى الوريث الشرعي لليهودية : فان اليهودية قد اثرت في كل جزء من تفاصيل حياته فلماذا لا تؤثر على جسمه وعلى جمال نسائه وعلى اختياراته في الزواج » •

غير ان ربلي لم يدرس اثر الجيتو، اما فيشبرج فقد درس هذا الاثر ووصل الى الراي الطريف التالي» يتميز يهود اوربا الشرقية بقوة البدن، اما بقية اليهود فالمعروف عنهم انهم نحاف الجسم قصار القامة• غير ان هذه الصفات اخذت اليوم بالتبدل، وصار كثير من يهود اوربا الغربية والولايات المتحدة يفخرون بانهم لا يشبهون اليهود • وعلى هذا فاننا نامل تبدلات كبيرة فيما يدعى «الطبقة اليهودية» ، وخاصة عند الناشئة الاسرائيلية •

↑ عمان ١٩٧٠
↓ لبنان ١٩٧٦

الجزء الثاني   المجلد الحادي والثلاثون



مجلة المجمع العلمي العراقي



جمادي الأولى ١٤٠٠ هـ
نيسان ١٩٨٠ م

٣١

التدوين وظهور الكتب المصنفة

في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور صالح احمد العلي

رئيس المجمع العلمي العراقي

استاذ بكلية الاداب ـــ جامعة بغداد



(١)

ظهور التدوين وتطـــوره

إن ميزات نقل العلم بالسماع واعتماد التعليم على المحاضرات والاتصال الشخصى المباشر ، لا تعوض عن عيبهما الأساس في اعتماد المعرفة على الأشخاص ومدى نشاطهم ، مما يجعل المعرفة محدودة بالزمان والمكان ، ويعرضها للزوال في حالة ركود النشاط البشري. فالتدوين لا غنى عنه في ضبط المعلومات وتخليدها مجردة عن الانسان الفرد . والكتابة هي أول وأحسن وسيلة لتسجيل الإنتاج الفكري، وتيسير نقله الى المناطق المتباعدة في المكان، أو الى الأجيال الآتية، وهي تمكن المرء من الاطلاع على النتاج الفكري المدوّن بصرف النظر عن جنس كاتبه أو أصله . فهي تساعد على جعل الأفكار والآراء أساس الصلة والارتباط بين الناس .

وللتدوين أثر كبير في التوجيه الفكري ، فهو ينقل الفكر من الأسلوب الخطابي الى الأسلوب الإنشائي ، وهذا يتطلب عناية خاصة في اتباع أساليب فنية خاصة في عرض الأفكار ، وكذلك في اختيار الكلمات ؛ فالمتحدث له حرية أوسع في الكلام ،

وقد تباح له الأغلاط النحوية أو استعمال الكلمات العامية السائدة في وسط محدود . أما في التدوين ، فان الكاتب يستعمل عادة الكلمات المقبولة عند المثقفين ، وهـــذا يتطلب تثبيت مستوى معين من الكلمات ، أي توحيـــد اللغة وما يتبعها من تسجيل الكلمات والتمهيد لظهور المعاجم .

والفكرة الأساسية التي يقوم عليها التدوين هي التسجيل الكتابي لما يعتبر جديـــراً بالحفظ والبقاء ، أي تثبيت الأمور التي يراهـــا الكُتَّاب أو الآمرون بالكتابة جديـــرة بالاهتمام ، وَحرية بأن تورث للأجيال ، فالتدوين إذَنْ تسجيل لما يعتبر جديراً بالبقاء والخلود، وهو الى حدّ ٍ ما تعبير عن فكرة الخلود وتطبيق لها .

وتختلف العناصر الجديرة بالتدوين والخلود باختلاف الأفراد والأمم ، وهذه العناصر قد تتغير بتغير الأزمنة ، تبعاً للمثل العليا الثقافية والحضارية التي يتبناها المدّ ِون والتي كثيراً ما تتبدل بعضاً او كلا ً ، فقد تهتم أمّة من الأمم في زمن ما بالشعر الغنائي او الحماسي ، أو بمـــا يتعلق بالأخلاق والسياسة أو بالحياة المادية والمعاملات ، أو قد تركز اهتمامها على العلوم الانسانية او الطبيعية او الرياضيه ، وقد تهتم في زمن ما بجانب واحد أو بعدة جوانب من الحضارة والثقافة ، وقد يستمر هذا الاهتمام مدة ً طويلة ، أو قد يقتصر على مدّة محدودة ثم يتحول الى الاهتمام بجانب آخر .

وتتوقف الاستفادة من الكتابة على مدى استعمالها ، ويعتمد دورها في الحفاظ على التراث الفكري على مدى الحفظ المتقن المنظّم للمدونات ، وهذا يتوقف على مـــواد الكتابة ، وعلى تنظيمها والعناية بصيانتها .

وللمادة التي تكتب عليها المدونات دور كبير في تخليد هذه المدونات ، ومن المعلوم أن مواد الكتابة منوّعة ، بعضها هش سريع الاندثار والفناء ، وبعضها صلب قوي يقاوم عوادي الزمن ؛ ولا ريب في أن أقواها وأثبتها هي الحجارة ثم الآجر المصنوع من الطين المفخور ، فاما الحجارة فقد كثر استعمالها في القديم ، وخاصة لتسجيل اعمال الملوك والحكّام ، وكذلك شواهد القبور ، والواقع أنها لا تزال مستعملة حتى اليوم ، وإن كان استعمالها الحالي بنطاق محدود : ويرجع استعمالها الى قدرتها على البقاء وتحدى

عوامل الاندثار ، غير أن ثقل وزنها وكبر حجمها أدى الى بقائها في مكانها، لصعوبة نقلها ، كما أن صلة ما يكتب عليها بالتيارات السياسية المتبدلة كانت من أهم عوامل تعرضها للهدم والتشويه بعد التبدلات السياسية العنيفة .

وللآجر ميزة على الأحجار في الكتابة ، اذ أنها اخف وزناً واسهل نقلاً وحفظاً ، كما أن الكتابة عليها أيسر ، ومن الممكن كتابة نصوص طويلة نسبياً على الآجر ، وبذلك يمكن اعتبار المكتوب عليها نواة الكتاب وأصله بالمعنى المفهوم في الوقت الحاضر ، اي كتابة مقدار كبير نسبياً من المعلومات عن موضوع واحد ، بصرف النظر عن دقته وتفاصيله .

ومما يتصل بالآجر ألواح الطين ، وقد كثر استعمالها بصورة خاصة في الأماكن التي تقع عند الأنهار حيث يكوّن الغرين على ضفافه طبقات رقيقة تصلح عند جفافها للكتابة بالنقش او بالأحبار ، فتوفر بذلك مادة رخيصة تفيد المبتدئين بالتعلم ؛ وتحملنا ميزاته وسرعة تلفه على الاعتقاد بانه كان اوسع انتشاراً من البقايا القليلة المكتشفة منه حتى الآن .

وقد عم استعمال الآجر والطين في العهود البابلية والآشورية في العراق وبلاد الشام وآسيآ الصغرى ، وكثر استعماله في السجلات الرسمية وفي ضمن ذلك جبايات الضرائب ، وكذلك في تدوين المعارف والعلوم، وآخر ما وصل إلينا من هذه الألواح يرجع الى القرن الأول الميلادي .

غير أنه توجد في المصادر العربية إشارات تدل على أن الطين ظل مستعملاً في العراق حتى أوائل العصر العباسي .

غير أن صغر حجم ألواح الآجر والطين يقضي بأن تكون النصوص المدونة فيها ، مهما كانت دقة خطها ، محدودة المقدار ، أي أنها تكون أقرب الى الصفحة منها الى الكتاب الذي يضم صفحات تيسر تدوين المعلومات الواسعة .

ومن مواد الكتابة التي كثر استعمالها منذ القرن الرابع قبل الميلاد هي القراطيس المصنوعة من أوراق نبات البردي الذي يكثر في مصر . وهي تتميز بخفة وزنها ومتانتها وسعتها حيث يمكن ان تلصق عدة اوراق بعضها ببعض فتبدوكأنها ورقة واحدة قد يبلغ

طولها زهاء المترين، وبذلك يمكن أن تكتب عليها مدونات طويلة وكتب بالمعنى المفهوم حالياً. والواقع أن كافة الكتب المطوّلة التي نعرفها ظهرت منذ أن عم استعمال البردي.

غير أن غلاء ثمن القراطيس، وقلة كمياتها، وانحصار إنتاجها بمصر أدى الى تحديد انتشارها. والواقع أنه مرت فترات في التاريخ لم يكن إنتاج مصر للقراطيس كافياً لسد حاجاتها؛ كما أن توتر العلاقات السياسية بين مصر والدول الأخرى كان يهدد هذه الدول بحرمانها من القراطيس، ولذلك عملت كثير من الدول الكبيرة في المشرق على الإقلال من استعمال القراطيس للكتابة، وبذلك تحدد استعمالها كثيراً.

وقد استعملت الجلود في الكتابة ايضاً، وأقدم أديم مكتوب اكتشف حتى الآن يرجع الى المئة الرابعة قبل الميلاد. وتتميز الأدُم بمتانتها وخفتها ومقاومتها عوادي الزمن، وكذلك بكبر حجمها وامكان ربط عدة اجزاء منها لتكون قطعة واحدة كبيرة يمكن أن تكتب عليها كتابات طويلة؛ أي كتب بالمعنى المفهوم عندنا.

يتبين مما سبق أن مواد الكتابة التي توافرت في أقطار الوطن العربي مكنت من تدوين مدونات طويلة ومن ظهور الكتب. إلا أن غلاء أثمان هذه المواد وقلة المتوافر منها جعل الكميات المتداولة منها محدودة؛ مما أدى الى قلة عدد الكتب والى اعتماد المعارف في نموها وازدهارها على المشافهة والسماع، والى انتقال العلوم بالروايات.

غير أن قلة الكتب وكثرة الاعتماد على السماع لا يعني انعدام الحاجة الى الكتابة؛ إذ أن التدوين مرتبط بالحضارة، وهو ضرورة لازمة للحكام والإداريين لتسجيل المراسلات والمكاتبات التي تصدر منهم الى أقرانهم أو إلى تابعيهم من الموظفين، ولتسجيل الضرائب والجبايات، فضلاً عن ضرورته للقضاة لتسجيل الأحكام والوثائق، وهو ضروري أيضاً في حياة الأفراد في الشؤون التجارية والمعاملات المدنية وماتتطلبه من عقود ومكاتبات.

لقد ورد في بعض المصادر ما يشير الى قلة عدد من يعرف الكتابة من العرب عند ظهور الإسلام، فذكر ابن عبد ربه ان الإسلام جاء «ولم يكن من العرب من يكتب الأ بضعة عشر» [٢]. وروى الواقدي أنه «دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب[٣]» وروى ايضاً «كان الكتّاب بالعربية في الأوس

(٢) العقد الفريد ٤/٢٤٢.

(٣) فتوح البلدان ٤٧١ طبعة دي غويه.

والخزرج قليلاً . . فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون »[٤] ويقول أيضاً « وكانت الكتابة في العرب قليلاً [٥] » ، وهو يذكر ان من كان يعرف العوم والرمي والكتابة يسمى كاملاً [٦] . ولا ريب في أن اعتبار الكتابة إحدى مقومات الكمال الثلاثة أمر معقول ، ولكنه قد يناقض الادعاء بقلة من كان يعرف الكتابة ، إذ أن التقدير الرفيع للكتابة يقتضي أن يكون عدد من يعرف الكتابة أكثر مما ذكره الواقدي ، علماً بان نص الواقدي على ان العدد الذي ذكره لمن يعرف الكتابة مقتصر على مكة والمدينة ، وليس عاماً في كل العرب كما يدّعي نص ابن عبد ربه .

إن الادعاء أن من كانوا يعرفون الكتابة (والقراءة) بين العرب عند ظهور الإسلام قليلون، تناقضه المعلومات المتزايدة التي توضح مدى تقدم الحضارة ، وتعقد الحياة العامة التي تقتضي توسيع انتشار الكتابة . كما أن هذا القول تنقضه الصورة العامة التي يكونها المرء من دراسة الآيات القرآنية ؛ فمن المعلوم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين (النحل ١٠٣ ، الشعراء ١٩٥) وانه قرآن عربي غير ذي عوج (الزمر ٢٨) . وهذا يظهر أن مفرداته وتعابيره مما هو مألوف الاستعمال عند العرب ؛ وان كثرة تردد كلمة « الكتابة » ومتطلباتها وما يتصل بها ، يمكن اعتبارها دليلاً على مدى انتشارها لا في مكة فقط ، وانما في جزيرة العرب ايضاً .

أوجب القرآن الكريم كتابة بعض الوثائق والعقود كالدين (البقرة ٢٨٢) وعقدة النكاح (البقرة ٢٣٥) ومكاتبة الرقيق في تحريرهم (النور ٣٣) ؛ وذكر من مواد الكتابة القلم (القلم ١ العلق ٤ لقمان ٢٧ آل عمران ٤٤) والقرطاس (الأنعام ٧ ، ٩١) والمداد (الكهف ١٠٩) والرق (الطور ٢) .

وذكر القرآن الكريم الكتاب المسطور (الكوثر ١٢ الاحزاب ٦ الاسراء ٥٨) والألواح (الاعراف ١٤٥) والسجل الذي يطوي الكتب (الانبياء ١٠٤) والصحف

(٤) كذلك ٤٧٣ .

(٥) الطبقات لابن سعد ٣ – ٢/١٣٦ ، ١٤٢ .

(٦) ابن سعد ٣ – ٢/١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٨ وانظر ايضاً فتوح البلدان ٤٧٤ .

(المدثر ٥٢) ، كما ذكر الصحف الأولى (طه ١٣٣ ، الأعلى ٢) وصحف موسى (النجم ٣٩) ، وصحف ابراهيم وموسى (الاعلى ١٩) كما ذكر أن القرآن الكريم كان في صحف مكرّمة (عبس ١٣) ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم « يتلو صحفاً مطّهرة » (البينة ٢) .

في القرآن الكريم ذكر فعل الكتابة بمعنى الامر في ٢٦ آية ، وفي المعنى الشائع لدينا في سبع آيات .

أما كلمة « كتاب » فقد وردت في القرآن الكريم في ٢٩ آية ، وورد ذكر « الذين أوتوا الكتاب » في ٣٢ آية ، ووردت كلمة « الكتاب » أو « الكتب » بمعنى الكتب المقدسة في الأديان السماوية في ٣٨ آية ، غير أن بعض الكتب المقدسة ذكرت باسمائها الخاصة ، فقد ذكرت التوراة والانجيل في ثمان آيات (آل عمران ٣ ، ٤٨ ، ٦٥ المائدة ٦٦ ، ٦٨ ، ١١٠ الأعراف ١٥٧ التوبة ١١) ، وذكر الإنجيل منفرداً في ثلاث آيات (المائدة ٢٦ ، الفتح ٤٩ ، الحديد ٢٧) والتوراة منفردة في آية واحدة (آل عمران ٤٨) . ووردت « البينات والزبر » في أربع آيات (آل عمران ١٨٤ النحل ٤٤ فاطر ٢٥ المؤمنون ٥٣) وذكر الزبور الذي نزل على داودَ في آيتين (النساء ١٦٣ ، الاسراء ٥٥). وذكرت « صحف إبراهيم وموسى » (الأعلى ١٩) ، وأن ابراهيم أوتي الكتاب والحكمة » (النساء ٥٤) . والمقصود من الكتب في كل هذه الآيات مدونات واسعة في مجموعة واحدة ، أي أنها كتب بمفهومنا الحاضر . وقد ذكر ابن النديم ان التوراة مكونة من عدة اسفار [٧] . وقد وردت في القرآن الكريم كلمة « أسفار » (الجمعة ٥) دون الإشارة الى أن السفر من أجزاء التوراة .

ووردت في القرآن الكريم كلمة « الكتاب » بمعنى القرآن الكريم في آيات كثيرة ، غير أنه ذكر باسم « القرآن » بأل التعريف في ٥٩ آية ، وبدونها في عشر آيات . وذكرت قراءة القرآن في اثنتي عشرة آية ، وتلاوة القرآن في ١١ آية ، وتلاوة آياته في ٢٩ آية . ولا ريب في أن القراءة تعني التلاوة ، وكلاهما لا يشترط معرفة الكتابة . فمن المعلوم أن كثيراً من المسلمين ، والرسول نفسه ، لم يكن يعرف الكتابة ، وقد ذكر ذلك

(٧) الفهرست لابن النديم ص ٢٥ طبعة محمد تجددي .

القرآن الكريم بقوله : « وما كنت تتلو من قبلـــه من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المشركون » (العنكبوت ٤٨) .

والقرآن الكريم مكون من آيات يبلغ عددها زهاء ٦٢٠٠ آية ، ويراوح طولها من كلمة واحدة الى ٩٥ كلمـــة وهي اطولها . وهو يحتوي على ١١٤ ســورة تختلف في طولها ، وهي من حيث العموم متدرجة في الطول ، فأطول الآيات في أوله ثم تتدرج حتى إن السور الأخيرة مكون كل منها من نحو خمس آيات . ولكل سورة اسم متخذ من كلمة وردت في السورة .

وفي الكتب إشارات غير قليلة إلى استعمال الكتابة والتدوين عند ظهور الإسلام حتى عند القبائل وبين البدو[8] ؛ ولاريب في أن الكتابة كانت أعم استعمالاً وأكثر شيوعاً في المدن والمراكز التجارية الكثيرة المنبثة في شبه جزيرة العرب وخاصة في سواحلها ؛ وكذلك في مكة حيث ازدهرت التجارة والمعاملات المالية وكثرت المحالفات والمعاهدات مع الأفراد والقبائل . وان وصف القرآن الكريم أهل مكة بالأميين يقصد منه أنهم لم يكن لهـم في دينهم الجاهلي كتاب يقدسونه ويعتمدون عليه في دينهم[9] .

وقد ازدادت حاجة الرسول (ص) الى التدوين والكتابة بعد الهجرة الى المدينة حيث تأسست دولة الاسلام وأخذت تقارع خصومها وتعمل على التوسع بوسائل سلمية وعسكرية تطلبت القيام بمراسلات ومكاتبات وعقـــد اتفاقيات ومعاهدات ، إضافـــةً الى أن الآيات القرآنية تتابع نزولها ، فازداد المنزل من القرآن ، واقتضى الأمر تدوينه لحفظه مضبوطاً . وقد دفعت هذه الحاجة الرسول (ص) الى حث المسلمين على تعلم الكتابة[10] . ويروى أنه فادى المشركين من أسرى بدر ، واطلق ســراح من يعلّم منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة[11] . وقد استخدم الرسول (ص) عدداً من المسلمين لكتابة الوحي وآيات القرآن الكريم ، وللمكاتبات والمحالفات والاتفاقات .

(٨) انظر في ذلك : الدكتور ناصر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي ، الباب الاول ، ومحمد أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ص ٣٧٣ فما بعد .

(٩) أنظر تفسير الطبري ، طبعة محمد احمد شاكر ٢/٢٥٨ .

(١٠) فتوح البلدان ٤٧٣ .

(١١) ابن سعد ٢ — ١/٤ .

ذكرت بعض المصادر اسماء عدد من هؤلاء الكتاب [١٢] ، واختلفت في عـــددهم ، فذكر بعضهم أنهم كانوا٢٣ ، وذكر آخرون أعداداً أكبر ، وأوصل بعضهم العددالى٤٣[١٣]

وقد روت بعض المصادر ان كلاً من كتّاب الرسول اختص بكتابة جانب محدد[١٤] غير أن هـــذا إن صح لا يعني انهم كانوا موظفين ثابتين ، أو أنهم كونوا « جماعـــة » متميزة ، وإنما كان استخدام كل منهم تبعاً للحاجة ، وليس بصورة دائمة ، وربما لم يكتب بعضهم إلا رسائل قليلة [١٥]

ولما توسعت الدولة الاسلامية بعد الفتوح ، ازدادت حاجة الدولة الى الكتابة لضمان الاتصال بين الخلفاء وولاتهم على الأقاليم . ومن المعلوم أن إدارة الإقاليم كانت معقدة ، فقد كانت على الوالي واجبات واسعة في الإشراف على الشؤون الإدارية والمالية والقضائية . وكان الولاة مـــع صلاحياتهم الواسعة وصعوبة المواصلات خاضعين لأوامر الخليفـــة وتوجيهاته . ولم يكن للأفراد الذين يرسلهم الخليفة أحياناً لتبليغ أوامره الشفهية للولاة ، أثر كبير ، لأن إرسالهم كان موقتاً ، لذلك ازداد اعتماد الخليفة على المراسلات المكتوبة ، فكان لكل خليفة كاتب يدون الرسائل والكتب التي يرسلها . وقد أصبح للرسائل في العهد الأموي كاتب خاص في بلاط الخليفة [١٦] . ولعل كلاً من ولاة الأقاليم الرئيسة كان له كتّاب رسائل أيضاً .

ثم إن تنظيم صرف العطاء للمقاتلة اقتضى إنشاء ديوان العطاء منذ زمن عمر بن الخطاب ، وكانت تحفظ في هذا الديوان سجلات بأسماء المقاتلة ومقدار عطاء كل منهم وتجهيزاته . وترتب سجـــلاتهم بحسَب عشائرهم ، وكذلك أسماء موالي كل عشيرة. وكان في مركز الخلافة وفي كل من الامصار التي يستوطنها المقاتلة ويقيم فيها الوالي ديوان للجند والعطاء[١٧] ولما كان عمل هذا الديوان متصلاً بالعرب ، كانت سجلاته بالعربية[١٨] .

---

(١٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ١٢ .
(١٣) أنظر في ذلك : حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الاسلام ٤٣ .
(١٤) الجهشياري ١٢، التراتيب الادارية للكتاني ١/١٢٣ .
(١٥) أنظر في مكاتبات الرسول (ص) : الوثائق السياسية في عهد الرسول والخلافة الراشدة لمحمد حميدالله .
(١٦) أنظر مقالنا عن موظفي بلاد الشام في العهد الاموي المنشور في مجلة الابحاث م ١٩ ج ١ ، ١٩٦٦
(١٧) أنظر كتابي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ١٤٦ ،وانظر مقالي : العطاء في الحجاز مجلة المجمع العلمي العراقي م ٢٠ ص٦
(١٨) الجهشياري ٣٨ .

وكان الخراج من أهم موارد الدولة، وكان تنظيم مقداره وطرق جبايته معقدة، ويتبع اساليب استقرت بعد تجارب امتــدت قروناً ؛ وهو يقتضي حفظ سجلات مفصلة باسماء القرى ونوع الضرائب المفروضة على كل منها ومقدار جبايتها. ولما كانت معاملات الخراج متصلة بالفلاحين وتتطلب اتباع التقاليــد القديمة ، تركها العرب بعد الفتوح الى الكتاب القدماء الذين ظلوا يستعملون في سجلاتهم ، في ديوان الخراج ، اللغات المستعملة قبل الفتوح ، وهي الفارسية في المشرق ، والإغريقية في بلاد الشام ومصر . ثم ألزمتهم الدولة استعمال اللغة العربية ، فعربت دواوين الخراج في الشام والعراق ومصر في نحو سنة ٧٥هـ ، غير ان الكتاب ظلوا في وظائفهم ، كما أن أساليب عملهم لم تتبدل.

يقوم عمل الديوان على التدوين ، فكان ديوان الخراج يحفظ السجلات المفصّلة عن أنواع ألاراضي وجباياتها ، لتكون المرجع في تقرير الملكيات وفي مقدار الضرائب ، إذ أن إتلافها يؤدي الى اضطرابات مالية ، ولهذا كانوا يحرصون على المحافظة عليها . والواقــع أنه بالرغم من الاضطرابات والفتن الكثيرة التي حدثت في العراق ، وخاصة في مراكزه الإدارية الكبرى ، لم يرد ذكر حــرق الديوان او تدميره الا في ثلاث حوادث متباعدة ، أولها على أثر ثــورة عبدالرحمن بن الأشعث في سنة ٨٠ هـ[١٩] والثانيــة إبانَ حرب الأمين والمأمون في سنة ١٩٧ هـ [٢٠] والثالثة في سنة ٣٨٣ [٢١] .

ذكر البلاذري وأبو يوسف ما يبين أهمية سجلات الدواوين في إقرار الملكيات: فقد ذكر أبو يوسف أن عمر بن الخطاب أصفى عشرة أصناف من الأراضي، وجعــل لها حكماً خاصاً « فلما كانت الجماجم أحرق الناس الديوان ، فذهب ذلك الأصل ودرس ولم يعرف»[٢٢]. وقال البلاذري في كلامه عن صوافي عمر : «ولم يزل ذلك ثابتاً حتى أحرق الديوان أيام الحجاج بن يوسف ، فأخذ كل قوم ما يليهم» [٢٣] .

وكانت حسابات الجباية تعرض مكتوبة على الملوك الساسانيين، واستمر عرضها

(١٩) الخراج لأبي يوسف ، المطبعة السلفية ٥٧. فتوح البلدان ٢٧٢ .

(٢٠) كتاب الخراج لقدامة ٢٣٧ .

(٢١) تاريخ الصابي المنشور ذيلا على تجارب الامم ٣٣٥/٣ .

(٢٢) الخراج لأبي يوسف ٥٧ .

(٢٣) فتوح البلدان ٢٧٢ .

مكتوبة على الخلفاء والولاة بعد الإسلام ، فقد روى البلاذري عن ابن المقفع : «كانت الرسائل بحمل المال تقرأ على الملوك ، وهي تكتب في صحف بيض ، وكان صاحب الخراج يأتي الملك كل سنة بصحف موصلة قد أثبت فيها مبلغ ما اجتبي من الخراج وما أنفق من وجوه النفقات وما حصل في بيت المال ، فيختمها ويجريها. فلما كان كسرى أبرويز تأذى بروائح تلك الصحف ، وأمر أن لا يرفع اليه صاحب ديوان خراجه ما يرفع الا في صحف مصفرّة بالزعفران وماء الورد ، وان لا تكتب الصحف التي تعرض عليه لحمل المال وغير ذلك الا مصفرّة ، ففعل ذلك . فلما ولي صالح بن عبدالرحمن خراج العراق تقبل منه ابن المقفع بكوردجلة ، ويقال بالبهقباذ. ثم حمل مالاً ، فكتب رسالته في جلد وصفّرها ، فضحك صالح وقال : أنكرت أن يأتي بها غيره ، يقول لعلمه بإمور العجم»[٢٤] .

وروى البلاذري أيضاً أن المدائني قال : « واخبرني مشايخ من الكتاب أن دواوين الشام إنما كانت من قراطيس ، وكذلك الكتب الى ملوك بني أمية في حمل المال وغير ذلك . فلما ولي أمير المؤمنين المنصور ، أمر وزيره أبا أيوب المورياني أن يكتب الرسائل بحمل الاموال في صحف ، وأن تصفرّ الصحف . فجرى الأمر على ذلك »[٢٥] .

ونظراً لما لوثائق الديوان من أهمية للدولة ولمعاملات الناس ، كان حفظها ضرورياً ، كما أن كثرة موضوعاتها وتشعبها تتطلب تنظيماً متقناً ييسر حفظها ومراجعتها عند اللزوم .

وقد كتب عدد من القدماء والمحدثين عن تنظيم سجلات الدواوين العراقية وخاصة في المئتين الثالثة والرابعة (أنظر مثلا « كتاب الخراج وصنعة الكتّاب » لقدامة بن جعفر ، وكتاب « البرهان في علوم البيان » لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان) ، كما توجد إشارات غير قليلة في بعض الكتب وخاصة في كتاب « الوزراء » للصابي ، و «تجارب الأمم » لمسكويه ، كما وصل إلينا عدد غير قليل من الكتب والرسائل والوثائق الصادرة من الخلفاء والولاة. (أنظر في ذلك « الوثائق السياسية في عهد الرسول والخلافة الراشدة » لمحمد حميد الله ، و « جمهرة رسائل العرب » لأحمد صفوت ، و « الوثائق السياسية والإدارية » للدكتور محمد ماهر حمادة ، وانظر عن تطوراتها وأسلوبها « نشأة الكتابة

(٢٤) فتوح البلدان ٤٦٣ .

(٢٥) فتوح البلدان ٤٦٤ .

الفنية » للدكتور حسين نصار) . ويلاحظ أن كل هذه الوثائق قصيرة نسبياً . ويبدو أنها كانت « أوراقاً » مجموعة ، ولم تكن كتباً بالمعنى المألوف لدينا .

ويتضح من كل ما تقدم أن الدولة كانت تعنى بالتدوين وحفظ الوثائق في دواوينها للاستعمالات « الرسمية» ، وأن هذه المدونات قد تسمى كتباً ، بمعنى مدونات مكتوبة، وليس بالمعنى المفهوم عندنا .

يتضح مما سبق ان الكتابة كانت عند ظهور الاسلام مستعملة عند العرب عموماً ، وفي مكة والمدينة خصوصاً ، وأن الدولة الإسلامية عنيت منذ بدايتها بالكتابة والتدوين وحفظ المكتوب المتعلق بإدارة الدولة وماليتها خاصة . ويتضح أيضاً أن القرآن الكريم أشار الى عدد من أنواع وسائل الكتابة وأساليب التدوين،ويتبين منه أيضاً أن الكتب بالمعنى المفهوم لدينا ، وخاصة الكتب المنزلة ، كانت معروفة عند العرب ، وأن الرسول الكريم شجع المسلمين على تعلم القراءة والكتابة ، واستعمل الكتّاب لكتابة الوحي والمراسلات والمواثيق والمعاهدات التي كان يعقدها .

غير أن الرسول الكريم اعتمد على المحادثات و المناقشات الشخصية والكلام الشفهي المباشر في توضيح مبادئ الإسلام، ونشر الدعوة، سواء قبل الهجرة في مكة ، أو في السنوات الاولى من الهجرة حين كان الإسلام لا يزال محدوداً في المدينة وأطرافها ، ومع أن كلام الرسول وسيرته هي عنصر أساس في توضيح مبادئ الدين ومعالمه ، وان سنته الرسول (ص) هي المصدر الثاني لمعرفة الإسلام ، فانه كان يعتمد على الرواية دون التدوين . وقد رويت عن تدوين أحاديث الرسول وسنته في حياته روايات منوعة جمع كثيراً منها ابن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » كما جمعها ونظمها وعلق على كثير منها الخطيب البغدادي في كتابه القيم « تقييد العلم » وعلق الأستاذ يوسف العش الذي نشر كتاب الخطيب على هذه الأحاديث بذكر مظانّها ، مما يجعل هذا الكتاب جديراً بأن يكون اساساً للبحث . وقد نشر خلال نصف المئة الماضية عدد غير قليل من الكتب عالجت الموضوع وكررت كثيراً من الروايات القديمة مع تعليقات وتفسيرات متباينه تبعاً لدوافع كتابها .

ومما ذكره الخطيب يمكن الجزم بأن بعض أحاديث الرسول (ص) كتبت في

حياته وبمعرفته . وهذا يعني ضمناً موافقته على تدوين أحاديثه . ومن هذه التي كتبت في حياته الاحاديث التي كتبها عبدالله بن عمرو بن العاص، وكان يسميها الصادقة، [٢٦]. وكان حفيـــده عمروبن شعيب يحدث بها [٢٧] . ويذكر ابن الأثير أنها كانت تحوى ألفاً من الأحاديث النبوية » [٢٨] . وقد ضمن أحمد بن حنبل هذه الصحيفة مسنده [٢٩] .

ويذكر الخطيب أيضاً أن أبا بكر الصديق كتب فرائض الصدقة عن رسول الله (ص) [٣٠]، وأن الإمام علياً دوّن في صحيفة كانت معلقة في سيفه فيها أسنان الإبل وشيءٌ من الجراحات [٣١] .

وقد جمع همام بن منبه مئة وثمانية وثلاثين حديثاً نبوياً رواها عن أبي هريـــرة، وسماها « الصحيفة الصحيحة » . وقد نقلها ابن حنبل في مسنده[٣٢]، ثم نشرها محمد حميدالله خان مستقلة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق [٣٣] .

وورد ذكر لصحف كتبها بعض الصحابة، ومنهم سعد بن عبادة الأنصاريّ ، وعبدالله بن أبي أوفى ، وأبو هريرة ، وأبو موسى الأشعري ، وجابر بن عبدالله ، وأبـو سلمه الاشجعي [٣٤] .

وقد رويت عدة أقوال لعدد من التابعين كانوا لا يرون إباحة كتابة الحديث ، غير أنه روي بجانب ذلك أن عدداً من التابعين الذين كانوا يكتبون الحديث ثم يمحون ما كتبوه

---

(٢٦) تقييد العلم للخطيب البغدادي ٧٨، ٨٤-٨٦ وانظر ابن سعد ٧-٢/٨٩ ، ٢-٢ / ١٢٥ .
(٢٧) تهذيب التهذيب للنووي ٨/٤٨ — ٤٩ .
(٢٨) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/٢٣٣ .
(٢٩) مسند ابن حنبل ٢/١٥٨ — ٢٢٦ .
(٣٠) تقييد العلم ٨٧ .
(٣١) تقييد العلم ٨٨، وأنظر ابن سعد ١/٤٨٦ ، صحيح البخاري ١/٣٨ .
(٣٢) مسند ابن حنبل ٢/٣١٢ — ٣١٩ .
(٣٣) م ٢٨ ج ٢ — ٣ سنة ١٩٥٣ .
(٣٤) أنظر عن مواضع الاشارة الى هذه الصحف : بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور أكرم ضياء العمري : الطبعة الثانية ١٩٧٣ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

بعد حفظه ، ومن هؤلاء عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعاصم بن حمزة ، وهشام بن حسان ، وخالد الحذّاء، وحماد بن سلمة ، وسعيد بن أبي بردة [٣٥] وكذلك مسروق، وابن شهاب ، ومحمد بن سيرين ، وإبراهيم التيمي ، ومنصور[٣٦] . ويذكر الخطيب أن بعض هؤلاء احتفظ بما دوّنه ،وأن غير واحد من المتقدمين كان إذا حضرته الوفاة أتلف كتبه، أو أوصى باتلافها خوفاً « من أن تصير الى من ليس من أهل العلم فلا يعرف أحكامها، ويحمل جميع ما فيها على ظاهره ، وربما زاد فيها ونقص ، فيكون ذلك منسوباً الى كاتبها في الأصل . وهذا كله وما أشبهه ، قد نقل عن المتقدمين الإحتراس منه » [٣٧] . وممن ذكر الخطيب أنهم أوصوا باتلاف ما دّونوا إذا حضرتهم الوفاة محمد بن سيرين ، وطاووس ، وعبيدة السلماني ، وشعبة بن الحجاج ، وابو قلابة الجرمي [٣٨] .

ومن مجموع الروايات التي تبيح كتابة الحديث وتحث عليه ، والتي تكره الكتابة ولا تقرها ، يمكن أن نستخلص أن كتابة الحديث النبوي أبيحت إبان المئة الاولى الهجرية بنطاق محدود جداً . وبصورة فردية ، ولأجل مساعدة المعنيين بحفظ الحديث على الحفظ ، وليس لجعل رواية الحديث معتمدة على المدونات . . وقد نسبت الى الكارهين للتدوين مسوّغات للكره ، وهي تتصل بالحديث ومكانته المتميزة وصلته الوثيقة بالدين والعقيدة ؛ غير أن التردد في قبول التدوين لم يكن مقتصراً على الحديث ، وإنما امتد الى الميادين الأخرى للفكر ، فلا بد أن تكون دوافع أعم أثراً في اعتماد الحركة الفكرية على السماع والمشافهة دون التدوين والكتابة . وقد أشرنا الى هذه الدوافع في مقالنا عن الرواية .

غير أن التطور الاجتماعي والفكري جعل النقائص والعيوب التي في نقل العلم والمعرفة بالسماع تطغى على المنافع المستفادة منه . ومن المعلوم أنه بالرغم من اهتمام العرب قبل الإسلام بالأمور الأدبية والفكرية، وبالرغم من استناد الإسلام على الفكر وحث

(٣٥) أنظر : المحدث الفاصل للرامهرمزي ٣٨٢ – ٣٨٤ .
(٣٦) تقييد العلم ٥٨ – ٦١ .
(٣٧) تقييد العلم ٦١ .
(٣٨) تقييد العلم ٦١ – ٦٣ .

القرآن على استعماله، وأثره في توجيهه وجهات جديدة واسعة ، شُغِلَ العرب في العهود الاولى من الإسلام بالحروب والفتوح ، ووجهوا أكثر اهتمامهم الى توسيع رقعة الدولة وضبط الأمن والنظام فيها ، وعنوا بتنظيم الإدارة وبمعالجة المشكلات العملية في الحياة . وكان القائمون على ادارة الدولة وتوجيهها قد توافر فيهم الحس الصادق والفطنة السليمة ، وتفهموا أصول الإسلام وتشربوا بروحه ، فوضعوا نظماً مطابقة للعدالة وروح الإسلام ، فكانت نظماً مرضية . كما أن أصول الاسلام وعقائده كانت محددة واضحة في القرآن الكريم ، وكان الأحياء من الصحابة الذين رافقوا الرسول وتفهموا الدين كثيرين نسبياً ، لذلك كان العلم محدوداً في مادته وموضوعاته ، حرّاً في أساليبه ، قائماً على القرآن ودراسته . غير أنه على ممر الايام تزايدت القضايا التي واجهت المسلمين والأفكار التي برزت لهم ؛ كما أن استقرار الدولة وتناقص الفتوح وفر للعرب وقتاً كافياً دعمه توزيع الدولة العطاء والرزق عليهم فكفل لهم مصدر عيشهم وضمن لهم مستقبل حياتهم ، فتوجهوا إلى الاهتمام بالأمور الفكرية والبحث فيها ، وتوسعت معارفهم ، وتعددت ميادين اعمالهم ، وتنوعت آراؤهم وأفكارهم ، فأصبح من الصعب على ذاكرة الفرد استيعاب كل العلم وقضاياه ، وكان لا بد من الاستعانة بالتسجيل .

إن هذا الازدهار الفكري الذي تجلى بازدياد عدد الأفكار وعمقها ، وبازدياد عدد المهتمين بالفكر والمشتغلين به ، رافقه تعدد مراكز العلم في أقاليم الدولة الاسلامية . ومن المعلوم أن الإسلام استقر في المدينة حيث اسس الرسول الكريم دولته، واتخذها قاعدة لنشر الإسلام وتوسيع دولته ، وألزم المسلمين الأولين الإقامة فيها ، وظل هذا الإلزام حتى فتح مكة . وظلت المدينة قاعدة الخلافة الإسلامية في زمن الثلاثة الأولين من الخلفاء الراشدين ، والمكان الأول الذي يقيم فيه أكثر الصحابة الذين عاشوا مع الرسول وتشربوا بروح الاسلام ، كما كانت المكان الذي تعرف فيه سُنّة الرسول ؛ وقد حفظ الخلفاء الأمويون والعباسيون للمدينة مكانتها ، وأولوا أهلها الإحترام ، وأغدقوا عليهم الهبات والعطاء ، واعتمدوا كثيراً على علمائها في توجيه الفكر في دمشق وبغداد اللتين أمّ كلاً منهما واستوطنهما عدد من هؤلاء العلماء ، فساعد ذلك كله على نشر علم أهل المدينة .

غير أنه سرعان ما ازدهرت الحركة الفكرية في عدد من المراكز الأخرى ، وخاصة في الكوفة والبصرة ودمشق وبغداد والفسطاط، ثم في عدد من مدن خراسان. وقداتسع العلم في هذه المراكز فلم يقتصر على ما اهتم به أهل المدينة من الفقه والحديث والتفسير ، وانما امتد الى اللغة والنحو والأدب، فضلاً عن علم الكلام ، والواقع ان هذه المراكز الجديدة تابعت الخط الفكري العام لأهل المدينة ، فأتمته ووسعته بالبحث والابداع وفي التصرف في نقل النصوص .

وقد أدرك بعض العلماء هذه التطورات وأثرها في جعل التدوين ضرورة ، فقال الرامهرمزي بعد الفصل الذي كتبه عن كره كتابة الحديث « وإنما كره الكتاب من كره من الصدر الأول لقرب العهد وتقارب الإسناد ، ولئلا يعتمده الكاتب فيهمله أو يرغب عن تحفظه . فأما والوقت متباعد ، وآفة النسيان معترضة ، والوهم غير مأمون ، فان تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى » [٣٩] .

ولا ريب في أن الكتابة تحفظ العلم وتصونه، وتمنع اندراسه وانتهاءه بموت العلماء وفنائهم ، كما أنها لا تحصر العلم بالحفّاظ وحدهم ، بل تمكن أي انسان كان من الرجوع اليه ما دام يعرف القراءة. وقد روي عن عمر بن عبدالعزيز أنه قال : إن الكتابة تمنع دروس العلم وذهاب العلماء[٤٠] .

والتدوين ييسر نقل العلم والمعرفة الى اي مركز كان دون الحاجة الى الرحلة، وبذلك يستطيع المرء الحصول على المعرفة عن طريق الكتب من غير أن يتجشم مشقات السفر ، كما أن الكتب تمكن العلماء من نقل أفكارهم عن طريق إرسال كتبهم دون الحاجة الى السفر .

والكتابة تنقل العلم الى الحاضرين والآتين فهي مستودع الفكر وأداة خلوده، كما انها تساعد على حفظ التقاليد واستمرار المؤسسات بطابعها الخاص المميز . ومن المعلوم أن الكتاب مطواع للإنسان، يستعمله من شاء متى شاء وكيف شاء، ويتصرف فيه دون أن يلقى على ذلك حساباً . وقد عبر الجاحظ عن ذلك ، أروع تعبير ، فقال « إنه نعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة ،

(٣٩) المحدث الفاصل ٣٨٦ .
(٤٠) تقييد العلم ١٠٥ .

ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل»[41]، وقال أيضاً: «ولولا الكتب المدونة، والاخبار المخلدة، والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب وغير الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار، ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع[42]»، وقال أيضاً: «والكتاب هو الذي يؤدي الى الناس كتب الدّيْن وحساب الدواوين مع خفة نقله وصغر حجمه، صامت ما أسكتّه، وبليغ ما استنطقته، ومن لك بمسامر لايبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك الى التجمل له، والتذمم منه، ومن لك بزائر إن شئت جعل زيارته ِغبّاً و ِورده خِمْساً، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك مكان بعضك» [43].

لقد أورد علماء الحديث تفاصيل عن تدوين الحديث النبوي وما يتصل به، ونستطيع أن نرسم من هذه التفاصيل التطورات التي مر بها تدوين الحديث، وهي عموماً تنطبق على كثير من العلوم الأخرى، فهي دالّة على تطور ظهور الكتب مهمة. ويمكن تلخيص هذا التطور بالقول إن القرآن الكريم أولى العلم تقديراً كبيراً، وانه دعا الى إستعمال الحواس والفكر والعقل، وإنه لم يمنع الكتابة، وإنما أباحها وعدّها واجبة في بعض الأحوال. غير أن المسلمين عموماً تحاشوا التدوين وحَذِروه في أوائل العهد، ثم ازدادت الحاجة فتزايد عدد المدونين، وتغيرت بالتدريج نظرة الناس الى التدوين، فأخذ الرضا عنه يحل محل النفور منه، وقد روى هبيرة بن عبدالرحمن أن أنس بن مالك (ت١٠٨) كان يلقى عليهم مخلاة ويقول: هذه أحاديث كتبتها عن رسول الله (ص)، وروى ثمامة أن انساً كان يأمر بنيه أن يقيدوا العلم بالكتاب[44]، وكان الحسن البصري (ت ١١٠) لا يرى بكتاب العلماء بأساً[45]، وأنه قال: «إن لنا

(٤١) الحيوان ٣٨/١.

(٤٢) الحيوان ٤٧/١.

(٤٣) الحيوان ٥١/١ وأنظر ايضاً الفهرست لابن النديم ١٦٠، المحاسن والمساوى ١٢/٢-١٥ جامع بيان العلم وفضله ٢٠٤/٢.

(٤٤) المحدث الفاصل ٣٢٥، ٣٢٦ تقييد العلم ٩٥ - ٩٧.

(٤٥) جامع بيان العلم ٧٤/١.

كتباً نتعاهدها»[٤٦]، وكان ابن شبرمة يحدث عن كتاب[٤٧]، وكان مجاهد يخرج كتبه للرواة فينسخون منها[٤٨] وكان عبد الأعلى بن عامر الثعلبي يحدث أحاديث يقول عنها سفيان الثوري: «كنا نرى أنها من كتاب»[٤٩]، ويقول يحيى بن سعيد القطان عن احاديث سمرة: «سمعنا أنها من كتاب»[٥٠].

وفي ازدياد تقدير العلماء للتدوين يروى عن ابن حنبل أنه قال: حدثونا، قوم من حفظهم وقوم من كتبهم، فكان الذين حدثونا من كتبهم أتقن»[٥١]، ويروى عن معاوية بن قُرّة أنه قال: «من لم يكتب العلم لم يعد علمه علماً»[٥٢]، وقال إبن أبي شيبة: «من لم يكتب عشرين ألف حديث إملاءً لم يعد صاحب حديث»[٥٣].

وقد قال الشعبي «الكتابة قيد العلم»، وكان مالك بن انس يوصي خالد بن خداش بكتابة العلم عند أهله، كما كان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يقولان: «كل من لا يكتب العلم لا يؤمن عليه الغلط»[٥٤]

وذكر الرامهرمزي عدداً من المحدِّثين الذين اخطؤوا في التحديث، ثم اصلحوا خطأهم بعد الرجوع الى الكتب، ومما ذكره: أن يحيى بن سعيد ظل ست عشرة سنة يحدث أن ابن عمر كان يجمع بين المغرب والعشاء إذا جدَّ به السير قبل ما يغيب الشفق، ثم «نظرت في كتابي فاذا هو: بعدما يغيب الشفق»[٥٥]. وكان محمد بن عمر يصر على مستمعيه أن يكتبوا ويقول: «لا والله لا أحدثكم حتى تكتبوه، أخاف أن تغلطوا عليّ»[٥٦]. ويذكر مروان بن محمد الدمشقي (ت ٢١٠) أنْ: «لا غنى لصاحب الحديث

---

(٤٦) المحدث الفاصل ٣٧، تقييد العلم ١٠١.
(٤٧) جامع بيان العلم ٧٦/١.
(٤٨) تقييد العلم ١٠٥.
(٤٩) طبقات ابن سعد ٢٣٣/٦.
(٥٠) طبقات ابن سعد ١١٥/٥.
(٥١) تقييد العلم ١١٢.
(٥٢) المحدث الفاصل ٣٧٢ جامع بيان العلم ٧٤/١ تقييد العلم ١٠٩.
(٥٣) المحدث الفاصل ٣٧٧.
(٥٤) جامع بيان العلم ٧٥/١.
(٥٥) المحدث الفاصل ٣٨٨.
(٥٦) المحدث الفاصل ٣٨٩ وانظر ايضاً: الكفاية في علم الرواية للخطيب ١٤٦.

عن صدق وحفظ وصحة كتب ، فاذا اخطأته واحدة وكانت فيه واحدة لم تضره ، إن لم يكن حفظ رجع الى الصدق وكتبه صحيحة لم يضره أن يحفظ »[٥٧]

إن كثيراً من هذا التدوين كان ملاحظات شخصية غرضها تذكير المدوِّن بالعلم ومساعدته ، على الحفظ ، ثم تطور ذلك الى تدوين المعرفة لإفادة الآخرين منها .

وقد ذكرت المصادر أسماء عدد ممن عني بالكتابة والتدوين ، ووصفت كتاباتهـــم بأنها « كتب » ، وعدّ بعض المحدثين كل من أشارت المصادر الى انه دون كتابة ، وأوردت آراءه أنه « مؤلف كتب » . وبذلك تعددت اسماء العلماء من صدر الإسلام ممن عد مؤلفاً للكتب . من أبرز هؤلاء المحدثين في هذا المضمار هو الأستاذ فؤاد سزكين الذي اندفع بحماسته يرد على جولدزيهر لإظهار أن تأليف الكتب كان مبكراً ، فذكر عدداً من علماء التفسير والحديث وعدّهم « مؤلفين » واعتمد في ذلك على كتب متأخرة تنسب الى هؤلاء العلماء « كتباً » أو « مقتبسات »[٥٨] علماً بأن الكتب المتأخرة لم تسم الكتب التي ألفها الأولون ، وأنها في كثير من الأحيان لم تذكر أن لهم مؤلفات .

ومن الصعب التمييز بين الكتب والمدّونات الشخصية ، أي المعلومات والأفكار التي سجلها أصحابها للاستذكار وليس للإستعمال العام ، ومن المحتمل أن كثيراً من الكتب الأولى كانت مدونات شخصية غير منظمة دّونها صاحبها ، أو أحد مستمعي محاضراته ، فاستفاد منها معاصروه ومن تلاهم وسموها كتباً ، ولا يبعد أن يكون بعضها مؤلفات متأخرة نسبها مؤلفوها الى المشهورين من المتقدمين ضماناً لرواج أفكارها .

ثم إنه لا يوجد حد مقرر لحجم الكتاب . فالكتاب هو في الأصل المكتوب بصرف النظر عن محتواه أو حجمه ؛ فرسائل الرسول (ص) والخلفاء كانت تسمى كتباً ، علماً بانها كانت مختلفة في حجمها ، إذ أن بعضها لم يزد على بضع كلمات أو أسطر ، وبعضها قد يتجاوز مئة سطر ، وفي بعض هذه الكتب أو الرسائل ما يدل

(٥٧) المحدث الفاصل ٤٠٥ — ٦ .

(٥٨) تاريخ التراث العربي ٢٢٥/١ فما بعدها .

على زمن تدوينها ، كأن تكون لكتابتها علاقة بحادثة معروف تأريخها ، أو أن يدّون عليها تاريخ الكتابة ، بعد ان أُقرّ استعمال التقويم الهجري ، ويذكر في بعض هذه الكتب اسم الخليفة أو الوالي أو المؤلف للكتاب ، غير أن كثيراً من هذه الكتب لا يمكن تحديد زمن كتابته بدقة وضبط ، ويلاحظ أنه لم يصل إلينا من هذه الكتب بشكله الذي دّوِن فيه أول مرة إلا آحاد . أما غالبيتها العظمى فقد وصلت عن طريق روايات المتأخرين لها .

سّمت المصادر ، وخاصة ابن النـديم وفؤاد سزكين ، عدداً ذكرت لهم كتباً ألفوها وتوّفوا قبل التاريخ الذي نص عدد من العلماء أنه ظهر فيه التصنيف . وندرج فيما يلي من أشارت اليه المصادر ، علماً بأننا نعتقد أن كثيراً من هذه الاشارات غير دقيق ، وأن كثيراً مما سمي كتباً إن هو إلا روايات دونت للحفظ لا لتكون كتاباً مصنفاً ؛ غير اننا لا ندخل فيما ندرجه مجموعات الاحاديث النبوية الأولى التي ذكرنا من قبل انها وصلت إلينا منذ زمن الرسول وهي ما كتبه الخليفتان أبو بكر وعليّ في أسنان الإبل والجراحات ، وصحيفتا عبدالله بن عمرو بن العاص وهمام بن منبه . كذلك لا ندخل كتب الرسول والخلفاء والولاة ، ولا الكتب التي كتبها عروة بن الزبير ، والزهري ، وسعيد بن جبير لبعض الخلفاء في بعض القضايا العلمية أو التاريخية التي طلب هؤلاء الخلفاء الإجابة عنها . وكذلك لا نتطرق الى ما كتب ودون للخلفاء من الشعر . فان هذه الكتابات وإن كانت « كتباً » أو « نواة كتب » ، إنّما كتبت للحكام استجابة لطلبهم ، مما يجعل لتدوينها ظروفاً خاصة ، ويربطها بالحكام ، في حين أن بحثنا يركز على الحركة الفكرية عند الناس عامةً دون الحكام الذين لهم ظروف خاصة وقدرات كبيرة قد لا تتوافر للناس .

ذكر ابن النديم عن أبي الحسن الكوفي : أن « أول من ألف في المثالب كتاباً زياد بن أبيه ، فانه لما طعن عليه وعلى نسبه ، عمل ذلك ودفعه الى ولده ، وقال : استظهروا به على العرب فانهم يكفون عنكم » (٥٩) غير أنه لم ترد في الكتب الأخرى اشارة إلى هذا الكتاب ولا نقل عنه .

---

(٥٩) الفهرست ١٠١ .

وذكر حاجي خليفة أن وهب بن منبه جمع المغازي [٦٠]، وقد كشفت في هيدلبرج قطعة من السيرة منسوبة الى وهب ترجع الى سنة ٢٢٨، غير انه لا يمكن الجزم فيما إذا كانت هذه القطعة هي في الأصل مما كتبه وهب، أم أنها من مروياته التي دونت بعده باكثر من مئة سنة، إذ أن هذه القطعة تبدأ بهذا الإسناد: «اخبرنا محمد بن أبي بكر أبو طلحة، ثنا عبدالمنعم، عن ابيه، عن أبي الياس، عن وهب» [٦١].

ويذكر ياقوت الحموي أن وهب بن منبه ألّف كتاب الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم [٦٢]، غير ان كرنكو يشك في ذلك، لأن كتاب التيجان من ملوك حمير المطبوع في حيدر آباد هو من رواية أبي محمد عبدالملك بن هشام [٦٣].

وقد وصل إلينا كتاب عنوانه «أخبار عبيد بن شَرِيّة»، وكان عبيد مقرباً من معاوية، وكان يروي له الاخبار، ونسب ابن النديم اليه كتابي الأمثال، والملوك الماضين [٦٤]، ويذكر ابن النديم أيضاً أن: «علاقة بن كرثم له كتاب الأمثال نحو خمسين ورقة رأيته»، وأن «صحار العبدى له كتاب في الامثال» [٦٥].

وورد ذكر لصحيفة سويد بن الصامت وفيها حكمة لقمان [٦٦].

وذكر أبو عبيد أن دغفلاً كان يكتب الأنساب ويدونها في الصحف [٦٧] غير أن ابن النديم يقول أن دغفلاً «لا مصنف له» [٦٨].

ذكر ابن النديم في كلامه على الكتب المصنفة في تفسير القرآن الكريم «كتاب ابن عباس رواه مجاهد، ورواه عن مجاهد حميد بن قيس، وورقاء عن أبي

---

(٦٠) كشف الظنون (رقم ١٢٤٦٤).

(٦١) هوروفتز: المغازى الأولى ومؤلفوها ص ٣٤ – ٣٥ ترجمة حسين نصار.

(٦٢) ارشاد الاريب ٢٣٢/٦.

(٦٣) انظر مقال كرنكو في مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٢٨.

(٦٤) الفهرست ١٠٢.

(٦٥) الفهرست ١٠٢.

(٦٦) السيرة النبوية لابن هشام ٦٨/٢ الفائق ٢٠٦/١.

(٦٧) النقائض ١٨٩/١.

(٦٨) الفهرست ١٠١.

نجيح عن مجاهد ، وعيسى بن ميمون عن ابي نجيح عن مجاهد » كما ذكر « كتاب تفسير عكرمة عن ابن عباس» (٦٩) و « كتاب عكرمة عن ابن‌عباس » في نزول القرآن(٧٠) و « كتاب احكام القرآن للكلبي رواه عن ابن عباس » (٧١) .

وذكر إبن حنبل « أنّ في مصر تفسيراً عن إبن عباس رواه علي بن أبي طلحة ، وليس بكثير ان يرحل الى مصر من أجله » (٧٢)

ويروي ابن سعد بسند أن « موسى بن عقبة قال : وضع عندنا كريب حمل بعير ، أو عدل بعير ، من كتب‌ابن عباس ، قال فكان على بن عبدالله بن عباس أذا اراد الكتاب كتب اليه : ابعث إليّ بصحيفة كذا وكذا ، قال فينسخها فيبعث إليه باحدها » (٧٣) غير أن موسى‌بن عقبه لم يحدد فيما اذا كانت كتب ابن عباس هي‌مما ألفه او مما امتلكه كما انه لا يذكر مواضيعها ، اي فيما اذا كانت في التفسير أم في علوم اخرى .

ومن المعلوم أن لابن عباس مكانة متميزة في علم تفسير القرآن ، وقد نقل عنـــه كثير من المعتمدين المتأخرين كالبخاري والطبري (٧٤)

وقد طبعت عدة كتب بعنوان تفسير ابن عباس (٧٥) وذكرت بعض المصادر لابن‌عباس كتباً اخرى (٧٦) . غير أن إشارات أخرى تدل على أنه لم يخلف كتباً ، فيروى الخطيب أن ابن‌عباس قال « إنا لا نكتب في الصحف إلا الرسائل والقرآن (٧٧) ويروي السوطي عن ابن عبدالحكم أنه قال « سمعت الشافعي يقول : لم يثبت عن ابن عباس من تفسير الاشبيه بمائة حديث »(٧٨)

---

(٦٩) الفهرست ٣٦ .

(٧٠) الفهرست ٤٠ .

(٧١) الفهرست ٤١ .

(٧٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٢٣/٢ .

(٧٣) طبقات ابن سعد ٢١٦/٥ .

(٧٤) انظر المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن لجولدزيهر ص ٨٣ فما بعد ترجمة محمد يوسف موسى ؛ التفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبي ٦٥/١ فما بعد .

(٧٥) انظر عنها تاريخ الادب العربي لبروكلمان ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار

(٧٦) انظر عنها تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ١٨/١ — ٢٣ الترجمة العربية ، الطبعة الأولى

(٧٧) تقييد العلم ٤٣ .

(٧٨) الا تقان في علوم القرآن ١٨٩/٢

يروي ابن سعد أن سعيد بن جبير قال « ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى املأها ، وكتبت في نعلي حتى املأها ، وكتبت في كفي ، وربما أتيته فلم أكتب حديثاً حتى أرجع ، لا يسأله أحد عن شيء » ، وأنه قال « كنت آتي ابن عباس فأكتب عنه » وقال ايضاً انه « كان يسائل ابن عباس قبل ان يعمى ، فلم يستطع ان يكتب معه ، فلما عمى ابن عباس كتب ، فبلغه ذلك ، فغضب » (٧٩) ويبدو أن هذه الكتابة في التفسير ، لان ابن سعد يروي « كان سعيد بن جبير يكره كتاب الحديث»(٨٠)

ويروي ابن سعد عن ورقاء بن اياس قوله « رأيت عزرة يختلف الى سعيد بن جبير معه التفسير من كتاب ، ومعه الدواة يغير » (٨١) .

ويفهم من النصين الاولين ان سعيد بن جبير كان يدون معلومات من أقوال ابن عباس في التفسير ، ولعل المقصود بالكتاب الذي فيه التفسير هو الملاحظات المدونة ، وانها ليست من تأليف سعيد بن جبير ؛ ومما يؤيد ذلك ما رواه إبن خلكان أن رجلاً « سأل سعيد بن جبير ان يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال : لأن يسقط شقى أحب إلىّ من ذلك » (٨٢) .

يذكر ابن النديم في الفصل الذي دوّنه عن كتب التفسير « تفسير الحسن بن ابي الحسن» (٨٣) ويذكر إبن خلكان أن عمرو بن عبيد له كتاب التفسير عن الحسن البصري (٨٤) ؛ ويروي إبن سعد عن حميد الطويل أنه أخذ كتب الحسن فنسخها وردها اليه (٨٥) ويروي ابن سعد أيضاً عن سهل بن حصين أنه قال « بعثت الى الحسن بن ابي الحسن : ابعث اليّ بكتب أبيك ، فبعث إليّ انه لما ثقل قال اجمعها لي ، فجمعتها له ، وما ندري ما يصنع بها ، فأتيته بها ، فقال للخادم استجري التنور ،

(٧٩) الطبقات لابن سعد ١٧٩/٦
(٨٠) كذلك ١٧٩/٦ .
(٨١) كذلك ١٨٦/٦ .
(٨٢) وفيات الاعيان في ترجمة سعيد بن حبير
(٨٣) الفهرست ٣٦ .
(٨٤) وفيات الاعيان (في ترجمة عمرو بن عبيد) ، وانظر سزكين ١٨٧/١.
(٨٥) الطبقات لابن سعد ٧ — ١٧/١
(٨٦) كذلك ٧ — ١٢٧/١ .

ثم أمر بها فاحرقت غير صحيفة واحدة ، فبعثها إلىّ ، ثم لقيته بعد ذلك فاخبرنيه مشافهة بمثل الذي أخبر به الرسول [٨٦] ».

يتبين من النص الثاني أن الحسن البصري كتب كتاباً في التفسير ، ومن النص الثالث أن كتابه في التفسير أحرق بعد وفاته ، غير أن النص الأول يظهر إن عمرو بن عبيد نقل من كتاب التفسير للحسن ؛ ويمكن التوفيق بين هذه الروايات بالقول إن الحسن ألف كتاباً في التفسير ، وإن الكتاب أحرق قبيل وفاته فلم يعد له وجود ، ولكن المعلومات التي احتواها تسربت الى الناس عن طريق الروايات او تدوين الملاحظات .

وقد وصلتنا للحسن البصري الرسالة التي وجهها الى الخليفة عبدالملك بن مروان [٨٧].

ولا ريب في أن دراسة القرآن الكريم وتفسيره وما يتصل به حظى باهتمام كبير منذ القرن الاول ، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست عدداً كبيراً ممن درس وألف في عدد من المواضيع المتصلة بالقرآن الكريم ، غير انه لم يذكر سنيّ وفاة كثير من هؤلاء العلماء أو أسماء كتبهم ؛ ولا ريب في أن عدداً منهم توفي بعد سنة ٢٠٠ هـ ، وهي السنة التي نتخذها اقصى حد زمني لدراستنا الحالية .

وقد ذكر الأستاذ فؤاد سزكين عدداً من المفسرين الأولين وذكر أسماء كتبهم وهم [٨٨] :

١ مجاهد المكي (ت ١٠٤ هـ) وتوجد من تفسيره نسخة مخطوطة في القاهرة كتبت سنة ٥٤٤ هـ .
٢ الضحاك بن مزاحم الهلالي (ت ١٠٥ هـ) بقيت من تفسيره نقول .
٣ عطية بن سعد العوفي (تـ ١١١ هـ) نقل عنه الطبري ، وحصل الخطيب في دمشق على حق روايته .
٤ عطاء (تـ ١١٤ هـ) نقل الطبري من تفسيره
٥ قتاده بن دعامة السدوسي (تـ ١١٨ هـ) له عدة كتب منها : الناسخ والمنسوخ ، المناسك ، عواشر القرآن ، التفسير .

---

(٨٧) مجلة الاسلام (بالألمانية) م٢٢ سنة ١٩٣٣ وانظر ايضاً عنها : الحسن البصري للاستاذ احسان عباس ١٧٢ فما بعدها .

(٨٨) تاريخ التراث العربي : ١٨٥/١ فما بعدها .

ومن المواضيع التي حظيت بالاهتمام سيرة الرسول (ص). وقد ذكرت بعض المصادر أن عدداً من علماء صدر الاسلام ألفوا فيها كتباً ؛ ومن أول من ذكرت له بعض المصادر تأليفاً في السيرة هو عروة بن الزبير (تـ ٩٤ هـ) الذي يذكر حاجي خليفة انه « أول من صنف في المغازي » [٨٩] ، ويروي ابن سعد عن هشام ابن عروة بن الزبير ، أنه قال « أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له ، فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندي أحب الي من ان يكون لي مثل أهلي ومالي » [٩٠] إن هذا النص يذكر كتب فقه عند عروة ، ولكنه لا يصرح باسم مؤلفها ، أو فيما اذا كانت مجرد ملاحظات مدوّنة أو أنها كانت كتباً بالمعنى المفهوم عندنا ، هذا فضلاً عن أنه ينص على أن هذه الكتب أُحرقت. وقد نقل الطبري أجوبة كتبها عروة عن أسئلة كان الخليفة عبدالملك بن مروان قد وجهها اليه [٩١] ؛ فهي من قبيل المدونات والرسائل ، وليست كتاباً ، والواقع أنه لم يذكر أحد من الأقدمين أن عروة ألّف كتاباً .

وممن ذكرت المصادر تأليفهم كتباً في السيرة هو محمد بن شهاب الزهري (تـ١٢٤) ، وهو عالم من قريش كانت له صلة وثيقة بالخلفاء الامويين ،فيروي ابن عبد البر « كان أول من دون العلم وكتبه ابن شهاب [٩٢] ويقول أيضاً أن الزهري قال « أمرنا عمر بن عبدالعزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً ، فبعث إلى كل أرض عليها سلطان دفتراً »[٩٣] ، ويروي عنه انه قال « كنا نكره كتاب العلم حتى اكرهنا عليه هؤلاء الامراء ، فرأينا الاّ نمنعه أحداً من الناس » [٩٤] ، ويروي أن زوجته كانت تقول أن كتبه كانت أشد عليها من ثلاث ضرائر » [٩٥] ، ويلاحظ أن النصين الأولين لا يذكران عدد ما ألّف من

---

(٨٩) كشف الظنون ٦٤٦/٥ ، وانظر : المغازي الاولى ومؤلفوها ليوسف هوروفتز ص ٢٠ فما بعد .

(٩٠) ابن سعد ١٣١/٥ ، جامع بيان العلم وفضله ٧٥/١.

(٩١) نقل منها الطبري في تاريخه واشار في بعض نقله الى انها مما كتبه عروة لعبدالملك . انظر تاريخ الطبري ١١٨٠/١ ، ١٢٢٤ ، ١٢٣٤ ، ١٢٨٤ ، ١٦٣٤ ، ١٦٩٥ ، ١٦٣٦ ، ١٦٧٠ ، ١٧٧٠

(٩٢) جامع بيان العلم ٧٣/١ ، ٧٦ .

(٩٣) جامع بيان العلم ٧٦/١ .

(٩٤) ابن سعد ٢ - ١٣٥/٢ ، جامع بيان العلم ٧٦/١ .

(٩٥) وفيات الاعيان لابن خلكان في ترجمة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .

كتب ، اما النص الثالث فلا يحدد ما إذا كانت الكتب التي اغاضت زوجته هي من تأليفه أم مما يمتلكه .

ذكر إسحق بن راشد أنه مر ببيت المقدس فوجد كتاباً للزهري [٩٦] ونقل الطبري عن الزهري معلومات عن اسنان الخلفاء [٩٧] ؛ ويرى الدكتور عبدالعزيز الدوري ان المقتطفات التي وصلتنا عن الزهري تظهر أنه هو الذي صاغ سيرة الرسول (ص) بالشكل الذي نجده عند ابن اسحق [٩٨] ؛ غير أنه من الصعب الجزم بأن المعلومات التي نقلها الرواة عن الزهري في سيرة الرسول (ص) مقتبسة من كتبه ام من روايته ، علماً بان بعض الكتب تذكر انه لم يكن للزهري كتاب الاكتاب نسب قومه [٩٩] .

ومن المعنيين البارزين الاولين في كتابة السيرة هو موسى بن عقبة (تـ ١٤١ هـ) ، وكان من الموثقين في كتابة السيرة ، فقد ذكر ابن معين « كتاب موسى بن عقبة عن الزهري من اصح الكتب [١٠٠] » ؛ وكان مالك بن انس يوثقه في السيرة [١٠١] . وقد اقتبس منه عدد من مؤلفي السيرة ، وقد كشفت قطعة من كتابه في السيرة وطبعت مع ترجمة المانية سنة ١٩٠٤ [١٠٢] .

اما الشعر والادب ، فهما من المواضيع التي حظيت باهتمام العرب منذ الأزمنة السابقة للاسلام ؛ وقد عنوا بتسجيلها منذ عهد المناذرة [١٠٣] ؛ ولابد ان عنايتهم بها استمرت بعد الاسلام ، وكان بعض الخلفاء الامويين يوليها عناية خاصة ، ويروي ابن النديم « قرأت بخط ابي عبدالله بن مقلة : قال ابو العباس ثعلب : جمع ديوان العرب واشعارها واخبارها وانسابها ولغاتها ، الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، ورد الديوان

---

(٩٦) معرفة علوم الحديث للنيسابوري ١١٠ .

(٩٧) تاريخ الطبري ٢/٤٢٨ ، ١٢٦٩

(٩٨) « مؤرخوا الشرق الأوسط » أشرف على طبعه برناود لويس وهولت ص ٤٦ (بالانكليزية).

(٩٩) المحدث الفاصل ٣٨٦ الاغاني ١٩/٥٩

(٠٠) التهذيب لابن حجر ٣٦٤ .

(١٠١) كذلك ٣٦٢

(١٠٢) انظر : المغازي الاولى ومؤلفوها ٦٩ فما بعد

(١٠٣) انظر الخصائص لابن جني ١/٣٩٢ ، طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٣٣ وانظر التفاصيل القيمة في كتاب مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الاسد .

الى حماد وجناد »[١٠٤] ويبدو ان هذا الديوان مجموعة غير منسقة لان ابن النديم يذكر « ولم نر لحماد كتاباً ، وانما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده » ، علما بأن ابن النديم يذكر أن حماداً توفي سنة ١٥٦ [١٠٥]

(٢)

ظهور التصنيف

تنظيم الكتب ونموها

يتبين من مجمل ما ذكرنا أن الحركة الفكرية نشطت منذ العهود الاسلامية الاولى، غير أنها كانت تعتمد على الرواية والسماع والاتصال الشخصي ، ثم بدأ التدوين محدوداً وشخصياً لمساعدة الذاكرة في ضبط المعلومات ، وتدرّج التدوين فلم يعد شخصياً ، بل أصبح المدّون يستعمله اشخاص غير المدوِّن نفسه ، وتطور ذلك الى كتابة الكتب، وكانت في عدة مواضع ، ولكن عددها محدود جداً ، ولم يصلنا منها واحد بالشكل الذي كتب فيه ، ولكن وصلتنا نقول ومقتبسات عن كثير منها ؛ ولذلك لا نستطيع الجزم بحجمها أو بتبويبها . ويلاحظ أن « الكتاب في اللغة اسم لما كتب مجموعاً »[١٠٦] بصرف النظر عن حجمه . والواقع أن كلمة الكتاب قد استعملت بهذا المعنى العام لوصف المدّونات بصرف النظر عن مقدار المكتوب فيها ؛ فاطلقت على ما كتبه الرسول (ص) والخلفاء بصرف النظر عن حجمها ، فهي اقرب الى ما نسميه اليوم « رسالة »

ثم اصبحت كلمة الكتاب تطلق حصراً على مجموعة المعلومات المدّونة مجتمعة ولها حجم معين ، غير أنه لم توجد قاعدة ثابتة لتحديد حجم ما يسمى « كتاباً » ، فهي قد تتكون من صفحات قليلة ، او من مئات الصفحات . وقد ذكر ابن النديم عدد اوراق بعض الكتب، فكان منها ما لا يزيد على عشرين صفحة، ومنها ما يتجاوز الالف صحيفة .

---

(١٠٤) الفهرست ١٠٣ وانظر عن عناية الوليد بن يزيد بالكتب: ابن سعد ٢ — ٣٦/٢ .

(١٠٥) الفهرست ١٠٤ ؛ وقد جهد الدكتور ناصر الدين الاسد في اثبات خطأ نص ابن النديم ؛ ولكن يجدر ان نلاحظ انه لم ينكر احد وجود التدوين في وقت مبكر ؛ اما ما ظهر متأخراً فهو « التصنيف » اي الكتب المنسقة .

(١٠٦) لسان العرب ١٩٢/٢ .

وكان تيسير استعمال الكتاب الكبير يتطلب تنظيم معلوماتها وتصنيفها وتقسيمها . وقد حددت عدة مصادر زمن ظهور التصنيف ، وهو يرجع الى اواسط القرن الثاني الهجري ، وقبل ان نورد ما ذكرته المصادر في هذا الأمر لابد ان نذكر ان التصنيف يجب ان يسبقه ظهور المدّونات الكبيرة الواسعة التفاصيل ، وكذلك استقرار الرضى عن التدوين واعتماد الناس على الكتبَ في النشاط الفكري والدراسة .

يقول أبو طالب المكي « كره كتب الحديث الطبقة الأولى من التابعين ، فكانوا يقولون : احفظوا كما نحفظ ، وأجاز ذلك من بعدهم ، وما حدث التصنيف الا بعد موت الحسن (ت ١١٠) وابن المسيب (ت ١٠٥ » [١٠٧] ويقول ابن النديم عن حماد الراوية (ت ١٥٦) « وانما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده [١٠٨].

يروي الخطيب عن عبدالله بن احمد بن حنبل « قلت لأبي من أول من صنف الكتب ؟ قال ابن جريج (ت ١٥١) وابن إبي عروبة (ت ١٥٨)[١٠٩] ، ويروي الذهبي عن ابن حنبل قوله أن إبن جريج « كان من أوعية العلم ، وهو وابن ابي عروبة اول من صنف الكتب »[١١٠] ، وهو يروي في مكان آخر من كتابه أن « حماد بن سلمة (تـ ١٦٨) هو أول من صنف التصانيف مع ابن أبي عروبة [١١١] ويذكر ايضاً ان « سعيد بن أبي عروبة هو أول من صنف الأبواب بالبصرة »[١١٢] ؛ غير أن الذهبي يذكر أن ابن داوود ذكرأنه « لم يكن لحماد بن سلمة كتاب الا كتاب قيس بن سعيد[١١٣] وأن أحمد بن حنبل قال إن سعيد بن أبي عروبة « لم يكن له كتاب ، إنما كان يحفظ » [١١٤] .

وقد ذكر كل من علي بن المديني والرامهرمزي معلومات اوسع : فقد ذكر علي بن

---

(١٠٧) قوت القلوب ١/١٥١ .

(١٠٨) الفهرست ١٠٤ .

(١٠٩) تاريخ بغداد للخطيب ١٠/٤٠١ .

(١١٠) تذكرة الحفاظ ١/١٦٩ .

(١١١) تذكرة الحفاظ ١/٢٠٣ .

(١١٢) تذكرة الحفاظ ١/١٧٧

(١١٣) تذكرة الحفاظ ١/٢٠٣

(١١٤) تذكرة الحفاظ ١/١٧٧ .

المديني « نظرت فاذا الإسناد يدورعلى ستة ، يعني معظم الصحاح : فلأهل المدينـــة ابن شهاب (ت ١٢٤) ، ولإهل مكة عمرو بن دينار (ت ١٢٦) ، ولأهل البصره قتادة (ت ١١٧) ويحيى بن أبي كثير (ت ١٣٢) ، ولاهل الكوفة أبو إسحق (ت ١٢٧) والأعشى (ت ١٤٨)

ثم صار علم هؤلاء الستة الى اصحاب الأصناف ممن صنّف .

فلأهل المدينة : مالك بن أنس (ت ١٧٩) وابن إسحق (ت ١٥١) ومن أهل مكة : عبدالله بن عبدالعزيز بن جريج (ت ١٥١) وسفيان بن عُيَيْنَة (ت ١٩٨) ومن اهل البصرة سعيد بن أبي عروبة (ت ١٥٨) وحماد بن سلمة (ت ١٦٨) وأبو عوانة (ت ١٧٥) وشعبة ابن الحجاج (ت ١٦٠) ومعمر (ت ١٥٤) ومن أهل الكوفة سفيان بن سعيد الثوري (ت ١٦١) ومن أهل الشام عبدالرحمن بن عمر الأوزاعي (ت ١٥١) ومن أهل واسط هشيم بن بشير (ت ١٨٣) (١١٥) .

وقال الرامهرمزي في أول الفصل الذي عنوانه « المصنِّفون من رواة الأمصار » :

« اول من صنّف وبوّب فيما أعلم :

الربيع بن صبيح (ت ١٦٠) بالبصرة ، ثم سعيد بن أبي عروبة (ت ١٥٧) بها ، وخالد بن جميل الذي يقال له العبد (ت ؟) ، ومعمر بن راشد (ت ١٥٣) باليمن ، وابن جريج (ت ١٥٠) بمكة .

ثم سفيان الثوري (١٦١) بالكوفة (وحماد بن سلمة (ت ١٦٨) بالبصرة ، وصنّف سفيان بن عُيَيْنة (ت ١٩٨) بمكة .

والوليد بن مسلم (ت ١٩٤) بالشام .

وجرير بن عبدالحميد (ت ١٨٨) بالريّ .

وعبدالله بن المبارك (ت ١٨١) بمرو وخراسان .

وهشيم بن بشير (ت ١٨٣ أو ١٨٨) بواسط .

---

(١١٥) كتاب العلل لعلي بن المديني ٣٩ – ٤٢ ؛ المحدث الفاصل للرامهرمزي فقرة ٦١٦ – ٦١٨ ؛ تقدمة الجرح والتعديل للرازي ١٧ ، ١٢٩ ؛ تاريخ بغداد للخطيب ٤٠١/١٠ ؛ تذكرة الحفاظ ٣٦٠/١

وصنف في هـذا العصر بالكوفة ابن أبي زائدة (ت ١٤٩) وابن فضيل ووكيع (ت ١٩٧) .

ثم صنف عبدالرزاق (ت ٢١١) باليمن ، وابو قُرّة بن طارق (ت ٢٠٣) وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥) بتكثير الابواب [١١٦] .

وقد ذكر كل من المديني والرامهرمزي سعيد بن ابي عروبة وحماد بن سلمة الذين ذكرهما ابن حنبل .

وقد انفرد ابن المديني بذكر مالك بن انس ، وابن اسحق (من المدينة) والأوزاعي (من الشام) وأبي عوانة ، وشعبة (من البصرة) .

اما الرامهرمزي فينفرد بذكر الربيع بن صبيح من البصرة ، وخالد بن جميل من اليمن والوليد بن مسلم من الشام ، وعبدالرزاق وموسى بن طارق من اليمن .

ان كافة من ذكرهم علي بن المديني توفوا قبل انقضاء القرن الثاني الهجري ، وان نصفهم توفي في اوائل النصف الثاني من القرن الثاني ؛ ولابد انهم قاموا بالتصنيف قبل وفاتهم ، اي في اواخر النصف الاول من القرن الثاني على الاقل .

اما الرامهرمزي فقد رتب المصنفين الأوائل الذين ذكرهم بثلاث مجموعات ، توفي أفراد الأولى في اوائل النصف الثاني من القرن الثاني ، وتوفي أفراد المجموعة الثانية في العقدين الاخيرين من القرن الثاني ، وتوفي افراد المجموعة الثالثة في أوائل القرن الثالث الهجري .

ويذكر الذهبي في كلامه عن الطبقة الخامسة عشرة ، وهي عنده بين سنتي ١٤٣-١٥٣ « وفي هذا العصر شرع علماء الإسلام في تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فصنّف ابن جريج التصانيف بمكة .

وصنّف سعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة

وصنّف الأوزاعي بالشام

وصنّف مالك الموطأ بالمدينة

(١١٦) المحدث الفاصل فقرة ٨٩٢

وصنّف ابن اسحق المغازي

وصنّف معمر باليمن

وصنّف ابو حنيفة بالكوفة

وصنّف سفيان الثوري كتاب الجامع

ثم بعد يسير صنّف هشيم كتبه .

وصنّف الليث بمصر ،

وابن لهيعة

ثم إبن المبارك

وابو يوسف

وابن وهب (١١٧)

ولما كان كل من ابن المديني والرامهرمزي معنيّين بعلم الحديث وأهله ، فان قائمتيهما قصرت على المحدّثين فحسب ، أما الذهبي فمع أن عنوان كتابه يدل على أن بحثه منحصر بالحفّاظ ، الا أن إهتمامه كان مركزاً بالدرجة الاولى على أهل الحديث منهم ، ولذلك نعتبر معلوماته مكملة لهما . اما ابن النديم فكان اهتمامه واسعاً وشاملاً لمختلف ميادين المعرفة ، ويلاحظ أن ابن النديم اورد ذكر هؤلاء الرجال تحت فصل عنوانه « فقهاء المحدّثين » قاصداً في ذلك المهتمين بالحديث والفقه ، وهو بذلك يعبّر عن الصلة الوثيقة بين الحديث والفقه ، باعتبار أن الحديث من الدعامات الإساسية للفقه ، وأن الانفصال بين هذين العلمين لم يكن في هذه المرحلة تاماً ؛ وتتجلى هذه الصلة بالاهتمام بالسنن أي ما ينبغي تطبيقه من أحاديث الرسول ، فهي تشمل التطبيقات العملية دون سيرته وشمائله وحكمياته التي وان كانت قدوة للمسلمين الا ان بحثها أصبح أكثر اختصاصاً بأهل الحديث ، ولما كان اهتمام ابن النديم في هذا الفصل بالفقهاء والمحدّثين ، فان قائمته كانت اوسع حيث شملت رجالاً آخرين لم يذكرهم ابن المديني والرامهرمزي والذهبي ، ثم إن إهتمام ابن النديم بالكتب دفعه الى أن يذكر أسماء مؤلفات هؤلاء العلماء ، يضاف الى ذلك أن كتاب الفهرست لابن النديم شامل لمختلف فروع المعرفة

(١١٧) تذكرة الحفاظ ١٦٠/١ .

وان المعلومات التي اوردها في مواضيع المعرفة لا تناقض الكتب الكثيرة التي اختصت بدراسة علماء فرع من الفروع ؛ ولذلك فقد اعتمدت عليه في تتبع التأليف والتصنيف في المواضيع الأخرى، ومع ان دراستي في هذه المواضيع الاخرى لا تصل حد الاستيعاب الكامل ، الا أنها تكفي لاعطاء صورة واضحة عن تطور اساليب نشر المعرفة ومجراها الذي لا يختلف كثيراً عن مجرى علمي الحديث والفقه .

قام بالتأليف والتصنيف في مراحله الأولى علماء من عدة أمصار وأقاليم وخاصة من أهل البصرة ، والكوفة ، والمدينة ، ومكة ، واليمن، والشام، ومصر ، وقد أمّ عدد منهم بغداد واستوطنوها بعد تأسيسها ، غير أن عدداً منهم لم يعرف عنه أنه استوطن بغداد أو قدمها أو كانت له صلة وثيقة بخلفائها العباسيين . ومع أن بعض العلوم لقيت عناية خاصة في بعض الأمصار دون غيرها ، كالنحو في البصرة والكوفة ثم في بغداد، الا أن كثيراً من العلوم الاولى ، وخاصة الحديث والفقه والتفسير نشطت دراستها ثم التصنيف فيها في أكثر من مصر واحد ، بل ان بعضها عمّ كافة هذه الامصار التي سمتها البارزة أن سكانها المهيمنين فيها هم العرب المسلمون ، وليس ذوي الثقافة الاغريقية أو الفارسية . فظهور التصنيف في هذه المراكز المتعددة لا بد وانه يرجع الى عوامل اثرها شامل وغير مقصور على منطقة دون غيرها .

لقد ذكرنا من قبل أن أبا طالب المكي ذكر أن التصنيف حدث بعد موت الحسن وابن المسيب [١١٨] اي بعد سنة ١١٠هـ وأن ابن احمد بن حنبل يذكر أن أول ثلاثة مصنفين توفوا بين سنة ١٥١–١٦٨هـ وان الرامهرمزي وابن النديم والمديني يذكرون المصنفين الأوائل، واقدمهم توفي حوالي سنة ١٥٠ هـ ؛ وان ما ذكروه يوافق ما ذكره الذهبي في تاريخه ، اما ما ذكره في التذكرة فهو اشمل حيث قال في آخر كلامه عن الطبقة الرابعة وهي الثالثة من تابعي التابعين «وشرع الكبار في تدوين السنن وتأليف الفروع وتصنيف العربية؛ ثم كثر ذلك في أيام الرشيد (١٧٠ – ١٩٢) وكثرت التصانيف ، والفوا في اللغات ، واخذ حفظ العلماء ينقص ، ودوّنت الكتب واتكلوا عليها ، وانما كان قبل ذلك علم

---

(١١٨) قوت القلوب ١/١٥١ .

الصحابة والتابعين في الصدور ، فهي كانت خزائن العلم لهم رضي الله عنهم [١١٩] وهو يذكر في تاريخه عن الطبقة الخامسة عشرة وهي التي توفي اهلهـا بين سنتي ١٤٣ ـ ١٥٣ أن في زمنها « كثر تدوين العلم وتبويبه ، ودوِّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وايام الناس ، وقبل هذا العصر كان سائر الائمة يتكلمون عن حفظهم او يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » [١٢٠]

يتضح من كلام الذهبي ان التدوين شمل السنن ، والفروع (الفقه) والعربية (النحو والصرف)، واللغة، والتاريخ ، والأيام ، ولا ريب في ان التأليف إعتمد على التطور الفكري الواسع الذي حدث في العهود السابقة التي اعتمد فيها العلم على الرواية ، وان التأليف بدَأ محدوداً في نطاقه ، ثم اتسع في أيام الرشيد . والواقع أن قائمة أسماء العلماء المتوفين في السنين الاولى من القرن الثالث ، وكلهم ممن نضج في هذه الفترة وكثير منهم ألّف كتباً متعددة ضخمة ، تظهر الازدهار العظيم الذي تجلى في عهد الرشيد ، وتشير الى أحد مبررات اعتبار عصره عصراً ذهبياً .

والواقع أن هذه الفترة لا تتميز بالافـذاذ فحسب ، بل تتسم أيضاً بالعناية بعلوم مترابطة تكون هيكلاً فكرياً عربياً اسلامياً في اصوله ورجاله ، ومنسجماً بمظاهره ؛ وقد عبّر عن ذلك الذهبي بقوله في وصف هذه الحقبة « وكان في زمان هؤلاء خلائق من اصحاب الحديث، ومن ائمة المقرئين كوَرش، واليزيدي ، والكسائي، واسماعيل ابن عبيدالله المكي القسط ، وخلق من الفقهاء كفقيه العراق محمد بن الحسن وفقيه مصر عبدالرحمن بن القاسم ، وخلق من مشايخ القوم كشقيق البلخي ، وصالح المرى الواعظ ، والفضيل المذكور ، والدولة لهرون الرشيد والبرامكة ..

ثم بعدهم اضطربت الامور ، وضعف أمر الدولة بخلافة الأمين رحمه الله ، فلما قتل واستخلف المأمون على رأس المائتين . وبزغ فجر الكلام ، وعربت حكمة الاوائل ومنطق اليونان، وعمل رصد الكواكب، ونشأ للناس علم جديد مُردٍ مهلك لا يلائم علم النبوة ، ولا يوافق توحيد المؤمنين ، وكانت الأمة منه في عافية » [١٢١]

---

(١١٩) تذكرة الحفاظ ١٦٠/١

(١٢٠) تاريخ الاسلام للذهبي ٥/٦ .

(١٢١) تذكرة الحفاظ ٣٢٨/١ ـ ٩

ان هذه السعة في الانتاج . والانسجام في البناء الفكري الذي اتسم به النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، تحملنا على اتخاذ مطلع القرن الثالث حداً زمنياً لدراستنا ، فلا ندخل فيها من توفى بعد سنة ٢٠٠ هـ علماً باننا ندرك مدى صعوبة وضع سنة معينة حداً للحقب الفكرية ، حيث ان كل المتوفين في السنوات الاولى من القرن الثالث هم من مظاهر او ثمرات الفترة التي سبقت هذا التاريخ

لا ريب في أن أبرز حدث في هذه الفترة هو تولي العباسيين الخلافة (١٣٢ هـ) ثم تاسيس بغداد واتخاذها دار ملك للعباسيين (١٤٥ – ١٤٧) ؛ وقد يكون لتولي العباسيين الخلافة وتسيير الدولة اثر في تسريع وتوجيه الحركة الفكرية ، ولكن لا يمكن أن نرجع اليهم وحدهم ظهور التأليف والتصنيف ، لأن اوائل من قاموا به توفوا في اوائل مجيء العباسيين وقبل ان يتضح اثرهم ، علماً بان الخليفتين العباسيين الأولين ، وهما أبو العباس والمنصور (١٣٢ – ١٥٨ هـ) اشغلا معظم وقتهما في القضاء على المعارضين المهددين ، وفي تثبيت دعائم الحكم ، يضاف الى ذلك أن التأليف عمّ أمصاراً واقاليم لم تكن وثيقة الصلة بالخلفاء العباسيين ، كمصر واليمن . لذلك ينبغي ان نبحث في اسباب اخرى ذات اثر مفاجيء وعام في العالم الاسلامي ؛ واقتصر من هذه الاسباب على ذكر أهمية استعمال الورق في هذا الميدان فان أهميته واضحة ، وان هذه « الثورة الثقافية » قد تشير الى أنه بدأ يعم استعماله في هذه الفترة .

لقد ذكرنا من قبل أن الكتاب يتميز عن المدونات الاخرى بما يضم من معلومات كبيرة نسبياً ، وهذا يقتضي تنظيماً وتنسيقاً ييسر الافادة من قراءتها ؛ ولعل هذه السمة هي التي اتسمت بها المؤلفات التي ظهرت منذ اواسط القرن الثاني ووصفها كل من أحمد بن حنبل ، وابن المديني ، والرامهرمزي ، والذهبي .

وقد وصف الرامهرمزي هذا التطور الفكري بأنه « تصنيف وتبويب » فوصف من ذكرهم بأنهم « أول من صنّف وبوّب » وذكر أنه « تفرد بالكوفة أبو بكر بن أبي شيبة بتكثير الأبواب وجودة التأليف وحسن التصنيف » [١٢٢] وذكر الذهبي أن « سعيد ابن أبي عروبة هو أول من صنّف الابواب بالبصرة » [١٢٣] ، ويتبين من ذلك أن

(١٢٢) المحدث الفاصل ٨٩٢ .
(١٢٣) تذكرة الحفاظ ١٧٧/١ .

التبويب مرحلة متقدمة من مراحل التصنيف ، أي أن المعلومات لا تنسق فحسب (تُصَنَّف) وانما تجعل كل مجموعة ذات سمة تربطها ، قائمة بذاتها ، اي باباً خاصاً ويفهم من كلام الرامهرمزي أن التبويب متميز عن التصنيف ، وانه بدأ مبكراً على يد سعيد بن أبي عروبة ، غير أنه كان محدوداً ، وأن أبا بكر بن أبي شيبة تفرد بتكثير الابواب .

لقد كان أمام مؤلفي القرن الثاني الهجري نماذج من التصنيف والتبويب أظهرها الكتب الدينية وهي القرآن الكريم والتوراة . فأما القرآن الكريم فان عدد الكلمات فيه حوالي اثنتين وثمانين الفاً ، وهو يتكون من مائة واربعة عشر سورة مختلفة الطول ، فبعضها طويلة جداً ، تبلغ عشرات الصفحات ؛ وبعضها قصير لا يتجاوز السطرين ، وكل سورة مكّونة من عدد من الآيات بعضها مكون من كلمة واحدة ، وبعضها مكون من عدد كبير من الكلمات . وأطول الآيات هي الآية ٢٨١ من سورة البقرة وهي تتكون من اكثر من ٩٥ كلمة ؛ وهو بالاضافة الى ذلك مقسم الى ثلاثين جزءاً ، يتكون كل جزء من أربعة ارباع .

اما التوراة فكانت « خمسة اخماس ، ينقسم كل خمس الى سفرين ، وينقسم السفر الى عدة فراسات ، ومعناها السورة ، وتنقسم كل فراسة الى عدة ابسوقات ومعناها الآيات » (١٢٤) .

ومن المحتمل ان العرب عرفوا تنظيم بعض الكتب الاغريقية بنصوصها القديمة او بترجماتها السريانية او ترجماتها العربية التي كانت بواكيرها قد حدثت في هذا الوقت ايضاً . غير ان الكتب الاغريقية لاتتوفر لدينا بالشكل الذي كانت فيه عند بدء التصنيف عند العرب ، ومن المعلوم ان الترجمات العربية للكتب الاغريقية اتسعت في القرن الثالث الهجري ، وان كثيراً من هذه الكتب اعيدت او « أصلحت » ترجمتها حتى وصلت شكلها النهائي الذي وصفه ابن النديم في الفهرست والذي وصلنا لبعضها ، وهذا التطور يولد صعوبة في الحكم على ما اذا كانت التقسيمات التي نعرفها عن هذه المؤلفات هي اغريقية أصيلة ، أم من صنع المترجمين الذين ابدعوها او قلدوا الكتب العربية فيها . ونقدم فيما يلي الصورة التي تبدو مما ذكره إبن النديم عنها ، وقد اعتمدنا

(١٢٤) الفهرست لابن النديم ٢٥

في هذا القسم على الطبعة المصرية من الفهرست ، علماً باننا ندرك ان معظم هذه الكتب ظهرت في العربية بعد الفترة التي حددناها لدراستنا الحالية .

سمى ابن النديم غالبية ما ترجم من الاغريقية الى العربية « كتباً » وذكر ان بعض هــذه الكتب كانت مكونة من عــدة أقسام يسمى كل منها « مقالة » . ويختلف عدد المقالات التي تحتويها هذه الكتب فبعضها مكون من مقالة واحدة ، وبعضها من عــدة مقالات . وقد اتبع هذا في كتب منوعة المواضيع ككتب الطب لروفس ، وفيلفريوس (١٢٥) واوريباسيوس (١٢٦) وأبقراط (١٢٧) وجالينوس (١٢٨) وكتب الفلسفة والطبيعيات لأرسطو (١٢٩) ، وكتب الطبيعة والرياضيات لأقليدس ، وارخميدس ، وأبولونيوس ، ومنالاوس ، وبطليموس (١٣٠) . غير أن إبن النديم ذكر أن ذوريثوس « له كتاب كبير يحتوي على عدة كتب » (١٣١).

وقد قسّم عدد من الاطباء وعلماء الطبيعة والرياضيات العرب كتبهم الى مقالات ، فقد تكونت من عدة مقالات كتب كل من أبي معشر (١٣٢) وأبى محمد بن رافع (١٣٣) ويوحنا القس (١٣٤) والكوهي (١٣٥) وحنين بن إسحق (١٣٦) وقسطا بن لوقا (١٣٧) ويحيى بن سيرافيون (١٣٨) والرازي (١٣٩) ومعظم كتب البوزجاني (١٤٠) غير أن عدداً من كتب

---

(١٢٥) الفهرست ٤٠٦
(١٢٦) كذلك ٤٠٧ .
(١٢٧) كذلك ٤٠١
(١٢٨) كذلك ٤٠٢
(١٢٩) كذلك ٣٤٨ — ٣٥٠
(١٣٠) كذلك ٣٧١
(١٣١) كذلك ٣٧٥
(١٣٢) كذلك ٣٨٦
(١٣٣) كذلك ٣٨٩
(١٣٤) كذلك ٣٩٣
(١٣٥) كذلك ٣٩٥
(١٣٦) كذلك ٣٠٩
(١٣٧) كذلك ٤١١
(١٣٨) كذلك ٤١٢
(١٣٩) كذلك ٤١٦
(١٤٠) كذلك ٣٩٤

العلوم قسّمت الى فصول . وقسم البوزجاني كتابه في الحساب الى سبع منازل ، وكل منزلة الى ابواب ، وكل باب الى فصول [١٤١].

تحتوي قائمة ابن النديم في الفصل الذي عنوانه « فقهاء المحدثين » على أسماء خمسة وثلاثين ممن توفوا قبل سنة ٢٠٠ هـ ، منهم تسعة الّف كل منهم كتاباً واحداً ، وتسعة الّف كل منهم كتابين .

وقد الّف اثنا عشر منهم كتباً عنوان كل منها « السنن » ، وأربعة عنوانها «التفسير» وثلاثة عنوانها « المغازي » واثنان عنوانها « الموطأ » أما بقية الكتب فمعظمها في مواضيع متصلة بالفقه .

وقد فقدت معظم هذه الكتب الأولى ، ولم يبق منها الا مقتطفات او كتب في مواضيع محدودة ، كالكتب التي الّفها ابو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني. والكتاب الفقهي الشامل الوحيد الذي وصلنا كاملاً هو موطأ مالك بن انس ، وهو مكون من مقدمة واربعة وعشرين كتاباً يتراوح طولها بين صفحة واحدة (كتاب العقيقة وكتاب كراء الارض) وثلاث وستين صفحة (كتاب الحج) وقد نُظم الموطأ على الترتيب التالي : الصلاة ، الوضوء ، الجنائز ، الزكاة ، الصيام ، الاعتكاف ، الحج ، الجهاد ، النذور الصيد ، العقيقة ، الفرائض ، النكاح ، الطلاق ، البيوع ، القراض ، كراء الارض ، الشفعة ، الاقضية ، العتاق والولاء ، المكاتب ، المدبّر ، الحدود ، الاشربة ، العقول ، الدعاء للمدينة واهلها . ويشتمل كل كتاب على عدد من الروايات عن الرسول او الصحابة والتابعين فيما عملوه في موضوع الكتاب ؛ فمادته اقرب الى كتب الحديث ، ولكن تنظيمه متصل بميدان المعرفة التي يختص بها الفقه ، ولعلها تعبر عن اهتمامات الناس في ذلك ، وهو تنظيم ظل من حيث المبدأ متبعاً في تنظيم كافة كتب الفقه التالية ، وان كانت أدخلت تعديلات في تفاصيله ، كأن اعيد تنسيق بعض الأبواب وتسلسل تتابعها ، واضيفت فصول اخرى ، واعيد النظر في حجم بعض الاقسام ومقدار ما تحويه من مادة .

---

(١٤١) « ما يحتاج اليه العامل من علم الحساب »؛ وقد طبعه الدكتور احمد سعيدان بعنوان « علم الحساب العربي »

ولا ادخل في بحثي هذا كتاب المدونة ، وهو كتاب فقهي ضخم وواسع ويضم معلومات واراء واسعة ، ولكن الأقدمين لم يذكروه له ، مما يجزم بان معلوماته من صنف الروايات التي ظلت تتناقل بالسماع حتى دونها بشكلها النهائي الفقيه التونسي اسـدبن الفرات (١٤٢)

كانت سيرة الرسول ومغازيه من أبرز المواضيع التي عني العرب بدراستها وتناقل أخبارها منذ أوائل العصر الأموي ؛ وتم تدوين بعض أخبارها منذ عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (١٤٣) . وقد وصلتنا قطع من المؤلفات الأولى . غير أن أول كتاب شامل وصلنا هو « سيرة النبي (ص) » لمحمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥٠ هـ . والنسخة الشائعة الاستعمال حتى اليوم هي التي وصلتنا برواية زياد بن عبدالله البكائي كما عدلها محمد بن عبدالملك بن هشام الذي اختصر بعض ما فيها ، وخاصة في اقسامها الأولى ، كما أضاف اليها بعض القصائد ، وأشار الى بعض الأشعار غير الموثقة فيها ؛ والواقع أنه توجد روايات اخرى لسيرة بن إسحق تبلغ قرابة الأربعين (١٤٤) .

وكتاب « سيرة النبي (ص) » كما وصلتنا عن طريق إبن هشام مقسمة الى ثلاثـة اقسام هي : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازي . ويبدو أن ابن هشام لم يبدل في اختصاره هيكل الكتاب الذي ظل المعتمد الأساسي لمن جاء بعده حيث ظل الكتّاب في السيرة يتابعون تنظيمه ويعتمدون على معلوماته مع بعض الاضافات أو الاختصارات وتباين صياغة العبارات ، وبالرغم من ان ابن اسحق أغفل جوانب مهمة من سيرة الرسول (ص) واعماله كنشر الدين وتوضيح العقيـدة ، واعادة التوجيه الفكري والعقائدي ، وتثبيت وحدة الامـة .

وقد الّف في فترة التصنيف التي نبحثها في هذا المقال ، عدد من العلماء في المغازي وسيرة الرسول (١٤٥) ؛ ولكن ابن ابي عدي لم يكن مخطئاً عندما قال « والذي تقرر عليه

(١٤٢) انظر في ذلك كتاب « مالك » للاستاذ امين الخولي ، وخاصة ص ٧٦١ — ٧٦٤

(١٤٣) انظر البحث الشامل الذي كتبه هوروفتز « المغازي الاولى ومؤلفوها » ترجمة حسين نصار ، وفيه عرض شامل لمن ساهم في تأليفها حتى اوائل القرن الثالث الهجري . وانظر ايضاً الفصل الذي كتبه الدكتور عبدالعزيز الدوري عن تطور كتابة السيرة في كتاب « مؤرخو الشرق الأوسط »

(١٤٤) انظر المقدمه التي كتبها الفرد جيوم لترجمته التي نشرها للسيرة بالانكليزية .

(١٤٥) انظر عنهم الجدول رقم (٢) الملحق بهذا المقال

العمل ان ابن اسحق اليه المرجع في المغازي والايام النبوية » [١٤٦] .

ومن المواضيع التي ظلت تلقى العناية في هذه الفترة هو موضوع تفسير القرآن ، الذي بدأ الاهتمام به منذ اوائل العهد الاسلامي ، وتداولته الدراسات ورويت بعض المؤلفات فيه ؛ غير أن من أبرز الكتب المؤلفة فيه والتي وصلتنا هي تفسير مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، أي أنه من رجال هذه الحقبة . وقد ذكر الشافعي ان « الناس عيال على مقاتل في التفسير » [١٤٧]

والمفروض أن كتب التفسير تنظم على أساس واحد ، هو متابعة تنظيم السور والآيات القرآنية ؛ غير أنها تختلف في آرائها وفهمها ومعلوماتها الاضافية . والواقع ان التطور المهم الذي بدت مظاهره في هذه الفترة هو تأليف كتب في مواضيع خاصة من القرآن . فقد ألّف يونس بن حبيب (ت ١٨٣) كتاب «معاني القرآن» [١٤٨] كما ألّف الكسائي (ت ١٩٧) كتاباً بنفس العنوان [١٤٩] ، وكذلك كتب الرواسي شيخ الكسائي كتاباً بنفس العنوان [١٥٠] . والف مؤرج كتاباً في غريب القرآن [١٥١] .

اما في العربية والشعر والنحو فاننا نختم بحثنا بذكر الافذاذ الثلاثة : الخليل بن احمد (ت ١٧٠) مبدع العروض وواضع اساس المعاجم ، والكسائي الذي برز في عدة علوم عربية ، وسيبويه (ت ١٧٩) الذي كان كتابه في النحو الأساس الذي لم يتجرأ احد على عمل ما يفوقه . ان كثرة الابحاث عن هؤلاء الثلاثة تجعلنا نكتفي بالاشارة اليهم دون الدخول في تفاصيل عن دراستهم ، وهم شواهد على أن التصنيف منذ بدايته أظهر غزارة العلم وحسن التنظيم ، علماً بانه ازدهر في الامصار العربية ، وقام على رجال اغلبهم من العرب ، وفي فترة سبقت الترجمة من الثقافات الاجنبية أو على الأقل قبل أن تتثبت الترجمات ويظهر اثرها .

---

(١٤٦) تذكرة الحفاظ ١٧٢/١ ؛ وقد يكون من المهم مقارنة كتاب ابن اسحق بما كتبه البلاذري في الجزء الاول من انساب الاشراف (طبع محمد حميدالله) من حيث المصادر ونطاق البحث والهيكل .

(١٤٧) وفيات الاعيان ٥٦٧/٢

(١٤٨) الفهرست لابن النديم ٤٧

(١٤٩) الفهرست ٣٧ ، ٧٢

(١٥٠) نزهة الألباء ٥٠

(١٥١) الفهرست ٥٤

جدول بالمؤلفين والمصنفين الأولين

(١)

رجال نسبت اليهم بعض المصادر تأليف كـتب
وكانت وفاتهم قبل سنة ١٥٠ ﻫ

أولاً : في الامثال ، والتاريخ، والانساب، والسيرة، والتفسير

سنة الوفاة	إسم المؤلف	اسم الكتاب
٦٠ ؟	صحار العبدي	الأمثال [١]
٦٣ ؟	علاقة بن كرشم	الأمثال (نحو خمسين ورقة) [٢]
٦٥	عبيد بن شرية	الأمثال (وكذلك الملوك الماضين) [٣]
٥٣	زياد بن أبي سفيان	المثالب [٤]
٦٥	دغفل	الأنساب [٥]
١٠٣	صالح بن عمران	غزاة ذات الاباطيل [٦]
١١٤	وهب بن منبه	المغازي ، الملوك المتوّجة [٧]
١٢٤	محمد بن شهاب الزهري	النسب [٨]
١٤١	موسى بن عقبة	السيرة [٩]
١٤٧	عوانة بن الحكم	التاريخ، سيرة معاوية وبني أمية [١٠]
٨٢	سعيد بن جبير	التفسير [١١]
١١٠	الحسن بن ابي الحسن	التفسير [١٢]

(١) الفهرست لابن النديم طبعة محمد تجددي ١٠١
(٢) كذلك ١٠٢ ارشاد الاريب لياقوت ١٩٠/١٢
(٣) كذلك ١٠٥
(٤) كذلك ١٠١
(٥) كذلك ١٠١ النقائض ١٨٩/١
(٦) الفهرست ١٠٣
(٧) ارشاد الاريب ٢٣١/٧ وانظر هوروفتز : المغازي الاولى ومؤلفوها ٢٧ — ٣٦
(٨) جامع بيان العلم ٧٦/١ .
(٩) أنظر ما ذكرته عن كتبه في ص ٢٧ .
(١٠) الفهرست ١٠٣ ابن النديم « ويقال ان هذا الكتاب لمنجاب بن الحارث (تـ ٢٣٠ ﻫ) والصحيح انه لعوانة .
(١١) هذا الاسم ومن يليه من مؤلفي التفسير ذكرهم سزكين : تاريخ التراث العربي
(١٢) انظر ايضاً الفهرست ٣٦ طبقات ابن سعد ٧ — ١٧/١ ، ١٢٧ .

١٠٤	مجاهـــد	التفسير
١٠٥	الضحاك بن مزاحم	التفسير
١١١	عطية بن سعد	التفسير
١٢٨	السدّي	التفسير [١٣]
١٣٥	عطاء	التفسير
١٤٦	محمد بن السائب	التفسير [١٤]
١٤٨	شبل بن عبادة	التفسير
١١٦	مكحول	السنن ، المسائل في الفقه [١٥]
١٣٦	مغيرة بن مقسم	الفرائض [١٦]
١٤٨	إبن أبي ليلى	الفرائض [١٧]

(٢)

أسماء من ذكر علي بن المديني والرامهرمزي والذهبي أنهم اول المصنفين ومن ذكرهم ابن النديم في فصل الفقهاء المحدّثين ، والمالكيين ، وابي حنيفة وأصحابه العراقيين ، ممن ذكرت وفاتهم بين ١٥٠ ــ ٢٠٠ ه وذكر أنهم ألّفوا كتباً

سنة الوفاة	الاسم	المدينة او الاقليم	المصدر [١٨]	الكتب المؤلفه
١٥٠	أبو حنيفة	الكوفة	٣، ٤، ٧	الفقه الأكبر ، العالم والمتعلم

(١٣) انظر ايضاً الفهرست لابن النديم ٥١

(١٤) انظر ايضاً الفهرست ٣٦ وانظر وفيات الاعيان ٢/٥٦٧

(١٥) الفهرست ٢٨٣

(١٦) كذلك ٢٨٢

(١٧) كذلك ٢٥٦

(١٨) تحاشياً للاطالة فان الارقام المذكورة في المصادر ترمز الى ما يلي

١" كتاب العلل لعلي بن المديني .

٢" المحدث الفاصل للرامهرمزي .

٣" تاريخ الاسلام للذهبي ج ٦ ص ٥

٤" الفهرست لابن النديم: فصل « الفقهاء المحدثون »

٥" الفهرست لابن النديم: فصل « اخبار المالكيين وما صنفوه من الكتب »

٦" الفهرست لابن النديم: فصل « ابي حنيفة واصحابه العراقيين »

٧" تذكرة الحفاظ للذهبي رجال الطبقة الرابعة

وقد اعتمدنا في قائمة كتب المصنفين على ما ذكره ابن النديم عند الكلام عنهم وأشرنا في الهامش الى ما ورد ذكره في المصادر الاخرى .

				الرد على القدرية ، رسالة الى البستي ،العلم براًوبحراً
١٥٠	ابن جريج	مكة	١، ٢، ٣، ٤، ٧	السنن ، الطهارة ، الصيام، الصلاة، الزكاة
١٥١	محمد بن اسحاق	المدينة	١، ٧	السيرة والمبتدأ والمغازي ، الخلفاء [19] المغازي ، السنن [20]
١٥٦	محمد بن عبدالرحمن بن أبي ذئب	المدينة	٤، ٧	السنن [21]
١٥٧	سعيد بن أبي عروبة	الكوفة	١، ٢، ٣، ٤، ٧	السنن [22]
١٥٨	زفر بن هذيل	الكوفة	٥	— [23]
١٥٩	الاوزاعي	الشام	١، ٢، ٣، ٤، ٧	السنن في الفقه ، المسائل في الفقه [24]
١٦٠	شعبه بن الحجاج	واسط	١، ٧	
١٦٠	الربيع بن صبيح	البصرة	٢	
١٦١	سفيان الثوري	الكوفة	١، ٢، ٣، ٤	الجامع الكبير ، الجامع الصغير ،الفرائض رسالة الى عباد بن عباد الأرسوفي

(١٩) يذكر الذهبي ان إبن إسحق « مصنف المغازي ، قال ابن ابي عدي : والذي تقرر عليه العمل ان ابن اسحق اليه المرجع في المغازي والايام النبوية » (تذكرة الحفاظ ١٧٣/١)

(٢٠) يقول الذهبي انه « كان اول من صنف باليمن » (تذكرة الحفاظ ١٩١/١) ويقول عنه ابن سمرة « له الجامع المشهور في السنن المنسوب اليه ، وهو اقدم من الموطأ » (طبقات فقهاء اليمن ٦٢، ٧٤)

(٢١) يقول عنه الذهبي « ليس له كتاب » (تذكرة الحفاظ ١٩٢/١)

(٢٢) يقول عنه الذهبي « وهو اول من صنف الابواب بالبصرة ، قال احمد بن حنبل لم يكن له كتاب ، انما كان يحفظ » (تذكرة الحفاظ ١٧٨/١)

(٢٣) اكتفى ابن النديم بالقول عن زفر بالقول « وله من الكتب » دون ان يذكر اسم الكتاب .

(٢٤) « قال ابو زرعة الدمشقي : كانت صنعته الكتابة والترسل ، فرسائله تؤثر (تذكرة الحفاظ ١٧٨/١)

سنة الوفاة	الاسم	المدينة او الاقليم	المصدر	الكتب المؤلفة
١٦١	زائدة بن قدامة	الكوفة	٤	السنن ، القراءات ، التفسير الزهد ، المناقب
١٦٥	حمّاد بن سلمة	البصرة	١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧	السنن [٢٥]
١٦٨	عبدالعزيز الماجشون	المدينة	٥ ، ٧	كتاب كبير [٢٦]
١٧٢	عبدالرحمن بن زيد بن أسلم	المدينة	٤ ، ٧	التفسير ، الناسخ والمنسوخ
١٧٤	عبدالرحمن بن أبي الزناد	المدينة	٤ ، ٧	الفرائض ، رأي الفقهاء السبعة من اهل المدينة
١٧٥	أبو عوانة	واسط	١ ، ٧	ـ [٢٧]
١٧٥	الليث بن سعد	مصر	٣ ، ٥ ، ٧	التاريخ ، مسائل الفقه [٢٨]
١٧٦	عبدالملك بن محمد بن حزم	المدينة	٤	المغازي
١٧٩	مالك بن أنس	المدينة	١ ، ٣ ، ٥ ، ٧	الموطأ ، رسالته الى الرشيد
١٨١	عبدالله بن المبارك	خراسان	١ ، ٢ ، ٤ ، ٧	ـ [٢٩]
١٨٢	أبو يوسف	الكوفة	٣ ، ٦ ، ٧	الخراج
١٨٣	هشيم بن بشير	واسط	١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧	السنن في الفقه ، المغازي
١٨٣	يحيى بن زكريا بن أبي زائدة	الكوفة	١ ، ٢ ، ٤ ، ٧	السنن [٣٠]
١٨٤	ابراهيم بن محمد	المدينة	٧	ـ [٣١]
١٨٨	عبدالرحمن بن مهدي	البصرة	١ ، ٧	ـ

(٢٥) ينقل الذهبي عن ابي داود انه ليس لحماد كتاب الاكتاب قيس بن مسعود ، ولكنه يذكر « قلت هو أول من صنف التصانيف مع ابن أبي عروبة » (تذكرة الحفاظ ٢٠٣/١).

(٢٦) يقول الذهبي « قال احمد بن كامل له كتب مصنفة رواها عنه ابن وهب » (تذكرة الحفاظ ٢٢٣/١)

(٢٧) يقول الذهبي « له كتب » ولم يسمها (تذكرة الحفاظ ٢٣٦/١ – ٧)

(٢٨) يقول الذهبي عنه « امام حجة كثير التصانيف » (تذكرة الحفاظ ٢٢٦/١)

(٢٩) يقول الذهبي عنه « دون العلم في الابواب والفقه وفي الغزو والزهد » (تذكرة الحفاظ ٢٢٦/١)

(٣٠) يقول الذهبي عنه « كان صاحب تصانيف » (تذكرة الحفاظ ٢٦٨/١).

(٣١) يقول عنه الذهبي « عمل موطأ كبيراً لكنه ضعيف عند الجماعة » (تذكرة الحفاظ ٢٤٧/١)

١٨٨	محمد بن الحسن الشيباني	الكوفة	٧،٦،٤	(عدة كتب فقهية)
١٨٩	جرير بن عبدالحميد	الري	٧،٢	
١٩٣	إسماعيل بن علّية	الكوفة	٧،٤	التفسير ، الطهارة ، الصلاة المناسك
١٩٤	الوليد بن مسلم	الشام	٧،٤،٢	السنن في الفقه ، المغازي [٣٢]
١٩٥	محمد بن فضيل الضبي	الكوفة	٧،٤،٢	السنن ، التفسير ، الصيام ، الدعاء
١٩٥	اسحق الأزرق	واسط	٤	المناسك ، الصلاة ، القراءات
١٩٧	عبدالله بن وهب	مصر	٥،٣	[٣٣]
١٩٧	وكيع بن الجراح	الكوفة	٧،٤،٢،١	السنن [٣٤]
١٩٨	سفيان بن عيينة	مكة	٧،٤،٢،١	له تفسير معروف [٣٥]

(٣)

مؤلفون ذكرهم ابن النديم وذكر أسماء كتبهم وحدد وفاتهم بين ١٤٩ — ٢٠٠ ه

سنة الوفاة	اسم المؤلف	مكان ذكرها في الفهرست	اسم المؤلفات
١٤٩	عيسى بن عمر الثقفي	٤٧	الجامع ، المكمل
١٥٠	مقاتل بن سليمان	٣٩،٣٦	التفسير ، المتشابه
١٥٦	حمزه الزّيات	٣٢	الفرائض ، قراءة حمزة
(زمن المنصور)	الفقعسي	٧٣	مآثر بني اسد
١٧٠	الخليل بن احمد	٤٨	العين ، النغم ، العروض ، الشواهد ، النقط والشكل ، فائت العين

(٣٢) يذكر الذهبي في تذكرته « صنف التصانيف والتواريخ ، له سبعون كتاباً » (٣٠٣/١)

(٣٣) يذكر الذهبي انه صنف موطأ كبيراً (تذكرة الحفاظ ٣٠٤،٣٠٣/١)

(٣٤) يقول الذهبي « قال ابو داوود ما رئى لوكيع كتاب قط .. وقال احمد بن حنبل عليكم بمصنفات وكيع » (التذكرة ٣٠٨/١)

(٣٥) اشار الذهبي الى تصانيف سفيان (٣١٣/١) وذكر ابن سمرة « جامع سفيان بن عيينة » (طبقات فقهاء اليمن ٧٤)

١٧٠	أبو اليقظان	١٠٧	حلف تميم بعضها بعضاً ، اخبار تميم ، نسب خندف واخبارها ، النسب الكبير ، النوادر .
١٧٩	سيبويه	٥٧	الكتاب
١٨٣	يونس بن حبيب	٤٧	معاني القرآن ، اللغات ، النوادر الكبير ، الامثال ، النوادر الصغير
؟	الرواسي	٥٧	أول من وضع من الكوفيين كتاباً : الفيصل ، التصغير ، معاني القرآن
١٨٩	المفضل الضبي	٧٥	الاختيارات ، الأمثال ، العروض ، معاني الشعر
١٩٠	لقيط المحاربي	١٠٦	السمر ، الحراب واللصوص ، أخبار الجن
١٩٥	مؤرج السدوسي	٥٤	الانواء ، غريب القرآن ، جماهير القبائل المعاني
١٩٧	الكسائي	٧٢	معاني القرآن ، مختصر النحو ، القراءات ، العدد ، النوادر الكبير النوادر الصغير ، مقطوع القرآن وموصوله
(وفد على الرشيد)	ابو شنبل العقيلي	٥١	النوادر حوالي (٣٠٠ ورقة)
(وفد على المهدي)	ابو زياد الكلابي	٥٠	النوادر ، الطرق ، الابل ، خلق الانسان

الجزء الثالث		المجلد الرابع والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي



رمضان المبارك ١٤٠٣ هـ
تمـوز ١٩٨٣ م	٤٥

كتب الهند والعلوم عند العرب

الدكتور صالح أحمد العلي
(رئيس المجمع)

اشارت الكتب الى الصلات الثقافية بين الهند من جهة ، والعراق والمشرق من جهة أخرى. فذكر ابن النديم نقلاً عن كتاب النهمطان ان علماء المشرق تشتتوا بعد فتح الاسكندر بلاد المشرق ، وذهب بعضهم الى الهند ، وانه لما ولي اردشير الحكم « بعث الى بلاد الهند والصين في الكتب التي كانت قِبَلهم ، والى الروم، ونسخ ما كان سقط اليهم ، وتتبع بقايا يسيرة بالعراق ، فجمع ما كان متفرقاً ، وألّف منها ما كان متبايناً ، وفعل ذلك من بعده ابنه سابور ، حتى نسخت تلك الكتب بالفارسية ، فشرحوها وعلموها للناس على مثل ما كانوا أخذوا من جميع تلك العلوم [1] ؛ وذكر الطبري أن سابور الثاني «نقل طبيباً من الهند فأسكنه الكرخ من السوس، فلما مات ورث طبّه أهل السوس ، ولذلك صار أهل تلك الناحيـة أطبّ العجم » [2] غير أنه لم ترد في المصادر إشارة من العهود الاسلامية الى براعة أهل السوس في الطب ، ولم يُذكر اسم طبيب ظهر فيهم ، أو مؤلَّف قاموا بكتابته ، ولعله قصد بذلك أهل جند يسابور التي اشتهرت بعلم الطب وكانت بالقرب من السوس .

ومن كتب الهند التي وصلت الفرس ثم منهم الى العرب كتاب كليلة ودمنة ، واسمه بالهندية « بنج تنتر » وقد « تردد بين الفارسية والهندية ثم

(١) الفهرست ٣٠٠ .
(٢) الطبري ١/٨٤٥ .

العربية والفارسية على ألسنة قوم لايؤمن تغييرهم إيّاه كعبدالله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه . واذا كان فيما زاد لم يَخْلُ عن مثله فيما نقل»[٣] ويذكر ابن ابي اصيبعة ان برزويه الطبيب جلبه من الهند وترجمه الى الفارسية في زمن انوشروان ثم ترجمه ابن المقفع الى العربية بعدئذ[٤] .

وقد اشار الجاحظ في عدة مواضع من كتبه بمعارف الهنود وافادة العرب منها ، ومن ذلك قوله : ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط ، ولبطلت معرفة التضاعيف ، ولعدموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات ، ولو ادركوا ذلك لما ادركوا الابعد ان تغلظ المؤونة وتنتفض المنّة ، ولصاروا في حال معجزة وحسور ، والى حال مضيعة وكلال حدّ ، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الدلالة لكان أربح لهم وارد عليهم ان يصرف ذلك الشغل في ابواب منافع الدين والدنيا »[٥] .

وقال ايضاً « وقد تعلمون مافي الهند من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والصناعات الكثيرة العجيبة »[٦] .

وقال أيضاً « واما الهند فوجدناهم يقدّمون في النجوم والحساب ، ولهم الخط الهندي خاصة ، ويقدّمون في الطب ، ولهم أسرار الطب وعلاج فاحش الأدواء خاصة ، ولهم خرط التماثيل ونحت الصور والأصباغ تتخذ في المحاريب واشباه ذلك ، ولهم الشطرنج وهو اشرف لعبة واكثرها تدبيراً وفطنة ، ولهم السيوف القلعية ، وهم ألعب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها ، ولهم الرُقي النافذة في السموم وفي الاوجاع . ولهم غناء معجب ،

(٣) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة . طبعة ج صيدرآباد ١٢٣ .
(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء : طبعة مكتبة الحياة ٤١٣ .
(٥) الحيوان طبعة عبدالسلام هارون ١٦/١ .
(٦) فخر السودان على البيضان : مجموع رسائل الجاحظ ٢١٢/١ .

ولهم الكنكلة ، وهي وتر واحد يمدّ على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ، ولهم ضروب الرقص والخفة ، ولهم الثقافة عند الثقّاف خاصة ، ولهم معرفة المناصفة ، ولهم السحر والتدخين والدماركة ؛ ولهم خط جامع لحروف اللغات ، وخطوط أيضاً كثيرة ، ولهم شعر كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة والأدب ، وعنهم أخذ كتاب كليلة ودمنة . . . ومن عندهم خرج الفكر وما إذا تكلم به على السم لم يضر ، وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة » (٧) .

وأجمل صاعد بن احمد مكانة علوم الهند وأثرها في علوم العرب فقال « الهند أمة كثيرة القدر ، عظيمة العدد ، فخمة الممالك ، وقد اعترف لها بالحكمة وأقرّ لهـــا بالتبرز في فنون المعارف جميع الملوك السالفة والقرون الماضية . فكانت الهند عند جميع الأمم على ممرّ الدهور وتقادم الازمان معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة ، واهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة ، والأمثال السائرة ، والنتائج الغريبة ، واللطائف العجيبة : فلهذا التحقوا بعلم العدد والاحكام بصناعة الهندسة ، ونالوا الحظ الاوفى والقدح المعلى في معرفة حركات النجوم ، واسرار الفلك ، وسائر العلوم الرياضية .

وبعد هذا فانهم أعلم الناس بصناعة الطب وأبصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات وخواص الموجودات ، ولملوكهم السيرة الفاضلة والملكات المحمودة والسياسات الكاملة .

ولبعد الهند من بلادنا واعتراض الممالك بيننا وبينهم قلّت عندنا تآليفهم ، فلم تصل الينا إلاّ طرف من علومهم ولا وردت علينا الا نبذ من مذاهبهم ولا سمعنا الا بالقليل من علمائهم .

إن مذاهب الهند في علم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم وهو مذهب السند هند ، ومذهب الازجير (الارجبهذ) ومذهب الأركند . ولم

(٧) كذلك ١/٢٢٣-٤ .

يصل إلينا منهم على التحصيل إلاّ مذهب السند هند الذي تقلّده جماعة من الاسلام والّفوا فيه الازياج كمحمد بن ابراهيم الفزاري ، وحبش بن عبدالله البغدادي ، ومحمد بن موسى الخوارزمي والحسين بن محمد المعروف بابن الآدمي وغيرهم ، وتفسير السند هند « الدهر الداهر » كذلك حكى الحسين ابن الآدمي في زيجه .

ومما وصل الينا من علومهم في الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية « نافر » وتفسيره ثمار الحكمة ، فيه اصول اللّحون وجوامع تأليف النغم .

ومما وصل الينا من علومهم من اصلاح الاخلاق وتهذيب النفوس « كليلة ودمنة » الذي جلبه برزويه الحكيم الفارسي من الهند الى انوشروان ابن قباذ بن فيروز ملك الفرس وترجمه له من الهندية الى الفارسية ،ثم ترجمه في الاسلام عبد الله بن المقفع من الفارسية الى اللغة العربية ، وهو كتاب عظيم الفائدة ،شريف الغرض ، جليل المنفعة .

ومما وصل الينا من علومهم في العدد حساب الغبار الذي بسطه ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو أوجز حساب واخصره وأقربه تناولا واسهله مأخذا وابدعه تركيبا ، يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التواليد وبراعة الاختراع .

ومما وصل الينا من نتائج فكرهم الصحيحة ، ومولدات عقولهم السليمة وغرائب صنائعهم الفاضلة الشطرنج[٨] .

المنقولات الأولى

اشارت بعض المصادر الى ان الاتصال العلمي بين الهند والعرب كان منذ

---

(٨) طبقات الامم ١٢-١٤ وقد نقل هذا النص ابن القفطي بعد سطرين من كلام نقله عن كتاب الألوف لابي معشر الفلكي . (اخبار الحكماء ٢٦٦) ، مما قد يدل على ان ابا معشر هو المصدر الاصلي للنص .

اوائل تأسيس الدولة العباسية ، فذكر الطبري نقلا عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن ابيه انه كان يقول « كان المنصور لا يستمرئ طعامه ويشكو من ذلك المتطببين ويسألهم ان يتخذوا له الجوارشنات ، فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه ان يُقِلّ من الطعام ، ويخبرونه ان الجوارشنات تهضم في الحال وتحدث من العلة ما هو اشد منه عليه ، حتى قدم عليه طبيب من اطباء الهند فقال له كما قال له غيره » (٩)

وذكر البيروني ان في زيج الفزاري ويعقوب بن طارق ادوار الكواكب السيارة « مستفادة من الرجل الهندي الذي كان في جملة وفد السند على المنصور » في سنة ١٥٤ (١٠) ، وذكر ايضا انه اطلع على ما ذكره يعقوب بن طارق في كتابه « في تركيب الافلاك عن ابعاد الكواكب» استفادها عن الهندي في سنة ١٦١ » (١١) . ومن المحتمل ان نص البيروني متمم لنص الطبري اي أنه وفد على المنصور من السند وفد سنة ١٥٤ ، وفيه علماء بالنجوم واطباء ، وانهم اقاموا ببغداد ونشروا من علمهم فيها ، رغم ان كلا المصدرين لا يشيران الى اسماء العلماء الهنود في هذا الوفد .

وفي زمن خلافة هارون الرشيد قدم بغداد عدد من اطباء الهند ، ونسب بعض المصادر قدومهم الى البرامكة ، ونسب البعض الآخر قدومهم الى الخليفة نفسه .

فمن المصادر الاولى ابن النديم الذي ذكر « حكى بعض المتكلسين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل الى الهند ليأتي بعقاقير موجودة في بلادهم وان يكتب اليه اديانهم . قال محمد بن اسحق : الذي عنى بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة ، ويوشك ان تكون

(٩) الطبري ٣٨٨/٣ .
(١٠) تحقيق ما للهند ٣٥١ .
(١١) كذلك ٣٩٧ .

هذه الحكاية صحيحة اذا اضفناها الى ما نعرف من امر البرامكة واهتمامهم بأمر الهند واحضار علماء طبها وحكمائها [١٢] .

ويقول الجاحظ « قال معمر ابو الاشعث قلت لبهلة الهندي ايام اجتلب يحيى بن خالد اطباء الهند مثل منكه وبازبكر وقلبرقل وسندباد وفلان وفلان[٣] .

ويذكر ابن النديم ان ابن دهن « كان اليه بيمارستان البرامكة ، نقل الى العربي من اللسان الهندي [١٤] .

ويذكر مسيح الدمشقي في الرسالة الهارونية « اعتل امير المؤمنين هارون الرشيد فبعث الى اطباء الاسلام واليهود والنصارى والمجوس وكنت فيمن دخل عليه ويوحنا بن ماسويه ، وكان جملة عددهم سبع مائة طبيب فلم يتركوا دواء الا وصفوه له ولم ينجح فيه الدواء شيئا ، فبعث الى اطباء الهند فبعث اليه طبيبا يسمى آمضه ؟ وكتب اليه ملك الهند ان كل مرض لا يعرفه هذا الطبيب الذي بعثته اليك فليس له دواء الا الموت ، فأُتي الطبيب في ستين راكبا ، فجعل هذا الدواء لهارون الرشيد فبرىء في ثلاثة ايام باذن الله تعالى . وكان الهندي غير مسلم فلم يزل يعظه ابو بكر الأصم حتى اسلم فاعطى هذا الطبيب اموالا كثيرة فامتنعا منها وقالا له اسلامك عندي خير من الدنيا وما فيها، فلما هم بالانصراف كتب لهما هذا المغيث(؟) وصار من بغداد... سار . قال مسيح فصحبته الى بلاد الهند مع ابي بكر الاصم فبقيت معه ثلاث سنين حتى مهرت في الطب . . هذا المغيث في هذه الرسالة لامير المؤمنين هرون الرشيد [١٥] .

وذكر ابن ابي اصيبعة ان منكه الهندي « كان في أيام الرشيد هارون ،

(١٢) الفهرست ٤٠٥ .

(١٣) البيان والبنين ٩٢/١ .

(١٥) الرسالة الهارونية ، مخطوطة الفاتيكان ٣٠٩ ص ١٩٤ ـ ب .

وسافر من الهند الى العراق في أيامه ، واجتمع به وداواه » ؛ وينقل من كتاب « أخبار الخلفاء والبرامكة » : ان الرشيد اعتل علة صعبة ، فعالجه الاطباء ، فلم يجد من علته إفاقة ، فقال له ابو عمرو الأعجمي : بالهند طبيب يقال له منكه وهو أحد عبّادهم وفلاسفتهم فلو بعث اليه امير المؤمنين فلعل أن يهب له الشفاء على يده ، قال فوجّه الرشيد من حمله ووصله بصلة تعينه على سفره ، فقدم وعالج الرشيد فبرأ من علته بعلاجه » (١٦) .

يتبين من هذه الروايات بجموعها ان الطب الهندي كان يحظى بالتقدير الكبير في زمن هارون الرشيد الذي اعتمد على بعض اطبائهم في علاجه من امراض لم يشفها اطباء العراق ، وان عدداً منهم أُقدم الى بغداد ومارس الطب فيها وان أحدهم ، وهو ابن دهن ، كان يشرف على بيمارستان البرامكة ؛ وان بعض اطباء العراق ذهبوا الى الهند لدراسة الطب فيها .

ويلاحظ ان الجاحظ ذكر أن أحد هؤلاء الاطباء جلب كتاباً في البلاغة ترجم في بغداد الى العربية ، ونقل عن هذه الترجمة نصاً طويلاً في تعريف البلاغة (١٧) . ولعل هؤلاء الاطباء جلبوا كتباً أخرى في غير هذه المواضيع .

نقل كتب الطب :

ذكرت المصادر اسماء بعض الاطباء الهنود الذين قدموا بغداد، او نُقِلَت كتبهم فيها ، واورد بعض المصادر معلومات مستمدة من هؤلاء الاطباء او من كتبهم .

فقد نقل مسيح الدمشقي في الرسالة الهارونية عن فلطس الهندي معلومات عن الطبائع ومايقابلها من النجوم ، والقول فيما يستحب ويجتنب ، وأمارة

(١٦) عيون الانباء ٤٧٥ .

(١٧) البيان والتبيين ١/٩٢-٩٣ ، وهذا الكلام المنسوب لبهلة في البلاغة اورده ايضا ابو هلال العسكري وفسره في كتابه «الصناعتين» ١٩ ، كما نقل منه ابن قتيبة في «عيون الاخبار» ٢/١٧٣ .

المريض ، وأخذ الدواء والحجامة ، والمنازل التي يشرب فيها الدواء [18]

كما نقل عنه وعن جالينوس معلومات في مفاصل الانسان وتجربة اعضائه ، وفي المسرّة الصفراء ، وفي علاجات ضربان العروق ؛ ونقل عنه وعن جالينوس وبقراط عن البلغم والدم والمرّة ، وعن الأغذية النافعة ، وعن المياه [19] . غير أني لم أجد في المصادر الاخرى التي اطلعت عليها ذكراً لهذا الطبيب الذي اكثر من النقل عنه منفرداً او مقترناً بجالينوس وببقراط ، ولم يذكر عن غير الثلاثة نقلاً .

وذكر الجاحظ نقلاً عن مَعْمَر أبي الاشعث « قلت لبهلة ايام اجتلب يحيى بن خالد اطباء الهند مثل منكه ، وباز بكر ، وقلبرقل ، وسندباد ، وفلان وفلان . . . » [20] . ولم اجد في المصادر ذكراً لغير منكة منهم .

اما بهلة فلم تذكره المصادر ، ولكن ذكرت صالح بن بهلة فقد قال عنه ابن ابي اصيبعة انه « متميز من علماء الهند ، وكان خبيراً بالمعالجات التي لهم ، وله قوة وانذارات في تقدمة المعرفة ، وكان بالعراق ايام الرشيد هارون »

ونقـــل يوسف بن ابراهيم الحاسب المعروف بأبن الداية عن احمد بن الداية عن احمد بن رشيد الكاتب مولى سلام الابرش عن سلام أن الرشيد اعد مائدة غداء واستدعى جبريل بن بختيشوع عندما ورد خبر وفاة ابراهيم ابن صالح ، ابن عم الرشيد « فقال جعفر بن يحيى : ياامير المؤمنين ان طب جبريل طب رومي ، وصالح بن بهلة في العلم بطريقة أهل الهند في الطب مثل جبرائيل في العلم بمقالات الروم » ثم ارسل الرشيد صالح بن بهلة ، فتبين له ان ابراهيم

(18) هذه النصوص مذكورة في الرسالة الهارونية بالتتابع ص ٢٢ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩ .

(19) هذه النصوص مذكورة بالتتابع ص ١٥ ، ١٩ ، ٥١ ، ١٦ ، ٢٨ ، ٣٠ .

(20) البيان والتبيين ١/٩٢ .

ابن صالح حيّ لم توافه المنية [٢١] .

ولم أجد في المصادر ذكراً لكتاب ترجمه صالح بن بهلة .

اما منكه فقد ذكره ابن النديم في اسماء النقلة الهند وقال « منكه الهندي وكان في جملة اسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي ، ينقل من الهندية الى العربية [٢٢] وذكر ايضاً انه ؛ فسر لاسحاق بن سليمان كتاب اسماء عقاقير الهند ، وان يحيى بن خالد (البرمكي) امر بتفسير كتاب سسرد له من البيمارستان ، وهو يجري مجرى الكناش [٢٣] .

وذكر ابن ابي اصيبعة ان منكه « كان متقناً لغة الهند ولغة الفرس ، وهو الذي نقل كتاب شاناق الى العربية » [٢٤] ؛ غير انه لم يذكر اسم كتاب شاناق الذي ترجمه منكه ، علماً بأن ابن النديم ذكر ان لشاناق كتاباً في التدبير وفي الأشربة [٢٥] ، و « في امر تدبير الحرب ومايبنغي للملك ان يتخذ من الرجال في امر الاساورة والطعام والسم » [٢٦] .

ان اسحق بن سليمان بن علي الهاشمي هو من كبار رجال الاسرة العباسية . تزوج العالية ابنة الخليفة المهدي [٢٧] ، وولي للرشيد المدينة سنة ١٧٠ ، ثم ولي السند ومكران سنة ١٧٤ ، ثم ولي مصر سنة ١٧٧ ، وولى للأمين حمص وارمينية [٢٨] ؛ ويبدو انه استقر به المقام بعد ذلك ببغداد ، وكان معنياً

(٢١) عيون الانباء ٤٧٤ وقد نقل هذه المعلومات القفطي في «اخبار الحكماء» ٢١٥ — ٢١٧ .
(٢٢) الفهرست ٣٠٥ .
(٢٣) الفهرست ٣٦٠ .
(٢٤) عيون الانباء ٤٧٥ .
(٢٥) الفهرست ٣٦٥ .
(٢٦) الفهرست ٣٧٧ .
(٢٧) الطبري ٣/٤٤٣ .
(٢٨) انظر الطبري ٣/٦٠٣ ؛ ٦١١ ؛ ٦٢٩ ، ٧٧٩ ، ٧٩٥ وانظر البلاذري : انساب الاشراف ٣/٩٤ ؛ تاريخ بغداد للخطيب ٤/٣٢٩ ؛ تاريخ خليفة ٤٩٩ ، ٥٠٠ .

بالاخبار ، وذكر المسعودي ان له «كتاب التاريخ والسير»[٢٩] واشار طيفور الى عنايته بالاخبار حيث قال عن دخول المأمون بغداد «وذكر جماعة من الرواة منهم اسحق بن سليمان الهاشمي وابو حسان الزيادي وابن شبانة المروزي فيما حملوا من كتب التاريخ واتفقوا جميعاً عليه ان دخول المأمون في بغداد..»[٣٠] وذكر في موضع آخر « قال ابو حسان الزيادي والهاشمي والخوارزمي وجميع اصحاب التواريخ كتب المأمون الى عبدالله بن طاهر . . .[٣١] ؟ وذكر حنين بن اسحق في كتابه عن كتب جالينوس، عدداً من كتب جالينوس ترجمت لاسحق ، الامر الذي يدل على رعايته العلم ، وعنايته بالترجمة ، وامتداد حياته الى ما بعد خلافة المأمون . وقد يدل هذا ايضاً على ان منكه كان حياً الى زمن المأمون على الاقل حيث استقر اسحق ببغداد .

ذكرنا اعلاه قول ابن ابي اصيبعة ان منكه نقل الى العربية كتاب السموم لشاناق . فقد ذكر ابن اصيبعة ان شاناق من المشهورين من اطباء الهند « وكانت له معالجات وتجارب كثيرة في صناعة الطب وتفنن في العلوم وفي الحكمة ؛ متقدماً عند ملوك الهند » وذكر ايضاً « لشاناق من الكتب كتاب السموم ، خمس مقالات نقله من اللسان الهندي الى اللسان الفارسي منكه الهندي ، وكان المتولي لنقله بالخط الفارسي رجل يعرف بابي حاتم البلخي ، فسّره ليحيى بن خالد بن برمك ، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه ،وكان المتولى قراءته على المأمون . (وله ايضاً) كتاب البيطرة ، كتاب الجوهر المنتحل ، وألفه لبعض ملوك زمانه ، وكان يقال لذلك الملك ابن قانص الهندي» ونقل ابن ابي اصيبعة فقرة طويلة من كتاب الجوهر المنتحل[٣٢].

(٢٩) مروج الذهب ٥٣/١ طبعة صادر .
(٣٠) بغداد ١ .
(٣١) بغداد ٧٩ ، وانظر فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ٥٠٠/١ .
(٣٢) عيون الانباء ٤٧٤ .

ان «شاناق» هو الاسم الذي اطلقه العرب على كاناكيا الذي كان وزيراً للملك كاندراجوبتا ، وكانت وفاته سنة ٣٢٠ م . اما كتابه في السموم فتوجد منه مخطوطات في مكتبات برلين، والقاهرة ، وبيروت ، والمتحف العراقي ببغداد، ومكتبتي اسعد افندي وشهيد علي في استامبول . وقد نشر عنه ابحاثاً عدد من المستشرقين ومنهم موللر ، وجولي، وروسكا ، ودنلوب . ثم قام بتينا شتراوس بطبع الكتاب في سنة ١٩٣٥ [٣٣] .

ذكرنا ان يحيى بن خالد البرمكي امر منكه بتفسير كتاب سسرد له من البيمارستان ، وهو يجري مجرى الكناش؛ وكتاب سسرد ذكره اليعقوبي على رأس قائمة كتب الطب الهندية ، وقال « الكتاب الذي يسمى سسرد ، فيه علامات الادواء ومعرفة علاجها وادويتها [٣٤] ، كما انه احد الكتب التي اعتمدها على بن ربن الطبري في المقالة الرابعة من كتابه « فردوس الحكمة » [٣٥] وصرح بنقله عن سسرد في مكانين [٣٦] ان سسرد هو اللفظ العربي لسوشروتا الذي عاش في القرن الرابع الميلادي ، واسم كتابه سمهوتا ، ولعله نفس كتاب « المجمل والمفصل » الذي ذكر البيروني انه لسسرد وجاء فيه انه ذكر فيه حجر الياقوت وانه استعمل ما يقطر منه من الماء في علاجاته ، وقال ان الذي يرشح من هذه الحرارة نافع من الحميات وارواح السوء [٣٧] . ولم يرد في الكتب العربية نقل منه وقد نشر كفيرو ج كنا حلال مشاجراتنا ترجمة انكليزية لهذا الكتاب [٣٨] .

ذكرنا من قبل ان ابن النديم ذكر أن منكه فَسّر لاسحاق بن سليمان

(٣٣) انظر تفاصيل ذلك في كتاب «الطب في الاسلام» لمانفريد اولمان .
(٣٤) تاريخ اليعقوبي ٧٤/١ طبعة النجف .
(٣٥) ص ٥٥٧ .
(٣٦) ص ٥٥٨ ، ٦٦٢ .
(٣٧) الجماهر في معرفة الجواهر ٨٠ .
(٣٨) نشرت في المجلد ٣٠ من «دراسات جوفامبا السنكريتية فارناس ١٩٦٣» .

كتاب « اسماء عقاقير الهند» [٣٩] ومن الواضح ان هذا الكتاب هو الذي ذكره اليعقوبي من كتب الهند في الطب وسمّاه « كتاب اسماء العقار ، كل عقار باسماء عشرة » [٤٠] . وتدل كلمة « فَسّر » على ان منكه ترجم هذا الكتاب ولكنه لم يذكر اسم مؤلفه ، ويدل اسم الكتاب على انه في الأدوية المفردة ، ولعله هو نفس الكتاب الذي سماه الرازي « الاسماء الهندية » ، ونقل عنه نصاً دون ان يذكر اسم مؤلفه [٤١] .

اشار الجاحظ الى اطباء الهند الذين جلبهم يحيى بن خالد ، وسمى منهم منكه وبازبكر وقلبرقل وسندباد [٤٣] ، ولم يذكر مؤلفاتهم .

ذكر اليعقوبي ان اهل الهند « قولهم في الطب المقدم ، ولهم فيه :

١– الكتاب الذي يسمى سسرد ، فيه علامات الادواء ومعرفة علاجها وادويتها .

٢– كتاب شرك .

٣– كتاب ندان في علامات اربعمائة واربعة ادواء معرفتها بغير علاج .

٤– كتاب سندهشار وتفسيره صورة النجح .

٥– وكتاب فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحار والبارد وقوى الادوية وتفصيل السنة .

٦– وكتاب اسماء العقار ، كل عقار باسماء عشرة.

ولهم غير ذلك من كتب الطب .

---

(٣٩) الفهرست ٣٠٥ .

(٤٠) التاريخ ١/٧٤ .

(٤١) الحاوي ٢١/٣٦٤ .

(٤٢) البيان والتبيين ١/٩٣ .

(٤٣) التاريخ ١/٧٤–٧٥ وقد نقل ابن ابي اصبيعة هذه القائمة دون ان يشير الى مصدره : عيون الانباء ٤٧٤ .

وخصّ علي بن ربن الطبري في كتابه « فردوس الحكمة » المقالة الرابعة في جوامع كتب الهند وهي ستة وثلاثون باباً ، وذكر من اطباء الهند الذين اعتمد عليهم كتب جرك ، وسسرد ، واشتانقهري [٤٤] .

وعقد ابن النديم فصلا باسماء كتب الهند في الطب الموجودة بلغة العرب ذكر فيها :

١- كتاب سسرد عشر مقالات ، امر يحيى بن خالد بتفسيره لمنكه الهندي في البيمارستان ، ويجري مجرى الكناش .

٢- كتاب سندستان ، معناه صفوة النجح تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان

٣- كتاب اسماء عقاقير الهند فسّره منكه لاسحق بن سليمان .

٤- كتاب سيركث فسّره عبد الله بن علي من الفارسي الى العربي لانه اولا نقل من الهندي الى الفارسي .

٥- كتاب استانكر الجامع تفسير ابن دهن

٦- كتاب مختصر الهند في العقاقير

٧- كتاب علاجات الحبالى للهند

٨- كتاب نوقشتل فيه مائة داء ومائة دواء

٩- كتاب دويني (روسا) الهندية في علاجات النساء

١٠- كتاب السكر للهند .

١١- كتاب التوهم في الامراض والعلل ليوقشتل الهندي .

١٢- كتاب راسي (الهندي في اجناس وسمومها) [٤٥] .

(٤٤) فردوس الحكمة ٥٥٧ .

(٤٥) الفهرست ٣٦٠ ، وذكر ابن ابي اصيبعة اسماء الكتب الثمانية الاخيرة بعد ذكره اسماء ما نقله عن اليعقوبي .

ولعل الكتاب الاخير هو نفس كتاب (اجناس الحيات لناقل الهندي [٤٦] ولم ترد في الكتب الاخرى اشارات الى الكتب السبعة الاخيرة . وذكر ابن النديم في مواضع اخرى من كتابه « كتاب السمومات للهند » و « كتاب شاناق في التدبير ، وكتاب آخر في الاشربة» [٤٧] و (شاناق الهندي من امر تدبير الحرب ومايبنغي للسلك ان يتخذ من الرجال من امر الاساورة ، والطعام والسم » [٤٨] .

ان قائمة الكتب الهندية التي ذكرها اليعقوبي لها اهمية خاصة من حيث أنها أقدم قائمة ، علماً بانه اشار الى انها غيرمستوعبة وان « للهند غير ذلك من الكتب » . ومن الواضح ان هذه القائمة مقتضبة ، فلم تذكر اسماء مؤلفي بعضها ولم تذكر اسماء من نقلها الى العربية . وهذه الملاحظات تنطبق على ما ذكره على بن ربن الذي يتميز بنقله نصوصاً ومعلومات عن كتب .

تتميز قائمة ابن النديم بذكرها اسماء مؤلفي هذه الكتب وناقليها الى العربية وقد ذكرنا منهما كتاب شاناق في السموم ، وكتاب سسرد في العلاجات ، وكتاب اسماء العقار ، واشرنا الى انهذه الكتب نقلت في زمن خلافة الرشيد ، فهي من اقدم كتب الهند التي نقلت الى العربية .

اما الكتاب الذي سماه سند هشار ، فقد ذكره ابنالنديم باسم « سندستان معناه صفوة النجح ، وقال انه « تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان »، واسم الكتاب بالهندية سد هشارنا [٤٩]، وذكره الرازي في الحاوي « سند هشار » ونقل عنه نصوصاً كثيرة (١-١٥٥ ؛ ٢-٣٧٧ ؛ ٣-١٠٥ ؛ ٤-١٧ ؛

(٤٦) الفهرست ٣٧٩ .
(٤٧) الفهرست ٣٦٥ .
(٤٨) الفهرست ٣٧٧ .
(٤٨) الفهرست ٣٧٧ .
(٤٩) انظر عنه مقال ستنزلر في مجلة الاستشراق الالمانية ZDMG م ١١ سنة ١٨٥٧ ص ٣٢٧ .

٥–١٦٨ ؛ ٦–٣١ ، ٢٤٩ ؛ ٧–٢٤ ، ٣٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ؛ ٨–٥٥ ،
١٠–٣٠٤ ، ٣٠٦ ؛ ١١–١٠ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ١٩٣ ؛ ١٢–٩٠ ، ١٣٢ ؛
١٧–٨٤ ؛ ٢٠–١١ ، ٢١٨ ، ٢٩٨ ، ٣١٩ ؛ ٣٢٨ ، ٣٦٣ ، ٥٤٠ ، ٢١–٩
٦١–٣٠١٦ ، ٤١٠ ، ٤٧٠ ، ٥٠٩ ، ٥٥٢ ، ٥٧١ ، ٥٩ ، ٦٠٤ ، ٦٢٢،
٦٤٢ ؛ ٢٣ —— ٣١٢ ؛ ، ٢٣ – ٢ ٢٥–٢٠٠–٢٥٠ [٥٠].

وذكر ابن النديم ان ابن دهن فسّر أيضاً كتاب اشتانكر الجامع [٥١] واصل اسمه بالهندية « اشتانجا هردايا سمهتا » ومؤلفه فاجباتا الذي عاش في القرن السابع الميلادي ؛ ولم اجد في كتاب الحاوى اشارة صريحة الى نقله من هذا الكتاب [٥٢] . ومن الواضح انه نفس « اشتا نقهري الذي ذكر علي بن ربن الطبري انه ممن اعتمد على كتبهم الهندية [٣٥] .

ان الكتاب الثاني الذي ذكره اليعقوبي من كتب الهند هو كتاب شرك ، ومن الواضح انه نفس ما ذكره علي بن ربن الطبري باسم « جرك » [٥٤] ، وكان

(٥٠) ذكر كل من اولمان في كتابه «الطب في الاسلام» ، وسزكين في كتابه عن تاريخ التراث العربي (الجزء الثالث من الطبعة الالمانية) ارقام اجزاء وصفحات الحاوي التي نصت على النقل من سندهشار، وذكر اولمان ارقام الصفحات التي ورد فيها ذكر سندهشار في كتاب ابن البيطار ، غير انه تبين بعد التدقيق ان الارقام التي ذكرها كل من اولمان وسزكين عن اماكن الاشارة في الحاوي الى كتاب سندهشار ، والى بقية الكتب الهندية ، هي غير دقيقة وخاصة فيما يتعلق بالاجزاء الثلاثة الاولى ، كما انهما لم يذكرا ما جاء في الجزئين الثاني والعشرين والثالث والعشرين ولذلك ذكرت في هذا المقال ارقام الاجزاء والصفحات التي تأكدت من ذكر كل كتاب فيها ، وفيها اختلاف عما اورداه .

(٥١) الفهرست ٣٦٠ .

(٥٢) ذكر اولمان ان الرازي نقل عنه في الحاوي ٢/٦٥ ، ٢٥٢ ، ٣١٧ ؛ ١٤/ ٥٥) غير اني لم اجد في هذه الصفحات ذكرا له او لاي كتاب هندي .

(٥٣) فردوس الحكمة ٥٥٧ .

(٥٤) فردوس الحكمة ٥٥٧ .

من مصادره في ما عرضه عن آراء الهنود ؛ وهو نفس الكتاب الذي سماه ابن النديم « سركث » وذكر أن عبدالله بن علي فسره من الفارسي الى العربي ، لانه اولاً نقل من الهندي الى الفارسي (٥٥) .

ان جرك هو الاسم الذي اطلقه العرب على الطبيب الهندي كاركا سامنا الذي عاش في القرن الثاني الميلاد . ولعل نقله الى الفارسية قد تم في زمن الساسانيين ، لانه لم يُعرف من عنى بالنقل الى الفارسية بعد الإسلام ، اما عبدالله ابن علي ، فلعله هو عبدالله الطيفوري وهو طبيب ولد في بعض قرى كسكر وكان مقرّبا للخليفة موسى الهادي ، وخلف ولداً وحفيداً اشتهرا بالطب ايضاً (٥٦) ولعل ابن النديم كان يشير الى ابنه بقوله « الطيفوري » ونقل له حنين عدة كتب في الطب ، وكان متقدماً فاضلاً خادماً للخلفاء (٥٧) .

قدّم البيروني معلومات وافية عن جرك ، فقال للهند « كتاب يعرف بصاحبه وهو جرك ، يقدمونه على كتبهم في الطب ، ويعتقدون فيه انه كان رشا في دوائر الادلى ، وكان اسمه اكن بيش ، ثم سمى جرك ، اي العاقل لما حصل الطب من الأوائل ، اولادسوتر ، وكانوا رشين ، وهؤلاء اخذوه عن اندر ، واخذه اندر من أشوني طبيب أحد ديو ، واخذه هذا من برجابيت وهو براهم الاول ، وقد نقل هذا الكتاب للبرامكة الى العربي » (٥٨) وقد ذكر ان « في كتاب جرك من هذه الاوزان ما سأحكيه ناقلاً من النسخة العربية لم اتلقفه من اسان (٥٩) ، كما اشار الى ما نقله عنه علي بن ربن (٦٠) .

(٥٥) الفهرست ٣٦٠ .
(٥٦) عيون الانباء ١٢٢ ـ ٦ .
(٥٧) الفهرست ٣٥٠ .
(٥٨) تحقيق ما للهند ١٢٣ .
(٥٩) تحقيق ما للهند ١٢٦ .
(٦٠) تحقيق ما للهند ٣٢١ ، وانظر عيون الانباء ٤٧٣ .

كان كتاب شرك من مصادر الرازي الذي صرح في كتابه الحاوى بنقله عن شرك في معظم اجزاء الكتاب (١ــ٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٨١ ، ٢٧٤ ، ٤١٥ ؛ ٢ــ١١٥ ، ٢١٤ ؛ ٣ــ٢٢ ، ٦٩ ، ٢١١ ؛ ٥ــ٥٥ ، ١٨٢ ؛ ٧ــ ٢٤، ٣٦ ، ١٩٨ ،٢٠٦؛ ١٠ ــ١٠٣ ،١٣١، ٢٨٣ ؛ ٣٠٥. ، ١١ــ٥٨، ١٤٨ ؛ ١٢ــ٧٢ ؛ ١٤ــ٢٦ ، ٥٠ ، ٩٠ ؛ ١٦ــ٦٣ ، ٢٣١ ؛ ١٧ــ٨٤ ؛ ١٩ــ٢٥٥ ، ٢٨٢ ؛ ٢٠ــ١٠٥ ، ٢١٦ ، ٥٧ ؛ ٢١ــ٢٣٨ ، ٣٢٩ ؛ ٢٢ــ٣٠؛ ٢٣ــ١ــ٣٠ ، ٣٢ ؛ ٢٣س ــ ٨ ، ٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٧ .

اما الكتاب الثالث الذي ذكره اليعقوبي من كتب الهند فهو « كتاب ندان في علامات اربعمائة واربعة ادواء ، ومعرفتها بغير علاج »[٦١] . وقد اشار الى هذا الكتاب علي بن ربن ، وصرح بنقله منه[٦٢] . والاسم الهندي لمؤلف هذا الكتاب هو مادافان نادن ، عاش في القرن السابع الميلادي .

ذكر الرازي في كتاب « الحاوي » انه نقل من أطرى (٨ــ٢٠٦ ؛ ١٠ــ١٧٠) ومن شرناق (٢ــ٢١٨) ومن الكناش الفارسي الهندي (١ــ٤٩٣؛ ١١ــ٧٧ ، ٨٧) ؛ ومن كتاب هندي (٣ــ٢١٠ ؛ ٨ــ٢٠٥ ؛ ٩ــ١٢٦ ؛ ١٠ــ١٨ ، ٣١٣ ، ٣٣١ ، ٥١ ؛ ٢٠ــ٩ ؛ ٢١ــ٦٣٧ ؛ ٢٣ــ١ــ١٤٠ ، ٢٣ــ٢ــ١١٤ ؛ ١٤٨) من كتب الهند (٥ــ١٧٩ ؛ ٦ــ٣٠ ؛ ٤٧ ، ٢١٤ ، ٢٥٤ ؛ ١١ــ ١٧ ، ٦٥ ، ٩٣ ، ٢٥٢ ، ٣١٧ ؛ ١٢ ــ ٢١٩ ؛ ١٥ ــ ٥٧) غير انه لم يذكر اسماء هذه الكتب او اسماء مؤلفيها .

يتبين مما تقدم ان الطب في الهند كما يتجلى من سير اطبائه والمؤلفات التي نقلت الى العربية منه ، كانت له مكانة كبيرة في بغداد في صدر الخلافة

---

(٦١) فردوس الحكمة ٥٥٨ ، ٥٦٢ .

(٦٢) فردوس الحكمة ٥٦٣ .

العباسية ، وان هذه المكانة دامت حتى القرن الثالث الهجري حيث حل محله الطب الاغريقي بعد ازدياد ترجمة الكتب من الاغريقية وخاصة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (٦٣) .

نقل كتب الفلك :

عني اهل الهند بعلم الفلك والنجوم فكان « علم النجوم فيهم أشهر « من الطب ، لتعلق أمور الملة به » (٦٤) وقد ألف عدد من علمائهم كتباً في أحكام النجوم « فأن لكل واحد من ماندب ، وبراشر ، وكرك ، وبراهم ، وبلبهدر ، ودبيانت ، وبراهمهر كتاب سنكهت ، وتفسيره المجموع ، يشتمل على نبف من كل شرع التذكرة السفربة ، واحداث الجو ، وامور الدول ، والاختيارات ، ثم الفراسة ، والتعبير ، والزجر ، وعلماؤهم به مؤمنون » (٦٥) .

واشار عدد من المؤلفين العرب الى تقدم علم الفلك عند أهل الهند والى

(٦٣) للاستزادة من المعلومات عن علاقة الطب الهندي بالعربي يمكن الرجوع الى الدراسات التالية ، وما فيها من اشارات الى الدراسات الموسعة في بعض تفاصيل الموضوع :

1 - A. Muller : Arabische Quellin Zur Geschichte der Indischen Medizin : ZDMG 14 1880 PP. 465 — 556 .

2 - M. Meyerhof : On Translation of Greek and Indian Science to the Arabs : Islamic Culture 1937 PP. 17 — 29 .

3 - M. Siddiqi : Indian Medical Science among the Ancient Arabs. Indo - Asian Culture 5. 1957 PP. 374 — 386.

4 - M. Ullman Medicin en Islam 1972 PP. 203 — 6 .

5 - F. Sezgin. Geschichte der Arabischen Schriftum III PP.

(٦٤) البيروني : تحقيق ما للهند ١١٨ .

(٦٥) كذلك ١٢١ .

مكانته في تطور علم الفلك عند العرب ، فقال اليعقوبي « والهند أصحاب حكمة ونظر ، وهم يفوقون الناس في كل حكمة ، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل ، وكتابهم فيه السند هند الذي اشتق كل علم من علوم مما تكلم فيه اليونانيون والفرس وغيرهم »(٦٦) .

يقول صاعد بن أحمد « ان مذاهب الهند في علم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم ، هو مذهب السند هند ، ومذهب الازجير (الارجبهد) ، ومذهب الأركند.. يقول اصحاب السند هند ان الكواكب السبعة واوجاتها وجوزهراتها تجتمع كلها في رأس الحمل خاصة في كل اربعة الف الف سنة وثلاثمائة الف الف سنة وعشرين الف الف سنة شمسية ، ويسمون هذه المدة مدة العالم ، لانهم يزعمون ان الكواكب وأوجاتها وجوزهراتها متى اجتمعت في رأس الحمل فسد جميع المكونات في الأرض وبقى العالم السفلي خراباً دهراً طويلاً حتى تتفرق الكواكب والأوجات والجوزهرات في البروج . فاذا كان كذلك بدأ الكون وعادت حالة العالم السفلى الى الأمر الاول ، هكذا أبداً الى غير غاية عندهم . ولكل واحد من الكواكب والأوجات والجوزهات أدوار ما في هذه التي هي عندهم بمدة العالم ، قد ذكرتها في كتابي المؤلف لاصلاح حركات النجوم .

اما أصحاب الأزجير فانهم وافقوا أصحاب السند هند إلا عدد مدة العالم ، فان مدتهم التي ذكروها أن الكواكب وأوجاتها وجوزهراتها تجتمع عندهم في رأس الحمل هي جزء من الف من مدة السند هند ، وذلك عندهم تفسير الأزجير .

أما اصحاب الأركند فانهم خالفوا الفرقتين الأولتين من حركات الكواكب وفي مدة العالم خلافاً لم يبلغني حقيقته(٦٧) .

(٦٦) التاريخ ١/٧٤ .
(٦٧) طبقات الأمم ١٣ ، وانظر البدء والتاريخ للمقدسي ١٤٦/٢ .

فأما السند هند فان البيروني يقول « السند هند مشتق من السد هانتا ، أي المستقيم الذي لايعوج ولا يتغير فهو صفة تطلق على كل ماعلت رتبته عندهم من علم حساب النجوم »[٦٨] ويقول المسعودي ان السند هند « هو الكتاب الجامع لعلم الافلاك والنجوم والحساب وغير ذلك من امر العالم[٦٩] » ، ويقول صاعد « ان السند هند معناه الدهر الداهر »[٧٠] .

ويقول البيروني « والمستعمل بالعربية هو كتاب اسمه «براهمستهطسد هانت معناه كتاب الهينة بزصحح المنسوب الى برهم ،وهو يتكون من ٢٤ باباً»[٧١] وقد الف في سنة ٧ ه وجاء به رجل من وفد أهل السند الذين قدموا الى بغداد في سنة ١٥٤[٧٢] .

وذكر صاعد أن الحسين بن محمد بن حميد المعروف بابن الآدمي ذكر في تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد أنه قدم على الخليفة المنصور في سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند هند في حركات النجوم مع تعاديل معلومة على كردجات محسوبة لنصف نصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع وغير ذلك في كتاب يحتوي على اثني عشر باباً ، وذكر أنه اختصره من كردجات منسوبة الى ملك من ملوك الهند يسمى قبغر ، وكانت محسوبة لدقيقة ، فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية ، وان يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً من حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري ، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون بالسند هند الكبير ، وتفسير السند هند باللغة

(٦٨) تحقيق ما للهند ١١٨ .
(٦٩) التنبيه والاشراف ١٨٨ .
(٧٠) طبقات الأمم ١٣ ، ٥٠ .
(٧١) تحقيق ما للهند ٧٤ .
(٧٢) تحقيق ما للهند ٣٩٧ .

الهندية الدهر الداهر ، فكان أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام الخليفة المأمون ، فاختصره ابو جعفر ابن موسى الخوارزمي وعمل منه زيجه المشهور ببلاد الاسلام ، وعدل فيه على أوساط السند هند وخالفه في التعاديل والميل ، فحصل تعاديله على مذهب الفرس ، وميل الشمس فيه على مذهب بطليموس ، واخترع فيه من أنواع التقريب أبواباً حسنة لاتفي بما احتوى عليه من الخطأ البين الدال على ضعفه في الهندسة وبعده عن التحقيق في علم الهيئة ، فاستحسنه أهل ذلك الزمان من اصحاب السند هند طاروا به كل مطير (!) ومازال نافعاً عند أهل العناية بالتعديل الى زماننا هذا [٧٣] .

ويقول أيضاً إن مذهب السند هند « هو المذهب الذي تقلده جماعة في الاسلام وألفوا فيه الأزياج كمحمد بن ابراهيم القزاري وحبش بن عبدالله البغدادي ومحمد بن موسى الخوارزمي والحسين بن محمد المعروف بابن الآدمي وغيرهم [٧٤] .

كان زيج السند هند معتمد كل من الفزاري ويعقوب بن طارق في مؤلفيهما عن الأزياج . فأما الفزاري فهو محمد بن ابراهيم بن حبيب بن سليمان بن سمرة بن حبيب ، كان جدّه سمرة من كبار رجال البصرة في الدولة الاموية [٧٥] ، وكان محمد شارك في تخطيط بغداد ، وقال عنه ابن النديم « هو أول من عمل في الاسلام اصطرلاباً ، وعمل مبطحاً ومسطحاً ، وله من الكتب : كتاب القصيدة في علم النجوم ، كتاب المقياس للزوال ، كتاب الزيج على سني العرب ، كتاب العمل بالاصطرلاب وهو ذات الحلق . وكتاب العمل بالاصطرلاب المسطح » [٧٦] واشارة البيروني الى اقتباسه من

(٧٣) طبقات الأمم ٤٩ ـ ٥٠ وانظر تاريخ الحكماء للقفطي ٢٧١ .
(٧٤) طبقات الامم ١٣ .
(٧٥) جمهرة النسب لابن حزم ٢٥٩ .
(٧٦) الفهرست ٣٣٢ .

الهند في عدة مواضع من زيجه ، فيما يتعلق بمقدار دور الارض [٧٧] وفى أدوار الكواكب [٧٨] غير أن فيه معلومات لم يجدها البيروني في كتب الهند ، ومن ذلك أنه استعمل « اسم بل مكان دقائق الايام » إذ أنه وجد أن أهل الهند « يسمون التعديل به » [٧٩] ، كما أنه يذكر أن رمكرت موضع في البحر فيه مدينة تسمى تاره غير ان البيروني لم يجد لهذا الاسم في كتب الهند اثراً بتة » [٨٠] .

ذكر عدد من المؤلفين ان الفزاري من اصحاب الزيجه والنجوم [٨١] ونقل ابن الحائك الهمداني عرض مكة والمدينة عن الفزاري [٨٢] واشار ياقوت الى ان الفزاري نقل في زيجه عن الكشوت الفارسية [٨٣] وذكر المسعودي نقلاً عن محمد بن علي العبدي ممن برز في زمن المنصور « ابراهيم الفزاري المنجم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علم النجوم وهيئة الفلك [٨٤] .

اما يعقوب بن طارق فان ابن النديم يذكر أنه « من أفاضل المنجمين ، وله من الكتب كتاب تقطيع كردجات الجيب ، كتاب ماارتفع من قوس نصف النهار ، كتاب الزيج محلول في السند هند لدرجة درجـــة ، وكتابان الاول في علم الفلك ، الثاني في علم الدولة [٨٥] .

(٧٧) البيروني : تحديد نهايات الأماكن ٢١١ ، تحقيق ما للهند ١٣١ .
(٧٨) تحقيق ما للهند ٣٥١ ، ٣٥٦ .
(٧٩) تحقيق ما للهند ١٢٨ .
(٨٠) تحقيق ما للهند ٢٥٩ .
(٨١) ناللينو تاريخ علم الفلك ١٦٠ ــ ١٦٣ .
(٨٢) صفة جزيرة العرب ١٥ .
(٨٣) معجم البلدان ١/٣٧ .
(٨٤) مروج الذهب ٤/٢٢٣ .
(٨٥) الفهرست ٣٣٦ .

ويقول البيروني ان يعقوب بن طارق هو مؤلف كتاب في تركيب الافلاك » [٨٦] ، مدّون فيه أبعاد الكواكب ، فكان المصدر الاول ، وربما الوحيد في ذلك [٨٧] ، وقد عرض فيه بعض الآراء التي اصبحت قديمة [٨٨].

استمد يعقوب بن طارق معلوماته عن الرجل الهندي الذي كان في جملة وفد السند على المنصور في سنة ١٥٤ [٨٩] وقد استقى هذه المعلومات في سنة ١٦١ [٩٠].

أكّد البيروني أن بعض المعلومات التي نقلها يعقوب عن الهند غير دقيقة ، وأورد في ذلك أمثلة فقال ومن العجائب أن الفزاري ويعقوب ربما سمعا من الهندي في الأدوار أنه حساب سد هاند الكبير ، وأن حساب أرجبهد على جزء من الف جزء منه فلم يفهماها منه حق الفهم ، وظنا أن أرجبهذ هو اسم الجزء[٩١] ،وذكر أيضاً أن يعقوب غلط «في مأخذ أيام الشمس والنقص من الكليين وكان ناقلاً عن لسان الهندي حساباً لم يفهم علله فلا اقل من أن كان يستحنه ويستقرئ أوضاعه [٩٢] كما أن البيروني ذكر أن يعقوب قال « ركبت موضع في البحر فيه مدينة تسمى تارة لم أجد لها أثراً بتة في كتب الهند [٩٣].

وذكر صاعد من المشتهرين بالنجوم « يعقوب بن طارق صاحب كتاب المقالات في مواليد الخلفاء والملوك[٩٤] .

---

(٨٦) تحقيق ما للهند ١٣٢ ، ٢٦٩ ، ٢٩٧ .

(٨٧) تحقيق ما للهند ١٩٧ ، وعن ادوار الكواكب انظر ٢٥١ .

(٨٨) تحقيق ما للهند ١٣٢ .

(٨٩) تحقيق ما للهند ٣٥١ .

(٩٠) كذلك ٣٩٧ ؛ وانظر عن افادته من الهندي ١٣٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٠ .

(٩١) كذلك ٣٥٦ .

(٩٢) كذلك ٣٧٠ .

(٩٣) كذلك ١٢٨ .

(٩٤) طبقات الامم ٦٠ .

وضع بعض الفلكيين الماهرين في العلوم اليونانية أزياجاً على مذهب السند هند مع تعديلات متأثرة بأزياج بطليموس والارصاد الجديدة ، ومنهم حبّش الذي كان زيجه لايخالف الخوارزمي إلا بثلاث دقائق [٩٥] وابن أما جور [٩٦] والجنابي [٩٨] ، وابن الآدمي ، والفضل بن حاتم النيريزي، والخوارزمي [٩٩]، ومنصور بن عراق الذي كتب الى البيروني رسـالة في علـة تصنيف التعديل عند اصحاب السند هند [١٠٠] ، ومحمد بن اسحق بن اسـتاد بنداد السرخسي الذي صحح السند هند ، وأبو الريحان البيروني الذي ألف « جوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم » كما الف كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » وهو اعظم كتاب يصف فيه علوم الهنود وكثير من عقائدهم حتى زمن تأليفه في اواسط القرن الخامس الهجري .

وامتد أثر السند هند الى المغرب ، فذكره مسلمة المجريطي في مختصر لزيج الخوارزمي ، واشار اليه ابو اسحاق ابراهيم الزرقلي في كتابه « الصفيحة الزرقالية » والف ابو القاسم اصبغ بن السمح (ت ٤٢٦) زيجا كبيرا على مذهب السند هند [١٠١] .

ذكرنا فيما سبق قول صاعد بن أحمد أن للهند ثلاثة أزياج هي السند هند والأرجبهر، والأركند ، وأن أصحاب الارجبهر وافقوا أصحاب السند هند الا في عدد مدّة العالم ، فان مدتهم التي ذكروا أن الكواكب وأوجاتها وجوزهراتهم تجتمع عندهم في رأس الحمل هي جزء من الف من مدة السند هند ، وذلك عندهم تفسير الأرجبهر [١٠٢]

(٩٥) التنبيه والاشراف ١٨٩ .
(٩٦) الفهرست ٣٣٨ .
(٩٨) الفهرست ٣٣٩ .
(٩٩) تحقيق ما للهند ٤٣٨ .
(١٠٠) كذلك
(١٠١) انظر في ذلك : نالينو : تاريخ علم الفلك عند العرب ص ١٤١ فما بعد .
(١٠٢) طبقات الأمم ١٣ .

ويقول المسعودي « عملت الهند كتاب الارجبهر من كتاب السند هند ، والارجبهر جزء من ألف جزء من السند هند ، وكتاب الأركند من كتاب الأرجبهذ »[١٠٣] ، وهذا الكلام غير دقيق ، والأصح هو مـا قاله البيروني أن اسم الأرجبهر مأخوذ من « اريبهط » وهو اسم مؤلف كتاب ذكر فيه ان مهايلك هـو جزء من الف جزء من كلب ، ولذلك اشتهرت جملة سنى يلك عند العرب باسم سنى الارجبهر اوايام الارجبهر ، وان الخطأ في اعتبارها جزءاً من سند هند راجـع الى سوء فهم الفزاري ويعقوب للكتاب[١٠٤]

أما كتاب الأركند فهو « زيج وضعه برهمكوبث[١٠٥] بعـد تأليف السندهند واعتمد فيه على اصول مختلفة[١٠٦] ويبدو أن يعقوب بن طارق ترجمه ترجمة رديئة ، فقد ذكر البيروني أنه كان بالعربية « بنقل فاسد »[١٠٧] وهـو يقول « وهذبت زيج الأركند وجعلته بألفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة ، والفاظ الهند فيها لحالها متروكة »[١٠٨]

ويذكر البيروني للهند زيج الأهركن فان معناه جملـة الايام »[١٠٩] وقد اقتبس منه يعقوب بن طارق اقتباسات غير دقيقة[١١٠] ويقول « ويوجـد في زيج اسلامي يوسم بزيج الهرقن هذا العمل مسـوقاً من تاريخ آخر..[١١١]

---

(١٠٣) التنبيه والاشراف ١٨٨ ؛ وانظر مروج الذهب ١/١٥٠ ، المطهر بن طاهر المقدسي : البدء والتاريخ ٢/١٤٦ .

(١٠٤) تحقيق ما للهند ٣٥٥ ـ ٧ .

(١٠٥) كذلك ٣٤٦ .

(١٠٦) كذلك ٢٠٦ .

(١٠٧) كذلك ٣٨٣ .

(١٠٨) فهرس كتب البيروني منشور في مقدمة كتاب الاثار الباقية ٤٠ .

(١٠٩) تحقيق ما للهند ٣٦٤ .

(١١٠) كذلك ٣٧٠ .

(١١١) كذلك ٣٨٧ .

المواليد والفراسة والفأل :

ومما يتصل بالتنجيم ، علم المواليد ، وقد عني الهنود به وألفوا كتباً ، فذكر البيروني « ولكل واحـد من براشـر ، وسـت ، وجيشرم ، ومو اليوناني كتاب جاتك ، اي المواليد ، ولبرهمر منه اثنان : صغير وكبير فسره بلبهدر ونقلت انا اصغرهما الى العربي ، وفي باب المواليد كتاب لهم كبير يسمى « ساراول » اي المختار ، شبه البزيدج ، عمله كلان برم الملك ، وكان يرجع الى فضيلة علمية ، وكتاب اكبر منه جامع في كل باب من الأحكام يعرف بجبن ، اي الذي لليونانيين .

ولبراهمر كتب صغار منها « خت بنجاشلك » ستة وخمسون باباً في المسائل وكتاب « هوربنج هتري » فيها ايضاً ، وفي الاسفار كتاب « زوك زاتر » وكتاب « تكنى زاتر » ؛ وفي العرس والتزويج كتاب « بباهتبل » وفي الانبية كتاب (. . .) ؛ ثم فيما يشبه الزجر والفأل كتاب « سروذو » وهو على ثلاث نسخ ، احداها منسوبة الى مهاديو وصاحب الثانية بملبد ، وصاحب الثالثة بنكال ، وكتاب جورامن اي علم الغيب ، عمله البدّ صاحب المحمرة الشمنية ، وكتاب برشن جورامن ، اي مسائل علم الغيب عمله اوبل . ومن علمائهم مما لم يمر اسمه مع كتاب بردمن ، وسنكهل ، ودباكر ، وبريسفر ، وسـارسقت ، وبيروان ، وديوكرت ، وبركوتلك سوام »[١١٢] ونقل عـن كتاب « المواليد » لبرهمر نصوصاً [١١٣] .

وذكر ابن النديم ممن الف في المواليد من الهنود : جودر ، ونق ، وصنجهل وكنكه . ولم يذكر كتاباً لصنجهل ، ولكنه ذكر أن كلاً من جودر ونق الف كتاباً في المواليد[١١٤] ، غير ان ابن ابي اصيبعـة ذكر ان صنجهل

(١١٢) كذلك ١٢٢ ــ ٣ .
(١١٣) كذلك ١٧٨ ، ٤٤١ .
(١١٤) الفهرست ٣٣٠ .

كان من علماء الهند وفضلائهم الخبيرين بعلم الطب والنجوم وان له كتاب المواليد [115] .

اما كنكه فقد ذكر ابن النديم انه الف الكتب التالية « اسرار المواليد » و « القرانات الصغير » و « القرانات الكبير » و « النمودار » [116] . وقال ابو معشر في كتاب الالوف ان « كنكه المقدم في علم النجوم عند جميع العلماء من الهند في سالف الدهر ، ولم يبلغنا تاريخ عصره ، ولا شيء من اخباره [117] ، غير ان البيروني يذكر ان كنكه منجم الرشيد، وانه صرح ان ملك بني العباس يخرج على يد رجل من اصبهان [118] .

وذكر جابر بن حيان في كتاب المجربات كنكه ضمن عدد من الفلاسفة [119]

ذكر ابن النديم من كتب الهند « كتاب الجفر الهندي » لعطارد [120] و « زجر الهند » و « خط الكف والنظر في اليد للهند » [121] وهي كتب مفقودة .

الأرقام الهندية والحساب الهندي :

يقول صاعد في كلامه عن علوم الهنود التي وصلت العرب « ومما وصل الينا من علومهم حساب الغبار الذي بسّطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي

(115) عيون الانباء ٤٧٣ .
(116) الفهرست ٣٣٠ ، عيون الانباء ٤٧٣ ، القفطي ٢٦٧ .
(117) عيون الانباء ٤٧٣ ، القفطي ٤٦٥ .
(118) الاثار الباقية ١٣٢ .
(119) المخطوطة في مكتبة جارالله رقم ١٦٤١ ، والكلام نقلا عن بول كراوس في كتابه عن جابر بن حيان ٥٩/٢ .
(120) الفهرست ٣٣٦ .
(121) كذلك ٣٧٦ .

أوجز حساب واخصره وأقربه تناولاً واسهله مأخذاً وابدعه تركيباً ، يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التواليد وبراعة الاختيار [١٢٢] .

وصف بعض المؤلفين العرب الحساب الهندي ، فقال اليعقوبي إن ابرهمن «وضع التسعة أحرف الهندية التي يخرج منها جميع الحساب الذي لا يدرك معرفتها وهي ١-٢-٣-٤-٥-٦-٧-٨-٩ فالأول منها واحد ، وهو عشرة ، وهومائة وهو ألف ، وهو ألف ألف ، وهو عشرة آلاف ألف وهو مائة ألف ألف ، وعلى هذا الحساب ابداً وصاعداً .. واذا خلا بيت منها يحصل فيه صفر ، ويكون الصفر دارة صغيرة [١٢٣] .

وفي فصل عنوانه وجوه الحسابات من كتاب « مفاتيح العلوم » تحدث أبو عبدالله الخوارزمي عن حساب الهند فقال ان « قوامه تسع صور يُكْتَفى بها في الدلالة على الأعداد الى مالا نهاية له ، وأسماء مراتبها أربعة وهي الآحاد والعشرات والمئون والآلاف ، فالواحد يقوم مقام العشرة ومقام مائة ، ومقام الف ، ومقام عشرة آلاف ، و الف ، والف الف الى ما لا نهاية له من العقود [١٢٤] .

ويقول المسعودي إن الهنود « أحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي » [١٢٥] .

لم يستعمل اهل الهند الحروف رموزاً للارقام كالذي فعل العرب في حساب الجمّل ، وفي ذلك يقول البيروني « وليسوا يجرون على حروفهم شيئاً من الحساب كما نجريه على حروفنا في ترتيب العمل ، وكما أن صور الحروف تختلف في بقاعهم ، كذلك أرقام الحساب ، وتسمى انك ، والذي نستعمله نحن مأخوذ

(١٢٢) طبقات الامم ١٤ ، وانظر : القفطي ٢٦٦ .
(١٢٣) التاريخ ١/٦٦ .
(١٢٤) مفاتيح العلوم ١١٢ .
(١٢٥) مروج الذهب ١/٩٢ .

من أحسن ما عندهم ، ولا فائدة في الصور اذا ما عرف ما وراءها من المعاني ، ولا تستعمل في الحساب على التراب (١٢٦) . وقد نقلنا في اول المقال اقوالا للجاحظ يشيد فيها بحساب الهند (١٢٦) أ .

كانت للحساب اهمية في الحياة اليومية والتجارية ، وتتجلى هذه الأهمية عند العرب في العدد الكبير من الآيات القرآنية التي ذكر فيها القرآن الكريم الحساب ، والعمليات الحسابية ، والارقام الصحيحة ، والكسور .

ويتجلى من هذه الآيات ان العرب كانوا يستعملون النظام العشري ،ولكن لاتوجد في القرآن اشارة الى اشكال كتابة الارقام ، ويلاحظ ان اوراق البردي والنقود المكتوبة بالعربية لم تستعمل رموزاً للارقام وانما تكتبها بالفاظها ، ويبدو أن حساب الجمّل كان مستعملاً ، بدليل كثرة استعمال كتب الفلك له .

وقد ظل الحساب الستيني الذي يعتبر الستين الوحدة الاساسية في الحساب مستعملاً في العراق وخاصة عند كتاب الدواوين (١٢٦) ب وهو نظام يرجع الى زمن البابليين واستعملت كتب الفلك الحروف الابجدية للدلالة على الارقام واستعمل الكتاب منذ أواسط القرن الخامس الهجري أرقام السياق وهي حروف ترمز للارقام.

في بعض المصادر القديمة اشارات الى الارقام التي كان يستعملها الهنود ، فقد ذكر ساويروس سيبخت اسقف ماردين (٦٢٢ م = ١ ه) أن للهنود تسعة ارقام فقط يستطيعون ان يكتبوا اي عدد كائناً ما كان (١٢٧) .

غير ان سيبخت لم يشر الى مدى انتشار هذه الارقام أو الى العمليات التي رافقتها ، او الى اصول شكل الارقام المستعملة ، علماً بأن أقدم اشكال

---

(١٢٦) تحقيق ما للهند ١٣٦ .

١٢٦ أ انظر ص٢ من هذا المقال .

١٢٦ ب انظر كتاب «المنازل في علم الحساب» للبوزجاني ص ٧١ فما بعد.

(١٢٧) انظر مقال كارادافو في مجلة Sciento ١/٢٧٣ — ٨٢ (٩٢١)
ومقال احمد سليم سعيدان عن الاثر الهندي في الرياضيات العربية : مجلة الابحاث م ١٥ — ٤ ص ٤٦١ .

الارقام التي استعملها الهنود والتي نعرفها ترجع الى زمن متأخر عن زمن كتاب سيبخت ، واشكالها تختلف عن اشكال الارقام التي استعملها العرب .

يذكر عدد من المؤلفين العرب ان الارقام التي استعملها العرب هي هندية الأصل ، غير ان اصولها وانتشارها وتطورها في العالم الاسلامي لايزال موضع نقاش ، رغم البحوث الواسعة التي قام بها عدد من العلماء ، وخاصة وبكه ، وسمث ، وكاربنسكي ، وكارادي فو ، وجاندز ؛ ولعل من اسباب هذا الخلاف هو قلة المخطوطات القديمة التي وردت فيها الارقام ، فان أقدم مخطوط وصلنا وفيه الارقام يرجع تاريخ نسخه الى سنة ٣٦١ هـ ، غير انه يظهر في المصادر القليلة التالية نوعان من الارقام ، كثر استعمال احدها في المشرق الاسلامي ، والثاني في المغرب الاسلامي ، وكثيراً ماتطلق على الارقام المستعملة في المشرق « الهندية » وعلى الارقام المستعملة في المغرب « الغبارية » . ولكن بعض المصادر تطلق على النوعين من الارقام اسماً واحداً ، هو « الهندية » او « الغبارية » ؛ ففي مخطوط برقم ٣٩٤٠ في مكتبة جامعة برنستون يرجع تاريخه الى سنة ٣٧١ هـ = ٩٨١ م يسمى النوعين من الارقام « الغبارية » ، ويقول ان الارقام التي تشبه الارقام الاوربية تسمى الرومية . . وفي مخطوط آخر في برنستون لمؤلفه يحيى بن تقي الدين الحلبي يسميها « الغبارية او الهندية » . واذا كان بالامكان الجزم بأن كلاً من النوعين لم يأخذ اشكاله من الهند ، فانه لاتوجد معلومات تلقى ضوءاً على سبب تسميتها الهندية ، علماً بأن الكتب العربية لم تشر الى مؤلفين هنود في الحساب ، او كتب نقلت عنهم فيه [١٢٨] .

---

(١٢٨) انظر في هذا الموضوع وعناوين الابحاث التي كتبت فيه مقدمة مقال الدكتور احمد سليم سعيدان عن الاثر الهندي ، والتلخيص القيم الذي كتبه الدكتور عبدالحميد صبره في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة . مادة «علم الحساب» . «وانظر دراسة الاستاذ محمد حسن ال ياسين المنشورة في المجمع العلمي العراقى بعنوان «الأرقام العربية».

يقول صاعد بن أحمد « ومما وصل الينا من علومهم (الهند) حساب العدد الذي بسطه ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي (٢١٠ هـ) أوجز حساب وأخصره وأقربه تدولاً واسهل مأخذاً »[١٢٩] ؛ غير ان صاعد والقفطي لم يذكرا عنوان كتاب الخوارزمي الذي بسط فيه حساب الهند[١٣٠] .

وذكر ابن النديم أن كلاً من سنان بن الفتـح وابي الوفاء البوزجاني شرح كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي[١٣١] ، علماً بأنه لم يذكر هذا الكتاب ضمن قائمة الكتب التي ذكرها للخوارزمي .

لم يصلنا الاصل العربي لكتاب « الجمع والتفريق » او اي كتاب في الحساب لمحمد بن موسى الخوارزمي ، غير انه وصلنا عدد من الترجمات اللاتينية لكتاب محمد بن موسى ، والراجح ان هذه الترجمات تعتمد كلها على اصل واحد لترجمة لاتينية ترجع الى القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد طبعت احدى هذه الترجمات في روما سنة١٨٥٧ بعناية بونكو مباني ثم اعاد طبعها فلوجل سنة١٩٦٣ ؛ وطبع بونكو مباني في روما ايضاً ترجمة اخرى لكتاب الخوارزمي، وفي الكتاب الاول شرح للنظام العشري في الترقيم ، ووضعت الارقام بعضها فوق بعض ، وفيها دائرة صغيرة للصفر ، غير ان الارقام التي كتبت فيه هي الارقام الرومانية ، ومن الواضح ان هذه الارقام كتبها المترجم الذي لم يشر الى اشكال الارقام في الكتاب الاصلي[١٣٢] .

(١٢٩) طبقات الأمم ١٤ ، وانظر القفطي ٢٦٦ .
(١٣٠) الفهرست ٣٣٣ ؛ ولعل الكتب التي ذكرها ابن النديم في الفقرة التي تلت ماكتبه عن الخوارزمي ، وجعلها لسنان بن الفتح ، ينبغي ان تكون تابعة للخوارزمي .
(١٣١) الفهرست ٣٤٠ ، ٣٤١ .
(١٣٢) عبدالحميد صبره : دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الجديدة . مادة «علم الحساب» ؛ احمد سليم سعيدان : اصول حساب الهند مجلة معهد المخطوطات العربية ١٩٦٧ .

=

والحساب الهندي يتميز بأنه يضع الارقام التي تجري فيها العمليات الحسابية بعضها فوق بعض ، ثم يجري العمليات المطلوبة ؛ وهذه العمليات قد تجري على تخت او على الرمل ، ولذلك يسمى احياناً حساب التخت ، وفي الغربية Abaeus ، او حساب « الرمل » تمييزاً له عن حساب « اليد » او حساب العقود . وطريقته تيسر العمليات الحسابية كثيراً .

واقدم الكتب المؤلفة التي وصلتنا في الحساب الهندي هو كتاب « الفصول في الحساب الهندي » لاحمد بن ابراهيم الاقليدسي (سنة ٣٣٢) وقد طبعه الدكتور احمد سعيدان سنة ١٩٧٣ ، ثم كتاب « اصول حساب الهند لابي الحسن كوشيار بن لبان الجيلي ت ٣٩٠ وقد طبعه ليفي وباتراك مع ترجمة الى الانكليزية سنة ١٩٦٥ ، ثم اعاد طبعها احمد سعيدان في مجلة معهد المخطوطات سنة ١٩٦٧ .

وذكر ابن النديم عدداً من الكتب التي عنوانها حساب الهند الفت في اواخر القرن الثالث والقرن الرابع الهجري .

١ــ الحساب الهندي لسند بن علي (١٣٣) .

٢ــ حساب الهند لاحمد بن عمر الكرابيسي (١٣٤) .

٣ــ استعمال الحساب الهندي (١٣٥) .

٤ــ التخت من حساب الهندي لسنان بن الفتح (١٣٦) .

=

معهد المخطوطات العربية ١٩٦٧ ، الاثر الهندي : مجلة الابحاث ١٥ ــ ٤ /١٩٦٢ ، وانظر المقدمة التي كتبها الدكتور علي مصطفى مشرفه والدكتور مرسي احمد لكتاب «الجبر والمقابلة» للخوارزمي الذي نشراه.

(١٣٣) الفهرست ٣٣٤ .

(١٣٤) كذلك ٣٤٠ .

(١٣٥) كذلك ٣١٦ .

(١٣٦) كذلك ٣٣٩ .

يقترن الحساب الهندي بالتخت ، ولذلك جعل من كتب في الحساب الهنـــدي عنوان كتابه « التخت في الحساب ومرجع هذه التسمية هي ان العرب اخذوا في المرحلة الاولى الحساب الهندي تخطيطاً على الرمل تكتب فيه الاعداد افقياً بترتيب مرسوم ، ويجري العمل على نمط محدد طردا من اليمين الى اليسار ، او عكساً من اليسار الى اليمين ، ويرافق العمــل بضرورة محو ونقل ، وكل ذلك على التخت ، وتكتب الارقام عادة افقية ؛ وذكر ابن النديم من هذه الكتب

١ـ التخت ليعقوب الرازي (١٣٧) .

٢ـ التخت الكبير في الحساب الهندي لعلي احمد الانطاكي (١٣٨) .

٣ـ « البحث (التخت !) في حساب الهند لابي حنيفة الدينوري (١٣٩) .

٤ـ وذكر القفطي ايضاً علل حساب الهند للحسن بن الهيثم (١٤٠) .

ومن الكتب التي تحمل عنوان الحساب الهندي كتابي « الفصول في الحساب الهندي » للاقليدسي « واصول حساب الهند » لكوشيار بن لبان الجيلي اللذين ذكرنا انهما طبعا حديثاً .

٥ـ المقنع في الحساب الهندي لاحمد بن علي النسوي ، ومنه مخطوطة في ليدن برقم (١٠٠١) .

٦ـ٧ـ « الهنـــدي المنتزع من الكافي » و « التعليـــق على الهنـــدي » ومنهما مخطوطة في القاهرة برقم (٨٤) .

٨ـ وذكر البيروني في فهرست كتبه الذي نشره سخاو في مقدمة كتاب « الآثار الباقية » ان له الكتب التالية :ـ

(١٣٧) كذلك ٣٤٠ .

(١٣٨) كذلك ٣٤٢ .

(١٣٩) كذلك ٨٦ وانظر القفطي : انباء الرواة ١/٤١ .

(١٤٠) اخبار الحكماء ١٦٨ .

١ـ تذكرة في الحساب والعد بارقام السند هند في (٣٠) ورقة .

٢ـ كيفية رسوم الهند من علم الحساب .

٣ـ في ان رأى العرب في مراتب العدد اصوب من رأى الهند فيها في (١٥) ورقة .

٤ـ من سيكاف الاعداد ، جاء نصفه في (٣٠) ورقة .

٥ـ « ترجمة ما في براهم سد هاند من طرق الحساب» في اربعين ورقة .

كتب هندية في مواضيع منوعة

يذكر اليعقوبي ان للهند « في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في اصول العلم ، منها كتاب طوفا في علم حدود المنطق ، وكتاب ما تفاوت فيه فلاسفة الهند والروم ، ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها » [١٤١] .

وذكر ابن النديم انه قرأ كتاباً عن ملل الهند واديانها بخط الكندي ، وجاء فيه ان يحيى البرمكي بعث برجل الى الهند ليأتي بعقاقير موجودة في بلادهم وان يكتب له اديانهم فكتب له ذلك الكتاب وقد نقل ابن النديم منه عدة صفحات [١٤٢]

ويقول المسعودي « وقد رأيت ابا القاسم البلخي ذكر في كتاب عيون المسائل والجوابات وكذلك الحسن بن موسى النوبختي في كتابه المترجم بكتاب الآراء والديانات مذاهب الهند وآرائهم » [١٤٣] ولم يصلنا هذان الكتابان لنعرف معلوماتهما او مصدرها الذي قد يكون نفس مصدر معلومات ابن النديم .

نقل الجاحظ نصاً طويلا في تعريف البلاغة ذكر انه مترجم عن كتاب جلبه منكه الهندي الطبيب الذي كان يرعاه يحيى بن خالد البرمكي . [١٤٤]

(١٤١) التاريخ ١/٧٤ .
(١٤٢) الفهرست ٤٠٩ .
(١٤٣) مروج الذهب ١/٩٤ .
(١٤٤) البيان والتبيين ١/٩٣ .

ونقل ابن قتيبة في كتابه عيون الاخبار ستاً وثلاثين نصاً في آداب السياسة والسلوك ذكر انه نقلها او قرأها في كتاب للهند دون ان يذكر اسم الكتاب ، وقد قام جبريللي ولا كومت بدراسة هذه النصوص ، وظهرت من هذه الدراسة ان بعضهـا في كليلة ودمنة ، ويظهر انها مأخوذة من مصدر اعتمـد عليه ابن المقفع في كتابيه كليلة ودمنة ، والادب الكبير [١٤٥] . وقـد وضع ابن النديم كتاب كليلة ودمنه في كتب الهند فهارس الخرافات والاحاديث [١٤٦] .

وذكر ابن النديم « كتاب الهند بين الجواد والبخيل والاحتجاج بهما ، وقضاء ملك الهند بذلك » و « كتاب شاناق الهندي في الآداب : خمسة ابواب» [١٤٧] (٣٧٨) وكتاب « شاناق الهندي في امر تدبير الحروب وما ينبغي للملك ان يتخذ من الرجال في امر الاساورة والطعام والسم » .

وذكر ايضاً « كتاب باجهر الهندي في فراسات السيوف ونصحها وصفاتها ورسومها وعلاقاتها » [١٤٨] .

يتبين مما تقدم ان الآثار الهندية كانت واضحة في الطب والفلك ، ثم في الأدب ، وانها ترجع الى زمن المنصور والرشيد وهي بفضل العلماء الذين جلبوا من الهند في زمنهما ، وان تأثير هؤلاء العلماء ظل ملحوظاً ، ولكن لم تحدث بعد ذلك اضافات هندية بارزة في ميدان العلم ، حتى زمن البيروني الذي قضى سنوات في الهند يدرس عقائدهم وعلومهم والف كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » الذي يعتبر الحجة في معرف الهند في القرن الخامس الهجري :

---

(١٤٥) انظر مواضعها في فهرس كتاب عيـون الاخبـار ، وانظـر كتـاب G. Lacombt. Ibn Qutaiba ص ١٨٤ ــ ٥

(١٤٦) الفهرست ٣٦٤ .

(١٤٧) كذلك ٣٧٧ .

متطلبات البحث العلمي

الدكتور صالح أحمد العلي

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد السابع والثلاثون - الجزء الثالث

1406 - 1986

مُتطلَّباتُ البحثِ العِلميّ

الدكتور صالح احمد العلي

رئيس المجمع العلمي العراقي

نطاق البحث العـلمي :

ينحصر الكلام في هذا البحث حول البحث العلمي المؤدي الى الابداع والاضافة أو تعديل الآراء ، وبصورة خاصة في العلوم الانسانية ، ولا يمتد الى كافة جوانب مواضيع الثقافة العامة التي تقوم على تعميم معلومـات وافكار تم اقرارها ، ونشرها في نطاق واسع .

يهدف البحث العلمي كشف الحقائق وانماء المعلومات واغناء الفـكر بما يضيفه من معلومات . أو بما يجريه من تعديل أو توجيه للافكار بصرف النظر عن مدى انتشارها وتعميمها ، وبذلك يقدم مادة للثقافة العامة ، ولكنه لا يقتصر عليها ، ولا يركز على نشرها .

وكلمة « العـلم » تطلق مجازاً على الابحـاث التي تتبع في القيـام بها الطرق المثبتة عبر التجارب والمختبرات في أي ميدان من ميادين المعرفة . فهو لا يدخل في نطاقه الافكار الابداعية المستمدة من الالهام والتأمل كنظم الشعر ، أو انتاج الفنون التصويرية من رسم ونقش ونحت ، كما انه لا يدخل في نطاقه الافكار التأملية العامة التي تعبر عن الخواطر والآراء وتقوم على تقدير الحقائق ووضعها ضمن نطاق عام شامل ، مما ينتج ما نسميه الفلسفة

ولا نريد في هذا الانتقاص من أهمية الفلسفة والافكار الشخصية التي تسعى الى تقدير قيمة الحقائق ، وادراك العلاقات ونظمها في نطاق عام ولهـا نتائج مقبولة وتأثير في الافكار أو الى ما تقدمه من دوافع في توجيه الابحـاث ؛ اذ لاريب في أن في التأمل والفلسفة كثيراً من الحقائق الصائبة ؛ غير ان اعتمادها على التفكير النظري الشخصي يخرجها عن نطاق البحث العلمي الذي يتميز باتباعه طرقاً خاصة في البحث ، علماً بأنه لا يحتكر كشف الحقائق ولا يغفل مكانة البحث التأملي فيما يعرضه من حقائق أو ما يسهم به في تقدير أهمية الابحاث وتوجيهها •

وثمار البحث العلمي لن تكون كلها ذات قيم ثابتة ، فالمثل الاعلى لكل بحث وتفكير هو أن يصل الى الحقائق الثابتة في الجزئيات والقواعد ، وان كثيراً ممـا تم انجـازه يثبت بعض هـذه الحقـائق ، ولكنـه لم يصـل الى حد الكمال في دقته وشموله ؛ ويتجلى قصوره في الوصول الى الدقة في التطورات الحادثة في كل علم ، واما نقصه في الشمول فيتجلى في تتابـع ظهور النظريات المتناقضة أحياناً في التصوير الكلي للمسيرة الفكرية •

فكل تصور عام مهما كان عدد معتنقيه ومؤيديه ، ومهما كانت قـوة تمسكهم وارتفاع أصواتهم ، فانه عرضة لافكار مقابلة قد تعدّله أو تنقضه أو تقدم عنه صورة مختلفة ، فالعلم في هذا المفهوم لا ينحصر في الحقائق المطلقة التي يجب أن يؤمن بها البشر ، وانما يركز على ما تشـير الادلة المتـوفرة لدينا الى ثبوت صحتها ، مع الايمان باحتمال ظهور خطئها أو عدم دقتها في المستقبل •

ان بُعد المعلومات العلمية عن الحقيقة الازلية عام ولكنه اظهر في الدراسات المتعلقة بالانسان وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين ، وهي دراسات بالرغم من كثرة الباحثين فيها وخاصة في الازمنة المعاصرة ، والتوسـع الكبير في طرقهـا

وأساليبها والاجهزة التي تستعين باستخدامها للوصول الى الحقائق الثابتة ، فانها لاتزال في أول الطريق ، وأمامها ما يتطلب جهوداً مضاعفة للوصول الى ما وصلته الدراسات في العلوم الرياضية والطبيعية التي لما تصل خد الكمال .

طرق البحث في العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية :

وميدان البحث العلمي نطاقه واسع ، وجوانبه متعددة بتعدد ميادين العلم ، ويتبع هذا التعدد تنوع أساليب البحث التي يتبعها للوصول الى الحقائق ، فالبحث في المواضيع التي تدرس المواد الجامدة كالفيزياء والكيمياء تختلف عن البحث في الكائنات الحية ، وخاصة ما نسميها العلوم الانسانية من علم نفس وتربية وانثروبولوجيا واجتماع واقتصاد وسياسة وتاريخ ، اذ ان مادة البحث في الدراسات الانسانية تؤثر في الاستجابة الى التجارب ، وقد لا تسمح بها وخاصة اذا خرجت عن حدود الحفاظ على الحياة ، ففي الكيمياء مثلاً نستطيع اجراء تجارب على تأثير الحرارة الى أقصى مدى ، والى تحويل الجماد الى بخار أو بالعكس ، وفي الفيزياء نستطيع ان نحرك الاجسام كما نشاء أو ندفع بها الى أبعد ما نستطيع من مسافات في أعالي الفضاء أو في أغوار الارض وأعماق البحار ، دون أن نقلق على مصير المادة التي نتعامل معها ، أما عند التعامل مع الانسان فنحن مقيدون بالعمل ضمن النطاق الذي لا يتلفه ولا يحدث فيه أضراراً دائمة ، مما لا يسمح به الشخص الذي تجري عليه الدراسات ولا النظم المرعية ولا تقره المعايير الاخلاقية المعتبرة ، كما ان التجارب الواسعة بنطاق الامة في الامور السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية غير مقبولة في الاحوال السلمية الاعتيادية . فهل تسمح انكلترة مثلاً باجراء تجارب لتغيير نظام الملكية ، أو روسيا السوفياتية بايقاف تطبيق النظام الاشتراكي ، أو الولايات المتحدة بالعزوف ولو مؤقتاً عن النظام الرأسمالي مثلاً .

ثم ان العلاقات الانسانية معقدة ومتشابكة بدرجات تفوق كثيراً تعقد وتشابك العلاقات بين المواد الجامدة ، وكل هذا يزيد من التباين بين ميادين معرفة الانسان ومعرفة الجماد .

ان التطبيق الحرفي لاساليب البحث المتبعة في دراسة الميادين الطبيعية على الميادين الانسانية لا يؤدي الى نفس الدقة في النتائج ، وهذا لا يعني وجوب رفض الميادين الانسانية أساليب بحث الميادين الطبيعية ، اذ ان في الاساليب الاخيرة مزايا وخصائص لا يصح تجاهلها أو رفضها كلياً ، وانما يجب ان نضع نصب أعيننا حدودها وان نعمل على اتباع أساليب تلائم الدراسات الانسانية وتؤمن الوصول الى أحسن النتائج .

وازاء التنوع الكبير في أساليب البحث وأدواته يمكن القول بصورة عامة ان العلوم الطبيعية في ابحاثها للوصول الى الحقائق أشد حاجة الى المختبرات والاجهزة التي تزيد من كفاءة الحواس ، أما العلوم الانسانية فمهما كانت حاجتها الى هذه المختبرات والاجهزة والى أهمية الاحصاءات في دراستها ، فانها أكثر حاجة الى القراءة والامعان في المكتوب من مخطوط أو مطبوع ، فللمكتوب أهمية ودور في البحث في العلوم الانسانية أكبر من أهميته ودوره في العلوم الطبيعية ، ومن هنا تكون المختبرات أساسية للاخيره ، بينما تكون المكتبات أساسية للبحث في العلوم الانسانية .

وفي كلتا الحالتين لا يتقيد البحث بالمكان ، وانما يرتبط حيثما تتوفر وسائله ، فحيثما توفرت المختبرات تيسر البحث في العلوم الطبيعية ، وحيثما توفرت الكتب تيسر البحث في العلوم الانسانية ، ولنا من الماضي والحاضر شواهد غير قليلة ، فاما في الماضي فنجد مصداقه في العدد الكبير من علماء العرب والمسلمين الذين عاشوا في قرى صغيرة واماكن منعزلة ، وفي الحاضر لنا مثل من شوايزر الفيلسوف الفرنسي الذي انتج روائع الافكار في

مستشفاه في أواسط أفريقية • ان كلتـا الدراسـتين مكلفة ، ولكنهـا في العلوم الطبيعية اكثر كلفة بسبب تطور الاجهزة المستعملة والحاجـة الى استعمال احدثها ، واما في العلوم الانسانية فان الكتب قد تبدأ بكلفة عالية ، ولكنها تتناقص لانها تبقى أساساً ثابتاً لا يتغير • فأدوات البحث في العـلوم الانسانية تراكمية ، أما في العلوم الطبيعية فهي أكثر عرضة للتبدل ، وهـذا يجعلها في المدى البعيد أكثر كلفة •

والباحث في العلوم الانسانية أحوج الى الاتصـال بالنـاس ومتابعة الحياة اليومية لا لانها توسع من معرفته وآفاقه فحسب ، بل لان الحاضر معرض غني للانسانية ، ومسرح تجارب لها ، لا مندوحة للباحث من متابعته ، في حين ان بامكان الباحث في العلوم الطبيعية أن يحصر نفسـه في مختبره وبرجه العاجي •

ومقومات البحث العلمي أربعة هي موضوع البحث ، وشخص الباحث ، وتيسر مستلزمات البحث ، الكتابة للنشر ، ولكل من هذه العناصر الاربعة أحوال وأوضاع متميزة ، رغم تداخلها ، وسأتبعها في تنظيم كلامي •

الاصالة والابـداع :

الاصالة والابداع هما أوج ما يصبو العمل الفكري للوصول اليه ، وتقدر قيمة أي عمل تبعاً لمدى اصالته وتوفر الابداع فيه ، والاصالة تقـديم صور فكرية جديدة من مواد أولية معروفة ، فأساسها الجدة مقبولة عقليـاً وذوقياً ، فليس كل جديد أصيلاً ، وانما الاصالة تشترط أيضاً الانسجام مع الاسس العقلية والمنطقية المقبولة •

والاصالة تتطلب معرفة مسبقة بما تم انجازه في ميدان المعرفة الذي يراد تقديم الاصالة فيه ، وهذه المعرفة تشمل الحقائق وتنظيمها ووضعها في

هيكل يظهر مكانتها واهميتها • فالاصالة في اساسها تقوم على ما هو معروف، وللهيكل الثقافي مكانة لا يستغنى عنها في الابداع والاصالة ، ولعل من اهم الاسس المسبقة فيها هي اللغة والحقائق الاولية ، فمهما كان عمق الافكار وشمولها فلابد لها من معرفة سليمة للغة المفهومة عند الناس • وقد يضسع مبدع لكلمة او تعبير مفهوماً جديداً يتناسب مع الافق والميدان الذي يبحثه ، غير ان هذا المفهوم يجب ان يكون واضحاً ومقبولاً وله صلة بالمفاهيم السابقة المعروفة ، سواء كان استعارة أو كناية أو مجازاً •

ومثل هذا يسري على دراسة التاريخ ، فان الاصالة لا تكون بقلب الحقائق الثابتة وتبديلها ، وانما تكون بالتسليم بالحقائق الاولية ، ثم تدقيقها وضبطها واعادة تقدير اهميتها ووضعها ضمن نطاق وهيكل عام جديد •

وشرط الاصالة الاتيان بالجديد الذي لم يسبق اليه ، فالاقتباس ينفي الاصالة ، غير انه يجب ان نميز بين الاقتباس وتوارد الخواطر ، اذ كثيراً ما تستجد أفكار ابداعية عند اثنين او اكثر وفي وقت واحد احياناً دون ان تكون بينهما صلة مادية • والتمييز بين الاقتباس وتوارد الخواطر يتوقف على الثقة في امانة المبدع في ادعائه الابداع •

والاصالة مثل أعلى للبحث العلمي ، وعلى مدى توفرها يتوقف الحكم على قيمة أي عمل ، غير ان كونها مثلاً أعلى يجعلها هدفاً لا يمنع عدم الوصول اليه من العمل على تحقيق درجات منه ، فالكمال لله وحده ، وأي بحث انما هو اجتهاد يحكم في تقدير قيمته على مدى اضافته لما سبق ، ومدى اقترابه من المثل الاعلى دون الاصرار على وجوب الوصول الى الكمال •

تشمل الاصالة اختيار موضوع البحث والمادة التي تجمع عنه وعرضها بالشكل الذي يظهر جدتها وييسر الافادة منها ، فاختيار الموضوع هو المرحلة

الاولى التي يتم الانطلاق منها للوصول الى الجـدة والاصالة . والبحث لا يبدأ من فراغ ، اذ لابد من أن يبدأ من فكرة يراها الباحث جديرة بالبحث ويتخذها منطلقاً للبحث ، الذي تتضح معالمه وحدوده خلال التقدم والتوغل فيه ، فقد يقوده هذا التوغل الى اظهار جوانب مهمة لم يكن يدركها عند ابتدائه في البحث ، أو قد يتبين له عدم أهمية بعض ما كان يتصوره مهماً عند بـدء البحث . فاختيار الموضوع ووضع خطة عامة مسبقة لهيكله ونطاقه هما مجرد دليل عام مرن لمجرى البحث ، وليس بقيد صارم له .

تحـديد العنـوان :

ولما كان عنوان البحث ينبغي ان يعبر بدقة عن نطاق البحث ، فانه لا يمكن ان يتقرر الا بعد اكمال وضع اسس البحث والخطوط العامة لهيكله ، أي انه يكون تاليا للبحث وليس سابقا له ، غير ان العنوان ينبغي مع دقته ، أن يكون مقتضباً ومعبّراً .

ان أهمية العنوان لا تحجب الحقيقة المسلّم بها وهي ان قيمة البحث تقوم بالدرجة الاولى على المادة التي فيه من حيث حقائقها وترابطها واسلوب عرضها . فمادة البحث هي الاساس ، والموضوع انما هو دليل على المـادة التي يحتويها البحث ، وتشابه العناوين قد يدل على التطابق وخاصة في نشر المخطوطات وفي الترجمة ، ولكنه ليس دائما دليلاً على التطابق ، فقد يتشابه العنوان في بحثين ، ولكن محتواهما متباين جداً ، والامثلة على هذا كثيرة من مختلف المواضيع التي يختار لها عنوان « جامع مانع » مثل عنوان « المذكر والمؤنث » أو « التثنية والجمع » في علوم اللغة العربية ، ومثل « تاريخ » أية حقبة او شخص او اقليم في التاريخ ، او دراسة أية منطقة في الجغرافية مثلاً ، فتشابه العناوين لا يستلزم دائماً تشابه مادة الابحاث ، ولا يصح أن يتخذ دليلاً على « الاقتباس » أو « السرقات الفكرية » .

معيار الاهمية في البحث :

ان اختيار مواضيع البحث هو عمل طوعي يتم على اساس مايراه الباحث مهماً ويرغب في متابعة البحث فيه لاستجلاء غوامضه وتوضيح معالمه ، فهو يتوقف على الباحث بالدرجة الاولى، ولا يؤثر في ذلك احتمال قبوله مقترحات خارجية عنه ، لان هذه المقترحات لا يكون لهـا اثر الا اذا وافق الباحث على القيام ببحثها ، فهو المسؤول الاول عنها ، وفي اختياره للموضوع دلالة على توجهه الفكري •

واذا كانت أهمية البحث تتوقف على ما فيه من عمق وشمول وجدة ، فان أهمية « الموضوع » تتباين تبعاً للجهة التي يسهم في توضيحها ، وهي قد تكون مما يشغل الناس من قضايا آنية معاصرة ، أو قد تكون ممّا له أهمية في مجرى الفكر بعيداً عما ينشغل به الناس ، وتظهر أهمية هذا عندما يمر المجتمع بمرحلة من التطور السريع الحاسم ، وتعرض له قضايا ومشاكل قـد تمس مصيره ومستقبله ، فتكون لمثل هذه الابحاث اهميـة في توضيح كيان الامة وبنائها وتقرير مستقبلها ، والغالب ان مثل هـذه الابحاث تلقى اهتماما من الناس واقبالاً واسـعاً عليها ، وهـذا يجعلها موضـع تشـجيع من الجهات الحكومية التي كثيراً ما تغدق عليها الهبات لمـا تتوقعه من مردود نافع في الاعمار والبناء • وتقدير الناس لمثل هذه الابحاث ورواجها بينهم ، والكسب المعنوي والمادي الذي توفره يدفع الكثيرين الى التوجه للاسهام فيه •

غير انه يجب أن تتـذكر ان لـكل عصر مشـاكله ولكل زمان قضايا تشغل الناس ، والغالب ان هذه المشاكل والقضايا هي مرحلية ومؤقتة ، وتتبدل بتبدل الزمان ، الأمر الذي يجعل لمثل هذه الابحاث ، مهما كانت شـعبيتها واثارها ، قيمة محددة بالزمان والمكان ، فهي تسـد حاجات مؤقتـة لمجتمع محدود ، وتضعف اهميتها بتبدل الاحوال على مر الازمان • ومن الطبيعي ان

درجة اهمية هذه المواضيع تتناسب مع مدى استجابتها لتطلعات العدد الاكبر من المجتمع ، وعلى أهمية القضايا التي تعالجها ومدى سعة وعمق التوضيحات التي تقدمها .

غير ان في ميادين البحث مواضيع لها أهمية « عالمية » وليست محلية ، فهي قد توضح مجرى الفكر في الماضي ، وفي مجتمعات غير التي يعيش فيها الباحث ، وبذلك تكون معزولة عن المجتمع الذي تكتب فيه ، ويكون الباحثون فيها من أهل « البرج العاجي » الذي قد يلقون تقديرا من مجتمعهم ، ولكنهم لا يلقون تشجيعاً واسعاً أو دعماً مادياً . والامثلة على هذا في الغرب كثيرة ، منها الباحثون في علم الآثار وتتبع دراسة نشأة وتطور الانسان وخاصة في الازمنة السحيقة وفي المناطق النائية عن مكان اقامة الباحث ، ويمكن أن نضع في هذا الصنف الابحاث التي يقوم فيها الباحثون في بلد ما عن أحوال بلد آخر ليست له صلات سياسية أو ثقافية مع بلده ، فأبحاث كرستنسن الدانماركي عن تاريخ الساسانيين ، والدراسات الاسلامية التي يقوم بها السويديون في جامعة ابسالا ، والحفائر الآثارية التي يقوم بها اليابانيون في العراق لا يمكن ان تنسب الى النفع المادي الذي تجلبه للباحث أو لامته ، وهي تجعله يعيش في « برجه العاجي » ، ولكنها ذات أهمية بالغة لمجتمعات اخرى او لمجرى الفكر العالمي ، وهي تكسب البحث خلوداً اعمق ، وتزيد من مكانة الامة التي تجري فيها هذه الابحاث « الغريبة » عنها ، وعلى المؤسسات الاكاديمية الا تهمل مثل هذه الابحاث ، وان تضع على نفسها المسؤولية الكبرى في رعايتها وانمائها ، بجانب الدراسات التي تعكس اهتمامات المجتمع .

الباحث وأهمية دافعه الذاتي :

للباحث دور أساسي في البحث ، فهو الذي يختار الموضوع ويجمع

أجزاءه ، ويرتب مادته ، وينظم عرضه ؛ وبدون الباحث لا يمكن أن يقوم أي بحث ، ولذلك يجدر عند دراسة اعداد البحوث ، أن نخص الباحث بنصيب يتناسب مع دوره وأثره في البحث ، وهذا يتطلب التطرق الى الامور المؤثرة في تكوينه ، من توفر الاهتمام والولع ، والقابلية ، والتدريب ، وتيسير الجو الملائم لقيامه بالعمل •

ان البحث في أساسه هواية منبعثة من رغبة ذاتية باطنية عند الباحث بصرف النظر عن المغريات المادية أو نتائج البحث أو التشجيع ، فالتشجيع ينمي ولا يخلق الاهتمام ، والمغريات المادية تقدم العمل ولا تبدأه ، وبدون الاهتمام لا يتم البحث ، والدافع الذاتي الذي يدفع الفرد للبحث في الميدان الذي يرغب فيه ، وللموضوع الذي يختاره تأثير فعال في الجهد الذي يبذله الباحث ، والمثابرة التي يتابعها للقيام به ، والوقت الذي يكرسه لانجازه •

والقوة الباطنية الدافعة للعمل عميقة في النفس ، تتصل باتباع غريزة حب الاستطلاع ، والتأكيد على الذات ، والتعبير عن الاسهام في تقدم الامة والانسانية ، فضلاً عما قد يؤمله الباحثون من المنافع المعنوية والمادية ، والاهتمام عامل في تثبيت مكانة الفرد في المجتمع ، وازدياد الباحثين من مظاهر تقدم حضارة الامة ، ولاريب في ان من أبرز الأسس في تقدير العرب ابان ازدهار حضارتهم هو العدد الكبير ممن أسهموا منهم في دراسة الفكر وانماء الحركة الفكرية بما بذلوه من جهود ، وما أنتجوه من أبحاث ، قاموا بها من أجل كشف الحقيقة ، وبدوافع ذاتية ومن دون اغراءات مادية ، فكانت دخول معظمهم قليلة ، ومجالات ربحهم محدودة ، ولكنهم رضوا بذلك ، وانصرفوا عن الاهتمام بتوفير المادة والترف ، من أجل تحقيق ما تصبو اليه نفوسهم من البحث والاهتمام به •

فالاهتمام والرغبة الذاتية أساسية ، وكلما ازدادت قوتها ودام اندفاعها كانت أقوى أثراً ؛ ولا ريب في ان أثر الاهتمام والولع يزداد وترتفع مكانته اذا اتسع نطاقه ، واستوعب ميدانه ، وحقق أكبر قسط مما يصبو اليه ، غير ان عدم تحقيقه ذلك لا يسقط دوره ولا ينفي أهميته .

والرغبة في البحث تبدأ من مشاكل أو قضايا يدركها الباحث ويفكر فيها ويسعى الى فهمها وتوضيحها ، وقد يتطلب ذلك وقتاً غير قصير ، وقد يقوده التفكير الى نتائج سلبية ، أو يفتح له آفاقاً جديدة ، وبذلك يعمق علمه ويتسع ويتجدد ، على ان استمراره في البحث يتطلب توفر الحرية له ، ويقتضي منه أن يسمع آراء الاخرين في بحثه ، فالحرية التي يطلبها يجب ان تمتد الى رحابة صدره في سماع آراء الآخرين ، ومن هنا يقتضي على الباحث الا يعزل نفسه ، وأن يعرض على الناس ثمار اهتمامه ، لان العزلة كثيراً ما تؤدي الى ضيق الافق والجمود ووقوف النمو .

العمل الجماعي في الدراسات الانسانية :

مهما كانت القوة الدافعة للفرد كبيرة ، واهتمامه واسعاً ، وطاقته عظيمة ، فان انجازه لابد أن يكون محدوداً وكثيراً ما تقتضي معالجة ذلك بعمل جماعي يشترك في القيام به أكثر من شخص واحد ، ومثل هذا العمل الجماعي قد يطبق في ميادين كثيرة ، سواء في ميدان التأليف أو الترجمة أو النشر ، ونجده اليوم أكثر شيوعاً في ميدان نشر المخطوطات وخاصة في الاحوال التالية :

أ ـ الكتب الضخمة والكبيرة التي يصعب على فرد واحد النهوض بانجازها كاملة على وجه مرضي بمدة قصيرة مثل كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني ، والمغني لابن قدامة .

ب ـ الكتب التي يضم كل منها موضوعات متعددة مثل كتاب مسالك الابصار ، أو التي فيها تراجم رجال منوعي الثقافة •

ج ـ الكتب التي يبحث كل منها مدداً زمنية طويلة لكل مدة خصائص ومميزات مثل كتاب تاريخ الطبري •

لا يقتصر العمل الجماعي على نشر المخطوطات ، وانما يسري على الترجمة والتأليف •

فأما في الترجمة فان الكتب ذات الموضوع الواحد ، وخاصة التي ألفها شخص واحد ، قد تقتضي سرعة العمل في انجازها ، وخاصة اذا كانت كبيرة الحجم ، الى توزيعه على أكثر من شخص واحد يقوم كل منهم بترجمة قسم محدد ، وتتطلب الدقة والامانة اشراك من يدقق في الترجمة ، ومن يدقق في الصياغة اللغوية ، وقد يجتمع العملان في شخص واحد أو قد يوزع على أكثر من شخص تبعاً لضخامة العمل وتوفر الامكانيات ، وقد يكون القائمون على تدقيق الترجمة والصياغة هم نفس المشاركين في الترجمة ، ولكن يبقى عملهم في ذلك متميزاً ، وتقضي الامانة بذكر أسماء القائمين بالتدقيق في الترجمة أو في الاسلوب ، وقد تذكر الاسماء على غلاف المطبوع أو في مقدمته ؛ ومن الواضح ان عمل المدقق يكون محدداً عندما يكون المترجم متمسكاً من عمله ، غير انه لا يمكن ذكر مقدار اسهام كل منهم في العمل ، رغم ما قد يثيره هذا الاغفال في الذكر من مجال المبالغة في حدس دوره •

أما في التأليف فقد يقوم كل مؤلف بكتابة جزء محدد من الكتاب ، أو قد تخلط معلوماتهم في كل فصل ؛ وخاصة اذا اعتمدوا فيهما على مصادر واحدة محددة ، وأكثر ما يجري هذا في المؤلفات « الرسمية » والكتب المنهجية ، حيث توضع أسماء المؤلفين جميعاً على الغلاف ، غير انه في أحيان اخرى يكتب اسم كاتب كل فصل بازاء الفصل الذي كتبه •

والغالب في الكتب التي يشترك في تأليفها أكثر من كاتب ، وجود تفاهم وانسجام بين المؤلفين ، غير انه قد يفرض العمل على أفراد غير منسجمين، وهذا خاصة في الكتب التي تؤلفها جهات رسمية ، الامر الذي يفسح المجال للارباك والتقولات •

يتطلب العمل المشترك وجود مشرف عام واحد او عدد محدود من ذوي الخبرة للقيام بالتنسيق العام والمتابعة ، وتتطلب منه هذه المهمات أن يكون ذا مكانة علمية متميزة في ميدان المؤلف وأن يكون ذا كفاءة في الاشراف والتنفيذ •

ان عمل المشرف يشمل :

١ ــ تيسير المتطلبات المادية للقائمين بالعمل •

٢ ــ تأمين الاتصال مع الجهات التي يهمها العمل ، سواء المؤسسات الحكومية أو المؤسسات الرسمية والاهلية أو الناشرين •

٣ ــ متابعة تقدم العمل والحث على انجازه في وقت محدد •

ان هذه الاعمال تتطلب أن يكون المشرف متمكناً في ميدان العلم الذي يعرضه الكتاب ، وله كفاءة ادارية تتصف بالنشاط والقدرة على المتابعة وابداء المشورة والحسم في القضايا التي تتطلب ذلك ، وان تكون له مع من يعمل في التأليف أو الترجمة أو التحقيق علاقة تعاونية طيبة •

والمشرف بالاضافة الى متابعته عمل المؤلفين أو المحققين أو المترجمين ، مسؤول عن اظهار الكتاب بالمظهر اللائق في الدقة العلمية وفي شكل الاخراج •

التدريب على البحث :

للتدريب على البحث أهمية كبرى في تحقيق انجازه ، فهو يهدف توفير

الوقت والجهد من أجل الحصول على أدق النتائج بأقصر وقت ، فضلاً عن انه يولد الثقة في نفس الباحث ، ويزيد من شغفه بما يجنبه الانزلاق في المتاهات المربكة التي تخلق السأم والملل ، وتولد اليأس وتفقد الثقة ، وبذلك تضعف الرغبة في العمل وقد تقتلها .

والتدريب يقوم على شخص الباحث ، فهو الذي يدرب نفسه على البحث ، ويكشف طرقه ، ويتعرف على أفضلها ، ومن المعلوم ان طرق البحث متعددة ، وأساليبها مختلفة ، والباحث هو الذي يقرر أجداها وأنفعها ، وأمتن الطرق هي ما يتعلمها المرء بنفسه ويجربها فتتضح له فوائدها ، ثم يسير عليها ويطبقها في الابحاث التالية ، وكلما ازداد تمرّس المرء في البحث تعددت الطرق التي تتضح له فائدتها في البحث وتيسر له السير عليها . ولاريب في ان هذا الكشف والمران يلقي على الباحث المبتدىء عبئاً ثقيلاً ، وقد يعرضه لاضاعة وقت غير قليل ، فاذا تقدم به الزمن وازدادت خبراته ، تيسر له تقرير الطريقة التي يتبعها ، وسهل عليه السير عليها وتطبيقها ، وفي هذا يختلف الباحثون في العلوم الطبيعية عن الباحثين في العلوم الاجتماعية ، فكثير من أنبغ المبدعين في العلوم الطبيعية قدّموا وهم في سن مبكرة أعمق آرائهم وابداعاتهم ، أما في العلوم الاجتماعية فان تشعب المواضيع وتشتت مادتها وتشابك العلاقات بينها يمنع الجمود على طريقة واحدة ، ويلزم بتنويع الطرق ، كما يقضي بالصبر والاناة وتوفير الوقت لاستكمال جمع المادة ، ومعرفة مختلف جوانب الموضوع وتعلقاته ، وبالتالي وضعه بالشكل القريب الى الكمال . فاذا كان النبوغ في العلوم الرياضية والطبيعية يظهر عند من هم في الثلاثينات من عمرهم ، فان الابداع والاسهام الناضج في العلوم الاجتماعية قلما يظهر قبل تجاوزهم الاربعينات من العمر .

ومما يقصر وقت التجارب ويزيد في خبرة الانسان معرفته ثمار تجارب الممارسين ممن سبقوه ، وتتم هذه المعرفة أحياناً بالاطلاع على ما كتب في ذلك ، وهي كتابات بعضها عامة يحاول مؤلفوها وضع قواعد مثبتة لطرق البحث ، ومثل هذه الكتابات مفيدة ، ولكن فوائدها محدودة ، فهي تبحث في امور عامة وقلما تعالج تفاصيل التنويعات التي تلائم المواضيع الخاصة المتنوعة، كما انها باستيعابها القواعد العامة تذكر كثيراً مما لا ينفع في التطبيق ، ولا اريد أن أبحث ما وضعه الباحثون العرب من قواعد لدراسة الحديث النبوي وصلوا فيه الاوج من الدقة والشمول في النظريات ، ولكن اورد مثلاً من حجة معتمد في العصر الحديث هو سينوبوس الذي لايزال كتابه من اتقن الكتب في شرح طرق البحث في التاريخ ، وهو يضع للمؤرخ المعتمد مواصفات جسمية وعقلية لو أردنا أن نطبقها على من توفرت فيهم شروطه لما استطعنا البحث ، لاننا نكاد نجهلها كلها •

ان أكثر الباحثين قديماً وحديثاً نشروا ثمار أبحاثهم وما توصلوا اليه دون ذكر الطرق التي اتبعوها في الحصول على الحقائق التي عرضوها ، فاذا أراد الباحث الاستفادة من هذه الكتب باستنباط الطرق التي اتبعوها فلابد له أن يبذل جهوداً مضنية لا تؤتي الا بثمار قليلة لا توازي ما بذل فيها من جهود ، فضلاً عن ان هذه الطرق قد تكون خاصة بمن طبقها ، ولا تفيد كثيراً الآخرين في تطبيقها على بحوثهم •

وصف بعض المؤلفين الطرق الخاصة التي اتبعوها في الناشيء ، الا ان أمثال هذه الكتب قليلة ومتفرقة في معظم العلوم الانسانية ، وان كانت متزايدة في دراسات علم النفس والتربية •

مكانة « المعلم » في التدريب :

للمعلم مكانة اساسية في التدريب على البحث وذلك لانه يتصل بالطالب

اتصالاً شخصياً مباشراً مستمراً يقدم خلاله المعلومات والتوجيهات وما له من الخبرات أو الآراء والمقترحات ، وهو يثير في الطالب التفكير ، وينبهـه الى جوانب متعددة من الموضوع الـذي يعنى بدراسته فهـو يطلع الطالب على الابحاث المكتملة ، كما يعرض له الابحاث التي في دور التكوين مع الاشارة الى ما هو جدير بمتابعة الدراسة وما يستحق الاهمال .

دور الجامعة في التدريب على البحث :

ان « المعلمين » يتواجدون في المدارس الثانوية ، والجامعات ، ومراكز أو مؤسسات البحث العلمي ، غير ان انصراف المدارس الثانويـة الى العناية بالتدريس والنشاطات الاجتماعية ، وتركيز مراكز البحث العلمي على البحث ذاته يجعل واجب التدريب على البحث متركزاً على الجامعات لاسباب منها كثرة عدد طلبتها ممن هم في مستوى النضج المؤهل لتقبـل التدريب، ولان الجامعات فيها عدد كبير من الاساتذة ، ومجهزة بمقدار واف من الكتب التي تكفي لتدريب الطلبة في عدد غير قليل من فروع الدراسات الانسانية .

وللجامعة بجانب العناية بالبحث العلمي واجبات اخرى ، منها التدريس وتقديم معلومات بمستوى لائق للطلبة ، ومنها العناية بانماء المواهب الفنية والجوانب الاجتماعية والرياضية ، اذا لم نضف اليها التوجيهات السياسية . وتمر الجامعات في العالم عامة ، ومنها العراق ، بتطورات واسـعة تؤثـر سلبياً في دورها في التدريب على البحث العلمي ، ومن أبرز هذه التطورات ازدياد عدد الطلبة في الجامعات بصورة لا تتناسب مع تكيفها للحفاظ على رسالتها في تحقيق واجباتها التي ذكرناها . وقد تجلت آثار ذلك في تزايـد الاعباء على الادارة وعلى الاسـتاذ ، مما أدى الى تناقص الاهتمام بالبحث العلمي والتدريب عليـه .

ومن أبرز مظاهر التطورات الحديثة في الجامعات توسع الادارة وازدياد أهميتها حيث ألقي عليها واجب معالجة آثار التوسع وما يتصل بـه من توفير الابنية والتجهيزات ، وكذلك النظر في ما يتعلق بسلـوك الطلبة وتصرفهم ، وتنظيم سجلاتهم وما يتعلق بمعيشتهم :حياناً ؛ بالاضافة الى العـدد الكبـير من القضايـا المتعلقـة بقبولهم ودراسـتهم والنـاجمة عن تعقـد النظـم التربوية وتعددها ، فضلاً عن القضايا الناجمة عن العلاقات المعقدة المتطورة مع رئاسة الجامعة ومؤسسات الدولة الاخرى ، وكل هذا يؤدي الى ان تصرف ادارة الكليات والجامعات معظم جهودهـا على معالجة الجـوانب الادارية ، والتركيز على الاهتمام بالتدريس ، خاصة وان الجهاز الاداري الذي يساعدها في ذلك محدود العدد والخبرة ولم يتوسع بما يتناسب مع هـذه التطورات الواسعة السريعة ، فقلّت العناية بالبحث العلمي ومتطلباته .

لهذه التطورات آثار واسعة على أعضاء الهيئة التدريسية ، فازدياد الطلبة مع عـدم توفـر الابنيـة عولج في الغـالب بتقسيم طلبة الصف الواحـد في القسم الواحد الى عدة « شعب » ولم تحصل زيادة في عدد التدريسيين تتناسب مع هذه الحاجة المتزايدة ، فزيد عدد المحاضرات التي يلقونها ، وكانت هذه الزيادة متباينة ، ومعدلها خمس ساعات اسبوعية ، ولكنها تصل الى خمس عشرة ساعة ، أي أن التدريسي أصبح يلقى ما يصل الى ثلاثـين محاضرة في الاسبوع ، مما يسـتنزف جهـده ووقتـه ، ولا يتيح لـه الوقت الـكافي للتفكير والتأمل والاستزادة من القراءة ومتابعة البحث ، فضلاً عما يسببه من ارهاق وملل .

والغرض من المحاضرات في الجامعة هو تقديم معلومات بمسـتوى جامعي مقبول ، والاشارة الى المواضيع الجديدة بالبحث ، والتعريف ببعض الابحاث التي يجرى القيام بها ، والتدريب على البحث . غير ان المحاضرات

الكثيرة قد يتكرر فيها القاء نفس المعلومات فتولد السأم في الاستاذ ، أو تكون منوعة لا يتيسر تنقيحها ومراجعتها وتجديدها ، مما يؤدي الى ان يتحول التدريس الى مجرد تلقين بالسماع أو بتملية محاضرات يتكرر القاؤها سنوياً دون تطوير أو تجديد ، وفي كل هذه الاحوال لا تؤدي المحاضرات الا غرضاً واحداً من أغراضها ، ولا يحظى البحث بالاهتمام المناسب •

دور الاستاذ في التدريب على البحث :

خصصت النظم الجامعية المراحل التالية للدراسة الاولية للتدريب على البحث ، الا ان هذه المراحل تعرضت الى تطورات متتابعة من أبرزها ان زاد فيها عدد المحاضرات التي تعرضت في كثير من الاحيان الى التطورات التي حلت بها في مرحلة الدراسة الاولية الجامعية ، غير ان الهدف الرئيسي من هذه المرحلة ظل ثابتاً في التدريب على البحث ، وان كان قد تعرض الى ما يؤثر في تحقيق هدفه بالمستوى المعقول •

والتدريب يتوقف على المدرّب والمدرَّب ، أي على الطالب والاستاذ ، والمفروض في الطالب ان لا تكون له عند ابتداء تدريبه خبرة بالبحث ، وانما يتوفر فيه الاهتمام والرغبة في القيام في البحث ، وكذلك معلومات عامة « هامشية » عن الموضوع ، اما الاطلاع الواسع المتعمق فليس شرطاً أساسياً عند البداية ، لأنه يأتي تالياً بتقدم البحث • ودور الاستاذ « المدرّب » هو الاشراف على البحث ومتابعة العمل لانجازه ، واعانة محدودة في التعرف على مصادره ، وتقدير لتوجه السير فيه وتجنيب انحرافه الى ما لا علاقة له بالموضوع ، أو لا جدوى منه في البحث القائم • وكل هذا يقتضي أن تكون للمشرف رغبة في الاشراف ، واطلاع عام على نطاق البحث ، وقدرة في الحكم على المهم فيه ، ووقت كاف لمتابعته ، أي أنه يتوقف

على مستواه العلمي ، بما في ذلك الاطلاع والتجدد ، وعلى توفر الوقت الكافي للقيام بالعمل ، وعلى اخلاقية تقوم على الامانة والصراحة والصلابة .

ان المؤهلات الاولية لمعظم التدريسيين هي شهادة الدكتوراه أو شهادة الماجستير مع سنوات خبرة اضافية ووجود قلة ممن شهاداتهم العالية لا توازي سمعتها مستوى معلوماتهم وتفكيرهم لا يطعن في الاتجاه العام الذي تشير الشهادات فيه الى مستوى مقبول في العلم والتفكير . غير ان المشكلة في العراق تقوم على مدى استمرار المدرس في انماء المعلومات والتفكير والخبرة في البحث مما يمكنه من القيام باشراف فعال . ومن الحقائق المعروفة اليوم ان التدريسيين في كثير من الجامعات الاجنبية ينتجون بعد سنوات محددة من عملهم أبحاثاً متقنة تفوق في عددها ما ينتجه زملاؤهم العاملون في المؤسسات العراقية ممن لهم نفس المؤهلات الاولية التي للعاملين في المؤسسات الاجنبية .

يرجع بطء نمو العاملين في البحث في العراق الى نقص في المصادر والاجهزة ، وخاصة ما يستجد منها ، وصعوبه الحصول عليها ، وقلة العناية بمتابعتها وضعف الرغبة في الحصول عليها .

ذكرنا ان المثل الاعلى في البحث هو الاصالة والاضافة الى المعرفة ، وهذا يتطلب في الابتداء معرفة عامة بما تم انجازه كيما تتسنى الاضافة اليه وتحسينه وتحاشي تكراره ، وبدون هذا الاطلاع لا يمكن تحقيق أية اصالة واضافة . ويتلو ذلك توفير المصادر وتيسير الافادة منها . ان أهمية هذا العامل تحملنا على ان نفرد له دراسة خاصة تتناسب مع أهميته ، ويكفي هنا أن نذكر انه تتوفر في بغداد خاصة من المطبوعات ما يكفي أن يكون أساساً للابحاث في كثير من العلوم الانسانية ، وخاصة التاريخ بنطاقه الواسع ، والادب العربي ، وكثير من علوم الدين الاسلامي . غير ان النقص

قائم في متابعة انماء الموجود بما يستجد ، وتيسير الحصول على ما يحتاجه البحث مما لا يتوفر .

عوائق النمو الفكري :

لم يعمل على الاستفادة من المصادر المتوفرة في العراق الا عدد قليل من التدريسيين والباحثين ، اما الغالبية المطلقة منهم فلم يعملوا على الاستفادة منها ، لا لنقص في مؤهلاتهم التي ذكرنا ان الشهادات التي حصلوا عليها هي دليل على تأهلهم وقدرتهم على الافادة منها ، انما يرجع الى قلة الوقت المتوفر للافادة منها ، وضعف الرغبة في ذلك . فأما قلة الوقت فيرجع كثير من أسبابه الى ان معظم الاساتذة يصرفون وقتاً طويلاً على القاء المحاضرات الكثيرة ، والانشغال بأعمال لا تتصل بالاستزادة من المعرفة ، كمتابعة نشاطات الطلبة في ميادين خارجة عن العلم ، والاسهام في أعمال ادارية واشتراك في لجان ، وأداء الواجبات الاجتماعية ، والعمل على الحصول على متطلبات المعيشة المتزايدة والمتعرضة لتبدلات واسعة غير مستقرة . ان هذه الاعباء لا ينفرد فيها التدريسي في العراق ، وانما هي قائمة في معظم البلاد بما فيها الاقطار الغربية ، اذ ان كثيراً من الاساتذة البارزين في معظم الجامعات يواجهون متطلبات أعمال ادارية ونشاطات اجتماعية واسهام في لجان واشتراك في اعداد تقارير تتخللها مناقشات فرعية تستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً على حساب ما يخصص للبحث .

والاختلاف الاساسي ، فيما أرى ، بين اثر ذلك على الاستاذ في الغرب وصنوه في العراق ، هو ان هذه الاعمال « الجانبية » المستنزفة للوقت لا تؤثر في تقدير أهمية البحث والرغبة في متابعته ، ولا تسد كلياً أبواب معرفته بما يستجد من أبحاث وما يتم من دراسات .

يرجع تناقص الاهتمام بالبحث وتقلص الرغبة في متابعته في العراق الى ما في الوضع العام من أحوال تؤثر في الباحث فتضعف قوته الدافعة الى البحث • ونشير منها الى قلة الباحثين المعنيين بمتابعة الدراسة ممن يمكن الاتصال بهم والتباحث معهم ومبادلتهم الآراء والأفكار مما يزيد في المعلومات ويوسع الآفاق ويثير التفكير لا في ميدان الاختصاص فحسب وانما في ميادين المعرفة الاخرى التي يختلف مدى صلتها بموضوع الاختصاص والتي لا تضم كثير من جامعات الغرب خاصة أكثر من واحد فيه ينمو لا بالاتصال مع آخرين لهم نفس اختصاصه ، وانما بالاتصال مع الباحثين في ميادين اخرى ، فيخلقون بيئة « فكرية » نشطة ، وينمون الرغبة في الاستزادة منه •

وتجدر الاشارة الى آثار بعض الموروث من أساليب المعاملات والممارسات الاخلاقية كالعلاقات العائلية والقبلية والبلدية والمحلية التي توثق روابط بين أفراد محددين الى درجة قد تؤثر على احكامهم ، وكذلك التعصب الفردي الذي يدفع البعض الى الحصول على منافع مادية وأساليب قد لا يكون بعضها مطابقاً للمثل الاخلاقية الحميدة • وهي حالات تزيد في التشويش بالرغم من انها لا تلقى التقدير والاحترام مما يجعلها محدودة ويعرضها للتضعضع ، ولكنها على أي حال تكون مصدر قلق يؤثر في توجيه الطاقات للبحث •

مراكز اخرى للبحث :

ان الجامعات هي المراكز الرئيسة للتدريب على البحث وانجازه ، ولكن عملها لا يقتصر عليه أو ينحصر فيه ، اذ ان عليها أعمالاً اخرى ، كما انها ليست المراكز الوحيدة للبحث ، فبجانبها مؤسسات مخصصة للبحث وحده ، أو تقوم به بجانب أعمال اخرى مطلوبة منها • والغالب ان هذه المؤسسات مختصة

بالبحث في ميدان واحد محدد ، كمؤسسة الآثار المختصة بالأبحاث الآثارية ، ومراكز الابحاث الاقتصادية والادارية ، وكذلك أقسام الابحاث في عدد من الوزارات بما فيها التخطيط ، والزراعة ، والري ، والصناعة ، وكذلك بعض المؤسسات التابعة لمنظمات عربية ودولية • كل هذه المؤسسات تقوم بأبحاث اختصاصية للاغراض التي انشئت من أجلها ، وأغلب هذه الدراسات ميدانية تتركز أبحاثها على أحوال العراق بالدرجة الاولى ، ونكتفي هنا بالاشارة اليها دون بحث تفاصيل أوضاعها مع تقديرنا لمكانتها وأهمية أبحاثها •

وللمجمع العلمي مكانة خاصة في البحث العلمي في العراق ، اذ انه مؤسسة قامت لتحقيق هذا الغرض ، وقد تم اختيار أعضائه على أساس طول ممارستهم في الابحاث وتميزهم منها ضمن اختصاصاتهم • غير ان تنوع اهتماماتهم ، والاعباء الملقاة على بعضهم من أعمال خارج المجمع ، وسعة ميدان المعارف التي اختصوا بها يتطلب اعداد برامج مرحلية محددة يعملون على تحقيق كل منها ضمن مدة محددة ، لتتلوها دراسة مواضيع اخرى •

استخدام الاجهزة والآلات في البحث :

ان الانسان هو قوام البحث العلمي وعماده ، وهو يتم بحثه باستخدام حواسه وعقله ، ومهما كانت أهمية الحواس فان امكانياتها محدودة ، ولذلك ابتدعت الأجهزة والآلات والمكائن لتساعد الحواس وتكملها في توسيع الادراك وتنميته ، فالتلسكوب يمكن الانسان من ابصار ما لا تدركه العين المجردة من اجرام بعيدة ، والمجهر ييسر مشاهدة دقائق الاجرام والمواد ، غير انها في كل الاحوال تعتمد على الحواس ، ويتوقف دورها على دقة حواس الانسان وسلامة فكره في ادراك ما تتوصل اليه الحواس والآلات المكملة لهـا •

كانت أهمية الآلات والأدوات في البحث دافعاً لحدوث مبتدعـات

وتحسينات واسعة وعميقة على ما يستعمل في مختلف ميادين المعرفة ، وبمختلف المقاييس الدقيقة أو الضخمة ، وتشير الدلائل الى ان « حمّى » الابتداع والتحسين فيها سائرة بأقوى مظاهرها ، وان ما نراه اليوم « جديداً » و « كاملاً » منها لن يمر عليه الا وقت قصير ليصبح « عتيقاً » قاصراً عن تأدية كل الاغراض .

ان البحث العلمي في العراق لا يستغني عن استعمال الآلات والأدوات ، وبالنظر الى ان امكانيات العراق محدودة في المال وعدد الباحثين وميادين البحث ، فلابد له ان يراعى في الاختيار أحدث الاجهزة ، وأن يوفر من يحسن استعمالها والافادة منها ، وامكان ادامتها .

يواجه تنفيذ الامور الثلاثة صعوبات ومشاكل غير قليلة ، فان اسهام عدد كبير من الافراد في مختلف الاقطار بالاختراعات والابداعات، أدى الى زيادة كبيرة في الاجهزة والى تطورات متتابعة فيها ، والى صعوبة متابعة وحصر هذه التطورات ومعرفة احدث الاجهزة ، وما فيها من تحسينات، غير ان المعرفة حتى لو تحققت لن تكون الا خطوة أولى تتلوها معرفة المصدر الذي يمكن الحصول عليها منه وتدبير المال اللازم ، وخاصة في الاجهزة المكلفة الثمن . والواقع ان توفر المال وحده غير كاف لعلاج المشكلة ، لان متابعة شراء أحدث الاجهزة يؤدي الى تراكم الاجهزة القديمة التي يقل استعمالها عند توفر الاجهزة الاحدث ، ويتطلب اماكن لخزنها ، أو هدراً في التخلص منها باتلافها أو بيعها ان وجدت لها شارياً .

ومما يتصل باقتناء الاجهزة صيانتها وادامتها ، خاصة وان كثيراً منها ، بما في ذلك الصغيرة الحجم ، تكون دقيقة التكوين معقدة التركيب ، وأي خلل قد يعطلها كلياً ، ويتطلب اصلاحها وادامتها فنيين متمرسين والا انعدمت الفائدة منها .

وعلى أي حال فان الاجهزة تتطلب من يجيد تشغيلها واستعمالها وقيامها بتأدية أغراضها بدقة •

ان اقتناء الافراد من المعنيين بالبحث الاجهزة الخاصة بالبحث من آلات طباعة واستنساخ وتصوير وغيرها ، من شأنه ان يعين المقتنين على اجرائهم الابحاث ، ويخفف الاعباء عن الدوائر الحكومية التي عليها أن تقوم بالكثير من متطلبات الافراد اذا لم تتوفر لهم هذه الاجهزة • وان تقييد استعمالها لاسباب أمنية يسبب عرقلات على عموم البحث والحركة الفكرية أكبر بكثير من المنافع المرجوة من التقييد •

واقتناء الافراد للاجهزة لاستعمالها لاغراض « تجارية » ييسر لبعض الباحثين الافادة من استعمال الاجهزة الحديثة • ويتميز بحرصهم على اتقان عملها وصيانتها • وكل هذا يكون مبرراً لتيسيرها وتقليل القيود عليها كيما يتيسر انتشارها فتسهم في خدمات الافراد عموماً والباحثين خصوصاً ، غير ان الأفراد مهما ازداد عددهم فانهم لن يستطيعوا سد كافة الحاجات من الاجهزة ، لأن متطلبات البحث كثيرة ولها ظروف خاصة فلا تستطيع تلبية كافة طلبات المؤسسات الحكومية ، كما انها كثيراً ما تكون عبئاً على الافراد الباحثين وأكثرهم ذوو دخل محدود •

وتمتلك كثير من المؤسسات الصناعية والتجارية أجهزة وآلات ومختبرات تفيد البحث وتخدمه ، بالاضافة الى خدماتها لتحقيق أغراضها الانتاجية الخاصة ، ويتيح كثير من هذه المؤسسات للافراد استخدام هذه الاجهزة والافادة منها في القيام بأبحاث خاصة •

ان الدولة بامكانياتها المادية الكبيرة ، وماليتها الغنية ، وطموحاتها الواسعة هي أكبر مؤسسة تستطيع توفير الاجهزة والادوات التي قد تكون

للبحث الخالص ، أو لاغراض نفعية اخرى ولكن يمكن ان يفيد منها الباحثون. غير ان هذه الامكانيات الكبيرة للدولة ينبغي الا تقود الى الاسراف والتبذير في جلب ما لا يمكن الاستفادة منه حالياً ، أو ما يمكن التعويض عنه بما هو موجود . ان هذا الاقتصاد ينبغي ان يراعى خاصة في الاجهزة المعقدة الغالية، كالآلات الحسابة التي يمكن أن تقوم واحدة بتقديم الخدمات التي تتطلبها عدة دوائر وجهات . فالتنسيق والتعاون أمر أساسي وينبغي أن يعطى الأولوية ، وهذا يتطلب بدوره قيام هيئة منسقة تشرف على اختيار الاجهزة وتراعى فيها التنسيق وتفرض التعاون بين المؤسسة .

يعتمد نوع الاجهزة والمواد على المواضيع المطلوب أو المزمع دراستها ، ولكن ينبغي الا تطول المدة بين توفير الاجهزة والمباشرة بالدراسة ، أي لا توفر اجهزة على افتراض استعمالها بعد سنين كثيرة في المستقبل ، ولعل أربع سنوات هي الحد المناسب بين اقتناء الاجهزة واستعمالها .

المدونات والمطبوعات :

ان المدونات المكتوبة هي المعتمد الاكبر للباحثين في معرفة ما تم من الابحاث التي تؤثر في تنظيم عمله ، ومن الحصول على المادة الاولية التي تقوم عليها الابحاث التالية ، والاطلاع على طرق البحث التي اتبعت والاساليب التي استخدمت ، مما يستفيد منها الباحث في اختيار الطريقة الاكثر ملاءمة أو لاكمال ما قصر الاخرون في تحقيقه .

والمدونات المكتوبة متعددة فهي تشمل المخطوطات والكتب والمقالات والوثائق . فأما المخطوطات فقد تكون لمؤلف حي أو لمؤلف توفي وانتهت حياته فيكون استعمالها ملكاً مشاعاً ، وفي كلتا الحالتين تقتضي الامانة العلمية والمبادىء الاخلاقية بالاشارة الى مؤلفها عند الاستفادة أو الاقتباس

منها ، وأن يكون مقدار الاقتباس في حدود معقولة اذ أن الاقتباس الحر الواسع منها ، أو من الكتب المطبوعة دون الاشارة الى مصدر النقل ينافي الاخلاق ويتطلب تشريع قوانين رادعة تصاغ بما يؤمن حقوق المؤلف الاصلي ، وباعتبارها تجاوزاً على الحق العام من القيم الاخلاقية فيسري على كل منشور ينسبه شخص لنفسه وهو ليس مؤلفه •

يمر الاستنساخ والطباعة بتطورات واسعة ، حتى انه يمكن القول بأن التقدم التقني الذي حدث فيها ابان العقود الثلاثة الاخيرة يفوق ما تم منذ اختراع الطباعة وانتشار استعمالها ، وبهذا التقدم أصبح متيسراً الحصول على أحدث ما وصل اليه التطور الحديث من أجهزته وتقنياته وأساليب عمله والذي يتجلى في أجهزة الاستنساخ بما فيها الاستنساخ المطابق للاصل ، والمكبر ، والمصغر في الرقيقات وألواح الرقيقات المصغرة « الميكروفيش » ، وقد عم استعمال أجهزة الاستنساخ وأصبح يستعمل لاستنساخ عدد قليل أو كبير من النسخ لخدمة الافراد والجماعات ، ويؤدي خدمات كبيرة •

أما الاستنساخ بالرقيقات فأكثر ما استعمل في تصوير المخطوطات والوثائق مما يسر الحصول على نسخها من عدد كبير من الاقطار ، غير ان الصعوبات التي تواجه استعمالها من دقة خطها ، وعدم وضوح التصوير أحياناً ، وضرورة وجود جهاز خاص لقراءته ، وصعوبة ادامة حفظه ، كل ذلك حدد من استعماله وحصره بعدد محدود وزاد من أهمية الاستنساخ التصويري •

أما ألواح الرقيقات المصغرة « الميكروفيش » فان صغر حجمها ودقته ضيّق من انتشارها وحدد من استعمالها ، حتى انها تكاد اليوم تكون في حكم العدم •

المطبوعات والكتب :

بدأ ظهور المطبوعات العربية منذ بدء الطباعة في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وتتابعت ووصلت في السنوات الاخيرة مستوى عاليا من الاتقان في السرعة والكمية ، ورافق ذلك في هذه السنوات الاخيرة التوسع الكبير في عدد وتقنية أجهزة الاستنساخ ، كما ازداد عدد البحوث بدرجة كبيرة تتجلى في عناوين البحوث التي تسجلها ما يسمى « مجموعات التوثيق » التي تصدر دورية وتذكر مجرد عناوين ما يستجد من البحوث ، وهي تبلغ في بعض فروع المعرفة العلمية عشرات الآلاف سنوياً . ان هذا الازدياد واضح في البحوث في المواضيع العلمية الصرفة والطبيعية والطبية ، وهو يرجع الى اهتمام التطورات الحضارية بالمواضيع العلمية التي تؤثر نتائج أبحاثها في التقدم المادي والفكري ، والى تزايد عدد الجامعات وتوسعها ، وظهور مؤسسات رسمية وغير رسمية تكرس جهودها للابحاث العلمية وترصد لها مبالغ كبيرة مما يؤمن للباحثين مكانتهم ويزيد في التعاون بينهم أو بين المؤسسات التي ينتمون اليها .

وامتد هذا التوسع الى نشر الابحاث في ميادين المعرفة الانسانية وان كان مقداره أقل نسبياً ، ولكنه ظل واسعاً تسهم فيه عدة جهات حكومية من وزارات التربية والتعليم والثقافة والجامعات والمؤسسات ودور النشر ، بالاضافة الى ما يقوم به الافراد من طبع كتبهم على حسابهم الخاص ، والواقع انه يصعب اعداد قائمة بالمؤسسات التي تقوم بطبع الكتب العربية واصعب منه متابعة ما يتم نشره

تظهر بعض الفهارس المطبوعة المقدار الكبير مما يطبع في العربية من مؤلفات ومترجمات ومنشورات بشكل كتب ويكفي ان نشير الى ان الثبت الببيلوغرافي للاعمال المترجمة بين سنة ١٩٥٦ ــ ١٩٦٧ م الذي صدر باشراف

متابعة المطبوعات :

بدر الديب ذكر اسماء قرابة ٣٥٠٠ كتاب مترجم في مدة احدى عشرة سنة ، فكيف بعدد ما ترجم قبلها وبعدها في مصر وغيرها من البلاد .

ويتجلى تزايد المطبوعات من الكتب من فهارس الكتب المطبوعة في بعض المكتبات العامة . فدار الكتب المصرية التي عنيت بنشر فهارس ماتحتويه من الكتب العربية ، أصدرت من هذه الفهارس ثمانية مجلدات ضخمة مصنفة حسب المواضيع ، وأتبعتها بملاحق من عدة مجلدات ضخمة يضم كل منها أسماء الكتب التي صدرت بعد نشر الفهارس ومرتبة كتبها حسب الموضوعات والمؤلفين ، وهي متتابعة حسب السنين ، بالاضافة الى عدد من المجلدات الضخمة التي يختص كل منها باسماء كتب في موضوع واحد مما طبع في مصر وغيرها ، علماً بأن فهارس دار الكتب لم تستوعب كل ما طبع حتى في مصر نفسها ، فضلاً عن كثير مما يصدر في البلاد العربية الاخرى .

تلزم القوانين في بعض البلاد العربية ايداع نسخ مما يصدر فيهما من مطبوعات في مكتبات رسمية معينة ، وتنشر بعض الدول قوائم دورية بعناوين المطبوعات المودعة فيها وأسماء مؤلفيها ، ولهذه القوائم فوائد كثيرة في معرفة ما يصدر من الكتب وييسر متابعة ما يستجد من المطبوعات .

غير ان قوانين الايداع حديثة لم تظهر الا منذ سنوات قليلة ، وهي لم تعم كل الاقطار العربية ، ولم يكن توزيعها واسعاً ومنتظماً . وخاصة من المطبوعات الرسمية ، كما ان شمولها وسعتها واختلاط مواضيع الكتب التي تدونها ، يتطلب جهوداً كبيرة في جرد ما يتعلق بموضوع معين فضلاً عن تقدير اهميته .

وتصدر بعض الجهات الرسمية قوائم باسماء المطبوعات العربية والاعجمية

في مواضيع محددة ، وأغلب هذه المطبوعات تصدر بمناسبات سياسية أو استجابة لمشاكل آنية ، فهي غير شاملة أو منظمة .

ولقيت المطبوعات التراثية عناية من بعض الجهات، فنشر معهد المخطوطات العربية عندما كان مقره في القاهرة قوائم باسماء بعض الكتب التراثية التي ظهرت في حينه ، ويقوم المعهد بعد نقل مقره الى الكويت باصدار نشرة دورية بعنوان اخبار التراث ، ينشر فيها قوائم بما يطبع من كتب التراث ، ومعلومات عن بعضها .

وتصدر بعض مؤسسات النشر والتوزيع قوائم بالمطبوعات التي تتولى بيعها مما تقوم هي أو غيرها بطبعه ، وبعض هذه القوائم واسعة ومتجددة وفيها كثير مما يستجد ، كما تقوم بعض المؤسسات الرسمية باصدار قوائم بالكتب التي تطبعها ، كما ان بعض المؤتمرات والندوات العلمية تصدر قوائم بالكتب المتعلقة بمواضيع الندوة وبما يجري بحثه فيها .

يتبين مما ذكرناه ان فهارس منوعة ومتعددة تصدر في اماكن متفرقة من الوطن العربي والعالم بأسماء المطبوعات الصادرة ، وخاصة الحديثة ، وبالمتوفر منها في السوق . غير ان صعوبات جمة تواجه من يريد الافادة منها .

١ ــ ان هذه الفهارس غير منتظمة في صدورها ، واحياناً غير مستوعبة في مادتها ، وهي في الغالب تعنى بالمطبوعات الحديثة ، وكثيراً ما يطبع مؤلف كتابا لا يُعلم به مؤسسات البيع ، وانما يقوم شخصياً بتوزيعه .

٢ ــ كثير من هذه الفهارس محدود التوزيع ، ولا يمكن الحصول عليه الا بطلب مباشر من مصدريه .

٣ ــ انها لا تشمل كل ما يصدر في كل اقطار الوطن العربي ومؤسساته وخاصة ما تصدره الجامعات وبعض المؤسسات الرسمية التي كثيراً ما لا تصدر فهارس بما تطبعه ولا تعلن عما تطبعه وقلما تعنى بتوزيع نشره على المكتبات للبيع •

٤ ــ كثيراً ما يتكرر ذكر الكتاب الواحد في أكثر من فهرس مما يؤدي الى الارباك والملل •

ان هذه الهنات لا تقلل من اهمية هذه الفهارس التي ينبغي ان تجمع ، ويجرد ما فيها وتنسق مادتها وتصنف الكتب التي فيها ، وهو عمل لا يتيسر الا بتوفر الامكانيات المالية والبشرية التي تستطيع انجازه •

الحصول على المطبوعات :

ان الكتب الاساسية للبحث العلمي الدقيق لا يعنى باقتنائها الا القليلون ، ولذلك لا يحرص على جلبها معظم أصحاب المكتبات الذين أغلبهم « باعة كتب » ويندر فيهم من له خبرة في ميادين البحث العلمي ومتطلباته واهتمام ببيعها ، كما انهم قلما يتصلون بمؤسسات البحث لاخبارها بما يردهم من كتب ، ويقابل ذلك ان المسؤولين عن انماء مكتبات البحث عددهم قليل وعليهم واجبات متعددة •

يتعرض استيراد الكتب في كثير من الاحيان الى اجراءات لتنظيم استيراد ما ينسجم مع السلامة الفكرية ، أو ما تتطلبه القيود المالية التي تسبب بطأً وقلقاً وكثيراً من الاتعاب التي تبعث على التماهل في المتابعة • ثم ان اقتناء الكتب ينبغي ان ترافقه خدمات مكتبية مؤهلة لتنظيم خزنها وتيسير استعمالها للباحثين •

لاريب في ان ايسر سبيل للحصول على المطبوعات يكون بمتابعة مايرد الى مكتبات البيع المحلية ، وهذا يتطلب متابعة مستمرة لما يردها من الكتب ، علما بان معظم اصحاب مكتبات البيع يعنون بالسوق وما يطلبه العدد الاكبر من المعنيين بالقراءة ممن يؤمون مكتباتهم ، ولا يعنون بالتعريف بما يصلهم من الكتب .

كل هذا يتطلب بذل جهود كبيرة للحصول على المطبوعات الجديدة المهمة التي تخدم البحث العلمي . ولا ريب في ان المؤسسات الرسمية أكفأ من الافراد في تحقيق ذلك ويمكنها اتباع بعض وكل السبل التالية : ـ

١ ـ الافادة من تبادل مطبوعاتها مع المؤسسات التي تحدد عرض ماتطبعه ولا تعنى بتوزيعها .

٢ ـ السعي للحصول على قوائم مطبوعات مراكز الانتاج الفكري وعلى نسخ من مطبوعاتها المهمة .

٣ ـ متابعة ما يصدر من قوائم المطبوعات مما تنشره المؤسسات أو الدوريات المختصة .

٤ ـ متابعة معارض الكتب التي تقيمها بعض الدول والمؤسسات .

٥ ـ انماء الاتصال الشخصي بالمعنيين بالمطبوعات من الباحثين والمثقفين للاطلاع على ما يصدر من المطبوعات ، والعمل على الحصول عليها .

ويجدر ان نشير الى ان المكتبات المعدة للابحاث تختلف عن المكتبات المعدة للدراسات الجامعية والتدريس فيها ، اذ ان الاخيرة هي أحوج الى كتب محدودة من المصادر الاساسية والمراجع المتصلة بالمواضيع التي

تدرس في الجامعة والتي يرجع اليها الطالب للحصول على المعلومات والاستزادة منها ، فهي محدودة العدد ، والغالب انها من الكتب العامة المشهورة ، واقتناء أكثر من نسخة منها .

اما مكتبات البحث فتختلف أساسياً عن مكتبات مراكز التدريس نظراً لما تتطلبه من ضم أكبر عدد من المصادر والمراجع التي قد لا تستعمل الا في المستقبل البعيد ، ولا يرجع اليها الا لماماً ، ولذلك تكفيها نسخة واحدة من أي كتاب ، ولكنها تحتاج الى ان تضم عدداً كبيراً من الكتب .

اختيار المطبوعات :

ان غزارة انتاج المطبوعات في العالم يجعل توفير كافة الكتب المطبوعة خارجاً عن الامكانيات المادية والمالية لاية مكتبة فضلاً عن صعوبة الحصول عليها ، وهذا يقتضي الاختيار والتنسيق .

فأما الاختيار فالمفروض أن يكون للاهم فالمهم ، غير ان معيار الاهمية نسبي ، فالكتاب في موضوع ما قد يكون مهماً لباحث وغير مهم لآخر ، فقصة عنترة قد لا تكون مهمة لمن يدرس تاريخ العلوم ولكنها تكون مهمة لمن يدرس الادب الشعبي أو الفروسية أو روح العصر الذي كتبت فيه ، وكتب التعليم في الصفوف الاولى الابتدائية قد لا تكون مهمة للكثيرين ، ولكنها تكون ذات أهمية كبيرة لمن يدرس التربية واصول التدريس وما الى ذلك ، وكتب الفأل والسحر مثلاً قد تكون مهمة لابحاث اختصاصية متعمقة ، وقد تستجد في المستقبل مواضيع لا ندرك اليوم جدارتها في الدراسة .

ان الخطة العلمية المفضلة هي وضع برنامج منسق عند تأسيس المكتبات وانمائها يجلب بموجبه كافة المتيسر من الكتب في موضوع أو مواضيع محددة ، تبعاً لتوفر الامكانيات ، وبالتدريج ابتداءاً من الكتب المتعلقة بالابحاث الجارية أو المنوى اجراؤها قريباً على ان لا يهمل اقتناء المتفرقات عند توفرها ،

لان كثيراً من المطبوعات تنفد بسرعة ولا يمكن الحصول عليها بعد نفادها .

ان قلة المتيسر من الكتب وصعوبة الحصول على نسخ منها وما يتطلبه البحث العلمي من اقتناء مطبوعات نادرة لاستعمالها لاغراض محدودة غير متكررة يبرز قضية التنسيق بين مكتبات المؤسسات الرسمية في اقتناء المطبوعات ، فتعنى كل مؤسسة باقتناء الكتب والمطبوعات الداخلة ضمن اختصاصها وتيسر استعمالها للباحثين في المؤسسات الاخرى والافادة مما لديها من المطبوعات ، وخاصة الغالية الثمن والتي يصعب الحصول عليها ، ففي التاريخ مثلاً يمكن أن تعنى مكتبة مؤسسة الآثار بالحصول على الكتب عن التاريخ القديم والآثار وتعنى مكتبة المجمع باقتناء الكتب المتصلة بالحضارة العربية ابان ازدهارها ، وخاصة في ميادين اللغة والادب والتاريخ ؛ ومن الطبيعي ان هذا لا يعني أن تقتصر كل مكتبة على اقتناء ما يتصل باختصاصها ، وانما المقصود هو تنسيق اقتناء المطبوعات النادرة والقليلة الاستعمال ، أما الكتب الاساسية العامة المتوفرة فينبغي أن تتوفر منها نسخ في كل المكتبات .

التنسيق يتطلب تحديد المؤسسات التي تكون مكتباتها معدّة للبحث ؛ وتأمين التعاون الوثيق بينها وتيسير افادة الباحثين من خارج منتسبيها ؛ ويتطلب التنسيق نشر فهارس موحدة عامة يعرف منها مكان وجود كل كتاب مما يسهل الرجوع اليه والافادة منه .

ولا ريب في أن التنسيق أيسر بين مكتبات البلد الواحد وأصعب من مكتبات البلدان المختلفة ، وخاصة المتباعدة . ويتوقف نوع ومقدار المصادر المكتوبة للقيام بالبحوث العلمية المعتمدة على الموضوع الذي يدرس ، فبعض المواضيع تتطلب مصادر متعددة ومتنوعة ، وبعضها لا تتطلب الا مصادر

محدودة ؛ وعلى أي حال فان البحث العلمي المعتمد يستلزم توفير هذه المصادر والاطلاع عليها •

ان الوقت الذي ينبغي فيه توفير المصادر له تأثير كبير في انجازه أو عرقلته أو تعطيله ؛ ومن حيث العموم ينبغي توفير المصادر الرئيسة عند البدء بعمل البحث ، لان تأخيرها قد يثير القلق والاضطراب ويولد حالة نفسية غير مشجعة قد تؤدي الى التوقف التام عن متابعة العمل •

ان توفير المصادر الاساسية لبحث محدد أمر يسير ، أما توفيرها لكافة الابحاث المزمع القيام بها أو التي قد تبحث في المستقبل يخرج عن طاقة الباحث الفرد ويتطلب اسهام المؤسسات العامة في تحقيقه •

التدوين :

الكتابة التي تعد البحث للنشر هي الوسيلة الرئيسة في تثبيت الافكار التي يثمرها البحث العلمي والتمكين من التعريف بها وتوسيع نطاق الافادة منها عبر الزمان والمكان ، وبواسطتها يستفيد القراء الذين لا يتيسر لهم الاتصال الشخصي المباشر بسبب تباعد المكان أو الزمان ، أي ان فائدة التدوين لا تقتصر على المعاصرين بل تمتد الى الاجيال التالية • والافكار اذا لم تسجل تنسى وتضيع وتفقد أهميتها ، أما اذا سجلت فان معالمها تتضح مما يمكن من وضعها في نطاقها الصحيح ، أي تنظيمها ضمن صورة عامة توضح روابطها ، وهذا يستلزم الدقة في التعبير والوضوح في الاسلوب •

والتدوين يخرج الباحثين من عزلتهم التخصصية الضيقة رغم عمقها وينقلهم الى ميادين أوسع ، ويلقي عليهم واجباً ودوراً في الحركة الفكرية دون الاقتصار على البحث العلمي ، أي انه ينقلهم الى العمل لخدمة مجتمع أوسع دون الاقتصار على جماعة محدودة من المتصلين بالباحث اتصالاً شخصياً

مباشراً مهما كانت طول مدته وعمقه فهو محدود ، وبذلك يساعد النشر على انماء جو ثقافي عام مشترك ، وعلى تثبيت مكانة الباحث ويشجعه ، ويكشف المتين المتمكن ، ويميزه عن الضعيف المهزوز ، حيث يجعل الحكم عليه من جمهور واسع العدد .

ومن أول ما يثيره التدوين هو اللغة التي تكتب فيها الابحاث العلمية ، اذ انها قد تكون باللغة العربية أو باحدى اللغات الاجنبية العالمية . والتدوين بلغة أجنبية شائعة ييسر ان يطلع عليها معنيون من غير أبناء الامة ، ويتاح لها مجال اكتساب مكانة خارجية تعزز مكانة كاتبها ومكانة امته ، كما ان نشرها في لغة يعرفها كثير من العلماء والباحثين والناقدين قد تكون من الدوافع التي تحمل الكاتب على التدقيق فيها والعمل على رفع مستواها لتكون ملائمة لذلك المستوى . وتكون الكتابة بلغة أجنبية لازمة اذا كان البحث يقدم لمؤسسة تتطلب الكتابة بلغة أجنبية ، كأن تكون رسالة ماجستير أو دكتوراه أو بحثاً يقدم الى جامعة أو مؤسسة أجنبية ، غير ان الكتابة باللغة الاجنبية يحرم فائدتها من لا يعرف تلك اللغة من أبناء الامة ، ويضعف الثروة الفكرية في الامة ، ويؤثر في ثقتها بذاتها لانه يضع الحكم على المستوى بيد الاجانب ، كما انه يؤثر في مكانة الفرد في امته ، فالربح الناجم من السمعة العالمية لا يوازي الخسارة الكبيرة التي تحل بأبناء الامة . وقد يمكن التوفيق بين حفاظ الباحث على مكانته العالمية بجانب مكانته في الامة واغنائه ثقافتها بأن يعمل على نشر ترجمة أو ملخص للابحاث المكتوبة بلغة أجنبية التي يضطر الى نقلها الى اللغة العربيـــة .

اللغة العربية والمصطلح العلمي :

ان أهمية دقة التعبير ووضوح الاسلوب يتطلب اتقان اللغة لتكون أداة التعبير عن الانتاج العلمي والفكري ، وأساس اللغة المفردات التي يعبـر كل

منها عن فكرة أو يرمز الى شيء ، وبامكان كل انسان أن يستعمل لنفسه ماشاء من مفردات ، ولكنه اذا أراد أن يطلع عليها الاخرون فينبغي ان يستعمل مفردات بمفهومها عند الاخرين ، ومن هذا تبرز في العربية قضايا قد تكون خاصة بها ، أو انها أبرز منها في اللغات الاخرى ، ذلك ان مفردات العربية واسعة جداً ودقيقة وتراكمية وفيها كثير من المترادفات ، أي عدة كلمات للمعنى الواحد أو للمعاني المتقاربة ، ومجال توسيعها مع الاحتفاظ باصولها واسع ، كما أنه توجد فيها كلمات يطلق كل منهما على معنيين متناقضين « أضداد » فالفوائد الكبيرة من سعة اللغة العربية ترافقها صعوبات وعدم التغلب عليها يعرقل تثبيت ونشر البحث العلمي فيها بالمستوى المنشود .

يدعي البعض لزوم استخدام احدى اللغات الاجنبية في تدوين منتوج البحث العلمي لان أغلب الابحاث التي تعبر عن آخر التطور والتقدم في العلوم مكتوبة باللغات الاجنبية ، وان سعة وسرعة هذا التقدم رافقهما توسع في استعمال مفردات أو مصطلحات في تلك اللغات تدفع كثرتهما الى الاخذ بسياقها من تلك اللغات ، ولكن هذا الادعاء لا يمكن قبوله قط في الابحاث داخل الوطن العربي ، لان كتابتها بلغة أجنبية يخلق في الباحثين ازدواجية في التفكير بلغة ما يكتبونه ، ولغة ما يتحدثون به في محيطهم ، ومثل هذه الازدواجية تشوش التفكير وتعرقله وتضيع كثيراً من الجهد ، وتقلص الانتاج ، ويمكن متابعة الاطلاع على المنتوج العلمي الجاري باللغات الاجنبية من اتقان تعلم مرحلي لتلك اللغات على ان لا تحل محل اللغة الاصيلة ، ونشر نص أو تلخيص الابحاث المكتوبة بالعربية الى اللغات الاخرى، ولتحقيق ذلك ينبغي البحث في الاساليب والاحوال التي تيسر اتقان اللغة الاجنبية للباحثين ، بما لا يطغى على اتقان اللغة الوطنية .

ان المفردات هي أسماء لمسميات تختلف في سعتها تبعاً للنمو الحضاري

والفكري ، فكلما اتسعت الحضارة ازدادت المسميات وكثر تداول أسمائها ، وكلما ضاقت وتقلصت ، انكمشت وقلت ، والاصل في المسميات أن تسود في مجتمع أفراده متصلون ببعضهم ، فهي محدودة بالحدود المكانية لذلك المجتمع ، غير ان الاتصال الحضاري يضيف الى ذلك المجتمع مسميات مما في الحضارة الاخرى ، وأسماء جديدة لما تستعمله تلك المسميات فتزداد المفردات ولكنها تبقى في تطبيقها العملي مقصورة على ما في حضارة المجتمع الذي تسود فيه ، ومن هنا قد يصبح للمسمى أكثر من اسم واحد وهو ما نسميه بالمترادفات وأحياناً بالاضداد .

غير ان تقلص الحضارة قد يؤدي الى العكس ، فتقل المسميات ويهمل استعمال أسمائها ، فتضمر اللغة ، وهذا الضمور قد يقتصر على العامة من المجتمع ، وقد يمتد الى العلماء ، وللعالم حضارة قائمة في ذاته ، وقد تكون حضارته أوسع من حضارة المجتمع الذي يعيش بين أفراده ، فيستعمل كلمات خاصة به ، غير انها تكون محصورة فيه مقصورة على من هم في مستوى فكري يؤهلهم لفهمه .

ان اللغة العربية بامتدادها الزماني والمكاني اكسبت مفرداتها سمات مميزة ، اذ شملت هذه المفردات مسميات متعددة ومنوعة من أرض وما فيها من تربة وتضاريس وتماسك ، ومياه وما فيها من مجاري ، ومحاصيل نباتية وحيوانية ، وأحوال مناخية ، وامور تتعلق بأعضاء الانسان وتركيبه وتطوره وسلوكه الفردي والجماعي ، بالاضافة الى مظاهر الحضارة الاخرى . وساعد تنوع مظاهر الطبيعة منذ أقدم الازمنة على كثرة المسميات والاسماء وتعددها .

ان معلوماتنا عن مفردات اللغة العربية في العهود السحيقة في القدم نزرة يسيرة لقلة الوثائق المكتشفة المكتوبة فيها ، غير ان هذا النزر لا يناقض ما نعرفه عن أول أوجها في أواخر العصر الجاهلي وعند نزول القرآن الكريم

حيث كانت لغة عامة نزل فيها القرآن الكريم « قرآناً عربياً غير ذي عوج » ، وقد سجل القرآن الكريم عدداً كبيراً من مفردات اللغة العربية لا في المسميات المادية فحسب ، وانما أيضاً في مسميات النظم الادارية والسياسية والاجتماعية بالاضافة الى ما يتعلق بطرق المعرفة والتفكير والعقائد ، وفي ما وصل الينا من الشعر الجاهلي الذي يرقى الى قرن أو يزيد قبل ظهور الاسلام مفردات كثيرة لم تتم فهرستها حتى الان ، وكذلك في الاحاديث النبوية التي تمت فهرستها ، مع احتمال بعض التبديل الذي جرى عليها ابان تناقل رواياتها .

تاريخ المصطلح :

يظهر القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر الجاهلي مدى كثرة المسميات وتعدد أسمائها في العربية ، فهي تعبر عن أحوال طبيعية ومادية واجتماعية وسياسية وفكرية متنوعة وواسعة ، وكلها تقريباً تعبر عن بيئتهم وحياتهم المادية والاجتماعية والسياسية ، ولا ريب في ان اصول بعضها ترجع الى أزمنة موغلة في القدم ، ونظراً لقلة الوثائق المتوفرة فانه لا يمكن تتبع تطورها عبر تلك الازمنة .

ولما كوّن العرب دولتهم الواسعة بعد الاسلام ، ازدادت معرفتهم بالمسميات المادية والادارية والاجتماعية والفكرية ، فأبدعوا لبعضها أسماء من لغتهم ، وأبقوا على مسميات اخرى بلغاتها الاعجمية ، وتعرضت الى تطورات واسعة كثير من مسمياتهم القديمة ، وخاصة في الميادين الاجتماعية والفكرية والادارية ، ورافق هذا التطور اعداد معاجم مختصة بجانب معين من المسميات أو عامة لمختلف الجوانب ، وكانت أكثر المعاجم قبولاً هي التي أعدها علماء يقدرون ثقافة عرب الجزيرة ، وخاصة القاطنين منهم في هضبة نجد والحجاز ، فتوسعوا في تثبيتها ، وقلما أشاروا الى الامتداد المكاني والزماني لاستعمالها فأصبحت عند الكثيرين معبرة عن اللغة العربية ومعياراً للاصالة العربية

ركّز أصحاب المعاجم على تحديد معاني الاسماء كما عرفوها من الشعر والقرآن الكريم والحديث النبوي وما سمعوه ابان القرنين الاولين وخاصة من الاعراب ، أو مما في أمصارهم دون ان يعنوا بايضاح التطور الزمني للمعاني أو مدى استعمالها ، فكانت مادتهم تراكميةً وليست تطوريةً تعبر عن السمات التي سادت ابان ثلاثة قرون ، وكان أكثر استعمالها في مناطق محدودة من جزيرة العرب ، ولم يعنوا بتسجيل ما كان مستعملاً في عدد من اقاليم الجزيرة الاكثر حضارة كاليمن وأقاليم جنوب الجزيرة وشرقيها ، كما لم يدخلوا الا في النادر أسماء ما اضيف اليها بعد توسع الدولة الاسلامية .

كانت العربية لغة الانتاج الفكري بمختلف ميادينه وصوره ، وبها كتبت المؤلفات بمختلف مظاهرها من رسائل أو كراريس أو كتب . ولم ينحصر المؤلفون فيها بمن كانت لغة الام عندهم هي العربية ، وانما عمت على من كانت لغة الام « أو البيت » التي ربوا عليها منذ أول نشأتهم غير العربية ، ويظهر ما وصل الينا من نصوص وأخبار ان اللغات الاخرى اقتصرت الكتابة فيها على الكتب الدينية غير الاسلامية ، كالافستا وكتب الزرادشتيين ، وربما المانوية ، وكتب اليهود والسريان ، علماً بأن الانجيل والعهد القديم ترجما الى العربية وكانا معروفين بهذه اللغة ابان ازدهار الحضارة الاسلامية .

ان عدم وصول شعر أو اشارات الى مؤلفات بالفارسية ابان ازدهار الحضارة الاسلامية هو دليل على انكماش استعمال الفارسية في أوساط المثقفين خاصة ، ويلاحظ ان الخط الفهلوي انحسر استعماله وانكمش ليقتصر على عدد محدود من الدوائر الدينية الضيقة ؛ وان كانت ارومتهم الفارسية ومن تعصب للفرس واعتز بهم وبتراثهم من الشعوبيين المتطرفين كانت كتاباتهم بالعربية ، كما ان مكاتبات الدواوين كانت بالعربية حتى في البلاد التي سيطر

على مقاليد الحكم والادارة فيها حكام من الاعاجم . وقد بدأ احياء استعمال الفارسية في القرن الرابع الهجري ولكنه كان في بدايته ضعيفاً محدوداً جداً ، ولا نعلم مدى انتشاره ، ولكنه اتسع في زمن السلاجقة ، وهم اتراك . وكان انتشاره ابان توسعه محدوداً ، فالكتب المؤلفة فيه قليلة اذا قورنت بالمقدار الكبير الضخم مما كتب بالعربية ، فاللغة العربية ظلت حتى في الازمة التي كثرت فيه الكتابة باللغات الاعجمية هي اللغة الرئيسة للفكر ، علماً بأن اللغات الاخرى ، وأبرزها الفارسية والتركية استعملت الخط العربي وأخذت كثيراً من المفردات العربية ربما تصل الى أربعين في المائة منها ؛ وليس من الصدف أن تكون الاوزان العربية في الشعر هي السائدة في الشعر الذي نظم بغير العربية . ولا ريب في ان اسلوب التفكير العربي والمفردات العربية كان لها دور كبير في انتشار الاوزان العربية .

ان هؤلاء المؤلفين والكتاب ابان ازدهار الحضارة العربية اختلفت اصولهم وارومتهم واللغة التي كانوا يستعملون عند بدء نشأتهم أو في بيتهم ، ولكن كتاباتهم كانت بلغة عربية سليمة في مفرداتها وتراكيبها واسلوبها ، وتبدو فيها السلاسة والانطلاق دون التعقد ، وفيما عدا بعض المتأدبين واللغويين فانهم كانوا يعنون باحكام الفكرة وتوضيحها ، وان التعقيد الذي يظهر في بعضها منبعث من تعقد الافكار لا لقصور وتعقد اللغة التي كانت تستعمل لاشعورياً الا فيما يتصل بالنقل من اللغات الاخرى . وهذا الانطلاق العام ظهر بتشابه أساليب كتاباتهم التي فيها قليل من المفردات الاعجمية ، كالتي اخذت من الاغريقية أو الفارسية ، أما غالبيتها المطلقة فهي عربية ، وان بعضها اتخذ له معاني متعددة تتجلى في الدراسات عن معاني بعض الكلمات .

تزايد تأليف الكتب في مختلف ميادين المعرفة : الانسانية والعلمية في زمن مبكر منذ أوائل قيام الدولة العباسية ، وخاصة منذ زمن أبي جعفر

المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ) وهارون الرشيد (١٧٢ ــ ١٩٣ هـ) أي في الزمن الذي بدأ فيه العلماء يجمعون مفردات اللغة العربية (وهو أصل المعاجم) وينمون علم النحو (سيبويه والكسائي) ووصل الانتاج الفكري مستواه العالي مع أو قبل نمو المعاجم • ولابد ان العلماء كانوا يعرفون العربية السليمة التي تختلف عن لغات الامم الاعجمية ، وعن العامية التي لا نعلم تفاصيل عن مدى شيوعها ، وان الطلاقة التي تتجلى في كتاباتهم تظهر ان القيود التي كانت مفروضة عليهم ضعيفة ، وانهم راعوا الاسس دون تعقيد التفاصيل والتبريرات التي تظهر في كتب النحو •

لا تتوفر معلومات شاملة توضح الطرق التي أمّن فيها النظام التربوي الذي كان سائداً ابان عز ازدهار الحركة الفكرية الحفاظ على مستوى طيب لكتابة المفكرين والعلماء العرب بمفردات دقيقة وأساليب واضحة ، وللقرآن الكريم دور أساسي كبير في تثبيت اللغة وسلامتها عند المسلمين ، وخاصة المختصين بدراسة « العلوم الدينية » التي تشمل علوم القرآن والحديث والفقه ، أما العلوم الرياضية والطبيعية التي كان كثير ممن اشتغل فيها ونقل كتبها الى العربية من النصارى ، وقد أشار الى ذلك عدد من القدماء ، فقال الجاحظ عن النصارى « ان منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك ، وأطباء الاشراف والعطارين والصيارفة »[1] « وان في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين »[2] ، وقال أبو الحسن العامري « ان الاكثرين من المترجمين كانوا يتدينون بالنصرانية وبالصباوة »[3] •

ويتجلى في ما نقلوه من كتب معرفتهم الغنية بمفردات اللغة ؛

(١) الرد على النصارى ١٧ .
(٢) الرد على النصارى ١٦ .
(٣) الاعلام بمناقب الاسلام ١٨٣ .

واتقانهم لتراكيبها ، وتعبيرهم بأسلوب سلس عن أفكارهم فيها ، وقد يكون مرجع بعض ذلك ان اصول معظمهم عربية خالصة . وقد ورثوا مع هذه الاصول العربية اللغة السليمة التي نظم فيها شعراؤهم ومنهم المبرزون أمثال عمرو بن كلثوم التغلبي ، والاخطل . وامتد ما ورثوه الى قواعد الكلام أي النحو ، والواقع ان أقوالا نقلت عن المختصين بالعلم فيها تقدير للنحو باعتباره لا يستغنى عنه في الصياغة الصحيحة للكلام السليم . والواقع ان علماء اللغة والنحو كان منهم مؤدبو أولاد الخلفاء ، وهذا يشير الى ادراك أهل العصر أهمية هذين العلمين في البناء الثقافي ، ومما يؤيد ذلك غنى كتب « العلم » العربية بالمفردات اللغوية العربية التي لابد ان معرفتها المتقنة لم تكتسب من مجرد « السماع الصدفي » ، وانما من تدريس دقيق متقن ممتد الى كافة العلماء بما فيهم النصارى ، وان لم تتوفر عنه تفاصيل وافية . ومن مظاهر الاهتمام بهذين الجانبين ان الفارابي في كتابه « احصاء العلوم » جعلهما القسمين الرئيسين لعلم اللسان[1] . وقد أدرك عدد من كبار المفكرين القدماء أهمية النحو في الكتابة ، فجعله الفارابي سابقاً للمنطق في تنظيم العلوم ، واعتبر صناعة المنطق تناسب صناعة النحو ، ذلك « ان نسبة صناعة النطق الى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو الى اللسان والالفاظ ، فكل ما يعطيناه علم النحو من القوانين في الالفاظ ، فان علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات »[2] ، وهو لا يرى ان الدربة والارتياض بحفظ الاشعار والخطب والاستكثار من روايتها يغني في تقوم اللسان وفي أن لا يلحن الانسان في قوانين النحو ويقوم مقامها ويفعل فعلها[3]

(1) احصاء العلوم ٥٧ (طبعة عثمان امين) .

(2) احصاء العلوم ٦٨ .

(3) احصاء العلوم ٧٢ .

ويذكر ان المنطق يشارك النحو بعض المشاركة بما يعطي من قوانين الالفاظ ، ويفارقه في ان علم النحو انما يعطي قوانين تخص ألفاظ امة ما ، وعلم المنطق انما يعطي قوانين مشتركة تعم ألفاظ الامم كلها[٤] .

وذكر أبو حيان التوحيدي « ما تعلم الناس الا من المعلم والعالم والنحوي »[٥] . ويدل سياق كلامه ان المعلم والعالم يعلمان علماً واحداً بمستويات مختلفة ، ولكنه يتميز عن ما يعلمه النحوي ، وقد وصلتنا أسماء عدد من علماء النحو المبرزين ، وأسماء كثير من كتبهم ، وبعض هذه الكتب التي تشرح علم النحو بقواعده وتفرعاته وتعليلاته وفرضياته التي لا يجيدها الا المتبحر ، وقد يضل فيها المبتدىء ، ولا نعلم ما كان يدرس من النحو ، ولابد انه كان مبسطاً يبرز فوائده العلمية التطبيقية دون الشواذ .

المصطلح العربي في الزمن الحاضر :

وفي الازمنة الحديثة توسعت في الغرب دراسة العلوم وازدادت العناية بها لما لكثير منها من آثار تطبيقية ، وكثرت فيها المنشورات المطبوعة من مقالات ورسائل وكتب ، معظمها باللغات الاجنبية ، وخاصة باللغة الانكليزية . وازداد ادراك العرب في نهضتهم الحديثة لاهمية العلم ، فكثر توجههم لدراسة مختلف فروعه ، ولما كانت كتب التراث العلمية لا تستوعبه ، فقد توجهوا الى البلاد الغربية للاغتراف من معينها والأخذ من ثمار جهودها فيه ، واتخذ هذا التوجه سبلاً متعددة ، منها متابعة كثير منهم دراسته في جامعات الغرب ومؤسساته ، ومنها اعتمادهم على الاساتذة الاجانب في تدريس هذه العلوم في المؤسسات التي تزايد عددها في البلاد العربية ، ومنها الاعتماد على الكتب المكتوبة باللغات الاعجمية لمتابعة ثمار البحث العلمي ، واتسم هذا البناء

---

(٤) احصاء العلوم ٧٦ ؛ وانظر ٧٧ .
(٥) الامتاع والمؤانسة ١٠٢/١ .

العلمي بالتخصص الدقيق المتعمق وبتزايد عدد المصطلحات الجديدة في كل علم ، يسهم في وضعها علماء متعددون من مختلف الاقطار ، وقد اتخذت مفردات هذه المصطلحات أسماء متنوعة ، بعضها مستمد من طبيعة العمل ومسماه من احدى اللغات القومية الاعجمية ، وبعضها من الاغريقية أو اللاتينية ، وبعضها من أسماء أشخاص ، وخاصة العلماء الذين كشفوا الحقيقة ، وفيها عدد غير قليل من أسماء تم اختيارها بصورة كيفية لا علاقة له بالمسمى الذي اطلقت عليه ، ومع ان كثيراً من هذه المصطلحات استعملت في أكثر من لغة ، الا انها من حيث العموم أصبحت السمة العالمية للعلم .

ان اتساع المعرفة العلمية ، وكثرة التشابك والترابط بين العلوم اقتضى أن تطول مدة تدريس العلوم ، وأن يتوسع الاعتماد على المصادر المكتوبة باللغات الاجنبية ، خاصة وان المفردات العامة في كتب العلوم الصرفة ، والرياضة والطبيعية ، هي أقل مما في كتب العلوم الانسانية ، وأدى هذا الى كثرة استعمال الكتب الاعجمية في تدريس العلوم ، وأخذ البعض يدعي أن اللغة العربية قاصرة عن مواكبة التقدم العلمي . وكانت حجتهم كثرة كتب العلم باللغات الاعجمية ، وتتابع تزايدها ، وقلتها بالعربية وان هذا يدعو الى استعمال اللغات الاعجمية في دراسة كل فروع العلم ، ورافقت ذلك أصوات تشير الى ما تراه قصوراً في اللغة العربية وفي مفردات للمسميات المتزايدة في التطور العلمي الأخير وتدعو الى التدريس باللغات الاجنبية ، والكتابة بها .

وقد أسهم في توسيع نشر هذه الآراء ومحاولة اخراجها الى حيز العمل جهات متعددة تتربص بالامة وتضمر لها الشر ، ذلك ان اللغة العربية هي ركيزة الهوية القومية ، وأساس تميزها وأكبر مقوم لاهلها ، فزوالها زوال للذات ، وترك الامة العربية لغتها يقطعها عن ماضيها ، ويجعلها تابعة ذيلية لغيرها ،

وفي زوالها خسارة لذاتها وللانسانية ، ولكن العربية أقوى وأمنع من أن تزول لانها ممتدة الى كافة الجهات والاوساط ، يثبتها استعمال كافة الناس لها ، ويعززها القرآن الكريم والدين ، ويقويها تراث غني ضخم هو ينبوع خالد ثر يغذي اللغة والفكر والروح ، « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ، فالتفكير في الاجتثاث « عبث » و « هراء » وقصره على دراسة العلوم يعزل العلماء من أبناء الامة ، ويخلق فيهم ازدواجية التفكير : لغتان احداهما في الدراسة والانتاج العلمي والاخرى في الحياة اليومية ؛ انها تولد تفككاً في التفكير والفكر ، وانفصاماً في الشخصية الفكرية ، وبلبلة تضعفه من كيانهم وذاتهم ، وهو ليس من مصلحتهم الخاصة ولا من مصلحة امتهم ، ولا من مصلحة الانسانية ، وهو ان افلح على نطاق فردي محدود ، فلن يفلح على نطاق واسع بأي شكل .

فرضت الدراسة في اللغة الاجنبية على من يدرس في الجامعات الغربية ، وعلى عدد محدود من الجامعات والكليات في البلاد العربية ، وخاصة في دراسة العلوم الصرفة والطبيعية والرياضية والطب ، فمكن الدارسين فيها من تعلم اللغات الاجنبية ، ولكن اسهامهم في البحث العلمي ظل محدداً فيها .

غير ان الادراك الايجابي للذات ، والشعور الواعي بأهميته ولاعتزاز به تنامى مع ازدياد نشر الثقافة ، وامتد الى مؤسسات التعليم ومعاهده ، وانحسر التعليم باللغات الاجنبية ولم يبق الا في مؤسسات ومعاهد وأقسام محدودة ظلت تتمسك به وتهمس بجدارته ، وتزايدت الجهود لتيسير استعمال العربية لتواكب التطور الحديث ، وكان المنطلق من أساس لاجدال فيه هو أهمية بقائها أداة للفكر بنطاقه العام الواسع بما في ذلك العلوم الصرفة والطبيعية ؛ ولما كان الموروث من البيت والحياة اليومية غير كاف لرفعه الى السوية المطلوبة ، فكان لابد من تخصيص دروس في مناهج التدريس لاتقان

العربية ، ورفع سويتها عند المثقفين •

تم القضاء على احلال اللغات الاعجمية في الحياة اليومية في البيت والمجتمع ، وانكمش التدريس باللغة الاجنبية في المراحل الاولى من التعليم ، وأخذ يتقلص في معظم فروع العلوم الانسانية حتى كاد يزول ، ولكنه بقي يسير زحفاً في بعض فروع العلوم الصرفة والطبيعية والطبية ، وكان زحفه عملياً لا يسنده صوت عال من الذين يأخذون به ويطبقونه ، وبدأوا يدركون ضعف الحجج التي يستندون اليها والاخطار التي لاتوازي المنافع من التمسك به •

ان المبدأ الاساس المثبت هو متابعة استعمال العربية لا في الحياة اليومية العادية فحسب ، وانما في التدوين الثقافي والعلمي بمختلف مستوياتها ، وبما في ذلك التعبير عن الانتاج العلمي بمستواه العالي كيما يواكب المستوى العالمي ويسهم في تقدمه • وقد رافقت ذلك كتابات مختلفة في عمقها ومستواها تظهر مزايا اللغة العربية وأهمية بقائها لغة الثقافة ، وأصبح استمرار الكتابة فيها للوصف لا للدفاع ، فقد استقر الايمان باستعمال العربية وعدم ابدالها وهو من السعة والعمق وقوة الحجة ما لا يحتاج الى دفاع •

اعداد المصطلح :

ان استعمال العربية أداة للتعبير عن الانتاج الثقافي عموماً والانتاج العلمي بالسوية التي تنشدها موازية للمستوى العالمي يتطلب معالجة عدد من الجوانب التي لا يكفي التراث الغني لتحقيقها ، ومن ابرز هذه الجوانب : معالجة المفردات ، والاسلوب وطريقة الكتابة •

فأما المفردات فان التوسع الكبير في ميادين العلوم تطلب تثبيت مسميات لأسماء ذات أهمية أساسية في كل علم ، وهي أسماء كثيرة وتتزايد بتقدم العلم • وقد واجه الباحثون الغربيون الحاجة الى المصطلحات فتنابعوا ابتداعها

من منابع متعددة ، فأخذوا بعضها من لغاتهم القومية وما ينسجم مع طبيعة عمل مسمى المصطلح ، وبعضها من الاغريقية واللاتينية اللتين كانتا لغة العلم في العصور القديمة والوسيطة وظلتا الى عصور قريبة مستعملتين في الكثير من جامعات الغرب ، وبعضها من أسماء الاشخاص المبدعين لها ، وبعضها وضعت بصورة كيفية ، ولكن تعميم استعمالها جعلها جزءاً من الكيان اللغوي لتلك الأمم بصرف النظر عن اصولها وانطباق معناها على ما سميت بـه ، وبذلك كانت مظهراً لنمو تلك اللغات ، واعطيت لها « الشرعية » بتدوينها في المعاجم المعتمدة التي تستمر بزيادة أو تعديل معاني المفردات فيها . وأصبحت هذه المصطلحات مألوفة عند من يدرس مصادر العلم باللغات الاجنبية .

ان الكثرة الهائلة من هذه المصطلحات ، واستمرار تزايدها جعل عدداً من الباحثين الذين يكتبون بالعربية يبقون هذه المصطلحات بلفظها الاجنبي ، وبالحروف الاجنبية أحياناً ، وقد يرجع بعض ذلك الى انهم ركـزوا على « المادة » و « الموضوع » دون اللغة ، لان كثيراً منهم ثروته اللغوية غـير واسعة ، ودراستهم فيها محدودة ، ولا يتوفر لهم الوقت الكافي للتعريب .

غير ان كتابة أي بحث بالعربية مترع بمصطلحات أجنبية يشوه انسجامه ورصانته ، لان المصطلح ، مهما كانت اصوله ومظهره ، هو جزء منسجم مع الكيان الثقافي والحضاري ، وان أخذ الغربين من اليونانية واللاتينيـة لا يناقض كيانهم لان لهاتين اللغتين مكانة في هيكلهم الثقافي ، كما أن المبتدعات الغربية مستمدة من بيئتهم ، وبذلك تناسقت هذه المصطلحات مع الهيـكل الثقافي الغربي وأئمته .

غير ان استعمال المبتدعات من المصطلحات الحديثة بحرفيتها يختلف في العربية عنه في الاعجمية ، وذلك لكثرتها وغرابة معظمها عن الهيكل الثقافي العام ، والتمسك باستعمالها بشكلها الغربي يجعل كتابة البحث مشوهة وغير

منسجمة ، تخلق ازدواجية في التفكير والذوق الثقافي ، وتضعف الثقة بالذات التي تكون اللغة خير معبر عنها .

المصطلح في العلوم الصرفة والانسانية :

اتخذ نقل العلم الحديث الى العربية سبيلين متكاملين هما النقل بالشفاه في التدريس والمحاضرات ؛ والنقل بالتدوين في الابحاث والكتب المنشورة سواء كانت مؤلفة أو مترجمة ؛ غير ان تعدد السبل لا أثر له في وحدة الهدف، وتطلب تحقيقه معالجة أوضاع خاصة ذات أهمية كبيرة ، منها ان تعريب المصطلح يتطلب فهماً دقيقاً للعلم الذي يستعمله ، واللغة التي كتب فيها ذلك العلم ، والهيكل الحضاري الذي نشأ فيه ذلك العلم ، وبجانب هذا يتطلب احاطة واسعة بتركيب اللغة العربية ومفرداتها ونحوها وصرفها وادراك واعٍ أو ذوق فكري يمكنه من اختيار الصيغة التي يراها ، : هل هي اقتباس الكلمات القائمة ، أو نحت أو تركيب ، أو اختيار خاص ؛ وفي كل هذه الاحوال ينبغي أن تتوفر النية الصادقة لأهمية العمل وفائدته ، غير انه يمكن أن يجد فيهما وضعين متمايزين : أحدهما يتعلق بمصطلح العلوم الصرفة (بما فيها الرياضيات والطبيعيات) والثاني يتعلق بمصطلح العلوم الانسانية . فأما في العلوم الصرفة فان أكثر المتعمقين فيها معلوماتهم محدودة في التراث العلمي العربي وفي ثروة اللغة العربية وقواعد نحوها وصرفها ، وبالمثل فان المتبحرين بالعربية ليست لهم معرفة واسعة بحقائق العلوم الصرفة ، الأمر الذي يؤدي الى صعوبة التنسيق بين مدلول المصطلح وما يقتضي ان يختار له من مسمى ؛ ولذلك كان التباطؤ والاضطراب واضحين في مصطلحات هذه الميادين ، بالرغم من المفردات العامة التي تستعملها الكتب العلمية غير كبيرة .

اما العلوم الانسانية فان المفردات فيها كثيرة ، ومعظمها مستمد مما استقر استعماله في اللغة المكتوبة فيها ، غير ان تطور هذه العلوم وتركيز

الباحثين فيها اهتمامهم على عرض الافكار دون تدقيق اختيار المفردات ، أدى الى كثرة هذه المفردات وتعدد معاني كثير منها، مما يتطلب لامجرد معرفة اللغة التي كتبت فيها كتب العلوم الانسانية فحسب، وانما تتطلب أيضاً معرفة مفهومها عند الكاتب ذاته ، ويتصل بهذا غنى اللغة العربية بمفردات ممكنة الاستعمال في العلوم الانسانية الحديثة ، ولكن كثيراً من هذه المفردات متقاربة المعنى والفروق بينها دقيقة ، حتى حسبها الكثيرون مترادفات وما هي بذلك ، وان ادراك الفروق الدقيقة بينها يفوت على كثير من المتبحرين بالعربية ، فكيف بغيرهم ، كما ان لبعض المفردات عدة معانٍ بسبب تطورها الزمني أو الى تحديد معانيها باختلاف المجتمعات المتعددة ، وان عدم تعمق الباحث العربي في ذلك قد يزيد الأمر تعقيداً حيث كثيراً ما يستعمل لا شعورياً في كتاباته كلمات لا يدقق في اختيارها لتطابق ما يريد التعبير عنه .

وقف بعض المراكز المختصة بتدريس العلوم الرياضية والطبيعية والطبية بصورة عامة موقفاً معارضاً للتعريب محتجين بقلة توفر المصادر العربية في هذه العلوم ، وكثرة المدرسين والاجانب المشرفين على تدريسها في البلاد العربية ، اضافة الى ان التدريس بالعربية ونشر الابحاث فيها يضعها في نطاق اقليمي ضيق ، ويعرقل متابعة الابحاث في الغرب حيث يتوفر عدد من المختصين المشرفين والاجهزة والآلات .

غير قوة المعارضين بدأت تضعف ، وأصواتهم تخفت ، ونسبتهم تتناقص ، وذلك بتنامي الشعور القومي الذي من أقوى مقوماته اللغة ، وكذلك لقوة الحجج التي يصعب نقضها من ان التدريس والبحث في لغة أجنبية يولد في فكر الطالب والباحث ازدواجية في التفكير تتعبه وتشوش ذهنه وتعزله عن مجتمعه ، ويضعف حصوله على تقدير العدد الكبير من أبناء العربية ، علماً بأن المدافعين عن استعمال العربية في التدريس والبحث لا ينكرون بوجوب

العناية بتعليم الطلبة لغة أجنبية تيسر لهم متابعة دراسة ما يكتب بتلك اللغة وقد يمهد الى اعدادهم لمتابعة الدراسة والبحوث في الخارج • وقد أسهم عدد من الاساتذة العرب في هذه المراكز باعداد معاجم اختصاصية في تعريب المصطلحات تيسر استعمالها •

العاملون في تعريب المصطلح :

بدأ التعريب في الزمن الحديث بجهود فردية قام بها الباحثون فاستعملوا كلمات عربية اختاروها لتعبر عن المصطلحات الاعجمية ، وكان كثير من أوائل القائمين بها من المتبحرين باللغة العربية وليس في تلك العلوم ، وتجلى هذا في ما انجزه رفاعة رافع الطهطاوي والناقلون للعلوم التي دُرّست في مدارس الطب والهندسة في مصر أيام محمد علي •

وتتابع تعريب المصطلحات بجهود فردية متفرقة ، ومختلفة في مقدارها ، وكان غرض معظمها تعميم الثقافة بين الناس ، وخاصة بعد توسع النشر في المجلات أو في الكتب التي تعرض للعامة ، ومما قواها توسع انتشار القراءة وتزايد الرغبة في الثقافة ، وتنامي الشعور بالذات والحرص على توطيده • ورافق ذلك تزايد نشر الكتب التراثية ، من المعاجم وكتب العلوم العربية التي فيها ثروة يمكن الافادة منها في اختيار التعابير العربية للمصطلحات الاعجمية • وقد حققت هذه الجهود الفردية انجازات كبيرة في كثير من ميادين العلوم ، وساعد استعمالها في الكتب على تثبيتها ، غير أن مدى انتشارها كان متبايناً تبعاً لمدى انتشار هذه المؤلفات ، كما أنها لم تكن موحّدة أو منسّقة ، فكان أثرها محدوداً •

ووضع عدد من ناشري كتب التراث فهارس في التعابير العربية التي استعملت في الكتب التي نشروها ، ومقابلها الاجنبي ، وكان هذا خاصة في كتب الادوية المفردة والطب ، ونشر بعضهم قوائم بالمصطلحات العربية التي

استعملها العرب في بعض العلوم ، كما الحق عدد من المؤلفين والمترجمين فهارس بالتعابير العربية التي استعملوها ومقابلاتها الاعجمية .

وظهرت قواميس كان لابد لها ان تثبت المقابل العربي للمصطلحات الاجنبية ، كما ظهرت معجمات اختصاصية في علم خاص نذكر من أبرزها معجم شرف الطبي ، ومعجم مصطفى الشهابي في النبات . وكانت لهذه المعاجم منفعة كبيرة بسبب ما بذل فيها من جهد ، ولانها جمعت شتات معلومات متفرقة ووضعتها في كتب يمكن الحصول عليها ، وزاد من مكانتها سعة معرفة مؤلفيها ، وحرصهم على العربية فكانت مراجع للمعنيين ، ومعتمداً للكثيرين .

وازدادت المعاجم في السنوات الاخيرة ، وقامت عدة مؤسسات بنشر عدد كبير من المعاجم المختص كل منها بأحد مواضيع المعرفة العلمية والتقنية ، واعتمدت في مادتها على جهود مصادر منوعة .

تنظيم توحيد المصطلحات :

وقد انشئت أربعة مجامع هي المجمع العلمي (ثم ابدل اسمه الى المجمع اللغوي) في دمشق (١٩٢٣) ومجمع اللغة العربية في القاهرة (١٩٣٤) والمجمع العلمي في بغداد (١٩٤٧) ، ومجمع اللغة العربية في عمان (١٩٧٨) ، وكانت أهدافها الاساسية العناية باللغة العربية وما يتصل بثقافتها ومن مهماتها الرئيسة معالجة المصطلحات وتعريبها ، وقد كرس كل منها جهوداً كبيرة في ذلك ، واستعانت بعدد من الخبراء المختصين للعمل مع أعضائها في تعريب المصطلحات . ونشر كل منها مقداراً كبيراً مما أعده في عدد من مواضيع المعرفة العلمية ، كما نشر في مطبوعاته أبحاثاً عن اعداد المصطلح العلمي تشرح طبيعة العمل وسبل تيسيره . وكان لمجمع اللغة العربية في القاهرة ، نصيب أوفى في مقدار ما أقره من مصطلحات في ميادين متعددة ، وبعض ذلك يرجع الى قدم تأسيسه ، أما المجمع العلمي العراقي فقد أعد مصطلحات في عدد غير

قليل من المواضيع ثم ركز جهوده على مصطلحات تسعة مواضيع هي : الرياضيات ، والفيزياء ، والهندسة ، والكيمياء ، والطب ، وعلوم الحياة ، والعلوم الزراعية ، وعلم النفس ، والتربية .

ان كافة هذه المجامع هي مؤسسات « رسمية حكومية » يضم كل منها أعضاء من العلماء والاساتذة الذين مارسوا البحث وأدركوا أهمية تعريب المصطلح ، ولهم اهتمامات متعددة تيسر التعاون بين المختصين بالعلوم والمختصين باللغة العربية ، وان قيامهم بالبحث والتدريس ييسر لهم استعمال المصطلحات المعربة التي يقرونها ، كما ان نشرها يتيح فرصة افادة عدد أكبر خارج المجمع .

غير ان المجامع ليست لها سلطات تلزم استعمالها ، فظل تطبيق استعمالها محدوداً غير عام ، وظلت بجانب ما أقرته مصطلحات يختارها أفراد الباحثين في كتبهم ، كما أن عدداً منهم ظل يستعمل المصطلحات الاجنبية دون المعربة ، ثم ان كثيراً من المجامع أعد كل منها مصطلحات في علوم معينة ، وأقر معربات يختلف بعضها عما أقرته المجامع الاخرى ، مما أدى الى تعدد المصطلحات للمدلول الواحد ، وزاد في هذا التعدد الجهود الفردية ، وقد سبب تكاثر المصطلحات المعربة ، وتعدد جهات اعدادها ونشرها ، واختلاف مدى تطبيقها ، تعقيدات غير قليلة .

وعندما تأسس اتحاد المجامع اللغوية في سنة ١٩٧٨ كان من واجباته الرئيسة تنسيق المصطلحات وتوحيدها ، غير ان ضخامة عدد هذه المصطلحات وقلة اجتماعات الاتحادات وقصر مدة كل اجتماع تعقده لم تيسر له تدقيق التنسيق على الوجه الاكمل ، فظل كثير مما أقره مثار اعتراض يعرقل تنفيذ تطبيقه ، ثم ان تعطل اجتماعاته في السنوات الاخيرة ، أدى الى التقليل من مقدار انجاز ما ينبغي عليه انجازه ، وتتابع اصدار المصطلحات ونشرها دون

اقرار اتحاد المجامع لها .

وانشأت المنظمة العربية للثقافة والعلوم والفنون مكتب تنسيق التعريب الذي اتخذ مقره في الرباط ، ونشر عدداً من المصطلحات المختصة في عـدة ميادين من العلوم ، كما نشرت دورية صدر منها ثلاثة وعشرون عدداً ضخماً فيه كثير من المصطلحات ، وابحاث لعدد منها علاقة باعداد المصطلح وضبطه ، ورعى المكتب عدداً من الندوات لاقرار المصطلحات ، ولكن ضيق مجـال توزيع مطبوعاته وافتقاره الى السلطة الملزمة ، وصعوبة تنظيم التعاون مـع المؤسسات الاخرى حدّد من أمر عمله .

وفي السنوات الاخيرة قامت عـدة مؤسسات في أوربـا باسـتعمال الحسّابات لجرد وتنسيق ما تم اعداده من المصطلحات . وتبذل جهود لاقامة مؤسسات تعمل على جمع هذه المصطلحات في خزين لتنظيم اعداد المصطلحات، بما يقدمه من قوائم شاملة بما تم انجازه من مصطلحات كل علم ، فتتـوفر الجهود وتتركز على الاختيار أكثر مما على الخلق والابداع .

غير انه سيبقى للجهد الفردي نصيب كبير في العمل ، فهو الذي يقدم المادة التي تغذي خزين الحسّابة ، ويتابع انماءها ويقرر اختيار ما هو الانسب والاصلح ، وبالسلطات التي تتوفر له يستطيع فرضها .

ان تعريب المصطلحات عمل واسع وأساسي في تثبيت اللغـة العربيـة السليمة في ميدان العلوم ، مما يحفظ انسجام الكيان الثقافي العربي ، وان ما أتمه الافراد والجماعات والمؤسسات جدير بالتقدير غير ان مما يلاحظ عليها :

١ ــ ان تطرّف بعض العاملين في تعريب المصطلحات العلميـة العربيـة في الاصرار على ايجاد مقابل عربي دقيق « جامع مانع » للمصطلح الاجنبي كثيراً مما يؤدي الى جهود مضنية وصرف وقت طويل كثيراً ما تكون

ثماره غير مستساغة لاغرابها أو جمودها •

٢ ـ ان كثيراً من القائمين بتعريب المصطلحات يفترضون شمول اللغة العربية وامكانية مفرداتها وخصائصها وضع مقابل عربي لكل مصطلح أجنبي ، مما يوقعهم في حرج خاصة عند معالجة المصطلحات الاجنبية الموضوعة بأسماء أشخاص أو بأسماء كيفية واعتباطية أو ما تعبر عن حقائق جديدة •

٣ ـ ان معظم العاملين في تعريب المصطلحات اعتمدوا كلياً على عدد من المعاجم العربية القديمة هي رغم دقتها وغناها ركزت اهتمامها بالدرجة الاولى على لغة بعض القبائل العربية التي ديارها في شبه جزيرة العرب ، أي انها افترضت اقتران العروبة الاصيلة بالبداوة ، وأغفلوا عن عمد تدوين المفردات المتداولة بين كثير من القبائل الاخرى ، وفي مناطق عديدة من الجزيرة ذاتها وبذلك لم يشمل مادونوه على كل ما كان مستعملاً في الجزيرة ، وانما على بعضه •

ثم ان هذه المعاجم لم تدخل كثيراً من المفردات التي شاعت بين العرب من أهل الحضر والامصار والمدن الاسلامية ، بالرغم من أن كثيراً من هذه المفردات عربية في اصولها وأشكالها وأبرز مظهر فيها انها لم تدخل كثيراً من التعابير المستعملة في ميادين العلوم الصرفة ولم تشر الى معانيها عند العلماء •

ومن حيث العموم فان المعاجم العربية « تراكيبية » وليست « تطورية » أي انها تضع مختلف معاني المفردات مع بعضها ، دون أن تشير الى أن كثيراً من هذا الاختلاف ناجم عن تنوع المعاني في مناطق متعددة ، أو تطورها على مر الزمن ، فهي تربط المفردات بحضارة واسعة

متطورة ، دون أن تشير الى علاقة معانيها بهذا التطور .

٤ ـ ان القائمين بتعريب المصطلحات أقاموا تنظيم عملهم على أساس مجموعات المصطلحات الاجنبية ومعاجمها ؛ أي انهم افترضوا شمول اللغات الغربية وتفوقها ، فكانت جهودهم خدمة تلك اللغات بعمل مقابلات عربية لتلك المعاجم .

وقد أغفل معظم القائمين بتعريب المصطلحات دراسة المفردات الموجودة في الكتب التراثية العربية والتي يمكن الافادة من كثير منها للتعبير عن المصطلحات الحديثة ، اذ في كتب التراث العربي العلمية ثروة كبيرة من المفردات ، التي يمكن جمعها من جرد تلك الكتب ، والحق ان عدداً من الكتب التراثية المنشورة حديثاً يلحق فيها ناشروها قائمة بالمفردات التي وردت فيها ، ويضعون أحياناً مقابلها الاجنبي ، وفيها كثير مما يفيد في ميادين علم النفس ، والادوية والمنتوجات الزراعية والحيوانية والمعدنية وما يتصل بالطب والاجتماع والاقتصاد وتدعو الى الاهتمام بالاستزادة من طبعها وجرد مفرداتها للافادة منها .

العرض واسلوب الكتابة :

ان استعمال اللغة العربية في تدوين ونشر الابحاث أمر مسلّم به ولا يعطله ما تقتضيه الاحوال الخاصة من تدوين عدد قليل من الابحاث بلغة أجنبية أو العناية بتعلم الباحثين لغة ثانية أجنبية لغرض الافادة منها في قراءة المصادر والمراجع ومتابعة التقدم الفكري ، غير ان العناية بكلا الامرين ينبغي ألا يصل الى تحديد استعمال العربية .

واللغة العربية ، شأن أية لغة اخرى ، تشمل المفردات والتراكيب ، وقد بحثنا من قبل في المفردات فلابد من الكلام عن التراكيب التي لم تحظ بالاهتمام الذي يناسبها في الكتابة السليمة . والتراكيب ، تشمل شكل الكلمة

وتنظيم وضعها في الجملة التي هي مجموعة كلمات مترابطة بنظام أو نسق معين يعين على فهمها بأقل جهد عقلي ، وهذا لا يتم الا اذا كان تنظيم صياغة الجملة يسير على نمط مألوف للقارىء .

للنحو مكانة أساسية في تحديد المقصود بعدد كبير من الكلمات ، فانه يحدد الدلالة على زمن الفعل في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، وهوية الفاعل في كتابة أكتب ، وأكتب . ولذلك فانه أساسي في تحديد الكلام. ومن أسباب عدم اتقان مراعاة قواعد النحو هو تعدد أشكالها في اللغة العربية ، والتركيز على تعليم « علم النحو » بما فيه من تعليلات وافتراضات ومصطلحات وتعقد يباعده عن اتقان اللغة ، وهناك ادراك عام بقصور مادة وطرق تدريس العربية في تحقيق الهدف منها ، كانت مبعثاً لدراسات متعددة عرضت فيها أفكار بعضها سليمة ، ولكن قليلاً منها أخذ طريقه الى التنفيذ ، وبقيت الحاجة الى معالجة ناجحة تمكن الكاتب من عرض معلوماته على النمط العام المقرر في الكتابة. وقامت بعض المؤسسات بعرض الكتابة على خبراء في اللغة لاصلاحها واقامة ما اعوجّ منها ، ولكن هذا العلاج المفيد مكلف وضيق ، ولابد ان يعتبر وقتياً ، ليحل محله اتقان الكاتب لهذه القواعد وتطبيقها في الكتابة .

ولما كانت قواعد النحو قائمة على صلب اللغة ومرتبطة بها ، فان تعلم أسسه يتم سماعاً في البيت وفي المجتمع ، غير ان تعدد أشكاله في اللغة العربية دفع الكثيرين الى عدم التدقيق فيه والاقتصار على تسكين أواخر الكلمات والتساهل في ضبطها ، وكان هذا التبسيط أبرز مظاهرها فيه ، وقد تعددت أشكاله وأحواله ومداه ، ولكنه ظل محلياً وبعيداً عن النسق العام المقبول عند الغالبية منذ أقدم الازمنة والى ما شاء الله ، غير ان هذه العامية لم تكن قط مقبولة ، وظلت مستهجنة حتى عند من يستعملها .

فاستعمال اللغة العربية السليمة في الكتابة لا يختلف فيها أحد ، ولكن

تسلل العامية كان قوياً لدرجة يتطلب علاجاً لتقليصه واجتثاثه .

عولج هذا العيب بادخال تدريس النحو في المدارس في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وامتد في بعض المؤسسات الى السنوات الاولى من مرحلة ما بعد الثانوية . غير ان هذا لم يفلح في تحقيق الغرض منه ، ولم يؤد الى اتقان مراعاة القواعد ، خاصة عند المختصين بدراسة العلوم ممن تتطلب دراستهم الانصراف الى العلوم ، دون قراءة نماذج الكتابة العربية .

ذكرنا ان لكل لغة نظاماً تترتب فيه الكلمات في الجمل ترتيباً معيناً تبعاً لعلاقاتها مع بعضها بما يؤمن الوضوح والتسلسل المنطقي في العرض مما ييسر للقارىء فهم ما يكتب بأقل جهد عقلي . وتختلف اللغات في تنظيم جملها تبعاً لطبيعة تركيبها ، ويثبت هذا التنظيم بالممارسة والتدقيق ، وللغة العربية خصائص تتحكم في الكتابة ، منها ان الجملة تبدأ عادة بالفعل الماضي للفاعل الغائب ، وفيها ثلاث صيغ : المفرد والمثنى والجمع ، وهي لا تشترط استعمال فعل الكينونة ، وتكثر فيها حروف الربط ، ولكل حرف معناه المحدد . وقد راعى الكتاب بالعربية هذا النظام واتبعوه ، بصورة عامة ، واعتبروا البلاغة في الوضوح أي في اتباع هذا النظام الذي يتطلب البساطة في التركيب الذي يراعي خصائص اللغة العربية .

ان لاسلوب الكتابة أهمية بالغة في فهم ما يكتب ، ولابد ان يعني به الكاتب اذا أراد أن يعرف الناس ما يقول ويفهموا ما يكتب ، غير ان عدداً من الباحثين المتعمقين كثيراً ما يعنون بتدوين الافكار دون العناية بصياغتها وكتابتها بالطريقة التي ألفها الناس في اللغة العربية ، ومنهم عدد غير قليل يتأثر في اسلوب كتابة الاجانب ، وهي منوعة فيعرض أفكاره على نمط ما يكتب فيها ، وتكون كتابته نشازاً غريباً غير مألوف للقارىء العربي ، ويتطلب الجهد لفهمه ، وقد يباعده ذلك عن الدقة .

ان الكتابة بالاسلوب الواضح المقبول ذات أهمية أساسية للبحث الذي يراد من نشره أن يستفيد منه القارىء ، وهو يعين على توضيح الافكار وفهم الناس لها ، ومصدره وضوح الفكرة عند الكاتب ، وادراكه « منطق » تنظيم اللغة ، وهذا يتم باطلاعه على أساليب الكتابة وتفهمها ، تلك الاساليب التي منها نماذج رائعة من التراث جديرة بأن يطلع عليها الكاتب ويراعيها ، والواقع ان صدوف الكثيرين عن قراء الكتب العلمية لا يرجع الى غرابة مادتها ، وانما الى الخلل في اسلوب عرضها •

ومما يتصل بالكتابة مراعاة تحديد الجمل واستعمال علامات الفصل من فارزات ونقط ، فانها تعين كثيراً على توضيح الاسلوب ومنهم المكتوب ، ومسؤولية مراعاتها تقع على الكاتب لان من يقوم بالطباعة ينقل ما يكتب فحسب •

